رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

موسوعة غزوات الرسول

صلى الله عليه وسلم

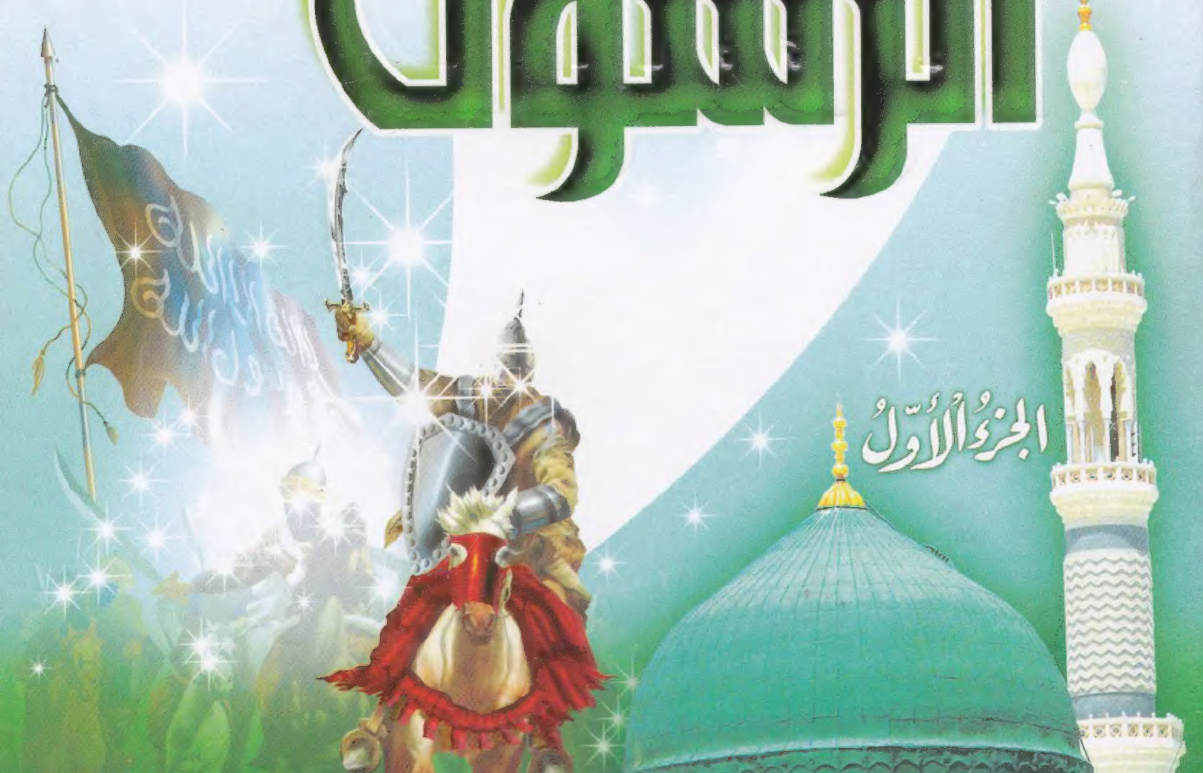

الجزء الأول

فضيلة الشيخ الدكتور
محمود المصري أبو عمار

مكتبة الصفا
للنشر والتوزيع

ضياء سعيدة

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

موسوعة

غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم

فضيلة الشيخ الدكتور

محمود المصري أبو عمار

الجزء الأول

مكتبة الصفا للنشر والتوزيع
تليفون ٢٥١٤٧٣٢٠ - تليفاكس ٢٥١٤٧٩٧٤

بسم الله الرحمن الرحيم

ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم

حقوق الطبع محفوظة

١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م

رقم الإيداع: ٢٠١٣/٤٩٧٦

الترقيم الدولي: 978-977-6430-48-08

مكتبة الصفا للنشر والتوزيع

أولاد الحاج عويس أمين صالح

١٢٧ ميدان الأزهر، أمام الجامع الأزهر، القاهرة ت ٢٥١٤٧٣٢٠

١ درب الأتراك، خلف الجامع الأزهر ت ٠١٠١٤٣١١١٤ تليفاكس ٢٥١٤٧٩٧٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اتبعه بإحسان إلى يوم الدين، فمازال فضل الله العظيم الكريم يتوالَى علينا بالتوفيق لإخراج ونشر الكتب النافعة، المبينة لشرع ربنا تبارك وتعالى، فقد مَنَّ علينا سبحانه بالتوفيق لإخراج عدة طبعات جديدة للمصحف الشريف، حرصنا فيها على غاية الإتقان فى جميع ما يتعلق بها.

كما وفقنا لإخراج كتب تفسير كتاب الله العزيز، سواء كان كاملًا، أو مفرقًا على هيئة سورة تلو السورة، أو مجموعة سور، أو موضوع تلو موضوع، كآيات الأحكام وغير ذلك من العلوم المتعلقة بالكتاب العزيز، كما وفقنا لإخراج كتب الحديث النبوى الشريف والتى عليها قوام هذا الدين وهى بيان وتفسير لكتاب الله العزيز، والتى قام بها الجهابذة الأولون من سلفنا الصالح علماء الحديث، الذين وفقهم الله عز وجل لتوصيل الدين وتبليغه كتابًا وسنة، قولًا وفعلًا، نصًّا وفهمًا وعملًا.

وقد أخرجنا بفضل الله عدة كتب كموطأ الإمام مالك، وصحيحى الإمام البخارى ومسلم، وسير أعلام النبلاء، وفتح البارى بشرح صحيح البخارى، وشرح صحيح مسلم وغيرها من الكتب المتضمنة لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم رواية ودراية، وشرحًا وبيانًا.

وأيضًا وفقنا لإخراج كتب العلوم الشرعية التى تخدم الكتاب والسنة

بشتى الأشكال. والتى قام بها من تبع الأولين بإحسان لبيان مراد الله ﷻ فى كتابه وسنة رسوله ﷺ، فى صور شتى ما بين المطول والمختصر- رحمنا الله وإياهم وغفر لنا ولهم، وأحسن إلينا وإليهم.

ويسرنا اليوم أن نقدم هذا الكتاب الذى بين يديك أخى القارئ وهو كتاب: «**موسوعة غزوات الرسول** ﷺ»، وهو إضافة جديدة لإصداراتنا والتى نرجو من الله ﷻ أن يتقبلها منا قبولًا حسنًا، وأن ينفع بها الإسلام والمسلمين.

إنه نعم المولى ونعم النصير.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مكتبة الصفا

جعلها الله منارًا لخدمة العلم والدين

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

بين يدى الكتاب

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢)﴾[١].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)﴾[٢].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)﴾[٣].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدى هدى محمد ﷺ، وشر الأمور مُحدثاتها، وكل مُحدثة بدعة وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار.

أما بعد:

۞ فلقد جاء النبى ﷺ برسالة الإسلام والسلام إلى الكون كله وبذل ما فى وسعه من أجل نشر عقيدة الإسلام بالحب والرفق والرحمة والسلام... وصبر على أذى المشركين سنوات طويلة.. بل وأطفأ نيران الحروب التى

(١) سورة آل عمران: الآية (١٠٢).

(٢) سورة النساء: الآية (١).

(٣) سورة الأحزاب: الآيتان (٧٠، ٧١).

دامت أكثر من أربعين سنة بين الأوس والخزرج.

ولم يلجأ النبى ﷺ إلى الحروب والغزوات إلا بعد أن حالت قريش بينه وبين نشر دعوته وآذته وآذت أصحابه ودبرت المؤامرات تلو المؤامرات لقتله ولهدم دعوته، وللصدِّ عن سبيل الله (جلَّ وعلا)... وهنا جاء الإذن من عند الخالق (جلَّ وعلا) للنبى ﷺ وأصحابه بالجهاد من أجل نشر هذا الدين العظيم بين العالمين.

ومع ذلك كانت غزوات الرسول ﷺ مُعطرة بأخلاق النبوة.. ممزوجة بالرحمة والشفقة... لم تفارقها أخلاق النبوة لحظة واحدة... فالنبى ﷺ ما جاء ليقتل الناس، وإنما أرسله الله رحمة للعالمين ليأخذ بأيديهم جميعًا إلى جنة الرحمن التى فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

۞ وها أنا أعرض لحضراتكم فى هذا الكتاب صورة مشرقة لغزوات الرسول ﷺ، كلها من أولها لآخرها.. وذلك لنتعلم من خلالها كيف كانت أخلاق الحبيب ﷺ فى السلم والحرب.. وكيف كانت أخلاقه قبل الحرب وأثناء الحرب وبعد الحرب..؟ وكيف كانت أخلاقه عند النصر وعند الهزيمة...؟ وكيف كانت رحمته بالأسرى؟

۞ إنها رسالة لكل مسلم يريد أن يتعلم كيف يكون قائدًا قويًّا ورحيمًا فى آنٍ واحدٍ.

۞ وهى أيضًا رسالة يجد فيها القائد المحارب من خلال سيرة النبى ﷺ وغزواته نظامًا محكمًا، ومنهجًا دقيقًا فى فنون قيادة الجيوش والقبائل والشعوب والأمة، فيجد نماذج فى التخطيط واضحة، ودقة فى التنفيذ بيِّنة،

وحرصًا على تجسيد مبادئ العدل وإقامة قواعد الشورى بين الجند والأمراء والراعى والرعية... ويتعلم منها السياسى كيف كان ﷺ يتعامل مع أشد خصومه السياسيين المنحرفين، كرئيس المنافقين عبد الله بن أُبى ابن سلول الذى أظهر الإسلام وأبطن الكفر والبغض لرسول الله ﷺ، وكيف كان يدبر المؤامرات وينشر الإشاعات التى تسيئ إلى رسول الله ﷺ لإضعافه وتنفير الناس منه، وكيف عامله ﷺ، وصبر عليه وعلى حقده، حتى ظهرت حقيقته للناس فنبذوه جميعًا حتى أقرب الناس له، وكرهوه والتفوا حول قيادة النبى ﷺ.

۞ ويجد العلماء فيها ما يُعينهم على فهم كتاب الله تعالى؛ لأنها هى المفسرة للقرآن الكريم في الجانب العملى، ففيها أسباب النزول، وتفسير لكثير من الآيات فتعينهم على فهمها، والاستنباط منها، ومعايشة أحداثها، فيستخرجون أحكامها الشرعية، وأصول السياسة الشرعية، ويحصلون منها على المعارف الصحيحة فى علوم الإسلام المختلفة، وبها يدركون الناسخ والمنسوخ وغيرها من العلوم، وبذلك يتذوقون روح الإسلام ومقاصده السامية... ويجد فيها الزُّهَّاد معانى الزهد وحقيقته ومقصده، ويستقى منها التجار مقاصد التجارة وأنظمتها وطرقها، ويتعلم منها المبتلون أسمى درجات الصبر والثبات، فتقوى عزائمهم على السير فى طريق دعوة الإسلام وتعظم ثقتهم بالله ﷻ، ويوقنوا أنَّ العاقبة للمتقين(١).

وتتعلم منها الأمة الآداب الرفيعة، والأخلاق الحميدة، والعقائد السليمة، والعبادة الصحيحة، وسُمو الأخلاق، وطهارة القلب، وحب

---

(١) انظر: مدخل لدراسة السيرة/ د. يحيى اليحيى (ص١٤).

الجهاد فى سبيل الله، وطلب الشهادة فى سبيله؛ ولهذا قال على بن الحسن: «كنا نُعلَّم مغازى النبى ﷺ كما نُعلَّم السورة من القرآن» سمعت محمد بن عبد الله يقول: سمعت عمى الزهرى يقول: «فى علم المغازى علم الآخرة والدنيا»(١).

وقال إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبى وقاص: «كان أبى يعلمنا مغازى رسول الله ﷺ يعدها علينا ويقول: هذه مآثر آبائكم فلا تضيعوا ذكرها»(٢).

۞ فتعالوا بنا لنتعايش بقلوبنا وأرواحنا مع «موسوعة غزوات الرسول ﷺ» عسى أن تكون حاديًا لنا؛ لأن نبذل أنفسنا وأموالنا لرفع الذل عن الأمة المسلمة فى كل زمان ومكان.

۞ ولقد ذكرت تلك الغزوات فى كتاب «سيرة الرسول ﷺ» ولكنى ذكرتها هنا بشيء من التوسع والتفصيل سائلًا ربى ﷻ أن ينفعكم بها وأن يجعلها فى ميزان حسناتى يوم أُدرج فى أكفانى.

وصلى الله على نبينا وحبيبنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

وكتبه الفقير إلى عفو الرحيم الغفار

محمود المصري أبو عمار

---

(١) البداية والنهاية: لابن كثير (٣/ ٢٥٦-٢٥٧).

(٢) انظر: البداية والنهاية (٢/ ٢٤٢)

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

۞ الإسلام دين السلام.

۞ الرحمة فى الحروب النبوية.

۞ الدستور الأخلاقى للحرب فى الإسلام.

۞ أخلاق الرسول ﷺ فى الحروب.

۞ من أهداف الجهاد فى سبيل الله تعالى.

۞ شُبهات حول جهاد النبى ﷺ وأصحابه.

۞ سُنة التدافع ومراحل تشريع القتال.

الإسلام دين السلام(١)

۞ لا بد أن نعلم أن الإسلام يُرغب فى السلام ويحرص عليه، ويدعو إليه، ويعتبره هدفًا أصيلًا لدعوته كما يتجلَّى ذلك فى تعاليمه وأحكامه وآدابه.

وهو أيضًا يكره الحرب، ويُنفر منها، ويحرص على أن يتفاداها ما استطاع، وإذا وقعت حاول أن يُضيِّق دائرتها، وأن يُقلِّل خسائرها، ويُخفِّف من آثارها، ما وجد إلى ذلك سبيلًا.

(١) الإسلام والسلام من مادة واحدة:

فالإسلام والسلام - أو السلم- من الناحية اللُّغوية مشتقان من مادة واحدة، هي: (س ل م)، وقد قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾(٢)، وقد فُسِّرت كلمة ﴿ٱلسِّلْمِ﴾ فى الآية بـ(السلام) المقابل للحرب، كما يفيدها ظاهرها، وبهذا تكون الآية دعوة للمؤمنين أن يدخلوا فى السلام جميعًا، ولا يُعرضوا عنه إذا دُعوا إليه وفُسِّرت أيضًا كلمة ﴿ٱلسِّلْمِ﴾ بـ(الإسلام)، أي: ادخلوا فى شُعَب الإسلام كافَّة: عقائده وعباداته ومعاملاته وأخلاقياته وتشريعاته، فتدخلوا بذلك فى السلم الحقيقى، السلْم مع أنفسكم، ومع أُسركم، ومع مجتمعاتكم، ومع الناس كافَّة.

(٢) إشاعة كلمة السلام فى المجتمع وجعله تحية الإسلام:

ومن روائع التوجيه والتربية هنا: أنَّ الإسلام يُحبِّب إلى المسلم كلمة

(١) بتصرف من كتاب (فقه الجهاد) للدكتور يوسف القرضاوى.

(٢) سورة البقرة: الآية: (٢٠٨).

السلام، ومفهوم السلام بأساليب شتَّى، لا توجد فى دينٍ آخر، أو أيديولوجية أخرى.

فالسلام من أسماء الله تعالى الحُسنى، التى يدعو المسلم ربَّه بها، ويتقرَّب إلى الله بذكرها، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾(١).

والمسلم يقرأ فى القرآن: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾(٢).

والمسلمون هم الأمة الوحيدة التى يوجد فيها اسم (عبد السلام) أي: عبد الله.

والجنة التى يتوقُ إليها كلُّ مؤمن، ويعمل حثيثًا ليكون من أهلها، تُسمَّى (دار السلام)، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(٣).

وأكثر ما يُسمع فى هذه الجنة: كلمة السلام، فهى تحيَّة المؤمنين فى الآخرة: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾(٤)، ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾(٥)، ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾(٦).

وكما أنَّ السلام تحية المؤمنين فى الآخرة، فهو تحيتهم فى الدنيا: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. و(إفشاء السلام) من أفضل خصال الإسلام.

---

(١) سورة الأعراف: الآية: (١٨٠).

(٢) سورة الحشر: الآية: (٢٣).

(٣) سورة الأنعام: الآية: (١٢٧).

(٤) سورة الأحزاب: الآية: (٤٤).

(٥) سورة يونس: الآية: (١٠).

(٦) سورة الواقعة: الآيتان: (٢٥-٢٦).

وقد جاء في جملة أحاديث: «**أَفشُوا السَّلَام**»(١).

والمُسلم إذا جلس في صلاته للتشهُّد: يُلقى السلام على نبيه محمد، وعلى نفسه وأُمته: «**السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته، السَّلام علينا وعلى عباد الله الصَّالحين**»(٢). ثم يخرج من الصلاة: بإلقاء تحية السلام عن يمينه وعن يساره، إيذانًا بأنه كان في الصلاة في حالة سلام، فإذا انصرف من الصلاة استقبل الناس والحياة من حوله بالسلام. فهو سلام في عبادته، سلام في معاملته.

(٣) المسلم لا يتمنَّى الحرب ويسأل الله العافية:

والمسلم لا يتمنَّى الحرب ولا يحرص عليها لذاتها، بل يتمنَّى السلام والعافية، ولكن إذا فُرضت عليه الحرب في سبيل الله خاضها بقوة وجسارة وصبر، مُوقنًا أنَّ له إحدى الحُسنيين: النصر أو الشهادة.

يقول تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ﴾(٣).

ويقول النبى ﷺ فيما رواه عنه عبد الله بن أبى أوفى: «لاَ تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ»(٤).

(١) صحيح: رواه مسلم (٥٤) كتاب الإيمان.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٨٣١) كتاب الأذان، ومسلم (٤٠٢) كتاب الصلاة.

(٣) سورة البقرة: الآية: (٢١٦).

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٢٩٦٦) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٧٤٢) كتاب الجهاد والسير.

(٤) ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ ودلالة الآية على حبِّ السِّلم:

والقرآن يُعقِّب على غزوة الأحزاب، التى هاجمت جموع المشركين فيها من قريش وغَطَفَان وأحابيشهما: الرسول والمؤمنين معه فى عقر دارهم بالمدينة بأعداد هائلة، يبتغون إبادتهم وتصفيتهم جسديًّا وماديًّا، حتى لا تبقى لهم باقية. لولا أنَّ عين الله لم تغفل عن النبى ﷺ وأصحابه، ويده سبحانه لم تتركهم وحدهم، ولا سيما أنَّ يهود بنى قريظة انضمُّوا إلى المُهاجمين، ونقضوا عهد الرسول فى أحلك الأوقات وأحوجها إلى مساعدتهم:

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾[١].

والمقصود هنا: ما عقَّب به القرآن على هذه الغزوة حين قال: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾[٢].

فانظر إلى هذه الكلمة المُعبِّرة: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾، يذكرها تعالى فى معرض الإنعام والامتنان على النبى والمؤمنين: أنَّ المعركة انتهت بغير قتال، وبغير دماء، فقد كفى الله المؤمنين القتال. وهى نعمةٌ جليلةٌ تستحقُّ الشكر لله تعالى. ولا يتصوَّر أن يقول هذا دينٌ يتعطَّش للقتال، وإراقة الدماء.

---

(١) سورة الأحزاب: الآيات: (٩-١١).

(٢) سورة الأحزاب: الآية: (٢٥).

(٥) القرآن يُسمى صلح الحديبية: ﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾:

وفى غزوة الحديبية التى بايع الصحابة فيها رسول الله ﷺ، على الموت، أي: القتال حتى الموت، وعدم الاستسلام بحال، ثم شاء الله تعالى أن يتفاوض المسلمون والمشركون، وأن ينتهوا إلى الصلح المعروف بـ(صلح الحديبية) والذى يتضمَّن هدنة مدَّتها عشر سنوات، تُغمد فيها السيوف، ويكفُّ كل فريق يده عن الآخر: ينزل هنا قرآن يُتلى، يُسمِّى هذه الهدنة أو هذا الصُّلح: ﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾، وتنزل فى ذلك سورة تُسمَّى سورة (الفتح)، تبدأ بقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾[(١)]، ويسأل أحد الصحابة رسول الله ﷺ: أفتحٌ هو يا رسول الله؟ فيقول: «**نعم هو فتح**»[(٢)]. استبعدوا أن يكون فتح بغير حرب، ولكن الله تعالى سمَّاه فتحًا، بل فتحًا مبينًا، وامتنَّ به على رسوله عليه الصلاة والسلام، وأنزل فى ذلك سورة سُمِّيت (سورة الفتح).

وقال تعالى فى هذه السورة مُمْتنًّا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾[(٣)]، فهو هنا لا يمتنُّ بكفِّ أيدى المشركين عن المؤمنين فقط، بل يمتنُّ أيضًا بكف أيدى المؤمنين عن المشركين أيضًا: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾، فهذا هو التعبير الحقيقى عن حُبِّ السلام الذى يسود الطرفين معًا.

وإذا اضطر المسلمون أن يخوضوا معركة فُرضت عليهم، فإنَّهم مأمورون أن يُقلِّلوا من خسائرها البشرية والمادية ما أمكنهم، فلا يقتلون إلا مَن يقاتل: لا يقتلون امرأة ولا طفلًا، ولا شيخًا فانيًا، ولا راهبًا، ولا فلَّاحًا،

(١) سورة الفتح: الآية: (١).

(٢) رواه أحمد فى المسند (١٥٤٧٠)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف.

(٣) سورة الفتح: الآية: (٢٤).

ولا تاجرًا، إنما يقتلون مَن يقاتل فحسب. كما أنهم لا يقطعون شجرًا، ولا يهدمون بناءً، ولا يفسدون فى الأرض، ولا يقومون إلا بما تقتضيه ضرورة الحرب، وللضرورات أحكامها، وهى تُقدَّر بقدرها. فقد قيَّد القرآن ارتكاب الضرورة بعدم البغي والعدوان، حين قال بعد تحريم أكل الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهلَّ به لغير الله: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

(٦) الجنوح لدعوة السِّلم إذا جَنَحَ العدوُّ إليها :

ومع هذا كلِّه يأمر القرآن المسلمين أن يستجيبوا لدعوة السلم إذا دُعُوا لها، ولو بعد وقوع الحرب، واشتعال وقودها، يقول تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

حتى مع احتمال إرادة الخداع منهم، لا ينبغى أن تُرفض دعوة السِّلم بإطلاق، وإنما يجب أن نجنح لها كما جَنَحوا، على أن يتمَّ ذلك بشروطه وضوابطه الشرعيَّة.

وهذا ما طبَّقه الرسول ﷺ بالفعل، حين جنحت قريش إلى السلم يوم الحديبية، ولم يكن ذلك عن ضعفٍ منه، ولا تقاعس من أصحابه، فقد بايعوه على الموت، ولكنه جنح للسلم، حين لمس من خصومه الجنوح إليها، فكان الصُّلح الشهير، والصُّلح خير، وقد تحقَّق من ورائه خير كثير لدعوة الإسلام، ودخل الكثيرون من القُرشيين فى دين الله، من أمثال خالد ابن الوليد وعمرو بن العاص، وغيرهما.

---

(١) سورة البقرة: الآية: (١٧٣).

(٢) سورة الأنفال: الآيتان: (٦١-٦٢).

(٧) كراهة التسمية بـ(حرب):

ومن دلائل حرص الإسلام على السلم، ونفوره من الحرب: هذا الحديث النبوى الذى يقول: «**أَحَبُّ الأَسْمَاءِ إِلَى اللهِ: عَبْدُ اللهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَأَصْدَقُ الأَسْمَاءِ حَارِثٌ وَهَمَّامٌ، وأَقْبَحُ الأَسْمَاءِ حَرْبٌ وَمُرَّةَ**»(١).

(٨) ثلث العام هدنة إجباريَّة:

ومن حرص الإسلام على السِّلم: أنَّه فَرَض على المُسلمين هُدنة إجباريَّة يمتنعون فيها عن القتال لمدَّة أربعة أشهر، أي: ثلث العام، وهى الأشهر المعروفة بـ(الأشهر الحُرم) وهي: ذو القعدة وذو الحِجَّة ومحرم ورجب: ثلاثة سرد، وواحد فرد. أي: ثلاثة متتابعة، وواحد منفرد عنها.

قال تعالى فى سورة المائدة، وهى من أواخر ما نزل من القرآن: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ ﴾(٢).

ولكن إذا قوتل المسلمون فى الشهر الحرام قاتلوا فيه ردًّا للعدوان، وتأديبًا للمُعتدين، حتى لا يجترئوا على المُسلمين، مُستغلِّين تعظيمهم للشهر الحرام... يقول تعالى: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾(٣).

(٩) الحجُّ تدريبٌ للمسلم على السلام:

ومن عناية الإسلام بالسلام: أنَّه فرض على كُلِّ مسلم فى العمر مرة عبادة خاصة، وهى حجُّ البيت الحرام، وهى عبادة يتدرَّب المسلم فيها على

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود (٤١٤٠).

(٢) سورة المائدة: الآية: (٢).

(٣) سورة البقرة: الآية: (١٩٤).

السلام، فهى تتمُّ عادة فى الشهر الحرام فى ذى الحِجَّة، وفى البلد الحرام مكة المكرمة، وفى حالة الإحرام، فتحوطه حُرمة الزمان، وحُرمة المكان، وحُرمة الحال، حال الإحرام، الذى يحظر عليه فيه كلَّ قتل حتى قتل الصيد، كما قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ ﴾[1].

فالمُسلمُ فى هذه الرحلة: سلامٌ لكلِّ مَنْ حوله، وكلِّ ما حوله، حتى الصيد يمتنع من صيده وقتله، بل حتى الأشجار والحشائش يُحرِّم عليه أن يقطعها.

وكل مسلم عليه أن يقوم برحلة السلام هذه مَرَّة فى عمره فرضًا من الله، وله أن يحجَّ ويعتمر تطوعًا ما يسَّر الله له ذلك، ابتغاءَ مرضاة الله.

(١) سورة المائدة: الآية: (٩٥).

الرحمة فى الحروب النبوية(١)

وسيتم - إن شاء الله -تناول هذا الخلق من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: رحمته ﷺ بالصغار:

لقد كانت قاعدة عامة فى حروبه ﷺ: أنه لا يقتل أبدًا الأطفال فى معاركه.

سُئِل ابن عباس رضي الله عنهما عَنْ قَتْلِ الْوِلْدَانِ فَقَالَ للسَّائِلِ: «إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمْ يَقْتُلْهُمْ، وَأَنْتَ فَلَا تَقْتُلْهُمْ؛ إِلَّا أَنْ تَعْلَمَ مِنْهُمْ مَا عَلِمَ صَاحِبُ مُوسَى(٢) مِنَ الْغُلَامِ الَّذِى قَتَلَهُ»(٣).

وكان رسول الله ﷺ يحرص على أن يوصى قادة الجُند بالتَّقوى ومراقبة الله عز وجل ليدفعه إلى الالتزام بأخلاق الحروب، وبالرحمة فى المعاملات حتى فى غياب الرقابة البشرية عليه، ولم يكن يكتفى بذلك بل كان يأمر أوامر مباشرة بتجنب قتل الولدان(٤).

يقُولُ بُرَيْدَةُ رضي الله عنه: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ، أَوْ سَرِيَّةٍ، أَوْصَاهُ فِى خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللهِ، وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، وكان مما يقولُهُ: «... **وَلا تَقْتُلُوا وَلِيدًا**... »(٥).

وفى رواية أبى داود يقول رسول الله ﷺ: « وَلاَ تَقْتُلُوا شَيْخًا فَانِيًا وَلاَ طِفْلًا

---

(١) بتصرف من كتاب (أخلاق الحروب فى السنة النبوية) د. راغب السرجانى.

(٢) أي: الخضر عليه السلام.

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٨١٢) كتاب الجهاد والسير، ومن المستحيل أن يعلم أحدٌ ما علمه الخضر عليه السلام، وهذا يعني النهى التامَّ عن قتل الولدان.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية (١/ ٣٣٧)، وابن حبان: السيرة النبوية (١/ ٣٤٦)، وابن هشام: السيرة النبوية (٥/ ١٢٧)، والسهيلي: الروض الأنف (١/ ٣٩٥).

(٥) صحيح: رواه مسلم (١٧٣١) كتاب الجهاد والسير.

وَلاَ صَغِيرًا وَلاَ امْرَأَةً وَلاَ تَغُلُّوا وَضُمُّوا غَنَائِمَكُمْ وَأَصْلِحُوا وَأَحْسِنُوا؛ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ»(١).

فانظر -رحمك الله- إلى النَّصائح الرقيقة الرفيقة التى يوجهها رَسُول الله ﷺ إلى قائدٍ يذهب إلى قتال عدوِّه، ثُمَّ هو فى النهاية يأمره بأعلى درجات الخير، وهى درجة الإحسان، فيقول: « وَأَحْسِنُوا؛ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ »، فهذا هو سلوكه ﷺ مع أعدائه!!

ويروى الأَسْوَدُ بنُ سَرِيع رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ بَعَثَ سَرِيَّةً يَوْمَ حُنَيْنٍ فَقَاتَلُوا الْمُشْرِكِينَ فَأَفْضَى بِهِمُ الْقَتْلُ إِلَى الذُّرِّيَّةِ(٢) فَلَمَّا جَاءُوا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا حَمَلَكُمْ عَلَى قَتْلِ الذُّرِّيَّةِ ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّمَا كَانُوا أَوْلاَدَ الْمُشْرِكِينَ قَالَ: «أَوَهَلْ خِيَارُكُمْ إِلاَّ أَوْلاَدُ الْمُشْرِكِينَ؟ وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا مِنْ نَسَمَةٍ تُولَدُ إِلاَّ عَلَى الْفِطْرَةِ حَتَّى يُعْرِبَ عَنْهَا لِسَانُهَا»(٣).

ففى هذا الموقف الفريد لا يكتفى رَسُول الله ﷺ بفصل ملف الأطفال عن قضية آبائهم المشركين المقاتلين، بل إنه يرفع من قدرهم ليستدرَّ رحمة جنوده عليهم، فيذكر أنَّ عُظماء المُسلمين ما كانوا إلا أولاد مشركين! وإلَّا فمن هم آباء عمر وخالد وأبو حذيفة وعكرمة وغيرهم وغيرهم؟!

بل كان رسول الله ﷺ يتجاوز الرحمة بعموم الغلمان والصغار إلى أولئك الذين أتوا لحرب المسلمين، أو لمعاونة سادتهم فى الحرب، رغم أن تلك المعاونة هى من صميم أعمال الحرب، لكنه ﷺ كان يرحم طفولتهم؛

(١) رواه أبو داود، وابن أبى شيبة، والبيهقى فى سننه الكبرى.

(٢) أي: الأطفال.

(٣) صحيح: رواه أحمد، والحاكم، وعبد الرزاق، والبيهقى، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٤٠٢).

ففى أحداث غزوة بدر ذكر ابن إسحاق أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ عَلِى بْنَ أَبِى طَالِبٍ، وَالزّبَيْرَ بْنَ الْعَوّامِ، وَسَعْدَ بْنَ أَبِى وَقّاصٍ، فِى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ إلَى مَاءِ بَدْرٍ يَلْتَمِسُونَ الْخبَرَ لَهُ عَلَيْهِ - أي: على الماء- فَأَصَابُوا رَاوِيَةً لِقُرَيْشٍ فِيهَا أَسْلَمَ، غُلَامُ بَنِى الْحَجّاجِ وَعَرِيضٌ أَبُو يَسَارٍ، غُلَامُ بَنِى الْعَاصِ بْنِ سَعِيدٍ فَأَتَوْا بِهِمَا فَسَأَلُوهُمَا، وَرَسُولُ اللّهِ ﷺ قَائِمٌ يُصَلّى، فَقَالَا: نَحْنُ سُقَاةُ قُرَيْشٍ، بَعَثُونَا نَسْقِيهِمْ مِن الْمَاءِ. فَكَرِهَ الْقَوْمُ خبَرَهُمَا، وَرَجَوْا أَنْ يَكُونَا لِأَبِى سُفْيَانَ فَضَرَبُوهُمَا. فَقَالَا: نَحْنُ لِأَبِى سُفْيَانَ فتَرَكُوهُمَا. وَرَكَعَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ وَسَجَدَ سَجْدَتَيْهِ ثُمّ سَلّمَ وَقَالَ: «**إذَا صَدَقَاكُمْ ضَرَبْتُمُوهُمَا، وَإِذَا كَذَبَاكُمْ تَرَكْتُمُوهُمَا؟! صَدَقَا، وَاَللّهِ إنّهُمَا لِقُرَيْشٍ**» ثُمَّ خاطب ﷺ الغلامين بلينٍ ورفقٍ قائلًا لهما: «**أَخْبِرَانِى عَنْ قُرَيْشٍ؟**»[١].

ومع أنَّ هذين الغُلامين اللذين ضُرِبَا من الجيش المشرك المُعادى، ويُمِدَّان الجيش بالماء، إلَّا أن الرسول ﷺ عاتب صحابته الكرام لأجلهما، وأنكر عليهما ضربهما؛ مما اضطر الغُلامين إلى الكذب نجاةً من الضرب.

ويقول **ابن القيم** رَحِمَهُ اللهُ: كان رسول الله ﷺ يَنْظُرُ فى المُقاتِلَةِ، فمن رَآهُ أَنْبَتَ[٢] قَتَلَهُ، ومن لم يُنبت استحياهُ[٣]. والمقاتلة هم الذين يقاتلون بالفعل، ومع ذلك فهو ﷺ لا يقتل غير البالغين منهم؛ لأنهم غير مكلّفين، ومدفوعين بغيرهم؛ فلذلك رحمهم.

وقد فعل ذلك أيضًا مع صبيان بنى قريظة مع شدة جُرم قبيلتهم، إلا أنه

(١) ابن هشام: السيرة النبوية (١/ ٦١٦، ٦١٧)، وانظر الصالحى الشامي: سبل الهدى والرشاد (٤/ ٢٧) ابن كثير: البداية والنهاية (٣/ ٢٩٤).

(٢) أي: ظهر الشَّعر الدالُّ على البلوغ.

(٣) ابن القيم: زاد المعاد (٣/ ٩٠) - استحياه: أي: تركه حيًّا.

لم يأخذ الأطفال بجريرة أقوامهم، فقد رحمهم، وأبقى على حياتهم[١].

قَالَ عَطِيَّةُ الْقُرَظِيِّ[٢]: عُرِضْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ قُرَيْظَةَ فَكَانَ مَنْ أَنْبَتَ قُتِلَ، وَمَنْ لَمْ يُنْبِتْ خُلِّيَ سَبِيلُهُ، فَكُنْتُ مِمَّنْ لَمْ يُنْبِتْ فَخُلِّيَ سَبِيلِي[٣].

إنَّ من ينظر إلى هذه الصورة النبيلة حفظ طفولة الصِّغار ثم يُقارن بينها وبين ما يحدث في زماننا من انتهاك صارخ لطفولة الصغار ليدرك الفارق الهائل بين المنهج الإسلامي، ومناهج العالم المختلفة!

۞ المطلب الثاني: رحمته ﷺ بكبار السن:

مرَّ بنا في المطلب السابق كيف كان الرسول ﷺ ينهى عن قتل الشيوخ، فقال: «**ولا تَقْتُلُوا شيخًا فانِيًا..**»، وهي قاعدة عامة لا يُستثنى منها إلا من كان مقاتلًا بنفسه، أو مشتركًا في القتال برأيه، وهذا الذي يُفسِّر قبوله ﷺ لقتل دُريد بن الصمَّة[٤] يوم حُنين؛ لأنَّه كان من أصحاب الرأي والخبرة في القتال، وكان يدلُّ المشركين على الخطط المناسبة لحرب المسلمين[٥]، أما غير ذلك من كبار السن فكان رسول الله ﷺ يرحمهم ولا يقتلهم.

بل كان رسول الله ﷺ يحترم الشيوخ ويُجلُّهم، وما أروع ما فعله مع أبي قحافة[٦]، يوم فتح مكة، فقد روت أسماءُ بنتُ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنهما أنَّه لَمَّا دَخَلَ

(١) ابن سيد الناس: عيون الأثر (٢/ ٥٤).

(٢) عطية القرظي: سكن الكوفة، روى حديثه أصحاب السنن عن عبد الملك بن عمير، قال: كنت فيمن حكم عليهم سعد بن معاذ فشكوا فيَّ فتركوني. الإصابة (٥٥٨٣).

(٣) صحيح: رواه أبو داود، والترمذي، وأحمد، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

(٤) دريد بن الصمة: فارس هوازن، وسيد بني جشم وقائدها في معاركها، مع قبائل غطفان وغيرهما من القبائل العربية، وكان مع مالك بن عوف النصري في حربه على المسلمين في حنين، وقُتل كافرًا سنة ٨ هـ. عيون الأثر (٢/ ٢١٣).

(٥) الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد (٥/ ٣١٠).

(٦) هو والد أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

رَسُولُ اللهِ ﷺ مَكَّةَ، وَدَخَلَ الْمَسْجِدَ، أَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ بِأَبِيهِ يَعُودُهُ، فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، قَالَ: «هَلاَّ تَرَكْتَ الشَّيْخَ فِي بَيْتِهِ حَتَّى أَكُونَ أَنَا آتِيهِ فِيهِ». قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللهِ، هُوَ أَحَقُّ أَنْ يَمْشِيَ إِلَيْكَ مِنْ أَنْ تَمْشِيَ أَنْتَ إِلَيْهِ، قَالَ: فَأَجْلَسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ مَسَحَ صَدْرَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: «أَسْلِمْ». فَأَسْلَمَ(١).

فهذه الرقَّة من رسول الله ﷺ كانت ظاهرة وبارزة مع كون الشيخ ما زال كافرًا، ومع كونه أحد أفراد شعب مهزوم، ولا يتأتَّى مثل ذلك إلا من عظيم! وإن شئت فقارن هذا مع أحوال كبار السن فى الحروب الحديثة! فصلى اللهم وبارك على المبعوث رحمة للعالمين.

۞ المطلب الثالث: رحمته ﷺ بالنساء:

وكما كان رسول الله ﷺ ينهى عن قتل الأطفال كان ينهى كذلك عن قتل النِّساء... فقد روى ابن عمر رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِى ﷺ، رَأَى فِى بَعْضِ مَغَازِيهِ امْرَأَةً مَقْتُولَةً، فَأَنْكَرَ ذَاكَ وَنَهَى عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ(٢).

وَعَنْ رَبَاحِ بْنِ رَبِيعٍ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِى غَزْوَةٍ فَرَأَى النَّاسَ مُجْتَمِعِينَ عَلَى شَيْءٍ فَبَعَثَ رَجُلًا فَقَالَ: «انْظُرْ عَلامَ اجْتَمَعَ هَؤُلاَءِ؟» فَجَاءَ فَقَالَ: عَلَى امْرَأَةٍ قَتِيلٍ. فَقَالَ: «مَا كَانَتْ هَذِهِ لِتُقَاتِلَ». قَالَ: وَعَلَى الْمُقَدِّمَةِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فَبَعَثَ رَجُلًا فَقَالَ: «قُلْ لِخَالِدٍ لاَ يَقْتُلَنَّ امْرَأَةً وَلاَ عَسِيفًا»(٣).

ولم يأمر رسول الله ﷺ فى حياته كلها إلا بقتل عدد قليل جدًّا من النساء، وكل واحدة منهن كانت تُقتل لسبب معتبر، ولحجة ظاهرة.

فمن هؤلاء النسوة واحدة من قبيلة بنى قريظة... فكما تروى عَائِشَةُ أُمُّ

---

(١) حسن: رواه أحمد، وابن حبان، والحاكم، وحسنه الألبانى فى التعليقات الحسان (٧١٦٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٨٥٢) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٧٤٤) كتاب الجهاد والسير.

(٣) صحيح: رواه أبو داود، وابن ماجه، وأحمد، والحاكم، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٧٠١)، والعسيف: الأجير.

الْمُؤْمِنِينَ قَالَتْ: لَمْ يَقْتُلْ مِنْ نِسَائِهِمْ إِلاَّ امْرَأَةً وَاحِدَةً. قَالَتْ: وَاللهِ إِنَّهَا لَعِنْدِي تَحَدَّثُ مَعِي، تَضْحَكُ ظَهْرًا وَبَطْنًا(١)، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْتُلُ رِجَالَهُمْ بِالسُّوقِ، إِذْ هَتَفَ هَاتِفٌ بِاسْمِهَا: أَيْنَ فُلاَنَةُ؟ قَالَتْ: أَنَا وَاللهِ، قَالَتْ: قُلْتُ: وَيْلَكِ، وَمَا لَكِ؟ قَالَتْ: أُقْتَلُ. قَالَتْ: قُلْتُ: وَلِمَ؟ قَالَتْ: حَدَثٌ أَحْدَثْتُهُ. قَالَتْ: فَانْطُلِقَ بِهَا، فَضُرِبَتْ عُنُقُهَا وَكَانَتْ عَائِشَةُ تَقُولُ: وَاللهِ مَا أَنْسَى عَجَبِي مِنْ طِيبِ نَفْسِهَا، وَكَثْرَةِ ضَحِكِهَا وَقَدْ عَرَفَتْ أَنَّهَا تُقْتَلُ(٢).

أما لماذا قُتلت دون غيرها، فقد ذكر ابن هشام أنَّها هى التى طَرحت الرحا على خلَّاد بن سويد فقتلته(٣)، فهى بذلك قُتِلت قصاصًا، ولم يبدأ رسولُ الله ﷺ بقتلها، ولم يَقتل غيرها من بنى قريظة، كذلك مَرَّ بنا فى المبحث السابق قتله ﷺ لامرأة يهودية واحدة فى خيبر، وذلك عندما قتلت الصحابى الجليل بشر بن البراء بن معرور رضي الله عنهما، وكان قد عفا عنها قبل ذلك عندما حاولت قتله هو شخصيًّا ﷺ، ولكنه قتلها قصاصًا بعد ثبوت وفاة بشر بن البراء من السُّمِّ الذى دسَّته المرأة له.

ومن الجدير بالذِّكر أنه لم تثبت حالة واحدة لاغتصاب امرأة من جيش العدو، ولا تعمُّد لإهانة نساء الدولة المعادية، وليُقارن أى محلل للتاريخ هذه المواقف بما تفعله الجيوش القديمة والحديثة عند التمكن من نساء الأعداء... وليست أحداث البوسنة والهرسك منا ببعيد!

۞ المطلب الرابع: رحمته ﷺ بالرُّهبان والمُتفرغين للعبادة:

إنَّ هذه الطائفة من غير المُسلمين قد انقطعت للعِبادة، واعتزلت الناس،

(١) كناية عن كثرة ضحكها.

(٢) حسن: رواه أحمد، وأبو داود، والبيهقى، وحسنه الألبانى فى صحيح أبى داود.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية (٣/ ١٨٢).

وبالتَّالى فهى غير مشتركة فى القتال بأى صورة من الصُّور، حتى وإن كانت دولتهم أو قبيلتهم مقاتلة، ولذلك فقد رحمهم رسول الله ﷺ وأمر بعدم التعرض لهم بسوء، هذا مع أنهم يُدرِّسون للناس دينًا مخالفًا لدينه، وعلى الأغلب فهم يعرفون صفة رسول الله ﷺ فى كتبهم، ولكنهم يخفونها عامدين عن أقوامهم، ومع ذلك لم يتخذ رسول الله ﷺ ذلك مُبررًا لإيذائهم، وهذا من كمال رحمته ﷺ... وقد أقرَّ رسول الله ﷺ لنصارى نجران بهذا الحق فقال فى عهده لهم: «.. **لاَ تُهْدَمَ لَهُمْ بَيْعَةٌ وَلاَ يُخْرَجُ لَهُمْ قَسٌّ وَلاَ يُفْتَنُوا عَنْ دِينِهِمْ..**»[1].

وعلى هذا جرى العمل فى شريعة الإسلام، وما أرحم ما وصَّى به أبو بكر الصديق رضي الله عنه أسامةَ بن زيد رضي الله عنهما حين بعثه إلى الشَّام مُقاتلًا، وذلك حين قال له: «.. إِنَّكَ سَتَجِدُ قَوْمًا زَعَمُوا أَنَّهُمْ حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ لِلَّهِ فَذَرْهُمْ وَمَا زَعَمُوا أَنَّهُمْ حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ..»[2]، ولعله من الواضح من صياغة الجملة عدم اقتناع الصدِّيق رضي الله عنه بما هم عليه من عبادة، ومع ذلك حذَّر من إيذائهم، وهو بذلك يؤكد على المعنى الرَّاقى الذى أرشدنا إليه رسول الله ﷺ.

فهذا هو الإسلام لمن لم يعرفه، وهذه هى شريعتنا لمن غفل عنها!

۞ المطلب الخامس: رحمته ﷺ بأصحاب الظروف الخاصة:

وقد وسعت رحمةُ الرسول ﷺ أعداءَه الذين آذوه وقاتلوه، وحرَّضوا على قتاله؛ ولكن كانت لهم ظروف خاصة. ومن هؤلاء أبو عزة الجمحى، وكان شاعرًا، وكان يؤلِّب قريشًا على الرسول ﷺ والمُسلمين؛ فلما جاءت

---

(١) ضعيف: رواه وأبو داود، وضعفه الألبانى فى ضعيف أبى داود.

(٢) رواه الموطأ برواية يحيى الليثى (٩٦٥)، وعبد الرزاق فى مصنفه (٩٣٧٥)، والبيهقى فى سننه الكبرى (١٧٩٢٧).

غزوة بدر أسره المسلمون، وكان مِن أمره ما يرويه سعيد بن المسيب رَحِمَهُ اللهُ في قوله: أَمَّنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْأُسَارَى يَوْمَ بَدْرٍ أَبَا عَزَّةَ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو ابْنِ عَبْدِ الْجُمَحِي، وَكَانَ شَاعِرًا، وَكَانَ قَالَ لِلنَّبِي ﷺ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّ لِي خَمْسَ بَنَاتٍ لَيْسَ لَهُنَّ شَيْءٌ فَتَصَدَّقْ بِي عَلَيْهِنَّ، فَفَعَلَ، وَقَالَ أَبُو عَزَّةَ: أُعْطِيكَ مَوْثِقًا أَنْ لَا أُقَاتِلَكَ وَلَا أُكْثِرَ عَلَيْكَ أَبَدًا، فَأَرْسَلَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا خَرَجَتْ قُرَيْشٌ إِلَى أُحُدٍ جَاءَهُ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ، فَقَالَ: اخْرُجْ مَعَنَا، فَقَالَ: إِنِّي قَدْ أَعْطَيْتُ مُحَمَّدًا مَوْثِقًا أَنْ لَا أُقَاتِلَهُ، فَضَمِنَ صَفْوَانُ أَنْ يَجْعَلَ بَنَاتِهِ مَعَ بَنَاتِهِ إِنْ قُتِلَ، وَإِنْ عَاشَ أَعْطَاهُ مَالًا كَثِيرًا، فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى خَرَجَ مَعَ قُرَيْشٍ يَوْمَ أُحُدٍ، فَأُسِرَ وَلَمْ يُؤْسَرْ غَيْرُهُ مِنْ قُرَيْشٍ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّمَا أُخْرِجْتُ كُرْهًا وَلِي بَنَاتٌ فَامْنُنْ عَلَيَّ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَيْنَ مَا أَعْطَيْتَنِي مِنَ الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ؟ لَا، وَاللهِ لَا تَمْسَحُ عَارِضَيْكَ بِمَكَّةَ تَقُولُ: سَخِرْتُ بِمُحَمَّدٍ مَرَّتَيْنِ**». قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ: فَقَالَ النَّبِي ﷺ: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يُلْدَغُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ، يَا عَاصِمُ بْنَ ثَابِتٍ قَدِّمْهُ فَاضْرِبْ عُنُقَهُ**». فَقَدَّمَهُ فَضَرَبَ عُنُقَهُ(١).

فرغم معاداة أبى عزة للمُسلمين، وتحريضه عليهم إلَّا أنَّ النبى ﷺ عفا عنه فى المرة الأولى، بل وأطلقه دون مقابل؛ لأجل بناته؛ وتلك رحمة كبيرة من الرسول ﷺ تجاه ذلك الشاعر الذى كان يمثل إحدى الآلات الإعلامية الجبارة ضد دولة الإسلام فى ذلك الوقت، أما فى المرة الثانية فكان لابُدَّ من إيقاف هذه الآلة حتى لا يظن المشركون أنه يمكن خداع المسلمين بسهولة، وأنَّ خداعهم مأمون الجانب، ولكى تظل هيبتهم فى القلوب.

(١) البيهقي (٧٨٠٨)، وابن كثير: البداية والنهاية (٤/ ٥٩)، وانظر نصب الراية للزيلعى (٣/ ٤٠٩).

المطلب السادس: رحمته ﷺ بالمستكرهين على القتال:

ومن رحمته أيضًا أنه كان يعذر أولئك الذين أُكرهوا على القتال، على الرغم من أنهم خرجوا بالفعل لقتال المسلمين ولم يكن يقول مثلم ' بقول أى إنسان فى مثل هذه المواقف من أنهم ليسوا صغارًا أو فاقدين للإرادة، بل خرجوا لمصالح معينة، أو إرضاءً لقوم بعينهم.. إنه لم يقل كل هذا الكلام، إنما نظر إليهم بعين الرحمة، ومن ثم أمر الجنود المسلمين بتجنُّب قتالهم!

ومن ذلك ما فعله رسول الله ﷺ فى بدر حيث نهى عن قتل من خرج مُستكرهًا من المشركين، رغم أن ذلك فى ميدان القتال والحرب، والمتعارَف عليه بين جميع البشر أنَّ منْ يقاتلك تقاتله، ولكن الرسول ﷺ كأن يأخذ بروح القاعدة وليس بنصِّها؛ لذا فهو قد يأسر المستكرَه لكى يتجنب مقاتلته ويُجنبِّه أيضًا، ولكن لا يقتله؛ إلا إذا أصرَّ على القتال.

فقد روى ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ النبى ﷺ قال لأصحابه قُبيلَ غزوة بدر: **«إنّى قَدْ عَرَفْت أَنّ رِجَالًا مِنْ بَنِى هَاشِمٍ وَغَيْرِهِمْ قَدْ أُخْرِجُوا كُرْهًا، لا حَاجَةَ لَهُمْ بِقِتَالِنَا، فَمَنْ لَقِىَ مِنْكُمْ أَحَدًا مِنْ بَنِى هَاشِمٍ فَلَا يَقْتُلْهُ وَمَنْ لَقِىَ أَبَا الْبَخْتَرِى بْنَ هِشَامِ بْنِ الْحَارِثِ ابْنِ أَسَدٍ فَلَا يَقْتُلْهُ وَمَنْ لَقِىَ الْعَبّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطّلِبِ، عَمّ رَسُولِ اللّهِ ﷺ فَلَا يَقْتُلْهُ فَإِنّهُ إنّمَا أُخْرِجَ مُسْتَكْرَهًا»**[1].

فهل يَعتبر قائدٌ فى العالم -غير رسولنا ﷺ- بنيات من يحاربه، فيعفو عمن أمسك السيف ليقتله هو وأصحابه وجنده، لا لشيء إلا لأنَّه خرج مُستكرهًا؟!! إن هذا هو رسول الله ﷺ!

المطلب السابع: رحمته ﷺ بقتلى الأعداء!

وأعجب مما سبق موقفه ﷺ من قتلى الأعداء!

(١) ابن هشام: السيرة النبوية (١/ ٦٢٨)، وابن كثير: السيرة النبوية (٢/ ٤٣٦).

لقد ظهرت رحمة الرسول ﷺ فى حرصه حتى على هؤلاء القتلى، وكذلك على مشاعر ذويهم؛ فقد نهى رسول الله ﷺ عن المُثْلَةِ.

فعن عبد الله بن زيد قال: «نَهَى النَّبى ﷺ عَن النُّهْبَى[١]، والمُثْلَة[٢]»[٣].

وقال عمران بن الحصين رضي الله عنه: «كان النبى ﷺ يحثنا على الصدقة، وينهانا عن المثلة»[٤]، ورغم ما حدث فى غزوة أُحُدٍ من تمثيل المشركين بحمزة عم الرسول ﷺ، فإنَّه ﷺ لم يُغيِّر مبدأه، بل حرص على النهى عن المُثلة حتى مع المشركين، ولم يرد فى التاريخ حادثة واحدة تقول: إنَّ المسلمين مثَّلوا بأحدٍ من أعدائهم.

وأكثر مما سبق أن رسول الله ﷺ هدَّد المسلمين تهديدًا خطيرًا إن قاموا بالتمثيل بأجساد قتلى الأعداء، فقال: « **أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، رَجُلٌ قَتَلَهُ نَبِى، أَوْ قَتَلَ نَبِيًّا، وَإِمَامُ ضَلالَةٍ، وَمُمَثِّلٌ مِنَ الْمُمَثِّلِينَ**»[٥]. فيساوى بين من قتل نبيًّا أو قتله نبى، ومَن مثَّل بجثة عدو! وبذلك يظل هناك رقيب داخلى على المُسلم يمنعه من ارتكاب الجُرْم حتى فى غياب العيون. بل إنه يوسِّع دائرة التحذير حتى تستوعب كل مخلوق، مسلمًا كان أو غير مسلم، إنسانًا كان أو حيوانًا أو طائرًا، فيقول فى رحمة بالغة: « **مَنْ مَثَّلَ بِذِى رُوحٍ، ثُمَّ لَمْ يَتُبْ مَثَّلَ اللهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[٦].

(١) النُّهْبَى: أخذ المرء ما ليس له جهارًا.

(٢) والمُثْلَة: التنكيل بالمقتول بقطع بعض أعضائه.

(٣) صحيح: رواه البخارى (٢٣٤٢) كتاب المظالم.

(٤) صحيح: رواه أبو داود، وأحمد، وابن حبان، وصححه الألبانى فى الإرواء تحت حديث (٢٢٣٠).

(٥) صحيح: رواه أحمد، واللفظ له، وحسنه شعيب الأرناؤوط، والطبرانى فى الكبير (١٠٤٩٧)، والبزار (١٧٢٨)، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٢٨١).

(٦) رواه أحمد، وقال شعيب الأرناؤوط: صحيح، وهذا سند ضعيف.

ومن هذا المنطلق فقد أمر رسول الله ﷺ أن لا يُقتل العدو تحريقًا بل يُقتل بالسيف؛ لأن عذاب النار بشعٌ لا يرضاه رسول الله ﷺ حتى للأعداء، وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه ما يؤيد ذلك فقال: بَعَثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي بَعْثٍ، فَقَالَ: «**إِنْ وَجَدْتُمْ فُلاَنًا وَفُلاَنًا** - لِرَجُلَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ - **فَأَحْرِقُوهُمَا بِالنَّارِ**». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ أَرَدْنَا الْخُرُوجَ: «**إِنِّي كُنْتُ أَمَرْتُكُمْ أَنْ تُحْرِقُوا فُلاَنًا وَفُلاَنًا بِالنَّارِ، وَإِنَّ النَّارَ لاَ يُعَذِّبُ بِهَا إِلاَّ اللهُ** عز وجل**، فَإِنْ وَجَدْتُمُوهُمَا فَاقْتُلُوهُمَا**»(١). فهذا التحريق بالنَّار ليس مسموحًا به فى الدنيا، ولكن أبقاه الله عز وجل لعذاب الآخرة، وحذَّر البشر منه عن طريق الرسل، فمَنْ أَبَى فلا يلومنَّ إلا نفسه!

ولعل الذى يطَّلع على مثل هذه الأقوال والمواقف يتعجب من هذه الرحمة النبوية المُتناهية، ولكن قد يزول عجبه إذا عرف المنطلق الذى من أجله حرَّمت الشريعة الإسلامية التمثيل بجثة إنسان مات، ولا يشعر بما يشعر به الأحياء، فإن مردَّ ذلك إلى النظرة الراقية التى ينظرها الإسلام لكل إنسان مهما كانت ديانته، أو درجة فسوقه أو كفره، فالكُلّ فى النهاية عباد الله عز وجل، وقد كرَّمهم جميعًا وأحسن خَلْقهم... ويؤيد ذلك ما رواه رسول الله ﷺ عن ربِّ العزَّة سبحانه حين قال: «**لا تُمَثِّلُوا بِعِبَادِي**»(٢)، فالنَّهى هنا يشمل كل العباد بصرف النظر عن إيمانه أو كفره.

فما أعظم دين الإسلام، وما أرقى شريعته!

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٧٩٥) كتاب الجهاد والسير.

(٢) رواه أحمد (١٧٥٩٣)، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده ضعيف.

الدستور الأخلاقى للحرب فى الإسلام(١)

۞ لا بد أن نعلم أنَّ الدستور الأخلاقى العسكرى فى الإسلام دستور شامل متكامل يشمل فيما يشمل:

أولًا: ما قبل الحرب. ثانيًا: أثناء الحرب.

ثالثًا: ما بعد الحرب.

۞ أولاً: أخلاق ما قبل الحرب:

فأما ما قبل الحرب، فإنَّ الإسلام يُحرِّم على المسلمين تحريمًا باتًّا: استخدام الوسائل غير الأخلاقية التى تستخدمها - عادة- الاستخبارات العسكرية، لاختراق الأعداء، وتجميع المعلومات عنهم، وكشف عوراتهم، والاطلاع على أسرارهم.

المهم في تجميع مثل هذه المعلومات وأمثالها من قِبَل أجهزة الاستخبارات الإسلامية: ألا تستخدم المحرَّمات فى الإسلام مثل الخمر، والنساء، وهما: الوسيلتان المفضَّلتان لدى الكثير من الدول، لاستدراج الرجال الذين يملكون الأسرار عن طريق الشهوات.

فالمسلمون لا يستعينون على نُصرة الحقِّ بطريق الباطل، ولا يحصلون طاعة الله بمعصية الله.

۞ ثانيًا: الأخلاق أثناء الحرب:

وأما الأخلاق أثناء الحرب، وحسبنا هنا: أن نؤكِّد أنَّ الإسلام لا يسمح بالأسلحة التى تأخذ البريء بالمسيء، والمسالم بالمحارب، وتحصد

---

(١) بتصرف من كتاب (فقه الجهاد) د/ يوسف القرضاوى.

الناس حصدًا، بما عُرف فى عصرنا بـ(أسلحة الدمار الشامل)، من أسلحة كيماوية فتَّاكة، وأسلحة جرثومية وبيولوجية مهلكة، وأسلحة نووية مُدمِّرة للحياة والأحياء، مُهلكة للحرث والنسل، فهذا من الفساد فى الأرض، الذى يكرهه الله تعالى، وينهى عنه، كما قال القرآن فى شأن بعض الناس: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾(١) وكما قال فى شأن اليهود الذين ازدادوا طغيانًا وكفرًا: ﴿ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾(٢).

ثالثًا: أخلاق ما بعد الحرب:

وأما أخلاق ما بعد الحرب، وخصوصًا بعد الانتصار، فالإسلام يرعى هذا الجانب الأخلاقى في التعامل مع الأسرى، ويحثُّ على العطف عليهم، وإشعارهم بإنسانيتهم، وعدم إذلالهم وإهانتهم، أو تخويفهم وتعذيبهم.

قال تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾(٣).

وقال تعالى فى شأن أسرى بدر: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٤).

وهكذا أمر الله رسوله أن يخاطب الأسرى الموثقين فى أيديهم خطابًا

---

(١) سورة البقرة: الآية: (٢٠٥).

(٢) سورة المائدة: الآية: (٦٤).

(٣) سورة الإنسان: الآيتان: (٨-٩).

(٤) سورة الأنفال: الآية: (٧٠).

يُبشِّرهم بغدٍ أفضل، ومستقبل أطيب، إذا أخلصوا نيَّتهم، وتَخلَّوا عن ظلمهم وكفرهم، وسيُعوِّضهم الله خيرًا مما أُخذ منهم من فداء. ولا غرو[1] أن يأمر الرسول ﷺ أصحابه أن يستوصوا بأسرى بدر خيرًا.

وأما التعامل مع الشعوب بعد هزيمتها، فلا يجوز أن تُنتقَص كرامتها، أو يُستخفَّ بحُرمتها، أو تُهدر دماؤها، أو تُستحلَّ أعراضها، أو يُعتدَى على معابدها، أو مقدَّساتها، أو تُصادَر فى حرية عبادتها.

ولا يجوز للمسلمين إذا نصرهم الله على عدوِّهم، ومكَّن لهم فى الأرض: أن ينهجوا نهج الكفار الذين نصرهم الله عليهم، ويمضوا على نفس سيرتهم فى إفساد البلاد، وإذلال العباد، وتسخير الشعوب، فهذا مما يُسخط الله تعالى عليهم.

وتتمثل أخلاقيَّات القتال أو الحرب فى الإسلام فى المبادئ التالية:

(١) تحريم العدوان:

أول هذه المبادئ: تحريم العدوان على الغير، فقد نهى الله تعالى عنه بصريح القرآن حين قال: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾[2].

وقد فُسِّر الاعتداء المنهى عنه هنا بأمرين:

الأول: إما بقتال غير المسلمين الذين لا يقاتلون المسلمين، ولا يعادونهم، أو يظاهرون عليهم عدوًّا.

والثاني: وإما بقتل النساء والأطفال والشيوخ الضعفاء والزَّمنَى والعميان

---

(١) لا غرو: أي: لا عجب.

(٢) سورة البقرة: الآية: (١٩٠).

وأمثالهم ممَّن ليسوا من أهل الحرب والقتال، وليس لهم فيها مشاركة ببدن ولا رأى. وهو مروى عن ابن عباس، وعمر بن عبد العزيز، والحسن البصرى، ومقاتل بن حيان وغيرهم[١].

(٢) لا يُقتل إلا من يُقاتل:

ومن أخلاقيات الحرب فى الإسلام: تحريم قتل مَن لا يقاتل ولا يحمل السلاح، وهم الذين يسمُّونهم فى عصرنا (المدنيين) من الأطفال والنساء والشيوخ الهرمين، والرهبان الذين يتعبَّدون فى صوامعهم، والعميان والزَّمنَى (المَعُوقين من أصحاب العاهات الدائمة والعائقة) والفلاحين والتجار وأمثالهم.

روى البخارى فى (كتاب الجهاد)، فى (باب قتل الصبيان فى الحرب): حديث ابن عمر: أنَّ امرأة وُجدت فى بعض مغازى النبى ﷺ مقتولة، فأنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان[٢].

والخلاصة: أنَّ جمهور فقهاء المسلمين يُحرِّمون قتل النساء والصبيان والشيوخ الكبار، ومثلهم الزَّمْنَى والعميان والرهبان، ومَن فى حكمهم من كلِّ مَن لا يباشر القتال.

جواز قتل الشيوخ والنساء والرهبان والزَّمنى إذا قاتلوا أو أعانوا برأيهم:

قال ابن قدامة: «ومن قاتل ممن ذكرنا جميعهم جاز قتله؛ لأن النبى ﷺ قتل يوم قريظة امرأة ألقت رحى على محمود بن مسلمة[٣] ومن كان من

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢٢٦).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٠١٤) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٧٤٤) كتاب الجهاد والسير.

(٣) المعروف: أن الذى قتلته المرأة يوم بنى قريظة هو: خلاد بن سويد. انظر: السيرة لابن هشام (٢/ ٢٤٢)، والسيرة الحلبية (٢/ ٦٦٨).

هؤلاء الرجال المذكورين ذا رأى يعين به فى الحرب جاز قتله؛ لأن دريد بن الصمة قُتل يوم حُنين وهو شيخ لا قتال فيه، وكانوا خرجوا به معهم يتيمنون به ويستعينون برأيه، فلم ينكر النبى ﷺ قتله[١]. ولأن الرأى من أعظم المعونة فى الحرب».

(٣) تحريم المثلة:

عرف الناس من قديم فى الحروب تجاوزات شتَّى، منها: المُثْلة، ويراد بالمُثلة: الانتقام من العدو، بعد موته، بتشويه جُثَّته، وقطع بعض أجزاء من جسده، مثل الأذن والأنف والذَّكر وغير ذلك، وقد يُخرج بعض أعضائه الداخلية مثل القلب أو الكبد. كلُّ هذا ليشفى غيظه من خَصمه، مع أنه قد مات واستراح منه، ولكن الإنسان - لظلمه وجهله- لم يكفه موته، حتى ينكِّل به.

وقد رأينا المشركين فى غزوة أُحد، وقد قتلوا سبعين من المسلمين، قد مثَّلوا بعدد منهم، وقد قال أبو سفيان بعد المعركة يُسمِع المسلمين: سترون مُثلة قد وقعت، أما أنها لم تكُ، بأمرى، ولم تَسُؤني[٢].

أما الإسلام، فقد نهى عن المُثْلَة وحرَّمها، كما ثبت ذلك بأحاديث شتَّى.

ففى حديث بُريدة فى صحيح مسلم: أنَّ النبى ﷺ كان يقول لقوَّاده: «**...اغزوا ولا تغلُّوا ولا تغدُروا ولا تمثِّلوا...**»[٣].

---

(١) عن أبى موسى قال: لما فرغ النبى ﷺ من حنين بعث (أبا عامر) على جيش إلى أوطاس، فلقى دريد بن الصمة فقتل دريد وهزم الله أصحابه... متفق عليه: رواه البخارى (٤٣٢٣) كتاب المغازى، ومسلم (٢٤٩٨) كتاب فضائل الصحابة.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٣٠٣٩) كتاب الجهاد والسير.

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٧٣١) كتاب الجهاد والسير.

(٤) تحريم الغدر والخيانة :

ومن أخلاقيَّات الحرب والجهاد فى الإسلام: إيجاب الوفاء بالعهود لمَن عاهدهم المسلمون، والالتزام بكلِّ ما التزموا به، وتحريم الغدر بكلِّ صُوره، واعتباره من خصال النفاق، وأخلاق الكافرين. وكذلك الخيانة فى كلِّ أمانة مادية أو أدبية.

يقول الله تعالى فى كتابه فى مدح المؤمنين: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾(١)، ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴾(٢).

كما نهى القرآن عن الخيانة بكلِّ ألوانها: الخيانة المادية، والخيانة المعنوية، الخيانة لله، والخيانة للناس، الخيانة فى السلم، والخيانة فى الحرب... قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(٣).

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾(٤).

ومما لا شكَّ فيه أنَّ العهود والمواثيق تُعتبَر من الأمانات التى يجب رعايتها والمحافظة عليها.

۞ احترام العهود والاتفاقات فى السلم والحرب :

وأوجب الإسلام على المؤمنين أن يحترموا عهودهم واتفاقاتهم مع الآخرين فى السلم وفى الحرب على السَّواء، وكان من وصاياه ﷺ لقادة

---

(١) سورة المؤمنون: الآية: (٨).

(٢) سورة الرعد: الآية: (٢٠).

(٣) سورة الأنفال: الآية: (٢٧).

(٤) سورة النساء: الآية: (٥٨).

الجيوش وأمراء السرايا: «**لا تغُلُّوا ولا تغدروا ولا تُمثِّلوا**»[١].

واستثنى القرآن من المشركين الذين برئ منهم الله ورسوله، مَن كان له عهد مؤقَّت بمدَّة، فيُوفَّى له عهده إلى مُدَّته، كما قال تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[٢].

۞ جواز نقض العهد في حالة واحدة:

ولم يُجِز الإسلام نبذ العهد إلا في حالة واحدة: أن ينقضه الطرف الآخر، أو يخاف منه الخيانة في عهده، وقد ظهرت أمارات ذلك في قوله أو عمله، وفي هذه الحالة ينبذ إليه عهده على طريق علني سوى صريح لا خداع فيه، ولا يجوز أن ينقض عهده خُفية منه، فيفاجأ بنقضه، وهذا ما قرَّره القرآن الكريم بوضوح حين قال: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾[٣].

(٥) تحريم قطع الشجر وهدم الأبنية:

ومن أخلاقيات الحرب والقتال في الإسلام: تحريم الإفساد في الأرض، بقطع أسباب الحياة فيها، وتخريب ما يحتاج إليه الناس، مما لا ضرورة في الحرب إليه.

وذلك مثل: قطع الشجر، وتحريق المزارع، وهدم المنازل، وتخريب العامر، وتلويث مياه الشرب، ونحو ذلك مما تفعله بعض الجيوش، نكايةً

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٧٣١) كتاب الجهاد والسير.

(٢) سورة التوبة: الآية: (٤).

(٣) سورة الأنفال: الآية: (٥٨).

بأعدائها، وانتقامًا منهم، وإن لم تكن بها حاجة إليها.

(٦) النهى عن النُّهبة والغلول:

ومن أخلاقيات الإسلام فى الحرب: تربية جنوده على تحرِّى الحلال، والعفَّة عن الحرام فى مآكلهم ومشاربهم، فلا يُدخلوا فى بطونهم لقمة من سُحت، اتِّكالًا على أنَّ الجهاد يكفِّر عنهم سيئاتهم. ومن ذلك تشديده عليه الصلاة والسلام فى النهى عن (النُّهبة)، و(الغلول).

❁ **يقول ابن القيم فى بيان هديه ﷺ فى الغزو:**

(وكان ينهى فى مغازيه عن النُّهبة، والمُثلَة، وقال: «**مَن انتهَبَ نُهبةً فليس منَّا**»[١]، وأمر بالقدور التى طُبخت من النُّهْبَى فأُكفئت)[٢].

وذكر أبو داود، عن رجل من الأنصار قال: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِى سَفَرٍ فَأَصَابَ النَّاسَ حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ وَجَهْدٌ، وَأَصَابُوا غَنَمًا فَانْتَهَبُوهَا، فَإِنَّ قُدُورَنَا لَتَغْلِى إِذْ جَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَمْشِى عَلَى قَوْسِهِ، فَأَكْفَأَ قُدُورَنَا بِقَوْسِهِ، ثُمَّ جَعَلَ يُرَمِّلُ اللَّحْمَ بِالتُّرَابِ، ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ النُّهْبَةَ لَيْسَتْ بِأَحَلَّ مِنَ الْمَيْتَةِ**» أَوْ «**إِنَّ الْمَيْتَةَ لَيْسَتْ بِأَحَلَّ مِنَ النُّهْبَةِ**»[٣].

وكان ينهى أن يركب الرجل دابَّةً من الفيء حتى إذا أعجفها، ردَّها فيه، وأن يلبس الرجل ثوبًا من الفيء حتى إذا أخلقه، ردَّه فيه[٤]، ولم يمنع من الانتفاع به حال الحرب.

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والنسائى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجه (٣١٨٠)، والنهب: الأخذ على وجه العلانية والقهر، والنهبة بالفتح: مصدر، وبالضم: المال المنهوب.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٤٨٨) كتاب الشركة، ومسلم (١٩٦٨) كتاب الأضاحى.

(٣) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود (٢٣٥٤).

(٤) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود (٢٣٥٦).

لماذا قاتل رسول الله ﷺ؟! (١)

تتفاوت دوافع القتال بين الأمم المختلفة؛ فقد يكون الباعث على القتال تسلُّطًا وفرضًا للقوة كما كان عند الإغريق والرومان، وقد يكون إغارات هوجاء للاستيلاء على الكلأ والماء كما كان عند العرب فى الجاهلية، وقد يكون عقيدة فى ضمائر شعب آمَنَ - زورًا وبهتانًا - بأنه فوق مستوى الشعوب كما هو عند اليهود، وقد يكون ضرورة أَمْلَتها السياسة بعد أن حرمها الدين كما كان عند المسيحية.. إلى آخر هذه الدوافع(٢).

ولسنا نجد دافعًا من هذه الدوافع وراء القتال عند رسول الله ﷺ.

لقد جاء التشريع الإسلامى فهذَّب طباع الإنسان، وعدَّل سلوكه، وأعطاه حق الدفاع عن نفسه، ومنعه من العدوان على حقوق الآخرين، وارتفع به عن مستوى الانتقام إلى مستوى العفو؛ فقال تعالى:

﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾(٣).

فمشروعية القتال فى الإسلام غيرها فى الأنظمة والقوانين، ومن شاء أن

(١) بتصرف من كتاب (أخلاق الحروب فى السنة النبوية) لأخى الحبيب الدكتور راغب السرجانى (حفظه الله).

(٢) الدكتور عبد اللطيف عامر: أحكام الأسرى والسبايا فى الحروب الإسلامية (ص٤٥).

(٣) سورة الشورى: الآيات: (٤٠-٤٣).

يدرس طبيعة الحروب الإسلامية؛ فليدرس طبيعة الإسلام ذاته حتى لا يطبق على هذه الحروب مقاييس غيرها من حروب التوسع والعدوان(١).

إن رؤية رسول الله ﷺ للدوافع التى ينبغى أن تقوم الحرب من أجلها واضحة وهى دوافع لا ينكرها منصف، ولا يعترض عليها محايد. وهذه الدوافع تشمل ردَّ العدوان، والدفاع عن النفس والأهل والوطن والدين، وكذلك تأمين الدين والاعتقاد للمؤمنين الذين يحاول الكافرون أن يفتنوهم عن دينهم، وأيضًا حماية الدعوة حتى تُبلَّغ للناس جميعًا، وأخيرًا تأديب ناكثى العهد(٢).

ومن فى العالم ينكر مثل هذه الدوافع للقتال؟!

ومع أن أهداف القتال فى الإسلام كلها نبيلة إلا أن رسول الله ﷺ لم يكن متشوفًا أبدًا لحرب الناس، ولا مشتاقًا لقتلهم، وذلك على الرغم من بدايتهم للعدون، وعداوتهم الظاهرة للمسلمين، وكان من أظهر الدلالات على ذلك أنه كان يدعوهم إلى الإسلام قبل القتال. ولا ينبغى أن يفهم أحدٌ أنه يفعل ذلك ابتداءً، فيبدو وكأنه إكراه على اعتناق الإسلام، فقد كان رسول الله ﷺ يفعل ذلك عند تعيُّن القتال فعلًا، فإذا حضر الفريقان إلى أرض القتال جعل للفريق المعادى فرصة أخيرة لتجنُّب إراقة الدماء، وهذه من أبلغ صور الرحمة، لأن الفريق المعادى مستباح الدم الآن، والعفو عنه غير متوقع، كما أن الرسول ﷺ كان يفعل ذلك والقوة فى يده، ويستطيع بكلمة واحدة أن يبيد من أمامه، ولكنَّه يرحمهم!

---

(١) الدكتور عبد اللطيف عامر: أحكام الأسرى والسبايا فى الحروب الإسلامية، (ص ٤٥، ٤٦).

(٢) أنور الجندى: بماذا انتصر المسلمون؟ (ص٥٧-٦٢) بتصرف.

قال الإمام ابن القيم فى زاد المعاد تحت عنوان: الدعوة قبل القتال:

«وكان ﷺ يأمر أمير سريته أن يدعو عدوه قبل القتال إما إلى الإسلام والهجرة، أو إلى الإسلام دون الهجرة، ويكونون كأعراب المسلمين ليس لهم فى الفىء نصيب أو بذل الجزية، فإن هم أجابوا إليه قَبِل منهم وإلا استعان بالله وقاتلهم»[1].

وهذا الخُلق الرائع من إنشاء الإسلام الذى لم يستبح الغدر بأحد قبل إعلامه؛ فجعل الدعوة قبل القتال لازمة، وتلك قمة لم تسمُ إليها أمة قبل الإسلام أو بعده. فما زال أهل الأديان الأخرى يغدرون بعدوهم، ويتحينون فرصة؛ ليبيدوه ويستحلوا حرماته، بينما لم يقاتل النبى ﷺ قومًا قط إلا بعد أن دعاهم إلى الله تعالى»[2].

وقد يقول قائل: طالما أن الرسول ﷺ ليس متشوفًا إلى المعارك والحروب فلماذا هذا العدد الكبير من الغزوات والسرايا فى حياته؟!

ونحن نقول نعم.. لقد غزا رسول الله ﷺ بنفسه الشريفة غزوات عديدة، وأرسل سرايا وبعوثًا كثيرة، ولكنه ﷺ لم يكن فى جميع غزواته أو سراياه بادئًا بقتال، أو طالبًا لدنيا، أو جامعًا لمال، أو راغبًا فى زعامة، أو موسعًا لحدود دولة أو مملكة؛ بل كل ذلك كان هداية للناس، وتحريرًا للعقول، ورفعًا للظلم، وربطًا للناس برب العالمين بأعلى أساليب العفة والشرف والنُّبْل، مما جعل هذه الغزوات أنموذجًا للتعامل الدولى فى الحروب والأسارى[3].

---

(١) ابن القيم: زاد المعاد (٣/ ٩٠).

(٢) الدكتور عمر بن عبد العزيز قريشى: سماحة الإسلام، (ص١٤٨).

(٣) الدكتور فاروق حمادة: العلاقات الإسلامية النصرانية فى العهد النبوى (ص١٧٢).

وقد تنوع فيها أعداؤه وتعددت دياناتهم ومشاربهم، فمنهم الوثنى، واليهودى، والنصرانى.

حروبه ﷺ مع المشركين

نعلم جميعًا أن المشركين هم أكثر من آذى رسول الله ﷺ، والمسلمين، بل إنهم لم يكتفوا بالإيذاء فطردوا المسلمين من مكة التى هى وطنهم الذى وُلِدُوا وتربوا فيه، واستولوا على ممتلكاتهم من الأموال والبيوت، ومع هذا كله لم يفكر الرسول ﷺ طوال إقاماته فى مكة أن يعتدى على أحد من المشركين مع ما كان له من عزة ومنعة؛ فهو ﷺ من أرقى عائلة فى مكة، ومن أعز بطون قريش، وصاحب النسب والشرف، إلا أن له رسالة سامية يريد أن يؤديها، فكان ﷺ يتحمل الإيذاء إلى أبعد الحدود، ويحثُّ أصحابه على الصبر، وعدم مقابلة السيئة بمثلها.

إلا أن قريشًا تمادت فى غيها وضلالها وكبريائها فكان لابد من وقفات حازمة ترد للمسلمين بعض حقوقهم المسلوبة وأموالهم المنهوبة، وهذا من دون شك أمر لا ينكره عاقل، ولا يعارضه صاحب رأى سديد.

تأتى غزوة بدر الكبرى لتمثِّل أُولى الصدامات الحقيقية بين المشركين والمسلمين، وإذا تدارسنا أسباب هذه المعركة فى هدوء وروية لوجدنا أن المسلمين قد دُفِعُوا إليها دفعًا، وأنه لم يكن فى نيّتهم القتال، وإنما اضطرهم المشركون من قريش إليه..

فأهل مكة الكافرون هم الذين بدؤوا بإيقاع الظلم على المسلمين، ولم يكن الظلم ظلمًا واحدًا، بل كان ظلمًا متعددًا مُرَكَّبًا، فظلم فى الجسد

بالتعذيب والحرق والإغراق والقتل أحيانًا، وظلم في المال بمصادرته بدون وجه حق واغتصابه بالقوة، وظلم في الديار بالطرد منها وأخذها، بل بيعها وأكل ثمنها، وظلم في النفس والسمعة بالسب والقذف وتشويه السمعة، وظلم في الحرية بالحبس والعزل عن المجتمع.

فماذا يفعل المسلمون لرفع هذا الظلم؟!

لقد اضطُر المسلمون للهجرة وترك الديار والأموال والأهل وكل شيء، وكانت هجرتهم مرتين إلى الحبشة، ثم إلى المدينة، ولم يتركهم كفار مكة يعيشون حياتهم في أمان هناك، بل طاردوهم وحاصروهم وراسلوا مشركي المدينة ويهودها لاستئصال المسلمين تمامًا من على وجه الأرض.

ماذا يجب أن يفعل المسلمون إزاء هذه الأفعال؟!

هل ينبغي على المسلمين أن يُسلِّموا رقابهم ورقاب أولادهم لسيوف قريش؟ أم كان عليهم أن يحملوا متاعهم وعيالهم إلى بلد آخر؟!

إن أي عاقل أو حر لن يجد أمامه سبيلًا إلا المقاومة لدفع الشر، وقمع الفساد، وهذا ما فعله المسلمون.. ولما لم تكن لهم طاقة بغزو مكة، واسترداد ثرواتهم المنهوبة فكروا في مهاجمة قوافل مكة التجارية المارة على طريق المدينة.. لقد كانت محاولة لرفع - ولو جانبًا - من الظلم الواقع على كواهلهم منذ سنوات.

ثم إنها حالة حرب حقيقية، وليس هنا مجال لأن يقول أحدٌ إن المسلمين يُغيرون على الآمنين من قريش، فهذه حرب مُعلنة بين دولة المدينة المسلمة ودولة مكة الكافرة، وكلا الطرفين يستحل دم ومال الآخر،

وكلا الطرفين يضرب مصالح الآخر، وهذا عُرفٌ فى الحروب متعارف عليه فى كل الأزمان والأماكن، وليس من ابتكار المسلمين، كما أن الإسلام دين واقعى، يرد القوة بالقوة، ويُشهِر السيف فى وجوه من أشهروا سيوفهم عليه.

إنهم يلومون المسلمين؛ لأنهم هاجموا قوافل قريش التى استولت على أموالهم وديارهم!

ألم يكن من الأجدر بهم أن يلوموا قريشًا التى سلبت المسلمين كل ما يملكون ظلمًا وعدوانًا؟

خرج المسلمون فعلًا لمهاجمة القافلة، ولكن شاء الله سبحانه وتعالى أن يتمكن أبو سفيان قائد قافلة قريش من الهرب بها، وأرسل إلى مكة يستدعى النجدة، وجاءت قريش بألف من الجنود لقتال المسلمين، وخرج على قيادة الجيش كل زعماء مكة تقريبًا، وجعلوا على رأس الجيش أبا جهل، فرعون هذه الأمة. وفى الطريق علم المشركون بنجاة قافلتهم وأموالهم؛ فرأى عدد منهم الرجوع، وعدم الانسياق إلى الحرب؛ وكان منهم عتبة بن ربيعة والأخنس بن شريق[1]، وآخرون، لكن أبا جهل حمَّس الناس، وصمم على البقاء بالجيش عند بدر ثلاث ليالٍ؛ ينحرون الإبل، ويشربون الخمر، وتغنى القيان حتى تظل العرب تهاب قريشًا.

وكما رأينا كان بإمكان جيش قريش أن يرجع وألا يحارب أو يدخل فى قتال مع المسلمين خاصة بعد نجاة القافلة، ولكن إصرار بعض قادتها على

(١) هو أبيُّ بن شريق، ويُعرف بالأخنس بن شريق الثقفى، رجع بقومه عن بدر، فحفظها له قومه. أسلم فكان من المؤلفة قلوبهم، وشهد حنينًا، ومات فى أول خلافة عمر. انظر: أسد الغابة ١/ ٨٠، والإصابة، الترجمة (٦١).

الحرب هو الذى ورطهم فى القتال. ودارت معركة من أشرس المعارك فى تاريخ الإسلام انتهت بهزيمة ساحقة للمشركين، وقتل سبعين من قادتهم، وأَسْر سبعين آخرين، وتحصيل قدر من الغنائم عوَّض المسلمين عن بعض أموالهم المسلوبة.

ورغم ما أصاب قريشًا فى بدر؛ فإنها لم تتعظ، ولم تتراجع عن غيها، بل تمادت فأوقفت التصرف فى قافلة أبى سفيان التى أفلتت فى بدر لتجهيز جيشٍ بأموالها لحرب المسلمين، ولم تكتفِ قريش بتجهيز الجيش من داخل مكة بل بدأت تستنفر القبائل المحيطة بها للمساعدة لها، وكوَّنت قريش بالفعل جيشًا كبيرًا، وهنا اضطر المسلمون لخوض الحرب مرة أخرى؛ دفاعًا عن أنفسهم، وعن الدولة الإسلامية، فكانت معركة أُحد.. وجاءت قريش بجيش قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، وكان قائدهم أبا سفيان، ومعه: صفوان بن أمية، وعكرمة ابن أبى جهل، وخالد بن الوليد، وغيرهم، وكان معهم ثلاثة آلاف بعير؛ ومائتا فرس، وسبعمائة درع[١]، وأشعلت قريش حربًا إعلامية ضخمة تحفِّز الناس على حرب المسلمين، وقاد هذه الحرب الإعلامية أبو عزة الجمحى[٢].

وخرج المسلمون للمشركين فى سبعمائة مقاتل، ودارت المعركة المشهورة التى انتهت بالمصاب الأليم الذى أصاب المسلمين، واستشهد من المسلمين سبعون على رأسهم حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، وقامت

(١) ابن هشام: السيرة النبوية (٢/ ٦١)، ابن كثير: السيرة النبوية (٣/ ٢١).

(٢) هو الأسير الذى أطلقه النبى ﷺ منًّا بغير فداء، وأخذ عليه عهدًا ألا يشارك المشركين، ولا يحفز أحدًا على حرب المسلمين، وخالف العهد، وقام بتحفيز بعض العرب فى قتال المسلمين. انظر: ابن هشام السيرة النبوية (٤/ ٥٥).

قريش بالجريمة الشنعاء، إذ مثَّلت بجثث الشهداء المسلمين، مخالِفةً بذلك كل الأعراف والقيم، ووضح للجميع مدى الحقد والكراهية التى يحملها المشركون فى قلوبهم للمسلمين.

وكان من الممكن أن تكتفى قريش بهذه المعركة، وتكون فى مقابل معركة بدرٍ، لكنَّ مشركى قريش أبوا إلا أن يستأصلوا المسلمين من المدينة بشكل نهائى، وجمعت قريش - وبمعاونة اليهود - عشرة آلاف مقاتل، وتحزّبوا جميعًا، وكان الهدف الأوحد لهم هو إنهاء الوجود الإسلامى تمامًا من المدينة، وتحركت هذه الحشود الهائلة لتحيط بالمدينة التى يقطنها المسلمون، واضطر المسلمون لبذل جهود جبَّارة لحماية أنفسهم من الشر المحدق بهم، فحفروا خندقًا حول المدينة، لئلا يستطيع الجيش المهاجم الدخول إليهم، ومع هذا فقد حاول بعض المشركين اقتحام الخندق لقتال المسلمين، وكان لابد من مواجهة ذلك التحالف الضخم الآتى لاقتلاع دولة الإسلام، فكانت غزوة الأحزاب.

فهل يُلامُ المسلمون على دفاعهم عن المدينة، وقتالهم للمشركين، وقد جاء المشركون بهدف الاستئصال الجذرى لهم، وإبادتهم بشكل جماعى؟!!

ثم بلغَ الرسول ﷺ أن بنى المصطلق[١] يجمعون له[٢] ويعدون عدتهم لغزو المدينة المنورة، فكان لابد من تفادى ما حدث قريبًا فى الأحزاب،

---

(١) بنو المصطلق هم بطن من خزاعة، من القحطانية، وقد غزاهم النبى ﷺ، واشتُهرت بغزوة بنى المصطلق التى تُعرف بالمريسيع. معجم قبائل العرب ٣/ ١١٠٤.

(٢) الطبرانى فى الكبير (١٥٨)، والبيهقى فى الكبرى (١٧٦٦٠)، وقال الهيثمى فى المجمع (٦/ ٢٠٧): رجاله ثقات. وابن هشام: السيرة النبوية (٢/ ٢٩٠)، وسنده صحيح.

وذلك بتوجيه ضربة قوية لبنى المصطلق، توقف تحركاتهم، وتحمى المدينة منهم.

وها هو رسول الله ﷺ يتجه إلى مكة يريد أداء العمرة، ولم يُرد القتال أبدًا، ويُثبت ذلك كلامه ﷺ يوم الحديبية: «**والله لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألونى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها**»[(١)].

ولقد استقبل رسول الله ﷺ سهيل بن عمرو[(٢)] مفاوض قريش، وكان ﷺ أرغب ما يكون فى موادعة القوم، مع كونه قادرًا على تحكيم السيف، وإنزال خصومه على منطقِه الذى آثروه مُذ صَدُّوه عن البيت، وتكلم سُهيلٌ فأطال، وعرض الشروط التى يتم فى نطاقها الصلح، ووافق عليها النبى ﷺ، ولم يَبقَ إلا أن تُسجَّل فى وثيقة يمضيها الطرفان[(٣)]. ورغم ما فى هذه الشروط من إجحافٍ ظاهرٍ اعترض عليه الصحابة، إلا أن النبى ﷺ آثر الموادعة، لأنه ﷺ يريد تجنب القتال، وعدم الدخول فى حروب..

وكان ينبغى بناءً على بنود الصلح أن يدخل من شاء فى حلف النبى ﷺ أو فى حلف قريش، وتُطبق عليه أحكام الصلح، وقد دخلت قبيلة خزاعة فى حلف المسلمين، ودخلت بنو بكر فى حلف قريش، ولكن بكرًا الموتورة

---

(١) رواه أحمد (٨٩٣٠)، وابن أبى شيبة فى مصنفه ٧/ ٣٨٧، وقال الألبانى فى تعليقه على فقه السيرة للغزالى: صحيح (٣٦٨٥٥).

(٢) سهيل بن عمرو، أحد أشراف قريش، أُسِرَ يوم بدر كافرًا، وكان خطيب قريش، وأراد عمر نزع ثنيته إلا أن النبى ﷺ قال له: «دعه؛ فعسى أن يقوم مقامًا تحمده» وكان ذلك المقام المحمود هو أنه لما ماج أهل مكة عند وفاة النبى ﷺ، وارتد من ارتد من العرب، قام فيهم خطيبًا وأتى فى خطبته بمثل ما جاء به الصديق رضي الله عنه بالمدينة، فكان ذلك معنى قول رسول الله ﷺ لعمر. الإصابة (٣٥٦٩)، أسد الغابة (٢/ ٣٤٦)، صفة الصفوة (١/ ٧٣١).

(٣) الشيخ محمد الغزالى: فقه السيرة، (ص٢٥٤).

من خزاعة بفعل ثأر قديم بيَّتت رجالًا من خزاعة، وقتلوهم؛ فلما استجار الخزاعيون بالحرم انتهكت بنو بكر حُرمة البيت، وقتلتهم بداخله، وقد شارك فى ذلك العديد من فرسان قريش!

واستنجدت خزاعة بالنبى ﷺ، وكان حقًّا عليه أن يفى بعهده وينصر حلفاءه، ويعاقب قريشًا التى نقضت العهد؛ فكان فتح مكة. فهل يُلام رسول الله ﷺ على حربه لمن نقض عهده، وقتل حلفاءه؟!

وبعد فتح مكة أكل الغلُّ قلوب قبيلة هوازن، فجمعوا الجموع لرسول الله ﷺ وظنُّوا أنهم قادرون على إطفاء نور الله ﷻ وإخماد جذوة الحق، ولكن الرسول ﷺ وصلته الأخبار فتجهز هو والمسلمون للقائهم، وخرجوا إليهم فى سهل حنين، فكانت غزوة حنين.

هذه هى حروبه ﷺ مع المشركين، ما كانت إلا اضطرارًا، وما بدأها أبدًا، ولكنهم دائمًا كانوا يبدؤون، وما ظلمهم لحظةً واحدة، ولكنهم كانوا دائمًا يظلمون، وبرغم كل ذلك لم يكن متشفيًا فيهم أبدًا، ولا حاقدًا عليهم، بل كان يتحين الفرص للعفو، ويكثر من قبول الأعذار، ولا يجعل الحرب إلا آخر دواءٍ.. ولم يكن هذه مرة أو مرتين فى حياته، بل كان كذلك على الدوام، فأى حروب مع المشركين - بعد أن شرحنا أسبابها - كان من الممكن أن يتجنبها؟ وأى المعارك كان من الممكن ألا يخوضها؟!

حروبه ﷺ مع اليهود

ولم يختلف اليهود كثيرًا عن المشركين، فبعد أن عاهدهم رسول الله ﷺ ووفَّى بعهدهم، وأحسن معاملتهم، ما كان منهم إلا الإساءة، ونكران

الجميل، ومحاولة تشكيك المسلمين فيما يعتقدونه من الحق، وقد صبر عليهم رسول الله ﷺ كثيرًا، وتغاضى عن الكثير من أخطائهم، ولم يعاقبهم عليها رغم فداحتها، إلا أن الأمر بلغ حدًّا لا يُطاق، وأصبح من الحكمة بمكان أن يتم اتخاذ موقف حازمٍ إزاء ما يفعله اليهود، فلقد بدأت قبائلهم فى نقض العهود الواحدة تلو الأخرى، فقام يهود بنى قينقاع بفعلٍ فاحش تمالؤوا فيه على الاعتداء على شرف امرأة مسلمة، كانت تشترى من سوقهم بعض حاجتها، كما اجتمعوا على قتل رجل مسلم[(١)].

واليهود بهذا الفعل الفاحش، وهذه الجريمة النكراء، أصبحوا ناقضين لعهدهم مع رسول الله ﷺ، وقد قَبِل الرسول ﷺ بإجلائهم وهو على استطاعة تامة أن يقتلهم جميعًا، وما فعله الرسول ﷺ من قبول الاكتفاء بإجلائهم عن المدينة يُعدُّ عفوًا عظيمًا عن أُناسٍ يستحقون القتل لنقضهم العهد، واعتدائهم على حرمات المسلمين، وتمالئهم على ذلك.

ولم يؤاخذ الرسول ﷺ طوائف اليهود الأخرى بفعل إخوانهم من بنى قينقاع، مع أنه كان بالإمكان إجلاؤهم أيضًا، فجميعهم ينتسب إلى دين واحد، لكن الرسول ﷺ أحسن إلى من بقى من طوائف اليهود، ومع ذلك قابل يهودُ بنى النضير هذا الإحسان بالإساءة، فحاولوا الغدر برسول الله ﷺ وقتله، فبينما كان يجلس بينهم، ذهب أحدهم ليلقى صخرة من أعلى على رسول الله ﷺ!!

إن الخيانة التى تسرى فى دماء اليهود قد دفعتهم إلى هذه الجريمة التى لا عقاب لها إلا القتل جزاءً وفاقًا، ومع ذلك فقد حقن رسول الله ﷺ

---

(١) ابن هشام السيرة النبوية (٢/ ٤٧).

دماءهم - بعدما مكّنه الله ﷻ من رقابهم، وقذف فى قلوبهم الرعب - وأجلاهم خارج المدينة، وتلك رحمة غير مسبوقة، ونادرة الحدوث من غير المسلمين فى التاريخ البشرى.

ولم يعاقب رسول الله ﷺ بنى قريظة مع بنى النضير، ولم يؤاخذهم بجرم إخوانهم الذين أرادوا قتله، فقد كانوا على عهد مع رسول الله ﷺ، أن يدافعوا مع المسلمين ضد أى عدوٍّ يهاجم المدينة، ولكن بنى قريظة خانوا المسلمين فى أشد المواقف حرجًا، فقد راسلوا الأحزاب المتجمعة حول المدينة، والآتية من مكة وما حولها لغزو المدينة واستباحتها، وتأكد الرسول ﷺ من صحة هذا الأمر.. فعن سعيد بن المسيب(١) رضي الله عنه فى سياق قصة الأحزاب: فبينما هم كذلك إذ جاءهم نعيم بن مسعود الأشجعى، وكان يأمنه الفريقان، كان موادعًا لهما، فقال: إنى كنت عند عُيينة بن حصن وأبى سفيان إذ جاءهم رسول بنى قريظة: أن اثبتوا فإنا سنخالف المسلمين إلى بيضتهم(٢).. أى أن اليهود يعدون الأحزاب إن خرج المسلمون إلى قتالهم أن يعتدى اليهود على نساء المسلمين وذراريهم وأموالهم وهو معنى مخالفة المسلمين إلى بيضتهم.

فهى إذن خيانة عُظمى من هذه الفئة التى كانت على عهد وميثاق مع

(١) سعيد بن المسيب القرشى، ولد سنة ١٣هـ، سيد التابعين، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة، جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع، وكان يعيش من التجارة بالزيت. وكان أحفظ الناس لأحكام عمر بن الخطاب وأقضيته، حتى سُمى راوية عمر. توفى بالمدينة سنة ٩٤هـ انظر: وفيات الأعيان ٢/ ٣٧٥. الأعلام ٣/ ١٠٢.

(٢) انظر مصنف عبد الرزاق (٩٧٣٧) ٥/ ٣٦٨، دلائل النبوة ٢/ ٥٠٤-٥٠٥، وقال ابن كثير فى البداية ٤/ ١٢٥ - ١٢٨: ولهذا الحديث طرق جيدة عن عائشة وغيرها، وبهذا يكون الحديث حسنًا.

الدولة الإسلامية، ثم هي في أحلك الظروف تنقض العهد، وتتعاون مع العدو المهاجم من خارج الدولة. فسبب غزوهم هو نقضهم للعهد الذى كان بينهم وبين النبى ﷺ فى أحلك الظروف وأصعبها على المسلمين، فهل يدَّعى أحدٌ بعد ذلك أن العقاب الذى أنزله النبى ﷺ بهم فيه شىء من الإجحاف أو الظلم؟ وماذا لو تمَّ لهم ما أرادوا من غدر وخيانة للمسلمين؟ إن مصير المسلمين فى هذه الحالة - من دون شك - هو القتل والتشريد وضياع المال والولد والأهل[1]..

أما يهود خيبر؛ فقد تحالفوا مع من جاءهم من يهود بنى النضير كحُيى ابن أخطب، وكنانة بن أبى الحقيق، وهَوذة بن قيس الوائلى، وخرج هؤلاء إلى قريش يدعونهم للتجمع والتحزب لاستئصال المسلمين فى غزوة الأحزاب، ثم خرجوا إلى غطفان؛ فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وجعلوا لهم تمر خيبر سنة، إن هم نصروهم، وأخبروهم أنَّ قريشًا قد تابعوهم على ذلك، واجتمعوا معهم فيه. ثم خرجت يهود إلى بنى سليم فوعدوهم المسير معهم إذا خرجت قريش.. لقد كانوا - إذن - العقل المدبر لتحالف الأحزاب ضد المسلمين. وعندما فرغ رسول الله ﷺ من أمر قريش وأَمِن جانبها بصلح الحديبية تفرَّغ ليهود خيبر وحاربهم.. فهل يُلام رسول الله ﷺ على حربه لمن حزَّب الأحزاب بغرض إبادة جماعية للمسلمين؟!

حروبه ﷺ مع النصارى

لم يكن احتكاك النصارى بالمسلمين مبكرًا كما كان الحال مع المشركين واليهود، وذلك لندرة النصارى فى منطقتى مكة والمدينة، ولكن

(١) انظر ابن كثير السيرة النبوية (٤/ ١١٥، ١١٦).

مع ازدياد قوة المسلمين وانتشار الإسلام فى الجزيرة العربية شعرت القبائل النصرانية - والتى كانت متمركزة فى الأساس فى مناطق الشمال - بالقلق والريبة، مما دفعها إلى جمع الجموع لمهاجمة المسلمين، وذلك منعًا لقوتهم من التزايد، ولنفوذهم من النمو.

وكان أول تجمع نصرانى من هذا النوع من قبائل قضاعة وغسان من أهل دومة الجندل، وكانت هذه القبائل تتعرض لقوافل المسلمين المارة بمناطقها، بل كان منهم من يريد غزو المدينة. أما الذى كان يُجَرِّئُ هذه القبائل على هذا العمل الخطير فارتباطها الوثيق بالدولة الرومانية، والتى تُعَدُّ القوة الأولى فى العالم فى ذلك الوقت، وكانت الدولة الرومانية لا ترضى - بلا شك - عن نمو أى قوة منافسة فى المنطقة.

وما إن علم الرسول ﷺ أن هذا الجمعَ يريد أن يهاجم المدينة حتى خرج إليهم، وذلك فى ربيع الأول سنة ٥ هـ، واستعمل على المدينة سباع ابن عرفطة(١)، وجاء الخبرُ أهل دومة الجندل فتفرقوا، ونزل الرسول ﷺ بساحتهم فلم يجد فيها أحدًا، فأقام بها أيامًا، وبثَّ السرايا(٢).

ولما ظهرت تكتلات أخرى تهدف لمحاربة المدينة أرسل الرسول ﷺ سرية بقيادة عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه إلى قبيلة كلب النصرانية الواقعة

---

(١) سباع بن عرفطة الغفارى، ويقال له: الكنانى، من كبار الصحابة، استعمله النبى ﷺ على المدينة حين خرج إلى خيبر، وإلى دومة الجندل. انظر: الاستيعاب ٢/ ٢٤١، أسد الغابة ٢/ ١٨٨، الإصابة (٣٠٧٦).

(٢) ابن سعد: الطبقات ٢/ ٦٢، ابن هشام ٣/ ٢٢٩، البلاذرى: أنساب ١/ ٣٤١، الطبرى: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٥٦٤، ابن سيد الناس: عيون الأثر ٢/ ٨٣، ابن القيم: زاد المعاد ٣/ ٢٥٥، المغلطاى: الإشارة ص٢٤٩، المقريزى: إمتاع الأسماع ص١٩٤.

بدومة الجندل، وذلك فى شعبان سنة ٦ هـ، وقد أوصى رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه بدعوتهم إلى الله تعالى، ومن بين ما قال له: «**إن استجابُوا لك فتزوج ابنة ملكهم**»[١] - وذلك كسبًا لمودتهم وتعزيزًا للعلاقات معهم - فسار عبد الرحمن حتى قدم دومة الجندل؛ فمكث ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام فأسلم الأصبغ بن عمرو الكلبى، وكان نصرانيًّا وكان رأسهم، وأسلم معه ناسٌ كثير من قومه، وتزوج عبد الرحمن تماضر بنت الأصبغ، وقدم بها إلى المدينة[٢]. وهكذا نرى حرص الرسول ﷺ على التواد والتحاب مع من حوله، ودعوتهم إلى الله تعالى، والمحاولات المتكررة لإيصال الخير إليهم.

ثم حدثت أزمة شديدة عندما بعث رسول الله ﷺ وفدًا من الدعاة المسلمين إلى مشارف الشام يُعلمون الناس مبادئ الإسلام؛ فوَثَبت عليهم جموع العرب الموالين للروم فقتلتهم جميعًا فى مكان يُسمى (ذات أطلاح)[٣]، وكانوا خمسة عشرَ داعيًا، واستطاع رئيسهم[٤] النجاة بأعجوبة..

وكذلك لما بَعث الرسول ﷺ الحارثَ بن عُمَير الأزدى إلى ملك بُصرَى بكتاب؛ نزل مؤتة[٥] فعرض له شرحبيل بن عمرو الغسانى - وكان

(١) البيهقى: دلائل النبوة، ابن سعد: الطبقات الكبرى، ابن حبان: الثقات، ابن القيم زاد المعاد.

(٢) انظر ابن سعد: الطبقات الكبرى (٢/ ٦٤-٦٥) بتصرف.

(٣) ذات أطلاح: مكان قرب دمشق الحالية.

(٤) كعب بن عُمير الغفارى، بعثه رسول الله ﷺ مرة بعد مرة على السرايا، وقد بعثه ﷺ إلى ذات أطلاح، فأصيب أصحابه جميعًا حين قتلتهم قضاعة، وسَلِم هو جريحًا. انظر: الاستيعاب (٣/ ٣٨٠)، أسد الغابة ٤/ ١٧٥، والإصابة الترجمة (٧٤٢٦).

(٥) قرية من قرى البلقاء فى حدود الشام، وكانت تطبع السيوف، وهى الآن بلدة أردنية: معجم البلدان (٤/ ١٧٨)، والمعالم الجغرافية الواردة فى السيرة النبوية.

الغساسنة الذين يدينون بالنصرانية ويتبعون الدولة البيزنطية - فقال: أين تريد؟ فقال: الشام، قال: لعلك من رسل محمد؟ قال: نعم. أنا رسولُ رسولِ الله ﷺ، فأمر به فأُوثق رباطًا، ثم قدَّمه فضرب عنقه صبرًا. فبلغ رسول الله ﷺ الخبر فاشتد عليه، وندب الناس فأخبرهم بمقتل الحارث ومن قتله[1].

ولم يكن أمام المسلمين إزاء هذه الحوادث إلا أن يردعوا الروم وأشياعهم حتى لا يعاودوا ما فعلوه مرة أخرى. فأرسل النبي ﷺ حملة تأديبية من ثلاثة آلاف مقاتل أخذت طريقها إلى الشام، بَيد أن الروم كانوا قد استعدوا بجيش كثيف للقاء هذه الكتيبة من المؤمنين، فجمعوا نحو مائتي ألفٍ من رجالهم، ومن انضم إليهم من قبائل لخم وجذام والقين وبهراء وبلي.

ومع الفارق المهول بين أعداد المسلمين والرومان إلا أن المسلمين خاضوا هذه المعركة الشرسة، فقُتِلَ قادتُها الثلاثة على التعاقب؛ زيد بن حارثة، وجعفر ابن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، وانسحب خالد بن الوليد بجيشه إلى المدينة.

وهنا يثور التساؤل: هل كان مطلوبًا من المسلمين أن يصمتوا على قتل رسلهم، وإهانة كرامة دولتهم، حتى لا يُتَّهموا بأنهم يسعون إلى القتال دائمًا؟!!

وبعد مؤتة بعام تجمَّع الرومان ومن شايعهم من قبائل العرب النصرانية

(١) ابن سعد: الطبقات، وابن سيد الناس: عيون الأثر، ومغلطاي: الإشارة، وابن القيم: زاد المعاد وابن حجر في الفتح.

(أمثال: لخم، وجذام، وعاملة، وغسان) مرَّة أخرى فى منطقة البلقاء (الأردن حاليًا) يريدون دولة الإسلام، وعلم الرسول ﷺ أن هناك تجمعاتٍ للرومان ومن حالفهم بهدف القضاء على المدينة المنورة.. فقرر أن يخرج إليهم فى شمال الجزيرة العربية. وبالتالى خرج الرسول ﷺ بنفسه على رأس أعظم جيوشه، وأقرب خاصته؛ ليلقى أعتى قوة فى العالم، وذلك حتى يحفظ دماء شعبه، فكانت غزوة تبوك[1] المشهورة، وألقى اللهُ الرعبَ فى قلوب قادة الروم وجنودهم، وأتباعهم من نصارى العرب؛ ففرُّوا خائفين لا يلوون على شىء، وليس من الممكن أن يُطلب من المسلمين أن يُغمضوا أعينهم، ويتعاموا عن المؤامرات التى تُحاكُ ضدهم.

هذه هى ملابسات الحروب التى خاضها الرسول ﷺ مع المشركين، ومع اليهود والنصارى، وقد ظهر لنا من خلالها أنه ﷺ لم يبدأ أحدًا فيها بعدوان، بل كان يرد بها عدوانًا واقعًا، أو وشيك الوقوع؛ لأن الحرب فى الإسلام ليست أول ما يلجأ إليه المسلمون لحل خلافاتهم مع أعدائهم، بل هى دومًا - كما بينَّا - آخر الدواء.

---

(١) تبوك: كانت منهلًا من أطراف الشام، وكانت من ديار قضاعة تحت سلطة الروم، وقد أصبحت اليوم مدينة من مدن شمال الحجاز الرئيسية، وهى تبعد عن المدينة المنورة شمالًا (٧٧٨كم) المعالم الجغرافية الواردة فى السيرة النبوية ص٢٣٦.

أخلاق النبى ﷺ بعد انتهاء الحرب

لا شك أن الحروب فى حد ذاتها تُعتبر من الصدمات الكبرى التى تتغير عندها النفوس، وتضطرب الأفئدة، فكل طرف حريص على النصر على عدوه، وتحقيق الفوز مهما تكلَّف من ضحايا وأموال.. ولا شك أن كثيرًا من المعايير تتغير أثناء القتال عند كثير من المحاربين، ومن أول المعايير التى تتغير المعايير الأخلاقية، فما كنت مقرًّا له قبل القتال لعلك تخالفه أثناء الحرب، وما كنت ترفضه قبل القتال قد تقبله بعده، وما كان حسنًا قد يصير قبيحًا، وما كان قبيحًا قد يصير حسنًا، وهكذا.. هذا كله أثناء القتال.. فإذا انتهى القتال ازداد الأمر تعقيدًا، فإن نشوة النصر، أو مرارة الهزيمة تغيِّر كثيرًا من طبيعة الإنسان، فيتكبر المتواضع، وييأس المتفائل، ويحقد الحليم، ويغدر الوفى، وغير ذلك من التقلبات العجيبة، التى من كثرتها أصبحنا نعتقد أنها الأصل، فكم تنكَّر منتصرٌ لوعوده، وكم خرج مهزوم عن حدود الأخلاق التى اشتُهر بها!!

هذا يحدث مع كثير من الناس، بل يحدث مع أغلب الناس، وهو فى القادة أظهر، لأن الجميع ينظر إليهم، والنصر فى النهاية يُنسب إليهم، والهزيمة كذلك تُنسب إليهم، وهذه المسئولية تُغير كثيرًا من طباعهم وأخلاقهم.

هذا ينطبق تمامًا على معظم قادة العالم فى القديم والحديث..

لكنه لا ينطبق بالمرة على رسول الله ﷺ!!

لقد كان رسول الله ﷺ آية مبهرة فى الأخلاق والقيم، مهما تغيرت

الظروف، أو تبدلت الأحوال، ذلك لأن مرجعيته واحدة، وأصوله ثوابت.. إنه لا يُجمل أخلاقه ليُثنى عليه فلان، أو يمدح فعاله فلان.. إنه يفعل ذلك لأن الله ﷻ أمره بذلك، والرقيب عليه هو الله... والمحاسب له هو أيضًا رب العزة سبحانه وتعالى.. فلماذا إذن تتغير أخلاقه، أو تتبدل طباعه؟!

إن هذا هو الفارق الرئيسى بين القائد المسلم الملتزم بتعاليم دينه، والمراقب لربه، والقائد الذى ليس له مرجعية إلا هواه ومصالحه.

لقد أظهر لنا رسول الله ﷺ بعد انتهاء حروبه مجموعة من روائع الأخلاق، وبدائع القيم يجدر بكل قائد أو إنسان أن يقف أمامها ويتدبر، وإنها - والله - لمن دلائل نبوته!![1].

---

(١) أخلاق الحرب (ص١٦٤-١٦٥).

أخلاق النبى ﷺ بعد تحقيق النصر

تُنسى نشوة النصر كثيرًا من القادة قواعد الأخلاق الأساسية، فنسمع عن استباحة للبلاد، وإراقة للدماء، وخراب للعمران، وخُلفٍ للعهود والوعود.. لكن حال رسول الله ﷺ بعد النصر كان بعيدًا كل البعد عن هذه الشرور والآثام.

۞ لقد كان النبى ﷺ بعد النصر يعفو ويصفح عمَّن حاربوه وآذوه وآذوا أصحابه مع أنه كان يستطيع أن يُبيدهم فى غمضة عين.. لقد كان هذا العفو من العلامات المميزة له ﷺ، حتى ذكرها رب العالمين فى صفته فى كتب الأولين، فقد قال زيد بن سعنة[1] رضي الله عنه أنه قد جاء فى التوراة أنه «**يسبق حلمُهُ جهلَه، ولا يزيده شدةُ الجهل عليه إلا حلمًا**»[2].

۞ ولقد رأينا كيف أن النبى ﷺ لما دخل مكة فاتحًا منتصرًا عفا عن أهلها وقال لهم: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**» مع أنه لو علق لهم المشانق فى تلك اللحظة فلن يلومه أحد لأن أهل مكة قد ارتكبوا الجرائم الكثيرة فى حق النبى ﷺ وأصحابه.

۞ بل وكان النبى ﷺ لا يعفو عن المحاربين فحسب بل كان يعفو عن زعماء الكفر الذين قادوا الحروب ضده وفعلوا بأصحابه الأفاعيل.

۞ فها هو ﷺ يعفو عن عكرمة بن أبى جهل الذى عادى النبى ﷺ أكثر

---

(١) زيد بن سعنة أحد أحبار يهود ومن أكثرهم مالًا، أسلم وحسن إسلامه وشهد مع النبى ﷺ مشاهد كثيرة، وتوفى فى غزوة تبوك مقبلًا إلى المدينة، أسلم لما رأى من حسن أخلاق النبى ﷺ الإصابة (٢٨٩٩)، أسد الغابة (٢/ ١٤٩)، الاستيعاب (٢/ ١٢٢).

(٢) رواه ابن حبان والحاكم وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يُخرجاه.

من عشرين سنة وكان أبوه (أبو جهل) من أشد الناس عداءً للنبى ﷺ.

۞ وها هو يعفو عن سهيل بن عمرو الذى كان له تاريخ طويل فى الصد عن سبيل الله.

۞ وها هو يعفو عن فضالة بن عُمير الذى كان من أشد أعداء النبى ﷺ ووصل حقده على الرسول ﷺ إلى الدرجة التى أراد معها أن يقتله فى وقت الفتح!! وهذا أمر جدُّ خطير؛ فالرسول ﷺ فى وسط جيش كبير يبلغ عشرة آلاف من الصحابة رضوان الله عليهم، وإذا قام فضالة ابن عمير بهذا التهوُّر فلا شك أنه مقتول، وهذا يوضح مدى الحقد الذى ملأ قلبه، فقرر أن يضحى بنفسه ليقتل الرسول ﷺ..!!

حمل فضالة السيف تحت ملابسه، ومر بجوار الرسول ﷺ وهو يطوف بالبيت، فلما دنا منه قال الرسول ﷺ: «**أفُضالة؟**» قال: نعم، فضالة يا رسول الله.. (وكان يدَّعى الإسلام فى ذلك الوقت).

فقال ﷺ: «**ماذا كُنت تُحدثُ به نفسك؟**» قال: لا شىء، كنتُ أذكر الله.. فضحك الرسول ﷺ، وقال: «**استغفر الله يا فُضالة**».. ثم وضع ﷺ يده على صدر فضالة فسكن قلبه!!

فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما من خلق الله شىءٌ أحبُّ إلىَّ منه ﷺ(١).

وكان من عفو رسول الله ﷺ وكرمه أنه كان يُعيد زعماء القبائل الذين حاربوه وصدُّوا دعوته إلى مناصبهم عند انتصاره عليهم؛ فقد أعاد عُيينة بن حصن إلى زعامة بنى فزارة، مع العلم أنه كان من المحاصرين للمدينة

---

(١) انظر: ابن كثير: البداية والنهاية (٤/ ٣٤٢).

المنورة يوم الأحزاب، وذلك تحت راية غطفان، وأعاد كذلك العباس ابن مرداس إلى زعامة بنى سليم، وأعاد الأقرع بن حابس إلى زعامة بنى تميم، وأعاد جيفرًا وعبَّادًا إلى زعامة عُمان، وأعاد باذان إلى زعامة اليمن وأعاد المنذر بن ساوى إلى زعامة البحرين(١) وغيرهم وغيرهم.

وحصرُ ذلك يصعب لشدة تكراره، وهذا دليل على سمو نفس النبى ﷺ، وحُسن خلقه وعفوه.

وهكذا كانت أخلاق النبى ﷺ فى حروبه وبعد حروبه، فما أروعها من أخلاق تدلُّ دلالة واضحة على صلته بربه الذى أدَّبه فأحسن تأديبه ﷺ!(٢).

۞ وكان النبى ﷺ لا يتفاخر بنصره على الأعداء بل كان قمة فى التواضع وهو فى قمة النصر على الأعداء.

يقول أنس رضي الله عنه: دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وذقنه على رَحْلِه متخشعًا(٣).

---

(١) الطبقات الكبرى / لابن سعد (١/ ٢٦٣).

(٢) أسوة للعالمين (ص٣١٩).

(٣) الحاكم (٤٣٦٥)، وقال: صحيح على شرط مسلم. ولم يخرجاه، ووافقه الذهبى.

أخلاق الرسول ﷺ فى التعامل مع الأسرى

لم يخرج رسول الله ﷺ عن طبيعته الأخلاقية أبدًا فى أى أمر من أمور حياته، لذا لم يكن مستغربًا أن يتعامل مع أسرى الدولة الإسلامية بنفس الأخلاق النبيلة، والآداب الرفيعة، ولم ينظر إليهم مطلقًا على أنهم كانوا حريصين منذ لحظات على قتله وقتل أصحابه، بل تعامل معهم بطريقة قد تفوق تعامل عموم الناس مع أقاربهم وذوى أرحامهم.

ولعل روعة الأخلاق النبوية تتضح بصورة أكبر إذا قارنّاها بتعامل الأمم الأخرى مع الأسرى بصفة عامة، وبأسرى المسلمين بصفة خاصة.

ولعل العالم قد تابع ما كشفه فيلم وثائقى جديد عرضته القناة الأولى بالتلفزيون الإسرائيلى بتاريخ ٢٥ فبراير ٢٠٠٧م عن فضيحة أخلاقية، تمثلت فى قيام الجيش الإسرائيلى بقتل ٢٥٠ أسيرًا مصريًّا فى شبه جزيرة سيناء عقب انتهاء القتال فى حرب يونيو عام ١٩٦٧م، والمخزى فى تصرف القوات الإسرائيلية أن الجنود المصريين كانوا قد استسلموا بعد نفاذ ذخيرتهم، فما وجه الخطورة التى دفعت القوات الإسرائيلية لقتلهم!! وكان القتل للجنود المصريين بأوامر مباشرة من القائد بنيامين بن إليعازر (وزير البنى التحتية الإسرائيلية الحالى)، وكانت الأوامر تقتضى قتل الجنود المصريين حتى بعد استسلامهم[١]!! وما رأيناه فى تليفزيون اليهود هو نفسه الذى حدث فى أفغانستان على يد القوات الأمريكية، حيث قامت هذه

---

(١) جريدة المصريون الإلكترونية بتاريخ ٢٧ فباير ٢٠٠٧ م، الرابط الإلكترونى:

www.Almesryoon/ShowDetails?Newid=٣١٠٤٢

القوات باقتياد ٨٠٠ مقاتل من طالبان بعد استسلامهم إلى معتقل قلعة جانجى فى أفغانستان، ثم أمرت الطيران الحربى بقصف المعتقل مما خلف مئات الجثث المتفحمة، كما قامت القوات الأمريكية أيضًا بشحن ٣٠٠٠ أسير أفغانى فى حاويات نقل مغلقة بحجة نقلهم إلى سجن شبرقان بأفغانستان، وتركتهم فى العربات المغلقة فى الصحراء، وهم مقيدون ومعصوبوا الأعين لمدة أربعة أيام؛ طريقة جديدة مبتكرة للقتل البشع[١]!! وليس الذى حدث بعد ذلك فى معسكرات اعتقال الأسرى فى جوانتانامو وسجن أبى غريب[٢] بخافٍ على أحد، ويكفى أن نعرف أن منظمة العفو الدولية قد كشفت عن وجود أطفال محتجزين فى القاعدة البحرية للولايات المتحدة فى خليج جوانتانامو، والذين وصل عددهم إلى ٦٠٠ طفل معتقل أكبرهم لم يتجاوز الخامسة عشر من عمره، وأنه قد يمر على الطفل منهم عام كامل لا يعلم أحد عنه شيئًا ولا عن مكانهم سواء من أُسرهم أو حتى من مُحاميهم[٣]!! فهل يدعى أحدٌ أن البشرية قد وصلت إلى الرقى المطلوب مع كل هذه المظاهر المؤسفة؟!

إن النقلة النوعية الحقيقية التى شهدتها البشرية كانت عند نزول الرسالة الإسلامية على رسول الله ﷺ، وكانت فى تطبيقه الرائع لكل البنود الأخلاقية التى جاءت فى حق الأسرى[٤].

---

(١) د. محمد الحسينى إسماعيل / الإسلام والغرب (ص١٦٢، ١٦٣) بتصرف.

(٢) د. راغب السرجانى / التعذيب فى سجون الحرية (٢٦، ٢٧).

(٣) جزء من رسالة موجهة للرئيس الأمريكى مبعوثة من منظمة العفو الدولية بتاريخ ٢٤ أبريل ٢٠٠٣، ومنشورة على موقع المنظمة على شبكة الإنترنت، بعنوان: رسالة إلى الرئيس جورج بوش.

(٤) أخلاق الحروب (ص٢٩٧ -٢٩٨).

النبى ﷺ والعفو عن الأسرى

لقد شاع الرِّق والاستعباد فى أيام الجاهلية وكذلك فى الفترات التى عاصرت ظهور الدين الإسلامى... لكن النبى ﷺ جاء بفكرٍ جديد كله رحمة وتسامح.. فقد جاء بفكرٍ يدعو إلى تحرير العبيد وفك الأسرى.

۞ وها هو ﷺ يوصى أصحابه والأمة من بعدهم ويقول: «**فُكُّوا العانى**(١)**، وأطعمُوا الجائع وعُودُوا المريض**»(٢) - العانى: الأسير -.

وسأله رجل يومًا فقال: يا رسُول الله علمنى عملًا يُدخلُنى الجنة، فقال: «**لئن كُنت أقصرت الخُطبة لقد أعرضت المسألة: أعتق النسمة وفُك الرقبة**» فقال: يا رسُول الله أَوَ ليستا بواحدةٍ قال: «**لا إن عتق النسمة أن تَفَرَّد بعتقها وفك الرقبة أن تُعين فى عتقها..**»(٣). وقال رسول الله ﷺ: «**من أعتق رقبةً أعتق الله بكل عُضوٍ منها عضوًا منهُ من النارِ**»(٤).

۞ وها هى بعض المواقف التى عفا فيها النبى ﷺ عن الأسرى:

۞ أسيرا سرية نخلة:

أسر المسلمون فى هذه السرية - وكانت فى رجب من السنة الثانية من الهجرة - اثنين من المشركين هما أول أسيرين فى الإسلام: الحَكَم بن كيسان وعثمان بن عبد الله، فأما الأول - الحَكَم - فنظرًا لما وجده من المعاملة الكريمة فإنه أسلم وحسُن إسلامُه، وأقام عند رسول الله حتى

---

(١) العانى: هو كل من وقع فى ذل واستكانة وخضوع، ويُقصد به الأسير.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٢٨٨١) كتاب الجهاد والسير.

(٣) رواه أحمد وابن حبان والحاكم وصححه الألبانى.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٦٣٣٧) كتاب الكفارات والنذور، ومسلم (١٥٠٩) كتاب العتق.

استُشهد يوم بئر معونة فى السنة الرابعة للهجرة، وأما عثمان بن عبد الله فلحق بمكة فمات بها كافرًا..(١).

أسرى بدر:

ونحن نعلم أن غزوة بدر كانت أول لقاء بين المسلمين والمشركين وأن الله نصر المسلمين نصرًا مؤزرًا مع قلة عددهم وعُدتهم فقتلوا سبعين وأسروا سبعين من المشركين واستشار الرسول ﷺ أصحابه رضي الله عنهم فى شأن هؤلاء الأسرى، وماذا يفعل معهم؟ يحكى ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيقول: قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، وإنى أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذناه قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عَضُدًا، فقال رسول الله: «ما ترى **يا ابن الخطاب؟**» قال: قلت: والله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تُمكننى من فلان - قريب لعمر - فأضرب عنقه، وتُمكن عليًّا من عقيل(٢) فيضرب عنقه، وتُمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أنه ليست فى قلوبنا هوادة للمشركين، وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم. فهوى الرسول ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهوَ ما قلتُ - أى عمر رضي الله عنه - وأخذ منهم الفداء(٣).

وعلى الرغم من نزول الآيات بعد هذا الموقف تعاتب النبى ﷺ أنه أخذ بالرفق واللين مع هؤلاء الأسرى فى هذا الموقف ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن

---

(١) السيرة النبوية / لابن كثير (٢/ ٣٦٦) بتصرف.

(٢) عقيل بن أبى طالب رضي الله عنه، وهو أخو على بن أبى طالب رضي الله عنه، وكان عقيل آنذاك مشركًا فى جيش الكفار.

(٣) ابن كثير: السيرة النبوية (٢/ ٤٥٧).

يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(١)

رغم ذلك؛ لم يكن هذا دافعًا لأن يسيء الرسول ﷺ معاملة هؤلاء الأسرى، أو يُغير من تعامله معهم بعد أن أخذ قرارًا بإعفائهم من القتل، وقبول الفدية ممن يستطيع منهم، وقد تفاوت مقدار هذه الفدية ونوعها بحسب حالة كل أسير.

فقد أطلق الرسول ﷺ بعض الأسرى كعمرو بن أبى سفيان مقابل أن يطلق المشركون سراح سعد بن النعمان بن أكال رضي الله عنه، الذى أسره أبو سفيان وهو يعتمر(٢).

ومن الأسرى من كان يفدى نفسه بالمال، وكان رسول الله ﷺ يراعى الحالة المادية لكل أسير، فمنهم من دفع أربعة آلاف درهم كأبى وداعة، وأبى عزيز واسمه زرارة بن عمير - وهو أخٌ لمصعب بن عمير رضي الله عنه - دفعتها أمه، وكانت صاحبة مالٍ وفير، ومنهم من دفع مائة أوقية كالعباس بن عبد المطلب، ومنهم من دفع ثمانين أوقية كعقيل بن أبى طالب، وقد دفعها له العباس، ودفع بعض الأسرى أربعين أوقية فقط(٣).

أما من لم يكن معه مال، وكان يعرف القراءة والكتابة فكان فداؤه أن يُعلم بعض المسلمين القراءة والكتابة؛... فقد روى ابن عباس قال: كان ناسٌ من الأسرى يوم بدرٍ لم يكُن لهم فداءٌ فجعل رسُولُ الله ﷺ فداءهُم أن

(١) سورة الأنفال: الآيتان: (٦٧، ٦٨).

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية (٣/ ٣١١).

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٤/ ١٤).

يُعلمُوا أولاد الأنصار[١].

ومن هؤلاء الأسرى مَن منَّ الرسولُ ﷺ عليه بغير فداء مثل: المطلب ابن حنطب، وأبى عزة الشاعر، وصيفى بن أبى رفاعة[٢].

وقد أحسن رسول الله ﷺ أيضًا إلى سهيل بن عمرو مع أنه كان من زعماء قريش المعتبرين، إلا أنه لم يشأ أن يهينه أو يُمثل به وإن كان قادرًا على ذلك، وقد أراد عمر بن الخطاب رضي الله عنه نزع ثنيتى سهيل بن عمرو حتى لا يقوم خطيبًا على الرسول ﷺ فى موطن أبدًا، فقال رسول الله ﷺ: **«لا أُمثلُ به فيُمثل اللهُ بى وإن كُنتُ نبيًّا»**[٣].

وكان فى الأسرى أيضًا أبو العاص بن الربيع ختن[٤] رسول الله ﷺ على ابنته زينب فبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها عليه حين بنى عليها.. فلما رآها رسول الله ﷺ رَقَّ لها رقة شديدة، وقال: **«إن رأيتُم أن تُطلقُوا لها أسيرها، وتردُّوا إليها متاعها فعلتُم»**. قالوا: نعم يا رسول الله؛ فأطلقوه، وردُّوا عليها الذى لها[٥]. فكان هذا أيضًا ممن أُطلق بغير فداء.

وكان ﷺ على استعداد لإطلاق الجميع - كما مر بنا فى هذا البحث - من دون فداء لو شفع فيهم المطعم بن عدى الزعيم المشرك المعروف، غير أنه كان قد مات،وقد أشار إلى ذلك رسول الله ﷺ كما فى البخارى عن

(١) أحمد عن ابن عباس، وقال شعيب الأرناؤوط: حسن. وقال الهيثمى: رواه أحمد عن على بن عاصم، وهو كثير الغلط والخطأ، وقد وثقه أحمد. مجمع الزوائد (٤/ ١٧٢).

(٢) ابن سيد الناس: عيون الأثر (١/ ٣٥٢).

(٣) الحاكم (٣/ ٣١٨)، ابن هشام: السيرة النبوية (٣/ ٢٠٠).

(٤) خَتَنُ الرجلِ: المُتزوِّجُ بابنته. لسان العرب (١٣/ ١٣٧).

(٥) ابن سيد الناس: عيون الأثر (١/ ٣٥١-٣٥٢).

جبير بن مطعم رضي الله عنه: أن النبى قال فى أُسارى بدر: «**لو كان المُطعمُ بنُ عدىٍّ حيًّا ثُم كلمنى فى هؤُلاء النَّتنى لتركتُهُم لهُ**»(١)؛ وذلك لأنه اشترك فى نقض الصحيفة التى قاطعت بها قريش بنى هاشم، وكذلك أجار النبى ﷺ فى مكة عند عودته من الطائف.

ومن الواضح أنه تم إطلاق سراح جميع مَن بقى من أسرى بدر خلال أقل من عامٍ من غزوة بدر، ومما يؤكد هذا الأمر أن المشركين فى أُحُد لم يتفاوضوا على أى أسرى.

❁ أسرى الحديبية:

وهذا من مواقف الرحمة العجيبة فى السيرة!

قال عبد الله بن مُغفل المُزنى رضي الله عنه: كُنا مع رسُول الله ﷺ بالحُديبية فى أصل الشجرة التى قال الله تعالى فى القُرآن وكان يقعُ من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسُول الله ﷺ وعلىُّ بنُ أبى طالبٍ وسُهيلُ بنُ عمرو بين يديه فقال رسُولُ الله ﷺ لعلىٍّ رضي الله عنه: «**اكتُب بسم الله الرحمن الرحيم**» فأخذ سُهيلُ بنُ عمرو بيده فقال: ما نعرفُ بسم الله الرحمن الرحيم.. اكتُب فى قضيتنا ما نعرفُ قال: «**اكتُب باسمك اللهُم**» فكتب «**هذا ما صالح عليه مُحمدٌ رسُولُ الله ﷺ أهل مكة**» فأمسك سهيلُ بنُ عمرو بيده وقال: لقد ظلمناك إن كُنت رسُوله اكتُب فى قضيتنا ما نعرفُ فقال ﷺ: «**اكتُب هذا ما صالح عليه مُحمدُ بنُ عبد الله بن عبد المُطلب وأنا رسُولُ الله ﷺ**» فكتب، فبينا نحنُ كذلك إذ خرج علينا ثلاثُون شابًّا عليهم السلاحُ فثارُوا فى وُجُوهنا فدعا عليهمُ رسُولُ الله ﷺ فأخذ الله عز وجل بأبصارهم فقدمنا إليهم

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٩٧٠) كتاب الخمس.

فأخذناهُم فقال رسُولُ الله ﷺ: «**هل جئتُم في عهد أحدٍ أو هل جعل لكُم أحدٌ أمانًا**» فقالُوا: لا.. فخلى سبيلهُم فأنزل الله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾[1][2].

فهذا عفو في موقف عجيب، فالمسلمون ممنوعون من دخول مكة، وقريش قد أعدت العُدة لحربهم، ومع ذلك لا يأخذ الرسول ﷺ هؤلاء الأسرى رهينة، بل يمنُّ عليهم بغير فداء، ولا يجعلهم ورقة ضغط على المشركين حتى في هذا الموقف الصعب!

إنها الرحمة في أرقى صورها!

وليس هذا فقط، بل - كما مر بنا - فعل رسول الله ﷺ نفس الموقف مرة ثانية بعد الصلح، مما يؤكد أنها كانت سياسة عامة، وليست مجرد مواقف نادرة![3].

---

(١) سورة الفتح: الآية: (٢٤).

(٢) رواه أحمد، والحاكم، وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين، والبيهقي في الكبرى، والنسائي في الكبرى، وقال شعيب الأرناؤوط: صحيح.

(٣) أخلاق الحروب/ د. راغب السرجاني (ص٣٠١-٣٠٤).

حسن معاملة الأسرى

يتعين على المسلمين فى بعض الظروف أن يحتفظوا بالأسرى، وأقرب الظروف إلى الذهن أن يكون العدو قد أسر من المسلمين رجالًا يلزم أن نبادلهم بأمثالهم. ولكن لا شك أن طريقة رسول الله ﷺ فى التعامل مع الأسرى كانت فى قمة الرحمة والإحسان.

لقد كانت القاعدة العامة التى حث عليها الرسول ﷺ فى أول غزوة غَنِم فيها المسلمون أسرى هى: «**استوصُوا بهم** - أى: بالأسرى - **خيرًا**»(١).

إن الفطرة السليمة تأبى التعذيب للنفوس البشرية، بل إنها لا ترضى بتعذيب الحيوان أو الطير، وقد ربَّى الرسول ﷺ صحابته الكرام رضي الله عنهم على الرحمة... فقد روى جرير بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله قال: «**من لا يَرحم الناس لا يُرحم**»(٢)، فكان الصحابة رضوان الله عليهم نماذج عملية فى الرحمة ببنى البشر جميعًا مسلمين وغير مسلمين. هذا هو المنطلق الذى كان يتحرك منه رسول الله ﷺ والمسلمون سواء فى قضية الأسرى أو فى غيرها من القضايا.

بل إن شريعة الإسلام تذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، حيث تمنع تعذيب الأسير للإدلاء بمعلومات عن العدو، وقد قيل للإمام مالك: أيُعذَّبُ الأسيرُ إن رُجى أن يدل على عورة العدو؟ قال: ما سمعت بذلك(٣).

---

(١) راه الطبرانى فى الكبير (٩٧٧)، وفى الصغير، وقال الهيثمى: إسناده حسن من حديث أبى عزيز ابن عمير. مجمع الزوائد (٦/ ١١٥).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٩٤١) كتاب التوحيد، ومسلم (٢٣١٩) كتاب الفضائل.

(٣) محمد بن يوسف المواق: التاج والإكليل (٣/ ٣٥٣).

راحة الأسير البدنية

إن الناظر لحرص المنهج الإسلامى على راحة الأسير البدنية والصحية لُيدرك - بما لا يدع مجالًا للشك - أن هذا المنهج إلهى، وليس من صُنع البشر! إنه ليس من أحد أرحم بالعباد من الله ﷻ.. ومن رحمته أنه أوصى برعاية الأسير حتى لو كان هذا الأسير كافرًا به سبحانه! وقد أبدع رسول الله ﷺ فى تطبيق هذا المنهج الإلهى الرحيم فخرجت لنا عدة مواقف نجزم أنها لا توجد فى تاريخ أمة غير أمة الإسلام.

۞ إطعام الأسرى:

قال الله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾[١]. فى هذه الآية الكريمة من الدستور الإسلامى - القرآن الكريم - يحثُّ الله تعالى عباده المؤمنين على الإحسان إلى أسراهم وإطعامهم، ويعدُهم بذلك النعيم فى الآخرة، وليس هذا الإحسان فى حال توافر المال فقط، بل إن الله يأمر أن يكون هذا الإطعام والإحسان فى كل الأحوال، حتى فى حال الفقر والاحتياج! وهذا الذى تحمله لنا كلمة ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾.. يقول ابن كثير: أى يُطعمون الطعام وهم يحبونه ويشتهونه[٢]. ثم إن الأروع من ذلك أن الله ﷻ يحثُّ المسلمين على فعل ذلك لا لشىء إلا لله سبحانه وتعالى، فيقول: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾[٣]، فنحن لا نُكرم الأسرى أو نطعمهم لرغبتنا فى ثناء معين، أو طلبًا للمعاملة بالمثل، أو خوفًا من رقابة محلية أو

---

(١) سورة الإنسان: الآية: (٨).

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٨٤).

(٣) سورة الإنسان: الآية: (٩).

عالمية، أو لغير ذلك من مصالح الدنيا، إنما نفعل ذلك لأننا نتقرب بهذا الفعل إلى الله ﷻ، ونرجو منه سبحانه المكافأة والجزاء، وهذا يُعطى أمانًا أكثر للأسير، لأن المسلم يُحسن معاملته وهو يعلم أن الله يراقبه، وما دام الله يراقبنا فى كل أحوالنا فسوف نُحسن إلى الأسرى فى كل تعاملاتنا!

قال ابن عباس: أمر رسول الله ﷺ أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسارى، فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغداء.

ولم يكن الصحابة رضوان الله عليهم يُقدمون للأسرى ما بقى من طعامهم، بل كانوا ينتقون لهم أجود ما لديهم من طعام، ويجعلونهم يأكلونه عملًا بوصية رسول الله ﷺ بهم.. وها هو أبو عزيز - شقيق مصعب بن عمير رضي الله عنه - يحكى ما حدث فيقول: «كنت فى رهط من الأنصار حين أقبلوا بى من بدر، فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصُّونى بالخبز، وأكلوا التمر لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا، ما تقع فى يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحنى بها؛ فأستحى فأردها فيردها علىَّ ما يمسها!

۞ كسوة الأسرى:

لم يقتصر المسلمون على إطعام أَسراهم من المشركين؛ بل إنهم كانوا يقدمون لهم الملابس أيضًا، وهذا ثابت فى الصحيح، فقد جعل البخارى رضي الله عنه بابًا فى الصحيح سمَّاه: باب الكسوة للأسارى، وذكر فيه أن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «لما كان يوم بدرٍ أُتى بأُسارى وأُتى بالعباس ولم يكُن عليه ثوب فنظر النبىُّ ﷺ لهُ قميصًا فوجدُوا قميص عبد الله بن أُبى يَقدُرُ عليه فكساهُ النبىُّ ﷺ إياهُ..»[1] الحديث.

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٨٤٦) كتاب الجهاد والسير.

وورد أيضًا أن رسول الله ﷺ أمر لأسرى هوازن بالكساء فقد أمر رجلًا أن يَقدم مكة فيشترى للسبى - الأسرى - ثياب المُعقد(١)، فلا يخرج الحرُّ منهم إلا كاسيًا(٢).

۞ توفير المأوى لهم:

حتى يتم النظر فى شأن الأسرى كان المسلمون يجعلونهم فى أحد مكانين؛ إما المسجد وهو أشرف مكان عند المسلمين، وإما بيوت الصحابة رضي الله عنهم.

وكان المستهدف من إبقاء الأسرى فى المسجد أن يروا أخلاق المسلمين وعبادتهم لعلهم يتأثرون بها، فيدخل الإيمان فى قلوبهم، وقد حدث هذا بالفعل مع بعضهم كثمامة بن أثال رضي الله عنه(٣).

وأما إبقاء الأسرى فى منازل الصحابة رضي الله عنهم فكان هذا إكرامًا كبيرًا من المسلمين لهؤلاء الأسرى؛... فعن الحسن البصرى أن رسول الله ﷺ كان يُؤتَى بالأسير فيدفعه إلى بعض المسلمين فيقول: «أحسن إليه» فيكون عنده اليومين والثلاثة، فيؤثِره على نفسه(٤).

۞ راحة الأسير النفسية:

لم يكن اهتمام رسول الله ﷺ بالأسرى عن طريق راحتهم البدنية فقط،

(١) ثياب المعقد: المُعَقَّدُ: ضَرْبٌ من بُرودِ هَجَر. انظر: تاج العروسى (١/ ٢١٣٠).

(٢) البيهقى: دلائل النبوة (٥/ ٢٦٤).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٤٥٠) كتاب أبواب المساجد، ومسلم (١٧٦٤) كتاب الجهاد والسير.

(٤) الألوسى: روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى (٢٩/ ١٥٥)، والحديث من مراسيل الحسن البصرى.

إنما كان يحرص تمام الحرص على راحتهم النفسية كذلك، وهذه مشاعر راقية لم يكن يعرفها أو يسمع عنها أهل زمانهم، بل لعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنه حتى بعد هذا التطور الكبير فى المجتمعات الإنسانية ما زالت البشرية تفتقد مثل هذه المشاعر الفياضة، والأحاسيس المرهفة!

۞ الرفق بالأسرى، واللين معهم:

من أخلاق الإسلام البارزة فى التعامل مع الأسرى الرفقُ ولين الجانب، حتى يشعروا بالأمن والطمأنينة، وقد كان من أخلاق رسول الله ﷺ أنه كان يردُّ على استفسارات الأسرى، ولا يسأم أو يملُّ من أسئلتهم، مما يُوحى بسعة صدره، وعمق رحمته ﷺ التى شملت البشر جميعًا...

ففى صحيح مسلم عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: «كانت ثقيفُ حُلفاء لبنى عُقيل فأسرت ثقيفُ رجُلين من أصحاب رسُول الله ﷺ وأسر أصحابُ رسُول الله ﷺ رجُلًا من بنى عُقيل وأصابُوا معهُ العضباء[1] فأتى عليه رسُولُ الله ﷺ وهُو فى الوثاق قال: يا مُحمدُ، فأتاهُ فقال: «**ما شأنُك؟**».

فقال: بم أخذتنى وبم أخذت سابقة الحاج؟[2].

فقال: «**إعظامًا لذلك أخذتُك بجريرة حُلفائك ثقيف**».

ثُم انصرف عنهُ فناداهُ فقال: يا مُحمدُ، يا مُحمدُ، وكان رسُولُ الله ﷺ رحيمًا رقيقًا فرجع إليه فقال: «**ما شأنُك؟**».

قال: إنى مسلمٌ.

قال: «**لو قُلتها وأنت تملكُ أمرك أفلحت كُل الفلاح**».

---

(١) هى ناقة رسول الله ﷺ.

(٢) سابقة الحاج: أراد بها العضباء؛ فإنها كانت لا تُسبق أو لا تكاد تُسبق، معروفة بذلك.

ثُم انصرف فناداهُ فقال: يا مُحمدُ، يا مُحمدُ.

فأتاهُ فقال: «**ما شأنُك؟**».

قال: إنى جائعٌ فأطعمنى وظمآنُ فاسقنى، قال: «**هذه حاجتُك**»(١).

فهذا التردد على الرجل كلما نادى عليه ﷺ - وهو القائد الأول للدولة الإسلامية - ومناداته باسمه ﷺ مجردًا يدل على مدى الرحمة والإنسانية التى يحملها الرسول ﷺ فى قلبه لكل البشر.

وأعطى رسول الله ﷺ لأبى الهيثم بن التيهان أسيرًا، وأمره بالإحسان إليه، فأخذه أبو الهيثم إلى منزله، ثم قال: إن رسول الله ﷺ أوصانى بك خيرًا، فأنت حُرٌّ لوجه الله، وُروى أنه قال له: «**أنت حر لوجه الله، ولك سهم من مالى**»(٢).

احترام مشاعرهم الإنسانية:

فنجد النبى ﷺ يوجِّه أصحابه الكرام توجيهات إنسانية راقية فى شأن التعامل مع الأسرى من النساء والأطفال، فينهى عن التفريق بين الأم وطفلها؛... فعن أبى أيُّوب رضي الله عنه قال: سمعتُ رسُول الله يقُولُ: «**من فرَّق بين والدةٍ وولدها فرق الله بينهُ وبين أحبته يوم القيامة**»(٣).

ولعل القصة التالية تكون خاتمة جميلة لهذا المبحث، حيث تظهر فيها

(١) صحيح: رواه مسلم (١٦٤١) كتاب النذر.

(٢) الإمام البيهقى: شعب الإيمان (٤/ ٤٦) (٤٦٠٦).

(٣) الترمذى، وقال: حديث حَسنٌ غريب. وأحمد، والحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم. ولم يخرجاه، والطبرانى فى الكبير، والبيهقى فى الكبرى، وقال الألبانى: صحيح. صحيح الجامع (٦٤١٢).

رحمة الرسول ﷺ فى أبهى صورها، فقد أتى أبو أُسيد الأنصارى[١] رضي الله عنه بسبى من البحرين فصُفُّوا، فقام رسول الله ﷺ، فنظر إليهم؛ فإذا امرأة تبكى؛ فقال: «**ما يُبكيك؟**» فقالت: بيع ابنى فى بنى عبس؛ فقال رسول الله ﷺ لأبى أسيد: «**لتركبن فلتجيئن به**»، فركب أبو أسيد فجاء به[٢].

لقد رق قلب رسول الله ﷺ للمرأة الأسيرة فأرسل أحد جنوده إلى بلد بعيد ليأتى لها بابنها، حتى يهدأ بالها، وتجف دموعها!

ولعل السؤال الأبرز الذى يخطر على بالنا الآن: هل هناك قائد عسكريٌّ فى العالم ينتصر فى معركة فيشغل نفسه وجنوده بإسعاد امرأة أسيرة بسيطة لا يعرفها أحد؟!!

إن الإجابة التى يعرفها الجميع هى أن ذلك أبدًا لا يكون!!

إلا أن يكون هذا القائد هو محمد رسول الله ﷺ!!

وصدق الله إذ يقول: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[٣].

---

(١) هو عبد الله بن ثابت الأنصارى، وكنيته أبو أسيد، وهو غير أبى أسيد الساعدى، كان يخدم النبى ﷺ، وروى عنه «كلوا الزيت وادهنوا به» أسد الغابة (٥/ ١٣)، الإصابة (٩٥٧٣).

(٢) الحاكم، وقال: حديث صحيح الإسناد. ولم يخرجاه، ورواه سعيد بن منصور فى سننه (٢٦٥٤).

(٣) بتصرف من كتاب (أخلاق الحروب).

أخلاق النبى ﷺ عند عدم تحقيق النصر

لا يوجد من ينتصر على الدوام!

والله ﷻ من رحمته جعل هناك بعض المواقف فى حياة رسول الله ﷺ لا يستطيع فيها أن يُحقق النصر! ووجه الرحمة فى ذلك أن رسول الله ﷺ علَّمنا ماذا نفعل فى مثل هذه المواقف، ولو كانت حياته ﷺ كلها انتصارات ما وجدنا قدوة فى حال هزيمتنا، ولقد مرت به ﷺ مواقف عصيبة فى السيرة النبوية تعامل معها بأسلوب فريد، ولعل أهم ما يميز هذا التعامل أنه لم يخرج أبدًا عن الطابع الأخلاقى الراقى الذى كان يتصف به رسول الله ﷺ فى كل أحواله.

۞ موقفه مع أهل الطائف:

۞ عن عائشة رضي الله عنها قالت: «قلت للنبى ﷺ هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أُحد؟

قال: «لقد لقيت من قومك[1] ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة[2] إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يُجبنى إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى[3] فلم أستفق إلا بقرن الثعالب[4]، فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى، فنظرت فإذا فيها جبريل فنادانى،

---

(١) لقيت من قومك: المراد من قومها قريش.

(٢) يوم العقبة: هو اليوم الذى وقف فيه النبى ﷺ عند العقبة بمنى، داعيًا الناس إلى الإسلام، فما أجابوه وآذوه.

(٣) على وجهى: أى على الجهة المواجهة لوجهى.

(٤) فلم أستفق إلا بقرن الثعالب: لم أفطن لنفسى وأنتبه لحالى - قرن الثعالب: قرن المنازل.

فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردُّوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم». قال: «فناداني ملك الجبال، فسلم عليَّ، ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فيما شئت؟ إن شئت أن أُطبق عليهم الأخشبين؟»[١] فقال له رسول الله: «بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا»[٢].

۞ أخلاقه بعد غزوة أحد:

تُعدُّ أزمة أُحُد من أشد الأزمات التي مرت برسول الله ﷺ في حياته، لدرجة أن الله سبحانه وتعالى سمَّاها «مصيبة»! قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ﴾[٣]، وعادة ما يخرج الإنسان عن شعوره عند المصائب الكبرى، ولكن رسول الله ﷺ كان مسيطرًا تمامًا على كل أحاسيسه ومشاعره، فخرج لنا سلوكه وردُّ فعله على الصورة الراقية التي اعتدنا، ولم نرَ منه ما يخالف منهجه الأخلاقي في الحياة.

يروي أبيُّ بن كعب رضي الله عنه: أنه لما كان يوم أُحُدٍ أُصيب (أي استشهد) من الأنصار أربعة وستون رجلًا، ومن المهاجرين ستة فيهم حمزة، فمثَّلوا بهم؛ فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يومًا مثل هذا لنُرْبِينَّ عليهم[٤]، فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن

(١) الأخشبين: الأخشب من الجبال: الخشن الغليظ، وهما جبلا مكة: أبو قبيس، والجبل الذي يقابله.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٢٣١) كتاب بدء الخلق، ومسلم (١٧٩٥) كتاب الجهاد والسير.

(٣) سورة آل عمران: الآية: (١٦٥).

(٤) أي: لنزيدن في القتل عن هذا العدد.

صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴾[١]. فقال رجل: «لا قريش بعد اليوم!».. فقال رسول الله ﷺ: «**كُفُّوا عن القوم إلا أربعةً**»[٢].

فمع شدة مصاب يوم أُحد، ومع شدة ألم رسول الله ﷺ إلا أنه يطبق شرع الله سبحانه وتعالى، فلا يسمح بتجاوز، ولا يقبل بتعدٍّ، ولا يتمناه... أما ما روى عن سبب نزول الآية السابقة من أن الرسول ﷺ قال عندما رأى حمزة رضي الله عنه مُمثلًا به يوم أحد: «**لأُمثلن بسبعين منهم**»[٣] فقد ضعفه ابن حجر فى الفتح[٤]، وكذلك ضعفه غيره[٥].

---

(١) سورة النحل: الآية: (١٢٦).

(٢) رواه الترمذى، وابن حبان، والحاكم، والبيهقى، والنسائى، وقال الترمذى: هذا حديث حسن غريب. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبى، وقال الألبانى: حسن صحيح الإسناد.

(٣) الحاكم، وقال الذهبى فى التلخيص: «صالح» واهٍ، وهو من رواة الحديث. وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد: رواه البزار والطبرانى، وفيه صالح بن بشير المرى وهو ضعيف. وقال الألبانى: ضعيف السلسلة الضعيفة (٥٥٠).

(٤) ابن حجر: فتح البارى (٧/ ٣٧١).

(٥) أخلاق الحرب (ص٢٠٠-٢٠١) بتصرف.

من أهداف الجهاد في سبيل الله تعالى

(١) حماية حرية العقيدة:

قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾[١].

(٢) حماية الشعائر والعبادات:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾[٢].

(٣) دفع الفساد عن الأرض:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾

---

(١) سورة الأنفال: الآيتان: (٣٩، ٤٠).

(٢) سورة الحج: الآيات: (٣٨-٤١).

تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾(١).

قال ابن كثير فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ أى لولا الله يدفع عن قوم بآخرين كما دفع عن بنى إسرائيل بمقاتلة طالوت وشجاعة داود لهلكوا(٢).

(٤) الابتلاء والتربية والإصلاح:

قال تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾(٣).

قال ابن كثير فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ﴾ أى: ولكن شرع لكم الجهاد وقتال الأعداء ليختبركم وليبلو أخباركم(٤) كما ذكر حكمته فى شرعية الجهاد فى قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾(٥).

(٥) إرهاب الكفار وإخزاؤهم وإذلالهم وتوهين كيدهم:

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾(٦).

---

(١) سورة البقرة: الآيات: (٢٥٠-٢٥٢).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٢٦٢).

(٣) سورة محمد: الآيات: (٤ ٦).

(٤) المصدر السابق (٤/ ١٥٤).

(٥) سورة آل عمران: الآية: (١٤٢).

(٦) سورة الأنفال: الآية: (٦٠).

وقال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾(١).

وقال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾(٢).

(٦) كشف المنافقين:

قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾(٣).

قال ابن كثير: أى: لا بد أن يعقد شيئًا من المحنة يُظهر فيها وليه ويفضح به عدوه، يعرف به المؤمن الصابر والمنافق الفاجر، يعنى: بذلك يوم أُحد الذى امتحن الله به المؤمنين، فظهر به إيمانهم وصبرهم وجلدهم وثباتهم وطاعتهم لله ورسوله ﷺ وهتك به ستار المنافقين، فظهر مخالفتهم ونكولهم عن الجهاد وخيانتهم لله ورسوله ﷺ(٤).

(٧) إقامة حكم الله ونظام الإسلام فى الأرض:

إن إقامة حكم الله فى الأرض هدف من أهداف الجهاد.

(١) سورة التوبة: الآيتان: (١٤-١٥).

(٢) سورة الأنفال: الآيتان: (١٧-١٨).

(٣) سورة آل عمران: الآية: (١٧٩).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٣٧١)

قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾(١).

(٨) دفع عدوان الكافرين:

إن من أهداف الجهاد فى الإسلام دفع عدوان الكافرين وهذا الجهاد أنواع منها:

أ- أن يعتدى الكفار على فئة مؤمنة مستضعفة فى أرض الكفار:

لا سيما إذا لم تستطع أن تنتقل إلى بلاد تأمن فيها على دينها، فإن الواجب على الدولة الإسلامية أن تعد العدة لمجاهدة الكفار الذين اعتدوا على تلك الطائفة حتى يخلصوها من الظلم والاعتداء الواقع عليها(٢).

قال تعالى: ﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾(٣).

ب- أن يعتدى الكفار على ديار المسلمين:

قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ

(١) سورة النساء: الآية: (١٠٥).

(٢) انظر: الجهاد فى سبيل الله، د. عبد الله القادرى (٢/ ١٦٢).

(٣) سورة النساء: الآيتان: (٧٤-٧٥).

كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ ﴾[1].

فقد نص الفقهاء على أنه إذا اعتدى الكفار على ديار المسلمين، يتعين الجهاد للدفاع عن الديار؛ لأن العدو إذا احتلها سام المسلمين عذابًا، ونفذ فيها أحكام الكفر، وأجبر أهلها على الخضوع له، فتصبح دار كفر بعد أن كانت دار إسلام.

قال بعض علماء الحنفية: «وحاصله أن كل موضع خيف هجوم العدو منه فرض على الإمام أو على أهل ذلك الموضع حفظه، وإن لم يقدروا فرض على الأقرب إليهم إعانتهم إلى حصول الكفاية بمقاومة العدو»[2].

جـ- أن ينشر العدو الظلم بين رعاياه - ولو كانوا كفارًا:

لأن الله سبحانه حرم على عباده الظلم ... والعدل فى الأرض واجب لكل الناس، وإذا لم يدفع المسلمون الظلم عن المظلومين أثموا؛ لأنهم مأمورون بالجهاد فى الأرض لإحقاق الحق وإبطال الباطل، ونشر العدل والقضاء على الظلم، ولا فلاح لهم إلا بذلك، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[3].

د- الوقوف ضد الدعاة إلى الله ومنعهم من تبليغ دعوة الله:

إن المسلمين مفروض عليهم من قبل المولى ﷻ أن يبلغوا رسالات الله للناس كافة، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾[4].

---

(١) سورة البقرة: الآيات: (١٩٠-١٩٢).

(٢) انظر: حاشية ابن عابدين (٤/ ١٢٤).

(٣) سورة المائدة: الآية: (٨).

(٤) سورة آل عمران: الآية: (١٠٤).

وأعداء الله يصدون أولياءه عن تبليغ عباده دعوته ولا يتركون لهم سبيلاً إلى الناس، كما لا يأذنون للدعاة أن يُسمعوا الدعوة إلى الله للناس، ويضعون العراقيل والعوائق، والحواجز بين الدعوة ودعاتها وبين الناس، ولذلك أوجب الله ﷻ على عباده المؤمنين قتال كل من يصد عن سبيل الله تعالى(١).

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ ۝٣ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾(٢)(٣).

(٩) تأديب الناكثين للعهود:

ومن أهداف القتال فى الإسلام: تأديب أولئك الذين لا يحترمون العهود، ولا يرعَون المواثيق، فهم يحافظون عليها ما دامت فى صالحهم، فإذا رأوا أنها لم تَعُد تخدُمهم، وكان بهم قوة: ضربوا بها عُرض الحائط، وداسوها بأقدامهم، ولم يرعَوا العهد حرمة، ولم يرقُبوا فى مؤمنٍ إلًّا ولا ذمَّة.

وهذا النوع من البشر لا يجوز أن يُترك ليعيث فى الأرض فسادًا، ويملأها جَورًا وإجرامًا، دون أن يُسائله أحد أو يعاقبه على جرمه، وإلَّا تمادى فى طغيانه، وازداد علوًّا فى الأرض وفسادًا.

من أجل هذا شرع الإسلام: أن يقاتَل هؤلاء المجرمون المفسدون،

(١) انظر: فقه التمكين فى القرآن الكريم، للصلابى، (ص٤٨٨).

(٢) سورة محمد: الآيات: (١-٤).

(٣) غزوات الرسول (ص: ٩-١٣).

تأديبًا لهم، وعقابًا على ما اقترفت أيديهم، جزاءً وفاقًا.

(١٠) فرض السلام الداخلي بالقوة:

وهناك نوع من القتال يختلف عما ذكرناه، فهو ليس مُوجَّهًا إلى غير المسلمين، بل هو مُوجَّه إلى المسلمين أنفسهم، لفضِّ النزاع المُسلَّح بينهم، فله هدف مُحدَّد، وغاية معلومة، وهي: فرض السلام الداخلي بالقوة بين الطائفتين المُتنازعتين من المسلمين. وهذا ما كلَّف الله به الأمة المسلمة متضامنة، فهو من فروض الكفاية الواجبة على الأمة، وأول مَن يُطالب به الخليفة أو الإمام، أو مَن يقوم مقامه، وأهل الرأى والشورى من المسلمين.

يقول تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[١].

ومعنى هاتين الآيتين: أنَّ الإسلام لا يقبل من المسلمين أن يقفوا متفرِّجين، وطائفتان من إخوانهم يتنازعون بالسِّلاح فيما بينهم، ويسفك بعضهم دماء بعض، بل الواجب المُحتَّم عليهم: أن يُسارعوا بالتدخُّل لإصلاح ذات البين، وإيقاف نزف الدم المسلم، فإن قبلت الطائفتان، فبها ونعمت، وإن رفضت إحداهما، أو وافقتا ثم بغت إحداهما على الأخرى، فالأمة مُطالَبة أن تقاتِل الطائفة الباغية، حتى تفيء إلى أمر الله. فإن فاءت كان الصلح بينهما بالعدل والإقساط، وإعطاء كل ذى حقٍّ حقَّه، بلا وكس ولا شطط[٢].

---

(١) سورة الحجرات: الآيتان: (٩-١٠).

(٢) فقه الجهاد. د/ يوسف القرضاوى (١/ ٤٥٦-٤٥٨) بتصرف.

فضل الجهاد فى سبيل الله (جلَّ وعلا)

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٢).

❁ عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: سُئل رسول الله ﷺ: أىّ الأعمال أفضلُ؟ قال: «إيمانٌ بالله ورسوله» قيل: ثم ماذا؟ قال: «الجهادُ فى سبيل الله» قيل: ثُم ماذا؟ قال: «حجٌّ مبرورٌ»(٣).

❁ وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أىُّ العمل أحب إلى الله تعالى؟ قال: «الصلاة على وقتها» قلت: ثم أى؟ قال: «برُّ الوالدين» قلت: ثم أى؟ قال: «الجهاد فى سبيل الله»(٤).

❁ وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لغدوةٌ فى سبيل الله أو روحةٌ، خيرٌ من الدنيا وما فيها»(٥).

---

(١) سورة التوبة الآية: (١١١).

(٢) سورة الصف: الآيات: (١٠-١٣).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٢٦) كتاب الإيمان، ومسلم (٨٣) كتاب الإيمان.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٥٢٧) كتاب مواقيت الصلاة، ومسلم (٨٥) كتاب الإيمان.

(٥) متفق عليه: رواه البخارى (٢٧٩٢) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٨٨٠) كتاب الإمارة.

۞ وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: أتى رجلٌ رسول الله ﷺ، فقال: أي الناس أفضل؟ قال: «مؤمنٌ يجاهدُ بنفسه وماله في سبيل الله» قال: ثُم من؟ قال: «مؤمنٌ في شِعبٍ من الشعاب يعبُدُ الله، ويدعُ الناس من شره»(١).

۞ وعن معاذ أن النبي ﷺ قال: «من قاتل في سبيل الله فُواق ناقةٍ، فقد وجبت له الجنةُ، ومن سأل الله القتل في سبيل الله من نفسه صادقًا، ثم مات، أو قُتل فإن له أجر شهيدٍ، ومن جُرح جرحًا في سبيل الله أو نُكب نكبة، فإنها تجيءُ يوم القيامة كأغزر ما كانت، لونُها لونُ الزعفران، وريحُها ريحُ المسك، ومن خرج به خُرَّاجٌ في سبيل الله كان عليه طابعُ الشهداء»(٢).

۞ وعن أبي هُريرة رضي الله عنه قال: مَرَّ رجلٌ من أصحاب رسُول الله ﷺ، بشِعب فيه عُيينةٌ من ماءٍ عذبةٍ، فأعجبتهُ، فقال: لو اعتزلتُ الناس فأقمتُ في هذا الشِّعب، ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله ﷺ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «لا تفعل، فإن مُقام أحدكُم في سبيل الله أفضلُ من صلاته في بيته سبعين عامًا، ألا تُحبُّون أن يغفر الله لكُم ويُدخلكُمُ الجنة؟ اغزُوا في سبيل الله، من قاتل في سبيل الله فُواق ناقة وجبت له الجنة»(٣).

۞ وعنه قال قيل: يا رسول الله، ما يعدل الجهاد في سبيل الله؟ قال: «لا تستطيعونه» فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثًا كل ذلك يقول: «لا تستطيعونه». ثُم قال: «مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتُرُ:

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٨٨) كتاب الإمارة.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤١٦).

(٣) حسن: رواه الترمذي والحاكم، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٣٧٩).

والفواق: ما بين الحَلْبتين.

من صلاةٍ، ولا صيامٍ، حتى يرجع المجاهدُ فى سبيل الله»[١].

وفى رواية البخارى: أن رجلًا قال: يا رسُول الله دُلَّنى على عملٍ يعدلُ الجهاد؟ قال: «لا أجدهُ» ثُم قال: «هل تستطيع إذا خرج المجاهدُ أن تدخُل مسجدك فتقُوم ولا تفتُر، وتصُوم ولا تُفطر؟» فقال: ومن يستطيعُ ذلك؟[٢]

۞ وعنه أن رسول الله ﷺ قال: «من خير معاش الناس لهم رجلٌ مُمسكٌ بعنان فرسه فى سبيل الله، يطيرُ على متنه كُلما سمع هيعةً، أو فزعة طار على متنه، يبتغى القتل أو الموت مظانَّهُ، أو رجُلٌ فى غُنيمةٍ أو شَعفة من هذه الشَّعف أو بطن وادٍ من هذه الأودية يُقيمُ الصلاة، ويُؤتى الزكاة، ويعبُدُ ربهُ حتى يأتيه اليقينُ ليس من الناس إلا فى خيرٍ»[٣].

۞ وعنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن فى الجنة مائة درجةٍ أعدَّها الله للمجاهدين فى سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض»[٤].

۞ وعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «من رضى بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمدٍ ﷺ رسُولًا، وجبت له الجنةُ» فعجب لها أبو سعيدٍ، فقال أَعِدها علىَّ يا رسول الله فأعادها عليه، ثُم قال: «وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجةٍ فى الجنة، ما بين كُل درجتين كما بين السماء والأرض» قال: وما هى يا رسول الله؟ قال: «الجهادُ فى سبيل الله، الجهادُ فى سبيل الله»[٥].

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٧٨) كتاب الإمارة.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٢٧٨٥) كتاب الجهاد والسير.

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٨٨٩) كتاب الإمارة.

(هيعة: الصوت عند حضور العدو) فزعة: بمعنى هيعة - شعفة: أعلى الجبل.

(٤) صحيح: رواه البخارى (٢٧٩٠) كتاب الجهاد والسير.

(٥) صحيح: رواه مسلم (١٨٨٤) كتاب الإمارة.

۞ وعن أبى بكر بن أبى موسى الأشعرى، قال: سمعت أبى رضي الله عنه، وهو بحضرة العدُو، يقول: قال رسُولُ الله ﷺ: «إن أبواب الجنة تحت ظلال السُّيُوف» فقام رجلٌ رثُّ الهيئة فقال: يا أبا موسى آأنت سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا؟ قال: نعم، فرجع إلى أصحابه، فقال: «أقرأ عليكُمُ السلام» ثُم كسر جفن سيفه فألقاه، ثم مشى بسيفه إلى العدُو فضرب به حتى قُتل»(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ خرج عليهم وهم جلوسٌ فى مجلسٍ لهم فقال: «ألا أخبرُكم بخير الناس منزلًا؟» قالوا: بلى يا رسول الله! قال: «رجلٌ آخذٌ برأس فرسه فى سبيل الله حتى يموت أو يُقتل. ألا أخبرُكم بالذى يليه؟». قلنا: بلى يا رسول الله! قال: «امرؤٌ معتزلٌ فى شِعبٍ يُقيم الصلاة، ويؤتى الزكاة، ويعتزلُ شرور الناس. ألا أخبركم بشر الناس؟». قلنا: بلى يا رسول الله! قال: «الذى يُسأل بالله ولا يُعطى»(٢).

وعن سبرة بن الفاكه رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ قال: «إن الشيطان قعد لابن آدم بطريق الإسلام، فقال: تُسلمُ وتذرُ دينك ودين آبائك؟! فعصاه فأسلم فقعد له بطريق الهجرة، فقال له: تهاجرُ وتذرُ دارك وأرضك وسماءك؟! فعصاهُ، فهاجر. فقعد له بطريق الجهاد، فقال: تجاهدُ وهو جهد النفس والمال، فتقاتلُ فتقُتلُ فتُنكحُ المرأةُ ويُقسَّمُ المالُ؟ فعصاه، فجاهد». فقال رسول الله ﷺ: «فمن فعل ذلك فمات؛ كان حقًّا على الله أن يُدخله

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٩٠٢) كتاب الإمارة.

(٢) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى (١٧١٩)، وصحيح الترغيب والترهيب (١٢٩٨).

الجنة، وإن غرق؛ كان حقًّا على الله أن يدخله الجنة، وإن وقصتُه دابته؛ كان حقًّا على الله أن يُدخله الجنة»(١).

وعن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: «ثلاثةٌ حقٌّ على الله عونُهم: المجاهدُ فى سبيل الله، والمكاتبُ الذى يريدُ الأداء، والناكحُ الذى يريدُ العفاف»(٢).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقولُ الله عز وجل: المجاهدُ فى سبيلى هو علىَّ ضامنٌ؛ إن قبضتُه أورثتُه الجنة، وإن رجعتُه رجعتُه بأجرٍ أو غنيمةٍ»(٣).

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «جاهدوا فى سبيل الله، فإن الجهاد فى سبيل الله بابٌ من أبواب الجنة، ينجى الله تبارك وتعالى به من الهم والغم»(٤).

۞ وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «مثلُ المجاهد فى سبيل الله - والله أعلمُ بمن يجاهدُ فى سبيله - كمثل الصائم القائم الدائم الذى لا يفتر من صيام ولا صدقة حتى يرجع، وتوكل الله تعالى للمجاهد فى سبيله إن توفاهُ أن يُدخلهُ الجنة، أو يُرجعهُ سالمًا مع أجرٍ أو غنيمةٍ»(٥).

۞ وعن معاذ أن النبى ﷺ قال: «الغزو غزوان؛ فأما من غزا ابتغاء وجه الله

(١) صحيح: رواه أحمد والنسائى وابن حبان، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٦٥٢).

(٢) حسن: رواه أحمد والترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٠٥٠).

(٣) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨١٣٥).

(٤) صحيح لغيره: رواه أحمد والطبرانى فى الكبير، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب (١٣١٩).

(٥) متفق عليه: رواه البخارى (٢٧٨٧) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٨٧٦) كتاب الإمارة.

تعالى وأطاع الإمام، وأنفق الكريمة، وياسر الشريك، واجتنب الفساد في الأرض، فإن نومهُ ونَبْهَهُ أجرٌ كلهُ، وأما من غزا فخرًا ورياءً، وسمعةً، وعصى الإمام وأفسد في الأرض، فإنه لن يرجع بالكفاف»(١).

۞ وعن نعيم بن هبَّار أن النبي ﷺ قال: «الشهداءُ الذين يُقاتلون في سبيل الله في الصف الأول، ولا يلتفتُون بوجوههم حتى يُقتلوا؛ فأولئك يُلقون في الغُرف العُلا من الجنة يضحكُ إليهم ربك، إن الله تعالى إذا ضحك إلى عبده المؤمن فلا حساب عليه»(٢).

۞ وعن عمران أن النبي ﷺ قال: «مُقامُ الرجل في الصف في سبيل الله، أفضلُ من عبادة ستين سنة»(٣).

۞ وعن أنس أن النبي ﷺ قال: «من راح روحةً في سبيل الله، كان له بمثل ما أصابه من الغبار مسكًا يوم القيامة»(٤).

فضل من احتبس فرسًا في سبيل الله

قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾(٥).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «من احتبس فرسًا في سبيل الله

---

(١) حسن: رواه أحمد وأبو داود والنسائي، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٢١٩٥)، وصحيح الجامع (٤١٧٤).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والطبراني في الأوسط وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٧٤٠).

(٣) صحيح: رواه الطبراني في الكبير والحاكم وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٨٨٦).

(٤) حسن: رواه ابن ماجه، والضياء، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٦٠).

(٥) سورة الأنفال: الآية: (٦٠).

إيمانًا بالله وتصديقًا بوعده فإن شبعه و ريّه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة»[١].

وعن ابن الحنظلية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «المنفق على الخيل في سبيل الله كباسط يديه بالصدقة لا يقبضها»[٢].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «الخيل ثلاثة؛ هي لرجل وزر، وهي لرجل ستر، وهي لرجل أجر، فأما التي هي له وزر؛ فرجل ربطها رياءً وفخرًا ونواء على أهل الإسلام، فهي له وزر، وأما التي هي له ستر؛ فرجل ربطها في سبيل الله، ثم لم ينسَ حق الله في ظهورها ولا رقابها، فهي له ستر، وأما التي هي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله لأهل الإسلام في مرج وروضة، فما أكلت من ذلك المرج أو الروضة من شيء إلا كُتب له عدد ما أكلت حسنات، وكُتب له عدد أرواثها وأبوالها حسنات، ولا تقطع طولها فاستنَّت شرفًا أو شرفين إلا كتب الله له عدد آثارها وأرواثها حسنات، ولا مَرَّ بها صاحبُهَا على نهرٍ فشربت منه، ولا يريد أن يسقيها إلا كتب الله له عدد ما شربت حسنات» قيل: يا رسول الله، فالحُمُر؟ قال: «ما أنزل عليَّ في الحُمُر شيء إلا هذه الآية الفاذة الجامعة: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾[٣][٤].

وقال ﷺ: «إنهُ ليس من فرسٍ عربي، إلا يُؤذَن لهُ مع كل فجرٍ يدعو

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٢٨٥٣) كتاب الجهاد والسير.

(٢) رواه أحمد وأبو داود والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٧٣٣).

(٣) سورة الزلزلة: الآيتان: (٧-٨).

(٤) صحيح: رواه مسلم (٩٨٧) كتاب الزكاة.

بدعوتين، يقولُ: اللهم إنك خوَّلتنى مَن خوَّلتنى من بنى آدم، فاجعلنى من أحب أهله وماله إليه»(١).

فضل الحراسة فى سبيل الله

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «عينان لا تمسهُما النار: عينٌ بكت من خشية الله، وعينٌ باتت تحرسُ فى سبيل الله»(٢).

وعن أبى ريحانة أن النبى ﷺ قال: «حُرمت النار على عين دمعت أو بكت من خشية الله وحُرمت النار على عين سهرت فى سبيل الله»(٣).

وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «حُرم على عينين أن تنالهما النارُ: عينٌ بكت من خشية الله، وعينٌ باتت تحرسُ الإسلام وأهله من الكفر»(٤).

۞ وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بليلةٍ أفضل من ليلة القدر؟ حارسٌ حَرَسَ فى أرض خوفٍ لعله ألا يرجع إلى أهله»(٥).

۞ وعن سهل بن الحنظلية رضي الله عنه قال: إنهم ساروا مع رسول الله ﷺ يوم حُنين فأطنبوا السير، حتى كانت عشية، فحضرت الصلاة عند رسول الله ﷺ فجاء رجلٌ فارس، فقال: يا رسول الله، إنى انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا، فإذا أنا بهوازن على بكرة آبائهم بظعنهم ونعمهم وشائهم اجتمعوا إلى حنين، فتبسم رسول الله ﷺ وقال تلك غنيمة

---

(١) صحيح: رواه أحمد والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٤١٤).

(٢) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألبانى فى المشكاة (٣٨٢٩).

(٣) حسن لغيره: رواه أحمد والنسائى، وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (١٣٢١).

(٤) صحيح لغيره: رواه الحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (١٢٣٣).

(٥) صحيح: رواه الحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (١٢٣٢).

المسلمين غدًا - إن شاء الله - ثم قال: «**من يحرسنا الليلة؟**» قال أنس ابن أبى مرثد الغنوى: أنا يا رسول الله. قال: «**فاركب**» فركب فرسًا له فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «**استقبل هذا الشِّعب حتى تكون فى أعلاه ولا نُغرَّن من قِبلك الليلة**» فلما أصبحنا، خرج رسول الله ﷺ إلى مُصلاه فركع ركعتين، ثم قال: «**هل أحسستم فارسكم؟**» قالوا: يا رسول الله، ما أحسسناه، فثوّب بالصلاة فجعل رسول الله ﷺ يصلى وهو يلتفت إلى الشِّعب حتى إذا قضى صلاته وسلم، قال: «**أبشروا، فقد جاءكم فارسكم**»، فجعلنا ننظر إلى خلال الشجر فى الشِّعب فإذا هو قد جاء، حتى وقف على رسول الله ﷺ فسلم، فقال: إنى انطلقت حتى كنت فى أعلى هذا الشِّعب حيث أمرنى رسول الله ﷺ فلما أصبحت اطَّلعتُ الشِّعبين كليهما فنظرت فلم أرَ أحدًا، فقال له رسول الله ﷺ: «**هل نزلت الليلة؟**» قال: لا، إلا مصليًا أو قاضيًا حاجةً، فقال له رسول الله ﷺ: «**قد أوجبت، فلا عليك ألا تعمل بعدها**»[(١)].

فضل المرابطة فى سبيل الله

والرباط هو الإقامة فى الثغور.. وهى تلك الأماكن التى يُخشى عليها وعلى أهلها من أعداء المسلمين.

والمرابط هو الرجل الذى يقيم فى تلك الأماكن لحماية مقدساتهم، وصيانة دمائهم، ورعاية أعراضهم، وأموالهم، وحماية أرضهم حتى لا تُرفع فوقها غير راية الإسلام، ولا يُعبَدُ فوق ثراها إلا الله، ولا يَحكُمُ على

(١) صحيح الإسناد: قال العلامة الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٣٧٨) قال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبى. وهو كما قالا.

صعيدها إلا شرع الله تعالى.

عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد فى سبيل الله تعالى أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها»(١).

وعن سلمان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات فيه جرى عليه عمله الذى كان يعمل، وأُجرى عليه رزقه، وأَمِن الفتان»(٢).

وعن عثمان رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «رباط يوم فى سبيل الله خير من ألف يومٍ فيما سواه من المنازل»(٣).

وعن أبى الدرداء رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «رباط شهر خير من صيام دهر ومن مات مرابطًا فى سبيل الله أَمِن من الفزع الأكبر وغُدى عليه برزقه وريِحَ من الجنة ويُجرى عليه أجرُ المرابط حتى يبعثه الله عز وجل»(٤).

۞ وعن فضالة بن عبيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ ميت يُختمُ على عمله إلا المرابط، فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة، ويُؤَمَّنُ من فتَّان القبر»(٥).

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٨٩٢) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٨٨٢) كتاب الإمارة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٩١٣) كتاب الإمارة.

(٣) حسن لغيره: رواه النسائى والترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب (١٢٢٤).

(٤) صحيح لغيره: رواه الطبرانى، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (١٢١٩).

(٥) صحيح: رواه أبو داود والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود (٢١٨٢)، وصحيح الجامع (٤٥٦٢).

۞ وعن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«موقف ساعة فى سبيل الله خير من قيام ليلة القدر عند الحجر الأسود»**(١).

۞ وعن عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لقيامُ رجلٍ فى سبيل الله ساعةً أفضلُ من عبادة ستين سنة»**(٢).

۞ وعن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من مات مرابطًا فى سبيل الله أُجرى عليه أجرُ عمله الصالح الذى كان يعمل وأُجرى عليه رزقُهُ، وأَمِن من الفتان، وبعثه الله يوم القيامة آمنًا من الفزع»**(٣).

---

(١) صحيح: رواه ابن حبان، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (١٠٦٨)، وصحيح الجامع (٦٦٣٦).

(٢) صحيح: رواه البيهقى فى السنن، والخطيب فى التاريخ، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (١٩٠١) وصحيح الجامع (٥١٥١).

(٣) صحيح لغيره: رواه ابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجه (٢٢٣٤)، وصحيح الترغيب والترهيب (١٢٢١) وصحيح الجامع (٦٥٤٤).

شبهات حول جهاد النبى ﷺ وأصحابه

وها هى بعض الشبهات التى أثارها بعض أعداء الدين حول جهاد النبى ﷺ وأصحابه.

شبهة: أن الإسلام انتشر بحد السيف

ومن الشبهات التى يرددها أعداء الإسلام ومُنكرو السنة: أنهم يدَّعُون أن الرسول ﷺ كان رجلًا عنيفًا يحبُّ إراقة الدماء، وأن الإسلام انتشر بالسيف، وأن معتنقى الإسلام لم يدخلوا فيه طواعية ولا اختيارًا، وإنما دخلوا فيه بالقهر والإكراه.

والحقيقة أن جوهر الإسلام وخبر التاريخ يكذبان هذه الفرية، ويستأصلونها من جذورها، وقد شهد أبو سفيان زعيم قريش - وهو رجل حارب رسول الله ﷺ سنوات عديدة، ولم يؤمن إلا بعد أكثر من عشرين سنة من الإعراض والصد - شهد لرسول الله ﷺ بقوله: «**لقد حاربتُك فنعم المحارب كُنت، ثم سالمتك فنعم المسالم أنت**»[١].

وفى قاعدة أساسية صريحة بالنسبة للحرية الدينية يقول تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾[٢]، فلم يأمر الرسول ﷺ - والمسلمون من بعده - أحدًا باعتناق الإسلام قَسرًا، كما لم يُلجئوا الناس للتظاهر به هربًا من الموت أو العذاب؛ إذ كيف يصنعون ذلك وهم يعلمون أن إسلام المُكره لا قيمة له فى أحكام الآخرة، وهى التى يسعى إليها كل مسلم؟!

---

(١) الصفدى: الوافى بالوفيات (١/ ٢٢٤٠).

(٢) سورة البقرة: الآية: (٢٥٦).

وقد جاء فى سبب نزول الآية السابقة: أنه كان لرجل من الأنصار من بنى سالم بن عوف ابنان مُتنصران قبل مبعث النبى ﷺ، ثم قَدِما المدينة فى نفر من النصارى يحملون الزيت، فلزمهما أبوهما، وقال: «**لا أدعكما حتى تُسلما**». فأبيا أن يُسلما؛ فاختصموا إلى النبى ﷺ، فقال: يا رسول الله، أيدخل بعضى النار وأنا أنظر؟! فأنزل الله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ الآية، فخلى سبيلهما[١].

وقد جعل الإسلام قضية الإيمان أو عدمه من الأمور المرتبطة بمشيئة الإنسان نفسه واقتناعه الداخلى فقال سبحانه: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ ﴾[٢]، ولفت القرآنُ نظر النبى ﷺ إلى هذه الحقيقة، وبيَّن له أن عليه تبليغ الدعوة فقط، وأنه لا سلطان له على تحويل الناس إلى الإسلام، فقال: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾[٣] وقال: ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾[٤] وقال: ﴿ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ ﴾[٥].

ومن ذلك يتضح أن دستور المسلمين يرفض رفضًا قاطعًا إكراه أحد على اعتناق الإسلام[٦].

وتطبيقًا لهذه الحقيقة فقد ثبت أن المسلمين أسروا فى سرية من السرايا سيد بنى حنيفة: ثمامة بن أُثال الحنفى، وهم لا يعرفونه، فأتوا به إلى

(١) انظر: الواحدى: أسباب نزول القرآن (ص٥٢، ٥٣)، والسيوطى: لباب النزول (ص٣٧).

(٢) سورة الكهف: الآية: (٢٩).

(٣) سورة يونس: الآية: (٩٩).

(٤) سورة الغاشية: الآية: (٢٢).

(٥) سورة الشورى: الآية: (٤٨).

(٦) انظر: محمود حمدى زقزوق: حقائق إسلامية فى مواجهة حملات التشكيك (ص٣٣).

رسول الله ﷺ فأبقاه عنده ثلاثة أيام، وكان في كل يوم يعرض عليه الإسلام عرضًا كريمًا، فيأبى ويقول: إن تسأل مالًا تُعطَه، وإن تقتُل تقتُل ذا دمٍ، وإن تُنعم تُنعم على شاكرٍ. فما كان من النبي ﷺ إلا أن أطلق سراحه، فانطلق ثمامة إلى نخل قريب من المسجد؛ فاغتسل ثم دخل المسجد، فقال: أشهد أن لا إله إلا اللهُ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، يا محمد: والله ما كان على الأرض وجهٌ أبغض إليَّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إليَّ، والله ما كان من دين أبغض إليَّ من دينك، فأصبح دينك أحب الدين كله إليَّ، والله ما كان من بلدٍ أبغض إليَّ من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إليَّ، وإن خيلك أخذتني، وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟ فبشَّره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر، فلما قَدِم مكة قال له قائل: أصبوت؟! فقال: لا، ولكني أسلمتُ مع رسول الله ﷺ، ولا - والله - لا يأتيكم من اليمامة حبةُ حنطة حتى يأذن فيها رسول الله[1].

فقد أسلم ثمامة دون ضغط أو إكراه، بل إن إسلامه وُلد قويًّا إلى الدرجة التي دفعته إلى مقاطعة قريش من أجل أنها تحارب رسول الله ﷺ مُضحيًا بذلك بثروة هائلة كانت تأتيه من تجارته معها، ومُضحيًا كذلك بعلاقات اجتماعية مهمة مع أشراف قريش.

وعقلًا فإن من أُكره على شيء لا يلبث أن يتحلل منه إذا وجد الفرصة سانحة لذلك، بل ويُصبح حربًا على هذا الذي أُكره عليه.. إلا أن التاريخ لم يُثبت مثل هذا؛ وإنما ثبت أن من كان يُسلم لم يتوانَ للحظة واحدة في الدفاع عن هذا الدين الذي أَسَر لُبَّه بكل ما يملك، وأقرب منه أن

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٣٧٢) كتاب أبواب المساجد، ومسلم (١٧٦٤) كتاب الجهاد والسير.

الإحصائيات الرسمية لتدُلَّ على أن عدد المسلمين فى ازدياد، على الرغم من كل ما ينالهم من اضطهاد وما يتعرضون له من عوامل الإغراء!

ولو قمنا بإحصاء عدد الذين ماتوا فى كل الحروب النبوية - سواء من شهداء المسلمين، أو من قتلى الأعداء - ثم قمنا بتحليل لهذه الأعداد، وربطها بما يحدث فى عالمنا المعاصر، لوجدنا عجبًا! لقد بلغ عدد شهداء المسلمين فى كل معاركهم أيام رسول الله ﷺ - وذلك على مدار عشر سنوات كاملة - ٢٦٢ شهيدًا تقريبًا، وبلغ عدد قتلى أعدائه ﷺ حوالى ١٠٢٢ قتيلًا[١]، وبذلك بلغ العدد الإجمالى لقتلى الفريقين ١٢٨٤ قتيلًا فقط!

وحتى لا يتعلل أحدٌ بأن أعداد الجيوش آنذاك كانت قليلة؛ ولذا جاء عدد القتلى على هذا النحو، فإننى قمتُ بإحصاء عدد الجنود المشتركين فى المعارك، ثم قمتُ بحساب نسبة القتلى بالنسبة إلى عدد المقاتلين، فوجدتُ ما أذهلنى! أن نسبة الشهداء من المسلمين إلى الجيوش المسلمة تبلغ ١٪ فقط، بينما تبلغ نسبة القتلى من أعداء المسلمين بالنسبة إلى أعداد جيوشهم ٢٪! وبذلك تكون النسبة المتوسطة لقتلى الفريقين هى ١.٥٪ فقط!

إن هذه النسب الضئيلة فى معارك كثيرة - بلغت خمسًا وعشرين أو سبعًا وعشرين غزوة، وثمان وثلاثين سرية[٢]، أى أكثر من ثلاث وستين معركة - لمن أصدق الأدلة على عدم دموية الحرب فى عهده ﷺ.

---

(١) اعتمدتُ فى حصر الأرقام على ما ورد أولًا فى كتب الصحاح والسنن والمسانيد، ثم على روايات كتب السيرة بعد توثيقها، كسيرة ابن هشام، وعيون الأثر، وزاد المعاد، والسيرة النبوية لابن كثير، وتاريخ الطبرى، وغيرهم.

(٢) ابن كثير: السيرة النبوية (٤/ ٤٣٢)، ابن قيم الجوزية: زاد المعاد (١/ ١٢٥)، وابن حزم: جوامع السيرة (١/ ١٦).

ولكى تتضح الصورة بشكل أكبر وأظهر فقد قمتُ بإحصاء عدد القتلى فى الحرب العالمية الثانية - كمثال لحروب (الحضارات) الحديثة - فوجدتُ أن نسبة القتلى فى هذه الحرب الحضارية بلغت ٣٥١٪!!! فالأرقام لا تكذب؛ فقد شارك فى الحرب العالمية الثانية ١٥.٦٠٠.٠٠٠ جندى (خمسة عشر مليونًا وستمائة ألف)، ومع ذلك فعدد القتلى بلغ ٥٤.٨٠٠.٠٠٠ قتيل (أربعة وخمسين مليونًا وثمانمائة ألف)!! أى أكثر من ثلاثة أضعاف الجيوش المشاركة! وتفسير هذه الزيادة هو أن الجيوش المشاركة جميعًا - وبلا استثناء- كانت تقوم بحروب إبادة للمدنيين، وكانت تُسقطُ الآلاف من الأطنان من المتفجرات على المدن والقرى الآمنة؛ فتُبيد البشر، وتُفنى النوع الإنسانى، فضلًا عن تدمير البِنى التحتية، وتخريب الاقتصاد، وتشريد الشعوب! لقد كانت كارثة إنسانية بكل المقاييس!

وأيسر من أن نستقصى الحروب وأسبابها فى صدر الإسلام لنعى تلك الحقيقة، أن نُلقى نظرة عامة على خريطة العالم فى الوقت الحاضر لنعلم أن السيف لم يعمل فى انتشار هذا الدين؛ فإن البلاد التى قلَّت فيها حروب الإسلام هى البلاد التى يُقيم فيها اليوم أكثر مسلمى العالم، وهى بلاد إندونيسيا والهند والصين، وسواحل القارة الإفريقية، وما يليها من سهول الصحارى الواسعة؛ فإن عدد المسلمين فيها قريب من ثلاثمائة مليون، ولم يقع فيها من الحروب بين المسلمين وأبناء تلك البلاد إلا القليل الذى لا يُجدى فى تحويل الآلاف عن دينهم بالملايين، ونقارن بين هذه البلاد والبلاد التى اتجهت إليها غزوات المسلمين لأول مرة فى صدر الدعوة الإسلامية، وهى بلاد العراق والشام، فإن عدد المسلمين فيها اليوم قلما يزيد على عشرة ملايين، يعيش بينهم من اختاروا البقاء على دينهم من

المسيحيين واليهود والوثنيين وأشباه الوثنيين[١].

يقول المؤرخ الفرنسى جوستاف لوبون فى كتابه (حضارة العرب) وهو يتحدث عن سر انتشار الإسلام فى عهده ﷺ وفى عصور الفتوحات من بعده: «قد أثبت التاريخ أن الأديان لا تُفرض بالقوة، ولم ينتشر الإسلام - إذن - بالسيف، بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب التى قهرت العرب مؤخرًا كالترك والمغول، وبلغ القرآن من الانتشار فى الهند - التى لم يكن العرب فيها غير عابرى سبيل - ما زاد عدد المسلمين إلى خمسين مليون نفس فيها[٢]، ولم يكن الإسلام أقل انتشارًا فى الصين التى لم يفتح العرب أى جزء منها قطُّ...»[٣].

فالإسلام إذن إنما غزا القلوب وأسر النفوس.. وإن كان بإمكان السيف أن يفتح أرضًا.. فليس بإمكانه أن يفتح قلبًا![٤].

۞ وهناك وقفة أخرى مع حديث: «**أمرت أن أقاتل الناس**»:

يدَّعى منكرو السنة النبوية أن حديث: «**أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله**»[٥] يدعُون أن هذا الحديث يتعارض مع الآيات القرآنية

(١) عباس محمود العقاد: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه (ص١٦٩، ١٧٠).

(٢) كان هذا فى وقت كتابة غوستاف لوبون كتابه، أما فى عام ٢٠٠٨م فبلغ المسلمون فى الهند ٢٣٨ مليون نسمة.

(٣) جوستاف لوبون: حضارة العرب (ص١٢٨، ١٢٩).

(٤) أسوة للعالمين (ص٣٣٥-٣٣٩).

(٥) صحيح: رواه البخارى (٢٥) كتاب الإيمان، ومسلم (٢٢) كتاب الإيمان.

التى تفيد حرية الإنسان الدينية، والتى منها:

قول الله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾(١).

وقوله سبحانه: ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ ﴾(٢).

وقوله سبحانه: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾(٣)، وغير ذلك من الآيات التى فى هذا الموضوع.

وهم - منكرو السنة - إذ يدَّعُون أن هذا الحديث يتعارض مع هذه الآيات فإنهم يرتبون على ذلك أنه حديث موضوع!! على الرغم من أنه فى البخارى ومسلم. ويزيدون بأن القول به إنما هو تطرف وإرهاب.

وأقول لهم: إن هذا الحديث لا يتعارض مطلقًا مع أى آية من القرآن الكريم، وإنما يتفق مع الآيات القرآنية فى أن القتال إنما شُرع لتوفير الحرية الدينية للناس، ولإزاحة العقبات التى تعرقل وصول الحق إلى كل الناس، ولإشاعة الحق بين أفراد البشرية،... إن الحق له أعداء جاء هذا الحديث ليردعهم، وليوفر مناخ الحرية الدينية لكل الناس.

وأجيب تفصيلًا:

۞ فأقدم مقدمتين، أولًا:

١ - قوله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل**» هذا من القتال لا من القتل، والفرق كبير، فالقتال بذل الطاقة فى صرف العدو عن إيذائى، أما القتل فهو القضاء على العدو، والأول هو الذى هنا.

---

(١) سورة البقرة: الآية: (٢٥٦).

(٢) سورة الكهف: الآية: (٢٩).

(٣) سورة يونس: الآية: (٩٩).

٢- قوله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس**» ليس المراد كل الناس، وهذا أمر بديهى، فهو ﷺ والمسلمون معه من الناس، وعليه فهذا اللفظ ليس على إطلاقه، وقد جاء فى رواية لهذا الحديث: «**أمرت أن أقاتل المشركين حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله... الحديث**»[١].

۞ ثم أُفصل ثانيًا فأقول:

إن رسول الله ﷺ يقول: (ما معناه) أمرنى ربى أن أقاتل المشركين الذين يحرمُون الناس حريتهم الدينية.. أمرنى ربى أن أقاتلهم حتى يصبح الدين الإسلامى شائعًا ذائعًا، لا يمنع أحدٌ أحدًا عنه، وبعد ذلك فليعتنق الإنسان ما شاء من الدين.

إنه حديث يتفق مع آيات القتال كلها كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[٢]، وقوله سبحانه: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ﴾[٣]، وقوله سبحانه: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ﴾[٤]، أى قاتلوهم حتى لا يُكرَه أحدٌ على دين لا يرتضيه، وحتى يكون دين الله هو الظاهر العالى المعلوم.

والآيات والأحاديث التى فى هذا الموضوع كلها تبين أن القتال فى الإسلام إنما هو لنصرة الحق، كما فى حديث الذى سأل رسول الله ﷺ

(١) صحيح: رواه النسائى، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٤٠٨).

(٢) سورة التوبة: الآية: (٧٣).

(٣) سورة البقرة: الآية: (١٩٣).

(٤) سورة الأنفال: الآية: (٣٩).

قائلًا: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر[١]، والرجل يقاتل ليُرى مكانه[٢]، فمن فى سبيل الله؟ فقال ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله**»[٣].

ومعنى: «**كلمة الله**» دعوة الله إلى الإسلام[٤]، ومعنى «**فى سبيل الله**» فى طاعة الله تعالى. فمن قاتل لإظهار الإسلام، فهذا الذى قتاله طاعة لله سبحانه.

إن غير المسلمين يؤذون المسلمين فى دينهم، وهذا ثابت فى كل الأعصار، فجاءت آيات القتال وأحاديثه لتحرض المؤمنين على الوقوف فى وجه الظلم، كى تنكسر شوكة الطغاة، ويتقلص ظلم القساة، ويشيع الإسلام بين الناس كما أوحاه الله، وبعد ذلك فليعتنق الإنسان ما شاء من الدين.

إن مُنكرو السنة يصورون الحديث، وكأن رسول الله ﷺ يقول: أُمرت أن أقاتل الناس حتى يُسلم الجميع، يسلمون طوعًا أو كرهًا. وهذا التصوير خطأ وضلال، فالإسلام ليس قائمًا على الإكراه، وإنما القتال غايته أن يعلم الناس حقيقة الإسلام من الشهادتين، وأن يعلموا أصوله من صلاة وصيام، ثم لهم الحرية الكاملة، فمن شاء أسلم لا يستطيع أحد أن يمنعه، ومن شاء لم يسلم ليس لأحد أن يُرغمه.

---

(١) أى: ليُذكر بين الناس بالشجاعة.

(٢) أى: رياء.

(٣) صحيح: رواه البخارى (٢٨١٠) كتاب الجهاد والسير.

(٤) فتح البارى شرح حديث رقم (٢٨٠) جـ٦ ص ٢٨.

وهكذا يوفر هذا الحديث وما فى موضوعه كامل الحرية الدينية لكل إنسان، إنه يزيح الموانع عن الحق، والواقفين فى وجه الصدق، يدعوهم للإنصاف فإن استجابوا فلا عليهم، وإن لم يستجيبوا قاتلهم، ليوفر الحرية لأتباعهم من المقهورين.

والآيات القرآنية والأحاديث النبوية وكتب التاريخ.. كل ذلك يشهد أن الإسلام لا يُكرهُ أحدًا على الدخول فيه ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ ويشهد أن الكفر ماضٍ فى قتال المسلمين من أجل صدهم عن دينهم، وتوصى الآيات المسلمين بالتصدى للكفرة حتى يتمكن المسلمون من مزاولة دينهم بكل كمال، ويتمكن من أراد الإسلام أن يسلم. يقول ربنا سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ ﴾[1]، ويقول سبحانه: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ ﴾[2]، ويقول سبحانه: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾[3]، ويقول سبحانه: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾[4]، هكذا تبين الآيات أن الكافرين سيبذلون كل ما فى وسعهم فى منع الناس من الإسلام، وإخراج المسلمين من الإسلام، وتوجب الآيات على المسلمين أن يردُّوا لكن بالإنصاف والعدل، عليهم أن يدافعوا عن دينهم لكن ﴿وَلَا

(١) سورة الأنفال: الآية: (٣٦).

(٢) سورة البقرة: الآية: (٢١٧).

(٣) سورة التوبة: الآية: (٣٢).

(٤) سورة البقرة: الآية: (١٩٠).

تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾.

والتاريخ على طوله يشهد بذلك، فلم يسجل التاريخ أن رسول الله ﷺ قاتل جماعة ليحملهم على الإسلام، وإنما حاربه الكثيرون فحاربهم، وعندما انتصر عليهم لم يُكره أحدًا على الإسلام، وإنما أقام الحق والعدل.

جاوره اليهود في المدينة، فما أكره أحدًا منهم على الإسلام!!

وكم أثاروا على الإسلام من افتراءات!!

وكم آذووا الرسول والمسلمين!!

تجرءوا على إنكار ما جاء في كتبهم!!

وتجرءوا فأخطأوا في حق الله سبحانه وتعالى(١).

وكان على أطراف الجزيرة كثير من النصارى، وفدوا إليه ﷺ وتناقشوا معه، وهو ممتثل قول الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾(٢).

وَفَدَ إليه ﷺ وفد نجران فأحسن استقبالهم، وكانوا يتحدثون فيما بينهم بأنه رسول الله، وأنه كما جاء وصفه في كتبهم،.. استقبلهم ﷺ في مسجده، وأرادوا الصلاة فسمح لهم فصلوا في مسجده، وما أرادوا بذلك إلا اختبار احترامه لبقية الأديان، وتحدثوا معه كثيرًا، وعادوا إلى بلادهم وهم على دينهم ما أكرههم على الإسلام، ولا عاب شيئًا فيهم، على الرغم من

---

(١) راجع السيرة النبوية لابن هشام المجلد الأول (ص٥٤٣) إلى (ص٥٧٢).

(٢) سورة العنكبوت: الآية: (٤٦).

تطاولهم على الإسلام(١)!!

وهكذا يتضح أن الحديث لا إرهاب فيه ولا تطرف، وإنما يمنع تطرف القساة وإرهابهم الناس أن يسلموا. إنه حديث يمنع القُساة أن يحرموا الناس من الدخول فى الإسلام. إنه يوفر الحرية الدينية لكل الناس.

وهذا الحديث يعالج التطرف من زاوية أخرى، فهو ينهى المسلم عن العدوان على من نطق بالشهادتين، إنه ينهى عن تكفير الآخرين بأمور باطنة، ويعترف بالإسلام بناء على الأمور الظاهرة.

ولذلك ذكر العلماء هذا الحديث مع حديث أسامة بن زيد قال: «بعثنا رسول الله ﷺ سرية إلى الحُرقات(٢) فنذروا(٣) بنا فهربوا فأدركنا رجلًا فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله، فضربناه حتى قتلناه، فذكرتُه للنبى ﷺ فقال: «**من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة؟**» فقلت: يا رسول الله إنما قالها مخافة السلاح. قال: «**أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم من أجل ذلك قالها أم لا، من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة**»، فما زال يقولها حتى وددت أنى لم أُسلم إلا يومئذ»(٤).

إن حديث: «**أُمرت أن أقاتل الناس**» وحديث: «**أفلا شققت عن قلبه**» ذكرهما أبو داود وابن ماجه فى باب واحد، مما يدل على أن من أظهر الإسلام ولو بالشهادتين فقط يُعامل معاملة المسلم، ولا يصح أن يتنكر لهذا القدر الذى أظهره، لا يصح أن نبحث عن السرائر فهى موكولة إلى الله سبحانه، وإنما الأحكام على الظاهر.

---

(١) راجع السيرة النبوية لابن هشام المجلد الأول ص٥٧٣ فما بعدها.

(٢) الحُرَقات: قبائل من جهينة.

(٣) أى: علموا.

(٤) رواه أبو داود، وهو عند مسلم (١٥٨/ ٩٦) كتاب الإيمان من طرق.

شبهة: أن النبى ﷺ يعشق الانتقام

۞ فلقد ادعى أحد القساوسة (جيرى فالويل) أن رسول الله ﷺ يعشق الانتقام!! ويستدل على ذلك بأنه حينما مثَّل المشركون بحمزة عمه ﷺ قال: «والله لأمثلن بسبعين منهم مكانك».

وأقول له: بداية فهذا الحديث ضعَّفه الحافظ ابن حجر فى الفتح (٧/ ١٧٣).. وكذلك أقول له: لقد ظلمت نفسك أيها القس.

ومما يزيد من بشاعة ظلمك أنك ظلمت رسول الله ﷺ الذى قال الله فيه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾(١).

يا أيها القس، إن رسول الله ﷺ لم يمثل بأحد، وإنما عفا وصبر.

وتفصيل القول: إنه فى غزوة أحد، قتل المشركون من المسلمين سبعين رجلًا، ومبالغة فى القسوة مثّلوا بهؤلاء القتلى، فقطعوا أنوفهم، وآذانهم، وشقُّوا بطونهم، وشقوا بطن حمزة - عم رسول الله ﷺ - واستخرجوا كبده، ومضغتها هند بنت عتبة!!

ولما رأى رسول الله ﷺ والمسلمون ما فعله المشركون - من التمثيل بالقتلى - حزنوا كثيرًا، وتوعدوا أن يمثلوا بقتلى المشركين فى أقرب معركة.

وأتساءل مع القس وأشياعه: لقد مثل المشركون بقتلى المسلمين، فهل إذا مثل رسول الله ﷺ والمسلمون بقتلى المشركين يكون إرهابًا؟

إن إخبار رسول الله ﷺ والمسلمين بأنهم سيقتصون من المشركين، هو

(١) سورة الأنبياء: الآية: (١٠٧).

طبيعة البشر، إلا أن هؤلاء يفوقون البشر فى أن لهم دينًا ينهاهم عن الإرهاب -الإجرام- ويأخذ بأيديهم إلى مكارم الأخلاق.

فعن أُبى بن كعب أنه أصيب من الأنصار يوم أُحد أربعة وستون، وأصيب من المهاجرين ستة فيهم حمزة، فمثلوا بقتلاهم، فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يومًا من الدهر لنُربين - لنزيدن - عليهم، فلما كان يوم فتح مكة نادى رجل لا يُعرف: لا قريش بعد اليوم، (مرتين)، فأنزل الله ﷻ على نبيه ﷺ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾[1]، فقال النبى ﷺ: «**كُفُّوا عن القوم**»[2]. وفى رواية أنه ﷺ قال: «**نصبر يا رب نصبر**»، ونهى عن المثلة.

وهكذا توعد رسول الله ﷺ الطغاة، وجاءت الآية توضح جواز القصاص، وأن العفو أفضل، فأخذ ﷺ والمسلمون بالعفو.

إنه ﷺ لم ينتقم، ولم يمثل بأحد، على الرغم من فعلة المشركين الشنعاء، وإنما عفا وصبر، وكم عفا وكم صبر، وكم عفا وكم صبر.

شبهة: أنَّ غزوات الرسول كانت هجومية

۞ زعم بعض الكافرين أنَّ غزوات الرسول ﷺ كانت هجومية.. بمعنى أنه ﷺ هو الذى كان يبدؤ بالهجوم... وهى دعوى مبنيَّة على قِصَر النظر، ونقص العلم، وضيق الأُفق، فى تقويم أحداث السيرة، والنظر إليها من الزاوية القريبة، دون النظر إلى جميع الزوايا والأبعاد، وعدم استيعاب ما ورد فى أسباب الغزوات وملابساتها.

---

(١) سورة النحل: الآية: (١٢٦).

(٢) دلائل النبوة للبيهقى (٣/ ٢٨٩).

لا شكَّ أنَّ من غزوات الرسول ﷺ، ما لا يُشكُّ في أنه كان هجومًا من المشركين على المُسلمين، كما في غزوتي أُحد والخندق، وبعضها ما قد يحسب أنه ابتداءً من المسلمين وهو عند التأمُّل دفاع أو وقاية.

❁ **قال الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ:**

«وكانت سيرته ﷺ: أن كلَّ مَنْ هادنه من الكفار لا يُقاتله. وهذه كتب السيرة والحديث والتفسير والفقه والمغازي: تنطق بهذا. وهذا متواتر من سيرته. فهو لم يبدأ أحدًا من الكفار بقتال، ولو كان الله أمره بقتل كلِّ كافر، لكان يبتدئهم بالقتال»[١]. اهـ.

❁ **وقال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «هداية الحيارى»:**

«ولم يُكره أحدًا قط على الدين، وإنما كان يقاتل من يحاربه ويقاتله، وأما من سالمه وهادنه فلم يقاتله، ولم يُكرهه على الدخول في دينه؛ امتثالًا لأمر ربه سبحانه، حيث يقول: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾[٢]، وهذا نفي في معنى النهي، أي: لا تُكرهوا أحدًا على الدين. والصحيح: أن الآية على عمومها في حق كل كافر.

ومن تأمل سيرة النبي ﷺ تبيّن له أنه لم يُكره أحدًا على دينه قط، وأنه إنما قاتل مَن قاتله، وأما مَن هادنه فلم يقاتله ما دام مقيمًا على هدنته لم ينقض عهده، بل أمره الله تعالى أن يفي لهم بعهدهم ما استقاموا له، كما قال تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ﴾[٣].

---

(١) انظر قاعدة مختصرة في قتال الكفار ومهادنتهم (ص ١٣٤).

(٢) سورة البقرة: الآية: (٢٥٦).

(٣) سورة التوبة: الآية: (٧).

ولما قدم المدينة صالح اليهود وأقرّهم على دينهم، فلما حاربوه ونقضوا عهده وبدؤوه بالقتال قاتلهم، فمنَّ على بعضهم، وأجلى بعضهم، وقتل بعضهم.

وكذلك لَمَّا هادن قريشًا عشر سنين لم يبدءهم بقتال، حتى بدءوا هم بقتاله، ونقضوا عهده، فعند ذلك غزاهم فى ديارهم، وكانو هم يغزونه قبل ذلك، كما قصدوه يوم أُحد، ويوم الخندق، ويوم بدر أيضًا هم جاءوا لقتاله، ولو انصرفوا عنه لم يقاتلهم.

والمقصود: أنه ﷺ لم يُكره أحدًا على الدخول فى دينه البتة، وإنما دخل الناس فى دينه اختيارًا وطوعًا»[١]. اهـ.

شبهة: أنَّ الغزوات كانت من أجل السلب والنهب

۞ ولقد ادَّعى القِس (جيرى فالويل) أنَّ غزوات الرسول ﷺ كلها كانت من أجل السلب والنهب وأنها كانت بسبب الطمع فى الثراء السريع وسفك دماء الآمنين!! انتهى.

ومن له أدنى اطلاع على السيرة النبوية يظهر له بُطلان كلام هذا القس، وأنه محض افتراء وتزوير، فلقد طغى المشركون وتجبروا، وآذوا المسلمين كثيرًا.. عذبوهم وأخذوا أموالهم، وطردوهم من بلادهم، وخططوا للقضاء على رسول الله ﷺ، كما قال الله سبحانه: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾[٢].

(١) «هداية الحيارى من اليهود والنصارى» لابن القيم (١/ ١٢).

(٢) سورة الممتحنة: الآية: (١).

إن كل ناظر في التاريخ يتساءل: لماذا ترك رسول الله ﷺ والمسلمون مكة؟

إنه بسبب إيذاء المشركين، والعجيب أنه لم يحدث من المسلمين أى إيذاء للمشركين؟

ويقول الله سبحانه: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾[1].

لقد خططوا لقتله ﷺ، وتكرر ذلك عدة مرات، وكانت عناية الله سبحانه سبب نجاته ﷺ فى كل مرة.

ولما دعا ﷺ أهل المدينة إلى الإسلام، آمنوا به وبايعوه على الهجرة إليهم فهاجر، وتعامل مع اليهود أسمى معاملة، وعقد معهم معاهدة فى غاية السمو والرحمة.

ونصوص هذه المعاهدة مدونة فى كثير من كتب الإسلام.

لقد سالم ﷺ لأبعد حدٍّ، فأصروا على قتاله!! فقاتلهم فنصره الله عليهم، وأخذ بعض الغنائم كنتيجة طبيعية للمعركة، فالمنتصر يغنم، ولا علاقة بين الغنيمة والظلم، فليس كل من يغنم ظالمًا، وإنما الظالم من يشعل الحروب.

إن محمدًا ﷺ لم يبدأ حربًا قط، وإنما يبدأ أعداؤه فيقابل الاعتداء باعتداء مثله، فإذا انتصر لم يظلم، ولم يمثل، وإنما كان يحترم آدمية أعدائه، وماذا بعد قول الله تعالى له ولأمته: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ

(١) سورة الأنفال: الآية: (٣٠).

عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ ﴾[(١)].

أي: لا يحملنكم بغض قوم بسبب صدهم إياكم عن المسجد الحرام.

لا يحملنكم ذلك على أن تعتدوا، وإنما كونوا متعاونين على الطاعة والإنصاف، لا على المعصية والظلم.

وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾[(٢)].

أي: ولا يحملنكم بغض قوم على أن لا تعدلوا، إنه يجب عليكم العدل لأنه من تقوى الله.

لقد سار ﷺ بالسوية بين الناس إلا أن الآخرين لم يبادلوه سلمًا بسلم، وإنما أعلنوا عليه الحرب، فجاء المشركون إلى مدينته للقضاء عليه وعلى أمته!! ونقض اليهود المعاهدة، وأعلنوا أنهم أهل الدراية بالمعارك، وراحوا فجمعوا له الجموع من العرب واليهود فى أقوى تظاهرة عسكرية عرفتها جزيرة العرب!! فقابلهم ﷺ بجيش قليل فى عدده.

وكان ﷺ فى حربه فى غاية الإنصاف، وماذا بعد قول الله سبحانه:

﴿ وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾[(٣)]، وقوله سبحانه: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾[(٤)].

---

(١) سورة المائدة: الآية: (٢).

(٢) سورة المائدة: الآية: (٨).

(٣) سورة البقرة: الآية: (١٩٠).

(٤) سورة الأنفال: الآية: (٦١).

أمرنا ربنا سبحانه أن نقاتل من قاتلنا، أى: أن أمة الإسلام لا تبدأ القتال، وينهانا سبحانه أن نعتدى على أحد، فإذا أعلن آخرون الحرب علينا قابلناهم بحرب، فإن مالوا للسلام فلنأخذ نحن بمبدأ السلام.

ويوصى ﷺ جيش الإسلام فيقول: «**اغزوا باسم الله، وفى سبيل الله، وقاتلوا من كفر بالله. اغزوا، ولا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا**»(١).

إنه يوصى أن يكون الغزو فى طاعة الله، لا ظلم ولا بغى،«**ولا تغدروا**» أى: ولا تنقضوا عهدًا،«**ولا تغلوا**» أى: لا تأخذوا مالًا بغير حق.

هكذا يوجه ﷺ جيش الإسلام، يوصيهم أن يكونوا عادلين منصفين.

إنه الرسول الذى أرسله الله رحمة للعالمين، أى: رحمة لكل المخلوقات. تمر عليه جنازة فيقوم لها، فيقول أصحابه له: إنها جنازة يهودى، فيقول: «**أليست نفسًا؟**».

ولقد سارت الأمة على هديه ﷺ... فها هو أبو بكر الصديق يوصى قائد جيش المسلمين، فيقول له: لا تقطع شجرًا مثمرًا، ولا تخرب عامرًا، ولا تعقرن شاة ولا بعيرًا إلا لمأكلة، ولا تعقرن نخلًا ولا تحرقه.

ويمر عمر بن الخطاب على قوم من النصارى قد أصيبوا بالجذام فيأمر لهم بعطاء -معاش- من بيت مال المسلمين.

شبهة: أن النبى ﷺ اعتدى على الحريات حينما غزا مكة

ويدَّعى القس جيرى فالويل أن رسول الله محمدًا ﷺ اعتدى على الحريات حينما غزا مكة.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٧٣١) كتاب الجهاد والسير.

وأقول: إن أهل مكة هم الذين آذوا رسول الله ﷺ، وخططوا مرارًا لقتل رسول الله ﷺ... قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[١] وآذوا المسلمين وأخرجوا رسول الله والمسلمين من مكة، دون ذنب إلا أنهم قالوا: «لا إله إلا الله».. قال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾[٢].

ولم يكن كل أهل مكة قُساة ولا أشرارًا، وإنما كان فيهم قلة من القساة قادوا الآخرين للحرب على الإسلام، فلما قوى الإسلام جاء إلى مكة فاتحًا، ليحرر الضعفاء من اضطهاد القساة، وليوفر الحرية الدينية للناس، وليحقق قول الله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾[٣]. وعليه فلم يكن رسول الله ﷺ معتديًا على الحريات وإنما كان يوفر الحريات.

لقد فتح الله مكة للرسول وللمسلمين، فما أعملوا سيفًا، ولا حرص رسول الله على قتل أحد، وإنما قال مقولته المشهورة: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**» وقال: «**من أغلق باب بيته فهو آمن، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن**».

إن الإسلام لا يعرف الإكراه فى الدين، وأهل مكة يعرفون أن الإسلام حق وأن محمدًا صادق، وما منعهم من الإسلام إلا العصبية فجاء الإسلام ليعالج هذه العصبية فى نفوس المستكبرين، وكان قبل ذلك قد أصغى بعض هؤلاء للحق فأسلموا.. من أمثال عمر بن الخطاب، وخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وغير هؤلاء كثير.

---

(١) سورة الأنفال: الآية: (٣٠).

(٢) سورة الممتحنة: الآية: (١).

(٣) سورة البقرة: الآية: (٢٥٦).

شبهة: أن النبى ﷺ قام بغزوة حُنين من أجل القتل والغنائم

۞ ويدَّعى القس (جيرى فالويل) أنَّ النبى ﷺ قام بغزوة حنين وغنم غنائم ولم يكتفِ بذلك فشهوة القتل وسفك الدماء كانت متأصلة فيه، وحبه للمال والغنائم لم يكن له حدود.

وأقول: إنه ﷺ قام بغزوة حنين ليوفر للناس الحرية الدينية، وكان فى غاية الصفح والعفو.. وتطاولك على هذا النبى المعصوم إنما هو الكذب والبغى والظلم، تتستر فيه بالظلم الشائع فى هذه الفترة من التاريخ والله يقول: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾[1].

إنه ﷺ لم تكن فيه شهوة قتل، وإنما ما طُلب منه العفو إلا عفا.

وفى أقسى المواقف يعفو.. قَتَل وحشى عم رسول الله حمزة وحرضته هند بنت عتبة على ذلك، وقدر عليها فما قتل وإنما صبر فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين.

لقد رفع أحد المشركين السيف عليه ﷺ يريد قتله، فذكر الله فوقع السيف من يد المشرك فأخذه ﷺ لكنه لم يقتله وعفا عنه.

أما ادعاؤك الظالم: أنه ﷺ كان حب المال والغنائم عنده ليس له حدود.

فأقول: لا وألف لا. إنه ما أراد المال ولا أراد الغنائم، والدليل على ذلك ما يلى:

۞ عن عمرو بن عبسة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: صلى بنا رسول الله ﷺ إلى بعير من المغنم، فلما صلى أخذ وبرة من جنب البعير، ثم قال: «**لا يحل لى من**

---

(١) سورة الشعراء: الآية: (٢٢٧).

غنائمكم مثل هذا، إلا الخُمس، والخُمس مردود فيكم»[١].

۞ وعن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبى ﷺ: «غزا نبى من الأنبياء[٢]، فقال لقومه: لا يتبعنى رجل مَلَك بُضع امرأة[٣]، وهو يريد أن يبنى بها[٤]، ولـمَّا يبن بها، ولا أحد بنى بيوتًا ولم يرفع سقوفها، ولا رجل اشترى غنمًا، أو خلفات وهو ينتظر ولادها،.. فغزا، فدنا من القرية صلاة العصر، أو قريبًا من ذلك، فقال للشمس: إنك مأمورة وأنا مأمور[٥] اللهم احبسها علينا، فحُبست حتى فتح الله عليه، فجمع الغنائم، فجاءت - يعنى: النار - لتأكلها فلم تطعمها[٦]، فقال: إن فيكم غُلولًا، فليبايعنى من كل قبيلة رجل، فلزقت يدُ رجُل بيده. فقال: فيكم الغلول فلتبايعنى قبيلتُك، فلزقت يد رجلين أو ثلاثة بيده. فقال: فيكم الغُلول، فجاءوا برأس مثل رأس بقرة من الذهب، فوضعها، فجاءت النار فأكلتها».

۞ فلم تحل الغنائم لأحد قبلنا، ثم أحل الله لنا الغنائم،... رأى ضعفنا وعجزنا فأحلها لنا[٧].

إنه ﷺ يتحدث عن أحد الأنبياء السابقين، يبين شيئًا من فطانته وما مَنَّ

---

(١) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٦٦١).

(٢) هو يوشع بن نون، غزا أريحا وهو بيت المقدس.

(٣) عقد عقد الزواج على امرأة.

(٤) تزف إليه ويدخل بها.

(٥) إنك مأمورة بالغروب، وأنا مأمور بفتح القرية قبل الغروب.

(٦) أى: لم تذقها، وذلك لأن بعضهم كان قد سرق من الغنيمة، والسرقة من الغنيمة تسمى: غُلول.

(٧) ذكره فى جامع الأصول (٢/ ٧١٤)، نقلًا عن البخارى فى المزارعة باب المزارعة بالشطر (٥/ ١٠) ومسلم (١٥٥١).

الله به على هذا النبى حتى إن الشمس تُحبس ليكمل ما أُمر به.

وحينما يتكلم نبينا محمد ﷺ عن حِلِّ الغنائم لنا، يتكلم بكل تواضع، وبكل خلق حسن، ويبين أن حِلّ الغنائم لنا إنما هو بسبب ضعفنا وعجزنا. إنه لا يتعالى، لا يتمايز، لا يتكبر، وهذا لكرم خلقه ﷺ، وهو يبين أن الله سبحانه أحل الغنائم لأمة الإسلام دون غيرها من الأمم، وأن الغنائم! إنما هى للمجاهدين ولضعفة الأمة، وعليه فلا يصح أن يتطاول متطاول عليه ﷺ، فيدَّعى أن حب المال والغنائم عنده ليس له حدود.

ثم إنى أتساءل مع هؤلاء الجُرءاء على خاتم رسل الله: ماذا تقولون فى قوله ﷺ: «**لا نورث ما تركنا صدقة**»[(١)] إنه لم يُرد المال، ولم يطمع فى الغنائم، كيف وهو ﷺ القائل: «**ما لى وللدنيا؟**»[(٢)]. ونام ﷺ على حصير فقام وقد أثَّر فى جنبه، فقلنا يا رسول الله لو اتخذنا لك وِطاءً[(٣)]، فقال: «**ما لى وللدنيا، ما أنا فى الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة، ثم راح وتركها**»[(٤)].

إننى لو شئت لذكرت لهؤلاء الهمَّازين الكثير من النصوص التى تبين زهده ﷺ فى الدنيا.

شبهة: أن النبى ﷺ أجبر الروم فى غزوة تبوك على دفع الإتاوة

❁ ويدَّعى القِس (جيرى فالويل): أن النبى ﷺ قام بغزوة تبوك، وأجبر أهلها على دفع الجزية - الإتاوة: بلغة العامة.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٧٢٨) كتاب الفرائض، ومسلم (١٧٥٧) كتاب الجهاد والسير.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٢٦١٣) كتاب الهبة وفضلها.

(٣) فراشًا لينًا.

(٤) صحيح: رواه الترمذى، وابن ماجه، وأحمد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٦٦٨).

وأقول: إن رسول الله ﷺ ما بدأ بالشر، وإنما هم الذين بدأوه بالشر، فهم الذين قتلوا رسوله إليهم -الحارث بن عمير الأزدى- وكان ﷺ بعثه بكتاب إلى عظيم بُصرى[(١)].

وهم - أى: الروم - هم الذين جمعوا جموعهم لغزوه ﷺ[(٢)]، فعلم بذلك فقابلهم، ولما علموا بقدومه ﷺ وجيشه تفرقوا وعجزوا عن المقابلة، فعقد صلحًا مع كثير من القبائل، وأخذ منهم الجزية مقابل تأمينهم والدفاع عنهم، ومقابل الأعباء التى يتحملها عنهم، وهى نظير الزكاة المفروضة على المسلم.

وينخلع القس من أخلاق الكلمة فيقول: وكان - أى: رسول الله ﷺ - قد أعد جيشًا ضخمًا لغزو سوريا - الشام - ووضع فيه كبار صحابته السفاحين.

وأقول: طاوعك قلمك أن تتهم الصحابة الكرام بالسفاحين، فبِمَ نَصِف من قاموا بالحروب الصليبية، ومحاكم التفتيش، والحربين العالميتين، وماذا نقول فيمن يرتكبون المجازر فى حق الإنسانية، ويدمرون البيئة، ويشردون الآمنين؟

إن صحابة رسول الله ﷺ أثنى عليهم ربنا،.. فلا قيمة لكلام مخلوق فيهم. وأثنى عليهم نبينا، فلن نقبل جرحًا فيهم، وأنتم بالأساس مجروحون، وكلامكم غير مقبول.

إن الله تبارك وتعالى قال فيهم: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ

---

(١) الطبقات الكبرى (٢/ ١٢٨).

(٢) الطبقات الكبرى (٢/ ١٦٥).

وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾(١).

وقال سبحانه: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»(٣).

وقال ﷺ: «لا تسبُّوا أصحابى فلو أن أحدكم أنفق مثل أُحُدٍ ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه»(٤).

إننا معشر المسلمين نعرف قدر نبينا وأصحابه.

---

(١) سورة التوبة: الآية: (١٠٠).

(٢) سورة آل عمران: الآية: (١١٠).

(٣) صحيح: رواه البخارى (٣٦٥١) كتاب الشهادات، ومسلم (٢٥٣٣) كتاب فضائل الصحابة.

(٤) صحيح: رواه البخارى (٣٦٧٣) كتاب المناقب.

سُنة التدافع.. ومراحل تشريع القتال

إن من السنن التى تعامل معها النبى ﷺ سنة التدافع، وتظهر جليًّا فى الفترة المدنية مع حركة السرايا والبعوث والغزوات التى خاضها النبى ﷺ ضد المشركين، وهذه السنة متعلقة تعلقًا وطيدًا بالتمكين لهذا الدين، وقد أشار الله تعالى إليها فى كتابه العزيز وجاء التنصيص عليها فى قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(١).

وفى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾(٢).

ونلاحظ فى آية البقرة أنها جاءت بعد ذكر نموذج من نماذج الصراع بين الحق والباطل المتمثل هنا فى طالوت وجنود المؤمنين، وجالوت وأتباعه، ويُذيِّل الله تعالى الآية بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٣) (مما يفيد أن دفع الفساد بهذا الطريق إنعام يعم الناس كلهم)(٤).

وتأتى آية الحج بعد إعلان الله تعالى أنه يدافع عن أوليائه المؤمنين

(١) سورة البقرة: الآية: (٢٥١).

(٢) سورة الحج: الآية: (٤٠).

(٣) سورة البقرة: الآية: (٢٥١).

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، فخر الرازى (٣/ ٥١٤).

وبعد إذنه لهم -سبحانه- بقتال عدوهم ويختتم الآية بتقرير الله تعالى لقاعدة أساسية: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾(١).

۞ فكان تشريع القتال على مراحل:

المرحلة الأولى: الحظر، وذلك عندما كان المسلمون فى مكة، وكانوا يطالبون النبى ﷺ بالإذن لهم فى القتال فيجيبهم: «**اصبروا فإنى لم أؤمر بالقتال**»(٢).

المرحلة الثانية: الإذن به من غير إيجاب،... قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾(٣).

المرحلة الثالثة: وجوب قتال من قاتل المسلمين، قال تعالى: ﴿ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾(٤).

المرحلة الرابعة: فرض قتال عموم الكفار على المسلمين، قال تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾(٥).

إن هذا التدرج فى حكم القتال كان يقتضيه وضع الدولة الإسلامية الناشئة، وحالة الجيش الإسلامى الذى كان يأخذ فى التكوين من حيث العَدد والعُدد والتدريب، وما إلى ذلك فكان لا بد من مضى فترة من الوقت

---

(١) سورة الحج: الآية: (٤٠).

(٢) انظر: تفسير الألوسى (٦/ ١٠٨).

(٣) سورة الحج: الآية: (٣٩).

(٤) سورة البقرة: الآية: (١٩٠).

(٥) سورة التوبة: الآية: (٣٦).

يكون التعرض فيها لأعداء الدعوة الإسلامية من كفار قريش الذين آذوا المسلمين، واضطروهم إلى الخروج من ديارهم، يكون فيها ذلك التعرض لأعداء الدعوة، إنما هو على سبيل الاختيار، لا على سبيل الإجبار ذلك إلى أن يَصْلُب عود الدولة الإسلامية ويشتد بأس القوة الإسلامية، بحيث تستطيع الصمود أمام قوى الكفر فى الجزيرة العربية فيما لو عملت قريش على تأليبها ضد المسلمين، كما وقع فيما بعد، وحينئذ يأتى وجوب القتال، فى حالة تكون فيها أوضاع الدولة الإسلامية، والجيش الإسلامى على أهبة الاستعداد لمواجهة كافة الاحتمالات، هذا فيما يتصل بالقتال الذى يتعرض فيه المسلمون لكفار قريش، جاء النص بالإذن، أى: بالإباحة لا بالوجوب أما فى حالة ما لو تعرض فيه المسلمون وهم فى دولتهم فى المدينة لهجوم الأعداء عليهم، فالقتال هنا فرض لا مجال فيه للخيار، وليس مجرد أمر مأذون فيه، وذلك تطبيقًا لبيعة الحرب، بيعة العقبة الثانية التى أوجبت على الأنصار حرب الأحمر والأسود من الناس فى سبيل الذود عن الدعوة الإسلامية، وصاحبها وأتباعها(١).

ومع نزول الإذن بالقتال شرع رسول الله ﷺ فى تدريب أصحابه على فنون القتال والحروب، واشترك معهم فى التمارين والمناورات، والمعارك، وعدَّ السعى فى هذه الميادين من أجلِّ القربات وأقدس العبادات التى يتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى، وقد قام النبى ﷺ بتطبيق قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى

(١) انظر: القتال والجهاد، د. محمد خير هيكل (١/ ٤٦٣، ٤٦٤).

سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾[١] فى تكوين المجاهد المسلم يعتمد على نهجين متوازنين، التوجيه المعنوى، والتدريب العملى.

(١) التوجيه المعنوي:

فكان ﷺ يسعى إلى رفع معنويات المجاهدين، يمنحهم أملًا يقينيًا بالنصر أو الجنة، ومنذ تلك اللحظات وفيما بعد ظل هذا (الأمل) يحدو الجندى المسلم فى ساحات القتال ويدفعه إلى بذل كل طاقته النفسية والجسدية والفنية من أجل كسب المعارك أو الموت تحت ظلال السيوف[٢] فمن أقواله ﷺ فى حث أصحابه على الجهاد: «**والذى نفسى بيده، لولا أن رجالًا من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عنى، ولا أجد ما أحملهم عليه، ما تخلفت عن سرية تغزو فى سبيل الله، والذى نفسى بيده لوددت أنى أُقتل فى سبيل الله ثم أحيا، ثم أُقتل ثم أُحيا، ثم أقتل ثم أُحيا، ثم أُقتل**»[٣].

وقوله ﷺ: «**ما أحدٌ يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء، إلا الشهيدُ يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيُقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة**»[٤].

(٢) الأسلوب العملي:

فقد سعى النبى ﷺ إلى اعتماد كل طاقات الأمة القادرة على البذل

---

(١) سورة الأنفال: الآية: (٦٠).

(٢) انظر: دراسة فى السيرة، (ص١٦١).

(٣) البخارى، كتاب الجهاد والسير، باب تمنى الشهادة (٣/ ٢٦٨) رقم (٢٧٩٧).

(٤) البخارى، كتاب الجهاد والسير، باب تمنى المجاهد أن يرجع إلى الدنيا (٣/ ٢٧٤) رقم (٢٨١٧).

والعطاء، رجالًا ونساءً وصبيانًا وشبابًا وشيوخًا، وإلى التمرس على كل مهارة فى القتال طعنًا بالرمح وضربًا بالسيف، ورميًا بالنبل، ومناورة على ظهور الخيل، وكان ﷺ يمزج خَطَّى التربية العسكرية المتوازنين: التوجيه والتدريب والأمل بالنصر أو الجنة وتقديم الجهد فى ساحات القتال، ويحض المسلمين على إتقان ما تعلموا من فنون الرماية، قال رسول الله ﷺ: «**من علم الرمى ثم تركه فليس منا، أوقد عصى**»[١] فهى دعوة إلى عموم الأمة وحتى من دخلوا فى سن الشيخوخة للتدريب على إصابة الهدف ومهارة اليد، ونشاط الحركة. إن الإسلام يهتم بطاقات الأمة جميعها ويوجهها نحو المعالى وعلو الهمة.

وكان ﷺ يهتم بالإعداد على حسب كل ظرف وحال، ويحث على كل وسيلة يستطيعها المسلمون... وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: «**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، ألا إن القوة الرمى، ألا إن القوة الرمى، ألا إن القوة الرمي**»[٢][٣].

---

(١) مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الرمى والحث عليه (٣/ ١٥٢٣) رقم (١٩١٩).

(٢) مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الرمى والحث عليه رقم (١٩١٧).

(٣) غزوات الرسول - د/ على الصلابى (ص ٧-٩).

متى شُرع الجهاد؟

ذهب الشيخ الدكتور محمد أبو شهبة إلى أن تشريع الجهاد كان فى أوائل السنة الثانية للهجرة، وعلل ذلك بسبب انشغال المسلمين فى السنة الأولى بتنظيم أحوالهم الدينية والدنيوية كبنائهم المسجد النبوى، وأمور معايشهم، وطرق اكتسابهم وتنظيم أحوالهم السياسية: كعقد التآخى بينهم، وموادعتهم اليهود المساكنين لهم فى المدينة، كى يأمنوا شرورهم (١)، وذهب الأستاذ صالح الشامى أن الإذن بالجهاد كان فى أواخر السنة الأولى للهجرة (٢).

ما الفرق بين السرية والغزوة

يُطلق كُتَّاب السير فى الغالب على كل مجموعة من المسلمين خرج بها النبى ﷺ ليلقى عدوه (غزوة)، سواء حدث فيها قتال أو لم يحدث، وسواء كان عددها كبيرًا أو صغيرًا، ويطلق على كل مجموعة من المسلمين يرسلها النبى ﷺ لاعتراض عدو كلمة: (سرية) أو (بعث)، وقد يحدث فيها قتال، وقد لا يحدث، وقد تكون لرصد أخبار عدوه أو غيره، وغالبًا ما يكون عدد الذين يخرجون فى السرايا قليلًا؛ لأن مهمتهم محددة فى مناوشة العدو وإخافته وإرباكه، وقد قاد رسول الله ﷺ سبعًا وعشرين غزوة، وأرسل ما يُقدر بثمانٍ وثلاثين سرية وبعثًا، وقد خطط لها فى فترة وجيزة فى عمر الأمم بلغت عشر سنوات من الزمن (٣).

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبى شهبة (١/ ٧٥، ٧٦).

(٢) انظر: معين السيرة، (ص١٧٥).

(٣) فى ظلال السيرة، غزوة بدر، لأبى فارس، (ص١٢).

النبى يستعلم عن تعداد سكان المدينة لإعداد السرايا

أمر النبى ﷺ بإجراء تعداد سكانى فى السنة الأولى من الهجرة، وبعد المؤاخاة مباشرة، وكان الإحصاء للمسلمين فقط أو حسب نص أمر رسول الله ﷺ حينما قال: «**اكتبوا لى من تلفَّظ بالإسلام من الناس**» فبلغ تعداد المحاربين منهم فقط (١٥٠٠) ألفًا وخمسمائة رجل (١) فأطلق المسلمون بعد إجراء هذا الإحصاء تساؤل تعجُّب واستغراب: «نخاف ونحن ألف وخمسمائة؟!» لأنهم كانوا قبل لا ينامون إلا ومعهم السلاح خوفًا على أنفسهم، وكان رسول الله ﷺ يمنع خروجهم ليلًا فُرادى حماية لهم من الغدر (٢)، وبعد هذا التعداد مباشرة بدأت السرايا والغزوات، وهذا الإجراء الإحصائى يدخل ضمن الإجراءات التنظيمية فى تطوير الدولة الناشئة (٣).

---

(١) انظر: الوثائق السياسية، حميد الله، (ص٦٥).

(٢) نظر: الروض الأنف (٥/ ٤٣).

(٣) انظر: دراسات فى عهد النبوة للشجاع، (ص١٦٣).

ما هى أهداف السرايا؟

عندما ندرس حركة السرايا والغزوات التى قادها رسول الله ﷺ بدقة وعمق وتحليل، نستطيع أن نتلمس كثيرًا من الأهداف وندرك بعض ما توحى به من دروس وعبر وفوائد، فإذا تأملنا فى حركة السرايا التى سُيرت قبل بدر نجد أن أفرادها كلهم من المهاجرين ليس فيهم واحد من الأنصار يقول ابن سعد رحمه الله: «والمجتمع عليه أنهم كانوا جميعًا من المهاجرين» ولم يبعث رسول الله ﷺ أحدًا من الأنصار مبعثًا حتى غزا بهم بدرًا[١] وقد كان هذا أمرًا مدروسًا له أهدافه ومنها: إحياء قضية المهاجرين فى أنفسهم أولًا، وإحياؤها على المستوى الخارجى، وإنهاك الاقتصاد القرشى ومحاصرته، واستعادة بعض الحقوق المسلوبة، وإضعاف قريش عسكريًّا، وتدريب الصحابة على إتقان فنون القتال، ورصد تحركات قريش، وإرهاب العدو الداخلى فى المدينة وما حولها واختبار قوة العدو[٢] وقد حققت تلك السرايا أهدافها والتى من أهمها:

(أ) بسط هيبة الدولة فى الداخل والخارج:

فقد استطاعت تلك السرايا والغزوات أن تُلفت أنظار أعداء الدعوة والدولة الإسلامية إلى قوة المسلمين وقدرتهم على ضرب أية حركة مناوئة، سواء فى الداخل أو الخارج، حتى لا يُحدث أحد نفسه بمهاجمة الدولة الإسلامية، التى لا يتوقف جيشها ليل نهار؛ مما أرهب الأفاعى اليهودية، والقبائل الوثنية المحيطة بالمدينة، وجعل الجميع يعمل ألف

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ٦).

(٢) انظر: غزوة بدر الكبرى لأبى فارس، (ص١٤: ٢٤).

حساب قبل أن تُحدثه نفسه بغزو المدينة، أو مناصرة أحد من الأعداء عليها والـذى نلاحظـه فى حركـة الـسرايا الزيـادة المـستمرة فى أعـداد قـوة تلـك الغزوات والسرايا، ومجيئها متتابعة ليس بينها فاصل زمنى على الإطلاق، فلا تكاد السرية أو الغزوة تعود حتى تكون التى بعدها قد خرجت لتحقيق الهدف نفسه، وهو ضرب مصالح قريش الاقتصادية، وقطع طرق تجارتها، وخصوصًا إلى بلاد الشام؛ مما كلفها زيادة عدد حراس قوافلها، وارتفاع قيمة بضائعها، عدا عن الرعب والخوف الذى يشعر به رجال القوافل القرشية وأصحاب الأموال فى مكة على حدٍّ سواء[1].

(ب) كسب بعض القبائل وتحجيم دور الأعراب:

فقد وادع رسول الله ﷺ قبيلة جهينة وحالفها، وكذلك بعض القبائل الضاربة فى تلك المنطقة، من أجل تحييدها فى الصراع الدائر بين مكة والمدينة، والعمل على كسبها فى هذا الصراع وذلك: (لأن الأصل أن هذه القبائل تميل إلى قريش، وتتعاون معها، إذ بينهما محالفات تاريخية سمَّاها القرآن الكريم بالإيلاف[2] سعت قريش من خلالها لتأمين تجارتها مع الشام واليمن)[3].

وبعد أن اتفقت بعض القبائل مع رسول الله ﷺ وعقدت معه معاهدات، أصبحت تشكل خطرًا على تجارة قريش، وصار المسلمون هم السادة فى المنطقة[4].

---

(١) انظر: دولة الرسول من التكوين إلى التمكين، (ص٥٣٢).

(٢) سورة قريش الآيات من (١ – ٤).

(٣) انظر: المجتمع المدنى، د. أكرم ضياء العمرى، (ص٢٧).

(٤) انظر: دراسات فى السيرة، مؤنس، (ص١٩).

وقام النبى ﷺ بتحجيم دور الأعراب كى لا يكون لهم وجود فى طرق التجارة، فقد كان الأعراب يشكلون قوة تهديد للقوافل التجارية، وكان المار فى مناطق نفوذهم لا يمر إلا بإتاوة تُدفع إليهم، وحينما قامت الدولة الإسلامية لم يجدوا شيئًا منها فجربوا مهاجمتها وتولى هذا كرز الفهرى، ولكنه وجد رسول الله ﷺ يطارده إلى سفوان (بالقرب من بدر، وهى مسافة تبعد عن المدينة حوالى ١٥٠ كيلومترًا) وقد سمى أهل السير هذه المطاردة غزوة بدر الصغرى، وتُعد هذه الغزوة درسًا لكل الأعراب فلم يحصل أن أعرابيًّا سولت له نفسه مهاجمة المدينة بعد هذه المطاردة، ومن ثم لم تدفع الأمة الإسلامية إتاوات لقُطاع الطرق بل أجبرتهم على الانسحاب والدخول فى اتفاقات مع المسلمين فأمنوا شرهم[١].

(ج) علاقة هذه السرايا بحركة الفتوح الإسلامية :

استمرت حركة السرايا والبعوث، وكانت بمثابة تمرينات عسكرية تعبوية، ومناورات حية لجند الإسلام، وكان هذا النشاط المتدفق على شكل موجات متعاقبة من جند الإسلام الأوائل دلالة قاطعة على أن دولة الإسلام فى المدينة وبقيادة النبى القائد ﷺ كانت مثل خلية النحل لا تهدأ ولا تكل، وإن الباحث ليلحظ فى حركة السرايا والبعوث والغزوات الكبرى فى زمن النبى ﷺ حرص الصحابة على المشاركة كقادة وجنود، فكان ﷺ يُعدهم لتثبيت دعائم الدولة والاستعداد للفتوحات المرتقبة، والتى ما فتئ عليه الصلاة والسلام يبشر بها أصحابه بين الفينة والأخرى فى أوقات الحرب والسلم والخوف والأمن.

---

(١) انظر: دراسات فى عهد النبوة/ د. عبد الرحمن الشجاع، (ص١٣١).

إنه بنظرة فاحصة فى قواده وجنود تلك السرايا والبعوث تطالعنا أسماء لمعت كثيرًا فى تاريخ الفتح الإسلامى فيما بعد، مثل قائد فتوحات الشام، أمين الأمة، أبى عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبى وقاص صاحب القادسية، وفاتح المدائن ... وخالد بن الوليد سيف الله المسلول هازم الروم فى اليرموك، وعمرو بن العاص فاتح مصر وليبيا وغيرهم رضي الله عنهم .... لقد التحق خالد وعمرو فيما بعد بحركة السرايا وقادوا بعضهما بعد إسلامهم، لقد كانت السرايا والغزوات التى أشرف عليها الحبيب المصطفى ﷺ فى حياته تدريبًا حيًّا نابضًا، بل يمكن اعتبارها دورات أركان للقادة الذين فتحوا مشارق الأرض ومغاربها فيما بعد[١].

(١) غزوات الرسول ﷺ د/ على محمد الصلابى (ص: ٢٤-٢٦).

بداية التآمر والتعاون بين قريش والمُنافقين

نحن نعلم ما فعله كفار مكة من التنكيلات، والويلات ضد المسلمين، وما فعلوا بهم عند الهجرة، مما استحقوا لأجلها المصادرة والقتال، إلا أنهم لم يكونوا ليفيقوا عن غيِّهم، ويمتنعوا عن عدوانهم، بل زادهم غيظًا أن فاتهم المسلمون ووجدوا مأمنًا ومقرًا بالمدينة، فكتبوا إلى عبد الله بن أُبى ابن سلول، وكان إذ ذاك مشركًا بصفته رئيس الأنصار قبل الهجرة -فمعلوم أنهم كانوا مجتمعين عليه، وكادوا يجعلونه ملكًا على أنفسهم لولا أن هاجر رسول الله ﷺ، وآمنوا به- كتبوا إليه وإلى أصحابه المشركين يقولون لهم في كلمات باتة:

إنكم آويتم صاحبنا، وإنَّا نُقسم بالله لَتُقَاتِلُنَّهُ أو لتُخْرِجُنَّه، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا، حتى نقتل مقاتلتكم، ونستبيح نساءكم.

وبمجرد بلوغ هذا الكتاب قام عبد الله بن أُبيٍّ ليمتثل أوامر إخوانه المشركين من أهل مكة -وقد كان يحقد على النبى ﷺ لما يراه أنه استلبه مُلكه- يقول عبد الرحمن بن كعب: فلما بلغ ذلك عبد الله بن أُبى ومَن معه من عبدة الأوثان؛ اجتمعوا لقتال رسول الله ﷺ فلما بلغ ذلك النبى ﷺ لقيهم، فقال: «**لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم؟!**» فلما سمعوا ذلك من النبى ﷺ تفرقوا(١).

۞ امتنع عبد الله بن أُبيٍّ ابن سلول عن إرادة القتال عند ذاك؛ لما رأى

(١) أخرجه عبد الرزاق فى «المصنف» (٥/ ٩٧٣٣)، ومن طريقه أبو داود (٣٠٠٤)، والبيهقى فى «دلائل النبوة» (٣/ ١٧٨) وإسناده صحيح.

خورًا فى أصحابه، ولكن يبدو أنه كان متواطئًا مع قريش، فكان لا يجد فرصة إلا وينتهزها لإيقاع الشر بين المسلمين والمشركين، وكان يضم معه اليهود؛ ليُعينوه على ذلك، ولكن تلك هى حكمة النبى ﷺ التى كانت تطفئ نار شرهم حينًا بعد حين[١].

۞ **عن أسامه بن زيد قال:** «إن النبى، ركب حمارًا، عليه إكاف[٢] تحته قطيفة[٣] فدكية، وأردف وراءه أسامة، وهو يعود سعد بن عبادة فى بنى الحارث بن الخزرج، وذاك قبل وقعة بدر، حتى مر بمجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان، واليهود، فيهم عبد الله بن أُبى، وفى المجلس عبد الله بن رواحة، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة[٤]، خمَّر عبد الله بن أُبى أنفه[٥] بردائه ثم قال: لا تُغبِّروا علينا.

فسلَّم عليهم النبى ﷺ ثم وقف فنزل، فدعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن.

فقال عبد الله بن أُبي: أيها المرء! لا أحسن من هذا، إن كان ما تقول حقًّا، فلا تؤذنا فى مجالسنا، وارجع إلى رَحلك فمن جاءك فاقصص عليه.

فقال عبد الله بن رواحة: اغشنا فى مجالسنا، فإنا نحب ذلك، قال: فاستبَّ المسلمون والمشركون واليهود، حتى هَمُّوا أن يتواثبوا.

---

(١) انظر فى هذا الصدد صحيح البخارى (٨/ ٤٩٠٠، ٤٩٠٧).

(٢) إكاف: هو للحمار بمنزلة السرج للفرس.

(٣) قطيفة: دثار مخمل.

(٤) عجاجة الدابة: ما ارتفع من غبار حوافرها.

(٥) خمَّر أنفه: غطاه.

فلم يزل النبى ﷺ يُخفضهم[١]، ثم ركب دابته حتى دخل على سعد بن عبادة، فقال: «أى سعد ألم تسمع إلى ما قال أبو حباب؟» ويريد عبد الله بن أُبى «**قال كذا وكذا**» قال: اعفُ عنه يا رسول الله واصفح.

فوالله! لقد أعطاك الله الذى أعطاك ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة أن يُتوِّجوه، فيعصبوه بالعصابة، فلما ردّ الله ذلك بالحق الذى أعطاكه، شرق بذلك[٢]، فذلك فعل به ما رأيت، فعفا عنه النبى ﷺ»[٣].

وهنا تظهر عظمة النبوة وعظمة القائد المربى ﷺ حيث قضى على هذه الفتنة فى مهدها، وضرب على وتر العزة القبلية، فقد كان ﷺ يدرك أغوار النفس البشرية التى يتعامل معها، ولذلك كان خطابه مؤثرًا فى نفوس مشركى يثرب... ونحن بحاجة إلى هذا الفقه العظيم فى تفتيت محاولات المشركين للقضاء على الصف الإسلامى وزعزعة بنيانه الداخلى، بعد أن بدأت قريش بإعلان حالة الحرب بينها وبين دولة الإسلام بالمدينة.

ونزل الإذن من الله تعالى بالقتال فصار من الطبيعى أن تتعامل دولة المدينة مع قريش حسب ما تقتضيه حالة الحرب هذه، فقد اتجه نشاط الرسول ﷺ من أجل توطيد مكانة هذه الدولة، والرد على قريش فى إعلانها الحرب على المدينة، فاتجه نشاطه نحو إرسال السرايا، والخروج فى الغزوات[٤] فكانت تلك السرايا والغزوات التى سبقت بدر الكبرى.

---

(١) يخفضهم: يسكنهم ويسهل الأمر بينهم.

(٢) شرق بذلك: غُص ومعناه حسد النبى.

(٣) أخرجه البخارى (٤٥٦٦) التفسير - ومسلم (١٧٩٨) الجهاد والسير.

(٤) انظر الجهاد والقتال (١/ ٤٧٧).

بداية استفزاز المشركين للمسلمين

❁ بمجرد الاستقرار الذى حصل للمسلمين بقيادة الرسول ﷺ فى المدينة، وقيام الجماعة المؤمنة فى المجتمع الجديد، كان لا بد أن يتنبه المسلمون وقيادتهم إلى الوضع حولهم وما ينتظرهم من جهة أعدائهم أعداء الدعوة، وكان لا بد أن تنطلق الدعوة الإسلامية إلى غايتها التى أرسل الله محمدًا ﷺ بها، وتحمل هو وأصحابه فى سبيلها المشاق الكثيرة.

إن موقف قريش فى مكة من أولى الأمور التى يجب أن تعالجها قيادة المدينة؛ لأن أهل مكة لن يرضوا بأن يقوم للإسلام كيان ولو كان فى المدينة، لأن ذلك يهدد كيانهم، ويقوض بنيانهم، فهم يعلمون أن قيام الإسلام معناه انتهاء الجاهلية وعادات الآباء والأجداد، فلا بد من الوقوف فى وجهه.

وقد بذلت مكة وأهلها المحاولات لعدم وصول النبى ﷺ إلى المدينة واتخذت مواقف عدائية لضرب الإسلام والقضاء على المسلمين(١). واستمر هذا العداء بعد هجرة النبى ﷺ، فمن أهم المواقف الدالة على ذلك، ما رواه البخارى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حدَّث عن سعد بن معاذ أنه قال: كان صديقًا لأمية بن خلف، وكان (أمية) إذا مر بالمدينة نزل على سعد، وكان سعد إذا مر بمكة نزل على (أمية) فلما قَدِم رسول الله ﷺ المدينة انطلق (سعد) معتمرًا فنزل على أمية بمكة، فقال لأمية: انظر لى ساعة خلوة لعلى أن أطوف بالبيت، فخرج به قريبًا من نصف النهار، فلقيهما أبو جهل فقال: يا أبا صفوان من هذا معك؟ فقال: هذا سعد.

فقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمنًا، وقد آويتم الصُّبَاة(٢)

(١) انظر: مرويات غزوة بدر، أحمد باوزير، (ص٧٩).

(٢) جمع صابئ: أى الخارج عن دينه، وكان المشركون يسمون من أسلم صابئًا.

وزعمتم أنكم تنصرونهم، وتعينونهم، أما والله لولا أنك مع أبى صفوان ما رجعت إلى أهلك سالمًا، فقال له (سعد) ورفع صوته عليه: أما والله لئن منعتنى هذا لأمنعنك ما هو أشد عليك منه، طريقك على المدينة... [١]

وفى رواية عند البيهقي: «**والله لئن منعتنى أن أطوف بالبيت لأقطعن عليك متجرك إلى الشام**» [٢]... تدل هذه الواقعة على أن (أبا جهل) يعتبر (سعد بن معاذ) من أهل الحرب بالنسبة إلى قريش، ولولا أنه دخل مكة فى أمان زعيم من زعمائها لأهدر دمه، وهذا تصرف جديد من رؤساء مكة حيال أهل المدينة لم يكن قبل الدولة الإسلامية فيها، فلم يكن أحد من أهل المدينة يحتاج إلى عقد أمان لكى يُسمح له بالدخول إلى مكة، بل إن قريشًا كانت تكره أن تفكر فى حدوث حالة حرب بينها وبين أهل المدينة قبل هذا الوضع الجديد، وقالوا فى هذا الصدد يخاطبون أهل المدينة ما نَصُّه: «**والله ما من حى من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم**» [٣].

كما تدل هذه القصة على أن قوافل تجارة قريش فى طريقها إلى الشام كانت فى أمان إلى حدوث هذه الواقعة، لا تتعرض لها الدولة الإسلامية بمكروه، أي: كانت الدولة الإسلامية إلى هذا الوقت لم تعامل أهل مكة معاملة أهل الحرب، فلم تضرب عليهم الحصار الاقتصادى، ولم تصادر لهم أية قافلة، أو تقصدها بسوء؟ ومعنى هذا أن الأيدى الممسكة بزمام الأمور فى مكة هى التى بادرت، وأعلنت الحرب على الدولة الإسلامية فى المدينة، واعتبرت المسلمين أهل حرب لا يُسمح لهم بدخول مكة إلا بصفة مستأمنين [٤].

---

(١) صحيح البخارى رقم (٣٩٥٠).
(٢) انظر: دلائل النبوة للبيهقى، (٣/ ٢٥).
(٣) انظر: سيرة ابن هشام (الروض الأنف ٢/ ١٩٢).
(٤) انظر: الجهاد والقتال، (١/ ٤٧٦).

والله يعصمك من الناس

ثم إن قريشًا أرسلت إلى المسلمين تقول لهم: لا يغرنكم أنكم أفلتمونا إلى يثرب وسنأتيكم فنستأصلكم ونُبيد خضراءكم فى عقر داركم[١].

ولم يكن هذا كله وعيدًا مجردًا، فقد تأكد عند رسول الله ﷺ من مكائد قريش وإرادتها على الشر ما كان لأجله لا يبيت إلا ساهرًا، أو فى حرس من الصحابة ... فقد روى مسلم فى صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: سهر رسول الله ﷺ مقدمه المدينة ليلة، فقال: «**ليت رجلًا صالحًا من أصحابى يحرسنى الليلة**»،قالت: فبينما نحن كذلك سمعنا خشخشة سلاح، فقال: «**مَن هذا؟**» قال: سعد بن أبى وقاص، فقال له رسول الله ﷺ: «**ما جاء بك؟**» فقال: وقع فى نفسى خوف على رسول الله، فجئت أحرسه، فدعا له رسول الله ﷺ ثم نام[٢].

ولم تكن هذه الحراسة مختصة ببعض الليالى بل كان ذلك أمرًا مستمرًّا... فقد رُوى عن عائشة، قالت: كان رسول الله ﷺ يُحرس ليلًا، حتى نزل: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾[٣]، فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة، وقال: «**يا أيها الناس انصرفوا عنى فقد عصمنى الله عز وجل**»[٤].

ولم يكن الخطر مقتصرًا على رسول الله ﷺ بل على المسلمين كافة،

---

(١) رحمة للعالمين (١/ ١١٦).

(٢) أخرجه البخارى (٢٨٨٥)، ومسلم (٢٤١٠)، والترمذى (٣٧٥٧).

(٣) سورة المائدة: الآية: (٦٧).

(٤) رواه الترمذى والحاكم (٢/ ٣١٤) وصححه ووافقه الذهبى وحسنه الألبانى فى صحيح سنن الترمذى (٢٤٤٠).

فقد روى أُبى بن كعب، قال: لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوسٍ واحدة، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه[١].

الإذن بالقتال

۞ قال الزهرى: أول آية نزلت فى القتال كما أخبرنى عروة عن عائشة رضي الله عنها ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ﴾[٢][٣].

۞ قال الإمام ابن القيم رحمه الله: فلما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة، وأيده الله بنصره، وبعباده المؤمنين الأنصار، وألَّف بين قلوبهم بعد العداوة والإحن التى كانت بينهم، فمنعه أنصار الله وكتيبة الإسلام من الأسود والأحمر، وبذلوا نفوسهم دونه، وقدموا محبته على محبة الآباء والأبناء والأزواج، وكان أولى بهم من أنفسهم، رمتهم العرب واليهود عن قوسٍ واحدة، وشمروا لهم عن ساق العداوة والمحاربة، وصاحوا بهم من كل جانب، والله سبحانه يأمرهم بالصبر والعفو والصفح، حتى قويت الشوكة، واشتد الجناح فأُذن لهم حينئذ فى القتال، ولم يفرضه عليهم، فقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾.

وقالت طائفة: إن هذا الإذن كان بمكة، والسورة مكية، وهذا غلط لوجوه:

---

(١) الرحيق المختوم (ص: ٢٠٢، ٢٠٣).

(٢) سورة الحج: الآية: (٣٩).

(٣) فتح البارى (٧/ ٢٨٠) وقال: أخرجه النسائى وإسناده صحيح.

أحدها: أن الله لم يأذن بمكة لهم فى القتال، ولا كان لهم شوكة يتمكنون بها من القتال بمكة.

الثاني: أن سياق الآية يدل على أن الإذن بعد الهجرة وإخراجهم من ديارهم فإنه قال: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾(١) وهؤلاء هم المهاجرون.

الثالث: قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾(٢) نزلت فى الذين تبارزوا يوم بدر من الفريقين.

الرابع: أنه قد خاطبهم فى آخرها بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾(٣) والخطاب بذلك كله مدنى، فأما الخطاب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فمشترك.

الخامس: أنه أمر فيها بالجهاد الذى يعم الجهاد باليد وغيره، ولا ريب أن الأمر بالجهاد المطلق إنما كان بعد الهجرة، فأما جهاد الحجة فأُمر به فى مكة بقوله: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ﴾ أى: بالقرآن ﴿جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾(٤)؛ فهذه سورة مكية، والجهاد فيها هو التبليغ وجهاد الحجة، وأما الجهاد المأمور به فى سورة الحج فيدخل فيه الجهاد بالسيف.

السادس: أن الحاكم روى فى مستدركه من حديث الأعمش عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال: لما خرج رسول الله ﷺ من مكة قال أبو بكر: أَخرَجوا نبيهم، إنَّا لله وإنا إليه راجعون، ليهلكُن فأنزل الله ﷻ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ

(١) سورة الحج: الآية: (٤٠).

(٢) سورة الحج: الآية: (١٩).

(٣) سورة الحج: الآية: (٧٧).

(٤) سورة الفرقان: الآية: (٥٢).

يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ﴾[١] وهى أول آية نزلت فى القتال[٢].

وإسناده على شرط الصحيحين وسياق السورة يدل على أن فيها المكى والمدنى.

ثم فُرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم، فقال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ ﴾[٣] ؛ ثم فُرض عليهم قتال المشركين كافة، وكان مُحرمًا، ثم مأذونًا به، ثم مأمورًا به لمن بدأهم بالقتال، ثم مأمورًا به لجميع المشركين، إما فرض عين على أحد القولين، أو فرض كفاية على المشهور[٤].

---

(١) سورة الحج: الآية: (٣٩).

(٢) رواه الحاكم (٢/ ٦٦) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبى وأحمد (١/ ٢١٦) والترمذى (٣١٧٠) شاكر.

(٣) سورة البقرة: الآية: (١٩٠).

(٤) زاد المعاد (٣/ ٦٩-٧١).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الغزوات والسرايا

التى كانت قبل غزوة بدر

الغزوات والسرايا التى كانت قبل غزوة بدر

وها هي الغزوات والسرايا التى كانت قبل غزوة بدر:

۞ غزوة ودان «الأبواء[١]»:

وهى أول غزواته ﷺ فقد خرج غازيًا من المدينة فى الثانى عشر من شهر صفر بعد مضى سنة كاملة على قدومه إلى المدينة (سنة ٢هـ)، حتى بلغ ودان[٢]، وكان يستهدف قريشًا وبنى ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة. وقد وادعه مخشى بن عمرو الضَّمرى عن بنى ضمرة «ألا يكثروا ولا يعينوا عليه أحدًا»[٣]. وقد عاد عليه الصلاة والسلام بقواته إلى المدينة ولم يلقَ كيدًا، «فأقام بها بقية صفر، وصدرًا من شهر ربيع الأول»[٤].

۞ نص وثيقة المعاهدة مع بنى ضمرة والتعليق عليها:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد رسول الله لبنى ضَمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، وأنَّ لهم النصر على من رامهم، إلا أن يُحاربوا فى دين الله ما بل بحرٌ صوفه[٥] وأن النبى إذا دعاهم لنصرة أجابوه، عليهم بذلك ذمة الله وذمة رسوله، ولهم النصر على من برَّ منهم واتقى»[٦].

انتهز النبى ﷺ فى غزوة الأبواء فرصة ذهبية، فعقد حلفًا عسكريًّا مع

---

(١) قيل: سُميت بذلك لما فيها من الوباء.

(٢) إحدى القرى الجامعة في منطقة الفرع تبعد عن المدينة حوالي ٢٤ ميلًا.

(٣) أورده ابن سعد -الطبقات-(١/ ٢٧٥).

(٤) البخارى - الصحيح- (فتح البارى ٧/ ٢٧٩).

(٥) كناية على التأبيد والاستمرار.

(٦) الوثائق السياسية، محمد حميد الله، (ص٢٢٠) رقم (١٥٩).

شيخ بنى ضمرة، فقد كان موقع بلاده ذا قيمة عسكرية لا تُقدر بثمن فى الصراع بين الدولة الإسلامية الناشئة وقريش؛ ولذلك عمل رسول الله ﷺ على ضمان حيدتهم، فى حالة وقوع صدام مسلح بين المدينة وأهل مكة، وكانت خطته ﷺ حتى وقعة بدر أن يزعج قوافل قريش بإرسال مجموعات صغيرة من المهاجرين، وخاصة أن هذه القوافل كانت غير مصحوبة بجيش يحميها، وهو أمر لم تفكر فيه قريش حتى تلك اللحظة(١).

كان قرب بنى ضمرة وحلفائهم من المدينة التى كانت سوقهم ومصدر رزقهم، قد وضعهم فى موقف لا يسمح لهم بأى مسلك غير موادعة الدولة الإسلامية الناشئة، وهو حلف عدم اعتداء وفق المصطلح الحديث(٢).

وقد دلت هذه الموادعة على أن مقتضيات السياسة الشرعية قد تدفع المسلمين إلى التحالف العسكرى أو الاقتصادى أو التجارى، مع أى من الكتل القائمة، وأن التحالف السياسى له أصل فى الشريعة، وضرورة يوجبها استهداف رفع الضرر الحاصل أو المرتقب(٣)، وأن التحالف مبنى على قاعدة رفع الضرر، والمصلحة المشتركة، وأن تكون لأصل الحلف غاية شرعية معلومة، وأن يكون للمسلمين فى الحلف قرار ورأى، أما إذا كانوا أتباعًا ومنفذين كما فى الأحلاف الحديثة، فهذا لا ينطبق عليه الأصل الشرعى، وعلى قيادة الأمة أن تستوعب هدى النبى ﷺ فى حركته السياسية، وأن تفهم القاعدة الشرعية التى تقول: (لا ضرر ولا ضرار)(٤).

(١) انظر: نشأة الدولة الإسلامية، د. عون الشريف، (ص٤٣).

(٢) انظر: الفقه السياسى، خالد سليمان الفهداوى، (ص١١٩).

(٣) المصدر السابق، (ص١٢٤).

(٤) هذه القاعدة أصلها حديث نبوى رواه ابن ماجة (٢/ ٣٩) رقم (١٨٩٦)، وهو صحيح.

يقول الشيخ مصطفى الزرقا فى معرض الحديث عن هذه القاعدة ما نَصُّه:

«وهذه القاعدة من أركان الشريعة، وتشهد لها نصوص من الكتاب والسنة، ويشمل الضرر المنهى عنه ما كان ضررًا عامًّا أو خاصًّا، ويشمل ذلك دفعه قبل الوقوع بطرق الوقاية الممكنة، ودفعه بعد الوقوع بما يمكن من التدابير التى تزيل آثاره، وتمنع تكراره، كما يدل على وجوب اختيار أهون الشَّرين لدفع أعظمها؛ لأن فى ذلك تخفيفًا للضرر عندما لا يمكن منعه بتاتًا»[١].

إن هذه الموادعة توضح جواز عقد الدولة الإسلامية معاهدة دفاعية بينها وبين دولة أخرى إذا اقتضت ذلك مصلحة المسلمين، ولم يترتب أى ضرر على مثل هذه المعاهدة، ويجب على الدولة الإسلامية، فى هذه الحال نصرة الدولة الحليفة إذا دُعيت إلى هذه النصرة ضد الكفار المعتدين، كما يجوز للدولة الإسلامية أن تطلب من الدولة الحليفة إمدادها بالسلاح، والرجال، ليقاتلوا تحت راية الدولة الإسلامية ضد الأعداء من الكفار[٢].

وقد شرط النبى ﷺ على بنى ضَمرة ألا يحاربوا فى دين الله، حتى يكون لهم النصر على من اعتدى عليهم أو حاول الاعتداء، وفى هذا إبعاد للعقبات التى يمكن أن تقف فى طريق الدعوة، فقد أوجبت هذه المعاهدة على بنى ضمرة ألا يحاربوا هذا الدين أو يقفوا فى طريقه[٣].

وتعتبر هذه المعاهدة كسبًا سياسيًّا وعسكريًّا للمسلمين لا يُستهان به[٤].

---

(١) انظر: المدخل الفقهى، الشيخ الزرقا، (ص٩٧٢).

(٢) انظر: الجهاد والقتال فى السياسة الشرعية، د. محمد خير هيكل (١/ ٤٧٩).

(٣) انظر: دولة الرسول من التكوين إلى التمكين، (ص٥٣٠).

(٤) انظر: الدعوة الإسلامية، (ص٢٩٦)، د. عبد الغفار عزيز.

۞ سرية عبيدة بن الحارث:

وكانت أول راية عقدها النبى ﷺ هى راية سريّة عبيدة بن الحارث الذى بعثه فى ستين رجلًا من المهاجرين بعد عودته من غزوة ودّان، فسار حتى بلغ ماءً بالحجاز بأسفل ثنية المرّة، فلقى جمعًا عظيمًا من قريش عليهم عكرمة ابن أبى جهل، فلم يكن بينهم قتال، إذ حصل تناوش وتراشق بالسهام، وكان سعد بن أبى وقاص أول من رمى بسهم فى الإسلام فى هذه السرية، ثم انصرف القوم بعضهم عن بعض، وللمسلمين حامية، وفرَّ من المشركين إلى المسلمين المقداد بن عمرو البهرانى حليف بنى زهرة، وعتبة بن غزوان بن جابر المازنى حليف بنى نوفل بن عبد مناف وكانا مسلمين ولكنهما جعلا خروجهما مع الكفار وسيلة للوصول إلى المسلمين[١].

وفى هذه السرية حقق سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه سبقًا عسكريًّا إسلاميًّا، يُسجَّل فى سجله الحافل بالأعمال العظيمة لنصرة دين الله تعالى، كما أكدت هذه السرية استمرار سياسة رسول الله ﷺ التعبوية الخاصة بحشد المهاجرين فقط فى الغزوات والسرايا الأولى حتى بدر تنفيذًا لاتفاقية العقبة الثانية[٢].

۞ سرية حمزة إلى سيف البحر:

وأرسل الرسول ﷺ سريّة من ثلاثين رجلًا جعل عليهم عمه حمزة بن عبد المطلب، إلى سيف البحر ليعترضوا قافلة تجارية لقريش قادمة من الشام فيها أبو جهل فى ثلاثمائة رجل، ولكنهم لم يشتبكوا مع قريش فى قتال

(١) الطبقات لابن سعد (٢/ ٧).

(٢) انظر السرايا والبعوث النبوية د/ بريكك العمرى (ص ٩١).

فقد حجز بينهم مجدى بن عمرو الجهنى وكان حليفًا للطرفين [١].

❁ نص وثيقة الموادعة مع جهينة والتعليق عليها:

«إنهم آمنون على أنفسهم وأموالهم، وإن لهم النصر على من ظلمهم أو حاربهم إلا فى الدين والأهل، ولأهل باديتهم من بر منهم واتقى ما لحاضرتهم» [٢]

ويظهر أثر هذه الموادعة عندما تدخَّل مجدى بن عمرو الجهنى فى التوسط بين سرية حمزة بن عبد المطلب والقافلة القرشية التى كان يقودها أبو جهل بن هشام ويحرسها ثلاثمائة راكب من فرسان قريش [٣] فقد التقوا ناحية العيص فى منطقة نفوذ جهينة واصطفوا للقتال [٤] وقبل أن يندلع القتال بين الفريقين تدخل مجدى بن عمرو زعيم من زعماء جهينة، فى وساطة سلام بينهم، واستطاع أن ينجح فى مساعيه السلمية بين الطرفين، فقد كان مجدى وقومه حلفاء للفريقين جميعًا فلم يعصوه فرجع الفريقان كلاهما إلى بلادهما فلم يكن بينهم قتال [٥].

ويظهر من هذه المعاهدة أن عقد المعاهدات بين الدول الإسلامية والقبائل المجاورة كان سابقًا على الأعمال العسكرية التى قامت بها، بدليل أن حركة السرايا الأولى الموجهة ضد قريش كان قد سبقها معاهدة سلام بين دولة الإسلام وقبيلة جهينة المقيمة على ساحل البحر الأحمر، وقد توسطت لمنع القتال بين المسلمين وكفار مكة.

---

(١) الطبقات (٢/ ٦).

(٢) انظر: مجموعة الوثائق السياسية، محمد حميد الله، (ص٦٢).

(٣) انظر: المواهب اللدنية (١/ ٧٥).

(٤) انظر: طبقات ابن سعد (٢/ ٦)، السرايا والبعوث، (ص٨٥).

(٥) انظر: السرايا والبعوث النبوية، (ص٨٦).

ومن فقه هذه المعاهدة، جواز عقد معاهدة سلام بين دولة الإسلام ودولة أخرى هى بدورها مرتبطة بمعاهدة سلام مع أعداء الدولة الإسلامية بشرط أن لا تجاوز تلك المعاهدة إلى الاتفاق على أن تنصر الدولة المعاهدة للمسلمين تلك الدولة العدو إذا ما اشتبكت مع المسلمين فى قتال، ويجوز للدولة الإسلامية أن تترك قتال أعداءها بعد أن تستعد لذلك استجابة لوساطة دولة أخرى، إذا لم يترتب على ذلك ضرر للمسلمين[١].

كانت نتائج سرية حمزة رضي الله عنه على المعسكر الوثنى سيئة للغاية، حيث هزت كيان قريش وبثت الرعب فى نفوس رجالها، وفتحت أعينهم على الخطر المحدق بهم والذى أصبح يهدد طريق تجارتهم وقوتهم الاقتصادية[٢]، فقد قال أبو جهل حين قدم مكة منصرفه عن حمزة: يا معشر قريش إن محمدًا قد نزل يثرب وأرسل طلائعه، وإنما يريد أن يصيب منكم شيئًا، فاحذروا أن تمروا طريقه، وأن تقاربوه فإنه كالأسد الضارى، إنه حنق[٣] عليكم نفيتموه نفى القردان[٤] على المناسم[٥]، والله إنه له لسحرة، ما رأيته قط ولا أحدًا من أصحابه إلا رأيت معهم الشياطين، وإنكم عرفتم عداوة ابنى قيلة[٦] فهو عدو استعان بعدو[٧].

(١) انظر: الجهاد والقتال فى السياسة الشرعية (١/ ٤٧٨، ٤٧٩).

(٢) انظر: السرايا والبعوث النبوية، (ص٨٦).

(٣) الحنق: محركة: الغيظ أو شدته.

(٤) القردان: جميع قراد وهى دويبة تعض الإبل.

(٥) المناسم: بكسر السين: طرف خف البعير والنعامة، والفيل والحافر، وقيل: هى للناقة كالظفر للإنسان.

(٦) كناية عن الأوس والخزرج، فقيلة أمهم وكانوا يُنسبون إليها.

(٧) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٢١٨، ٢١٩)، نقلًا عن غزوات الرسول ﷺ.

۞ غزوة بواط:

قاد الرسول ﷺ غزوة شارك فيها مائتان من الصحابة، استهدفت اعتراض قافلة تجارية لقريش يرأسها أُمية بن خلف ويرعاها مائة رجل من قريش، وفيها ألفان وخمسمائة بعير محملة بأنواع البضائع -وقد وصل النبى ﷺ بقواته إلى بواط، وهى من جبال جهينة من ناحية رضوى، ثم رجع حين لم يعثر على القافلة، ولم يلقَ حربًا. وكان قد استعمل على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون(١).

۞ غزوة العشيرة:

وغزا رسول الله ﷺ قريشًا لاعتراض قوافلها التجارية، وكان معه مائة وخمسون من أصحابه، فبلغ العشيرة بناحية ينبع، وفاتته العير، ووادع فى هذه الغزوة بنى مدلج وحلفاءهم من بنى ضمرة، ثم عاد إلى المدينة، ولم يلقَ حربًا(٢).

۞ سرية سعد بن أبى وقاص إلى الخرار:

بلغ النبى ﷺ أن عيرًا لقريش فى طريقها إلى مكة، وأنها قد أخذت طريق الخرّار، فانتدب سعد بن أبى وقاص لقيادة سريّة لاعتراضها، يقول سعد: «فخرجت فى عشرين رجلًا أو إحدى وعشرين على أقدامنا، نكمن بالنهار ونسير بالليل حتى صبَّحناها صبح خمس، فنجد العير قد مرَّت بالأمس، وقد كان النبى ﷺ عَهِد إلىَّ ألا أجاوز الخرّار، ولولا ذلك لرجوت أن أدركهم»(٣).

(١) السيرة لابن هشام (١/ ٥٩٨).

(٢) انظر البخارى (٣٩٤٩) غزوة العشيرة.

(٣) ابن هشام (١/ ٦٠٠).

۞ غزوة بدر الأولى (الصغرى):

أغار كرز بن جابر الفهرى على سرح المدينة المنورة فى أعقاب غزوة العشيرة، ونهب بعض الإبل والمواشى، فخرج رسول الله ﷺ يطارده مع عدد من الصحابة، إلى أن وصلوا وادى سفوان من نواحى بدر، وتمكن كرز الفهرى من الإفلات من حملة المطاردة، وقد تأكد من جرّاء هذا الحادث ضرورة توثيق المسلمين لعلاقاتهم مع القبائل المجاورة للمدينة. وكان النبى ﷺ قد استعمل على المدينة زيد بن حارثة[١].

۞ سرية عبد الله بن جحش:

وَبَعث رسولُ الله ﷺ عبدَ الله بن جَحْش بن رئَاب الأسدى فى رجب، مَقْفَلَهُ من بدر الأولى، وبعث معه ثمانية رَهْط من المهاجرين، لَيس فيهم من الأنصار أحد وكتب له كتابًا، وأمرَه أن لا ينظر فيه حتى يسيرَ يومين ثم ينظر فيه، فَيَمْضى لما أمره به، ولا يستكره من أصحابه أحدًا.

فلما سار عبدُ الله بن جَحْش يومين فتح الكتاب، فنظر فيه، فإذا فيه: إذا نظرت فى كتابى هذا فامضِ حتى تنزل (نَخْلة) بين مكة والطائف، فترصّدْ بها قريشًا وتعلم لنا من أخبارهم، فلما نظر عبد الله بن جحش فى الكتاب قال: سمعًا وطاعةً؛ ثم قال لأصحابه: قد أمرنى رسول الله ﷺ أن أمضى إلى نَخْلة، أرصُد بها قريشًا، حتى آتيه منهم بخبر؛ وقد نهانى أن أستكره أحدًا منكم، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق، ومن كَرِه ذلك فليرجع، فأمَّا أنا فماضٍ لأمر رسول الله ﷺ، فمضى ومضى معه أصحابُه، لم يتخلّف عنه منهم أحد.

---

(١) ابن هشام (١/ ٦٠١).

وسلك على الحجاز، حتى إذا كان بمعدن، فوق الفُرْع، يقال له: بحران أضلَّ سعدُ بن أبى وقاص، وعُتبة بن غزوان بعيرًا لهما، كانا يعتقبانه فتخلّفا عليه فى طلبه. ومضى عبد الله بن جحش وبقيةُ أصحابه حتى نزلَ بنخلة، فمرّت به عير لقريش تحمل زبيبًا وأدمًا -الجلد- وتجارة من تجارة قريش فيها عمرو بن الحضرمى.

فلما رآهم القوم هابُوهم وقد نزلوا قريبًا منهم، فأشرف لهم عُكاشة بن محْصَن، كان قد حلق رأسه، فلما رأوه أمنُوا، وقالوا: عُمَّار -أى جاءوا لأداء العمرة لا بأس عليكم منهم- وتشاور القوم فيهم، وذلك فى آخر يوم من رجب؛ فقال القومُ: والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخُلنّ الحرم، فليمتَنعنَّ منكم به، ولئن قَتلتموهم لتقتلنّهم فى الشهر الحرام؛ فتردّد القوم، وهابوا الإقدام عليهم، ثم شجّعوا أنفسهم عليهم، وأجمعوا على قتل من قدَروا عليه منهم، وأخذ ما معهم فرمى واقد بن عبد الله التمَيمى عمرو بنَ الحضرمى بسهم فقتله، واستأسر عثمان بن عبد الله، والحكَم بن كَيْسان -أخذهما أسرىَ- وأفلتَ من القوم نوفلُ بن عبد الله فأعجزهم، وأقبل عبدُ الله بنُ جحش وأصحابُه بالعير وبالأسيرين حتى قَدِموا على رسول الله ﷺ المدينةَ.

وقد ذكر بعضُ آل عبد الله بن جحش: أن عبد الله قال لأصحابه: إن لرسول الله ﷺ مما غَنمْنا الخُمس -وذلك قبل أن يفرض الله تعالى الخُمسَ من المغانم- فَعَزَلَ لرسول الله ﷺ خُمْس العير، وقسّم سائرها بين أصحابه.

فلما قَدِموا على رسول الله ﷺ المدينة؛ قال: «ما أمرتُكم بقتال فى الشهر

الحرام»، فوقّف العير والأسيرين، وأبَى أن يأخذ من ذلك شيئًا؛ فلما قال ذلك رسولُ الله ﷺ سُقط فى أيدى القوم، وظنّوا أنهم قد هَلكوا، وعنّفهم إخوانُهم من المسلمين فيما صَنعوا، وقالت قريش: قد استحلّ محمد وأصحابُه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال فقال: من يردّ عليهم من المسلمين، ممن كان بمكة: إنما أصابوا ما أصابوا فى شعبان.

فلما أكثر الناسُ فى ذلك أنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ أى إن كنتم قتلتم فى الشهر الحرام، فقد صَدُّوكم عن سبيل الله مع الكفر به، وعن المسجد الحرام وإخراجكم منه وأنتم أهلُه أكبر عند الله من قتل مَن قتلتم منهم ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ﴾ أى قد كانوا يفتنون المُسلم عن دينه حتى يردّوهُ إلى الكفر بعد إيمانه، فذلك أكبرُ عند الله من القتل ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ﴾ (1) أى ثم هم مقيمون على أخبث من ذلك وأعظمه، غيرَ تائبين ولا نازعين.

فلما نزل القرآن بهذا الأمر، وفَرّج الله تعالى عن المسلمين ما كانوا فيه من الشَّفَق، قَبَض رسولُ الله ﷺ العيرَ والأسيرين، وبعثت إليه قريش فى طلب فداء عثمان بن عبد الله والحكم بن كَيْسان، فقال رسول الله ﷺ: «**لا نُفْديكموهما حتى يقدم صاحبانا** -يعنى سعدَ بن أبى وقاص، وعُتبة بن غَزوان- **فإنا نخشاكم عليهما، فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم**»، فَقَدِمَ سعدٌ

(١) سورة البقرة: الآية: (٢١٧).

وعتبة، فأفداهما رسول الله ﷺ منهم.

فأما الحكم بن كيسان فأسلم فحسُن إسلامه، وأقام عند رسول الله ﷺ حتى قُتل يوم بئر معونة شهيدًا، وأما عثمان بن عبد الله فَلحق بمكة، فمات بها كافرًا.

فلما تجلّى عن عبد الله بن جحش وأصحابه ما كانوا فيه حين نزل القرآن، طمعوا فى الأجر. فقالوا: يا رسول الله، أنطمع أن تكون لنا غزوة نُعْطَى فيها أجر المجاهدين؟ فأنزل الله ﷻ فيهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(١) فوضعهم الله ﷻ من ذلك على أعظم الرَّجاء(٢).

سرية عبد الله بن جحش وما فيها من دروس وعبر:

إن سرية عبد الله بن جحش حققت نتائج مهمة وفيها دروس وعبر وفوائد عظيمة منها:

(أ) **جاء فى خبر هذه السرية أن النبى ﷺ كتب لأمير السرية كتابًا وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين**، وهذا مثل لتطبيق مبدأ مهم من مبادئ الحرب، وهو إخفاء الخطط الحربية، ومنها خط السير، حتى يكون الجيش فى أمان من كيد الأعداء، فالمدينة كانت آنذاك تضم اليهود والوثنيين ومن المتوقع أن يسارع هؤلاء إلى إخبار أهل مكة بخط سير تلك السرية الموجهة ضدهم، فلما سار أفراد السرية وهم بأنفسهم لا يعلمون اتجاههم أصبح النبى ﷺ

---

(١) سورة البقرة: الآية: (٢١٨).

(٢) ذكره الهيثمى فى المجمع (٦/ ١٩٨) وقال: رواه الطبرانى ورجاله ثقات وأخرجه البيهقى فى السنن الكبرى (٩/ ٥٨، ٥٩) عن عروة وإسناده صحيح.

آمنا من انكشاف الهدف المقصود[١].

وإن الباحث ليرى أثر التربية النبوية فى هذه السرية المباركة حيث سمعوا وأطاعوا جميعًا وساروا إلى منطقة أعدائهم، وتجاوزوها حتى أصبحوا من ورائهم، وهذا شاهد على قوة إيمان الصحابة رضي الله عنهم، واستهانتهم بأنفسهم فى سبيل الله تعالى[٢].

(ب) حاولت قريش أن تستغل ما وقع من قتل فى الشهر الحرام من قِبَل أفراد السرية:

فشنُّوا حربًا إعلامية وهجومية مُركزة تتخللها دعايات مُغرضة ضد المسلمين، استغلت فيها التعاليم الإبراهيمية التى ما زالت بعض آثارها باقية فى المجتمع الجاهلى حتى ذلك الوقت من تحريم القتال فى الأشهر الحرم، وغير ذلك، فقد انتهزت قريش هذه الفرصة للتشهير بمحمد ﷺ وبالمسلمين وإظهارهم بمظهر المعتدى الذى لا يراعى الحرمات[٣]، قالت قريش: «**قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال**»[٤].

ونجحت قريش فى خطتها تلك بادئ الأمر حيث (كان لدعايتها صدى كبير، وأثر ملموس حتى فى المدينة نفسها، فقد كثر الجدل والنقاش بين المسلمين أنفسهم، وأنكروا على رجال السرية محاربتهم فى الشهر الحرام

(١) انظر: التاريخ الإسلامى مواقف وعبر (٤/ ٧١).

(٢) انظر: التاريخ الإسلامى مواقف وعبر (٤/ ٧١).

(٣) انظر: مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول، الشريف أحمد، (ص٤٤٥).

(٤) انظر: سنن البيهقى (٩/ ٥٩) نقلا عن السرايا والبعوث النبوية، (ص١٠٠).

واشتد الموقف، ودخلت اليهود تريد إشعال الفتنة)[١]، وقالوا إن الحرب واقعة لا محالة بين المسلمين وقريش، بل بينهم وبين العرب جميعًا جزاء ما انتهكوا من حرمة الشهر الحرام، وأخذوا يرددون: «عمرو بن الحضرمى قتله واقد بن عبد الله، عمرو: عمرت الحرب، والحضرمي: حضرت الحرب، وواقد: وقدت الحرب»[٢] وهذا الكلام من اليهود يعبر عن حقد دفين فى نفوسهم على الإسلام والمسلمين[٣].

وعندما ظن أهل السرية أنهم قد هلكوا وسُقط فى أيديهم جاء الرد الربانى المُفحم قطعًا لألسنة المشركين الذين يتترسون بالحرمات، ويتخذونها ستارًا لجرائمهم، ففضح القرآن هؤلاء المجرمين، وأبطل احتجاجهم وأجاب على استنكارهم القتال فى الشهر الحرام، فالصد عن سبيل الله، والكفر به أكبر من القتال فى الشهر الحرام، والمسجد الحرام، وإخراج أهله منه أكبر من القتال فى الشهر الحرام، وفتنة الرجل فى دينه أكبر من القتل فى الشهر الحرام، لقد فعلت قريش كل هذه الجرائم، وارتكبت هذه الكبائر، ولكنها تناستها أو استهانت بها، ولم تذكر إلا حرمة الشهر، واتخذتها وسيلة لإثارة حرب شعواء على الإسلام ودولته، لتأليب القبائل الوثنية عليها، وتنفير الناس من الدخول فى هذا الدين الذى يستحل الحرمات، ويستبيح المقدسات حتى إن رسول الله ﷺ قد لحقه الغم، ولام قائد السرية وأصحابه على ما فعلوا[٤]، فنزلت الآيات البينات ترد وبقوة

(١) انظر: مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول، (ص٤٤٥).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٦٠٣، ٦٠٤).

(٣) انظر: التاريخ الإسلامى، (٤/ ٧٢).

(٤) انظر: دولة الرسول من التكوين إلى التمكين، (ص٥٣٣).

على دعايات قريش المغرضة، موضحة أنه وإن كان الشهر الحرام لا يحل فيه القتال، ولكن لا حرمة عند الله لمن هتك الحرمات وصد عن سبيله(١).

(جـ) حرص القائد على سلامة الجنود:

عندما تخلف سعد بن أبى وقاص، وعتبة بن غزوان بسبب بحثهما عن بعير لهما قد أضلاه، وجاءت قريش تريد أن تفدى الأسيرين، فأبى رسول الله ﷺ وقال: «**أخاف أن تكونوا قد أصبتم سعد بن مالك وعتبة بن غزوان**» فلم يفدهما حتى قدم سعد وعتبة، ففوديا، فأسلم الحكم بن كيسان(٢) وأقام عند رسول الله ﷺ ورجع عثمان بن عبد الله بن المغيرة كافرًا(٣).

ونفهم من المنهاج النبوى ضرورة أن يهتم القائد بسلامة جنده؛ لأنهم هم الذين يقدمون أنفسهم فى سبيل نصرة دين الله وإقامة دولة الإسلام.

إن المدارس العسكرية الحديثة تقول: إن الجندى حين يحس باهتمام القيادة به وسلامته وبأمنه، لا يتردد فى أن يبذل غاية البذل ويعطى أقصى العطاء(٤).

(د) ظهور التربية الأمنية فى الميدان:

كانت سرية عبد الله بن جحش قد حققت أهدافها، وظهرت قدرتها على التوغل فى المناطق الخاضعة لنفوذ قريش مما أذهلها، وزاد دهشتها وذهولها، تلك السرية التامة، والدقة المتناهية التى تمت بها العملية، حتى إن جواسيس قريش لم تستطع رصدها ولا معرفة الوجهة التى قصدتها،

(١) انظر: السرايا والبعوث النبوية، (ص١٠١).

(٢، ٣) انظر: السرايا والبعوث النبوية، (ص١٠٠).

(٤) انظر: غزوة بدر الكبرى، محمد أبو فارس، (ص٢٣).

وكان ذلك ما أراده رسول الله ﷺ وخطط له بابتكاره أسلوب الرسائل المكتوبة للمحافظة على الكتمان وحرمان العدو من الحصول على المعلومات التى تفيده عن حركات المسلمين «والكتمان أهم عامل من عوامل مبدأ (المباغتة) وهى أهم مبدأ من مبادئ الحرب»[(١)].

وقد أثبتت هذه السرية بما لا يدع مجالًا للشك بأن سرايا النبى ﷺ قوية تندفع للقيام بأصعب الأعباء والمهمات وتتحلى بمزايا القتال، وقدرتها على إنجاز الواجبات بكل كفاءة واقتدار؛ مما يدل على روحها المعنوية العالية.

ظهر آثار التربية النبوية فى الضبط العسكرى الرفيع الذى تميز به قائد السرية وطاعته للأوامر النبوية العليا دون تردد أو تخاذل، فما إن قرأ الكتاب حتى امتثل فورًا للأمر بحذافيره مُعطيًا من نفسه القدوة الحسنة، وباثًّا فى نفوس جنوده الحماس وهو يقول لهم: «فمن كان منكم يريد الشهادة، ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فأما أنا فماضٍ لأمر رسول الله ﷺ»[(٢)(٣)].

---

(١) انظر: الرسول القائد، خطاب، (ص٩٤).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام، (١/ ٦٠٢) من رواية ابن إسحاق عن عروة.

(٣) غزوات الرسول ﷺ (ص ٢٢-٢٤).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

غزوة بدر الكبرى

غزوة بدر الكبرى

لم يكن المسلمون قد اشتبكوا مع قريش بشكلٍ حاسم حتى تاريخ هذه الغزوة، وذلك ما أتاح لقريش مواصلة إرسال قوافلها التى كانت تمثل شريان الحياة لاقتصادها، ويلاحظ أن قريشًا استشعرت الخطر فأخذت تهيئ لقوافلها حراسات شديدة وكثيفة، وتُنوع الطرق التى تسلكها.

وكان المسلمون يرصدون تحرك القوافل القرشية وتتجمع لديهم الأخبار عن محتواها وبضاعتها وحراساتها والطرق التى تسلكها[1].

۞ وقد أسلفنا فى ذكر غزوة العشيرة أن عيرًا لقريش أفلتت من النبى ﷺ فى ذهابها من مكة إلى الشام، ولما قرب رجوعها من الشام إلى مكة بعث رسول الله ﷺ طلحة بن عبيد الله، وسعيد بن زيد إلى الشمال، ليقوما باكتشاف خبرها فوصلا إلى الروحاء، ومكثا حتى مَرَّ بهما أبوسفيان بالعير، فأسرعا إلى المدينة، وأخبرا رسول الله ﷺ بالخبر.

كانت العير مُركبة من ثروات طائلة من أهل مكة، ألف بعير موقرة بالأموال، لا تقل عن خمسين ألف دينار ذهبى، ولم يكن معها من الحرس إلا نحو أربعين رجلًا.

إنها فرصة ذهبية لعسكر المدينة، وضربة عسكرية واقتصادية قاصمة ضد المشركين لو أنهم فقدوا هذه الثروة الطائلة، لذلك أعلن رسول الله ﷺ فى المسلمين قائلًا: «**هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله أن يُنفلكموها**»[2].

---

(١) نضرة النعيم (١/ ٢٨٦).

(٢) أخرجه ابن هشام فى «السيرة» (٢/ ٤٤٠)، والطبرى فى تفسيره (٩/ ١٨٥)، وابن المنذر - كما فى الدر المنثور (٣/ ٣٠٦) بسند حسن عن ابن عباس.

تفاصيل مرحلة ما قبل المعركة

۞ وكما قلت لكم أنه قد بلغ المسلمين تحرُّك قافلة تجارية كبيرة من الشام تحمل أموالًا عظيمة[١] لقريش يقودها أبو سفيان ويقوم على حراستها بين ثلاثين وأربعين رجلا[٢]، فأرسل الرسول ﷺ بَسْبَس بن عمرو[٣] لجمع المعلومات عن القافلة، فلما عاد بسبس بالخبر اليقين، ندب رسول الله ﷺ أصحابه للخروج وقال لهم: «**هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها**»[٤]، وكان خروجه من المدينة فى اليوم الثانى عشر من شهر رمضان المبارك من السنة الثانية للهجرة، ومن المؤكد أنه حين خروجه ﷺ من المدينة لم يكن فى نيته قتال، وإنما كان قصده عير قريش، وكانت الحالة بين المسلمين وكفار مكة حالة حرب، وفى حالة الحرب تكون أموال العدو ودماؤهم مباحة، فكيف إذا علمنا أن جزءًا من هذه الأموال الموجودة فى القوافل القرشية كانت للمهاجرين المسلمين من أهل مكة قد استولى عليها المشركون ظلمًا وعدوانًا[٥].

كلف رسول الله ﷺ عبد الله ابن أم مكتوم بالصلاة بالناس فى المدينة عند خروجه إلى بدر، ثم أعاد أبا لبابة من الروحاء إلى المدينة وعيَّنه أميرًا عليها[٦].

---

(١) قُدرت قيمة البضائع التى تحملها القافلة بحوالى ٥٠ ألف دينار، انظر: موسوعة نضرة النعيم فى مكارم أخلاق الرسول الكريم (١/ ٢٨٦).

(٢) جوامع السيرة لابن حزم ص(١٠٧).

(٣) ورد الاسم فى صحيح مسلم بصيغة التأنيث مصحفًا إلى بسيسة وصححه ابن حجر.

(٤) ابن هشام السيرة (٢/ ٦١) بسند صحيح إلى ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) انظر: حديث القرآن عن غزوات الرسول، د. محمد آل عابد (١/ ٤٣).

(٦) البداية والنهاية (٣/ ٢٦٠)، المستدرك للحاكم (٣/ ٦٣٢).

أرسل النبى ﷺ اثنين من أصحابه(١) إلى بدر طليعة للتعرف على أخبار القافلة، فرجعا إليه بخبرها(٢)، وقد حصل خلاف بين المصادر الصحيحة حول عدد الصحابة الذين رافقوا النبى ﷺ فى غزوته هذه إلى بدر، ففى حين جعلهم البخارى «بضعة عشر وثلاثمائة»(٣). يذكر مسلم بأنهم ثلاثمائة وتسعة عشرة رجلا(٤)، فى حين ذكرت المصادر أسماء ثلاثمائة وأربعين من الصحابة البدريين،(٥) وكانت قوات المسلمين فى بدر لا تمثل القدرة العسكرية القصوى للدولة الإسلامية، ذلك أنهم إنما خرجوا لاعتراض قافلة واحتوائها، ولم يكونوا يعلمون أنهم سوف يواجهون قوات قريش وأحلافها مجتمعة للحرب، والتى بلغ تعدادها ألفًا(٦) معهم مائتا فرس يقودونها إلى جانب جمالهم، ومعهم القيان يضربون بالدفوف، ويغنين بهجاء النبى ﷺ وأصحابه(٧)، فى حين لم يكن مع القوات الإسلامية من الخيل إلا فرسان، وكان معهم سبعون بعيرًا يتعاقبون ركوبها(٨).

أبو سفيان يعلم بخبر مسير النبى ﷺ وأصحابه

بلغ أبا سفيان خبر مسير النبى ﷺ بأصحابه من المدينة بقصد اعتراض

(١) هما عدى بن الزغباء، وبسبس بن عمرو، الطبقات لابن سعد (٢/ ٢٤).
(٢) الطبقات لابن سعد (٢/ ٤٢) بإسناد صحيح.
(٣) فتح البارى (٧/ ٢٩٠-٢٩٢).
(٤) مسلم، بشرح النووى (١٢/ ٨٤).
(٥) البداية والنهاية (٣/ ٣١٤) وكذلك الطبقات، وخليفة بن خياط.
(٦) مسلم، بشرح النووى (١٢/ ٨٤).
(٧) البداية والنهاية (٣/ ٢٦٠).
(٨) المسند (١/ ٤١١)، مجمع الزوائد (٦/ ٦٩)، جوامع السير، (ص١٠٨).

قافلته واحتوائها، فبادر إلى تحول مسارها إلى طريق الساحل، في نفس الوقت أرسل عمرو بن ضمضم الغفارى إلى قريش يستنفرها لإنقاذ قافلتها وأموالها(١)، فقد كان أبو سفيان يقظًا حذرًا، يتلقط أخبار المسلمين ويسأل عن تحركاتهم، بل يتحسس أخبارهم بنفسه، فقد تقدم إلى بدر بنفسه، وسأل من كان هناك: (هل رأيتم من أحد؟) قالوا: لا. إلا رجلين قال: (أرونى مناخ ركابهما، فأروه، فأخذ البعر ففتَّه فإذا هو فيه النوى، فقال: هذا والله علائف يثرب)(٢). فقد استطاع أن يعرف تحركات عدوه، حتى خبر السرية الاستطلاعية عن طريق غذاء دوابها، بفحصه البعر الذى خلفته الإبل، إذ عرف أن الرجلين من المدينة أى من المسلمين، وبالتالى فقافلته فى خطر، فأرسل عمرو بن ضمضم إلى قريش وغيَّر طريق القافلة، واتجه نحو ساحل البحر(٣).

كان وقع خبر القافلة شديدًا على قريش، التى استشاط زعماؤها غضبًا لما يرونه من امتهان للكرامة، وتعريض للمصالح الاقتصادية للأخطار إلى جانب ما ينجم عن ذلك من انحطاط لمكانة قريش بين القبائل العربية الأخرى؛ ولذلك فقد سعوا إلى الخروج لمجابهة الأمر بأقصى طاقاتهم القتالية(٤).

لقد جاءهم عمرو بن ضمضم الغفارى بصورة مثيرة جدًّا يتأثر بها كل من رآها، أو سمع بها، إذ جاءهم وقد حوَّل رحله وجدع أنف بعيره، وشَقَّ قميصه من قُبُل ومن دُبُر، ودخل مكة وهو ينادى بأعلى صوته: يا معشر

(١) انظر: موسوعة نضرة النعيم (١/ ٢٨٧).
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٣٠).
(٣) انظر: غزوة بدر الكبرى لأبى فارس، (ص٣٣، ٣٤).
(٤) انظر: موسوعة نضرة النعيم (١/ ٢٨٧).

قريش: اللطيمة، اللطيمة،[١] أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث، الغوث[٢].

وعندما أمن أبو سفيان على سلامة القافلة أرسل إلى زعماء قريش وهو بالجحفة برسالة أخبرهم فيها بنجاته والقافلة، وطلب منهم العودة إلى مكة، وذلك أدى إلى حصول انقسام حاد فى آراء زعماء قريش، فقد أصر أغلبهم على التقدم نحو بدر من أجل تأديب المسلمين وتأمين سلامة طريق التجارة القرشية، وإشعار القبائل العربية الأخرى بمدى قوة قريش وسلطانها، وقد انشق بنو زهرة[٣]، وتخلف فى الأصل بنو عدى. فعاد بنو زهرة إلى مكة، أما غالبية قوات قريش وأحلافهم فقد تقدمت حتى وصلت بدرًا[٤].

النبى ﷺ يشاور أصحابه بالمدينة

عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ شاور، حين بلغه إقبال أبى سفيان. قال: فتكلم أبو بكر فأعرض عنه. ثم تكلم عمر فأعرض عنه. فقام سعد بن عبادة فقال: إيانا تريد يا رسول الله؟! والذى نفسى بيده ! لو أمرتنا أن نُخيضها البحر لأخضناها. ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا. قال: فندب رسول الله ﷺ الناس. فانطلقوا حتى نزلوا بدرًا. ووردت عليهم روايا قريش. وفيهم غلام أسود لبنى الحجاج. فأخذوه. فكان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه عن أبى سفيان وأصحابه؟ فيقول: ما لى علم بأبى سفيان. ولكن

(١) اللطيمة: القافلة المحملة بشتى أنواع البضاعة غير الطعام.

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٢١)

(٣) نصحهم الأخنس بن شريق بذلك، انظر: ابن هشام (٢/ ٢٣١)

(٤) انظر: موسوعة نضرة النعيم (١/ ٢٨٧).

هذا أبو جهل وعتبة وشيبة وأمية بن خلف. فإذا قال ذلك، ضربوه، فقال: نعم. أنا أخبركم. هذا أبو سفيان. فإذا تركوه فسألوه فقال: ما لى بأبى سفيان علم. ولكن هذا أبو جهل وعتبة وشيبة وأمية بن خلف فى الناس. فإذا قال هذا أيضًا ضربوه. ورسول الله ﷺ قائم يصلى. فلما رأى ذلك انصرف. قال: «والذى نفسى بيده ! لتضربوه إذا صدقكم. وتتركوه إذا كذبكم».

قال: فقال رسول الله ﷺ: «**هذا مصرع فلان**» قال: ويضع يده على الأرض، ههنا وههنا. قال: فما ماط أحدهم عن موضع يد رسول الله [(١)].

قوة الجيش.. وتوزيع القيادات

۞ عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير، كان أبو لبابة وعلى بن أبى طالب زميلى رسول الله ﷺ قال: وقال: كانت عقبة رسول الله ﷺ قال: فقالا: نحن نمشى عنك.

فقال: «**ما أنتما بأقوى منى، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما**»[(٢)].

۞ وأما عن عدد المسلمين الذين خرجوا فى غزوة بدر فلقد جاء فى أحاديث صحيحة منها:

۞ **عن البراء بن عازب** رضي الله عنهما قال: «كنا أصحاب محمد ﷺ نتحدث أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، ولم يجاوز معه إلا مؤمن بضعة عشر وثلاثمائة»[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم (٨٣) (١٧٧٩) كتاب الجهاد والسير/ باب: غزوة بدر.

(٢) رواه أحمد (١/ ٤١١) وحسنه أحمد شاكر ـ ورواه الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبى.

(٣) أخرجه البخارى فى المغازى باب عدة أصحاب بدر رقم (٣٩٥٨)، الترمذى فى السير باب ما جاء فى عدة أصحاب بدر رقم (١٥٩٨) وقال حديث حسن صحيح.

❁ وعن أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه قال: «كان عدة أهل بدر عدة أصحاب طالوت يوم جالوت ثلاثمائة وسبعة عشر»(١).

❁ وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: «خرج رسول الله ﷺ يوم بدر فى ثلاثمائة وخمسة عشر رجلًا من أصحابه.. فذكر الحديث»(٢).

وهذه الرواية لا تنافى التى قبلها لاحتمال أن تكون هذه الرواية لم يعدّ فيها النبى ﷺ ولا الرجل الذى لحق بهم.

❁ واستخلف النبى ﷺ على المدينة وعلى الصلاة ابن أم مكتوم، فلما كان بالروحاء رَدَّ أبا لبابة بن عبد المنذر، واستعمله على المدينة.

ودفع لواء القيادة العامة إلى مصعب بن عمير القرشى العبدرى، وكان هذا اللواء أبيض.

❁ وقسم جيشه إلى كتيبتين:

(١) كتيبة المهاجرين، وأعطى علمها على بن أبى طالب.

(٢) كتيبة الأنصار، وأعطى علمها سعد بن معاذ.

وجعل على قيادة الميمنة الزبير بن العوام، وعلى الميسرة المقداد ابن عمرو ـ وكانا هما الفارسين الوحيدين فى الجيش ـ وجعل على الساقة قيس ابن أبى صعصعة، وظلت القيادة العامة فى يده ﷺ كقائد أعلى للجيش(٣).

---

(١) كشف الأستار عن زوائد البزار رقم (١٧٨٤)، وقال الهيثمى (٦/ ٩٣) رواه البزار ورجاله ثقات.

(٢)رواه أبو داود (٢٧٤٧) وحسنه الحافظ فى الفتح (٧/ ٢٩٢).

(٣) الرحيق المختوم (ص:٢١٣).

النبى ﷺ يرد صغار السن

وكان الغلمان الذين لم يبلغوا تشتاق قلوبهم للجهاد فى سبيل الله والفوز بالشهادة ولكن النبى ﷺ كان يرد كل من كان دون البلوغ.

۞ عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: «استُصغرت أنا وابن عمر يوم بدر، وكان المهاجرون يوم بدر نيفًا على ستين، والأنصار نيفًا وأربعين ومائتين»[(١)].

۞ وعن سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه: «أن النبى ﷺ نظر إلى عمير بن أبى وقاص، فاستصغره حين خرج إلى بدر، ثم أجازه قال سعد: فيقال: أنه خانه سيفه قال عبد الله بن جعفر: قُتل يوم بدر»[(٢)].

ارجع فلن أستعين بمشرك

۞ عن عائشة رضي الله عنها قالت: «خرج رسول الله ﷺ قِبل بدر، فلما كان بحرَّة الوبرة أدركه رجل قد كان يُذكر منه جرأة ونجدة، ففرح أصحاب رسول الله ﷺ حين رأوه، فلما أدركه قال لرسول الله ﷺ جئت لأتبعك وأصيب معك، قال له رسول الله ﷺ: **«تؤمن بالله ورسوله؟»**.

قال: لا: قال: **«فارجع فلن أستعين بمشرك»**.

قالت: ثم مضى، حتى إذا كنا بالشجرة أدركه الرجل. فقال له كما قال أول مرة، فقال له النبى ﷺ كما قال أول مرة: قال: **«فارجع فلن أستعين**

(١) أخرجه البخارى فى المغازى باب عدة أصحاب بدر رقم (٣٩٥٦).

(٢) كشف الأستار عن زوائد البزار: (١٧٧٠) قال الهيثمى فى المجمع (٦/ ٦٩) رواه البزار ورجاله ثقات.

بمشرك» قال: ثم رجع فأدركه بالبيداء. فقال له كما قال أول مرة: «**تؤمن بالله ورسوله؟**» قال: نعم. فقال له رسول الله ﷺ: «**فانطلق**»(١).

الجيش الإسلامي يتحرك نحو بدر

سار رسول الله ﷺ في هذا الجيش غير المتأهب، فخرج من نقب المدينة، ومضى على الطريق الرئيسي المؤدي إلى مكة، حتى بلغ بئر الروحاء ولما ارتحل منها، ترك طريق مكة بيسار، وانحرف ذات اليمين على النازية (يريد بدرًا)، فسلك في ناحية منها، حتى جزع واديًا يقال له: رحقان، بين النازية وبين مضيق الصفراء، ثم مر على المضيق، ثم انصب منه حتى قرب من الصفراء، وهنالك بعث بسبس بن عمرو الجهني وعدي ابن أبي الزغباء الجهني إلى بدر، يتجسسان له أخبار العير(٢).

خوف بعض أئمة الكفر من الخروج

۞ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حدَّث عن سعد بن معاذ أنه: «كان صديقًا لأمية بن خلف، وكان أمية إذا مر بالمدينة نزل على سعد، وكان سعد إذا مر بمكة نزل على أمية، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة انطلق سعد معتمرًا، فنزل على أمية بمكة، فقال لأمية: أَنظرني ساعة خلوة لعلِّي أن أطوف بالبيت، فخرج به قريبًا من نصف النهار، فلقيهما أبو جهل فقال: يا أبا صفوان من هذا معك؟

فقال: هذا سعد. فقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمنًا وقد آويتم

(١) أخرجه مسلم (١٧١٨) الجهاد والسير/ باب: كراهة الاستعانة في الغزو بالكافر.

(٢) الرحيق المختوم (ص ٢١٤).

الصُّباة، وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينوهم. أما والله لولا أنك مع أبى صفوان ما رجعت إلى أهلك سالمًا، فقال له سعد ـ ورفع صوته عليه ـ: أما والله لئن منعتنى هذا لأمنعنك ما هو أشد عليك منه: طريقك على المدينة، فقال له أمية: لا ترفع صوتك يا سعد على أبى الحكم سيد أهل الوادى. فقال سعد: دعنا عنك يا أمية، فوالله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنهم قاتلوك**». قال: بمكة؟ قال: لا أدرى، ففزع لذلك أمية فزعًا شديدًا. فلما رجع أمية إلى أهله قال: يا أم صفوان، ألم ترى ما قال لى سعد؟ قالت: وما قال لك؟ قال: زعم أن محمدًا أخبرهم أنهم قاتلى، فقلت له: بمكة؟ قال: لا أدرى. فقال أمية: والله لا أخرج من مكة.

فلما كان يوم بدر استنفر أبو جهل الناس قال: أدركوا عيركم، فكره أمية أن يخرج، فأتاه أبو جهل فقال: يا أبا صفوان إنك متى ما يراك الناس قد تخلفت، وأنت سيد أهل الوادى تخلفوا معك، فلم يزل به أبو جهل حتى قال: أما إذ غلبتنى فوالله لأشترين أجود بعير بمكة. ثم قال أمية: يا أم صفوان جهزينى. فقالت له: يا أبا صفوان وقد نسيت ما قال لك أخوك اليثربى؟ قال: لا ما أريد أن أجوز معهم إلا قريبًا. فلما خرج أمية أخذ لا يترك منزلًا إلا عقل بعيره. فلم يزل بذلك حتى قتله الله ـ عز وجل ـ ببدر»[(١)].

أهل مكة يخرجون للغزو

فتحفز الناس سراعًا، وقالوا: أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمى؟ كلا، والله ليعلمن غير ذلك، فكانوا بين رجلين: إما خارج وإما باعث مكانه رجلًا، وأوعبوا فى الخروج، فلم يتخلف من أشرافهم أحد

(١) أخرجه البخارى (٣٩٥٠) المغازى، وأحمد (١/ ٤٠٠).

سوى أبى لهب فإنه عوَّض عنه رجلًا كان له عليه دَين، وحشدوا مَن حولهم من قبائل العرب، ولم يتخلف عنهم أحد من بطون قريش إلا بنى عدى، فلم يخرج منهم أحد.

قوام الجيش المكى

وكان قوام هذا الجيش نحو ألف وثلاثمائة مقاتل فى بداية سيره، وكان معه مائة فرس وستمائة درع، وجِمالٌ كثيرة لا يُعرف عددها بالضبط، وكان قائده العام أبا جهل بن هشام، وكان القائمون بتموينه تسعة رجال من أشراف قريش، فكانوا ينحرون يومًا تسعًا ويومًا عشرًا من الإبل(١).

الشيطان يخدع قريشًا

۞ قال ابن إسحاق: وحدثنى يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير، قال: «لما أجمعت قريش المسير ذكرت ما كان بينها وبين بنى بكر، فكاد ذلك يثنيهم، فتبدَّى لهم إبليس فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجى، وكان من أشراف بنى كنانة، فقال لهم: أنا جارٌ لكم من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشىء تكرهونه فخرجوا سراعًا»(٢).

نفى لهم بعهدهم ونستعين الله عليهم

۞ عن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «ما منعنى أن أشهد بدرًا، إلا أنى

---

(١) الرحيق المختوم (ص ٢١٤، ٢١٥).

(٢)ابن هشام فى السيرة: (١/ ٦١٢)، وسنده صحيح لكنه مرسل، ابن كثير من طريقه (٢/ ٤٣٢)، وقد جاء مرفوعًا من حديث ابن عباس بسند حسن أخرجه ابن جرير فى التفسير (١٤/ ٧) شاكر، والبيهقى فى الدلائل (٣/ ٧٨، ٧٩) وله شاهد من حديث الحسن أخرجه ابن جرير فى التفسير (١٠/ ١٥) وإسناده صحيح رجاله كلهم ثقات، ومن مرسل قتادة عند ابن جرير فى التفسير (١٠/ ١٤) وإسناده صحيح.

خرجت أنا وأبى حسيل، قال فأخذنا كفار قريش، قالوا: إنكم تريدون محمدًا؟ فقلنا: ما نريده، ما نريد إلا المدينة، فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننصرفن إلى المدينة ولا نقاتل معه. فأتينا رسول الله ﷺ فأخبرناه الخبر فقال: انصرفا، نفى لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم»[(١)].

۞ ويا له من درس عظيم.. فالنبى ﷺ يعلمنا الوفاء بالعهد حتى مع الأعداء.

المسير إلى لقاء العدو

نظَّم النبى ﷺ جنده بعد أن رأى طاعة الصحابة وشجاعتهم واجتماعهم على القتال، وعقد اللواء الأبيض وسلَّمه إلى مصعب بن عمير، وأعطى رايتين سوداوين إلى سعد بن معاذ، وعلى بن أبى طالب، وجعل على الساقة قيس بن أبى صعصعة[(٢)]. وقام ﷺ ومعه أبو بكر يستكشف أحوال جيش المشركين، وبينما هما يتجولان فى تلك المنطقة لقيا شيخا من العرب، فسأله رسول الله ﷺ عن جيش قريش، وعن محمد وأصحابه، وما بلغه ﷺ من أخبارهم: قال الشيخ لا أخبركما حتى تخبرانى ممن أنتما. فقال له رسول الله ﷺ «**إذا أخبرتنا أخبرناك**» فقال: أَوَ ذاك بذاك؟ قال: «**نعم**»، فقال الشيخ: فإنه بلغنى أن محمدًا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذى أخبرنى فهم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذى به جيش المسلمين، وبلغنى أن قريشًا خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان

(١) أخرجه مسلم فى الجهاد والسير باب الوفاء بالعهد برقم (١٧٨٧)، وأحمد فى المسند (٥/ ٣٩٥).

(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ١٧٢).

صدق الذى أخبرنى فهم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذى فيه جيش المشركين فعلًا، ثم قال الشيخ: لقد أخبرتكما عما أردتما، فأخبرانى ممن أنتما؟ فقال رسول الله ﷺ: «**نحن من ماء**»، ثم انصرف النبى ﷺ وأبو بكر عن الشيخ، وبقى هذا الشيخ يقول: ما من ماء؟ أمن ماء العراق؟(١).

وفى مساء ذلك اليوم الذى خرج فيه رسول الله ﷺ وأبو بكر، أرسل عليه الصلاة والسلام على بن أبى طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبى وقاص، فى نفر من أصحابه إلى ماء بدر يتسقطون له الأخبار عن جيش قريش، فوجدوا غلامين يستقيان لجيش المشركين فأتوا بهما إلى رسول الله ﷺ، فقال لهما: «**أخبرانى عن جيش قريش**» فقالا: هم وراء هذا الكثيب الذى ترى بالعدوة القصوى، فقال لهما رسول الله ﷺ: «**كم القوم؟**» قالا: كثير، قال: «**ما عدتهم؟**» قالا: لا ندرى، قال الرسول ﷺ: «**كم ينحرون كل يوم؟**» قالا: يومًا تسعًا ويومًا عشرًا، فقال رسول الله ﷺ: «**القوم ما بين التسعمائة والألف**»، ثم قال لهما: فمن فيهم من أشراف قريش؟ فذكرا عتبة وشيبة ابنى ربيعة وأبا جهل وأمية بن خلف فى آخرين من صناديد قريش، فأقبل رسول الله ﷺ إلى أصحابه قائلا: «**هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها**»(٢).

مشورة الحُباب بن المنذر

بعد أن جمع ﷺ معلومات دقيقة عن قوات قريش سار مسرعًا ومعه أصحابه إلى بدر ليسبقوا المشركين إلى ماء بدر، وليَحُولوا بينهم وبين الاستيلاء عليه، فنزل عند أدنى ماء من مياه بدر، وهنا قام الحباب بن

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢٢٨).

(٢) ابن هشام (٢/ ٢٢٩)، نقلًا عن غزوات الرسول ﷺ.

المنذر، وقال: يا رسول الله: أرأيت هذا المنزل، أمنزلًا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ قال: «**بل هو الرأى والحرب والمكيدة**» قال: يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل، فانهض يا رسول الله بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم -أى جيش المشركين- فننزله ونُغور – نخرب- ما وراءه من الآبار ثم نبنى عليه حوضًا فنملؤه ماءً ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون، فأخذ النبى ﷺ برأيه ونهض بالجيش حتى أقرب ماء من العدو فنزل عليه، ثم صنعوا الحياض وغوَّروا ما عداها من الآبار(١)،... وهذا يصور مثلًا من حياة الرسول ﷺ مع أصحابه حيث كان أى فرد من أفراد ذلك المجتمع يُدلى برأيه حتى فى أخطر القضايا، ولا يكون فى شعوره احتمال غضب القائد الأعلى، ثم حصول ما يترتب على ذلك الغضب من تدنِّى سمعة ذلك المشير بخلاف رأى القائد وتأخره فى الرتبة وتضرره فى نفسه أو ماله.

إن هذه الحرية التى ربَّى عليها رسول الله ﷺ أصحابه مكنت مجتمعهم من الاستفادة من عقول جميع أهل الرأى السديد والمنطق الرشيد، فالقائد فيهم ينجح نجاحًا باهرًا، وإن كان حديث السن؛ لأنه لم يكن يفكر برأيه المجرد، أو آراء عصبة مهيمنة عليه قد تنظر لمصالحها الخاصة قبل أن تنظر لمصلحة المسلمين العامة، وإنما يفكر بآراء جميع أفراد جنده، وقد يحصل له الرأى السديد من أقلهم سمعة وأبعدهم منزلة من ذلك القائد؛ لأنه ليس هناك ما يحول بين أى فرد منهم والوصول برأيه إلى قائد جيشه(٢).

---

(١)انظر: مرويات غزوة بدر، (ص١٦٥)، قصة الحباب تتقوى وترتفع إلى درجة الحسن.

(٢)انظر: التاريخ الإسلامى للحميدى (٤/ ١١٠).

ونلحظ عظمة التربية النبوية التى سرتْ فى شخص الحباب بن المنذر، فجعلته يتأدب أمام رسول الله ﷺ فتقدم دون أن يُطلب رأيه، ليعرض الخطة التى لديه، لكن هذا تم بعد السؤال العظيم الذى قدمه بين يدى الرسول ﷺ: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل أمنزلًا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ إن هذا السؤال ليشى بعظمة هذا الجوهر القيادى الفذ الذى يعرف أين يتكلم ومتى يتكلم بين يدى قائده، فإن كان الوحى هو الذى اختار هذا المنزل، فلأن يُقدَّم فتُقطع عنقه أحب إليه من أن يلفظ بكلمة واحدة، وإن كان الرأى البشرى فلديه خطة جديدة كاملة باستراتيجية جديدة.

إن هذه النفسية الرفيعة، عرفت أصول المشورة، وأصول إبداء الرأى، وأدركت مفهوم السمع والطاعة، ومفهوم المناقشة، ومفهوم عرض الرأى المعارض لرأى سيد ولد آدم، عليه الصلاة والسلام.

وتبدو عظمة القيادة النبوية فى استماعها للخطة الجديدة، وتبنى الخطة الجديدة المطروحة من جندى من جنودها أو قائد من قوادها[١].

ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد

وأما أبو سفيان،فإنه بلغه مخرج رسول الله ﷺ وقصده إياه، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى إلى مكة، مستصرخًا لقريش بالنفير إلى عيرهم، ليمنعوه من محمد وأصحابه، وبلغ الصريخ أهل مكة، فنهضوا مسرعين، وأوعبوا[٢] فى الخروج، فلم يتخلف من أشرافهم أحد سوى أبى لهب، فإنه

(١) انظر: التربية القيادية (٣/ ٢١)، نقلًا عن غزوات الرسول ﷺ.

(٢) يقال: أوعب القوم: إذا خرجوا كلهم إلى الغزو.

عوَّض عنه رجلًا كان له عليه دين، وحشدوا فيمن حولهم من قبائل العرب، ولم يتخلف عنهم أحد من بطون قريش إلا بنى عدى، فلم يخرج معهم منهم أحد، وخرجوا من ديارهم كما قال تعالى: ﴿بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾(١)، وأقبلوا كما قال رسول الله ﷺ: «**بحَدِّهِم وحَدِيدِهِم، تُحادهُ وتُحاد رسُوله**»(٢)، وجاؤوا على حردٍ قادرين، وعلى حمية، وغضب، وحنق على رسول الله ﷺ وأصحابه، لما يريدون من أخذ عيرهم، وقتل من فيها، وقد أصابوا بالأمس عمرو بن الحضرمى، والعير التى كانت معه، فجمعهم الله على غير ميعاد كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ ۙ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾(٣).

فسار رسول الله ﷺ إلى بدر، وخفض أبو سفيان فلحق بساحل البحرين ولما رأى أنه قد نجا، وأحرز العير، كتب إلى قريش: أن ارجعوا، فإنكم إنما خرجتم لتحرزوا عيركم، فأتاهم الخبر، وهم بالجُحفة، فهمُّوا بالرجوع، فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نَقْدُم بدرًا فنقيم بها ونُطعم مَن حضرنا من العرب، وتخافنا العرب بعد ذلك، فأشار الأخنس بن شُريق عليهم بالرجوع، فعصوه، فرجع هو وبنو زهرة، فلم يشهد بدرًا زهرى، فاغتبطت بنو زهرة بعد برأى الأخنس، فلم يزل فيهم مُطاعًا مُعظمًا(٤).

---

(١) سورة الأنفال: الآية: (٤٧).

(٢) فى «السيرة (١/ ٦٢١) عن ابن إسحاق: فلما رأى رسول الله ﷺ قريشًا تصوب من العقنقل - وهو الكثيب الذى جاؤوا منه إلى الوادى - قال: «**اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادُّك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذى وعدتنى، اللهم أحِنْهُمُ الغداة**».

(٣) سورة الأنفال: الآية: (٤٢).

(٤) زاد المعاد (٣/ ١٧٢-١٧٤) بتصرف.

القرآن يصف خروج المشركين

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾(١).

ينهى المولى ﷻ المؤمنين عن التشبه بالكافرين الذين خرجوا من ديارهم بطرًا ورئاء الناس. فقد وصف سبحانه الكافرين فى هذه الآية بثلاثة أشياء: الأول: البطر، والثاني: الرياء والثالث: الصد عن سبيل الله.

ونلحظ أن الله تعالى عبَّر عن بطرهم بصيغة الاسم الدال على التمكين والثبوت، وعن صدهم بصيغة الفعل الدال على التجدد والحدوث(٢).

وقد جاء فى تفسير هذه الآية عند القرطبى أن المقصود بالآية: «يعنى أبا جهل وأصحابه الخارجين يوم بدر لنصرة العير، خرجوا بالقيان والمغنيات والمعازف، فلما وردوا الجحفة بعث خُفاف الكنانى، وكان صديقًا لأبى جهل، بهدايا إليه مع ابن عَمٍّ له، وقال: إن شئت أمددتك بالرجال، وإن شئت أمددتك بنفسى مع ما خَفَّ من قومى، فقال أبو جهل: إنا كنا نقاتل الله كما يزعم محمد، فوالله ما لنا بالله من طاقة، وإن كنا نقاتل الناس فوالله إن بنا على الناس لقوة، والله لا نرجع عن قتال محمد حتى نَرِد بدرًا فنشرب فيها الخمور، وتعزف علينا القيان، فإن بدرًا موسم من مواسم العرب، وسوق من أسواقهم، حتى تسمع العرب بمخرجنا؛ فتهابنا آخر الأبد، فوردوا بدرًا، ولكن جرى ما جرى من هلاكهم»(٣).

---

(١) سورة الأنفال: الآية: (٤٧).

(٢) انظر: حديث القرآن عن غزوات الرسول (١/ ٦٥، ٦٦).

(٣) انظر: تفسير القرطبى (٨/ ٢٥).

موقف حرج للجيش الإسلامي

أما استخبارات جيش المدينة فقد نقلت إلى رسول الله ﷺ - وهو لايزال فى الطريق بوادى ذفران - خبر العير والنفير، وتأكد لديه بعد التدبر فى تلك الأخبار أنه لم يبقَ مجال للاجتناب عن لقاءٍ دامٍ، وأنه لابد من إقدام يُبنى على الشجاعة والبسالة، والجراءة، والجسارة، فمما لا شك فيه أنه لوترك جيش مكة يجوس خلال تلك المنطقة، يكون ذلك تدعيمًا لمكانة قريش العسكرية، وامتدادًا لسلطانها السياسى، وإضعافًا لكلمة المسلمين وتوهينًا لها، بل ربما تبقى الحركة الإسلامية بعد ذلك جسدًا لا روح فيه، ويجرؤ على الشرِّ كل من فيه حقد أو غيظ على الإسلام فى هذه المنطقة.

وبعد هذا كله فهل يكون هناك أحد يضمن للمسلمين أن يمنع جيش مكة عن مواصلة سيره نحو المدينة، حتى ينقل المعركة إلى أسوارها، ويغزو المسلمين فى عقر دارهم، كلا، فلو حدث من جيش المدينة نكولٌ ما، لكان له أسوأ الأثر على هيبة المسلمين وسمعتهم[1].

أشيروا علىَّ أيها الناس

لقد مدح الله نبيه ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم بقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[2].

وها نحن نرى التزامه ﷺ بمبدأ التشاور مع أصحابه، وإذا استعرضنا حياته ﷺ، وجدنا أنه كان يلتزم هذا المبدأ فى كل أمر لا نَصَّ فيه من كلام الله تعالى، مما له علاقة بالتدبير والسياسة الشرعية، ومن أجل هذا أجمع

---

(١) الرحيق المختوم (ص ٢١٦، ٢١٧) بتصرف.

(٢) سورة الشورى: الآية: (٣٨).

المسلمون على أن الشورى فى كل ما لم يثبت فيه نص مُلزم من كتاب أو سنة، أساس تشريعى دائم لا يجوز إهماله. أما ما ثبت فيه نص من الكتاب أو حديث من السنة أبرم به الرسول ﷺ حُكمه، فلا شأن للشورى فيه ولا ينبغى أن يُقضَى عليه بأى سلطان(١).

ونظرًا إلى هذا التطور الخطير المفاجئ عقد رسول الله ﷺ مجلسًا عسكريًّا استشاريًّا أعلى، أشار فيه إلى الوضع الراهن، وتبادل فيه الرأى مع عامة جيشه، وقادته. وحينئذ تزعزع قلوب فريق من الناس، وخافوا اللقاء الدامى، وهم الذين قال الله فيهم:

﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴾(٢).

۞ فى هذا الوقت أراد النبى ﷺ أن يعرف رأى الصحابة قبل الدخول فى تلك المعركة الحاسمة بل أراد أن يعرف ـ على وجه الخصوص ـ رأى قادة الأنصار؛ لأنهم كانوا يمثلون أغلبية الجيش، ولأن ثقل المعركة سيدور على كواهلهم، مع أن نصوص العقبة ـ بيعة العقبة ـ لم تكن تُلزمهم بالقتال خارج ديارهم(٣).

۞ يقول ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «.. وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم، فاستشار الناس، وأخبرهم عن قريش، فقام أبو بكر الصديق، فقال وأحسن. ثم قام عمر بن الخطاب،فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو

(١) فقه السيرة (ص ١٥٩).
(٢) سورة الأنفال: الآيتان: (٥ ـ ٦).
(٣) أصحاب الرسول ﷺ/ للمصنف (١/ ٤٠٦).

فقال: يا رسول الله، امضِ لما أراك الله، فنحن معك، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾[١] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك مَن دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله خيرًا، ودعا له به.

ثم قال رسول الله ﷺ: «**أشيروا علىَّ أيها الناس**»، وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم عدد الناس، وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله: إنا بُرآء من ذمامك[٢] حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا، فأنت فى ذمتنا، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا، فكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو فى بلادهم.

فلما قال ذلك رسول الله ﷺ، قال سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: «**أجل**». قال: فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامضِ يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذى بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخُضته لخضناه معك[٣]، ما تخلف منا رجلٌ واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصُبُرٌ فى الحرب، صُدقٌ عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسِر بنا على بركة الله، فسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد ونشَّطه ذلك، ثم قال: «**سيروا وأبشروا، فإن الله**

---

(١) سورة المائدة: الآية: (٢٤).

(٢) الذمام: العهد.

(٣) خضناه معك: لو أمرتنا بدخول البحر لدخلناه.

تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم» [(١)].

❁ وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «شهدت من المقداد بن الأسود مشهدًا، لأن أكون صاحبه أحب إليَّ مما عدل به، أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال: لا نقول كما قال قوم موسى ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ﴾ ولكنا نقاتل عن يمينك، وعن شمالك، وبين يديك وخلفك، فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسرَّهُ... يعني قوله» [(٢)].

❁ ويقول الحافظ في فتح الباري:

ويمكن الجمع بأن النبي ﷺ استشارهم في غزوة بدر مرتين: الأولى: وهو بالمدينة أول ما بلغه خبر العير مع أبي سفيان، وذلك بيِّن في رواية مسلم ولفظه «أن النبي ﷺ شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان والثانية كانت بعد أن خرج» [(٣)] [(٤)].

---

(١) أخرجه ابن هشام في السيرة (١/ ٦١٤، ٦١٥)، بإسناد صحيح وقد صرح ابن إسحاق بالسماع، وأخرجه الطبراني وإسناده حسن كما في المجمع (٦/ ٧٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٩٥٢) المغازي، أحمد (١/ ٣٩٠-٤٢٨).

(٣) فتح الباري (٧/ ٢٨٨).

(٤) ولدى التأمل فيما أجاب به سعد بن معاذ، نعلم أن المبايعة التي ارتبط بها الأنصار مع رسول الله ﷺ في مكة قبل الهجرة، لم تكن إلا مبايعة مع الله تعالى، ولم يكونوا يتصورون وهم يلتزمون الدفاع عن رسول الله ﷺ حينما يهاجر إليهم إلا دفاعًا عن دين الله تعالى وشريعته. فليست القضية مسألة نصوص معينة اتفقوا مع رسول الله ﷺ عليها فهم لا يريدون أن يلتزموا بما وراءها، وإنما المسألة أنهم إنما وقعوا بذلك تحت صكٍّ عظيم تَضمَّن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ...﴾ [التوبة:١١١]. ولذلك كان جواب سعد رضي الله عنه: «لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق.. فامض لما أردت فنحن معك». أي فنحن نسير معك وفق معاهدة أعظم من تلك التي اتفقنا عليها معًا، في بيعة العقبة. [فقه السيرة (ص١٦١)].

النبى ﷺ يبعث استخباراته ليعرف أخبار العدو

وفى مساء ذلك اليوم بعث استخباراته من جديد، ليبحث عن أخبار العدو، وقام لهذه العملية ثلاثة من قادة المهاجرين: على بن أبى طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحابه، ذهبوا إلى ماء بدر، فوجدوا غلامين يستقيان لجيش مكة، فألقوا عليهما القبض، وجاءوا بهما إلى الرسول ﷺ وهو فى الصلاة، فاستخبرهما القوم، فقالا: نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء[(١)] [(٢)].

۞ وعن على بن أبى طالب رضي الله عنه أنه قال: «لما قدمنا المدينة أصبنا من ثمارها فاجتويناها[(٣)]، فأصابنا بها وعك، فكان النبى ﷺ يتخبر عن بدر، فلما بلغنا أن المشركين قد أقبلوا سار رسول الله ﷺ إلى بدر، (وبدر بئر)، فسبقنا المشركون إليها، فوجدنا فيها رجلين منهم رجل من قريش ومولى لعقبة بن أبى معيط، فأما القريشى فانفلت، وأما مولى عقبة فأخذناه، فجعلنا نقول له: كم القوم؟ فيقول: هم والله كثير عددهم، شديد بأسهم، فجعل المسلمون إذا قال ذلك ضربوه، حتى انتهوا به إلى النبى ﷺ فقال له النبى ﷺ: «كم

---

(١) الرحيق المختوم (ص٢١٩).

(٢) يجوز للإمام أن يستعين فى الجهاد وغيره بالعيون والمراقبين، يبثهم بين الأعداء ليكتشف المسلمون خططهم وأحوالهم وليتبيّنوا ما هم عليه من قوة فى العدة والعدد. ويجوز اتخاذ مختلف الوسائل لذلك، بشرط أن لا تنطوى الوسيلة على الإضرار بمصلحة هى أهم من مصلحة الاطلاع على حال العدو، وربما استلزمت الوسيلة تكتُّمًا أو نوعًا من المخادعة أو التحايل. وكل ذلك مشروع وحسن من حيث إنه واسطة لابد منها لمصلحة المسلمين وحفظهم [فقه السيرة (ص١٦١)].

(٣) اجتويناها: أصابهم الجوى وهو المرض وداء الجوف إذا تطاول وذلك إذا لم يوافقهم هواؤها واستوخموها.

القوم؟»، فقال: هم والله كثير عددهم شديد بأسهم، فجهد رسول الله ﷺ أن يخبره فأبى، ثم إن النبي ﷺ سأله: «**كم ينحرون من الجُزر؟**» قال: عشر كل يوم، فقال رسول الله ﷺ: «**القوم ألف... كل جَزور لمائة ونيفها**»(١).

موقف المشركين لما قدموا إلى بدر.. والانشقاق بينهم

بيَّن سبحانه وتعالى موقف المشركين لما قدموا إلى بدر، فقال تعالى: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٢).

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن ثعلبة أن أبا جهل قال حين التقى القوم –في بدر–: اللهم أقطعُنا للرحم، وآتانا بما لا يعرف، فأحِنه –أي أهلكه: الغداة. فكان المستفتح(٣).

ولما وصل جيش مكة إلى بدر دَبَّ فيهم الخلاف وتزعزعت صفوفهم الداخلية.

عن علي رضي الله عنه قال: «فلما دنا القوم منا وصافقناهم إذا رجل منهم على جمل أحمر يسير في القوم، فقال رسول الله ﷺ: «**يا علي نادِ حمزة**»، وكان أقربهم من المشركين من صاحب الجمل الأحمر وماذا يقول لهم، ثم قال رسول الله ﷺ: «**إن يكن في القوم أحد يأمر بخير فعسى أن يكون صاحب الجمل الأحمر**»، قال: هو عتبة بن ربيعة، وهو ينهى عن القتال، ويقول لهم: يا قوم: إني أرى قومًا مستميتين لا تصلون إليهم، وفيكم خير، يا قوم:

---

(١) رواه أحمد (١/ ١١٧) وصححه أحمد شاكر وحسنه ابن كثير في البداية (٣/ ٢٧٠-٢٧٧).

(٢) سورة الأنفال: الآية: (١٩).

(٣) المسند (٥/ ٤٣١).

اعصبوها اليوم برأسى وقولوا جَبُن عتبة بن ربيعة، وقد علمتم أنى لست بأجبنكم، فسمع ذلك أبو جهل فقال: أنت تقول هذا، والله لو غيرك يقول لأعضضته[١]، قد ملأت رئتك جوفك رعبًا، فقال عتبة: إياى تعنى يا مُصفِّر إسته، ستعلم اليوم أيُّنا الجبان».

۞ وقد جاء من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزل المسلمون وأقبل المشركون، نظر رسول الله ﷺ إلى عتبة بن ربيعة وهو على جمل أحمر فقال: (إن يكن عند أحد من القوم خير فهو عند صاحب الجمل الأحمر إن يطيعوه يرشدوا) وهو يقول: «يا قوم أطيعونى فى هؤلاء القوم، فإنكم إن فعلتم لن يزال ذلك فى قلوبكم، ينظر كل رجل إلى قاتل أخيه، وقاتل أبيه، فاجعلوا حقها برأسى وارجعوا، فقال أبو جهل: انتفخ والله سحره[٢] حين رأى محمدًا وأصحابه، إنما محمد وأصحابه كأكلة جزور ولو قد التقينا، فقال عتبة: ستعلم مَن الجبان المفسد لقومه، أما والله إنى لأرى قومًا يضربونكم ضربًا، أما ترون كأن رؤسهم الأفاعى، وكأن وجوههم السيوف، ثم دعا أخاه وابنه، فخرج يمشى بينهما ودعا بالمبارزة»[٣].

وهذا عمير بن وهب الجمحى ترسله قريش ليحرز لهم أصحاب محمد، فاستجال حول العسكر ثم رجع إليهم فقال: ثلاثمائة رجل يزيدون قليلا أو ينقصون، ولكن أمهلونى أنظر أللقوم كمين أو مدد، قال: فضرب

---

(١) لأعضضته: قلت له اعضض هَن أبيك، أي: ذكر أبيك.

(٢) انتفخ والله سحره: أثر السحر فيه الآن - ويقصد الجلسة التى جلسها عتبة مع رسول الله يعرض عليه المفاوضات وتأثُّره بما سمع.

(٣) قال الهيثمى فى المجمع: (٦/ ٧٦) رواه البزار ورجاله ثقات، وانظر كشف الأستار (١٧٦٢)، والحاكم: (٣/ ١٨٧-١٨٨) وسنده حسن.

فى الوادى حتى أبعد فلم يرَ شيئًا... ثم قال: ولكن قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس لهم منعة إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يُقتل رجل منهم حتى يقتل رجلًا منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك، فُروا رأيكم[١].

۞ وهذا أمية بن خلف رفض الخروج من مكة ابتداءً خوفًا من الموت، فأتاه أبو جهل فقال: يا أبا صفوان إنك متى يراك الناس قد تخلفت وأنت سيد أهل الوادى تخلفوا معك، فلم يزل به أبو جهل حتى قال: أما إذ غلبتنى، فوالله لأشترين أجود بعير بمكة. ثم قال أمية: يا أم صفوان جهزينى. فقالت له: أبا صفوان وقد نسيت ما قال لك أخوك اليثربي؟ تقصد سعد بن معاذ عندما قال له: سمعت رسول الله يقول: إنهم لقاتلوك[٢]. قال: لا، ما أريد أن أجوز معهم إلا قريبًا، فلما خرج أمية أخذ لا يترك منزلًا إلا عقل بعيره، فلم يزل بذلك حتى قتله الله ﷻ ببدر[٣].

ومن دهاء أبى جهل -لعنه الله- أن سلط عقبة بن معيط على أمية بن خلف فأتاه عقبة بمجمرة حتى وضعها بين يديه فقال: إنما أنت من النساء. فقال: قبحك الله[٤].

لقد كانت القوة المعنوية لجيش مكة متزعزعة فى النفوس، وإن كان مظهره القوة والعزم والثبات إلا أن فى مخبره الخوف والجبن والتردد[٥].

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٢٦٩) - فرُوا رأيكم: أي: فكروا جيدًا وانظروا رأيكم.

(٢) انظر: فتح البارى (٧/ ٢٣٨).

(٣) انظر: مرويات غزوة بدر، (ص١٣٦).

(٤) المصدر نفسه، (ص١٣٧).

(٥) المصدر السابق، (ص١٣٨).

رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب

وكانت لرؤيا عاتكة بنت عبد المطلب أثر على معنويات أهل مكة، فقد رأت فى المنام أن رجلًا استنفر قريشًا وألقى بصخرة من رأس جبل أبى قبيس بمكة فتفتَّت ودخلت سائر دور قريش، وقد أثارت الرؤيا خصومة بين العباس وأبى جهل حتى قدم ضمضم وأعلمهم بخبر القافلة فسكنت مكة وتأولت الرؤيا[١]. كما أن جهيم بن الصلت بن المطلب بن عبد مناف رأى رؤيا عندما نزلت قريش الجحفة، فقد رأى رجلًا أقبل على فرس حتى وقف، ومعه بعير له، ثم قال: قُتل عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، وأبو الحكم بن هشام، وأمية بن خلف، وفلان وفلان، فعدَّد رجالًا من أشراف قريش، ثم رأيته ضرب فى لبة بعيره، ثم أرسله فى العسكر، فما بقى خباء من أخبية العسكر إلا أصابه نضح[٢] من دمه، فلما بلغت أبا جهل هذه الرؤيا، قال: وهذا أيضا نبى من بنى المطلب، سيعلم غدًا مَن المقتول إن نحن التقينا[٣] ... كانت تلك الرؤى قد ساهمت بتوفيق الله فى إضعاف النفسية القرشية المشركة.

الحرب الإعلامية فى بدر

❁ قال حسان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

فما نخشى بحول الله قومًا ... وإن كَثُروا وأجمعت الزحوف
إذا ما ألَّبُوا جمعًا علينا ... كفانا حدَّهم ربٌّ رؤوف

(١) انظر: المجتمع المدنى فى عصر النبوة للعمرى، (ص٤١).
(٢) نضح: لطخ.
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٣٠).

سمونا يوم بدر بالعوالى   سِراعًا ما تُضعفنا الحتوف[١]

فلم ترَ عُصبة فى الناس أنكى   لمن عادوا إذا لقحت كشوف

ولكنا توكلنا وقلنا   مآثرنا ومعقلنا السيوف

لقيناهم بها لما سمونا   ونحن عصبة وهم ألوف[٢]

۞ وقال كعب بن مالك رضي الله عنه:

لما حامت فوارسكم ببدر   ولا صبروا به عند اللقاء

وردناه بنور الله يجلو   دُجى الظلماء عنا والغطاء

رسول الله يقدمنا بأمر   من أمر الله أَحكم بالقضاء

فما ظفرت فوارسكم ببدر   وما رَجعوا إليكم بالسواء

فلا تعجل أبا سفيان وارقب   جياد الخيل تطلع من كداء

بنصر الله روحُ القدس فيها   وميكالٌ، فيا طيب الملاء[٣][٤]

كان النبى ﷺ يحث شعراء المسلمين على القيام بواجبهم فى الدفاع عن المسلمين وإخافة الأعداء بشعرهم، فقد كان الشعر يمثل الحملات الإعلامية المؤثرة فى دنيا العرب، فيرفع أقوامًا ويخفض آخرين، ويشعل الحروب ويُطفئها[٥]... كانت بوادر الحرب الإعلامية قد اندلعت منذ الهجرة، غير أن ظهورها أكثر بدأ مع حركة السرايا قُبيل بدر، لكنها انفجرت

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٦) الحتوف: جمع حتف وهو الموت.

(٢) هذا محمول على المبالغة لأن جيش قريش ما كان يزيد على الألف.

(٣) أى ما أطيب الملأ الذين يقودهم جبريل وميكائيل عليهما السلام.

(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٠).

(٥) انظر: التاريخ الإسلامى للحميدى (٤/ ١٩٩).

انفجارًا ضخمًا بعد بدر؛ لأن الجانب الإعلامى للقبائل المجاورة كان هدفًا مهمًّا من أهداف الفريقين، ويظهر أن القصائد سرعان ما تطير بها الركبان بين يثرب ومكة، فيأتى الرد من الطرف الآخر، فعند النصر تكثر أشعار الفريق المنتصر، بينما تكثر المراثى عند الفريق الثانى، وكان الصف الإسلامى يضم شعراء متخصصين، كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وكان أشدهم على الكفار حسان[1].

بناء عريش القيادة النبوية يوم بدر

۞ فبعد أن نزل النبى ﷺ وأصحابه على أدنى ماء بدر من المشركين قام سعد بن معاذ رضي الله عنه فاقترح على رسول الله ﷺ أن يبنوا له عريشًا يُدير منه المعركة يوم بدرٍ فقال له:

(يا نبى الله ألا نبنى لك عريشًا تكون فيه ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا، فقد تخلف عنك أقوام، يا نبى الله، ما نحن بأشد لك حبًّا منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربًا ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، ويناصحونك، ويجاهدون معك) فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيرًا ودعا له بخير، ثم بنى المسلمون العريش لرسول الله ﷺ على تلٍّ مُشرف على ساحة القتال، وكان معه فيه أبو بكر رضي الله عنه، وكانت ثلة من شباب الأنصار بقيادة سعد بن معاذ يحرسون عريش رسول الله ﷺ[2].

---

(١) انظر: المنهج الحركى للسيرة النبوية، (ص٣٥٤، ٣٥٥).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢٣٣).

۞ ويستفاد من بناء العريش أمور... منها:

(١) لا بد أن يكون مكان القيادة مشرفًا على أرض المعركة، يتمكن القائد فيه من متابعة المعركة وإدارتها.

(٢) ينبغى أن يكون مقر القيادة آمنًا بتوافر الحراسة الكافية له.

(٣) ينبغى الاهتمام بحياة القائد، وصونها من التعرض لأى خطر.

(٤) ينبغى أن يكون للقائد قوة احتياطية أخرى تعوض الخسائر التى قد تحدث فى المعركة[1].

النبى ﷺ يصلى ويدعو حتى أصبح

لما نظم ﷺ صفوف جيشه، وأصدر أوامره لهم وحرضهم على القتال، رجع إلى العريش الذى بُنى له ومعه صاحبه أبو بكر رضي الله عنه، وسعد بن معاذ على باب العريش لحراسته وهو شاهر سيفه... واتجه رسول الله ﷺ إلى ربه يدعوه ويناشده النصر الذى وعده ويقول فى دعائه: «**اللهم أنجز لى ما وعدتنى، اللهم إن تُهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تُعبد فى الأرض أبدًا**»، وما زال ﷺ يدعو ويستغيث حتى سقط رداؤه، فأخذه أبو بكر وردَّه على منكبيه وهو يقول: يا رسول الله كفاك مناشدتك ربك فإنه مُنجزٌ لك ما وعدك[2]، فأنزل الله ﷻ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾[3].

وفى رواية ابن عباس قال: قال النبى ﷺ يوم بدر: «**اللهم أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تُعبَد**» فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك الله،

(١) انظر: غزوة بدر الكبرى، (ص٦٦).

(٢) انظر: مسلم، كتاب الجهاد، باب الإمداد بالملائكة ببدر (٣/ ٣٨٤).

(٣) سورة الأنفال: الآية: (٩).

فخرج ﷺ وهو يقول: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾[1][2].

وروى ابن إسحاق: أنه ﷺ قال: «**اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تُحادّك وتُكذب رسولك، اللهم فنصرك الذى وعدتني**»[3].

وقد وصف على رضي الله عنه فى رواية صحيحة كيف بات المسلمون ليلة السابع عشر من رمضان ببدر وأمامهم معسكر المشركين، قال: «لقد رأيتنا يوم بدر، وما منا إلا نائم، إلا رسول الله ﷺ فإنه كان يصلى إلى شجرة ويدعو حتى أصبح ثم إنه أصابنا من الليل طش من مطر، فانطلقنا تحت الشجر والحجف نستظل تحتها من المطر، وبات رسول الله ﷺ يدعو ربه ويقول: «**اللهم إنك إن تُهلك هذه الفئة لا تُعبد**» فلما طلع الفجر نادى: «**الصلاة عباد الله**» فجاء الناس من تحت الشجر والحجف فصلى بنا رسول الله ﷺ وحرض على القتال»[4].

وهذا درس ربانى مهم لكل قائد أو حاكم أو زعيم أو فرد فى التجرد من النفس وحظها، والخلوص واللجوء لله وحده، والسجود والجثى بين يدى الله سبحانه؛ لكى ينزل نصره. ويبقى مشهد نبيه، وقد سقط رداؤه عن كتفه وهو مادٌّ يديه يستغيث بالله، يبقى هذا المشهد محفورًا بقلبه ووجدانه، يحاول تنفيذه فى مثل هذه الساعات، وفى مثل هذه المواطن، حيث تُناط به المسئولية وتلقى عليه أعباء القيادة[5].

---

(١) سورة القمر: الآية: (٤٥).

(٢) البخارى، كتاب المغازى، باب قصة بدر (٥/ ٦) رقم (٣٩٥٣).

(٣) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٢٦٧).

(٤) المجتمع المدنى فى عهد النبوة ـ الجهاد ضد المشركين (٤٦). د. أكرم العمرى. والحديث رواه أحمد فى المسند (الفتح الربانى ٢١/ ٣٠-٣٦).

(٥) انظر: التربية القيادية (٣/ ٣٦).

أهمية التضرع إلى الله وشدة الاستعانة به

لقد رأينا أن النبى ﷺ كان يُطمئن أصحابه بأن النصر لهم، حتى إنه كان يشير إلى أماكن متفرقة فى الأرض ويقول: «**هذا مصرع فلان**»، ولقد وقع الأمر كما أخبر عليه الصلاة والسلام، فما تزحزح أحد فى مقتله عن موضع يده كما ورد فى الحديث الصحيح.

ومع ذلك فقد رأيناه يقف طوال ليلة الجمعة فى العريش الذى أقيم له، يجأر إلى الله تعالى داعيًا ومتضرعًا، باسطًا كفيه إلى السماء يناشد الله ﷻ أن يؤتيه نصره الذى وعد حتى سقط عنه رداؤه وأشفق عليه أبو بكر، والتزمه قائلًا: «كفى يا رسول الله، إن الله مُنجزٌ لك ما وعد». فلماذا كل هذه الضراعة ما دام أنه مطمئن إلى درجة أنه قال: «**لكأنى أنظر إلى مصارع القوم**»، وأنه حدد مصارع بعضهم على الأرض؟

والجواب: أن اطمئنان النبى ﷺ وإيمانه بالنصر، إنما كان تصديقًا منه للوعد الذى وعد الله به رسوله، ولا شك أن الله لا يخلف الميعاد، وربما أَوحى إليه بخبر النصر فى تلك الموقعة.

أما الاستغراق فى التضرع والدعاء وبسط الكف إلى السماء، فتلك هى وظيفة العبودية التى خُلق من أجلها الإنسان، وذلك هو ثمن النصر فى كل حال ... فما النصر ـ مهما توفرت الوسائل والأسباب ـ إلا من عند الله وبتوفيقه، والله ﷻ لا يريد منا إلا أن نكون عبيدًا له بالطبع والاختيار، وما تقرب متقرب إلى الله بصفة أعظم من صفة العبودية.

فهذه العبودية التى اتخذت مظهرها الرائع فى طول دعاء النبى ﷺ وشدة ضراعته ومناشدته لربه أن يؤتيه النصر، هى الثمن الذى استحق به ذلك

التأييد الإلهى العظيم فى تلك المعركة. وقد نصَّت على ذلك الآية الكريمة إذ تقول: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[1].

ويقينًا منه ﷺ بهذه العبودية لله ﷻ، كان واثقًا بالنصر مطمئنًا إلى أن العاقبة للمسلمين ... ثم قارن مظهر العبودية التى تجلَّت فى موقفه ﷺ ونتائج ذلك، مع مظهر ذلك الطغيان والتجبر الذى تجلى فى موقف أبى جهل حينما قال: «لن نرجع عن بدر أبدًا حتى ننحر الجُزر ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرتنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا»، وتأمل فى نتائج ذلك التجبر والجبروت !..

لقد كانت نتيجة العبودية والخضوع لله تعالى، عزة قعساء ومجدًا شامخًا خضع لهما جبين الدنيا بأسرها. ولقد كانت نتيجة الطغيان والجبروت الزائفين قبرًا من الضيعة والهوان أقيم لأربابهما حيث كانوا سيتساقون فيه الخمر وتعزف عليهم القيان. وتلك هى سنة الله فى الكون كلما تلاقت عبودية لله خالصة مع جبروت وطغيان زائفين[2].

الله يرسل النُّعاس والمطر ليربط على قلوب الموحدين

من المنن التى منَّ الله بها على عباده المؤمنين يوم بدر أنه أنزل عليهم النعاس والمطر، وذلك قبل أن يلتحموا مع أعدائهم... قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ

(١) سورة الأنفال: الآية: (٩).

(٢) فقه السيرة (ص ١٦٢، ١٦٣).

﴿عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ﴾[١] قال القرطبي: (وكان هذا النعاس في الليلة التي كان القتال من غدها، فكان النوم عجيبًا مع ما كان بين أيديهم من الأمر المهم، وكأن الله ربط جأشهم).

۞ قال الإمام ابن القيم: فأنزل الله في تلك الليلة مطرًا واحدًا، فكان على المشركين وبالًا شديدًا منعهم من التقدم، وكان على المسلمين طلًّا طهَّرهم به وأذهب عنهم رجس الشيطان، ووطأ به الأرض وصلب به الرمل، وثبَّت به الأقدام، ومهَّد به المنزل، وربط به على قلوبهم،فسبق رسول الله ﷺ وأصحابه إلى الماء فنزلوا عليه شطر الليل، وصنعوا الحياض، ثم غوَّروا ما عداها من المياه، ونزل رسول الله ﷺ وأصحابه على الحياض، وبُنى لرسول الله ﷺ عريش يكون فيها على تلٍّ يشرف على المعركة في موضع المعركة، وجعل يشير بيده: هذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان إن شاء الله، فما تعدَّى أحدٌ منهم موضع إشارته»[٢].

۞ وفي امتنان الله عليهم بالنوم في هذه الليلة وجهان:

أولهما: أن قوَّاهم بالاستراحة على القتال من الغد.

الثاني: أن أمَّنهم بزوال الرعب من قلوبهم كما يقال: «الأمن مُنيم، والخوف مُسْهِر»[٣].

وبيَّن سبحانه وتعالى أنه أكرم المؤمنين بإنزال المطر عليهم في وقتٍ لم

---

(١) سورة الأنفال: الآية: (١١).

(٢) زاد المعاد (٣/ ١٧٦).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٧/ ٣٢٧).

يكن المعتاد فيه نزول الأمطار، وذلك فضلًا منه وكرمًا... وإسناد هذا الإنزال إلى الله للتنبيه على أنه أكرمهم به.

قال الإمام الرازي: (وقد عُلم بالعادة أن المؤمن يكاد يستقذر نفسه، إذا كان جُنبًا، ويغتم إذا لم يتمكن من الاغتسال، ويضطرب قلبه لأجل هذا السبب فلا جَرَمَ عدَّ الله تعالى وتقدس تمكينهم من الطهارة من جملة نعمه...)[1].

وقوله تعالى: ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ فقد روى ابن جرير عن ابن عباس قال: نزل النبى ﷺ -يعنى حين سار إلى بدر- والمسلمون بينهم وبين الماء رملة دعصة- أى كثير مجتمعة- فأصاب المسلمين ضعف شديد، وألقى الشيطان فى قلوبهم الغيظ، فوسوس بينهم: تزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله وقد غلبكم المشركون على الماء، وأنتم تصلون مجنبين... فأمطر الله عليكم مطرًا شديدًا، فشرب المسلمون وتطهروا، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان، وثبت الرمل حين أصابه المطر، ومشى الناس عليه والدواب فساروا إلى القوم[2]. فقد بيَّن سبحانه أنه أنزل على عباده المؤمنين المطر قبل المعركة فتطهروا به حسيًّا ومعنويًّا إذ ربط الله به على قلوبهم وثبت به أقدامهم، وذلك أن الناظر فى منطقة بدر يجد فى المنطقة رمالًا متحركةً لا زالت حتى اليوم ومن العسير المشى عليها، ولها غبار كبير، فلما نزلت الأمطار تماسكت تلك الرمال وسهل السير عليها، وانطفأ غبارها، وكل ذلك كان نعمة من الله على عباده[3].

---

(١) انظر: تفسير الفخر الرازى (١٥/ ١٣٣).

(٢) انظر: تفسير الطبرى (٩/ ١٩٥).

(٣) انظر: حديث القرآن عن غزوات الرسول (١/ ٩١).

أردت أن يكون آخر العهد بك

كان ﷺ فى بدر يعدل الصفوف ويقوم بتسويتها لكى تكون مستقيمة متراصة، وبيده سهم لا ريش له يعدل به الصف، فرأى رجلًا اسمه سواد بن غزية، وقد خرج من الصف فطعنه ﷺ فى بطنه، وقال له: «**استوِ يا سواد**» فقال: يا رسول الله أوجعتنى، وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدنى(١)، فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه وقال: «**استقد**» فاعتنقه فقبَّل بطنه، فقال: «**ما حملك على هذا يا سواد**» قال: يا رسول الله حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك، فدعا له رسول الله بخير(٢).

۞ ويُستفاد من قصة سواد رضي الله عنه أمور، منها:

(١) حرص الإسلام على النظام.

(٢) العدل المطلق: فقد أعطى رسول الله ﷺ القود من نفسه.

(٣) حب الجندى لقائده.

(٤) تذكُّر الموت والشهادة.

(٥) جسد رسول الله ﷺ مبارك، ومسُّه فيه بركة، ولهذا حرص عليها سواد.

(٦) بطن الرجل ليس بعورة بدليل أن النبى ﷺ كشف عنه ولو كان عورة لما كشف عنه(٣).

---

(١) أقدنى: أى: دعنى أقتص منك.

(٢) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص٢٣٦).

(٣) انظر: غزوة بدر، لأبى فارس، (ص٥٢).

من روائع الخطط القتالية

۞ ابتكر الرسول ﷺ فى قتاله مع المشركين يوم بدر أسلوبًا جديدًا فى مقاتلة أعداء الله تعالى، لم يكن معروفًا من قبل حتى قاتل ﷺ بنظام الصفوف(١)، وهذا الأسلوب أشار إليه القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾(٢).

وصفة هذا الأسلوب: أن يكون المقاتلون على هيئة صفوف الصلاة، وتقل هذه الصفوف أو تكثر تبعًا لقلة المقاتلين أو كثرتهم. وتكون الصفوف الأولى من أصحاب الرماح لصدِّ هجمات الفرسان، وتكون الصفوف التى خلفها من أصحاب النبال، لتسديدها من المهاجمين على الأعداء.

وكان من فوائد هذا الأسلوب فى غزوة بدر:

(١) إرهاب الأعداء ودلالة على حسن وترتيب النظام عند المسلمين.

(٢) جعل فى يد القائد الأعلى ﷺ قوة احتياطية عالج بها المواقف المفاجئة فى صد هجوم معاكس، أو ضرب كمينٍ غير متوقع، واستفاد منه فى حماية الأجنحة من خطر المشاة والفرسان... ويُعَدُّ تطبيق هذا الأسلوب لأول مرة فى غزوة بدر سبقًا عسكريًا تميزت به المدرسة العسكرية الإسلامية على غيرها منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان(٣).

ويظهر للباحث فى السيرة النبوية أن النبى ﷺ كان يباغت خصومه ببعض الأساليب القتالية الجديدة، وخاصة تلك التى لم يعهدها العرب من

(١) انظر: القيادة العسكرية/ د. محمد الرشيد (ص٤٠١).

(٢) سورة الصف: الآية: (٤).

(٣) انظر: الرسول القائد/ خطاب، (ص١١١، ١١٦، ١١٧).

قبل، على نحو ما قام به النبى ﷺ فى يوم بَدْرٍ، وأُحُدٍ وغيرهما.

ومن جهة النظرة العسكرية، فإن هذه الأساليب تدعو إلى الإعجاب بشخصية النبى ﷺ وبراعته العسكرية؛ لأن التعليمات العسكرية التى كان يصدرها خلال تطبيقه لها، تطابق تمامًا الأصول الحديثة فى استخدام الأسلحة(١).

وتفصيل ذلك فقد اتبع ﷺ أسلوب الدفاع ولم يهاجم قوة قريش، وكانت توجيهاته التكتيكية التى نفذها جنوده بكل دقة سببًا فى زعزعة مركز العدو، وإضعاف نفسيته، وبذلك تحقق النصر الحاسم بتوفيق الله على العدو برغم تفوقه(٢)، بنسبة ٣ إلى ١، فقد كان ﷺ يتصرف فى كل موقف حسب ما تدعو إليه المصلحة؛ وذلك لاختلاف مقتضيات الأحوال والظروف، وقد طبق الرسول ﷺ فى الجانب العسكرى أسلوب القيادة التوجيهية فى مكانها الصحيح. أما أخذه بالأسلوب الإقناعى فى غزوة بدر فقد تجلَّى فى ممارسة فقه الاستشارة فى مواضع متعددة؛ لأنه ﷺ لا يقود جنده بمقتضى السلطة، بل بالكفاءة والثقة، وهو ﷺ أيضا لا يستبد برأيه، بل يتبع مبدأ الشورى وينزل على الرأى الذى يبدو صوابًا... ومارس ﷺ فى غزوة بدر أسلوب القيادة التوجيهية(٣).

النبى ﷺ يستفيد من الظروف الطبيعية

ولم يهمل ﷺ فرصة الاستفادة من الظروف الطبيعية أثناء قتال العدو،

(١) المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية، محمد محفوظ، (ص١٢١).

(٢) انظر: مقومات النصر/ د. أحمد أبو الشباب (٢/ ١٥٤)

(٣) غزوات الرسول (ص ٣٦-٤٠).

فقد كان يستفيد من كل الظروف فى ميدان المعركة لمصلحة جيشه.

ومن الأمثلة على ذلك ما فعله ﷺ قبل بدء القتال يوم بدر،... يقول المقريزي: وأصبح ﷺ ببدر قبل أن تنزل قريش، فطلعت الشمس وهو يَصُفُّهم فاستقبل المغرب وجعل الشمس خلفه فاستقبلوا الشمس[١].

وهذا التصرف يدل على حسن تدبيره ﷺ؛ واستفادته حتى من الظروف الطبيعية لما يحقق المصلحة لجيشه، وإنما فعل ذلك لأن الشمس إذا كانت فى وجه المقاتل تُسبب له عَشا[٢] البصر فتقل مقاومته ومجابهته لعدوه[٣]. وفيما فعله رسول الله ﷺ يوم بدر إشارة إلى أن الظروف الطبيعية كالشمس والريح والتضاريس الجغرافية وغيرها لها تأثير عظيم على موازين القوى فى المعارك، وهى من الأسباب التى طلب الله منا الأخذ بها لتحقيق النصر والصعود إلى المعالي[٤].

وما كان الله ليُعذبهم وأنت فيهم

۞ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «قال أبو جهل: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم فنزلت: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[٥]»[٦].

(١) انظر: القيادة العسكرية، (ص٤٥٣).

(٢) سوء البصر بالليل والنهار يكون فى النار والدواب والإبل والطير.

(٣) انظر: تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى (٧/ ١٧٥).

(٤) انظر: القيادة العسكرية، (ص٤٥٤).

(٥) سورة الأنفال: الآية: (٣٣).

(٦) أخرجه البخارى (٤٦٤٩) التفسير ـ ومسلم (٢٧٩٦) صفة القيامة والجنة والنار.

۞ وعن عبد الله بن ثعلبة بن صعير قال: «كان المستفتح يوم بدر أبا جهل قال: «اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لم يعرف فأحنِهِ[1] الغداة» فبينما هم على تلك الحال، وقد شجع الله المسلمين على لقاء عدوهم، وقللهم في أعينهم حتى طمعوا فيهم، خفق[2] رسول الله ﷺ خفقة في العريش ثم انتبه فقال: «**أبشر يا أبا بكر هذا جبريل معتجر[3] بعمامته، آخذٌ بعنان فرسه يقوده، على ثناياه النقع[4]، آتاك نصر الله وعدته**»[5].

هؤلاء خرجوا كرهًا

۞ عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ يوم بدر: «**إن استطعتم أن تأسروا من بني عبد المطلب فإنهم خرجوا كرهًا**»[6].

قال بعض المؤرخين: إن العباس رضي الله عنه كان قد أسلم قبل الهجرة وكتم إسلامه، وقيل: إنه أسلم قبل الفتح. وكانت قريش تجد في قلبها شيئًا من ناحية العباس (كانت تشك في إسلامه) ولكنها لم تجد ما يؤيد ظنها، وبخاصة أنه كان في ظاهر أمره موافقًا لهم، فلما كانت غزوة بدر أرادت قريش أن تقطع الشك باليقين فجعلته يخرج معها في تلك الغزوة.

ولذلك نهى النبي ﷺ أصحابه عن قتل العباس رضي الله عنه.

(١) أحنه: اقتله.

(٢) خفق: أغفى إغفاءة.

(٣) معتجر: لابس عمامته.

(٤) النقع: الغبار.

(٥) رواه أحمد (٥/ ٤٣١)، والحاكم (٢/ ٣٢٨)، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وأقره الذهبي.

(٦) رواه أبو داود (٢٦٦٥) وإسناده صحيح كما قال ابن حجر في الفتح (٧/ ٢٩٨).

عن ابن عباس: أن النبى ﷺ قال لأصحابه: «إنى قد عرفت أن رجالًا من بنى هاشم وغيرهم قد أُخرجوا كرهًا، لا حاجة لهم بقتالنا، ومن لقى العباس ابن عبد المطلب فلا يقتله، فإنه إنما أُخرج مستكرهًا»، فقال أبو حذيفة بن عتبة: أنقتل آباءنا، وأبناءنا، وإخواننا، وعشيرتنا، ونترك العباس؟! والله لئن لقيته لألحمنه - أو لألجمنَّه - بالسيف، فبلغت رسول الله ﷺ فقال لعمر بن الخطاب: «يا أبا حفص، أيُضرب وجه عم رسول الله ﷺ بالسيف؟!» فقال عمر: يا رسول الله، دعنى فلأضرب عنقه بالسيف، فوالله لقد نافق.

فكان أبو حذيفة يقول: ما أنا بآمن من تلك الكلمة التى قلت يومئذ، ولا أزال منها خائفًا إلا أن تُكفرها عنى الشهادة، فقُتل يوم اليمامة شهيدًا[١].

النبى ﷺ يحرض أصحابه على الجهاد

كان رسول الله ﷺ يربى أصحابه على أن يكونوا أصحاب إرادات قوية راسخة ثابتة ثبات الشُّمِّ الرواسى، فيملأ قلوبهم شجاعة وجُرأة وأملًا فى النصر على الأعداء، وكان يسلك فى سبيل تكوين هذه الإرادة القوية أسلوب الترغيب والترهيب،... الترغيب فى أجر المجاهدين الثابتين، والترهيب من التولى يوم الزحف، والفرار من ساحات الوغى، كما كان يُحدثهم عن عوامل النصر وأسبابه ليأخذوا بها ويلتزموها، ويحذرهم من

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٤٥٨، ٤٥٩)، وأخرجه ابن سعد فى الطبقات (٤/ ٨٠٧) من طريق ابن إسحاق. قال: حدثنى العباس بن عبد الله بن معبد عن بعض أهله عن عبد الله بن عباس، فذكر الحديث، وأخرجه الحاكم (٣/ ٢٢٣) مزيلًا لهذه الجهالة فقال: «عن أبيه عن ابن عباس»، ولذلك صححه على شرط مسلم، وحذفه الحافظ من تلخيصه، والعباس بن عبد الله وأبوه ثقتان، لكن يخشى أن يكون ذلك محرف فى نسخة الحاكم، فقد أخرجه البيهقى فى الدلائل (٣/ ١٤٠) من طريقه، وقال: «عن بعض أهله»، والله تعالى أعلم.

أسباب الهزيمة ليقلعوا عنها، وينأوا بأنفسهم عن الاقتراب منها[١].

وكان ﷺ **يحث أصحابه على القتال ويحرضهم عليه امتثالًا لقوله تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾[٢].

النبي ﷺ يرتقي بأرواحهم إلى جنة الرحمن

ولما دنا العدو وتواجه القوم، قام رسول الله ﷺ في الناس، فوعظهم، وذكَّرهم بما لهم في الصبر والثبات من النصر، والظفر العاجل، وثواب الله الآجل، وأخبرهم أن الله قد أوجب الجنة لمن استشهد في سبيله[٣].

قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض

عن أنس بن مالك رضي الله عنه **قال:** «.. فانطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر، وجاء المشركون، فقال رسول الله ﷺ: **«لا يَقدمنَّ أحدٌ منكم إلى شيء، حتى أكون أنا دونه»** فدنا المشركون فقال رسول الله ﷺ: **«قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض»**.

قال: يقول عمير بن الحمام الأنصاري: يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: «**نعم**» قال: بخٍ بخٍ[٤]، فقال رسول الله ﷺ: «**ما**

(١) انظر: المدرسة النبوية لأبي فارس، (ص١٤٠).

(٢) سورة الأنفال: الآية: (٦٥).

(٣) زاد المعاد (٣/ ١٨١).

(٤) بخٍ بخٍ: كلمة تُطلق لتفخيم الأمر وتعظيمه في الخير.

يحملك على قولك بخ بخ؟» قال: لا. والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال: «**فإنك من أهلها**» فأخرج تمرات من قرنه[١]، فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى هذه، إنها لحياة طويلة، قال: فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قُتل»[٢].

وفى رواية قال: قال أنس: فرمى ما كان معه من التمر، وقاتل وهو يقول:

ركضًا إلى الله بغير زاد   إلا التُّقَى وعمل المعاد
والصبر فى الله على الجهاد   وكل زاد عرضة للنفاد
غير التقى والبر والرشاد

ما الذى يُضحك الرب من عبده؟

وكذلك سأله عوف بن الحارث - ابن عفراء - فقال: يا رسول الله ما يُضحك الرب من عبده؟! قال: «**غَمْسُه يده فى العدو حاسرًا**»،فنزع درعًا كانت عليه فقذفها، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قُتل[٣].

فتأمل معى - أيها الأخ الحبيب - كيف كان حرص أصحاب النبى ﷺ على أى شىء يقربهم من رضوان الله ﷻ وجنته.

بداية القتال

تقابل الجيشان ودنا بعضهم من بعض، وأخذ أبو جهل يدعو على رسول الله ﷺ يقول: «**اللهم أيّنا كان أقطع للرحم، وأتانا بما لا نعرف فأحنِهِ**

---

(١) قرنه: جعبة النشاب.

(٢) أخرجه مسلم (١٩٠١) الإمارة.

(٣) أخرجه ابن الأثير فى «أسد الغابة» (٤/ ٣١١)، وابن هشام فى «السيرة» (٢/ ٤٥٧، ٤٥٨) و«إسناده حسن».

الغداة»، فكان ذلك استفتاحه الذى أشارت إليه الآية الكريمة:

﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(١).

وبدأ القتال بمبارزات فردية(٢).

أول وقود المعركة

وكان أول وقود المعركة الأسود بن عبد الأسد المخزومى ـ وكان رجلًا شرسًا سيئ الخلق ـ خرج قائلًا: أعاهد الله لأشربن من حوضهم، أو لأهدمنَّه أو لأموتن دونه، فلما خرج إليه حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه والتقيا ضربه حمزة، فأطنَّ قدمه بنصف ساقه وهو دون الحوض، فوقع على ظهره تشخب رجله دمًا نحو أصحابه، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه، يريد أن تبرَّ يمينه، ولكن حمزة ثنَّى عليه بضربة أخرى أتت عليه وهو داخل الحوض(٣).

هذان خصمان اختصموا فى ربهم

«ثم خرج عتبة بن ربيعة، بين أخيه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة، حتى إذا فصل من الصف دعا إلى المبارزة، فخرج إليه فتية من الأنصار ثلاثة، وهم عوف، ومعوذ، أبناء الحارث ـ وأمهما عفراء ـ ورجل آخر يقال: هو عبد الله بن رواحة فقالوا: من أنتم؟ فقالوا: رهط من الأنصار. قالوا: ما

---

(١) سورة الأنفال: الآية: (١٩)، وانظر: تفسير الطبرى (١٣/ ٤٥٤).

(٢) نضرة النعيم (١/ ٢٩٠).

(٣) الرحيق المختوم (ص ٢٢٦).

لنا بكم من حاجة. ثم نادى مناديهم: يا محمد، أخرج إلينا أكفاءنا[١] من قومنا.

فقال رسول الله ﷺ: «**قم يا عبيدة بن الحارث، قم يا حمزة، قم يا على**»، فلما قاموا ودنوا منهم.

قالوا: من أنتم؟ قال عبيدة: عبيدة، وقال حمزة: حمزة، وقال علىٌّ: على،... قالوا: نعم، أكفاء كرام.

فبارز عبيدة ـ وكان أسن القوم، عتبة بن ربيعة، وبارز حمزة شيبة بن ربيعة، وبارز (علىّ) الوليد بن شيبة.

فأما حمزة فلم يُمهل شيبة أن قتله، وأما (على) فلم يمهل الوليد أن قتله، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين، كلاهما أثبت صاحبه، وكرَّ حمزة وعلىّ بأسيافهما على عتبة فذفَّفا[٢] عليه، واحتملا صاحبهما، فحازاه إلى أصحابه[٣].

وعن على بن أبى طالب رضي الله عنه **قال:** «تقدم - يعنى: عتبة بن ربيعة- وتبعه ابنه وأخوه، فنادى من يبارز فانتدب[٤] له شباب من الأنصار، فقال: من أنتم؟ فأخبروه فقال: لا حاجة لنا فيكم، إنما أردنا بنى عمنا، فقال رسول الله ﷺ: «**قم يا حمزة، قم يا على، قم يا عبيده بن الحارث**» فأقبل حمزة إلى

(١) أكفاءنا: نُظراءنا أو من يساوونا فى المكان.

(٢) فذفَّفا: أسرعا قتله.

(٣) أخرجه ابن هشام فى السيرة بإسناد حسن عن ابن إسحاق: (١/ ٦٢٥)، ولكنه مرسل، وفتح البارى: (٧/ ٢٩٨)، وقد أخرجه الإمام أحمد بتحقيق أحمد شاكر (٢/ ١٩٣) من حديث على وإسناده صحيح.

(٤) انتدب: قام وخرج، أو بادر للخروج.

عتبة، وأقبلتُ إلى شيبة، واختلف بين عبيدة والوليد ضربتان، فأثخن[١] كل واحد منهما صاحبه،ثم ملنا على الوليد فقتلناه، واحتملنا عبيدة»[٢].

وقد وافقت رواية حديث (علىّ) هذه بأنه قتل شيبة وحمزة قتل عتبة ثم أعانا عبيدة على الوليد ما رواه الطبرانى بإسناد حسن عن على قال: «أعنت أنا وحمزة عبيدة بن الحارث على الوليد بن عتبة، فلم يَعِبْ النبى ﷺ ذلك علينا»[٣].

وقال ابن حجر (بعد أن ذكر حديث علىّ الذى رواه أبو داود): «وهذا أصح الروايات، لكن الذى فى السير أن الذى بارز علىّ هو الوليد، وهو المشهور، وهو اللائق بالمقام لأن عبيدة وشيبة كانا شيخين كعتبة وحمزة، بخلاف الوليد وعلىّ فكانا شابين»[٤].

۞ **وعن على بن أبى طالب رضي الله عنه قال**: «أنا أول من يجثو[٥] بين يدى الرحمن للخصومة يوم القيامة ... وقال قيس بن عبادة: وفيهم أُنزلت ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾[٦] قال: هم الذين تبارزوا يوم بدر، حمزة، وعلى، وعبيدة، أو أبو عبيدة بن الحارث، وشيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة،

(١) أثخن: جرح أو أصاب إصابة بيغة.

(٢) أخرجه أبو داود فى الجهاد باب فى المبارزة رقم (٢٦٦٥)، وإسناده صحيح كما قال ابن حجر فى فتح البارى: (٧/ ٢٩٨)، وأحمد (١/ ١١٧)، وأخرجه الحاكم (٣/ ١٨٧-١٨٨)، عن ابن عباس وسنده حسن وصححه الحاكم ووافقه الذهبى.

(٣) فتح البارى (٧/ ٢٩٨).

(٤) فتح البارى (٧/ ٢٩٨).

(٥) يجثو: يجلس على ركبتيه.

(٦) سورة الحج: الآية: (١٩).

والوليد بن عتبة»[١].

وكان هذا أول من قُتل من المشركين مبارزة بيد أسد الله تعالى حمزة ابن عبد المطلب رضي الله عنه، فقد جاء هذا اللئيم الشرس يتحدى المسلمين، فتصدى له بطل الإسلام حمزة، فقضى عليه ولقَّن أمثاله من الحاقدين المتكبرين درسًا فى الصميم[٢].

ولما شاهد المشركون قتل الثلاثة الذين خرجوا للمبارزة استشاطوا غضبًا وهجموا على المسلمين هجومًا عامًّا، صمد وثبت له المسلمون، وهم واقفون موقف الدفاع، ويرمونهم بالنبل كما أمرهم النبى ﷺ، وكان شعار المسلمين: أَحَد أَحَد، ثم أمرهم النبى ﷺ بالهجوم المضاد محرضًا لهم على القتال وقائلًا لهم: «شدُّوا» وواعدًا مَن يُقتل صابرًا محتسبًا بأن له الجنة ...ومما زاد فى نشاط المسلمين واندفاعهم فى القتال سماعهم قول النبى ﷺ: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ وعلمهم وإحساسهم بإمداد الملائكة وبتقليلهم فى أعين المسلمين وتقليل المسلمين بأعين المشركين[٣].

كسر هجمات المشركين

واستشاط الكفار غضبًا للبداية السيئة التى صادفتهم فأمطروا المسلمين وابلًا من سهامهم، ثم حمى الوطيس وتهاوت السيوف، وتصايح المسلمون: أحد أحد. وأمرهم الرسول ﷺ أن يكسروا هجمات

(١) أخرجه البخارى (٣٩٦٥) المغازى، ومسلم (١٨/ ١٦٦).
(٢) التاريخ الإسلامى للحميدى (٤/ ١٥١) بتصرف.
(٣) انظر: الرحيق المختوم، (ص ١١٦-١١٧).

المشركين، وهم مرابطون فى مواقعهم[١].

۞ عن أبى أسيد الساعدى رضي الله عنه قال: «قال لنا رسول الله ﷺ يوم بدر: «إذا أكثبوكم[٢] فارموهم واستبقوا نَبلكم»[٣].

وفى رواية أبى داود زيادة: «إذا اكثبوكم فارموهم بالنبل، ولا تَسُلُّوا السيوف حتى يغشوكم»[٤].

وكان رسول الله يباشر القتال بنفسه... قال على رضي الله عنه: «لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ، وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس بأسًا»[٥].

۞ وقد تجلَّت خبرة النبى ﷺ فى كسر هجمات المشركين بالنَّبل فى عدة أمور منها:

(١) الأمر الأول: أمره ﷺ الصحابة برمى الأعداء إذا اقتربوا منهم؛ لأن الرمى يكون أقرب إلى الإصابة فى هذه الحالة «إن دنا القوم منكم فانضحوهم بالنبل»[٦].

(٢) الأمر الثاني: نهيه ﷺ عن سَلِّ السيوف إلى أن تتداخل الصفوف[٧]

(١) فقه السيرة للغزالى (ص ٢٦٢).

(٢) اكثبوكم: اقتربوا منكم.

(٣) أخرجه البخارى (٣٩٨٤) المغازى.

(٤) أخرجه أبو داود فى السنن طبعة الساعاتى: (٢/ ٤٨) وسكت عنه المنذرى والإسناد ضعيف والله أعلم، وفى إسناده إسحاق بن نجيح قال فى التقريب (١/ ٦١)، مجهول، ومالك بن حمزة بن أبى أسيد: التقريب (٢/ ٢٢٤)، مقبول، ولكنه أخرجه بإسناد آخر وهو سند حسن فى نفس الصفحة.

(٥) رواه أحمد (٢/ ٢٢٨) وقال أحمد شاكر: صحيح.

(٦) صحيح السيرة النبوية برواية أخرى ونفس المعنى، (ص٢٣٩).

(٧) انظر: غزوة بدر الكبرى، (ص٦٣، ٦٤)، لأبى فارس.

«ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم»(١).

(٣) الأمر الثالث: أمره ﷺ الصحابة بالاقتصاد في الرمي(٢) «واسْتَبْقُوا نَبْلَكم»(٣).

وعندما تقارن هذه التعليمات الحربية بالمبادئ الحديثة في الدفاع تجد أن رسول الله ﷺ كان سبَّاقًا إليها من غير عكوف على الدرس ولا التحاق بالكليات الحربية، فالنبي ﷺ يرمى من وراء تعليماته التى استعرضناها آنفا إلى تحقيق ما يُعرف حديثًا بكبت النيران إلى اللحظة التى يصبح فيها العدو فى المدى المؤثر لهذه الأسلحة، وهذا ما قصده ﷺ فى قوله: «واستبقوا نبلكم» (٤).

منحة عجيبة

فقد كان ﷺ قد رأى فى منامه ليلة اليوم الذى التقى فيه الجيشان.

رأى المشركين عددهم قليل، وقد قص رؤياه على أصحابه فاستبشروا خيرًا قال تعالى: ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾(٥).

المعنى أن النبى ﷺ رآهم -أى رأى المشركين- فى منامه قليلًا، فقصَّ ذلك على أصحابه فكان ذلك سببًا لثباتهم، قال مجاهد: ولو رآهم فى منامه كثيرًا لفشلوا وجَبُنوا عن قتالهم، ولتنازعوا فى الأمر: هل يلاقونهم أم لا،

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص٢٣٩).

(٢) انظر: غزوة بدر الكبرى/ لأبى فارس، (ص٦٣، ٦٤).

(٣،٤) البخارى، كتاب المغازى، باب من شهد بدرا، رقم (٣٩٨٤، ٣٩٨٥).

(٥) سورة الأنفال: الآية: (٤٣).

والمضارع فى الآية بمعنى الماضي؛ لأن نزول الآية كان بعد الإراءة فى المنام ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ أى عصمهم من الفشل والتنازع فقللهم فى عين رسول الله ﷺ(١)، فقصَّ رؤياه على أصحابه فكان فى ذلك تثبيت لهم وتشجيعهم وجرأتهم على عدوهم. وعند لقاء جيش المسلمين مع جيش المشركين، رأى كُلٌّ منهم عدد الآخر قليلًا، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ وإنما قللهم فى أعين المسلمين تصديقًا لرؤيا النبى ﷺ، وليعاينوا ما أخبرهم به فيزدادوا يقينًا ويجدُّوا فى قتالهم ويثبتوا، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: قلت لرجل إلى جنبي: أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة، فأسرنا رجلًا منهم فقلنا له: كم كنتم؟ قال: ألفًا. وقوله تعالى: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ حتى قال قائل من المشركين: إنما هم أكلة جَزور.. ووجه الحكمة واللطف بالمسلمين فى هذا التقليل، هو أن إراءة المسلمين عدد الكافرين قليلًا ثبتهم ونشَّطهم وجرَّأهم على قتال المشركين، ونزع الخوف من قلوب المسلمين من أعدائهم. ووجه الحكمة فى تقليل المسلمين فى أعين المشركين هو أنهم إذا رأوهم قليلًا أقدموا على قتالهم غير خائفين ولا مبالين بهم، ولا آخذين الحذر منهم، فلا يقاتلون بجد واستعداد ويقظة وتحرُّز، ثم إذا ما التحموا بالقتال فعلًا تفجؤهم الكثرة فيُبهتون ويهابون، وتُكسر شوكتهم حين يرون ما لم يكن فى حسابهم وتقديرهم، فيكون ذلك من أسباب خذلانهم وانتصار المسلمين عليهم(٢).

---

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٢٥).

(٢) انظر: تفسير الزمخشرى (٢/ ٢٢٥)، تفسير ابن كثير (٢/ ٣١٥).

وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى

۞ عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لعليٍّ: «**ناولني كفًّا من حصى**» فناوله، فرمى بها وجوه القوم، فما بقي أحد من القوم إلا امتلأت عيناه من الحصباء[١]، فنزلت ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾[٢][٣].

۞ وعن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: «لما كان يوم بدر أمر رسول الله ﷺ فأخذ كفًّا من الحصى، فاستقبلنا به فرمى بها وقال: «**شاهت الوجوه**»[٤] فانهزمنا فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾[٥].

ومعنى الآية: أن الله سبحانه أثبت لرسوله ابتداءً الرمي، ونفى عنه الإيصال الذي لم يحصل برميته، فالرمي يُراد به الحذف والإيصال فأثبت لنبيه الحذف، ونفى عنه الإيصال[٦]. ونلحظ أن الرسول ﷺ أخذ بالأسباب المادية والمعنوية وتوكل على الله، فكان النصر والتأييد من الله تعالى، فقد اجتمع في بدر الأخذ بالأسباب بالقدر الممكن مع التوفيق الرباني في تهيئة جميع أسباب النصر متعاونة متكافئة مع التأييدات الربانية الخارقة والغيبية، ففي عالم الأسباب تشكل دراسة الأرض والطقس ووجود القيادة والثقة

(١) الحصباء: الرمل.

(٢) سورة الأنفال: الآية: (١٧).

(٣) قال الهيثمي في المجمع: (٦/ ٨٤) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح انظر الطبراني (١١٧٥٠)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٧٨)، والطبري في التفسير (٩/ ١٣٦).

(٤) شاهت: قبحت.

(٥) قال الهيثمي في المجمع (٦/ ٨٤) رواه الطبراني وسنده حسن، انظر الطبراني في الكبير (٣١٢٧، ٣١٢٨)، ورواه الطبراني في الأوسط كما في مجمع البحرين (٢٣٧)، وأخرجه الطبري في التفسير (٩/ ١٣٦).

(٦) انظر: زاد المعاد (٣/ ١٨٣).

بها والروح المعنوية لَبِنات أساسية فى صحة القرار العسكرى، ولقد كانت الأرض لصالح المسلمين، وكان الطقس مناسبًا للمعركة، والقيادة الرفيعة موجودة والثقة بها كبيرة، والروح المعنوية مرتفعة، وبعض هذه المعانى كان من الله بشكل مباشر وتوفيقه، وبعضها كان من فعل رسول الله ﷺ أخذًا بالأسباب المطلوبة، فتضافر الأخذ بالأسباب مع توفيق الله وزِيد على ذلك التأييدات الغيبية والخارقة فكان ما كان، وذلك نموذج على ما يُعطاه المسلمون بفضل الله إذا ما صلحت النيات عند الجند والقادة، ووُجدت الاستقامة على أمر الله، وأخذ المسلمون بالأسباب(١).

الله ﷻ يؤيدهم بالملائكة(٢)

ثم حمى الوطيس، واستدارت رحى الحرب، واشتد القتال، وأخذ رسول الله ﷺ فى الدعاء والابتهال، ومناشدة ربه ﷻ.

۞ **عن عمر بن الخطاب** قال: لما كان يوم بدر، نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلًا. فاستقبل نبى الله القبلة. ثم مد يديه فجعل يهتف بربه: «**اللهم! أنجز لى ما وعدتنى. اللهم! آتِ ما وعدتنى. اللهم! إن تُهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبد فى**

(١) انظر: الأساس فى السنة وفقهها السيرة النبوية (١/ ٤٧٤).

(٢) إن نزول الملائكة للقتال مع المسلمين إنما هو مجرد تطمين لقلوبهم، واستجابة حسية لشدة استغاثتهم اقتضاها أنهم يقفون مع أول تجربة قتال في سبيل الله، لأناس يبلغون ثلاثة أضعافهم في العدة والعدد. وإلا فإن النصر من عند الله وحده، وليس للملائكة أي تأثير ذاتي في ذلك. ومن أجل بيان هذه الحقيقة قال الله تعالى معللًا نزول الملائكة: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ١٠]. [فقه السيرة (ص ١٦٤)].

الأرض» فما زال يهتف بربه، مادًّا يديه، مستقبل القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبيه. فأتاه أبو بكر. فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه. ثم التزمه من ورائه. وقال: يا نبى الله! كفاك مناشدتك ربك. فإنه سينجز لك ما وعدك. فأنزل الله ﷻ ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[١] فأمده الله بالملائكة.

قال أبو زميل: فحدثنى ابن عباس قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد فى أثر رجل من المشركين أمامه. إذ سمع ضربة بالسوط فوقه. وصوت الفارس يقول: أَقْدِمْ حَيْزُومُ[٢]. فنظر إلى المشرك أمامه فخرَّ مُستلقيًا. فنظر إليه فإذا هو قد خُطم أنفه[٣]، وشق وجهه كضربة السوط. فاخضرَّ ذلك أجمع. فجاء الأنصارى فحدَّث بذلك رسول الله ﷺ. فقال: «**صدقت. ذلك من مدد السماء الثالثة**» فقتلوا يومئذ سبعين. وأسروا سبعين[٤].

۞ وأغفى رسول الله ﷺ إغفاءة واحدة ثم رفع رأسه فقال: «**أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذٌ بعنان فرسه يقوده، على ثنايا النقع**»[٥].

۞ **وعن ابن عباس** رضي الله عنهما **أيضًا قال:** إن النبى ﷺ قال يوم بدر: «**هذا جبريل آخذٌ برأس فرسه عليه أداة الحرب**»[٦].

---

(١) سورة الأنفال: الآية: (٩).

(٢) حيزوم: اسم الفرس الذى يركبه الملك.

(٣) خطم: الخطم الأثر على الأنف.

(٤) أخرجه مسلم (٥٨) (١٧٦٣) كتاب الجهاد والسير.

(٥) أورده ابن هشام فى «السيرة» (٢/ ٤٥٧) بلا سند، ووصله الأموى ـ كما فى «**البداية والنهاية**» (٣/ ٣٤٧) ـ من طريق ابن إسحاق حدثنى الزهرى عن عبد الله بن ثعلبة به وهذا سند حسن.

(٦) رواه البخارى فى المغازى باب فضل من شهد بدرًا رقم (٣٩٩٥).

۞ **وعن على بن أبى طالب** ﷺ **قال:** «فجاء رجل من الأنصار قصير بالعباس بن عبد المطلب أسيرًا، فقال العباس: يا رسول الله إن هذا والله ما أسرنى، لقد أسرنى رجل أجلح[١] من أحسن الناس وجهًا على فرسٍ أبلق[٢] ما أراه فى القوم، فقال الأنصارى: أنا أسرته يا رسول الله فقال: «**اسكت فقد أيدك الله بملَكٍ كريم**»[٣].

۞ **وعن أبى داود المازنى قال:** «إنى لأتبع رجلًا من المشركين لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفى فعرفت أنه قتله غيرى»[٤].

۞ **وعن البراء قال:** «جاء رجل من الأنصار بالعباس قد أسره، فقال العباس، يا رسول الله ليس هذا مَن أسرنى، أسرنى رجل من القوم أنزع من هيئته كذا وكذا فقال رسول الله ﷺ: «**قد آزرك الله بملكٍ كريم**»[٥].

۞ **وعن على بن أبى طالب** ﷺ **قال:** «قال لى النبى ﷺ ولأبى بكر يوم بدر «**مع أحدكما جبريل، ومع الآخر ميكائيل، وإسرافيل ملَكٌ عظيم يشهد القتال، أو يكون فى الصف**»[٦].

---

(١) الأجلح: الذى انحسر الشعر عن جانبى رأسه.

(٢) الأبلق: الذى ارتفع التحجيل إلى فخذيه.

(٣) رواه أبو داود وإسناده صحيح كما قال ابن حجر فى فتح البارى (٧/ ٢٩٨).

(٤) أخرجه ابن هشام (١/ ٦٣٣)، وأحمد فى المسند (٥/ ٤٥٠) من طريق ابن إسحاق حدثنى أبى إسحاق بن يسار عن رجال من بنى مازن عن أبى داود المازنى وسنده حسن - والبيهقى فى الدلائل (٣/ ٥٦)،والطبرى فى التاريخ (٢/ ٤٥١). وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد: (٦/ ٨٣)، رواه أحمد وفيه رجل لم يُسم.

(٥) قال الهيثمى (٦/ ٨٥)، رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

(٦) قال الهيثمى فى المجمع: (٦/ ٨٢)، رواه أحمد بنحوه والبزار واللفظ له ورجالهما رجال الصحيح، ورواه أبو يعلى كشف الأستار رقم (١٤٦٧، ١٧٦٢)، أحمد: (١/ ١٤٧)، أبو يعلى رقم (٣٤٠)، الحاكم (٣/ ١٣٤)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبى والحديث إسناده صحيح.

إن إمداد الله تعالى للمؤمنين بالملائكة أمرٌ قطعى ثابت لا شك فيه، وأن الحكمة من هذا الإمداد تحصيل ما يكون سببًا لانتصار المسلمين، وهذا ما حصل بنزول الملائكة، فقد قاموا بكل ما يمكن أن يكون سببًا لنصر المسلمين: من بشارتهم بالنصر، ومن تثبيتهم بما ألقوه فى قلوبهم من بواعث الأمل فى نصرهم، والنشاط فى قتالهم، وبما أظهروه لهم من أنهم مُعانون من الله تعالى، وأيضا بما قام به بعضهم من الاشتراك الفعلى فى القتال، ولا شك أن هذا الاشتراك الفعلى فى القتال قوَّى قلوبهم وثبتهم فى القتال، وهذا ما دلت عليه الآيات وصرحت به الأحاديث النبوية[1].

❁ قال الحافظ فى الفتح: قال الشيخ تقى الدين السبكي:

«سُئلت عن الحكمة فى قتال الملائكة مع النبى ﷺ مع أنَّ جبريل قادر على أن يدفع الكفار بريشة من جناحه؟

فقلت: وقع ذلك لإرادة أن يكون الفعل للنبى وأصحابه، وتكون الملائكة مددًا على عادة مدد الجيوش، رعاية لصورة الأسباب وسُنتها التى أجراها الله تعالى فى عباده، والله تعالى هو فاعل الجميع .. والله أعلم»[2].

إن نزول الملائكة عليهم السلام من السماوات العُلى إلى الأرض لنصر المؤمنين حَدَثٌ عظيم.

إنه قوة عُظمى، وثبات راسخ للمؤمنين حينما يوقنون بأنهم ليسوا وحدهم فى الميدان، وأنهم إذا حققوا أسباب النصر واجتنبوا موانعه، فإنهم أهلٌ لمدد السماء، وهذا الشعور يعطيهم جرأة فى مقابلة الأعداء، وإن كان

---

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٣١، ١٣٢).

(٢) فتح البارى (٧/ ٣١٣) فى التعليق على حديث رقم (٣٩٩٥).

ذلك على سبيل المغامرة، لبُعد التكافؤ المادى بين جيش الكفار الكبير عددًا القوى إعدادًا وجيش المؤمنين القليل عددًا الضعيف إعدادًا.

وهو فى نفس الوقت عامل قوى فى تحطيم معنوية الكفار وزعزعة يقينهم، وذلك حينما يشيع فى صفوفهم احتمال تكرار نزول الملائكة الذين شاهدهم بعضهم عيانًا... إنهم مهما قدروا قوة المسلمين وعددهم فإنه سيبقى فى وجدانهم رعبٌ مزلزل من احتمال مشاركة قوى غير منظورة لا يعلمون عددها ولا يقدرون مدى قوتها، وقد رافق هذا الشعور المؤمنين فى كل حروبهم التى خاضها الصحابة رضي الله عنهم فى العهد النبوى، وفى عهد الخلفاء الراشدين، كما رافق بعض المؤمنين بعد ذلك فكان عاملًا قويًا فى انتصاراتهم المتكررة الحاسمة مع أعدائهم(١).

وجاء النصر، وأنزل الله جنده، وأيَّد رسوله والمؤمنين، ومنحهم أكتاف المشركين أَسرًا وقتلًا. فقتلوا منهم سبعين، وأسروا سبعين.

أسد الله الغالب.. على بن أبى طالب

وها هى صورة مشرقة من شدة بأس (على) رضي الله عنه يوم بدر.

۞ عن على بن أبى طالب رضي الله عنه قال: «كنت على بئر فكنت يوم بدر أميح وأمتح منه(٢)، فجاءت ريح شديدة، ثم جاءت ريح شديدة فلم أرَ ريحًا، أشد منها إلا التى قبلها، ثم جاءت ريح شديدة، فكانت الأولى ميكائيل فى ألفٍ من الملائكة عن يمين النبى ﷺ، والثانية إسرافيل فى ألفٍ من الملائكة عن يسار النبى ﷺ، والثالثة جبريل فى ألف من الملائكة، وكان أبو بكر عن

(١) انظر: التاريخ الإسلامى للحميدى (٤/ ١٤٥)، نقلًا عن «غزوات الرسول».

(٢) متح الدلو: جذبها مستقيًا لها.

يمينه، وكنت عن يساره، فلما هزم الله الكفار حملني رسول الله ﷺ على فرسه، فلما استويت عليه حمل بي، فصرت على عنقه فدعوت الله فثبتني عليه، فطعنت برمحي حتى بلغ الدم إبطي»(١).

(سعد) يقاتل قتال الفارس والراجل

۞ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «كان سعد يقاتل مع رسول الله ﷺ يوم بدر، قتال الفارس والراجل»(٢).

وهكذا تتضح لنا تلك الصورة الحية من حرص الصحابة رضي الله عنهم على الفوز بالشهادة في سبيل الله ومن ثم بجنته ورضوانه حيث النعيم المقيم والخلود في النعيم.

صور مشرقة من الولاء والبراء

وقد تجلَّت في هذه المعركة مناظر رائعة، تبرز فيها قوة العقيدة وثبات المبدأ، ففي هذه المعركة التقى الآباء بالأبناء، والإخوة بالإخوة، خالفت بينهما المبادئ، ففصلت بينهما السيوف، والتقى المقهور بقاهره، فشفى منه غيظه.

قال صاحب الظلال رحمه الله: فروابط الدم والقرابة هذه تنقطع عند حد الإيمان. إنها يمكن أن تُرعى إذا لم تكن هناك محادة وخصومة بين اللوائين. لواء الله ولواء الشيطان.. والصحبة بالمعروف للوالدين المشركين

(١) قال الهيثمي في المجمع (٦/ ٧٧)، رواه أبو يعلى ورجاله ثقات.

(٢) كشف الأستار: (١٧٦٨-١٧٦٩)، وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٨٢)، رواه البزار بإسنادين إحدهما متصل والآخر مرسل ورجالهما ثقات.

مأمور بها حين لا تكون هناك حرب بين حزب الله وحزب الشيطان. فأما إذا كانت المُحادة والمُشاقة والحرب والخصومة فقد تقطعت تلك الأواصر التى لا ترتبط بالعروة الواحدة وبالحبل الواحد. ولقد قتل أبو عبيدة أباه فى يوم بدر. وهَمَّ الصدِّيق أبو بكر بقتل ولده عبد الرحمن. وقتل مصعب بن عمير أخاه عبيد بن عمير. وقتل عمر وحمزة وعلى وعبيدة والحارث أقرباءهم وعشيرتهم. متجردين من علائق الدم والقرابة إلى آصرة الدين والعقيدة. وكان هذا أبلغ ما ارتقى إليه تصور الروابط والقيم فى ميزان الله[1].

موقف عظيم فى الولاء والبراء لمصعب بن عمير رضي الله عنه

قال ابن إسحاق: وحدثنى نبيه بن وهب أخو بنى عبد الدار، أن رسول الله ﷺ حين أقبل بالأُسارى فرَّقهم بين أصحابه وقال: «**استوصوا بالأُسارى خيرًا**»

قال: وكان أبو عزيز بن عُمير بن هشام أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه فى الأسارى، قال فقال أبو عزيز: مرَّ بى مصعب بن عمير ورجل من الأنصار يأسرنى. فقال (مصعب): شد يدك به، فإن أمه ذات متاع، لعلها تفديه منك. قال: وكنت فى رهط من الأنصار حين أقبلوا بى من بدر، فكانوا إذا قدَّموا غداءهم وعشاءهم خَصُّونى بالخبز وأكلوا التمر. لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا، ما تقع فى يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحنى بها. قال: فأستحى فأردها على أحدهم. فيردها علىَّ ما يمسها.

قال ابن هشام: وكان أبو عزيز صاحب لواء المشركين ببدر بعد النضر ابن الحارث، فلما قال أخوه مصعب بن عمير (لأبى اليسر) وهو الذى

(١) فى ظلال القرآن (٦/ ٣٥١٤).

أسره ما قال: قال له أبو عزيز: يا أخى هذه وصاتك بى؟! فقال له مصعب: إنه أخى دونك... فسألت أمه عن أغلى ما فُدى به قرشى، فقيل لها: أربعة آلاف درهم. فبعثت بأربعة آلاف درهم ففدته بها[١].

أبو عبيدة رضي الله عنه ... ودرس فى الولاء والبراء

وفى غزوة (بدر) قاتل أبو عبيدة رضي الله عنه قتالًا شديدًا حتى كان المشركون يبتعدون عن البقعة التى يقاتل فيها.. ولكن كان هناك فارسٌ يتصدى له كثيرًا.. وأبو عبيدة يحيده عنه فلما أكثر الرجل من التصدى لأبى عبيدة هجم عليه كالأسد الضارى فقتله شر قتلة !!!

أتدرون من هو المقتول؟... إنه ـ والد أبى عبيدة ـ:

وأنزل الله فى شأنه وشأن أبيه قرآنًا يُتلى إلى يوم القيامة.

قال سعيد بن عبد العزيز وغيره أُنزلت هذه الآية: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[٢].

فى أبى عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح حين قتل أباه يوم بدر، ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين جعل الأمر شورى بعده فى أولئك الستة رضي الله عنهم: ولو كان أبو عبيدة حيًّا لاستخلفته[٣].

---

(١) السيرة لابن هشام (٣/ ٥٤).

(٢) سورة المجادلة: الآية (٢٢).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٢٩).

استشهاد سعد بن خيثمة

قال الحافظ ابن حجر: قال موسى بن عقبة، عن ابن شهاب: استهم يوم بدر سعد بن خيثمة وأبوه فخرج سهم سعد فقال له أبوه: يا بُنى آثرنى اليوم، فقال سعد: يا أبتِ لو كان غير الجنة فعلت، فخرج سعد إلى بدر فقُتِلَ بها، وقُتل أبوه خيثمة يوم أُحد[١].

وهذا الخبر يعطى صورة مشرقة عن بيوتات الصحابة فى تنافسهم وتسابقهم على الجهاد فى سبيل الله تعالى،... فهذا سعد بن خيثمة ووالده لا يستطيعان الخروج معًا لاحتياج أسرتهما وعملهما لبقاء أحدهما، فلم يتنازل أحدهما عن الخروج رغبة فى نيل الشهادة حتى اضطروا إلى الاقتراع بينهما، فكان الخروج من نصيب سعد رضي الله عنهما، وكان الابن فى غاية الأدب مع والده، ولكنه كان مشتاقًا إلى الجنة فأجاب بهذا الجواب البليغ: (يا أبتِ لو كان غير الجنة فعلت)[٢].

استشهاد عوف بن الحارث

قال ابن إسحاق: حدثنى عاصم بن عمرو بن قتادة أن عوف بن مالك وهو ابن عفراء[٣] قال: يا رسول الله ما يُضحك الرب من عبده؟ قال: «**غَمْسُه يده فى العدو حاسرًا**»[٤] فنزع درعًا كانت عليه فقذفها، ثم أخذ سيفه

---

(١) الإصابة (٢/ ٢٣-٢٤) رقم (٣١١٨).

(٢) انظر: التاريخ الإسلامى للحميدى (٤/ ٨٧).

(٣) عفراء بنت عبيد بن ثعلبة شارك أولادها السبعة فى غزوة بدر.

(٤) حاسرًا: غير لابس الدرع.

فقاتل القوم حتى قُتل[١].

وهذا الخبر يدل على قوة ارتباط الصحابة الكرام بالآخرة، وحرصهم على رضوان الله تعالى؛ ولذلك انطلق عوف بن الحارث رضي الله عنه كالسهم وهو حاسر غير متدرع يثخن فى الأعداء حتى أكرمه الله بالشهادة... لقد تغيرت مفاهيم المجتمع الجديد، وتعلق أفراده بالآخرة، وأصبحوا حريصين على مرضاته بعد أن كان جُلّ همهم أن تتحدث عنهم النساء وعن بطولاتهم، ويرضى سيد القبيلة عنهم، وتُنشد الأشعار فى شجاعتهم[٢].

استشهاد عُمير بن أبى وقاص

لما سار رسول الله ﷺ إلى بدر وعرض عليه جيش بدر رَدَّ عمير بن أبى وقاص فبكى عمير فأجازه، فعقد عليه حمائل سيفه، ولقد كان عمير يتوارى حتى لا يراه رسول الله ﷺ فقال سعد: رأيت أخى عمير بن أبى وقاص قبل أن يعرضنا رسول الله ﷺ يوم بدر يتوارى فقلت: ما لك يا أخي؟ قال: إنى أخاف أن يرانى رسول الله ﷺ فيستصغرنى ويردنى، وأنا أحب الخروج لعل الله أن يرزقنى الشهادة[٣]، وقد استُشهد بالفعل.

إنه فى جنة الفردوس

وفتح المسلمون عيونهم على بشاشة الفوز تضحك لهم خلال الأرض والسماء.

---

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص٢٤٥).

(٢) انظر: التربية القيادية (٢/ ٣١).

(٣) انظر: السيرة النبوية لأبى فارس، (ص٣١٧)، نقلًا عن صفة الصفوة، (١/ ٢٩٤)، والمستدرك (٣/ ١٨٨).

إن هذا الظفر المتاح رد عليهم الحياة والأمل والكرامة، وخلَّصهم من أغلالٍ ثقال.

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾(١).

وكانت عدة من استشهد منهم أربعة عشر رجلًا: استأثرت بهم رحمة الله فذهبوا إلى عِليين... ثبت عن أنس بن مالك، أن حارثة بن سراقة، قُتل يوم بدر، وكان فى النظارة، أصابه سهمٌ طائش فقتله. فجاءت أمه فقالت يا رسول الله، قد عرفت منزلة حارثة منى، فإن يكن فى الجنة أصبر وأحتسب، وإن تكن الأخرى ترى ما أصنع؟. فقال: «**ويحك ـ أَوَ هبلتِ ـ أَوَ جنة واحدة هى؟ إنها جنان كثيرة، وإنه فى جنة الفردوس**»(٢).

إنا كفيناك المستهزئين

۞ ولقد استجاب الله ﷻ فى هذه الغزوة المباركة دعوة النبى ﷺ على مشركى قريش، كما فى حديث ابن مسعود فى إلقاء المشركين سلى الجزور على ظهر النبى ﷺ وهو يصلى عند البيت، فقال ﷺ: «**اللهم عليك بقريش**» ثلاث مرات، ثم سمَّى: «**اللهم عليك بأبى جهل وعليك بعتبة بن ربيعة وشيبة ابن ربيعة والوليد بن عتبة وأمية بن خلف وعقبة بن أبى معيط**»(٣).

فقُتل هؤلاء الستة يوم بدر وأقر الله ﷻ عين نبيه بهلاكهم وتحقق

(١) سورة آل عمران: الآية: (١٢٣).

(٢) أخرجه البخارى (٢٨٩٣) المغازى.

(٣) أخرجه البخارى (١/ ٤١٦) الوضوء، ومسلم (١٢/ ١٥١، ١٥٢) الجهاد والسير.

والسلى: هى الجلدة التى يكون فيها الولد يقال لها ذلك عند البهائم وأما من الآدميات فالمشيمة.

قوله ﷻ: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾[١].

أما أبو لهب فقد كان بمكة ولم يخرج إلى بدر، وفُجع بهلاك رؤوس الكفر ثم أهلكه الله ﷻ بعد ذلك بقليل وجعله عبرة للمعتبرين.

۞ عن أبى رافع مولى رسول الله ﷺ قال: كنت غلامًا للعباس، وكان يكتم إسلامه مخافة قومه، وكان أبو لهب تخلف عن بدر وبعث مكانه العاص بن هشام، وكان له عليه دَين فقال له اكفنى من هذا الغزو وأترك لك ما عليك، ففعل، فلما جاء الخبر وكبت الله أبا لهب...وكنت رجلًا ضعيفًا أنحت أقداحى فى الحجرة وعندى أم الفضل، إذا الفاسق أبو لهب يجر رجليه أراه قال: حتى جلس عند طنب الحجرة، فكان ظهره إلى ظهرى فقال الناس: هذا أبو سفيان بن الحارث فقال أبو سفيان: هَلُمَّ يا ابن أخى كيف كان أمر الناس؟ قال لا شىء، والله ما هو إلا أن لقيناهم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاءوا ويأسروننا كيف شاءوا، وايم الله ما لُمت الناس قال: ولِمَ؟ قال رأيت رجالًا بيضًا على خيل بُلق، لا والله لا يليق شيئًا ولا يقوم لها شىء، قال فرفعت طنب الحجرة فقلت: تلك والله الملائكة، فرفع أبو لهب يده فلطم وجهى وثاورته فاحتملنى فضرب بى الأرض حتى نزل علىَّ، وقامت أم الفضل فاحتجرت وأخذت عمودًا من عمد الحجرة فضربته به ففلقت فى رأسه شجة منكرة، وقالت: أى عدو الله استضعفته أن رأيت سيده غائبًا عنه، فقام ذليلًا، فوالله ما عاش إلا سبع ليال حتى ضربه الله بالعدسة فقتلته، فتركه ابناه يومان أو ثلاثة ما يدفناه حتى أنتن. فقال رجل من قريش لابنيه ألا تستحيان، أن أباكما قد أنتن فى بيته. فقالا: إنا

(١) سورة الحجر: الآية: (٩٥).

نخشى هذه القرحة، وكانت قريش تتقى العدسة كما تتقى الطاعون، فقال رجل: انطلقا فأنا معكما، قال فوالله ما غسلاه إلا قذفًا بالماء من بعيد، ثم احتملوه فقذفوه فى أعلى مكة إلى جدار، وقذفوا عليه الحجارة»(١).

مصرع أبى جهل

وحاول «أبو جهل» أن يوقف سيل الهزيمة النازل بقومه، فأقبل يصرخ بهم، وغشاوة الغرور لا تزال ضاربة على عينه: «واللات والعزى لا نرجع حتى نُفرقهم فى الجبال.. خذوهم أخذًا».

وماذا تفعل صيحات الطيش بإزاء الحقائق المكتسحة؟ لكن أبا جهل - والحق يقال - كان تمثالًا للعناد إلى آخر رمق، والطمس المنسوج على بصيرته جزء من كيانه لا ينفك أبدًا، لذلك أقبل يقاتل فى شراسة وغضب وهو يقول:

ما تنقم الحرب الشموس منى؟ بازل عامين حديث سنى

لمثل هذا ولدتنى أمى (٢)

ولكن سرعان ما تبدَّى له حقيقة هذه الغطرسة، فما لبث إلا قليلًا حتى أخذت الصفوف تتصدع أمام تيارات هجوم المسلمين، نعم بقى حوله عصابة من المشركين، ضربت حوله سياجًا من السيوف وغابات من الرماح، ولكن عاصفة هجوم المسلمين بددت هذه السياج، وأقلعت هذه الغابات، وحينئذ ظهر هذا الطاغية، ورآه المسلمون يجول على فرسه،

---

(١) قال الهيثمى: رواه الطبرانى والبزار، وفى إسناده حسين بن عبد الله بن عبيد الله، وثقه أبو حاتم وغيره، وضعفه جماعة، وبقية رجاله ثقات، مجمع الزوائد (٦/ ٨٩).

(٢) فقه السيرة للغزالى (ص ٢٠٢).

وكان الموت ينتظر أن يشرب من دمه بأيدى غلامين أنصاريين[١].

۞ **عن عبد الرحمن بن عوف** رضي الله عنه: قال: بينما أنا واقف فى الصف يوم بدر، نظرت عن يمينى وشمالى، فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثة أسنانهما، تمنيت لو كنت بين أضلع منهما[٢]، فغمزنى[٣] أحدهما فقال: يا عم هل تعرف أبا جهل؟ قال: قلت: نعم وما حاجتك إليه يا ابن أخى؟ قال: أُخبرت أنه يسب رسول الله، والذى نفسى بيده لئن رأيته لا يفارق سوادى سواده، حتى يموت الأعجل منا. قال: فتعجبت لذلك، فغمزنى الآخر فقال مثلها.

قال: فلم أنشب[٤] أن نظرت إلى أبى جهل يزول فى الناس فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكما الذى تسألان عنه، قال: فابتدراه بسيفيهما حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ فأخبراه، فقال: «**أيكما قتله؟**» فقال كل واحد منهما: أنا قتلته، فقال: «**هل مسحتما سيفيكما؟**» قالا: لا: فنظر فى السيفين فقال: «**كلاكما قتله**»، وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح... والرجلان: معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعاذ بن عفراء»[٥].

فرعون هذه الأمة

۞ **عن أنس** رضي الله عنه **قال**: «قال رسول الله ﷺ يوم بدر: «**من ينظر ما صنع**

(١) الرحيق المختوم (ص٢٣٢).

(٢) أضلع: أقوى وأعظم وأشد.

(٣) غمزنى: قرصنى.

(٤) أنشب: ألبث.

(٥) متفق عليه: أخرجه البخارى (٣٩٨٨) المغازى، ومسلم (١٧٥٢) الجهاد.

أبو جهل؟» فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضرباه أبناء عفراء حتى برد[(١)]، فأخذ بلحيته فقال: أنت أبو جهل، قال: وهل فوق رجل قتله قومه أو قال: قتلتموه»[(٢)].

۞ وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أدركت أبا جهل يوم بدرٍ صريعًا، فقلت: أى عدو الله قد أخزاك الله؟

قال: وبِمَ أخزانى: من رجل قتلتموه... ومعى سيف لى، فجعلت أضربه ولا يحتك فيه شيء،ومعه سيف له جيد، فضربت يده فوقع السيف من يده فأخذته، ثم كشفت المِغفر عن رأسه فضربت عنقه، ثم أتيت النبى ﷺ فأخبرته، فقال: «الله الذى لا إله إلا هو؟». قلت: الله الذى لا إله إلا هو.

قال: انطلق فاستثبت... فانطلقت وأنا أسعى مثل الطائر، ثم جئت وأنا أسعى مثل الطائر أضحك فأخبرته.

فقال رسول الله ﷺ: «انطلق» فانطلقت معه فأريته، فلما وقف عليه ﷺ قال: «هذا فرعون هذه الأمة»[(٣)].

۞ كان الدافع من حرص الأنصاريين الشابين على قتل أبى جهل ما سمعاه من أنه كان يسب رسول الله ﷺ، وهكذا تبلغ محبة شباب الأنصار لرسول الله ﷺ بذل النفس فى سبيل الانتقام ممن تعرض له بالأذى.

---

(١) برد: قارب على الموت وكان فى النزع الأخير.

(٢) أخرجه البخارى فى المغازى باب قتل أبى جهل رقم (٣٩٦٣)، ومسلم فى الجهاد، باب قتل أبى جهل رقم (١٨٠٠).

(٣) أخرجه الهيثمى فى المجمع (٦/ ٧٩) وقال رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح غير محمد ابن وهب ابن أبى كريمة وهو ثقة، قال عنه فى التقريب (٢/ ٢١٦) صدوق من العاشرة فيكون الحديث حسنًا.

وما جرى بين عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وأبى جهل وهو فى الرمق الأخير من الحوار فيه عبرة بليغة، فهذا الطاغية الذى كان شديد الأذى للمسلمين فى مكة قد وقع صريعًا بين أيدى من كان يؤذيهم. ويشاء الله تعالى أن يكون الذى يقضى على آخر رمق من حياته هو أحد المستضعفين... ولقد كان أبو جهل مستكبرًا جبارًا حتى وهو صريع وفى آخر لحظات حياته[(١)]. فقد جاء فى رواية لابن إسحاق أنه قال لعبد الله بن مسعود لما أراد أن يحتز رأسه: لقد ارتقيت مرتقى صعبًا يا رويعى الغنم[(٢)].

فالله تعالى لم يُعجِّل لهذا الخبيث أبى جهل بضربات الأبطال من أشبال الأنصار، ولكنه أبقاه مصروعًا فى حالة من الإدراك والوعى بعد أن أصابته ضربات أشفت به على الهلاك الأبدى، ليُريه بعين بصره ما بلغه من المهانة والذل والخذلان على يد من كان يستضعفه ويؤذيه، ويضطهده بمكة من رجال الرعيل الأول -السابقين إلى مظلّة الإيمان وطهر العقيدة، والتعبُّد لله بشرائعه، التى أنزلها رحمة للعالمين- عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فيعلو على صدره، ويدوسه بقدميه، ويقبض على لحيته تحقيرًا له، ويُقرّعه تقريعًا يبلغ من نفسه مجمع غروره واستكباره فى الأرض، ويستلّ منه سيفه إمعانًا فى البطش به فيقتله به، ويُمعن فى إغاظته بإخباره أن النصر عُقد بناصية جند الله وكتيبة الإسلام، وأن شنار الهزيمة النكراء وعارها، وخزيها وخذلانها قد رُزئت به كتائب الغرور الأجوف فى حشود النفير الذى قاده هذا الكفور الخبيث...[(٣)].

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامى للحميدى (٤/ ١٥٨- ١٦٠).

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٤٧).

(٣) انظر: محمد رسول الله/ صادق عرجون (٣/ ٤٣١، ٤٣٢).

مصرع أمية بن خلف

لقد كان أمية بن خلف يعذب بلالًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في رمضاء مكة عذابًا شديدًا.. وتمر الأيام ويشاء الله عَزَّ وَجَلَّ أن يقتص لبلال من أمية بن خلف.

فها هو الصحابى الجليل عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحكى كيف اقتص الله تعالى لبلال من أمية بن خلف.

۞ عن عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كاتبت أمية بن خلف كتابًا بأن يحفظنى فى صاغيتى[1] بمكة، وأحفظه فى صاغيته بالمدينة، فلما ذكرت «الرحمن» -أي: قلت: عبد الرحمن- قال: لا أعرف الرحمن، كاتبنى باسمك الذى كان فى الجاهلية، فكاتبته (عبد عمرو).

فلما كان فى يوم بدر خرجت إلى جبل لأُحرزَه[2] حين نام الناس، فأبصره بلال، فخرج حتى وقف على مجلس من الأنصار، فقال (بلال): أمية بن خلف لا نجوت إن نجا أمية، فخرج معه فريق من الأنصار فى آثارنا فلما خشيت أن يلحقونا خلفت لهم ابنه لأشغلهم فقتلوه، ثم أبوا حتى يتبعونا ـ وكان رجلًا ثقيلًا ـ فلما أدركونا قلت له: ابرك، فبرك، فألقيت عليه نفسى لأمنعه، فتجللوه[3] بالسيوف من تحتى حتى قتلوه، وأصاب أحدهم رجلى بسيفه،وكان عبد الرحمن بن عوف يرينا ذلك الأثر فى ظهر قدمه»[4].

۞ وفى رواية: كان عبد الرحمن بن عوف، وأمية بن خلف صديقين فى

---

(١) الصاغية: صاغية الرجل: ما يميل إليه، ويطلق على الأهل والمال.

(٢) أحرزه: أحميه.

(٣) تجللوه: طعنوه، أصابوه.

(٤) أخرجه البخارى (٢٣٠١) الوكالة ـ ومسلم (١٧٥٢).

الجاهلية بمكة، فلما كان يوم بدر مرَّ به عبد الرحمن وهو واقف مع ابنه عليّ بن أمية آخذًا بيده، ومع عبد الرحمن أدراع قد استلبها وهو يحملها، فلما رآه قال: هل لك فيّ؟ فأنا خير من هذه الأدراع التى معك، ما رأيت كاليوم قط، أما لك حاجة فى اللبن؟ - يريد أن من أسرنى افتديت منه بإبل كثيرة اللبن - فطرح عبد الرحمن الأدرع، وأخذهما يمشى بهما، ... قال عبد الرحمن: قال لى أمية بن خلف، وأنا بينه وبين ابنه: مَن الرجل منكم المُعلَّم بريشة النعامة فى صدره؟ قلت: ذاك حمزة بن عبد المطلب، قال: ذاك الذى فعل بنا الأفاعيل. قال عبد الرحمن: فوالله إنى لأقودهما إذ رآه بلال معى، وكان أمية الذى يعذب بلالًا بمكة، فقال بلال: رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا، قلت: أى بلال، أسيرى، قال: لا نجوت إن نجا، قلت: أتسمع يا ابن السوداء، قال: لا نجوت إن نجا، ثم صرخ بأعلى صوته: يا أنصار الله، رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا، قال: فأحاطوا بنا حتى جعلونا فى مثل المسكَّة، وأنا أَذُبّ عنه (أدافع عنه)، قال: فأخلف رجل السيف فضرب رجل ابنه فوقع، وصاح أمية صيحة ما سمعت مثلها قط، فقلت: انجُ بنفسك، ولا نجاء بك، فوالله ما أغنى عنك شيئًا، قال: فهبروهما بأسيافهم حتى فرغوا منهما، فكان عبد الرحمن يقول: يرحم الله بلالًا، ذهبت أدراعى، وفجعنى بأسيرىَّ[1].

۞ ونلحظ من الروايات السابقة:

(١) ما جرى من بلال رضي الله عنه حينما رأى عدوه اللدود أمية بن خلف الذى كان يسومه أقسى وأعنف أنواع العذاب فى مكة، فلما رآه فى يد

(١) إسناده حسن: أخرجه ابن هشام فى السيرة (٢/ ٤٦٠-٤٦١) عن ابن إسحاق بأسانيد إلى عبد الرحمن بن عوف، وأخرجه بنحوه البخارى فى صحيحه (٢٣٠١).

عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أسيرًا صرخ بأعلى صوته: لا نجوت إن نجا.

إنه موقف من مواقف التشفِّى فى أعداء الله، والتشفى من كبار الكفرة الفجار وفى الحياة الدنيا نعمة يفرج الله بها عن المكروبين من المؤمنين الذين ذاقوا الذل والهوان على أيدى أولئك الفجرة الطغاة.

قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[١].

(٢) إن فيما جرى لأمية بن خلف من قتل مفزع درسًا بليغًا للطغاة المتجبرين، وعبرة للمعتبرين، الذين يغترون بقوتهم وينخدعون بجاههم ومكانتهم، فيعتدون على الضعفاء، ويسلبونهم حقوقهم، فمآلهم إلى عاقبة سيئة ووخيمة فى الآخرة، وقد يُمكِّن الله للضعفاء منهم فى الدنيا قبل الآخرة كما حدث لأمية بن خلف وأضرابه من طغاة الكفر[٢]، قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[٣].

(٣) وفى قول عبد الرحمن بن عوف: «يرحم الله بلالًا ذهبت أدراعى وفجعنى بأسيريَّ»[٤] مع ما جرى من بلال من معارضة وانتزاع الأسيرين من يده بقوة الأنصار الذين استنجد بهم دليل على قوة الرباط الأخوى بين الصحابة الكرام[٥].

---

(١) سورة التوبة: الآيتان: (١٤-١٥).

(٢) انظر: التاريخ الإسلامى للحميدى (٤/ ١٥٢، ١٥٣).

(٣) سورة القصص: الآية: (٥).

(٤) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢٤٤).

(٥) انظر: التاريخ الإسلامى للحميدى (٤/ ١٥٣).

موقف رائع لأم صفوان بنت أمية

قيل لأم صفوان بنت أمية بعد إسلامها، وقد نظرت إلى الحُباب بن المنذر بمكة: هذا الذى قطع رجل على بن أمية يوم بدر، قالت: دَعُونا من ذكر من قُتل على الشرك، قد أهان الله علياً بضربه الحُباب بن المنذر، وأكرم الله الحُباب بضربه عليًّا، قد كان على الإسلام حين خرج من هاهنا، فقتل على غير ذلك، وهذا الموقف يدل على قوة إيمانها، ورسوخ يقينها حيث اتضحت لها عقيدة الولاء والبراء، فأصبحت تحب المسلمين وإن كانوا من غير قبيلتها، وتكره الكافرين وإن كانوا من أبنائها[١].

وقولها على ابنها علي: «قد كان على الإسلام حين خرج من ههنا فقُتل على غير ذلك» تعنى أنه كان ممن عرف عنهم الإسلام بمكة وخرجوا مع قومهم يوم بدر مُكرهين، فلما التقى الصفان فُتنوا حينما رأوا قلة المسلمين فقالوا: قد غر هؤلاء دينهم[٢]، فنزل فيهم قول الله تعالى:

﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[٣].

مصرع (عُبيد بن سعيد بن العاص) على يد الزبير

۞ عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال: «لقيت يوم بدر عُبيد بن سعيد بن العاص وهو مدجج[٤] لا يُرى منه إلا عيناه، وهو يُكنَّى أبا ذات الكرش،

(١) انظر: التاريخ الإسلامى للحميدى (٤/ ١٥٤).

(٢) انظر: تفسير الطبرى (١٠/ ٢١).

(٣) سورة الأنفال: الآية: (٤٩).

(٤) مدجج: مُغطًّى ومُحمَّل بالسلاح.

فقال: أنا أبو ذات الكرش، فحملت عليه بالعنزة فطعنته فى عينه فمات».

قال هشام: فأُخبرت أن الزبير قال. «لقد وضعت رجلى عليه ثم تمطأت فكان الجهد أن نزعتها وقد انثنى طرفاها».

قال عروة: فسأله إياها رسول الله ﷺ فأعطاه، فلما قُبض رسول الله ﷺ أخذها، ثم طلبها أبو بكر فأعطاه، فلما قُبض أبو بكر سأله إياها عمر فأعطاه إياها، فلما قُبض عمر أخذها، ثم طلبها عثمان منه فأعطاه إياها، فلما قتل عثمان وقعت عند آل علىٍّ، فطلبها عبد الله بن الزبير، فكانت عنده حتى قُتل»[١].

(هذا الخبر يصور لنا دقة الزبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فى إصابة الهدف، حيث استطاع أن يضع الحربة فى عين ذلك الرجل مع ضيق ذلك المكان، وكونه قد وزع طاقته بين الهجوم والدفاع، فلقد كانت إصابة ذلك الرجل بعيدة جدًا لكونه قد حمى جسمه بالحديد الواقى، لكن الزبير استطاع إصابة إحدى عينيه، فكانت بها نهايته، ولقد كانت الإصابة شديدة العمق مما يدل على قوة الزبير الجسدية، إضافة إلى دقته ومهارته فى إصابة الهدف)[٢].

أئمة الكفر يُقذَفون فى القليب

۞ عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن أبى طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

«أن نبى الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلًا من صناديد قريش، فقُذفوا فى طوى[٣] من أطواء بدر خبيث مخبث، وكان إذا ظهر على قوم أقام

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه فى المغازى باب شهود الملائكة بدرًا حديث رقم (٣٩٩٨).
(٢) انظر: التاريخ الإسلامى للحميدى (٤/ ١٦٣).
(٣) طوى: بئر خربة.

بالعرصة[١] ثلاث ليال، فلما كان ببدر اليوم الثالث: أمر براحلته فشُدت عليها رحلها، ثم مشى واتبعه أصحابه وقالوا: ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته، حتى قام على شفى الركى[٢] فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: «**يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإنَّا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا**».

قال: فقال عمر: يا رسول الله، ما تكلم من أجساد لا أرواح لها.

فقال رسول الله ﷺ: «**والذى نفس محمدٍ بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم**».

قال قتادة: «أحياهم الله حتى أسمعهم قوله، توبيخًا وتصغيرًا ونقيمة وحسرة وندمًا»[٣].

۞ وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أن رسول الله ﷺ ترك قتلى بدر ثلاثًا، ثم أتاهم فقام عليهم فناداهم فقال: «**يا أبا جهل بن هشام! يا أمية بن خلف! يا عتبة بن ربيعة! يا شيبة بن ربيعة! أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟ فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقًّا**» فسمع عمر قول النبى ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يسمعوا وأنَّى يجيبوا وقد جُيفوا[٤] قال: «**والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا**» ثم أمر بهم فسُحبوا فأُلقوا فى قليب بدر»[٥].

---

(١) العرصة: الموضع الواسع الذى لا بناء فيه.

(٢) الركى: البئر.

(٣) أخرجه البخارى (٣٩٧٦) المغازى، ومسلم (٢٨٧٤-٢٨٧٥) الجنة.

(٤) جُيفوا: أنتنوا وصاروا جيفًا.

(٥) أخرجه مسلم فى كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها رقم (٢٨٧٤).

قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قوله، توبيخًا، وتصغيرًا، ونقمة، وحسرة، وندمًا[١].

إن مناداة الرسول ﷺ لقتلى قريش بيَّنت أمرًا عظيمًا، وهو أنهم بدأوا حياة جديدة، هي حياة البرزخ الخاصة، وهم فيها يسمعون كلام الأحياء، غير أنهم لا يجيبون ولا يتكلمون، والإيمان بهذه الحياة من عقائد المسلمين... ونعيم القبر وعذابه ثابتان فى صحيح الأحاديث، حتى إنه ﷺ مر بقبرين وقال: «**إنهما يُعذَّبان وما يُعذَّبان فى كبير**»[٢]، وذكر أن سبب تعذيبهما السعى بالنميمة بين الناس، وعدم الاستنزاه من البول[٣]. ولا بد من التسليم بهذه الحقائق الغيبية، بعد أن تحدث عنها الصادق المصدوق، وقطع بها القرآن الكريم فى تعذيب آل فرعون... قال تعالى: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾[٤].

وأما الشهداء فقد قال الله تعالى فيهم: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[٥].

النبى ﷺ يدعو لأبى حذيفة عتبة بن أبى ربيعة

❁ عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أن رسول الله ﷺ أمر بالقليب ـ إلى أن قالت ـ فلما أمر بهم فسُحبوا عرف فى وجه أبى حذيفة بن عتبة الكراهية، وأبوه يُسحب

---

(١) الأساس فى السنة – السيرة النبوية (١/ ٤٧٩).

(٢) رواه البخارى رقم (٢١٨).

(٣) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوى فى المدينة/ د. محمد فوزى فضل الله، (ص٦٤).

(٤) سورة غافر: الآية: (٤٦).

(٥) سورة آل عمران: الآية: (١٦٩).

إلى القليب فقال له رسول الله ﷺ: «يا أبا حذيفة لكأنه ساءك ما كان في أبيك؟» فقال: والله يا رسول الله ما شككت في الله وفي رسول الله ولكن إن كان حليمًا سديدًا ذا رأي، فكنت أرجو أن لا يموت حتى يهديه الله ﷻ إلى الإسلام، فلما رأيت أن قد فات ذلك ووقع حيث وقع أحزنني ذلك، قال: فدعا له رسول الله بخير(١).

النبي ﷺ يقيم في بدر ثلاثًا

انتهت معركة بدر بانتصار المسلمين على المشركين، وكان قتلى المشركين سبعين رجلًا، وأُسر منهم سبعون، وكان أكثرهم من قادة قريش وزعمائهم، واستشهد من المسلمين أربعة عشر رجلًا، منهم ستة من المهاجرين، وثمانية من الأنصار، ولما تم الفتح وانهزم المشركون أرسل ﷺ عبد الله بن رواحة وزيد بن حارثة ليُبشرا المسلمين في المدينة بنصر الله للمسلمين وهزيمة المشركين(٢). ومكث ﷺ في بدر ثلاثة أيام، فعن أنس رضي الله عنه قال: (إنه ﷺ كان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال...)(٣).

❁ ولعل الحكمة في ذلك:

(١) تصفية الموقف بالقضاء على أية حركة من المقاومة اليائسة التي يحتمل أن يقوم بها فلول المنهزمين الفارين هربًا إلى الجبال.

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٢٢٤) وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وهو ليس كما قالا، لأن فيه أحمد بن عبد الجبار العطاردي فيه ضعف ولم يخرج له مسلم لكن سماعه للسيرة صحيح كما في التقريب، فالحديث حسن والله أعلم.

(٢) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٣٣).

(٣) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص٢٥٠).

(٢) دفن من استُشهد من جند الله مما لا تكاد تخلو منه معركة، فقد دفن شهداء المسلمين فى أرض المعركة، ولم يَرِد ما يشير إلى الصلاة عليهم، ولم يُدفن أحد منهم خارج بدر[١].

(٣) جمع الغنائم وحفظها، وإسناد أمرها إلى من يقوم بهذا الحفظ حتى تُؤدَّى كاملة إلى مستحقيها، وقد أُسندت أنفال وغنائم بدر إلى ابن الحارث عبد الله بن كعب الأنصارى، أحد بنى مازن[٢].

(٤) إعطاء الجيش الظافر فرصة يستروح فيها، بعد الجهد النفسى والبدنى المضنى الذى بذله أفراده فى ميدان المعركة، ويضمد فيها جراح مجروحيه، ويذكر نعم الله عليه فيما أفاء الله عليه من النصر المؤزر الذى لم يكن دانى القطوف، سهل المنال، ويتذاكر أفراده وجماعاته ما كان من أحداث ومفاجآت فى الموقعة، مما كان له أثرٌ فعَّال فى استجلاب النصر، وما كان من فلان فى شجاعته وفدائيته وجرأته على اقتحام المضائق وتفريج الأزمات، وما تكشَّفت عنه المعركة من دروس عملية فى الكَرِّ والفَرِّ، والتدبير المحكم الذى أخذ به العدو، وما فى ذلك من عبر، واستذكار أوامر القيادة العليا وموقفها فى رسم الخطط، ومشاركتها الفعلية فى تنفيذها، ليكون من كل ذلك ضياء يمشون فى نوره فى وقائعهم المستقبلية، ويجعلون منه دعائم لحياتهم فى الجهاد الصبور المظفر بالنصر المبين.

(٥) مواراة جيف قتلى الأعداء الذين انفرجت المعركة عن قتلهم، والتعرف عليهم وعلى مكانتهم فى حشودهم، وعلى من بقى منهم مصروعًا

---

(١) انظر: موسوعة نضرة النعيم (١/ ٢٩١).

(٢) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (٣/ ٤٥٣).

بجراحه لم يدركه الموت، للإجهاز على من ترى قيادة جيش الإسلام المصلحة فى القضاء عليه اتقاء شره فى المستقبل، كالذى كان من أمر الفاسق أبى جهل فرعون هذه الأمة، والذى كان فى شأن رأس الكفر أمية بن خلف وأضرابهما، وقد أمر رسول الله ﷺ بإلقاء هؤلاء الأخباث فى رَكِيٍّ[١] من قُلُب[٢] بدر خبيث مُخْبث، ثم وقف على شفة الركي[٣]، وقد ورد أنه ﷺ وقف على القتلى فقال: «**بئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم، كذبتمونى وصدقنى الناس، وخذلتمونى ونصرنى الناس، وأخرجتمونى وآوانى الناس**»[٤].

القتلى من المشركين... والشهداء من المسلمين

۞ عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «إن الثمانية عشر الذين قُتلوا من أصحاب رسول الله ﷺ يوم بدر جعل الله أرواحهم فى الجنة فى طيرٍ خُضر تسرح فى الجنة، فبينما هم كذلك إذ اطلع عليهم اطلاعة[٥] فقال: يا عبادى ماذا تشتهون؟، فقالوا: يا ربنا هل فوق هذا شىء؟ قال: فيقول: عبادى ماذا تشتهون؟ فيقولون فى الرابعة: تَرُدّ أرواحنا فى أجسادنا فنُقتل كما قُتلنا»[٦].

۞ وعن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: «جعل النبى ﷺ على الرماة يوم أُحد عبد الله بن جبير، فأصابوا منا سبعين، وكان النبى ﷺ وأصحابه أصابوا من

---

(١) ركي: حافة البئر.

(٢) قُلب: أبيار ومفرده بئر.

(٣) انظر: محمد رسول الله/ صادق عرجون (٣/ ٤٥٤).

(٤) زاد المعاد (٣/ ١٨٧)، نقلًا عن غزوات الرسول.

(٥) اطلاعة: نظر إليهم نظرة.

(٦) قال الهيثمى فى المجمع: (٦/ ٩٠)، رواه الطبرانى ورجاله ثقات، وانظر الطبرانى فى الكبير (١٠٤٦٦).

المشركين يوم بدر أربعين ومائة، سبعين أسيرًا وسبعين قتيلًا، قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال»[١].

قتل النضر بن الحارث

وبعد أن أقام رسول الله ﷺ ببدر ثلاثة أيام تحرك بجيشه نحو المدينة ومعه الأُسارى من المشركين، واحتمل معه النفل الذى أصيب من المشركين، وجعل عليه عبد الله بن كعب فلما خرج من مضيق الصفراء نزل على كثيب بين المضيق وبين النازية، وقسم هنالك الغنائم على المسلمين على السواء، بعد أن أخذ منها الخُمس.

وعندما وصل إلى الصفراء أمر بقتل النضر بن الحارث ـ وكان هو حامل لواء المشركين يوم بدر، وكان من أكابر مجرمى قريش، ومن أشد الناس كيدًا للإسلام، وإيذاءً لرسول الله ﷺ ... فضرب عنقه على بن أبى طالب[٢].

۞ لقد كان النضر بن الحارث من شياطين قريش، وممن يؤذى رسول الله ﷺ وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس، وأحاديث رستم وإسفنديار، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلسًا فذكَّر فيه بالله، وحذر قومه ما أصاب قبلهم من الأمم من نقمة الله، خلفه فى مجلسه إذا قام، ثم قال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثًا منه، فهَلُمّ إلىَّ فأنا أُحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وإسفنديار، ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثًا مني؟[٣].

---

(١) أخرجه البخارى (٣٩٨٦) المغازى.

(٢) الرحيق المختوم (ص٢٤١).

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٤٣٩-٤٤٠).

إن هذا الرجل المتعالى على الله والمتألى عليه، والذى يزعم أنه سينزل أحسن مما أنزل الله، والذى يزعم أنه أحسن حديثًا من محمد لا بد لمثل من يمثل هذا التيار وقد أصبح بين يدى رسول رب العالمين، لا بد أن يُثأر لله ولرسوله منه، ومن أجل هذا لم يُدخله رسول الله ﷺ ضمن نطاق الاستشارة[1]، وأمر رسول الله ﷺ بقتله، فقتله على بن أبى طالب رضي الله عنه[2].

قتل عقبة بن أبى معيط (فى طريق العودة إلى المدينة)

هذا الشقى الذى آذى رسول الله ﷺ، وانفرد بما لم يفعله أحد، ووضع رجله على عنق أطهر الخلق رسول الله ﷺ فقُطعت عنقه جزاءً وفاقًا.

۞ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «فادى رسول الله ﷺ أُسارى بدر، وكان فداء كل رجل منهم أربعة آلاف، وقُتل عقبة بن أبى معيط قبل الفداء.

قام إليه على بن أبى طالب فقتله صبرًا، قال: مَن للصبية يا رسول الله؟ قال: «**النار**»[3].

۞ وعن مسروق أنه قال: ـ لابن أبى معيط ـ حدثنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إن رسول الله ﷺ أمر بعنق أبيك أن تُضرب صبرًا، ثم مَرَّ به فقال: مَن للصبية بعدى؟ قال:«**لهم النار**» حسبك ما رضى لك رسول الله ﷺ»[4].

---

(١) انظر: التربية القيادية (٣/ ٥٧).

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٥٥).

(٣) أخرجه الهيثمى فى المجمع (٦/ ٨٩) وقال رواه الطبرانى فى الكبير (١٢١٥٢)، ورجاله رجال الصحيح، وانظر عبد الرزاق فى المصنف (٩٣٩٤).

(٤) أخرجه أبو داود فى سنة الجهاد باب فى قتل الأسير صبرًا رقم (٢٦٨٦)، وقال الهيثمى فى المجمع: (٦/ ٥٩) رواه الطبرانى فى الأوسط ورجاله ثقات. وسند أبى داود حسن.

وقال حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن الشعبى قال: لما أمر النبى ﷺ بقتل عقبة قال: أتقتلنى يا محمد، من بين قريش؟ قال «**نعم، أتدرون ما صنع هذا بى، جاء وأنا ساجد خلف المقام، فوضع رجله على عنقى وغمزها فما رفعها حتى ظننت أن عينىَّ ستندران، وجاء مرة أخرى بسلا شاة، فألقاه على رأسى وأنا ساجد، فجاءت فاطمة فغسلته عن رأسى**».

وذهب عُقبة إلى مزبلة التاريخ، وأُطيح بعنقه جزاء كفره وعناده وحسده للإسلام ورسوله ﷺ.

كان لا بد من الحزم مع مجرمى الحرب ورؤوس الفتنة من أمثال عقبة ابن أبى معيط والنضر بن الحارث، فقد كان من أكبر دعاة الحرب ضد الإسلام، والمتربصين بالمسلمين الدوائر، فبقاؤهما يُعَدُّ مصدر خطرٍ كبير على الإسلام، ولا سيما فى تلك الظروف الحاسمة التى تمر بها الدعوة الإسلامية، فلو أطلق سراحهما لما تورعا على سلوك أى طريق فيه كيد للإسلام وأهله، فقتْلُهما فى هذا الظرف ضرورة تقتضيها المصلحة العامة لدعوة الإسلام الفتية(١)؛ ولذلك أمر رسول الله ﷺ بقتلهما عندما وصل إلى الصفراء(٢)، أثناء رجوعه للمدينة.

وبمقتل هذين المجرمين تعلَّم المسلمون أن بعض الطغاة العتاة المعادين لا مجال للتساهل معهم، فهم زعماء الشر وقادة الضلال، فلا هوادة معهم؛ لأنهم تجاوزوا حد العفو والصفح(٣) بأعمالهم الشنيعة، فقد

---

(١) انظر: غزوة بدر الكبرى/ محمد أحمد باشميل، (ص١٦٢).

(٢) الصفراء: وادٍ كثير النخل والزرع والخير.

(٣) انظر: التربية القيادية (٣/ ٦٠).

كان هذان الرجلان من شر عباد الله وأكثرهم كفرًا وعنادًا وبغيًا وحسدًا وهجاءً للإسلام وأهله[(١)].

بشائر النصر تصل إلى المدينة المنورة

ولما تم الفتح للمسلمين أرسل رسول الله ﷺ بشيرين إلى أهل المدينة، ليحملا لهم البشرى... أرسل عبد الله بن رواحة بشيرًا إلى أهل العالية، وأرسل زيد بن حارثة بشيرًا إلى أهل السافلة.

وكان اليهود والمنافقون قد أرجفوا في المدينة بإشاعة الدعايات الكاذبة، حتى أنهم أشاعوا خبر مقتل النبي ﷺ... ولما رأى أحد المنافقين زيد بن حارثة راكبًا القصواء ـ ناقة رسول الله ﷺ ـ قال: لقد قُتل محمد، وهذه ناقته نعرفها، وهذا زيد لا يدري ما يقول من الرعب، وجاء فلًّا[(٢)].

فلما بلغ الرسولان أحاط بهما المسلمون، وأخذوا يسمعون منهما الخبر حتى تأكد لديهم فتح المسلمين، فعمَّت البهجة والسرور، واهتزت أرجاء المدينة تهليلًا وتكبيرًا، وتقدم رءوس المسلمين ـ الذين كانوا بالمدينة ـ إلى طريق بدر، ليهنئوا رسول الله ﷺ بهذا الفتح المبين.

قال أسامة بن زيد: أتانا الخبر حين سوينا التراب على رقية بنت رسول الله ﷺ التي كانت عند عثمان بن عفان... كان رسول الله ﷺ خلَّفني عليها مع عثمان[(٣)].

۞ عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: «إن النبي ﷺ خلَّف عثمان بن عفان،

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٣٠٦).

(٢) فلًّا: منهزمًا.

(٣) الرحيق المختوم (ص ٢٤٠).

وأسامة بن زيد على بنت رسول الله ﷺ فجاء زيد بن حارثة على العضباء ناقة رسول الله ﷺ بالبشارة، قال أسامة: فسمعت الهيعة[١]، فخرجت فإذا زيد قد جاء بالبشارة،فوالله ما صدقت حتى رأينا الأسارى... وضرب رسول الله ﷺ لعثمان سهمه»[٢].

۞ **وعن عبدالرحمن بن أسعد بن زرارة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **قال:** «قدم بالأسارى حين قدم بهم المدينة، وسودة بنت زمعة زوج النبى ﷺ عند آل عفراء فى مناحتهم على عوف ومعوذ ابنى عفراء، وذلك قبل أن يُضرب الحجاب.

قالت سودة: فوالله إنى لعندهم إذ أتينا فقيل: هؤلاء الأسارى قد أتى بهم فرجعت إلى بيتى ورسول الله ﷺ فيه، فإذا أبو يزيد سهيل بن عمرو فى ناحية الحجرة ويداه مجموعتان إلى عنقه بحبل، فوالله ما ملكت حين رأيت أبا يزيد كذلك أن قلت: «أبا يزيد أعطيتم بأيديكم ألا مِتم كرامًا».

فما انتبهت إلا بقول رسول الله ﷺ من البيت: «**يا سودة... على الله وعلى رسوله؟!!**»، فقلت: يا رسول الله والذى بعثك بالحق ما ملكت حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه بالحبل أن قلت ما قلت»[٣].

ودخل النبى ﷺ المدينة مُؤيَّدًا مُظفرًا منصورًا قد خافه كل عدو له بالمدينة وحولها، فأسلم بشرٌ كثير من أهل المدينة، وحينئذ دخل عبد الله ابن أُبى المنافق وأصحابه فى الإسلام ظاهرًا[٤].

---

(١) الهيعة: الصوت الذى تفزع منه وتخاف.

(٢) أخرجه البيهقى (٩/ ١٧٤)، بسند صحيح، والحاكم فى المستدرك (٣/ ٢١٧، ٢١٨)، وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وسكت عنه الذهبى.

(٣) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٣/ ٢٢)، وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبى، وابن جرير فى التاريخ (٢/ ٤٦٠)، وابن هشام فى السيرة (١/ ٦٤٥)، وسنده صحيح.

(٤) زاد المعاد (٣/ ١٨٨).

۞ وهكذا لم يكن بمكة إلا كفرٌ وإيمان أما في المدينة ـ وبخاصة بعد النصر في غزوة بدر ـ بدأ المنافقون يدخلون في هذا الدين العظيم ليعصموا دماءهم وأموالهم.

قريش تتلقى نبأ الهزيمة

۞ قال ابن إسحاق رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وكان أول من قدم بمكة بمصاب قريش الجسيمان بن عبد الله الخزاعي فقالوا له: ما وراءك؟

قال: قُتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو الحَكم بن هشام، وأمية بن خلف، وزمعة بن الأسود، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وأبو البحترى بن هشام، فلما جعل يعدد أشراف قريش قال صفوان بن أمية: والله إن يعقل هذا فسلوه عليَّ؟

فقالوا: ما فعل صفوان بن أمية؟

قال: هو ذاك جالس في الحِجر، وقد والله رأيت أباه وأخاه حين قُتلا»[١].

تقسيم الغنائم

۞ عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «خرجنا مع النبي ﷺ فشهدت معه بدرًا، فالتقى الناس فهزم الله تبارك وتعالى العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون فأكبَّت[٢] طائفة على المعسكر يحوونه ويجمعونه،

---

(١) إن كان أخرجه ابن إسحاق بسنده الصحيح الوارد في بداية غزوة بدر فالحادثة صحيحة والله أعلم وإلا فالحادثة بلا سند انظر سنده ابن هشام في السيرة (١/ ٦٠٦).

(٢) أكبت: عكفت أو قامت.

وأحدقت[١] طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرة، حتى إذا كان الليل، وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها وجمعناها فليس لأحدٍ فيها نصيب، وقال الذين خرجوا فى طلب العدو: لستم بأحق بها منا.. وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: لستم بأحق بها منا، نحن أحدقنا برسول الله ﷺ وخفنا أن يصيب العدو منه غرة واشتغلنا به فنزلت ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ﴾[٢] فقسمها رسول الله ﷺ على وفاق بين المسلمين»[٣].

لولا كتاب من الله سبق

۞ عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: «لما كان يوم بدر تعجَّل الناس إلى الغنائم فأصابوها فقال رسول الله ﷺ: «**إن الغنيمة لا تحل لأحدٍ سود الرؤوس غيركم**» وكان النبى وأصحابه إذا غنموا غنيمة جمعوها ونزلت نار فأكلتها، فأنزل الله هذه الآية ﴿ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ...﴾[٤] إلى آخر الآيتين[٥].

۞ وعن **مصعب بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه** قال: لما كان يوم بدر جئت بسيف فقلت: يا رسول الله ﷺ إن الله قد شفى صدرى من المشركين أو نحو هذا، هَبْ لى هذا السيف فقال: «**هذا ليس لى ولا لك**»، فقلت:

(١) أحدقت: أحاطت.

(٢) سورة الأنفال: الآية: (١).

(٣) رواه أحمد (٥/ ٣٢٤) والحاكم وصححه ووافقه الذهبى.

(٤) سورة الأنفال: الآية: (٦٨).

(٥) أخرجه الترمذى فى التفسير تفسير سورة الأنفال رقم (٣٠٨٥)، وقال حديث حسن صحيح غريب، وأبوداود الطيالسى فى مسنده (٢/ ١٩)، وابن حبان فى الموارد (١٦٦٨)، والبيهقى (٦/ ٢٩٠) وهو كما قال الترمذى.

عسى أن يعطى هذا من لم يبل بلائى، فجاءنى رسول الله ﷺ فقال: «**إنك سألتنى وليس لى، وإنه قد صار لى وهو لك**» قال: فنزلت ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾ الآية[١].

فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم

۞ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن النبى ﷺ قال: «**من أتى مكان كذا وكذا فله كذا وكذا، أو فعل كذا وكذا فله كذا و كذا**» فتسارع إليه الشبان وبقى الشيوخ عند الرايات فلما فتح الله عليهم، جاءوا يطلبون ما جعل لهم النبى ﷺ فقال لهم الأشياخ: لا تذهبوا به دوننا فأنزل الله تعالى ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾[٢].

۞ لقد خلَّد الله سبحانه وتعالى ذكرى غزوة بدر فى سورة الأنفال، وجاءت مفصلة عن أحداثها وأسبابها ونتائجها، وتعرضت الآيات الكريمة لعلاج النفس البشرية وتربيتها على معانى الإيمان العميق والتكوين الدقيق، فبدأت السورة بتبيان حكم أثر من آثار القتال وهو الغنائم، فبيَّنت أن هذه الغنائم لله وللرسول، فالله هو مالك كل شيء، ورسوله هو خليفته، ثم أمر الله المؤمنين ثلاثة أوامر: بالتقوى، وإصلاح ذات البين، والطاعة لله والرسول ﷺ، وهى أوامر مهمة جدًّا فى موضوع الجهاد، فالجهاد إذا لم ينشأ عن تقوى فليس جهادًا، والجهاد يحتاج إلى وحدة صف، ومن ثم فلا بد من إصلاح ذات البين، والانضباط هو الأساس فى الجهاد، إذ لا جهاد بلا انضباط، ثم بيَّن الله ﷻ أن الطاعة لله ولرسوله ﷺ علامة الإيمان.

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٤٨) الجهاد والسير.

(٢) رواه أبو داود والحاكم وصححه ووافقه الذهبى.

ثم حدد الله ﷻ صفات المؤمنين الحقيقيين، وهذا الوصف والتحديد مُهمان في موضوع الجهاد الإسلامي؛ لأن الإيمان الحقيقى هو الذى يقوم به الجهاد الإسلامى، لقد حدد الله ﷻ صفات المؤمنين: بأنهم إذا ذُكر الله فزعت قلوبهم وخافت وفرقت. وإذا قُرئ عليهم القرآن ازداد إيمانهم ونما.

والصفة الثالثة: هى التوكل على الله، فلا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف فى الخلق وحده لا شريك له، ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب.

والصفة الرابعة: إقامة الصلاة والمحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها، ومن ذلك إسباغ الطهور فيها، وتمام ركوعها وسجودها، وتلاوة القرآن فيها، والتشهد والصلاة على النبى ﷺ.

والصفة الخامسة: الإنفاق مما رزقهم الله، وذلك يشمل إخراج الزكاة وسائر الحقوق للعباد من واجب ومستحق، والخلق كلهم عباد الله، فأحبهم إليه أنفعهم لخلقه، ثم بيَّن الله ﷻ أن المتصفين بهذه الصفات هم المؤمنون حق الإيمان، وأن لهم عند الله منازل ومقامات ودرجات فى الجنات، وأن الله يغفر لهم السيئات، ويشكر الحسنات، وبهذا تنتهى مقدمة السورة بعد أن رفعت الهمم لكل لوازم الجهاد، ونفتْ كل عوامل الخذلان، من اختلاف على غنائم، أو خلاف بسبب شيء، داعية إلى الطاعة، والارتفاع إلى منازل الإيمان الكامل[1] ... قال تعالى:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ

---

(١) انظر: الأساس فى التفسير (٤/ ٢١١٣، ٢١١٤).

بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[1].

۞ يقول الأستاذ محمد الأمين المصري: لم تذكر الآيات شيئًا من أعمال المؤمنين فى بدر، ولكن ذكرت عتابًا أليمًا موجعًا يحمل المؤمنين على الرجوع إلى أنفسهم والاستحياء من ربهم، وهناك نقاط أرسلت الآيات النقاط عليها وبيّنت نواحى الضعف فيها بيانًا جليًا قويًا، بتصوير ما فى النفوس وصفًا دقيقًا رائعًا تشاهد العين فيه الحركات والخلجات، وكل ذلك من شأنه أن ينبه ضمير المؤمن ليلمس المسافة بينه وبين درجات الإيمان التى يهفو قلبه للوصول إليها. ولقد كانت الآيات من تربية الحكيم العليم...ويشعر الذوق السليم هاهنا روعة الأسلوب فى عرض العتاب بغير عتاب، ولكنه تصوير ما فى النفوس تصويرًا يوقن معه العادى من الناس، أنه ما كان لمؤمن صحيح الإيمان أن يتصف بها؛ ولذلك اقترنت الآيات بتقديم خصائص الإيمان العالية وميزاته الرفيعة التى تصور الفجوة البعيدة بين المؤمن وبين أى إسفاف: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[2].

---

(١) سورة الأنفال: الآيات: (١-٤).

(٢) سورة الأنفال: الآيات: (٢-٤).

ما ذكرت الآيات عتابًا، ولكنها ذكرت واقعًا وكان ذكر الواقع أبلغ من كل عتاب.

لقد استجاب الصحابة الكرام لهذا التوجيه الرباني ونزلت الآيات تبين لرسول الله ﷺ كيف يتصرف فى الأنفال.

بعد أن أصبحت الغنائم لله ورسوله بيَّن المولى ﷻ كيف توزع هذه الغنائم، قال تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾[1].

وهذا بعد ما طهرت قلوبهم من الأخلاط، وأخلصت إلى علام الغيوب فى الطاعة، وتمثلت الآيات، فتحققت بمعنى العبودية الخالصة لله، وهذا الحكم صريح فى أن أربعة أخماس ما غنموه مقسوم بينهم، والخُمس لله ورسوله، وهذا الخُمس نفسه مردود فيهم أيضا، وموزع على الجهات المذكورة كما ثبت بالسنة.

إن التوجيه التربوى، فى إرجاء إنزال جواب السؤال عن الغنائم، يشير إلى أن الأحكام الشرعية ينبغى أن يُهيأ لها الجو النفسى الروحى المناسب، لتحتل مكانها اللائق فى العقل والضمير، فتثبت وتتمكن، وتؤتى أطيب النتائج، إذ يتجلى فيها أكمل الحلول، وهكذا صرف المولى -جل شأنه- عباده المسلمين عن التعلُّق بالغير، أولًا، وبالغنائم ثانيًا، ليكونوا له من المخلصين الجديرين بنصره، وإتمام نعمته، فلما تفرغوا للخالق وأخلصوا فى الجهاد، أكرمهم بالنصر من لَدُنه، وأسبغ عليهم من فضله بأكثر مما كانوا

(١) سورة الأنفال: الآية: (٤١).

يودون[١] ... فعن عبد الله بن عمرو قال: (خرج رسول الله ﷺ يوم بدر فى ثلاثمائة وخمسة عشر رجلًا من أصحابه فلما انتهى إليها قال: «**اللهم إنهم جياع فأشبعهم، اللهم إنهم حُفاة فاحملهم، اللهم إنهم عُراة فاكسهم**» ففتح الله له يوم بدر، فانقلبوا حين انقلبوا وما منهم رجل إلا وقد رجع بحمل أو حملين، واكتسوا وشبعوا)[٢].

ومن عدل النبى ﷺ فى تقسيم الغنائم إعطاؤه من هذه الغنيمة مَن تخلف بأمر رسول الله لمهام أوكلها إليهم، فضرب لهم بسهمهم من الغنيمة وبأجرهم فكانوا كمن حضرها[٣]. فكان ﷺ يراعى ظروف الجنود التى تمنعهم من المشاركة فى القتال، لأن الله تعالى لم يكلف عباده شيئًا فوق طاقتهم،... قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[٤].

ولذلك كان رسول الله ﷺ لا يكلف المسلمين فوق طاقتهم سواء كان ذلك فى السلم أو الحرب،... وفى غزوة بدر أعفى النبى ﷺ بعض الصحابة؛ لأن ظروفهم الأسرية تتطلب منهم القيام عليها ورعايتها، فقد أعفى عثمان بن عفان رضي الله عنه من الخروج يوم بدر؛ لأن زوجته رقية كانت مريضة وبحاجة إلى من يرعى شؤونها،... روى البخارى فى صحيحه أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أخبر عن سبب تغيب عثمان رضي الله عنه فى غزوة بدر فقال رضي الله عنه: (... وأما تغيبه عن بدر، فإنه كانت تحته بنت رسول الله ﷺ وكانت مريضة، فقال له رسول الله ﷺ: «**إن لك أجر رجل ممن شهد بدرًا وسهمه...**»[٥].

---

(١) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوى فى المدينة، (ص٦١، ٦٢).

(٢) رواه أبو داود (٥/ ٥٢٥)، وحسنه الألبانى فى صحيح أبى داود (٢٧٤٧).

(٣) انظر: معين السيرة، (ص٢١٤).

(٤) سورة البقرة: الآية: (٢٨٦).

(٥) البخارى، كتاب الفضائل، باب مناقب عثمان (٤/ ٢٤٥) رقم (٣٦٩٩).

وأمر ﷺ أبا أمامة بالبقاء عند أمه حيث كانت مريضة وهى بحاجة إليه، فعن أبى أمامة بن ثعلبة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخبرهم بالخروج إلى بدر وأجمع الخروج معه، فقال له خاله أبو بُردة بن نيار: أقم على أمك، يا ابن أختى. فقال له أبو أمامة: بل أنت فأقم على أختك، فذكرا ذلك للنبى ﷺ فأمر أبا أمامة بالمقام على أمه وخرج بأبى بردة، فقدم النبى ﷺ وقد توفيت فصلى عليها[١]... إن هذه الأخلاق الرفيعة ومراعاة شعور الجنود وأحوالهم العائلية تولد قوة ترابط بين القيادة والجنود، وتدخل تحت مفهوم فقه التمكين، وقد مارسه الرسول ﷺ فى أعلى صوره.

۞ ومن الصحابة الذين كانت لهم مهمات خاصة أو أصيبوا أثناء الطريق فردَّهم الرسول ﷺ:

(١) أبو لبابة: استخلفه على المدينة.

(٢) عاصم بن عدي: أرسله ﷺ فى مهمة لأهل العالية فى المدينة.

(٣) الحارث بن حاطب: أرسله ﷺ فى مهمة إلى بنى عمرو بن عوف.

(٤) الحارث بن الصمة: وقع أثناء الطريق فكُسر فَرُدَّ.

(٥) خوَّات بن جبير: أصابه فى الطريق حجر فى ساقه فردَّه من الصفراء[٢].

وكذلك أعطى لورثة الشهداء وذويهم نصيبهم من الغنائم؛ وبذلك كان للإسلام السبق فى تكريم الشهداء ورعاية أبنائهم وأُسرهم من قرابة أربعة عشر قرنًا[٣].

---

(١) انظر: الطبرانى فى الكبير ورجاله ثقات، انظر: مجمع الزوائد (٣/ ٣١).

(٢) انظر: معين السيرة، (ص٢١٥).

(٣) انظر: السيرة النبوية لأبى شهبة (٢/ ١٧٦).

ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يُثخن في الأرض

۞ عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: استشار رسول الله ﷺ في الأُسارى أبا بكر فقال: قومك وعشيرتك فخلِّ سبيلهم، فاستشار عمر فقال: اقتلهم، قال: ففداهم رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ﴾[1] قال: فلقى النبي ﷺ عمر قال: كاد أن يصيبنا بلاء في خلافك[2].

۞ وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه... الذى رواه عنه ابن عباس رضي الله عنهما قال: «فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين قال أبو زميل: قال ابن عباس: فلما أسروا الأسارى قال رسول الله ﷺ: «**يا أبا بكر وعليّ وعمر ما ترون فى هؤلاء الأسارى؟**».

فقال أبو بكر: يا نبى الله ! هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية، فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام.

فقال رسول الله: ما ترى يا ابن الخطاب؟

قال: لا والله يا رسول الله ما أرى الذى رأى أبو بكر، ولكنى أرى أن تُمكنّا فنضرب أعناقهم، فتُمكن عليًّا من عقيل فيضرب عنقه، وتُمكنِّى من فلان (نسيبًا لعمر) فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها.

فهوى[3] رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهوَ ما قلت. فلما كان من

---

(١) سورة الأنفال: الآيات: (٦٧-٦٩).

(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٣٢٩)، وقال الحاكم حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقال الذهبى قلت: على شرط مسلم.

(٣) هوى: رغب.

الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدان يبكيان. قلت: يا رسول الله أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاءً بكيت، وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما.

فقال رسول الله ﷺ: «**أبكي للذي عرض عليَّ أصحابك من أخذهم الفداء لقد عُرض عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة**» - شجرة قريبة من النبي ﷺ - وأنزل الله ﷻ ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ﴾[١] فأحلَّ الله الغنيمة لهم[٢].

حُكم الأسرى

إن حكم الأسرى في الإسلام مُفوض إلى رأي الإمام ليختار حكمًا من أربعة، وعلى الإمام أن يراعي مصلحة المسلمين العامة.

❁ والأحكام الأربعة هي:

(١) القتل: وقد قتل رسول الله ﷺ عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث.

(٢) المَنُّ: وهو إطلاق الأسير بدون مقابل، وهذا ما فعله رسول الله ﷺ مع أبي عزة الجُمحي.

(٣) الفداء: إطلاق سراح الأسير مقابل مبلغ من المال، وهذا ما حدث مع العباس عم النبي ﷺ، ونوفل بن الحارث، وعقيل بن أبي طالب وغيرهم.

---

(١) سورة الأنفال: الآيات: (٦٧-٦٩).

(٢) أخرجه مسلم (١٧٦٣) كتاب الجهاد والسير.

(٤) الاسترقاق: وقد حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه في يهود بني قريظة أن يُقتل المحاربون وتُقسم الأموال وتُسبى الذرارى والنساء[1].

فداء الأسرى

۞ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «فادى رسول الله ﷺ أسارى بدر، وكان فداء كل رجل منهم أربعة آلاف»[2].

۞ وعن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال: «كانت قريش ناحت قتلاها ثم ندمت، وقالوا: لا تنوحوا عليهم، فيبلغ ذلك محمدًا وأصحابه فيشمتوا بكم، وكان فى الأسرى أبو وداعة بن صبرة السهمى فقال رسول الله ﷺ: **«إن له بمكة ابنًا تاجرًا كيِّسًا، ذا مال، كأنكم قد جاءكم فى فداء أبيه»** فلما قالت قريش فى الفداء ما قالت: قال المطلب: صدقتم والله لئن صدقتم ليثاربن[3] عليكم، ثم انسلَّ فى الليل، فقدم المدينة ففدى أباه بأربعة آلاف درهم»[4].

رحمة للعالمين

۞ وها هو نهر الرحمة وينبوع الحنان محمد بن عبد الله ﷺ يعلم أن أُناسًا من المشركين لا يملكون ثمن الفداء وإذا به يجعل فداءهم أن يُعلموا أولاد الأنصار الكتابة ليُسهل لهم طريقًا إلى الحرية وليعلموا قدر هذا الدين العظيم وقدر سيد المرسلين ﷺ.

---

(١) انظر: غزوة بدر الكبرى، (ص١٠١).

(٢) مجمع الزوائد (٦/ ٩٠) وقال الهيثمى رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط ورجاله رجال الصحيح.

(٣) ليثاربن: ليرفعن عليكم سعر الفداء، ليزيدنكم فى قيمة الفداء.

(٤) قال الهيثمى فى المجمع (٦/ ٩٠) رواه الطبرانى ورجاله ثقات.

قال ابن عباس: كان ناس من الأُسارى يوم بدر ليس لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يُعلموا أولاد الأنصار الكتابة[١]؛ وبذلك شرع الأسرى يُعلمون غلمان المدينة القراءة والكتابة، وكل من يعلم عشرة من الغلمان يفدى نفسه[٢]... وقبول النبى ﷺ تعليم القراءة والكتابة بدل الفداء فى ذلك الوقت الذى كانوا فيه بأشد الحاجة إلى المال يُرينا سمو الإسلام فى نظرته إلى العلم والمعرفة، وإزالة الأمية، وليس هذا بعجيب من دين كان أول ما نزل من كتابه الكريم: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾[٣]. واستفاضت فيه نصوص القرآن والسُّنة فى الترغيب فى العلم وبيان منزلة العلماء، وبهذا العمل الجليل يُعتبر النبى ﷺ أول من وضع حجر الأساس فى إزالة الأُمية وإشاعة القراءة والكتابة، وأن السبق فى هذا للإسلام[٤].

زينب بنت رسول الله ﷺ تبعث بفداء زوجها (أبى العاص بن الربيع)

عن عائشة، قالت: لما بعث أهل مكة فى فداء أُسرائهم، بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ فى فداء أبى العاص [ابن الربيع] بمالٍ، وبعثت فيه بقلادة كانت خديجة أدخلتها بها على أبى العاص حين بنى عليها، قالت: فلما رآها رسول الله ﷺ رَقَّ لها رقة شديدة، وقال: «**إن رأيتم أن تُطلقوا لها أسيرها، وتَردُّوا عليها مالها، فافعلوا**»؛ فقالوا: نعم يا رسول الله فأطلقوه، ورَدُّوا عليها

(١) صحيح السيرة النبوية (ص ٢٦١).
(٢) انظر: التربية القيادية (٣/ ٧٤).
(٣) سورة العلق: الآيات: (١-٤).
(٤) انظر: السيرة النبوية لأبى شهبة (٢/ ١٦٤، ١٦٥).

الذى كان لها[١].

وكان رسول الله ﷺ قد أخذ عليه: أو وعد رسول الله ﷺ ذلك، أن يُخلِّى سبيل زينب إليه، أو كان فيما شرط عليه فى إطلاقه، ولم يظهر ذلك منه ولا من رسول الله ﷺ فيُعلَم ما هو، إلا أنه لما خرج أبو العاص إلى مكة وخُلِّى سبيله، بعث رسول الله ﷺ زيد ابن حارثة ورجلًا من الأنصار مكانه، فقال: كونا ببطن يأجج حتى تمر بكما زينب، فتصحباها حتى تأتيانى بها»[٢]، فخرجا مكانهما، وذلك بعد بدر بشهر أو شيعة، فلما قدم أبو العاص مكة أمرها باللحوق بأبيها فخرجت تجهز.

فبقيت عند أبيها إلى ما بعد الحديبية فأُسر أبو العاص مرة أخرى ففرَّ إلى المدينة واستجار بزوجته زينب - وكان الإسلام قد فرق بينه وبينها - فأجارته، فأقر المسلمون إجارتها له، ورجع إلى مكة ومعه ماله، فأدى الأمانات إلى أصحابها، ثم عاد إلى المدينة مسلمًا فردَّها النبى ﷺ إليه بعقدٍ ومهر جديدين على الصحيح.

إن أبا العاص بن الربيع زوج زينب بنت الرسول ﷺ لم يُعرَف عنه قط موقف فى مقاومة الدعوة بأى لون من ألوانها، وقد كفَّ يده ولسانه عن أصحاب رسول الله ﷺ، وشغله ماله وتجارته وحياؤه من رسول الله ﷺ عن مواقف الشراسة القرشية فى مقاومة الدعوة إلى الله، وفى بدر كان أبو العاص صهر رسول الله ﷺ من بين الأسرى الذين لم يُسمع لهم فى المعركة

(١) أخرجه أبو داود فى كتاب «الجهاد» باب «فى فداء الأسير بالمال» (٣/ ح٢٦٩٢)، وأحمد فى «مسنده» (٦/ ٢٧٦)، والبيهقى فى «السنن الكبرى» (٦/ ٣٢٢)، وإسناده حسن. والحاكم فى مستدركه (٤/ ٤٥)، وقال: صحيح ووافقه الذهبى.

(٢) رواه أبو داود (٣/ ح٢٦٩٢)، والحاكم (٣/ ٢٣٦) وصححه ووافقه الذهبى.

صوت، ولم يُعرَف لهم رأى، ولا شوهدت لهم فى قتال جولة، وبعد أن بدأت قريش تفدى أسراها، أرسلت السيدة زينب بنت رسول الله ﷺ وزوجة أبى العاص بمالٍ تفديه به، ومع المال قلادة كانت أمها السيدة خديجة رضي الله عنها أهدتها إليها فأدخلتها بها على زوجها للتحلى بها، فلما رأى رسول الله ﷺ قلادة ابنته رقَّ لها رقة شديدة، إذ كانت هذه القلادة الكريمة مبعث ذكريات أبوية عنده ﷺ، وذكريات زوجية، وذكريات أُسرية، وذكريات عاطفية، فالنبى ﷺ أب، له من عواطف الأبوة أرفع منازلها فى سجل المكارم الإنسانية وأشرفها فى فضائل الحياة، فتواثبت إلى خبايا نفسه الكريمة المكرمة أسمى مشاعر الرحمة، وتزاحمت على فؤاده الأطهر عواطف الحنان والحنين، فتوجه إلى أصحابه رضي الله عنهم متلطفًا يطلب إليهم فى رجاء الأعز الأكرم، رجاء يدفعهم إلى العطاء ولا يسلهم حقهم فى الفداء لو أنهم أرادوا الاحتفاظ بهذا الحق وهو فى أيديهم يملكون التصرف فيه، فقال لهم: «**إن رأيتم أن تُطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها الذى لها فافعلوا**».

وهذا أسلوب من أبلغ وألطف ما يسرى فى حنايا النفوس الكريمة، فيطوعها إلى الاستجابة الراغبة الراضية رضاء يَنُم عن الغبطة والبهجة[1].

إن هذا الموقف وما يظهر منه من مظاهر الرحمة والعطف منه ﷺ على ابنته، يحمل فى طياته مقصدًا آخر وهو أنه كان يتألف صهره للإسلام بذلك، لما عرف عنه من العقل السديد، والرأى الرشيد، فقد كان ﷺ يثنى عليه وهو على شركه بحسن المعاملة[2].

---

(١) انظر: محمد رسول الله/ عرجون (٣/ ٤٨٠ - ٤٨٧).

(٢) انظر: التاريخ الإسلامى للحميدى (٤/ ١٨٣) نقلًا عن (غزوات الرسول).

قصة فداء العباس (عم النبى ﷺ)

۞ لم يقاتل العباس رضي الله عنه فى غزوة بدر فإنه خرج مُستكرهًا ونهى النبى ﷺ عن قتله.. ثم وقع العباس فى الأسر... فعن أبى اليسر أنه قال: نظرت إلى العباس يوم بدر، وهو واقف كأنه صنم، وعيناه تذرفان.

فقلت: جزاك الله من ذى رحم شرًّا! أتقاتل ابن أخيك مع عدوه؟

قال: ما فعل، أقُتِل؟ قلت: الله أعَزُّ له وأنصر من ذلك. قال: ما تريد إلىَّ؟ قلت: الأَسر؛ فإن رسول الله ﷺ نهى عن قتلك. قال: ليست بأول صلته... فأسرته، ثم جئت به إلى رسول الله ﷺ (١).

وعن البراء أو غيره، قال: جاء رجل من الأنصار بالعباس، قد أسره، فقال: ليس هذا أسرنى، فقال النبى ﷺ: «لقد آزرك الله بملَكٍ كريم»(٢).

۞ وفى رواية: أنه بعثتْ قريش إلى رسول الله ﷺ فى فداء أسراهم، ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا، وقال العباس: يا رسول الله قد كنت مسلمًا، فقال رسول الله ﷺ: **«الله أعلم بإسلامك، فإن يكن كما تقول فإن الله يجزيك، وأما ظاهرك قد كان علينا، فافتدِ نفسك وابنى أخيك نوفل بن الحارث ابن عبد المطلب وعقيل بن أبى طالب بن عبد المطلب، وحليفك عتبة بن عمرو أخى بنى الحارث بن فهر»** قال: ما ذاك عندى يا رسول الله، قال: **«فأين المال الذى دفنته أنت وأم الفضل؟ فقلت لها: إن أُصبت فى سفرى هذا، فهذا المال الذى دفنته لبنى الفضل وعبد الله وقثم»** قال: والله يا رسول الله إنى لأعلم أنك رسول الله، إن هذا الشيء ما علمه أحد غيرى وغير أم الفضل،

(١) أخرجه ابن سعد (٤/ ١٢).

(٢) أخرجه ابن سعد (٤/ ١٢) ورجاله ثقات.

فاحسب لى يا رسول الله ما أصبتم منى عشرين أوقية من مال كان معى. فقال رسول الله ﷺ: «**ذاك شيء أعطانا الله تعالى منك**» ففدى نفسه وابنى أخويه وحليفه، فأنزل الله ﷻ فيه:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[١].

قال العباس: فأعطانى الله مكان العشرين أوقية فى الإسلام عشرين عبدًا كلهم فى يده مال يضرب به مع ما أرجو من مغفرة الله ﷻ[٢].

هذا ... والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فهذه الآية الكريمة، وإن كانت نزلت فى العباس، إلا أنها عامة فى جميع الأسرى[٣].

۞ استأذن بعض الأنصار رسول الله ﷺ فقالوا: ائذن لنا فلنترك لابن أختنا العباس فداءه، قال: «**والله لا تذرون منه درهمًا**»[٤] أى: لا تتركوا للعباس من الفداء شيئًا، ويظهر أدب الأنصار مع رسول الله ﷺ فى قولهم لرسول الله: ابن أختنا[٥]، لتكون المنة عليهم فى إطلاقه بخلاف لو قالوا: (عمك) لكانت المنة عليه ﷺ، وهذا من قوة الذكاء وحسن الأدب فى الخطاب، وإنما امتنع النبى ﷺ عن إجابتهم لئلا يكون فى الدين نوع محاباة[٦].

---

(١) سورة الأنفال: الآيتان: (٧٠-٧١).

(٢) انظر: البخارى فى المغازى، باب ١٢، حديث رقم (٤٠١٨).

(٣) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ١٣٢).

(٤) فتح الباري (٧/ ٣٢١) نقلا عن المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٣٥).

(٥) لأن جدة العباس أم عبد المطلب من بنى النجار من يثرب.

(٦) انظر: سبل الرشاد للصالحى (٤/ ١٣٥).

وهنا يتعلم الأسرى والمسلمون أيضا درسًا بليغًا فى عدم محاباة ذوى القربى، بل كان الأمر على خلاف ذلك، فقد أغلا رسول الله الفداء على عمه العباس(١).

ورجع العباس لمكة، وقد دفع فداءه وابْنَى أخويه، وأخفى إسلامه، وأصبح يقود جهاز استخبارات الدولة الإسلامية بمكة بمهارة فائقة، وقدرة نادرة حتى انتهى دوره فى فتح مكة، فأعلن إسلامه قبلها بساعات(٢).

سهيل بن عمرو.. ووقوعه فى الأَسر

۞ قال عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (قُدم بالأسارى حين قُدم بهم المدينة، وسودة بنت زمعة زوج النبى ﷺ عند آل عفراء فى مناحتهم على عوف ومعوذ ابنى عفراء، وذلك قبل أن يُضرب الحجاب، قالت سودة: فوالله إنى لعندهم إذ أتينا فقيل: هؤلاء الأسارى قد أتى بهم، فرجعت إلى بيتى ورسول الله ﷺ فيه، فإذا أبو يزيد سهيل بن عمرو فى ناحية الحجرة ويداه مجموعتان إلى عنقه بحبل، فوالله ما ملكت حين رأيت أبا يزيد كذلك أن قلت: أبا يزيد أعطيتم بأيديكم ألا مِتُّم كرامًا.. فما انتبهت إلا بقول رسول الله ﷺ من البيت: «**يا سودة أعلى الله ورسوله تُحرضين؟**» فقلت: يا رسول الله، والذى بعثك بالحق ما ملكت نفسى حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه بالحبل أن قلت ما قلت)(٣).

وفد مكرز بن حفص بن الأخيَفْ فى فداء سهيل بن عمرو، فلما فاوض

(١) انظر: السيرة النبوية لأبى شهبة (٢/ ١٧٦).

(٢) انظر: التربية القيادية (٣/ ٦٨).

(٣) انظر: السيرة النبوية، لمحمد الصويانى (٢/ ٢٠٠) وسنده صحيح.

المسلمين وانتهى إلى رضائهم قالوا: هات الذى لنا، قال لهم مكرز بن حفص: اجعلوا رجلى مكان رجله، وخَلُّوا سبيله حتى يبعث إليكم بفدائه، فخَلُّوا سبيل سُهيل وحبسوا مكرزًا عندهم، وجاء فى حديث مرسل أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال لرسول الله ﷺ: دعنى أنزع ثنية سهيل بن عمر، يدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيبًا فى موطن آخر؟ فقال رسول الله ﷺ: «**لا أُمثل به فيمثل الله بى وإن كنت نبيًّا**»[١] ثم قال رسول الله ﷺ: «**إنه عسى أن يقوم مقامًا لا تذمه**»[٢].

قال ابن كثير: وهذا هو المقام الذى قامه سهيل بمكة حين مات رسول الله ﷺ وارتدَّ العرب، ونَجَم النفاق بالمدينة وغيرها، فقام بمكة فخطب فى الناس وثبَّتهم على الدين الحنيف[٣]، فقد قال فى ذلك: يا معشر قريش، لا تكونوا آخر الناس إسلامًا وأولهم ردة.. مَن رابنا ضربنا عنقه[٤].

فقد أبى رسول الله ﷺ أن ينزع ثنية سهيل، ورأى أن ذلك من باب التمثيل وتشويه خلقة الإنسان، وقال لعمر: «**لا أمثل به فيمثل الله بى، وإن كنت نبيًّا**» وهذا نموذج من منهج رسالته ﷺ وضعه ليكون نبراسًا لأمته فى انتصاراتها على أعدائها[٥].

أبو عزة (عمرو بن عبد الله الجمحي) بين الرحمة والحزم

كان محتاجًا ذا بنات قال: يا رسول الله، لقد عرفت ما لى من مال، وإنى

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٣١١) وقال ابن كثير: مرسل بل معضل.

(٢) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٣١١).

(٣) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٣١١).

(٤) انظر: التاريخ الإسلامى للحميدى (٤/ ١٨١).

(٥) انظر: محمد رسول الله/ عرجون (٣/ ٤٧٤).

لذو حاجة، وذو عيال فامنن عليَّ، فمنَّ عليه رسول الله ﷺ وأخذ عليه ألا يظاهر عليه أحدًا فقال أبو عزة يمدح رسول الله ﷺ على ذلك:

مَنْ مبلغ عنى الرسول محمدًا بأنك حق والمليك حميدُ
وأنت امرؤ بُوِّئت فينا مباءة[1] لها درجات سهلة وصعودُ
فإنك مَن حاربته لمحارَبٌ شقى ومَن سالَمته لسعيدُ
ولكن إذا ذكرت بدرًا وأهله تأوَّبُ ما بى، حسرة وقعودُ

قال ابن كثير: ثم إن أبا عزة هذا نقض ما كان عاهد الرسول عليه، ولعب المشركون بعقله فرجع إليهم، فلما كان يوم أُحد أسر أيضًا، فسأل من النبى ﷺ أن يَمُنَّ عليه أيضًا فقال النبى ﷺ: «**لا أدعك تمسح عارضيك، وتقول: خدعت محمدًا مرتين**»، ثم أمر به فضُربت عنقه[2].

فكان النبى ﷺ به رحيمًا وعفا عنه، وأطلق سراحه بدون فداء لما ذكر أبو عزة فقره وما لديه من بنات يعولهن، ولكنه لم يفِ لرسول الله ﷺ بما عاهده من لزوم السلم وعدم إثارة الحرب ضده، فوقع أسيرًا فى معركة أُحد، فكان موقف النبى ﷺ منه الحزم فأمر بضرب عنقه[3].

حفظ رسول الله ﷺ لجوار المطعم بن عدي

۞ **قال رسول الله ﷺ فى أُسارى بدر: «لو كان مُطعم بن عدى حيًا ثم كلمنى فى هؤلاء النَّتنى لأطلقتهم له»[4].**

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص٢٦١).
(٢) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٣١٣).
(٣) غزوات الرسول (ص ٦٩).
(٤) أبو داود فى الجهاد، باب المن على الأسير، رقم (٢٦٨٩) وإسناده صحيح.

وهذا الحديث تعبير عن الوفاء والاعتراف بالجميل، فقد كان للمطعم مواقف تُذكر بخير، فهو الذى دخل الرسول ﷺ فى جواره حينما عاد من الطائف، كما كان من أشد القائمين على نقض الصحيفة يوم حُصِرَ المسلمون وبنو هاشم[١].

وهذا يدل على قمة الوفاء لمواقف الرجال، ولو كانوا مشركين[٢].

عدد من حضر بدراً

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

وجملة مَن حضر بدرًا من المسلمين ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا، من المهاجرين ستة وثمانون، ومن الأوس أحدٌ وستون، ومن الخزرج مائة وسبعون، وإنما قَلّ عدد الأوس عن الخزرج، وإن كانوا أشد منهم، وأقوى شوكةً، وأصبر عند اللقاء، لأن منازلهم كانت فى عوالى المدينة، وجاء النفير بغتة، وقال النبى ﷺ: «**لا يتبعنا إلا مَن كان ظهره حاضرًا**»، فاستأذنه رجالٌ ظُهورُهم فى عُلو المدينة أن يستأنىَ بهم حتى يذهبُوا إلى ظهورهم، فأبَى[٣] ولم يكن عزمهم على اللقاء، ولا أعدّوا له عُدته، ولا تأهبوا له أهبته، ولكن جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد.

واستشهد من المسلمين يومئذ أربعةَ عشرَ رجلًا: ستةٌ من المهاجرين، وستة من الخزرج، واثنان من الأوس، وفرغ رسول الله ﷺ من شأن بدر

---

(١) انظر: معين السيرة، (ص٢٠٨).

(٢) انظر: التربية القيادية (٣/ ٥٤).

(٣) أخرجه مسلم (١٠٩١) فى الإمارة: باب ثبوت الجنة للشهيد، وأحمد (٣/ ١٣٦) من حديث أنس بن مالك.

والأسارى فى شوال[١].

فضل من شهد بدرًا من المسلمين

۞ عن معاذ بن رفاعة بن رافع الزرقى عن أبيه - وكان أبوه من أهل بدر - قال: جاء جبريل إلى النبى ﷺ فقال: ما تَعُدُّون أهل بدر فيكم؟ قال: «من أفضل المسلمين - أو كلمة نحوها» قال: وكذلك مَن شهد بدرًا من الملائكة[٢].

۞ وفى قصة حاطب بن أبى بلتعة عندما قال عمر لرسول الله ﷺ: إنه قد خان الله والمؤمنين فدعنى فلأضرب عُنُقه فقال: «أليس من أهل بدر؟» فقال: «لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة - أو فقد غفرت لكم» فدمعت عينا عمر وقال: الله ورسوله أعلم[٣].

وعن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ﷻ اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[٤].

۞ وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لن يدخل النار رجل شهد بدرًا أو الحديبية»[٥].

يا له من عيد

وفى السنة الثانية من الهجرة فُرض صيام رمضان، وفُرضت زكاة الفطر،

---

(١) انظر أخبار غزوة بدر فى ابن هشام (١/ ٦٠٦، ٧١٥، ٢/ ٤٣)، وابن سعد (٢/ ١١).

(٢) أخرجه البخارى (٣٩٩٢).

(٣) أخرجه البخارى (٣٩٨٣)، ومسلم (٣٤٩٤).

(٤) رواه أحمد (٢/ ٢٩٥)، وأبو داود (٤٦٥٤)، وإسناده حسن.

(٥) أخرجه مسلم (٢٤٩٦) فضائل الصحابة، والترمذى (٣٨٦٤) المناقب.

وبُيِّنت أنصبة الزكاة الأخرى، وكانت فريضة زكاة الفطر وتفصيل أنصبة الزكاة الأخرى؛ تخفيفًا لكثير من الأوزار التى يعانيها عدد كبير من المهاجرين اللاجئين، الذين كانوا فقراء لا يستطيعون ضربًا فى الأرض.

ومن أحسن المواقع وأروع الصدفات أن أول عيد تَعيَّد به المسلمون فى حياتهم هو العيد الذى وقع فى شوال سنة ٢هـ إثر الفتح المبين الذى حصلوا عليه فى غزوة بدر، فما أروع هذا العيد السعيد الذى جاء به الله بعد أن توَّج هامتهم بتاج الفتح والعز، وما أروق منظر تلك الصلاة التى صلوها بعد أن خرجوا من بيوتهم يرفعون أصواتهم بالتكبير والتوحيد والتحميد، وقد فاضت قلوبهم رغبة إلى الله، وحنينًا إلى رحمته ورضوانه بعد أن أولاهم من النعم، وأيَّدهم به من النصر، وذكَّرهم بذلك؛ قائلًا: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(١)(٢).

النبى ﷺ يُصدق أُسيد بن الحُضير

عندما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة قادمًا من بدر لقى بالروحاء رؤوس الناس يهنئونه بما فتح الله عليه، فقال أُسيد بن الحُضير: يا رسول الله، الحمد لله الذى أظفرك وأقرَّ عينك، والله يا رسول الله ما كان تخلُّفى عن بدر وأنا أظن أنك تَلقى عدوًا، ولكن ظننت أنها عير، ولو ظننت أنه عدو ما تخلفت، فقال رسول الله ﷺ: «**صدقت**»(٣).

---

(١) سورة الأنفال: الآية: (٢٦).

(٢) الرحيق المختوم (ص ٢٤٧).

(٣) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٣٠٥).

نتائج غزوة بدر

(١) كان من نتائج غزوة بدر أن قويت شوكة المسلمين، وأصبحوا مرهوبين فى المدينة وما جاورها، وأصبح على من يريد أن يغزو المدينة أو ينال من المسلمين أن يفكر ويفكر قبل أن يقدم على فعلته، وتعززت مكانة الرسول ﷺ فى المدينة، وارتفع نجم الإسلام فيها، ولم يعد المتشككون بالدعوة الجديدة والمشركون فى المدينة يتجرؤون على إظهار كفرهم وعداوتهم للإسلام؛ لذا ظهر النفاق والمكر والخداع، فأعلن فريق منهم إسلامهم ظاهرً أمام النبى ﷺ وأصحابه، فدخلوا فى عداد المسلمين، وبقوا على الكفر باطنًا، فظلوا فى عداد الكفار، فلا هم مسلمون مخلصون فى إسلامهم، ولا هم كافرون ظاهرون بكفرهم وعداوتهم للمسلمين.

قال تعالى: ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾[1]، ومن أجل هذا الموقف المتذبذب شنَّع الله عليهم، وسمَّع بهم فى كثير من آياته، وتوعدهم بأشد أنواع العذاب، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾[2].

ومن نتائج موقعة بدر ازدياد ثقة المسلمين بالله سبحانه وتعالى وبرسوله الكريم ﷺ واشتداد ساعدهم وقوتهم، ودخول عدد كبير من مشركى قريش فى الإسلام، وقد ساعد ذلك على رفع معنويات المسلمين المستضعفين الذين كانوا لا يزالون فى مكة، فاغتبطت نفوسهم بنصر الله، واطمأنت قلوبهم إلى أن يوم الفرج قريب فازدادوا إيمانًا على إيمانهم وثباتًا على عقيدتهم.

---

(١) سورة النساء: الآية: (١٤٣).

(٢) سورة النساء: الآية: (١٤٥).

وإلى جانب ذلك، فقد كسب المسلمون مهارة عسكرية، وأساليب جديدة فى الحرب، وشهرة واسعة فى داخل الجزيرة العربية وخارجها، إذ أصبحوا قوة يُحسَب لها حسابها فى بلاد العرب، فلا تهدد زعامة قريش وحدها، بل زعامة جميع القبائل العربية المنتشرة فى مختلف الأصقاع والأماكن، كما أصبح للدولة الجديدة مصدر للدخل من غنائم الجهاد؛ وبذلك انتعش حال المسلمين المادى والاقتصادى بما أفاء الله عليهم من غنائم بعد بؤس وفقر شديدين داما تسعة عشر شهرًا[1].

(٢) أما قريش فكانت خسارتها فادحة فإضافة إلى مقتل أبى جهل بن هشام وأمية بن خلف وعتبة بن ربيعة وغيرهم من زعماء الكفر الذين كانوا من أشد القرشيين شجاعة وقوة وبأسًا، ولم تكن غزوة بدر خسارة حربية لقريش فحسب، بل خسارة معنوية أيضًا، ذلك أن المدينة لم تعد تهدد تجارتها فقط، بل أصبحت تهدد أيضًا سيادتها ونفوذها فى الحجاز كله[2]، كان خبر الهزيمة على أهل مكة كالصاعقة، ولم يصدقوا ذلك فى بداية الأمر.

(٣) أما اليهود فقد هالهم أن ينتصر المسلمون فى بدر، وأن تقوى شوكتهم فيها، وأن يعز الإسلام ويظهر على دينهم ويكون لرسوله دونهم الحظوة والمكانة، فصمموا على نقض العهد الذى عاهدوا عليه النبى ﷺ عندما قدم المدينة، وأظهروا عداوتهم التى كانت كامنة فى نفوسهم، وأخذوا يجاهرون بها القوم ويعلنون، ثم راحوا يكيدون للإسلام ولرسوله، ويعملون للقضاء عليه بكل الوسائل المتاحة لديهم[3]، وبدءوا يتحرشون

(١) انظر: التاريخ السياسى والعسكرى/ د. على معطى، (ص٢٧٤، ٢٧٥).
(٢) انظر التاريخ السياسى والعسكرى، (ص٣٧٥، ٣٧٦).
(٣) انظر: التاريخ السياسى العسكرى، (ص٢٧٤).

بالنبى ﷺ والمسلمين، وما كان النبى ﷺ ليخفى عليه شيء من ذلك فقد كان يراقبهم عن حذر ويقظة، حتى استخفُّوا بالمقررات الخلقية، والحرمات التى يعتز بها المسلمون واستعلنوا بالعداوة فلم يكن بُد من حربهم وإجلائهم عن المدينة [١].

۞ الفوائد والآثار الإيمانية:

(١) استجاب الله ﷻ فى هذه الغزوة المباركة دعوة النبى ﷺ على مشركى قريش، كما فى حديث ابن مسعود فى إلقاء المشركين سلى الجزور على ظهر النبى ﷺ وهو يصلى عند البيت، فقال ﷺ: «**اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ**». ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ سَمَّى: «**اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأَبِى جَهْلٍ، وَعَلَيْكَ بِعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَالوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ، وَأُمَيَّةَ ابْنِ خَلَفٍ، وَعُقْبَةَ ابْنِ أَبِى مُعَيْطٍ**» [٢].

فقُتل هؤلاء الستة يوم بدر وأقرَّ الله ﷻ عين نبيه بهلاكهم وتحقق قوله ﷻ: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ [٣].

أما أبو لهب فقد كان بمكة ولم يخرج إلى بدر، وفُجع بهلاك رؤوس الكفر ثم أهلكه الله ﷻ بعد ذلك بقليل وجعله عبرة للمعتبرين.

(٢) قال السهيلى فى الروض:

كيف جعل أبو بكر يأمر رسول الله ﷺ بالكف عن الاجتهاد فى الدعاء ويقوى رجاءه ويثبته، ومقام رسول الله ﷺ هو المقام الأحمد ويقينه فوق يقين كل أحد، فسمعت شيخنا الحافظ رحمه الله يقول فى هذا: كان رسول الله ﷺ فى مقام الخوف وكان صاحبه فى مقام الرجاء، وكلا المقامين سواء فى

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبى شهبة (٢/ ١٧١).

(٢) أخرجه البخارى (١/ ٤١٦) الوضوء، ومسلم (١٢/ ١٥١، ١٥٢) الجهاد والسير.

(٣) سورة الحجر: الآية: (٩٥).

الفضل، لا يريد أن النبى ﷺ والصدِّيق سواء، ولكن الرجاء والخوف مقامان لابد للإيمان منهما، فأبو بكر كان فى تلك الساعة فى مقام الرجاء لله والنبى – عليه الصلاة والسلام – كان فى مقام الخوف من الله، لأن لله أن يفعل ما شاء، فخاف ألا يُعبد الله فى الأرض بعدها وخوفه ذلك عبادة...

وأما قاسم بن ثابت فذهب فى معنى الحديث إلى غير هذا، وقال: إنما قال ذلك الصدِّيق مأوية للنبى ﷺ ورقة عليه، لما رأى من نَصَبِه فى الدعاء والتضرع حتى سقط الرداء عن منكبيه فقال له: بعض هذا يا رسول الله، أى: لِمَ تُتعب نفسك هذا التعب والله قد وعدك بالنصر، وكان رقيق القلب شديد الإشفاق على النبى ﷺ[1].

(٣) قال الأستاذ سيد قطب رَحِمَهُ اللهُ فى التقديم لسورة الأنفال ما مُلخصه:

فى هذه الغزوة التى أجملنا عرضها بقدر المستطاع نزلت سورة الأنفال، نزلت تعرض وقائع الغزوة الظاهرة، وتعرض وراءها فعل القدرة المدبرة، وتكشف عن قدر الله وتدبيره فى وقائع الغزوة، وفيما وراءها من خط سير التاريخ البشرى كله، وتحدث عن هذا كله بلغة القرآن الفريدة وبأسلوب القرآن المعجز. لقد بدأت السورة بتسجيل سؤالهم عن الأنفال، وبيان حكم الله فيها، وردَّها إلى الله والرسول، ودعوتهم إلى تقوى الله وإصلاح ذات بينهم. ثم جعل يذكرهم بأمرهم وتدبيرهم لأنفسهم، وتدبير الله لهم، ومدى ما يرونه من واقع الأرض، ومدى قدرة الله من ورائه ومن ورائهم:

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ

(١) الروض الأنف هامش (٣/ ٤٧). مع سيرة ابن هشام.

يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾[1].

ثم ذكَّرهم بما أمدهم به من العون، وما يسره لهم من النصر، وما قدره لهم بفضله من الأجر: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ﴾[2]، وهكذا يمضى سياق السورة فى هذا المجال يسجل أن المعركة بجملتها من صنع الله وتدبيره وبقيادته وتوجيهه، بعونه ومدده بفعله وقدره له وفى سبيله... ومن ثم تجريد للمقاتلين ابتداءً من الأنفال وتقرير أنها لله وللرسول، حتى إذا ردها الله عليهم كان ذلك منًّا منه وفضلًا، وكذلك يجردهم من كل مطمع فيها ومن كل مغنم ليكون جهادهم فى سبيله خالصًا له وحده فترد أمثال هذه النصوص: ﴿فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾[3]، ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾[4][5].

---

(١) سورة الأنفال: الآيات: (٥-٨).

(٢) سورة الأنفال: الآية: (٩).

(٣) سورة الأنفال: الآية: (١٧).

(٤) سورة الأنفال: الآية: (٢٦).

(٥) باختصار من ظلال القرآن (٣/ ١٤٦٣، ١٤٦٤).

روى مسلم فى سبب نزول: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ﴾ عن مصعب بن سعد عن أبيه قال: نزلت فىَّ أربع آيات، أصبت سيفًا فأتى به النبى ﷺ فقال: يا رسول الله نَفِّلنيه فقال: «ضعه» ثم قام فقال له النبى ﷺ «ضعه من حيث أخذته» ثم قام فقال: نفلنيه يا رسول الله فقال: «ضعه» فقام فقال: يا رسول الله نفلنيه أأجعل كمن لا غناء له؟ فقال له النبى ﷺ «ضعه من حيث أخذته»، قال: فنزلت هذه الآية: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾ (١٢/ ٥٤) صحيح مسلم.

(٤) قال الأستاذ محمود شيت خطاب، تحت عنوان: «دروس من بدر» ما مُلخصه:

استفاد الطرفان من دوريات الاستطلاع في الحصول على المعلومات ليحولوا دون مباغتتهم، وكان حصول الطرفين على المعلومات عن القوات ومواقفها على الأرض جيدًا مفيدًا.

وقد ظهرت لنا فائدة استنطاق الأسرى الذى أجراه الرسول ﷺ مع غلامى قريش قبل المعركة فى معرفة عدد قوات قريش، كما كان استنتاج أبى سفيان بن حرب من فحصه رَوَث ركائب المسلمين اللذين استطلعا موقع «بدر» ومعرفة هويتهما رائعًا حقًّا.

۞ **القيادة:** برزت مزايا الرسول ﷺ فى القيادة بمعركة بدر بالشجاعة وضبط الأعصاب، وعقد المؤتمرات الحربية قبل وأثناء وبعد المعركة ومساواة أصحابه مع نفسه بكل شىء، كما طبق الرسول القائد – عليه أفضل الصلاة والسلام – لأول مرة شروط انتخاب المقر الملائم للمعركة وأمن حراسته.

۞ **الضبط والمعنويات والعقيدة:**

ظهر بوضوح أثر الضبط المتين، والمعنويات العالية، والعقيدة الراسخة فى انتصار المسلمين على قريش وستبقى هذه المزايا حيوية لكل انتصار فى كل حرب[١].

(٥) لا شك أن غزوة بدر الكبرى كانت قبل ظهور النفاق بالمدينة المنورة فقد دخل المنافقون الإسلام بعد هذه الغزوة المباركة التى ظهرت فيها قوة

(١) الرسول القائد (١٢١، ١٢٢) دار الفكر.

المسلمين، وارتفع شأنهم، وذاع صيتهم، وأصيب أعداؤهم بالهيبة منهم فقد نصرهم الله ﷻ مع قلة عددهم وعُددهم، وتمنن عليهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾[1].

وكان هؤلاء الثلة المباركة هم أعمدة الدين وأفضل المسلمين بعد الأنبياء والمرسلين وورد فى فضلهم الآثار.

عن على رضي الله عنه قال: «أَنَا أَوَّلُ مَنْ يَجْثُو بَيْنَ يَدَيِ الرَّحْمَنِ لِلْخُصُومَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»... وقال قيس بن عباد: وفيهم أُنزلت: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾[2] قال: «هم الذين تبارزوا يوم بدر، حمزة وعلى وعبيدة أو أبو عبيدة ابن الحارث، وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة»[3].

وقال ﷺ: «مَا يُدْرِيكَ، لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»[4].

وقال غلام لحاطب للنبى ﷺ: لَيُدْخلَنَّ حَاطِب النَّار. قال: «كَذَبْتَ إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا وَالْحُدَيْبِيَةَ»[5][6].

---

(١) سورة آل عمران: الآية: (١٢٣).

(٢) سورة الحج: الآية: (١٩).

(٣) رواه البخارى (٨/ ٢٩٧، ٢٩٨) التفسير.

(٤) رواه البخارى (٣٠٨١) الجهاد والسير، ومسلم (٢٤٩٤) فضائل الصحابة.

(٥) رواه مسلم (١٦/ ٥٧) فضائل الصحابة، والترمذى (١٣/ ٢٤٥) المناقب.

(٦) وقفات تربوية مع السيرة النبوية - د/ أحمد فريد (ص ١٩٨-٢٠٣).

الأحداث التى أعقبت غزوة بدر وسبقت غزوة أُحد.. وهي:

- غزوة بن سُليم بالكدر.
- غزو السويق.
- غزوة ذى أمر.
- غزوة بُحران.
- سرية زيد بن حارثة إلى (القَرَد).
- غزوة بنى قينقاع.
- قتل كعب بن الأشرف اليهودى.

في أعقاب بدر

شُدِه العرب قاطبة للنصر الحاسم الذى ناله المسلمون فى بدر، بل إن أهل مكة استنكروا الخبر أول ما جاءهم: وحسبوه هزيان مجنون، فلما استبان صدقه صعق نفر منهم فهلك لتوِّه. وماج بعضهم فى بعض من هول المصاب لا يدرى ما يفعل.

وكما استبعد أهل مكة الهزيمة على أنفسهم حتى جوبهوا بعارها. استبعد مشركوا المدينة ويهودها ما قرع أذهانهم من بُشريات الفوز. وذهب بعضهم إلى حد اتهام المسلمين بأن ما يذاع عن نصرهم محض اختلاق. وظلوا يكابرون حتى رأوا الأسرى مُقرنين فى الأصفاد، فسُقط فى أيديهم.

فأما أهل مكة فقد انطووا على أنفسهم يداوون جراحهم ويستعيدون قواهم ويستعدون لنيل ثأرهم. ويعلنون أن يوم الانتقام قريب. ولم تزدهم الهزيمة إلا كرهًا للإسلام. ونقمة على محمد وصحبه. واضطهادًا لمن يدخل فى دينه.

أما فى المدينة حيث المسلمون كثرة مكينة ظاهرة. فقد اتخذت العداوة للإسلام طريق الدَّسِّ والنفاق والمخاتلة. فأسلم فريق من المشركين واليهود ظاهرًا وقلوبهم تغلى حقدًا وكفرًا. وعلى رأس هؤلاء (عبد الله بن أُبى ابن سلول).

أما البدو الضاربون حول المدينة وعلى طريق القوافِل، فهم قومٌ هَمَل، لا يهمهم شيء من قضايا الكفر والإيمان، إنما يهمهم اكتساب القوت من أى وجه، والحصول عليه ولو عن طريق السلب والنهب (١).

(١) فقه السيرة للغزالى (ص ٢٧٥-٢٧٦) بتصرف.

محاولة اغتيال النبي ﷺ.. وإسلام (عُمير بن وهب)

۞ قال عروة بن الزبير: جلس عُمير بن وهب الجمحي مع صفوان بن أمية في الحِجْر، بعد مصاب أهل بدر بيسير، وكان عمير بن وهب شيطانًا من شياطين قريش، وممن كان يؤذي رسول الله ﷺ وأصحابه، ويلقون منه عناء[١] وهو بمكة، وكان ابنه وهب بن عمير في أُسارى بدر، فذكر أصحاب القليب ومصابهم، فقال صفوان: (والله ما في العيش بعدهم خير). قال له عمير: صدقت، أما والله لولا دَيْنٌ عليَّ ليس عندي قضاؤه، وعيال أخشى عليهم الضيعة[٢] بعدي، لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإن لي فيهم علة[٣]، ابني أسير في أيديهم.

قال: فاغتنمها صفوان بن أمية فقال: عليَّ دَينك أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي أواسيهم[٤] ما بقوا، لا يسعني شيء ويعجز عنهم، فقال له عمير: فاكتم عليَّ شأني وشأنك. قال: أفعل.

قال: ثم أمر عمير بسيفه، فشُحذ له[٥] وسُمَّ - أي وضع فيه سم - ثم انطلق حتى قدم المدينة، فبينما عمر بن الخطاب في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر، ويذكرون ما أكرمهم الله به، وما أراهم من عدوهم إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب حين أناخ على باب المسجد متوحشًا السيف،

(١) عناء: التعب.

(٢) الضيعة: الضياع والتشتت.

(٣) العلة: السبب.

(٤) أواسيهم: أقوم على أمرهم ومؤونتهم.

(٥) فشحذ له: أي أَحَدَّ له، تقول شحذت السكين إذا أحددتها.

فقال: هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب، والله ما جاء إلا لشرٍّ، وهو الذى حرَّش[١] بيننا، وحزرنا[٢] للقوم يوم بدر.

ثم دخل عمر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ فقال: يا نبى الله، هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوحشًا سيفه قال: «فأدخله علىَّ» قال: فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه فى عنقه فلبَّبه بها، وقال لرجل ممن كانوا معه من الأنصار: ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده، واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غير مأمون، ثم دخل به على رسول الله ﷺ.

فلما رآه رسول الله ﷺ، وعمر آخذٌ بحمالة سيفه فى عنقه قال: «**أرسله يا عمر، ادنُ يا عُمير**»، فدنا ثم قال: أنعموا صباحًا (وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم) فقال رسول الله ﷺ: «**قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير، بالسلام تحية أهل الجنة**»، فقال: أما والله يا محمد إن كنت بها لحديث عهد، قال: «**فما جاء بك يا عمير؟**» قال: جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم فأحسنوا فيه، قال: «**فما بال السيف فى عنقك؟**» قال: قبَّحها الله من سيوف! وهل أغنت عنا شيئًا! قال: «**اصدقنى، ما الذى جئت له؟**» قال: ما جئت إلا لذلك، قال ﷺ: «**بل قعدت أنت وصفوان بن أمية فى الحِجر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لو لا دَيْنٌ علىَّ وعيالٌ عندى لخرجت حتى أقتل محمدًا، فتحمل لك صفوان [بن أمية] بدَينك وعيالك، على أن تقتلنى له، والله حائلٌ بينك وبين ذلك**». قال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كُنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك

(١) حرش بيننا: أفسد، والتحريش: الإفساد بين الناس وإغراء بعضهم ببعض.

(٢) حزرنا: قدَّر عددنا، تقول هم محزورة ألف، تريد أنهم يُقدرون بألف.

من الوحى، وهذا أمرٌ لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إنى لا أعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذى هدانى للإسلام، وساقنى هذا المساق. ثم شهد شهادة الحق فقال رسول الله ﷺ: «**فَقِّهوا أخاكم فى دينه، وأقرئوه القرآن، وأطلقوا أسيره**»، ففعلوا[1].

۞وقف عمير مع نفسه وقفة صادقة يتذكر كيف استطاع أن يحمل سيفه لقتل النبى ﷺ الذى جعله الله سببًا لخروجه من الظلمات إلى النور.

وتمر تلك الذكريات المؤلمة وهو يتمنى أن يقدِّم شيئًا لدين الله ليمحو تلك الصفحات التى امتلأت بها صحيفته من عداوته للإسلام وأهله.

ثم هو أيضًا جلس يفكر فى عظمة هذا الدين!!!!.

وكيف أنه منذ ساعات جاء يحمل سيفه يريد قتل الحبيب ﷺ وما إن أعلن إسلامه لله (جل وعلا) أصبح أخًا لكل هؤلاء الصَّحب الكرام يحتل مكانًا عظيمًا فى قلوبهم.

أى سماحة تلك التى جاء بها الإسلام؟!.. وأى دين هذا الذى يُحوِّل تلك العداوة فى لحظة واحدة إلى محبة صادقة لا يشوبها شىء من الكذب أو النفاق؟! إنه دين عظيم.... إنه هو الدين الحق وما سواه فهو باطل.

وتحولت تلك الخواطر فجأة إلى واقع عملى... فلقد أحسَّ عمير بأنه لابد أن يقوم وينفض غبار الغفلة ويحمل أمانة هذا الدين ويدعو الدنيا كلها إليه.

قال: يا رسول الله إنى كنت جاهدًا على إطفاء نور الله، شديد **الأذى** لمن كان على دين الله ﷻ وأحب أن تأذن لى، فأقدم مكة، فأدعوهم إلى الله تعالى،

(١) السيرة لابن هشام (٢/ ٢٦٦ - ٢٦٧).

وإلى رسوله ﷺ وإلى الإسلام، لعل الله يهديهم، وإلا آذيتهم فى دينهم كما كنت أوذى أصحابك فى دينهم. قال: فأذن له رسول الله ﷺ فلحق بمكة. وكان صفوان بن أمية - حين خرج عمير بن وهب - يقول: أبشروا بوقعة تأتيكم الآن فى أيام تُنسيكم وقعة بدر، وكان صفوان يسأل عن الرُّكبان، حتى قدم راكبٌ فأخبره عن إسلامه، فحلف ألَّا يكلمه أبدًا ولا ينفعه بنفعٍ أبدًا.

فلما قدم عمير مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام، ويؤذى من خالفه أذًى شديدًا فأسلم على يديه ناسٌ كثير[1].

۞ وفى هذه القصة دروس وعبر منها:

(١) حرص المشركين على التصفية الجسدية للدعاة، فهذا صفوان بن أمية وعمير بن وهب يتفقان على قتل النبى ﷺ، وهذا يرشدنا إلى أن أعداء الدعوة قد لا يكتفون برفض الدعوة، والتشويش عليها، وصد الناس عنها، بل يريدون اغتيال الدُّعاة، وتدبير المؤامرات لقتلهم، وقد يستأجرون المجرمين لتنفيذ هذا الغرض الخسيس[2]. وقد يستغل الأغنياء المترفون من أعداء الدعوة حاجة الفقراء وفقرهم فيوجهونهم لقاء مبلغ من المال إلى خدمة مآربهم، وإن أدى ذلك إلى هلاكهم، فها هو صفوان قد استغل فقر عمير وقلة ذات يده ودَيْنه ليرسله إلى هلاكه[3].

(٢) ظهور الحس الأمنى الرفيع الذى تميز به الصحابة رضي الله عنهم، فقد انتبه

---

(١) قال السيوطى فى الخصائص الكبرى (١/ ٣٤٤): أخرجه الطبرانى وأبو نعيم من طريق أبى عمران الحوفى عن أنس موصولًا بسند صحيح - وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٢٨٦ - ٢٨٧) رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح.

(٢) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٥٩).

(٣) انظر: غزوة بدر الكبرى لأبى فارس، (ص٨٢).

عمر بن الخطاب لمجيء عمير بن وهب وحذَّر منه، وأعلن أنه شيطان ما جاء إلا لشرٍّ، فقد كان تاريخه معروفًا لدى عمر، فقد كان يؤذى المسلمين فى مكة، وهو الذى حرض على قتال المسلمين فى بدر، وعمل على جمع معلومات عن عددهم؛ ولذلك شرع عمر فى أخذ الأسباب لحماية الرسول ﷺ... فمن جهته فقد أمسك بحمالة سيف عمير الذى فى عنقه بشدة فعطله عن إمكانية استخدام سيفه للاعتداء على الرسول ﷺ وأمر نفرًا من الصحابة بحراسة النبى ﷺ.

(٣) الاعتزاز بتعاليم هذا الدين، فقد رفض ﷺ أن يتعامل بتحية الجاهلية، ولم يرد على تحية عمير حين قال له: أنعموا صباحًا، وأخبره بأنه لا يحيى بتحية أهل الجاهلية؛ لأن الله تعالى أكرم المسلمين بتحية أهل الجنة.

(٤) سُمو أخلاق النبى ﷺ فقد أحسن إلى عمير، وتجاوز عنه وعفا عنه مع أنه جاء ليقتله[١]، بل أطلق ولده الأسير بعد أن أسلم عمير وقال لأصحابه: «**فَقِّهوا أخاكم فى دينه، وأقرئوه القرآن وأطلقوا له أسيره**»[٢].

(٥) قوة إيمان عمير، فقد قرر أن يواجه مكة كلها بالإسلام، وقد أذن له رسول الله ﷺ، وفعل، وواجه، وتحدى، وعاد أدراجه إلى المدينة، وأسلم على يديه ناسٌ كثير، وكان حين تعد الرجال يطرحه عمر رضي الله عنه ممن يزن عنده ألف رجل، وكان أحد الأربعة الذين أمد بهم أمير المؤمنين عمر، عمرو بن العاص رضي الله عنهم الذين كان كلُّ واحد منهم بألف[٣].

(١) انظر غزوة بدر الكبرى، (ص٨٣).

(٢) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص٢٦٠).

(٣) انظر: التربية القيادية، (٣/ ٧٣).

غزوة بنى سُليم بالكُدْر

بعد عودة الحبيب محمد ﷺ من غزوة بدر وإجلاء بنى قينقاع من اليهود لغدرهم وخيانتهم بلغه أنَّ بنى سُلَيم قد تجمعوا لحرب رسول الله ﷺ على ماءٍ لهم يقال له: «الكُدْر» فسار إليهم ﷺ بعد أن استخلف على المدينة ابن أم مكتوم رضي الله عنه. وكان لواؤه عليه الصلاة والسلام مع على بن أبى طالب رضي الله عنه فواصل سيره طالبًا جموع بنى سُلَيْم التى تجمّعت لحربه ﷺ حتى بلغ ماءهم «الكُدْر» فلم يجد عنده أحدًا، وإنما وجد نَعَمًا ورعاءً فساق ذلك وعاد به إلى المدينة النبوية، ولم يَلْقَ بالكُدْر كيدًا. والحمد لله(١).

غزوة السويق

۞ لم يغتّر المسلمون بالنصر الذى نالوه فى «بدر» ولم يفتروا عن مراقبة خصومهم والإعداد لهم. وقد علموا علم اليقين أن مكة لن تُثْنَى عن الانتقام لنفسها ولن تستكين للكارثة التى حلَّت بها.

ورأى أبو سفيان - حفظًا لمكانة قومه وإبرازًا لما لديهم من قوة - أن يتعجل عملًا قليل المغارم ظاهر الأثر، فقرر أن يفاجئ المدينة بغرة خاطفة يعود عقيبها وقد رَدَّ لقريش بعض سُمعتها، وألحق بالمسلمين ما يستطيع من خسائر.

ثم إن أبا سفيان كان نَذَر ألا يمسَّ رأسُه ماءً من جنابة حتى يغزو محمدًا ﷺ وينبغى أن يبرَّ فى قسمه.

---

(١) هذا الحبيب يا محب/ الجزائرى (ص:٢٤٨).

فخرج فى مائتى راكب حتى وصل إلى مساكن بنى النضير فى جُنح الليل ـ بأطراف المدينة ـ، ونزل على «سلام بن مشكم» من سادة اليهود. فتعرَّف منه أخبار المسلمين، وتدارسا أجدى الطرق لإيذائهم والإفلات من قراهم.

واهتدى أبو سفيان إلى العمل الذى وفَّى به يمينه، وحقق به غايته؟ فهجم برجاله على ناحية يقال لها «العريض» وحرقوا أسوارًا من نخيل بها ووجدوا رجلًا من الأنصار وحليفًا له فى حرثٍ لهما فقتلوهما. ثم لاذوا بالفرار عائدين إلى مكة..

وشعر المسلمون بما حدث، فانطلقوا وراء أبى سفيان ورجاله يطاردونهم، ويبتغون الإيقاع بهم. وأحسَّ المشركون بالطلب فجدُّوا فى الهرب. والمسلمون يقطعون الصحراء خلفهم راغبين فى اللحاق بهم، فلما أحس أبو سفيان بالخطر، أخذ يتخفف من الأزواد التى يحملها حتى تمكن من النجاة. وعثر المسلمون فى طريق المطاردة هذه المؤن وأكثرها من السويق فسموا هذه المناوشة الطريفة، غزوة السويق![1].

غزوة ذى أَمَر

وهى أكبر حملة عسكرية قادها رسول الله ﷺ قبل معركة أُحد، وقادها فى المحرم سنة ٣ هـ.

وسببها أن استخبارات المدينة نقلت إلى رسول الله ﷺ أن جمعًا كبيرًا

(١) فقه السيرة للغزالى (ص ٢٨٤).

من بنى ثعلبة ومحارب تجمعوا، يريدون الإغارة على أطراف المدينة، فندب رسول الله ﷺ المسلمين، وخرج فى أربعمائة وخمسين مقاتلًا ما بين راكب وراجل، واستخلف على المدينة عثمان ابن عفان.

وفى أثناء الطريق قبضوا على رجل يقال له جبار من بنى ثعلبة، فأُدخل على رسول الله ﷺ فدعاه إلى الإسلام فأسلم، فضمَّه إلى بلال، وصار دليلًا لجيش المسلمين إلى أرض العدو.

وتفرق الأعداء فى رءوس الجبال حين سمعوا بقدوم جيش المدينة.

أما النبى ﷺ فقد وصل بجيشه إلى مكان تجمُّعهم، وهو الماء المُسمَّى «بذى أمر» فأقام هناك صَفرًا كله ـ من سنة ٣ هـ ـ أو قريبًا من ذلك، ليشعر الأعراب بقوة المسلمين ويستولى عليهم الرعب والرهبة، ثم رجع إلى المدينة[١].

غزوة بُحران

وأقام رسول الله ﷺ بالمدينة ربيعًا الأول، ثم خرجَ يُريدُ قريشًا، واستخلف على المدينة ابنَ أُمِّ مكتوم، فبلغ بُحرَانَ - مَعْدِنًا بالحِجَازِ من ناحية الفُرْع - ولم يَلْقَ حَربًا، فأقَام هُنَالك ربيعًا الآخر، وجُمادَى الأولى، ثم انصرف إلى المدينة[٢].

(١) الرحيق المختوم (ص٢٥٦).

(٢) زاد المعاد (٣/ ١٩٠)، وشرح المواهب (١/ ٤٥٦)، وابن سيد الناس (١/ ٢٩٤).

سرية زيد بن حارثة إلى (القَرَد)

لما هُزمت قريش فى بدر وعرفت أنها غير قادرة على حماية قوافلها التجارية عبر طريق قوافلها القديم، والذى كان يمر قريبًا من المدينة إلى مكة غيَّرت طريقها الأول، وصارت تسلك طريق العراق إلى الشام.

قال صفوان بن أُمية لقريش: «إن محمدًا ﷺ وصحبه عوَّروا علينا متجرنا. فما ندرى كيف نصنع بأصحابه وهم لا يبرحون الساحل؟ وأهل الساحل قد وادعوهم، ودخل عامتهم معه، فما ندرى أين نسلك؟. وإن أقمنا فى دارنا هذه أكلنا رؤوس أموالنا فلم يكن لها من بقاء. وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام فى الصيف وإلى الحبشة فى الشتاء» فقال له الأسود بن عبد المطلب: تنكب الطريق على الساحل. وخذ طريق العراق. ودلَّه على فرات بن حيّان من بنى بكر بن وائل ليكون رائدهم فى هذه الرحلة.

وخرجت عير قريش يقودها صفوان بن أُمية، آخذة الطريق الجديدة، إلا أن نعيم بن مسعود، قَدِم المدينة يحمل أنباء هذه القافلة، وخطة سيرها. واجتمع فى مجلس شرب - قبل تحريم الخمر - بسليط بن النعمان فباح له بسرها. فأسرع سليط إلى النبى ﷺ يروى له القصة، فبعث النبى لوقته «زيد بن حارثة» فى مائة راكب يعترضون القافلة.. فلقيها «زيد» عند ماء يقال له «القَرْدة»، فاستولى عليها كلها، وكانت تحمل مقادير كبيرة من الفضة، وفَرَّ المشركون مذعورين. فلم يقع فى الأَسر غير فرات بن حيان.

لما جئ به إلى المدينة دخل فى الإسلام.

ولهذا حزنت مكة لهذه النكبة الجديدة، وزادها ذلك إصرارًا على

المطالبة بثأرها، والتهيؤ للقاء المسلمين فى تعبئة كاملة. فكان ذلك وما سبقه من أحداث التمهيد القوى لمعركة «أُحد» فى السنة الثالثة للهجرة(١).

هؤلاء هم اليهود

لم تُحدِّث المسلمين أنفسهم بنقض عهود اليهود، ولا فكروا فى طردهم من أرض الجزيرة، بل على العكس، توقع المسلمون منهم أن يكونوا عونًا لهم فى حرب الوثنية المخرفة وتدعيم عقيدة التوحيد، ورجا المسلمون أن يُصدِّق اليهود محمدًا ﷺ فيما يثبته لله من تنزيه ومجد، وأن تكون صلتهم بالكتب القديمة وألفتهم لأحاديث المرسلين سببًا فى إقناع العرب الأُميين بأن الرسالات السماوية حق والإيمان بها واجب.

وهذه المشاعر الحسنة تتمشى مع القرآن النازل يومئذ، يؤسسها ويؤكدها... ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾(٢).

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾(٣).

بَيد أن اليهود كانوا عند أسوأ الظن. فلم تمضِ أيام على اختلاطهم بالمسلمين فى المدينة حتى شرعوا يحرجون صدورهم ويعينون عليهم(٤).

---

(١) فقه السيرة للغزالى (ص ٢٨٥)، وانظر السيرة لابن هشام (٣/ ١٠-١١)، وابن سعد فى الطبقات (٢/ ٣٦)، وابن الأثير فى التاريخ (٢/ ١٤٥).

(٢) سورة الرعد: الآية: (٤٣).

(٣) سورة الرعد: الآية: (٣٦).

(٤) فقه السيرة للغزالى (ص ٢٧٧).

غزوة بنى قينقاع

وفى فرحة المسلمين بانتصارهم فى بدر، لم يستحِ أولئك اليهود أن يقولوا لرسول الله عليه الصلاة والسلام: «لا يغرنَّك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة. أما والله لئن حاربناك لتعلمن أنَّا نحن الناس!».

أورد الزهرى أنَّها حصلت فى السنة الثانية من الهجرة، وذكر الواقدى وابن سعد أنَّها وقعت يوم السبت للنصف من شوال من السنة الثانية[١]، واتفق معظم مَن كتب فى مغازى رسول الله ﷺ وسيرته على أنها وقعت بعد معركة بدر، إذ لم يلتزم اليهود بالمعاهدة التى أبرمها الرسول ﷺ معهم، ولم يوفوا بالتزاماتهم التى حددتها، ووقفوا من الرسول ﷺ والمسلمين مواقف عدائية، فأظهروا الغضب والحسد عندما انتصر المسلمون فى بدر، وجاهروا بعداوتهم للمسلمين[٢]. وقد جمعهم النبى ﷺ فى سوقهم بالمدينة ونصحهم، ودعاهم إلى الإسلام، وحذَّرهم أن يصيبهم ما أصاب قريشًا فى بدر[٣]، غير أنهم واجهوا النبى ﷺ بالتحدى والتهديد رغم ما يفترض أن يلتزموا به من الطاعة والمتابعة لبنود المعاهدة التى جعلتهم تحت رئاسته، فقد جابهوه بقولهم: «يا محمد! لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفرًا من قريش كانوا أغمارًا لا يعرفون القتال. إنك لو قاتلتنا لعرفت أنَّا نحن الناس، وأنك لم تلقَ مثلنا»[٤].

وهكذا بدأت الأزمة تتفاعل إذ لم يكن فى جوابهم ما يشير إلى الالتزام

---

(١) الطبرى - تاريخ (٢/ ٤٧٩-٤٨٠)، الواقدى - المغازى (١/ ١٧٦).

(٢) ابن حجر - فتح البارى (٧/ ٢٣٢)، ابن هشام (٣/ ٧١-٧٢).

(٣) ابن هشام- السيرة (٢/ ٢٩٤)، وانظر: ابن حجر - فتح البارى (٧/ ٣٣٢).

(٤) وردت عن طريق ابن إسحاق، انظر: ابن هشام - السيرة (٢/ ٢٩٤)، وهى وإن كان ابن حجر قد حسنها فى الفتح (٧/ ٣٣٢) فإن فى سندها مجهول (التقريب ٢/ ٢٠٥).

والاحترام، بل على العكس فإنهم قد أظهروا روحًا عدائية،و تحديًا واستعلاءً واستعدادًا للقتال، فأنزل الله سبحانه وتعالى فيهم قوله:

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾[١].

واستمر اليهود من بنى قينقاع يُظهرون الروح العدائية ضد المسلمين[٢].

سبب الغزوة

لما انتصر المسلمون فى بدر وقال رسول الله ﷺ لليهود ما قال، أضمرت بنو قينقاع نقض العهد الذى بينهم وبين المسلمين، وأخذوا يتحينون الفرصة السانحة لمناوشة المسلمين، حتى جاءتهم فرصتهم الحقيرة الدنيئة عندما جاءت امرأة من العرب قدمت بجَلَب لها، فباعته بسوق بنى قينقاع، وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتها، فضحكوا بها فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهوديًا، وشدَّت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع[٣].

---

(١) سورة آل عمران: الآيتان: (١٢-١٣).

(٢) نضرة النعيم (١/ ٢٩٦).

(٣) السيرة لابن هشام (٣/ ٥٤).

وهكذا فإنَّ سبب الأزمة كان يكمن فى رفضهم التعايش مع المسلمين، وتحديهم الرسول ﷺ، وتهديدهم أمن المدينة واعتدائهم المباشر على أفراد المجتمع الإسلامى، ورفضهم الانصياع لبنود المعاهدة التى أبرمها الرسول ﷺ معهم.

فحين علم رسول الله ﷺ بذلك سار إليهم على رأس جيش من المهاجرين والأنصار، وذلك يوم السبت للنصف من شوال من السنة الثانية للهجرة[(١)]، وكان الذى حمل لواء المسلمين يومئذ حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، واستخلف ﷺ على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر العمري[(٢)]، واسمه بشير[(٣)]، وحين سار إليهم رسول الله ﷺ نبذ إليهم العهد كما أمره الله تعالى فى قوله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾[(٤)].

أين الرجال

تلك الصرخة التى أطلقتها تلك المرأة سمعتها آذان تسمع وقلوب تنبض فيها الدماء تمتزج مع الغيرة والشهامة، تلك الصرخة تلقَّفها رجال وليسوا أشباه رجال، فكانت أن أصَّلت إغاثة الأعراض فى نفوس المسلمين، فمنذ ذلك التاريخ، والمرأة مصانة عرضها، يُسمع لصرختها إذا استنجدت الملايين من المسلمين، كلٌّ منهم يحسب أن كل امرأة مسلمة هى عِرضه، وإن كانت لا تَمُتّ له بصلة إلا صلة العقيدة، حتى جاء زمن المعتصم، ويسمع عن امرأة

(١) انظر: المغازى للواقدى (١/ ١٧٦)، الطبقات لابن سعد (٢/ ٢٨، ٢٩).

(٢) انظر: تاريخ الطبرى (٢/ ٤٨١).

(٣) انظر: اليهود فى السنة المطهرة (١/ ٢٧٩).

(٤) سورة الأنفال: الآية: (٥٨).

يُعتدى عليها وتُهان كرامتها فتصرخ «وامعتصماه» فتهز قلبه تلك الاستغاثة، وتغلى الدماء فى قلبه، فيعد العدة، ويجهز الجيش ليُسيِّره من أرض الخلافة إلى الأرض التى صرخت منها تلك المرأة ليؤدب العدو، ويرد للمرأة اعتبارها وكرامتها، ثم يرجع منصورًا على عدوه الذى استهان بأعراض المسلمين.

أما الآن فكم من صرخات تتلاشى وتتفتت على جدار الصامتين من الأنظمة، صرخات أخواتنا فى فلسطين كل يوم على أيدى اليهود، وصرخاتهن فى مخيمات لبنان على أيدى الكتائب الباطنيين، وصرخاتهن فى الفلبين وفى بلغاريا... صرخات وصرخات فى كل مكان ولا مجيب، فلقد مات رواد الجيل الأول، ومات جيل المعتصم فلا معتصم، وتظل صيحات النساء المسلمات لا ترى لها صدى ولا ترى غيرة تتحرك أو دمًا يفور(١).

النبى ﷺ يضرب عليهم الحصار

وحين علم اليهود بمقدمه ﷺ تحصنوا فى حصونهم، فحاصرهم النبى ﷺ خمس عشرة ليلة، كما ذكر ابن هشام(٢)، واستمر الحصار حتى قذف الله فى قلوبهم الرعب واضطروا للنزول على حكمه ﷺ فقد فاجأهم ﷺ بأسلوب الحصار، فأربكهم وأوقعهم فى حيرة من أمرهم بعد أن قطع عنهم كل مدد وجمَّد حركتهم، فعاشوا فى سجن مما جعلهم فى النهاية ييأسون من المقاومة والصبر، فبعد أن كانوا يهددون رسول الله ﷺ وبأنهم قوم يختلفون بأسًا وشدةً عن مشركى قريش، إذا بهم يضطرون للنزول على حكم رسول الله ﷺ(٣)، فأمر بهم فرُبطوا فكانوا يُكتفون أكتافًا، واستعمل

(١) مواقف تربوية من السيرة النبوية (٢٤، ٢٥). عبد الحميد جاسم البلالى.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٥٥).

(٣) انظر: الصراع مع اليهود لأبى فارس (١/ ١٤٤).

رسول الله ﷺ على كتافهم المنذر بن قدامة السلمى الأوسي[١].

موقف رأس المنافقين

حاول ابن سَلول زعيم المنافقين أن يحل حلفاءه من وثاقهم، فعندما مَرَّ عليهم قال: حُلُّوهم، فقال المنذر: أتحلون قومًا ربطهم رسول الله ﷺ؟ والله لا يحلهم رجل إلا ضربت عنقه[٢]، فاضطر عبد الله بن أُبى ابن سلول أن يتراجع عن أمره ويلجأ إلى استصدار الأمر من النبى ﷺ بفك أسرهم[٣]. فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد أحسن فى مواليّ - وكانوا حلفاء الخزرج- قال: فأبطأ عليه رسول الله ﷺ، فقال يا محمد: أحسن فى موالى، قال: فأعرض عنه، فأدخل ابن أُبى يده فى جيب درع رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «**أَرْسِلني**»، وغضب رسول الله ﷺ حتى رأوا لوجهه ظللًا[٤]، ثم قال: «**ويحك أرسلني**» قال: لا والله، لا أُرسلك حتى تحسن فى مواليّ ... أربع مائة حاسر، وثلاثة مائة دارع، قد منعونى من الأحمر والأسود، تحصدهم فى غداة واحدة؟ إنى والله امرؤ أخشى الدوائر. فقال رسول الله ﷺ: «**هم لك**»[٥]. فخلى رسول الله ﷺ سبيلهم ثم أمر بإجلائهم، وغنم رسول الله ﷺ والمسلمون ما كان لديهم من مال، وقد تولى جمع أموالهم وإحصاءها محمد بن مسلمة رضي الله عنه[٦]، وحاول ابن أُبى ابن سلول أن

---

(١) انظر: اليهود فى السنة المطهرة (١/ ٢٨٠).

(٢) انظر: التاريخ الإسلامى للحميدى (٥/ ٣٢).

(٣) المصدر نفسه (٥/ ٣٣).

(٤) ظللًا: جمع ظلة وهى السحابة - استعارة لتغير الوجه عند الغضب.

(٥) انظر: اليهود فى السنة المطهرة (١/ ٢٨١).

(٦) انظر: اليهود فى السنة المطهرة (١/ ٢٨١).

يحدث رسول الله ﷺ في يهود بني قينقاع لكي يقرهم في ديارهم، فوجد على باب رسول الله ﷺ عويم بن ساعدة الأنصاري الأوسي، فردَّه عُويم، وقال: لا تدخل حتى يأذن رسول الله ﷺ لك، فدفعه ابن أُبي، فغلظ عليه عويم حتى جحش وجه ابن أُبي الجدار فسال الدم[1].

۞ ويظهر في هذا الخبر فقه النبي ﷺ السياسي في تعامله مع ابن سلول حيث لبَّى طلبه، فلعل هذا الموقف يغسل قلبه، ويزيل الغشاوة عنه فتتم هدايته، فقال له: «هم لك»، ولعل الذين يسيرون وراء زعامة ابن أُبي يَصلحون بصلاحه فيتماسك الصف، ويلتحم فلا يتأثر من كيد أعداء الإسلام[2].

وهناك بُعدٌ آخر حيث حرص ﷺ أن يتفادى حدوث فتنة في مجتمع المؤمنين، حيث إن بعض الأنصار حديثو عهد بالإسلام، ويخشى أن يؤثر فيهم رأس المنافقين عبد الله بن أُبي لسمعته الكبيرة فيهم[3]، ولذلك سلك ﷺ معه أسلوب المداراة والصبر عليه وعلى إساءته تجنُّبًا للفتنة وإظهارًا لحقيقة الرجل من خلال تصرفاته ومواقفه عند من يجهلها، ومن ثَم يفر الناس من حوله ولا يتعاطفون معه، وقد حقق هذا الأسلوب نجاحًا باهرًا، فقد ظهرت حقيقة ابن سلول لجميع الناس حتى أقرب الناس إليه ومنهم ولده عبد الله، فكانوا بعدها إذا تكلم أسكتوه، وتضايقوا من كلامه[4]، بل أرادوا قتله كما سيأتي بإذن الله تعالى.

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٥/ ٣٠).

(٢) انظر: المنهج الحركي للسيرة النبوية للغضبان، (٢٤٧).

(٣) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٥/ ٣٢).

(٤) انظر: الصراع مع اليهود لأبي فارس (١/ ١٤٨).

عبادة بن الصامت يتبرأ منهم

وأعلن عبادة بن الصامت براءته من حلفائه اليهود لمحاربتهم المسلمين، ومظاهرة لله ورسوله، فقال: «يا رسول الله إن لى موالى من يهود كثير عددهم وإنى أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود، وأتولى الله ورسوله».

ولقد أنزل الله سبحانه وتعالى فى موالاة عبد الله بن أُبى ابن سلول لليهود، وبراءة عبادة بن الصامت منهم قرآنًا، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٥١) فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾[١][٢].

۞ وها هى تفاصيل موقف عُبادة بن الصامت رضي الله عنه:

لما نقضت العهد بنو قينقاع وكان عبادة بن الصامت أحد بنى عوف -لهم من حلف بنى قينقاع مثل الذى لهم من عبد الله بن أُبى- مشى لرسول الله ﷺ وخلعهم إليه، وتبرأ إلى الله عز وجل وإلى رسوله ﷺ من حلفهم، وقال: يا رسول الله، أتولى الله ورسوله ﷺ والمؤمنين، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم[٣]. ولما تقرر جلاء بنى قينقاع أمر رسول الله ﷺ عبادة بن الصامت أن يجليهم، فجعلت بنو قينقاع تقول: يا أبا الوليد من بين الأوس

(١) سورة المائدة: الآيتان: (٥١، ٥٢).

(٢) تفسير الطبري (٦/ ٢٧٥)، الدر المنثور للسيوطى (٢/ ٢٩١).

(٣) انظر: اليهود فى السنة المطهرة (١/ ٢٨٢، ٢٨٣).

والخزرج -ونحن مواليك- فعلت هذا بنا؟ قال لهم عبادة: لما حاربتم جئت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله إنى أبرأ إليك منهم ومن حلفهم، وكان ابن أُبى وعبادة بن الصامت منهم بمنزلة واحدة فى الحلف، فقال عبد الله بن أُبى: تبرأت من حلف مواليك؟ ما هذا بيدهم عندك، فذكَّره مواطن قد أبلوا فيها، فقال عبادة: يا أبا الحُباب، تغيرت القلوب، ومحا الإسلام العهود، أما والله إنك لمعصم بأمر سنرى غيَّه غدًا، فقالت بنو قينقاع: يا محمد، إن لنا دَينًا فى الناس، قال النبى ﷺ: «**تعجلوا وضعوا**» وأخذهم عبادة بالرحيل والإجلاء، وطلبوا التنفس. فقال لهم: ولا ساعة من نهار، لكم ثلاث لا أزيد عليها، هذا أمر رسول الله ﷺ، ولو كنت أنا ما نفستكم، فلما مضت ثلاث، خرج فى آثارهم حتى سلكوا إلى الشام وهو يقول: الشرف الأبعد الأقصى فالأقصى، وبلغ خلف الذباب ثم رجع ولحقوا بأذرعات(١).

وهكذا خرج بنو قينقاع من المدينة صاغرين قد ألقوا سلاحهم وتركوا أموالهم غنيمة للمسلمين، وهم كانوا من أشجع يهود المدينة، وأشدهم بأسًا، وأكثرهم عددًا وعدة؛ ولذلك لاذت القبائل اليهودية بالصمت والهدوء فترة من الزمن بعد هذا العقاب الرادع، وسيطر الرعب على قلوبهم وخضدت شوكتها(٢).

---

(١) نفس المصدر (١/ ٢٨٤، ٢٨٥).

(٢) انظر: الصراع مع اليهود لأبى فارس (١/ ١٤٩).

مقتل كعب بن الأشرف

۞ أما عن سبب قتله فقد جاء ذلك في حديث كعب بن مالك رضي الله عنه أنه قال: إن كعب بن الأشرف اليهودي كان شاعرًا وكان يهجو رسول الله ﷺ ويحرض عليه كفار قريش في شِعره، وكان رسول الله ﷺ قدم المدينة وأهلها أخلاط منهم المسلمون الذين تجمعهم دعوة رسول الله ﷺ ومنهم المشركون الذين يعبدون الأوثان، ومنهم اليهود، وهم أهل الحلقة والحصون، وهم حلفاء للحيين الأوس والخزرج، فأراد رسول الله ﷺ حين قدم المدينة استصلاحهم كلهم، وكان الرجل يكون مسلمًا وأبوه مشرك، والرجل يكون مسلمًا وأخوه مشرك.

وكان المشركون واليهود من أهل المدينة حين قدم رسول الله ﷺ يؤذون رسول الله ﷺ وأصحابه أشد الأذى، فأمر الله تعالى رسوله والمسلمين بالصبر على ذلك، والعفو عنهم، ففيهم أنزل الله جل ثناؤه:

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾[١].

وفيهم أنزل الله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾[٢].

---

(١) سورة آل عمران: الآية: (١٨٦).

(٢) سورة البقرة: الآية: (١٠٩).

فلما أبى كعب بن الأشرف أن ينزع عن أذى رسول الله ﷺ وأذى المسلمين، أمر رسول الله ﷺ سعد بن معاذ أن يبعث رهطًا ليقتلوه ، فبعث إليه سعد..[(١)].

النبى ﷺ يودعهم ويدعو لهم

۞ **عن جابر بن عبد الله أنه قال:** قال رسول الله ﷺ: «**مَن لكعب بن الأشرف؟ فإنه قد آذى الله ورسوله**» فقام محمد بن مسلمة فقال: يا رسول الله أتحب أن أقتله؟ قال: «**نعم**» قال: فأذن لى أن أقول شيئًا ـ يعنى: لخداع كعب ابن الأشرف ـ قال (كعب): «**قل**» فأتاه محمد بن مسلمة فقال: إن هذا الرجل قد سألنا صدقة (يقصد النبى ﷺ)، وإنه قد عنَّانا ـ أتعبنا ـ وإنى قد أتيتك أستسلفك ـ أقترض منك ـ قال كعب وأيضًا والله لتملن .. قال (محمد بن مسلمة): إنا قد اتبعناه فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أى شىء يصير شأنه، وقد أردنا أن تُسلفنا وسقًا أو وسقين، فقال: نعم ارهنونى قالوا: أى شىء تريد؟ قال: ارهنونى نساءكم، قالوا: كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب؟ قال: فارهنونى أبناءكم. قالوا: كيف نرهنك أبناءنا فيُسبّ أحدهم، فيقال: رُهن بوسق أو وسقين هذا عار علينا، ولكنا نرهنك اللأمة. (يعنى: السلاح). فوعده أن يأتيه، فجاءه ليلًا ومعه أبو نائلة ـ وهو أخو كعب من الرضاعة ـ فدعاهم إلى الحصن فنزل إليهم فقالت له امرأته: أين تخرج هذه الساعة؟ فقال: إنما هو محمد بن مسلمة وأخى أبو نائلة ـ وفى رواية ـ قالت:

(١) أخرجه أبو داود فى الخراج والإمارة والفىء (٣٠٠٠)، والهيثمى فى المجمع (٦/ ١٩٥ ـ ١٩٦)، وقال رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، فتح البارى (٧/ ٣٣٧)، وعزاه إلى أبى داود والترمذى.

أسمع صوتًا كأنه يقطر منه الدم. قال: إنما هو أخي محمد بن مسلمة ورضيعي أبو نائلة، إن الكريم لو دُعي إلى طعنةٍ بليل لأجاب قال: ويُدخل محمد بن مسلمة معه رجلين، فقال: إذا ما جاء فإني قائل بشَعره فأشمه فإذا رأيتموني استمكنت من رأسه فدونكم فاضربوه.. فنزل إليهم متوحشًا وهو ينفح منه ريح الطيب، فقال: ما رأيت كاليوم ريحًا ـ أي: أطيب ـ فقال: أتأذن لي أن أشم رأسك؟ قال: نعم. فشمه ثم أشم أصحابه ثم قال: أتأذن لي؟ قال: نعم. فلما استمكن منه قال: دونكم ... فقتلوه. ثم أتوا النبي ﷺ فأخبروه(١).

فيا له من موقف يظهر فيه الولاء والبراء جليًّا واضحًا كالشمس في رابعة النهار. فهو يقتل قريبه من أجل أنه آذى الله ورسوله ﷺ.

قال الحافظ في الفتح: قوله: (فائذن لي أن أقول شيئًا، قال: **قل**) كأنه استأذنه أن يفتعل شيئًا يحتال به، ومن ثم بوَّب عليه المصنف «الكذب في الحرب» وقد ظهر من سياق ابن سعد للقصة أنهم استأذنوا أن يشكوا منه ويعيبوا رأيه، ولفظه «فقال له: كان قدوم هذا الرجل علينا من البلاء، حاربتنا العرب، ورمتنا عن قوسٍ واحدة»... وعند ابن إسحاق بإسنادٍ حسن عن ابن عباس «أن النبي ﷺ مشى معهم إلى بقيع الغرقد ثم وجَّههم فقال: **انطلقوا على اسم الله، اللهم أَعِنهم**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠٣٧).

(٢) فتح الباري (٧/ ٣٩٢).

الفوائد والآثار الإيمانية

(١) قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ: قال السهيلي: في قصة كعب بن الأشرف قتل المعاهد إذا سَبَّ الشارع (خلافًا لأبي حنيفة)، قلت: وفيه نظر، وصنيع المصنف في الجهاد يعطي أن كعبًا كان محاربًا، حيث ترجم لهذا الحديث: «الفتك بأهل الحرب»، وترجم له أيضًا: «الكذب في الحرب» وفيه جواز قتل المشرك بغير دعوة إذا كانت الدعوة العامة قد بلغته، وفيه جواز الكلام الذي يحتاج إليه في الحرب، ولو لم يقصد قائله إلى حقيقته، وفيه دلالة على قوة فطنة امرأته المذكورة وصحة حديثها، وبلاغتها في إطلاقها أن الصوت يقطر منه الدم[1].

(٢) قال ابن إسحاق: وقال حسان بن ثابت يذكر قتل كعب بن الأشرف:

لله در عصابة لاقيتهم ... بابن الحقيق وأنت يا ابن الأشرف
يسرون بالبيض الخفاف إليكم ... مرحًا كأسدٍ في عرين مغرف
حتى أتوكم في محل بلادكم ... فسقوكم حتفًا ببيض ذفف
مستنصرين لنصر دين نبيهم ... مستصغرين لكل أمر مجحف[2]

(٣) استدل بعض الشباب الذي يتعجل الصدام المسلح بمثل هذه الحادثة على ما يذهبون إليه!!.. ولا حجة لهم فيها لأن ذلك كان بالمدينة، وللمسلمين دولة وشوكة، أما هم فليس لهم دولة ولا شوكة، ثم كان ذلك إعزازًا للدين وإرهابًا للكافرين وكانت كلها مصالح لا مفسدة معها.

---

(١) فتح الباري (٧/ ٣٩٥).

(٢) الروض الأنف (٣/ ١٤٢).

أما ما يحدث فى فترات الاستضعاف من هذه الحوادث فإنها يعقبها من الشر والفساد واستباحة دماء المسلمين وأعراضهم وأموالهم ما لا يخفى على بصير وبلا مصلحة حقيقية مرجوة وإنما هى مصالح متوهمة.

ومثل هذه الأعمال لا يبيحها الشرع ولا يفتى بجوازها مَن عنده مسكة من علم وخبرة بواقع الدعوة والله المستعان.

(٤) قال بعض العلماء فى قوله: «ولكن نرهنك اللأمة» إنما قالوا ذلك لئلا ينكر مجيئهم بالسلاح، وفيه إلهام الصحابة الرشد فى القول والعمل والله غالب على أمره.

(٥) واستنبط البخارى من قوله: «فَأْذَنْ لِى أَنْ أَقُولَ شَيْئًا»، قال: «**قُلْ**» جواز الكذب فى الحرب، فبوَّب عليه: «الكذب فى الحرب».

قال الحافظ: وقد ظهر من سياق ابن سعد للقصة أنهم استأذنوا أن يشكوا منه ويعيبوا رأيه، ولفظه «فقال له: كان قدوم هذا الرجل علينا من البلاء، حاربتنا العرب، ورمتنا عن قوس واحدة» وعند ابن إسحاق بإسناد حسن عن ابن عباس: أن النبى ﷺ مشى معهم إلى بقيع الغرقد، ثم وجههم فقال: «**انْطَلِقُوا عَلَى اسْمِ اللهِ اللَّهُمَّ أَعِنْهُمْ**»[(١)].

---

(١) فتح البارى (٧/ ٣٩٢)، نقلًا عن (وقفات تربوية مع السيرة النبوية).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

غزوة أُحد

غزوة حمراء الأسد

غزوة أُحد

۞ غزوة أُحد هى الغزوة التى اجتمع فيها النصر والهزيمة، وظهر فيها النفاق بأظهر علاماته وأجلى صفاته..والإيمان وما يفعله فى النفس البشرية من الاستعلاء على الشهوات، والإخلاص لرب الأرض والسموات.

الغزوة التى كانت درسًا عمليًّا للصحب الكرام، وإن كان الثمن غاليًا من القتلى والجرحى، وما أصاب المصطفى ﷺ ...إلا أن الدرس باقٍ على مر العصور، يتعلم منه المسلمون أسباب النصر وأسباب الهزيمة، ثمار التوكل على الله والثقة به، وآثار التطلع إلى الدنيا والرغبة فى أعراضها وشهواتها ... ولقد كانت الدروس القرآنية وإيقاف الصحابة على مواطن الدرس والعظة رقيقة لطيفة تناسب النفوس المكلومة، والأبدان التى أصابها القرح، فبينما قال الله ﷻ لهم بعد غزوة بدر، وهم فى فرحة النصر وعافية الأبدان: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(١).

قال لهم بعد أُحد: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٢).

ثم كيف عزاهم الله ﷻ بهذا العزاء الرقيق فذكَّرهم بعقوبة المكذبين، وأن هذه جولة عارضة، من أجل التربية والتمحيص، ولكن السنة الدائمة أن الله ﷻ يُمكِّن لعباده المؤمنين، وتكون العاقبة للمتقين، والهلاك

(١) سورة الأنفال: الآيتان: (٦٧، ٦٨).

(٢) سورة آل عمران: الآية: (١٥٢).

للمكذبين فقال تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[1].

والحرب دول بين أولياء الله ﷻ وأعدائه، ولكن العاقبة فى النهاية للمتقين، وأهل الحق الله مولاهم وحسيبهم وكفيلهم وعليه إثابتهم، وأعداء الله ﷻ لا مولى لهم، فالشهداء يحتسبهم المؤمنون عند ربهم ويعلمون أن ما لهم عند الله خيرٌ من الدنيا وما فيها وما من مكلوم يُكلَم فى سبيل الله - والله أعلم بمن يُكلَم فى سبيله - إلا أتى يوم القيامة وجُرحه يثعب دمًا اللون لون الدم والريح ريح المسك. قال تعالى: ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾[2][3].

من هنا نبدأ

كانت مكة تحترق غيظًا على المسلمين مما أصابها فى معركة بدر من مأساة الهزيمة وقتل الصناديد والأشراف، وكانت تجيش فيها نزعات الانتقام وأخذ الثأر، حتى إن قريشًا كانوا قد منعوا البكاء على قتلاهم فى بدر، ومنعوا من الاستعجال فى فداء الأُسارى؛ حتى لا يتفطن المسلمون مدى مأساتهم وحزنهم.

وعلى إثر غزوة بدر اتفقت قريش على أن تقوم بحرب شاملة ضد المسلمين، تشفى غيظها، وتروى غلة حقدها، وأخذت فى الاستعداد للخوض فى مثل هذه المعركة.

(١) سورة آل عمران: الآيات: (١٣٧ - ١٣٩).

(٢) سورة آل عمران الآية: (١٤٠).

(٣) وقفات تربوية مع السيرة النبوية (ص ٢١٥-٢١٦) د. أحمد فريد.

وكان عكرمة بن أبى جهل، وصفوان بن أمية، وأبو سفيان بن حرب وعبد الله بن أبى ربيعة أكثر زعماء قريش نشاطًا وتحمُّسًا لخوض المعركة.

وأول ما فعلوه بهذا الصدد أنهم احتجزوا العير التى كان قد نجا بها أبو سفيان والتى كانت سببًا لمعركة بدر، وقالوا للذين كانت فيها أموالهم: يا معشر قريش، إن محمدًا قد وتركم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه؛ لعلنا أن ندرك منه ثأرًا، فأجابوا لذلك، فباعوها، وكانت ألف بعير، والمال خمسين ألف دينارٍ[١].

۞ وقام أبو سفيان يؤلِّب على رسول الله ﷺ.

فاجتمعت قريشٌ لحرب رسولِ الله ﷺ حين فعل ذلك أبو سُفيان بن حَرْب، وأصحابُ العِير بأحابيشها[٢]، ومَنْ أطاعها من قبائل كنانة، وأهل تِهامة. وكان الشاعر أبو عزّة عمرو بن عبد الله الجُمَحىّ قد مَنّ عليه رسول الله ﷺ يوم بدر، وكان فقيرًا ذا عِيال وحاجة، وكان فى الأسارى فقال: يا رسول الله، إنى فقير ذو عِيال وحاجِة قد عرفتَها فامنُن علىَّ صلى الله عليك وسلم فمنَّ عليه رسولُ الله ﷺ. فقال له صَفْوان ابن أُميَّة: يا أبا عَزَّةَ إنك امرؤٌ شاعرٌ، فأعِنَّا بلسانك، فاخرج معنا؛ فقال: إن محمدًا قد منَّ علىَّ فلا أُريد أن أُظاهر عليه؛ قال: بَلى فأعِنَّا بنفسك، فلك الله علىَّ إن رجعتَ أن أُغْنِيكَ، وإن أُصِبْتَ أن أجعل بناتك مع بناتى، يُصِيبهُنَّ ما أصابَهُنَّ من عُسْرٍ ويُسْرٍ[٣].

فخرج أبو عَزَّة فى تِهامة، يدعو بنى كِنانة ويحرضهم على حرب رسول الله

---

(١) الرحيق المختوم (ص: ٢٦٢).

(٢) أحابيشها: أحياء من القارة انضموا إلى بنى ليث فى الحرب التى وقعت بينهم وبين قريش قبل الإسلام.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٠-٢١) بتصرف.

ﷺ.. كما اختاروا شاعرًا آخر يقوم بنفس المهمة وهو مسافع بن عبد مناف الجُمحى فذهب إلى بنى مالك بن كنانة يحرضهم ويدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ، فخرجت قُرَيش بَحدِّها وجَدِّهَا وحَديدها وأحابِيشها، وَمَنْ تابعها من بنى كِنانة، وأهل تهامة وخرجوا معهم بنسائهم لئلا يفروا ويتركوا نساءهم وليكون ذلك أدعى لثباتهم فى القتال.

أسباب الغزوة

كانت أسباب غزوة أحد متعددة منها: الدينى، والاجتماعى، والاقتصادى، والسياسى.

(١) السبب الدينى:

فقد أخبر المولى ﷻ أن المشركين ينفقون أموالهم فى الصد عن سبيل الله، وإقامة العقبات أمام الدعوة الإسلامية، ومنع الناس من الدخول فى الإسلام، والسعى للقضاء على الإسلام والمسلمين ودولتهم الناشئة.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾[١].

قال الطبرى: يصرفون أموالهم وينفقونها، ليمنعوا الناس عن الدخول فى الإسلام[٢].

وقال ابن كثير: أخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن اتباع الحق[٣].

---

(١) سورة الأنفال: الآية: (٣٦).

(٢) انظر: غزوة أحد دراسة دعوية/ محمد بامدحج، (ص٧١).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٤١).

وقال الشوكانى: والمعنى أن غرض هؤلاء الكفار فى إنفاق أموالهم هو الصد عن سبيل الحق بمحاربة رسول الله ﷺ وجمع الجيوش لذلك[١].

من هذا يظهر أن أهم أسباب غزوة أُحد هو السبب الدينى الذى كان من أهداف قريش للصد عن سبيل الله، واتباع طريق الحق، ومنع الناس من الدخول فى الإسلام، ومحاربة الرسول ﷺ والقضاء على الدعوة الإسلامية[٢].

(٢) السبب الاجتماعى:

كان للهزيمة الكبيرة فى بدر، وقتل السادة والأشراف من قريش وقعٌ كبير من الخزى والعار الذى يحل بهم، وجعلهم يشعرون بالمذلة والهزيمة، ولذلك بذلوا قصارى جهدهم فى غسل هذه الذلة والمهانة التى لصقت بهم، ولذلك شرعوا فى جمع المال لحرب رسول الله ﷺ فور عودتهم من بدر،... قال ابن إسحاق: (لما أصيب يوم بدر من كفار قريش أصحاب القليب، ورجع فُلهم إلى مكة، ورجع أبو سفيان بعيرهم فأوقفها بدار الندوة، وكذلك كانوا يصنعون، فلم يُحركها ولا فرَّقها، فطابت أنفس أشرافهم أن يجهزوا منها جيشًا لقتال رسول الله ﷺ، فمشى عبد الله بن ربيعة، وعكرمة بن أبى جهل، والحارث بن هشام، وحويطب بن عبد العزى، وصفوان بن أمية فى رجال ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر، فكلموا أبا سفيان ومن كانت له فى تلك العير تجارة من قريش، فقالوا: إن محمدًا قد وتركم، وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه،

---

(١) انظر: فتح القدير (٣٠٩).

(٢) انظر: غزوة أحد دراسة دعوية، (ص٧١).

لعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منها،... فقال أبو سفيان: أنا أول من أجاب إلى ذلك(١).

ودعا جبير بن مطعم غلامًا له حبشيًّا يقال له: وحشى يقذف بحربة له قذف الحبشة قلَّما يُخطئ لها فقال: اخرج مع الناس فإن أنت قتلت حمزة عم محمد بعمى طعيمة بن عدى، فأنت عتيق(٢).

(٣) السبب الاقتصادى:

كانت حركة السرايا التى تقوم بها الدولة الإسلامية قد أثرت على اقتصاد قريش وفرضت عليهم حصارًا اقتصاديًّا قويًّا، وكان الاقتصاد المكى قائمًا على رحلتى الشتاء والصيف، رحلة الشتاء إلى اليمن وتحمل إليها بضائع الشام ومحاصيلها، ورحلة الصيف إلى الشام تحمل إليها محاصيل اليمن وبضائعها، وقطع أحد جناحى هاتين الرحلتين ضرب للجناح الآخر، لأن تجارتهم إلى الشام قائمة على سلع اليمن، وتجارتهم إلى اليمن قائمة على سلع الشام(٣)،... قال تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ٤﴾(٤).

ويشير إلى هذا قول صفوان بن أمية: (إن محمدًا وأصحابه قد عوزوا علينا متاجرنا، فما ندرى كيف نصنع بأصحابه، وهم لا يبرحون الساحل،

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٦٨).

(٢) المصدر نفسه (٣/ ٧٩).

(٣) انظر: غزوة أحد دراسة دعوية، (ص٧٤).

(٤) سورة قريش: الآيات: (١-٤).

قد وادعهم[١]، ودخل عامتهم معه، فما ندرى أين نسلك، وإن أقمنا نأكل رؤوس أموالنا ونحن فى ديارنا هذه، ما لنا بها بقاء، وإنما نزلناها على التجارة إلى الشام فى الصيف وفى الشتاء إلى الحبشة)[٢].

(٤) السبب السياسى:

فقد أخذت سيادة قريش فى الانهيار بعد غزوة بدر، وتزعزع مركزها بين القبائل بوصفها زعيمة لها، فلا بد من رد الاعتبار والحفاظ على زعامتها مهما كلفها الأمر من جهود ومال وتضحيات.

هذه أهم الأسباب التى جعلت قريش تبادر إلى المواجهة العسكرية ضد الدولة الإسلامية بالمدينة[٣].

جحافل الشرك تتحرك

واستكملت جحافل الشرك عدتها وخرجوا فى ثلاثة آلاف مقاتل ومعهم ثلاثة آلاف بعير ومائتا فرس وكانت القيادة العامة لأبى سفيان بن حرب وجعلوا على ميمنتهم خالد بن الوليد وعلى الميسرة عكرمة بن أبى جهل وأما اللواء فكان إلى بنى عبد الدار وتحرك الجيش المكى نحو المدينة.

استكملت قريش قواها فى يوم السبت لسبعٍ خلون من شوال من السنة الثالثة من الهجرة[٤]، وعبأت جيشها المكوَّن من ثلاثة آلاف مقاتل مصحبين معهم النساء والعبيد، ومن تبعها من القبائل العربية المجاورة،

---

(١) وادعهم: أى صالحهم وسالمهم.

(٢) انظر: المغازى للواقدى (١/ ١٩٥، ١٩٦).

(٣) انظر: غزوة أحد دراسة دعوية، (ص٧٥)، نقلًا عن (غزوات الرسول).

(٤) البداية والنهاية (٤/ ١١) المغازى للواقدى، (١/ ١٩٩).

فخرجت قريش بحدِّها وحديدها وأحابيشها[١] ومن تبعها من كنانة وأهل تهامة. وخرجوا بالظعن[٢]، التماس الحفيظة لئلا يفروا.

فخرج أبو سفيان، وهو قائد الناس بهند بنت عتبة بن ربيعة[٣]، وخرج صفوان بن أمية بن خلف ببرزة بنت مسعود الثقفية، وخرج عكرمة بن أبى جهل بأم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة، وخرج الحارث بن هشام بن المغيرة بفاطمة بنت الوليد بن المغيرة[٤].. فأقبلوا حتى نزلوا ببطن السبخة من قناة، على شفير الوادى مما يلى المدينة[٥].

كانت التعبئة القرشية قد سبقتها حملة إعلامية ضخمة تولى كبرها أبو عزة عمرو بن عبد الله الجمحى، وعمرو بن العاص، وهبيرة المخزومى، وابن الزِّبَعْرَى وقد حققت نتائج كبيرة[٦]، وبلغت النفقات الحربية لجيش قريش خمسين ألف دينار ذهبًا[٧].

العباس يخبر النبى ﷺ بتحركات المشركين

كان العباس بن عبد المطلب يرقب حركات قريش واستعداداتها العسكرية، فلما تحرك هذا الجيش بعث العباس رسالة مستعجلة إلى النبى ﷺ، ضمنها جميع تفاصيل الجيش، وأسرع رسول العباس بإبلاغ

---

(١) الأحابيش: من اجتمع إلى العرب وانضم إليهم.

(٢) الظعن: النساء، واحدتها ظعينة، والظعينة المرأة فى الهودج.

(٣) انظر: الإصابة (٨/ ٣٤٦) رقم (١١٨٦٠).

(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٧٠).

(٥) انظر: غزوة أحد دراسة دعوية، (ص٧٨).

(٦) انظر: غزوة أحد لأبى فارس، (ص١٧).

(٧) المصدر نفسه، (ص١٦).

الرسالة وجدَّ فى السير، حتى إنه قطع الطريق بين مكة والمدينة، التى تبلغ مساحتها خمسمائة كيلومتر، فى ثلاثة أيام وسلم الرسالة إلى النبى ﷺ وهو فى مسجد قباء[١].

كان النبى ﷺ يتابع أخبار قريش بدقة بواسطة عمه العباس.

قال ابن عبد البر: (وكان رضي الله عنه يكتب بأخبار المشركين إلى رسول الله ﷺ، وكان المسلمون يتقوون به بمكة، وكان يحب أن يقدم على رسول الله فكتب إليه رسول الله ﷺ: أن مقامك فى مكة خير)[٢].

كانت المعلومات التى قدمها العباس لرسول الله ﷺ دقيقة فقد جاء فى رسالته: (أن قريشًا قد أجمعت المسير إليك، فما كنت صانعًا إذا حَلُّوا بك فاصنعه، وقد توجهوا إليك وهم ثلاثة آلاف وقادوا مائتى فرس وفيهم سبعمائة دارع وثلاثة آلاف بعير، وأوعبوا[٣] من السلاح)[٤].

۞ فقد احتوت هذه الرسالة على أمور مهمة منها:

(١) معلومات مؤكدة عن تحرك قوات المشركين نحو المدينة.

(٢) حجم الجيش وقدراته القتالية، وهذا يعين على وضع خطة تواجه هذه القوات الزاحفة.

لم يكتفِ النبى ﷺ بمعلومات المخابرات المكية، بل حرص على أن تكون معلوماته عن هذا العدو متجددة مع تلاحق الزمن، وفى هذا إرشاد لقادة المسلمين بأهمية متابعة الأخبار التى يتولد عنها وضع خطط

(١) انظر: الرحيق المختوم للمباركفورى، (ص٢٥٠).

(٢) انظر: الاستيعاب فى معرفة الأصحاب (٢/ ٨١٢).

(٣) أوعبوا: خرجوا بجميع ما عندهم من السلاح.

(٤) انظر: مغازى الواقدى (١/ ٢٠٤).

واستراتيجيات نافعة، ولذلك أرسل ﷺ الحُباب بن المنذر بن الجموح إلى قريش يستطلع الخبر، فدخل بين جيش مكة وحزر عَدَده وعُدَده ورجع، فسأله رسول الله ﷺ: «**ما رأيت؟**» قال: رأيت أى رسول الله عددًا، حزرتهم ثلاثة آلاف يزيدون قليلًا أو ينقصون قليلًا، والخيل مائتى فرس، ورأيت دروعًا ظاهرة حزرتها سبعمائة درع، قال: «**هل رأيت ظعنًا؟**» قال: رأيت النساء معهن الدفاف والأكبار[١]... فقال رسول الله ﷺ: «**أردن أن يحرضن القوم ويذكرونهم قتلى بدر، هكذا جاءنى خبرهم لا تذكر من شأنهم حرفًا، حسبنا الله ونعم الوكيل، اللهم بك أجول وبك أصول**»[٢].

كما أرسل ﷺ أنسًا ومؤنسًا ابنى فضالة يتنصتان أخبار قريش، فألفياها قد قاربت المدينة، وأرسلت خيلها وإبلها ترعى زروع يثرب المحيطة بها، وعادا فأخبراه بخبر القوم[٣].

وبعد أن تأكد من المعلومات حَرِص النبى ﷺ على حصر تلك المعلومات على المستوى القيادى، خوفًا من أن يؤثر هذا الخبر على معنويات المسلمين قبل إعداد العدة، ولذلك حين قرأ أُبى بن كعب رسالة العباس أمره ﷺ بكتمان الأمر، وعاد مسرعًا إلى المدينة، وتبادل الرأى مع قادة المهاجرين والأنصار فى كيفية مواجهة الموقف، وكان ﷺ قد أطلع سيد الأنصار سعد بن الربيع على خبر رسالة العباس فقال: «**والله إنى لأرجو أن يكون خيرًا**»، فاستكتمه إياه، فلما خرج رسول الله ﷺ من عند سعد، قالت له امرأته: ما قال لك رسول الله؟ فقال لها: لا أم لك، أنت وذاك،

(١) الأكبار: جمع كبر: والكبر هو: الطبل الذى له وجه واحد وهو فارسى مُعرَّب.

(٢) انظر: مغازى الواقدى (١/ ٢٠٧، ٢٠٨).

(٣) انظر: السيرة النبوية لأبى شهبة (٢/ ١٨٧).

فقالت: قد سمعت ما قال لك، فأخبرته بما أسرَّ به الرسول ﷺ فاسترجع سعد، وقال: يا رسول الله، إنى خفت أن يفشو الخبر فترى أنى أنا المفشى له وقد استكتمتنى إياه، فقال رسول الله ﷺ: «**خلِّ عنها**»(١).

وفى هذه الحادثة درس بالغ للعسكريين وتحذيرهم من إطلاع زوجاتهم على أسرارهم العسكرية، وخططهم وأوامرهم، وينبغى الحذر من إفشاء مثل هذه الأسرار لأن إفشاءها يهدد الأمة ومستقبلها بكارثة كبرى.

إن تاريخ الأمم والشعوب فى القديم والحديث يحدثنا أن كثيرًا من الهزائم والمآسى والآلام قد حلَّت بكثير من الأمم نتيجة لتسرب أسرار الجيوش إلى أعدائها عن طريق زوجة خائنة، أو خائن فى ثوب صديق، أو قريب فى الظاهر عدو فى الحقيقة والواقع(٢).

النبى ﷺ يستشير أصحابه.. والرؤيا التى رآها

۞ واستشار رسولُ الله ﷺ أصحابَه أيخرج إليهم، أم يمكُث فى المدينة؟ وكان رأيه ألا يخرجُوا من المدينة، وأن يتحصَّنُوا بها، فإن دخلوها، قاتلهم المسلمون على أفواه الأزقة، والنِّساء مِن فوق البيوت، ووافقه على هذا الرأى عبدُ الله بن أُبى، وكان هو الرأى، فبادر جماعةٌ مِن فُضلاء الصحابة ممن فاته الخروجُ يوم بدر، وأشار عليه بالخروج، وألَحُّوا عليه فى ذلك(٣).

۞ **عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت كأنى فى درع**

(١) انظر: السيرة الحلبية (٢/ ٤٨٩).

(٢) انظر: غزوة أحد لأبى فارس، (ص٢٢).

(٣) زاد المعاد (٣/ ١٩٣).

حصينة، ورأيت بقرًا مُنحَّرة(١) فأَوَّلت أن الدرع الحصينة المدينة، وأن البقر هو والله خير»، قال: فقال لأصحابه: «لو أنَّا أقمنا بالمدينة فإن دخلوا علينا فيها قاتلناهم». فقالوا: يا رسول الله والله مادُخِلَ علينا فيها فى الجاهلية فكيف يُدخل علينا فيها فى الإسلام (قال عفان فى حديثه) فقال: «شأنكم إذًا»... قال: فلبس لأمته(٢). ـ يعنى النبى ﷺ ـ قال: فقالت الأنصار: رددنا على رسول الله ﷺ رأيه، فجاءوا فقالوا: يا نبى الله شأنك إذًا. فقال: «إنه ليس لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل»(٣).

۞ وفى رواية: عن أبى موسى عن النبى ﷺ قال: «رأيت فى المنام أنى أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وَهْلِى إلى أنها اليمامة أو هجر، فإذا هى المدينة يثرب، ورأيت فى رؤياى هذه أنى هززت سيفًا فانقطع صدره، فإذا هو ما أُصيب من المؤمنين يوم أُحد، ثم هززته أخرى فعاد أحسن ما كان، فإذا هو ما جاء الله به من الفتح واجتماع المؤمنين، ورأيت فيها أيضًا بقرًا والله خير فإذا هم النفر من المؤمنين يوم أُحد، وإذا الخير ما جاء الله به من الخير بعد وثواب الصدق الذى آتانا الله بعد»(٤).

قال ابن كثير: (وأبَى كثيرٌ من الناس إلا الخروج إلى العدو ولم يتناهوا إلى قول رسول الله ﷺ ورأيه، ولو رضوا بالذى أمرهم كان ذلك خير، ولكن غلب القضاء والقدر، وعامة من أشار عليه بالخروج رجال

---

(١) مُنحَّرة: مذبوحة.

(٢) اللأمة: الدرع.

(٣) رواه أحمد (٣/ ٣٥١) وله شاهد عن ابن عباس رواه الحاكم (٢/ ١٢٩) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبى والألبانى.

(٤) أخرجه البخارى (١٢/ ٤٢١) التعبير ـ ومسلم(١٥/ ٣١، ٣٢) الرؤيا.

لم يشهدوا بدرًا، قد علموا الذى سبق لأهل بدر من الفضيلة)[١].

وقال ابن إسحاق: فلم يزل الناس برسول الله ﷺ الذى كان من أمرهم حب لقاء القوم، حتى دخل رسول الله ﷺ بيته، فلبس لأمته[٢]، فتلاوم القوم فقالوا: عرض نبى الله ﷺ بأمر وعرضتم بغيره، فاذهب يا حمزة فقل لنبى الله ﷺ: (أمرنا لأمرك تبع) فأتى حمزة فقال له: يا نبى الله إن القوم تلاوموا، فقالوا: أمرنا لأمرك تبع، فقال رسول الله ﷺ: «**إنه ليس لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل**»[٣].

۞ كان رأى من يرى الخروج إلى خارج المدينة مبنيًا على أمور منها:

(١) أن الأنصار قد تعاهدوا فى بيعة العقبة الثانية على نصرة الرسول ﷺ، فكان أغلبهم يرى أن المكوث داخل المدينة تقاعس عن الوفاء بهذا العهد.

(٢) أن الأقلية من المهاجرين كانت ترى أنها أحق من الأنصار فى الدفاع عن المدينة ومهاجمة قريش وصدها عن زروع الأنصار.

(٣) أن الذين فاتتهم غزوة بدر كانوا يتحرقون شوقًا من أجل ملاقاة الأعداء طمعًا فى حصول الشهادة فى سبيل الله.

(٤) أن الأكثرين كانوا يرون أن فى محاصرة قريش للمدينة ظفرًا يجب ألا تحلم به، كما توقعوا أن وقت الحصار سيطول أمده، فيصبح المسلمون مهددين بقطع المؤن عنهم[٤].

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ١٤).

(٢) لأمة الحرب: عدتها.

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٧١).

(٤) انظر: غزوة أحد، أحمد عز الدين، (ص٥١، ٥٢).

۞ أما من وجهة نظر من يرى البقاء فى المدينة فهو مبنى على التخطيط الحربى الآتى:

(١) أن جيش مكة لم يكن موحد العناصر، وبذلك يستحيل على هذا الجيش البقاء زمنًا طويلًا إذ لا بد من ظهور الخلاف بينهم إن عاجلًا أو آجلًا.

(٢) أن مهاجمة المدن المصممة على الدفاع عن حياضها وقلاعها وبيضتها أمر بعيد المنال، وخصوصا إذا تشابه السلاح عند كلا الجيشين، وقد كان يوم أُحد متشابهًا.

(٣) أن المدافعين إذا كانوا بين أهليهم فإنهم يستبسلون فى الدفاع عن أبنائهم وحماية نسائهم وبناتهم وأعراضهم.

(٤) مشاركة النساء والأبناء فى القتال وبذلك يتضاعف عدد المقاتلين.

(٥) استخدام المدافعين أسلحة لها أثر فى صفوف الأعداء مثل الأحجار، وغيرها، وتكون إصابة المهاجمين فى متناولهم(١).

۞ من الواضح أن الرسول ﷺ عوَّد أصحابه على التصريح بآرائهم عند مشاورته لهم حتى ولو خالفت رأيه، فهو إنما يشاورهم فيما لا نَصَّ فيه تعويدًا لهم على التفكير فى الأمور العامة ومعالجة مشاكل الأمة، فلا فائدة من المشورة إذا لم تقترن بحرية إبداء الرأى، ولم يحدث أن لام الرسول ﷺ أحدًا؛ لأنه أخطأ فى اجتهاده ولم يُوفَّق فى رأيه، وكذلك فإن الأخذ بالشورى مُلزم للإمام، فلابد أن يطبق الرسول ﷺ التوجيه القرآنى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ

(١) انظر: القيادة العسكرية للرشيد، (ص٣٧٤).

لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[١]، لتعتاد على ممارسة الشورى وهنا يظهر الوعى السياسى عند الصحابة رضوان الله عليهم، فرغم أن لهم إبداء الرأى، فإنه ليس لهم فرضه على القائد، فحسبهم أن يبينوا رأيهم ويتركوا للقائد حرية اختيار ما يترجح لديه من الآراء، فلما رأوا أنهم ألحُّوا فى الخروج وأن الرسول ﷺ عزم على الخروج بسبب إلحاحهم، عادوا فاعتذروا إليه، لكن الرسول الكريم علَّمهم درسًا آخر هو من صفات القيادة الناجحة وهو عدم التردد.بعد العزيمة والشروع فى التنفيذ، فإن ذلك يزعزع الثقة بها ويغرس الفوضى بين الأتباع[٢].

كان النبى ﷺ قد عزم على الخروج وقد أعلن حالة الطوارئ العامة وتجهز الجميع للقتال، وأمضوا ليلتهم فى حذر، كلٌّ يصحب سلاحه ولا يفارقه، حتى عند نومه، وأمر ﷺ بحراسة المدينة، واختار خمسين من أشداء المسلمين ومحاربيهم بقيادة محمد بن مسلمة رضي الله عنه. واهتم الصحابة بحراسة رسول الله، فبات سعد بن معاذ وأُسيد بن الحضير وسعد بن عبادة فى عدة من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين ليلة الجمعة مدججين بالسلاح فى باب المسجد يحرسون رسول الله ﷺ[٣].

وخرج النبى ﷺ لملاقاة قريش

وخرج رسول الله ﷺ فى ألفٍ من الصحابة واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة بمن بقى فى المدينة.

(١) سورة آل عمران: الآية: (١٥٩).

(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٣٨٠).

(٣) انظر: غزوة أحد، لأبى فارس (ص٣٤، ٣٥).

۞ وقسّم النبى ﷺ جيشه إلى ثلاث كتائب:

(١) كتيبة المهاجرين، وأعطى لواءها مصعب بن عمير العبدرى.

(٢) كتيبة الأوس من الأنصار، وأعطى لواءها أُسيد بن حضير.

(٣) كتيبة الخزرج من الأنصار، وأعطى لواءها الحُباب بن المنذر.

۞ ولقد كان النبى ﷺ فى غاية الحرص على أن يختار الوقت المناسب لتحرُّك الجيش .. ولذا فقد تحرك بعد منتصف الليل بحيث يكون السكون مخيمًا على المكان والحركة قليلة.. وذلك لأن الأعداء سيكونون بعد مشقة السفر فى نومٍ عميق .. ومن ثَمَّ فإنهم لن يشعروا بصوت الجيش وهو يتحرك.

۞ قال الواقدى رَحِمَهُ اللهُ: ونام رسول الله ﷺ حتى أدلج، فلما كان فى السَّحَر قال: «**أين الأدلاء؟**»[(١)] ثم إنه ﷺ اختار الطريق المناسب الذى يسلكه حتى يصل إلى أرض المعركة، وذكر صفة ينبغى أن تتوافر فى هذا الطريق وهى السرية، حتى لا يرى الأعداء جيش المسلمين، فقال ﷺ لأصحابه: «**مَن رجل يخرج بنا على القوم من طريق لا يمر بنا عليهم؟**» فأبدى أبو خيثمة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ استعداده قائلًا: أنا يا رسول الله، فنفذ به فى حرة بنى حارثة وبين أموالهم، حتى سلك به فى مال لربعى بن قيظى، وفى رواية ابن هشام: لمربع بن قيظى وكان رجلًا منافقًا ضرير البصر، فلما أحسَّ برسول الله ﷺ ومَن معه من المسلمين، قام يحثو فى وجوههم التراب، وهو يقول: إن كنت رسول الله فلا أُحل لك أن تدخل حائطى، وقد ذكر أنه أخذ حفنة من تراب بيده، ثم قال: والله لو أعلم أنى لا أصيب بها غيرك يا محمد، لضربت بها وجهك، فابتدره القوم ليقتلوه، فقال لهم: لا تقتلوه، فهذا الأعمى أعمى القلب

---

(١) انظر: المغازى للواقدى (١/ ٢١٧).

أعمى البصر، وقد بدر إليه سعد بن زيد أخو بنى الأشهل[١] قبل نهى رسول الله عنه، فضربه بالقوس فى رأسه فشجَّه[٢].

وفى هذا الخبر تطبيق عملى لتقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة إذا تعارضت المصلحتان...فالرسول ﷺ حينما مر بالجيش فى أرض المنافق مربع بن قيظى، وترتَّب على ذلك إفساد المزرعة، لكن فيه مصلحة للجيش باختصار الطريق لهم إلى أُحد، فبيَّن ﷺ أن ما يكون به مصلحة للدين مُقدَّم على ما سواه من المصالح الأخرى، فهنا تعارضت مصلحتان مصلحة عامة ومصلحة خاصة، ومصلحة الدين فى هذا الموقف مصلحة عامة وهى مُقدمة على المصلحة الخاصة، وهى مصلحة المال[٣].

وقد رتَّب الشارع الحكيم مقاصد الشرع فى تحقيق المنافع لعباده من حفظ دينهم ونفوسهم وعقولهم ونسلهم وأموالهم طبق ترتيب معين فيما بينها[٤]، فإذا نظرنا إلى كليات الدين الخمس وأهميتها وجدنا أن هذه الكليات متدرجة حسب الأهمية: الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال، فما يكون به حفظ الدين مُقدَّم على ما يكون به حفظ النفس عند تعارضهما، وما يكون به حفظ النفس مقدم على ما به يكون حفظ العقل، وما به يكون حفظ النسل مقدم على ما به حفظ المال، والترتيب بهذا الشكل من هذه الكليات يحظى باتفاق العلماء[٥].

---

(١) بنو الأشهل: حى من الأنصار.

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٧٣).

(٣) انظر: غزوة أحد، دراسة دعوية، (ص١٦٨).

(٤) انظر: ضوابط المصلحة، (ص٢٣).

(٥) انظر: المقاصد العامة للشريعة/ يوسف حامد العالم، (ص١٦٦).

ظاهر النبى ﷺ بين درعين أخذًا بالأسباب

۞ وها هو النبى ﷺ يعلمنا أن نأخذ بالأسباب فى كل شىء نفعله وأن تتعلق قلوبنا بمُسبِّب الأسباب (جلَّ وعلا)؛ لأن الأسباب وحدها لا تنفع ولا تضر إلا بإذن الله (جلَّ وعلا)..فها هو النبى ﷺ يظاهر بين درعين فى يوم أُحد.

۞ عن السائب بن يزيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «إن النبى ﷺ يوم أُحد أخذ درعين كأنه ظاهر[1] بينهما»[2].

۞ وعن الزبير بن العوام رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «رأيت رسول الله ﷺ حين ذهب لينهض إلى الصخرة وكان رسول الله ﷺ قد ظاهر بين درعين فلم يستطع أن ينهض... وذكر الحديث»[3].

۞ لبس النبى ﷺ درعين، رغم علمه بأن الله تعالى يعصمه من القتل تعويدًا للأمة على الأخذ بالأسباب المادية ثم التوكل على الله[4]. وعقد ﷺ راية سوداء وثلاثة ألوية أحدها للمهاجرين والثانى للأوس من الأنصار، والثالث للخزرج منهم[5]. وانتظمت قوات المسلمين التى قُدرت بألف مقاتل بما فيهم المنافقون المتظاهرون بالإسلام ومعهم فَرَسان فقط ومائة دارع

---

(١) ظاهر: لبسهما فوق بعضهما.

(٢) أخرجه أبو داود فى الجهاد باب لبس الدرع رقم: (٢٥٩٠)، وابن ماجه فى الجهاد باب فى السلاح رقم: (٢٨٠٦)، وقال البوصيرى فى الزوائد: إسناده صحيح على شرط البخارى، قلت: ورجال ابن ماجه كلهم ثقات.

(٣) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٣/ ٢٥) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبى.

(٤) مستدرك الحاكم (٣/ ٢٥).

(٥) تاريخ خليفة بن خياط (ص ٦٧).

تحت قيادة النبى ﷺ وتحركت تاركة المدينة من الجانب الغربى من الحَرة الشرقية(١).

انخذال المنافقين ورجوعهم

وقد انسحب من جيش المسلمين المنافق عبد اللّه بن أُبى ابن سلول وثلاثمائة من أتباعه المنافقين، بدعوى أنه لن يقع قتال مع المشركين، ومعترضًا على قرار الرسول ﷺ بالخروج من المدينة لملاقاة المشركين بقوله «أطاع الولدان ومن لا رأى له، أطاعهم وعصانى، علام نقتل أنفسنا»(٢). وقد انقسم الصحابة فى مسألة قتال هؤلاء المنافقين(٣)، فأنزل اللّه تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾(٤).

وقد حاول الصحابى عبد اللّه بن عمرو بن حرام تدارُك الأمر فلحق بالمنافقين المنسحبين، وحاول إقناعهم بضرورة نصرة نبيهم وقومهم، غير أنهم أصروا على موقفهم، وقالوا له: «لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم»، وبعد أن يئس عبد اللّه منهم سأل اللّه أن يبعدهم، وأن يغنى اللّه نبيه عنهم(٥)، وقد أشار القرآن إلى ذلك فى قوله تعالى:

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ

---

(١) السيرة لابن هشام (٣/ ١٢).

(٢) البخارى (حديث ٤٠٥٠)، ابن هشام- السيرة (٢/ ٩٢).

(٣) البخارى (فتح حديث ٤٠٥٠)، الطبرى- تفسير (٩/ ٧- ٩).

(٤) سورة النساء: الآية: (٨٨).

(٥) ابن هشام- السيرة (٣/ ٩).

نَافَقُوا۟ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾[1][2].

إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا... والله وليهما

۞ ولا شك أن سبب هذا الانعزال لم يكن هو ما أبداه هذا المنافق من رفض رسول الله ﷺ رأيه، وإلا لم يكن لسيره مع الجيش النبوى إلى هذا المكان معنى. بل لو كان هذا هو السبب لانعزل عن الجيش منذ بداية سيره، بل كان هدفه الرئيسى من هذا التمرد ـ فى ذلك الظرف الدقيق ـ أن يُحدث البلبلة والاضطراب فى جيش المسلمين على مرأى ومسمع من عدوهم حتى ينحاز عامة الجيش عن النبى ﷺ وتنهار معنويات من يبقى معه، بينما يتشجع العدو، وتعلو همته لرؤية هذا المنظر. فيكون ذلك أسرع إلى القضاء على النبى ﷺ وأصحابه المخلصين، ويصفو بعد ذلك الجو لعودة الرياسة إلى هذا المنافق وأصحابه.

وكاد المنافق أن ينجح فى تحقيق بعض ما كان يهدف إليه، فقد همَّت طائفتان ـ بنو حارثة من الأوس وبنو سلمة من الخزرج أن تفشلا ولكن الله تولاهما[3]. وثبّت قلوبهم مع الرسول ﷺ ومع إخوانهم المؤمنين، وفيهم قال تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾[4].

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: (١٦٦ - ١٦٧).

(٢) نضرة النعيم (١/ ٣٠٢).

(٣) الرحيق المختوم (ص: ٢٦٨).

(٤) سورة آل عمران: الآية: (١٢٢).

۞ عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: «نزلت هذه الآية فينا ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ بنى سلمة وبنى حارثة وما أحب أنها لم تنزل والله يقول: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾»[1].

إنّا لا نستعين بالمشركين على المشركين

۞ ولما جاوز النبى ﷺ ثنية الوداع رأى كتيبة حسنة التسليح منفردة عن سواد الجيش فسأل عنها فعلم أنهم من اليهود ـ من حلفاء الخزرج ـ ويرغبون فى المساهمة فى القتال ضد المشركين فأبى النبى ﷺ **ذلك.**

۞ عن أبى حميد الساعدى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «خرج رسول الله ﷺ يوم أُحد حتى إذا خلَّف ثنية الوداع نظر وراءه فإذا كتيبة خشناء[2] «**قال: من هذا؟**» قال: هو عبد الله بن أُبى بن سلول فى مواليه من اليهود من بنى قينقاع وهم رهط عبد الله بن سلام فقال: «**أَوَ قد أسلموا؟**» فقال: إنهم على دينهم قال: «**قل لهم فليرجعوا، فإنا لا نستعين بالمشركين على المشركين**»[3].

النبى ﷺ يستعرض الجيش

وقام النبى ﷺ يستعرض الجيش فأعطى اللواء مصعب بن عمير وجعل على إحدى المُجَنِّبَتْين الزبيرَ بنَ العوام، وعلى الأخرى المنذرَ بنَ عمرو، واستعرض الشبابَ يومئذٍ، فردَّ مَن استصغره عن القتال، وكان منهم عبدُ الله ابنُ عمر، وأسامة بن زيد، وأُسَيْدُ بن ظَهِيرٍ، والبراءُ بنُ عازب، وزيدُ بن أرقم،

---

(١) أخرجه البخارى (٤٠٥١) المغازى ـ ومسلم (٢٥٠٥) فضائل الصحابة.

(٢) خشناء: كثيرة السلاح خشنة.

(٣) أخرجه ابن سعد فى الطبقات (٢/ ٤٨)، والطحاوى فى مشكل الآثار (٣/ ٢٤١)، وصححه الحاكم (٢/ ١٢٢)، وانظر المطالب العالية (٤٣١٩)، وعزاه الحافظ ابن حجر لإسحاق بن راهوية وحسن إسناده، وقال البوصيرى: رواه إسحاق بإسناد حسن.

وزيدُ بن ثابت، وعَرَابةُ بن أوس، وعمرو بنُ حَزْمٍ، وأجازَ مَن راَهُ مُطِيقًا، وكان مِنهم سَمُرَةُ بنُ جُنْدَبٍ، ورافعُ بن خَديج، ولهما خمسَ عشْرة سنة. فقيل: أجاز من أجاز لبلوغه بالسِّنِّ خمس عشرة سنةً، وردَّ مَن رَدَّ لِصغره عن سِنِّ البُلُوغ(١).

لقد أجاز النبى ﷺ رافع بن خديج لما قيل له: إنه رامٍ، فبلغ ذلك سمرة ابن جندب فذهب إلى زوج أمه مرى بن سنان بن ثعلبة عم أبى سعيد الخدرى وهو الذى ربى سمرة فى حجره يبكى، وقال له: يا أبتِ أجاز رسول الله ﷺ رافعًا وردنى، وأنا أصرع رافعًا، فرجع زوج أمه هذا إلى النبى ﷺ، فالتفت النبى ﷺ إلى رافع وسمرة فقال لهما: «**تصارعا**» فصرع سمرة رافعًا فأجازه كما أجاز رافعًا، وجعلهما من جنده وعسكر كتائبه، ولكلٍّ منهما مجاله واختصاصه(٢).

ونلحظ أن رسول الله ﷺ أجاز رافعًا وسمرة لامتيازٍ عسكرى امتازا به على أقرانهما، وردَّ صغار السن خشية ألا يكون لهم صبر على ضرب السيوف، ورمى السهام، وطعن الرماح، فيفروا من المعركة إذا حمى الوطيس، فيُحدث فرارهم خلخلة فى صفوف المسلمين(٣).

الجيش الإسلامي يواصل سيره إلى العدو

وبعد انسحاب رأس المنافقين بثلث الجيش واصل النبى ﷺ سيره إلى العدو بباقى الجيش وهم سبعمائة مقاتل، وكان معسكر المشركين يحول بينه وبين أُحد فى مناطق كثيرة.

---

(١) زاد المعاد (٣/ ١٩٥).

(٢) محمد رسول الله (٣/ ٥٧١).

(٣) محمد رسول الله (٣/ ٥٧٢).

ونفذ رسولُ الله ﷺ حتى نزلَ الشِّعبَ مِن أُحُد فى عُدْوَةِ الوَادِى، وجعلَ ظهَره إلى أُحد، ونهى الناسَ عَنِ القَتال حتى يأمرهم، فلما أصبحَ يومَ السبت، تَعَبَّى لِلقتال، وهو فى سبعِمائة، فيهم خمسون فارسًا[1].

وصية النبى ﷺ للرُماة

واختار النبى ﷺ ثلة من الرماة الماهرين قوامها خمسون مقاتلاً وجعل القيادة لعبد الله بن جُبير وأمرهم ألا يبرحوا أماكنهم مهما كانت ظروف تلك المعركة.. وأمرهم أن ينضحوا المشركين بالنَّبل لئلا يأتوا المسلمين من ورائهم.

۞ عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لقينا المشركين يومئذ، وأجلس النبى ﷺ جيشًا من الرماة، وأمَّر عليهم عبد الله وقال: «**لا تبرحوا، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تُعينونا**»، فلما لقينا هربوا، حتى رأيت النساء يشتددن[2] فى الجبل رفعن عن سوقهن[3] قد بدت خلاخلهن، فأخذوا يقولون: الغنيمة الغنيمة فقال عبد الله: عهد إلىَّ النبى ﷺ أن لا تبرحوا، فأبوا، فلما أبوا صرف وجوههم... فذكر الحديث».

۞ وفى رواية أبى داود: «جعل رسول الله ﷺ على الرماة يوم أُحد ـ وكانوا خمسين رجلاً ـ عبد الله بن جبير قال: ووضعهم موضعًا، وقال: «**إن رأيتمونا تخطفنا الطير، فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا ظهرنا على العدو وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم**»[4].

---

(١) زاد المعاد (٣/ ١٩٤).

(٢) يشتددن: يُسرعن المشى.

(٣) سوقهن: ظهرت سيقانهن.

(٤) أخرجه البخارى (٤٠٤٣) المغازى ـ وأبو داود (٢٦٦٢).

حقًا إنها خطة حكيمة

ولقد كانت خُطة حكيمة ودقيقة جدًا، تتجلى فيها عبقرية قيادة النبى ﷺ ـ العسكرية ـ وأنه لا يمكن لأى قائد مهما تقدمت كفاءته أن يضع خطة أدق وأحكم من هذا ـ فقد احتل أفضل موضع من ميدان المعركة، مع أنه نزل فيه بعد العدو، فقد حمى ظهره ويمينه بارتفاعات الجبل، وحمى ميسرته وظهره ـ حين يحتدم القتال ـ بسد الثلمة الوحيدة التى كانت توجد فى جانب الجيش الإسلامى، واختار لمعسكره موضعًا مرتفعًا يحتمى به ـ إذا نزلت الهزيمة بالمسلمين ـ ولا يلتجئ إلى الفرار، حتى يتعرض للوقوع فى قبضة الأعداء المطاردين وأسرهم، ويلحق مع ذلك خسائر فادحة إلى أعدائه إن أرادوا احتلال معسكره وتقدموا إليه... وألجأ أعداءه إلى قبول موضع منخفض يصعب عليهم جدًا أن يحصلوا على شىء من فوائد الفتح إن كانت الغلبة لهم، ويصعب عليهم الإفلات من المسلمين المطاردين إن كانت الغلبة للمسلمين، كما أنه عوَّض النقص العددى فى رجاله باختيار نخبة ممتازة من أصحابه الشجعان البارزين[1].

وهكذا بدأ القتال

فى بداية القتال حاول أبو سفيان أن يوجد شرخًا وتصدُّعًا فى جبهة المسلمين المتماسكة، فأرسل إلى الأنصار يقول: (خَلُّوا بيننا وبين ابن عمنا، فننصرف عنكم، فلا حاجة بنا إلى قتال) فردوا عليه بما يكره[2].

---

(١) الرحيق المختوم (ص: ٢٧١).

(٢) انظر: إمتاع الأسماع للمقريزى (١/ ١٢٠).

أبو عامر الفاسق يحرض على المسلمين

ولما فشلت المحاولة الأولى لجأت قريش إلى محاولة أخرى عن طريق عميل خائن من أهل المدينة، وهو أبو عامر الراهب.

وكان اسمه أبا عامر الراهب فسمَّاه النبى ﷺ فاسقًا - قام ليحرض على المسلمين فى يوم أُحد.

۞ من طريق ابن إسحاق قال: وحدثنى عاصم بن قتادة: «أن أبا عامر، عبد عمرو بن صيفى بن مالك بن النعمان، أحد بنى ضبيعة، وقد كان خرج حين خرج إلى مكة مباعدًا لرسول الله ﷺ، معه خمسون غلامًا من الأوس، وبعض الناس كان يقول: كانوا خمسة عشرة رجلاً، وكان يَعِدُ قريشًا أن لو قد لقى قومه لم يختلف عليه منهم رجلان، فلما التقى الناس كان أول من لقيهم أبو عامر فى الأحابيش وعبدان أهل مكة، فنادى: يا معشر الأوس أنا أبو عامر، قالوا: فلا أنعم الله بك عينًا يا فاسق - وكان أبو عامر يُسمَّى فى الجاهلية: الراهب، فسمَّاه رسول الله ﷺ: الفاسق - فلما سمع ردهم عليه، قال: لقد أصاب قومى بعدى شر، ثم قاتلهم قتالاً شديدًا، ثم راضخهم بالحجارة»[1].

بين على بن أبى طالب وطلحة بن عثمان رضي الله عنهما

وبدأ القتال بمبارزة بين على بن أبى طالب رضي الله عنه وطلحة بن عثمان حامل لواء المشركين يوم أُحد... يقول صاحب السيرة الحلبية: خرج طلحة بن عثمان وكان بيده لواء المشركين، وطلب المبارزة مرارًا فلم يخرج إليه أحد

(١) أخرجه ابن هشام (٢/ ٦٧)، والطبرى فى تاريخه (٢/ ٥١٢)، وسنده حسن ورجاله ثقات، وصرح ابن إسحاق بالتحديث.

فقال: يا أصحاب محمد إنكم تزعمون أن الله تعالى يُعجلنا بسيوفكم إلى النار، ويعجلكم بسيوفنا إلى الجنة، فهل أحد منكم يعجلنى بسيفه إلى النار أو أعجله بسيفى إلى الجنة؟ فخرج إليه على بن أبى طالب رضي الله عنه فقال له علىٌّ رضي الله عنه: والذى نفسى بيده لا أفارقك حتى يعجلك الله بسيفى إلى النار أو يعجلنى بسيفك إلى الجنة، فضربه علىٌّ فقطع رجله، فوقع على الأرض فانكشفت عورته، فقال: يا ابن عمى، أنشدك الله والرحم فرجع عنه ولم يُجهز عليه، فكبر رسول الله، وقال لعلى بعض أصحابه: أفلا أجهزت عليه؟ قال: إن ابن عمى ناشدنى الرحم حين انكشفت عورته فاستحييت منه[1].

من يأخذ هذا السيف بحقه

ثم تدانت الفئتان وأذن النبى ﷺ لرجاله أن يجالدوا العدو، وبدأت مراحل القتال الأولى تثير الغرابة. كأن ثلاثة آلاف مشرك يواجهون ثلاثين ألف مسلم، لا بضع مئات قلائل! وظهر المسلمون فى أعلى صور الشجاعة واليقين.

وسادت روح الإيمان المحض صفوف المجاهدين فانطلقوا خلال جنود الشرك انطلاق الفيضان تقطعت أمامه السدود[2].

۞ وأخذ النبى ﷺ ينفث روح البسالة فى الجيش الإسلامى.

۞ عن أنس رضي الله عنه قال: «إن رسول الله ﷺ أخذ سيفًا يوم أُحد، فقال: «**من يأخذ منى هذا السيف بحقِّه؟**» فبسطوا أيديهم كل إنسان فيهم يقول: أنا أنا، فقال: «**من يأخذه بحقه؟**» فأحجم القوم فقال له سماك أبو دجانة: أنا

(١) انظر: السيرة الحلبية (٢/ ٤٩٧، ٤٩٨)، تفسير الطبرى (٧/ ٢١٨).

(٢) فقه السيرة للغزالى (ص: ٢٩٠-٢٩١) بتصرف.

آخذه بحقه، قال فأخذه ففلق به هام المشركين»[١].

۞ وعن الزبير رضي الله عنه قال: عرض رسول الله ﷺ سيفًا يوم أُحد فقال: «**من يأخذ هذا السيف بحقه؟**» فقمت فقلت: أنا يا رسول الله، فأعرض عنى، ثم قال: «**من يأخذ هذا السيف بحقه؟**» فقمت فقلت: أنا يا رسول الله فأعرض عنى ثم قال: من يأخذ هذا السيف بحقه، فقام أبو دجانة سماك بن خرشة فقال: أنا آخذه يا رسول الله بحقه؟ قال: «**ألا تقتل به مسلمًا ولا تغربه عن كافر**»، قال: فدفعه إليه وكان إذا أراد القتال أعْلَمَ بعصابة، قال: «لأنظرن إليه اليوم كيف يصنع، قال: فجعل لا يرتفع له شىء إلا هتكه وأفراه[٢]، حتى انتهى إلى نسوة فى سفح جبل معهن دفوف لهن، فيهن امرأة وهى تقول:

نحن بنات طارق ... نمشى على النمارق[٣]

إن تُقبلوا نعانق ... ونبسط النمارق

وإن تُدبروا نفارق ... فراق غير وامق[٤]

قال: فأهوى بالسيف إلى امرأة ليضربها، ثم كَفَّ عنها، فلما انكشف القتال قلت له: كل عملك قد رأيت ما خلا رفعك السيف على المرأة، ثم لم تضربها، قال: أى والله أكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أقتل به امرأة»[٥].

(١) أخرجه مسلم (٢٤٧٠) فضائل الصحابة ـ والحاكم (٣/ ٢٣٠).

(٢) هتكه وأفراه: قطعه وقدّه.

(٣) النمارق: البُسط والسجاد.

(٤) وامق: مشتاق.

(٥) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٣/ ٢٣٣)، والبزار. انظر كشف الأستار رقم (١٧٨٧)، وقال الهيثمى فى المجمع (٦/ ١٠٩): رواه البزار ورجاله ثقات.

جهود نسوة قريش فى التحميس

فلما التقى الناس، ودَنا بعضُهم من بعض، قامت هندُ بنت عُتبة فى النِّسوة اللاتى معها، وأخَذْن الدُّفُوفَ يَضْربن بها خَلْفَ الرجال، ويُحرّضْنَهم، فقالت هند فيما تقول:

وَيْهًا بَنى عبد الدَّارْ وَيْها حُماةَ الأدبارْ[1]

ضَرْبًا بكلّ بَتَّار[2]

وتقول:

إن تُقْبلوا نُعانِقْ ونَفْرِشُ النَّمَارق[3]

أو تُدبِرُوا نُفارقْ فِرَاقَ غيرِ وامِق[4][5]

هذا هو الزبير بن العوام (رضي الله عنه)

وتقارب الجمعان وتدانت الفئتان، وبدأت مراحل القتال، وكان أول وقود المعركة حامل لواء المشركين طلحة بن أبى طلحة العبدرى، وكان من أشجع فرسان قريش، يسميه المسلمون كبش الكتيبة، خرج وهو راكب على جمل يدعو إلى المبارزة، فأحجم عنه الناس لفرط شجاعته، ولكن تقدم إليه الزبير، ولم يُمهله بل وثب إليه وثبة الليث حتى صار معه على

(١) حماة الأدبار: أى: الذين يحمون أدبارالناس.

(٢) بتّار: البتّار أى: القاطع.

(٣) النمارق: جمع نمرقة وهى الوسادة الصغيرة.

(٤) وامق: ومقه ومقًا أى: أحبه - والتومق التودد. [لسان/ ومق].

(٥) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٩).

جمله، ثم اقتحم به الأرض، فألقاه عنه وذبحه بسيفه.

ورأى النبى ﷺ هذا الصراع الرائع فكبَّر وكبَّر المسلمون[١].

واندلعت نيران المعركة

ثم اندلعت نيران المعركة واشتد القتال بين الفريقين فى كل نقطة من نقاط الميدان، وكان ثقل المعركة يدور حول لواء المشركين.

وبينما كان ثقل المعركة، يدور حول لواء المشركين، كان القتال المرير يجرى فى سائر نقاط المعركة، وكانت روح الإيمان قد سادت صفوف المسلمين، فانطلقوا خلال جنود الشرك انطلاق الفيضان تتقطع أمامه السدود وهم يقولون: «أَمِت، أَمِت»، كان ذلك شعارًا لهم يوم أُحد[٢].

وكانت الدولة أول النهار للمسلمين

وكانت الدولةُ أوَّلَ النهارِ للمسلمين على الكفَّارِ، فانهزم عدوُّ الله، وولَّوا مُدْبِرينَ حتى انتَهَوْا إلى نِسائهم.

۞ وأقبل أبو دجانة مُعلَّمًا بعصابته الحمراء، آخذًا بسيف رسول الله ﷺ مصممًا على أداء حقه فقاتل حتى أمعن فى الناس وجعل لا يلقى مشركًا إلا قتله، وأخذ يهد صفوف المشركين هدًّا.

۞ عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال: «والله لقد رأيتنى أنظر إلى خدم هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هوارب ما دون أخذهن قليل ولا كثير، إذ

(١) الرحيق المختوم (ص: ٢٧٤).

(٢) ورد فى هذا الشعار حديث أخرجه أبو داود (٢٥٩٦، ٢٦٣٨)، والنسائى فى الكبرى (٥/ ٨٨٦٢)، وابن ماجه (٢٨٤٠)، وأحمد (١٦٥٥٠) [٤/ ٤٦] من حديث سلمة بن الأكوع قال: غزونا مع أبى بكر رضي الله عنه زمن النبى ﷺ فكان شعارنا أَمِت أَمِت، وصححه ابن حبان (١١/ ٤٧٤٤)، والحاكم (٢/ ١٠٧، ١٠٨)، ووافقه الذهبى وإسناده حسن.

مالت الرماة إلى العسكر حين كشفنا القوم عنه، وخلوا ظهورنا للخيل، فأُتينا من خلفنا، وصرخ صارخ ألا إن محمدًا قُتل، فانكفأنا، وانكفأ علينا القوم بعد أن أصبنا أصحاب اللواء، حتى ما يدنوا منه أحد من القوم»[١].

وقد جاء بزيادة فى رواية إسحاق بن راهويه عن الزبير فقال: «والله إنى لأنظر يومئذ إلى خدم[٢] النساء مشمرات يسعين حين انهزم القوم، وما أرى دون أخذهن شيئًا، وإنا لنحسبهم قتلى ما يرجع إلينا منهم أحد، ولقد أصيب أصحاب اللواء، وصبروا عنده حتى صار إلى عبدٍ لهم حبشى يقال له (صواب)، ثم قُتل صواب، فطُرح اللواء فلم يقربه أحد من خلق الله، حتى وثبت إليه عمرة بنت علقمة الحارثية، فرفعته لهم، وثاب إليه الناس، قال: الزبير: فوالله إنا لكذلك قد علوناهم وظهرنا عليهم[٣].

الأسد فى أرض المعركة يُقاتل بسيفين

۞ وقام أسد الله (حمزة) يصول ويجول فى أرض المعركة يشق الصفوف شقًّا ويهدّ المشركين بسيفه هدًّا.

بل لقد كان يقاتل قتال الليوث المهتاجة فصدَّ حَمَلة اللواء من بنى عبد الدار واقتنص أرواحهم فردًا فردًا.

عن سعد بن أبى وقاص قال: كان حمزة يُقاتل يوم أُحُد بين يدى رسول الله ﷺ بسيفين ويقول: أنا أسدُ الله[٤].

(١) أخرجه ابن إسحاق بإسناد صحيح. انظر سيرة ابن هشام (٢/ ٧٧)، والبيهقى فى الدلائل (٣/ ٢٢٨)، والطبرى فى تاريخه (٢/ ٥١٣) من طريق ابن إسحاق به.

(٢) الخدم: الخلاخيل.

(٣) أخرجه إسحاق بن راهويه كما فى المطالب العالية رقم (٤٣١٣)، وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ الله: هذا إسناد صحيح له شاهد من حديث البراء فى الصحيح.

(٤) أخرجه ابن سعد (٣/ ١/ ٦)، والحاكم (٣/ ١٩٤)، وصححه ووافقه الذهبى.

النبى ﷺ يُعلم أصحابه فى أرض الجهاد

۞ عن عقبة مولى جبر بن عتيك الأنصارى رضي الله عنه قال: «شهدت أُحدًا مع مولاى، فضربت رجلاً من المشركين، فلما قتلته، قلت: خذها منى وأنا الرجل الفارسى، فبلغت رسول الله ﷺ فقال: «**ألا قال: خذها وأنا الرجل الأنصارى، فإن مولى القوم من أنفسهم**»[1].

ولقد صدقكم الله وعده

عن ابن عباس قال: «ما نُصِر النبى ﷺ فى موطن كما نُصر يوم أُحد قال الراوى عنه - عبيد الله بن عتبة - فأنكرنا ذلك فقال ابن عباس بينى وبين من أنكر ذلك كتاب الله (جلَّ وعلا) إن الله (جلَّ وعلا) يقول فى يوم أُحد: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ﴾ يقول ابن عباس: والحَسُّ: القتل ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[2]، وإنما عنى بهذا الرُّماة وذلك أن النبى ﷺ أقامهم فى موضع ثم قال: «**احموا ظهورنا، فإن رأيتمونا نُقتل فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا**»، فلما غنم رسول الله ﷺ وأباحوا عسكر المشركين انكشف الرماة جميعًا فدخلوا فى العسكر ينتهبون وقد التقت صفوف

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٥/ ٢٩٥)، وأبو داود فى الأدب (٥١٢٣) باب فى العصبية، وابن ماجه فى الجهاد باب النية فى القتال (٢٧٨٤) وإسناده حسن، وقال الهيثمى فى المجمع (٦/ ١٥٥): رواه أبو يعلى ورجاله ثقات، وانظر العالمية رقم (٤٣٢٤).

(٢) سورة آل عمران: الآية: (١٥٢).

أصحاب النبى ﷺ فهم هكذا... وشبَّك بين أصابع يديه والتبسوا، فلما أخلَّ الرماة تلك الخلة التى كانوا فيها دخل الخيل من ذلك الموضع على أصحاب النبى ﷺ فضرب بعضهم بعضًا والتبسوا، وقُتل من المسلمين ناس كثير، وقد كان لرسول الله ﷺ وأصحابه أول النهار حتى قتل من أصحاب لواء المشركين سبعة أو تسعة، وجال المسلمون جولة نحو الجبل»[١].

كافرٌ خُسف به

۞ **عن بريدة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** «أن رجلاً قال يوم أُحد: اللهم إن كان محمدًا على الحق فاخسف بى قال: فخُسف به»[٢].

غلطة الرُّماة التى غيَّرت سير المعركة

لقد علمت كيف شدَّد الرسول عليه الصلاة والسلام على الرماة أن يلزموا أماكنهم صيانة لمؤخرة المسلمين، وأوصاهم ألا يبرحوها أبدًا، ولو رأوا الجيش تتخطفه الطير؟ غير أن أثارة من حب الدنيا عصفت بهذه الوصاة فى ساعة غفلة؟ فما أن رأى الرماة الهزيمة حلَّت بقريش والنساء يهمن فى الجبل، والرجال يُولَّون الأدبار، والغنائم التى خلَّفها ثلاثة آلاف مشرك تزحم الوادى.. حتى غادروا مواقعهم هابطين إلى الميدان، يبغون إمتهاب أنصبتهم من الأسلاب والأموال![٣].

۞ **عن البراء** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** «جعل رسول الله ﷺ على الرماة يوم أُحد

(١) رواه الحاكم (٢/ ٢٩٦) التفسير، وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبى: صحيح.

(٢) كشف الأستار عن زوائد البزار رقم (١٧٩٩)، وقال الهيثمى فى المجمع (٦/ ١٢٢): رواه البزار ورجاله رجال الصحيح.

(٣) فقه السيرة للغزالي (ص ٢٩٣).

وكانوا خمسين رجلاً - عبد الله بن جبير - قال: ووضعهم موضعًا، وقال: «**إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم، إن رأيتمونا ظهرنا على العدو وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم**»، قال: فهزموهم.

قال: فأنا والله رأيت النساء يشتددن على الجبل وقد بدت سوقهن وخلاخلهن رافعات ثيابهن فقال أصحاب عبد الله بن جبير: الغنيمة، أى قوم الغنيمة، ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟

قال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ، قالوا: إنا والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة، فلما أتوهم صُرفت وجوههم، فأقبلوا منهزمين، فذلك الذى يدعوهم الرسول ﷺ فى أُخراهم، فلم يبقَ مع رسول الله ﷺ غير اثنى عشر رجلاً، فأصابوا منا سبعين رجلاً، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه، أصاب من المشركين يوم بدر أربعين ومائة، سبعين أسيرًا، وسبعين قتيلاً...[1].

خالد بن الوليد يغتنم تلك الفرصة

وكان فرسان المشركين بقيادة (خالد بن الوليد) محصورين، لا يجدون ثغرة ينفذون منها إلى قلب المسلمين إلى أن حلَّت الهزيمة، فلما رأى خالد أن مؤخرة المسلمين انكشفت. فلم يبقَ عليها حارس اغتنم الفرصة على عَجَل، فاستدار بالخيل وأحدق بخصومه منحدرًا عليهم من حيث لا يحتسبون. ورأى الفارُّون من قريش بوادر هذا التغير الطارىء، فتراجعوا حتى أن امرأة تُدعى عمرة بنت علقمه الحارثية، هى التى رفعت لواء قريش من التراب بعد أن سقط وصُرع حملته! وثاب المشركون إلى رايتهم وخيالتهم. فأُحيط بالصحابة من الأمام والخلف ووقعوا بين شِقَّى الرحى[2].

(١) أخرجه البخارى (٤٠٤٣) المغازى ـ وأحمد (٤/ ٢٩٣).

(٢) فقه السيرة للغزالي (ص ٢٩٣).

ولما رأى المشركون ذلك عادوا إلى القتل من جديد، وأحاطوا بالمسلمين من جهتين، وفقد المسلمون مواقعهم الأولى، وأخذوا يقاتلون بدون تخطيط، فأصبحوا يقاتلون متفرقين، فلا نظام يجمعهم ولا وحدة تشملهم، بل لم يعودوا يميزون بعضهم، فقد قتلوا اليمان والد حذيفة بن اليمان خطأً، وأخذ المسلمون يتساقطون شهداء في الميدان، وفقدوا اتصالهم بالرسول ﷺ وشاع أنه قُتل[١]، واختلط الحابل بالنابل واشتدت حرارة القتال، وصار المشركون يقتلون كل من يلقونه من المسلمين، واستطاعوا الخلوص قريبًا من النبي ﷺ فرموه بحجر كسر أنفه الشريف ورباعيته[٢] وشجَّه[٣] في وجهه الكريم فأثقله وتفجَّر الدم[٤] منه ﷺ.

عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كُسرت رباعيته يوم أُحد، وشُجَّ في رأسه، فجعل يسلت الدم عنه، ويقول: «**كيف يفلح قوم شَجُّوا نبيهم، وكسروا رباعيته، وهو يدعوهم إلى الله؟**» فأنزل الله ﷻ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾[٥].

۞ **عن سهل بن سعد** رضي الله عنه **قال**: «حين سُئل عن جُرح الرسول ﷺ -يوم أُحد-، جُرح وجه رسول الله ﷺ وكُسرت رباعيته، وهُشمت البيضة على رأسه، فكانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تغسل الدم، وكان علي بن أبي طالب يسكب عليها بالمجن، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا

(١) انظر: غزوة أحد دراسة دعوية، (ص٩٨).

(٢) الرباعية: إحدى الأسنان الأربعة التي تكون بين الثنية والناب.

(٣) الشج: كسر في الرأس.

(٤) انظر: فقه السيرة للغزالي، (ص٢٩٤).

(٥) سورة آل عمران: الآية: (١٢٨).

كثرة، أخذت قطعة من حصير فأحرقته حتى صار رمادًا ثم ألصقته بالجرح، فاستمسك الدم»[١].

وحمل ابن قمئة على مصعب بن عمير رضي الله عنه حيث كان شديد الشبه برسول الله ﷺ فقتله، فقال لقريش: قد قتلت محمدًا[٢] وشاع أن محمدًا قد قُتل فتفرق المسلمون، ودخل بعضهم المدينة، وانطلقت طائفة منهم فوق الجبل، واختلطت على الصحابة أحوالهم، فما يدرون كيف يفعلون من هول الفاجعة[٣]، ففرَّ جمعٌ من المسلمين من ميدان المعركة، وجلس بعضهم إلى جانب ميدان المعركة بدون قتال، وآثر آخرون الشهادة بعد أن ظنوا أن رسول الله ﷺ قد مات، ومن هؤلاء أنس بن النضر الذى كان يأسف لعدم شهود بدر، والذى قال فى ذلك: (والله لئن أرانى الله مشهدًا مع رسول الله ﷺ ليرين الله كيف أصنع) وقد صدق فى وعده، مَرَّ يوم أُحد على قوم ممن أذهلتهم الشائعة وألقوا بسلاحهم فقال: ما يُجلسكم؟ قالوا: قُتل رسول الله، فقال: يا قوم إن كان محمد قد قُتل فإن رب محمدٍ لم يُقتل، وموتوا على ما مات عليه، وقال: اللهم إنى أعتذر إليك مما قال هؤلاء، (يعنى المسلمين)، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء، (يعنى المشركين)، ثم لقى سعد بن معاذ فقال: يا سعد إنى لأجد ريح الجنة دون أُحد، ثم ألقى بنفسه فى أتون المعركة، وما زال يقاتل حتى استُشهد، فوُجد فيه بضع وثمانون ما بين ضربة بسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، فلم تعرفه إلا أخته ببنانه[٤]. وفى هذا وأمثاله نزل قول الله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ

(١) البخارى، كتاب المغازى، رقم (٤٠٧٥)، ومسلم (١٧٩٠) الجهاد والسير، واللفظ لمسلم.

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٨١).

(٣) انظر: غزوة أحد دراسة دعوية، (ص١٠٠).

(٤) المصدر نفسه، (ص١٠١).

صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾[١].

أما أولئك النفر الذين فروا لا يلوون على شيء رغم دعوة النبي ﷺ لهم بالصمود والثبات فقد نزل فيهم قوله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[٢].

ولقد حكى القرآن الكريم خبر فرار هذه المجموعة من الصحابة الذين ترخَّصوا فى الفرار بعد سماعهم نبأ مقتل النبى ﷺ الذى شاع فى ساحة المعركة، وكان أول من علم بنجاة الرسول ﷺ وأنه حى هو الصحابى كعب بن مالك الذى رفع صوته بالبشرى، فأمره النبى بالسكوت حتى لا يفطن المشركون إلى ذلك[٣]، وقد نَصَّ القرآن الكريم على أن الله تعالى قد عفا عن تلك الفئة التى فرت، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾[٤].

۞ ومضى النبى ﷺ يدعو المسلمين إليه، واستطاع ـ بالرجال القلائل الذين معه ـ أن يصعد فوق الجبل، فانحازت إليه الطائفة التى اعتصمت بالصخرة وقت الفرار.

وفرح النبى عليه الصلاة والسلام أن وجد بقية من رجاله يمتنع بهم، وعاد لهؤلاء صوابهم إذ وجدوا الرسول حيًّا، وهم يحسبونه مات[٥].

---

(١) سورة الأحزاب: الآية: (٢٣).

(٢) سورة آل عمران: الآية: (١٥٣).

(٣) انظر: مجمع الزوائد للهيثمى (٦/ ١١٢).

(٤) سورة آل عمران: الآية: (١٥٥).

(٥) غزوات الرسول (ص: ١٠٦-١٠٧).

الذين ثبتوا مع النبى ﷺ

وثبت مع النبى ﷺ نفرٌ قليل منهم سعد بن أبى وقاص وطلحة بن عبيد الله وأبو دجانة وأبو طلحة الأنصارى رضي الله عنهم.

ولما سمع المشركون صوت النبى ﷺ وهو ينادى على أصحابه «**هَلُمَّ إلىَّ أنا رسول الله**» هاجموه وأرادوا أن يقتلوه فقام تسعة من أصحابه يدافعون عنه بكل حُبٍّ وتفانى وبطولة لم يعرف التاريخ لها مثيلاً.

سبعة من الأنصار يبذلون حياتهم دفاعًا عن النبى ﷺ

۞ عن أنس رضي الله عنه قال: (إن رسول الله ﷺ أُفرد يوم أُحد فى سبعة من الأنصار ورجلين من قريش فلما رهقوه[1]، قال: «**من يردهم عنا وله الجنة، أو هو رفيقى فى الجنة**»، فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قُتل، ثم رهقوه أيضًا، فقال: «**من يردهم عنا وله الجنة، أو هو رفيقى فى الجنة**» فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل، فلم يزل كذلك، حتى قتل السبعة، فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه: «**ما أنصفنا أصحابنا**»[2].

۞ وكان آخر هؤلاء السبعة هو عمارة بن يزيد بن السكن قاتل حتى أثبتته الجراحة فسقط[3]... وبعد ما قُتل عمارة بن يزيد لم يبقَ مع النبى ﷺ سوى طلحة وسعد رضي الله عنهما.

---

(١) رهقوه: غشوه وقربوا منه وأدركوه.

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه ـ كتاب الجهاد والسير باب غزوة أحد رقم (١٧٨٩).

(٣) وبعد لحظة فاءت إلى الرسول ﷺ، فئة من المسلمين فأجهضوا الكفار عن عمارة، وأدنوه من رسول الله ﷺ، فوسَّده قدمه، فمات وخده على قدم رسول الله ﷺ. [ابن هشام ٢/ ٨١].

سعد بن أبى وقاص يُدافع عن النبى ﷺ يوم أُحد

وكان سعد ـ رضي الله عنه ـ يرمى بالنبل دفاعًا عن رسول الله ﷺ.

قال سعد: «فلقد رأيته ﷺ يناولنى النَّبل وهو يقول: **ارمِ فداك أبى وأمى**، حتى إنه ليناولنى السهم ما له من نصل، فيقول: **ارم به**»(١).

وعن (علىّ) رضي الله عنه قال: «ما سمعت النبى ﷺ جمع أبويه لأحد إلا لسعد ابن مالك(٢) فإنى سمعته يقول يوم أُحُدٍ: **يا سعد ارمِ فداك أبى وأمى**»(٣).

وعن سعد رضي الله عنه قال: كان رجل من المشركين قد أحرق المسلمين، فقال رسول الله ﷺ: «**ارم فداك أبى وأمى**»، فنزعت بسهم ليس فيه نصل، فأصبتُ جبهته، فوقع وانكشفت عورته، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه»(٤).

۞ وعن أبى عثمان النهدى قال: «لم يبقَ مع النبى ﷺ فى بعض تلك الأيام التى قاتل فيهن رسول الله ﷺ غير طلحة وسعد عن حديثهما»(٥).

أوجب طلحة رضي الله عنه يوم أُحد

وعن جابر قال: لما كان يوم أُحد وولّى الناس كان رسول الله ﷺ فى ناحية

(١) أخرجه البخارى (٦/ ٢٩٠٥ فتح) الجهاد ـ ومسلم (٤/ ١٨٧٦/ ح ٤١) فضائل الصحابة.

(٢) هو سعد بن أبى وقاص، وقال الحافظ ابن حجر فى فتح البارى (٧/ ٨٤): وفى هذا الحصر نظر لما تقدم فى ترجمة الزبير أنه ﷺ جمع له أبويه يوم الخندق.. ويجمع بينهما بأن عليًا رضي الله عنه لم يطلع على ذلك أو مراده بذلك بقيد يوم أُحد. والله أعلم.

(٣) أخرجه البخارى (٤٠٥٩) ـ ومسلم (٢٤١١)، والترمذى (٣٧٥٥).

(٤) أخرجه مسلم (٢٤١٢) الفضائل.

(٥) أخرجه البخارى فى الفضائل (٣٧٢٣)، وفى المغازى باب غزوة أحد رقم (٤٠٦٠، ٤٠٦١)، ومسلم فى الفضائل رقم (٢٤١٤).

فى اثنى عشر رجلاً منهم طلحة، فأدركه المشركون، فقال النبى ﷺ: **«مَن للقوم؟»** قال طلحة: أنا ...قال: **«كما أنت»** فقال رجل: أنا قال: **«أنت»** فقاتل حتى قُتل ثم التفت، فإذا المشركون فقال: **«مَن لهم؟»** قال طلحة: أنا قال: **«كما أنت»** فقال رجل من الأنصار: أنا قال **«أنت»** فقاتل حتى قُتل، فلم يزل كذلك حتى بقى مع نبى الله (طلحة) فقال: **«مَن للقوم؟»** قال طلحة: أنا فقاتل طلحة قتال الأحد عشر، حتى قُطعت أصابعه فقال: **«حسّ»**. فقال رسول الله ﷺ: **«لو قلت: بسم الله لرفعتك الملائكة والناس ينظرون»**.. ثم ردّ الله المشركين(١).

وعند الطبرانى: **«لو قلت: بسم الله لطارت بك الملائكة والناس ينظرون إليك»**.

وعند النسائى والبيهقى فى الدلائل: **«حتى تلج بك فى جو السماء»**.

وعند أحمد: فقال له النبى ﷺ: **«لو قلت بسم الله لرأيت يُبنى لك بها بيت فى الجنة وأنت حيٌّ فى الدنيا»**(٢).

وعن قيس بن حازم قال: رأيت يد طلحة شلَّاء وقى بها النبى يوم أُحد(٣).

وجُرح فى تلك الغزوة تسعًا وثلاثين أو خمسًا وثلاثين وشُلَّت أصبعه أى السَّبَّابة والتى تليها(٤). وقال النبى ﷺ فيه يومئذ: **«من أحب أن ينظر إلى شهيد يمشى على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله»**(٥).

---

(١) رواه الحاكم مختصرًا (٣/ ٣٦٩) معرفة الصحابة، وله طرق، قال الألبانى فى الصحيحة رقم (٢١٧١): فالحديث حسن بمجموع هذه الطرق.

(٢) رواه أحمد فى فضائل الصحابة (١٢٩٤) وإسناده صحيح.

(٣) رواه البخارى عن قيس بن حازم - حديث رقم (٤٠٦٣).

(٤) البخارى (٧/ ٣٦١).

(٥) رواه الترمذى والحاكم عن جابر، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٩٦٢).

وروى أبو داود الطيالسى عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان أبو بكر إذا ذكر يوم أُحُد قال: ذلك اليوم كله لطلحة(١).

۞ وعن عائشة وأم إسحاق بنتى طلحة قالتا: جُرح أبونا يوم أُحُد أربعًا وعشرين جراحة، وقع منها فى رأسه شجةٌ مربّعة، وقُطع نساه - يعنى العرق - وشُلَّت أصبعُه، وكان سائر الجراح فى جسده وغلبه الغَشىُ - الإغماء - ورسول الله ﷺ مكسورة رباعيتهُ مشجوجٌ فى وجهه، قد علاه الغَشْىُ، وطلحةُ محتملهُ - أى يحمل النبى ﷺ - يرجعُ به القهقرى، كلما أدركه أحد من المشركين، قاتل دونه، حتى أسنده إلى الشِّعب(٢).

حتى قال عنه ﷺ: «أوجب طلحة حين صنع برسول الله ﷺ ما صنع»(٣).

وعن موسى وعيسى ابنى طلحة عن أبيهما أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا لأعرابى جاء(٤) يسأله عمَّن قضى نَحبه مَن هو؟ فكانوا لا يجترئون على مسألته ﷺ يوقرونه ويهابونه قال: فسأله الأعرابى فأعرَض عنه ثم سأله فأعرض عنه ثم إنى اطلعت من باب المسجد - يعنى طلحة - وعلىَّ ثياب خُضر فلما رآنى رسول الله ﷺ قال: «**أين السائل عمن قضى نحبه؟**» قال الأعرابى: أنا يا رسول الله قال: «**هذا ممن قضى نحبه**»(٥).

---

(١) فتح البارى (٧/ ٣٦١).

(٢) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبى (١/ ٣٢).

(٣) أخرجه أحمد والترمذى وابن حبان والحاكم عن الزبير، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٥٤٠) بلفظ: «**أوجب طلحة حين صنع برسول الله ﷺ ما صنع**» الصحيحة (٩٤٥).

(٤) فى رواية الترمذى.. قالوا لأعرابى جاهل: سَلْهُ عَمَّن قضى نحبه من هو؟

(٥) النحب: النذر، وقيل: الموت، وقيل: العهد، وقيل غير ذلك - قال شعيب الأرنؤوط: والحديث رواه أبو يعلى (٢/ ٢٦-٢٧) والترمذى (٣٧٤٢) بإسناد حسن.

أبو طلحة (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) ودفاعه عن النبى ﷺ

۞ لقد كان أبو طلحة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ممن شهدوا بدرًا وأبلى فى تلك الغزوة بلاءً حسنًا.

وفى يوم (أُحُد) كان من الأبطال الذين ثبتوا مع النبى ﷺ ودافع عنه بكل ما يملك.

۞ عن أنس قال: لما كان يوم أُحُد، انهزم ناسٌ عن رسول الله، وأبو طلحة بين يديه مُجوِّبًا عليه بحجفة.، وكان راميًا شديد النزع، كسر يومئذ قوسين أو ثلاثة. وكان الرجلُ يمر معه الجُعبةُ من النبل، فيقول ﷺ: «**انثُرها لأبى طلحة**». ثم يُشرفُ إلى القوم. فيقولُ أبو طلحة: يا نبى الله، بأبى أنت، لا تُشرف، لا يُصيبك سهم، نحرى دون نحرك.

قال: فلقد رأيتُ عائشة وأم سليم وإنهما لمُشمرات[1]، أرى خدم سوقهما، تنقُزان القِرَبُ على مُتونهما، وتُفرغانها فى أفواه القوم، وترجعان، فتملآنها. فلقد وقع السيفُ من يد أبى طلحة مرتين أو ثلاثًا من النُّعاس[2].

۞ **وعن أنس بن مالك ـ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **ـ قال**: «كان أبو طلحة يتترَّس مع النبى ﷺ بترسٍ واحد، وكان أبو طلحة حسن الرمى، فكان إذا رمى يشرف النبى ﷺ فينظر إلى موضع نبله»[3][4].

---

(١) المشمرات: من التشمير.

(٢) أخرجه البخارى (٧/ ٢٧٨، ٢٧٩) فى المغازى: باب غزوة أُحُد. والحجفة: التُرس. ومُجوبًا: بضم الميم وفتح الجيم وتشديد الواو المكسورة، أى مترسًا عليه. وخدم سوقهما، هى الخلاخيل، جمع خدمة. تنقُزان: تثبان، والنقز: الوثب والقفز، كناية عن سرعة السير.

(٣) أخرجه البخارى (٢٠٩٢)، وأحمد (٣/ ٢٦٥).

(٤) عند عبد بن حميد فى المنتخب من الزيادة (من طريق ثابت عن أنس) وكان أبو طلحة يدفع

۞ وعن أنس رضي الله عنه أن أبا طلحة كان يرمى بين يدى رسول الله ﷺ يوم أُحُدٍ، وكان رجلاً راميًا، وكان رسول الله ﷺ إذا رمى أبو طلحة، رفع بصره ينظر أين يقع سهمه. وكان يدفع صدر رسول الله ﷺ بيده، ويقول: يا رسول الله، هكذا لا يُصيبك سهم[1].

وكان إذا بقى مع النبى ﷺ ، جثا بين يديه، وقال: نفسى لنفسك الفداءُ، ووجهى لوجهك الوقاءُ.

هذا هو على بن أبى طالب (رضي الله عنه)

۞ عن على رضي الله عنه قال: «لما انجلى الناس عن رسول الله ﷺ يوم أُحد نظرت إلى القتلى فلم أرَ رسول الله ﷺ فيهم، فقلت: والله ما كان ليفر وما أراه فى القتلى، ولكن أرى الله غضب علينا بما صنعنا فرفع نبيه ﷺ، فما فىَّ خير من أن أقاتل حتى أُقتل، فكسرت جفن سيفى، ثم حملته على القوم فأفرجوا لى، فإذا أنا برسول الله ﷺ بينهم»[2].

وهذا هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه

واستطاع عمر بن الخطاب أن يرد هجومًا مضادًا قاده خالد ضد المسلمين من عالية الجبل، واستبسل الصحابة الذين كانوا مع عمر فى رد الهجوم العنيف، عاد المسلمون فسيطروا على الموقف من جديد[3]، ويئس

= صدر رسول الله ﷺ بيده ويقول يا رسول الله هكذا لا يصيبك سهم، وكان أبو طلحة يسور نفسه بين يدى رسول الله ﷺ يقول: يا رسول الله إنى قوىٌّ جَلد فوجِّهنى فى حوائجك وابعثنى حيث شئت- وسندها صحيح.

(١) قال الأرنؤوط: إسناده صحيح: أخرجه أحمد (٣/ ٢٨٦، ٢٨٧)، وابن سعد (٣/ ٥٠٦).

(٢) المطالب العالية (٤٣٢٣) قال البوصيرى: رواه أبو يعلى برقم (٥٤٦) بإسناد حسن.

(٣) انظر: السيرة النبوية لمنير الغضبان، (ص٤٦٨، ٤٧٠).

المشركون من إنهاء المعركة بنصرٍ حاسم، وتعبوا من طولها ومن جلادة المسلمين، وانسحب النبى ﷺ بمن معه ومن لحق به من أصحابه إلى أَحد شِعاب جبل أُحد، وكان المسلمون فى حالة من الألم والخوف والغم لما أصاب رسول الله ﷺ وما أصابهم، رغم نجاحهم فى رد المشركين[1]، فأنزل الله عليهم النعاس فناموا يسيرًا، ثم أفاقوا آمنين مطمئنين قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[2]. وقد أجمع المفسرون على أن الطائفة التى قد أهمتهم أنفسهم هم المنافقون[3].

أما قريش فإنها يئست من تحقيق نصرٍ حاسم وأُجهد رجالها من طول المعركة، ومن صمود المسلمين وجلدهم وخاصة بعد أن اطمأنوا وأنزل الله عليهم الأمنة والصمود فالتفُّوا حول النبى ﷺ؛ ولذلك كَفُّوا عن مطاردة المسلمين وعن محاولة اختراق قواتهم[4].

فطنة وذكاء... وحُبٌ ووفاء

۞ عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: «لما كان يوم أُحد وصرنا إلى الشِّعب كنت أول من عرفته فقلت: هذا رسول الله ﷺ.

(١) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣٠٥).

(٢) سورة آل عمران: الآية: (١٥٤).

(٣) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣٠٥).

(٤) المصدر نفسه (١/ ٣٠٦).

فأشار إلىَّ بيده أن اسكت، ثم ألبسنى لأمته[١]، ولبس لأمتى، فلقد ضُربت حتى جُرحت عشرين جراحة أو قال بضعة وعشرين جرحًا كل من يضربنى يحسبنى رسول الله ﷺ»[٢].

۞ فتأمل معى إلى فطنة وذكاء النبى ﷺ فى هذا الموقف الجليل.. وتأمل أيضًا تلك الصورة المشرقة من محبة هذا الصحابى الجليل للنبى ﷺ فهو يستعذب كل هذا الضرب من أجل أن يفدى النبى ﷺ .

الملائكة يُدافعون عن النبى ﷺ

۞ عن سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه قال: «رأيت رجلين عن يمين رسول الله ﷺ ويساره يوم أُحد عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه كأشد القتال ما رأيتهما قبل ولا بعد»[٣].

طلحة ينهض بالنبى ﷺ

۞ وجاءَ (علىٌّ) إلى رسولِ الله ﷺ بماءٍ ليشرب منه، فوجده آجنًا، فردَّه، وغسل عن وجهه الدم، وصبَّ على رأسه. فأراد رسولُ اللهِ ﷺ أن يعلُوَ صخرةً هُنالك، فلم يَسْتَطِع لِما به، فجلس طلحةُ تحتهُ حتى صَعِدَهَا، وحانتِ الصلاةُ، فصلَّى بهم جالسًا، وصار رسولُ الله ﷺ فى ذلك اليوم تحتَ لِواء الأنصار[٤].

---

(١) لأمته: درعه.

(٢) قال الهيثمى فى المجمع (٦/ ١١٢): رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير باختصار ورجال الأوسط ثقات، ورواه أبو نعيم فى الدلائل (٢/ ٤٨٢) من طريق ابن إسحاق، وقد صرح عنده بالسماع وسنده متصل، فالحديث صحيح.

(٣) أخرجه البخارى (٥٨٢٦) اللباس - ومسلم (٢٣٠٦) الفضائل.

(٤) زاد المعاد (٣/ ١٩٩).

مشاركة نساء المسلمين فى معركة أُحد

كانت غزوة أُحد أول معركة فى الإسلام تشارك فيها نساء المسلمين، وكان لهذا أثر بالغ فى سقى المحاربين وتضميد الجرحى ... وقد ظهرت بطولات النساء وصدق إيمانهن فى هذه المعركة، فقد خرجن لكى يسقين العطشى ويداوين الجرحى، ومنهن من قامت بردِّ ضربات المشركين الموجهة للرسول ﷺ... وممن شاركن فى غزوة أُحد أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر الصديق، وأم عمارة، وحمنة بنت جحش الأسدية، وأم سليط، وأم سليم، ونسوة من الأنصار[١]... قال ثعلبة بن أبى مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (إن عمر بن الخطاب قسَّم مروطًا بين نساء المدينة، فبقى مرط جيد، فقال له بعض من عنده: يا أمير المؤمنين أعط هذا ابنة رسول الله التى عندك، يريدون أم كلثوم بنت على، فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أم سليط أحق به من نساء الأنصار ممن بايع رسول الله ﷺ، فإنها كانت تزفر[٢] لنا القِرَب يوم أُحد[٣].

(أ) سقى العطشى من المجاهدين:

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (لما كان يوم أُحد انهزم الناس عن النبى ﷺ قال: ولقد رأيت عائشة بنت أبى بكر وأم سليم وإنهما لمشمرتان أرى خدم سوقهن تنقزان[٤] القِرَب، وقال غيره: تنقلان القرب على متونهما ثم تُفرغانه فى أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنها ثم تجيئان فتفرغانه فى أفواه القوم[٥].

(١) مسلم، كتاب الجهاد، باب غزو النساء، (رقم ١٧٧٩).

(٢) تزفر: تحمل القِرَب مملوءة بالماء.

(٣) البخارى، كتاب المغازى رقم (٤٠٧١).

(٤) تنقزان: أى تحملان وتقفزان بها وثبًا.

(٥) البخارى، كتاب الجهاد والسير، باب غزو النساء (رقم ٢٨٨٠).

وقال كعب بن مالك رضي الله عنه: رأيت أم سليم بنت ملحان وعائشة على ظهورهما القِرَب يحملانها يوم أُحد، حمنة بنت جحش تسقى العطشى وتداوى الجرحى، وكانت أم أيمن تسقى الجرحى[١].

(ب) مداواة الجرحى ومواساة المصابين:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يغزو بأم سُليم، ونسوة من الأنصار معه إذا غزا، فيسقين الماء ويداوين الجرحى[٢].

وأخرج عبد الرزاق عن الزهرى: كان النساء يشهدن مع النبى ﷺ المشاهد ويسقين المقاتلة ويداوين الجرحى[٣]. وعن الرُّبيِّع بنت مُعوِّذ قالت: كنا مع النبى ﷺ نسقى القوم، ونداوى الجرحى، ونرد القتلى إلى المدينة ... وفى رواية: كنا نغزو مع النبى ﷺ فنسقى القوم ونخدمهم ونرد الجرحى والقتلى إلى المدينة[٤]... وعن أبى حازم أنه سمع سهل بن سعد رضي الله عنه وهو يسأل عن جرح رسول الله ﷺ، فقال: أما والله إنى لأعرف من كان يغسل جرح رسول الله، ومن كان يسكب الماء وبما دووى، قال: كانت فاطمة رضي الله عنها بنت رسول الله ﷺ تغسله، وعلىٌّ يسكب الماء بالمجن، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة، أخذت قطعة من حصير فأحرقتها وألصقتها فاستمسك الدم[٥].

---

(١) انظر: المغازى للواقدى (١/ ٢٤٩).

(٢) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزو النساء، رقم (١٨١٠).

(٣) البخارى فتح البارى لابن حجر (٦/ ٩٢) عند حديث رقم (٢٨٨٠).

(٤) البخارى، كتاب الجهاد والسير رقم (٢٨٨٢، ٢٨٨٣).

(٥) البخارى، كتاب المغازى، (رقم ٤٠٧٥).

(ج) الدفاع عن الإسلام ورسوله ﷺ بالسيف:

لم تقاتل المشركين يوم أُحد إلا أمُّ عمارة نسيبة المازنية رضي الله عنها.

وهذا ضمرة ابن سعيد يحدث عن جدته، وكانت قد شهدت أُحدًا تسقى الماء قالت: سمعت النبى ﷺ يقول: «**لمقام نسيبة بنت كعب اليوم خير من مقام فلان وفلان**» وكان يراها تقاتل يومئذ أشد القتال، وإنها لحاجزة ثوبها على وسطها، حتى جُرحت ثلاثة عشر جرحًا، فلما حضرتها الوفاة كنت فيمن غسلها، فعددت جراحها جرحًا جرحًا فوجدتها ثلاثة عشر جرحًا.

۞ وها هى قصتها رضي الله عنها:

۞ خرجت الأسرة المؤمنة: أم عمارة وولداها عبد الله وحبيب وزوجها واندفع زوجها وأولادها يجاهدون فى سبيل الله، بينما ذهبت أم عمارة تسقى العطشى وتُضمِّد الجرحى، ولكن ظروف المعركة جعلتها تُقبل على محاربة المشركين، وتقف وقفة الأبطال تدافع عن رسول الله ﷺ غير هيَّابة ولا وجلة وذلك عندما تفرق الناس من هول ما أصابهم فى ذلك اليوم... عندها أخذت سيفًا وترسًا ووقفت بجانب رسول الله ﷺ تقيه بنفسها[1].

۞ وقاتلت أم عمارة، فاعترضت لابن قمئة فى أُناس من المسلمين، فضربها ابن قمئة على عاتقها ضربة تركت جرحًا أجوف، وضربت هى ابن قمئة عدة ضربات بسيفها، لكن كانت عليه درعان فنجا، وبقيت أم عمارة تقاتل حتى أصابها اثنا عشر جرحًا[2].

۞ وجاءت نسوة من المؤمنين إلى ساحة القتال بعد نهاية المعركة.

---

(١) نساء مبشرات بالجنة (ص: ٦٥).

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (٤/ ٣٨).

قال أنس: لقد رأيت عائشة بنت أبى بكر وأم سليم، وإنهما لمشمرتان ـ أرى خدم سوقهما ـ تنقزان القِرَب على متونهما، تفرغانه فى أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنهما، ثم تجيئان فتفرغانه فى أفواه القوم[١] ... وقال عمر: كانت (أم سليط) تَزْفِرُ لنا القِربَ يوم أُحد[٢].

ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنةً نُعاسًا

وبعد أن اشتد الكرب والغم بالمؤمنين ومحّص الله قلوبهم، وابتلى ما فى صدورهم واتخذ ما شاء من الشهداء، أنزل عليهم أمنًا ونُعاسًا أصاب الصادقين منهم فخفف عنهم مصابهم وربط به على قلوبهم وأما أصحاب الريب والشكوك والظنون السيئة، فقد أهمتهم أنفسهم، وتلاعبت بهم الشياطين،... قال الله تعالى:

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾[٣].

۞ وقال صاحب الظلال رحمه الله: ولقد أعقب هول الهزيمة وذعرها وهرجها ومرجها سكون عجيب، سكون فى نفوس المؤمنين الذين ثابوا

(١) أخرجه البخارى (٤٠٦٤) ـ ومسلم (١٣٦) (١٨١١).

(٢) صحيح البخارى (١/ ٤٠١).

(٣) سورة آل عمران: الآية: (١٥٤).

إلى ربهم، وثابوا إلى نبيهم، لقد شملهم نُعاسٌ لطيف يستسلمون إليه مطمئنين! ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾.

وهى ظاهرة عجيبة، تشى برحمة الله التى تَحُفّ بعباده المؤمنين، والنعاس حين يلم بالمُجهَدين المرهقين المفزعين ولو لحظة واحدة يفعل فى كيانهم فعل السحر، ويردهم خلقًا جديدًا. أما الطائفة الأخرى: فهم ذوو الإيمان المزعزع الذين شغلتهم أنفسهم وأهمَّتهم، والذين لم يتخلصوا من تصورات الجاهلية، ولم يسلموا أنفسهم كلها لله خالصة، ولم يستسلموا بكُليتهم لقدره، ولم تطمئن قلوبهم إلى أن ما أصابهم إنما هو ابتلاء للتمحيص وليس تخليًا من الله عن أوليائه لأعدائه، ولا قضاءً منه سبحانه للكفر والشر والباطل بالغلبة الأخيرة والنصر الكامل.

إن هذه العقيدة تُعلم أصحابها ـ فيما تُعلم ـ أن ليس لهم فى أنفسهم شىء، فهم كلهم لله، وأنهم حين يخرجون للجهاد فى سبيله يخرجون له، ويتحركون له ويقاتلون له بلا هدف آخر لذواتهم فى هذا الجهاد[1].

عن أبى طلحة رضي الله عنه قال: كنت فيمن تغشّاه النُّعاس يوم أُحد حتى سقط سيفى من يدى مرارًا، يسقط وآخذه، ويسقط فآخذه»[2].

(١) باختصار من الظلال (١/ ٤٨٩).

(٢) رواه البخارى (٧/ ٤٢٢) المغازى.

صفحات مشرقة مع شهداء أُحد

وها هى باقة عطرة من تلك الصفحات الناصعة التى سطَّرها هؤلاء الشهداء من أصحاب سيد الأنبياء ﷺ على جبين التاريخ بسطورٍ من النور.

استشهاد حمزة ... أسد الله وأسد رسول الله ﷺ

وها هى رياح الموت تهبّ على أرض المعركة... وها هى اللحظة التى قدَّرها الله (جلَّ وعلا) ليرحل حمزة - رضي الله عنه - عن الدنيا وليصبح سيد الشهداء.

وها هو (وحشى) يحكى كيف استطاع أن يقتل (حمزة).

۞ يقول وحشى: كُنتُ غلامًا لجُبير بن مُطعم، وكان عمه طُعيمة بن عدىّ قد أُصيب يوم بدر - قُتل - فلما سارت قريش إلى أُحد، قال لى جُبير: إن قتلتَ حمزة عم محمد بعمِّى فأنت عتيق، قال: فخرجتُ مع الناس، وكنتُ رجلاً حبشيًّا أقذف بالحربة قذف الحبشة، قلَّما أُخطىء بها شيئًا، فلما التقى الناسُ خرجتُ أنظر حمزة، وأتبصَّره، حتى رأيته فى عُرض الناس مثل الجمل الأورق، يَهُدُّ الناس بسيفه هدًّا، ما يقومُ له شىء، فوالله إنى لأتهيأ له، أُريده وأستتر منه بشجرة أو حجر ليدنو منى إذ تَقدَّمنى إليه سباعُ بن عبد العُزَّى؛ فلما رآه حمزة قال: هَلُمَّ يا ابن مُقطعة البُظور. قال: فضربه ضربة كأن ما أخطأ رأسه. قال: وهززتُ حربتى، حتى إذا رضيتُ منها، دفعتُها عليه، فوقعت فى ثُنَّته، حتى خرجت من بين رجليه، وذهب لينوء نحوى، فغُلب، وتركتُه وإياها حتى مات، ثم أتيتُه فأخذتُ حربتى، ثم رجعت إلى العسكر، فقعدتُ فيه... ولم يكن لى بغيره حاجة وإنما قتلته لأُعتَق ... فلما قدمت مكة أُعتقت، ثم أقمتُ حتى إذا

افتتح رسولُ الله ﷺ مكة هربتُ إلى الطائف، فمكثت بها، فلما خرج وفدُ الطائف إلى رسول الله ﷺ ليُسْلموا تعيَّتْ عليَّ المذاهب فقلت: ألحق بالشام، أو باليمن، أو ببعض البلاد؛ فوالله إنى لفى ذلك من هميّ إذ قال لى رجل: ويحك! إنه والله ما يقتُل أحدًا من الناس دخل فى دينه، وتشهَّد شهادته.

فلما قال لى ذلك، خرجتُ حتى قَدمتُ على رسول الله ﷺ المدينة، فلم يَرُعْهُ إلا بى قائمًا على رأسه أتشهَّد بشهادة الحقّ، فلما رآنى قال: «أوحشى؟» قلت: نعم يا رسول الله، قال: «**اقعُد فحدثنى كيف قتلت حمزة**»، قال: فحدثته. فلما فرغت من حديثى قال: «**ويحك غيِّب عنى وجهك فلا أُرَيَنَّك**». قال: فكنتُ أتنكَّبُ رسول الله ﷺ حيث كان لئلا يرانى، حتى قبضهُ الله[1] - أى حتى توفاه الله -.

فلما خرج المسلمون إلى مسيلمة! خرجتُ معهم بحربتى التى قتلتُ بها حمزة. فلما التقى الناس، نظرتُ إلى مُسيلمة وفى يده السيف، فوالله ما أعرفه، وإذا رجل من الأنصار يُريده من ناحية أخرى، فكلانا يتهيأ له. حتى إذا أمكننى، دفعتُ عليه حربتى، فوقعتْ فيه. وشدّ الأنصارى عليه، فضربَه بالسيف، فربُّك أعلم أيُّنا قَتله، فإن أنا قتلتُه، فقد قتلتُ خيرَ الناس بعد رسول الله ﷺ، وقتلت شرَّ الناس[2].

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب «المغازى» باب «قتل حمزة بن عبد المطلب» (٧/ ٤٠٧٢/ فتح)، وأحمد فى «مسنده» (٣/ ٥٠١) من حديث جعفر بن عمرو بن أمية الضمرى.

(٢) قال الأرنؤوط: إسناده قوى إلى وحشى. وأخرجه ابن هشام (٢/ ٧٠-٧٣)، وابن الأثير فى «أسد الغابة» (٥/ ٣٨-٤٤٠)، وابن عبد البر فى «الاستيعاب» (١١/ ٥١) وكلهم من هذا الطريق. وأخرجه البخارى (٤٠٧٢) فى المغازى: باب قتل حمزة رضي الله عنه.

التمثيل بجسده الطاهر رضي الله عنه

ولم يكتفِ أعداء الله بقتله، بل مثّلوا بجسده، فإنه عندما بحث الصحابة ومعهم الحبيب ﷺ عن (حمزة) وجدوه قد بُقر بطنه، واحتمل وحشيٌّ كبده إلى (هند) فى نذرٍ نذرته حين قُتل أبوها يوم بدر فدُفن فى نَمِرة كانت عليه، إذا رُفعت إلى رأسه، بدت قدماه، فغطوا قدميه بشىء من الشجر[١].

وعن أنس قال: لما كان يومُ أُحُد وقف رسولُ الله ﷺ على حمزة وقد جُدع ومُثِّل به، فقال: «**لولا أن تجد صفيةُ فى نفسها، لتركتُه حتى يحشره الله من بطون السباع والطير**». وكُفن فى نَمِرة إذا خُمِّر رأسُه، بدت رجلاه، وإذا خُمرت رجلاه بدا رأسُه. ولم يُصلِّ على أحد من الشهداء. وقال: «**أنا شهيدٌ عليكم**» وكان يجمعُ الثلاثة فى قبر، والاثنين فيسأل: أيهما أكثرُ قرآنًا فيقدمه فى اللحد، وكفن الرجلين والثلاثة فى ثوب[٢].

وعن ابن عمر قال: رجع رسول الله ﷺ يوم أُحد، فسمع نساءَ بنى عبد الأشهل يبكين على هلكاهُنَّ. فقال: «**لكنَّ حمزة لا بواكى له**» فجئن نساءُ الأنصار، فبكين على حمزة عنده، فرقد، فاستيقظ وهن يبكين. فقال: «**يا ويحهنَّ! أهُنَّ ها هنا حتى الآن، مُروهنَّ، فليرجعن، ولا يبكين على هالك بعد اليوم**»[٣].

قال ﷺ: «**رأيت الملائكة تُغسِّل حمزة بن عبد المطلب وحنظلة بن الراهب**»[٤].

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى (١/ ١٩٧).

(٢) قال الأرنؤوط: إسناده حسن: أخرجه أحمد (٣/ ١٢٨)، وأبو داود (٣١٣٦) الجنائز.

(٣) قال الأرنؤوط: سنده قوى: وأخرجه أحمد (٢/ ٨٤)، وابن ماجه (١٥٩١).

(٤) رواه الطبرانى فى الكبير عن ابن عباس وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٤٦٣).

سؤال النبى ﷺ عن مقتل حمزة رضي الله عنه

بعد انتهاء المعركة سأل رسول الله ﷺ أصحابه: من رأى مقتل حمزة؟ فقال رجل: أنا رأيت مقتله، قال: «**فانطلق أرناه**» فخرج رسول الله ﷺ حتى وقف على حمزة فرآه وقد شُقَّ بطنه، وقد مُثِّل به، فقال: يا رسول الله، مُثل به والله[١]، وفى رواية: (لما بلغ النبى ﷺ قتل حمزة بكى فلما نظر إليه شهق)[٢] ووقف بين ظهرانى القتلى فقال: «**أنا شهيد على هؤلاء، كفنوهم فى دمائهم، فإنه ليس جرح يُجرَح فى الله إلا جاء يوم القيامة يُدمَى، لونه لون الدم، وريحه ريح المسك، قدموا أكثرهم قرآنًا فاجعلوه فى اللحد**»[٣].

وباستشهاد حمزة وأصحاب رسول الله ﷺ فى أُحد تحققت رؤية رسول الله ﷺ، فقد أخبر أصحابه عن رؤياه قبل الخروج إلى أُحد فقال: «**رأيت فى سيفى ذى الفقار فلاًّ**[٤]، **فأولته فلاً يكون فيكم** (أى انهزامًا)، **ورأيت أنى مردف كبشًا، فأولته كبش الكتيبة، ورأيت أنى فى درع حصينة، فأولتها المدينة، ورأيت بقرًا تُذبح، فبقر والله خير، فبقر والله خير**» فكان الذى قال رسول الله ﷺ[٥].

رسول الله ﷺ يُسمى غلامًا للأنصار بحمزة

قال جابر بن عبد الله: وُلد لرجل منا غلام، فقالوا: ما نسميه؟ فقال النبى ﷺ: «**سَمُّوه بأحب الأسماء إلىَّ، حمزة بن عبد المطلب**»[٦] فحمزة متجذر فى

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٢٨٣).

(٢) المصدر نفسه، (ص٢٨٤).

(٣) المصدر السابق، (ص٢٨٣).

(٤) الفل: الثلم فى السيف.

(٥) انظر: المسند (١/ ٢٧١) برقم (٢٤٤٥).

(٦) رواه الحاكم (٣/ ١٩٦) سنده حسن.

فى القلب النبوى، عالق بالذاكرة الكريمة.. ولكن الله سبحانه ينزل على نبيه ﷺ فيما بعد أحب الأسماء إليه، فيقولها ﷺ لمن حوله: «إن أحب أسمائكم إلى الله: عبد الله وعبد الرحمن»(١).

من شعر صفية فى بكاء حمزة

أسائلة أصحاب أُحد مخافةً ... بنات أبى من أعجم(٢) وخبيرِ
فقال الخبير إن حمزة قد ثوى ... وزير رسول الله خير وزيرِ
دعاه إله الحق ذو العرش دعوة ... إلى جنة يحيا بها وسرورِ
فذلك ما كنا نرجى ونرتجى ... لحمزة يوم الحشر خير مصيرِ
فوالله لا أنساك ما هبَّت الصبا ... بكاءً وحزنًا محضرى ومسيرى
على أسد الله الذى كان مدرها(٣) ... يذود عن الإسلام كل كفور
فيا ليت شلوى(٤) عند ذاك وأعظمى ... لدى أضبع تعتادنى ونسور
أقول وقد أعلى النعى عشيرتى ... جزى الله خيرًا من أخٍ ونصيرِ(٥)

قصة استشهاد أنس بن النضر رضي الله عنه

يقول «أنس بن مالك» غاب عمى «أنس بن النضر» عن قتال يوم بدر فقال: غبت عن أول قتال مع رسول الله ﷺ لئن أشهدنى الله قتالاً ليرينَّ الله ما

(١) مسلم، كتاب الأدب رقم (٢١٣٢).
(٢) الذى لا يفصح.
(٣) مدرها: الذى يدفع عن القوم.
(٤) الشلو: البقية- تعتادنى: تتعاهدنى.
(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١٨٥).

أصنع، فلما كان يوم أُحد انكشف المسلمون ـ انهزموا ـ فقال: اللهم إنى أبرأ إليك مما فعل هؤلاء ـ يعنى المشركين ـ وأعتذر إليك مما صنع هؤلاء ـ يعنى المسلمين ـ ثم مشى بسيفه فلقيه (سعد بن معاذ) فقال: أى سعد، والله إنى لأجد ريح الجنة دون أُحد! ثم قاتل حتى قُتل، فقال سعد: يا رسول الله ﷺ ما استطعت أن أصنع ما صنع... قال أنس بن مالك: فوجدناه بين القتلى وبه بضع وثمانون جراحة بين ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، فما عرفناه حتى جاءت أخته فعرفته ببنانه ـ رؤوس الأصابع ـ قال أنس فكنا نتحدث أن هذه الآية: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا﴾[١] نزلت فيه وفى أصحابه[٢].

۞ وفى رواية: أنه لما شاع خبر مقتل النبى ﷺ انهارت الروح المعنوية أو كادت تنهار فى نفوس كثير من أصحاب النبى ﷺ فتوقف منهم مَن توقف عن القتال وألقى أسلحته مستكينًا ومرَّ بهؤلاء أنس بن النضر وقد ألقوا ما بأيديهم فقال: ما تنتظرون؟ فقالوا: قُتل رسول الله ﷺ، قال: ما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله. ثم قال: اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ـ يعنى المسلمين ـ وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء ـ يعنى المشركين ـ ثم تقدم فلقيه سعد بن معاذ فقال أين يا أبا عمر؟ فقال أنس: واهًا لريح الجنة يا سعد إنى أجده دون أُحد.. ثم مضى فقاتل القوم حتى قُتل فما عُرف حتى عرفته أخته بعد نهاية المعركة ببنانه وبه بضع وثمانون ما بين طعنة برمح وضربة بسيف ورمية بسهم[٣].

---

(١) سورة الأحزاب: الآية: (٢٣).

(٢) أخرجه البخارى (٤٠٤٧)، ومسلم (١٩٠٣) (كتاب الجهاد).

(٣) أخرجه البخارى برقم (٤٠٤٨)، ومسلم فى كتاب الإمارة رقم (١٩٠٣/١٤٨).

هكذا كان أصحاب النبى ﷺ

۞ **عن جابر بن عبد الله** رضي الله عنهما **قال**: «قال رجل يوم أُحد: يا رسول الله إن قُتلت فأين أنا؟ قال: «**فى الجنة**» فألقى تمرات فى يديه وقاتل حتى قُتل»[(١)].

قال الحافظ فى الفتح: «وزعم ابن بشكوال أنه عُمير بن الحمام، وسبقه إلى ذلك الخطيب، واحتج بما أخرجه مسلم من حديث أنس رضي الله عنه أن عمير بن الحمام أخرج تمرات فجعل يأكل منهن ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى هذه إنها لحياة طويلة، ثم قاتل حتى قُتل.

قلت: لكن وقع التصريح فى حديث أنس أن ذلك كان يوم بدر، والقصة التى فى الباب وقع التصريح فى حديث جابر أنها كانت يوم أُحد، فالذى يظهر أنهما قصتان وقعتا لرجلين، والله أعلم..وفيه(الحديث) ما كان عليه الصحابة من حب نصر الإسلام، والرغبة فى الشهادة ابتغاء مرضاة الله»[(٢)].

قصة استشهاد عبد الله بن حرام (والد جابر) رضي الله عنهما

فعن جابر رضي الله عنه **قال**: «لما حَضر(أُحدٌ) دعانى أبى من الليل فقال: ما أُرانى إلا مقتولاً فى أول من يُقتل من أصحاب النبى ﷺ، وإنى لا أتركُ بعدى أعزَّ علىَّ منك غير نفسِ رسول الله ﷺ، وإن علىَّ دَينًا فاقضِ واستوصِ بأخواتك خيرًا.. فأصبحنا فكان أولَ قتيل، ودُفن معه آخرُ فى قبر ثم لم تطب نفسى أن أتركه مع الآخر فاستخرجته بعد ستة أشهر فإذا هو كيوم وضعتُهُ هُنَّيَةَ غير أُذنه»[(٣)].

---

(١) أخرجه البخارى (٤٠٤٦) المغازى - ومسلم (١٨٩٩) الإمارة.

(٢) فتح البارى (٧/ ٣٥٤).

(٣) أخرجه البخارى (١٣٥١).

الملائكة تظله بأجنحتها

وها هى ملائكة الرحمن (جلَّ وعلا) تتفاعل مع هذا الصحابى الجليل وتتنزل بأمر الملك (جلَّ وعلا) لتُظله بأجنحتها بعد موته.

فعن جابر بن عبد الله قال: لما كان يوم أُحد، جىء بأبى مُسجَّى - مُغطَّى - وقد مُثِّل به، قال: فأردت أن أرفع الثوب، فنهانى قومى، ثم أردت أن أرفع الثوب فنهانى قومى، فرفعه رسول الله ﷺ، أو أمر به فرُفع. فسمع صوت باكية أو صائحة. فقال: «مَنْ هذه؟» فقالوا: بنت عمرو، أو أُختُ عمرو. فقال: «**وَلِمَ تبكى؟ فما زالت الملائكة تُظله بأجنحتها حتى رُفع**»(١).

وفى رواية أخرى عند مسلم قال ﷺ: «**تبكيه أو لا تبكيه ما زالت الملائكة تُظله بأجنحتها حتى رفعتموه**».

❁ **قال الإمام النووى:** قوله ﷺ: «**فما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رُفع**» قال القاضى: يحتمل أن ذلك لتزاحمهم عليه لبشارته بفضل الله ورضاه عنه وما أعد له من الكرامة عليه .... ازدحموا عليه إكرامًا له وفرحًا به أو أظلوه من حر الشمس لئلا يتغير ريحه أو جسمه... قوله: فقال رسول الله ﷺ: «**تبكيه أو لا تبكيه مازالت الملائكة تظله**» معناه: سواء بكت عليه أم لا فما زالت الملائكة تظله أى: فقد حصل له من الكرامة هذا وغيره فلا ينبغى البكاء على مثل هذا.. وفى هذا تسلية لها(٢).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٧١)، والنسائى (٤/ ١١-١٢).

(٢) مسلم بشرح النووى (١٦/ ٣٧-٣٩) بتصرف.

الله يُكلمه بغير حجاب

وها هى أعظم منقبة لهذا الصحابى الجليل الذى جمع الله له مناقب كثيرة .... ها هو بعد موته يكلمه ربه بغير حجاب.

فعن جابر بن عبد الله، قال: لما قُتل عبد الله بن عمرو بن حَرَام، يوم أُحد، قال رسول الله ﷺ: «**يا جابر! ألا أخبرك ما قال الله ﷻ لأبيك؟**» قلتُ: بلى، قال: «**ما كلَّم الله أحدًا إلا من وراء حجاب، وكلَّم أباك كفاحًا**»[1]، فقال: «**يا عبدى تمنَّ علىَّ أُعطك، قَالَ: يَا رَبِّ، تُحْيِينِي فَأُقْتَلَ فِيكَ ثَانِيَةً. قَالَ: إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لا يُرْجَعُونَ قال: يارب فأبلغ مَن ورائى**»، فأنزل الله ﷻ هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[2][3].

وفى رواية: أن جابر قال: قال لى رسول الله ﷺ: «**يا جابر أما علمت أنَّ الله ﷻ أحيا أباك فقال له: تَمَنَّ علىَّ، فقال: أُردُّ إلى الدنيا فأُقتل مرةً أخرى فقال: إنى قضيت الحكمَ أنهم إليها لا يرجعون**»[4].

۞ والمرء يَحَارُ من كرامة الشهيد على الله... إن أبا جابر لم يستشعر وحشةً لفراق أولاده، ولم تَستشرِف نفسه للاطمئنان على فلذات كبده، بل تطلَّع للعودة إلى الدنيا كيما يذهل مرةً أُخرى عن أحبِّ شيءٍ فيها، ويتمشَّى بخُطًى ثابتةٍ إلى ساحة القتال[5].

---

(١) كفاحًا: أى مواجهة ليس بينهما حجاب ولا رسول.. وهذا بعد موته أما قبله فلا.

(٢) سورة آل عمران: الآية: (١٦٩).

(٣) أخرجه الترمذى (٣٠١٣) وصححه الحاكم (٣/ ٢٠٤) ووافقه الذهبى.

(٤) رواه أحمد (٣/ ٣٦١)، وقال الشيخ مصطفى العدوى: هو صحيح لشواهده.

(٥) في موكب الدعوة للشيخ محمد الغزالي (ص ٥٣).

استُشهد حنظلة رضي الله عنه فغسَّلته الملائكة

❁ **عن عبد الله بن الزبير** رضي الله عنه **قال**: سمعت رسول الله ﷺ **يقول عند قتل** حنظلة بن أبى عامر بعد أن التقى هو وأبو سفيان بن الحارث حين علاه شداد بن الأسود بالسيف فقتله، فقال رسول الله ﷺ: «**إن صاحبكم تُغسله الملائكة فاسألوا صاحبته عنه** - زوجته - فقالت: إنه خرج لما سمع الهائعة وهو جُنب، فقال رسول الله ﷺ: **لذلك غسلته الملائكة**»(١).

❁ **وقال** ﷺ: «**رأيت الملائكة تُغسِّل حمزة بن عبد المطلب وحنظلة بن الراهب**»(٢).

وفي رواية الواقدي: وكان حنظلة بن أبى عامر تزوج جميلة بنت عبد الله ابن أُبى ابن سلول، فأُدخلت عليه فى الليلة التى فى صبحها قتال أُحد، وكان قد استأذن رسول الله ﷺ أن يبيت عندها فأذن له، فلما صلى بالصبح غدا يريد رسول الله ﷺ ولزمته جميلة فعاد فكان معها، فأجنب منها ثم أراد الخروج، وقد أرسلت قبل ذلك إلى أربعة من قومها فأشهدتهم أنه قد دخل بها، فقيل لها بعدُ: لِمَ أشهدتِ عليه؟ قالت: رأيت كأن السماء فُرجت فدخل فيها حنظلة ثم أُطبقت، فقلت: هذه الشهادة، فأشهدتْ عليه أنه قد دخل بها، وتعلق بعبد الله بن حنظلة، ثم تزوجها ثابت بن قيس بعد فولدت له محمد بن ثابت بن قيس(٣).

---

(١) رواه الحاكم (٣/ ٢٠٤) وقال: هذا حديث على شرط مسلم ولم يُخرجاه وسكت عليه الذهبى. وقال الشيخ مصطفى العدوى فى فضائل الصحابة: إسناده حسن.

(٢) رواه الطبرانى فى الكبير عن ابن عباس وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٤٦٣).

(٣) انظر: المغازى للواقدى (١/ ٢٧٣).

۞ وفى هذا الخبر مواقف وعبر منها:

(١) فى تعلق جميلة بنت عبد الله بن أُبى بـ(حنظلة بن أبى عامر) حين رأت له تلك الرؤيا التى فسرتها بالشهادة، فالمظنون فى مثل هذه الحال أن تحاول الابتعاد عنه حتى لا تحمل منه فتكون بعد ذلك غير حظية لدى الخُطَّاب، لكنها تعلقت به رجاء أن تحمل منه فتلد ولدًا يُنسب لذلك الشهيد الذى بلغ درجات عُليا فى الصلاح أولاً، ثم بما ترجوه من نيله الشهادة، ولقد حصل لها ما أمَّلت به فحملت منه وولدت ولدًا ذكرًا سُمِّى عبد الله، وكان له ذكر بعد ذلك، وكان من أعلى ما يفتخر به أن يقول: أنا ابن غسيل الملائكة.

(٢) فى حرص حنظلة القوى على مقارعة أعداء الله الذى يتمثل فى سرعة خروجه إلى الميدان، الأمر الذى لم يتمكن معه من غُسل الجنابة.

(٣) شجاعته الفائقة تظهر فى تصدِّيه لقائد المشركين أبى سفيان بن حرب والقائد غالبًا يكون حوله من يحميه، وهو فارس وحنظلة راجل.

(٤) تشريف ربانى كريم فى نزول الملائكة لتغسيل حنظلة بمياه المزن فى صحاف الفضة.

(٥) معجزة نبوية فى إخبار الصحابة عما قامت به الملائكة من تغسيل، حيث رأى ﷺ الملائكة وهى تُغسِّل ولم يرَ الصحابة ذلك[١].

(٦) إذا كان الشهيد جُنبًا، غُسِّل، كما غسلت الملائكة حنظلة بن أبى عامر[٢].

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامى للحميدى (٥/ ١٢٩، ١٣٠).

(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢١٤).

دخل الجنة.. وما صلَّى لله صلاة واحدة

۞ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «إن عمرو بن أقيش كان له رِبًا في الجاهلية، فكره أن يُسلم حتى يأخذه فجاء يوم أُحد، فقال: أين بنو عمي؟ قالوا: بأُحد، قال: أين فلان قالوا: بأُحد، قال: أين فلان؟ قالوا: بأحد. فلبس لأمته وركب فرسه، ثم توجه قِبلهم فلما رآه المسلمون قالوا: إليك عنا يا عمرو، قال: إني قد آمنت، فقاتل حتى جُرح، فحُمل إلى أهله جريحًا، فجاء سعد بن معاذ، فقال لأخته: سليه: حمية لقومك، أو غضبًا لهم، أم غضبًا لله عز وجل، قال: بل غضبًا لله عز وجل ورسوله، فمات فدخل الجنة وما صلى لله صلاة»(١).

استشهاد اليمان (والد حذيفة) رضي الله عنهما

۞ وفي يوم أُحد كان حذيفة يقاتل قتال من يبحث عن الشهادة ويشتاق إليها، وأما أبوه فقد استُشهد يومئذ. قتله بعضُ الصحابة غلطًا، ولم يعرفه؛ لأن الجيش يختفون في لأمة الحرب، ويسترون وجوههم؛ فإن لم يكن لهم علامة بيِّنة، وإلا ربما قتل الأخُ أخاه، ولا يشعر.

۞ عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لما كان يوم أُحد هُزم المشركون، فصرخ إبليس لعنة الله عليه: أي عباد الله، أُخراكم، فرجعت أولاهم فاجتلدت هي وأخراهم، فبصر حذيفة فإذا هو بأبيه اليمان فقال: أي عباد الله أبي أبي. قال: قالت: فوالله ما احتجزوا حتى قتلوه، فقال حذيفة: يغفر الله لكم، قال عروة: فوالله مازالت في حذيفة بقية خير حتى لحق بالله»(٢).

---

(١) رواه أبو داود وأحمد وقال الحافظ في الإصابة (٢/ ٥١٩): هذا إسناد حسن.

(٢) أخرجه البخاري (٤٠٦٥) المغازي ـ والحاكم (٣/ ٣٧٩) في المستدرك.

وعن محمود بن لبيد قال: لما خرج رسول الله ﷺ إلى أُحد وقع اليمان ابن جابر أبى حذيفة وثابت بن وقش بن زعوراء فى الآطام مع النساء والصبيان، فقال أحدهما لصاحبه وهما شيخان كبيران: لا أبا لك ما ننتظر فوالله ما بقى لواحد منا من عمره إلا ظمأ حمار(١)، إنما نحن هامة القوم(٢)، ألا نأخذ أسيافنا ثم نلحق برسول الله ﷺ ... فدخلا فى المسلمين ولا يعلمون بهما، فأما ثابت بن وقش فقتله المشركون، وأما أبو حذيفة فاختلفت عليه أسياف المسلمين فقتلوه، ولا يعرفونه. فقال حذيفة: أبى أبى فقالوا: والله ما عرفناه، (وصدقوا). فقال حذيفة: يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، فأراد رسول الله ﷺ أن يَدِيَه - يعطيه الدية -، فتصدق به حذيفة على المسلمين، فزاده ذلك عند رسول الله ﷺ »(٣) (٤).

استشهاد عبد الله بن جحش رضي الله عنه

۞ عن سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه: «أن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد ألا تدعو الله... فخلَوا فى ناحية فدعا سعد فقال: يارب إذا لقيت العدو، فلقِّنى رجلاً شديدًا بأسه، شديدًا حرده، أقاتله ويقاتلنى، ثم ارزقنى الظفر

---

(١) ظمء الحمار: الظمء: مقدار ما يكون بين الشربتين وأقصر الإظماء ظمء الحمار؛ لأنه لا يصبر عن الماء فضُرب مثلاً بقرب الأجل.

(٢) الهامة: طائر يخرج من رأس القتيل إذا قُتل «فزعموا» أنه لا يزال يصيح اسقونى - اسقونى - اسقونى - حتى يؤخذ بثأره فضربته العرب مثلاً للموت.

(٣) قيل إن الذى قتله خطأ هو عتبة بن مسعود أخو عبد الله بن مسعود، وعتبة هو أول من سَمَّى المصحف مصحفًا.

(٤) رواه الحاكم (٣/ ٢٠٢) معرفة الصحابة، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يُخرجاه، وأخرج البخارى الجزء الأخير فى قتل اليمان فى صحيحه (٧/ ٤١٨) المغازى.

عليه حتى أقتله، وآخذ سلبه، فأمَّن عبد الله بن جحش، ثم قال: اللهم ارزقنى رجلاً شديدًا حرده، شديدًا بأسه، أقاتله فيك ويقاتلنى، ثم يأخذنى فيجدع أنفى وأذنى، فإذا لقيتك غدًا، قلت: من جدع أنفك وأذنك، فأقول: فيك وفى رسولك، فتقول صدقت: قال سعد: يا بنى كانت دعوة عبد الله بن جحش خيرًا من دعوتى، لقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنه لمعلقان فى خيط(١).

وعن سعيد بن المسيب قال: قال عبد الله بن جحش: اللهم إنى أُقسم عليك أن ألقى العدو غدًا فيقتلونى ويجدعوا أنفى وأذنى ثم تسألنى بِمَ ذاك فأقول فيك. قال سعيد بن المسيب: إنى لأرجو أن يبرَّ الله آخر قسمه كما برَّ أوله(٢).

۞ هذه صورة للرجولة الفارعة التى اصطدم بها الكفر أول المعركة وآخرها فماد أمامها، واضطربت من تحت أقدامه الأرض، فما ربح شيئًا فى بداية القتال، ولا انتفع بما ربح آخره.

وهذا اللون من البطولة مدفون تحت جدران التاريخ الإسلامى القائم إلى اليوم، وما يقوم للإسلام صرح، ولا ينكشف عنه طغيان، إلا بهذه القوى المذخورة المضغوطة فى أفئدة الصديقين والشهداء..

مَن سر هذا الإلهام؟ مَن مُشرق هذا الضياء؟

إنه محمد ﷺ ... إنه هو الذى ربَّى ذلك الجيل الفذ، ومن قلبه الكبير أُترعت هذه القلوب، تفانيًا فى الله، وإيثارًا لما عنده(٣).

---

(١) أخرجه البيهقى فى السنن (٩/ ٢٤) والدلائل (٣/ ٢٥٠)، وأبو نعيم فى الحلية: (١/ ١٠٩).

(٢) رواه الحاكم (٣/ ١٩٩-٢٠٠) معرفة الصحابة، وقال: صحيح على شرط الشيخين لولا إرسال فيه. ووافقه الذهبى. وقال الألبانى: لكن له شاهد موصول.

(٣) فقه السيرة للغزالى (ص ٣٠١، ٣٠٢).

عمرو بن الجموح يطأ برجله في الجنة

لقد كان رضي الله عنه أعرج شديد العرج، وكان له أربعة أبناء شباب يغزون مع رسول الله ﷺ، فلما توجه إلى أُحُد أراد أن يخرج معهم فقال له بنوه: إن الله جعل لك رخصة فلو قعدت ونحن نكفيك، وقد وضع الله عنك الجهاد فأتى عمرو رسول الله ﷺ فقال: إن بَنِيَّ هؤلاء يمنعونني أن أجاهد معك، ووالله إني لأرجو أن أُستشهد، فأطأ بعرجتي في الجنة. فقال له رسول الله ﷺ: «**أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد**» وقال لبنيه: «**وما عليكم أن تدعوه، لعل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة**» فخرج مع رسول الله ﷺ، فقُتل يوم أُحُد شهيدًا»(١).

وفي رواية: أنه «أتى عمرو بن الجموح إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله! أرأيت إن قاتلتُ في سبيل الله حتى أُقتل، أأمشي برجلي هذه صحيحة في الجنة؟ وكان رجلُه عرجاء، فقال رسول الله ﷺ: «**نعم**». فقُتل يوم أُحُد هو وابن أخيه ومولى له. فمرَّ رسول الله ﷺ، فقال: «**كأني أنظر إليك تمشي برجلك هذه صحيحة في الجنة**». فأمر رسول الله ﷺ بهما وبمولاهما فجُعلوا في قبرٍ واحد(٢).

سعد بن الربيع ... ووصيته الغالية للأنصار

قال زيد بن ثابت: بعثني رسول الله ﷺ يوم أُحد أطلب(سعد بن الربيع) فقال لي: «**إن رأيته فأقرئه مني السلام، وقل له: يقول لك رسول الله ﷺ: كيف تجدك؟**» قال: فجعلت أطوف بين القتلى، فأتيته وهو بآخر رمق، وفيه

(١) رواه ابن هشام (٢/ ١٣٩) عن ابن إسحاق، وبعضه في المسند (٥/ ٢٩٩) من حديث أبي قتادة، وصحح الألباني إسناده في تحقيق فقه السيرة. هامش (٢٨١).

(٢) قال الحافظ في الفتح (٣/ ١٧٣): سنده حسن ـ رواه أحمد (٥/ ٢٩٩).

سبعون ضربة: ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم، فقلت: يا سعد، إن رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام، ويقول لك: «**أخبرني كيف تجدك؟**» فقال: وعلى رسول الله ﷺ السلام، قل له: يا رسول الله أجد ريح الجنة، وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم عند الله إن خَلُص إلى رسول الله ﷺ مكروه وفيكم عينٌ تطرف. وفاضت نفسه من وقته[1].

مصعب بن عمير.. والشهادة في سبيل الله

قال ابن إسحاق: وقاتل مصعب بن عمير دون رسول الله ﷺ حتى قُتل، قتله ابن قمئة الليثي، وهو يظنه رسول الله فرجع إلى قريش فقال: قتلت محمدًا»[2].

۞ **وقال خبّاب بن الأرتّ:** هاجرنا مع النبي ﷺ نريدُ وجه الله فوقع أجرنا على الله فمنا مَن مضى لم يأخذ من أجره شيئًا منهم مصعبُ بن عُمير، قُتل يوم أُحد وترك نَمِرةَ فكنا إذا غطينا بها رأسهُ بدت رجلاه، وإذا غطينا رجليه بدا رأسه ونجعل على رجليه شيئًا من إذخر، ومنا من أينعت له ثمرتُهُ فهو يهدبُها[3].

وظل أصحاب الحبيب ﷺ يذكرون مُصعبًا في كل وقت ولم يغب وجهه عنهم لحظة واحدة.

فهذا عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أُتي بطعام ـ وكان صائمًا ـ فقال: قُتل مصعب بن عمير ـ وهو خيرٌ مني ـ كُفِّن في بُردة إن غُطِّي رأسه بدت رجلاه،

(١) رواه ابن هشام (٢/ ٩٤، ٩٥) والحاكم (٣/ ٢٠١) وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) رواه ابن هشام (٢/ ٧٣)، ابن سعد (٣/ ١/ ٨٥) وانظر سير أعلام النبلاء (١/ ١٤٨).

(٣) أخرجه البخاري (٣٨٩٧) ومسلم (٩٤٠).

وإن غُطِّي رجلاه بدا رأسُهُ، وقُتِلَ حمزة - وهو خير مني - ثم بُسط لنا من الدنيا ما بُسط أو قال: أُعطينا من الدنيا ما أُعطينا - وقد خشينا أن تكون حسناتنا عُجِّلت لنا - ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام[١].

❁ **وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال:** «إن رسول الله ﷺ حين انصرف من أُحد مرَّ على مصعب بن عمير وهو مقتول على طريقه، فوقف عليه، ودعا له، ثم قرأ هذه الآية: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾[٢]. ثم قال رسول الله ﷺ: **«أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة، فأتوهم وزوروهم... والذي نفسي بيده لا يُسلم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردوا عليه»**[٣].

وهب المزني وابن أخيه رضي الله عنهما

أقبل وهب بن قابوس المزني، ومعه ابن أخيه الحارث بن عقبة بن قابوس، بغنم لهما من جبل مزينة، فوجدا المدينة خلوًا فسألا: أين الناس؟ فقالوا: بأُحد، خرج رسول الله ﷺ يقاتل المشركين من قريش، فقالا: لا نبتغي أثرًا بعد عين فخرجا حتى أتيا النبي ﷺ بأُحد فوجدا القوم يقتتلون والدولة لرسول الله ﷺ وأصحابه، فأغارا مع المسلمين في النهب، وجاءت الخيل من ورائهم، خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل، فاختلطوا، فقاتلا أشد القتال، فانفرقت فرقة من المشركين فقال رسول الله ﷺ: **«من لهذه الفرقة؟»** فقال وهب بن قابوس: أنا يا رسول الله، فقام فرماهم بالنبل حتى انصرفوا ثم رجع.

(١) أخرجه البخاري (١٢٧٥).

(٢) سورة الأحزاب: الآية: (٢٣).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٢٠٠)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

فانفرقت فرقة أخرى فقال رسول الله ﷺ: «**من لهذه الكتيبة؟**» فقال المزنى: أنا يا رسول الله، فقام فذبَّها بالسيف حتى ولوا، ثم رجع المزنى، ثم طلعت كتيبة أخرى فقال: «**من يقوم لهؤلاء؟**» فقال المزنى: أنا يا رسول الله، فقال: «**قم، وأبشر بالجنة**» فقام المزنى مسرورًا يقول: والله لا أقيل ولا أستقيل، فقام فجعل يدخل فيهم فيضرب بالسيف، ورسول الله ﷺ ينظر إلى المسلمين، حتى خرج من أقصاهم ورسول الله ﷺ يقول: «**اللهم ارحمه**» ثم يرجع فيهم، فما زال كذلك وهم محدقون به، حتى اشتملت عليه أسيافهم ورماحهم فقتلوه، فوُجد به يومئذ عشرون طعنة برمح، كلها قد خلصت إلى مقتل، ومُثِّل به أقبح المثلة يومئذ، ثم قام ابن أخيه فقاتل قتاله حتى قُتل، فكان عمر بن الخطاب يقول: إن أحب ميتة أموت لما مات عليها المزني[١].

۞ وكان بلال بن الحارث المزنى يحدث ويقول: شهدنا القادسية مع سعد بن أبى وقاص، فلما فتح الله علينا وقُسمت بيننا غنائمنا، فأسقط فتى من آل قابوس من مزينة[٢]، فجئت سعدًا حين فرغ من نومه فقال: بلال؟ قلت: بلال، قال: مرحبًا بك، من هذا معك؟ قلت: رجل من قومى من آل قابوس، قال سعد: ما أنت يا فتى من المزنى الذى قُتل يوم أُحد؟ قال: ابن أخيه، قال سعد: مرحبًا وأهلاً وأنعم الله بك عينًا، ذلك الرجل شهدت منه يوم أُحد مشهدًا ما شهدته من أحد، لقد رأيتنا وقد أحدق المشركون بنا من كل ناحية ورسول الله ﷺ وسطنا، والكتائب تطلع من كل ناحية، وإن رسول الله ﷺ ليرمى ببصره فى الناس يتوسمهم[٣] يقول: «**من لهذه الكتيبة؟**» كل ذلك يقول

(١) انظر: المغازى للواقدى (١/ ٢٧٥).

(٢) المصدر نفسه (١/ ٢٧٧).

(٣) انظر: المغازى للواقدى (١/ ٢٧٧).

المزنى: أنا يا رسول الله، كل ذلك يرده فما أنسى آخر مرة قامها فقال رسول الله ﷺ: «**قم وأبشر بالجنة**» قال سعد: وقمت على أثره يعلم الله أنى أطلب مثل ما يطلب يومئذ من الشهادة، فخضنا حومتهم حتى رجعنا فيهم الثانية، وأصابوه رَحِمَهُ الله ووددت والله أنى كنت أُصبت يومئذ معه، ولكن أجلى استأخر، ثم دعا سعد من ساعته بسهمه فأعطاه وفضله، وقال: اخترْ فى المقام عندنا أو الرجوع إلى أهلك، فقال بلال: إنه يستحب الرجوع، فرجعنا.

۞ **وقال سعد**: أشهد .. لرأيت رسول الله ﷺ واقفًا عليه وهو مقتول، وهو يقول: «**رضى الله عنك فإنى عنك راضٍ**»، ثم رأيت رسول الله ﷺ قام على قدميه وقد نال النبى ﷺ من الجراح ما ناله، وإنى لأعلم أن القيام ليشق عليه على قبره حتى وُضع فى لحده، وعليه بُردة لها أعلام خُضر، فمدَّ رسول الله ﷺ البردة على رأسه فخمره، وأدركه فيها طولًا، وبلغت نصف ساقيه، وأمرنا فجمعنا الحرمل فجعلناه على رجليه، وهو فى لحده، ثم انصرف، فما حال أموت عليها أحبُّ إلىَّ من أن ألقى الله تعالى على حال المزني[1].

وهكذا يفعل الإيمان بأصحابه فهذا وهب المزنى وابن أخيه تركا الأغنام بالمدينة والتحقا بصفوف المسلمين وحرصا على نيل الشهادة، فأكرمهما الله بها، وقد كانت تلك الملحمة التى سطرها المزنى محفورة فى ذاكرة الصحابة،... فهذا سعد بن أبى وقاص يتذكرها بعد مرور ثلاث عشرة سنة تقريبًا على غزوة أُحد لمجرد سماع اسم رجل من عشيرة المزنى ويتمنى أن يموت ويلقى الله على مثل حالة المزنى[2].

---

(١) المصدر نفسه (١/ ٢٧٧).

(٢) غزوات الرسول (ص ١١٦، ١١٧).

خيثمة أبو سعد رضي الله عنهما

۞ قال خيثمة أبو سعد: وكان ابنه استُشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر، لقد أخطأتنى وقعة بدر، وكنت والله عليها حريصًا، حتى ساهمت ابنى فى الخروج، فخرج سهمه، فَرُزق الشهادة، وقد رأيت البارحة ابنى فى النوم فى أحسن صورة يسرح فى ثمار الجنة وأنهارها، ويقول: الحق بنا ترافقنا فى الجنة، فقد وجدت ما وعدنى ربى حقًا، وقد والله يا رسول الله أصبحت مُشْتَاقًا إلى مرافقته فى الجنة، وقد كبرت سنى، ورقَّ عظمى، وأحببت لقاء ربى، فادعُ الله يا رسول الله أن يرزقنى الشهادة، ومرافقة سعد فى الجنة، فدعا له رسول الله ﷺ بذلك فقُتل بأُحدٍ شهيدًا[1].

إنما الأعمال بالخواتيم

كان ممن قاتل مع المسلمين يوم أُحد رجل يُدعى قُزمان، كان يُعرف بالشجاعة، وكان رسول الله ﷺ يقول إذا ذُكر له: إنه من أهل النار، فتأخر يوم أُحد فعيرته نساء بنى ظفر، فأتى رسول الله ﷺ وهو يسوى الصفوف حتى انتهى إلى الصف الأول، فكان أول مَن رمى من المسلمين بسهم، فجعل يرسل نبلاً كأنها الرماح ويكت كتيت الجمل، ثم فعل بالسيف الأفاعيل حتى قتل سبعة أو تسعة وأصابته جراحة، فوقع فناداه قتادة بن النعمان: يا أبا الغيداق. هنيئًا لك الشهادة، وجعل رجال من المسلمين يقولون له: والله لقد أبليت اليوم يا قزمان فأبشر، قال: بماذا؟ فوالله ما قاتلت إلا على أحساب قومى، فلولا ذلك ما قاتلت، فذكر ذلك

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٠٨).

لرسول الله ﷺ فقال: «**إنه من أهل النار، إن الله تعالى يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر**»[(١)]. وفى هذا الخبر بيان لمكان النية فى الجهاد، وإنه مَن قاتل حمية عن قومه أو ليقال شجاع ولم تكن أعماله لله تعالى لا يقبل الله منه.

۞ عن سهل بن سعد الساعدى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «إن رسول الله ﷺ التقى هو والمشركون فاقتتلوا، فلما مال رسول الله ﷺ إلى عسكره، ومال الآخرون إلى عسكرهم ـ وفى أصحاب رسول الله ﷺ رجل لا يدع لهم شاذة ولا فاذة[(٢)] إلا اتبعها يضربها بسيفه ـ فقيل: ما أجزأ منا اليوم أحد كما أجزأ فلان، فقال رسول الله ﷺ: «**أما إنه من أهل النار**»، فقال رجل من القوم: أنا صاحبه. قال فخرج معه كلما وقف وقف معه، وإذا أسرع أسرع معه، قال: فجُرح الرجل جرحًا شديدًا، فاستعجل الموت فوضع سيفه بالأرض وذبابه بين ثدييه، ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه، فخرج الرجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أشهد أنك رسول الله، قال: «**وما ذاك؟**».

قال: الرجل الذى ذكرت آنفًا أنه من أهل النار فأعظم الناس ذلك. فقلت: أنا لكم به، فخرجت فى طلبه، ثم جُرح جرحًا شديدًا فاستعجل الموت، فوضع نصل سيفه فى الأرض وذبابه[(٣)] بين ثدييه، ثم تحامل عليه[(٤)] فقتل نفسه، فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: «**إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار**

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٩٩)، غزوة أحد دراسة دعوية، (ص١١٣).

(٢) لا يدع لهم شاذة ولا فاذة: شجاع لا يستطيع أحد أن يلقاه.

(٣) ذبابه: رأسه.

(٤) تحامل عليه: اتكأ عليه.

فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة»[١]. [٢]

۞ أجل والله .... إن الأمور بخواتيمها، وقد وقع فى غزوة أُحد ما يحقق هذه القاعدة المهمة فى هذا الدين، فقد وقع حادثان يؤكدان هذا الأمر، وفيهما عظة وعبرة لكل مسلم متعظ ومعتبر[٣].

(١) **شأن الأصيرم** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: واسمه عمرو بن ثابت بن وقش، عُرض عليه الإسلام فلم يُسلم، وروى قصته أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن الأصيرم كان يأبى الإسلام على قومه، فجاء ذات يوم ورسول الله ﷺ وأصحابه بأُحد فقال: أين سعد بن معاذ؟ فقيل: بأُحد، فقال: أين بنو أخيه؟ قيل: بأحد: فسأل عن قومه فقيل: بأحد، فبدا له الإسلام فأسلم، وأخذ سيفه، ورمحه، وأخذ لأمته، وركب فرسه فعدا حتى دخل فى عرض الناس، فلما رآه المسلمون قالوا: إليك عنا يا عمرو، قال: إنى قد آمنت، فقاتل حتى أثخنته الجراحة، فبينما رجال من بنى عبد الأشهل يلتمسون قتلاهم فى المعركة إذ هم به، فقالوا: والله إن هذا الأصيرم، ما جاء به؟ لقد تركناه وإنه لمنكر لهذا الحديث، فسألوه: ما جاء بك؟ أَحَدبٌ على قومك أم رغبة فى الإسلام؟ فقال: بل رغبة فى الإسلام، آمنت بالله تعالى ورسوله، وأسلمت ثم أخذت سيفى فغدوت مع رسول الله ﷺ، ثم قاتلت حتى أصابنى ما أصابنى، وإن متُّ فأموالى إلى محمد يضعها حيث شاء، فذكروه لرسول الله ﷺ فقال:

---

(١) أخرجه البخارى فى المغازى باب غزوة خيبر رقم: ٤٢٠٢، ومسلم فى الإيمان باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه رقم: ١١٢ وفى رواية عند مسلم وقع أن الغزوة «حنين» وفى رواية أخرى أبهمت وأخرجه أحمد فى المسند: ٤/ ١٣٥، وفيه أن الغزوة هى خيبر.

(٢) وقد جاء عند ابن هشام فى سيرته التصريح بأن هذا الرجل هو قزمان، وأنه قتل نفسه يوم أُحد.

(٣) انظر: غزوة أحد لأبى فارس، ص (١١٧).

«**إنه من أهل الجنة**». وقيل: مات فدخل الجنة وما صلى من صلاة، فقال النبي ﷺ: «**عَمِل قليلاً وأُجر**»[١] وكان أبو هريرة يقول: حدثوني عن رجل دخل الجنة ولم يُصلِّ قط، فإذا لم يعرفه الناس سألوه من هو؟ قال: هو أصيرم بن عبد الأشهل[٢].

(٢) **شأن مخيريق:** لما كانت غزوة أُحد وخرج رسول الله ﷺ يقاتل المشركين، جمع مخيريقٌ قومه اليهود وقال لهم: يا معشر يهود، والله لقد علمتم أن نصر محمد عليكم لَحَقٌّ، قالوا: إن اليوم يوم السبت، قال: لا سبت لكم. فأخذ سيفه وعدته، وقال: إن أُصبت فمالى لمحمد يصنع فيه ما شاء، ثم غدا إلى رسول الله ﷺ فقاتل معه حتى قُتل، فقال رسول الله ﷺ: مخيريق خير يهود[٣].

وقد اختُلف فى إسلامه، فنقل الذهبى فى التجريد وابن حجر فى الإصابة عن الواقدي[٤] أن مخيريق مات مسلمًا، وذكر السهيلى فى الروض الأنف أنه مسلم، وذلك حين قال معقبًا على رواية ابن إسحاق عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**مخيريق خير يهود**» قال: ومخيريق مسلم، ولا يجوز أن يقال فى مسلم هو خير النصارى، ولا خير اليهود؛ لأن أفعل من كذا، إذا أضيف فهو بعض ما أضيف إليه، فإن قيل: وكيف جاز هذا؟ قلنا: لأنه قال: خير يهود، ولم يقل خير اليهود، ويهود اسم علم كثمود، يقال: إنهم نُسبوا إلى يهوذا بن يعقوب ثم عُربت الذال دالا[٥]. وقد حقق هذه المسألة الدكتور عبد الله

(١) انظر: البخارى، الجهاد، رقم ٢٨٠٨.

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١٠٠، ١٠١).

(٣) انظر: المغازى للواقدى، (١/ ٢٦٣)، والسيرة لابن هشام (٣/ ٩٩).

(٤) انظر: تجريد أسماء الصحابة (٢/ ٧٠)، الإصابة (٣/ ٣٩٣).

(٥) انظر: الروض الأنف للسهيلى (٤/ ٤٠٨، ٤٠٩).

الشقاوى فى كتابه (اليهود فى السنة المطهرة) وذهب إلى أن مخيريق قد أسلم، ودفعه ذلك إلى القتال مع المسلمين، وإلى التصدق بماله مع كثرته، ومع ما عرف عن اليهود من حب المال والتكالب عليه[(١)].

من دلائل النبوة

(١) **عين قتادة بن النعمان** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أصيبت عين قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حتى سقطت على وجنتيه فردَّها رسول الله ﷺ بيده، فكانت أحسن عينيه وأحدَّهما، وأصبحت لا ترمد إذا رمدت الأخرى[(٢)]، وقد قَدِم ولده على عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ فسأله من أنت؟ فقال له مرتجلًا:

أنا ابن الذى سالت على الخد عينه ... فَرُدَّت بكفِّ المصطفى أحسن الردِّ
فعادت كما كانت لأول أمرها ... فيا حُسنها عينًا ويا حُسن ما خَدِّ

فقال عمر بن عبد العزيز عند ذلك:

تلك المكارم لا قعبان من لبنٍ ... شيبا بماءٍ فعادا بعدُ أبوالا

ثم وصله فأحسن جائزته[(٣)].

(٢) **مقتل أُبى بن خلف**: كان أُبى بن خلف يلقى رسول الله بمكة، فيقول: يا محمد إن عندى العود فرسًا أعلفه كل يوم، أقتلك عليه، فقال رسول الله ﷺ: «**بل أنا أقتلك إن شاء الله**» فلما كان يوم أُحد، وأسند رسول الله ﷺ فى الشعب أدركه أُبى بن خلف وهو يقول: أى محمد لا نجوت، فقال القوم:

---

(١) انظر: اليهود فى السنة المطهرة (١/ ٣٠٦).
(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٣٨٨).
(٣) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٥).

يا رسول الله، أيعطف عليه رجل منا؟ فقال رسول الله ﷺ «دعوه» فلما دنا تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة، فلما أخذها رسول الله ﷺ منه انتفض بها انتفاضة تطاير عنه مَن حوله تطايُر الشعراء(١) عن ظهر البعير إذا انتفض بها، ثم استقبله فطعنه فى عنقه طعنة تدأدأ(٢) منها عن فرسه، فلما رجع إلى قريش وقد خدشه فى عنقه خدشًا غير كبير، فاحتقن الدم، قال: قتلنى والله محمد، قالوا له: ذهب والله فؤادك، والله إنْ بك من بأس، قال: إنه قد كان قال لى بمكة: أنا أقتلك، فوالله لو بصق علىَّ لقتلنى، فمات عدو الله بسرف(٣)، وهم قافلون به إلى مكة(٤).

وفى هذا الخبر مثل رفيع على شجاعة رسول الله ﷺ فقد كان أُبى بن خلف مُدجَّجًا بالسلاح ومتدرعًا بالحديد الواقى، ومع ذلك استطاع رسول الله ﷺ أن يطعنه بالرمح من فرجة صغيرة فى عنقه بين الدرع والبيضة، وهذا يدل على قدرة رسول الله القتالية ودقته فى إصابة الهدف، وفى هذا الخبر معجزة للنبى فقد أخبر أُبيًّا بأنه سوف يقتله بمشيئة الله وتم ذلك، وفى الخبر عبرة فى إيمان المشركين بصدق النبى ﷺ وأنه إذا قال شيئًا وقع، فقد كان أبى بن خلف على يقين بأنه سيموت من تلك الطعنة، ومع ذلك لم يدخلوا فى الإسلام لعنادهم وعبادة أهوائهم(٥).

وقد خلد حسان بن ثابت هذه الحادثة فى شعره فقال:

---

(١) الشعراء: ذُباب له لدغ.

(٢) تدأدأ: تقلب عن فرسه فجعل يتدحرج.

(٣) سرف: موضع على ستة أميال من مكة.

(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٩٣، ٩٤).

(٥) انظر: التاريخ الإسلامى للحميدى (٥/ ١٦٩).

لقد ورث الضلالة عن أبيه أُبى يوم بارزه الرسول
أتيت إليه تحمل رم عظم وتوعده وأنت به جهول(١)

أبو سفيان يتفاخر على المسلمين بعد المعركة

ولما انقضت الحرب أشرف (أبو سفيان) على الجبل ونادى: أفى القوم محمد؟ أفى القوم محمد؟ أفى القوم محمد؟ ثلاثًا، فنهاهم رسول الله ﷺ أن يجيبوه، ثم قال: أفى القوم ابن أبى قحافة؟ أفى القوم ابن أبى قحافة؟ أفى القوم ابن الخطاب؟ أفى القوم ابن الخطاب؟ ثم أقبل على أصحابه فقال: أما هؤلاء فقد قُتلوا وقد كُفيتموهم، فما ملك عمر نفسه أن قال: كذبت والله يا عدو الله إن الذين عددت لأحياء كلهم، وقد بقى لك ما يسوؤك، فقال ـ يعنى أبو سفيان ـ: يومٌ بيوم بدر والحرب سجال، إنكم ستجدون فى القوم مُثلة لم آمر بها، ولم تسؤنى ثم أخذ يرتجز: أُعْلُ هُبَل. أُعْلُ هُبَل.

فقال رسول الله ﷺ: **«ألا تجيبونه؟»** قالوا: يا رسول الله ما نقول؟ قال: **«قولوا الله أعلى وأجلّ»**، قال ـ يعنى أبو سفيان ـ: إن العُزَّى لنا ولا عُزى لكم، فقال رسول الله ﷺ: **«ألا تجيبونه؟»** قالوا: يا رسول الله وما نقول؟ قال: **«قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم»**(٢).

۞ **وفى رواية أنه قال:** أين ابن أبى كبشة؟ (يقصد النبى ﷺ)... أين ابن أبى قحافة؟ أين ابن الخطاب؟ فقال عمر: هذا رسول الله ﷺ، وهذا أبو بكر، وهذا أنا عمر. قال: فقال أبو سفيان: يومٌ بيوم بدر، الأيام دول وإن

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٩٤).

(٢) أخرجه البخارى (٤٠٤٣) المغازى ـ وأحمد (٤/ ٢٩٣).

الحرب سجال[١] قال: فقال عمر: لا سواء، قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار، قال: إنكم لتزعمون ذلك، لقد خبنا إذًا وخسرنا[٢].

كان فى سؤال أبى سفيان عن رسول الله ﷺ وأبى بكر وعمر دلالة واضحة على اهتمام المشركين بهؤلاء دون غيرهم؛ لأنه فى علمهم أنهم أهل الإسلام وبهم قام صرحه وأركان دولته وأعمدة نظامه، ففى موتهم يعتقد المشركون أنه لا يقوم الإسلام بعدهم.

وكان السكوت عن إجابة أبى سفيان أولاً تصغيرًا له حتى إذا انتشى وملأه الكبر أخبروه بحقيقة الأمر، وردُّوا عليه بشجاعة[٣].

النبى ﷺ يتثبت من عودة المشركين إلى مكة

ولما انقضت الحربُ، انكفأ المشركون، فظنَّ المسلمون أنهم قَصَدُوا المدينةَ لإحراز الذرارى والأموال، فَشَقَّ ذلك عليهم، فقال النبىُّ ﷺ لعلى بن أبى طالب رضي الله عنه: «**اخْرُجْ فى آثارِ القَوْم فانْظُرْ مَاذَا يَصْنَعُونَ وَمَاذَا يُرِيدُونَ، فَإِنْ هُمْ جَنَّبوا الخَيْلَ وامْتَطَوُا الإبلَ، فَإِنَّهُمْ يُرِيدُونَ مَكَّةَ، وَإِنْ رَكِبوا الخَيْلَ وسَاقُوا الإبلَ فَإِنَّهُمْ يُرِيدُون المَدِينَةَ فوالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لِئَنْ أَرادُوهَا، لأَسِيَرنَّ إِلَيْهِمْ، ثُمَّ لأُنَاجِزَنَّهُم فِيهَا**». قال علىٌّ: فخرجتُ فى آثارهم أنظُر ماذا يصنعون، فجنَّبوا الخيلَ، وامتطوا الإبل، ووجَّهوا إلى مكة، ولما عزمُوا على الرجوع إلى مكة، أشرف على المسلمين أبو سفيان، ثم ناداهم:

---

(١) سجال: أى مرة لنا ومرة علينا.

(٢) أخرجه أحمد فى المسند: (١/ ٢٨٧، ٢٨٨) ٤٦٣، والحاكم فى المستدرك: (٢/ ٢٩٦، ٢٩٧) وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبى.

(٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٣٩٢).

مَوْعِدُكم المَوْسِمُ ببدر، فقال النبى ﷺ: «**قولوا: نَعَمْ قَدْ فَعَلْنَا**» قال أبو سفيان: «**فَذِلكُم المَوْعِد**» ثم انصرف هو وأصحابه(١).

۞ وفى هذا الخبر عدة دروس وعبر منها:

يقظة الرسول ﷺ، ومراقبته الدقيقة لتحركات العدو، وقدرته ﷺ على تقدير الأمور، وظهور قوته المعنوية العالية، ويظهر ذلك فى استعداده لمقاتلة المشركين لو أرادوا المدينة، وفيه ثقة النبى ﷺ بعلى رضي الله عنه ومعرفته بمعادن الرجال، وفيه شجاعة على رضي الله عنه؛ لأن هذا الجيش لو أبصره ما تورع فى محاولة قتله(٢)، ونلحظ أن النبى ﷺ أقام فى أرض المعركة بعد أن انتهت، تفقد خلالها الجرحى والشهداء، وأمر بدفنهم ودعا ربه وأثنى عليه سبحانه، وأرسل عليًا ليتتبع خبر القوم، كل ذلك من أجل أن يحافظ على النصر الذى أحرزه المسلمون فى غزوة أُحد، وهذا من فقه سنن الله تعالى فى الحروب والمعارك، فقد جعل سبحانه من سننه فى خلقه أن جعل للنصر أسبابًا، وللهزيمة أسبابًا، فمن أخذ بأسباب النصر، وصدق التوكل على الله سبحانه وتعالى حقيقة التوكل نال النصر بإذن الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾(٣).

ويتجلى فقه النبى ﷺ فى ممارسة سنة الأخذ بالأسباب فى غزوة حمراء الأسد(٤).

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٢٤١).

(٢) انظر: غزوة أحد لأبى فارس، (ص٩٥، ٩٦).

(٣) سورة الفتح: الآية: (٢٣).

(٤) غزوات الرسول (ص ١٢٥-١٢٦).

النبى ﷺ يتفقد الشهداء

۞ وبعد أن انسحب أبو سفيان من أرض المعركة ذهب النبى ﷺ من أجل أن يتفقد الشهداء من أصحابه رضي الله عنهم.

فمرَّ على بعضهم، ومنهم حمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير، وحنظلة بن أبى عامر، وسعد بن الربيع والأصيرم، وبقية الصحابة رضي الله عنهم، فلما أشرف عليهم رسول الله ﷺ قال: «**أنا شهيد على هؤلاء، إنه ما من جريح يُجرح فى الله إلا والله بعثه يوم القيامة، يُدمَى جُرحه، اللون لون دم، والريح ريح المسك، انظروا أكثر هؤلاء جمعًا للقرآن، فاجعلوه أمام أصحابه فى القبر**»(١).

عن جابر بن عبد الله قال: لما كان يوم أُحد جاءت عمتى بأبى لتدفنه فى مقابرنا، فنادى منادى رسول الله ﷺ: ردُّوا القتلى إلى مضاجعهم(٢). وكان رسول الله ﷺ يجمع بين الرجلين من قتلى أُحد فى ثوبٍ واحد ثم يقول: «**أيهم أكثر أخذًا للقرآن**» فإن أشير إلى أحدهما قدَّمه فى اللحد، وقال: «**أنا شهيد على هؤلاء**، وأمر بدفنهم بدمائهم، ولم يُصلِّ عليهم ولم يُغسِّلهم»(٣)(٤).

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١٠٩).

(٢) رواه أحمد (٣/ ٨٩٣) بطوله ومختصرًا فى (٣/ ٣٠٨)، والنسائى (٤/ ٧٩) مختصرًا فى الجنائز، وابن ماجه (١٥١٦) الجنائز، وصححه الألبانى.

(٣) رواه البخارى (٧/ ٤٣٣) المغازى، والترمذى (٤/ ٢٥٣) الجنائز.

(٤) قال الحافظ ابن حجر: قوله فيه (ولم يُصلِّ عليهم) تقدم الكلام عليه فى الجنائز، وقد أجاب بعض الحنفية عنه بأنه ناف وغيره مثبت. وأجيب بأن الإثبات مُقدَّم على النفى غير المحصور،وأما نفى الشىء المحصور إذا كان راويه حافظًا فإنه يترجح على الإثبات إذا كان راويه ضعيفًا كالحديث الذى فيه إثبات الصلاة على الشهيد، وعلى تقدير التسليم فالأحاديث التى فيها ذلك إنما هى قصة حمزة فيحتمل أن يكون ذلك مما خص به حمزة من الفضل. وأجيب بأن الخصائص لا تثبت بالاحتمال. ويجاب بأنه يوقف الاستدلال. قالوا: ويمكن =

۞ وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «لما كان يوم أُحد مرَّ رسول الله ﷺ بحمزة ابن عبد المطلب وقد جُدع ومُثِّل به، فقال: لولا أن تجد صفية فى نفسها تركته حتى تأكله العافية[١]، حتى يحشره الله من بطون الطير والسباع، فكفَّنه فى نَمِرة، وكانت إذا خُمرت رأسه بدت رجلاه وإذا خُمرت رجلاه بدا رأسه، فخمر رأسه، ولم يُصلِّ على أحد من الشهداء غيره»[٢].

۞ وعن عبد الله بن الزبير قال: «أن رسول الله ﷺ أمر يوم أُحد بحمزة فسُجِّى ببُردة، ثم صلى عليه، فكبر تسع تكبيرات، ثم أتى بالقتلى يُصفّون، ويصلى عليهم، وعليه معهم»[٣].

۞ قال ابن القيم: «والصواب فى المسألة أنه مُخيَّر بين الصلاة عليهم وتركها، لمجىء الآثار بكل واحد من الأمرين، وهذا إحدى الروايات عن الإمام أحمد، وهو الأليق بأصوله ومذهبه»[٤].

عدد الشهداء من الصحابة رضي الله عنهم

۞ عن أُبى بن كعب رضي الله عنه قال: «إنه أُصيب من الأنصار يوم أُحد أربعة وستون، وأصيب من المهاجرين ستة فيهم حمزة، فمثلوا بقتلاهم فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يومًا من الدهر لنربين عليهم ـ أى لنزيدن عليهم فى

= الجمع بأنه لم يُصلِّ عليهم ذلك اليوم كما قال جابر ثم صلى عليهم ثانى يوم كما قال غيره [فتح البارى (٧/ ٤٣٥)].

(١) العافية: السباع والطير التى تقع على الجيف فتأكلها.

(٢) رواه أبو داود (٣١٣٧) والحاكم (١/ ٣٦٥) وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبى.

(٣) أخرجه الطحاوى فى شرح معانى الآثار: (١/ ٥٠٣) وإسناده حسن رجاله كلهم ثقات وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث.

(٤) تهذيب السنن (٤/ ٢٩٥).

التمثيل بهم ـ، فلما كان يوم فتح مكة، نادى رجل لا يُعرَف: لا قريش بعد اليوم، (مرتين) فأنزل الله ﷻ على نبيه ﷺ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾(١) فقال النبي ﷺ: «**كُفُّوا عن القوم**»(٢).

۞ وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «جعل رسول الله ﷺ على الرماة يوم أحد.. (فذكر الحديث) إلى أن قال: فأصابوا منا سبعين، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه قد أصابوا من المشركين، يوم بدر أربعين ومائة: سبعين أسيرًا وسبعين قتيلاً»(٣).

بل أحياءٌ عند ربهم يُرزقون

۞ عن ابن مسعود رضي الله عنه. قال مسروق: سألنا عبد الله بن مسعود عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾(٤)، قال: أما إنَّا سألنا عن ذلك فقال: «**أرواحهم كطيرٍ خُضر تسرح فى أيها شاءت، ثم تأوى إلى قناديل معلقة بالعرش، قال: فبينما هم كذلك، إذ اطَّلع عليهم ربهم اطلاعة، فقال: سلونى ما شئتم؟! فقالوا: يا ربنا! وما نسألك، ونحن نسرح فى الجنة فى أيها شئنا، فلما رأوا أن لا يُتركوا من أن يُسألوا، قالوا: نسألك أن تردَّ أرواحنا إلى أجسادنا فى الدنيا، حتى نُقتل فى سبيلك، قال: فلما**

---

(١) سورة النحل: الآية: (١٢٦).

(٢) رواه الترمذى (٣١٢٩) والحاكم (٢/ ٣٥٩، ٤٤٦) وقال فى الموضعين: صحيح الإسناد ووافقه الذهبى.

(٣) أخرجه البخارى (٤٠٤٣) المغازى ـ وأحمد (٤/ ٢٩٣).

(٤) سورة آل عمران: الآية: (١٦٩).

رأى أنهم لا يسألون إلا هذا تُركوا»(١).

۞ وعن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «لما أُصيب إخوانكم بأُحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طيرٍ خُضرٍ تَرِدُ أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش، فلما وجدوا طِيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا: مَنْ يُبلِّغ إخواننا عنا أننا أحياء فى الجنة نُرزَق لئلا ينكلوا عند الحرب ولا يزهدوا فى الجهاد، قال الله: أنا أبلغهم عنكم. فأُنزلت: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ﴾(٢)(٣).

دفن الشهداء وتقديم الأحفظ للقرآن

۞ عن هشام بن عامر رضي الله عنه قال: شُكى إلى رسول الله ﷺ الجراحات يوم أُحد فقال: (احفروا وأوسعوا وأحسنوا وادفنوا الاثنين والثلاثة فى قبرٍ واحد، وقدموا أكثرهم قرآنًا) فمات أبى فقُدِّم بين رجلين»(٤).

۞ وعن أنس رضي الله عنه قال: «وكَثُرت القتلى وقَلَّت الثياب، قال: وكان يجمع الثلاثة والاثنين فى قبر واحد، ويسأل أيهم أكثر قرآنًا فيُقدَّم فى اللحد، وكفَّن الرجلين والثلاثة فى الثوب الواحد»(٥).

۞ وعن جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما) قال: «إن رسول الله ﷺ كان يجمع بين

---

(١) أخرجه مسلم(١٨٨٧) الإمارة ـ والترمذى (٣٠١١).

(٢)سورة آل عمران: الآية: (١٦٩).

(٣) رواه أبو داود (٢٥٢٠) والحاكم (٢/ ٨٨) وقال الأرنؤوط: رجاله ثقات.

(٤) رواه الترمذى (٧١٣) وأبو داود (٣٢١٥) بإسناد صحيح.

(٥) رواه أبو داود (٣١٣٧) وأحمد (٣/ ١٢٨) والحاكم (١/ ٣٦٥) وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبى.

الرجلين من قتلى أُحد فى ثوبٍ واحد، ثم يقول: «**أيهم أكثر أخذًا للقرآن؟**» فإذا أشير له إلى أحد قدَّمه فى اللحد، وقال: «**أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة**» وأمر بدفنهم بدمائهم، ولم يُصلِّ عليهم ولم يُغسَّلوا»(١).

۞ وكان النبى ﷺ إذا ذكر شهداء أُحد يتمنى هذه الأمنية... فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ إذا ذكر أصحاب أُحد قال: «**والله لوددت أنى غودرت مع أصحاب فحص الجبل**»(٢) يقول: قُتلت معهم ﷺ»(٣).

النبى ﷺ يُثنى على الله عز وجل

۞ عن عبيد الله بن رفاعة الزرقى رضي الله عنه قال: لما كان يوم أُحد وانكفأ المشركون قال رسول الله ﷺ: «**استووا حتى أُثنى على ربى، فصاروا خلفه صفوفًا فقال: اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادى لما أضللت، ولا مُضل لمن هديت، ولا معطى لما منعت، ولامانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مبعد لما قربت، اللهم ابسط علينا من بركاتك، ورحمتك، وفضلك، ورزقك، اللهم إنى أسألك النعيم المقيم الذى لا يحول ولا يزول، اللهم إنى أسألك النعيم يوم العيلة، والأمن يوم الخوف، اللهم عائذٌ بك من شر ما أعطيتنا، وشر ما منعت منا، اللهم حبِّب إلينا الإيمان وزيِّنه فى قلوبنا، وكَرِّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من**

---

(١) أخرجه البخارى (١٣٤٣) الجنائز.

(٢) فحص الجبل: أسفل الجبل.

(٣) أخرجه أحمد فى المسند (٣/ ٣٧٥) وفى سيرة ابن كثير: (٣/ ٨٩) وقال الهيثمى فى المجمع: (٦/ ١٢٣) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع فالحديث بذلك صحيح.

الراشدين، اللهم توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين، اللهم قاتل الكفرة الذين يُكذبون رسلك، ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب، إله الحق»(١).

۞ وعن أنس بن مالك ﵁ قال: «إن رسول الله ﷺ كان يقول يوم أُحد: «**اللهم إنك إن تشأ لا تُعبَد في الأرض**»(٢).

هذا جبلٌ يحبنا ونحبه

وفي طريق العودة يمر النبي ﷺ وأصحابه بجوار جبل أُحد فيخبر النبي ﷺ أصحابه بأن هذا الجبل يحبهم وأنهم يحبونه.

۞ **عن أنس** ﵁ **قال**: «أن رسول الله ﷺ طلع له أُحد فقال: «**هذا جبل يحبنا ونحبه، اللهم إن إبراهيم حرم مكة، وإني حرمت ما بين لابتيها**»(٣) ـ المدينة ـ.

من نوادر الحب والتضحية

ولما فرغ رسول الله ﷺ من دفن الشهداء والثناء على الله والتضرع إليه، انصرف راجعًا إلى المدينة، وقد ظهرت له نوادر الحب والتفاني من المؤمنات الصادقات، كما ظهرت من المؤمنين في أثناء المعركة.

۞ **عن سعد بن أبي وقاص** ﵁ **قال**: «مر رسول الله ﷺ بامرأة من بني

(١) قال الهيثمي في المجمع (٦/ ١٢١، ١٢٢): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

(٢) أخرجه مسلم (١٧٤٣) الجهاد والسير.

(٣) أخرجه البخاري (٤٠٨٤) المغازي ـ ومسلم (١٣٦٥) الحج.

دينار وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله ﷺ بأُحد، فلما نُعوا لها، قالت: فما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالوا: خيرًا يا أم فلان، هو بحمد الله كما تحبين قالت: أرونيه حتى أنظر إليه؟، قال: فأشير لها إليه، حتى إذا رأته، قالت: كل مصيبة بعدك جلل! تريد صغيرة»[(١)].

النبى ﷺ يشهد لهؤلاء شهادة غالية

۞ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «جاء (علىّ) رضي الله عنه بسيفه يوم أُحد قد انحنى، فقال لفاطمة رضي الله عنها : هاكى السيف حميدًا، فإنها قد شفتنى فقال رسول الله ﷺ: «**لئن كنت أجدت الضرب بسيفك، لقد أجاده سهل بن حنيف، وأبو دجانة، وعاصم بن ثابت بن الأقلح، والحارث بن الصمة**»[(٢)].

(١) ابن هشام فى السيرة (٢/ ٩٩) والبيهقى فى الدلائل: (٣/ ٣٠٢) والطبرى فى تاريخه: (٢/ ٥٣٣) بسند ابن إسحاق إلى سعد بن أبى وقاص وسنده حسن وقد صرح بالتحديث فزالت شبهة تدليسه.

(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرك: (٣/ ٢٤) وقال صحيح على شرط البخارى ولم يخرجاه ووافقه الذهبى وقال الهيثمى فى المجمع: (٦/ ١٢٣) رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح.

غزوة حمراء الأسد

لما عاد أبو سفيان وأصحابه نظر بعضهم إلى بعضٍ وتلاوموا فيما بينهم وقال بعضهم لبعضٍ: لم تصنعُوا شيئًا، أصبتُم شوكتَهم وحدَّهم، ثم تركتُموهم، وقد بقى منهم رؤوس يجمعون لكم، فارجعوا حتى نستأصِل شأفتَهم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ .. وتفيد هذه الرواية خبر استطلاع الرسول ﷺ أعداءه حتى بعد انتهاء المعركة؛ وذلك لكى يطمئن على عدم مباغتتهم له.

وعندما سمع ما كان تعزم عليه قريش من العودة إلى المدينة خرج بمن حضره يوم أُحد من المسلمين دون غيرهم إلى حمراء الأسد.

قال ابن إسحاق: كان أُحد يوم السبت للنصف من شوال، فلما كان الغد يوم الأحد سادس عشر من شوال: أذَّن مؤذن رسول الله ﷺ فى الناس بطلب العدو، وألا يخرج معنا إلا من حضر بالأمس، فاستأذنه جابر بن عبد الله فى الخروج معه فأذن له، وإنما خرج مُرهبًا للعدو، وليظنوا أن الذى أصابهم لم يوهنهم عن طلب عدوهم، وقد استجاب أصحاب النبى ﷺ لنداء الجهاد حتى الذين أُصيبوا بالجروح ... فهذا رجل من بنى عبد الأشهل يقول: شهدت أُحدًا أنا وأخ لى فرجعنا جريحين، فلما أذَّن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج فى طلب العدو قلت لأخى وقال لى: أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ؟ والله ما لنا من دابة نركبها، وما منا إلا جريح ثقيل، فخرجنا مع رسول الله ﷺ، وكنت أيسر جرحًا منه، فكان إذا غُلب حملته عقبة ومشى عقبة (نوبة)، حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون(١). وسار رسول الله ﷺ إلى حمراء الأسد، واقترب بجنوده من جيش المشركين فأقام فيه ثلاثة أيام

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٥٠).

يتحدى المشركين، فلم يتشجعوا على لقائه ونزاله، وكان رسول الله ﷺ قد أمر بإشعال النيران فكانوا يشعلون فى وقت واحد خمسمائة نار[١].

وأقبل معبد بن أبى معبد الخزاعى إلى رسول الله ﷺ فأسلم، فأمره أن يلحق بأبى سفيان، فيخذله، فلحقه بالروحاء ولم يعلم بإسلامه، فقال: ما وراءك يا معبد؟ فقال: محمد وأصحابه، فقد تحرقوا عليكم، وخرجوا فى جَمْعٍ لم يخرجوا فى مثله، وقد ندم من كان تخلف عنهم من أصحابهم، فقال: ما تقول؟ فقال: ما أرى أن ترتحل حتى يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة[٢]. فقال أبو سفيان: والله لقد أجمعنا الكَرَّة عليهم لنستأصلهم، قال معبد: فإنى أنهاك عن ذلك، والله لقد حملنى ما رأيت أن قلت فيه أبياتًا من شعر:

قال: وما قلت؟ قال: قلت:

كادت تهد من الأصوات راحلتى — إذ سالت الأرض بالجرد[٣] الأبابيل
تردي[٤] بأسد كرام لا تنابلة[٥] — عند اللقاء ولا ميل[٦] معازيل[٧]
فظلت عدوًا أظن الأرض مائلة — لما سمو برئيس غير مخذول

(١) انظر: غزوة أحد لأبى فارس (ص١٤٤)، نقلًا عن الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ٤٣).
(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٤٥).
(٣) الجرد: جمع أجرد وهو الضرسى قصير الشعر - والأبابيل: الفرق الكثيرة.
(٤) تردى: تسرع.
(٥) تنابلة: جمع تنبال وهو القصير.
(٦) الميل: جمع أميل وهو الجبان.
(٧) معازيل: جمع معزال وهو من لا رمح له.

فقلت: ويل ابن حرب من لقائكم إذا تغطمطت البطحاء بالجبل[(١)]
إني نذير لأهل البسل ضاحية لكل ذى أربة منهم ومعقول
من جيش أحمد لا وخش[(٢)] قنابله وليس يوصف ما أنذرت بالقيل[(٣)]

فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه، وحاول أبو سفيان أن يغطى انسحابه هذا بشنِّ حرب نفسية على المسلمين، لعله يرهبهم فأرسل مع ركب عبد القيس -وكانوا يريدون المدينة للميرة- رسالة إلى رسول الله ﷺ مفادها، أن أبا سفيان وجيشه قد أجمعوا على السير إليه وإلى أصحابه ليستأصلهم من الوجود، وواعد أبو سفيان الركب أن يعطيهم زبيبًا عندما يأتوه فى سوق عكاظ، ومرَّ الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد فأخبروه بالذى قال أبو سفيان، فقال هو والمسلمون: حسبنا الله ونعم الوكيل[(٤)].

واستمر المسلمون فى معسكرهم، وآثرت قريش السلامة والأوبة، فرجعوا إلى مكة، وبعد ذلك عاد المسلمون إلى المدينة بروحٍ قوية متوثبة، غسلت عار الهزيمة، ومسحت مغبة الفشل، فدخلوها أعزة رفيعى الجانب، عبثوا بانتصار المشركين، وهَزُّوا أعصابهم، وأحبطوا شماتة المنافقين واليهود فى المدينة، وأشار القرآن الكريم إلى هذه الحرب الباردة، وسجل ظواهرها[(٥)] بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ

(١) تغطمطت: اضطربت وثارت.
(٢) وخش: ردئ.
(٣) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٥١)
(٤) تاريخ الإسلام للذهبى، المغازى، (ص٢٢٦).
(٥) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوى فى المدينة، (ص١٤٢).

أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[١].

ووقع فى أسر النبى ﷺ قبل رجوعه إلى المدينة أبو عزة الجمحى الشاعر فقُتل صبرًا؛ لأنه أخلف وعده للرسول ﷺ بأن لا يقاتل ضده عندما منَّ عليه ببدر وأطلقه، فعاد فقاتل فى أُحد، وقد حاول أبو عزة أن يتخلص من القتل، وقال: يا رسول الله أقلنى، فقال رسول الله ﷺ: «**لا والله، لا تمسح عارضيك**[٢] **بمكة بعدها، وتقول: خدعت محمدًا مرتين، اضرب عنقه يا زبير**»[٣] فضرب عنقه، فقال النبى ﷺ حينئذ: «**لا يُلدغ المؤمن من جُحرٍ مرتين**»[٤] فصار هذا الحديث مثلًا ولم يُسمع قبل ذلك.

ويُعد هذا العمل من قبيل السياسة الشرعية؛ لأن هذا الشاعر من المفسدين فى الأرض، الداعين إلى الفتنة، ولأن فى المنِّ عليه تمكينًا له من أن يعود حربًا على المسلمين.

ولم يؤسر من المشركين سوى أبى عزة الجُمحي[٥].

وأما عدد القتلى من المسلمين فى أُحد فقد انجلت المعركة عن سبعين شهيدًا من المسلمين، ويؤيد هذا تفسير قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم

(١) سورة آل عمران: الآيات: (١٧٢-١٧٥).

(٢) عارضيك: هما جانبا الوجه، لسان العرب (٢/ ٧٤٢).

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١١٦).

(٤) البخارى، كتاب الأدب، باب لا يلدغ المرء (٧/ ١٣٤) رقم (٦١٣٣).

(٥) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٥٣)

﴿مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1] أنها نزلت تسلية للمؤمنين عمن أصيب منهم يوم أُحد.

قال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وكان المشركون قد قتلوا منهم سبعين نفرًا، وكان المسلمون قد قتلوا من المشركين ببدر سبعين وأسروا سبعين[2]، أما عدد الذين قُتلوا يوم أُحد من المشركين فاثنان وعشرون قتيلا[3].

كان خروج رسول الله ﷺ لملاحقة المشركين في غزوة حمراء الأسد يهدف لتحقيق مجموعة من المقاصد المهمة منها:

(١) ألا يكون آخر ما تنطوي عليه نفوس الذين خرجوا يوم أُحد هو الشعور بالهزيمة.

(٢) إعلامهم أن لهم الكَرَّة على أعدائهم متى نفضوا عنهم الضعف والفشل واستجابوا لدعوة الله ورسوله.

(٣) تجرئة الصحابة على قتال أعدائهم.

(٤) إعلامهم أن ما أصابهم في ذلك اليوم إنما هو محنة وابتلاء اقتضتها إرادة الله وحكمته وأنهم أقوياء، وأن خصومهم الغالبين في الظاهر ضعفاء[4].

كما أن في خروج النبي ﷺ إلى حمراء الأسد إشارة نبوية إلى أهمية استعمال الحرب النفسية للتأثير على معنويات الخصوم، حيث خرج ﷺ

(١) سورة آل عمران: الآية: (١٦٥).

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية (٣/ ٤١١).

(٣) مرويات غزوة أحد للباكري، ص٣٦٧، ٣٦٩.

(٤) انظر: في ظلال القرآن (١/ ٥١٩).

بجنوده إلى حمراء الأسد، ومكث فيها ثلاثة أيام، وأمر بإيقاد النيران فكانت تُشاهَد من مكانٍ بعيد وملأت الأرجاء بأنوارها، حتى خُيِّل لقريش أن جيش المسلمين ذو عدد كبير لا طاقة لهم به فانصرفوا، وقد ملأ الرعب أفئدتهم[١]... قال ابن سعد: (ومضى رسول الله ﷺ بأصحابه حتى عسكروا بحمراء الأسد، وكان المسلمون يوقدون تلك الليالى خمسمائة نار حتى تُرى من المكان البعيد، وذهب صوت معسكرهم ونيرانهم فى كل وجه فكبت الله تعالى بذلك عدوهم)[٢].

شُبهة... والرد عليها

۞ عن عروة بن الزبير رضي الله عنها أن عائشة رضي الله عنها قالت له: يا ابن أُختى! كان أبوك -يعنى الزبير وأبا بكر- من ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾[٣].

لما انصرف المشركون من أُحد، وأصاب النبى ﷺ وأصحابه ما أصابهم، خاف أن يرجعوا، فقال: من ينتدب لهؤلاء فى آثارهم، حتى يعلموا أن بنا قوةً، فانتُدب أبو بكر والزبير فى سبعين، فخرجوا فى آثار المشركين، فسمعوا بهم، فانصرفوا،... قال تعالى: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾[٤] الآية ... لم يلقوا عدوًّا[٥].

(١) انظر: غزوة أحد لأبى فارس، (ص٥١).

(٢) انظر: الطبقات لابن سعد (٢/ ٤٩) نقلًا عن غزوات الرسول.

(٣) سورة آل عمران: الآية: (١٧٢).

(٤) سورة آل عمران: الآية: (١٧٤).

(٥) أخرجه البخارى (٤٠٧٧) المغازى.

۞ قال الحافظ ابن كثير عقب ذكر هذا الحديث: «وهذا السياق غريب جدًّا، فإن المشهور عند أصحاب المغازى أن الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ إلى حمراء الأسد كل من شهد أُحدًا، وكانوا سبعمائة قُتل منهم سبعون وبقى الباقون»[1]. وقال الشامى: «والظاهر أنه لا تخالف بين قولى عائشة وأصحاب المغازى؛ لأن معنى قولها فانتدب لها سبعون أنهم سبقوا غيرهم، ثم تلاحق الباقون»[2].

الأحكام الفقهية التى اشتملت عليها الغزوة

ولقد أورد الإمام القيم (ابن القيم) فى كتابه القيم (زاد المعاد) كلامًا قيمًا عن بعض الأحكام الفقهية التى اشتملت عليها غزوة أُحد فكان منها:

۞ أن الجهادَ يلزمُ بالشُّروع فيه، حتى إن مَنْ لَبِسَ لأْمَتَه وَشَرَعَ فى أَسْبَابِهِ، وتأَهَّبَ لِلخُروج، ليس له أن يَرْجِعَ عن الخروج حتى يُقاتِلَ عدوَّه.

۞ ومنها: أنه لا يَجِبُ على المسلمين إذا طَرَقَهُمْ عدوُّهم فى ديارهم الخروجُ إليه، بل يجوزُ لهم أن يلزمُوا دِيارهم، ويُقاتلوهم فيها إذا كانَ ذلك أنصرَ لهم على عدوِّهم، كما أشار به رسولُ الله ﷺ عليهم يومَ أُحد.

۞ ومنها: جوازُ سُلُوكِ الإمام بالعسكرِ فى بعض أملاك رعيَّته إذا صادفَ ذلك طريقَه، وإن لم يرضَ المالكُ.

۞ ومنها: أنه لا يأذنُ لِمن لا يُطيق القِتَالَ من الصبيان غير البالغين، بل يردُّهم إذا خرجوا، كما رَدَّ رسولُ الله ﷺ ابنَ عمر ومن معه.

۞ ومنها: جوازُ الغزوِ بالنساء، والاستعانةُ بِهِنَّ فى الجهاد.

---

(١) سيرة ابن كثير (٣/ ١٠١).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٢٤٣).

۞ ومنها: جوازُ الانغماس فى العدو، كما انغمسَ أنسُ بنُ النضر وغيرُه.

۞ ومنها: أن الإِمَامَ إذا أصابته جِراحة صلى بهم قاعدًا، وصلوا وراءه قعودًا، كما فَعَلَ رسولُ الله ﷺ فى هذِهِ الغزوة، واستمرت على ذلك سُنته إلى حين وفاته(١).

۞ ومنها: جوازُ دعاءِ الرجل أن يُقتل فى سبَيل الله، وتمنِّيه ذلك، وليس هذا من تمنى الموت المنهى عنه.

۞ ومنها: أن السُّنة فى الشهداء أن يُدفنوا فى مصارعهم ولا يُنقلوا إلى مكانٍ آخر.

۞ ومنها: جواز دفن الرجلين أو الثلاثة فى القبر الواحد.

۞ ومنها: أن مَن عذره الله فى التخلف عن الجهاد لمرض أو عرج، يجوز له الخروجُ إليه، وإن لم يجب عليه، كما خرج عمرُو بن الجموح، وهو أعرج.

۞ ومنها: أن المسلمين إذا قَتَلُوا واحدًا منهم فى الجهاد يظنُّونه كافرًا، فعلى الإمام ديتُه مِن بيتِ المالِ، لأن رسولَ الله ﷺ أراد أن يَدِىَ اليمانَ أبا حُذيفة، فامتنع حُذيفَةُ من أخذ الدية، وتصدَّقَ بها على المسلمين(٢).

---

(١) وهو مذهب أسيد بن حضير، وجابر بن عبد الله، وأبى هريرة، وبه قال الأوزاعى وأحمد وحماد بن زيد، وإسحاق وابن المنذر، وقال مالك فى إحدى روايتيه: لا تصح صلاة القادر على القيام خلف القاعد، وهو قول محمد بن الحسن، وقال الثورى والشافعى وأصحاب الرأى: يصلون خلفه قيامًا. انظر «المغنى» (٢/ ٢٢٠-٢٢١) لابن قدامة، و«المحلى» (٣/ ٥٩) ونيل الأوطار (٣/ ١٥٩).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٢١١-٢١٨) بتصرف.

الحِكَم والغايات المحمودة التى كانت فى غزوة أُحد

۞ وقد أشار الله ـ سبحانه وتعالى ـ إلى أمهاتِها وأصولها فى سورة (آل عمران) حيث افتتح القصة بقوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ﴾(١) ، إلى تمام ستين آية.

۞ فمنها: تعريفُهم سوءَ عاقبة المعصية، والفَشَل، والتنازُع، وأن الذى أصابَهم إنما هو بِشُؤمِ ذلِكَ، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ﴾(٢).

فلما ذاقُوا عاقبةَ معصيتِهِم للرسول، وتنازعهم، وفشلهم، كانُوا بعد ذلك أشدَّ حذرًا ويقظة، وتحرُّزًا مِن أسبابِ الخذلان.

۞ ومنها: أن حِكمة الله وسُنتَّه فى رسله، وأتباعِهم، جرت بأن يُدَالوا مَرَّةً، ويُدَال عليهم أخرى، لكن تكونُ لهم العاقبةُ، فإنهم لو انتصُروا دائمًا، دخلَ معهم المؤمنون وغيرهم، ولم يتميَّز الصَّادِقُ مِن غيره، ولو انتُصِرَ عليهم دائمًا، لم يحصل المقصودُ من البعثة والرسالة.

۞ ومنها: أن هذا من أعلام الرسل، كما قال هِرَقْلُ لأبى سفيان: هَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قال: نعم. قَالَ: كَيْفَ الحَرْبُ بَيْنَكُم وَبينَه؟ قالَ: سِجَال، يُدالُ علينا المرة، ونُدالُ عليه الأخرى. قال: كَذلِكَ الرُّسُل تُبْتَلَى، ثُمَّ تَكُونُ لَهُمُ العَاقِبَة.

---

(١) سورة آل عمران: الآية: (١٢١).

(٢) سورة آل عمر ن: الآية: (١٥٢).

۞ ومنها: أن يتميَّز المؤمنُ الصَّادِقُ مِن المنافقِ الكاذبِ، فإنَّ المسلمين لما أظهرهم الله على أعدائهم يومَ بدر، وطار لهم الصيتُ، دخل معهم فى الإسلام ظاهرًا مَنْ ليس معهم فيه باطنًا، فاقتضت حِكمةُ الله ﷻ أن سَبَّبَ لعباده مِحْنَةَ ميزت بين المؤمن والمنافق.

قال الله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾[١].

۞ ومنها: استخراجُ عبوديةِ أوليائه وحزبه فى السَّراء والضَّراء، وفيما يُحبُّون وما يكرهون، وفى حال ظفرهم وظفر أعدائهم بهم، فإذا ثبتُوا على الطاعة والعبودية فيما يُحبون وما يكرهون، فهم عبيدُه حقًا، وليسوا كمن يعبد الله على حرفٍ واحد مِن السَّراء والنعمة والعافية.

۞ ومنها: أنه سبحانه لو نصرهم دائمًا، وأظفرهم بعدوِّهم فى كُلِّ موطن، وجعل لهم التَّمْكِينَ والقهر لأعدائهم أبدًا، لطغتْ نفوسُهم، وشمخت وارتفعت، فلو بسط لهم النصر والظفرَ، لكانُوا فى الحال التى يكونون فيها لو بَسَطَ لهم الرِّزْقَ، فلا يُصْلِحُ عِباده الا السَّراءُ والضَّراءُ، والشدةُ والرخاءُ، والقبضُ والبسطُ، فهو المدبِّرُ لأمر عباده كما يليقُ بحكمته، إنه بهم خبير بصير.

۞ ومنها: أنه إذا امتحنهم بالغَلَبَةِ، والكَسْرَةِ، والهزيمة، ذلُّوا وانكسَروا، وخضعُوا، فاستوجبوا منه العِزَّ والنَّصْرَ، فإن خِلعة النصر إنما تكونُ مع وِلاية الذُّلِّ والانكسارِ، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾[٢]،

(١) سورة آل عمران: الآية: (١٧٩).

(٢) سورة آل عمران: الآية: (١٢٣).

وقال: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾(١).

۞ ومنها: أنه سبحانه هيَّأ لِعباده المؤمنين منازِلَ فى دار كرامته، لم تبلُغْها أعمالهم، ولم يكونوا بالغيها إلا بالبلاءِ والمحنةِ، فقَيَّض لهم الأسبابَ التى تُوصِلُهُم إليها من ابتلائه وامتحانه.

۞ ومنها: أن النفوسَ تكتسِبُ من العافية الدائمة والنصر والغِنى طُغيانًا ورُكونًا إلى العاجلة، وذلك مرض يَعُوقها عن جِدِّها فى سيرها إلى الله والدارِ الآخرة.

۞ ومنها: أن الشهادة عنده من أعلى مراتب أوليائه، والشهداء هم خواصه والمقرَّبون من عباده، وليس بعد درجة الصِّدِّيقيَّة إلا الشهادةُ، وهو سبحانه يُحب أن يتَّخِذَ مِن عباده شهداءَ.

۞ ومنها: أن الله سبحانه إذا أراد أن يُهلِكَ أعداءه ويمحقَهم، قيَّض لهم الأسباب التى يستوجبون بها هلاكهم ومحقهم، ومن أعظمها بعد كفرهم بغيُهم، وطغيانُهم، ومبالغتهم فى أذى أوليائه، ومحاربتُهم، وقتالهم، والتسلط عليهم، فيتمحَّصُ بذلك أولياؤُه مِن ذنوبهم وعيوبهم، ويزداد بذلك أعداؤه مِن أسباب محقِهم وهلاكِهم.

۞ ومنها: أن وقعةَ أُحدٍ كانت مُقدِّمَةً وإرهاصًا بين يدى موتِ رسول الله ﷺ فثبَّتهم، ووبَّخهم على انقلابهم على أعقابهم أن ماتَ رسولُ الله ﷺ، أو قُتِلَ، بل الواجبُ له عليهم أن يثبتُوا على دِينه وتوحِيدِهِ ويموتوا عليه، أو يُقتلُوا، فإنهم إنما يعبُدون ربَّ محمد ﷺ، وهو حىٌّ لا يموت.

قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ

(١) سورة التوبة: الآية: (٢٥).

قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾[1][2].

۞ قال الشيخ محمد الغزالى رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولئن أفادت وقعة بدر فى خذل الكافرين، فإن وقعة أُحد أفادت مثلها فى فضح المنافقين ... ورُبَّ ضارة نافعة، وربما صحَّت الأجساد بالعلل.

ولعل ما ترتَّب على عصيان الأوامر فى هذه الموقعة درس عميق، يتعلم منه المسلمون قيمة الطاعة، فالجماعة التى يحكمها أمر واحد، أو التى تغلب على أفرادها وطوائفها النزعات الفردية النافرة لا تنجح فى صدام بل لا تشرف نفسها فى حرب أو سلام، والأمم كلها مؤمنها وكافرها تعرف هذه الحقيقة.

وأسرع الناس إلى الشغب والتمرد مَن أُقصوا من الرئاسة وهم إليها طامحون ... وكان عبد الله بن أُبى مثلًا لهذه الفئة التى تضحى بمستقبل الأمة فى سبيل أطماعها الخاصة، أما الرُّماة الذين عصوا الأوامر بلزوم أماكنهم مهما كانت أطوار القتال فقد مرت بهم فترة ضعف وذهول تيقظت خلالها بقية فى أنفسهم من حب الدنيا والإقبال على عَرَضِها الزائل فكان أثر ذلك ما كان، ولذلك لما دهش المسلمون للكارثة التى قلبت عليهم الأمور بيَّن الله لهم أنهم هم مصدرها فما أخلفهم موعدًا وما ظلمهم حقًّا:

﴿أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[3][4].

(١) سورة آل عمران: الآية: (١٤٤).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٢١٨-٢٢٤) بتصرف.

(٣) سورة آل عمران: (١٦٥).

(٤) فقه السيرة للغزالى (٢٨٦، ٢٨٧).

۞ قال القاسمى فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾(١) أى كفَّكم عنهم حتى حالت الحال، ودالت الدولة، وفيه من اللطف بالمؤمنين ما لا يخفى، ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ أى: ليجعل ذلك الصرف محنة عليكم لتتوبوا إلى الله، وترجعوا إليه وتستغفروه فيما خالفتم فيه أمره وملتم إلى الغنيمة.

ثم أعلمهم أنه تعالى قد عفا عنهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ أى: تفضُّلًا عليكم لإيمانكم ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: فى الأحوال كلها، إما بالنصرة وإما بالابتلاء، فإن الابتلاء فضل ولطف خفى، ليتمرنوا بالصبر على الشدائد والثبات فى المواطن، ويتمكنوا فى اليقين، ويجعلوه مَلَكة لهم، ويتحققوا أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، ولا يميلوا إلى الدنيا وزخرفها ولا يذهلوا عن الحق، وليكون عقوبة عاجلة للبعض فيتمحصوا عن ذنوبهم، وينالوا درجة الشهادة، فيلقوا الله طاهرين(٢).

إلى أن قال: فائدة قوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾(٣) التنبيه على عظم المعصية؛ لأنهم لما شاهدوا أن الله تعالى أكرمهم بإنجاز الوعد وكان من حقهم أن يمتنعوا عن المعصية فلما أقدموا عليها سلبوا ذلك الإكرام. وقال ظاهر قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ أنه تعالى عفا عنهم من غير توبة لأنها لم تذكر، فدلَّ على أنه تعالى قد يعفو عن أصحاب الكبائر.

---

(١) سورة آل عمران: (١٥٢).

(٢) أفاده القاشانى.

(٣) سورة آل عمران: (١٥٢).

وقال في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ دليل على أن صاحب الكبيرة مؤمن، فإن الذنب في الآية كان كبيرة[1].

❁ وقال الغزالي: على أن المسلمين دفنوا موجدتهم في أفئدتهم، ولم يستسلموا لأحزان المصاب الذي حَلَّ بهم، وكان تكاثر خصومهم حولهم سببًا في أن يقاوموا عوامل الخور، وأن يبدوا للناس بقية من قوة ترد عنهم كيد المتربصين على نحو ما قال الشاعر:

وتجلدي للشامتين أريهم   أني لريب الدهر لا أتضعضع[2]

(١) باختصار من محاسن التأويل (٤/ ٢٥٣، ٢٥٤).

(٢) فقه السيرة للغزالي (٢٩٠) نقلًا عن «وقفات تربوية من السيرة النبوية».

من آثار غزوة أُحد

يوم الرجيع

حادثة بئر معونة

من آثار غزوة أحد

لقد كان لغزوة أُحد من الآثار الشيء الكثير إذ انتقض على الإسلام وأهله كثير ممن هادنهم أو مالأهم خوفًا منهم، وعلى الرغم مما فعله النبى عليه الصلاة والسلام وأصحابه من الخروج إلى حمراء الأسد وما أظهروه من مظاهر البأس، إلا أن ما حدث فى أُحد جعل الأعراب يتجرءون ويبدءون بمحاولة مهاجمة المدينة والإغارة عليها ونهب أموالها وخيراتها.

ولقد جرأت الحادثة أيضًا اليهود فى المدينة ليُظهروا حقدهم الدفين على الإسلام وأهله، ويسخرون من المسلمين علانية، ويكررون محاولاتهم الغادرة للكيد للإسلام وأهله ... ولقد جرأت الحادثة أيضًا المنافقين ليُظهروا نفاقهم، وينبثُّوا بين صفوف المسلمين يشيعون الشائعات والدسائس محاولين بذلك تمزيق الصف الإسلامى[1].

(عبد الله بن أُنيس) يقتل عدو الله (خالد بن سفيان الهذلى)

قال عبد الله بن أُنيس: دعانى رسول الله ﷺ، فقال: **«إنه قد بلغنى أنَّ ابن سفيان بن نبيح الهُذلىَّ يجمعُ لى الناس ليغزونى، وهو بنخلة أو بعُرنَةَ، فأْتِه فاقتله»**. قلت: يا رسول الله، انعتْهُ لى حتى أعرفه. قال: **«إنَّك إذا رأيته أذكرك الشيطان، وآية ما بينك وبينه أنك إذا رأيته وجدت له قُشعريرة»**. قال: فخرجت متوشحًا سيفى، حتى دُفعت إليه وهو فى ظُعُن -مع نسائه- يرتاد لهنّ منزلاً وحيث كان وقت العصر؛ فلما رأيته وجدتُ ما قَال رسول الله ﷺ من القُشعريرة، فأقبلت نحوه، وخشيتُ أن تكون بينى وبينه بمحاولة

(١) صحيح السيرة النبوية (ص: ٣١٨).

تشغلني عن الصلاة، فصلَّيت وأنا أمشي نحوه، وأُومىء برأسي، فلما انتهيتُ إليه، قال: مَن الرجُلُ؟ قلت: رجل من العرب سمع بك وبجمعك لهذا الرجل، فجاءك لذلك. قال: أجل، إني لفي ذلك. قال: فمشيتُ معه شيئًا، حتى إذا أمكنني حملت عليه بالسيف، فقتلته، ثم خرجت، وتركت ظعائنه - نساءه - مُنكبَّات عليه ... فلما قدمت على رسول الله ﷺ فرآني، قال: «**أفلحَ الوجهُ**»؛ قلت: قد قتلته يا رسول الله، قال: «**صدقت**».

ثم قام، فأدخلني بيته، فأعطاني عصًا، فقال: «**أمسك هذه العصا عندك يا عبد الله بن أُنيس**» قال: فخرجتُ بها على الناس، فقالوا: ما هذه العصا؟ قلت: أعطانيها رسول الله ﷺ. وأمرني أن أُمسكها عندي. قالوا: أفلا ترجع إلى رسول الله ﷺ فتسأله لِمَ ذلك؟ قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ. فقلت: يا رسول الله، لِمَ أعطيتني هذه العصَا؟ قال: «**آيةٌ بيني وبينك يوم القيامة، إنَّ أقلَّ الناس المتُخصِّرون**[١] **يومئذ**»، قال: فقرنها عبد الله ابن أُنيس بسيفه، فلم تزل بسيفه حتى مات، ثم أمر بها فضُمَّت في كفنه، ثم دُفنا جميعًا»[٢].

---

(١) المختصرون: أو المتخصرون: المتكئون على المخاصر: جمع مخصرة وهي ما يمسكه الإنسان بيده من عصا وغيرها - والمراد هنا: الذين يأتون يوم القيامة ومعهم أعمال صالحة يتكئون عليها.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه كتاب الصلاة باب صلاة الطالب حديث رقم: (١٢٤٩) باختصار أحمد المسند: (٣/ ٤٩٦) البيهقي في السنن: (٣/ ٢٥٦) وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره: (١/ ٢٩٥) إسناده جيد، وقال الحافظ ابن حجر في الفتح: (٢/ ٣٥٠) إسناده حسن.

يوم الرجيع

وقبل أن أذكر تفاصيل حادث يوم الرجيع أود أن أقدم بين يدى هذا الحادث قصة لعاصم بن ثابت - وهو أحد الذين قُتلوا فى يوم الرجيع - لنعلم كيف يُكرم الله أولياءه وينصرهم إذا نصروا شرعه ودينه وسُنة نبيه ﷺ .

❁ **فعاصم بن ثابت:** هو جد عاصم بن عمر بن الخطاب. كان ممن أبلى وجالد يوم أُحد.

وقد كان له مع (سلافة بنت سعد) شأن أى شأن؛ فقد خرجت مشركة مع زوجها طلحة وأولادها الثلاثة: (مسافع، والجُلاَّس، وكلاب) إلى أُحد، وبعد أن اشتد وطيس الحرب رأتهم مُمَددين على سفوح أُحد.

أمّا مسافع وكلاب، فكانا قد فارقا الحياة، وأما الجُلاس فوجدته وما تزال به بقية من دماء.

أكبَّت سلافة على ابنها الذى يعالج سكرات الموت، ووضعت رأسه فى حجرها، وجعلت تمسح الدماء عن جبينه وفمه، وقد يبس الدمع فى عينيها من هول الكارثة، ثم أقبلت عليه وهى تقول: مَن صرعك يا بنى؟ فهمَّ أن يجيبها، لكن حشرجة الموت منعته، فألحَّت عليه بالسؤال، فقال: صرعنى عاصم بن ثابت، وصرع أخى مسافعًا و... ثم لفظ آخر أنفاسه.

جُنَّ جُنون سلافة بنت سعد وجعلت تعول وتنشج، وأقسمت باللات والعُزَّى ألا تهدأ لها لوعة، أو ترقأ لعينيها دمعة إلا إذا ثأرت لها قريش من عاصم بن ثابت، وأعطتها قحف رأسه لتشرب فيه الخمر(١).

---

(١) صور من حياة الصحابة (٢٢، ٢٣).

❁ قال أبو جعفر الطبرى:

وجعلت لمن جاء برأسه مائة ناقة، وشاع خبر نذرها فى قريش، وجعل كل فتى من فتيان مكة يتمنى أن لو ظفر بعاصم بن ثابت وقدّم رأسه لسلافة، حتى كان يوم الرجيع فى السنة الرابعة من الهجرة[١].

وها هى تفاصيل يوم الرجيع

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: «بعث النبى ﷺ سرية عينًا، وأمّر عليهم عاصم بن ثابت - وهو جد عاصم بن عمر بن الخطاب - فانطلقوا حتى إذا كان بين عُسفان ومكة ذُكروا لحى من هُذيل يقال لهم بنو لحيان، فتبعوهم بقريب من مائة رامٍ فاقتصوا آثارهم حتى أتوا منزلاً نزلوه، فوجدوا فيه نوى تمر تزودوه من المدينة، فقالوا: هذا تمر يثرب، فتبعوا آثارهم حتى لحقوهم، فلما انتهى عاصم وأصحابه لجأوا إلى فدفد وجاء القوم فأحاطوا بهم، فقالوا: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلاً... فقال عاصم: أما أنا فلا أنزل فى ذمة كافر، اللهم أخبر عنا نبيك...فقاتلوهم حتى قَتلوا عاصمًا فى سبعة نفر بالنبل، وبقى خبيب وزيد ورجل آخر، فأعطوهم العهد والميثاق فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا إليهم، فلما استمكنوا منهم حَلُّوا أوتار قِسيِّهم فربطوهم بها فقال الرجل الثالث الذى معهما: هذا أول الغدر فأَبى أن يصحبهم فجرُّوه وعالجوه على أن يصحبهم فلم يفعل فقتلوه، وانطلقوا بخبيب وزيد، حتى باعوهما بمكة، فاشترى خُبيبًا بنو الحارث بن عامر بن نوفل، وكان خبيب هو قاتل الحارث يوم بدر، فمكث عندهم أسيرًا حتى إذا أجمعوا قتله استعار موسى - يعنى الموس أو شفرة الحلاقة - من بعض بنات الحارث ليستحدَّ به - ليحلق شعر العانة - فأعارته قالت: فغفلت عن صبىٍّ لى فدرج إليه حتى أتاه

(١) نقلًا عن الجزاء من جنس العمل/ د. سيد حسين (٢/ ٤١، ٤٢).

فوضعه على فخذه فلما رأيته فزعت فزعة عرف ذاك منى وفى يده الموسى، فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذاك إن شاء الله.

وكانت تقول: ما رأيت أسيرًا قط خيرًا من خُبيب، لقد رأيته يأكل من قطف عنب وما بمكة يومئذ ثمرة، وإنه لموثَّق فى الحديد، وما كان إلا رزق رزقه الله، فخرجوا به من الحرم ليقتلوه فقال: دعونى أصلى ركعتين، ثم انصرف إليهم فقال: لولا أن تروا أن ما بى جزع من الموت لزدت: فكان أول مَن سَنَّ الركعتين عند القتل هو، ثم قال: اللهم أحصهم عددًا ثم قال(١):

لقد أجمع الأحزاب حولى وألَّبوا ... قبائلهم واستجمعوا كل مجمعِ
وقد قرَّبوا أبناءَهم ونساءَهم ... وقُرِّبتُ من جذعٍ طويلٍ مُمنَّعِ
إلى الله أشكو غُرْبتى بعد كُرْبتى ... وما جمَّع الأحزابُ لى عند مضجعى
فذا العرش صبِّرنى على ما يُرادُ بى ... فقد بضَعُوا لَحْمى وقد بؤس مطمعى
وقد خيرونى الكفرَ والموتُ دونه ... فقد ذرفت عيناى من غير مدمعِ
ولست أبالى حين أُقتل مسلمًا ... على أى شِقٍّ كان فى الله مضجعى
وذلك فى ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شِلوٍ مُمزعِ

احفظ الله يحفظك

نرجع مرة أخرى إلى عاصم بن ثابت رضي الله عنه فإنه قبل أن يُقتل تذكَّر نذر (سُلافة) الذى نذرته وهو أنها نذرت أن تشرب الخمر فى رأس عاصم بعد قتله فقام عاصم وجرّد سيفه وهو يقول: اللهم إنى أحمى لدينك وأدافع عنه، فاحمِ لحمى وعظمى، ولا تُظفر بهما أحدًا من أعداء الله.

---

(١) أخرجه البخارى (٧/ ٤٣٧، ٤٣٨) المغازى- وأحمد (٢/ ٣١٠).

اللهم إنى حميت دينك أول النهار فاحم جسدى آخره قال ابن إسحاق: فلما قُتل عاصم أرادت هُذيل أخذ رأسه؛ ليبيعوه من سلافة بنت سعد، فمنعته الدَّبْر[١]، فلمّا حالت بينهم وبينه قالوا: دعوه حتى يمسى فيذهب عنه فنأخذه، فبعث الله الوادى فاحتمل عاصمًا فذهب به. وكان عاصم قد أعطى عهدًا أن لا يمسَّه مشركٌ ولا يَمَسّ مشركًا أبدًا تَنَجُّسًا... فكان عمر بن الخطاب يقول حين بلغه أن الدَّبْر منعته: يحفظ الله العبد المؤمن، كان عاصم نذر أن لا يمسه مشرك، ولا يمسّ مشركًا أبدًا فى حياته، فمنعه الله بعد وفاته كما امتنع فى حياته[٢]. والجزاء عند الله من جنس العمل.

يقول ابن سيد الناس فى المقامات العلية فى الكرامات الجلية: أعطى الله عهدًا أن لا يمسّ مشركًا.

وعناية الرحمن تعصم عاصمًا ... عَنْ أن يُنال براحةٍ أو أصبعِ

بالسيل بعد الدَّبْر من أعدائه فى ... مصرعٍ أَكْرِمْ به من مصرعِ[٣]

أخذه السيل بعيدًا بعيدًا، ومضى به إلى حيث لا يعلمون.

وصان الله رأس عاصم الكريمة من أن يُشرب فى قحفها الخمر.

حمى دينه، فحُمى جسده.

لم يمسّ مشركًا فى دنياه، فلم يمسه مشرك بعد موته[٤] [٥].

---

(١) الدَّبر بالفتح: جماعة النحل والزنابير، ولذلك كان يقال: حمى الدبر، وكأن ذلك صار مثلاً.

(٢) البداية والنهاية (٣/ ٦٧).

(٣) المقامات العلية (ص: ٧٢).

(٤) الجزاء من جنس العمل (٢/ ٤٣، ٤٤).

(٥) قال الحافظ: وفى الحديث أن للأسير أن يمتنع من قبول الأمان ولا يمكّن من نفسه ولو قُتل؛

حادثة بئر معونة

ومع أن واقعة (يوم الرجيع) توجب على المسلمين أن يتبصروا قبل بعث أى وفد لنشر الإسلام بين القبائل البعيدة والمجاهل المريبة، إلا أن ضرورة بثّ الدعوة - مهما فدحت الخسائر - جعلت النبى ﷺ ينظر إلى هذه التضحيات على أنها أمرٌ لابد منه.

كالتاجر الذى يتحمل المغارم الثقيلة حينًا من الدهر، لأن الانسحاب من السوق بغية تجنبها - قضاء عليه - فهو يبقى متحملاً حتى تهب الريح من جديد رخاءً تُعوِّض ما فقد. وذاك سر استجابة الرسول لأبى براء عامر بن مالك المُلقَّب بـ «ملاعب الأسنَّة» حين عرض عليه أن يُرسل وفدًا من الدعاة ينشرون الإسلام بين قبائل نجد[1].

۞ عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن رعلاً وذكوان وعُصَيَّ وبنى لحيان استمدوا رسول الله ﷺ على عدوٍّ فأمدهم بسبعين من الأنصار كنا نسميهم القُراء فى زمانهم، كانوا يحتطبون بالنهار ويصلون بالليل، حتى كانوا ببئر معونة

= أنفة من أن يجرى عليه حكم كافر، وهذا إذا أراد الأخذ بالشدة، فإن أراد الأخذ بالرخصة فله أن يستأمن. قال الحسن البصرى: لا بأس بذلك. وقال سفيان الثورى: أكره ذلك... وفيه الوفاء للمشركين بالعهد، والتورع عن قتل أولادهم، والتلطف بمن أريد قتله، وإثبات كرامة الأولياء، والدعاء على المشركين بالتعميم، والصلاة عند القتل، وفيه إنشاد الشعر، وإنشاده عند القتل دلالة على قوة يقين خبيب وشدته فى دينه. وفيه أن الله يبتلى عبده المسلم بما شاء كما سبق فى علمه ليثيبه، ولو شاء ربك ما فعلوه، وفيه استجابة دعاء المسلم وإكرامه حيا وميتًا، وغير ذلك من الفوائد مما يظهر بالتأمل. وإنما استجاب الله له فى حماية لحمه من المشركين ولم يمنعهم من قتله لما أراد من إكرامه بالشهادة ومن كرامته حمايته من هتك حرمته بقطع لحمه. وفيه ما كان عليه مشركو قريش من تعظيم الحرم والأشهر الحرم. [فتح البارى (٧/ ٤٤٤، ٤٤٥].

(١) فقه السيرة للغزالي (ص ٣١٦).

قتلوهم، وغدروا بهم، فبلغ النبى ﷺ فقنت شهرًا يدعو فى الصبح على أحياء من أحياء العرب على رِعل وذكوان وعصية وبنى لحيان، قال أنس فقرأنا فيهم قرآنًا، ثم إن ذلك رُفع: بلِّغوا عنا قومنا أنَّا لقينا ربنا فرضى عنا وأرضانا»(١).

هكذا قُتلوا غدرًا

۞ عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك وغيره أن عامر بن مالك الذى يُدعى مُلاعب الأسنَّة قدم على رسول الله ﷺ (بهدية) وهو مشرك، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام وقال رسول الله ﷺ: «**إنى لا أقبل هدية مشرك**» فقال عامر بن مالك: ابعث يا رسول الله من رسلك مَن شئت فأنا لهم جارٌ، فبعث رسول الله ﷺ رهطًا فيهم المنذر بن عمرو الساعدى، (وهو الذى يقال له أُعتق ليموت) عينًا فى أهل نجد، فسمع بهم عامر بن الطفيل، فاستنفر لهم من بنى سليم فنفروا معه، فقتلهم ببئر معونة غير عمرو بن أمية الضِّمرِى..(٢).

(عامر بنُ فُهيرة) رُفع إلى السماء بعدما قُتل

وفى الصحيح عن **هشام بن عروة** قال: أخبرنى أبى قال: لما قُتل الذين ببئر معونة وأُسر عمرو بن أمية الضمرى قال له عامر بن الطفيل: من هذا؟.. فأشار إلى قتيل فقال له عمرو بن أمية: هذا عامر بن فُهيرة فقال: لقد رأيته بعد ما قُتل رُفع إلى السماء حتى إنى لأنظر إليه بين السماء والأرض، ثم وضع، فأتى النبى ﷺ خبرهم فنعاهم، فقال: «**إن أصحابكم قد أصيبوا،**

---

(١) أخرجه البخارى (٧/ ٤٤٥) المغازى - ومسلم (١٣/ ٤٦، ٤٧) الإمارة.

(٢) ذكره الهيثمى فى المجمع (٦/ ١٢٧) وقال رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح ورواه أحمد عن أنس (٣/ ٢١٠، ٢٧٠، ٢٨٩).

وإنهم قد سألوا ربهم فقالوا: ربنا أخبر عنا إخواننا بما رضينا عنك ورضيت عنا، فأخبرهم عنهم»، وأصيب فيهم عروة بن أسماء بن الصلت فسُمِّي عروة به، ومنذر بن عمرو سُمِّي به منذرًا[١].

۞ وفى هذه القصة كرامة ظاهرة لعامر بن فهيرة رضي الله عنه ولعلكم تذكرون عامر بن فهيرة فهو مولى أبى بكر الصديق رضي الله عنه الذى كان يرعى له الغنم وكان يأتى باللبن إلى النبى ﷺ وصاحبه ـ عندما هاجرا من مكة إلى المدينة ـ.

۞ فها هو يُقتل فيُرفع إلى السماء.. والجزاء من جنس العمل.. فقد كان عامر يرفع الطعام إلى فم النبى ﷺ فرُفع إلى السماء.

كانوا يقولون: إن الملائكة دفنته

ففى حديث عبد الرحمن بن كعب بن مالك أنه لما أخبر بحادثة بئر معونة ومقتل أصحاب النبى ﷺ قال:

«.. وكان فيهم عامر بن فهيرة فزعم لى عروة ـ أحد الرواة ـ أنه قُتل يومئذٍ فلم يوجد جسده حين دفنوه كانوا يرون الملائكة هى دفنته..»[٢].

والجزاء أيضًا من جنس العمل.. فكما كان عامر يدفن سر النبى ﷺ ويُخفى آثاره ـ فى قصة الهجرة ـ فتولت الملائكة دفنه.

فزت ورب الكعبة

وكان من بين الذين قُتلوا (حرام بن ملحان) رضي الله عنه الذى لما قُتل قال: فُزت ورب الكعبة.

---

(١) أخرجه البخارى (٤٠٩٣) المغازى.

(٢) سبق تخريجه.

۞ عن أنس رضي الله عنه قال: «جاء ناس إلى النبى ﷺ فقالوا: أن ابعث معنا رجالاً يعلمونا القرآن والسنة، فبعث إليهم سبعين رجلاً من الأنصار يقال لهم: القُراء فيهم خالى (حرام) يقرءون القرآن، ويتدارسون بالليل يتعلمون، وكانوا بالنهار يجيئون بالماء فيضعونه فى المسجد، ويحتطبون فيبيعونه، ويشترون به الطعام لأهل الصُّفَّة وللفقراء، فبعثهم النبى ﷺ إليهم، فعرضوا لهم فقتلوهم قبل أن يبلغوا المكان، فقالوا: اللهم بلِّغ عنا نبينا، أنا قد لقيناك فرضينا عنك، ورضيت عنا... قال: وأتى رجل (حرامًا) خال أنس من خلفه فطعنه برمح حتى أنفذه، فقال حرام: فُزت ورب الكعبة، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**إن إخوانكم قد قُتلوا، وإنهم قالوا: اللهم بلغ عنا نبينا أنا قد لقيناك، فرضينا عنك ورضيت عنا**»[1].

وعن أنس رضي الله عنه قال: «لما طُعن حرام بن ملحان ـ وكان خاله ـ يوم بئر معونة قال بالدم هكذا، فنضحه على وجهه ورأسه، ثم قال: فزت ورب الكعبة»[2].

ما الذى فعله (عمرو بن أمية) فى طريق عودته

ورجع عمرو بن أمية الضمرى إلى النبى ﷺ حاملاً معه أنباء المصاب الفادح: مصرع سبعين من أفاضل المسلمين، تُذكِّر نكبتهم الكبيرة بنكبة أُحد؛ إلا أن هؤلاء ذهبوا فى قتالٍ واضح؛ وأولئك ذهبوا فى غدرة شائنة.

ولما كان عمرو بن أمية فى الطريق بالقرقرة من صدر قناة، نزل فى ظل شجرة وجاء رجلان من بنى كلاب فنزلا معه، فلما ناما فتك بهما عمرو،

(١) أخرجه مسلم (٦٧٧) الإمارة ـ والبيهقى فى الدلائل (٣/ ٣٤٧).

(٢) أخرجه البخارى (٧/ ٤٤٦) المغازى.

وهو يرى أنه قد أصاب ثأر أصحابه، وإذا معهما عهد من رسول الله ﷺ لم يشعر به.

النبى ﷺ يدعو على قتلة القُراء

لقد تألم النبى ﷺ لأجل هذه المأساة، ولأجل مأساة الرجيع اللتين وقعتا خلال أيام معدودة تألُّمًا شديدًا وتغلَّب عليه الحزن والقلق، حتى دعا على هؤلاء الأقوام والقبائل التى قامت بالغدر والفتك فى أصحابه.

عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «دعا النبى ﷺ على الذين قتلوا أصحابه ببئر معونة ثلاثين صباحًا، يدعو فى صلاة الفجر على رعل وذكوان ولحيان وعصية، ويقول: **«عصية عصت الله ورسوله»**، فأنزل الله تعالى على نبيه قرآنًا قرأناه حتى نُسخ بعد: **(بلغوا قومنا أنا لقينا ربنا فرضى عنا ورضينا عنه)** فترك رسول الله ﷺ قنوته»(١).

---

(١) أخرجه البخارى (٢٨١٤) ومسلم (٢٩٧) (٦٧٧).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

غزوة بنى النضير

غزوة بدر الثانية

غزوة دومة الجندل

غزوة بنى النضير

۞ وها هى تفاصيل غزوة بنى النضير ... ولكن لابد من ذكر تلك المقدمة بين يدى الغزوة.

۞ أصاب يهود المدينة، الخوف والرعب، طيلة الفترة التى تفصل بين مقتل كعب بن الأشرف، وبين معركة أُحد التى جرت فى شوال عام ٣هـ، ولكن الهزيمة التى حلَّت بالمسلمين فى تلك المعركة، أحيت فى نفوس المشركين والمنافقين الأمل من جديد، بتحقيق مطامعهم وأغراضهم، وأزالت من قلوب اليهود الهلع على المصير، ومما ساهم فى تبديد هذا الهلع عندهم مقتل أصحاب الرجيع، وبئر معونة، وبذلك لم يدم خوف اليهود طويلًا وعادوا إلى أساليب الدَّسِّ والمكر والخداع، وشرعوا فى حشد حصونهم بالسلاح والعتاد للانقضاض على المسلمين ودولتهم، ثم صمموا على قتل النبى ﷺ والغدر به(١).

متى كانت تلك الغزوة؟

۞ اختلف أهل السير والمغازى فى موعد تلك الغزوة.

لكن يرى المحققون من المؤرخين أن غزوة بنى النضير كانت بعد أُحد فى ربيع الأول من السنة الرابعة من الهجرة، وقد رَدَّ الإمام ابن القيم على من زعم أن غزوة بنى النضير بعد بدر بستة أشهر بقوله: وزعم محمد بن شهاب الزهرى أن غزوة بنى النضير كانت بعد بدر بستة أشهر، وهذا وَهْمٌ منه، أو غلط عليه، بل الذى لا شك فيه: أنها بعد أُحُدٍ والذى كانت بعد بدر

(١) انظر: التاريخ السياسى والعسكرى، (ص١٨٨، ١٨٩).

بستة أشهر، هى غزوة بنى قينقاع، وقريظة بعد الخندق، وخيبر بعد الحديبية[١].

وقال ابن العربى: والصحيح أنها بعد أُحُد[٢]. وإلى هذا الرأى ذهب ابن كثير[٣].

أسباب الغزوة

هناك مجموعة من الأسباب حملت النبى ﷺ على غزوة بنى النضير وإجلائهم من أهمها:

(١) نَقْض بنى النضير عهودهم التى تُحتم عليهم ألا يؤووا عدوًّا للمسلمين، ولم يكتفوا بهذا النقض، بل أرشدوا الأعداء إلى مواطن الضعف فى المدينة.

وقد حصل ذلك فى غزوة السويق حيث نذر أبو سفيان بن حرب حين رجع إلى مكة بعد غزوة بدر، ألا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو المدينة، فلما خرج فى مائتى راكب قاصدًا المدينة قام سيد بنى النضير سلام ابن مشكم بالوقوف معه وضيافته وأبطن له خبر الناس، ولم تكن مخابرات المدينة غافلة عن ذلك[٤].

قال موسى بن عقبة صاحب المغازى: (كانت بنو النضير قد دَسُّوا إلى قريش وحصونهم على قتال رسول الله ﷺ، ودلوهم على العورة)[٥].

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٤٩).

(٢) انظر: أحكام القرآن لابن العربى (٤/ ١٧٦٥).

(٣) انظر: حديث القرآن عن الغزوات (١/ ٢٥٤).

(٤) انظر: تاريخ الطبرى (٢/ ٢٨٤).

(٥) انظر: فتح البارى (٧/ ٣٣٢).

(٢) محاولة اغتيال النبى ﷺ.

۞ خرج رسول الله ﷺ إلى بنى النضير يستعينهم فى دية ذينك القتيلين من بنى عامر، اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمرى، للجوار الذى كان رسول الله ﷺ عقد لهما، وكان بين بنى النضير وبين بنى عامر عقد وحلف. فلما أتاهم رسول الله ﷺ يستعينهم فى ذينك القتيلين، قالوا: نعم يا أبا القاسم نُعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه، ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد ـ فمَن رجل يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب (أحدهم) فقال: أنا لذلك فصعد ليلقى عليه صخرة كما قال، ورسول الله ﷺ فى نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلى (رضوان الله عليهم) فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج راجعًا إلى المدينة، فلما استلبث النبى ﷺ أصحابه، قاموا فى طلبه، فلقوا رجلاً من المدينة فسألوه عنه فقال: رأيته داخلاً المدينة، فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه ﷺ فأخبرهم الخبر بما كانت اليهود أرادت من الغدر به، وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم.

النبى ﷺ ينذر بنى النضير

۞ سجلت معظم كتب السيرة النبوية خبر إنذار النبى ﷺ لبنى النضير بالجلاء خلال عشرة أيام، وقد أرسل ﷺ محمد بن مسلمة إليهم، وقال له: **«اذهب إلى يهود بنى النضير، وقل لهم: إن رسول الله ﷺ أرسلنى إليكم أن اخرجوا من بلادي؛ لقد نقضتم العهد الذى جعلت لكم مما هممتم به من**

الغدر، وقد أجَّلتكم عشرًا، فمن رُئى بعد منكم ضربت عنقه»[1]، ولم يجدوا جوابًا يردون به سوى أن قالوا لمحمد بن مسلمة: يا محمد، ما كنا نظن أن يجيئنا بهذا رجل من الأوس، فقال محمد: تغيرت القلوب، ومحا الإسلام العهود، فقالوا: نتحمل، فمكثوا أيامًا يعدون العدة للرحيل[2]. وفي تلك المدة أرسل إليهم عبد الله بن أُبى ابن سلول من يقول لهم: اثبتوا وتمنَّعوا فإنا لن نُسلمكم، وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أُخرجتم خرجنا معكم[3]، ولا تخرجوا فإن معى من العرب وممن انضوى إلى قومى ألفين، فأقيموا، فهم يدخلون معكم حصونكم، ويموتون عن آخرهم قبل أن يصلوا إليكم[4]. فعادت لليهود بعض ثقتهم وتشجَّع كبيرهم (حُيى بن أخطب) وأرسل إلى النبى ﷺ جدى بن أخطب يقول له: إنا لن نريم -أى لن نبرح- دارنا فاصنع ما بدا لك، فكبَّر رسول الله ﷺ وكبَّر المسلمون معه، وقال: **«حاربت يهود»**[5].

ضرب الحصار عليهم وإجلاء يهود بنى النضير

۞ وانقضت الأيام العشرة ولم يخرجوا من ديارهم، فتحركت جيوش المسلمين صوبهم، وضربت عليهم الحصار لمدة خمس عشرة ليلة.

وأمر ﷺ بحرق نخيلهم، وقضى بذلك على أسباب تعلقهم بأموالهم وزروعهم، وضعفت حماستهم للقتال، وجزعوا وتصايحوا: يا محمد قد

(١) انظر: طبقات ابن سعد الكبرى (٢/ ٥٧)، مغازى الواقدى (١/ ٣٦٣- ٣٧٠).

(٢) انظر: تاريخ الطبرى (٢/ ٥٥٢).

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٢١٢).

(٤) انظر: تاريخ الطبرى (٢/ ٥٥٣).

(٥) انظر: السيرة النبوية لابن كثير (٣/ ١٤٦).

كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من يفعله، فما بال قطع النخيل وتخريبها؟ وألقى الله فى قلوبهم الرعب، وأدرك بنو النضير أن لا مفر من جلائهم، ودَبَّ اليأس فى قلوبهم وخاصة بعد أن أخلف ابن أُبى وعده بنصرهم، وعجز إخوانهم أن يسوقوا إليهم خيرًا أو يدفعوا عنهم شرًّا، فأرسلوا إلى النبى ﷺ يلتمسون منه أن يُؤَمِّنهم حتى يخرجوا من ديارهم. فوافقهم النبى ﷺ على ذلك وقال لهم: «**اخرجوا منها، ولكم دماؤكم وما حملت الإبل إلا الحلقة** - وهى الدروع والسلاح- فرضوا بذلك»[1]. ونقض اليهود سقف بيوتهم وعُمدها وجدرانها لكى لا ينتفع منها المسلمون. وحملوا معهم كميات كبيرة من الذهب والفضة حتى أن سلام بن أبى الحقيق وحده حمل جلد ثور مملوءًا ذهبًا وفضة، وكان يقول: هذا الذى أعددناه لرفع الأرض وخفضها، وإن كنا تركنا نخلاً ففى خيبر النخل[2]. وحملوا أمتعتهم على ستمائة بعير، وخرجوا ومعهم الدفوف والمزامير والقيان يعزفن من خلفهم، حتى لا يشمت بهم المسلمون، فقصد بعضهم خيبر وسار آخرون إلى أذرعات الشام[3].

۞ وفى رواية: فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء وعلى أن لهم ما أقلَّت الإبل إلا الحلقة ـ والحلقة: السلاح ـ فجاءت بنو النضير، واحتَملوا ما أقلَّت الإبل من أَمتعتهم، وأبواب بيوتهم، وخشبها، فكانوا يُخربون بيوتهم، فيهدمونها فيحملون ما وافقهم من خشبها... وكان جلاؤهم ذلك أول حشر الناس إلى الشام، وكان بنو النضير من سبط من أسباط بنى إسرائيل، لم

---

(١) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ٢٥٧).

(٢) انظر: السيرة الحلبية (٢/ ٥٦٦).

(٣) انظر: السيرة الحلبية (٢/ ٥٦٥)، حديث القرآن الكريم (١/ ٢٥٧).

يُصبهم جلاءٌ منذ كتب الله على بنى إسرائيل الجلاء، فلذلك أجلاهم رسول الله ﷺ ، فلولا ما كتب الله عليهم من الجلاء لعذبهم فى الدنيا كما عُذبت بنو قريظة، فأنزل الله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ حتى بلغ: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(١) وكان نخل بنى النضير لرسول الله ﷺ خاصة، فأعطاه الله إياها، وخصَّه بها، فقال: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾(٢) يقول: بغير قتال.

قال: فأعطى النبى ﷺ أكثرها للمهاجرين، وقسَّمها بينهم، ولرجلين من الأنصار كانا ذوى حاجة، لم يقسم لرجل من الأنصار غيرهما، وبقى منها صدقة رسول الله ﷺ فى يد بنى فاطمة(٣).

وقد تولى عملية إخراجهم من المدينة محمد بن مسلمة، بأمر من رسول الله ﷺ(٤). وكان من أشرافهم الذين ساروا إلى خيبر: سلام بن أبى الحقيق، وحُيى بن أخطب، وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق، فلما نزلوها دان لهم أهلها(٥).

وقد خرج يهود بنى النضير إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام(٦)، وقد أسلم منهم اثنان ولذلك فإنهما أحرزا أموالهما(٧). أما باقى أموالهم

---

(١) سورة الحشر: الآيات: (١-٦).

(٢) سورة الحشر: الآية: (٦).

(٣) أخرجه عبد الرزاق (٩٧٣٣) وأبو داود (٣٠٠٤) والحاكم (٢/ ٤٨٣) وإسناده صحيح.

(٤) انظر: المغازى للواقدى (١/ ٣٧٤)، اليهود فى السنة المطهرة (١/ ٣٢١).

(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢١٢).

(٦) عبد الرزاق الصنعاني - المصنف (٥/ ٣٥٨-٣٦١) بإسنادٍ صحيح.

(٧) وهما يامين بن عمر بن كعب، وأبو سعد بن وهب، انظر: ابن هشام- السيرة (٣/ ٢٧٠).

وبساتينهم فكانت نفلا للرسول ﷺ [١]، كان ينفق على أهله منها نفقة سنة، ويجعل الفاضل عدّة فى سبيل اللّه [٢]. أما أرضهم فقد قسمها بين المهاجرين خاصّة، وأعطى اثنين من الأنصار لفقرهما [٣].

لم يتوقف حقد يهود بنى النضير وكيدهم للإسلام بإجلائهم وتخليص المدينة وما حولها من شرورهم، فقد ثبت أنهم ساهموا فى التحريض على تجميع الأحزاب فى مواجهة الإسلام والكيد له فكانت غزوة الخندق [٤].

ونزلت سورة الحشر فى بنى النضير

۞ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قال سعيد بن جبير: قلت لابن عباس: سورة التوبة قال: التوبة هى الفاضحة ومازالت تنزل حتى ظنوا أنها لم تُبق أحدًا منهم إلا ذُكر فيها، قال: قلت: سورة الأنفال قال: نزلت فى بدرٍ قلت: سورة الحشر، قال: نزلت فى بنى النضير» [٥].

---

(١) كما ورد بنص القرآن فى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ...﴾ الآية، ونزول سورة الحشر فى بنى النضير، وانظر: البخارى- الصحيح (الأحاديث ٤٨٨٢- ٤٨٨٣)، مسلم- الصحيح (٣/ ١٣٨٨- ١٣٩٠) (الأحاديث ١٧٦٨- ١٧٦٩).

(٢) البخارى- الصحيح (حديث ٤٨٨٥).

(٣) وهما سهل بن حنيف وأبو دجانة، انظر: الصنعانى (٥/ ٣٥٨- ٦١)، أبو داود (٣/ ٤٠٣- ٤٠٤) (حديث ٣٠٠٤) ولم يصرح باسميهما، وابن إسحاق بإسناد منقطع، ابن هشام- السيرة (٣/ ٢٧٠).

(٤) يرد ذكر مقتل سلام بن أبى الحقيق فى غزوة خيبر لأنه حرّض الأحزاب. وقد أورد ابن هشام فى السيرة أسماء اليهود الذين ساهموا فى ذلك التحريض، بإسناد منقطع، وانظر: الصنعانى- المصنف (٥/ ٣٦٨- ٣٧٣).

(٥) أخرجه البخارى (٤٠٢٩) المغازى- ومسلم (٣٠٣١) التفسير.

الفوائد والآثار الإيمانية

(١) فى هذه المعركة نزلت سورة الحشر بأكملها فوصفت طرد اليهود فى صدرها بقول الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ﴾[1].

ثم فضح القرآن مسلك منافقى المدينة الذين حاولوا إعانة يهود فى غدرها وحربها وحرضوا على مقاتلة المسلمين، بما وعدوها من إمداد وعتاد فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾[2][3].

(٢) هذه صورة ثانية من الغدر والخيانة المتأصلة فى نفوس اليهود، وقد رأينا من قبلها صورة أخرى من خيانتهم فيما أقدم عليه يهود بنى قينقاع، وتلك حقيقة تاريخية صدقتها الوقائع التى لا تُحصَى، وذلك هو سر اللعنة الإلهية التى حاقت بهم، وسجلها بيان الله تعالى فى قوله: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾[4].

وقال: قطع نخيل بنى النضير وإحراقها ثبت بالاتفاق، والذى أتلفه

(١) سورة الحشر: الآية (٢).

(٢) سورة الحشر: الآية (١١).

(٣) فقه السيرة للغزالى (٣٠١).

(٤) سورة المائدة: (٧٨).

الرسول ﷺ من ذلك إنما هو البعض ثم ترك الباقى، وقد نزل القرآن تصويبًا لما أقدم عليه النبى ﷺ من ذلك قطعًا وإبقاءً، وذلك فى قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾[1]، وقد استدل عامة العلماء بذلك على أن الحكم الشرعى فى أشجار العدو وإتلافها منوط بما يراه الإمام أو القائد من مصلحة النكاية بأعدائهم. وهذا الذى قلناه من إباحة قطع شجر الكفار أو إحراقه إذا اقتضت المصلحة هو مذهب نافع مولى ابن عمر ومالك والثورى وأبى حنيفة والشافعى وأحمد وإسحاق وجمهور الفقهاء.

وروى عن الليث بن سعد وأبى ثور والأوزاعى القول بعدم جوازه[2].

اتفق الأئمة على أن ما غنمه المسلمون من أعدائهم بدون قتال وهو «الفىء» يعود النظر والتصرف فيه إلى ما يراه الإمام من المصلحة، وأنه لا يجب عليه تقسيمه بين الجيش كما تُقسَّم عليهم الغنائم التى غنموها بعد قتال وحرب، مستدلين على ذلك بسياسته ﷺ فى تقسيم فىء بنى النضير، فقد خَصَّ به كما رأيت المهاجرين وحدهم وقد نزل القرآن تصويبًا لذلك[3].

(٣) فضح الله ﷻ اليهود فى هذه السورة كما فضح المنافقين فقال تعالى: ﴿لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾[4].

(١) سورة الحشر: الآية: (٥).

(٢) باختصار من فقه السيرة (٢٠٤، ٢٠٥) والجزء الأخير من شرح النووى على صحيح مسلم (١٢/ ٥٠).

(٣) فقه السيرة (٢٠٥) باختصار.

(٤) سورة الحشر: الآية: (١٤).

قال القاسمى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ أى اليهود وإخوانهم ﴿جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ أى: بالحصون، فلا يبرزون إلى البراز-المُبارزة- ﴿أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭ﴾ أى من خلف حيطان لفرط رهبتهم منكم ﴿بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٌ﴾.

قال الزمخشرى: يعنى: أن البأس الشديد الذى يوصفون به إنما هو بينهم إذا اقتتلوا، ولو قاتلوكم لم يبقَ لهم ذلك البأس والشدة، لأن الشجاع يجبن، والعزيز يذل عند محاربة الله ورسوله ... انتهى.

﴿تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰ﴾ أى: تظنهم مجتمعين لاتفاقهم فى الظاهر، والحال أن قلوبهم متفرقة، لاختلاف مقاصدها، وتجاذب دواعيها، وتفرقها عن الحق بالباطل ﴿ذَٰلِكَ﴾قال المهايمى: أى: الاجتماع فى الظاهر مع افتراق البواطن ﴿بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ﴾ أى: أنه يوجب جبنهم المفضى إلى الهلاك الكلى. انتهى.

وفى هذه الآيات الثلاث تشجيع للمؤمنين على مُنازلتهم والحمل عليهم، وتبشير لهم بأنهم المنصورون الغالبون[1].

---

(١) محاسن التأويل (١٦/ ١٠٧) ط. دار الفكر.

غزوة بدر الثانية

تقدّم أن أبا سفُيانَ قال عند انصرافه من أُحُد: مَوْعدُكُم وإيانا العامُ القابلُ ببدر... فلما كان شعبانُ، من العامِ القابِل، خرجَ رسولُ الله ﷺ لموعده فى ألفٍ وخمسمائة، وكانت الخيلُ عشرةَ أفراس، وحمَلَ لواءَهُ علىٌّ بن أبى طالب، واستخلَفَ على المدينةِ عبدَ الله بنَ رواحة، فانتهى إلى بدر، فأقام بها ثمانيةَ أيامٍ ينتظرُ المشركين، وخرج أبو سفيان بالمشركين من مكَّة، وهم ألفانِ، معهم خمسون فرسًا، فلما انْتَهَوْا إلى مَرِّ الظَّهْرَانِ ـ على مَرْحَلَة منْ مكَّة ـ قال لهم أبو سفيان: إن العامَ عامُ جَدْبٍ، وقد رأيتُ أنى أرجِعُ بكم، فانصرَفُوا راجعين وأخلفوا الموعدَ، فسُميت هذه بدرَ الموعد، وتُسمى بدرَ الثانية[١].

وأقبل مخشى بن عمرو الضمرى وهو الذى وادع رسول الله ﷺ على بنى ضمرة فى غزوة ودان، فالتقى برسول الله ﷺ فى بدر وقال: يا محمد أجئت للقاء قريش على هذا الماء؟ قال: «**نعم، يا أخا بنى ضمرة، وإن شئت مع ذلك رددنا إليك ما كان بيننا وبينك، ثم جالدناك حتى يحكم الله بيننا وبينك**» قال: لا والله يا محمد ما لنا بذلك منك من حاجة[٢].

ففى هذا اللقاء أكد رسول الله ﷺ على معنى كبير فى إظهار قوة المسلمين، وأن العقد الذى كان بين الفريقين يستمر بعامل قوة المسلمين لا بعامل ضعفهم، وبناء على طلب الطرف الثانى، وفى هذا ما فيه من القوة

(١) الطبرى (٣/ ٤١) وابن سيد الناس (٢/ ٥٣) وشرح المواهب (٢/ ٩٣، ٩٥) وزاد المعاد (٣/ ٢٥٥).

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٣٢).

للمسلمين وإلقاء الرعب فى قلوب أعدائهم(١). لقد كانت تحركات الجيش الإسلامى من المدينة حتى بدر مناورة رائعة ناجحة أثبت بها وجوده، وأعطى الدليل القاطع لأعداء الإسلام داخل المدينة وخارجها، أنه أصبح أقوى قوة مرهوبة فى الجزيرة العربية كلها، ولا أدل على ذلك من أن جيش مكة وهو من أعظم الجيوش فى الجزيرة من حيث كثرة العدد وقوة التنظيم وجودة التسلح قد هاب الجيش الإسلامى ونكل عن حربه بعد أن خرج للقائه بموجب ميعاد سابق حدده (فى أُحد) قائد عام جيش مكة(٢).

إن الحملة الإعلامية التى قام بها المشركون لإثبات انتصارهم فى أُحد وتفوقهم الحربى قد انتكست على رؤوسهم، وأصبحوا مثار السخرية عند العرب، وثبت للناس أن ارتباك المسلمين للمفاجأة فى أُحد وسقوط القتلى منهم لا يعنى انهزامهم ولا ضعفهم العسكري(٣)، فقد ساهمت هذه الغزوة فى المحافظة على السمعة العسكرية للمسلمين(٤)، وكسبوا انتصارًا معنويًا عظيمًا على أعدائهم بدون قتال، وشاركوا فى الموسم التجارى ببدر وربحوا فى تجارتهم ربحًا طيبًا(٥).

لقد كان لإخلاف قريش الموعد أثر فى تقوية مكانة المسلمين وإعادة هيبتهم(٦).

---

(١) انظر: معين السيرة للشامى، (ص٢٦٤، ٢٦٥).

(٢) انظر: غزوة الأحزاب، باشميل، (ص٨٨، ٨٩).

(٣) انظر: التاريخ الإسلامى للحميدى (٦/ ٦٦).

(٤) انظر: التربية القيادية (٣/ ٤٦٣).

(٥) انظر: التاريخ الإسلامى للحميدى (٦/ ٦٧).

(٦) انظر: المجتمع المدنى فى عهد النبوة للعمرى، (ص٩١).

غزوة دومة الجندل

لم ترد أخبار غزوة دومة الجندل فى الصحيحين، بل فى كتب المغازى والسير التى اتفقت على أنها كانت فى ربيع الأول على رأس تسعة وأربعين شهرًا من الهجرة النبوية[(١)]. ويرجع الواقدى سببها إلى أنه قد بلغ رسول اللّه ﷺ أن بدومة الجندل جمعًا كثيرًا من الناس وأنهم يظلمون مَن مَرَّ بهم من تجار الميرة والمتاع المتنقلين بين المدن- وكان بدومة الجندل سوق عظيم وتجارة رائجة، وأنه قد ضوى إليهم قوم من العرب كثير، وأنهم يريدون التوجه إلى المدينة طمعًا فى أموالها[(٢)].

خرج إليها رسولُ الله ﷺ فى ربيع الأول سنة خمس، وذلك أنه بلغه أن بها جمعًا كثيرًا يُريدونَ أن يَدْنُوا مِن المدينة، وبينها وبينَ المدينة خَمْسَ عشرةَ ليلة، وهى من دمشق على خمس ليال، فاستعمل علَى المدينة سباع بن عُرفطة الغفارى وخرج فى ألفٍ من المسلمين ومعه دليل من بنى عُذْرة، يقال له: مذكور، فلما دنا منهم، إذا هُم مُغرِّبون، وإذا آثار النَّعم والشاء فهجم على ماشيتهم ورُعاتهم، فأصابَ من أصابَ، وهَرَبَ مَنْ هَرَبَ، وجاء الخبرُ أَهل دوُمةَ الجَنْدَل، فتفرَّقُوا، ونزل رسولُ الله ﷺ بِسَاحَتهم، فلم يَجِد فيها أَحدًا، فأقامَ بها أيامًا، وبثَّ السرايا، وفرق الجيوشَ، فلم يُصب منهم أَحدًا، فرجَعَ رسولُ الله ﷺ إلى المدينة،

(١) ابن هشام- السيرة (٣/ ٢٩٧- ٢٩٨)، الواقدى- المغازى (١/ ٤٠٢)، ابن سعد- الطبقات (٢/ ٦٢).

(٢) الواقدى- المغازى (١/ ٤٠٢- ٤٠٤)، ابن سعد- الطبقات ٢/ ٦٢- ٦٣)، وقد أضاف الواقدى سببا آخر وهو أن الرسول ﷺ أراد أن يقترب بتحركاته العسكرية من حدود الشام لكى يفزع الروم (المغازى ١/ ٤٠٣).

ووادع فى تلك الغزوة عُيينةَ بْن حصن[١].

كانت غزوة دومة الجندل من ضمن حركة تثبيت أركان الدولة الإسلامية، فبعد غزوة بدر الموعد، تحركت القوات الإسلامية بقيادة رسول الله ﷺ نحو قضاعة التى كانت تنزل شمال قبائل أسد وغطفان، وفى حدود الغساسنة الموالين للدولة الرومية (بيزنطة) ولها إشراف على سوق (دومة الجندل) الشهير (على بعد ٤٥٠ كيلومترًا شمال المدينة)، كانت هذه القبيلة أول من احتكَّ بها المسلمون فغزاها رسول الله ﷺ تلك الغزوة المعروفة بغزوة دومة الجندل (ربيع الأول ٥هـ/ أغسطس ٦٢٦م)[٢].

إن دومة الجندل تُعتبر بلادًا نائية بالنسبة للمدينة المنورة؛ لأنها تقع على الحدود بين الحجاز والشام، وفى منتصف الطريق بين البحر الأحمر والخليج العربى، وهى على مسيرة ست عشرة ليلة من المدينة، ولو أن المسلمين أغفلوا أمرها، وسكتوا على وجود هذا التجمع فيها ما لامهم أحد ولا ضرَّهم هذا التجمع فى شيء على المدى القريب، ولكن النظرة السياسية البعيدة والعقلية العسكرية الفذة أوجبت على المسلمين أن يتحركوا لفض هذا التجمع[٣] والقضاء عليه قبل أن يستفحل شأنه للأسباب الآتية، وكذلك بغية تحقيق بعض الأهداف:

(١) لأن السكوت على هذا التجمع وما شاكله يؤدى بلا شك إلى تطوره واستفحاله، ثم يؤدى بعد ذلك إلى إضعاف قوة المسلمين وإسقاط هيبتهم، وهو الأمر الذى يجاهدون من أجل استرداده.

(٢) وجود مثل هذا التجمع فى الطريق إلى الشام قد يؤثر على الوضع

(١) شرح المواهب (٢/ ٩٤، ٩٥) وزاد المعاد (٣/ ٢٥٥ـ٢٥٦).

(٢) انظر: دراسات فى عهد النبوة والخلافة الراشدة للشجاع، (ص١٤٤).

(٣) انظر: تأملات في سيرة الرسول لمحمد الوكيل، (ص١٦٩).

الاقتصادى للمسلمين، فلو أن المسلمين سكتوا على هذا التجمع لتعرضت قوافلهم أو قوافل القبائل التى تحتمى بهم للسلب والنهب، مما يضعف الاقتصاد، ويؤدى إلى حالة من التذمر والاضطراب.

(٣) وهناك أمر أهم من الأمرين السابقين وهو فرض نفوذ المسلمين على هذه المنطقة كلها، وإشعار سكانها بأنهم فى حمايتهم وتحت مسئوليتهم، لذلك فهم يُؤَمِّنون لهم الطرق، ويحمون لهم تجارتهم، ويحاربون كل إرهاب من شأنه أن يزعجهم أو يعرضهم للخطر(١).

(٤) حرمان قريش من أى حليف تجارى قد يمدها بما تحتاج من التجارة، وصرف أنظارهم عن هذه المنطقة التجارية الهامة؛ لأن ظهور الدولة الإسلامية بهذه القوة يؤثر على نفسية قريش العدو الأول للدولة الإسلامية، ويجعلها تخشى المسلمين على تجارتها(٢).

(٥) الحرص على إزالة الرهبة النفسية عند العرب الذين ما كانوا يحلمون بمواجهة الروم، والتأكيد عمليًّا للمسلمين بأن رسالتهم عالمية(٣) وليست مقصورة على العرب ... ورأى بعض المؤرخين كالذهبى، والواقدى، ومحمد أحمد باشميل، وغيرهم أن من أهداف تلك الغزوة إرهاب الروم الذين تقع المنطقة التى وصل إليها ﷺ بجيشه على حدودهم وعلى مسافة خمس ليالٍ من عاصمة ملكهم الثانية دمشق(٤). لهذا ندب رسول الله ﷺ المسلمين للخروج وخرج فى ألفٍ من أصحابه، وكان يسير

---

(١) تأملات فى سيرة الرسول، (ص١٦٩).

(٢) انظر: دراسات فى عهد النبوة للشجاع، (ص١٤٤، ١٤٥).

(٣) المصدر نفسه، (ص١٤٤).

(٤) انظر: غزوة الأحزاب، باشمبل، (ص٩٣)، تاريخ المغازى للذهبى، (ص٢٥٨).

الليل، ويكمن النهار حتى يُخفى مسيره[١]، ولا تشيع أخباره وتُنقل أسراره، وتتعقبه عيون الأعداء[٢].

واتخذ له دليلاً من بنى عذرة يسمى (مذكورًا)، وسار حتى دنا من القوم، عندئذ تفرقوا، ولم يلق رسول الله ﷺ منهم أحدًا فقد ولوا مدبرين، وتركوا نعمهم وماشيتهم غنيمة باردة للمسلمين، وأسر المسلمون رجلًا منهم، وأحضروه إلى الرسول فسأله عنهم، فقال: هربوا لما سمعوا بأنك أخذت نعمهم، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام فأسلم وأقام بساحتهم أيامًا، وبعث البعوث، وبَثَّ السرايا، وفرق الجيوش، فلم يُصَب منهم أحد، وعاد المسلمون إلى المدينة، وفى أثناء عودتهم وادع الرسول عُيينة بن حصن الفزارى واستأذن عيينة رسول الله ﷺ فى أن ترعى إبله وغنمه فى أرض قريبة من المدينة على ستة وثلاثين ميلًا منها.

إن وصول جيوش المسلمين إلى دومة الجندل، وهى على هذه المسافة البعيدة من المدينة وموادعة عيينة بن حصن للمسلمين، واستئذانه فى أن يرعى بإبله وغنمه فى أرض بينها وبين المدينة ستة وثلاثون ميلًا، أى ما يقرب من خمسة وستين كيلومترًا، لدليل قاطع على ما وصلت إليه قوة المسلمين، وعلى شعورهم بالمسئولية الكاملة تجاه تأمين الحياة للناس فى هذه المنطقة، وأن هذه المناطق النائية كانت ضمن الدولة الإسلامية، وإن الدولة أصبحت منيعة، ليس فى مقدور أحد أن يعتدى عليها، ولو كان ذلك فى استطاعة أحد لكان هو عيينة بن حصن الذى كان يغضب لغضبه عشرة آلاف فتى[٣].

---

(١) انظر: تأملات فى سيرة الرسول، (ص١٧٠).

(٢) انظر: غزوة الأحزاب لأبى فارس، (ص٤٠).

(٣) انظر: تأملات فى سيرة الرسول، (ص١٧٠).

كانت غزوة دومة الجندل بعيدة عن المدينة من جهة الشام، إذ بينها وبين دمشق ما لا يزيد عن خمس ليالٍ، وقد كانت بمثابة إعلان عن دعوة الإسلام بين سكان البوادى الشمالية وأطراف الشام الجنوبية، وأحسوا بقوة الإسلام وسطوته، كما كانت لقيصر وجنده، كما أن سير الجيش الإسلامى هذه المسافات الطويلة قد كان فيه تدريب له على السير إلى الجهات النائية، وفى أرض لم يعهدها من قبل، ولذلك تُعتبر هذه الغزوة فاتحة سير الجيوش الإسلامية للفتوحات العظيمة فى بلاد آسيا وأفريقيا فيما بعد(١).

كانت خطة الرسول ﷺ فى هذه الغزوة ترمى إلى أهداف عديدة، فهى غزوة، وحرب استطلاعية تمسح الجزيرة العربية، وتتعرف على مراكز القوى فيها، وهى حرب إعلامية تأتى على أعقاب بدر الموعد، وتستثمر انتصاراتها، وهى حرب عسكرية تريد أن تصد هجومًا محتملاً على المسلمين حيث ضوى إليها قوم من العرب كثير يريدون أن يدنوا من المدينة، وهى حرب سياسية تريد أن تجهض من تحركات القبائل المحتمل أن تتحرك بعد أنباء غزوة أُحد لتقصد المدينة وتستبيحها(٢).

كانت هذه الغزوة دورة تربوية رائعة وقاسية وشاملة يقودها رسول الله ﷺ وبين يديه ألف من أصحابه، فيتلقون فيها كل لحظة دروسًا فى الطاعة والانضباط، ودروسًا فى التدريب الجسمى والعسكرى والتحمل لمشاق الحياة وصعوباتها، وأحكامًا وفقهًا فى الحلال والحرام، وعمليات صهر وتذويب لقواعد الجيش الإسلامى فى بوتقة واحدة خارج إطار العشيرة، وخارج كيان القبيلة، حيث أخذت تفد إلى المدينة عناصر كثيرة من أبناء

(١) انظر: السيرة النبوية لأبى شهبة، (ص٢٥١، ٢٥٢).

(٢) انظر: التربية القيادية (٣/ ٣٧٢).

القبائل المجاورة، والتخلى عن الأطر القبلية وعصاباتها للانصهار فى بوتقة الأمة الواحدة التى تجعل الولاء لله ورسوله، وفوق هذا كله تتيح الفرصة لجيل بدر الرائد أن يقوم بمهمة التربية للوافدين الجُدد وتعليمهم وتثقيفهم، كما تتيح الفرصة لكشف ضعاف النفوس، ومن له صلة بمعسكر النفاق من خلال مراقبة تصرفاته وسلوكه، إنها ليست ساعات محدودة أو أيامًا معدودة، بل هى دورة قرابة شهر، لا يمكن إلا أن تبرز فيها كل الطبائع وكل النوازع، فيتلقاها عليه الصلاة والسلام ليصوغها على ضوء الإسلام ويعلم الجيل الرائد فن القيادة وعظمة السياسة.

كانت معركة صامتة، وتربية هادئة، وكان الجيش مع قائده يقطع ما ينوف عن ألف ميل فى هذه الصحراء، يتربى ويتثقف ويتدرب ويمتحن ويقوم، ليكون هذا استعدادًا لمعارك قادمة[١]. وفى غيابه فى غزوة دومة الجندل عيَّن ﷺ سباع بن عرفطة الغفارى واليًا على المدينة فى تجربة جديدة، فهو ليس أوسيًّا ولا خزرجيًّا ولا قرشيًّا، بل من غِفار التى كانت تُعتبر من سُرَّاق الحجيج عند العرب، فلا بد لهذا الجيل أن يتربى على الطاعة والانضباط للأمير أيًّا كان شأن هذا الأمير، وهذا يدل على عظمة المنهج النبوى فى تربية الأمة والارتقاء بها، وعلى عظمة قيادة النبى ﷺ وفراسته فى أتباعه وثقته فيهم ومعرفته لمواهبهم، فهو ﷺ على معرفة بكفاءة سباع بن عرفطة الغفارى وعبقريته وقدرته على الإدارة الحازمة، فكان ﷺ يربى أصحابه وهو غائب عن المدينة لكى يهيمن منهج رب العالمين على المسلمين، ويصنع منها أمة واحدة تسمع وتطيع لكتاب ربها وسنة نبيها[٢].

---

(١) انظر: التربية القيادية (٣/ ٣٧٣).

(٢) المصدر نفسه (٣/ ٣٧٤) نقلًا عن (غزوات الرسول) للدكتور على الصلابى.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

غزوة بنى المصطلق

(المريسيع)

حادثة الإفك

غزوة بنى المصطلق (المريسيع)

۞ كان الإسلام دعوة تغالب النظام السائد... كانت مخاصمته تتخذ طريق الهجرة والتهجم دون مبالاة، فلما استقر له الأمر وتوفرت لأبنائه أسباب القوة، سلكت عداوته المسارب التى تسلكها الغرائز المكبوتة، فأمسى الكيد له يقوم على المكر والدس إلى جانب الوسائل الأخرى التى يعالن بها الأقوياء ... وائتمار الضعفاء فى جُنح الظلام لا يقل خطورة عن نكاية الأقوياء فى ميادين الصدام. بل إن المرء قد يألم لإشاعة ملفقة أكثر مما يألم لطعنة مواجهة. وفى الحروب الفاجرة تُستخدم جميع الوسائل التى تصيب العدو، وإن كان بعضها يستحى من استخدامه الرجل الشريف!.

وقد لجأ المنافقون فى المدينة إلى مناوأة النبى ﷺ ودعوته بأسلوب تظهر فيه خسة النفس الإنسانية عندما يستبد بها الحقد، ويغلب عليها الضعف ... أسلوب اللمز والتعريض حينًا، والإفك والافتراء حينًا آخر.

وكلما توطدت سلطة المسلمين ورسخت مكانتهم ازداد خصومهم المنافقون ضغنًا عليهم وتربُّصًا بهم. وقد حاولوا تأييد اليهود عندما تأذّنهم الرسول ﷺ بالجلاء، فلما لم يقف أمام المدّ الإسلامى شىء، ولم تهدّه هزيمة. وأخذت القبائل العادية تختفى واحدة تلو أخرى، التحق أولئك المنافقون بصفوف المسلمين ولم تنكشف نياتهم السوء إلا على فلتات الألسنة ومزالق الطباع فكانت سيرتهم تلك مثار فتن شداد تأذّى منها رسول الله والمؤمنون شيئًا غير قليل.

وظهر ذلك جليًّا فى غزوة «بنى المصطلق»[1].

---

(١) فقه السيرة للغزالى (ص ٣٢٦).

دور المنافقين قبل غزوة بنى المصطلق

قدمنا مرارًا أن عبد الله بن أُبىّ كان يحنق على الإسلام والمسلمين، ولا سيما على رسول الله ﷺ حنقًا شديدًا، لأن الأوس والخزرج كانوا قد اتفقوا على سيادته، وكانوا ينظمون له الخرز؛ ليتوجوه؛ إذ دخل فيهم الإسلام، فصرفهم عن ابن أُبى، فكان يرى أن رسول الله ﷺ هو الذى استلبه مُلكه.

وقد ظهر حنقه هذا وتحرُّقه منذ بداية الهجرة قبل أن يتظاهر بالإسلام، وبعد أن تظاهر به... ركب رسول الله ﷺ مرة على حمار؛ ليعود - أى ليزور - سعد بن عبادة، فمر بمجلس فيه عبد الله بن أُبىّ، فَخَمَّر ابن أُبىّ أنفه وقال: لا تُغَبِّروا علينا. ولما تلا رسول الله ﷺ على المجلس القرآن، قال: اجلس فى بيتك ولا تغشَنا فى مجلسنا[1].

وهذا قبل أن يتظاهر بالإسلام، ولما تظاهر به بعد بدر، لم يزل إلا عدوًّا لله ولرسوله وللمؤمنين، ولم يكن يفكر إلا فى تشتيت المجتمع الإسلامى، وتوهين كلمة الإسلام، وكان يوالى أعداءه.

وكانت له اتصالات ببنى النضير يؤامر معهم ضد المسلمين، حتى قال لهم: لئن أُخرجتم لنخرجن معكم ولئن قوتلتم لننصرنكم.

وكذلك فعل هو وأصحابه فى غزوة الأحزاب من: إثارة القلق والاضطراب، وإلقاء الرعب والدهشة فى قلوب المؤمنين ما قد قَصَّ الله تعالى فى سورة الأحزاب: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ إلى قوله: ﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ

(١) أخرجه البخارى (٤٥٦٦)، ومسلم (١١٦) (١٧٩٨).

أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴾(١).

بَيْدَ أن جميع أعداء الإسلام من اليهود والمنافقين والمشركين كانوا يعرفون جيدًا أن سبب غلبة الإسلام ليس هو التفوق المادى، وكثرة السلاح والجيوش والعدد؛ وإنما السبب هى القيم والأخلاق، والمُثل التى يتمتع بها المجتمع الإسلامى، وكل من يَمُتُّ بصلة إلى هذا الدين، وكانوا يعرفون أن منبع هذا الفيض إنما هو رسول الله ﷺ الذى هو المثل الأعلى - إلى حد الإعجاز - لهذه القيم.

كما عرفوا بعد إدارة دفة الحروب طيلة خمس سنين، أن القضاء على هذا الدين وأهله لا يمكن بطريق استخدام السلاح، فقرروا أن يشنوا حربًا دعائية واسعة ضد هذا الدين من ناحية الأخلاق والتقاليد، وأن يجعلوا شخصية الرسول أول هدف لهذه الدعاية،... ولما كان المنافقون هم الطابور الخامس فى صفوف المسلمين، ولكونهم سكان المدينة، كان يمكن لهم الاتصال بالمسلمين واستفزاز مشاعرهم كل حين... تحمَّل فريضة الدعاية هؤلاء المنافقون، وعلى رأسهم ابن أُبىّ(٢).

---

(١) سورة الأحزاب: الآيات: (١٢-٢٠).

(٢) الرحيق المختوم (ص: ٣٥٤-٣٥٦) بتصرف.

متى كانت تلك الغزوة (١)

(١) اختلف العلماء فى ذلك وانحصرت أقوالهم فيها فى ثلاثة أقوال، فمن قائل أنها سنة ست، قال بذلك ابن إسحاق إمام المغازى، وتبعه على ذلك خليفة بن خياط، وابن جرير الطبرى، وابن حزم، وابن عبد البر، وابن العربى، وابن الأثير، وابن خلدون، فقد صرح كل منهم بأن غزوة بنى المصطلق كانت فى شعبان من السنة السادسة للهجرة. ولابن حزم رأى آخر، وافقه عليه عدد من العلماء، منهم مالك بن أنس وموسى بن عقبة، والبخارى، وابن قتيبة ويعقوب بن سفيان الفسوى والنووى، وابن خلدون أنها كانت فى شعبان من العام الرابع للهجرة. وذهبت طائفة إلى أنها كانت فى شعبان من السنة الخامسة للهجرة وذهب إلى هذا القول: موسى بن عقبة، وابن سعد، وابن قتيبة، والبلاذرى، والذهبى، وابن القيم وابن حجر العسقلانى، وابن كثير رحمهم الله ومن المحدثين الخضرى بك، والغزالى، والبوطى، وأبو شهبة والشيخ الساعاتى، وهذا القول هو الأصح والأظهر، والله أعلم، لأن الأدلة كلها متظاهرة ومتفقة على تأييد هذا القول، ومن هذه الأدلة:

أ - روى البيهقى عن عروة، وموسى بن عقبة عن ابن شهاب الزهرى أنه قال: «ثم قاتل بنى المصطلق وبنى لحيان فى شعبان سنة خمس».

ب - قال ابن كثير: قال موسى بن عقبة عن الزهرى: «هذه مغازى رسول الله ﷺ التى قاتل فيها، يوم بدر فى رمضان سنة ثنتين، ثم قاتل يوم أحد فى شوال سنة ثلاث، ثم قاتل يوم الخندق - وهو يوم الأحزاب وبنى قريظة - فى شوال سنة أربع، ثم قاتل بنى المصطلق وبنى لحيان فى شعبان سنة خمس». ثم أورد ابن كثير قول البخارى عن موسى بن عقبة «أنها سنة أربع» وعقب عليه بقوله: هكذا رواه البخارى عن مغازى موسى بن عقبة أنها سنة أربع، والذى حكاه موسى بن عقبة، عن الزهرى وعن عروة أنها كانت فى شعبان سنة خمس». وعقّب ابن حجر العسقلانى فى فتح البارى على قول البخارى «وقال موسى بن عقبة سنة أربع» بقوله: «كذا ذكره البخارى، وكأنه سبق قلم أراد أن يكتب سنة خمس، فكتب سنة أربع، والذى فى مغازى موسى بن عقبة من عدة طرق، أخرجها الحاكم، وأبو سعيد النيسابورى، والبيهقى فى الدلائل، وغيرهم سنة خمس. ولفظه عن موسى بن عقبة عن ابن شهاب «ثم قاتل رسول الله ﷺ بنى المصطلق وبنى لحيان فى شعبان سنة خمس» ويؤيده ما أخرجه البخارى فى الجهاد (عن بن عمر أنه غزا مع النبى ﷺ بنى المصطلق فى شعبان سنة أربع) ولم يؤذن له فى القتال، لأنه إنما أذن له فيه فى الخندق كما تقدم، وهى بعد شعبان سواء قلنا أنها كانت خمس أو سنة أربع. وقال الحاكم فى =

واختلف أهل العلم فى وقت تلك الغزوة ... وحرصًا على تيسير مادة هذا الكتاب فلقد أوردت هذا المبحث فى الهامش لمن أراد أن يقرأه.

أحداث الغزوة

وسببها: أنه بلغه ﷺ أن رئيس بنى المصطلق (الحارث بن أبى ضرار) سار فى قومه ومن قدر عليه من العرب يريدون حرب رسول الله ﷺ فبعث (بريدة بن الحصيب الأسلمى) للتحقُّق من الخبر، فأتاهم، ولقى الحارث ابن أبى ضرار وكلَّمه ورجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر.

وبعد أن تأكد لديه ﷺ صحة الخبر ندب الصحابة، وأسرع فى الخروج، وكان خروجه لليلتين خلتا من شعبان، وخرج معه جماعة من المنافقين لم يخرجوا فى غزاة قبلها واستعمل على المدينة زيد بن حارثة، وقيل: أبا ذر، وقيل: نميلة بن عبد الله الليثى ... وكان الحارث بن أبى ضرار قد وجَّه عينًا ليأتيه بخبر الجيش الإسلامى، فألقى المسلمون القبض عليه وقتلوه.

ولما بلغ الحارث بن أبى ضرار ومن معه مسير رسول الله ﷺ وقتله

= الإكليل: قول عروة وغيره أنها كانت فى سنة خمس أشبه من قول ابن إسحاق. قلت: ويؤيده ما ثبت فى حديث الإفك: أن سعد بن معاذ تنازع هو وسعد بن عبادة فى أصحاب الإفك كما سيأتى، فلو كانت المريسيع فى شعبان سنة ست مع كون الإفك كان فيها، لكان ما وقع فى الصحيح من ذكره سعد بن معاذ غلطًا، لأن سعد بن معاذ مات أيام قريظة، وكانت سنة خمس على الصحيح كما تقدم تقريره، وإن كانت كما قيل سنة أربع. فيظهر أن المريسيع كانت سنة خمس فى شعبان، لتكون قد وقعت قبل الخندق، لأن الخندق كانت فى شوال من سنة خمس أيضًا، فتكون بعدها، فيكون سعد بن معاذ موجودًا فى المريسيع ورُمِىَ بعد ذلك بسهم ومات من جراحته فى قريظة، ويؤيده أيضًا أن حديث الإفك كان سنة خمس، إذ الحديث فيه التصريح بأن القصة وقعت بعد نزول الحجاب، والحجاب كان فى ذى القعدة سنة أربع عند جماعة، فيكون المريسيع بعد ذلك فيرجح أنها سنة خمس» [فتح البارى (٧/ ٤٣٠)].

عينه، خافوا خوفًا شديدًا، وتفرق عنهم من كان معهم من العرب، وانتهى رسول الله ﷺ إلى المريسيع - اسم لماء من مياههم فى ناحية قديد إلى الساحل - فتهيئوا للقتال، وصفَّ رسول الله ﷺ أصحابه، وراية المهاجرين مع أبى بكر الصدِّيق، وراية الأنصار مع سعد بن عبادة، فتراموا بالنبل ساعة، ثم أمر رسول الله ﷺ فحملوا حملة رجلٍ واحد، فكانت النُّصرة.

وانهزم المشركون، وقُتل مَن قُتل وسَبى رسول الله ﷺ النساء والذرارى والنعم والشاء، ولم يُقتل من المسلمين إلا رجل واحد، قتله رجل من الأنصار ظنًّا منه أنه من العدو[1].

وكان مسافع بن صفوان زوج جويرية بنت الحارث من بين العشرة الذين قتلهم المسلمون وأما عن باقى الجيش فقد وقعوا أسرى فى أيدى المسلمين.

وغنم المسلمون غنائم كثيرة ... فقد غنموا أموالهم وسبوا نساءهم وذراريهم وأخذوا أغنامهم ونصرهم الله نصرًا عزيزًا.

وكان من جملة السبى الذين وقعوا فى أيدى المسلمين (جويرية بنت الحارث) بنت زعيم القبيلة وقد ظهر الحزن على وجهها وامتلأ قلبها بالهم والغم لما تتوقعه من ذل الأَسر وترك الأهل... وظلت تفكر فى مصيرها المجهول وكيف ستعيش بعد ذلك وهى التى كانت تعيش فى الرفاهية والنعيم.

الرحيل إلى المدينة وتقسيم الغنائم

بعد أن انتهى أمر غزوة بنى المصطلق بذلك النصر المبارك السريع، عاد الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة منصورًا مُظفَّرًا تُساق الأسرى والغنائم والسبى من النساء والذرارى بين يديه، وكان ذلك شيئًا كثيرًا أنعش

(١) زاد المعاد (٣/ ٢٥٦-٢٥٧).

المسلمين، وأغناهم؛ وكان عدد الأسرى أكثر من سبعمائة وكانت غنائم الإبل ألفى بعير، وغنائم الشاء خمسة آلاف شاة، وكان السبى من النساء والذرارى أهل مائتى بيت.

هذا وقد قُسمت هذه الغنائم ووزعت الأسرى والسبايا والذرارى بين المجاهدين وكانت من بين السبايا السيدة العاقلة جويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق؛ وكانت فتاة ما تزال فى زهرات العمر الأولى، ووقعت فى سهم ثابت بن قيس بن شماس الأنصارى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1].

فأرادت جويرية أن تنال حريتها فكاتبت ثابت بن قيس - أى اتفقت معه أن تعطيه تسع أواقٍ من الذهب على أن يعطيها حريتها فلا تكون أسيرة عند أحدٍ - فوافق ثابت بن قيس على ذلك.

فخرجت جويرية وذهبت إلى رسول الله ﷺ لتسأله أن يساعدها على تفريج همها وفكاكها من الأَسْرِ.

جاءت جويرية إلى رسول الله ﷺ النبى الكريم، الذى هزم قومها، وأسر رجالهم وسَبَى نساءهم وذراريهم بالأمس القريب، فكانت هى إحدى سبايا قومها، وهى ابنة سيدهم ورئيسهم.

وقفت جويرية أمام الرسول الكريم ﷺ تستعينه على الخروج من سجن حريتها لتتنفس عبير الكرامة، وتستشعر العزة التى كانت تتقلب بين أزاهرها، وطلبت منه ﷺ أن يعينها، وقصَّت عليه القصص فقالت: يا رسول الله إنى امرأة مسلمة، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث سيد قومه، وقد أصابنى من البلاء ما لم يخفَ عليك، ووقعت

(١) نساء أهل البيت / أ. أحمد خليل جمعة (ص: ٣٢٢).

فى سهم ثابت بن قيس بن شماس، فكاتبنى على ما لا طاقة لى به، ولا يدان لى، ولا قدرة عليه، وهو تسع أواقٍ من الذهب، وما أكرهنى على ذلك إلا أنى رجوتك صلى الله عليك، وجئتك أسألك فى كتابتى[١].

وكانت جويرية فى غاية الحسن والجمال وكانت أمنا عائشة قد رأتها قبل أن تدخل على رسول الله ﷺ ورأت حُسنها وجمالها وبهائها فقالت: فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتى فكرهتها وعرفت أنه سيرى منها ما رأيت فدخلت عليه فقالت: يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار سيد قومه، وقد أصابنى من البلاء ما لم يخف عليك فوقعت فى السهم لثابت بن قيس فكاتبته على نفسى، فجئتك أستعينك على كتابتى.

فنظر إليها النبى ﷺ نظرة عطفٍ وإشفاقٍ وتحركت عوامل الرحمة والنخوة والكرم فى قلبه فهو الذى قال عنه الحق (جل وعلا): ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[٢].

فقال لها ﷺ فى رحمة وحنان: «**فهل لك فى خير من ذلك؟**».

فقالت متلهفة: وما هو يا رسول الله؟

قال: «**أقضى عنك كتابك، وأتزوجك!**».

فانشرحت أساريرها وتهلل وجهها الجميل، وكادت أن تطير من فرحتها، فهذه نقلة كبيرة وشرف عظيم، إنه على غير المتوقع، فمن سبيَّة أسيرة، جاءت إلى النبى ﷺ تستعينه على أمرها، فإذا بالنبى ﷺ يعرض عليها الحرية والزواج والشرف.

---

(١) الإصابة (٤/ ٢٥٧) والسمط الثمين (ص: ١٣٥).

(٢) سورة الأنبياء: الآية: (١٠٧).

وانتبهت من مفاجأتها وأجابت الرسول على الفور: نعم يا رسول الله.

قال ﷺ: «**قد فعلت**»[(١)].

وانصرفت (بَرَّة) من حضرة رسول الله ﷺ بنفسٍ راضية مطمئنة، حتى يقضى رسول الله ﷺ عنها كتابها، ويؤدى ثمن خلاصها من الرِّق وحصولها على الحرية والشرف والمكانة الطاهرة.

كانت جويرية رضي الله عنها أعظم الناس بركة على قومها

وتم الزواج المبارك ودخلت بَرَّة بنت الحارث التى سمَّاها النبى ﷺ (جويرية بنت الحارث) بيت زوجها رسول الله ﷺ وأصبحت منذ هذه اللحظة أم المؤمنين.

فلما علم أصحاب الرسول ﷺ بخبر زواجها من رسول الله ﷺ قالوا: إن رسول الله ﷺ قد تزوج السيدة جويرية بنت الحارث فلا ينبغى أن يكون أهلها أسرى فى أيدينا فهيا لنعتقهم جميعًا ونُطلق أَسْرَهم فأرسلوا كل ما فى أيديهم من الأسرى فأصبحوا أحرارًا ببركة هذا الزواج المبارك.

فبلغ ما أُعتقوا مائة أهل بيت منهم، حتى قالت عائشة عن جويرية فى ذلك: لا أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها.

وهكذا أيضًا نال بنو المصطلق الشرف كل الشرف إذ صاروا أصهارًا لرسول الله وحظوا - وقد أسلموا - بنعمة الدنيا والآخرة.

ودخلت بيت النبوة

وبعد ما كانت جويرية رضي الله عنها تعيش فى قصر أبيها ثم فى قصر زوجها

(١) صحيح: رواه أبو داود (٣٩٣١) كتاب المناسك، وأحمد (٦/ ٢٧٢)، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى الإرواء (١٢١٢).

(مسافع) انتقلت الآن إلى بيت أعظم زوج فى الدنيا كلها - محمد بن عبد الله ﷺ - الذى لم يكن يملك قصرًا ولا متاعًا زائلاً، وإنما كان يملك سعادة الدنيا والآخرة - بإذن الله - تلكم السعادة التى تكمن فى شىء واحد ألا وهو: أن نُحقق العبودية لله (جل وعلا).

ودخلت رضي الله عنها إلى خدرها لتكون أمًّا للمؤمنين وزوجًا لسيد الأولين والآخرين.

وعاشت أجمل أيام عمرها فى هذا البيت المتواضع ونسيت حياة الترف والثراء التى كانت تحياها من قبل .. فالدنيا كلها لا تساوى لحظة واحدة تقضيها بجوار الحبيب ﷺ الذى لو خُيِّر أى مسلم بين دنياه كلها وبين نظرة واحدة فى وجه الحبيب ﷺ لاختار تلك النظرة الغالية فكيف بمن تعيش معه وتصبح زوجة له لتكون من أهل البيت اللاتى قال الله تعالى فيهن: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1][2].

إسلام أبيها (الحارث بن أبى ضرار)

لم يهدأ بال هذا الرجل العربى الأصل والأرومة، الخزاعى القبيلة، لم يهدأ بال الحارث بن أبى ضرار سيد بنى المصطلق منذ أن أُخذت ابنته أسيرة ضمن الأسرى الذين وقعوا غنيمة فى أيدى المسلمين، فراح يفكر ويدبر ويعمل على فدائها واستردادها بأسرع ما تمكّنه من ذلك ظروفه وموارده.

---

(١) سورة الأحزاب: الآية: (٣٣).

(٢) صحابيات حول الرسول / للمصنف (ص: ٢٣١- ٢٣٢).

وعلى ذلك سار الحارث إلى المدينة، وقد ساق معه جمعًا من الإبل لفداء ابنته بها من المسلمين.

وبينما هو ينزل بمكان اسمه «العقيق» للراحة قبل دخوله المدينة، وقد سرحت الإبل التى جاء بها لفداء ابنته أمامه، أعجبه منها بعيران، وَدَّ لو احتجزهما وأبقاهما لنفسه، ونفَّذ الحارث ما قامت نفسه إليه، فاحتجز البعيرين، وغيَّبهما فى شِعبٍ من شِعاب العقيق، ثم أتى المدينة يسوق باقى الإبل معه لفداء ابنته.

وقصد الحارث بن أبى ضرار سيد بنى المصطلق إلى النبى ﷺ ومعه الإبل يقول: يا محمد أصبتم ابنتى وهذا فداؤها.

قال الرسول ﷺ: «**فأين البعيران اللذان غيبتهما بالعقيق؟**».

فدُهش الحارث أشد الدهشة لمعرفة الرسول ﷺ بما كان منه، ولم يستطع إلا أن يهتف مسلمًا: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فو الله ما اطَّلع على ذلك إلا الله!.

وهكذا أسلم الحارث بن أبى ضرار سيد بنى المصطلق الذى كان يجمع جموع العرب لمحاربة محمد ﷺ والقضاء عليه، كما أسلم معه ابنان له.

وأرسل الحارث فأتى بالبعيرين ليفدى ابنته قائلاً للرسول ﷺ: هذا فداء ابنتى، فإن ابنتى لا يُسَبى مثلها!

فقال الرسول ﷺ: «**أرأيت إن خيَّرناها؟ أليس قد أحسنَّا؟**».

أجاب الحارث: بلى.

وسُئلت بَرَّة فيما تختار، فقالت: اخترت رسول الله ﷺ... وأسلمت

برة، وأعتقها النبى ﷺ وتزوجها وسمَّاها «جويرية»[١].

وها هو النبى ﷺ يُعلمها الخير كله

كان بيت رسول الله ﷺ بيت طاعة وذكر وعبادة وخشوع.

وكانت جويرية رضي الله عنها من القانتات العابدات الصائمات القائمات... وكانت لا تفتر أبدًا عن ذكر رب الأرض والسماوات.

وكانت تقتبس كل يوم نورًا من الهدى النبوى فكان النبى ﷺ يُعلمها من القرآن ومن السنة ما يجعلها تعبد الله على علم، وكان النبى ﷺ كلما رآها يُعلمها شيئًا جديدًا لكى تزداد علمًا وإيمانًا وثباتًا على الحق الذى تحياه.

عن جويرية بنت الحارث: أن النبى ﷺ دخل عليها يوم جمعة، وهى صائمة، فقال لها، «**أَصُمتِ أمس**» ؟ قالت: لا. قال: «**أتريدين أن تصومى غدًا**»؟ قالت: لا. قال: «**فأفطرى**»[٢].

۞ وقد مَرَّ عليها رسول الله ﷺ وهى فى مُصلاها أول النهار، ثم مر عليها فى الظهيرة فوجدها جالسة خاشعة تُسبِّح ربها فقال لها: «**ما زلت على حالك؟**».

لقد مضى على حالها هذا وقت طويل، وهى خاشعة مُسبحة عابدة قانتة، عند ذلك أتحفها رسول الله ﷺ بخصوصية فى الذكر والدعاء والابتهال، أراد أن يعلمها تسبيحًا يليق بما رآه عليها من خشوع فى العبادة وإخلاص فيها فقال لها: «**ألا أعلمك كلمات تقولينهن: سبحان الله عدد خلقه**» ثلاث مرات، «**سبحان الله رضا نفسه**» ثلاث مرات، «**سبحان الله زنة**

(١) أزواج النبى (ص: ٣٨٠- ٣٨١) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه البخارى (١٩٨٦) كتاب الصوم.

عرشه» ثلاث مرات، «سبحان الله مداد كلماته» ثلاث مرات.

هنيئًا لأم المؤمنين جويرية بنت الحارث رضي الله عنها هذه الأقوال الطيبة التى منحها إياها رسول الله ﷺ.

وتقول جويرية بنت الحارث رضي الله عنها: أتى علىَّ رسول الله ﷺ فقال: «**لقد قلتُ بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومدادَ كلماته**»[1].

راوية الحديث

كانت السيدة جويرية أم المؤمنين رضي الله عنها مستمعة جيدة لحديث رسول الله واعية لما يقول، عالمة لما يريد وكانت تحب الخير للناس حبًّا جمًّا، وقد روى عنها حَبر الأمة عبد الله بن عباس، وجابر بن عبد الله الأنصارى، وعبد الله بن عمر رضوان الله عليهم أجمعين، وروى عنها أيضًا الطفيل ابن أخيها، ومجاهد، وآخرون.

ولأم المؤمنين جويرية رضي الله عنها سبعة أحاديث، منها حديث فى صحيح الإمام البخارى، وفى صحيح مسلم حديثان[2].

محاولة المنافقين إثارة الفتنة بين المسلمين فى هذه الغزوة

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «كنا فى غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار. فقال الأنصارى: يا للأنصار، وقال المهاجرى: يا للمهاجرين فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**ما بال دعوى جاهلية؟**» قالوا: يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار فقال ﷺ:

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٢٦) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٦١).

«**دعوها فإنها منتنة**» فسمع بذلك عبد الله بن أُبى فقال: فعلوها؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعزُّ منها الأذل، فبلغ النبى ﷺ فقال عمر: يا رسول الله دعنى أضرب عنق هذا المنافق. فقال النبى ﷺ: «**دعه، لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه**»، وكانت الأنصار أكثر من المهاجرين حين قدموا المدينة، ثم إن المهاجرين كثروا بعد»(١).

إن الله قد صدَّقك يا زيد

عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: «خرجنا مع النبى ﷺ فى سفرٍ أصاب الناس فيه شدة، فقال عبد الله بن أُبى لأصحابه: لا تنفقوا على مَن عند رسول الله حتى ينفضُّوا من حوله. وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعز منها الأذل. فأتيت النبى ﷺ فأخبرته، فأرسل إلى عبد الله بن أُبى فسأله، فاجتهد يمينه ما فعل، قالوا: كذب زيدٌ يا رسول الله ﷺ ... فوقع فى نفسى ما قالوا شدة حتى أنزل الله عز وجل تصديقى فى قوله: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾(٢) فبعث إلىَّ النبى فقرأ فقال: «**إن الله قد صدَّقك يا زيد**»(٣).

❁ **قال ابن إسحاق:**

فبينا رسول الله ﷺ على ذلك الماء، وَرَدَتْ واردةُ الناس، ومع عمر بن الخطاب أجيرٌ له من بنى غفار، يقال له: جَهْجاه بن مسعود(٤)، يقود فرسه،

(١) رواه البخارى (٧/ ٥١٦)، المغازى، ومسلم (١٧/ ١٢٠) صفات المنافقين وأحكامهم.

(٢) سورة المنافقون: الآية: (١).

(٣) أخرجه البخارى (٤٩٠٥) التفسير، ومسلم (٢٥٨٤) البر والآداب والصلة.

(٤) جهجاه بن مسعود: وقيل: ابن قيس، وقيل: ابن مسعود الغفارى شهد بيعة الرضوان بالحديبية عاش إلى خلافة عثمان وقال ابن السكن: مات بعد عثمان بأقل من سنة. [الإصابة ١/ ٢٦٥، أسد الغابة ١/ ٣٦٥].

فازدحم جهجاه وسنان بن وبر الجُهنى[١]، حليف بنى عوف بن الخزرج على الماء، فاقتتلا، فصرخ الجُهنى: يا معشر الأنصار، وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين، فغضب عبد الله بن أُبى ابن سلول، وعنده رهط من قومه فيهم: زيد بن أرقم، غلامٌ حَدَث، فقال: أَوَ قَد فعلوها، قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا، والله ما أعُدّنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول: سَمِّن كَلبك يأكلك ... أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعزّ منها الأذلّ.

ثم أقبل على من حضره من قومه، فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم: أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوَّلوا إلى غير داركم... فسمع ذلك زيد بن أرقم، فمشى به إلى رسول الله ﷺ، وذلك عند فراغ رسول الله ﷺ من عدوّه، فأخبره الخبر، وعنده عمر بن الخطاب، فقال: مُر به (عبَّاد بن بشر) فليقتله، فقال له رسول الله ﷺ: «**فكيفَ يا عمر إذا تحدّث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه؟ لا، ولكن أذِّن بالرحيل**»، وذلك فى ساعة لم يكن رسولُ الله ﷺ يرتحل فيها، فارتحل الناس[٢].

وقد مشى عبد الله بن أُبىّ بن سلول إلى رسول الله ﷺ حين بلغه أن زيد ابن أرقم قد بلَّغه ما سمع منه، فحلف بالله: ما قلت ما قال، ولا تكلمت به ـ وكان فى قومه شريفًا عظيمًا ـ فقال مَن حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من

---

(١) سنان بن وبر الجهنى: سنان بن وبرة أو وبر الجهنى حليف بنى الحارث بن الخزرج. قال ابن أبى حاتم عن أبيه هو الذى سمع عبد الله بن أُبىّ يقول: لئن رجعنا إلى المدينة (الإصابة: ٣/ ١٣٥)، (أسد الغابة: ٢/ ٤٦٣).

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب المناقب (٦/ ح٣٥١٨) ومسلم فى كتاب البر والصلة (٤/ ٦٣/ ١٩٩٨) بنحوه ـ وأخرجه الطبرى فى تفسيره (٢٨/ ٧٥) بطوله من طريق ابن إسحاق.

أصحابه: يا رسول الله، عسى أن يكون الغلام قد أوهم فى حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل، ... حدبًا على ابن أُبى بن سلول، ودفعًا عنه.

قال ابن إسحاق: فلما استقلَّ رسول الله ﷺ وسار، لقيه أُسيد بن حُضير، فحيَّاه بتحية النبوة وسلَّم عليه، ثم قال: يا نبى الله، والله لقد رُحتَ فى ساعة مُنكرة، ما كنت تروح فى مثلها، فقال له رسولُ الله ﷺ: «**أَوَ ما بَلَغَكَ ما قال صاحبكم؟**» قال: وأىّ صاحب يا رسول الله؟ قال: «**عبد الله بن أُبىّ**»، قال: وما قال؟ قال: «**زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليُخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلّ**»، قال: فأنت يا رسول الله، والله تُخرجه منها إن شئت، هو والله الذليلُ وأنت العزيز، ثم قال: يا رسول الله، ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإنَّ قومه لَينظمون له الخَرز ليتوّجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته مُلكًا[١].

ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك، حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مَسَّ الأرض فوقعوا نيامًا، وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ ليشتغل الناس عن الحديث الذى كان بالأمس، من حديث عبد الله بن أُبى إلى أن قال: وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه، ويأخذونه ويُعنفونه، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم: «**كيف ترى يا عمر، أما والله لو قتلته يوم قلت لى اقتله لأرعدت[٢] له أنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته**». قال: قال عمر: «قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمرى»[٣].

---

(١) السيرة لابن هشام (٣/ ٢٦٥).

(٢) لأرعدت له أنف: انتفخت واضطربت أنوفهم حمية وعصبية.

(٣) سيرة ابن هشام: (٢/ ٢٩٠ - ٢٩٢).

موقف عظيم فى الولاء والبراء

وها هو موقف عظيم فى الولاء والبراء يُسطِّره على جبين التاريخ هذا الصحابى الجليل عبد الله بن عبد الله بن أُبى ابن سلول ـ وهو ابن رأس المنافقين ـ ومع ذلك كان صحابيًّا جليلًا.

قال عبد الله بن عبد الله بن أُبى ابن سلول: يا رسول الله بلغنى أنك تريد قتل أبى فإن كنت تريد ذلك فمُرنى بقتله فوالله إن أمرتنى بقتله لأقتلنَّه، وإنى أخشى يا رسول الله، إن قتله غيرى أن لا أصبر عن طلب الثأر فأقتل به مسلمًا فأدخل النار، وقد علمت الأنصار أنى من أبرِّ أبنائها بأبيه. فقال له رسول الله ﷺ خيرًا ودعا له وقال له: «**بِرَّ أباك، ولا يرى منك إلا خيرًا**»، فلما وصل رسول الله ﷺ والمسلمون إلى المدينة من تلك الغزاة وقف عبد الله ابن عبد الله بن أُبى لأبيه بالطريق وقال: والله لا تدخل المدينة حتى يأذن لك رسول الله ﷺ بالدخول. فأذن رسول الله ﷺ بدخوله[1].

۞ بل هناك موقف آخر نذكره ـ مع أنه لم يكن فى تلك الغزوة ـ.

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: مَرَّ رسول الله ﷺ بعبد الله بن أُبى ابن سلول وهو فى ظل أُطم[2] فقال ابن سلول: غبَّر علينا ابنُ أبى كبشة[3] فقال ابنه عبد الله بن عبد الله بن أُبى ابن سلول رضي الله عنه: يا رسول الله والذى أكرمك لئن شئت لآتينك برأسه؟ فقال: «**لا. ولكن بِرَّ أباك وأحسِن صُحبته**»[4].

---

(١) الدرر فى اختصار المغازى والسير (١٨٩، ١٩٠).

(٢) الأُطم: البناء المرتفع. انظر المعجم الوسيط (١/ ٢٠).

(٣) أبى كبشة: أبو كبشة هو زوج حليمة السعدية مرضعة الرسول وذلك من باب التنقيص.

(٤) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٩/ ٣١٨) وقال: رواه البزار ورجاله ثقات.

فوائد جليلة

۞ فى هذه القصة بيان عزَّة الإيمان وأن الكافر ذليل والمنافق ذليل وكيف أن العزَّة لله جميعًا ولا تُطلَب هذه العزة إلا بطاعة الله ﷻ: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ ﴾(١).

ولا أذلّ لعبد الله بن أُبى رأس النفاق من وقوف ولده له وعدم سماحه بدخول المدينة حتى يأذن رسول الله ﷺ فبان بذلك مَن العزيز ومَن الذليل.

۞ فى القصة كذلك بيان أن المشروع أن يدفع بالمفسدة الصغرى المفسدة الكبرى، فادّعاء الناس أن محمدًا ﷺ يقتل أصحابه ممن يُظهر الإسلام لا شكَّ مفسدة عظيمة، فتحمل النبى ﷺ دسائس وغدرات ابن أُبى وهى مفاسد دفعًا لهذه المفسدة والله أعلم.

۞ وفى القصة كذلك شرف النبى ﷺ وصبره على أذى المنافقين وهو أشرف النبيين وإمام المرسلين ولو أمر عبد الله بن عبد الله بن أُبى بقتل أبيه لفعل وابتغى بذلك رضا الله ﷻ ورضا رسوله ﷺ ولكنه قال له: «**بِرَّ أباك**»، فصلى الله عليه وسلم تسليمًا.

ثم هو ﷺ لم يكن لينتقم لنفسه ولا ليغضب لنفسه بل يغضب لله ﷻ ولا شك أن ما لاقاه النبى ﷺ من إيذاء واستهزاء وصبره على ذلك من أسباب رفعة النبى ﷺ وعلو درجته زاده الله ﷻ تشريفًا وتكريمًا وصلى الله عليه وآله وصحبه وسلم تسليمًا(٢).

---

(١) سورة فاطر: الآية: (١٠).

(٢) وقفات تربوية مع السيرة النبوية / د. أحمد فريد (ص ٢٧٥-٢٧٦).

هبوب ريح شديدة لموت عظيم من المنافقين

عن عاصم بن عمر بن قتادة، وعبد الله بن أبى بكر، ومحمد بن يحيى بن حبان: «أن رسول الله ﷺ لما قفل من غزوة بنى المصطلق سلك بالناس طريق الحجاز حتى نزل على ماء بالحجاز فويق النقيع يقال له نقعاء، فلما راح رسول الله ﷺ هبَّت على الناس ريحٌ شديدة آذتهم، وتخوفوها، فقال رسول الله ﷺ: «**لا تخافوها، فإنما هبَّت لموت عظيم من عظماء الكفار، فلما قدموا المدينة، وجدوا رفاعة بن زيد بن التابوت أحد بنى قينقاع، وكان عظيمًا من عظماء يهود، وكهفًا للمنافقين، مات فى ذلك اليوم...**»[(١)].

وقد وصله الإمام مسلم، وعبد بن حميد، وأحمد من طريق آخر عن جابر دون ذكر أن الريح كانت فى غزوة بنى المصطلق وسأكتفى هنا بإيراد رواية مسلم.

عن جابر رضي الله عنه قال: أن رسول الله ﷺ قدم من سفر، فلما كان قرب المدينة هاجت ريح شديدة تكاد أن تدفن الراكب، فزعم أن رسول الله ﷺ قال: «**بُعثت هذه الريح لموت منافق، فلما قدم المدينة، فإذا منافق عظيم من المنافقين قد مات**»[(٢)].

وبهذا الشاهد يُعلم أن حديث ابن إسحاق يصبح حسنًا لغيره.

قصة الإفك

إن الابتلاء سُنة ثابتة لا تتبدل ولا تتغير... ولكن الابتلاء الذى تعرضت

---

١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٩٢ وهو مرسل رجاله ثقات وصرح ابن إسحاق بالتحديث.

) أخرجه مسلم فى كتاب صفة المنافقين رقم: (٢٧٨٢) أحمد فى المسند: (٣/ ٣١٥، ٣٤١، ٣٤٦)، وأبو يعلى فى مسنده: (٤/ ٢٠١)، والطبرى فى تاريخه: (٢/ ٦٠٧)، والبيهقى فى الدلائل (٤/ ٦١).

له أُمنا عائشة رضي الله عنها كان ابتلاءً يُفتت الصخور والجبال ويعصف بالقلوب فلقد اتُهمت فى أعز شىء تملكه المرأة ـ اتُهمت فى عرضها ـ !!!. إن هذا لهو البلاء العظيم ... عائشة رضي الله عنها تُتهم فى عرضها وهى الزهرة التقية النقية التى نبتت فى حقل الإسلام وسُقيت بماء الوحى... ورسول الله ﷺ يُتهم فى عرضه وهو القائم على صيانة حُرمات الأمة وأعراض المسلمين ... والصدِّيق رضي الله عنه يُتهم فى عرض ابنته الغالية !!!.

كانت حادثة الإفك شديدة وأليمة على قلب أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ... ومرت عليها وعلى البيت النبوى الطاهر والبيت البكرى الصادق أوقات قاسية حرجة، امتدت إلى شهر من الزمن، حتى نزل القرآن الكريم بالبراءة للعفيفة الصدِّيقة بنت الصدِّيق، وتحمل هذه البراءة شهادة مباركة للمؤمن صفوان بن المعطل الذى رُمى بالحديث الآثم، كما وسمت المنافقين بميسم الزور والبهتان الذى ظل يلاحقهم إلى النهاية.

لم تسترح نفوس المنافقين الذين رأوا انتصارات الإسلام تتوسع يومًا بعد يوم، ووجدوا أن مكانتهم بدأت تنحسر وتتلاشى إلى أن مقتهم مجتمعهم، فأرادوا ـ بزعمهم ـ أن يوجهوا ضربة قاصمة إلى النبى الكريم ﷺ ، فرموا أمنا الطاهرة الصدِّيقة بنت الصدِّيق بالبهتان العظيم.

وكان عبد الله بن أُبى بن سلول قد تولد النفاق والحسد فى قلبه من أول يوم سمع فيه بالإسلام، وطفق يكيد للنبى ﷺ وللإسلام المكيدة تلو الأخرى، ولكن حكمة الله سبحانه كانت له وللمنافقين بالمرصاد، فكانت تُلجمهم وتكبتهم(١).

---

(١) نساء مبشرات بالجنة (ص: ١٨٠) بتصرف.

المبرأة من فوق سبع سماوات

فتعالوا بنا لنعرف القصة كاملة ونرى مكانة أمنا عائشة عند الله (ﷻ) الذى أنزل براءتها من فوق سبع سماوات.

فعن عائشة رضي الله عنها **قالت:** «كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه. قالت عائشة: فأقرع بيننا فى غزوة غزاها فخرج سهمى، فخرجت مع رسول الله ﷺ بعدما نزل الحجاب فأنا أُحمل فى هودجى وأنزل فيه.

فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة قافلين آذن ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأنى أقبلت إلى رَحلى، فإذا عُقدٌ لى من جذع أظفار قد انقطع، فالتمست عقدى وحبسنى ابتغاؤه.

وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون لى فاحتملوا هودجى، فرحَّلوه على بعيرى الذى كنت ركبت وهم يحسبون أنى فيه وكان النساء إذ ذاك خِفافًا لم يُثقلهن اللحم إنما يأكلن العلقة من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا، فوجدت عقدى بعد ما استمر الجيش فجئت منازلهم وليس بها داعٍ ولا مجيب فأممت منزلى الذى كنت به وظننت أنهم سيفقدونى فيرجعون إلىَّ، فبينا أنا جالسة فى منزل غلبتنى عينى فنمت وكان صفوان بن المعطل السُّلَمى من وراء الجيش فأدلج، فأصبح عند منزلى، فرأى سواد إنسان نائم، فأتانى فعرفنى حين رآنى، وكان يرانى قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه[1]

---

(١) أى: بقوله: إنا لله وإنا إليه راجعون.

حين عرفنى، فخمَّرت وجهى بجلبابى، والله ما كلمنى كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، حتى أناخ راحلته فوطئ على يديها فركبتها، فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين فى نحر الظهيرة، فهلك مَن هلك، وكان الذى تولى الإفك عبد الله بن أُبى ابن سلول، فقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمت شهرًا، والناس يفيضون فى قول أصحاب الإفك، ولا أشعر بشىء من ذلك، وهو يريبنى فى وجعى أنى لا أعرف من رسول الله ﷺ اللُّطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى، إنما يدخل علىَّ رسول الله ﷺ فيُسلِّم ثم يقول: كيف تيكم، ثم ينصرف، فذاك الذى يريبنى ولا أشعر بالشر، حتى خرجت بعدما نقهت، فخرجت معى أم مسطح قِبل المناصع، وهو متبرزنا وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن تُتخذ الكُنف قريبًا من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول فى التبرز قبل الغائط، فكنا نتأذى بالكُنف أن نتخذها عند بيوتنا.

فانطلقت أنا وأم مسطح ـ وهى ابنة أبى رهم بن عبد مناف، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبى بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثة ـ فأقبلت أنا وأم مسطح قبل بيتى وقد فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح فى مرطها، فقالت: تعس مسطح. فقلت لها: بئس ما قلتِ، أتسبين رجلاً شهد بدرًا؟ قالت: أى هنتاه أوَ لم تسمعى ما قال؟ قال: قلت: وما قال؟ فأخبرتنى بقول أهل الإفك، فازددت مرضًا على مرضى. فلما رجعت إلى بيتى ودخل علىَّ رسول الله ﷺ (تعنى سلَّم) ثم قال: «كيف تيكم؟» فقلت: أتأذن لى أن آتى أبوىَّ ... قالت: وأنا حينئذٍ أريد أن أستيقن الخبر من قِبلهما قالت: فأذن لى رسول الله ﷺ.

هموم وأحزان تفتت الجبال

قالت: فجئت أبوىَّ، فقلت لأمى: يا أمتاه ما يتحدث الناس؟ قالت: يا بُنية هوِّنى عليك، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها. قالت: فقلت: سبحان الله، أَوَ لقد تحدث الناس بهذا؟ قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع، ولا أكتحل بنوم حتى أصبحت أبكى.

فدعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب وأسامة بن زيد رضي الله عنهما حين استلبث الوحى يستأمرهما فى فراق أهله. قالت: فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذى يعلم من براءة أهله، وبالذى يعلم لهم فى نفسه من الود فقال: يا رسول الله، أهلك، وما نعلم إلا خيرًا.

وأما على بن أبى طالب فقال: يا رسول الله، لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك. قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة. فقال: «**أى بريرة هل رأيت من شىء يريبك؟**» قالت بريرة: لا والذى بعثك بالحق، إن رأيت عليها أمرًا أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتى الداجن فتأكله فقام رسول الله ﷺ فاستعذر يومئذٍ من عبد الله بن أُبى ابن سلول.

والله ما علمت على أهلى إلا خيراً

قال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: «**يا معشر المسلمين، من يعذرنى من رجل قد بلغنى أذاه فى أهل بيتى؟ فوالله ما علمت على أهلى إلا خيرًا، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيرًا وما كان يدخل على أهلى إلا معى**» فقام سعد بن معاذ الأنصارى فقال: يا رسول الله وأنا أعذرك منه، إن كان من

الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك. قالت: فقام سعد بن عبادة ـ وهو سيد الخزرج، وكان قبل ذلك رجلاً صالحًا ولكن احتملته الحمية ـ فقال لسعد: كذبت لعَمر الله، لا تقتله ولا تقدر على قتله.

فقام أُسيد بن حضير ـ وهو ابن عم سعد بن معاذ ـ فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين. فتساور الحيان الأوس والخزرج حتى هَمُّوا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يُخفضهم حتى سكتوا وسكت.

قالت: فمكثت يومى ذلك لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم.

قالت: فأصبح أبواى عندى وقد بكيت ليلتين ويومًا لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لى دمع يظنان أن البكاء فالقٌ كبدى. قالت: فبينما هما جالسان عندى وأنا أبكى فاستأذنت علىَّ امرأة من الأنصار فأذنت لها، فجلست تبكى معى.

كلمات تجعل القلب يبكى الدماء بدل الدموع

قالت: فبينا نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس، قالت ولم يجلس عندى منذ قيل ما قيل قبلها، وقد لبث شهرًا لا يوحَى إليه فى شأنى قالت: فتشهد رسول الله ﷺ وسلم حين جلس ثم قال: أما بعد، يا عائشة فإنه بلغنى عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممتِ بذنبٍ فاستغفرى الله وتوبى إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه.

فصبرٌ جميل

قالت: فلما قضى رسول الله مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه قطرة،

فقلت لأبى: أجب رسول الله ﷺ فيما قال. قال: والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ. فقلت لأمى: أجيبى رسول الله ﷺ. قالت: ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ. قالت فقلت - وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرًا من القرآن -: إنى والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر فى أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم إنى بريئة - والله يعلم أنى بريئة - لا تصدقونى بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر - والله يعلم أنى منه بريئة - لتُصدقُنِّى. والله ما أجد لكم مثلاً إلا قول أبى يوسف، قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾(١).

هكذا نزلت براءتها من فوق سبع سماوات

قالت: ثم تحولت فاضطجعت على فراشى قالت وأنا حينئذ أعلم أنى بريئة وأن الله مُبرئى ببراءتى، ولكن والله ما كنت أظن أن الله مُنزلٌ فى شأنى وحيًا يُتلى ولشأنى فى نفسى كان أحقر من أن يتكلم الله فىَّ بأمرٍ يُتلى ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ فى النوم رؤيا يبرؤنى الله بها. قالت: فوالله ما رام رسول الله ﷺ ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أُنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق وهو فى يومٍ شاتٍ من ثقل القول الذى ينزل عليه.

قالت: فلما سُرِّى عن رسول الله ﷺ سُرِّى عنه وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلم بها: يا عائشة، أما الله ﷻ فقد برأك. فقالت أمى: قومى إليه قالت فقلت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله ﷻ ... وأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ

(١) سورة يوسف: الآية: (١٨).

جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ ....﴾[١] العشر الآيات كلها.

فلما أنزل الله فى براءتى قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق على مسطح شيئًا أبدًا بعد الذى قال لعائشة ما قال ... فأنزل الله: ﴿ وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾[٢] قال أبو بكر: بلى والله، إنى أحب أن يغفر الله لى. فرجع إلى النفقة التى كان ينفق عليه وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا. قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب ابنة جحش عن أمرى فقال: يا زينب، ماذا علمت أو رأيت؟ فقالت: يا رسول الله، أحمى سمعى وبصرى، ما علمت إلا خيرًا. قالت ـ وهى التى كانت تساميني من أزواج رسول الله ﷺ فعصمها الله بالورع، وطفقت أختها حمنة تحارب لها، فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك»[٣].

ساعات المحنة

عندما يقف الإنسان يتدبر معانى الآيات الكريمة التى برَّأت عائشة رضي الله عنها، تجول فى خاطره تلك الساعات التى مر بها البيت النبوى، والبيت البكرى، وكيف تلقَّى النبى ﷺ هذا الخبر، وكيف صبر رسول الله ﷺ وآل أبى بكر تحت وطأة بلاء حديث الإفك؟!!

---

(١) سورة النور: الآيات: (١١-٢٠).

(٢) سورة النور: الآية: (٢٢).

(٣) أخرجه البخارى (٤٧٥٠) كتاب التفسير ـ ومسلم (٢٧٧٠) وأحمد (٦/ ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧).

نعم لقد آذى رسول الله ﷺ ما بلغه عن عائشة أطهر الصادقات وأصدق الطاهرات... مَن أحبها مع أبيها حبًا يفوق تصور المتصورين، فهو لا يعلم عن زوجه عائشة إلا خيرًا، ولكن ما بال الناس يقولون عليها؟

لقد لبث رسول الله ﷺ تحت وطأة بلاء هذه المحنة القاسية صابرًا صبرًا لم يُعرف فى تاريخ النوازل والبلايا والخطوب لأحدٍ من قبله، ولا لأحدٍ من بعده، حتى نزلت آيات براءة عائشة بعد سبعٍ وثلاثين ليلة من بداية المحنة، فقد بلغه ﷺ حديث الإفك عند وصوله إلى المدينة، بعد ظفره ببنى المصطلق، تحدث به أهل النفاق ومرضى القلوب. ولاكته ألسنتهم وهم يعلمون أنهم كاذبون مفترون، يحسبونه هينًا وهو عند الله عظيم.

وما بالك بحال آل أبى بكر؟!

لم يكن حالهم أقل حزنًا من حزن رسول الله ﷺ ، فإنهم منذ بلغهم الإفك، وما تحدث به المنافقون وأتباعهم، وهم يرزحون تحت فجيعة هذا البلاء العاصف، لا يدرون ما يقولون، ولا ما يفعلون، تلاحقهم النظرات المتنوعة من كل مكان، وفى كل مكان.

ولك أن تتخيل تلك اللحظات الحرجة، بل الساعات والأيام التى قضوها، وهم يعيشون مرارة المحنة، ولكنهم استسلموا لقضاء العزيز الحميد الذى له ملك السماوات والأرض، منتظرين حكمه بكشف الغمة التى أحاطت أثقالها بأكنافهم، وكان أمر النبى ﷺ أهم لديهم من أمر أنفسهم.

وصفت أم المؤمنين عائشة حالها، وحال أبويها فى أحرج لحظات البلاء التى أذابت فيهم عناصر الحركة النفسية والفكرية.. تقول عائشة: والله ما

أعلم أهل بيتٍ دخل عليهم ما دخل على آل أبى بكر فى تلك الأيام[١].

وقفة غالية

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: فما بال رسول الله ﷺ توقف فى أمرها وسأل عنها واستشار. وهو أعرف بالله وبمنزلته عنده وبما يليق به، وهلا قال: سبحانك هذا بهتان عظيم كما قاله فُضلاء الصحابة. فالجواب: أن هذا من تمام الحكم الباهرة التى جعل الله هذه القصة سببًا لها وامتحانًا وابتلاءً لرسوله ﷺ ولجميع الأمة إلى يوم القيامة، ليرفع بهذه القصة أقوامًا، ويضع بها آخرين، ويزيد الله الذين اهتدوا هدى وإيمانًا، ولا يزيد الظالمين إلا خسارا... واقتضى تمام الامتحان والابتلاء أن حبس عن رسول الله ﷺ الوحى شهرًا فى شأنها ولا يوحى إليه فى ذلك شىء لتتم حكمته التى قدرها وقضاها وتظهر على أكمل الوجوه، ويزداد المؤمنون الصادقون إيمانًا وثباتًا على العدل والصدق وحسن الظن بالله ورسوله وأهل بيته والصدِّيقين من عباده، ويزداد المنافقون إفكًا ونفاقًا، ويظهر لرسوله وللمؤمنين سرائرهم ولتتم العبودية المرادة من الصدِّيقة وأبويها، وتتم نعمة الله عليهم ولتشتد الفاقة والرغبة منها ومن أبويها والافتقار إلى الله، والذل له، وحسن الظن به، والرجاء له، ولينقطع رجاؤها من المخلوقين، وتيأس من حصول النُّصرة والفرج على يد أحدٍ من الخلق، ولهذا وفَّت هذا المقام حقه، لما قال لها أبواها: قومى إليه وقد أنزل الله عليه براءتها، فقالت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله هو الذى أنزل براءتى.

وأيضًا فكان من حكمة حبس الوحى شهرًا أن القضية مُحصت

(١) نساء أهل البيت (ص: ١٣٧-١٣٨).

وتمحصت، واستشرفت قلوب المؤمنين أعظم استشراف إلى ما يوحيه الله إلى رسوله فيها، وتطلعت إلى ذلك غاية التطلع، فوافى الوحى أحوج ما كان إليه رسول الله ﷺ وأهل بيته والصدِّيق وأهله وأصحابه والمؤمنون، فورد عليهم ورود الغيث على الأرض أحوج ما كانت إليه، فوقع منهم أعظم موقع وألطفه، وسُرّوا به أتم السرور، وحصل لهم به غاية الهناء... فلو أطلع الله رسوله على حقيقة الحال من أول وهلة، وأنزل الوحى على الفور بذلك لفاتت هذه الحكم وأضعافها، بل أضعاف أضعافها. وأيضًا فإن الله سبحانه وتعالى أحب أن يُظهر منزلة رسوله وأهل بيته عنده وكرامتهم عليه، وأن يخرج رسوله عن هذه القضية ويتولى هو بنفسه الدفاع والمنافحة عنه والرد على أعدائه وذمِّهم وعيبهم بأمر لا يكون له فيه عمل، ولا يُنسب إليه بل يكون هو وحده المتولى كذلك الدفاع لرسوله وأهل بيته[1].

(١) زاد المعاد (٣/ ٢٦١-٢٦٣) نقلاً من كتاب «صحابيات حول الرسول ﷺ» للمصنف (ص: ١٣٤-١٤٤).

الفوائد والآثار الإيمانية

(١) هذه الحادثة على ما فيها من شدة وألم على رسول الله ﷺ سيد الأولين والآخرين، وعلى أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - وكانت فى وقتها لم تبلغ العشرين سنة من عمرها المبارك، لأن النبى ﷺ بنى بها بعد الهجرة، وكانت فى التاسعة- وعلى أبيها الصدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أفضل ولى لله بعد الأنبياء والمرسلين، وعلى أمها أم رومان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، وعلى صفوان بن المعطل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذى شهد له رسول الله ﷺ بأنه ما علم عنه إلا خيرًا وقد رزقه الله عَزَّ وَجَلَّ الشهادة بعد ذلك، وعلى كل مؤمن يتألم لألم رسول الله ﷺ فما يملك المؤمن نفسه عن البكاء، ولا يدرى هل يبكى على رسول الله ﷺ الذى اتُّهم فى عرضه وهو أشرف الخلق وأطيب البشر، أم على أم المؤمنين التى أحبها رسول الله ﷺ وكانت أحب نسائه إليه، وما كان الله عَزَّ وَجَلَّ يرزق رسوله محبتها إلا لطيبها وشرفها ... كيف لا وهى من أطيب بيوت قريش البيت الذى آمن كله أبوها وجدها وإخوتها والله عَزَّ وَجَلَّ العليم الخبير يقول بعد أن انصهر المؤمنون فى جحيم هذه الحادثة أكثر من خمسين يومًا: ﴿**لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ**﴾[١]. فإن كان فيها شدة وألم ففيها من الدروس والعبر والتربية للأمة ما يفوق هذا الشر بكثير، والذين ابتلوا بهذا البلاء أجرهم عند الله عَزَّ وَجَلَّ الذى لا يظلم مثقال ذرة، «**وَمَا ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلَمَةً فَصَبَرَ عَلَيْهَا إِلَّا زَادَهُ اللهُ بِهَا عِزًّا**»[٢]. فكم ارتفعت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حين نزل ببراءتها قرآن يُتلى إلى

---

(١) سورة النور: الآية: (١١).

(٢) جزء من حديث رواه الترمذى (٩/ ١٩٩، ٢٠٠) أبواب الزهد، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد (٤/ ٢٣١) من حديث أبى كبشة الأنمارى، وله شاهد من حديث أبى هريرة فى صحيح مسلم بلفظ: «**وما تواضع عبد لله إلا رفعه الله**».

يوم القيامة، وكان غاية ما تتمناه أن يرى رسول الله ﷺ رؤيا ببراءتها فمن اتهمها بعد ذلك بما برأها الله ﷻ منه فقد كفر بكتاب الله المُنزَّل.

وما أشقى الشيعة بعقائدهم الباطلة فيها وفى أبيها رضي الله عنهما، وإنما كان هذا الحادث فتنة ظهر به نفاق المنافقين وإيمان المؤمنين.

والذى تولى كِبره فى هذا الاتهام الباطل بشَّره الله ﷻ فى الآخرة بعذاب عظيم، والمؤمنون الذين تهاونوا بنقل حديث الإفك وظنوه أمرًا هينًا أدبهم الله ﷻ وطهرهم بإقامة الحد عليهم، فكانوا عبرة لغيرهم من المؤمنين، فكم حدث من شَرٍّ وبلاء لاستصغار الذنوب والتهاون بها، وقد كان من نتائج هذا الحادث حدوث فتنة بين الأوس والخزرج كادوا يقتتلون ولكن الله سلَّم، وكان يمكن أن تأتى تشريعات تحريم القذف وحده وتحريم نقل الأخبار التى لم يتثبت منها بدون هذه الحادثة، ولكنها لن تُستقبل بمثل ما استُقبلت به هذه الآيات بعد الشدة والمحنة ... فهذه تربية ربانية للأمة المشرفة تربية بالبلاء والمحنة، فيزداد بها أهل الإيمان إيمانًا ويظهر بها النفاق وأهله. وفيها أيضًا بيان كيف يأتى الله ﷻ بالفرج والسرور بعد الشدة والبلاء فحين بلغ الأمر مداه من الشدة والابتلاء وتحيرت الصديقة وأبوها وأمها رضي الله عنهم بماذا يجيبون أتاهم الله ﷻ بما تقر به أعينهم من الوحى الصادق على رسول الله ﷺ، فنزل كالغيث الذى جاء بعد القحط والشدة.

قال الزمخشرى: ومعنى كونه خيرًا لهم أنهم اكتسبوا فيه الثواب العظيم، لأنه كان بلاءً مبينًا ومحنة ظاهرة، وأنه نزلت فيه ثمانى عشرة آية كل واحدة منها مستقلة، بما هو تعظيم لشأن رسول الله ﷺ وتسلية له، وتنزيه لأم المؤمنين - رضوان الله عليها -، وتطهير لأهل البيت وتهويل لمن تكلم فى

ذلك أو سمع به فلم تَمجُّه أذناه، وعدة ألطاف للسامعين والتالين إلى يوم القيامة، وفوائد دينية وأحكام وآداب لا تخفى على متأمليها[١].

(٢) قال أبو السعود: وحيث كان رسول الله ﷺ أطيب الأطيبين وخيرة الأولين والآخرين تبين كون الصديقة رضي الله عنها من أطيب الطيبات بالضرورة واتضح بطلان ما قيل في حقها من الخرافات حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[٢]، وهو الجنة[٣].

(٣) قال القرطبي: قال هشام بن عمار: سمعت مالكًا يقول: من سبَّ أبا بكر أُدِّب، ومن سبَّ عمر أُدِّب، ومن سبَّ عائشة قتل، لأن الله تعالى يقول: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٤]، فمن سَبَّ عائشة فقد خالف القرآن، ومن خالف القرآن قُتل.

قال ابن العربي: «قال أصحاب الشافعي: من سبَّ عائشة رضي الله عنها أُدِّب كما في سائر المؤمنين، وليس قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ في عائشة لأن ذلك كفر، وإنما هو كما قال عليه السلام: «**لَا يُؤمِنُ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوائِقَهُ**»[٥]. ولو كان سلب الإيمان في من سب عائشة حقيقة لكان سلبه في قوله: «**لَا يَزْنِي الزَّانِي حِيْنَ يَزْنِي وَهُو مُؤْمِن**»[٦] حقيقة. قلنا: ليس كما زعمتم، فإن أهل الإفك

---

(١) الكشاف (٣/ ٢١٧، ٢١٨).

(٢) سورة النور: الآية: (٢٦).

(٣) محاسن التأويل (١٢/ ١٠٢).

(٤) سورة النور: الآية: (١٧).

(٥) رواه البخاري (١٠/ ٩٤٥٧) الأدب، ومسلم (٢/ ١٧) الإيمان، قال الحافظ: زاد أحمد والإسماعيلي: قالوا: وما بوائقه؟ قال: «شره».

(٦) رواه البخاري (١٠/ ٣٠) الأشربة، ومسلم (٢/ ٤١، ٤٢) الإيمان.

رموا عائشة المطهرة بالفاحشة فبرأها الله تعالى، فكل مَنْ سَبَّها بما برأها الله منه مكذب لله، ومَن كَذَّب الله فهو كافر، فهذا طريق قول مالك، وهو سبيل الآية لأهل البصائر، ولو أنَّ رجلًا سب عائشة بغير ما برأها الله منه لكان جزاؤه الأدب»[١].

(٤) وقال الحافظ: وفى هذا الحديث من الفوائد غير ما تقدم:

- جواز الحديث عن جماعة ملفقًا مجملًا.
- وفيه مشروعية القرعة حتى بين النساء، وفى المسافَرة بهن، والسفر بالنساء حتى فى الغزو.
- وجواز حكاية ما وقع للمرء من الفضل ولو كان فيه مدح ناس وذم ناس، إذا تضمن بذلك إزالة توهُّم النقص عن الحاكى إذا كان بريئًا عند قصد نصح من يبلغه ذلك لئلا يقع فيما وقع من سبق، وأن الاعتناء بالسلامة من وقوع الغير فى الإثم أولى من تركه يقع فى الإثم وتحصيل الأجر للموقوع فيه.
- وفيه استعمال التوطئة فيما يحتاج إليه من الكلام.
- وأن الهودج يقوم مقام البيت فى حجب المرأة.
- وجواز ركوب المرأة الهودج على ظهر البعير، ولو كان ذلك مما يشق عليه، حيث يكون مطيقًا لذلك.
- وفيه خدمة الأجانب للمرأة من وراء الحجاب.
- وجواز تَستُّر المرأة بالشىء المنفصل عن البدن.
- وصيانة المال ولو قَلَّ، للنهى عن إضاعة المال، فإن عُقد عائشة لم يكن من ذهب ولا جوهر.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٤٥٩٧، ٤٥٩٨).

• وتغطية المرأة وجهها عن نظر الأجنبي وإطلاق الظن على العلم.

• وفيه البحث عن الأمر القبيح إذا أُشيع وتَعرُّف صحته وفساده بالتنقيب على من قيل فيه هل وقع منه قبل ذلك ما يشبهه أو يقرب منه.

• واستصحاب حال من اتهم بسوء إذا كان قبل ذلك معروفًا بالخير. إذا لم يظهر عند البحث ما يخالف ذلك.

• وفيه استعمال: «**لا نعلم إلا خيرًا**» في التزكية، وأن ذلك كافٍ في حق من سبقت عدالته ممن يطلع على خفي أمره.

• وفيه أن الشدة إذا اشتدت أعقبها الفرج ... وفضل من يفوض الأمر لربه، وأن من قوى على ذلك خَفَّ عنه الهم والغم كما وقع في حالتي عائشة قبل استفسارها عن حالها وبعد جوابها والله المستعان.

• وفيه الحث على الإنفاق في سبيل الخير خصوصًا في صلة الرحم ووقوع المغفرة لمن أحسن إلى من أساء إليه، أو صفح عنه.

• وفيه التسبيح عند التعجب، واستعظام الأمر، وذم الغيبة، وذم سماعها، وزجر من يتعاطاها، لاسيما إذا تضمنت تهمة المؤمن، بما لم يقع منه وذم إشاعة الفاحشة[1].

(٥) بشرية الرسول ﷺ:

جاءت محنة الإفك منطوية على حكمة إلهية استهدفت إبراز شخصية النبي ﷺ وإظهارها صافية مميزة عن كل ما قد يلتبس بها، فلو كان الوحي أمرًا ذاتيًا غير منفصل عن شخصية الرسول ﷺ، لما عاش الرسول ﷺ تلك المحنة بكلِّ أبعادها شهرًا كاملاً، ولكن الحقيقة التي تجلت للناس بهذه المحنة أن ظهرت بشرية الرسول ﷺ ونبوته، فعندما حسم الوحي اللغط

---

(١) باختصار من فتح الباري (٨/ ٣٣٧ – ٣٣٩) نقلًا عن «وقفات تربوية مع السيرة النبوية».

الذى دار حول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عادت المياه إلى مجاريها بينها وبين الرسول ﷺ، وفرح الجميع بهذه النتيجة بعد تلك المعاناة القاسية، فدلَّ ذلك على حقيقة الوحى، وأن الأمر لو لم يكن من عند الله تعالى لبقيت رواسب المحنة فى نفس رسول الله ﷺ بصفة خاصة، ولانعكس ذلك على تصرفاته مع زوجته عائشة رضي الله عنها ... وهكذا شاء الله أن تكون هذه المحنة دليلاً كبيرًا على نبوة محمد ﷺ[1].

(٦) حد القذف وأهميته فى المحافظة على أعراض المسلمين:

كان المجتمع الإسلامى يتربى من خلال الأحداث، فعندما وقعت حادثة الإفك أراد المولى عز وجل أن يشرع بعض الأحكام التى تساهم فى المحافظة على أعراض المؤمنين، ولذلك نزلت سورة النور، التى تحدثت عن حكم الزانى والزانية وعن قُبح فاحشة الزنا، وعما يجب على الحاكم أن يفعله إذا ما رمى أحد الزوجين صاحبه، وعن العقوبة التى أوجبها الله على الذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء إلى غير ذلك من الأحكام[2].

إن الإسلام حرم الزنا، وأوجب العقوبة على فاعله، فقد حرم أيضًا كل الأسباب المسببة له، وكل الطرق الموصلة إليه، ومنها إشاعة الفاحشة والقذف بها لتنزيه المجتمع من أن تسرى فيه ألفاظ الفاحشة والحديث عنها؛ لأن كثرة الحديث عن فاحشة الزنا وسهولة قولها فى كل وقت يُهون أمرها لدى سامعيها، ويُجرئ ضعفاء النفوس على ارتكابها، لهذا حرمت

---

(١) انظر: السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية، (ص٤٤١).

(٢) انظر: حديث القرآن الكريم (١/ ٣٥٧).

الشريعة الإسلامية القذف بالزنا، وأوجبت على من قذف عفيفًا أو عفيفة، طاهرًا أو طاهرة، بريئًا أو بريئة من الزنا حد القذف وهو الجلد ثمانين جلدة وعدم قبول شهادته إلا بعد توبته توبة صادقة نصوحًا[١].

هذا وقد أقام رسول الله ﷺ حد القذف على مسطح وحسان وحمنة، وروى محمد بن إسحاق وغيره أن النبى ﷺ جلد فى الإفك رجلين وامرأة: مسطحا وحسانًا وحمنة، وذكره الترمذي[٢] ... قال القرطبى: والمشهور من الأخبار والمعروف عند العلماء أن الذى حُدَّ حسان ومسطح وحمنة، ولم يسمع بحد عبد الله بن أُبي[٣]. وقد وردت آثار ضعيفة تدل على أن عبد الله ابن أُبى أُقيم عليه الحد، ولكنها كلها ضعيفة لا تقوم بها حجة[٤].

۞ وقد ذكر ابن القيم وجه الحكمة فى عدم حَدِّ عبد الله بن أُبى فقال:

أ- قيل: لأن الحدود تخفيف عن أهلها وكفارة، والخبيث ليس أهلاً لذلك، وقد وعده الله بالعذاب العظيم فى الآخرة ويكفيه عن الحد.

ب- وقيل: كان يستوشى الحديث ويجمعه ويحكيه ويُخرجه فى قوالب من لا يُنسب إليه.

ج- وقيل: الحد لا يثبت إلا ببينة أو إقرار وهو لم يقر بالقذف ولا شهد به عليه أحد، فإنه كان يذكره بين أصحابه ولم يشهدوا عليه، ولم يكن يذكره بين المؤمنين.

---

(١) انظر: آثار تطبيق الشريعة، د. محمد الزاحم، (ص١١٧).

(٢) انظر: تفسير القرطبى (١٢/ ١٩٧).

(٣) نفس المصدر (١٢/ ٢٠١).

(٤) انظر: مرويات غزوة بنى المصطلق، (ص٢٤٢).

د- وقيل: بل ترك حَدَّه لمصلحة هى أعظم من إقامته عليه، كما ترك قتله مع ظهور نفاقه وتكلُّمه بما يوجب قتله مرارًا، وهى تأليف قومه وعدم تنفيرهم من الإسلام.

ثم قال فى ختام كلامه ولعله تُرك لهذه الوجوه كلها[١].

(٧) اعتذار حسان رضي الله عنه للسيدة عائشة رضي الله عنها:

قد بيَّنت الروايات أن مَنْ خاض فى الإفك قد تاب ما عدا ابن أُبى.

وقد اعتذر حسان رضي الله عنه عما كان منه، وقال يمدح عائشة بما هى أهلٌ له[٢]:

رأيتك وليغفر لك الله حرة ... من المحصنات غير ذات غوائلِ
حَصَانٌ رَزَانٌ ما تزن بريبة ... وتصبح غرثى من لحوم الغوافلِ
وإن الذى قد قيل ليس بلائق ... بك الدهر بل قيل امرئ متناحلِ
فإن كنت أهجوكم كما بلغوكم ... فلا رفعت سوطى إلى أناملى
فكيف وودى ما حييت ونصرتى ... لآل رسول الله زين المحافلِ
وإن لهم عزًّا يرى الناس دونه ... قصارًا، وطال العز كل التطاولِ[٣]

(٨) من الأحكام المستنبطة من غزوة بنى المصطلق:

جواز الإغارة على من بلغتهم دعوة الإسلام دون إنذار، ومنها صحة جعل العتق صداقًا كما فعل ﷺ مع جويرية بنت الحارث فى هذه الغزوة، ومنها مشروعية القرعة بين النساء عند إرادة السفر ببعضهن، ومنها جواز استرقاق

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٦٣، ٢٦٤).
(٢) انظر: السيرة النبوية لأبى شهبة (٢/ ٢٦٣).
(٣) انظر: تاريخ الإسلام للذهبى، المغازى، (ص٢٨١).

العرب كما حدث فى الغزوة وهو قول جمهور العلماء[١]، وقد أجمع العلماء قاطبة على أن مَن سَبَّ عائشة رضي الله عنها بعد براءتها براءة قطعية بنص القرآن ورماها بما اتُّهمت به فإنه كافر؛ لأنه معاند للقرآن[٢]. ومن الأحكام التى عُرفت فى هذه الغزوة حكم العزل عن النساء حيث سأل الصحابة الرسول ﷺ عنه فأذن به وقال: «**ما عليكم ألا تفعلوا، ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلا وهى كائنة**»[٣]. فذهب الجمهور إلى جواز العزل عن الزوجة الحرة بإذنها[٤].

ونزلت آية التيمم فى هذه الغزوة، تنويهًا بشأن الصلاة، وتنبيهًا على عظيم شأنها، وأنه لا يحول دون أدائها فَقْدُ الماء، وهو وسيلة الطهارة التى هى أعظم شروطها، كما لا يحول الخوف وفَقْدُ الأمن من إقامتها[٥].

❁ أهم الآداب والأحكام التى تؤخذ من آيات الإفك:

أخذ العلماء من الآيات التى نزلت فى حادثة الإفك أحكامًا وآدابًا من أهمها ما يأتى:

(١) تبرئة السيدة عائشة رضي الله عنها من الإفك بقرآن يُتلى إلى آخر الزمان. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ﴾[٦].

(٢) أن حكمة الله تعالى اقتضت أن يبزغ الخير من ثنايا الشر، فقد كان

---

(١) انظر: كتاب الأم للشافعى (٤/ ١٨٦).

(٢) انظر: شرح صحيح مسلم للنووى (٥/ ٦٤٣).

(٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمرى (٢/ ٤١٥).

(٤) انظر: نيل الأوطار للشوكانى (٦/ ٢٢٢-٢٢٤).

(٥) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوى فى المدينة، (ص٢١٠، ٢١١) نقلًا عن غزوات الرسول للدكتور على الصلابى حفظه الله.

(٦) سورة النور: الآية: (١١).

ابتلاء أسرة أبى بكر الصديق رضي الله عنه بحديث الإفك خيرًا لهم، حيث كُتب لهم الأجر العظيم على صبرهم وقوة إيمانهم،... قال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾(١).

(٣) الحرص على سمعة المؤمنين، وعلى حسن الظن فيما بينهم، قال تعالى: ﴿لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾(٢)

(٤) تكذيب القائلين بالإفك،... قال تعالى: ﴿لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾(٣).

(٥) بيان فضل الله على المؤمنين ورأفته بهم...قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾(٤).

(٦) وجوب التثبُّت من الأقوال قبل نشرها، والتأكد من صحتها.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾(٥).

(٧) النهى عن اقتراف مثل هذا الذنب العظيم أو العودة إليه.

قال تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(٦).

(٨) النهى عن إشاعة الفاحشة بين المؤمنين.

---

(١) سورة النور: الآية: (١١).

(٢) سورة النور: الآية: (١٢).

(٣) سورة النور: الآية: (١٣).

(٤) سورة النور: الآية: (١٤).

(٥) سورة النور: الآية: (١٦).

(٦) سورة النور: الآيتان: (١٧-١٨).

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾(١).

(٩) بيان فضل الله سبحانه على عبده المؤمنين ورأفته بهم وكرر ذلك تأكيدًا له ... قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾(٢).

(١٠) النهى عن تتبع خطوات الشيطان التى تؤدى للهلاك.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾(٣).

(١١) الحث على النفقة على الأقارب وإن أساءوا(٤)، .... قال تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٥).

(١٢) غيرة الله تعالى على عباده المؤمنين الصادقين، ودفاعه عنهم، وتهديده لمن يرميهم بالفحشاء باللعن فى الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴾(٦).

---

(١) سورة النور: الآية: (١٩).

(٢) سورة النور: الآية: (٢٠).

(٣) سورة النور: الآية: (٢١).

(٤) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ٣٨٥، ٣٨٦).

(٥) سورة النور: الآية: (٢٢).

(٦) سورة النور: الآيات: (٢٣-٢٥).

۞ قال صاحب الكشاف عند تفسيره لهذه الآيات:

ولو قلَّبت القرآن كله وفتشت عما أوعد به العصاة لم ترَ الله قد غلظ فى شيء تغليظه فى إفك عائشة رضوان الله عليها، ولا أنزل من الآيات القوارع، المشحونة بالوعيد الشديد، والعقاب البليغ، والزجر العنيف، واستعظام ما ارتكب من ذلك، واستفظاع ما أقدم عليه، ما أنزل فيه على طرق مختلفة وأساليب مُفتنة، كل واحد منها كافٍ فى بابه، ولو لم ينزل إلا هذه الآيات الثلاث: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴾ لكفى بها حديثًا جعل القَذَفة ملعونين فى الدارين جميعًا، وتوعدهم بالعذاب العظيم فى الآخرة، وبأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا، وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الذى هم أهله[1].

(١٣) بيان سنة من سنن الله الجارية فى الكون وهى أن الطيبين يجعلهم الله من نصيب الطيبات، والطيبات يجعلهن من نصيب الطيبين،... قال تعالى: ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾[2].

(١٤) والناس عندما رُميت الصدِّيقة بنت الصدِّيق بالإفك كانوا على أربعة أقسام[3]:

۞ قال فضيلة الشيخ عبد القادر شيبة الحمد - عند تعليقه على حديث يتعلق بقصة الإفك-: إن الناس عندما رُميت الصديقة بنت الصديق بالإفك

---

(١) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ٣٨٦) نقلاً عن تفسير الكشاف (٣/ ٢٢٣).

(٢) سورة النور: الآية: (٢٦).

(٣) انظر: حديث القرآن الكريم (١/ ٣٨٧).

كانوا أربعة أقسام:

قسم: وهو أكثر الناس، حموا أسماعهم وألسنتهم فسكتوا، ولم ينطقوا إلا بخير ولم يصدقوا ولم يكذبوا.

وقسم: سارع إلى التكذيب، وهم أبو أيوب الأنصارى وأم أيوب رضي الله عنهما، فقد وصفوه عند سماعه بأنه إفك وبرؤوا عائشة مما نُسب إليها فى الحال.

أما القسم الثالث: فكانوا جملة من المسلمين لم يصدقوا ولم يكذبوا ولم ينفوه، ولكنهم يتحدثون بما يقول أهل الإفك، وهم يحسبون أن الكلام بذلك أمرٌ هيِّنٌ لا يعرضهم لعقوبة الله؛ لأن ناقل الكفر ليس بكافر، وحاكى الإفك ليس بقاذف، ومن هؤلاء حمنة بنت جحش وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة.

أما القسم الرابع: فهم الذين جاءوا بالإفك وعلى رأس هؤلاء عدو الله عبد الله بن أُبى ابن سلول رأس المنافقين لعنه الله وهو الذى تولَّى كِبره.

وقد أشار الله ﷻ إلى فضل القسم الثانى من هذه الأقسام، وأنه كان ينبغى لجميع المسلمين أن يقفوا هذا الموقف، فقال: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾(١).

أما القسم الثالث: فقد أشار الله ﷻ إلى أنه ما كان ينبغى لهم أن يتحدثوا بمثل هذا الحديث حيث يقول: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾(٢).

---

(١) سورة النور: الآية: (١٢).

(٢) سورة النور: الآيتان: (١٥-١٦).

وقد أثبت الله ﷻ لأهل هذا القسم فضائلهم التى عملوها حيث أثبت لمسطح هجرته وإيمانه عندما حلف أبو بكر أنه لن ينفق على مسطح، ولن يتصدق عليه وهو من ذوى قرابته، فقال ﷻ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢)﴾[1].

أما القسم الرابع: وهو جماعة عبد الله بن أُبى الذين جاءوا بالإفك واخترعوا هذا الكذب، فقد أشار الله إلى موتهم على الكفر، وأنه لن يقبل منهم توبة، وأنه أنزل عليهم لعنته فى الدنيا والآخرة[2]، حيث قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥)﴾[3].

---

(١) سورة النور: الآية: (٢٢).

(٢) انظر: فقه الإسلام، شرح بلوغ المرام، لفضيلة الشيخ عبد القادر شيبة الحمد (٩/ ٥)، نقلًا عن غزوات الرسول.

(٣) سورة النور: الآيات: (٢٣-٢٥).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

غزوة الخندق

(الأحزاب)

غزوة الخندق (الأحزاب)

كانت تحركات المسلمين المتواصلة فى مختلف أنحاء شبه الجزيرة العربية، وتحدِّيهم المستمر لقريش، وتهديدهم لطرق تجارتها، وكذلك إجلاء الرسول ﷺ بنى قينقاع وبنى النضير عن المدينة، قد هيأت الظروف لتحالف المشركين مع يهود بنى قريظة بهدف اجتثاث المسلمين من قاعدتهم المدينة. ولقد عمد بنو قريظة إلى التظاهر باحترام الحلف المبرم بينهم وبين المسلمين متسترين على مشاعرهم الحاقدة ورغبتهم العارمة فى الانتقام.

جرت غزوة الأحزاب للمدينة فى شوال سنة خمس من الهجرة(1). وليس هناك ما يدعو للبحث عن أسبابها فهى حلقة من سلسلة صراع متواصلة، ويمكن ملاحظة أنها جاءت على أثر فشل قريش فى محاولتها تأمين طرق تجارتها مع بلاد الشام إذ أنه على الرغم من خسائر المسلمين الكبيرة فى معركة أُحد، فإنها لم تكن حاسمة ولم تؤمّن الطريق التجارى بين مكة والشام(2). كما أن ازدياد وعنف النشاط الإسلامى فى الغزوات والسرايا العديدة التى جرت بعد معركة أُحد، عمل على إنهاء الأثر السلبى لهذه المعركة سواء فى المدينة أو فى البوادي(3). ولذلك فإن قريشًا عادت

---

(1) وهذا قول الجمهور ومنهم ابن إسحاق والواقدى ومن تابعهم (ابن كثير- البداية ٤/ ٩٣، الواقدى- مغازى ٢/ ٤٤٠)، ونقل عن الزهرى ومالك بن أنس وموسى بن عقبة أنها جرت سنة أربع (البخارى- الصحيح ٥/ ٤٤) حيث أنه نقل رواية موسى بن عقبة، وانظر ابن كثير- البداية (٤/ ٩٣) ... ويمكن التوفيق بين القولين إذا ما لاحظنا بداية تاريخ كل فئة إذ اعتاد البعض احتساب سنوات الهجرة من المحرم وإلغاء ما سبق ذلك من أشهر إلى ربيع الأول.

(2) ابن هشام- السيرة (٣/ ٢١٤) بإسناد صحيح إلى عروة.

(3) البخارى- الصحيح (فتح البارى ٧/ ٣٩٣).

من جديد إلى التفكير بإعداد حملة عسكرية ضخمة تأمل أن تحسم بها الأمور، وتقضى نهائيًا على الوجود الإسلامى، وبالتالى على الأخطار التى تهدد مصالحها(١). غير أن زعماء قريش كانوا يدركون أن قوة المسلمين قد تنامت كثيرًا، وأن قوتهم الذاتية لم تعد وحدها قادرة على تحقيق الهدف المنشود، ولذلك فإنهم سعوا إلى عقد محالفات عديدة من أجل تجميع القوى الحاقدة والقادرة على تحقيق ما يأملون. وقد واتتهم الفرصة حينما اتصل بهم زعماء يهود بنى النضير الموتورين من مقر إقامتهم الجديد فى خيبر، داعين قريشًا إلى حرب المسلمين. وقد وفد منهم إلى مكة سلام بن أبى الحقيق وحُيى بن أخطب من زعماء بنى النضير، فتعاقدوا مع قريش على المشاركة فى قتال المسلمين، بعد أن شهدوا أنّ الشرك خير من الإسلام وقد نزلت فى حقهم الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾(٢)، ثم خرجوا من مكة إلى نجد فحالفوا غطفان على حرب المسلمين، بعد أن وعدوهم بنصف تمر خيبر(٣). أما قريش فقد نجحت فى تجميع حلفائها من بنى سليم وكنانة وأهل تهامة والأحابيش(٤).

---

(١) البخارى- الصحيح (فتح البارى ٧/ ٣٩٣) من رواية موسى بن عقبة دون إسناد.

(٢) القرآن الكريم- سورة النساء، (الآية/ ٥١)، وأورد الطبرى آراء العلماء فى سبب نزول الآية، وخلص إلى القول بأن أولى الأقوال بالصحة قول من قال: بأن ذلك خبر من الله جل ثناؤه عن جماعة من أهل الكتاب من يهود. وجائز أنهم الذين سماهم ابن عباس، أو أن يكون حييًا وآخر معه إما كعبًا وإما غيره (تفسير الطبرى ٨/ ٤٦٩- ٤٧١)، وذكر آخرون أنه كعب بن الأشرف وقد سبقت الإشارة إليه آنفا.

(٣) الواقدى- مغازى (٢/ ٤٤٣)، ابن كثير- التفسير (١/ ٥١٣).

(٤) البيهقى- دلائل النبوة (٣/ ٣٩٩)، ابن حجر- فتح البارى (٧/ ٣٩٣).

سبب تسميتها بالخندق أو الأحزاب

۞ قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ:

فأما تسميتها الخندق فلأجل الخندق الذى حُفر حول المدينة بأمر النبى ﷺ وكان الذى أشار بذلك سلمان فيما ذكر أصحاب المغازى منهم أبو معشر قال «قال سلمان للنبى ﷺ إنَّا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا، فأمر النبى ﷺ بحفر الخندق حول المدينة، وعمل فيه بنفسه ترغيبًا للمسلمين، فسارعوا إلى عمله حتى فرغوا منه، وجاء المشركون فحاصروهم... وأما تسميتها الأحزاب فلاجتماع طوائف من المشركين على حرب المسلمين، وهم قريش وغطفان واليهود ومن تبعهم، وقد أنزل الله تعالى فى هذه القصة صدر سورة الأحزاب،... وذكر موسى بن عقبة فى المغازى قال «خرج حُيى بن أخطب بعد قتل بنى النضير إلى مكة يحرض قريشًا على حرب رسول الله ﷺ ، وخرج كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق يسعى فى بنى غطفان ويحضهم على قتال رسول الله ﷺ على أن لهم نصف ثمر خيبر، فأجابه عُيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزارى إلى ذلك، وكتبوا إلى حلفائهم من بنى أسد فأقبل إليهم طلحة بن خويلد فيمن أطاعه، وخرج أبو سفيان بن حرب بقريش فنزلوا بمرّ الظهران، فجاءهم من أجابهم من بنى سليم مددًا لهم فصاروا فى جمعٍ عظيم، فهم الذين سماهم الله تعالى الأحزاب»[١].

(١) فتح البارى (٧/ ٤٥٣: ٤٥٤).

متى كانت

❁ **قال الإمام ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ:

وكانت في سنةِ خمسٍ من الهجرةِ في شوال على أصحِّ القولين، إذ لا خِلافَ أن أُحُدًا كانت في شوال سنةَ ثلاثٍ، وواعدَ المشركون رسولَ اللهِ ﷺ في العام المُقبلِ، وهو سنةُ أربع، ثم أخلفُوه لأجل جَدبِ تلك السنةِ، فرجعُوا، فلما كانت سنة خمس، جاؤوا لِحربه... هذا قولُ أهلِ السِّيرِ والمغازي.

وخالفهم موسى بنُ عقبة وقال: بل كانت سنةَ أربع. قال أبو محمد بن حزم: وهذا هو الصحيحُ الذي لا شَكَّ فيه، واحتج عليه بحديثِ ابنِ عُمَر في «الصحيحين» أنه عُرِضَ على النبيِّ ﷺ يومَ أُحُدٍ، وهو ابنُ أربع عشرةَ سنة، فلم يُجِزْهُ، ثم عُرِضَ عليه يومَ الخندقِ، وهو ابنُ خَمسَ عشرةَ سنة، فأجازه[(١)].

قال: فصحَّ أنه لم يكن بينهما إلا سنةٌ واحدة[(٢)].

وأجيب عن هذا بجوابين، أحدهما: أن ابنَ عمر أخبرَ أن النبيَّ ﷺ، ردَّهُ

---

(١) أخرجه البخاري (٧/ ٣٠٢) في المغازي: باب غزوة الخندق، ومسلم (١٨٦٨) في الإمارة: باب بيان سن البلوغ.

(٢) «جوامع السيرة» (ص١٥٨)، ونقل ابن كثير في كتاب «الفصول» (٥٦) قول ابن حزم هذا واحتجاجه بحديث ابن عمر، وعلق عليه بقوله: هذا الحديث مخرج في «الصحيحين» وليس يدل على ما ادعاه ابن حزم، لأن مناط إجازة الحرب كانت عنده ﷺ خمس عشرة سنة، فكان لا يجيز من لم يبلغها، ومن بلغها، أجازه، فلما كان ابن عمر يوم أحد ممن لم يبلغها، لم يجزه، ولما كان قد بلغها يوم الخندق أجازه، وليس ينفي هذا أن يكون قد زاد عليها بسنة أو سنتين أو ثلاث أو أكثر من ذلك، فكأنه قال: وعُرضت عليه يوم الخندق، وأنا بالغ أو من أبناء الحرب.

لما استصغَرَهُ عَنِ القِتال، وأجازه لَمَّا وصَلَ إلى السِّنِّ التى رآه فيها مطيقًا، وليس فى هذا ما يَنفى تجاوزُهَا بسنةٍ أو نحوها.

الثانى: أنه لعلَّه كان يومَ أُحُدٍ فى أوَّلِ الرابعة عشرة ويومَ الخندق فى آخرِ الخامسة عشرة(١).

وقد رجح الحافظ ابن حجر أنها كانت فى السنة الخامسة وقال: وهو المعتمد(٢).

بين يدى الغزوة

عاد السلام والأمن، وهدأت الجزيرة العربية بعد الحروب والبعثات التى استغرقت أكثر من سنة كاملة، إلا أن اليهود ـ الذين كانوا قد ذاقوا ألوانًا من الذلة والهوان نتيجة غدرهم وخيانتهم ومؤامراتهم ودسائسهم ـ لم يفيقوا من غيِّهم، ولم يستكينوا ولم يتعظوا بما أصابهم نتيجة الغدر والتآمر، فبعد نفيهم إلى خيبر ظلوا ينتظرون ما يحل بالمسلمين نتيجة المناوشات التى كانت قائمة بين المسلمين والوثنيين ... ولما تحول مجرى الأيام لصالح المسلمين، وتمخضت الليالى والأيام عن بسط نفوذهم، وتوطد سلطانهم ـ تحرَّق هؤلاء اليهود أى تحرُّق. وشرعوا فى التآمر من جديد على المسلمين، وأخذوا يعدون العدة لتهيئة ضربة إلى المسلمين تكون قاتلة لا حياة بعدها(٣).

فلقد أيقنت طوائف الكفار أنها لن تستطيع مغالبة الإسلام إذا حاربته

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٢٦٩-٢٧٠).

(٢) فتح البارى (٧/ ٤٥٤).

(٣) الرحيق المختوم (ص: ٣٢٣).

كل طائفة منفردة وأنها ربما تبلغ أملها إذا رمت الإسلام كتلة واحدة، وكان زعماء يهود فى جزيرة العرب أبصر من غيرهم بهذه الحقيقة، فأجمعوا أمرهم على تأليب العرب ضد الإسلام وحشدهم فى جيش كثيف ينازل محمدًا ﷺ وصحبه فى معركة حاسمة(١).

سبب الغزوة

إن يهود بنى النضير بعد أن خرجوا من المدينة إلى خيبر خرجوا وهم يحملون معهم أحقادهم على المسلمين، فما أن استقروا بخيبر حتى أخذوا يرسمون الخطط للانتقام من المسلمين، فاتّفقت كلمتهم على التوجه إلى القبائل العربية المختلفة لتحريضها على حرب المسلمين، وكوَّنوا لهذا الغرض الخبيث وفدًا يتكون من سلام بن أبى الحقيق وحُيى بن أخطب وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق وهوذة بن قيس الوائلى وأبى عمار(٢).

وقد نجح الوفد نجاحًا كبيرًا فى مهمته، حيث وافقت قريش التى شعرت بمرارة الحصار الاقتصادى المضروب عليها من قِبَل المسلمين، ووافقت غطفان طمعًا فى خيرات المدينة وفى السلب والنهب وتابعتهم قبائل أخرى.

وقد قال وفد اليهود لمشركى مكة: إن دينكم خير من دين محمد، وأنتم أولَى بالحق منه(٣)، وعن ذلك يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾(٤).

---

(١) فقه السيرة للغزالى (ص ٣٣٥).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٣٧).

(٣) انظر: التاريخ السياسى والعسكرى/ د. على معطى، (ص٣١٠).

(٤) سورة النساء: الآيتان: (٥١، ٥٢).

❁ قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

وكان سبب غزوة الخندق أن اليهودَ لما رَأوا انتصارَ المشركين على المسلمين يَوْمَ أُحد، وعلِمُوا بميعادِ أبى سفيان لِغزو المسلمين، فخرج لذلك، ثم رجع لِلعام المُقْبِلِ؛ خرج أشرافُهم، كسلام بن أبى الحُقيق، وسلام بن مِشْكَم، وكِنَانة بن الرَّبيع وغيرهم إلى قريش بمكة يُحرِّضُونهم على غزوِ رسولِ اللهِ ﷺ، ويؤلبونهم عليه، ووعدوهم من أنفسهم بالنَّصرِ لهم، فأجابتهم قريشٌ، ثم خرجوا إلى غطَفَان فدعَوْهُم، فاستجابُوا لهم، ثمَّ طافُوا فى قبائل العربِ، يدعونهم إلى ذلك، فاستجابَ لهم من استجاب، فخرجت قُريشٌ وقائدُهم أبو سفيان فى أربعةِ آلاف، ووافتْهُم بنو سليم بِمَرِّ الظَّهْران، وخرجت بنُو أسد، وفَزَارَة، وأشجع، وبنو مُرَّةَ، وجاءت غَطَفَانُ وقائدُهم عُيينةُ بنُ حِصْنٍ. وكان مَن وافى الخندقَ من الكفار عشرة آلاف[١].

وحول هذه المقالة أشار الأستاذ ولفنسون إلى الخطأ الكبير الذى وقع فيه هؤلاء اليهود بتفضيلهم دين قريش الوثنى على دين الإسلام الذى يدعو إلى عبادة الإله الواحد، فقال: (والذى يؤلم كل مؤمن بإلهٍ واحد من اليهود والمسلمين على السواء، إنما هو تلك المحادثة التى جرت بين نفر من اليهود وبين قريش الوثنيين، حيث فضَّل هؤلاء النفر من اليهود أديان قريش على دين صاحب الرسالة الإسلامية)[٢]، ولا ريب فإن قريشًا قد سُرَّت بما سمعت من مدحٍ لدينها، فازدادت حماسًا، وأصبحت أكثر تصميمًا على حرب المسلمين، ثم أعلنت موافقتها على هذه الدعوة والاشتراك فى

(١) زاد المعاد (٣/ ٢٧٠-٢٧١).

(٢) انظر: تاريخ اليهود فى بلاد العرب/ ولفنسون، (ص١٤٢).

الحملة التى ستهاجم المدينة، وضربت لها موعدًا(١).

وقد أبرم الوفد اليهودى مع زعماء أعراب غطفان اتفاقية الاتحاد العربى الوثنى اليهودى العسكرى ضد المسلمين، وكان أهم بنود هذا الاتفاق هو:

(أ) أن تكون قوة غطفان فى جيش الاتحاد هذا ستة آلاف مقاتل.

(ب) أن يدفع اليهود لقبائل غطفان (مقابل ذلك) كل تمر خيبر لسنة واحدة(٢).

النبى ﷺ يتتبع أخبار اليهود والمشركين

كان جهاز أمن الدولة الإسلامية على حذر تام من أعدائه؛ لذا فقد كان يتتبع أخبار الأحزاب، ويرصد تحركاتهم، ويتابع حركة الوفد اليهودى منذ خرج من خيبر فى اتجاه مكة، وكان على علم تام بكل ما يجرى بين الوفد اليهودى وبين قريش أولًا، ثم غطفان ثانيًا، وبمجرد حصول المدينة على هذه المعلومات عن العدو شرع الرسول ﷺ فى اتخاذ الإجراءات الدفاعية اللازمة، ودعا إلى اجتماعٍ عاجل حضره كبار قادة جيش المسلمين من المهاجرين والأنصار، بحث فيه معهم هذا الموقف الخطير الناجم عن مساعى اليهود الخبيثة(٣).

---

(١) انظر: تاريخ اليهود فى بلاد العرب/ ولفنسون، (ص٣١٠).

(٢) انظر: غزوة الأحزاب/ محمد أحمد باشميل، (ص١٤١).

(٣) المصدر نفسه، (ص١٤٤، ١٤٥).

حفر الخندق

وسارع رسول الله ﷺ إلى عقد مجلس استشارى أعلى، تناول فيه موضع خطة الدفاع عن كيان المدينة، وبعد مناقشات جرت بين القادة وأهل الشورى، اتفقوا على قرار قدَّمه الصحابى النبيل سلمان الفارسى رضي الله عنه قال سلمان: يا رسول الله، إنَّا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا خندقنا علينا... وكانت خطة حكيمة لم تكن تعرفها العرب قبل ذلك.

وأسرع رسول الله ﷺ إلى تنفيذ هذه الخطة، فوكَّل إلى كل عشرة رجال أن يحفروا من الخندق أربعين ذراعًا(١).

ولما كانت المدينة تحيط بها الحرَّات والجبال وبساتين من النخيل من كل جانب سوى الشمال، وكان النبى ﷺ يعلم كخبير عسكرى حاذق أن زحف مثل هذا الجيش الكبير، ومهاجمة المدينة - لا يمكن إلا من جهة الشمال، اتخذ الخندق فى هذا الجانب.

وواصل المسلمون عملهم فى حفره، فكانوا يحفرونه طول النهار، ويرجعون إلى أهليهم فى المساء حتى تكامل الخندق حسب الخطة المنشودة قبل أن يصل الجيش الوثنى العرمرم إلى أسوار المدينة(٢).

۞ **عن أنس** رضي الله عنه **قال:** «خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون فى غداةٍ باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النَّصَب والجوع قال: «**اللهم إن العيش عيش**

---

(١) الرحيق المختوم (ص: ٣٢٧).

(٢) ابن هشام (٣/ ٢٣١).

الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة» فقالوا مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمدًا ... على الجهاد ما بقينا أبدا

وفى لفظ آخر قال: «جعل المهاجرون والأنصار يحفرون الخندق حول المدينة، وينقلون التراب على متونهم وهم يقولون:

نحن الذين بايعوا محمدًا ... على الإسلام ما بقينا أبدا

قال يقول النبى ﷺ وهو يجيبهم: **«اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة، فبارك فى الأنصار والمهاجرة»** قال: يؤتون بملء كفى من الشعير، فيصنع لهم بإهالة(١) سنخ توضع بين يدى القوم، والقوم جياع، وهى بشعة فى الحلق ولها ريح منتن»(٢)...

وكان النبى ﷺ ينقل معهم التراب - وياله من تواضع -.

وعن البراء بن عازب قال: «لما كان يوم الأحزاب، وخندق رسول الله ﷺ، رأيته ينقل من تراب الخندق، حتى وارى عنى التراب جلدة بطنه - وكان كثير الشعر - فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة، وهو ينقل من التراب يقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا ... وثبِّت الأقدام إن لاقينا

إن الأُلى قد بغوا علينا ... وإن أرادوا فتنة أبينا

---

(١) الإهالة: الدهن الذى يؤدم به سواء كان زيتًا أو سمنًا أو شحمًا.

(٢) أخرجه البخارى فى المغازى باب غزوة الخندق حديث رقم: (٤٠٩٩-٤١٠٠)، مسلم فى صحيحه الجهاد والسير باب غزوة الأحزاب وهى الخندق حديث رقم: (١٨٠٥)، الفتح الربانى: (٢١/ ٧٧).

قال: ثم يمد صوته بآخرها»[١].

۞ إن الدفاع عن الإسلام ومخافة الفتنة لو انتصر المشركون جعلت الرسول ﷺ وصحابته يعالجون هذا العمل الثقيل، ونفوسهم راضية مغتبطة مع ما يلقون فيه من عناء وصعوبة.

ولا تحسبن عمل رسول الله ﷺ فى تعميق الخندق وقذف أتربته من قبيل التمثيل الذى يحسنه بعض الزعماء فى عصرنا. كلا.. كلا.

إن الرجولة الكادحة الجادة فى أنبل صورها. كانت تُقتبس من مسلك الرسول ﷺ فى هذه المعركة[٢].

إن العدالة والمساواة هما الأساس الواقعى الذى تنبثق منه القيم والمبادئ الإسلامية عامة ظاهرًا وباطنًا.

فأنت تجد أن رسول الله ﷺ لم يندب المسلمين إلى حفر الخندق، ثم ذهب يراقبهم فى قصرٍ منيف له مستريحًا هادئًا، ولا أقبل إليهم فى احتفالٍ صاخب رنَّان ليمسك معول أحدهم بأطراف أصابعه، فيضرب به ضربة واحدة فى الأرض إيذانًا ببدء العمل وتخييلاً لهم أنه قد شاركهم فى ذلك، ثم يلقى المعول ويدير إليهم ظهره، ينفض عن حُلته ما قد علق بها من ذرات غبارٍ..

ولكن رسول الله ﷺ قد انخرط فى العمل كأى واحد من أصحابه، حتى لبس ثوبًا من الأتربة والغبار على جسمه فما تفرقه عن أى عامل آخر من صحبه وإخوانه، يرتجزون ليُنشِّط بعضهم بعضًا، فيرتجز معهم، ويتعبون ويجوعون

(١) أخرجه البخارى فى المغازى باب غزوة الخندق حديث رقم: (٤١٠٤، ٤١٠٦)، مسلم فى صحيحه الجهاد والسير باب غزوة الأحزاب رقم: (١٨٠٣).

(٢) فقه السيرة للغزالى (ص ٣٣٧).

فيكون أولهم تعبًا وجوعًا. وتلك هى حقيقة ما أقامته الشريعة الإسلامية من مساواة بين الحاكم والمحكوم والغنى والفقير والصعلوك والأمير[١].

موقف مُخزٍ للمنافقين

ولما شرع الرسول ﷺ والمؤمنون فى حفر الخندق كان المؤمنون يواصلون العمل، وإن كانت لأحدهم حاجة ضرورية استأذن رسول الله ﷺ فأذن له فيذهب إلى أهله فيقضى حاجته ويعود، أما المنافقون فإن أحدهم يُوَرِّى بقليل من العمل ثم يذهب إلى أهله بدون إذن ولا استئذان فى خفاء فأنزل الله تعالى فيهم قوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا[٢] فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٣].

ونزل فى المؤمنين الصادقين ثناء الله عليهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٤][٥].

اختيار النبى ﷺ للمكان المناسب

وعندما استقر الرأى –بعد المشاورة– على حفر الخندق، ذهب النبى ﷺ هو وبعض أصحابه لتحديد مكانه واختار للمسلمين مكانًا تتوافر فيه الحماية للجيش.

---

(١) فقه السيرة النبوية (ص ٢١٨، ٢١٩).

(٢) مستترين بشىء عند الهرب من العمل حتى لا يُروا.

(٣) سورة النور: الآية: (٦٣).

(٤) سورة النور: الآية: (٦٢).

(٥) هذا الحبيب يا محب/ الجزائرى (ص: ٣٠٣).

فقد ذكر الواقدى: أن رسول الله ﷺ ركب فرسًا له ومعه نفر من أصحابه من المهاجرين والأنصار، فارتاد موضعًا ينزله، فكان أعجب المنازل إليه أن يجعل سلعًا خلف ظهره ويخندق من المذاد إلى ذباب[١] إلى راتج[٢]، وقد استفاد ﷺ من مناعة جبل سلع[٣] فى حماية ظهور الصحابة.

كان اختيار تلك المواقع موفقًا؛ لأن شمال المدينة هو الجانب المكشوف أمام العدو والذى يستطيع منه دخول المدينة وتهديدها، أما الجوانب الأخرى فهى حصينة منيعة، تقف عقبة أمام أى هجوم يقوم به الأعداء، فكانت الدور من ناحية الجنوب متلاصقة عالية كالسور المنيع، وكانت حَرَّةُ واقم[٤] من جهة الشرق، وحرة الوبرة من جهة الغرب، تقومان كحصنٍ طبيعى، وكانت آطام بنى قريظة فى الجنوب الشرقى كفيلة بتأمين ظهر المسلمين، وكان بين الرسول ﷺ وبنى قريظة عهد ألا يمالئوا عليه أحدًا، ولا يناصروا عدوًّا ضده[٥].

ويُستفاد من بحث الرسول ﷺ عن مكانٍ ملائم لنزول الجند أهمية الموقع الذى ينزل فيه الجند، وأنه ينبغى أن يتوافر فيه شرط أساسى وهو الحماية التامة للجند؛ لأن ذلك له أثر واضح على سير المعركة ونتائجها[٦].

لقد كانت خطة الرسول ﷺ فى الخندق متطورة، ومتقدمة، حيث شرع

(١) ذباب: أكمة صغيرة فى المدينة يفصل بينها وبين جبل سلع ثنية الوداع.

(٢) راتج: حصن من حصون المدينة لأناس من اليهود.

(٣) جبل سلع: هو أشهر جبال المدينة - انظر: معجم البلدان (٣/ ٢٣٦).

(٤) هى حرة المدينة الشرقية - انظر: معجم معالم الحجاز (٢/ ٢٨٣، ٢٨٥)

(٥) انظر: العبقرية العسكرية فى غزوات الرسول، (ص٤٤٢).

(٦) انظر: القيادة العسكرية فى عهد الرسول، (ص٤٢٦).

بالأخذ بالأساليب الجديدة فى القتال، ولم يكن حفر الخندق من الأمور المعروفة لدى العرب فى حروبهم، بل كان الأخذ بهذا الأسلوب غريبًا عنهم، وبهذا يكون الرسول ﷺ هو أول من استعمل الخندق فى الحروب فى تاريخ العرب والمسلمين، فقد كان هذا الخندق مفاجأة مذهلة لأعداء الإسلام، وأبطل خطتهم التى رسموها، وكان من عوامل تحقيق هذه المفاجأة ما قام به المسلمون من إتقانٍ رفيع لسرية الخطة وسرعة إنجازها، وكان هذا الأسلوب الجديد فى القتال له أثر فى إضعاف معنويات الأحزاب وتشتيت قواتهم.

معجزات الرسول ﷺ فى غزوة الخندق

وحصلت خلال مرحلة حفر الخندق ثلاث معجزات حسّية للنبى ﷺ وهى تكثير الطعام الذى أعدّه الصحابى جابر بن عبد اللّه للرسول ﷺ بعد أن باركه ﷺ، فقد أكل منه ألف صحابى حتى شبعوا مع النبى ﷺ وتركوا الكثير [١]. ومن معجزاته إخباره لعمار بن ياسر وهو يعمل معهم بأمر غيبى يتعلّق بقتله رضي الله عنه [٢].

وقيامه ﷺ بتفتيت صخرة عظيمة عجز الصحابة عن كسرها، فقد ضربها ثلاث ضربات وفتتها ومع كل ضربة كان ﷺ يعلن عن تسلُّمِه لمفاتيح أقاليم كل من الشام، وفارس، واليمن، وهى بشارة تنبئ عن اتساع الفتوحات الإسلامية والإخبار عنها فى وقت كان المسلمون فيه محصورين فى المدينة، يواجهون المشاق والخوف والجوع والبرد القارص [٣].

---

(١) البخارى- الصحيح (٥/ ٤٦)، مسلم- الصحيح (٣/ ١٦١٠).

(٢) وكان قتله رضي الله عنه فى صفين انظر: مسلم- الصحيح (٤/ ٢٢٣٥).

(٣) أحمد-المسند(٤/ ٣٠٣)، الهيثمى-مجمع الزوائد (٦/ ١٣١)، ابن حجر-فتح(٧/ ٣٩٧).

وكان جواب المؤمنين كما حكى القرآن الكريم قولهم: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾(١).

أما المنافقون فإنهم سخروا من هذه البشارة، وهذا الموقف منهم يتسم بالجُبن والإرجاف وتخذيل المؤمنين.

وقد صوّر القرآن الكريم موقف المنافقين بشكل دقيق، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾(٢). وقوله تعالى: ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾(٣). وقوله تعالى: ﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴾(٤)(٥).

عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «لما كان حين أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذ فيها المعاول، فاشتكينا إلى رسول الله ﷺ فجاءنا فأخذ المعول فقال: «**بسم الله**، فضرب ضربة فكسر ثلثها، وقال: **الله أكبر أُعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأُبصر قصورها الحمر الساعة**، ثم ضرب الثانية، فقطع الثلث الآخر فقال: **الله أكبر**

---

(١) سورة الأحزاب: الآية: (٢٢).

(٢) سورة الأحزاب: الآية: (١٢).

(٣) سورة الأحزاب: الآية: (١٩).

(٤) سورة الأحزاب: الآية: (٢٠).

(٥) نضرة النعيم (١/ ٣٢٥-٣٢٦).

أُعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن أبيض، ثم ضرب الثالثة، وقال: بسم الله فقطع بقية الحجر فقال: **الله أكبر أُعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا الساعة»**(١).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما **قال:** «لما حُفر الخندقُ رأيت بالنبي ﷺ خَمصًا شديدًا ـ من أثر الجوع ـ فانكفيتُ إلى امرأتى فقلتُ: هل عندك شيء؟ فإنى رأيت برسول الله ﷺ خمصًا شديدًا. فأخرجتْ إليَّ جرابًا فيه صاعٌ من شعير، ولنا بُهيمةٌ داجن فذبحتها، وطحنت الشعير، ففرغت إلى فراغى، وقطعتها فى بُرمتها. ثم وليتُ إلى رسول الله ﷺ. فقالت: لا تفضحنى برسول الله ﷺ وبمن معه(٢). فجئته فساررته ـ كلَّمته سرًّا ـ فقلت: يا رسول الله ذبحنا بُهيمة لنا وطحنَّا صاعًا من شعير كان عندنا، فتعالَ أنت ونفر معك، فصاح النبيُّ ﷺ: «**يا أهل الخندق، إن جابرًا قد صنع سُورًا، فحيَّ هلًا بكم**» فقال رسول الله ﷺ: «**لا تُنزلنَّ برمتكم، ولا تخبزنَّ عجينكم حتى أجيء**»، فجئتُ وجاء رسول الله ﷺ يقدُمُ الناس، حتى جئتُ امرأتى فقالت: بك وبك ـ تعاتبه ـ فقلت: قد فعلتُ الذى قلتِ. فأخرجت له عجينًا، فبصق فيه وبارك، ثم عمد إلى بُرمتنا فبصق وبارك. ثم قال: «**ادعُ خابزةً فلتخبز معى. واقدحى من برمتكم ولا تنزلوها**»، (وهم ألف)، فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن بُرمتنا لتغطُّ كما هى، وإن عجيننا ليُخبز كما هو»(٣).

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند: (٤/ ٣٠٣) والنسائى فى الجهاد باب غزوة الترك: (٦/ ٤٣-٤٤) والبيهقى فى الدلائل: (٣/ ٤١٧-٤١٨) وحسن إسناده الحافظ فى الفتح (٧/ ٣٩٧).

(٢) أي: لا تفضحنى أمام النبى ﷺ؛ لأنَّ الطعام لا يكفى إلا لاثنين أو ثلاثة.

(٣) أخرجه البخارى (٤١٠٢) كتاب المغازى.

۞ لقد كان الذى دفع جابرًا إلى دعوته ﷺ، ما اكتشفه من شدة جوعه عليه الصلاة والسلام حينما رأى الحجر المربوط على بطنه الشريف، ولم يكن فى بيته من الطعام إلا ما يكفى لبضعة أشخاص، فاضطر إلى أن يجعل الدعوة على قدر ما عنده من الطعام.

ولكن كيف يُتصور أن يترك النبى ﷺ أصحابه فى غمرة العمل وهم يتضورون مثله جوعًا، لينفرد عنهم مع ثلاثة أو أربعة من أصحابه يستريحون ويأكلون، وإنه لأشفق على أصحابه من شفقة الأم على أولادها؟!

أما جابر فقد كان مضطرًا إلى ما فعل، وكان ذلك منه طبيعيًا، إذ إنه - كأى مفكر من الناس - لم يكن يملك إلا أن يتصرف حسب ما لديه من الأسباب المادية،... والطعام الذى لديه، لا يكفى فيما يُجمع عليه عرف البشر إلا لهذا العدد اليسير، فليختصّ به إذن رسول الله ﷺ ومن يشاء من بعض أصحابه فى حدودٍ ضيقة.

ولكنه عليه الصلاة والسلام، لم يكن من شأنه أن يتأثر بنظرة جابر هذه، فهو أولاً لا يمكن أن يتميّز عن أصحابه بشىء من النعمة أو الراحة.

وهو ثانيًا لا يمكن أن يأسر نفسه تحت سلطان الأسباب المادية وحدودها التى أَلِفها البشر، فالله وحده مُسبب الأسباب وخالقها، ومن اليسير عليه سبحانه أن يجعل من الطعام اليسير كثيرًا، وأن يبارك فى القليل منه حتى يكفى القوم كلهم.

ومهما يكن، فقد رأى النبى ﷺ أنه وأصحابه متضامنون متكافلون يتقاسمون النعمة بينهم مهما قلَّت كما يتقاسمون بينهم المحنة مهما عظمت وكثرت!.. فمن أجل ذلك أرسل جابرًا إلى داره ليهيئ لهم الطعام،

وانفتل هو إلى عامة القوم يناديهم أن يُقبلوا جميعًا إلى صنيعة كبرى لهم فى دار جابر[١].

۞ وهذه ابنة بشير بن سعد تقول: دعتنى أمى عمرة بنت رواحة فأعطتنى حفنة من تمر فى ثوبى، ثم قالت: أى بنية، اذهبى إلى أبيك وخالك عبد الله بن رواحة بغدائهما، قالت: فأخذتها فانطلقت بها، فمررت برسول الله ﷺ وأنا ألتمس أبى وخالى، فقال: «**تعالى يا بنية ما هذا معك؟**» فقلت: يا رسول الله، هذا تمر بعثتنى به أمى إلى أبى بشير بن سعد، وخالى عبد الله بن رواحة يتغذيانه، قال: «**هاتيه**»، قالت: فصببته فى كفى رسول الله ﷺ فما ملأتهما، ثم أمر بثوبٍ فبُسط له ثم دعا بالتمر عليه فتبدد فوق الثوب، ثم قال لإنسان عنده: اصرخ فى أهل الخندق أن هَلُمَّ إلى الغداء، فاجتمع أهل الخندق عليه فجعلوا يأكلون منه، وجعل يزيد حتى صدر أهل الخندق عنه، وإنه ليسقط من أطراف الثوب[٢].

۞ ففى هذين الخبرين معجزات حسية ظاهرة للرسول ﷺ، كما يظهر دور المرأة المسلمة فى مشاركة المسلمين فى جهادهم، فعندما اشتغل المسلمون بحفر الخندق تركوا أعمالهم، وبَعُدت عنهم أرزاقهم، وقَلَّ عنهم القوت، وأصاب الناس جوع وحرمان حتى كان رسول الله ﷺ والمسلمون معه يشدون على بطونهم الحجارة من شدة الجوع، فكانت المرأة المسلمة تعين المسلمين بإعداد ما قدرت عليه من الطعام[٣].

---

(١) فقه السيرة النبوية (ص: ٢٢٠).

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٤١).

(٣) انظر: المرأة فى العهد النبوى، (ص١٧٥).

ومن دلائل النبوة أثناء حفر الخندق إخباره ﷺ عمار بن ياسر - وهو يحفر معهم الخندق - بأنه ستقتله الفئة الباغية، فقُتل في صِفِّين وكان في جيش عليٍّ[(١)]، وعندما اعترضت صخرة الصحابة وهم يحفرون، ضربها الرسول ﷺ ثلاث ضربات فتفتتت قال إثر الضربة الأولى: «**الله أكبر، أُعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأُبصر قصورها الحمراء الساعة**»، ثم ضربها الثانية فقال: «**الله أكبر، أُعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأُبصر قصر المدائن أبيض**»، ثم ضرب الثالثة، وقال: «**الله أكبر أُعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأُبصر أبواب صنعاء من مكاني هذه الساعة**»[(٢)]. وقد تحققت هذه البشارة التي أخبرت عن اتساع الفتوحات الإسلامية والإخبار عنها في وقت كان المسلمون فيه محصورين في المدينة يواجهون المشاق والخوف والجوع والبرد القارص[(٣)].

سلمان منا آل البيت

قال المهاجرون يوم الخندق: سلمان منا، وقالت الأنصار: سلمان منا، فقال رسول الله ﷺ: «**سلمان منا أهل البيت**»[(٤)]، وهذا الوسام النبوي الخالد لسلمان يُشعر بأن سلمان من المهاجرين؛ لأن أهل البيت من المهاجرين[(٥)].

اهتمام النبي ﷺ بالجبهة الداخلية

(١) لما علم النبي ﷺ بقدوم جيش الأحزاب وأراد الخروج إلى

(١) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، (ص٤٤٨).

(٢) المصدر نفسه، (ص٤٤٩).

(٣) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣٢٥).

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٤٧).

(٥) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ١٠٨).

الخندق أمر بوضع ذرارى المسلمين ونسائهم وصبيانهم فى حصن بنى حارثة، حتى يكونوا فى مأمن من خطر الأعداء، وقد فعل ذلك ﷺ لأن حماية الذرارى والنساء والصبيان لها أثر فعَّال على معنويات المقاتلين؛ لأن الجندى إذا اطمأن على زوجه وأبنائه يكون مرتاح الضمير هادئ الأعصاب، فلا يشغل تفكيره أمر من أمور الحياة، يُسخِّر كل إمكاناته وقدراته العقلية والجسدية للإبداع فى القتال، أما إذا كان الأمر بعكس ذلك فإن أمر الجندى يضطرب ومعنوياته تضعف ويستولى عليه القلق، مما يكون له أثر فى تراجعه عن القتال؛ وبذلك تنزل الكارثة بالجميع(١).

(٢) ومن الأمور التى ساهمت فى تقوية وتماسك الجبهة الداخلية مشاركة النبى ﷺ جنده أعباء العمل، فقد شارك الرسول ﷺ الصحابة فى العمل المضنى، فأخذ يعمل بيده الشريفة، فى حفر الخندق.

فعن ابن إسحاق قال: سمعت البراء يحدث قال: لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله ﷺ رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عنى الغبار جلدة بطنه، وكان كثير الشعر(٢).

فعمل رسول الله ﷺ مع الصحابة بهمة عالية لا تعرف الكلل، فأعطى القدوة الحسنة لأصحابه حتى بذلوا ما فى وسعهم لإنجاز حفر ذلك الخندق.

(٣) وكان ﷺ يشارك الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ فى آلامهم وآمالهم، بل كان يستأثر بالمصاعب الجمة دونهم،... ففى غزوة الأحزاب نجد أنه ﷺ كان يعانى من

---

(١) انظر: غزوة الأحزاب/ د. محمد عبد القادر أبو فارس، (ص٩٨).

(٢) انظر: البخارى، كتاب المغازى، باب غزوة الأحزاب، (٥/ ٥٧) رقم (٤١٠٦).

ألم الجوع كغيره، بل أشد، حيث وصل به الأمر إلى أن يربط حجرًا على بطنه الشريف من شدة الجوع[١]، ثم إنه ﷺ شاركهم في آمالهم فحين وجد ما يسد رمقه بعد هذا الجوع الذى استمر ثلاثًا، لم يستأثر بذلك دونهم.

(٤) رفع معنويات الجنود وإدخال السرور عليهم: اقترن حفر الخندق بصعوبات جمة، فقد كان الجو باردًا، والريح شديدة والحالة المعيشية صعبة، بالإضافة إلى الخوف من قدوم العدو الذى يتوقعونه فى كل لحظة، ويُضاف إلى ذلك العمل المُضنى، حيث كان الصحابة يحفرون بأيديهم وينقلون التراب على ظهورهم، ولا شك فى أن هذا الظرف بطبيعة الحال يحتاج إلى قدر كبير من الحزم، والجد، ولكن النبى ﷺ لم ينسَ فى هذا الظرف أن هؤلاء الجند إنما هم بشر كغيرهم، لهم نفوس بحاجة إلى الراحة من عناء العمل، كما أنها بحاجة إلى من يُدخل عليها السرور حتى تنسى تلك الآلام التى تعانيها فوق معاناة العمل الرئيسى. ولهذا نجد أن النبى ﷺ كان يرتجز بكلمات ابن رواحة وهو ينقل التراب:

اللهم لولا الله ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا ... وثبِّت الأقدام إن لاقينا

إن الأعادى قد بغوا علينا ... وإن أرادوا فتنة أبينا

ثم يمد صوته بآخرها[٢].

وعن أنس رضي الله عنه أن أصحاب محمد ﷺ كانوا يقولون يوم الخندق:

نحن الذين بايعوا محمدًا ... على الإسلام ما بقينا أبدًا

---

(١) انظر: غزوة الأحزاب/ د. محمد أبو فارس، (ص١١٦، ١١٧).

(٢) البخارى، كتاب المغازى، باب غزوة الخندق (٥/ ٥٧) رقم (٤١٠٦).

أو قال على الجهاد والنبى يقول:

اللهم إن الخير خير الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة[(١)]

لقد كان لهذا التبسُّط والمرح فى ذلك الوقت أثره فى التخفيف عن الصحابة مما يعانونه نتيجة للظروف الصعبة التى يعيشونها، كما كان له أثره فى بعث الهمة والنشاط بإنجاز العمل الذى كُلِّفوا بإتمامه، قبل وصول عدوهم[(٢)].

(٥) **تقدير ظروف الجند والإذن بالانصراف عند الحاجة:** كان الصحابة رضي الله عنهم على قدر كبير من الأدب مع النبى ﷺ، فكانوا يستأذنونه فى الانصراف إذا عرضت لهم ضرورة، فيذهبون لقضاء حوائجهم، ثم يرجعون إلى ما كانوا فيه من العمل، رغبة فى الخير واحتسابًا له، فأنزل الله فيهم:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[(٣)].

ومعنى الآية الكريمة: إذا استأذنك يا محمد الذين لا يذهبون عنك إلا بإذنك فى هذه المواطن لقضاء بعض حاجاتهم التى تعرض لهم فَأْذَن لمن شئت منهم فى الانصراف عنك لقضائها، واستغفر لهم[(٤)]، فكان النبى ﷺ بالخيار، إن شاء أذن له إذا رأى ذلك ضرورة للمستأذن، ولم يرَ فيه مضرة

---

(١) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب (٣/ ١٤٣٢) رقم (١٢٩).

(٢) انظر: القيادة العسكرية فى عهد الرسول، (ص٤٨٢).

(٣) سورة النور: الآية: (٦٢).

(٤) انظر: صفوة التفاسير للصابونى (٢/ ٣٥١).

على الجماعة، فكان يأذن أو يمنع حسب ما تقتضيه المصلحة ويقتضيه مقام الحال[١].

(٦) **تقسيم الصحابة إلى دوريات للحراسة:** قسَّم النبى ﷺ أصحابه إلى مجموعات للحراسة ومقاومة كل من يريد أن يخترق الخندق، وقام المسلمون بواجبهم فى حراسة الخندق وحراسة نبيهم ﷺ، واستطاعوا أن يصدوا كل هجوم حاول المشركون شَنَّهُ، وكانوا على أهبة الاستعداد جنودًا وقيادة، حتى أنهم استمروا ذات يوم من السَّحَر إلى جوف الليل فى اليوم الثانى، ويفوت المسلمون الصلوات الأربع، ويقضونها لعجزهم عن التوقف لحظة واحدة أثناء الاشتباك المباشر للقتال، واستطاع على بن أبى طالب مع مجموعة من الصحابة أن يصدوا محاولة عكرمة ابن أبى جهل،... بل تصدى علىٌّ لبطل قريش عمرو بن عبد وُد وقتله[٢]، وكانت هناك مجموعة من الأنصار تقوم بحراسة النبى ﷺ فى كل ليلة على رأسهم عبَّاد بن بشر رضي الله عنه، فالنبى ﷺ هو القائد الأعلى وهو المشرف المباشر على إدارة المعركة فهو الذى يرسم الخطط ويراقب تنفيذها فهو الذى:

أ- أمر بحفر الخندق بعد أن تمت المشاورة فى ذلك، فاختار مكانًا مناسبًا لذلك، وهى السهول الواقعة شمال المدينة، إذ كانت هى الجهة الوحيدة المكشوفة أمام الأعداء.

ب- قسَّم أعمال حفر الخندق بين الصحابة، كل أربعين ذراعًا لعشرة من الصحابة، ووكل بكل جانب جماعة يحفرون فيه.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربى (٣/ ١٤١٠).

(٢) انظر: فقه السيرة/ لمنير الغضبان، (ص٥٠٤).

ج- سيطر ﷺ على العمل، فلا يستطيع أحد ترك عمله إلا بإذنٍ منه ﷺ.

د- قسَّم ﷺ واجبات احتلال الموضع بنفسه، بحيث تستمر الحراسة على كل شبر من الخندق ليلاً ونهارًا، ثم إنه ﷺ كان يقوم بمهمة الإشراف العام على الجند بتشجيعهم ورفع معنوياتهم.

هـ- استطاع ﷺ لما يتمتع به من حنكة وبراعة سياسية مستمدة من شخصيته النبوية أن يمسك بزمام الأمور، وينقذ المؤمنين من الموقف الحرج الذى حدث لهم عندما وصلت الأحزاب إلى المدينة، وأصبح الخطر يهدد المدينة وما حولها[١]، فقد توحدت قيادة المسلمين تحت زعامته ﷺ، فكان ذلك من أسباب كسب المعركة والفوز بها.

مع أن المسلمين أخذوا بكافة الاحتياطات فى تأمين جبهتهم الداخلية، ومحاولة الدفاع عن الإسلام والمدينة من جيش الأحزاب الزاحف، إلا أن سُنة الله الماضية لا نصر إلا بعد شدة، ولا منحة إلا بعد محنة، وكلما اقترب النصر زاد البلاء والامتحان، وقد ازدادت محنة المسلمين فى الخندق[٢].

موقف المؤمنين والمنافقين عند رؤية الأحزاب

فلما انسابت الأحزاب حول المدينة وضيَّقوا عليها الخناق لم تطر نفوس المسلمين بل جابهوا الحاضر المر وهم موطدوا الأمل فى غدٍ كريم.

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾[٣].

(١) انظر: القيادة العسكرية فى عصر الرسول، (ص١١).

(٢) بتصرف من غزوات الرسول د/ على الصلابى.

(٣) سورة الأحزاب: الآية: (٢٢).

أما الواهنون والمرتابون ومرضى القلوب. فقد تندَّروا بأحاديث الفتح، وظنوها أمانى المغرورين، وقالوا عن رسول الله ﷺ: يخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى، وأنتم تحفرون الخندق لا تستطيعون أن تذهبوا للغائط.

وفيهم قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾[1][2].

تشديد الحصار على المسلمين وانسحاب المنافقين ونشرهم الأراجيف:

زادت جيوش الأحزاب فى تشديد الحصار على المسلمين بعد انضمام بنى قريظة إليها، واشتد الكرب على المسلمين، وتأزم الموقف، وقد تحدث القرآن الكريم عن حالة الحرج والتدهور التى أصابت المسلمين ووصف ما وصل إليه المسلمون من جزع وخوف، وفزع فى تلك المحنة الرهيبة أصدق وصف، حيث قال تعالى: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾[3]. وكان ظن المسلمين بالله قويًا، وقد سجله القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾[4].

وأما المنافقون فقد انسحبوا من الجيش، وزاد خوفهم حتى قال معتب

---

(١) سورة الأحزاب: الآية: (١٢).

(٢) فقه السيرة/ للغزالى (ص ٣٣٨-٣٣٩).

(٣) سورة الأحزاب: الآيتان: (١٠-١١).

(٤) سورة الأحزاب: الآية: (٢٢).

ابن قشير أخو بنى عمرو بن عوف: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط،... وطلب البعض الآخر الإذن لهم بالرجوع إلى بيوتهم بحجة أنها عورة، فقد كان موقفهم يتسم بالجُبن والإرجاف وتخذيل المؤمنين، وقد وردت روايات ضعيفة تحكى أقوالهم فى السخرية والإجحاف والتخذيل[(١)]، ولكن القرآن الكريم يتكفل بتصوير ذلك أدق تصوير[(٢)]، والآيات هى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾[(٣)].

---

(١) انظر: المعجم الكبير للطبرانى (١١/ ٣٧٦) مجمع الزوائد (٦/ ١٣١).

(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٢٤).

(٣) سورة الأحزاب: الآيات: (١٣-٢٠).

إن الآيات السابقة أشارت إلى النفاق وما تولد عنه من القلق فى النفوس، والجبن فى القلوب، وانعدام الثقة بالله عند تعاظُم الخطوب والجرأة على الله تعالى بدل اللجوء إليه عند الامتحان، ولا يقف الأمر عند الاعتقاد بل يتبعه العمل المخذل المرجف، فهم يستأذنون الرسول ﷺ للانصراف عن ميدان العمل، والقتال بحجج واهية؛ زاعمين أن بيوتهم مكشوفة للأعداء، وإنما يقصدون الفرار من الموت لضعف معتقدهم وللخوف المسيطر عليهم، بل ويحثون الآخرين على ترك موقعهم والرجوع إلى بيوتهم، ولم يراعوا عقد الإيمان وعهود الإسلام(١).

وتزايدت محاولات المشركين لاقتحام الخندق، وأصبحت خيل المشركين تطوف بأعداد كبيرة كل ليلة حول الخندق حتى الصباح، وحاول خالد بن الوليد مع مجموعة من فرسان قريش أن يقتحموا الخندق على المسلمين فى ناحية ضيقة منه، ويأخذهم على حين غرة، لكن أُسيد بن حضير فى مائتين من الصحابة يراقبون تحركاتهم، وقد حصلت مناوشات استشهد فيها الطُّفيل بن النعمان والذى قتله وحشى قاتل حمزة يوم أُحد، رماه بحربة عبر الخندق فأصابت منه مقتلًا(٢).

والله لا نعطيهم إلا السيف

ولما تكالبت قُوى الشرك بكتائبها الهائجة، وكادت تُغرق القلة المؤمنة، أراد رسول الله ﷺ أن يعقد صلحًا منفردًا بينه وبين غطفان، وسيديها: عُيينة بن حصن والحارث بن عوف، على أن تفك غطفان

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٢٥).

(٢) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (٢/ ٤٢٤)، نقلًا عن غزوات الرسول.

الحصار عن المدينة، وتنسحب بجيوشها وتخذل الأحزاب، على أن يعطيهم رسول الله ﷺ ثُلث ثمار نخل المدينة، واستشار رسولُ الله السَّعدَين (سعدَ بن معاذ وسعد بن عُبادة)، فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم ـ يعنى غطفان ـ لا يطمعون أن يأكلوا منا تمرة، إلا قِرى[١] أو بيعًا، وإن كانوا ليأكلون العِلْهز[٢] فى الجاهلية فى الجهد، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له، وأعزّنا بك وبه نُقطعهم أموالنا؟! ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف، حتى يحكم الله بيننا وبينهم.

ثم خرج سعد إلى سيدى غطفان وقد رفع صوته فى تحدٍّ: «**ارجعا، ليس بيننا وبينكم غيرُ السيف**»[٣].

يا للرجال! فى وقتٍ بلغت فيه القلوب الحناجر من شدة الكرب وتقاطُر البلايا؟! كلمات تصدر من فم الصادق سعد، تتفجر منها ينابيع الرجولة والشجاعة والأنفة، فتبثُّ الأمل فى نفوس المسلمين، وتُدهش سيدى غطفان؛ فيفيقوا، ويُعلمهم سعد أن الذى يصنع النصر قوةُ العقيدة، وزخم الإيمان بالله والثقة به[٤].

ولقد ظهرت حنكته ﷺ وحسن سياسته حين اختار قبيلة غطفان بالذات لمصالحتها على مالٍ يدفعه إليها على أن تترك محاربته وترجع إلى بلادها، فهو يعلم ﷺ أن غطفان وقادتها ليس لهم من وراء الاشتراك فى هذا الغزو أى هدف سياسى يريدون تحقيقه، أو باعث عقائدى يقاتلون تحت

---

(١) القِرَى: الضيافة.

(٢) والعلهز: وبر يُخلط بدماءِ اللحم، كانت العرب فى الجاهلية تأكله فى الجَدْب.

(٣) زاد المعاد (٣/ ٢٧٣).

(٤) علو الهمة/ د. سيد حسين (٣/ ٣٧٢).

رايته، وإنما كان هدفهم الأول والأخير من الاشتراك فى هذا الغزو الكبير هو الحصول على المال بالاستيلاء عليه من خيرات المدينة عند احتلالها؛ ولهذا لم يحاول الرسول ﷺ الاتصال بقيادة الأحزاب من اليهود (كحُيى ابن أخطب، وكنانة بن الربيع) أو قادة قريش كأبى سفيان بن حرب، لأن هدف أولئك الرئيسى، لم يكن المال، وإنما كان هدفهم هدفًا سياسيًّا وعقائديًّا يتوقف تحقيقه والوصول إليه على هدم الكيان الإسلامى من الأساس؛ لذا فقد كان اتصاله (فقط) بقادة غطفان، الذين (فعلاً) لم يترددوا فى قبول العرض الذى عرضه عليهم النبى ﷺ[(١)]، فقد استجاب القائدان الغطفانيان (عُيينة بن حصن، والحارث بن عوف) لطلب النبى ﷺ وحضرا مع بعض أعوانهما إلى مقر قيادة النبى ﷺ واجتمعا به وراء الخندق مُستخفين دون أن يعلم بهما أحد، وشرع رسول الله ﷺ فى مفاوضتهم، وكانت تدور حول عرض تقدَّم به رسول الله ﷺ يدعو فيه إلى عقد صلح منفرد بينه وبين غطفان، وأهم البنود التى جاءت فى هذه الاتفاقية المقترحة:

(أ) عقد صلح منفرد بين المسلمين وغطفان الموجودة ضمن جيوش الأحزاب.

(ب) توادع غطفان المسلمين وتتوقف عن القيام بأى عمل حربى ضدهم (وخاصة فى هذه الفترة).

(ج) تفك غطفان الحصار عن المدينة وتنسحب بجيوشها عائدة إلى بلادها.

(د) يدفع المسلمون لغطفان (مقابل ذلك) ثلث ثمار المدينة كلها من

---

(١) انظر: غزوة الأحزاب، محمد أحمد باشميل، (ص٢٠١).

مختلف الأنواع، ويظهر أن ذلك لسنة واحدة[(١)]، فقد ذكر الواقدى: أن رسول الله ﷺ قال لقائدى غطفان: «**أرأيت إن جعلت لكم ثلث تمر المدينة ترجعان بمن معكم وتخذلان بين الأعراب؟**» قالا: تعطينا نصف تمر المدينة، فأبى رسول الله ﷺ أن يزيدهما على الثلث، فرضيا بذلك، وجاءا فى عشرة من قومهما حين تقارب الأمر[(٢)].

ويعنى قبول قائدى غطفان ما عرضه عليهما رسول الله ﷺ من الوجهة العسكرية، وضوح الهدف الذى خرجت غطفان من أجله، وهو الوقود الذى يشعل نفوس هؤلاء ويحركها فى جبهة القتال، ولا شك فى أن اختفاء هذا الدافع يعنى أن المحارب فقد ثلثى قدرته على القتال، وبذلك تضعف عنده الروح المعنوية التى تدفعه إلى الاستبسال فى مواجهة خصمه؛ وبذلك استطاع النبى ﷺ أن يُفتت ويُضعف من قوة جبهة الأحزاب[(٣)].

فقد أبرز ﷺ فى هذه المفاوضات جانبًا من جوانب منهج النبوة فى التحرك لفك الأزمات عند استحكامها وتأزُّمها، لتكون لأجيال المجتمع المسلم درسًا تربويًّا من دروس التربية المنهجية عند اشتداد البلاء[(٤)].

وفى استشارة رسول الله ﷺ للصحابة يبين لنا أسلوبه فى القيادة، وحرصه على فرض الشورى فى كل أمر عسكرى يتصل بالجماعة، فالأمر شورى ولا ينفرد به فرد حتى ولو كان هذا الفرد رسول الله ﷺ، ما دام الأمر فى دائرة الاجتهاد ولم ينزل به وحى[(٥)]... إن قبول الرسول ﷺ رأى

(١) المصدر نفسه (ص٢٠١، ٢٠٢).

(٢) انظر: المغازى للواقدى (٢/ ٤٧٧).

(٣) انظر: القيادة العسكرية فى عهد الرسول، (ص٤١٣).

(٤) انظر: محمد رسول الله/ صادق عرجون (٤/ ١٧٦).

(٥) انظر: العبقرية العسكرية فى غزوات الرسول، (ص٤١٤).

الصحابة فى رفض هذا الصلح يدل على أن القائد الناجح هو الذى يربط بينه وبين جنده رباط الثقة، حيث يعرف قدرهم ويدركون قدره، ويحترم رأيهم ويحترمون رأيه، ومصالحة النبى ﷺ مع قائدى غطفان تُعَدُّ من باب السياسة الشرعية التى تراعى فيها المصالح والمفاسد حسب ما تراه القيادة الرشيدة للأمة [١].

۞ إن موقف الصحابة من هذا الصلح يحمل فى طياته ثلاثة معانٍ:

(أ) أنه يؤكد شجاعة المسلمين الأدبية فى إبداء الرأى، والمشورة فى أى أمر يخص الجماعة، إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

(ب) أنه يكشف عن جوهر المسلمين وعن حقيقة اتصالهم بالله ورسوله وبالإسلام.

(ج) أنه يبين ما تمتلئ به الروح المعنوية لدى المسلمين من قدرة على مواجهة المواقف الحرجة بالصبر، والرغبة القوية فى قهر العدو، مهما كثر عدده وعتاده أو تعدد حلفاؤه [٢].

شَغلهم المشركون عن الصلاة

وقد حاول المشركون فى بعض الأيام محاولة بليغة لاقتحام الخندق أو لبناء الطرق فيها، ولكن المسلمين كافحوا مكافحة مجيدة، ورشقوهم بالنبل وناضلوهم أشد النضال حتى فشل المشركون فى محاولتهم.

ولأجل الاشتغال بمثل هذه المكافحة الشديدة فات بعض الصلوات عن رسول الله ﷺ والمسلمين [٣].

---

(١) انظر: القيادة العسكرية فى عهد الرسول، (ص٤١٤).

(٢) المصدر نفسه، (ص ٤١٥، ٤١٦).

(٣) الرحيق المختوم (ص: ٣٣٣).

۞ عن عليّ رضي الله عنه: «عن النبيِّ ﷺ أنه قال يومَ الخندقِ: «**مَلأ الله عليهم بُيوتَهم وقبورَهم نارًا كما شَغَلونا عن الصلاة الوُسطى حتى غابتِ الشمس**»[١].

وعن جابر بن عبد الله: «أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه جاءَ يومَ الخندق بعدَ ما غَرَبتِ الشمسُ جَعلَ يَسبُّ كفّارَ قُريش وقال: يا رسولَ الله، ما كدتُ أن أُصلِّيَ حتى كادَتِ الشمسُ أن تَغرُبَ قال النبيُّ ﷺ: «**والله ما صلّيتها**» فنزَلنا مع النبي ﷺ بُطْحانَ، فتوضأنا لها، فصلّى العصرَ بعد ما غربت الشمسُ، ثمَّ صلى بعدها المغرب»[٢].

۞ ومن هنا يؤخذ أن محاولة العبور من المشركين، والمكافحة المتواصلة من المسلمين دامت أيامًا، إلا أن الخندق لما كان حائلاً بين الجيشين لم يجرِ بينهما قتال مباشر وحرب دامية، بل اقتصروا على المراماة والمناضلة.

وفي هذه المراماة قُتل رجال من الجيشين، يُعَدُّون على الأصابع ستة من المسلمين وعشرة من المشركين، بينما كان قتل واحد أو اثنين منهم بالسيف[٣].

هكذا تكون البطولة

وكَرِه فوارس من قريش أن يقفوا حول المدينة على هذا النحو، فإن فرض الحصار وترقب نتائجه ليس من شيمتهم. فخرج عمرو بن ودّ،

(١) أخرجه البخاري (٤١١١) كتاب المغازي.

(٢) أخرجه البخاري (٤١١٢) كتاب المغازي.

(٣) الرحيق المختوم (ص: ٣٣٤).

وعكرمة بن أبي جهل، وضرار بن الخطاب، وأقبلوا تعنق بهم خيلهم حتى وقفوا على حافة الخندق. فلما رأوه قالوا: والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها.

ثم تيمموا مكانًا ضيقًا من الخندق. وضربوا خيلهم فاقتحمته، وأحس المسلمون الخطر المقترب، فأسرع فرسانهم يسدون هذه الثغرة يقودهم عليٌّ بن أبي طالب.

وقال (عليٌّ) **لعمرو بن وُدّ، وهو فارس شجاع مُعلَّم**: يا عمرو.. إنك عاهدت الله لا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه. قال: أجل. فقال له عليٌّ: فإني أدعوك إلى الله ورسوله وإلى الإسلام.

قال عمرو: لا حاجة لي بذلك. قال عليّ: فإني أدعوك إلى النزال. فأجاب عمرو: ولِمَ يا ابن أخي؟ فوالله ما أُحب أن أقتلك - استصغارًا لشأنه - قال عليٌّ: لكني والله أحب أن أقتلك. فحمي عمرو، واقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه ثم أقبل على عليٍّ، فتنازلا وتجاولا. فقتله عليٌّ، وخرجت خيل المشركين من الخندق منهزمة حتى اقتحمته هاربة(١).

وكان شعار المسلمين يومئذٍ «حم لا يُنصرون»(٢).

سعد بن أبي وقاص يرمي رجلاً فيضحك النبي ﷺ

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه **قال**: «لما كان يوم الخندق ورجل يتترس

---

(١) فقه السيرة للغزالي (ص: ٣٤٠).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٦٥، ٢٨٩، ٥/ ٣٧٧)، وأبو داود (٢٥٩٧)، والترمذي (١٦٨٢) من حديث أبي إسحاق، عن المهلب بن أبي سفرة أخبرني من سمع النبي ﷺ يقول: «**إن بيَّتكم العدو، فقولوا: «حم لا يُنصرون»** وسنده حسن، وصححه الحاكم (٢/ ١٠٧).

جعل يقول بالترس هكذا، فوضعه فوق أنفه، ثم يقول هكذا يسفله، بعد... قال: فأهويت إلى كنانتى، فأخرجت منها سهمًا مدمى، فوضعته فى كبد القوس، فلما قال هكذا يُسفِّل الترس رميت، فما نسيت وقع القدح على كذا وكذا من الترس، قال: وسقط فقال برجله هكذا، فضحك نبى الله ﷺ أحسبه قال حتى بدت نواجذه، قال: قلت: لِمَ فعل؟ قال لفعل الرجل»(١).

خيانة اليهود

كان المسلمون يخشون غدر يهود بنى قريظة الذين يسكنون فى جنوب المدينة فيقع المسلمون حينئذٍ بين نارين، اليهود خلف خطوطهم، والأحزاب بأعدادهم الهائلة من أمامهم، ونجح اليهودى زعيم بنى النضير فى استدراج كعب بن أسد زعيم بنى قريظة لينضم مع الأحزاب لمحاربة المسلمين.

وانطلق حُيى بنُ أخطب إلى بنى قُريظة، فدنا من حصنهم، فأبى كعبُ ابن أسد أن يفتَح له، فلم يَزَلْ يُكلِّمُهُ حتى فتح له، فلما دخل عليه، قال: لقد جئتُك بعزِّ الدهر، جئتُكَ بقريش وغَطَفَان وأسَد على قادتها لِحرب محمد، قال كعب: جِئْتَنى والله بذُلِّ الدهرِ، وبِجَهَامٍ(٢) قد هراقَ مَاؤُه، فهو يَرْعُد ويَبْرُق ليس فيه شىء. فلم يزل به حتى نقض العهد الذى بينه وبينَ رسول الله ﷺ، ودخل مع المشركين فى مُحاربته، فَسُرَّ بذلك المشركون، وشرط كعب على حُيى أنه إن لم يظفروا بمحمد أن يجىء حتى يدخُلَ معه فى

(١) قال الهيثمى فى المجمع: (٦/ ١٣٥-١٣٦)، رواه أحمد والبزار إلا أنه قال كان رجل معه ترسان وكان سعد راميًا فكان يقول كذا وكذا بالترسين يغطى جبهته فنزع له سعد بسهم فلما رفع رأسه رماه فلم يخطئ هذه منه يعنى جبهته والباقى بنحوه ورجالهما رجال الصحيح غير محمد بن محمد بن الأسود وهو ثقة، وانظر كشف الأستار: (١٨٠٨).

(٢) هو السحاب الرقيق الذى لا ماء فيه.

حصنه، فيصيبه ما أصابه، فأجابه إلى ذلك، ووفَّى له به.

وبلغ رسولَ الله ﷺ خبرُ بنى قُريظة ونَقْضِهم للعهد، فبعث إليهم السَّعْدينِ[١]، وخوَّاتَ بن جُبير، وعبدَ اللهِ بن رواحة لِيَعْرِفُوا: هل هم على عهدهم، أو قد نقضُوه؟ فلما دَنوا منهم، فوجدُوهم على أخبث ما يكون، وجاهروهم بالسبِّ والعداوة، ونالُوا مِن رسول الله ﷺ، فانصرفُوا عنهم، ولحنُوا إلى رسول الله ﷺ لحنًا يُخبرونه أنهم قد نقضُوا العَهد، وغدَرُوا، فعظُمَ ذلك على المسلمين، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ عند ذلك: «**اللهُ أكبرُ أبشرُوا يا معشرَ المسلمين**»، واشتدَّ البلاءُ، ونَجَمَ النِّفَاقُ، واستأذن بعضُ بنى حارثة رسول الله ﷺ فى الذهاب إلى المدينة وقَالُوا: ﴿**إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا**﴾[٢] وهمَّ بنو سلمَةَ بالفشل، ثم ثبَّت اللهُ الطائفتين[٣].

إصابة سعد بن معاذ رضي الله عنه

عن عائشة رضي الله عنها فى قصة جرح سعد بن معاذ وغزوة الخندق قالت رضي الله عنها: خرجت يوم الخندق أقفو آثار الناس، فسمعت وئيد الأرض من ورائى - يعنى حس الأرض - قالت: فإذا أنا بسعد بن معاذ ومعه ابن أخيه الحارث ابن أوس يحمل مجنة. قالت: فجلست إلى الأرض فمرَّ (سعد) وعليه درع من حديد قد خرجت منه أطرافه، فأنا أتخوف على أطراف سعد، وكان سعد من أعظم الناس وأطولهم فمر وهو يرتجز ويقول:

لبِّث قليلاً يُدرِكُ الهيجا حمَلُ ... ما أحسن الموتَ إذا حانَ الأجلُ

---

(١) سعد بن معاذ وسعد بن عبادة.

(٢) سورة الأحزاب: الآية: (١٣).

(٣) زاد المعاد (٣/ ٢٧١ - ٢٧٢).

قالت: فاقتحمت حديقة فإذا فيها نفر من المسلمين، وإذا فيها عمر بن الخطاب وفيهم رجل عليه تسبغة(١) له يعنى المغفر،... فقال عمر (لعائشة): ما جاء بك لعمرى إنك لجريئة، وما يؤمنك أن لا يكون تجوُّز. قالت: فما زال يلومنى حتى تمنيت أن الأرض انشقت لى ساعتئذ فدخلت فيها.

قال: فرفع الرجل التسبغة عن وجهه فإذا طلحة بن عبيد الله. فقال: ويحك يا عمر إنك قد أكثرت منذ اليوم، وأين التجوز والفرار إلا إلى الله تعالى. قالت: ويرمى سعدًا رجلٌ من المشركين من قريش يقال له ابن العرقة بسهمٍ له فقال له: خذها وأنا ابن العرقة، فأصاب أكحله فقطعه ـ العرق ـ فدعا الله سعدٌ فقال: اللهم لا تُمتنى حتى تُقرّ عينى من بنى قريظة فيخرجوا من صياصيهم(٢)، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة وأمر بقُبة من أدم فضُربت على سعد فى المسجد.

۞ ودعوة سعد الأخيرة تُصوِّر مبلغ ما انطوت عليه قلوب المسلمين من غيظٍ لخيانة يهود وتمزيقها المعاهدة القائمة.

ومسلك بنى إسرائيل بإزاء المعاهدات التى أمضوها قديمًا وحديثًا يجعلنا نجزم بأن القوم لا يَدَعُون خستهم أبدًا، وأنهم يرعون المواثيق ما بقيت هذه المواثق متمشية مع أطماعهم ومكاسبهم وشهواتهم، فإذا تعارضت مع تطلعاتهم المحرمة نبذوها نبذ النواة... ولو تركت الحمير نهيقها، والأفاعى لدغها، لترك اليهود نقضهم للعهود. وقد نبَّه القرآن إلى هذه الخصلة الشنعاء فى بنى إسرائيل، وأشار إلى أنها أحالتهم حيوانًا لا أُناسى، فقال: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ

---

(١) التسبغة: شيء من حلق الدروع والزرد يعلق بالخوذة دائرًا معها ليستر الرقبة وجيب الدرع.

(٢) أى حصونهم، وكل شيء امتنع به وتحصن فهو صيص.

عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ﴾[١][٢].

۞ أول مستشفى إسلامى حربى:

أنشأ المسلمون أول مستشفى إسلامى حربى فى غزوة الأحزاب، فقد ضرب الرسول صلوات الله وسلامه عليه خيمة فى مسجده الشريف فى المدينة، عندما دارت رحى غزوة الأحزاب، فأمر ﷺ أن تكون رفيدة الأسلمية الأنصارية رئيسة ذلك المستشفى النبوى الحربى، وبذلك أصبحت أول ممرضة عسكرية فى الإسلام[٣]،...وجاء فى السيرة النبوية لابن هشام:وكان ﷺ قد جعل سعد بن معاذ فى خيمة لامرأة من أسلم، يقال لها: رفيدة، فى مسجده، كانت تداوى الجرحى، وتحتسب بنفسها على خدمة من به ضيعة من المسلمين، وكان ﷺ قد قال لقومه حين أصاب سعد ابن معاذ السهم بالخندق: «**اجعلوه فى خيمة رفيدة، حتى أعوده من قريب**»[٤].

۞ ويُفهم من النص السابق أن مَن أُصيب من المسلمين إن كان له أهل اعتنى به أهله، وإن لم يكن له أهل، جيء به إلى المسجد حيث ضُربت خيمة فيه لمن كانت به ضيعة من المسلمين، وسعد بن معاذ الأوسى، ليس به ضيعة، ولكن لما أراد الرسول ﷺ الاطمئنان عليه باستمرار، جعله فى تلك الخيمة التى أُعدت لمن به ضيعة وليس له أهل، ذلك أن هؤلاء هم فى رعاية رسول الله ﷺ، وإلا فلِمَ ضُربت الخيمة فى المسجد، وكان بالإمكان ضربها فى أى مكان آخر؟

---

(١) سورة الأنفال: الآيتان: (٥٥-٥٦).

(٢) فقه السيرة للغزالى (ص ٣٤٥).

(٣) انظر: المستشفيات الإسلامية/ الدكتور عبد الله السعيد، (ص٤٣).

(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٦٣).

إن سعد بن معاذ يُكرَم لمآثره وما بذله فى سبيل الله تعالى، فيكون هذا التكريم أن يُجعل فى خيمة أُعدت لمن به ضيعة، وهكذا حينما يرتفع السادة يُجعلون مع المغمورين الذين أخلصوا أعمالهم لله تعالى فاستحقوا أن يكونوا فى رعاية رسول الله ﷺ[١]، وهذا منهج نبوى كريم أصبح دستورًا للمسلمين على مدى الزمن.

محاولة فاشلة عند حصون النساء

عن رافع بن خديج رضي الله عنه قال: «لم يكن حصن أحصن من حصن بنى حارثة، فجعل النبى ﷺ النساء والصبيان والذرارى فيه، وقال: «**إن ألمَّ بكن أحد فألمعن بالسيف**» فجاءهن رجل من بنى ثعلبة بن سعد يقال له نجدان أحد بنى حشاش على فرس، حتى كان فى أصل الحصن ثم جعل يقول للنساء: انزلن إلىَّ خيرٌ لكُن، فحركن السيف فأبصره أصحاب رسول الله ﷺ ، فابتدر الحصن قوم فيهم رجل من بنى الحارثة يقال له: ظهير بن رافع، فقال: يا نجدان ابرز، فبرز إليه، فحمل على فرسه، فقتله وأخذ رأسه فذهب به إلى النبى ﷺ »[٢].

۞ وفى رواية: أنه لما خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق؛ جعل نساءه فى أُطُمٍ[٣] يقال له: فارع. قال عروة: «كان النبى ﷺ إذا خرج لقتال عدوه رفع نساءه فى أُطم حسَّان رضي الله عنه؛ لأنه كان من أحصن الآطام.. فجاء يهودى فلصق بالأطم ليسمع. قالت صفية: فأخذتُ عمودًا فنزلت إليه، حتى

---

(١) انظر: من معين السيرة، (ص٢٩٤).

(٢) قال الهيثمى فى المجمع (٦/ ١٣٣): رواه الطبرانى ورجاله ثقات.

(٣) أطم: كل حصن مبنى من الحجارة.

فتحت الباب قليلاً قليلاً، فحملت عليه فضربته بالعمود فقتلته»[١].

وعند ابن إسحاق: وهى أول امرأة قتلت رجلاً من المشركين.

وفى رواية: «فجاء إنسان من اليهود فرقى فى الحصن، حتى أطلَّ عليهن. قالت صفية بنت عبد المطلب: فقمت إليه، فضربته حتى قطعت رأسه، فأخذت رأسه فرميت به عليهم»[٢].

وقد كان لهذا الفعل المجيد من عمة الرسول ﷺ أثر عميق فى حفظ ذرارى المسلمين ونسائهم، ويبدو أن اليهود ظنوا أن هذه الآطام والحصون فى منعة من الجيش الإسلامى ـ مع أنها كانت خالية عنهم تمامًا ـ فلم يجترئوا مرة ثانية للقيام بمثل هذا العمل، إلا أنهم أخذوا يمدون الغزاة الوثنيين بالمؤن كدليلٍ عملى على انضمامهم إليهم ضد المسلمين، حتى أخذ المسلمون من مؤنهم عشرين جملاً[٣].

عدم صحة ما يُروى عن جُبن حسان رضي الله عنه

ففى قصة صفية عمة رسول الله ﷺ وقتلها لليهودى جاء فى رواية سندها ضعيف[٤] أن صفية رضي الله عنها قالت لحسان بن ثابت: إن هذا اليهودى يطيف بالحصن كما ترى، ولا آمنه أن يدل على عورتنا من ورائنا من يهود، وقد شُغل عنا رسول الله ﷺ وأصحابه فانزل إليه فاقتله، فقال: يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب، والله لقد عرفتِ ما أنا بصاحب هذا،.. قالت صفية: فلما

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (٨/ ٢٧) والمستدرك (٤/ ٥١).

(٢) الإصابة (٧/ ٧٤٤).

(٣) الرحيق المختوم (ص: ٣٣٦).

(٤) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص٣٦٥).

قال ذلك، احتجزت عمودًا ثم نزلت من الحصن إليه فضربته بالعمود حتى قتلته، ثم رجعت الحصن، فقلت: يا حسان انزل فاستلبه، فإنه لم يمنعنى أن استلبه إلا أنه رجل، فقال: ما لى بسلبه من حاجة يا بنت عبد المطلب[(١)].

❁ وهذا الخبر لا يصح لأمور منها:

(١) من حيث الإسناد فالخبر ليس مُسندًا، وهو ساقط لا يصح ولا يجوز أن يُروى، فيُساء إلى صحابى من صحابة رسول الله ﷺ كان ينافح عن الدعوة وعن رسول الله ﷺ عمره كله.

(٢) لو كان حسان بن ثابت رضي الله عنه معروفًا بالجُبن الذى ذُكر عنه لهجاه أعداؤه ومُبغضوه بهذه الخصلة الذميمة، لا سيما الذين كان يهاجيهم، فلم يسلم من هجائه أحد من زعماء الجاهلية... والرسول ﷺ كان يؤيده ويدعو له، ويشجعه على هجاء زعماء المشركين[(٢)].

إنها لم تكن معركة خسائر بل معركة أعصاب

إن معركة الأحزاب لم تكن معركة خسائر بل معركة أعصاب.

فقتلى الفريقين من المؤمنين والكفار يُعَدُّون على الأصابع. ومع تلك الحقيقة فهى من أحسم المعارك فى تاريخ الإسلام، إذ أن مصير هذه الرسالة العظمى كان فيها أشبه بمصير رجل يمشى على حافة قمة سامقة، أو جبل ممدود، فلو اختلَّ توازنه لحظة وفقد السيطرة على موقفه، لهوى من مرتفعه إلى وادٍ سحيق، ممزق الأعضاء، ممزع الأشلاء. ولقد أمسى المسلمون وأصبحوا فإذا هم كالجزيرة المنقطعة وسط طوفان يتهددها

---

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص٣٦٥).

(٢) انظر: غزوة الأحزاب، الدكتور أبو فارس.

بالغرق ليلاً أو نهارًا. وبين الحين والحين يتطلع المدافعون. هل اقتُحمت خطوطهم فى ناحية ما من منطقة الدفاع؟ وكان المشركون يدورون حول المدينة غِضابًا يتحسسون نقطة ضعيفة لينحدروا منها فينفسوا عن حنقهم المكتوم، ويقطعوا أوصال هذا الدين الثائر.

وعرف المسلمون ما يتربص بهم وراء هذا الحصار، فقرروا أن يرابطوا فى مكانهم ينضحون بالنبل كل مقترب، ويتحملون لأواء هذه الحراسة التى تنتظم السهل والجبل، وتتسع ثغورها يومًا بعد يوم وهم كما وصف الله تعالى: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾[1][2].

رجل المهمات الصعبة

عن عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «لما كان يوم الخندق كنت أنا وعمر بن أبى سلمة فى الأُطم الذى فيه نساء رسول الله ﷺ، أُطم حسان، فكان يرفعنى وأرفعه، فإذا رفعنى عرفت أبى حين يمر إلى بنى قريظة، وكان يقاتل مع رسول الله ﷺ يوم الخندق فقال: «**من يأتى بنى قريظة فيقاتلهم؟**» فقلت له حين رجع: يا أبتِ تالله إن كنت لأعرفك حين تمر ذاهبًا إلى بنى قريظة فقال: «يا بنى أما والله إن كان رسول الله ﷺ ليجمع لى أبويه جميعًا يفدينى بهما، يقول: «**فداك أبى وأمى**»[3].

(١) سورة الأحزاب: الآيتان: (١٠-١١).

(٢) فقه السيرة للغزالى (ص ٣٣٩-٣٤٠).

(٣) أخرجه البخارى فى مناقب الصحابة باب مناقب الزبير (٣٧٢٠) مسلم فى فضائل الصحابة باب فضائل طلحة والزبير (٢٤١٦).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «اشتد الأمر يوم الخندق فقال رسول الله ﷺ ألا رجل يأتينا بخبر بنى قريظة؟ فانطلق الزبير فجاء بخبرهم، ثم اشتد الأمر أيضًا فذكر ثلاث مرات فقال رسول الله ﷺ: «إن لكل نبى حوارى والزبير حوارى»[(١)].

نعيم بن مسعود ... ودوره الخالد

إن الله يغرس لهذا الدين غرسًا يُعز الله به الإسلام فى كل زمان ومكان. ومن بين هؤلاء الذين نفع الله بهم الإسلام بطلنا اليقظ الذكى الذى حباه الله بسرعة البديهة وشدة الذكاء.

إنه نعيم بن مسعود الذى كان فى الجاهلية على صلة وثيقة بيهود بنى قريظة وغيرهم. وكان يجلس فى مجالسهم يسمر ويشرب معهم وكانوا يحبونه ويثقون فيه تمام الثقة.

وفى الوقت المناسب الذى قدَّره الله (جل وعلا) فتح الله قلب (نعيمٍ) للهدى ودين الحق فبدأ نعيم صفحة جديدة فى يوم غزوة الأحزاب، واستطاع أن يُسطِّر على جبين التاريخ صفحة لا تُنسى أبدًا مع مرور الأيام والليالى.

إنها صفحة ناصعة بيضاء... فقد جعله الله سببًا لإنقاذ الأمة المسلمة بأسرها وعلى رأسها رسول الله ﷺ .

ماذا قدَّمت لدين الله؟

تدبر معى أيها الأخ الكريم كيف استطاع نعيم بن مسعود رضي الله عنه أن يكون سببًا فى إجلاء تلك الحشود التى تجمعت للقضاء على الإسلام (فى غزوة

---

(١) أخرجه البخارى فى فضائل الصحابة باب مناقب الزبير (٣٧١٩) مسلم فى الفضائل باب فضائل طلحة والزبير حديث (٢٤١٥).

الأحزاب). وسَلْ نفسك هذا السؤال: «ماذا قدمت لدين الله؟!!!».

فهذا هو نعيم بن مسعود ذلكم الفدائى البطل الذى جاء للمصطفى ﷺ فى وقتٍ عصيبٍ رهيب كادت فيه القلوب أن تخرج من الصدور.

أحاط المشركون بالمدينة من كل ناحية من حول الخندق وفى لحظات حرجة قاسية. نقض يهود بنى قريظة العهد مع رسول الله ﷺ وشكلوا تهديدًا داخليًا خطيرًا على النساء والأطفال، وتعاهدوا مع المشركين أن يحاربوا معهم محمدًا ﷺ ... وهذا هو فعل اليهود وهذه هى صفة اليهود. فاليهود لا يجيدون إلا الغدر ونقض العهود.

نقضوا العهد مع رسول الله ﷺ فى وقتٍ حرج.. ولك أن تتصور الحالة النفسية التى مر بها المصطفى ﷺ مع أصحابه وقد وصفها الله وصفًا بليغًا دقيقًا. فقال تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾(١) تصور هذه الحالة.. فلقد كان هناك مع رسول الله ﷺ من يقول: ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورًا! المشركون يحيطون بنا واليهود نقضوا العهد وسيدمروننا من الداخل ويقتلون نساءنا وأطفالنا!!

حالة قاسية حتى قام المصطفى ﷺ يتضرع إلى الله: «**اللهم مُنزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم**»(٢).

وبينما رسول الله ﷺ وأصحابه فيما وصف الله ﷻ من الخوف والشدة،

---

(١) سورة الأحزاب: الآيات: (١٠-١٢).

(٢) أخرجه البخارى (٦/ ١٠٩-١١٠) المغازى ـ ومسلم (١٧٤٢) الجهاد.

لتظاهُر عدوهم عليهم وإتيانهم إياهم من فوقهم ومن أسفل منهم.

أتى نعيم بن مسعود إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنى قد أسلمت، وإن قومى لم يعلموا بإسلامى، فمُرنى بما شئت؛ فقال رسول الله ﷺ: «**إنما أنت فينا رجلٌ واحدٌ، فخذِّل عنا إن استطعت، فإن الحرب خُدعة**».

فخرج نُعيم بن مسعود حتى أتى بنى قُريظة، وكان لهم نديمًا فى الجاهلية، فقال: يا بنى قُريظة، قد عرفتم وُدِّى إياكم، وخاصة ما بينى وبينكم، قالوا: صدقتَ، لست عندنا بمتَّهم، فقال لهم: إنَّ قريشًا وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون على أن تحولوا منه إلى غيره، وإنَّ قريشًا وغطفان قد جاءوا لحرب محمدٍ وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدُهم وأموالهم ونساؤهم بغيره، فليسوا كأنتم، فإن رأوا نُهزة[1] أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلَّوا بينكم وبين الرجل ببلدكم، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تُقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رُهُنًا من أشرافهم، يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمدًا حتى تُناجزوه، فقالوا له: لقد أشرت بالرأى.

ثم خرج حتى أتى قُريشًا، فقال لأبى سفيان بن حرب ومَن معه من رجال قريش: قد عرفتم وُدِّى لكم وفراقى محمدًا، وإنه قد بلغنى أمرٌ قد رأيت علىَّ حقًا أن أبلغكموه، نُصحًا لكم، فاكتموا عنى، فقالوا: نفعل.

قال: تعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه: إنَّا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين، من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنُعطيكهم،

---

(١) النهزة: انتهاز الشىء واختلاسه.

فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من بقى منهم حتى نستأصلهم؟ فأرسل إليهم: أن نعم ... فإن بعثت إليكم يهودُ يلتمسون منكم رُهنًا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحدًا.

ثم خرج حتى أتى غطفان، فقال: يا معشر غطفان، إنكم أصلى وعشيرتى، وأحبّ الناس إلىَّ، ولا أُراكم تتهمونى، قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتَّهم، قال: فاكتموا عنى، قالوا: نفعل، فما أمرك؟ ثم قال لهم مثلَ ما قال لقريش وحذَّرهم ما حذَّرهم.

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس، وكان من صُنع الله لرسوله ﷺ أن أرسل أبو سفيان بن حرب ورءوس غطفان إلى بنى قريظة عكرمة بن أبى جهل، فى نفر من قريش وغطفان، فقالوا لهم: إنا لسنا بدار مقام، قد هلك الخُفّ والحافر[1]، فاغدوا للقتال حتى نُناجز محمدًا، ونفرغ مما بيننا وبينه، فأرسلوا إليهم: إن اليوم يوم السبت، وهو يوم لا نعمل فيه شيئًا. وقد كان أحدث فيه بعضُنا حدثًا، فأصابه ما لم يَخف عليكم، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمدًا حتى تُعطونا رُهُنًا من رجالكم، يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمدًا، فإنا نخشى إن ضرستكم الحرب[2]، واشتد عليكم القتال أن تنشمروا[3] إلى بلادكم وتتركونا... والرجل فى بلدنا، ولا طاقة لنا بذلك منه. فلما رجعت إليهم الرسُل بما قالت بنو قريظة، قالت قريش وغطفان: والله إن الذى حدَّثكم (نعيم بن مسعود) لحقٌ، فأرسلوا إلى بنى قريظة: إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحدًا من

(١) أراد بالخف: الإبل ... وأراد بالحافر: الخيل.

(٢) ضرستكم الحرب: نالت منكم. كما يصيب ذو الأضراس بأضراسه.

(٣) أن تنشمروا: أن تنقبضوا وتسرعوا إلى بلادكم.

رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجُوا فقاتلوا، فقالت بنو قريظة، حين انتهت الرسلُ إليهم بهذا: إن الذى ذكر لكم نُعيم بن مسعود لحقٌّ، ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا، فإن رأوا فرصة انتهزوها، وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم، وخلَّوا بينكم وبين الرجل فى بلدكم، فأرسلوا إلى قريش وغطفان: إنا والله لا نقاتل معكم محمدًا حتى تُعطونا رُهُنًا، فأبوا عليهم... وخذَّل الله بينهم، وبعث الله عليهم الريح فى ليالٍ شاتية باردة شديدة البرودة، فجعلت تكفأ قدورهم، وتطرح أبنيتهم[(١)] [(٢)].

❁ وكان من أسباب نجاح مهمة نعيم قيامها على الأسس التالية:

(أ) أنه أخفى إسلامه عن كل الأطراف، بحيث وثق كل طرف فيما قدمه له من نُصح.

(ب) أنه ذكَّر بنى قريظة بمصير بنى قينقاع وبنى النضير، وبصَّرهم بالمستقبل الذى ينتظرهم إن هم استمروا فى حروبهم للرسول ﷺ، فكان هذا الأساس سببًا فى تغيير أفكارهم وقلب مخططاتهم العدوانية.

(ج) أنه نجح فى إقناع كل الأطراف بأن يكتم كل طرف ما قال له.

وفى استمرار هذا الكتمان نجاح فى مهمته، فلو انكشف أمره لدى أى طرف من الأطراف لفشلت مهمته. وهكذا قام نعيم بن مسعود بدور عظيم فى غزوة الأحزاب[(٣)].

---

(١) أخرجه ابن سعد (٢/ ٦٩) والطبرى (٣/ ٥٧٨-٥٧٩) فى تاريخه، وابن كثير فى البداية والنهاية (٤/ ١١١) وابن حجر فى الفتح (٧/ ٤٠٢).

(٢) أصحاب الرسول ﷺ / للمصنف (٢/ ٣٦١-٣٦٥).

(٣) انظر: القيادة العسكرية فى عهد الرسول، (ص٤٧٧).

حذيفة يأتيهم بخبر القوم

فعن محمد بن كعب القرظي قال: «قال فتى منا من أهل الكوفة لحذيفة ابن اليمان: يا أبا عبد الله لقد رأيتم رسول الله ﷺ وصحبتموه؟ قال: نعم يا ابن أخي، قال: فكيف كنتم تصنعون؟ قال: والله لقد كنا نجهد[١].

قال: والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض، ولجعلناه على أعناقنا، قال: فقال حذيفة: يا ابن أخي والله لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق، وصلى رسول الله ﷺ من الليل هويًا[٢]، ثم التفت إلينا فقال: «**مَن رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم**، يشترط له رسول الله ﷺ أنه يرجع... **أدخله الله الجنة**»، فما قام رجل، ثم صلى رسول الله ﷺ هويًا، ثم التفت إلينا فقال: «**مَن رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع**، يشرط له رسول الله ﷺ الرجعة، **أسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة**» فما قام رجل من القوم من شدة الخوف، وشدة الجوع، وشدة البرد.

فلما لم يقم أحد دعاني رسول الله ﷺ فلم يكن لي بُدٌّ في القيام حين دعاني فقال: «**قُم يا حذيفة فاذهب فادخل في القوم فانظر ما يفعلون ولا تُحدثنَّ شيئًا حتى تأتينا**»، قال: فذهبت فدخلت في القوم، والريح وجنود الله تفعل ما تفعل، لا تقر لهم قدر، ولا نار، ولا بناء، فقام أبو سفيان بن حرب فقال: يا معشر قريش لينظر امرؤٌ إلى جليسه، فقال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذي جنبي، فقلت: من أنت؟ قال: أنا فلان بن فلان، ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع[٣]

(١) نجهد: في مشقة شديدة.

(٢) هويًّا: الحين الطويل من الزمان.

(٣) الكراع: اسم لجمع الخيل.

وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا منهم الذى نكره، ولقينا من هذه الريح ما ترون، والله ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإنى مرتحل، ثم قام إلى جَمَلِه وهو معقول، فجلس عليه ثم ضربه فوثب على ثلاث، فما أطلق عقله، إلا وهو قائم، ولولا عهد رسول الله: لا تُحدث شيئًا حتى تأتينى ثم شئت لقتلته بسهم.

قال حذيفة، ثم رجعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلى فى مرط[1] لبعض نسائه مُرَجَّل[2]، فلما رآنى أدخلنى إلى رَحله، وطرح عليه طرف المرط، ثم ركع وسجد وإنه لفيه، فلمّا سلم أخبرته الخبر، وسمعتْ غطفان بما فعلت قريش وانشمروا إلى بلادهم).

هذا اللفظ لأحمد ... وفى لفظ مسلم بعض الزيادة أذكرها هنا لاكتمال المعنى والفائدة فبعد أن ذكر حذيفة استنفار الرسول عليه السلام للصحابة ثلاثًا ثم قوله قم يا حذيفة قال: (.. فمضيت كأنما أمشى فى حمام[3] حتى أتيتهم، فإذا أبو سفيان يَصلى ظهره بالنار فوضعت سهمى فى كبد قوسى[4] وأردت أن أرميه، ثم ذكرت قول رسول الله ﷺ: «**لا تُذعرهم علىَّ**» ولو رميته لأصبته، قال: فرجعت كأنما أمشى فى مثل الحمام، فأتيت رسول الله ﷺ ثم أصابنى البرد حين فرغت وقررت[5]. فأخبرت رسول الله ﷺ فألبسنى رسول الله ﷺ من فضل عباءة كانت عليه يصلى فيها، فلم أزل نائمًا حتى

(١) مرط: كساء من صوف أو خز يؤتزر به وتتلفع به المرأة.

(٢) مرجل: فيه خطوط وأرقام.

(٣) كأنما أمشى فى حمام: أى أنه لم يجد من البرد ما يجد الناس.

(٤) كبد القوس: مقبضه.

(٥) قررت: بردت.

الصبح، فلما أن أصبحت، قال رسول الله ﷺ: «**قم يا نومان**»[١].

۞ أرجع مرة أخرى لهذا الرجل من أهل الكوفة الذى قال لحذيفة بن اليمان: يا أبا عبد الله، أرأيتم رسول الله وصحبتموه؟ قال: نعم، يا ابن أخى، قال: فكيف كنتم تصنعون؟ قال: والله لقد كنا نجهد، قال: فقال: والله لو أدركناه ما تركناه يمشى على الأرض، ولحملناه على أعناقنا، فقال حذيفة: يا ابن أخى، والله لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ، بالخندق[٢]، ثم ذكر حديث تكليفه بمهمة الذهاب إلى معسكر المشركين.

فهذا تابعى يلتقى بالصحابى حذيفة ويتخيل أنه لو وُجد مع رسول الله ﷺ لاستطاع أن يفعل ما لم يفعله الصحابة الكرام،... والخيال شيء والواقع شيء آخر، والصحابة رضي الله عنهم بشر، لهم طاقات البشر، وقدراتهم، وقد قدموا كل ما استطاعوا، فلم يبخلوا بالأنفس فضلًا عن المال والجهد، وقد وضع ﷺ الأمور فى نصابها بقوله: «**خير القرون قرني**» فبيَّن أن عملهم لا يعدله عمل.

إن الذين جاءوا من بعد، فوجدوا سلطان الإسلام ممتدًّا، وعاشوا فى ظل الأمن والرخاء والعدل، بعيدين عن الفتنة والابتلاء، هم بحاجة إلى نقلة بعيدة يستشعرون من خلالها أجواء الماضى بكل ما فيه من جهالات وضلالات وكفر، وبعد ذلك يمكنهم تقدير الجهد المبذول من الصحابة حتى قام الإسلام فى الأرض[٣].

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٥/ ٣٩٢-٣٩٣) مسلم فى كتاب الجهاد والسير باب غزوة الأحزاب رقم (١٧٨٨) الحاكم فى المستدرك: (٣/ ٣١)، وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبى.

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٥٥)

(٣) انظر: من معين السيرة للشامى، (ص٢٩١).

۞ ويؤخذ من قصة حذيفة دروس وعبر منها:

(١) **معرفة رسول الله ﷺ بمعادن الرجال:** حيث اختار حذيفة ليقوم بمهمة التجسس على الأحزاب، وأن معدن حذيفة معدن ثمين فهو شجاع، ولا يقوم بهذه الأعمال إلا من كان ذا شجاعة نادرة، وهو بالإضافة إلى ذلك لبق ذكي خفيف الحركة، سريع التخلص من المآزق الحرجة.

(٢) **الانضباط العسكرى الذى يتحلى به حذيفة:** لقد مرت فرصة سانحة ليقتل فيها قائد الأحزاب وهَمَّ بذلك، ولكنه ذكر أمر الرسول ﷺ ألا يذعرهم، وأن مهمته الإتيان بخبرهم، فنزع سهمه من قوسه[١].

(٣) **كرامات الأولياء:** إن ما حدث لحذيفة بن اليمان عندما سار لمعرفة خبر الأحزاب فى جوٍّ بارد ماطر شديد الريح، وإذا به لا يشعر بهذا الجو البارد، ويمشى وكأنما يمشى فى حمام، وتلازمه هذه الحالة مدة بقائه بين الأحزاب وحتى عاد إلى معسكر المسلمين؛ لا شك هذه كرامة يَمُنُّ الله بها على عباده المؤمنين[٢].

(٤) **لطف النبى ﷺ مع حذيفة عند رجوعه:** فقد كان ﷺ يترفق بأصحابه، ولم تمنعه صلاة الليل وحلاوة المناجاة من التلطُّف بحذيفة الذى جاء بأحسن الأنباء وأصدق الأخبار وأهمها، فشمله بكسائه الذى يصلى فيه، ليُدفئه، وتركه ملفوفًا به حتى أتم صلاته، بل حتى بعد أن أفضى إليه بالمهمة، فلما وجبت المكتوبة أيقظه بلطفٍ وخفةٍ ودُعابة قائلًا: «**قم يا نومان**»، دعابة تقطر حلاوة، وتفيض بالحنان، وتسيل رقة، إنها صورة

(١) انظر: فقه السيرة النبوية للغضبان، (ص٥٠٥)، السيرة النبوية لأبى فارس، (ص٣٦٧).

(٢) انظر: السيرة النبوية لأبى فارس، (ص٣٦٧).

نموذجية للرأفة والرحمة اللتين تحلَّى بهما فؤاد الرسول ﷺ، وتطبيق فريد رفيع لهما فى أصحابه الكرام[١]، وصدق الله العظيم فى قوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٢].

(٥) وتستوقفنا سرعة البديهة لدى الصحابى الكريم، وقد دخل فى القوم، كما فى رواية الزرقانى،... وقال أبو سفيان: ليأخذ كل رجل منكم بيد جليسه، قال حذيفة: فضربت بيدى على يد الذى على يمينى فقلت: من أنت؟ قال: معاوية بن أبى سفيان، ثم ضربت بيدى على يد الذى عن شمالى، فقلت: من أنت؟ قال: عمرو بن العاص[٣]. وهكذا بَدَرهُم بالمسألة حتى لا يتيح لهم فرصة ليسألوه، وبهذا تخلص من هذا المأزق الحرج الذى ربما كان أودى بحياته[٤].

الدعاء .. ومفاتيح النصر

كان رسول الله ﷺ كثير التضرع والدعاء والاستعانة بالله، وخصوصًا فى مغازيه، وعندما اشتد الكرب على المسلمين أكثر مما سبق حتى بلغت القلوب الحناجر وزُلزلوا زلزالاً شديدًا، فما كان من المسلمين إلا أن توجهوا إلى الرسول ﷺ وقالوا: يا رسول الله هل من شيء نقوله؟ فقد بلغت القلوب الحناجر، فقال: «**نعم. اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا**»[٥].

---

(١) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوى فى المدينة، (ص٢٤٦).

(٢) سورة التوبة: الآية: (١٢٨).

(٣) انظر: شرح الزرقانى (٢/ ١٢٠).

(٤) انظر: من معين السيرة، (ص٢٩٣).

(٥) مسند الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى (٤/ ١٨).

وجاء فى الصحيحين من حديث عبد الله بن أبى أوفى قال: دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال: **اللهم مُنزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم**»[1]، فاستجاب الله سبحانه دعاء نبيه ﷺ، فأقبلت بشائر الفرج فقد صرفهم الله بحوله وقوته، وزلزل أبدانهم وقلوبهم، وشتَّت جَمْعهم بالخلاف، ثم أرسل عليهم الريح الباردة الشديدة، وألقى الرعب فى قلوبهم، وأنزل جنودًا من عنده سبحانه، ... قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴾[2].

قال القرطبى رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وكانت هذه الريح معجزة للنبى ﷺ؛ لأن النبى ﷺ والمسلمين كانوا قريبًا منهم، ولم يكن بينهم إلا عرض الخندق، وكانوا فى عافية منها ولا خبر عندهم بها... وبعث الله عليهم الملائكة فقلعت الأوتاد وقطعت أطناب الفساطيط[3]، وأطفأت النيران، وأكفأت القدور، وجالت الخيول بعضها فى بعض، وأرسل عليهم الرعب، وكَثُر تكبير الملائكة فى جوانب المعسكر حتى كان سيد كل خباء يقول: يا بنى فلان هَلُمَّ إلَىَّ فإذا اجتمعوا قال لهم: النجاء النجاء، لما بعث الله عليهم الرعب[4].

وحرص الرسول عليه الصلاة والسلام أن يؤكد لصحبه ثم للمسلمين فى الأرض، أن هذه الأحزاب التى تجاوزت عشرة آلاف مقاتل لم تُهزم بالقتال من المسلمين، رغم تضحياتهم، ولم تُهزم بعبقرية المواجهة، إنما

---

(١) البخارى، كتاب المغازى، باب غزوة الأحزاب (٥/ ٥٩) رقم (٤١١٤).

(٢) سورة الأحزاب: الآية: (٩).

(٣) الفساطيط: جمع فسطاط نوع من الأبنية فى السفر وهو دون السرادق.

(٤) انظر: تفسير القرطبى (٤/ ١٤٤).

هُزمت بالله وحده: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾.

۞ وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول: «**لا إله إلا الله وحده، أعز جنده، ونصر عبده، وغلب الأحزاب وحده، فلا شيء بعده**»(١).

۞ وعن سالم ونافع عن عبد الله رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ كان إذا قفل من الغزو أو الحجِّ أو العمرة يبدأ فيكبِّر ثلاث مرارٍ ثم يقول: **لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لهُ الملكُ، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. آيبون، تائبون، عابدون، ساجدون، لربِّنا حامدون. صدقَ الله وعدَه، ونصرَ عبده، وهزمَ الأحزاب وحده**»(٢).

ودعاء رسول الله ﷺ ربه، واعتماده عليه وحده، لا يتناقض أبدًا مع التماس الأسباب البشرية للنصر، فقد تعامل ﷺ في هذه الغزوة مع سُنة الأخذ بالأسباب، فبذل جهده لتفريق الأحزاب، وفك الحصار، وغير ذلك من الأمور التي ذكرناها(٣).

إن رسول الله ﷺ يُعلمنا سُنة الأخذ بالأسباب، وضرورة الالتجاء إلى الله وإخلاص العبودية له؛ لأنه لا تجدي وسائل القوة كلها إذا لم تتوافر وسيلة التضرع إلى الله والإكثار من الإقبال عليه بالدعاء والاستغاثة، فقد كان الدعاء والتضرع إلى الله من الأعمال المتكررة الدائمة التي فزع إليها رسول الله ﷺ في حياته كلها(٤).

---

(١) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الأحزاب (٥/ ٥٩) رقم (٤١١٤).

(٢) أخرجه البخاري (٤١١٦) كتاب المغازي.

(٣) انظر: فقه السيرة النبوية للغضبان، (ص٥٠٣).

(٤) انظر: فقه السيرة، (ص٢٢٢).

العناية الإلهية تتدخل لتحسم الأمر

عن عبد الله بن أبى أوفى قال: دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال: «**اللهم مُنزل الكتاب سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم**»[١].

۞ والله تبارك وتعالى لا يقبل الدعاء من متواكل كسول، وما يستمع لشىء استماعه لهتاف مجتهد: أن يبارك له سعيه. أو دعاء صابر: أن يجمل له العاقبة.

وقد أفرغ المسلمون جهدهم فى الدفاع عن رسالتهم ومدينتهم، حتى لم يبقَ فى طوق البشر مُدَّخر، فبقى أن تتدخل العناية العليا لتقمع صعر الظالم وتقيم جانب المظلوم.

ومن ثَم أخذ سير المعركة يتطور على نحو لا يدرك الناس كُنهه.

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾[٢][٣].

وقد سمع الله دعاء رسوله والمسلمين، فبعد أن دبَّت الفُرقة فى صفوف المشركين، وسرى بينهم التخاذل، أرسل الله عليهم جندًا من الريح، فجعلت تُقوض خيامهم، ولا تدع لهم قدرًا إلا كفأتها، ولا طنبًا إلا قلعته، ولا يقر لهم قرار، وأرسل جندًا من الملائكة يزلزلونهم، ويلقون فى قلوبهم الرعب والخوف[٤].

---

(١) أخرجه البخارى (٦/ ١٠٩-١١٠) المغازى ـ ومسلم (١٧٤٢) الجهاد.

(٢) سورة المدثر: الآية: (٢١).

(٣) فقه السيرة للغزالى (ص ٣٤٦).

(٤) الرحيق المختوم (ص ٣٣٩).

لقد رأينا أن الوسيلة التى التجأ إليها رسول الله ﷺ وأصحابه فى غزوة بدر، هى نفسها التى التجأ إليها فى الخندق.. إنها وسيلة التضرع إلى الله والإكثار من الإقبال عليه بالدعاء والاستغاثة، بل لقد كان هو العمل المتكرر الدائم الذى ظل يفزع إليه رسول الله ﷺ، كلما لقى عدوًا أو سار إلى جهاد، وهى الوسيلة التى تعلو فى تأثيرها على كل الأسباب والوسائل المادية الأخرى، وهى الوسيلة التى لا تصلح حال المسلمين إلا إذا قامت على أساسها بعناية كاملة.

إن هذا المعنى الذى يتكرر فى غزوات الرسول ﷺ، ليس يعنى إغراء المسلمين بالمغامرة والجهاد دون استعداد ولا تأهُّب، وإنما هو لإيضاح أن على المسلم أن يعلم أن فى مقدمة أسباب النصر المختلفة، صدق الالتجاء إلى الله وإخلاص العبودية له، فلن تُجدى وسائل القوة كلها إذا لم تتوفر هذه الوسيلة بعينها. وإذا تحققت فى أعمال المسلمين هذه الوسيلة فحدِّث عن معجزات النصر ولا حرج[1].

نصر الله رسوله ﷺ بريح الصبا

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أتت الصبا الشمال ليلة الأحزاب، فقالت: مُرِّى حتى ننصر رسول الله ﷺ، فقالت الشمال: إن الحُرة لا تسرى بالليل، فكانت الريح التى نُصر بها رسول الله ﷺ الصبا»[2].

---

(١) فقه السيرة النبوية (ص: ٢٢٢).

(٢) قال الهيثمى فى المجمع: (٦/ ١٣٤-١٤٠): رواه البزار ورجاله رجال الصحيح، كشف الأستار: (١٨١١) وقال البزار: رواه جماعة عن داود عن عكرمة مرسلاً، ولا نعلم أحدًا وصله إلا حفص ورجل من أهل البصرة وكان ثقة يقال له: خلف بن عمرو.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ **«نُصرت بالصبا، وأُهلكت عاد بالدبور»**[١].

وهكذا أفلح المسلمون فى فصم عُرى التحالف بين الأحزاب المجتمعة عليهم.

فما مضت أسابيع ثلاثة على ذلك الحصار المضروب حتى دَبَّ القنوط والتخاذل فى صفوف المهاجمين على حين بقيت جبهة المدافعين سليمة لم تُثلم.

الآن نغزوهم ولا يغزوننا

وكانت هذه آخر مرة يأتى فيها المشركون لغزو المسلمين فى عقر دارهم.

عن سليمان بن صردٍ قال: «سمعتُ النبىّ ﷺ يقولُ حينَ أُجلى الأحزاب عنه: **الآن نغزوهم ولا يغزوننا نحن نسيرُ إليهم**»[٢].

لقد كانت غزوة الأحزاب من الغزوات الهامة التى خاضها المسلمون ضد أعدائهم وحققوا فيها نتائج مهمة منها:

۞ انتصار المسلمين، وانهزام أعدائهم، وتفرقهم، ورجوعهم مدحورين بغيظهم قد خابت أمانيهم وآمالهم.

۞ تغير الموقف لصالح المسلمين، فانقلبوا من موقف الدفاع إلى الهجوم، وقد أشار إلى ذلك النبى ﷺ حيث قال: «**الآن نغزوهم، ولا**

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الاستسقاء باب قول النبى ﷺ: «**نُصرت بالصبا**» حديث (١٠٣٥) مسلم فى كتاب صلاة الاستسقاء باب فى ريح الصبا والدبور حديث (٩٠٠).

(٢) أخرجه البخارى (٤١١٠) كتاب المغازى.

يغزوننا، نحن نسير إليهم»[١].

۞ كشفت هذه الغزوة يهود بنى قريظة وحقدهم على المسلمين وتربُّص الدوائر بهم، فقد نقضوا عهدهم مع النبى ﷺ فى أحلك الظروف وأصعبها.

۞ كشفت غزوة الأحزاب حقيقة صدق إيمان المسلمين وحقيقة المنافقين وحقيقة يهود بنى قريظة، فكان الابتلاء بغزوة الأحزاب تمحيصًا للمسلمين وإظهار حقيقة المنافقين واليهود.

۞ كانت غزوة بنى قريظة نتيجة من نتائج غزوة الأحزاب، حيث تم فيها محاسبة يهود بنى قريظة الذين نقضوا العهد مع النبى ﷺ فى أحلك الظروف وأقساها[٢].

الإعلام الإسلامى فى غزوة الأحزاب

قام شعراء الصحابة بدورهم الجهادى، فقالوا قصائد رائعة وضَّحوا بها موقف المسلمين فى غزوة الأحزاب، نقتطف منها أبياتًا منها كنماذج لهذه القصائد، فمن ذلك قول كعب بن مالك، أخو بنى سلمة:

وسائلة تسائل ما لقينا ... ولو شهدت رأتنا صابرينا

صبرنا لا نرى لله عدلاً ... على ما نابنا متوكلينا

وكان لنا النبى وزير صدقٍ ... به نعلو البرية أجمعينا

نقاتل معشرا ظلموا وعقوا ... وكانوا بالعداوة مرصدينا[٣]

نعالجهم إذا نهضوا إلينا ... بضرب يعجل المتسرعينا

---

(١) البخارى، كتاب المغازى، باب غزوة الخندق، (٥/ ٥٨) رقم (٤١١٠).

(٢) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (٢/ ٤٤٢).

(٣) المرصد: المعد للأمر عدته.

ترانـــا فى فـــضافض ســـابغات كغـــدران المـــلا متـــسربلينا(١)

إلى أن قال:

لننـــصر أحمـــدًا والله، حتـــى نكـــون عبـــاد صـــدقٍ مُخلـــصينا
ويعلـــم أهـــل مكـــة حـــين ســـاروا وأحـــزاب أتـــوا متحزبينـــا
بـــأن الله لـــيس لـــه شـــريك وأن الله مـــولى المؤمنينـــا
فإمـــا تقتلـــوا ســـعدًا ســـفاها فـــإن الله خيـــر القادرينـــا
ســـيُدخله جِنانًـــا طيبـــات تكـــون مقامـــة للـــصالحينا
كمـــا قـــد ردكـــم فـــلا شـــريدًا بغـــيظكم خزايـــا خائبينـــا
خزايـــا لـــم تنـــالوا ثَـــمَّ خيـــرًا وكـــدتم أن تكونـــوا دامرينـــا
بـــريحٍ عاصـــفٍ هبَّـــت علـــيكم فكنـــتم تحتهـــا متكمِّهينـــا(٢)

الفوائد والآثار الإيمانية

(١) مع أن هذه الغزوة لم يكن فيها التحام بين الجيشين، إلا أنها كانت للظروف التى لابستها وكثرة المشركين، وغدر بنى قريظة، والريح والبرد القارص فى هذا الوقت وحصول المجاعة فى المدينة جعلتها من أشد الغزوات امتحانًا لقلوب المؤمنين،... وأى وصف أبلغ من قول الله ﷻ: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾(٣)، ونَجَم النفاق وظهرت أمراض القلوب فروى أن بعضهم كان يقول: كان محمد يعدنا أن

(١) متسربلينا: يلبسون الدروع .

(٢) متكمِّهينا: العمى الذين لا يبصرون.

(٣) سورة الأحزاب: الآية: (١٠).

نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط، وكان المنافقون والذين فى قلوبهم مرض يستأذنون فى العودة إلى بيوتهم ويتعللون بأن بيوتهم عورة،... وقد قال الله ﷻ: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾(١)، وكما أن الشدائد تُظهر نفاق المنافقين، فهى كذلك تظهر إيمان المؤمنين، فقد قال الله ﷻ: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾(٢).

(٢) كان تأييد الله ﷻ لنبيه ﷺ وللمؤمنين فى هذه الغزوة للظروف السالفة أعظم تأييد وأتمه، تارة بالمعجزات والخوارق الرحمانية، كما حدث فى بيت جابر بن عبد الله، وكما حدث مع حذيفة رضي الله عنه حيث أذهب الله عنه البرد فكان كأنه فى حمام من الدفء، وما رأى النبى ﷺ فى حفر الخندق وبشر الصحابة به من الفتوحات العظيمة، وكانت الملائكة تنزل على رسول الله ﷺ تقاتل معه، كما حدث فى بدر وكما أنزل الله عليه ﷺ من يدافع عنه وقد انكشف المسلمون يوم أُحد إلا أن فى هذه الغزوة أيّده الله ﷻ بالملائكة التى تُزلزل قلوب الكفار وتلقى فيها الرعب، وبالريح التى تُقوض خيامهم، وتطفئ نارهم، ولا تدع لهم قِدرًا إلا كفأتها، فالمسلمون إذا بذلوا جهدهم وطاقتهم فى إعزاز الدين ورفع راية رب العالمين، وإن كان الجهد قليلًا بالنسبة للأسباب التى يتمتع بها أعداؤهم، فإن الله ﷻ يؤيد عباده بجندٍ من عنده ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾(٣) لا أقول بنزول الملائكة تقاتل كما كانت تقاتل مع النبى ﷺ، ولكن ليست الملائكة وحدها جند الله

(١) سورة الأحزاب: الآية: (١٣).

(٢) سورة الأحزاب: الآية: (٢٢).

(٣) سورة المدثر: الآية: (٣١).

بل يهيئ الله ﷻ من الأسباب والظروف التي ينصر بها عباده المؤمنين كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[(١)] وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾[(٢)]. فالنصر ليس مقصورًا على الرسل الكرام بل هو لعموم المؤمنين كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[(٣)] ويظهر ذلك لمن كانت له دراية بالفتوحات الإسلامية العظيمة التي كانت بعد وفاة النبي ﷺ... فنسأل الله أن يعزنا بهذا الدين، وأن يعز بنا هذا الدين.

(٣) في هذه الغزوة وكذلك غزوة بدر ظهر فضل التضرع إلى الله ﷻ، وكيف أن الأسباب إذا كانت قليلة فيعوضها ويفضل عنها التوكل على الله ﷻ القوي المتين رب الأرباب، ومالك الأسباب. وكما قال موسى عليه السلام: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[(٤)] لما قيل له: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾[(٥)]، وقال النبي ﷺ لأبي بكر: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[(٦)] لما قال له أبو بكر: لو نظر أحدهم تحت قدميه لأبصرنا. وقال الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ﴾[(٧)]، وقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ﴾[(٨)].

---

(١) سورة الصافات: الآية: (١٧٣).

(٢) سورة غافر: الآية: (٥١).

(٣) سورة الروم: الآية: (٤٧).

(٤) سورة الشعراء: الآية: (٦٢).

(٥) سورة الشعراء: الآية: (٦١).

(٦) سورة التوبة: الآية: (٤٠).

(٧) سورة الزمر: الآية: (٣٦).

(٨) سورة الطلاق: الآية: (٣).

(٤) في هذه الغزوة كذلك تعليم للقادة أن لا يتميزوا عن جنودهم، فهذا رسول الله ﷺ لو قعد عن حفر الخندق واكتفى بالإشراف والتوجيه لما لامه أحد، ولكنه ﷺ كان يشاركهم في جوعهم، ويربط على بطنه الحجر وكان يحمل التراب بنفسه ﷺ (بأبي هو وأمي)، وهو أشرف نفس بشرية وطأت قدماها الأرض، ولاشك أن في مشاركة النبي ﷺ لهم في حفر الخندق ودعائه لهم وما كان ينشده من شعر ابن رواحة كان يخفف عنهم مشقة الحفر ويُنسيهم ما يجدونه من جوع وخوف، وأَولى الناس بكل خير رسول الله ﷺ، فهو القدوة للقائد، وللعالم، وللعابد، وللمعلم ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[١].

(٥) هذه الغزوة يظهر فيها بجلاء غدر اليهود وخيانتهم، وكيف أنهم كانوا السبب في تجميع الأحزاب حول المدينة، ثم في خيانة يهود بني قريظة في أشد الأوقات وأعظمها محنة، فبدلًا من أن يكونوا عونًا للمسلمين بحسب العهد الذي بينهم كانوا حربًا عليهم مع بقية قوى الكفر، فهذه طبيعة اليهود مع أن ما حدث مع بني قينقاع وبني النضير ليس منهم ببعيد، ولكن هذه طبيعتهم التي لا ينفكون عنها، ولا يستطيعون التخلص منها، ولذا وصفهم الله ﷻ بقوله: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾[٢]، وهم أتباع المسيح الدجال، فإذا قُتل المسيح الدجال انهزم جنوده من اليهود، فما يختبئ يهودي وراء حجر أو شجر إلا نطق وقال: يا مسلم هذا يهودي ورائي تعالَ فاقتله، إلا الغرقد، فإنه من شجر اليهود... فهذا من

(١) سورة الأحزاب: الآية: (٢١).

(٢) سورة البقرة: الآية: (١٠٠).

باب: اعرف عدوك(١).

(٦) قال الغزالى: طبائع النفوس تتفاوت تفاوتًا كبيرًا لدى الأزمات العضوض: منها الهش الذى سرعان ما يذوب ويحمله التيار معه كما تحمل المياه الغثاء والأوحال، ومنها الصلب الذى تمر به العواصف المجتاحة، فتنكسر حدتها على متنه وتتحول رغوة خفيفة وزبدًا. أجل من الناس من يهجم على الشدائد ليأخذها قبل أن تأخذه، وعلى لسانه قول الشاعر:

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد لنفسى حياة مثل أن أتقدما

ومنهم مَن إذا مسَّه الفزع طاش لُبُّه فولّى الأدبار وكلما هاجه طلب الحياة وحب البقاء، أوغل فى الفرار ... وقد نعى القرآن الكريم على هذا الصنف الجزوع موقفه فى معركة الأحزاب فقال: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾(٢)(٣).

---

(١) قال الغزالى: ومسلك بنى إسرائيل بإزاء المعاهدات التى أمضوها قديمًا وحديثًا يجعلنا نجزم بأن القوم لا يَدَعُون خستهم أبدًا، وأنهم يرعون المواثيق ما بقيت هذه المواثيق متمشية مع أطماعهم ومكاسبهم وشهواتهم فإذا وقف تطلعهم الحرام نبذوها نبذ النواة ولو تركت الحمير نهيقها والأفاعى لدغها، ترك اليهود نقضهم للعهود، وقد نبّه القرآن إلى هذه الخصلة الشنعاء فى بنى إسرائيل وأشار إلى أنها أحالتهم حيوانًا لا أناسى فقال: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ [سورة الأنفال: ٥٥، ٥٦] — فقه السيرة (٣٢٤، ٣٢٥).

(٢) سورة الأحزاب: الآيتان: (١٦، ١٧).

(٣) فقه السيرة للغزالى (٣٢٣)، نقلًا عن وقفات تربوية مع السيرة النبوية.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

فهرس الموضوعات

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

فهرس الموضوعات

مقدمة الناشر ٣
❁ بين يدى الكتاب ٥
❁ **الإسلام دين السلام** ١١
(١) الإسلام والسلام من مادة واحدة: ١١
(٢) إشاعة كلمة السلام فى المجتمع وجعله تحية الإسلام: ١١
(٣) المسلم لا يتمنَّى الحرب ويسأل الله العافية: ١٣
(٤) ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ ودلالة الآية على حُبِّ السِّلم: ١٤
(٥) القرآن يُسمى صلح الحديبية: ﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾: ١٥
(٦) الجنوح لدعوة السِّلم إذا جَنَحَ العدوُّ إليها: ١٦
(٧) كراهة التسمية بـ(حرب): ١٧
(٨) ثلث العام هدنة إجباريَّة: ١٧
(٩) الحجُّ تدريبٌ للمسلم على السلام: ١٧
❁ **الرحمة فى الحروب النبوية** ١٩
❁ المطلب الأول: رحمته ﷺ بالصغار: ١٩
❁ المطلب الثاني: رحمته ﷺ بكبار السن: ٢٢
❁ المطلب الثالث: رحمته ﷺ بالنساء: ٢٣
❁ المطلب الرابع: رحمته ﷺ بالرُّهبان والمُتفرغين للعبادة: ٢٤
❁ المطلب الخامس: رحمته ﷺ بأصحاب الظروف الخاصة: ٢٥
❁ المطلب السادس: رحمته ﷺ بالمستكرهين على القتال: ٢٧
❁ المطلب السابع: رحمته ﷺ بقتلى الأعداء! ٢٧

۞ **الدستور الأخلاقى للحرب فى الإسلام** ٣٠
۞ أولاً: أخلاق ما قبل الحرب: ٣٠
ثانيًا: الأخلاق أثناء الحرب: ٣٠
ثالثًا: أخلاق ما بعد الحرب: ٣١
(١) تحريم العدوان: ٣٢
(٢) لا يُقتل إلا من يُقاتل: ٣٣
جواز قتل الشيوخ والنساء والرهبان والزَّمنى إذا قاتلوا أو أعانوا برأيهم: ٣٣
(٣) تحريم المثلة: ٣٤
(٤) تحريم الغدر والخيانة: ٣٥
احترام العهود والاتفاقات فى السلم والحرب: ٣٥
جواز نقض العهد فى حالة واحدة: ٣٦
(٥) تحريم قطع الشجر وهدم الأبنية: ٣٦
(٦) النهى عن النُّهبة والغلول: ٣٧
لماذا قاتل رسول الله ﷺ؟! ٣٨
حروبه ﷺ مع المشركين ٤١
حروبه ﷺ مع اليهود ٤٧
حروبه ﷺ مع النصارى ٥٠
۞ **أخلاق النبى ﷺ بعد انتهاء الحرب** ٥٥
۞ **أخلاق النبى ﷺ بعد تحقيق النصر** ٥٧
۞ **أخلاق الرسول ﷺ فى التعامل مع الأسرى** ٦٠
۞ النبى ﷺ والعفو عن الأسرى ٦٢
۞ أسيرا سرية نخلة: ٦٢

۞ أسرى بدر: ٦٣
۞ أسرى الحديبية: ٦٦
۞ حسن معاملة الأسرى ٦٨
۞ راحة الأسير البدنية ٦٩
۞ إطعام الأسرى: ٦٩
۞ كسوة الأسرى: ٧٠
۞ توفير المأوى لهم: ٧١
۞ راحة الأسير النفسية: ٧١
۞ الرفق بالأسرى، واللين معهم: ٧٢
۞ احترام مشاعرهم الإنسانية: ٧٣
۞ **أخلاق النبى ﷺ عند عدم تحقيق النصر** ٧٥
۞ موقفه مع أهل الطائف: ٧٥
۞ أخلاقه بعد غزوة أُحد: ٧٦
۞ **من أهداف الجهاد فى سبيل الله تعالى** ٧٨
(١) حماية حرية العقيدة: ٧٨
(٢) حماية الشعائر والعبادات: ٧٨
(٣) دفع الفساد عن الأرض: ٧٨
(٤) الابتلاء والتربية والإصلاح: ٧٩
(٥) إرهاب الكفار وإخزاؤهم وإذلالهم وتوهين كيدهم: ٧٩
(٦) كشف المنافقين: ٨٠
(٧) إقامة حكم الله ونظام الإسلام فى الأرض: ٨٠
(٨) دفع عدوان الكافرين: ٨١

أ- أن يعتدى الكفار على فئة مؤمنة مستضعفة فى أرض الكفار:......... ٨١
ب- أن يعتدى الكفار على ديار المسلمين:...................... ٨١
جـ- أن ينشر العدو الظلم بين رعاياه - ولو كانوا كفارًا:............... ٨٢
د- الوقوف ضد الدعاة إلى الله ومنعهم من تبليغ دعوة الله: ٨٢
(٩) تأديب الناكثين للعهود:...................................... ٨٣
(١٠) فرض السلام الداخلى بالقوة: ٨٤
۞ **فضل الجهاد فى سبيل الله (جلّ وعلا)** ٨٥
۞ فضل من احتبس فرسًا فى سبيل الله ٩٠
۞ فضل الحراسة فى سبيل الله ٩٢
۞ فضل المرابطة فى سبيل الله ٩٣
۞ **شبهات حول جهاد النبى ﷺ وأصحابه** ٩٦
شبهة: أن الإسلام انتشر بحد السيف ٩٦
شبهة: أن النبى ﷺ يعشق الانتقام ١٠٨
شبهة: أنَّ غزوات الرسول كانت هجومية ١٠٩
شبهة: أنَّ الغزوات كانت من أجل السلب والنهب ١١١
شبهة: أن النبى ﷺ اعتدى على الحريات حينما غزا مكة ١١٤
شبهة: أن النبى ﷺ قام بغزوة حُنين من أجل القتل والغنائم ١١٦
شبهة: أن النبى ﷺ أجبر الروم فى غزوة تبوك على دفع الإتاوة ١١٨
سُنة التدافع.. ومراحل تشريع القتال ١٢١
(١) التوجيه المعنوي: ١٢٤
(٢) الأسلوب العملي: ١٢٤
متى شُرع الجهاد؟ ١٢٦

ما الفرق بين السرية والغزوة ١٢٦
النبى يستعلم عن تعداد سكان المدينة لإعداد السرايا ١٢٧
۞ **ما هى أهداف السرايا؟** ١٢٨
(أ) بسط هيبة الدولة فى الداخل والخارج: ١٢٨
(ب) كسب بعض القبائل وتحجيم دور الأعراب: ١٢٩
(ج) علاقة هذه السرايا بحركة الفتوح الإسلامية: ١٣٠
بداية التآمر والتعاون بين قريش والمُنافقين ١٣٢
بداية استفزاز المشركين للمسلمين ١٣٥
والله يعصمك من الناس ١٣٧
الإذن بالقتال ١٣٨

الغزوات والسرايا التى كانت قبل غزوة بدر

۞ غزوة ودان «الأبواء»: ١٤٣
س وثيقة المعاهدة مع بنى ضمرة والتعليق عليها: ١٤٣
۞ سرية عبيدة بن الحارث: ١٤٦
۞ سرية حمزة إلى سيف البحر: ١٤٦
۞ نص وثيقة الموادعة مع جهينة والتعليق عليها: ١٤٧
۞ غزوة بواط: ١٤٩
۞ غزوة العشيرة: ١٤٩
۞ سرية سعد بن أبى وقاص إلى الخرار: ١٤٩
۞ غزوة بدر الأولى (الصغرى): ١٥٠
۞ سرية عبد الله بن جحش: ١٥٠

۞ سرية عبد الله بن جحش وما فيها من دروس وعبر: ١٥٣
(أ) جاء فى خبر هذه السرية أن النبى ﷺ كتب لأمير السرية كتابًا ١٥٣
(ب) حاولت قريش أن تستغل ما وقع من قتل فى الشهر الحرام من قِبَل أفراد السرية: ١٥٤
(جـ) حرص القائد على سلامة الجنود: ١٥٦
(د) ظهور التربية الأمنية فى الميدان: ١٥٦

غزوة بدر الكبرى

۞ تفاصيل مرحلة ما قبل المعركة ١٦٢
۞ أبو سفيان يعلم بخبر مسير النبى ﷺ وأصحابه ١٦٣
۞ النبى ﷺ يشاور أصحابه بالمدينة ١٦٥
۞ قوة الجيش.. وتوزيع القيادات........................ ١٦٦
۞ النبى ﷺ يرد صغار السن ١٦٨
۞ ارجع فلن أستعين بمشرك ١٦٨
۞ الجيش الإسلامى يتحرك نحو بدر ١٦٩
۞ خوف بعض أئمة الكفر من الخروج ١٦٩
۞ أهل مكة يخرجون للغزو ١٧٠
۞ قوام الجيش المكى........................ ١٧١
۞ الشيطان يخدع قريشًا ١٧١
۞ نفى لهم بعهدهم ونستعين الله عليهم........................ ١٧١
۞ المسير إلى لقاء العدو ١٧٢
۞ مشورة الحُباب بن المنذر........................ ١٧٣

۞ ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد ١٧٥
۞ القرآن يصف خروج المشركين ١٧٧
۞ موقف حرج للجيش الإسلامي ١٧٨
۞ أشيروا عليَّ أيها الناس ١٧٨
۞ النبى ﷺ يبعث استخباراته ليعرف أخبار العدو ١٨٢
۞ موقف المشركين لما قدموا إلى بدر.. والانشقاق بينهم ١٨٣
۞ رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب ١٨٦
۞ الحرب الإعلامية فى بدر ١٨٦
۞ بناء عريش القيادة النبوية يوم بدر ١٨٨
۞ النبى ﷺ يصلى ويدعو حتى أصبح ١٨٩
۞ أهمية التضرع إلى الله وشدة الاستعانة به ١٩١
۞ الله يرسل النُّعاس والمطر ليربط على قلوب الموحدين ١٩٢
۞ أردت أن يكون آخر العهد بك ١٩٥
۞ من روائع الخطط القتالية ١٩٦
۞ النبى يستفيد من الظروف الطبيعية ١٩٧
۞ وما كان الله ليُعذبهم وأنت فيهم ١٩٨
۞ هؤلاء خرجوا كرهًا ١٩٩
۞ النبى ﷺ يحرض أصحابه على الجهاد ٢٠٠
۞ النبى ﷺ يرتقى بأرواحهم إلى جنة الرحمن ٢٠١
۞ قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض ٢٠١
۞ ما الذى يُضحك الرب من عبده؟ ٢٠٢
۞ بداية القتال ٢٠٢

۞ أول وقود المعركة ٢٠٣
۞ هذان خصمان اختصموا فى ربهم ٢٠٣
۞ كسر هجمات المشركين ٢٠٦
۞ منحة عجيبة ٢٠٨
۞ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ٢١٠
۞ الله ﷻ يؤيدهم بالملائكة ٢١١
۞ أسد الله الغالب.. على بن أبى طالب ٢١٥
۞ (سعد) يقاتل قتال الفارس والراجل ٢١٦
۞ صور مشرقة من الولاء والبراء ٢١٦
۞ موقف عظيم فى الولاء والبراء لمصعب بن عمير رضي الله عنه ٢١٧
۞ أبو عبيدة رضي الله عنه ... ودرس فى الولاء والبراء ٢١٨
۞ استشهاد سعد بن خيثمة ٢١٩
۞ استشهاد عوف بن الحارث ٢١٩
۞ استشهاد عُمير بن أبى وقاص ٢٢٠
۞ إنه فى جنة الفردوس ٢٢٠
۞ إنا كفيناك المستهزئين ٢٢١
۞ مصرع أبى جهل ٢٢٣
۞ فرعون هذه الأمة ٢٢٤
۞ مصرع أمية بن خلف ٢٢٧
۞ موقف رائع لأم صفوان بنت أمية ٢٣٠
۞ مصرع (عُبيد بن سعيد بن العاص) على يد الزبير ٢٣٠
۞ أئمة الكفر يُقذَفون فى القليب ٢٣١

۞ النبى ﷺ يدعو لأبى حذيفة عتبة بن أبى ربيعة ٢٣٣
۞ النبى ﷺ يقيم فى بدر ثلاثًا ٢٣٤
۞ القتلى من المشركين... والشهداء من المسلمين ٢٣٦
۞ قتل النضر بن الحارث ٢٣٧
۞ قتل عقبة بن أبى معيط (فى طريق العودة إلى المدينة) ٢٣٨
۞ بشائر النصر تصل إلى المدينة المنورة ٢٤٠
۞ قريش تتلقى نبأ الهزيمة ٢٤٢
۞ تقسيم الغنائم ٢٤٢
۞ لولا كتاب من الله سبق ٢٤٣
۞ فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ٢٤٤
۞ ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يُثخن فى الأرض ٢٥٠
۞ حُكم الأسرى ٢٥١
۞ فداء الأسرى ٢٥٢
۞ رحمة للعالمين ٢٥٢
۞ زينب بنت رسول الله ﷺ تبعث بفداء زوجها (أبى العاص بن الربيع) ٢٥٣
۞ قصة فداء العباس (عم النبى ﷺ) ٢٥٦
۞ سهيل بن عمرو.. ووقوعه فى الأَسر ٢٥٨
۞ أبو عزة (عمرو بن عبد الله الجمحي) بين الرحمة والحزم ٢٥٩
۞ حفظ رسول الله ﷺ لجوار المطعم بن عدي ٢٦٠
۞ عدد من حضر بدرًا ٢٦١
۞ فضل من شهد بدرًا من المسلمين ٢٦٢
۞ يا له من عيد ٢٦٢

۞ النبى ﷺ يُصدق أُسيد بن الحُضير ٢٦٣
۞ نتائج غزوة بدر ٢٦٤
۞ الفوائد والآثار الإيمانية: ٢٦٦

الأحداث التى أعقبت غزوة بدر وسبقت غزوة أُحد

۞ فى أعقاب بدر ٢٧٣
۞ محاولة اغتيال النبى ﷺ.. وإسلام (عُمير بن وهب) ٢٧٤
۞ غزوة بنى سُليم بالكُدْر ٢٧٩
۞ غزوة السويق ٢٧٩
۞ غزوة ذى أَمَر ٢٨٠
۞ غزوة بُحران ٢٨١
۞ سرية زيد بن حارثة إلى (القَرَد) ٢٨٢
۞ هؤلاء هم اليهود ٢٨٣

غزوة بنى قينقاع

سبب الغزوة ٢٨٥
أين الرجال ٢٨٦
النبى ﷺ يضرب عليهم الحصار ٢٨٧
موقف رأس المنافقين ٢٨٨
عبادة بن الصامت يتبرأ منهم ٢٩٠
مقتل كعب بن الأشرف ٢٩٢
النبى ﷺ يودعهم ويدعو لهم ٢٩٣
الفوائد والآثار الإيمانية ٢٩٥

غزوة أُحد

۞ من هنا نبدأ ٣٠٠
۞ أسباب الغزوة ٣٠٢
(١) السبب الديني: ٣٠٢
(٢) السبب الاجتماعي: ٣٠٣
(٣) السبب الاقتصادي: ٣٠٤
(٤) السبب السياسي: ٣٠٥
۞ جحافل الشرك تتحرك ٣٠٥
۞ العباس يخبر النبي ﷺ بتحركات المشركين ٣٠٦
۞ النبي ﷺ يستشير أصحابه.. والرؤيا التي رآها ٣٠٩
۞ وخرج النبي ﷺ لملاقاة قريش ٣١٣
۞ ظاهَر النبي ﷺ بين درعين أخذًا بالأسباب ٣١٦
۞ انخذال المنافقين ورجوعهم ٣١٧
۞ إذ همَّت طائفتان منكم أن تفشلا... والله وليهما ٣١٨
۞ إنَّا لا نستعين بالمشركين على المشركين ٣١٩
۞ النبي ﷺ يستعرض الجيش ٣١٩
۞ الجيش الإسلامي يواصل سيره إلى العدو ٣٢٠
۞ وصية النبي ﷺ للرُماة ٣٢١
۞ حقًا إنها خطة حكيمة ٣٢٢
۞ وهكذا بدأ القتال ٣٢٢
۞ أبو عامر الفاسق يحرض على المسلمين ٣٢٣

۞ بين على بن أبى طالب وطلحة بن عثمان رضي الله عنهما ٣٢٣
۞ من يأخذ هذا السيف بحقه ٣٢٤
۞ جهود نسوة قريش فى التحميس ٣٢٦
۞ هذا هو الزبير بن العوام (رضي الله عنه) ٣٢٦
۞ واندلعت نيران المعركة ٣٢٧
۞ وكانت الدولة أول النهار للمسلمين ٣٢٧
۞ الأسد فى أرض المعركة يُقاتل بسيفين ٣٢٨
۞ النبى ﷺ يُعلم أصحابه فى أرض الجهاد ٣٢٩
۞ ولقد صدقكم الله وعده ٣٢٩
۞ كافرٌ خُسف به ٣٣٠
۞ غلطة الرُماة التى غيَّرت سير المعركة ٣٣٠
۞ خالد بن الوليد يغتنم تلك الفرصة ٣٣١
۞ الذين ثبتوا مع النبى ﷺ ٣٣٥
۞ سبعة من الأنصار يبذلون حياتهم دفاعًا عن النبى ﷺ ٣٣٥
۞ سعد بن أبى وقاص يُدافع عن النبى ﷺ يوم أُحد ٣٣٦
۞ أوجب طلحة رضي الله عنه يوم أُحد ٣٣٦
۞ أبو طلحة (رضي الله عنه) ودفاعه عن النبى ﷺ ٣٣٩
۞ هذا هو على بن أبى طالب (رضي الله عنه) ٣٤٠
۞ وهذا هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه ٣٤٠
۞ فطنة وذكاء... وحُبٌ ووفاء ٣٤١
۞ الملائكة يُدافعون عن النبى ﷺ ٣٤٢
۞ طلحة ينهض بالنبى ﷺ ٣٤٢

۞ **مشاركة نساء المسلمين فى معركة أُحد** ٣٤٣
(أ) سقى العطشى من المجاهدين: ٣٤٣
(ب) مداواة الجرحى ومواساة المصابين: ٣٤٤
(ج) الدفاع عن الإسلام ورسوله ﷺ بالسيف: ٣٤٥
ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنةً نُعاسًا ٣٤٦
۞ **صفحات مشرقة مع شهداء أُحد** ٣٤٨
۞ استشهاد حمزة أسد الله وأسد رسول الله ﷺ ٣٤٨
۞ التمثيل بجسده الطاهر رضي الله عنه ٣٥٠
۞ سؤال النبى ﷺ عن مقتل حمزة رضي الله عنه ٣٥١
۞ رسول الله ﷺ يُسمى غلامًا للأنصار بحمزة ٣٥١
۞ من شعر صفية فى بكاء حمزة ٣٥٢
۞ قصة استشهاد أنس بن النضر رضي الله عنه ٣٥٢
۞ هكذا كان أصحاب النبى ﷺ ٣٥٤
۞ قصة استشهاد عبد الله بن حرام (والد جابر) ـ رضي الله عنهما ٣٥٤
۞ الملائكة تظله بأجنحتها ٣٥٥
۞ الله يُكلمه بغير حجاب ٣٥٦
۞ استُشهد حنظلة رضي الله عنه فغسَّلته الملائكة ٣٥٧
۞ دخل الجنة.. وما صلَّى لله صلاة واحدة ٣٥٩
۞ استشهاد اليمان (والد حذيفة) رضي الله عنهما ٣٥٩
۞ استشهاد عبد الله بن جحش رضي الله عنه ٣٦٠
۞ عمرو بن الجموح يطأ برجله فى الجنة ٣٦٢
۞ سعد بن الربيع... ووصيته الغالية للأنصار ٣٦٢

۞ مصعب بن عمير.. والشهادة فى سبيل الله ٣٦٣
۞ وهب المزنى وابن أخيه رضي الله عنهما ٣٦٤
۞ خيثمة أبو سعد رضي الله عنهما ٣٦٧
۞ **إنما الأعمال بالخواتيم** ٣٦٧
(١) شأن الأصيرم ٣٦٩
(٢) شأن مخيريق: ٣٧٠
۞ **من دلائل النبوة** ٣٧١
(١) عين قتادة بن النعمان ٣٧١
(٢) مقتل أُبى بن خلف: ٣٧١
۞ أبو سفيان يتفاخر على المسلمين بعد المعركة ٣٧٣
۞ النبى ﷺ يتثبت من عودة المشركين إلى مكة ٣٧٤
۞ النبى ﷺ يتفقد الشهداء ٣٧٦
۞ عدد الشهداء من الصحابة رضي الله عنهم ٣٧٧
۞ بل أحياءٌ عند ربهم يُرزقون ٣٧٨
۞ دفن الشهداء وتقديم الأحفظ للقرآن ٣٧٩
۞ النبى ﷺ يُثنى على الله عز وجل ٣٨٠
۞ هذا جبلٌ يحبنا ونحبه ٣٨١
۞ من نوادر الحب والتضحية ٣٨١
۞ النبى ﷺ يشهد لهؤلاء شهادة غالية ٣٨٢
۞ **غزوة حمراء الأسد** ٣٨٣
۞ شُبهة... والرد عليها ٣٨٨
۞ الأحكام الفقهية التى اشتملت عليها الغزوة ٣٨٩

۞ الحِكَم والغايات المحمودة التى كانت فى غزوة أُحد ٣٩١

من آثار غزوة أُحد

۞ (عبد الله بن أُنيس) يقتل عدو الله (خالد بن سفيان الهذلى) ٣٩٩
۞ **يوم الرجيع** ٤٠١
۞ احفظ الله يحفظك.. ٤٠٣
۞ **حادثة بئر معونة** ٤٠٥
۞ هكذا قُتلوا غدرًا ٤٠٦
۞ (عامر بنُ فهيرة) رُفع إلى السماء بعدما قُتل ٤٠٦
۞ كانوا يقولون: إن الملائكة دفنته........................ ٤٠٧
۞ فزت ورب الكعبة ٤٠٧
۞ ما الذى فعله (عمرو بن أمية) فى طريق عودته ٤٠٨
۞ النبى ﷺ يدعو على قتلة القراء........................ ٤٠٩

غزوة بنى النضير

۞ متى كانت تلك الغزوة؟ ٤١٣
۞ أسباب الغزوة ٤١٤
۞ النبى ﷺ ينذر بنى النضير........................ ٤١٥
۞ ضرب الحصار عليهم وإجلاء يهود بنى النضير ٤١٦
۞ ونزلت سورة الحشر فى بنى النضير........................ ٤١٩
۞ الفوائد والآثار الإيمانية........................ ٤٢٠
۞ **غزوة بدر الثانية** ٤٢٣
۞ **غزوة دومة الجندل** ٤٢٥

غزوة بنى المصطلق (المريسيع)

۞ دور المنافقين قبل غزوة بنى المصطلق........ ٤٣٤
۞ متى كانت تلك الغزوة ٤٣٦
۞ أحداث الغزوة........ ٤٣٧
۞ الرحيل إلى المدينة وتقسيم الغنائم ٤٣٨
۞ كانت جويرية رضي الله عنها أعظم الناس بركة على قومها........ ٤٤١
۞ ودخلت بيت النبوة ٤٤١
۞ إسلام أبيها (الحارث بن أبى ضرار) ٤٤٢
۞ راوية الحديث........ ٤٤٥
۞ محاولة المنافقين إثارة الفتنة بين المسلمين فى هذه الغزوة........ ٤٤٥
۞ إن الله قد صدَّقك يا زيد........ ٤٤٦
۞ موقف عظيم فى الولاء والبراء........ ٤٤٩
۞ فوائد جليلة........ ٤٥٠
۞ هبوب ريح شديدة لموت عظيم من المنافقين ٤٥١
۞ **قصة الإفك** ٤٥١
۞ المُبرأة من فوق سبع سماوات ٤٥٣
۞ هموم وأحزان تفتت الجبال........ ٤٥٥
۞ والله ما علمت على أهلى إلا خيرًا........ ٤٥٥
۞ كلمات تجعل القلب يبكى الدماء بدل الدموع ٤٥٦
۞ فصبرٌ جميل ٤٥٦
۞ هكذا نزلت براءتها من فوق سبع سماوات ٤٥٧

۞ ساعات المحنة ٤٥٨
۞ وقفة غالية ٤٦٠
۞ **الفوائد والآثار الإيمانية** ٤٦٢
۞ أهم الآداب والأحكام التى تؤخذ من آيات الإفك: ٤٧٠

غزوة الخندق (الأحزاب)

۞ سبب تسميتها بالخندق أو الأحزاب ٤٨١
۞ متى كانت ٤٨٢
۞ بين يدى الغزوة ٤٨٣
۞ سبب الغزوة ٤٨٤
۞ النبى ﷺ يتتبع أخبار اليهود والمشركين ٤٨٦
۞ حفر الخندق ٤٨٧
۞ موقف مُخزٍ للمنافقين ٤٩٠
۞ اختيار النبى ﷺ للمكان المناسب ٤٩٠
۞ معجزات الرسول ﷺ فى غزوة الخندق ٤٩٢
۞ سلمان منا آل البيت ٤٩٧
۞ اهتمام النبى ﷺ بالجبهة الداخلية ٤٩٧
۞ موقف المؤمنين والمنافقين عند رؤية الأحزاب ٥٠٢
۞ تشديد الحصار على المسلمين وانسحاب المنافقين ونشرهم الأراجيف: ٥٠٣
۞ والله لا نعطيهم إلا السيف ٥٠٥
۞ شَغلهم المشركون عن الصلاة ٥٠٩

۞ هكذا تكون البطولة ٥١٠
۞ سعد بن أبى وقاص يرمى رجلاً فيضحك النبى ﷺ ٥١١
۞ خيانة اليهود ٥١٢
۞ إصابة سعد بن معاذ رضي الله عنه ٥١٣
۞ أول مستشفى إسلامى حربى: ٥١٥
۞ محاولة فاشلة عند حصون النساء ٥١٦
۞ عدم صحة ما يُروى عن جُبن حسان رضي الله عنه ٥١٧
۞ إنها لم تكن معركة خسائر بل معركة أعصاب....................... ٥١٨
۞ رجل المهمات الصعبة ٥١٩
۞ نعيم بن مسعود ... ودوره الخالد ٥٢٠
۞ ماذا قدَّمت لدين الله؟ ٥٢٠
۞ حذيفة يأتيهم بخبر القوم.. ٥٢٥
۞ الدعاء .. ومفاتيح النصر... ٥٢٩
۞ العناية الإلهية تتدخل لتحسم الأمر.................................. ٥٣٢
۞ نصر الله رسوله ﷺ بريح الصبا....................................... ٥٣٣
۞ الآن نغزوهم ولا يغزوننا.. ٥٣٤
۞ الإعلام الإسلامى فى غزوة الأحزاب.................................. ٥٣٥
۞ الفوائد والآثار الإيمانية.. ٥٣٦
فهرس الموضوعات ٥٤١

انتهى الجزء الأول من الغزوات (بفضل الله)

ويليه الجزء الثانى (إن شاء الله)

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

موسوعة غزوات الرسول

صلى الله عليه وسلم

الجزء الثاني

فضيلة الشيخ الدكتور
محمود المصري أبو عمار

مكتبة الصفا
للنشر والتوزيع

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

موسوعة

غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم

فضيلة الشيخ الدكتور
محمود المصري أبو عمار

الجزء الثاني

مكتبة الصفا للنشر والتوزيع
تليفون ٢٥١٤٧٣٢٠ - تليفاكس ٢٥١٤٧٩٧٤

بسم الله الرحمن الرحيم

ربنا تقبل منا
إنك أنت
السميع العليم

حقوق الطبع محفوظة

١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م

رقم الإيداع: ٢٠١٣/٤٩٧٦

الترقيم الدولي: 978-977-6430-48-08

مكتبة الصفا
للنشر والتوزيع

أولاد الحاج عويس أمين صالح

١٢٧ ميدان الأزهر، أمام الجامع الأزهر، القاهرة ت ٢٥١٤٧٣٢٠
١ درب الأتراك، خلف الجامع الأزهر ت ٠١٠١٤٣١١١٤ تليفاكس ٢٥١٤٧٩٧٤

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

غزوة بنى قريظة

غزوة بنى لحيان

غزوة بنى قريظة

۞ بنو قريظة إحدى طوائف اليهود الثلاث الذين كانوا يسكنون حول المدينة النبويّة ووادعهم رسول الله ﷺ ونقضوا عهدهم واحدة بعد واحدة، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(١) فاليهود إلى اليوم لا يفون بعهد، ولا يلتزمون بميثاق، فكان النكث والغدر وصفًا لازمًا لهم إلا من شاء الله منهم.

فبنو قريظة نقضوا عهدهم وانضموا إلى مُعسكر المشركين المحاصرين للمدينة الذين جاءوا لاستئصال الرسول والمؤمنين ـ خيَّب الله مسعَاهم ـ فبهذا وجب قتالهم وتعيَّن قتلهم أو إجلاؤهم عن البلاد وإخراجهم منها.

كان هذا سبب غزوة بنى قريظة وهو نقضهم للمعاهدة وانضمامهم إلى المشركين الغُزاة الظالمين المعتدين(٢).

۞ وكانت مشاعر التغيظ فى أفئدة المسلمين نحو أُولئك اليهود قد بلغت ذروتها، إنهم هم الذين استخرجوا العرب استخراجًا، واستقدموهم إلى دار الهجرة ليجتاحوها من أقطارها، ويستأصلوا المسلمين فيها، إن جراحات المسلمين لطردهم من ديارهم ومطاردتهم فى عقيدتهم، واستباحة أموالهم ودمائهم لكل ناهب ومغتال لم تندمل بعد، بل لن تندمل أبدًا، فكيف ساغ لأولئك الخونة من بنى إسرائيل أن يرسموا بأنفسهم الخطة لإهلاك الإسلام وأبنائه على هذا النحو الذليل؟.

ثم ما الذى يجعل بنى قريظة خاصة ـ وهم لم يروا فى جوار محمد إلا

---

(١) سورة البقرة: الآية: (١٠٠).

(٢) هذا الحبيب يا محب/ الجزائرى (ص: ٣١٢: ٣١٣).

البر والوفاء - يستديرون بأسلحتهم منضمين إلى أعداء الإسلام كي يشركوهم في قتل المسلمين وسلبهم؟[١].

مشاركة جبريل عليه السلام في محاربتهم

عن أنس رضي الله عنه قال: «كأني أنظر إلى الغبار ساطعًا في زقاق بني غنم موكب جبريل حين سار رسول الله ﷺ إلى بني قريظة»[٢].

۞ وفي رواية ابن سعد أنه قال: «فجاء جبريل ومَن معه من الملائكة فقال: يا رسول الله انهض إلى بني قريظة، فقال: إن في أصحابي جهدًا قال: انهض إليهم فلأضعضعنهم... قال فأدبر جبريل ومَن معه من الملائكة حتى سطع الغبار في زقاق بني غنم من الأنصار»[٣].

لا يُصلين أحدٌ العصر إلا في بني قريظة

والأذان للقتال في هذه الصحوة المشرقة بالظفر والنجاة قرع مسامع المسلمين نديًّا جليًّا، فهم في غمرة من الشعور بتأييد الله وملائكته لهم، أين هم اليوم مما كانوا عليه بالأمس القريب؟ إنهم مَدينون بحياتهم وكرامتهم للعناية العُليا وحدها.

وقد صدع الرسول بالأمر وشدَّد على المسلمين أن يسارعوا في إنفاذه.

۞ روى البيهقي أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «**عزمت عليكم أن لا تصلوا صلاة العصر حتى تأتوا بني قريظة**»، فغربت الشمس قبل أن يأتوهم،

---

(١) فقه السيرة للغزالي (ص ٣٥١).

(٢) أخرجه البخاري (٧/ ٤٧٠) المغازي.

(٣) فتح الباري (٧/ ٤٧١).

فقالت طائفة من المسلمين: إن رسول الله لم يُرد أن تَدَعوا الصلاة فصلُّوا. وقالت طائفة: والله إنَّا لفى عزيمة رسول الله، وما علينا من إثم، فصلَّت طائفة إيمانًا واحتسابًا، وتركت طائفة إيمانًا واحتسابًا، ولم يُعنف رسول الله واحدًا من الفريقين(١).

وذلك يمثل احترام الإسلام لاختلاف وجهات النظر ما دامت عن اجتهاد برىء سليم، والناس غالبًا أحد رجلين، رجل يقف عند حدود النصوص الظاهرة لا يعدوها، ورجل يتبين حكمتها ويستكشف غايتها، ثم ينصرف فى نطاق ما وعى من حكمتها وغايتها، ولو خالف الظاهر القريب. وكلًّا من الفريقين يشفع له إيمانه، واحتسابه، سواء أصاب الحق أو ندَّ عنه(٢)!

إن السعى فى محاولة القضاء على الخلاف فى مسائل الفروع، معاندة للحكمة الربانية والتدبير الإلهى فى تشريعه، عدا أنه ضَرْبٌ من العبث الباطل، إذ كيف تضمن انتزاع الخلاف فى مسألة ما دام دليلها ظنيًّا محتملاً؟... ولو أمكن ذلك أن يتم فى عصرنا لكان أولى العصور به عصر رسول الله ﷺ، ولكان أولى الناس بألا يختلفوا هم أصحابه، فما بالهم اختلفوا مع ذلك كما رأيت؟(٣) وفى الحديث السابق من الفقه أنه لا يُعاب على من أخذ بظاهر حديث نبوى أو آية من كتاب الله، كما لا يُعاب مَن استنبط من النص معنى يخصه، وفيه أيضًا أن المختلفين فى الفروع من

(١) حديث صحيح رواه البيهقى فى «دلائل النبوة» من حديث عبيد الله بن كعب، وحديث عائشة، وأخرجه عنها الحاكم (٣/ ٣٤ ـ ٣٥) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبى.

(٢) فقه السيرة للغزالى (ص ٣٥٢).

(٣) انظر: فقه السيرة النبوية، (ص٢٢٦).

المجتهدين لا إثم على المخطئ، فقد قال ﷺ: «**إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجرٌ واحد**»(١).

وحاصل ما وقع أن بعض الصحابة حملوا النهى على حقيقته، ولم يبالوا بخروج الوقت وقت الصلاة توجيهًا لهذا النهى الخاص على النهى العام عن تأخير الصلاة عن وقتها(٢).

وقد علق الحافظ ابن حجر على هذه القصة فقال: ثم الاستدلال بهذه القصة على أن كل مجتهد مصيب على الإطلاق ليس بواضح، وإنما فيه ترك تعنيف مَن بذل وسعه واجتهد، فيُستفاد منه عدم تأثيمه، وحاصل ما وقع فى القصة أن بعض الصحابة حملوا النَّص على حقيقته، ولم يبالوا بخروج الوقت ترجيحًا للنهى الثانى على النهى الأول، وهو ترك تأخير الصلاة عن وقتها، واستدلوا بجواز التأخير لمن اشتغل بأمر الحرب بنظير ما وقع فى تلك الأيام بالخندق، والبعض الآخر حملوا النهى على غير الحقيقة، وأنه كناية على الحث والاستعجال والإسراع إلى بنى قريظة، وقد استدل به الجمهور على عدم تأثيم من اجتهد؛ لأنه ﷺ لم يعنف أحدًا من الطائفتين، فلو كان هناك إثم لعنَّف مَن أَثِم(٣).

يا إخوان القردة.. هل أخزاكم الله؟

واستعمل النبى ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم، وأعطى الراية علىّ بن أبى طالب، وقدَّمه إلى بنى قريظة فسار (علىّ) حتى إذا دنا من حصونهم سمع منها مقالة قبيحة فى حق رسول الله ﷺ.

(١) رواه البخارى (٧٣٥٢) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة.

(٢) المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٢٨٦).

(٣) اختصار من فتح البارى (٧/ ٤٧٣).

۞ وخرج الحبيب ﷺ مع بعض أصحابه فإذا (بعلىّ) رضي الله عنه عائد من بنى قريظة وقال للرسول ﷺ لا عليك أن لا تدنو من هؤلاء الأخباث فقال الرسول ﷺ: «**لِمَ؟ أظنك سمعت منهم لى أذىً**» قال: نعم. قال: «**لو رأونى لم يقولوا من ذلك شيئًا**»، وكانوا قد نالوا من الرسول شيئًا لما دنا منهم (علىّ) وخاطبهم ... وسار الحبيب ﷺ حتى وصل إلى ديارهم ودنا من حصونهم وناداهم قائلاً: «**يا إخوان القردة هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمه!**» قالوا يا أبا القاسم ما كنت فاحشًا[١].

فى الطريق إليهم

وأثناء مسيره ﷺ إلى بنى قريظة مرَّ على بنى غنم، وهم جيران المسجد، فقال: «مَن مر بكم؟» فقالوا: مَرَّ بنا دحية الكلبى،... وكان دحية تشبه لحيته ووجهه جبريل عليه السلام.

۞ ونزل الحبيب ﷺ وأصحابه على بئر من آبار بنى قريظة يقال لها: أنا أوْ أنَّى، ولما تلاحق المسلمون حاصرهم ﷺ، وطلب منهم النزول فأبوا أن ينزلوا وفى هذه الأثناء، وعندما جهدهم الحصار وأيقنوا أنّ النبىّ ﷺ لا يفلتهم قام فيهم كعب بن أسد (أحد أشرافهم)، وهو صاحب الحل والعقد بينهم ليشاورهم فى الأمر ـ كما سيأتى ـ.

النبى ﷺ يُحاصرهم... وكعب بن أسد يُشاورهم

وحاصرهم رسول الله ﷺ خمسًا وعشرين ليلة، حتى جَهَدَهم الحصار،

(١) أخرجه البيهقى فى الدلائل (٤/ ١٠٨)، والحاكم فى المستدرك (٣/ ٣٤: ٣٥) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يُخرجاه وأقره الذهبى ـ وقال ابن كثير فى البداية (٤/ ٨: ١٠): ولهذا الحديث طرق جيدة عن عائشة وغيرها وبهذا يكون الحديث حسنًا.

وقذفَ اللهُ فى قُلوبهم الرعبَ.

وقد كان حُيَىٌّ بن أخطب دخل مع بنى قريظة فى حصنهم، حين رجعت عنهم قريش وغَطفان، وفاءً لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه. فلما أيقنوا بأن رسول الله ﷺ غير مُنْصرف عنهم حتى يُناجزهم، قال كعب بن أسد لهم: يا معشر يهود، قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإنى عارضٌ عليكم خلالاً ثلاثًا، فخُذوا أيها شئتم، قالوا: وما هى؟ قال: نُتابع هذا الرجل ونصدّقه فوالله لقد تَبَيَّنَ لكم أنه لنبىٌّ مُرْسَل، وأنه للذى تَجدونه فى كتابكم، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم؛ قالوا: لا نُفارقُ حكمَ التَّوراة أبدًا، ولا نستبدل به غيره، قال: فإذا أبيتم علىَّ هذه، فَهَلُمَّ فلنقتل أبناءنا ونساءنا، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مُصْلتين السيوفَ لم نترك وراءنا ثِقَلًا حتى يَحْكُم الله بيننا وبين محمد، فإن نَهْلك نهلك ولم نترك وراءنا نَسلًا نخشى عليه، وإن نَظهر فلعَمرى لنجدنَّ النساء والأبناء، قالوا: نقتُل هؤلاء المساكين! فما خير العيش بعدهم؟ قال: فإن أبيتم عَلَىَّ هذه فإن الليلة ليلة السبت، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها، فانزلوا لعلَّنا نُصِيب من محمد وأصحابه غِرَّة، قالوا: نُفْسد سَبْتنا علينا، ونُحدث فيه ما لم يُحْدِث من كان قبلنا إلا من قد علمت، فأصابه ما لم يَخْفَ عليك من المَسخ! قال: ما باتَ رجل منكم منذ ولَدتَه أمه ليلة واحدة من الدهر حازمًا[1].

دعوه حتى يتوب الله عليه

وأرسل اليهود إلى النبى ﷺ ليبعث إليهم أبا لُبابة بن عبد المنذر ليستشيروه فى أمرهم.. فأرسله النبى ﷺ إليهم فلما رأوه قاموا فى وجهه يبكون، وقالوا: يا أبا

(١) السيرة النبوية/ لابن هشام (٣/ ٢٠٥).

لُبابة! كيف ترى لنا أن ننزِل على حكم محمد؟ فقال: نعم، وأشارَ بيده إلى حلقه يقول: إنه الذَّبح، ثم عَلِمَ مِن فوره أنه قد خان اللهَ ورسولَه، فمضى على وجهه، ولم يرجع إلى رسول الله ﷺ حتى أتى المسجد مسجد المدينة، فربط نفسه بساريَة المسجد، وحلف ألا يحلَّه إلا رسولُ الله ﷺ بيده، وأنه لا يدخلُ أرضَ بنى قريظة أبدًا، فلما بلغ رسول الله ﷺ ذلك، قال: «**دَعُوهُ حَتَّى يَتُوبَ اللهُ عَلَيْهِ**» ثم تاب الله عليه، وحلَّه رسولُ اللهِ ﷺ بيده[١].

قالت أم سلمة: فسمعت رسول الله ﷺ من السَّحَر وهو يضحك فقلت: مم تضحك يا رسول الله؟ أضحك الله سِنَّك. قال: تِيب على أبى لبابة، قالت: قلت: أفلا أبشره يا رسول الله؟ قال: بلى إن شئتِ، فقامت على باب حجرتها، وذلك قبل أن يُضرَب عليهن الحجاب، فقالت: يا أبا لبابة، أبشر فقد تاب الله عليك... قالت: فثار الناس ليُطلقوه فقال: لا والله حتى يكون رسول الله هو الذى يُطلقنى بيده. فلما مر عليه رسول الله ﷺ خارجًا إلى صلاة الصبح أطلقه[٢]. وذلك فى الاعتراف بالذنب والتوبة النصوح، وإن موطن العبرة فى هذا الموقف يكمن فى تصرف أبى لبابة بعدما وقعت منه هذه الزلة التى أفشى بها سرًّا حربيًّا خطيرًا، فأبو لبابة لم يحاول التكتُّم على ما بدر منه والظهور أمام رسول الله ﷺ والمسلمين بمظهر الرجل الذى أدى مهمته بنجاح، وأنه لم يحصل منه شيء من المخالفات، وكان بإمكانه أن يخفى هذا الأمر حيث لم يطَّلع عليه أحد من المسلمين، وأن يستكتم اليهود أمره، ولكنه تذكر رقابة الله عليه وعلمه بما يسر ويعلن،

(١) أخرجه ابن جرير الطبرى فى «تفسيره» (٢١/ ٩٧) من طريق محمد بن إسحاق عن ابن شهاب الزهرى به. وذكره الواحدى فى «أسباب النزول» (١٩٣).

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٦٢).

وتذكَّر حق رسول الله ﷺ العظيم عليه وهو الذى ائتمنه على ذلك السر، ففزع لهذه الزلة فزعًا عظيمًا[١]، وأقر بذنبه واعترف به وبادر إلى العقوبة الذاتية التلقائية، دون انتظار التحقيق وتوقيع العقوبة الواجبة،... إنها صورة تطبيقية لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[٢].

إنها صورة فريدة لتوقيع العقوبة من الإنسان نفسه على نفسه... ولا يفعل ذلك إلا أهل الإيمان، وما ذلك إلا من آثار الإيمان العميق الراسخ، الذى لا يرضى لصاحبه أن يخالطه إثم أو فسوق. وقد فرح الصحابة وفرح النبى ﷺ نفسه، بتوبة الله على أبى لبابة، وتسابقوا إلى تهنئته حتى كانت أم سلمة زوجة النبى ﷺ هى التى بادرت بالتهنئة بعد الإذن فبشرته بقبول الله توبته[٣]. وقد أنزل الله تعالى فى أبى لبابة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٤]. ونزل فى توبته قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٥][٦].

لقد حكمت فيهم بحكم الله

ولما سمع اليهود مقالة أبى لُبابة اختاروا أن ينزلوا على حكم سعد بن

(١) انظر: التاريخ الإسلامى للحميدى (٦/ ١٦٥).

(٢) سورة النساء: الآية: (١٧).

(٣) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوى فى المدينة، (ص٢٦١).

(٤) سورة الأنفال: الآية: (٢٧).

(٥) سورة التوبة: الآية: (١٠٢).

(٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام، (٣/ ٢٦٢).

معاذ لأنه كان صديقًا لهم فى الجاهلية ـ قبل أن يُسلم ـ ظنًّا منهم أنه سيخفف عليهم الحكم ويرحمهم. فقالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ، وبعث رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ فأُتى به على حمار عليه إكاف من ليف قد حُمل عليه وحَفَّ به قومه، وقالوا له (يعنى اليهود): يا أبا عمرو حلفاؤك ومواليك وأهل النكاية ومَن قد علمت، فلم يرجع إليهم شيئًا ولا يلتفت إليهم، حتى إذا دنا من دورهم التفت إلى قومه فقال: قد أتى لى أن لا يأخذنى فى الله لومةُ لائم. قال أبو سعيد: فلما طلع قال رسول الله ﷺ: «**قوموا إلى سيدكم**[1] **فأنزِلوه**». قال عمر: سيدنا الله. قال: أنزِلوه فأنزَلوه. قال رسول الله

---

(١) (حكم القيام إكرامًا للقادم)، أمر النبى ﷺ الأنصار حينما أقبل نحوهم سعد بن معاذ راكبًا دابته أن يقوموا إليه تكريمًا له، ودلّ على هذا التعليل قوله: لسيدكم أو خيركم، وقد استدل عامة العلماء بهذا وغيره على مشروعية إكرام الصالحين والعلماء بالقيام إليهم فى المناسبات الداعية إلى ذلك عرفًا. يقول الإمام النووى فى تعليق على هذا الحديث: «فيه إكرام أهل الفضل وتلقيهم بالقيام لهم إذا أقبلوا. هكذا احتج به جماهير العلماء لاستحباب القيام. قال القاضى: وليس هذا من القيام المنهى عنه، وإنما ذلك فيمن يقومون عليه وهو جالس ويمثلون قيامًا طول جلوسه. قلت: القيام للقادم من أهل الفضل مستحب، وقد جاء فيه أحاديث، ولم يصح فى النهى عنه شىء صريح». [مسلم بشرح النووى (١٢/ ٩٣)]. ومن الأحاديث الثابتة الدالة أيضًا على ذلك، ما جاء فى حديث كعب بن مالك المتفق عليه، وهو يقص خبر تخلفه عن غزوة تبوك، قال: «فانطلقت أتأمم رسول الله ﷺ. فتلقانى الناس فوجًا فوجًا يهنئونى بالتوبة، ويقولون لى: لتهنكَ توبة الله عليك، حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله جالس حوله الناس، فقام إلىّ طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه يهرول حتى صافحنى وهنأنى، والله ما قام رجل من المهاجرين غيره ـ فكان كعب لا ينساها لطلحة. ومن ذلك أيضًا ما رواه الترمذى وأبو داود والبخارى فى الأدب المفرد عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما رأيت أحدًا من الناس كان أشبه بالنبى ﷺ كلامًا ولا حديثًا ولا جلسة من فاطمة، قالت: وكان النبى ﷺ إذا رآها أقبلت رحب بها ثم قام إليها فقبلها، ثم أخذ بيدها فجاء بها حتى يجلسها فى مكانه، وكانت إذا أتاها النبى ﷺ رحبت به ثم قامت إليه فقبلته» (أخرجه البخارى). واعلم أن هذا كله لا يتنافى مع ما صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من أحبّ أن يتمثل له الناس قيامًا فليتبوأ مقعده من النار**»؛ لأن مشروعية إكرام الفضلاء وتوقيرهم لا تستدعى السعى منهم إلى ذلك أو تعلق قلوبهم بمحبته، =

ﷺ: «**احكم فيهم**». قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تُقتل مقاتلتهم وتُسبى ذراريهم وتُقسَّم أموالهم، فقال رسول الله ﷺ: «**لقد حكمت فيهم بحكم الله** ﷻ **وحكم رسوله**». قال: ثم دعا سعد فقال: اللهم إن كنت أبقيت على نبيك من حرب قريش شيئًا فأبقني لها، وإن كنت قطعت الحرب بينه وبينهم فاقبضني إليك. قالت: فانفجر كَلمه - جُرحه - وكان قد برأ إلا مثل الخرص[1].

قالت عائشة: ورجع إلى قُبته التي ضرب عليه رسول الله ﷺ قالت عائشة: فحضره رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر. قالت: فوالذي نفس محمد بيده إني لأعرف بكاء عمر من بكاء أبي بكر وأنا في حجرتي، وكانوا كما قال الله ﷻ: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[2]. قال علقمة: فقلت: أي أُمه فكيف كان رسول الله ﷺ يصنع؟ قالت: كانت عينه لا تدمع على أحد، ولكنه كان إذا وجد فإنما هو آخذٌ بلحيته[3].

وفي بني قريظة نزل قول الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾[4].

= بل إن من أبرز صفات الصالحين والفضلاء أن يكونوا متواضعين لإخوانهم زهّادًا في طلب هذا الشيء. [فقه السيرة للبوطي (ص: ٢٢٧: ٢٢٨)].

(١) الحلقة الصغيرة من الحلمة.

(٢) سورة الفتح: الآية: (٢٩).

(٣) قال الهيثمي: في الصحيح بعضه.. رواه أحمد وفيه محمد بن عمرو بن علقمة وهو حسن الحديث وبقية رجاله ثقات. مجمع الزوائد (٦/ ١٣٧، ١٣٨). وقال الحافظ في الفتح (١١/ ٥٣): وإسناده حسن.

(٤) سورة الأحزاب: الآيتان: (٢٦-٢٧).

أدب صدّيق الأنصار (سعد بن معاذ) مع النبى ﷺ

وفى رواية: أنه لما وصل سيد الأوس سعد بن معاذ إلى مقرِّ قيادة النبى ﷺ فى بنى قريظة؛ قال له النبى ﷺ: «**احكم فيهم يا سعد**». فقال: إن رسول الله ﷺ أحقُّ بالحكم. فقال النبى ﷺ: «**قد أمَرَكَ الله أن تحكم فيهم**». غير أن سعدًا ـ وقد علم حرص قومه الأوس على التساهل فى الحكم على حلفائهم اليهود ـ أحبَّ أن يستوثق من الجميع، ويأخذ عليهم العهد ـ الأوس وبنى قريظة ـ بأنَّ حكمه إذا صدر يكون غير قابل للنقض أو النقاش.

ووقف سعد ابن معاذ فى المعسكر النبوى، ووجّه حديثه إلى قومه الأوس خاصَّة، وإلى مَنْ فى المعسكر عامَّة قائلاً: عليكم بذلك ـ عهد الله وميثاقه ـ أن الحكم كما حكمتُ؟ قالوا: نعم. ثم اتجه إلى النبى ﷺ وأشار إلى الناحية التى هو فيها، ثم قال وهو مُعرض عن رسول الله ﷺ إجلالاً وإكبارًا: وعلى مَنْ هاهنا؟ وأشار إلى الخيمة التى فيها رسول الله ﷺ فقال عليه الصلاة والسلام: «**نعم**»(١). ثم أشار إلى بنى قريظة المحجوزين جانبًا فى المعسكر؛ ليستوثق منهم قائلاً: أترضون بحكمى؟ قالوا: نعم. فحكم أن تُقتل المقاتلة، وأن تُسبى النساء والذُّرِّيَّة، وأن تقسَّم أموالهم. ولمَّا نطق سعد بن معاذ بالحكم، قال له النبى ﷺ: «**حكمتَ فيهم بحكم الله**».

فانظر إلى أدب سعد أثناء الحكم، وإشارته إلى خيمة رسول الله ﷺ وهو مُعرض عنها إجلالاً لرسول الله ﷺ(٢).

۞ ونرى من سيرته أنه لو أقسم على الله لأبرَّه، فهو وجيه فى السماوات

(١) السيرة النبوية/ لابن هشام (٢/ ٢٤٠).

(٢) أصحاب الرسول ﷺ/ للمصنف (١/ ٤١٠).

والأرض، فقد شاءت إرادة المولى تعالى أن يعيد الأمر فى بنى قريظة كله إليه، وأن يطلب بنو قريظة أن يكون الحكم فيهم لسعد بن معاذ.

۞ إنه لم يحرص كثيرًا على الحياة، بعد انتهاء الجهاد، وانتهاء المسئولية وتأدية الأمانة المُناطة به فى قيادة قومه لحرب الأحمر والأسود من الناس، فإذا انتهت الحروب ووضعت بين المسلمين وقريش، وشفى غيظ قلبه فى الحكم فى بنى قريظة، وبدا قطف الثمار للإسلام فلا ثمرة أشهى من الشهادة (فافجُر جرحى واجعل موتى فيه)[1]. وقد تحققت آماله، فقد أصدر حكمه فى بنى قريظة وشهد مصرع حلفاء الأمس أعداء اليوم.

عرش الرحمن يهتز لموت سعد بن معاذ

فها هو الحبيب ﷺ يدخل على سعد وهو يكيد نفسه فقال: «**جزاك الله خيرًا من سيد قومٍ، فقد أنجزت ما وعدته. وليُنجزنَّك الله ما وعدك**»[2].

فها هو سعد بن معاذ يهتز لموته عرش الرحمن (جل جلاله).

قال ﷺ: «**اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ**»[3].

وعن أسماء بنت يزيد بن سكن قالت: لما توفى سعد بن معاذ صاحت أمه فقال النبى ﷺ: «**ألا يرقا دمعُك ويذهب حُزنك بأن ابنك أول من ضحك الله له واهتز له العرش؟**»[4].

---

(١) انظر: التربية القيادية (٤/ ٧١).

(٢) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات ـ أخرجه ابن سعد فى الطبقات (٣/ ٢/ ٩).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٣٨٠٣) المناقب، ومسلم (٢٤٦٦) فضائل الصحابة.

(٤) قال الهيثمى فى المجمع (٩/ ٣٠٩) رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبى فى تلخيصه.

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ: قوله ﷺ: **«اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ»** اختلف العلماء فى تأويله. فقالت طائفة هو على ظاهره واهتزاز العرش: تَحرُّكه فرحًا بقدوم روح سعد وجعل الله تعالى فى العرش تمييزًا، حصل به هذا ولا مانع منه كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾[١] وهذا القول هو ظاهر الحديث وهو المختار[٢].

الملائكة تحمل جنازة سعد

عن محمود بن لبيد قال: لما أُصيب أكحلُ سعد، فثقل، حوَّلُوه عند امرأة يقال لها رُفيدة تُداوى الجرحى. فكان النبى ﷺ إذا مَرَّ به يقول: **«كيف أمسيت، وكيف أصبحت؟»** فيخبره حتى كانت الليلة التى نقله قومه فيها وثقل، فاحتملوه إلى بنى عبد الأشهل إلى منازلهم، وجاء رسول الله، فقيل: انطلقوا به. فخرج وخرجنا معه، وأسرع حتى تقطعت شسوع نعالنا، وسقطت أرديتنا، فشكا ذلك إليه أصحابه، فقال: **«إنى أخاف أن تسبقنا إليه الملائكة فتغسله كما غسلت حنظلة»** فانتهى إلى البيت، وهو يُغسَّل، وأمه تبكيه وتقول:

ويـــل أم ســـعدٍ ســـعدًا حزامـــــةً وجِـــــدّا

فقال: **«كُلُّ باكيةٍ تكذبُ إلا أم سعد»** ثم خرج به. قال: يقول له القوم: ما حملنا يا رسول الله ميتًا أخفَّ علينا منه. قال: **«ما يمنعه أن يخفَّ وقد هبط من الملائكة كذا وكذا لم يهبطوا قطُّ قبل يومهم، قد حملوه معكم»**[٣].

(١) سورة البقرة: الآية: (٧٤).

(٢) مسلم بشرح النووى (١٦/ ٣٢).

(٣) أخرجه ابن سعد (٣/ ٢/ ٧، ٨) وحسنه الأرنؤوط فى السير (١/ ٢٨٧).

سعد بن معاذ وضمة القبر

عن جابر رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ يومًا إلى سعد بن معاذ حين تُوفى. قال: فلما صلى عليه رسول الله، ووُضع فى قبره، وسُوى عليه سبّح رسول الله ﷺ تسبيحًا طويلاً. ثم كبَّر فكبرنا. فقيل: يا رسول الله، لِمَ سبَّحت ثم كبَّرت؟ قال: لقد تضايق على هذا العبد الصالح قبره حتى فرَّجه الله عز وجل عنه(١).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**هذا العبد الصالح الذى تحرك له العرش، وفُتحت أبواب السماء، وشهده سبعون ألفًا من الملائكة لم ينزلوا إلى الأرض قبل ذلك، لقد ضُمَّ ضمَّة ثم أُفرج عنه**» يعنى سعدًا(٢).

قال الإمام الذهبى رحمه الله: قلت: هذه الضمة ليست من عذاب القبر فى شىء، بل هو أمر يجده المؤمن كما يجد ألم فَقْد ولده وحميمه فى الدنيا، وكما يجد من ألم مرضه، وألم خروج نفسه، وألم سؤاله فى قبره وامتحانه، وألم تأثره ببكاء أهله عليه، وألم قيامه من قبره، وألم الموقف وهوله، وألم الورود على النار، ونحو ذلك. فهذه الأراجيفُ كُلها قد تنالُ العبد وما هى من عذاب القبر، ولا من عذاب جهنم قط، ولكن العبد التقى يرفُقُ الله به فى بعض ذلك أو كله، ولا راحة للمؤمن دون لقاء ربه ... قال الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾(٣) وقال: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾(٤) فنسأل الله تعالى العفو واللطف الخفى.

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٣٦٠، ٣٧٧) وصححه الحاكم (٣/ ٣٠٦) مختصرًا ووافقه الذهبى.

(٢) أخرجه النسائى (٤/ ١٠٠) فى الجنائز: باب ضمة القبر وضغطه، وابن سعد (٣/ ٢/ ٩) ـ وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٩٨٧).

(٣) سورة مريم: الآية: (٣٩).

(٤) سورة غافر: الآية: (١٨).

ومع هذه الهزات، فسعدٌ ممن نعلم أنه من أهل الجنة، وأنه من أرفع الشهداء رضي الله عنه...كأنك يا هذا تظن أن الفائز لا ينالُه هولٌ فى الدارين، ولا روع ولا ألم، ولا خوف. سَلْ ربك العافية، وأن يحشرنا فى زمرة سعد[١].

مناديل سعد بن معاذ فى الجنة

عن أبى إسحاق قال: سمعتُ البراء يقول: أُهديت لرسول الله ﷺ حُلةُ حريرٍ، فجعل أصحابه يلمسونها، ويعجبون من لينها، فقال: «**أتعجبون من لين هذه؟ لمناديل سعد بن معاذٍ فى الجنة، خيرٌ منها وألين**»[٢].

وعن أنس رضي الله عنه أنه أُهدى لرسول الله ﷺ جُبةٌ من سندسٍ، وكان ينهى عن الحرير، فعجب الناس منها، فقال: «**والذى نفسُ محمدٍ بيده! إن مناديل سعد بن معاذٍ فى الجنة، أحسنُ من هذا**»[٣].

قال الإمام النووى رحمه الله: قال العلماء هذه إشارة إلى عظيم منزلة سعد فى الجنة، وأن أدنى ثيابه فيها خير من هذه؛ لأن المنديل أدنى الثياب؛ لأنه مُعَدٌّ للوسخ والامتهان فغيره أفضل، وفيه إثبات الجنة لسعد[٤].

إن هذا الصحابى الجليل قد استُشهد وهو فى ريعان شبابه، فقد كان فى السابعة والثلاثين من عمره، يوم وافته منيته، وهذا يعنى أنه قاد قومه إلى الإسلام وهو فى الثلاثين من عمره، فقد كانت هذه السيادة فى العشرينيات من عمره، وقبل أن يكون على مشارف الثلاثين، وإنما تنفجر الطاقات

---

(١) السير للإمام الذهبى (١/ ٢٩٠: ٢٩١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٦٨) عن البراء رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم (٢٤٦٩) عن البراء رضي الله عنه.

(٤) مسلم بشرح النووى (١٦/ ٣٤).

الكامنة والمواهب بعد سن الأربعين التى هى غاية الرشد .... قال تعالى:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[١]. فأى طراز هذا الذى حفل تاريخه بهذه المآثر، واستبشر أهل السماوات بقدومه، واهتز عرش الرحمن فرحًا لوفاته، من دون خلق الله أجمعين[٢] ... كان سعد بن معاذ، رجلًا أبيض، طوالاً، جميلاً، حسن الوجه، أعين، حسن اللحية[٣]، رحمة الله عليه ورضى عنه، وأعلى ذكره فى المصلحين.

تنفيذ حكم الإعدام فى يهود بنى قريظة

۞ لما حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه فى يهود بنى قريظة بأن تُقتل المقاتلة، وأن تُسبى النساء والذرية، وأن تُقسم أموالهم، فأقره رسول الله ﷺ، وقال: «**قضيت بحكم الله**»[٤] ونفذ حكم الإعدام فى أربعمائة فى سوق المدينة، حيث حُفرت أخاديد وقُتلوا فيها بشكل مجموعات، وقد نجا مجموعة قليلة جدًّا بسبب وفائها للعهد ودخولها فى الإسلام، وقُسِّمت أموالهم وذراريهم على المسلمين. وهذا جزاء عادل نزل بمن أراد الغدر وتبرأ من حلفه للمسلمين، وكان جزاؤهم من جنس عملهم، حين عرَّضوا بخيانتهم

---

(١) سورةالأحقاف: الآية: (١٥).

(٢) انظر: القيادة الربانية (٤/ ٧٨).

(٣) انظر: سير النبلاء (١/ ٢٩٠).

(٤) البخاري، كتاب المغازي، باب مرجع رسول الله من الأحزاب (٥/ ٦١) رقم (٤١٢١).

أرواح المسلمين للقتل، وأموالهم للنهب، ونساءهم وذراريهم للسبي، فكان أن عوقبوا بذلك جزاءً وفاقًا[(١)].

عدد بنى قريظة الذين قتلهم النبى ﷺ

۞ **قال الحافظ فى الفتح**: «واختُلف فى عدتهم .... فعند ابن إسحاق أنهم كانوا ستمائة، وبه جزم أبو عمرو فى ترجمة سعد بن معاذ، وعند ابن عائذ من مرسل قتادة: وكانوا سبعمائة، وقال السهيلى: المكثر يقول إنهم ما بين الثمانمائة إلى التسعمائة، وفى حديث جابر عند الترمذى والنسائى وابن حبان بإسناد صحيح أنهم كانوا أربعمائة مقاتل، فيحتمل فى طريق الجمع أن يقال إن الباقين كانوا أتباعًا، وقد حكى ابن إسحاق أنه قيل: إنهم كانوا تسعمائة»[(٢)].

إسلام بعض يهود بنى قريظة

وفى ليلة نزول قريظة على حكم رسول الله ﷺ أكرم الله أربعة أنفار من اليهود فأسلم ثلاثة منهم ليسوا من بنى قريظة والرابع قُرظى، فغير القرظيين هم ثعلبة بن سعية، وأسيد بن سعية وأسد بن عبيد وهم من بنى هدل فليسوا قرظيين ولا نضريين. والقرظى هو عمرو بن سعدى القرظى فإنه أبى أن يدخل مع قريظة فى غدرها لرسول الله ﷺ، وقال لا أغدر محمدًا أبدًا، ومرّ فى الليل بحرس رسول الله ﷺ الذى عليه محمد بن مسلمة فعرفه محمد بن مسلمة، وقال: اللهم لا تحرمنى إقالة عثرات الكرام وخلّى سبيله فذهب على وجهه حتى أتى مسجد الرسول ﷺ فبات به تلك الليلة.

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٣١٥- ٣١٧).

(٢) فتح البارى (٧/ ٤١٤).

ثم ذهب فلم يدر أين توجه من الأرض إلى يومنا هذا. ولما ذكر لرسول الله ﷺ قال: «**ذاك رجل نجّاه الله بوفائه**».

وعن ابن عمر رضي الله عنهما **قال**: «حاربت قريظة والنضير، فأجلى بنى النضير، وأقر قريظة، ومن عليهم حتى حاربت قريظة، فقتل رجالهم، وقسم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين، إلا بعضهم لحقوا بالنبى فأمَّنهم، وأسلموا، وأجلى يهود المدينة كلهم: بنى قينقاع وهم رهط عبد الله بن سلام، ويهود بنى حارثة، وكل يهود المدينة»[١].

كيف نزل اليهود من حصونهم

إنه لما صدر حكم الله تعالى على لسان سعد بن معاذ فى بنى قريظة، ورضى الحكم رسول الله ﷺ والمؤمنون ووافقوا عليه مجتمعين كان القرظيون ساعتئذ فى حصونهم، وقد أبوا أن ينزلوا على حكم سعد، فصاح على بن أبى طالب قائلاً يا كتيبة الإيمان... وتقدم هو والزبير بن العوام، وقال: والله لأذوقنّ ما ذاق حمزة أو لأقتحمنّ حصنهم فصاح اليهود وقالوا يا محمد ننزل على حكم سعد بن معاذ، ونزلوا فاقتيدوا إلى المدينة وحُبسوا فى دار بنت الحارث: امرأة من بنى النجار يقال لها: نُسَيْبَةُ بنتُ الحارث.

تنفيذ الحكم

ثم خرج الحبيب محمد ﷺ إلى سوق المدينة وأمر بحفر أخاديد فيها، ثم أمر أن يُؤتَى بهم أَرسالاً فتُضرب أعناقهم ويُلقون فى تلك الأخاديد، وكانوا قرابة السبعمائة رجل من بينهم كعب بن أسد رئيسهم، وعدو الله

---

(١) أخرجه البخارى (٤٠٢٨) المغازى - ومسلم (١٧٦٦) الجهاد.

حُيى بن أخطب النضرى محزِّب الأحزاب لحرب رسول الله ﷺ والمؤمنين ... وقد قالوا لكعب وهم يُساقون أرسالاً إلى رسول الله ﷺ إلى أين يذهب بنا يا كعب؟ فقال لهم أفى كل موطن لا تعقلون؟ ألا ترون الداعى لا ينزع، وأنه من ذهب به منكم لا يرجع؟ هو والله القتل!! وأخيرًا جيء بعدو الله حُيى بن أخطب عليه حلّة فقاحيّة[١] قد شقَّها من كل جهاتها حتى لا ينتفع بها المسلمون جيء به مجموعة يداه إلى عنقه فلما نظر إلى رسول الله ﷺ قال: أما والله ما لُمت نفسى فى عداوتك، ولكنه مَن يَخذل الله يُخذل ثم أقبل على الناس، وقال أيها الناس إنه لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر، وملحمة كتبها الله على بنى إسرائيل، ثم جلس فضُربت عنقه[٢].

۞ وفى مقتل حيى بن أخطب دروس وعبر منها:

(أ) **لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله**: فقد ألَّب القبائل العربية واليهودية على محاربة الإسلام ونبيه ﷺ، وأقنع بنى قريظة بضرورة نقض العهد مع الرسول ﷺ وطعنِه من الخلف، فجعل الله كيده فى نحره وكبته، وفى النهاية قادته محاولاته إلى حتفه. إن الله لا يهمل الظالمين، ولكن يُمهلهم ويستدرجهم حتى إذا أخذهم أخذ عزيزٍ مقتدر، فكان أخذُه أليمًا شديدًا قال ﷺ: «**إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**»[٣] ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[٤].

(ب) **التجلُّد فى مواطن الشدة**: لقد تجلد حُيى وتقدم لتُضرب عُنقه حتى

(١) موشاة بالحمرة كالورد.

(٢) هذا الحبيب يا محب/ الجزائرى (ص: ٣١٨، ٣١٩).

(٣) انظر: الصراع مع اليهود لأبى فارس (٢/ ١١٢).

(٤) سورة هود: الآية: (١٠٢).

لا يشمت فيه شامت، وهو يعرف أنه على باطل، ظالم لنفسه، قد أوردها موارد الهلاك، ومع هذا يموت على ذلك، والعزة بالإثم تأخذه إلى جهنم وبئس المصير؛ لأنه يعبد هواه، ولا يعبد ربه ... قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾(١).

(ج) من يخذل الله يُخذَل: إن الله تعالى إذا خذل أحدًا ليس له نصير يمنعه أو يدفع عنه... قال سبحانه: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾(٢).

كما أن عداوة حُيي للرسول ﷺ باعثها الحسد والحقد؛ ولذلك عبَّر حُيي صراحة أن الله لم يكن معه يومًا من الأيام، بل كان حُيي في شق الشيطان عدوًّا لأولياء الرحمن، يشاقق الله، فالله خاذله ومُسْلِمه لكل ما يؤذيه ويتعبه، ولا توجد قوة في الأرض ولا في السماء تنصره وتحول بينه وبين الهزيمة؛ لأن إرادة الله هي النافذة، وقَدَرُه هو الكائن، لا رادَّ لقضائه، لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء(٣). قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(٤).

۞ إن موقف اليهود من الإسلام بالأمس، هو موقفهم من المسلمين اليوم.

فألوف من إخواننا ذبحهم اليهود في صمت وهم يحتلون فلسطين.

(١) سورة الجاثية: الآية: (٢٣).

(٢) سورة آل عمران: الآية: (١٦٠).

(٣) انظر: الصراع مع اليهود (٢/ ١١٣، ١١٤).

(٤) سورة الأنعام: الآية: (١٧).

والغريب أن اليهود تركوا مَن نصب لهم المجازر فى أقطار أوروبا، وجَبُنوا عن مواجهتهم بشرٍّ! واستضعفوا المسلمين الذين لم يسيئوا إليهم من اثنى عشر قرنًا، فنكلوا بهم على النحو المخزى الفاضح، الذى لا يزال قائمًا فى فلسطين.. تشهده وتؤيده وتسانده، دول الغرب [١].

قصة المرأة العجيبة التى قُتلت من بنى قريظة

عن عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: «لم يُقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة قالت: والله إنها لعندى تتحدث معى تضحك ظهرًا وبطنًا [٢] ورسول الله ﷺ يقتل رجالهم بالسوق إذ هتف هاتف باسمها: أين فلانة؟ قالت: أنا والله، قالت: قلت: ويلك وما لك؟ قالت: أُقتل، قالت: قلت: ولِمَ؟ قالت: حدثًا أحدثته [٣]، قالت: فانطلق بها، فضُربت عنقها، وكانت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا تقول: والله ما أنسى عجبى من طِيب نفسها، وكثرة ضحكها، وقد عرفت أنها تُقتل» [٤].

مقتل كعب بن أسد القُرظى

وجيء برئيس بنى قريظة كعب بن أسد، وقبل أن يضرب رسول الله ﷺ عُنقه جرى بينه وبين كعب الحوار التالي: قال رسول الله ﷺ: «كعب بن

(١) فقه السيرة للغزالى (ص ٣٥٨).

(٢) ظهرًا وبطنًا: لا يبدو على ملامحها أثر الحزن.

(٣) الحدث الذى أحدثته، طرحت الرحا على خلاد بن سويد فقتلته، فقتلها رسول الله به.

(٤) أخرجه أحمد فى المسند: (٦/ ٢٧٧، أبو داود فى السنن رقم: (٢٦٧١)، والبيهقى فى السنن: (٩/ ٨٢)، وابن هشام فى السيرة: (٢/ ٢٤٢)، والحاكم فى المستدرك: (٣/ ٣٥ ـ ٣٦)، وقال: صحيح على شرط مسلم: ولم يخرجاه، والطبرى فى التاريخ: (٢/ ٥٨٩)، جميعًا من طريق ابن إسحاق، وقد صرح بالسماع فسنده صحيح، وقال الساعاتى فى الفتح الربانى (٢١/ ٨٥): سنده صحيح ورجاله ثقات.

أسد؟». قال كعب بن أسد: نعم يا أبا القاسم. قال رسول الله ﷺ: «**ما انتفعتم بنصح ابن خراش لكم، وكان مُصدِّقًا بي، أَمَا أمركم باتباعي، وإن رأيتموني تُقرئوني منه السلام؟**». قال كعب: بلى والتوراة يا أبا القاسم، ولولا أن تُعيرني يهود بالجزع من السيف لاتبعتك، ولكني على دين يهود. فأمر رسول الله ﷺ بضرب عنقه فضُربت[١].

ومما ترويه كتب السيرة النبوية عن يهود بني قريظة أنهم كانوا يرسلون طائفة تلو طائفة لتُضرب أعناقهم، وقد سألوا زعيمهم كعب بن أسد فقالوا: يا كعب ما تراه يصنع بنا؟ قال: أفي كل موطن لا تعقلون؟ ألا ترون الداعي لا ينزع، وأنه من ذُهب به منكم لا يرجع؟ هو والله القتل[٢].

ونلحظ خبر مقتل كعب بن أسد، أنه كان متعصبًا ليهوديته وهو يعلم بطلانها، وأنه على علم بصدق رسالة رسولنا ﷺ ولكنه لم يؤمن ولم يدخل الإسلام خوفًا من أن تعيره يهود بأنه جزع من السيف، فعدم إيمانه وبقاؤه على الكفر كان نتيجة ريائه، وحبه للثناء وخوفه من ذمه وتعييره، وهذا دليل على السفه والحُمق وخذلان الله لهذا اليهودي المخادع[٣].

شفاعة ثابت بن قيس في الزبير بن باطا

أقبل ثابت بن قيس بن شماس إلى رسول الله ﷺ فقال: هَبْ لي الزبير اليهودي أجزه، فقد كانت له عندي يد يوم بُعاث، فأعطاه إياه، فأقبل ثابت حتى أتاه فقال: يا أبا عبد الرحمن، هل تعرفني؟ فقال: نعم، وهل ينكر الرجل أخاه، قال ثابت: أردت أن أجزيك اليوم بيدٍ لك عندي يوم بعاث،

(١، ٢) انظر: اليهود في السنة المطهرة (١/ ٣٦٨).

(٣) انظر: الصراع مع اليهود (٢/ ١١٥).

قال: فافعل، فإن الكريم يجزى الكريم، قال: قد فعلت، قد سألت رسول الله ﷺ فوهبك لي، فأطلق عنه إساره، فقال الزبير: ليس لى قائد، وقد أخذتم امرأتى وابني، فرجع ثابت إلى رسول الله ﷺ فاستوهبه امرأته وبنيه فوهبهم له، فرجع ثابت إلى الزبير فقال: رَدَّ إليك رسول الله ﷺ امرأتك وبنيك، فقال الزبير: حائط لى فيه أعذق، وليس لى ولا لأهلى عيش إلا به، فرجع ثابت إلى رسول الله ﷺ فوهبه له، فرجع ثابت إلى الزبير فقال: قد رَدَّ إليك رسول الله أهلك ومالك، فأسلِم تَسلم، قال: ما فعل الجليسان؟[1] وذكر رجال قومه، قال ثابت: قد قُتلوا وفُرغ منهم، ولعل الله تبارك وتعالى أن يكون أبقاك لخير، قال الزبير: أسألك بالله يا ثابت وبيدى التى عندك يوم بُعاث إلا ألحقتنى بهم، فليس فى العيش خير بعدهم، فذكر ذلك ثابت لرسول الله ﷺ فأمر بالزبير فقُتل[2].

شفاعة سلمى بنت قيس فى رفاعة بن سموأل القرظي

كانت سلمى بنت قيس وكُنيتها أم المنذر أخت سليط بن قيس، وكانت إحدى خالات رسول الله ﷺ، قد صلت معه القبلتين، وبايعته بيعة النساء، سألته رفاعة بن سموأل القرظي، وكان رجلًا قد بلغ، فلاذ بها، وكان يعرفهم قبل ذلك فقالت: يا نبى الله، بأبى أنت وأمي، هب لى رفاعة، فإنه قد زعم أنه سيصلى ويأكل لحم الجمل، فوهبه لها، فاستحيته[3]. وفى هذا الخبر دليل على أن الإسلام يكرم المرأة ويعتبر شفاعتها،... هذه هى معاملة المرأة فى هذا الدين، إنه يكرمها، ويساعدها ويشجعها على فعل الخير[4].

---

(١) انظر: اليهود فى السنة المطهرة (١/ ٣٧٢).

(٢، ٣) المصدر نفسه (١/ ٣٧٣).

(٤) انظر: الصراع مع اليهود (٢/ ١١٦).

قسم فىء بنى قريظة

ثم إن رسول الله ﷺ قسَّم أموال بنى قُريظة ونساءَهم وأبناءهم على المسلمين، وأعْلَم فى ذلك اليوم سُهْمان الخيل وسُهْمان الرجال، وأخرج منها الخُمس، فكان للفارس ثلاثة أسهم: للفرس سَهمان ولفارسه سهم، وللراجل - من ليس له فرس - سهم، وكانت الخيل يوم بنى قُريظة ستة وثلاثين فرسًا، وكان أوَّل فَىءٍ وقعت فيه السُّهمان، وأُخرج منها الخُمس، فعلى سُنَّتها وما مضَى من رسول الله ﷺ فيها وقعت المقاسم، ومضت السُّنَّة فى المغازى[(١)].

ثم بعث رسول الله ﷺ سَعد بن زيد الأنصارىّ أخا بنى عبد الأشهل بسَبايا من بنى قُريظة إلى نجد، فابتاع لهم بها خيلاً وسلاحًا[(٢)].

وأما ما وجد رسول الله ﷺ والمسلمون من الخمر عند بنى قريظة فقد أراقوه ولم يأخذوا منه شيئًا، ولم ينتفعوا به كذلك، وقد أسهم رسول الله ﷺ لسويد بن خلاد الذى قتلته المرأة اليهودية بالرحى، وأعطى سهمه لورثته[(٣)]، ولصحابى آخر مات أثناء حصار بنى قريظة[(٤)]، كما رضخ رسول الله ﷺ للنساء اللواتى حضرن ولم يسهم لهن، منهن: صفية بنت عبد

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبرى فى «تاريخه» (٢/ ١٠٣) والبيهقى فى «الدلائل» (٤/ ٢٤) من حديث ابن إسحاق... به وأخرجه البخارى فى كتاب «الجهاد» باب «سهام الفرس» (٦/ ح ٢٨٦٣/ فتح) وفى كتاب «المغازى» (٧/ ح ٤٢٢٨) ومسلم فى كتاب «الجهاد» باب «كيفية قسمة الغنيمة بين الحاضرين» (٣/ ٥٧/ ١٣٨٣).

(٢) السيرة النبوية/ لابن هشام (٣/ ٢١٣: ٢١٤).

(٣) الصراع مع اليهود (٢/ ٩٧).

(٤) انظر: اليهود فى السنة المطهرة (١/ ٣٧٥).

المطلب، وأم عمارة، وأم سليط، وأم العلاء، والسميراء بنت قيس، وأم سعد بن معاذ[١]، وأما الأموال غير المنقولة كالأراضى والديار فقد أعطاها رسول الله ﷺ للمهاجرين دون الأنصار، وأمر المهاجرين أن يردوا إلى الأنصار ما أخذوه منهم من نخيل وأرض، وكانت على سبيل العارية، ينتفعون بثمارها[٢]،... قال تعالى عن تلك الأراضى والديار: ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾[٣].

قال الأستاذ محمد دروزة: أما عبارة ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ﴾ فقد قال المفسرون: إنها أرض خيبر، وإن الجملة بشرى سابقة لفتحها، غير أن الذى تلهم روح الآية ومضمونها على ما يتبادر لنا أنها أرض لبنى قريظة بعيدة عن مساكنهم، آلت إلى المسلمين دون حرب أو حصار، ونتيجة للمصير الذى صار إليه أصحابها[٤]. هذا وقد أرسل رسول الله ﷺ سعد بن عبادة رضي الله عنه بالخُمس من الذرية والنساء إلى الشام فباعها، واشترى بالثمن سلاحًا وخيلاً ليستعين به المسلمون فى معاركهم مع الأعداء من يهود ومشركين، وكذلك بعث إلى نجد سعد بن زيد فباع سبيًا واشترى سلاحًا[٥].

ريحانة الحبيب ﷺ

وكان رسولُ الله ﷺ قد اصطفى لنفسه من نسائهم ريحَانة بنت عمرو ابن جُنافة، إحدى نساء بنى عمرو بن قُريظة، فكانت عند رسول الله ﷺ

---

(١) انظر: اليهود فى السنة المطهرة (١/ ٣٧٥).

(٢) انظر: الصراع مع اليهود (٢/ ٩٨).

(٣) سورة الأحزاب: الآية: (٢٧).

(٤) انظر: سيرة الرسول لعزة دروزة (٢/ ٢٠٢).

(٥) انظر: الصرع مع اليهود (٢/ ٩٨).

حتى تُوفىَ عنها وهى فى مِلْكه، وقد كان رسول الله ﷺ عَرَض عليها أن يتزوّجها، ويَضْرب عليها الحجاب، فقالت: يا رسول الله، بل تتركنى فى مِلْكك، فهو أخفُّ علىَّ وعليك، فتركها. وقد كانت حين سباها قد تعصَّت بالإسلام، وأبت إلا اليهوديَّة، فعزلها رسول الله ﷺ، وَوَجَد فى نفسه لذلك من أمرها. فبينا هو مع أصحابه، إذ سمع وقْع نَعلين خَلْفه، فقال: «إن هذا لثعلبة بن سَعْية يبشرنى بإسلام رَيْحانة»، فجاءه فقال: يا رسول الله، قد أسلمت ريحانة، فسرَّه ذلك من أمرها(١).

وهكذا انتهى الوجود اليهودى فى المدينة

بالقضاء على بنى قريظة خَلَت المدينة تمامًا من الوجود اليهودي، وصارت خالصة للمسلمين، وخَلَت الجبهة الداخلية من عنصر خطر، لديه القدرة على المؤامرة والكيد والمكر، واضمحل حلم قريش؛ لأنها كانت تُعول، وتُؤمل فى يهود بأن يكون لهم موقف ضد المسلمين، وابتعد خطر اليهود الذى كان يمد المنافقين بأسباب التحريض والقوة(٢).

۞ وقال القاسمى: وبتمام تلك الغزوة أراح الله المسلمين من شر مجاورة اليهود الذين تعودوا الغدر والخيانة، ولم يبقَ إلا بقية من كبارهم بخيبر مع أهلها، وهم الذين كانوا السبب فى إثارة الأحزاب(٣).

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبرى فى تاريخه (٢/ ١٠٣) وابن كثير فى البداية (٤/ ١٢٦).

(٢) انظر: سيرة الرسول، دروزة (٢/ ٧٦) نقلا عن دراسات فى عهد النبوة للشجاع، (ص١٥٣).

(٣) محاسن التأويل (١٣/ ٢٤٦).

غزوة بنى لحيان

كانت فى أوائل السنة السادسة للهجرة على الصحيح كما قاله ابن كثير[١].... وقد صلى النبى ﷺ بأصحابه صلاة الخوف لأول مرة بعسفان كما جاء فى حديث أبى عياش الزرقى رضي الله عنه قال: «كنا مع رسول الله ﷺ بعسفان، فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد، وهم بيننا وبين القبلة، فصلى رسول الله ﷺ الظهر فقالوا: قد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم، ثم قالوا: تأتى عليهم الآن صلاة هى أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم.

قال: فنزل جبريل عليه السلام بهذه الآيات بين الظهر والعصر ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ﴾[٢] قال: فحضرت، فأمرهم رسول الله ﷺ، فأخذوا السلاح، قال: فصففنا صفين، قال: ثم ركع، فركعنا جميعًا، ثم رفع، فرفعنا جميعًا، ثم سجد النبى ﷺ بالصف الذى يليه، والآخرون قيام يحرسونهم فلما سجدوا وقاموا جلس الآخرون، فسجدوا فى مكانهم، ثم تقدم هؤلاء إلى مصافِّ هؤلاء، وجاء هؤلاء إلى مصاف هؤلاء قال: ثم ركع فركعوا جميعًا، ثم رفع فرفعوا جميعًا، ثم سجد النبى ﷺ والصف الذى يليه، والآخرون قيام يحرسونهم، فلما جلس، جلس الآخرون فسجدوا فسلم عليهم ثم انصرف، قال: فصلاها رسول الله ﷺ مرتين، مرة بعسفان ومرة بأرض بنى سليم»[٣].

---

(١) السيرة النبوية/ لابن كثير (٣/ ٢٨٥).

(٢) سورة النساء: الآية: (١٠٢).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٥٩، ٦٠) وأبو داود (١٢٣٦) والحاكم (١/ ٣٣٧، ٣٣٨) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبى وهو كما قال.

۞ **وعن أبي هريرة** رضي الله عنه **قال:** (إن رسول الله ﷺ نزل بين ضجنان وعسفان، فقال المشركون: إن لهم صلاة هى أحب إليهم من آبائهم وأبنائهم، وهى العصر، فأجمعوا أمركم، فميلوا عليهم ميلة واحدة، وإن جبريل عليه السلام أتى النبى ﷺ فأمره أن يقسم أصحابه شطرين، فيصلى ببعضهم، وتقوم الطائفة الأخرى وراءهم ليأخذوا حذرهم وأسلحتهم، ثم تأتى الأخرى فيصلون معه، ويأخذ هؤلاء حذرهم وأسلحتهم، لتكون لهم ركعة ركعة مع رسول الله ﷺ، ولرسول الله ﷺ ركعتان)(١).

وبنو لحيان هم الذين كانوا قد غدروا بعشرة من أصحاب رسول الله ﷺ بالرجيع، وتسببوا فى إعدامهم، ولكن لما كانت ديارهم متوغلة فى الحجاز إلى حدود مكة، والتارات الشديدة قائمة بين المسلمين وقريش والأعراب، لم يكن يرى رسول الله ﷺ أن يتوغل فى البلاد بمقربة من العدو الأكبر، فلما تخاذلت الأحزاب، واستوهنت عزائمهم، واستكانوا للظروف الراهنة إلى حَدٍّ ما، رأى أن الوقت قد آن لأن يأخذ من بنى لحيان ثأر أصحابه المقتولين بالرجيع(٢).

قال ابن إسحاق: ثم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة ذا الحجة والمحرم وصَفَرًا وشهرى ربيع، وخرج فى جمادى الأولى على رأس ستة أشهر من فتح قريظة إلى بنى لحيان يطلب بأصحاب الرجيع: خبيب بن عدى وأصحابه، وأظهر أنه يريد الشام ليصيب من القوم غِرَّه(٣).

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٥٢٢) والترمذى (٣٠٣٨) وقال الترمذى: حسن صحيح.

(٢) الرحيق المختوم (ص: ٣٤٩).

(٣) تهذيب السيرة (ص: ١٨٤) لعبد السلام هارون.

❁ قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثم خرج رسول الله ﷺ إلى بنى لحيان بعد قُريظة بستة أشهر ليغزوهم، فخرج رسول الله ﷺ فى مائتى رجل، وأظهر أنه يُريد الشام، واستخلف على المدينة ابن أمِّ مكتومٍ، ثم أسرع السير حتى انتهى إلى بطن غُرَانَ[١] وادٍ من أودية بلادهم، وهو بين أمج وعُسفان حيث كان مُصابُ أصحابه، فترحَّم عليهم ودعا لهم، وسمعت بنو لحيان، فهربُوا فى رؤوس الجبال، فلم يقدر منهم على أحد، فأقام يومين بأرضهم، وبعث السرايا، فلم يقدروا عليهم، فسار إلى عُسفان، فبعث عشرة فوارس إلى كُراع الغَمِيم لتسمع به قُريش، ثم رجع إلى المدينة، وكانت غيبتُه عنها أربعَ عشرة ليلة[٢].

سرية نجد وقصة إسلام ثمامة بن أثال

خرج ثمامة من أرض اليمامة موليًا وجهه شطر مكة المكرمة يريد الطواف حول الكعبة والذبح لأصنامها. وإذا بالنبى ﷺ يرسل سرية إلى أرض نجد فيأتوا به أسيرًا.

فعن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بعث النبى ﷺ خيلاً قِبلَ نجد فجاءت برجلٍ من بنى حنيفة يقال له ثُمامة بن أثال، فربطوه بسارية من سوارى المسجد، فخرج إليه النبى ﷺ فقال: «**ماذا عندك يا ثُمامة؟**» فقال: عندى خير يا محمد، إن تقتلنى تقتل ذا دم، وإن تُنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسَلْ

(١) بضم الغين والتخفيف: اسم وادى الأزرق خلف أمَج، وقال المجد: علم مرتجل لوادٍ ضخم وراء وادى ساية (من أعمال المدينة) وفيه كانت منازل بنى لحيان.

(٢) انظر ابن هشام (٢/ ٢٧٩، ٢٨١)، وشرح المواهب (٢/ ١٤٦، ١٥٣)، وابن سعد (٢/ ٧٨، ٨٠) والطبرى (٣/ ٥٩) وابن سيد الناس (٢/ ٨٣) وابن كثير (٣/ ١٥٦).

منه ما شئت. فتُركَ حتى كان الغد ثم قال له: «**ما عندك يا ثُمامة؟**» فقال: ما قلت لك: إن تُنعم تُنعم على شاكر، فتركه حتى كان بعد الغد، فقال: «**ما عندك يا ثمامة؟**» فقال: عندي ما قلت. فقال: «**أَطلِقوا ثمامة**».

فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل، ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله،... يا محمد والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليَّ من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليَّ، والله ما كان من دين أبغض إليَّ من دينك فأصبح دينك أحب الدين إليَّ، والله ما كان من بلد أبغضَ إليَّ من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد إليَّ. وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فماذا ترى؟ فبشَّره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر ـ وفي رواية: فاغتسل وصلى ركعتين فقال رسول الله ﷺ: «**لقد حسن إسلام صاحبكم**»[1].

فلما قدم مكة قال له قائل: صبوت؟ قال: لا والله، ولكن أسلمت مع محمد رسول الله ﷺ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي ﷺ[2].

الله أكبر... يدخل ثمامة مكة ملبيًا فيكون أولَ مسلم على وجه الأرض يدخل مكة ملبيًا ورافعًا صوته بالتلبية.

«لبيك اللهم لبيك... لبيك لا شريك لك لبيك. إن الحمد والنعمة لك والملك.. لا شريك لك».

إن قريشًا تعلم أن ثمامة سيدٌ من سادات بني حنيفة المرموقين وملك

---

(١) رواه ابن حبان (موارد الظمآن ٣٢٨١) قال الشيخ مصطفى العدوي: إسناده صحيح.

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٧٢) ومسلم (١٧٦٤).

من ملوك اليمامة الذين لا يُعصى لهم أمر.

ولقد أقسم بالله ليمنعن عن قريشٍ الطعام حتى يتّبعوا محمدًا ﷺ.

ولقد عاد ثمامة إلى بلاده (اليمامة) التى كانت بمثابة الريف لأهل مكة، فأمر قومه أن يحبسوا الميرة - الطعام - عن قريش فاستجابوا لأمره، وحبسوا الطعام عن أهل مكة حتى جهدت قريش وكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثمامة يُخلِّى إليهم حمل الطعام ففعل رسول الله ﷺ[1]

ثبات على المبدأ

هكذا استطاع ثمامة رضي الله عنه أن يقف هذا الموقف الإيجابى للذود عن حياض الإسلام فيمنع الخير عن أعداء الله رغبة فى إسلامهم ليحقق بذلك تلك الخيرية التى امتن الله بها على تلك الأمة الميمونة حيث يقول: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[2].

ويا له من درسٍ عظيم... فلو أن الأمة منعت خيرها عن اليهود وسائر أعداء هذا الدين لجاءوا جميعًا ووضعوا رؤوسهم على عتبة الإسلام بدلاً من الذل الذى تعيشه الأمة المسلمة فى ظل التخاذل الجماعى من أبنائها - إلا من رحم الله - عن نُصرة دين الله وعن العمل لهذا الدين العظيم.

فيا ليتنا نعى هذا الدرس جيدًا[3].

(١) زاد المعاد (٢/ ١١٩) ومختصر سيرة الرسول ﷺ للشيخ عبد الله النجدى (ص: ٢٩٢ - ٢٩٣) بتصرف.

(٢) سورة آل عمران: الآية: (١١٠).

(٣) أصحاب الرسول ﷺ / للمصنف (٢/ ٩٧: ٩٩) بتصرف.

❁ قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ:

وفى قصة ثمامة من الفوائد ربط الكافر فى المسجد، والمنِّ على الأسير الكافر، وتعظيم أمر العفو عن المسيئ لأن ثمامة أقسم أن بُغضه انقلب حُبًّا فى ساعة واحدة لما أسداه النبى ﷺ من العفو والمنِّ بغير مقابل... وفيه الاغتسال عند الإسلام وأن الإحسان يزيل البغض ويثبت الحب، وأن الكافر إذا أراد عمل خير ثم أسلم شُرع له أن يستمر فى عمل ذلك الخير، وفيه الملاطفة بمن يُرجَى إسلامه من الأسرى إذا كان فى ذلك مصلحة للإسلام، ولا سيما من يتبعه على إسلامه العدد الكثير من قومه،... وفيه بعث السرايا إلى بلاد الكفار، وأَسْر مَن وُجد منهم، والتخيير بعد ذلك فى قتله أو الإبقاء عليه[١].

قصة العُرنيين

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «إن ناسًا من عُكل وعرينة[٢] قدموا المدينة على النبى ﷺ، وتكلموا بالإسلام فقالوا: يا نبى الله إنا كنا أهل ضرع ولم نكن أهل ريف، واستوخموا المدينة[٣]، فأمر لهم رسول الله ﷺ بذودٍ وراعٍ، وأمرهم أن يخرجوا فيه، فيشربوا من ألبانها وأبوالها، فانطلقوا، حتى إذا كانوا ناحية الحَرَّة كفروا بعد إسلامهم، وقتلوا راعى النبى ﷺ، واستاقوا الذود[٤]، فبلغ النبى ﷺ، فبعث الطلب فى آثارهم، فأمر بهم،

(١) فتح البارى (٧/ ٦٩٠).

(٢) عكل وعرينة: حى من قحطان.

(٣) استوخموا: لم يوافقهم جوها وكرهوها لسقم أصابهم.

(٤) الذود: الإبل.

فسمَّروا أعينهم[١]، وقطعوا أيديهم، وتُركوا فى ناحية الحرَّة حتى ماتوا على حالهم». واللفظ للبخارى.

وأما رواية مسلم: «أن نفرًا من عكل، ثمانية، قدموا على رسول الله ﷺ، فبايعوه على الإسلام، فاستوخموا الأرض، وسقمت أجسامهم، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقال: «**ألا تخرجون مع راعينا فى إبله، فتصيبون من أبوالها وألبانها؟**» فقالوا: بلى، فخرجوا فشربوا من أبوالها وألبانها، فصحُّوا، فقتلوا الراعى وطردوا الإبل، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فبعث فى آثارهم، فأُدركوا فجىء بهم، فأمر فقُطعت أيديهم وأرجلهم، وسُمِّر أعينهم، ثم نُبذوا فى الشمس حتى ماتوا»[٢].

وهكذا تكون عاقبة الخيانة.

---

(١) سمَّروا: سمَّر: كحلها بمسامير محمية، وفى لفظ سمل: فقأها وأذهب ما فيها.

(٢) أخرجه البخارى فى المغازى باب قصة عكل وعرينة حديث رقم (٤١٩٢).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

صلح الحديبية

(الفتح المبين)

صلح الحديبية

جاء تفكير المسلمين فى زيارة المسجد الحرام بداية لمرحلة متميزة فى تاريخ دعوتهم ... ليسوا يعالنون بعزمهم على دخول مكة وهم الذين طُردوا منها بالأمس وحُوربوا حيث استقرت بهم النوى؟ وظلت حالة الحرب قائمة بينهم وبين قريش لم تُسفر عن نتيجة حاسمة؟ فكيف ينوون العمرة فى هذه الظروف؟.

والجواب أن النبى ﷺ أراد بهذا النُّسك المنشود إقرار حق المسلمين فى أداء عبادتهم، وإفهام المشركين أن المسجد الحرام ليس ملكًا لقبيل يحتكر القيام عليه ويمكنه الصد عنه، فهو ميراث الخليل إبراهيم. والحج إليه واجب على كل من بلغه أذان أبى الأنبياء من قرون:

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[١].

ومن ثم فلا يجوز لأهل مكة أن يحجبوا المسلمين عنه، ولئن استطاعوا قديمًا إقصاءهم، فإنهم ـ بعد ما وقع من قتال ـ لن يصروا على خطئهم القديم[٢].

تاريخها وأسبابها

كانت غزوة الحديبية سنة سِتٍّ للهجرة فى ذى القعدة، وهذا هو

(١) سورة الحج: الآيتان: (٢٦-٢٧).

(٢) فقه السيرة للغزالى (ص ٣٦٥).

الصحيح، وهو قول الزهرى، ونافع مولى ابن عمر، وقتادة، وموسى بن عقبة، ومحمد بن إسحاق وغيرهم وهذا هو رأى الجمهور فى ذلك(١).

۞ **وعن أنس بن مالك** رضي الله عنه **قال:** «اعتمر رسول الله ﷺ أربع عُمر كلهن فى ذى القعدة إلا التى كانت مع حجته، عمرة من الحديبية فى ذى القعدة، وعمرة من العام المقبل فى ذى القعدة، وعمرة من الجعرانة حيث قسم غنائم حنين فى ذى القعدة وعمرة مع حجته»(٢)،(٣).

فى يوم الاثنين الأول من ذى القعدة سنة ٦هـ(٤) خرج الرسول ﷺ من المدينة متوجها بأصحابه إلى مكة لأداء العمرة(٥)، وسبب هذه الغزوة أن رسول الله ﷺ رأى رؤيا فى منامه وهو فى المدينة، وتتلخص هذه الرؤيا أن النبى ﷺ رأى أنه قد دخل مكة مع أصحابه المسلمين مُحْرِمًا مؤديًا للعمرة، وقد ساق الهَدى مُعظمًا للبيت مقدسًا له، فبشر النبى ﷺ أصحابه ففرحوا بها(٦) فرحًا عظيمًا، فقد طال عهدهم بمكة والكعبة التى رضعوا بلبان حبها ودانوا بتعظيمها، وما زادهم الإسلام إلا ارتباطًا بها وشوقًا إليها، وقد تاقت

---

(١) زاد المعاد: (٣/ ٢٨٦) دلائل النبوة للبيهقى: (٤/ ٩٠)، السيرة النبوية ابن كثير: (٣/ ٣١٢).

(٢) أخرجه البخارى فى الحج باب كم اعتمر النبى ﷺ رقم: (١٧٨٠)، وفى المغازى باب غزوة الحديبية رقم: (٤١٤٨)، ومسلم فى الحج باب بيان عدد عُمر النبى ﷺ رقم: (١٢٥٣).

(٣) وقد شذ عن الجمهور فى رواية عنه عروة بن الزبير فيما روى عنه ابنه هشام بن عروة: «أن النبى ﷺ خرج إلى الحديبية فى رمضان وكانت الحديبية فى شوال». وقد قال الحافظ ابن كثير فيما ذهب إليه عروة: وهذا غريب جدًّا عن عروة ... وقال ابن القيم: هذا وهم، وقد جاء عن عروة من طريق أبى الأسود عنه: أنها كانت فى ذى القعدة، وهذا هو الصواب. والله أعلم [زاد المعاد (٣/ ٢٨٧)].

(٤) أجمع أهل العلم على تاريخها بدون خلاف، انظر: المجموع للنووى (٧/ ٧٨).

(٥) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣٣٤).

(٦) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (٢/ ٤٩٥).

نفوسهم إلى الطواف حولها، وتطلعت إليها تطلُّعًا شديدًا، وكان المهاجرون أشدهم حنينًا إلى مكة، فقد وُلدوا ونشأوا فيها وأحبوها حبًّا شديدًا، وقد حيل بينهم وبينها، فلما أخبرهم رسول الله ﷺ بذلك، تهيأوا لتلك الزيارة العظيمة[١]، واستنفر ﷺ أهل البوادى والأعراب ليخرجوا معه؛ لأنه كان يخشى أن تصده قريش عن البيت الحرام، وكانت استخبارات المدينة قد علمت بأمر التحالف العسكرى الذى عُقد بين قريش فى جنوب المدينة المنورة وخيبر فى شمالها، وكان هدف هذا التحالف جعل الدولة الإسلامية بين طرفى الكماشة، ثم إطباق فكيها عليها وإنهاء الوجود الإسلامى فيها، فقد حان الوقت لكسر ذلك التحالف سياسيًّا، فقد كانت الكعبة فى نظر العرب قاطبة ليست ملكًا لقريش، بل هى تراث أبيهم إسماعيل، ولهذا فليس من حق قريش أن تمنع من زيارتها من تشاء، وتجيز من تشاء، فإذن من حق محمد وأصحابه زيارة الكعبة[٢].

وانتشر خبر خروج رسول الله ﷺ بين قبائل العرب، وكان انتشار الخبر له أثر فى الرأى العام، وخصوصًا بعدما أكد رسول الله ﷺ بأنه لا يريد حربًا، وإنّما يريد أن يعتمر ويُعظم شعائر الله، وحقق هذا الفعل الكريم مكاسب إعلامية رفيعة المستوى، وقد كان هدف النبى ﷺ مُعلَنًا ألا وهو زيارة بيت الله الحرام لأداء العمرة[٣].

---

(١) انظر: السيرة النبوية للندوي، (ص٢٧٣).

(٢) انظر: قراءة سياسية للسيرة النبوية، (ص٢١٣، ٢١٤).

(٣) غزوات الرسول - د/ على الصلابى (ص ١٨٨).

عدد المسلمين الذين كانوا مع النبى ﷺ

۞ جاءت الروايات فى عددهم على ثلاثة أوجه:

فمن قائل إنهم كانوا ألفًا وثلاثمائة، ومن قائل أنهم كانوا ألفًا وأربعمائة، ومن قائل أنهم كانوا ألفًا وخمسمائة، وكلها فى الصحيح[1]، نذكر بعض هذه الروايات، ثم نحرر الخلاف بينها ووجه الجمع بين هذه الأقوال:

(أ) أنهم كانوا ألفًا وثلاثمائة:

عن عبد الله بن أبى أوفى رضي الله عنهما قال: «كان أصحاب الشجرة ألفًا وثلاثمائة وكانت أسلم ثُمن المهاجرين»[2].

(ب) أنهم كانوا ألفًا وأربعمائة:

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية أنتم خير أهل الأرض وكنا ألفًا وأربعمائة، ولو كنت أبصر اليوم لأريتكم مكان الشجرة»[3].

(جـ) أنهم كانوا ألفًا وخمسمائة:

عن جابر رضي الله عنه قال: «لو كنا مائة ألف لكفانا[4]: كنا خمس عشرة مائة»[5].

---

(١) السيرة النبوية ابن كثير: (٣/ ٣١٢)، زاد المعاد: (٣/ ٢٨٧).

(٢) أخرجه البخارى فى المغازى باب غزوة الحديبية حديث رقم: (٤١٥٥)، ومسلم فى الإمارة باب استحباب مبايعة الإمام رقم: (١٨٥٧).

(٣) آخرجه البخارى فى المغازى باب غزوة الحديبية حديث رقم: (٤١٥٤)، ومسلم فى الإمارة باب استحباب مبايعة الإمام رقم: (١٨٥٦، ٧١)، وأحمد فى المسند: (٣/ ٣٩٦).

(٤) معناه أن الصحابة لما وصلوا الحديبية وجدوا بئرًا تنزّ مثل الشِراك فبصق النبى ﷺ فيها ودعا بالبركة فجاشت بالماء، فقال جابر لو كنا مائة ألف لكفانا.

(٥) أخرجه البخارى فى المغازى باب غزوة الحديبية حديث رقم: (٤١٥٢)، ومسلم فى الإمارة باب استحباب مبايعة الإمام رقم: (١٨٥٦، ٧٢، ٧٣).

قال الحافظ رحمه الله تعالى: «والجمع بين هذا الاختلاف أنهم كانوا أكثر من ألف وأربعمائة، فمن قال ألفا وخمسمائة جَبَر الكسر، ومن قال ألفًا وأربعمائة ألغاه، ويؤيده قوله فى الرواية الثالثة من حديث البراء وألفًا وأربعمائة أو أكثر» واعتمد هذا الجمع النووى.

وأما البيهقى فمال إلى الترجيح، وقال إن رواية من قال ألف وأربعمائة أصح.

تخلُّف المنافقين عن الخروج

فالأعراب المنتشرون حول يثرب، ومَن كان على شاكلتهم من المنافقين.

عرفوا أن أهل مكة سوف يقاتلون محمدًا عليه الصلاة والسلام، وأنه إذا أبى إلا زيارة البيت ـ كما أعلن ـ فلن تدعه قريش حتى تُهلكه أو تَهلك هى دون إبلاغه مأربه.. فهى عمرة محفوفة بالأخطار فى نظرهم، والفرار منها أجدى!!.

ولو فُرض أن الرسول عليه الصلاة والسلام نجح فى مقصده هذا، فالاعتذار إليه بعد عودته سهل.

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾[1].

---

(١) سورة الفتح: الآيتان: (١١-١٢).

وخرج المؤمنون الواثقون مع رسول الله عليه الصلاة والسلام وعددهم قريب من ألف وأربعمائة، وذلك فى ذى القعدة من السنة السادسة للهجرة. وساروا مُلبين يطوون الطريق إلى البيت العتيق فلما بلغوا «عسفان» على مرحلتين من مكة جاء الخبر إلى المسلمين أن قريشًا خرجت عن بكرة أبيها، وقد أقسمت ألا يدخل بلدهم مسلم، وأن جيشهم استعد للنضال، ويقود خيله خالد بن الوليد(١).

النبى ﷺ يُحرم من ذى الحُليفة

عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم (يصدق حديث كل منهما حديث صاحبه) قالا: «خرج رسول الله ﷺ زمان الحديبية فى بضع عشرة مائة من أصحابه، حتى إذا كانوا بذى الحليفة(٢) قلّد رسول الله ﷺ الهَدى وأشعره(٣)، وأحرم بالعمرة، وبعث بين يديه عينًا(٤) له من خزاعة يخبره عن قريش»(٥).

النبى ﷺ يرسل عينًا من خزاعة ليأتيه بخبر قريش

فتجرد النبى ﷺ هو وأصحابه من المخيط، ولبسوا ثياب الإحرام،

(١) فقه السيرة للغزالى (ص ٣٦٦، ٣٦٧).

(٢) ذى الحليفة: ماء لبنى جشم على ستة أميال عن المدينة وهو ميقات أهل المدينة للحج وهو ما يُسمى آبار على.

(٣) أشعر الهدى: شق أحد جنبى سنام البدنة حتى يسيل دمها ويجعل ذلك علامة لها لتُعرف بأنها هدى.

(٤) العين: الجاسوس.

(٥) أخرجه البخارى فى المغازى باب غزوة الحديبية حديث رقم: (٤١٧٨، ٤١٧٩، ٤١٨٠، ٤١٨١)، وأبو داود فى الجهاد باب صلح العدو: (٢٧٦٥).

وأحرم بالعمرة من ذى الحليفة بعد أن قلد الهدى وأشعره[١].

فقد أرسل بِشر بن سفيان الخزاعى عينًا له[٢]، وقدَّم بين يديه طليعة استكشافية مكونة من عشرين رجلاً، ... وفى ذلك يقول الواقدي: (دعا رسول الله ﷺ عبَّاد بن بشر فقدمه أمامه طليعة فى خيل المسلمين من عشرين فارسًا، وكان فيها رجال من المهاجرين والأنصار)[٣] وكان هدفه ﷺ من ذلك الاستعداد للطوارئ التى يمكن أن يُفاجأ بها، وأيضا فقد كانت مهمة هذه الطليعة استكشاف خبر العدو[٤].

النبى ﷺ يأخذ بمشورة عمر

وأخذ ﷺ بمشورة عمر فى ذى الحليفة عندما قال له: يا رسول الله تدخل على قوم هم لك حرب بغير سلاح ولا كراع؟ فبعث النبى ﷺ إلى المدينة مَن يحمل له الكراع والسلاح، وكان قصده ﷺ من ذلك: الاستعداد لهؤلاء الأعداء، الذين يملكون السلاح والعتاد ما يستطيعون به إلحاق الأذى بالمسلمين والنيل منهم، وهذا التعامل مع سنة الأخذ بالأسباب من هديه الكريم الذى جعله لأمته لتقتدى به من بعده ﷺ، لما فى ذلك من المصالح الكثيرة، ولما فيه من درء مكايد الأعداء الذين يتربصون بالمسلمين الدوائر[٥].

(١) أشعره: إشعار البدن أن يشق أحد جنبى سنام البدنة حتى يسيل دمها- مرويات الحديبية، (ص٥٥).

(٢) انظر: مرويات غزوة الحديبية للحكمي، (ص٥٨، ٥٩).

(٣) انظر: مغازى الواقدى (٢/ ٩٧٤).

(٤) انظر: صلح الحديبية/ محمد باشميل، (ص٣٠٩).

(٥) انظر: القيادة العسكرية فى عهد الرسول، (ص٤٨٩).

النبى ﷺ يصل إلى عسفان

لما وصل رسول الله ﷺ بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبى الخزاعي، فقال: يا رسول الله، هذه قريش قد سمعت بمسيرك ومعها العوذ المطافيل[1]، قد لبسوا جلود النمور يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم عنوة أبدًا، فقال رسول الله ﷺ: «**يا ويح**[2] **قريش لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلَّوا بينى وبين سائر الناس؟ فإن أصابونى كان الذى أرادوا، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وهم وافرون**[3]**، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فماذا تظن قريش؟ والله إنى لا أزال أجاهدهم على الذى بعثنى الله له حتى يظهره الله له أو تنفرد هذه السالفة**»[4]. وقد استشار ﷺ أصحابه لما بلغه خبر استعداد قريش لصده عن دخول البيت الحرام، وعرض ﷺ على الصحابة رضي الله عنهم المشورة فى هذا الأمر على رأيين يحملان العزم والتصميم:

(١) الميل إلى عيال وذرارى الأحابيش الذين خرجوا لمعاونة قريش على مقاتلة المسلمين وصدهم عن البيت.

(٢) قصد البيت الحرام، فمن صده عنه قاتله حتى يتمكن من تحقيق هدفه[5]. ولما عرض ﷺ المشورة فى هذا الأمر على الصحابة تقدم أبو بكر الصديق برأيه الذى تدعمه الحجة الواضحة، حيث أشار على رسول الله ﷺ بترك قتالهم والاستمرار على ما خرج له من أداء العمرة حتى يكون بدء

---

(١) المراد: خرجوا ومعهم النساء والأولاد لئلا يفروا عنهم وهم على الاستعارة.

(٢) يا ويح: كلمة ترحُّم وتوجُّع، انظر: لسان العرب (٣/ ٩٩٦).

(٣) وافرون: جمع وافر وهو الذى لم ينقص منه شيء، لسان العرب (٣/ ٩٥٨).

(٤) البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط فى الجهاد (٣/ ٢٣٧) رقم (٢٧٣٢).

(٥) انظر: القيادة العسكرية فى عهد الرسول ﷺ، (ص٤٨٩).

القتال منهم، فاستحسن النبى ﷺ هذا الرأي، وأخذ به وأمر الناس أن يمضوا فى هذا السبيل[١]. وعندما اقتربت خيل المشركين من المسلمين صلى النبى ﷺ بأصحابه صلاة الخوف بعسفان.

محاولة قريش صد المسلمين عن البيت

وكانت قريش لما سمعت بخروج النبى ﷺ عقدت مجلسًا استشاريًّا، قررت فيه صد المسلمين عن البيت كيفما يمكن فبعد أن أعرض رسول الله ﷺ عن الأحابيش، نقل إليه رجل من بنى كعب أن قريشًا نازلة بذى طوى، وأن مائتى فارس فى قيادة خالد بن الوليد مرابطة بكراع الغميم، فى الطريق الرئيسى الذى يوصل إلى مكة.

النبى ﷺ يغير الطريق وينزل بالحديبية

ولما بلغ رسول الله ﷺ أن قريشًا قد خرجت تعترض طريقه وتنصب كمينًا له ولأصحابه بقيادة خالد بن الوليد، وهو لم يقرر المصادمة، رأى أن يغير طريق الجيش الإسلامى تفاديًا للصدام مع المشركين، فقال: «**مَن رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التى هم بها؟**» فقال رجل من أسلم: أنا يا رسول الله، فسلك بهم طريقا وعرًا بين شعاب شَقَّ على المسلمين السير فيه حتى خرجوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي، وعند ذلك قال رسول الله ﷺ للناس: «**قولوا: نستغفر الله ونتوب إليه**» فقالوا ذلك. فقال: «**والله إنها الحطة التى عُرضت على بنى إسرائيل فلم يقولوها**»[٢].

(١) انظر: ملامح الشورى فى الدعوة الإسلامية/ للشيخ عدنان النحوي، (ص١٦٠).

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٣٨).

فأمر رسول الله ﷺ الناس أن يسلكوا ذات اليمين بين ظهرى الحمش فى طريق تخرجه إلى ثنية المرار، مهبط الحديبية من أسفل مكة، فسلك الجيش ذلك الطريق بخفة ودون أن يشعر به أحد، فما نظر خالد إلا وقترة[1] جيش المسلمين قد ثارت، فعاد مسرعًا هو ومن معه إلى مكة يحذر أهلها، ويأمرهم بالاستعداد لهذا الحدث المفاجئ[2]، وقد أصاب الذعر المشركين وفوجئوا بنزول الجيش الإسلامى بالحديبية حيث تعرضت مكة للخطر، وأصبحت مهددة من المسلمين تهديدًا مباشرًا[3].

۞ يقول اللواء محمود شيت فى هذا الدرس الرائع:

لم تكن حركة المسلمين على هذا الطريق خوفًا من قوات الجيش، فالذى يخاف من عدوه لا يقترب من قاعدته[4] الأصلية، وهى مركز قواته، بل يحاول الابتعاد عن قاعدة العدو الأصلية حتى يطيل خط مواصلات العدو، وبذلك يزيد من صعوباته ومشاكله، ويجعل فرصة النصر أمامه أقل من حالة الاقتراب من قاعدته الأصلية[5].

الفرصة تفوت على خالد بن الوليد

ولقد حاول خالد صد المسلمين، فقام بفرسانه إزاءهم يتراءى الجيشان، ورأى خالد المسلمين فى صلاة الظهر يركعون ويسجدون، فقال:

(١) قتره: غبار.

(٢) غزوة الحديبية لأبى فارس، (ص٣٩).

(٣) انظر: السيرة النبوية لأبى فارس، (ص٣٧٤).

(٤) انظر: السيرة النبوية لأبى فارس، (ص٣٧٤).

(٥) انظر: الرسول القائد/ شيت خطاب، (ص١٨٦، ١٨٧).

لقد كانوا على غِرَّة، لو كنا حملنا عليهم لأصبنا منهم، ثم قرر أن يميل على المسلمين - وهم فى صلاة العصر - ميلة واحدة، ولكن الله أنزل حكم صلاة الخوف، ففاتت الفرصة خالدًا[١].

حبسها حابس الفيل

وعندما اقترب الرسول ﷺ من الحديبية، بركتْ ناقته القصواء، فقال الصحابة رضي الله عنهم: خلأت القصواء[٢]، فقال النبى ﷺ: «**ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخُلق، ولكن حبسها حابس الفيل**»، ثم قال: «**والذى نفسى بيده لا يسألوننى خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها**»[٣] ثم زجرها فوثبت ثم عدل عن دخول مكة، وسار حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد (بئر) قليل الماء، ما لبثوا أن نزحوه ثم اشتكوا إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهمًا من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيها، فجاش لهم بالرى فارتووا جميعا[٤]، وفى رواية: أنه جلس على شفة البئر فدعا بماء فمضمض ومَجَّ فى البئر[٥]. ويمكن الجمع بأن يكون الأمران معًا وقعا، كما ذكر ابن حجر[٦]، ويؤيده ما ذكره الواقدي[٧]، وعروة[٨] من أن الرسول ﷺ تمضمض فى دلو

---

(١) الرحيق المختوم (ص: ٣٦٥).

(٢) بركت من غير علة ظاهرة، فلم تبرح مكانها.

(٣) انظر: السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية، (ص٤٨٤).

(٤) نفس المصدر، (ص٤٨٤).

(٥) الفتح (١٤/ ٧٥٨) رقم (٣٥٧٧).

(٦) الفتح (١١/ ١٦٤) رقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

(٧) المغازى (٢/ ٥٨٨).

(٨) من رواية أبى الأسود عنه كما ذكر ابن حجر فى الفتح (١١/ ١٦٤).

وصبَّه في البئر، ونزع سهمًا من كنانته فألقاه فيها ودعا ففارت[(١)].

۞ وفي بروك ناقة رسول الله ﷺ وقسمه بعد ذلك دروس وعبر منها:

(١) كل شيء في هذا الكون يسير بأمر الله ومشيئته، ولا يخرج في سيره عن مشيئته وإرادته، فتأمل في ناقة رسول الله ﷺ أين بركت، وكيف كره الصحابة بروكها وحاولوا إنهاضها لتستمر في سيرها فيستمروا في سيرهم إلى البيت العتيق مهما كانت النتائج، ولكن الله سبحانه وتعالى أراد غير ذلك[(٢)].

(٢) وقد استنبط ابن حجر العسقلاني رَحِمَهُ اللهُ فائدة جليلة من قوله ﷺ: «**حبسها حابس الفيل**»[(٣)] فقال: وفي هذه القصة جواز التشبيه من الجهة العامة وإن اختلفت الجهة الخاصة؛ لأن أصحاب الفيل كانوا على باطل محض، وأصحاب هذه الناقة كانوا على حَقٍّ محض، لكن جاء التشبيه من جهة إرادة الله منع الحرم مطلقًا، أما من أهل الباطل فواضح، وأما من أهل الحق فللمعنى الذي تقدم ذكره[(٤)].

(٣) ومن الفوائد أن المشركين وأهل البدع والفجور، والبغاة والظلمة إذا طلبوا أمرًا يعظمون فيه حرمة من حرمات الله تعالى، أُجيبوا إليه وأُعطوه، وأُعينوا عليه، وإن مُنعوا غيره، فيُعانون على ما فيه تعظيم حرمات الله تعالى، لا على كفرهم وبغيهم، ويُمنعون مما سوى ذلك، فكل من التمس المعاونة على محبوبٍ لله تعالى مُرْضٍ له، أجيب إلى ذلك كائنًا من كان، ما لا يترتب على إعانته على ذلك المحبوب مبغوض لله أعظم منه،

---

(١) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، (ص٤٨٤).

(٢) انظر: صلح الحديبية لأبي فارس، (ص٤٣).

(٣) انظر: فتح الباري لابن حجر (٦/ ٢٦٠).

(٤) المصدر نفسه (٦/ ٦١).

وهذا من أدق المواضيع وأصعبها، وأشقها على النفوس[١].

(٤) إن الله سبحانه وتعالى، جلّت قدرته، وعزّت عظمته، قضى ألا يكون قتال بين المسلمين والمشركين من أهل مكة فى هذه الغزوة بالذات؛ لحكم ظهرت فيما بعد منها:

أ- دخول المسلمين بالقوة يعنى أن تَحْدُث مذابح، وتزهق أرواح كثيرة، وتُسفك دماء غزيرة من الطرفين، وهذا أمر لم يُرده البارى سبحانه، وكان لمصلحة الفريقين المؤمنين والمشركين.

ب- إن من المحتمل أن ينال الأذى والقتل والتشريد على أيدى المؤمنين بعض المستضعفين من إخوانهم من المسلمين فى مكة، وهذا فيه ما فيه من المعرة التى لا يليق بمسلم أن يقع فيها.

قال سبحانه: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥)﴾[٢].

ج- لقد سبق فى علم الله ﷻ أن هؤلاء الذين يقفون اليوم صادّين رسول الله ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم عن المسجد الحرام، هم الذين سيفتح قلوبهم إلى الإسلام، ويستفتح الله على أيديهم بلادًا كثيرة، حين يحملون هذه الرسالة للناس، وينيرون ظلمة الطريق للمدلجين[٣].

---

(١) انظر: صلح الحديبية لأبى فارس، (ص٤٧).

(٢) سورة الفتح: الآية: (٢٥).

(٣) صلح الحديبية لأبى فارس، (ص٤٥) نقلًا عن غزوات الرسول.

معجزات النبى ﷺ فى قصة الحديبية

۞ عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحًا، ونحن نعد الفتح: بيعة الرضوان يوم الحديبية،... كنا مع النبى ﷺ أربع عشرة مائة، والحديبية بئر فنزحناها، فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك النبى ﷺ فأتى فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء منها، فتوضأ، ثم مضمض، ودعا، ثم صبَّه فيها، فتركها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا نحن وركائبنا»(١).

وفى رواية: «فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء يتبرضه الناس تبَرُّضًا فلم يُلبثه الناس حتى نزحوه، وشُكى إلى رسول الله ﷺ العطش،فانتزع سهمًا من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالرى حتى صدروا عنه»(٢).

۞ وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «عطش الناس يوم الحديبية، ورسول الله ﷺ بين يديه ركوة، فتوضأ منها، ثم أقبل الناس نحوه، فقال رسول الله ﷺ: مالكم؟ قالوا: يا رسول الله، ليس عندنا ماء نتوضأ به ولا نشرب إلا ما فى ركوتك. قال: فوضع النبى ﷺ يده فى الركوة فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون قال فشربنا وتوضأنا»(٣).

۞ وعن سلمة بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة، فأصابنا جهد(٤) حتى هممنا أن ننحر بعض ظهرنا، فأمر نبى الله ﷺ فجمعنا

(١) أخرجه البخارى فى المغازى باب غزوة الحديبية حديث: (٤١٥٠، ٤١٥١).

(٢) رواه البخاري (٢٧٣٤) الشروط.

(٣) رواه البخارى (٧/ ٥٠٥) المغازى، ومسلم مختصرًا (١٣/ ٤) الإمارة، وأحمد (٣/ ٣٢٩).

(٤) الجهد: المشقة.

مزاودنا[١] فبسطنا له نطعًا[٢]، فاجتمع زاد القوم على النطع، قال: فتطاولت لأحزره[٣] كم هو؟ فحزرته كربضة العنز[٤] ونحن أربع عشرة مائة، قال: فأكلنا حتى شبعنا جميعًا، ثم حشونا جُربنا[٥]»[٦].

السفارة بين الرسول وقريش

بذل رسول الله ﷺ ما فى وسعه لإفهام قريش أنه لا يريد حربًا معهم، وإنما يريد زيارة البيت الحرام وتعظيمه وهو حق للمسلمين، كما هو حق لغيرهم، وعندما تأكدت قريش من ذلك أرسلت إليه من يفاوضه، ويتعرف على قوة المسلمين ومدى عزمهم على القتال إذا أُلجئوا إليه، وطمعًا فى صد المسلمين عن البيت بالطرق السلمية من جهة ثالثة[٧].

بُديل بن ورقاء يتوسط بين النبى ﷺ وقريش

جاء بُدَيل بن ورقاء فى رجال من خزاعة، وكانت خزاعة عيبة[٨] نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة، وبيَّنوا أن قريشًا تعتزم صد المسلمين عن

---

(١) مزاودنا: جمع مزود وهو الوعاء الذى يحمل فيه الزاد.

(٢) بسطنا له نطعًا: وضعنا له بساطًا أى لما معنا من الزاد.

(٣) تطاولت لأحزره: أى لأقدره وأخمنه.

(٤) ربضة العنز: مبركها أو كقدرها وهى رابضة.

(٥) جُربنا: جمع جراب: الوعاء من الجلد يجعل فيه الزاد.

(٦) أخرجه البخارى فى الشركة باب الشركة فى الطعام والنهد والعروض رقم: (٢٤٨٤، ٢٩٨٢) ـ مسلم فى اللقطة باب استحباب خلط الأزواد إذا قلت والمؤاساة فيها حديث رقم: (١٧٢٩) (٣/ ١٣٥٤).

(٧) انظر: السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية، (ص٤٨٥).

(٨) أى خاصته وأصحاب سره.

دخول مكة، فأوضح لهم الرسول ﷺ سبب مجيئه، وذكر لهم الضرر الذى وقع على قريش من استمرار الحرب، واقترح عليهم أن تكون بينهم هدنة إلى وقتٍ معلوم حتى يتضح لهم الأمر، وإن أبوا فلا مناص من الحرب، ولو كان فى ذلك هلاكه، فنقلوا ذلك إلى قريش(١)، وقالوا لهم: يا معشر قريش إنكم تعجلون على محمد، إن محمدًا لم يأتِ لقتال، وإنما جاء زائرًا هذا البيت، فاتهموهم وخاطبوهم بما يكرهون، وقالوا: وإن كان إنما جاء لذلك فلا والله لا يدخلها علينا عنوة أبدًا ولا تتحدث بذلك العرب(٢).

وقد ظهرت براعة النبى ﷺ السياسية فى عرضه على مشركى مكة الهدنة والصلاح؛ لأن فى ذلك فوائد كثيرة منها:

(أ) فبالهدنة يضمن حياد قريش ويعزلها عن أى صراع يحدث فى الجزيرة العربية، سواء كان هذا الصراع مع القبائل العربية الأخرى، أم مع اليهود ... ذلك العدو اللئيم الغادر الذى يتربص بالمسلمين الدوائر.

(ب) حرص الرسول ﷺ على أن يبقى الاتصال مفتوحًا بينه وبين قريش، ليسمع منهم ويسمعوا منه بواسطة الرسل، والسفراء، وفى هذا تقريب للنفوس وتبريد لجو الحرب، وإضعاف لحماسهم نحو القتال.

(ج) حرص النبى ﷺ على أن تدرك خزاعة بقيادة بديل والركب الذى معه أن حليفهم قوي، فتزداد ثقتهم به وحلفهم له ولبنى هاشم من قبل الإسلام، فقد بقى ولم يُلْغَ، وتأكد فى صلح الحديبية.

(د) إن العقلاء الذين يفكرون بعقولهم حين يسمعون كلام الرسول ﷺ

---

(١) البخاري، كتاب الشروط رقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٤٠).

وأنه جاء مُعظمًا للبيت، والمشركون يردونه، وهو يصر على تعظيمه، سيقف هؤلاء بجانبه ويتعاطفون معه فيقوى مركزه، ويضعُف مركز قريش الإعلامى والدينى فى نفوس الناس.

(هـ) إن مشركى مكة لم يطمئنوا إلى كلام بديل الذى نقله إليهم؛ ذلك لأنهم يعلمون أن خزاعة كانت عيبة نصح لرسول الله ﷺ، ويشعرون بودِّ خزاعة للرسول والمسلمين[1].

(و) ويُؤخَذ من جواب رسول الله ﷺ لبديل بن ورقاء حسن التلطف فى الوصول إلى الطاعات، وإن كانت غير واجبة، ما لم يكن ذلك ممنوعًا شرعًا؛ لأن النبى ﷺ أجاب المشركين لما طلبوا منه، ولم يُظهر لهم ما فى النفوس من البغض لهم والكراهية فيهم لطفًا منه عليه السلام فيما يؤمل من البلوغ إلى الطاعة التى خرج إليها[2].

سفارة مكرز بن حفص

وبعثت قريش سفيرها مكرز بن حفص بن الأخيف، ولما وصل ورآه النبّى ﷺ وهو يتقدم نحوه حتى قال ﷺ: **«هذا رجل غادر»** ولما انتهى إلى رسول الله ﷺ وكلّمه قال له نحوًا مما قال لبديل بن ورقاء وأصحابه فرجع السفير الغادر فبلغ قريشًا ما سمعه من رسول الله ﷺ.

إرسال سيد الأحابيش للتفاوض مع النبى ﷺ

ثم قام سيد الأحابيش الحليس بن علقمة الكنانى وقال لهم: دعونى آتيه؟ فقالوا: ائته، فلما أشرف على النبى ﷺ وأصحابه قال رسول الله ﷺ:

(١) انظر: صلح الحديبية لأبى فارس، (ص٦٧).

(٢) المصدر نفسه، (ص٦٨).

«**هذا فلان: وهو من قوم يُعظمون البُدن، فابعثوها له**»، فبُعثت له، واستقبله الناس يُلبون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله، ما ينبغى لهؤلاء أن يُصَدُّوا عن البيت، فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البُدن قد قُلدت وأُشعرت: فما أرى أن يُصدوا عن البيت».

ولذلك استنكر تصرف قريش بشدة، وانصرف سيد بنى كنانة عائدًا من حيث أتى دون أن يفاتح النبى ﷺ بشيء، أو أن يفاوضه كما كان مقررًا من قبل، واعتبر عمل قريش عدوانيًا ضد زوار بيت الله الحرام، ولا يجوز لأحد أن يؤيدها أو أن يناصرها على ذلك(١)، فرجع محتجًا على قريش التى أعلنت غضبها لصراحة الحليس، وحاولت أن تتلافى هذا الموقف الذى يهدد بانقسام خطير فى جبهة قريش العسكرية، ونسف الحلف المعقود بين قريش والأحابيش، وقالوا لزعيم الأحابيش: إنما كل ما رأيت هو مكيدة من محمد وأصحابه، فاكفُف عنا حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به(٢).

لقد كان النبى ﷺ عالمًا ومستوعبًا لشخصية الحليس ونفسيته، ويظهر ذلك فى قوله ﷺ: «**هذا من قوم يتألهون**». فالواضح من هذه المعلومة أن النبى ﷺ كان على معرفة تامة بهذا الرجل، وبحكم هذه المعرفة قد درس شخصيته دراسة موضوعية وذلك بما كان عنده من حُبٍّ شديد من التعظيم للحرمات والمقدسات والعمل على الاستفادة الكاملة من هذا الجانب فى كسب المعركة، وعلى هذا الأساس فقد قام ﷺ بوضع خطة محكمة مناسبة تقضى بوضع الحقائق كاملة أمام هذا الرجل وإظهار موقف

(١) انظر: منهج الإعلام الإسلامى فى صلح الحديبية، (ص١٠٨).
(٢) الواقدي، المغازى (٢/ ٦٠٠).

المسلمين أو على الأقل وقوفه على الحياد فى هذا الصراع.

والجدير بالذكر أن الحليس كان يتمتع بسمعة طيبة بين العرب جميعًا؛ وذلك لما يتميز به من رجاحة العقل، ولما يتمتع به من مركز ممتاز بوصفه زعيمًا وقائدًا لقوات الأحابيش، كما كان يتمتع باحترام وتقدير من جانب النبى ﷺ وقريش على حَدٍّ سواء، لهذا فإنه إذا ما تبين له أن الحق والعدل فى جانب المسلمين فإنه يستطيع أن يقوم بدورٍ مهم فى إحلال السلام بين الطرفين المتنازعين والعمل على كبح جماح قريش، وإقناعها بالعدول عن موقفها العدائى ضد المسلمين وصدهم عن المسجد الحرام، ومن هنا فقد كانت الدراسة النفسية التى قام بها رسول الله ﷺ لشخصية الحليس تتناسب كُليًّا مع المبادئ التى يؤمن بها، وعلى ذلك فقد كانت درجة التأثير والاستجابة الناتجة عن هذه العملية إيجابية تمامًا[١] ومُرضية.

وهكذا استطاع النبى ﷺ أن يؤثر على عروة بن مسعود والحليس بن علقمة؛ مما جعل الانشقاق يدب فى صفوف مشركى مكة.

يقول الأستاذ العقاد عن قدرة الرسول فى توظيف الطاقات وإدارة الصراع: كان رسول الله ﷺ الخبير بتجنيد بعوث الحرب وبعوث الاستطلاع، وكان خبيرًا كذلك بتجنيد كل قوة فى يده متى وجب القتال، إن كانت قوة رأى أو قوة لسان أو قوة نفوذ، فما نعرف أن أحدًا وجَّه قوة الدعوة توجيهًا أشد ولا أنفع فى بلوغ الغاية من توجيهه عليه السلام... ثم يضيف الكاتب قائلًا: والدعوة فى الحرب، كما لا يخفى، لها غرضان أصيلان من بين أغراضها العديدة، أحدهما: إقناع خصمك والناس بحقك، وثانيهما: إضعافه عن قتالك

(١) انظر: منهج الإعلام الإسلامى فى صلح الحديبية، (ص١١١).

بإضعاف عزمه وإيقاع الشتات بين صفوفه، ثم يقول: وربما بلغ النبى ﷺ برجل واحد فى هذا الغرض ما لم تبلغه الدول بالفرق المنظمة[١].

عروة بن مسعود يفاوض النبى ﷺ

فقام عروة بن مسعود فقال: أى قوم، ألستم بالوالد[٢]؟ قالوا: بلى، قال: أَوَ لست بالولد[٣]؟ قالوا: بلى، قال: فهل تتهمونى، قالوا: لا، قال: ألستم تعلمون أنى استنفرت أهل عكاظ، فلما بلحوا علىَّ[٤] جئتكم بأهلى وولدى ومن أطاعنى؟ قالوا: بلى قال: فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشدٍ فاقبلوها، ودعونى آته، قالوا: ائته، فأتاه، فجعل يكلم النبى ﷺ فقال النبى ﷺ نحوًا من قوله لبديل، فقال عروة عند ذلك: أى محمد، أرأيت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى، فإنى والله لا أرى وجوهًا[٥] وإنى لأرى أشوابًا[٦] من الناس خليقًا أن يفروا ويدعوك، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: امصُص بَظر اللات[٧]، أنحن نفر عنه وندعه؟

فقال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر، قال: أما والذى نفسى بيده، لولا يد[٨]

---

(١) انظر: عبقرية محمد ﷺ، (ص٤٩).

(٢) ألستم بالوالد: مثل الأب فى الشفقة لولده.

(٣) أَوَلست بالولد: مثل الابن فى النصح لأبيه.

(٤) بلحوا علىَّ: امتنعوا وعجزوا.

(٥) وجوهًا: الوجوه: يعنى الأعيان والأشراف.

(٦) الأشواب: الأخلاط.

(٧) امصص بظر اللات: البظر ما تقطعه الخافضة من بظر المرأة عند الختان وكان هذا يستعمل عند العرب للشتم، لكن بلفظ الأم فاستعار الصديق ذلك مبالغة فى سب عروة وإهانة لمعبوده.

(٨) اليد: النعمة.

كانت لك عندى لم أجزك بها لأجبتك.

لقد حاول عروة بن مسعود أن يشنَّ على المسلمين حربًا نفسية حتى يهزمهم معنويًّا، فاستخدم عنصر الإشاعة، ويظهر ذلك عندما لوَّح بقوة قريش العسكرية، معتمدًا على المبالغة فى تصوير الموقف بأنه سيؤول لصالح قريش لا محالة، وذلك بأن يوقع الفتنة والإرباك فى صفوف المسلمين، وذلك حينما حاول إضعاف الثقة بين القائد وجنوده عندما قال للنبى ﷺ: إنى لأرى أشوابًا من الناس خليقًا أن يفروا ويدعوك.. حاول ذلك من أجل التأثير على نفسيات المسلمين ولخدمة أهداف قريش العسكرية والإعلامية، وحاول أيضا أن يفتعل أزمة عسكرية كبيرة بين النبى ﷺ وجنوده من أجل التأثير على معنوياتهم وتحطيم عزائمهم، وهذا من أقوى أساليب الحرب النفسية التى استُخدمت ضد المسلمين، أثناء تلك المفاوضات. وحاول عروة أن يثير الرعب وذلك بتخويف المسلمين من قوة قريش التى لا تُقهر، وتصوير المعركة بأنها فى غير صالحهم،.. لقد مارس عروة بن مسعود فى مفاوضته عناصر الحرب النفسية من إشاعة وافتعال الأزمات وإثارة الرعب(١)، إلا أن تلك العناصر تحطمت أمام الإيمان العميق والتكوين الدقيق والصف الإسلامى المرصوص.

صورة مشرقة للولاء والبراء

ومن المفارقات الرائعة التى حصلت أثناء المفاوضات مع عروة بن مسعود وهى من عجائب الأحداث التى يُستشف منها الدليل القاطع على قوة الإيمان التى كان يتمتع بها أصحاب النبى ﷺ، وعلى قدرة هذا الدين

(١) انظر: منهج الإعلام الإسلامى فى صلح الحديبية/ سليم حجازي، (ص١٣١، ١٣٢).

فى تحويل الإنسان من شيطان مريد إلى إنسان فاضل نبيل، حيث كان أحد الذين يتولون حراسة النبى ﷺ أثناء محادثاته مع عروة بن مسعود الثقفى فى الحديبية هو المغيرة بن شعبة[١] -ابن أخى عروة بن مسعود نفسه- وكان المغيرة هذا قبل أن يهديه الله للإسلام شابًّا فاتكًا سِكِّيرًا، قاطعًا للطريق غير أن دخوله للإسلام حوَّله إلى إنسانٍ آخر، وقد أصبح بفضل الله تعالى من الصفوة المؤمنة، وقد وقع عليه الاختيار ليقوم بمهامّ حراسة النبى ﷺ فى ذلك الجو المُلبَّد بغيوم الحرب، وكان من عادة الجاهلية فى المفاوضات، أن يمسك المفاوض بلحية الذى يراه ندًّا له أثناء الحديث، وعلى هذه القاعدة كان عروة بن مسعود يمسك بلحية رسول الله ﷺ أثناء المناقشة، الأمر الذى أغضب المغيرة بن شعبة الذى كان قائمًا على رأس رسول الله ﷺ بالسيف يحرسه وعلى وجهه المِغفر فانتهر عمه وقرع يده بقائم السيف قائلاً له: اكفُفْ يدك عن مس لحية رسول الله ﷺ قبل أن لا تصل إليك، وكان النبى ﷺ يبتسم للذى يجرى بين عروة المشرك وبين ابن أخيه المؤمن، ولما كان المغيرة بن شعبة يقف بلباسه الحربى متوشحًا بسيفه ودرعه وعلى وجهه المغفر، فإن عمه عروة لم يكن باستطاعته معرفته، فقال للنبى ﷺ وهو فى أشد الغضب، ليت شعرى من أنت يا محمد؟ من هذا الذى أرى من بين أصحابك؟ فقال له رسول الله ﷺ: «**هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة**»، فقال له عمه: وأنت بذلك يا غُدر؟ لقد أورثتنا العداوة من ثقيف أبد الدهر، والله ما غسلت غدرتك إلا بالأمس ... كان المغيرة صَحِب قومًا فى الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء فأسلم فقال النبى

(١) أسلم قبل عمرة الحديبية وشهدها، وشهد بيعة الرضوان- أصيبت عينه فى اليرموك، وكان رسول سعد بن أبى وقاص إلى رستم، الإصابة (٣/ ٤٥٢)

ﷺ: أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه فى شيء[١].

شيء يفوق خيال المشركين

لقد فشل عروة فى مفاوضاته، ورجع مُحذرًا قريشًا من أن تدخل فى صراع مسلح مع النبى ﷺ وأصحابه وقال لهم: يا قوم، والله لقد وفدت على الملوك؛ وفدت على قيصر، وكسرى، والنجاشي، وإنى والله ما رأيت ملكًا قط أطوع فيمن هو بين ظهرانيه من محمد وأصحابه، والله ما يشدون إليه النظر، وما يرفعون عنده الصوت، وما يكفيه إلا أن يشير إلى أمر فيُفعل، وما يتنخم وما يبصق إلا وقعت فى يدى رجل منهم يمسح بها جلده، وما يتوضأ إلا ازدحموا عليه أيهم يظفر منه بشيء، وقد حزرت القوم، واعلموا إنكم إن أردتم السيف، بذلوه لكم، وقد رأيت قومًا ما يبالون ما يُصنع بهم، إذا منعوا صاحبهم، والله لقد رأيت نسيات معه، وإن كن ليُسلمنه أبدًا على حال، فروا رأيكم، وإياكم وإضجاع[٢] الرأي، فمادوه يا قوم، اقبلوا ما عرض فإنى لكم ناصح مع أنى أخاف ألا تُنصَروا عليه؛... رجل أتى هذا البيت مُعظمًا له، معه الهدي، ينحره وينصرف، فقالت قريش: لا تكلم بهذا يا أبا يعفور[٣]، لو غيرك تكلم بها لَلُمناه، ولكن نرده عن البيت فى عامنا هذا ويرجع قابل[٤].

لقد انتقلت الحرب النفسية وتأثيرها فى صفوف المسلمين لتعمل داخل جبهة قريش وفى نفوسهم، فقد كان تصوير عروة لما رآه صادقًا، حيث بيَّن

(١) البخاري، كتاب فى الشروط (٣/ ٢٣٨) رقم (٢٧٣٢).

(٢) إضجاع الرأي: أى الوهن فى الرأي.

(٣) أبا يعفور: كنية عروة بن مسعود الثقفي.

(٤) انظر: مغازى الواقدى (٢/ ٥٩٨).

لقريش وضع المسلمين فى الحديبية، من طاعتهم لنبيهم الكريم وحبهم له وتفانيهم بالدفاع عنه، وبما يتمتعون به من معنويات عالية جدًّا، واستعداد عسكرى ونفسى يفوق الوصف، فكان ذلك بمثابة التحذير الفعلى لقريش بعدم التعجيل والدخول فى حرب مع النبى ﷺ وأصحابه، مما قد تكون نتائج هذه المعركة لصالح المسلمين، الأمر الذى أُسقط فى أيدى زعمائها، ولم تكن قريش تتوقعه أبدًا فى تقويمها للأمور، لقد كان وقع كل كلمة قالها سيد ثقيف كالصاعقة على مسامع نفوس زعماء قريش، لقد كان ﷺ مُوفَّقًا من قِبَل الله تعالى، ولذلك نجد أثره على عروة بن مسعود، مما جعل الانشقاق يدب فى معسكر قريش، وأخذت جبهة قريش تتداعى أمام قوة الحق الصامدة، وكذلك فقد انهارت حجة قريش فى جمعها للعرب ضد النبى ﷺ.

لقد نجح النبى ﷺ بحكمته وذكائه نجاحًا عظيمًا، باستخدام الأساليب الإعلامية والدبلوماسية المتعددة للحصول على الغاية المنشودة، وهى تفتيت جبهة قريش الداخلية، وإيقاع الهزيمة فى نفوسهم، وإبعاد حلفائهم عنهم وإن هذه النتيجة لتُعَدُّ بحقٍّ نصرًا ساحقًا حققه رسول الله ﷺ على الجبهات السياسية والإعلامية والعسكرية(١).

سفير النبى ﷺ

رأى النبى ﷺ أن من الضرورة إرسال مبعوث خاص من جانبه إلى قريش يبلغهم نواياه السلمية بعدم الرغبة فى القتال، واحترام المقدسات، ومن ثم أداء مناسك العمرة، والعودة إلى المدينة، فوقع الاختيار على أن يكون مبعوث الرسول ﷺ إلى قريش (خراش بن أمية الخزاعي) وحمله

(١) انظر: منهج الإعلام الإسلامى فى صلح الحديبية، (ص١٤٥).

على جمل يقال له (الثعلب)، فلما دخل مكة عقرت به قريش وأرادوا قتل خراش فمنعهم الأحابيش، فعاد خراش بن أمية إلى رسول الله ﷺ، وأخبره بما صنعت قريش.

النبي ﷺ يرسل عثمان بن عفان سفيرًا إلى قريش

ولم يكلّ الحبيب ﷺ ولم يملَّ في سبيل تحقيق السِّلم، وإخماد نار الحرب التي يشعلها الكافرون.

❁ فها هو ﷺ يدعو عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليبعثه إلى مكة فاعتذر لرسول الله ﷺ عن الذهاب إليهم، وأشار على رسول الله ﷺ أن يبعث عثمان مكانه، وعرض عمر رضي الله عنه رأيه هذا مُعززًا بالحجة الواضحة، وهي ضرورة توافر الحماية لمن يخالط هؤلاء الأعداء، وحيث إن هذا الأمر لم يكن متحققًا بالنسبة لعمر رضي الله عنه، فقد أشار على النبي ﷺ بعثمان رضي الله عنه، لأن له قبيلة تحميه من أذى المشركين حتى يبلغ رسالة رسول الله ﷺ، وقال لرسول الله: إني أخاف قريشًا على نفسي، قد عرفت عداوتي لها، وليس بها من بني عدي من يمنعني، وإن أحببت يا رسول الله دخلت عليهم[1]، فلم يقل رسول الله شيئًا، قال عمر: ولكن أدلك يا رسول الله على رجل أعز بمكة مني، وأكثر عشيرة وأمنع (عثمان بن عفان)، فدعا رسول الله ﷺ عثمان رضي الله عنه فقال: «**اذهب إلى قريش فخبِّرهم أنا لم نأتِ لقتال أحد، وإنما جئنا زُوارًا لهذا البيت، معظمين لحرمته، معنا الهدي، ننحره وننصرف**» فخرج عثمان بن عفان رضي الله عنه حتى أتى بلدح[2]، فوجد قريشًا هنالك فقالوا:

---

(١) انظر: المغازي للواقدي (٢/ ٦٠٠).

(٢) مكان قريب من مكة.

أين تريد؟ قال: بعثنى رسول الله ﷺ إليكم يدعوكم إلى الله وإلى الإسلام، تدخلون فى الدين كافة، فإن الله مُظهرٌ دينه ومُعز نبيه، وأخرى تُكفون ويلى هذا منه غيركم، فإن ظفروا بمحمد فذلك ما أردتم، وإن ظفر محمد كنتم بالخيار أن تدخلوا فيما دخل فيه الناس أو تقاتلوا وأنتم وافرون جامون، إن الحرب قد نهكتكم، وأذهبت بالأماثل منكم.. فجعل عثمان يكلمهم فيأتيهم بما لا يريدون ويقولون: قد سمعنا ما تقول ولا كان هذا أبدًا، ولا دخلها علينا عنوة، فارجع إلى صاحبك فأخبره أنه لا يصل إلينا.

فقام إليه أبان بن سعد بن العاص فرحب به وأجاره، وقال: لا تقصر عن حاجتك، ثم نزل عن فرس كان عليه، فحمل عثمان على السرج وردفه وراءه، فدخل عثمان مكة، فأتى أشرافهم رجلاً رجلاً، أبا سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية وغيرهما، منهم من لقى ببلدح، ومنهم من لقى بمكة، فجعلوا يردون عليه: إن محمدًا لا يدخلها علينا أبدًا(١).

وعرض المشركون على عثمان رضي الله عنه أن يطوف بالبيت فأبى، وقام عثمان بتبليغ رسالة رسول الله ﷺ إلى المستضعفين بمكة، وبشَّرهم بقرب الفرج والمَخرج، وأخذ منهم رسالة شفهية إلى رسول الله ﷺ جاء فيها: اقرأ على رسول الله ﷺ منا السلام، إن الذى أنزله بالحديبية لقادر على أن يُدخله بطن مكة(٢).

وهو الذى كفَّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم

۞ ولما رأى شباب قريش الطائشون الطامحون إلى الحرب، رغبة

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٢٩٠).

(٢) انظر: غزوة الحديبية لأبى فارس، (ص٨٥).

زعمائهم فى الصلح، فكروا فى خطة تحول بينهم وبين الصلح، فقرروا أن يخرجوا ليلاً ويتسللوا إلى معسكر المسلمين، ويُحدثوا أحداثًا تشعل نار الحرب،... وفعلاً قد قاموا بتنفيذ هذا القرار، فقد خرج سبعون أو ثمانون منهم ليلاً فهبطوا من جبل التنعيم، وحاولوا التسلل إلى معسكر المسلمين، غير أن محمد بن مسلمة قائد الحرس اعتقلهم جميعًا... ورغبة فى الصلح أطلق سراحهم النبى ﷺ وعفا عنهم، وفى ذلك أنزل الله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ﴾[1][2][3].

۞ هكذا عفا النبّى ﷺ عنهم وخلّى سبيلهم فتحقق وصفه فى التوراة وأنه لا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح فصلى الله عليه وسلم، وهكذا يتجلى الإحسان المحمدى، وتنكشف إساءة المشركين[4].

وهذا سلمة بن الأكوع يحدثنا عما حدث؛ قال: ثم إن المشركين راسلونا الصلح حتى مشى بعضنا فى بعض، واصطلحنا قال: وكنت تبيعًا[5] لطلحة بن عبيد الله، أسقى فرسه، وأحسه[6] وأخدمه وآكل من طعامه، وتركت أهلى ومالي، مهاجرًا إلى الله ورسوله، قال: فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة، واختلط بعضنا ببعض، أتيت شجرة فكسحت شوكها[7]

(١) سورة الفتح: الآية: (٢٤).

(٢) الرحيق المختوم (ص: ٣٦٨).

(٣) أخرجه مسلم (١٣٣) (١٨٠٨) وأبو داود (٢٦٨٨) والترمذى (٣٢٦٠).

(٤) هذا الحبيب يا محب/ الجزائرى (ص: ٣٤٢).

(٥) تبيعًا: خادمًا أتبعه (شرح النووى ١٢/ ١٧٦).

(٦) وأحسه: أى أحك ظهره بالمحسة لأزيل عنه الغبار، (شرح مسلم، النووى ١٢/ ١٧٦).

(٧) فكسحت شوكتها: أى كنست ما تحتها من الشوك (شرح مسلم، النووى ١٢/ ١٧٦).

فاضطجعت في أصلها، قال: فأتاني أربعة من المشركين من أهل مكة، فجعلوا يقعون في رسول الله ﷺ، فأبغضتهم فتحولت إلى شجرة أخرى، وعلقوا سلاحهم واضطجعوا، فبينما هم كذلك إذ نادى منادٍ من أسفل الوادي: يا للمهاجرين قُتل ابن زنيم، قال: فاخترطت سيفي[١] ثم شددت على أولئك الأربعة وهم رقود، فأخذت سلاحهم فجعلت ضغثًا[٢] في يدي قال: ثم قلت: والذي كرم وجه محمد ما يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذي فيه عيناه[٣]، قال: ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ قال: وجاء عمي عامر برجل من العبلات[٤] يقال له مكرز يقوده إلى رسول الله ﷺ على فرس مجفف[٥] في سبعين من المشركين، فنظر إليهم رسول الله ﷺ فقال: «**دعوهم يكن لهم بدء الفجور وثناه**»[٦]، فعفا عنهم رسول الله ﷺ وأنزل الله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾[٧][٨].

قال ابن كثير: هذا امتنان من الله تعالى على عباده المؤمنين حيث كَفَّ أيدي المشركين عنهم، فلم يصل إليهم منهم سوء، وكَفَّ أيدي المؤمنين عن

(١) فاخترطت سيفي: أي سللته (شرح مسلم، النووي ١٢/ ١٧٦).

(٢) ضغثًا: الضغث: الحزمة (شرح مسلم، النووي ١٢/ ١٧٦).

(٣) الذي فيه عيناه: يريد رأسه.

(٤) العبلات: قوم من قريش نسبوا إلى أمهم عبلة بنت عبيد (شرح مسلم، النووي ١٢/ ١٧٧).

(٥) مجفف: أي عليه تجفاف وهو ثوب كالجل يلبسه الفرس ليقيه من السلاح.

(٦) (وثناه) أي عودة ثانية (شرح مسلم للنووي ١٢/ ١٧٦).

(٧) سورة الفتح: الآية: (٢٤).

(٨) مسلم، كتاب الجهاد والسير (٣/ ١٤٣٢).

المشركين فلم يقاتلوهم عن المسجد الحرام، بل صان كلًّا من الفريقين وأوجد بينهم صلحًا فيه خير للمؤمنين وعافية فى الدنيا والآخرة[(١)].

قريش تحتبس عثمان عندها

۞ ومما يُذكر هنا أن مكة لم تخلُ من رجال مؤمنين ونساء مؤمنات.

كانت قلوبهم معلقة بالمسلمين المحجوزين خارج مكة.

لقد انتشر الإسلام سرًّا فى بيوت كثيرة طالما تشوقت إلى اليوم الذى تستطيع فيه أن تُظهر إيمانها، وتتخلص من سطوة الكفر عليها.

ويظهر أن عثمان اتصل بأولئك النفر المؤمن وبشَّرهم بقرب الفتح، فرأت قريش أن عثمان قد عدا الحدود المعهودة، وأمرت باحتباسه عندها، وشاع ـ لدى المسلمين ـ أن عثمان قُتل[(٢)].

إشاعة مقتل عثمان... وبيعة الرضوان

واحتبسته قريش عندها ـ ولعلهم أرادوا أن يتشاوروا فيما بينهم فى الوضع الراهن، ويُبرموا أمرهم، ثم يردوا عثمان بجواب ما جاء به من الرسالة ـ وطال الاحتباس، فشاع بين المسلمين أن عثمان قُتل، فقال رسول الله ﷺ لما بلغته تلك الإشاعة: «**لا نبرح حتى نناجز القوم**»[(٣)]، ثم دعا أصحابه إلى البيعة، فثاروا إليه يبايعونه على أن لا يفروا، وبايعته جماعة على الموت.

بيعة الرضوان

لما بلغ النبى ﷺ أن عثمان رضي الله عنه قُتل، دعا رسول الله أصحابه إلى مبايعته

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ١٩٢).

(٢) فقه السيرة للغزالى (ص: ٣٧٢).

(٣) أخرجه ابن هشام فى «السيرة» [٣/ ٧٨٠].

على قتال المشركين ومناجزتهم، فاستجاب الصحابة وبايعوه على الموت[(١)].

أول من بايع رسول الله ﷺ

عن الشعبي قال: «أتاني عامري وأسدي يعني كانا متفاخرين، فقلت: كان لبني أسد ست خصال ما كانت لحي من العرب... أول من بايع بيعة الرضوان أبو سنان عبد الله بن وهب الأسدي قال: يا رسول الله ابسط يدك أبايعك قال: «على ماذا؟» قال: على ما في نفسي قال: «فتح وشهادة» قال: نعم، فبايعه قال: فخرج الناس يبايعون على بيعة أبي سنان»[(٢)].

من تخلف عن البيعة

«قال أبو الزبير أنه سمع جابرًا يُسأل: كم كانوا يوم الحديبية قال: كنا أربع عشرة مائة، فبايعناه، وعمر آخذ بيده تحت الشجرة، وهي سَمُرة[(٣)]، فبايعناه غير جد بن قيس الأنصاري، اختبأ تحت بطن بعيره»[(٤)].

۞ وهكذا يتخلف المنافقون عن نُصرة دين الله في كل زمان ومكان.

سلمة بن الأكوع يبايع رسول الله ﷺ ثلاث مرات

وعلى الوجه المقابل فها هو الصحابي الجليل سلمة بن الأكوع رضي الله عنه

(١) رواه البخاري (٤١٦٩).

(٢) الإصابة: (٤/ ٩٦) ترجمة رقم (٥٧١)، وقال أخرجه الحسن بن علي الحلواني، ومحمد بن إسحاق والسراج من طرفه عن إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي، وأخرجه ابن منده من طرق عن عاصم عن زر بن حبيش قال: «أول من بايع تحت الشجرة أبو سنان بن وهب» انتهى.
قلت: وقد جاء أيضًا في دلائل البيهقي (٤/ ١٣٧) من طريق ابن أبي خالد عن الشعبي.

(٣) سمرة: شجر الطلع.

(٤) أخرجه مسلم في الإمارة باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال رقم:(١٨٥٦/ ٦٩).

يبايع رسول الله ﷺ ثلاث مرات.

۞ عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه: «... قال: ثم إن رسول الله ﷺ دعانا إلى البيعة فى أصل الشجرة فبايعه أول الناس، ثم بايع وبايع، حتى إذا كان فى وسط الناس قال: «**بايعنى يا سلمة**» قال: قلت: يا رسول الله قد بايعتك أول الناس، قال: «**وأيضًا**»، قال: ورآنى رسول الله ﷺ عزلاً(١)، فأعطانى جحفة أو درقة(٢)، ثم بايع حتى إذا كان فى آخر الناس قال: «**ألا تبايع يا سلمة؟**» قال: قلت: يا رسول الله قد بايعتك فى أول الناس وأوسطهم، قال: «**وأيضًا**» فبايعته الثالثة فقال: «**يا سلمة أين جحفتك أو درقتك التى أعطيتك؟**» قال: قلت: يا رسول الله لقينى عامر عزلاً فأعطيتها إياه، فضحك رسول الله ﷺ، ثم قال: «**إنك كالذى قال الأول(٣)، اللهم ابغنى(٤) حبيبًا هو أحب إلىَّ من نفسى**»(٥).

النبى ﷺ يبايع عن عثمان رضي الله عنه

وأخذ رسول الله ﷺ بيد نفسه وقال: «**هذه عن عثمان**»(٦)، ولما تمت البيعة جاء عثمان فبايعه.

ولقد أخذ رسول الله ﷺ هذه البيعة تحت شجرة، وكان عمر آخذًا بيده،

(١) عزلاً: الذى لا سلاح معه.

(٢) الجحفة أو الدرقة: الترس.

(٣) إنك كالذى قال الأول: إن شأنك مع عمك يشبه فحوى القول الذى قال الرجل المتقدم زمانه.

(٤) ابغنى: أعطنى.

(٥) رواه مسلم (١٨٠٧) الجهاد والسير.

(٦) أخرجه البخارى (٣٦٩٨) ـ وانظر أطرافه عند رقم (٣١٣٠) ـ وأحمد [٢/ ١٠١، ١٢٠] من حديث ابن عمر.

ومعقل بن يسار آخذًا بغصن الشجرة يرفعه عن رسول الله ﷺ (١). وهذه هى بيعة الرضوان التى أنزل الله فيها: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ (٢). الآية.

۞ وحين نُمعن النظر فى هذا الجيل الفريد مقارنة مع أهل بدر نلاحظ ارتفاع عدد المهاجرين إلى النصف من الجيش، وهذا الارتفاع الهائل فى عدد المهاجرين من ثلاثة وثمانين فى بدر إلى ثمانمائة كان معظمه من القبائل العربية المجاورة، وهى قبائل صغيرة، إذا قيست بالقبائل الكبرى، لكن شبابها كانوا يَفِدون إلى المدينة ينضوون تحت لواء رسول الله ﷺ، ويتلقون التربية اليومية فى المسجد، والتربية العملية فى المعارك والغزوات، فيتدربون على الجندية الخالصة ويفقهون دينهم مباشرة من رسول رب العالمين، وينشؤون فى ظلال القدوة العليا لهم من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، ويتنافسون فى الطاعة والامتثال لأمر الله ورسوله، فنالت قبائلهم بذلك شرفًا رَبَا على القبائل الكبرى التى تخاذلت فى الانضمام للإسلام، فقبيلة أسلم وغِفار كانت على رأس هذه القبائل، ويعود الفضل بعد الله فى ذلك إلى الرعيل الأول منهم، واللبنات الأولى التى انضمت إلى الدعوة إلى أبى ذر الغفارى الذى كان من السابقين فى إسلامه بمكة ومضى داعيًا فى قومه حتى جاءه سبعون بيتًا من غفار يؤم بهم المدينة بعد أُحد، وإلى بريدة بن الحصيب الأسلمي، الذى تلقى رسول الله ﷺ قبل دخوله المدينة،... فأسلم ومعه سبعون من قومه كذلك.

أما القبائل الأخرى من مُزينة وجُهينة، وأشجع، وخزاعة، فقد بدأ شبابها

(١) أخرجه مسلم (٧٦) (١٨٥٨)، وأحمد (٢٠٣٤٤) [٥/ ٢٥].

(٢) سورة الفتح: الآية: (١٨).

يفدون إلى المدينة، لكن بأعداد ضئيلة، وبقى كيان القبيلة على الشرك، وبقى أعرابيًّا بعيدًا عن محضن التربية العظيم داخل المدينة، فلم يُتَح له هذا الفضل، والاغتراف من رحيق النبوة؛ ولهذا كانت الآيات التى نزلت فى المُخلَّفين من الأعراب كالصواعق على رؤوسهم، لتخلُّفهم عن الانضمام إلى الجيش الإسلامى الماضى إلى الحديبية(١).

على أى شىء بايع الصحابة رسول الله ﷺ يوم الحديبية

۞ اختلف الصحابة فى ذلك على ثلاثة أقوال:

الأول: قالوا بايعنا على الموت، وهو قول سلمة بن الأكوع، وعبد الله ابن زيد بن عاصم.

حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه أن يزيد بن أبى عبيد رحمه الله قال: «قلت لسلمة بن الأكوع: على أى شىء بايعتم رسول الله ﷺ يوم الحديبية؟ قال: على الموت»(٢).

الثانى: قالوا أنهم بايعوه على عدم الفرار وهو قول جابر بن عبد الله ومعقل بن يسار.

من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «كنا يوم الحديبية ألفًا وأربع مائة، فبايعناه، وعمر رضي الله عنه آخذ بيده تحت الشجرة، وهى سمرة قال: بايعناه على أن لا نفر ولم نبايعه على الموت»(٣).

---

(١) انظر: التربية القيادية (٤/ ٢١٤).

(٢) أخرجه البخارى فى المغازى باب غزوة الحديبية رقم: (٤١٦٩) ومسلم فى الإمارة باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال رقم: (١٨٦٠).

(٣) أخرجه مسلم فى الإمارة باب استحباب مبايعة الجيش عند إرادة القتال حديث: (١٨٥٦/ ٦٧).

الثالث: أنهم بايعوه على الصبر، وقد جاء هذا من حديث ابن عمر.

من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: «رجعنا من العام المقبل، فما اجتمع منا اثنان على الشجرة التى بايعنا تحتها» كانت رحمة من الله فسألنا نافعًا: على أى شىء بايعهم؟ على الموت؟ قال: لا، بل بايعهم على الصبر»(١).

نزول المطر على المسلمين يوم الحديبية

عن زيد بن خالد الأنصارى رضي الله عنه قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية، فأصابنا مطر ذات ليلة، فصلى لنا رسول الله ﷺ الصبح، ثم أقبل علينا فقال: «**أتدرون ماذا قال ربكم؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم، فقال: «**قال الله: أصبح من عبادى مؤمن وكافر بى، فأما من قال مُطرنا برحمة الله وبرزق الله وبفضل الله، فهو مؤمن بى كافر بالكوكب، وأما من قال مطرنا بنجم كذا، فهو مؤمن بالكوكب كافرٌ بى**»(٢).

مفاوضة سُهيل بن عمرو لرسول الله ﷺ

لما بلغ قريشًا أمر بيعة الرضوان، وأدرك زعماؤها تصميم الرسول ﷺ على القتال أوفدوا سهيل بن عمرو فى نفر من رجالهم لمفاوضة النبى ﷺ(٣)، ولما رأى رسول الله ﷺ سُهيلًا قال: «**لقد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل**»(٤).

---

(١) أخرجه البخارى فى الجهاد باب البيعة فى الحرب أن لا يفروا، وقال بعضهم على الموت حديث رقم: (٢٩٥٨).

(٢) أخرجه البخارى فى المغازى باب غزوة الحديبية رقم: (٤١٤٧)، مسلم فى الإيمان باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء حديث رقم: (٧١).

(٣) انظر: التاريخ السياسى والعسكري، (ص٣٣٩، ٣٤٠).

(٤) انظر: مغازى الواقدى (٢/ ٦٠٢، ٦٠٤، ٦٠٥).

كان سهيل بن عمرو أحد زعماء قريش البارزين الذين كانوا يُعرفون بالحنكة السياسية والدهاء، فهو خطيب ماهر، ذو عقلٍ راجح، ورزانة، وأصالة فى الرأي.

شرع الفريقان المتفاوضان فى بحث بنود الصلح، وذلك بعد رجوع عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقد استعرض الفريقان النقاط التى يجب أن تتضمنها معاهدة الصلح، واستعرضا فى مباحثاتهما مختلف القضايا التى كانت تُشكل مثار الخلاف بينهما. هذا وقد اتفق الفريقان من حيث المبدأ على بعض النقاط، واختلفا على البعض الآخر، وقد طال البحث والجدل والأخذ والرد حول هذه البنود، وبعد المراجعات والمفاوضات تقاربت وجهات النظر بين الفريقين، وعند الشروع فى وضع الصيغة النهائية للمعاهدة وكتابتها لتكون نافذة المفعول رسميًّا حدث خلاف بين الوفدين على بعض النقاط كاد أن يعثِّر سير هذه الاتفاقية، فعندما شرع النبى ﷺ فى إملاء صيغة المعاهدة المتفق عليها، أمر الكاتب وهو سيدنا على بن أبى طالب، بأن يبدأ المعاهدة بكلمة: «**بسم الله الرحمن الرحيم**»، وهنا اعترض رئيس الوفد القرشى سهيل بن عمرو قائلًا: لا أعرف الرحمن، اكتب (**باسمك اللهم**)، فضجَّ الصحابة على هذا الاعتراض، قائلين: هو الرحمن، ولا نكتب إلا الرحمن، ولكن النبى ﷺ تمشيًا مع سياسة الحكمة والمرونة والحِلْم، قال للكاتب: «**اكتب باسمك اللهم**»[1] واستمر فى إملاء صيغة المعاهدة هذه، فأمر الكاتب أن يكتب «**هذا ما اصطلح عليه رسول الله**»، وقبل أن يكمل الجملة اعترض رئيس الوفد القرشى على كلمة رسول الله

(١) المصدر نفسه(٢/ ٦١٠).

قائلًا: لو أعلم أنك رسول الله ما خالفتك، واتبعتك، أفترغب عن اسمك واسم أبيك محمد بن عبد الله؟ اكتب اسمك واسم أبيك[1].

واعترض المسلمون على ذلك، ولكن رسول الله بحكمته وتسامُحه وبُعد نظره حسم الخلاف وأمر الكاتب بأن يشطب كلمة رسول الله من الوثيقة فالتزم الصحابة الصمت والهدوء.

إن النبى ﷺ وافق المشركين على ترك كتابة (بسم الله الرحمن الرحيم) وكتابة (باسمك اللهم) بدلًا عنها، وكذا وافقهم فى كتابة محمد بن عبد الله وترك كتابة رسول الله ﷺ، وكذا وافقهم فى ردِّ من جاء منهم إلى المسلمين دون من ذهب منهم إليهم، وإنما وافقهم فى هذه الأمور للمصلحة المهمة الحاصلة بالصلح مع أنه لا مفسدة فى هذه الأمور، أما البسملة وباسمك اللهم فمعناهما واحد، وكذا قوله (محمد بن عبد الله) هو أيضا رسول الله ﷺ، وليس فى ترك وصف الله سبحانه وتعالى فى هذا الموضع بالرحمن الرحيم ما ينفى ذلك، ولا فى ترك وصف النبى ﷺ بالرسالة ما ينفيها، فلا مفسدة فيما طلبوه، وإنما كانت المفسدة تكون لو طلبوا أن يكتب ما لا يحل من تعظيم آلهتهم ونحو ذلك.

وأما شرط رد من جاء منهم وعدم رد من ذهب إليهم، فقد بيَّن النبى ﷺ تعليل ذلك والحكمة فيه فى هذا الحديث بقوله: «**من ذهب منا إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجًا ومخرجًا**... ثم كان كما قال ﷺ»[2].

---

(١) المصدر نفسه(٢/ ٦١٠).

(٢) انظر: المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة (٢/ ٣٤٢).

۞ وتم عقد هذه المعاهدة وكانت صياغتها من عشرة بنود جاءت على الشكل التالي:

(١) باسمك اللهم.

(٢) هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو.

(٣) واصطلحا على وضع الحرب على الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض.

(٤) على أنه مَن قَدِم مكة من أصحاب محمد حاجًّا أو معتمرًا أو يبتغى من فضل الله فهو آمن على دمه وماله، ومن قدم المدينة من قريش مجتازًا إلى مصر أو إلى الشام، يبتغى من فضل الله فهو آمن على دمه وماله.

(٥) على أنه من أتى محمدًا من قريش بغير إذن وليه ردَّه عليهم، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يردوه عليه.

(٦) وأن بيننا عيبة مكفوفة، وأنه لا أسلال ولا أغلال[1].

(٧) وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخله، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه (فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن فى عقد محمد وعهده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن فى عقد قريش وعهدهم).

(٨) وأنت ترجع عنا عامك هذا، فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك، فأقمت بها ثلاثًا معك سلاح

(١) العيبة هنا مثل: والمعنى أن بيننا صدورًا سليمة فى المحافظة على العهد الذى عقدناه بيننا، وقد يشبه صدر الإنسان الذى هو مستودع سره - وقوله: لا أسلال ولا أغلال: تعنى الأسلال من السلة وهى السرقة، والأغلال أى الخيانة والمعنى العام: أن بعضنا يأمن بعضًا فى نفسه وماله فلا يتعرض لدمه ولا لماله.

الراكب، السيوف فى القِرَب، ولا تدخلها بغيرها.

(٩) وعلى أن هذا الهدى ما جئناه ومحله فلا تقدمه علينا.

(١٠) أشهد على الصلح رجال من المسلمين ورجال من المشركين.

فمن المسلمين: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن سهيل بن عمرو، وسعد بن أبى وقاص، ومحمد بن سلمة، وعلى بن أبى طالب كاتب المعاهدة رضى الله عنهم أجمعين.

ومن المشركين: مكرز بن حفص، وسهيل بن عمرو[١].

تُعتبر هذه المعاهدة أساسًا للمعاهدات الإسلامية ونموذجًا فريدًا للمعاهدات الدولية، بما سبقها من مفاوضات، وما حوته من شروط، وما تمثل بها من خلق النبى ﷺ فى النزول عند رضا الطرف الآخر، وفى كيفية الصياغة والالتزام .... هذه المعاهدة سبقها مفاوضات من قِبَل المشركين والمسلمين، وفشل بعض الممثلين فى الوصول إلى اتفاق، ودارت مشاورات شتَّى من الجانبين قبل الوصول إليه، حتى توصل الفريقان إلى اتفاق عن طريق ممثل المشركين (سهيل بن عمرو) ورسول الله ﷺ على ملأ المسلمين.

عُقدت هذه المعاهدة فى الوقت الذى كان فيه المسلمون بمركز القوة لا الضعف، وكان باستطاعتهم ألا يقبلوا شروطها التى اغتاظ منها كثير من الصحابة، ولكن ما كان لهم أن يخرجوا عن طوع رسول الله ﷺ الذى لا ينطق عن الهوى، وقد تمادى رسول قريش على رسول الله فى مفاوضته، وكان فردًا بين جيش المسلمين، فلم ينله أذى، ولم يتمادَ عليه المسلمون

(١) المعاهدات فى الشريعة الإسلامية والقانون الدولي/ د. محمد الديك، (ص٢٧٠، ٢٧١).

بالقتل (لأن السفراء لا تُقتل) ولكن رسول الله يرضيه، ويسعه بالحلم واللين، حتى يصل إلى الغاية التى ينشدها الإسلام، وهى حقن الدماء، وإحلال السلام، ورجاء أن يعقل القوم الحق، وأن يراجعوا المواقف، ويسمعوا كلام الله(١).

أبو جندل.. وثباته على الحق

إن من أبلغ دروس صلح الحديبية درس الوفاء بالعهد، والتقيُّد بما يفرضه شرف الكلمة من الوفاء بالالتزامات التى يقطعها المسلم على نفسه، وقد ضرب رسول الله ﷺ بنفسه أعلى مثل فى التاريخ القديم والحديث، لاحترام كلمة لم تُكتب، واحترام كلمة تُكتب كذلك، وفى الجد فى عهوده، وحبه للصراحة والواقعية، وبُغضه التحايل والالتواء والكيد، وذلك حينما كان يفاوض (سهيل بن عمرو) فى الحديبية، حيث جاءه ابن سهيل يَرسُف فى الأغلال، وقد فرَّ من مشركى مكة، وكان أبوه يتفاوض مع الرسول ﷺ، وكان هذا الابن ممن آمنوا بالإسلام جاء مستصرخًا بالمسلمين، وقد انفلت من أيدى المشركين، فلما رأى سهيل ابنه قام إليه وأخذ بتلابيبه، وقال: يا محمد لقد لجَّت القضية بيني وبينك، أى فرغنا من المناقشة قبل أن يأتيك هذا، فقال رسول الله ﷺ: «**صدقت**»، فقال أبو جندل: يا معشر المسلمين أأُرد إلى المشركين يفتنوننى فى ديني؟! فلم يُغنِ عنه ذلك شيئًا، وردَّه رسول الله ﷺ وقال لأبى جندل: «**إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحًا وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهدًا، وإنا لا نغدر بهم**»،

---

(١) انظر: المعاهدات فى الشريعة الإسلامية والقانون الدولي، (ص٢٦٨، ٢٦٩)، نقلًا عن غزوات الرسول للدكتور على الصلابى حفظه الله.

غير أن النبى ﷺ إزاء هذه المأساة التى حالت بنود معاهدة الصلح بينه وبين أن يجد مخرجًا منها لأبى جندل المسلم، طمأن أبا جندل وبشَّره بقرب الفرج له ولمن على شاكلته من المسلمين، وقال له وهو يواسيه: «**يا أبا جندل، اصبر واحتسب فإن الله جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومَخرجًا**»(١). وفى هذه الكلمات النبوية المشرقة العظيمة دلالة ليس فوقها دلالة على مقدار حرص رسول الله ﷺ وتمسُّكه بفضيلة الوفاء بالعهد مهما كانت نتائجه وعواقبه فيما يبدو للناس(٢). لقد كان درس أبى جندل امتحانًا قاسيًا ورهيبًا لهذا الوفاء بالعهد أثبت فيه الرسول ﷺ والمسلمون نجاحًا عظيمًا فى كبت عواطفهم وحبس مشاعرهم، وقد صبروا لمنظر أخيهم أبى جندل وتأثروا من ذلك المشهد عندما كان أبوه يجتذبه من تلابيبه، والدماء تنزف منه، مما زاد فى إيلامهم حتى أن الكثيرين منهم أخذوا يبكون بمرارة إشفاقًا منهم على أخيهم فى العقيدة، وهم ينظرون إلى أبيه المشرك وهو يسحبه بفظاظة الوثنى الجلف ليعود به مرة أخرى إلى سجنه الرهيب فى مكة.

وقد صبر أبو جندل واحتسب لمصابه فى سبيل دينه وعقيدته، وتحقق فيه قول الله تعالى: ... ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾(٣).

فلم تمر أقل من سنة حتى تمكن مع إخوانه المسلمين المستضعفين بمكة من الإفلات من سجون مكة، وأصبحوا قوة صار كفار مكة يخشونها،

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٤٧).

(٢) انظر: محمد رسول الله/ صادق عرجون (٤/ ٢٧٥).

(٣) سورة الطلاق: الآيتان: (٢-٣).

بعد أن انضموا إلى أبى بصير، وسيطروا على طرق قوافل المشركين الآتية من الشام[١].

اعتراض عمر بن الخطاب على بنود الصلح

۞ لقد كان المسلمون يعلوهم الحزن الشديد لسببين اثنين:

الأول: أن النبى ﷺ كان قد أخبرهم أنهم سيطوفون بالبيت.

والثانى: أن النبى ﷺ قَبِل ضغط قريش فى هذا الصلح.

۞ كانت هاتان الظاهرتان مثار الريب والشكوك والوساوس والظنون.

وصارت مشاعر المسلمين لأجلهما جريحة، بحيث غلب الهم والحزن على التفكير فى عواقب بنود الصلح، لعل أعظمهم حزنًا كان عمر ابن الخطاب، فقد جاء إلى النبى ﷺ وقال: يا رسول الله: ألست نبى الله حقًّا؟ قال: «**بلى**». قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: «**بلى**».

قلت: فَلِم نُعطى الدنيَّة فى ديننا إذًا؟ قال: «**إنى رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصرى**».

قلت: أَوَ ليس كنت تحدثنا أنَّا سنأتى البيت فنطوف به؟ قال: «**بلى، فأخبرتك أنَّا نأتيه العام؟**» قال: قلت: لا.. قال: «**فإنك آتيه ومُطوِّف به**». قال: فأتيت أبا بكر فقلت يا أبا بكر أليس هذا نبى الله حقا؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلِمَ نُعطى الدنية فى ديننا إذًا؟ قال: أيها الرجل، إنه لرسول الله ﷺ، وليس يعصى ربه وهو ناصره،

(١) انظر: صلح الحديبية/ باشميل، (ص٣٢٢- ٣٢٥).

فاستمسك بغرزه فوالله إنه على الحق. قلت: أليس كان يحدثنا أنّا سنأتى البيت ونطوف به؟ قال بلى، فأخبرك أنه تأتيه العام؟ قلت: لا. قال: فإنك آتيه ومُطوّف به... قال الزهرى قال عمر: فعملت لذلك أعمالاً[١] -أى عمل أعمالاً صالحة كثيرة ليُكفِّر عن مجادلته للنبى ﷺ -.

وقد كان موقف بعض الصحابة شبيهًا بموقف عمر بن الخطاب، ولكنهم لم يستطيعوا التعبير عن أنفسهم كما عبَّر عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

۞ وبهذا يتبين أن الرسول ﷺ وضع قاعدة احترام المعارضة النزيهة، حيث قرر ذلك بقوله وفعله، وهو -والله أعلم- إنما أراد بهذا الفعل إرشاد القادة من بعده إلى احترام المعارضة النزيهة التى تصدر من أتباعهم، وذلك بتشجيع الأتباع على إبداء الآراء السليمة التى تخدم المصلحة العامة[٢].

وهذا الهدى النبوى الكريم بيَّن أن حرية الرأى مكفولة فى المجتمع الإسلامي، وأن للفرد فى المجتمع المسلم الحرية فى التعبير عن رأيه، ولو كان هذا الرأى نقدًا لموقف حاكم من الحكام، أو خليفة من الخلفاء، فمن حق الفرد المسلم أن يبين وجهة نظره فى جو من الأمن والأمان دون إرهاب أو تسلُّط يخنق حرية الكلمة والفكر.

ونفهم من معارضة عمر لرسول الله ﷺ أن المعارضة لرئيس الدولة فى رأى من الآراء، وموقف من المواقف ليست جريمة تستوجب العقاب، ويغيب صاحبها فى غياهب السجون[٣].

---

(١) أخرجه البخارى (٥/ ٣٨٨-٣٩٢) الشروط - وأبو داود.

(٢) انظر: القيادة العسكرية فى عهد رسول الله، (ص٤٩٥).

(٣) انظر: غزوة الحديبية لأبى فارس، (ص١٣٤، ١٣٥).

أم سلمة رضي الله عنها صاحبة الرأى السديد

ولما فرغ رسول الله ﷺ من قضية الكتاب، قال: «قوموا، فانحروا»، فوالله ما قام منهم أحد،... حتى قال ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد قام فدخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقى من الناس، فقالت: يا رسول الله أتحب ذلك؟ اخرج، ثم لا تكلم أحدًا كلمة حتى تنحر بُدنك وتدعو حالقك فيحلقك، فقام فخرج فلم يكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك، نحر بُدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأى الناس ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضًا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًّا، وكانوا نحروا البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة، ونحر رسول الله ﷺ جملاً كان لأبى جهل، كان فى أنفه برة من فضة، ليغيظ به المشركين، ودعا رسول الله ﷺ للمُحلقين ثلاثًا بالمغفرة وللمقصرين مرة. وفى هذا السفر أنزل الله فدية الأذى لمن حلق رأسه بالصيام أو الصدقة، أو النُّسك فى شأن كعب بن عجرة[1].

وكان فى هدى النبى ﷺ فى الحديبية جَمَلٌ لأبى جهل فى رأسه برة[2] من فضة، يغيظ بذلك المشركين[3].

۞ **وفى هذه الحادثة تستوقفنا أمور فيها دروس وعبر منها:**

(١) كان رأى أم سلمة سديدًا ومباركًا، حيث فهمت رضي الله عنها وعن الصحابة أنه وقع فى أنفسهم أن يكون النبى ﷺ أمرهم بالتحلل أخذًا

(١) أخرجه البخارى (١٨١٤). ومسلم (١٢٠١)، وأبو داود (١٨٥٦)، والترمذى (٩٥٣).

(٢) البرة: حلقة تُجعل فى أنف البعير ليذل ويرتاض.

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٤٩).

بالرخصة فى حقهم، وأنه يستمر على الإحرام أخذًا بالعزيمة، فى حق نفسه، فأشارت على النبى ﷺ أن يتحلل لينتفى عنهم هذا الاحتمال، وعرف النبى ﷺ صواب ما أشارت به ففعله، فلما رأى الصحابة ذلك بادروا إلى فعل ما أمرهم به، فلم يبقَ بعد ذلك غاية تُنتظر، فكان ذلك رأيًا سديدًا ومشورةً مباركةً، وفى ذلك دليل على استحسان مشاورة المرأة الفاضلة ما دامت ذات فكرة صائبة ورأى سديد[(١)]. كما أنه لا فرق فى الإسلام بين أن تأتى المشورة من رجل أو امرأة طالما أنها مشورة صائبة، وهذا عين التكريم للمرأة التى يزعم أعداء الإسلام أنه غمطها حقها وتجاهل وجودها، وهل هناك اعتراف واحترام لرأى المرأة أكثر من أن تشير على نبى مرسل ويعمل النبى ﷺ بمشورتها لحل مشكلة اصطدم بها وأغضبته[(٢)].

(٢) أهمية القدوة العملية، فقد دعا رسول الله ﷺ إلى أمر وكرره ثلاث مرات، وفيهم كبار الصحابة وشيوخهم، ومع ذلك لم يستجب أحد لدعوته، فلما أقدم رسول الله ﷺ على الخطوة العملية التى أشارت بها أم سلمة تحقق المراد، فالقدوة العملية فى مثل هذه المواقف أجدى وأنفع[(٣)].

(٣) حكم الإحصار فى العمرة والحج: دلَّ عمل الرسول ﷺ بعد الفراغ من أمر الصلح، من التحلل والنحر والحلق، على أن المُحصَر يجوز له أن يتحلل، وذلك بأن يذبح شاة، حيث أُحصر أو ما يقوم مقامها، ويحلق ثم ينوى التحلل مما كان قد أهلَّ به، سواء كان حجًّا أو عمرة، كما دَلَّ على أن المتحلل لا يُلزَم بقضاء الحج أو العمرة إذا كان متطوعًا.

---

(١) انظر: ملامح الشورى فى الدعوة الإسلامية، (ص١٦١).

(٢) انظر: المعاهدات فى الشريعة الإسلامية، (ص٢٧٣).

(٣) انظر: تأملات فى السيرة النبوية / لمحمد السيد الوكيل، (ص٢١١).

وخالف الحنفية فرأوا أن القضاء بعد المباشرة واجب، بدليل أن جميع الذين خرجوا معه ﷺ فى صلح الحديبية خرجوا معه فى عمرة القضاء إلا من توفى أو استُشهد منهم فى غزوة خيبر[١].

كان صلح الحديبية فتحًا عظيمًا

لقد نظر المسلمون إلى عواقب التسامح البعيد الذى أبداه النبى ﷺ فوجدوا من بركاته ما ألهج ألسنتهم بالحمد.

لقد انفرط عقد الكفار فى الجزيرة منذ تم هذا العقد. فإن قريشًا كانت تُعتبر رأس الكفر وحاملة لواء التمرد والتحدى للدين الجديد. وعندما شاع نبأ تعاهدها مع المسلمين خمدت فتن المنافقين الذين يعملون لها، وتبعثرت القبائل الوثنية فى أنحاء الجزيرة وخصوصًا لأن قريشًا جمدت على سياستها النفعية واهتمت بشئونها التجارية فلم تجتهد فى ضم أحلاف لها، فى الوقت الذى اتسع فيه نشاط المسلمين الثقافى والسياسى والعسكرى، ونجحت دعايتهم فى تألف قبائل غفيرة وإدخالها فى الإسلام.

وكثير من المؤرخين يُعِدّ صلح الحديبية فتحًا، بل إن الزهرى يقول فيه: ما فُتح فى الإسلام فتح قبله كان أعظم منه. إنما كان القتال حيث التقى الناس.

فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب، وأمن الناس بعضهم بعضًا، والتقوا فتفاوضوا فى الحديث والمنازعة، لم يُكلم أحدًا بالإسلام يعقل شيئًا إلا دخل فيه ولقد دخل فى تينك السنتين ـ بعد الحديبية ـ مثل ما كان فى الإسلام قبل ذلك أو أكثر.

---

(١) انظر: فقه السيرة، (ص٢٤٣).

قال ابن هشام: والدليل على قول الزهرى أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية فى ألف وأربعمائة، ثم خرج عام فتح مكة ـ بعد ذلك بسنتين ـ فى عشرة آلاف[١].

لقد أيقن الصحابة الكرام أن الدعوة قد دخلت فى طورٍ جديد وفتحٍ أكيد، وآفاق أوسع، وامتداد أرحب، وأن من طبيعة هذا الدين أن ينمو ويعيش فى أجواء السلم والأمن أكثر منه وقت الحرب، ولمسوا مع الأيام نتائج صلح الحديبية التى كان من أهمها:

(١) اعترفت قريش فى هذه المعاهدة بكيان الدولة المسلمة، فالمعاهدة دائمًا لا تكون إلا بين نِدَّين، وكان لهذا الاعتراف أثره فى نفوس القبائل المتأثرة بموقف قريش الجحودي، حيث كانوا يرون أنها الإمام والقدوة.

(٢) دخلت المهابة فى قلوب المشركين والمنافقين، وتيقن الكثير منهم بغلبة الإسلام، وقد تجلَّت بعض مظاهر ذلك فى مبادرة كثير من صناديد قريش إلى الإسلام، مثل: خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، كما تجلَّت فى مسارعة الأعراب المجاورين للمدينة إلى الاعتذار عن تخلفهم.

(٣) أعطت الهدنة فرصة لنشر الإسلام وتعريف الناس به؛ مما أدى إلى دخول كثير من القبائل فيه،... يقول الإمام الزهري: (فما فُتح فى الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووُضعت الحرب وأمن الناس بعضهم بعضًا، والتقوا فتفاوضوا فى الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئًا إلا دخل فيه، ولقد دخل فى تينك السنتين مثل ما كان فى الإسلام قبل ذلك أو أكثر)[٢].

---

(١) فقه السيرة للغزالى، (ص ٣٧٨-٣٧٩).

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٥١).

وعقَّب عليه ابن هشام بقوله: والدليل على قول الزهري: أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية فى ألف وأربعمائة (فى قول جابر بن عبد الله)، ثم خرج فى عام الفتح بعد ذلك بسنتين فى عشرة آلاف[1].

(٤) أَمِن المسلمون جانب قريش فحوَّلوا ثقلهم على اليهود، ومن كان يناوئهم من القبائل الأخرى، فكانت غزوة خيبر بعد صلح الحديبية.

(٥) مفاوضات الصلح جعلت حلفاء قريش يفقهون موقف المسلمين ويميلون إليه، فهذا الحلس بن علقمة عندما رأى المسلمين يُلبون رجع إلى أصحابه، قال: لقد رأيت البُدن قد قُلدت وأُشعرت، فما أرى أن يُصَدُّوا عن البيت.

(٦) مكَّن صلح الحديبية النبى ﷺ من تجهيز غزوة مؤتة، فكانت خطوة جديدة لنقل الدعوة الإسلامية بأسلوب آخر خارج الجزيرة العربية.

(٧) ساعد صلح الحديبية النبى ﷺ على إرسال رسائل إلى ملوك الفرس والروم والقبط يدعوهم إلى الإسلام.

(٨) كان صلح الحديبية سببًا ومقدمة لفتح مكة:

يقول **الإمام ابن القيم**: كانت الهدنة مقدمة بين يدى الفتح الأعظم، الذى أعز الله به رسوله وجنده، ودخل الناس به فى دين الله أفواجًا، فكانت هذه الهدنة بابًا له ومفتاحًا ومؤذنًا بين يديه، وهذه عادة الله فى الأمور العظام التى يقضيها قدرًا وشرعًا أن يوطئ لها بين يديها بمقدمات وتوطئات تؤذن لها وتدل عليها[2].

---

(١) المصدر نفسه (٣/ ٣٥١، ٣٥٢).

(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٣٠٩) نقلًا عن غزوات الرسول.

وجاءت المؤمنات مهاجرات

لما كاتب سهيل بن عمرو يومئذ كان فيما اشترط سهيل بن عمرو على النبى ﷺ أن لا يأتيك منا أحد -وإن كان على دينك- إلا رددته إلينا، وخليت بيننا وبينه، فكره المؤمنون ذلك، وامتعضوا منه، وأبى سُهيل إلا ذلك، فكاتب النبى ﷺ على ذلك، فردَّ يومئذٍ أبا جندل إلى أبيه سُهيل بن عمرو، ولم يأته أحد من الرجال إلا ردَّه فى تلك المدة، وإن كان مسلمًا.

وجاءت المؤمنات مهاجرات وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط ممن خرج إلى رسول الله ﷺ يومئذ، وهى عاتق، فجاء أهلها يسألون النبى ﷺ أن يرجعها إليهم، فلم يرجعها إليهم لما أنزل الله فيهن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ﴾[1][2].

النبى ﷺ يبايع النساء

۞ عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كانت المؤمنات إذا هاجرن إلى رسول الله ﷺ يُمتحنَّ بقول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٢﴾[3].

---

(١) سورة الممتحنة: الآية: (١٠).

(٢) أخرجه البخارى فى الشروط باب ما يجوز من الشروط فى الإسلام والأحكام والمبايعة رقم (٢٧١١) (٢٧١٢).

(٣) سورة الممتحنة: الآية: (١٢).

قالت عائشة: فمن أقر بهذا من المؤمنات فقد أقر بالمحنة.

وكان رسول الله ﷺ إذا أقررن بذلك من قولهن، قال لهن رسول الله ﷺ: «**انطلقن فقد بايعتكن**»، ولا والله: ما مسَّت يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط. غير أنه يبايعن بالكلام.

قالت عائشة: والله ما أخذ رسول الله ﷺ على النساء قط، إلا بما أمره الله تعالى، وما مسَّت كَفُّ رسول الله ﷺ كف امرأة قط، وكان يقول لهن إذا أخذ عليهن: «**قد بايعتكن**» كلامًا»[1].

قصة أبي بصير رضي الله عنه

فى أعقاب صلح الحديبية مباشرة استطاع أبو بصير عتبة بن أسيد أن يفر بدينه من سجون الشرك فى مكة المكرمة، وأن يلتحق برسول الله ﷺ فى المدينة فبعثت قريش فى إثره اثنين من رجالها إلى رسول الله، ليرجعا به، تنفيذًا لشرط المعاهدة، فقال رسول الله ﷺ لأبى بصير: «**يا أبا بصير، إنَّا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت، ولا يصلح لنا فى ديننا الغدر، وإن الله جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا، فانطلق إلى قومك**»، فقال أبو بصير: يا رسول الله، أتردنى إلى المشركين يفتنوننى فى ديني؟ قال: «**يا أبا بصير، انطلق فإن الله سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا**»[2]. فانطلق معهما، وقد شَقَّ ذلك على المسلمين وهم ينظرون بحزن إلى أخيهم فى العقيدة، وهو يعود إلى سجنه بمكة بعد أن استطاع أن

(١) أخرجه البخارى فى الطلاق باب إذا أسلمت المشركة أو النصرانية تحت الذمى أو الحربى رقم: (٥٢٨٨) مسلم فى الإمارة باب كيفية بيعة النساء رقم: (١٨٦٦)، واللفظ لمسلم.

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٥٢).

يفلت من ظلم قريش، ولكن رسول الله ﷺ كان يهتم بالوفاء بالعهود والمواثيق، ولم يكن عنده مجرد نظرية مكتوبة على الورق، ولكنه كان سلوكًا عمليًّا فى حياته وفى علاقته الدولية، فقد أوصى الله سبحانه وتعالى بالوفاء بالعهود، وحذر من نقض الأيمان بعد توكيدها فى كثير من الآيات القرآنية... قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾[١].

وقال جل وعلا: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾﴾[٢].

وبهذا يكون الوفاء بالعهد عند المسلمين قاعدة أصولية من قواعد الدين الإسلامى التى يجب على كل مسلم أن يلتزم بها[٣].

لقد التزم رسول الله ﷺ بعهده مع قريش، وسلَّم أبا بصير إليهما (القرشيين) وانطلق معهما، فلما كانا بذى الحليفة، قال لأحد صاحبيه: أصارمٌ سيفك هذا يا أخا بنى عامر؟ فقال: نعم، قال: أنظر إليه؟ قال: انظر إن شئت، فاستلَّه أبو بصير، ثم علاه به حتى قتله، ففرَّ الآخر إلى رسول الله ﷺ فقال: قتل صاحبكم صاحبي، فما لبث أبو بصير أن حضر، متوشحًا السيف، وقال: يا رسول الله وفَّت ذمتك، وأدى الله عنك، أسلمتنى بيد القوم، وقد امتنعت بدينى أن أُفتن فيه، أو يُعبث بي[٤]، فقال النبى ﷺ: **«ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد»**[٥]، فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده عليهم

(١) سورة النحل: الآية: (٩١).

(٢) سورة الإسراء: الآية: (٣٤).

(٣) انظر: منهج الإعلام الإسلامى فى صلح الحديبية، (ص٣٢٩).

(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٥٣).

(٥) البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط فى الجهاد (٣/ ٢٤١) رقم (٤٧٣٢).

فخرج حتى أتى سيف البحر[١]، وقد فهم المستضعفون بمكة من عبارة الرسول ﷺ أن أبا بصير بحاجة إلى الرجال، فأخذوا يفرون من مكة إلى أبى بصير فى سيف البحر، فلحق به أبو جندل بن سهيل بن عمرو وغيره حتى اجتمع عند أبى بصير عصبة قوية، فما يسمعون بعيرٍ لقريش خرجت إلى الشام إلا اعترضوا طريقها وقتلوا مَن فيها، وأخذوا الأموال التى كانوا يتجرون بها، فأرسل المشركون إلى النبى ﷺ يناشدونه بالله والرحم لما أرسل إلى أبى بصير ومن معه، ومن أتاه منهم فهو آمن، وتخلَّوا فى ذلك عن أقسى شروطهم التى صَبُّوا فيها كؤوس كبريائهم، فذلَّت قريش من حيث طلبت العز[٢].

فأرسل إليهم النبى ﷺ[٣] وهم بناحية العيص، فقدموا عليه وكانوا قريبًا من الستين أو السبعين[٤]، فآوى النبى ﷺ تلك العصبة المؤمنة التى أقضَّت مضاجع قريش، وأرغمتها على إسقاط شرطها التعسفي، فزادت بهم قوة المسلمين وقويت بهم شوكتهم، واشتد بأسهم.

غير أن أبا بصير، رأس تلك العصابة ومؤسسها، لم يُقدَّر له أن يكون معها، فقد وافاه كتاب النبى ﷺ بالعودة إلى المدينة، وهو على فراش الموت، فلفظ أنفاسه حيث كان فى الثغر، وهواه فى قلب المجتمع النبوى فى المدينة[٥].

---

(١) البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط فى الجهاد (٣/ ٢٤١) رقم (٤٧٣٢).

(٢) انظر: محمد رسول الله/ صادق عرجون (٤/ ٢٨١).

(٣) البخاري، كتاب الشروط (٣/ ٢٤١) رقم (٤٧٣٢).

(٤) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٥١).

(٥) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوى فى المدينة، (ص٢٩٦).

إن قصة أبى جندل وأبى بصير وما احتملاه فى سبيل العقيدة، وما أبدياه من الثبات والإخلاص والعزيمة والجهاد حتى مَرَّغوا رؤوس المشركين بالتراب، وجعلوهم يتوسلون بالمسلمين لترك ما اشترطوه عليهم فى الحديبية،... هذه القصة نموذج يُقتدى به فى الثبات على العقيدة وبذل الجهد فى نصرتها، وفيها ما يشير إلى مبدأ (قد يسع الفرد ما لا يسع الجماعة) فقد ألحق أبو بصير وجماعته الضرر بالمشركين فى وقت كانت فيه دولة الإسلام لا تستطيع ذلك وفاءً بالصلح، لكن أبا بصير وأصحابه خارج سلطة الدولة، ولو فى ظاهر الحال، ولم يكن ما قام به أبو بصير والمستضعفون بمكة مجرد اجتهاد فردى لم يحظَ بإقرار الرسول ﷺ أن يأمر أبا بصير بالكفِّ عن قوافل المشركين ابتداءً أو بالعودة إلى مكة، لكن ذلك لم يحدث، فكان إقرارًا له، إذ كان موقف أبى بصير وأصحابه فى غاية الحكمة حيث لم يستكينوا لطغاة مكة يفتنونهم عن دينهم ويمنعونهم من اللحاق بالمدينة، فاختاروا موقفًا فيه خلاصهم وإسناد دولتهم بأعمال تُضعف اقتصاد مكة وتزعزع إحساسهم بالأمن فى وقت الصلح، بل يمكن القول بأن اتخاذ هذا الموقف كان بإشارة وتشجيع من النبى ﷺ حين وصف أبا بصير[1] بأنه: «**مسعر حرب لو كان معه أحد**»[2].

إسلام أبى العاص بن الربيع

روى موسى بن عقبة أن رجال أبى بصير صادروا قافلة كان فيها أبو العاص بن الربيع صهر النبى ﷺ ـ وهو لم يدخل الإسلام بعد ـ وأسروا من

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٥٢).

(٢) البخاري، كتاب الشروط (٣/ ٢٤١) رقم (٤٧٣٢).

فيها ماعدا أبا العاص لمكانته، فذهب أبو العاص إلى زينب امرأته، وشكا لها ما وقع لأصحابه وما ضاع لهم من أموال، وحدَّثت زينب رسول الله فى ذلك. فقام رسول الله ﷺ فخطب الناس قائلاً: «**إن هذا الرجل منا حيثُ علمتم، وقد أصبتم له مالاً، فإن تُحسنوا وتردوا عليه الذى له، فإنَّا نحب ذلك، وإن أبيتم فهو فىءُ الله الذى أفاء عليكم، فأنتم أحق به**»؛ فقالوا: يا رسول الله، بل نرده عليه، فردُّوه عليه، حتى إن الرجل ليأتى بالدلو ويأتى الرجل بالشَّنّة وبالإداوة، حتى إن أحدهم ليأتى بالشِّظاظ، حتى ردوا عليه ماله بأسره، لا يفقد منه شيئًا. ثم احتمل إلى مكة. فأدَّى إلى كل ذى مالٍ من قُريش ماله، ومن كان أبضع معه، ثم قال: يا معشر قريش، هل بقى لأحدٍ منكم عندى مال لم يأخذه؟ قالوا: لا، فجزاك الله خيرًا! فقد وجدناك وفيًّا كريمًا؛ قال: فأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، والله ما منعنى من الإسلام إلا تخوُّف أن تظنوا أنى إنما أردت أن آكل أموالكم، فلما أداها الله إليكم وفرغتُ منها أسلمتُ. ثم خرج حتى قَدِمَ على رسول الله ﷺ[1].

قال المسور بن مَخْرَمة: أثنى النبىُّ ﷺ على أبى العاص فى مصاهرته خيرًا، وقال: «**حدَّثنى فصدقنى، ووعدنى، فوفَّى لى**»[2].

وهكذا تكون الأمانة، وهكذا يكون الوفاء بالوعد... وهكذا تكون مراقبة الله ﷻ.

فلقد ضرب (أبو العاص) رضي الله عنه المثل فى الوفاء والأمانة[3].

---

(١) أخرجه الحاكم فى «المستدرك» (٣/ ٢٣٧) وإسناده صحيح، والبيهقى فى «الدلائل» (٤/ ٨٥).

(٢) أخرجه البخارى (٣٧٢٩) فضائل الصحابة (٥٢٣٠) النكاح.

(٣) أصحاب الرسول ﷺ / للمصنف (٢/ ٤٥٨).

ماذا يتمخض عن بنود المعاهدة

هذه هى هدنة الحديبية، ومَن سَبَر أغوار بنودها مع خلفياتها لا يشك أنها فتح عظيم للمسلمين، فقريش لم تكن تعترف بالمسلمين أى اعتراف، بل كانت تهدف إلى استئصال شأفتهم، وتنتظر أن تشهد يومًا ما نهايتهم، وكانت تحاول بأقصى قوتها الحيلولة بين الدعوة الإسلامية، وبين الناس، بصفتها ممثلة الزعامة الدينية والصدارة الدنيوية فى جزيرة العرب، ومجرد الجنوح إلى الصلح اعتراف بقوة المسلمين، وأن قريشًا لا تقدر على مقاومتهم، ثم البند الثالث يدل لفحواه على أن قريشًا نسيت صدارتها الدنيوية وزعامتها الدينية، وأنها لا تهمها الآن إلا نفسها، أما سائر الناس وبقية جزيرة العرب فلو دخلت فى الإسلام بأجمعها، فلا يهم ذلك قريشًا، ولا تتدخل فى ذلك بأى نوع من أنواع التدخل. أليس هذا فشلاً ذريعًا بالنسبة إلى قريش؟ وفتحًا مبينًا بالنسبة إلى المسلمين؟

إن الحروب الدامية التى جرت بين المسلمين وبين أعدائهم لم تكن أهدافها ـ بالنسبة إلى المسلمين ـ مصادرة الأموال وإبادة الأرواح وإفناء الناس، أو إكراه العدو على اعتناق الإسلام، وإنما كان الهدف الوحيد الذى يهدفه المسلمون من هذه الحروب هو الحرية الكاملة للناس فى العقيدة والدين ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[1] ، لا يحول بينهم وبين ما يريدون أى قوة من القوات، وقد حصل هذا الهدف بجميع أجزائه ولوازمه، وبطريق ربما لا يحصل بمثله فى الحروب مع الفتح المبين، وقد كسب المسلمون لأجل هذه الحرية نجاحًا كبيرًا فى الدعوة، فبينما كان عدد

(١) سورة الكهف: الآية: (٢٩).

المسلمين لا يزيد على ثلاثة آلاف قبل الهدنة؛ صار عدد الجيش الإسلامى فى سنتين عند فتح مكة عشرة آلاف.

أما البند الثانى، فهو جزء ثانٍ لهذا الفتح المبين، فالمسلمون لم يكونوا بادئين بالحروب، وإنما بدأتها قريش، يقول الله تعالى: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[1] أما المسلمون فلم يكن المقصود من دورياتهم العسكرية إلا أن تفيق قريش عن غطرستها، وصدِّها عن سبيل الله، وتعمل معهم بالمساواة، كل من الفريقين يعمل على شاكلته فالعقد بوضع الحرب عشر سنين حدٌّ لهذه الغطرسة والصد، ودليل على فشل من بدأ الحرب وضعفه وانهياره.

أما البند الأول؛ فهو حدٌّ لصد قريش عن المسجد الحرام،... فهو أيضًا فشل لقريش، وليس فيه ما يشفى قريشًا سوى أنها نجحت فى الصد لذلك العام الواحد فقط.

أعطت قريش هذه الخلال الثلاث للمسلمين، وحصلت بإزائها خلة واحدة فقط، وهى ما فى البند الرابع، ولكن تلك الخلة تافهة جدًا، ليس فيها شىء يضر بالمسلمين، فمعلوم أن المسلم ما دام مسلمًا لا يفر عن الله ورسوله، وعن مدينة الإسلام، ولا يفر إلا إذا ارتد عن الإسلام ظاهرًا أو باطنًا، فإذا ارتد فلا حاجة إليه للمسلمين .. وانفصاله من المجتمع الإسلامى خير من بقائه فيه، وهذا الذى أشار إليه رسول الله ﷺ بقوله: «**إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله**»، وأما من أسلم من أهل مكة - فهو وإن لم يبقَ للجوئه إلى المدينة سبيل - لكن أرض الله واسعة، ألم تكن الحبشة واسعة للمسلمين

---

(١) سورة التوبة: الآية: (١٣).

حينما لم يكن يعرف أهل المدينة عن الإسلام شيئًا؟ وهذا الذى أشار إليه النبى ﷺ بقوله: «**ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجًا ومخرجًا**»(١).

والأخذ بمثل هذا الاحتفاظ، وإن كان مظهر الاعتزاز لقريش، لكنه فى الحقيقة ينبئ عن شدة انزعاج قريش وهلعهم وخَورهم، وعن شدة خوفهم على كيانهم الوثنى، كأنهم كانوا قد أحسوا أن كيانهم اليوم على شفا جُرفٍ هار، لابد له من الأخذ بمثل هذا الاحتفاظ وما سمح به النبى ﷺ من أنه لا يسترد مَن فَرَّ إلى قريش من المسلمين، فليس هذا إلا دليلاً على أنه يعتمد على تثبيت كيانه وقوته كمال الاعتماد، ولا يخاف عليه من مثل هذا الشرط(٢).

منزلة أهل الحديبية

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «كنا يوم الحديبية ألفًا وأربعمائة فقال لنا النبى ﷺ: «**أنتم اليوم خير أهل الأرض**» وقال جابر: لو كنت أبصر لأريتكم موضع الشجرة»(٣).

۞ **وعن جابر أيضًا قال:** «أن عبدًا لحاطب جاء إلى رسول الله ﷺ يشكو حاطبًا فقال: يا رسول الله! ليدخلن حاطبٌ النار، فقال رسول الله ﷺ: «**كذبت لا يدخلها، فإنه شهد بدرًا والحديبية**»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم (٩٣) (١٧٨٤) وأحمد (١٣٨٥٥) [٣/ ٢٦٨] من حديث أنس.

(٢) الرحيق المختوم (ص: ٣٧٢: ٣٧٣).

(٣) أخرجه البخارى فى المغازى باب غزوة الحديبية حديث رقم: (٤١٥٤)، مسلم فى الصحيح كتاب الإمارة باب استحباب مبايعة الإمام للجيش عند إرادة القتال حديث رقم(١٨٥٦/ ٧١).

(٤) أخرجه مسلم فى كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل أهل بدر حديث رقم: (٢٤٩٥)، والترمذى فى المناقب باب (٥٩)، حديث رقم: (٣٨٦٤)، وأحمد فى المسند: (٢/ ٣٢٥، ٣٤٩)، والحاكم: (٣/ ٣٠١). والبيهقى فى الدلائل: (٣/ ١٥٣، ٤/ ١٤٤).

وعن جابر بن عبد الله أيضًا قال: أخبرتنى أم مبشر، أنها سمعت النبى ﷺ يقول عند حفصة «**لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد... الذين بايعوا تحتها**» قالت: بلى يا رسول الله! فانتهرها. فقالت: حفصة: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾[1] فقال النبى ﷺ: «قد قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾»[2][3].

بعض الفوائد الفقهية المستفادة من قصة الحديبية

۞ ذكر الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ بعض الفوائد الفقهية المستفادة من قصة الحديبية.. وها نحن نذكرها باختصار:

۞ فمنها: اعتمار النبى ﷺ فى أشهر الحج فإنه خرج إليها فى ذى القعدة.

۞ ومنها: أن الإحرام بالعمرة من الميقات أفضل كما أن الإحرام بالحج كذلك.

۞ ومنها: أن سوق الهَدى مسنون فى العمرة المفردة، كما هو مسنون فى القِران.

۞ ومنها: أن إشْعَارَ الهدى سُنة لا مُثْلَةٌ منهى عنها.

۞ ومنها: استحبابُ مُغايظة أعداءِ الله، فإن النبيَّ ﷺ أهدى فى جُملة هديه جملاً لأبى جهل فى أَنْفِهِ بُرَةٌ مِن فضةٍ يَغيظُ به المشركين، وقد قال تعالى فى صفة النبى ﷺ وأصحابه: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ

---

(١) سورة مريم: الآية: (٧١).

(٢) سورة مريم: الآية: (٧٢).

(٣) أخرجه مسلم فى الصحيح كتاب فضائل الصحابة باب عن فضائل أصحاب الشجرة حديث رقم: (٢٤٩٦)، وابن ماجه رقم: (٤٢٨١).

فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾(١).

وقال ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾(٢).

۞ ومنها: أن أميرَ الجيشِ ينبغى له أن يبعث العُيونَ أمامه نحوَ العدو.

۞ ومنها: أن الاستعانَةَ بالُمـشِركِ المـأمونِ فى الجهـاد جـائزةٌ عنـد الحاجة، لأن عيينة الخزاعىَّ كَانَ كـافرًا إذ ذاك،... وفيه مِن المصلحة أنه أقربُ إلى اختلاطه بالعدوِّ، وأخذه أخبارهم.

۞ ومنها: استحبابُ مشورةِ الإمام رعيَّته وجيشه، استخراجًا لوجه الرأى، واستطابةً لنفوسهم، وأمنًا لِعَتْبِهم، وتعرُّفًا لمصلحة يختصُّ بعلمها بعضُهم دونَ بعض، وامتثالاً لأمر الربِّ فى قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾(٣)، وقد مدَحَ سبحانه وتعالى عباده بقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾(٤).

۞ ومنها: جواز سبى ذرارى المشركينَ إذا انفردُوا عن رجالهم قبل مقاتلة الرجال.

۞ ومنها: رد الكلام الباطل ولو نُسب إلى غير مُكلَّف كما رد عليهم ﷺ قولهم خلأت القصواء فقال: ما خلأت وما ذاك لها بخُلق.

۞ ومنها: أن تسمية ما يلابسه الرجل من مراكبه ونحوها سُنة.

---

(١) سورة الفتح: الآية: (٢٩).

(٢) سورة التوبة: الآية: (١٢٠).

(٣) سورة آل عمران: الآية: (١٥٩).

(٤) سورة الشورى: الآية: (٣٨).

۞ ومنها: أن المشركين وأهل البدع والفجور إذا طلبوا أمرًا يعظمون فيه حرمات الله تعالى أُجيبوا إليه، وأُعطوه، وأُعينوا عليه.

۞ ومنها: أن من نزل قريبًا من مكة فإنه ينبغى له أن ينزل فى الحِلِّ ويصلى فى الحرم.

۞ ومنها: جواز ابتداء الإمام بطلب صلح العدو إذا رأى المصلحة للمسلمين فيه.

۞ ومنها: أن الفخر والخُيلاء فى الحرب ليس مذمومًا فإن المغيرة بن شعبة لم يكن عادته أن يقوم على رأس النبى ﷺ.

۞ وفى قول النبى ﷺ للمغيرة: **«أَمَّا الإِسْلاَمُ فَأَقْبلُ، وَأَمَّا المَالُ فَلَسْتُ مِنْهُ فى شىء»**، دليل على أن مال المشرك المعاهَد معصوم، وأنه لا يُملَّكُ، بل يُرَدّ عليه، فإن المغيرةَ كان قد صحبهم على الأمان، ثم غدر.

۞ ومنها: احتمالُ قِلَّةِ أدبِ رسولِ الكُفار، وجهلِه وجفوته، ولا يُقابَل على ذلك لما فيه من المصلحة العامة.

۞ ومنها: طهارة النُّخَامَةِ، سواءٌ كانت من رأسٍ أو صدر.

۞ ومنها: طهارةُ الماء المستعمل.

۞ ومنها: استحبابُ التفاؤُلِ، وأَنَّهُ ليس مِن الطِّيَرةِ المَكْرُوهَة، لقوله لما جاء سهيل: **«سَهُلَ أَمْرُكُم»**.

۞ ومنها: أن من حلف على شىء أو وعد بشىء ولم يُعيِّن وقتًا كان على التراخى لا على الفور.

۞ ومنها: أن المُحصَر ينحر هَديه حيث أُحصر من الحلّ أو الحرم.

فقوله تعالى: ﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾[١] يدل على أن الموضع الذى نحر فيه الهدى كان من الحِلِّ لا من الحرم.

۞ ومنها أن المُحصَر لا يجب عليه القضاء، ولم يأمر النبى ﷺ أحدًا بالقضاء.

۞ ومنها أن الأمر المطلق على الفور، وإلا لم يغضب ﷺ لتأخرهم.

۞ ومنها أن الأصل مشاركة أُمته له فى الأحكام إلا ما خصّه الدليل، ولذلك قالت أم سلمة: «اخرج ولا تكلم أحدًا حتى تحلق رأسك وتنحر هديك» وعلمت أن الناس سيتابعونه[٢].

بعض الحِكم التى تضمنتها هذه الهدنة

وهى أكبرُ وأجَلُّ مِن أن يُحيط بها إلا الله الذى أحكم أسبابهَا، فوقعت الغايةُ على الوجه الذى اقتضته حكمته وحمدُه.

فمنها: أنها كانت مُقَدِّمةً بين يدى الفتح الأعظم الذى أعزَّ الله بهِ رسولَه وجندَه، ودخل الناس به فى دين الله أفواجًا، فكانت هذه الهُدنة بابًا له، ومفتاحًا، ومؤذِنًا بين يديه.

ومنها: أن هذه الهُدنة كانت من أعظم الفُتوح، فإن الناسَ أمِنَ بعضُهم بعضًا، واختلطَ المسلمون بالكفار، وبادؤوهم بالدعوة، وأسمعوهم القُرآن، وناظرُوهم على الإسلام جهرةً آمنين، وظهر مَن كان مختفيًا بالإسلام، ودخل فيه فى مُدة الهُدنة من شاء الله أن يدخل، ولهذا سمَّاه الله فتحًا مبينًا.

(١) سورة الفتح: الآية: (٢٥).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٣٠٠-٣٠٩) بتصرف.

ومنها: ما سبَّبه سبحانه للمؤمنين من زيادة الإيمان والإذعانِ، والانقيادِ على ما أحبُّوا وكرهوا، وما حصل لهم فى ذلك من الرِضى بقضاء الله.

ومنها: أنه سبحانه جعل هذا الحكم الذى حكم به لِرسوله وللمؤمنين سببًا لما ذكره مِن المغفرة لرسوله ما تقدَّم مِن ذنبه وما تأخر، ولإتمام نِعمتهِ عليه، ولهدايته الصِّراطَ المستقيم، ونصره النصر العزيز.

۞ ثم ذكرَ حالَ من تخلَّفَ عنه من الأعراب، وظنهم أسوأ الظَّنِّ بالله: أنَّهُ يخذُل رسولَه وأولِيَاءه، وجندَه، ويُظْفِرُ بهم عدوَّهم، فلن ينقلبوا إلى أهليهم، وذلك مِن جهلهم بالله وأسمائِهِ وصِفاتِهِ، وما يليق به، وجهلهم برسوله وما هُوَ أهل أن يُعامِلَه به ربُّه ومولاه.

ثم أخبر سبحانه عن رضاه عن المؤمنين بدخولهم تحت البيعة لرسوله، وأنه سبحانه علم ما فى قلوبهم حينئذ مِن الصِّدق والوفاء، وكمال الانقياد، والطاعة، وإيثار الله ورسولِهِ على ما سواهُ، فأنزل الله السكينةَ والطُّمَأْنِينة، والرِّضى فى قلوبهم، وأثابهم على الرِّضى بحُكمه، والصبر لأمره فتحًا قريبًا، ومغانِمَ كثيرة يأخذونها، وكان أوَّلُ الفتح والمغانم فتحَ خَيْبَرَ، ومغانمها، ثم استمرت الفتوحُ والمغانمُ إلى انقضاء الدهر.

ووعدهم سبحانه مغانِمَ كثيرة يأخذونها، وأخبرهم أنه عجَّل لهم هذه الغنيمة،... وفيها قولان. أحدهما: أنه الصلحُ الذى جرى بينهم وبين عدوهم، والثانى: أنها فتحُ خيبر وغنائمُها[1].

(١) زاد المعاد (٣/ ٣٠٩-٣١٢) بتصرف.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

غزوة ذى قرد

(غزوة الغابة)

غزوة ذى قَرد (غزوة الغابة)[(١)]

وهذه أول غزوة بعد صلح الحديبية. وهى الغزوة التى أغاروا فيها على لقاح النبى ﷺ.

❁ **وقتها :**

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهذه الغزوة كانت بعد الحديبية وقد وهم فيها جماعة من أهل السير فذكروا أنها كانت قبل الحديبية، والدليل على صحة ما قلناه ما رواه الإمام أحمد والحسن بن سفيان عن أبى بكر بن أبى شيبة قال: حدثنا هشام بن القاسم قال: حدثنا عكرمة بن عمار قال: حدثنى إياس بن سلمة عن أبيه قال: قدمت المدينة زمن الحديبية مع رسول الله ﷺ قال: خرجت أنا ورباح بفرس لطلحة أُندِّيه مع الإبل فلما كان بغلس أغار عبد الرحمن بن عُيينة على إبل رسول الله ﷺ فقتل راعيها»... وساق القصة رواها مسلم فى صحيحه بطولها[(٢)].

❁ وقال الإمام البخارى: بأنها قبل خيبر بثلاث - يعنى ليال - أى بعد الحديبية، وجزم بذلك، ورجح ذلك الإمام ابن حجر العسقلانى فى الفتح، وأيده فى ذلك البيهقى فى الدلائل، وابن القيم فى زاد المعاد[(٣)].

أحداث الغزوة

والقصة رواها البخارى ومسلم مختصرة ورواها مسلم كذلك مع قصة

(١) موضع قرب المدينة من ناحية الشام فيه أموال لأهل المدينة.

(٢) زاد المعاد (٣/ ٢٧٨: ٢٧٩).

(٣) فتح البارى (٧/ ٤٦٠).

مبايعة سلمة بالحديبية وكذلك غزوة خيبر فى خبر واحد.

أما القصة مختصرة:

❁ فعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه من طريق يزيد بن أبى عبيد: قال: «سمعت سلمة بن الأكوع يقول خرجت قبل أن يؤذن بالأولى[1]. وكانت لقاح[2] رسول الله ﷺ ترعى بذى قَرَد قال: فلقينى غلام لعبد الرحمن بن عوف فقال: أُخذت لقاح رسول الله ﷺ فقلت: من أخذها؟ قال: غطفان، قال: فصرخت ثلاث صرخات: يا صباحاه! قال: فأسمعت ما بين لابتى المدينة[3]، ثم اندفعت على وجهى حتى أدركتهم بذى قرد، وقد أخذوا يسقون من الماء فجعلت أرميهم بنبلى، وكنت راميًا وأقول:

أنـــا ابـــن الأكـــوع واليـــوم يـــوم الرُّضَّـــع[4]

فارتجز، حتى استنقذت[5] اللقاح منهم، واستلبت منهم ثلاثين بُردة، قال: وجاء النبى ﷺ والناس، فقلت: يا نبى الله! إنى قد حميت[6] القوم الماء، وهم عطاش، فابعث إليهم الساعة. فقال: «**يا ابن الأكوع! ملكت**

(١) قبل أن يؤذن بالأولى: أى الصلاة الأولى يريد بها صلاة الصبح.

(٢) لقاح: واحدها لقحة وهى ذات اللبن قريبة العهد بالولادة.

(٣) ما بين لابتى المدينة: اللابة: أكرة الأرض ذات الحجارة السوداء، والمدينة واقعة بين حَرَّتين عظيمتين -يريد أنه أسمع بصرخاته جميع أهل المدينة.

(٤) يعنى يوم هلاك اللئام من قولهم: لئيم راضع، أى رضع اللؤم فى بطن أمه، والأصل فيه أن رجلاً كان شديد البخل فكان إذا أراد حلب ناقته ارتضع من ثديها لئلا يحلبها فيسمع جيرانه أو من يمر به صوت الحلب، فيطلبون منه، وقيل: معناه: هذا يوم شديد عليكم تفارق فيه المرضعة من أرضعته، فلا يجد من يرضعه [هامش زاد المعاد (٣/ ٢٧٨)].

(٥) استنقذت: أنقذت.

(٦) حميت القوم: منعتهم الماء.

فاسجح»[١]، قال: ثم رجعنا، ويردفنى رسول الله ﷺ على ناقته حتى دخلنا المدينة»[٢].

۞ أما الرواية المطولة فعن إياس بن سلمة عن أبيه فى قصة الحديبية وذات قَرد وخيبر، وسوف نقتصر على الجزء من الحديث الخاص بذات قرد.

قال سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ثم خرجنا راجعين إلى المدينة فنزلنا منزلاً بيننا وبين لحيان جبلٌ وهُمُ المشركون، فاستغفر رسول الله ﷺ لمن رقى هذا الجبل الليلة كأنه طليعةٌ للنبى ﷺ وأصحابه.. قال سلمةُ: فرقيتُ تلك الليلة مرتين أو ثلاثًا، ثم قدمنا المدينة فبعث رسول الله ﷺ بظهره[٣] مع رباح غلام رسول الله ﷺ وأنا معه، وخرجت معه بفرس طلحة أُندِّيه[٤] مع الظهر، فلما أصبحنا إذا عبد الرحمن الفزارى قد أغار على ظهر رسول الله ﷺ فاستاقه أجمع وقتل راعيه.

قال: فقلت: يا رباحُ! خذْ هذا الفرس فأبلغه طلحة بن عبيد الله، وأخبر رسول الله ﷺ أن المشركين قد أغاروا على سرحه قال ثم قمتُ على أكمة فاستقبلت المدينة فناديتُ ثلاثًا: يا صباحاه ثم خرجتُ فى آثار القوم أرميهم بالنبل وأرتجز أقولُ:

---

(١) اسجح: أحسن وارفق، والسجاحة السهولة.

(٢) أخرجه البخارى فى المغازى باب غزوة ذات القرد رقم (٤١٩٤)، ومسلم فى الجهاد والسير باب غزوة ذى قرد وغيرها حديث رقم (١٨٠٦).

(٣) قال ابن عبد الباقى: الظهر الإبل تُعد للركوب وحمل الأثقال.

(٤) قال النووى: ومعناه أن يورد الماشية الماء فتسقى قليلاً ثم تُرسَل فى المرعى ثم ترد الماء فترد قليلاً ثم تُرد إلى المرعى.

أنـــا ابـــن الأكـــوع واليـــوم يـــومُ الرُّضـــع

فألحق رجلاً منهم فأصُكُّ[١] سهمًا فى رَحْلِه حتى خلص نصلُ السهم إلى كتفه قال قلت: خذُها: وأنا ابن الأكوع واليوم يوم الرُّضع قال: فوالله ما زلت أرميهم وأعقرُ بهم[٢] فإذا رجع إلىَّ فارسٌ أتيتُ شجرة فجلستُ فى أصلها ثم رميتُهُ فعقرتُ به حتى إذا تضايق الجبل فدخلوا فى تضايقه علوتُ الجبل فجعلت أُرديهم بالحجارة[٣] قال: فما زلتُ كذلك أتبعهُم حتى ما خلق الله من بعير من ظهر رسول الله ﷺ إلا خلَّفته وراء ظهرى وخلّوا بينى وبينه ثم اتبعتهم أرميهم حتى ألقوا أكثر من ثلاثين بُردةً وثلاثين رمحًا يستخفُّون[٤]، ولا يطرحون شيئًا إلا جعلتُ عليه آرامًا[٥] من الحجارة يعرفها رسول الله وأصحابه، حتى أتوا متضايقًا من ثنية[٦] فإذا هم قد أتاهم فلان بن بدر الفزارى فجلسوا يتضحَّون (يعنى يتغدَّون)، وجلست على رأس قرن[٧].

قال الفزارى: ما هذا الذى أرى؟ قالوا: لقينا من هذا البرح[٨] والله ما فارقنا منذ غلسٍ يرمينا حتى انتزع كل شىء فى أيدينا قال: فليقم إليه نفر منكم أربعةٌ قال: فصعد إلىَّ منهم أربعةٌ فى الجبل قال: فلما أمكنونى من الكلام قال: قلتُ: هل تعرفونى؟ قالوا: لا ومن أنت؟ قال: قلت: أنا سلمة

(١) أصك: أضرب.

(٢) أعقر بهم: أقتل رواحلهم.

(٣) أى: أُسقطهم عن رواحلهم بضربهم بالحجارة.

(٤) أى: يطلبون الخفة.

(٥) أى أعلامًا من الحجارة.

(٦) أى العقبة والطريق فى الجبل.

(٧) القرن: جبل صغير منقطع عن الجبل الكبير.

(٨) البرح: الشدة.

ابن الأكوع.. والذى كرم وجه محمد ﷺ لا أطلب رجلاً منكم إلا أدركته ولا يطلبنى رجلٌ منكم فيدركنى قال أحدهم: أنا أظن. قال: فرجعوا فما برحتُ مكانى حتى رأيتُ فوارس رسول الله ﷺ يتخللون الشجر قال: فإذا أولهم الأخرمُ الأسدى على إثره أبو قتادة الأنصارى، وعلى إثره المقدادُ بن الأسود الكندى قال فأخذت بعنان الأخرم قال: فولوا مدبرين قلتُ: يا أخرم احذرهم لا يقتطعوك حتى يلحق رسول الله ﷺ وأصحابه قال: يا سلمة إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر وتعلم أن الجنة حق والنار حق فلا تَحُل بينى وبين الشهادة قال فخليته، فالتقى هو وعبد الرحمن قال: فعقر بعبد الرحمن فرسه وطعنه عبد الرحمن فقتله وتحوَّل على فرسه، ولحق أبو قتادة فارسُ رسول الله ﷺ بعبد الرحمن فطعنه فقتله.. فوالذى كرَّم وجه محمد ﷺ لتبعتهم أعدو على رجلى حتى ما أرى ورائى من أصحاب محمد ﷺ ولا غبارهم شيئًا حتى يعدلوا قبل غروب الشمس إلى شِعبٍ فيه ماء يقال له (ذا قَرَد) ليشربوا منه وهم عطاش. قال: فنظروا إلىَّ أعدو وراءهم فحليتهم عنه (يعنى أجليتهم عنه) فما ذاقوا منه قطرة قال: فيخرجون فيشتدون فى ثنية قال: فأعدو فألحق رجلاً منهم فأصكه بسهم فى نُغض كتفه قال: قلت: خذها وأنا ابن الأكوع واليوم يوم الرُّضَّع.

قال: يا ثكلته أمُّهُ أكوعهُ بُكرة[1] قال: قلت: نعم يا عدو نفسه! أكوعُك بكرة قال: وأردوا[2] فرسين على ثنية قال: فجئت بهما أسوقهما إلى رسول الله ﷺ قال: ولحقنى عامر بسطيحة فيها مذقةٌ من لبن وسطيحة فيها ماء فتوضأت وشربتُ، ثم أتيت رسول الله ﷺ وهو على الماء الذى حلأتهم

(١) قال النووى: معناه أى أنت الأكوع الذى كنت بكرة هذا النهار.

(٢) قال النووى: معناه أهلكوهما وأتعبوهما حتى أسقطوهما وتركوهما.

عنه فإذا رسول الله ﷺ قد أخذ تلك الإبل وكل شيء استنقذته من المشركين وكل رمحٍ وبُردة، وإذا بلال نحر ناقة من الإبل التى استنقذت من القوم، وإذا هو يشوى لرسول الله ﷺ من كبدها وسنامها قال: قلت: يا رسول الله! خلنى فأنتخبُ من القوم مائة رجلٍ فأتبعُ القوم فلا يبقى منه مُخبرٌ إلا قتلته قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه فى ضوء النار فقال: «**يا سلمة أتراك كنت فاعلاً؟**» قلت: نعم. والذى أكرمك! فقال: «**إنهم الآن ليُقرون**(١) **فى أرض غطفان**» قال: فجاء رجل من غطفان فقال: نَحَر لهم فلان جزورًا فلما كشفوا جلدها رأوا غبارًا فقالوا: أتاكم القومُ فخرجوا هاربين. فلما أصبحنا قال رسول الله ﷺ: «**كان خير فرساننا اليوم أبو قتادة وخير رجَّالتنا سلمةُ**» قال: ثم أعطانى رسول الله ﷺ سهمين: سهم الفارس وسهم الرَّاجل فجمعهما لى جميعًا، ثم أردفنى رسول الله ﷺ وراءه على العضباء - الدابة- راجعين إلى المدينة.

فيا لبديع صنُع ابن الأكوع!! يطارد جيشًا بمفرده حتى يستردَّ منهم ما سلبوه، وهو راجلٌ - يجرى على رجليه - بل ويأخذ منهم السلب والغنيمة، ولا يسمح لهم حتى بشرب الماء!!.

وعلى النقيض.. تطارد ملايينَ العرب شرذمةٌ من اليهود، تأخذ منهم كل شىء، ولا تُبقى لهم إلا العطش، تأخذ أغلى مقدساتهم، ولا تعطيهم إلا الذبح.. وهتك الأعراض وبقر البطون.. ومع هذا فالمسلمون نائمون.. ومن لم توقظه النوائب وتُعلى همته.. فليطل نومُه(٢).

(١) يقرون: أى يضيعون.

(٢) علو الهمة/ د. سيد حسين (٣/ ٣٦٥).

سباق بين سلمة بن الأكوع ورجل من الأنصار

«قال: فبينما نحن نسير. قال: وكان رجل من الأنصار لا يُسبَق شدًّا[١]، قال: فجعل يقول: ألا مسابق إلى المدينة؟ هل من مسابق؟ فجعل يعيد ذلك قال: فلما سمعت كلامه قلت: أما تكرم كريمًا ولا تهاب شريفًا؟ قال: لا. إلا أن يكون رسول الله ﷺ. قال: قلت: يا رسول الله بأبى وأمى! ذرنى فلأسابق الرجل. قال: «إن شئت». قال: قلت: أذهب إليك. وثنيت رجلى فطفرت[٢] فعدوت. قال: فربطت عليه شرفًا أو شرفين أستبقى نفسى[٣]، ثم عدوت فى إثره، فربطت عليه شرفًا أو شرفين، ثم إنى رفعت حتى ألحقه[٤]. قال: فأصكه بين كتفيه. قال: قلت: قد سبقت والله! قال: أنا أظن. قال: فسبقته إلى المدينة»[٥].

قصة المرأة التى أُسرت من ناقة رسول الله ﷺ

عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: «كانت ثقيف حلفاء لبنى عقيل، فأسرت ثقيف رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ، وأسر أصحاب رسول الله ﷺ رجلاً من بنى عقيل، وأصابوا معه العضباء[٦]. فأتى عليه رسول الله

(١) شدًّا: عَدْوًا على الرجلين.

(٢) طفرت: وثبت وقفزت.

(٣) ربطت شرفًا أو شرفين أستبقى نفسى: ربطت: حبست نفسى عن الجرى الشديد.. والشرف ما ارتفع من الأرض، أستبقى نفسى: أى لئلا يقطعنى البهر.

(٤) رفعت حتى ألحقه: أسرعت.

(٥) أخرجه مسلم فى الجهاد باب غزوة ذى قرد وغيرها رقم: (١٨٠٧)، وأبو داود فى الجهاد باب فى السرية ترد على أهل العسكر رقم: (٢٧٥٢).

(٦) العضباء: ناقة نجيبة كانت لرجل من بنى عقيل ثم انتقلت إلى رسول الله ﷺ.

ﷺ وهو فى الوثاق. قال: يا محمد! فأتاه فقال: «ما شأنك؟» قال: بِمَ أخذتنى، وبم أخذت سابقة الحاج[١]؟ فقال: (إعظامًا لذلك): «**أخذتك بجريرة حلفائك ثقيف**» ثم انصرف عنه فناداه، فقال: يا محمد! يا محمد! وكان رسول الله ﷺ رحيمًا رقيقًا، فرجع إليه فقال: «**ما شأنك؟**» قال: إنى مسلم. قال: «**لو قلتها وأنت تملك أمرك أفلحت كل الفلاح**» ثم انصفر فناداه فقال: يا محمد! يا محمد! فأتاه فقال: «**ما شأنك؟**» قال: إنى جائع فأطعمنى، وظمآن فاسقنى قال: «**هذه حاجتك**»، ففدى الرجلين.

قال: وأُسرت امرأة من الأنصار، وأصيبت العضباء، فكانت المرأة فى الوثاق. وكان القوم يريحون نعمهم بين يدى بيوتهم. فانفلتت ذات ليلة من الوثاق فأتت الإبل. فجعلت إذا دنت من البعير رغا فتتركه. حتى تنتهى إلى العضباء. فلم ترغُ. قال: وناقة منوقة[٢] فقعدت فى عجزها، ثم زجرتها، فانطلقت ونذروا بها[٣]، فطلبوها، فأعجزتهم، وقال: ونذرت لله! إن نجاها الله عليها لتنحرنَّها، فلما قدمت المدينة رآها الناس. فقالوا: العضباء ناقة رسول الله ﷺ. فقالت: إنها نذرت إن نجاها الله عليها لتنحرنها. فأتوا رسول الله ﷺ، فذكروا ذلك له فقال: «**سبحان الله! بئسما جَزتها، نذرت لله إن نجاها عليها لتنحرنها. لا وفاء لنذر فى معصية، ولا فيما لا يملك العبد**»[٤].

---

(١) سابقة الحاج: أراد بها العضباء فإنها كانت لا تُسبق، ولا تكاد تُسبق. معروفة بذلك.

(٢) وناقة منوقة: مذللة.

(٣) نذروا بها: علموا وأحسوا بهربها.

(٤) أخرجه مسلم فى كتاب النذور باب لا وفاء لنذر فى معصية الله رقم: (١٦٤١)، أحمد فى المسند: (٤/ ٤٣٣ ـ ٤٣٤)، الدارمى فى السنن كتاب السير باب إذا أحرز العدو من مال المسلمين: (٢/ ٢٣٦).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

غزوة خيبر

غزوة خيبر

لقد كانت خيبر هى من أكبر مراكز الشر اليهودية التى كانت قد تجمعت لحرب الإسلام والمسلمين وكانت مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع وهى على بُعد ستين أو ثمانين ميلاً من المدينة من جهة الشمال.

سبب الغزوة

۞ لما اطمأن رسول الله ﷺ من أقوى أجنحة الأحزاب الثلاثة، وأَمِن منه أمنًا باتًا بعد الهدنة، أراد أن يحاسب الجناحين الباقيين ـ اليهود وقبائل نجد ـ حتى يتم الأمن والسلام، ويسود الهدوء فى المنطقة، ويفرغ المسلمون من الصراع الدامى المتواصل إلى تبليغ رسالة الله والدعوة إليه.

لم يُظهر يهود خيبر العداء للمسلمين حتى نزل فيهم زعماء بنى النضير، الذى حزَّ فى نفوسهم إجلاؤهم عن ديارهم، ولم يكن الإجلاء كافيًا لكسر شوكتهم، فقد غادروا المدينة ومعهم النساء والأبناء والأموال، وخلفهم القيان يضربن الدفوف والمزامير بزهاء وفخر ما رُئى مثله فى حى من الناس فى زمانهم[١].

وكان من أبرز زعماء بنى النضير الذين نزلوا فى خيبر سلام بن أبى الحقيق وكنانة بن أبى الحقيق، وحُيى بن أخطب فلما نزلوا دان لهم أهلها[٢].

وكان تزعُّم هؤلاء ليهود خيبر كافيًا فى جَرِّها إلى الصراع والتصدى

(١) انظر: السيرة النبوية الأصلية، (١/ ٣١٩).

(٢) المصدر نفسه (١/ ٣١٩).

والانتقام من المسلمين، فقد كان يدفعهم حقد دفين ورغبة قوية فى العودة إلى ديارهم داخل المدينة، وكان أول تحرك قوى ما حدث فى غزوة الأحزاب، حيث كان لخيبر وعلى رأسها زعماء بنى النضير دور كبير فى حشد قريش والأعراب ضد المسلمين وتسخير أموالهم فى ذلك.

ولما كانت خيبر هى وكرة الدس والتآمر، ومركز الاستفزازات العسكرية ومعدن التحرشات وإثارة الحروب، كانت هى الجديرة بالتفات المسلمين أولاً.

أما كون خيبر بهذه الصفة، فلا ننسى أن أهل خيبر هم الذين حزَّبوا الأحزاب ضد المسلمين، وأثاروا بنى قريظة على الغدر والخيانة، ثم أخذوا فى الاتصالات بالمنافقين -الطابور الخامس فى المجتمع الإسلامى - وبغطفان وأعراب البادية - الجناح الثالث من الأحزاب - وكانوا هم أنفسهم يهيئون للقتال، فألقوا المسلمين بإجراءاتهم هذه فى محنٍ متواصلة، حتى وضعوا خطة لاغتيال النبى ﷺ وإزاء ذلك اضطر المسلمون إلى بعوث متوالية، وإلى الفتك برأس هؤلاء المتآمرين، مثل سلام بن أبى الحقيق، وأسير بن زارم، ولكن الواجب على المسلمين إزاء هؤلاء اليهود كان أكبر من ذلك. وإنما أبطأوا فى القيام بهذا الواجب؛ لأن قوة أكبر وأقوى وألد وأعند منهم - وهى قريش - كانت مجابهة للمسلمين، فلما انتهت هذه المجابهة صفا الجو لمحاسبة هؤلاء المجرمين، واقترب لهم يوم الحساب(١).

(١) الرحيق المختوم (ص: ٣٩١-٣٩٢).

متى كانت تلك الغزوة

۞ اختلف أهل السير في وقتها على قولين:

الأول: قول ابن إسحاق في المغازي وموسى بن عقبة بأنها كانت في آخر شهر المحرم من السنة السابعة للهجرة... وقال الإمام ابن القيم: والجمهور على أنها في السابعة، وأيده أيضًا الحافظ ابن حجر في الفتح.

ويؤيد هذا القول ما أورده ابن إسحاق في المغازي قال: حدثني الزهري، عن عروة، عن مروان بن الحكم، والمسور بن مخرمة أنهما قالا:

«انصرف رسول الله ﷺ من الحديبية، فنزلت عليه سورة الفتح فيما بين مكة والمدينة، فأعطاه الله فيها خيبر بقوله: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾[(١)] يعني خيبر ... فقدم المدينة في ذي الحجة، فأقام بها حتى سار إلى خيبر في المحرم»[(٢)].

ويؤيده أيضًا ما جاء في حديث سلمة بن الأكوع أنها كانت بعد غزوة ذي قَرد بثلاث ليال كما جاء في نص الحديث بقوله «قال فسبقته إلى المدينة. قال: فوالله ما لبثنا إلا ثلاث ليالٍ حتى خرجنا إلى خيبر مع رسول الله ﷺ».

الثاني: قول مالك بأنها كانت في السنة السادسة وأيده ابن حزم في ذلك.

قال الحافظ ابن حجر في الفتح: «وهذه الأقوال متقاربة، والراجح منها ما ذكره ابن إسحاق،... ويمكن الجمع بينها بأن من أطلق سنة سِتٍّ بناء على أن ابتداء السنة من شهر الهجرة الحقيقي وهو ربيع الأول»[(٣)].

---

(١) سورة الفتح: الآية: (٢٠).

(٢) فتح الباري: (٧/ ٤٦٤) دلائل النبوة للبيهقي: (٤/ ١٩٧)، زاد المعاد: (٣/ ٣١٧)، السيرة النبوية لابن كثير: (٣/ ٢٤٤) - رجاله ثقات، وسنده حسن.

(٣) فتح الباري (٧/ ٤٦٤).

وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها

قال المفسرون[١]: إن خيبر كانت وعدًا وعدها الله تعالى بقوله: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ﴾[٢] يعني صلح الحديبية، وبالمغانم الكثيرة خيبر.

وعن عُروة، عن مروانَ بن الحكم والمِسور بنِ مَخْرَمَة، أنهما حدَّثاه جميعًا، قالا: انصرفَ رسولُ الله ﷺ عامَ الحُديبية، فنزلت عليه سورةُ الفتح فيما بينَ مكة والمدينة، فأعطاه الله ﷻ فيها خيبرَ ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ[٣] وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾[٤] خيبر، فقدِم رسولُ الله ﷺ المدينةَ في ذي الحجة، فأقام بها حتى سار إلى خيبر في المحرَّم، فنزلَ رسولُ الله ﷺ بالرَّجِيعِ: (وادٍ بين خيبرَ وغَطَفَان)، فتخوَّف أن تمدهم غَطَفَانُ، فبات به حتَّى أصبح، فغدا إليهم[٥].

ولما كان المنافقون وضعفاء الإيمان تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة الحديبية، أمر الله تعالى نبيه ﷺ فيهم قائلاً: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا

---

(١) السيرة لابن هشام (٣/ ٧٩١).

(٢) سورة الفتح: الآية: (٢٠).

(٣) أي: خيبر.

(٤) سورة الفتح: الآيتان: (٢٠-٢١).

(٥) زاد المعاد (٣/ ٣١٧) وقال الأرناؤوط: رجاله ثقات.

﴿يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾[(١)].

فلما أراد رسول الله ﷺ الخروج إلى خيبر، وأعلن أن لا يخرج معه إلا راغب فى الجهاد، فلم يخرج إلا أصحاب الشجرة وهم ألف وأربعمائة.

النبى ﷺ يستعمل على المدينة (سباع بن عُرفطة)

۞ واستخلف النبى ﷺ على المدينة سِباعَ بنَ عُرْفُطَةَ، وقَدِمَ أبو هريرة حينئذ المدينة مسلمًا فوافى سِباعَ بنَ عُرفُطة فى صلاة الصُّبح، فسمِعه يقرأ فى الركعة الأولى: ﴿كهيعص﴾ وفى الثانية ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾، فقال فى نفسه: ويل لأبى فلان، له مِكيالان إذا اكتالَ اكتالَ بالوافى، وإذا كال كال بالناقِص، فلما فرغ من صلاته، أتى سباعًا، فزوده حتى قَدِمَ على رسول الله ﷺ وكلَّم المسلمينَ، فأشْركُوه وأصحابه فى سُهمانهم[(٢)].

رأس المنافقين يُخبر اليهود بمقدم النبى ﷺ

وقد قام المنافقون يعملون لليهود، فقد أرسل رأس المنافقين (عبد الله ابن أُبى) إلى يهود خيبر: أن محمدًا قصد قصدكم وتوجه إليكم، فخذوا حذركم، ولا تخافوا منه، فإن عددكم وعدتكم كثيرة، وقوم محمد شرذمة قليلون، عُزَّل لا سلاح معهم إلا قليل، فلما علم ذلك أهل خيبر، أرسلوا كنانة بن أبى الحقيق وهوذة بن قيس إلى غطفان، يستمدونهم؛ لأنهم كانوا حلفاء يهود خيبر، ومُظاهرين لهم على المسلمين، وشرطوا لهم نصف ثمار خيبر إن هم غلبوا على المسلمين[(٣)].

---

(١) سورة الفتح: الآية: (١٥).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٤٥: ٣٤٦) وإسناده قوى.

(٣) الرحيق المختوم (ص: ٣٩٣).

خطة مباركة

۞ ولم يَفُتِ المسلمين، قبل مسيرهم، أن يفصموا الجبهة المؤلفة ضدهم من يهود وغطفان فأوهموا غطفان أن الهجوم متجه إليهم، وأن قوة المسلمين توشك أن تلتف بهم... قال ابن إسحاق: بلغنى أن غطفان لما سمعت بمنزل رسول الله ﷺ من خيبر جمعت له، ثم خرجوا ليظاهروا يهود عليه، حتى إذا ساروا مرحلة سمعوا خلفهم فى أموالهم وأهلهم حِسًّا فظنوا أن القوم خالفوهم إليهم فرجعوا على أعقابهم، وأقاموا فى أهليهم وأموالهم، وخَلَّوا بين رسول الله وبين خيبر!!.

وهكذا نجحت الخطة فى عزل يهود خيبر عن حلفائهم المشركين[١].

۞ ثم دعا رسول الله ﷺ الدليلين اللذين كانا يسلكان بالجيش ـ وكان اسم أحدهما حسيل ـ ليدلاه على الطريق الأحسن، حتى يدخل خيبر من جهة الشمال ـ أى: جهة الشام ـ فيحول بين اليهود وبين طريق فرارهم إلى الشام، كما يحول بينهم وبين غطفان.

قال أحدهما: أنا أدلك يا رسول الله، فأقبل حتى انتهى إلى مفرق الطرق المتعددة، وقال: يا رسول الله هذه طرق يمكن الوصول من كل منها إلى المقصد، فأمر أن يسميها له واحدًا واحدًا. قال: اسم واحد منها حزن، فأبى النبى ﷺ من سلوكه، وقال: اسم الآخر شاش، فامتنع منه أيضًا، وقال: اسم آخر حاطب، فامتنع منه أيضًا، وقال حسيل: فما بقى إلا واحدٌ، قال عمر: ما اسمه؟ قال: مرحب، فاختار النبى ﷺ سلوكه[٢].

---

(١) فقه السيرة للغزالى (ص ٣٨٣-٣٨٤) بتصرف.

(٢) الرحيق المختوم (ص: ٣٩٣ـ٤٩٣).

حداء (عامر بن الأكوع) بجيش المسلمين

۞ عن سلمة بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «خرجنا مع النبى ﷺ إلى خيبر، فسرنا ليلاً، فقال رجل من القوم لعامر: يا عامر ألا تُسمعنا من هنيهاتك؟ وكان عامر رجلاً شاعرًا فنزل يحدو بالقوم يقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدَّقنا ولا صلينا

فاغفر فداءَ لك ما اتقينا ... وثبِّت الأقدام إن لاقينا

وألقين سكينةً علينا ... إنَّا إذا صيح بنا أَبَينا

وبالصياح عولوا علينا

فقال رسول الله ﷺ: **«من هذا السائق؟»** قالوا: عامر بن الأكوع، قال: **«يرحمه الله»**. قال رجل من القوم: وجبت يا نبى الله، لولا أمتعتنا به...»[1].

وفى رواية أخرى لسلمة بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ انفرد بها الإمام مسلم فى صحيحه من ضمن حديث طويل، «... قال: فسبقته إلى المدينة. قال: فوالله! ما لبثنا إلا ثلاث ليال حتى خرجنا إلى خيبر مع رسول الله ﷺ، قال: فجعل عمى عامر يرتجز بالقوم:

تالله لولا الله ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

ونحن عن فضلك ما استغنينا ... فثبِّت الأقدام إن لاقينا

وأنزلن سكينة علينا

فقال رسول الله ﷺ: **«من هذا؟»** قال: أنا عامر، قال: **«غفر لك ربك»**

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه المغازى باب غزوة خيبر (٤١٩٦) مسلم فى الجهاد باب غزوة خيبر (١٨٠٢).

قال: وما استغفر رسول الله ﷺ لإنسان يخصّه إلا استُشهد، قال: فنادى عمر بن الخطاب، وهو على جَمَلِه: يا نبي الله؟ لو لا ما متعتنا بعامر...».

۞ وقد جاء من حديث دهر الأسلمي رضي الله عنه «أنه سمع رسول الله ﷺ يقول في مسيره إلى خيبر لعامر بن الأكوع، وهو عم سلمة بن عمرو بن الأكوع، وكان اسم الأكوع سنان: «**انزل يا ابن الاكوع، فخذ لنا من هنَّاتك**»، قال: فنزل يرتجز برسول الله ﷺ فقال:

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

إنا إذا قومٌ بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا

فأنزلن سكينةً علينا وثبِّت الأقدام إن لاقينا

زاد الطبري في روايته «فقال رسول الله ﷺ: «**يرحمك الله**» فقال عمر: وجبت والله يا رسول الله، لو أمتعتنا به، فقُتل يوم خيبر شهيدًا»(١).

إنكم تدعون سميعًا قريبًا

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: «قال: لما غزا رسول الله ﷺ خيبر. أو قال لما توجه رسول الله ﷺ - أشرف الناس على وادٍ، فرفعوا أصواتهم بالتكبير: الله أكبر، الله أكبر، فقال رسول الله ﷺ: «**أربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، إنكم تدعون سميعًا قريبًا، وهو معكم**»... وأنا خلف دابة رسول الله ﷺ، فسمعني وأنا أقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، فقال لي: «**يا عبد الله بن قيس**»، قلت: لبيك رسول الله. قال: «**ألا أدلك على**

---

(١) أخرجه أحمد في المسند: (٣/ ٤٣١) وابن هشام في السيرة: (٣/ ٤٥٥) قال الهيثمي في المجمع: (٦/ ١٤٨-١٤٩) رواه أحمد والطبراني، ورجالهما ثقات.

كلمة من كنز من كنوز الجنة؟» قلت: بلى يا رسول الله، فداك أبى وأمى. قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله»(١).

طعام المسلمين فى طريقهم إلى خيبر

عن سويد بن النعمان رضي الله عنه: «أنه خرج مع النبى ﷺ عام خيبر... قال: حتى إذا كنا بالصهباء - وهى من أدنى خيبر - صلى العصر ثم دعا بالأزواد، فلم يؤت إلا بالسويق، فأمر به فثرى، فأكل وأكلنا، ثم قام إلى المغرب فمضمض ومضمضنا، ثم صلى ولم يتوضأ»(٢).

الجيش الإسلامى يتحرك إلى أسوار خيبر

بات المسلمون قريبًا من خيبر فى تلك الليلة الأخيرة التى بدأ فى صباحها القتال ولم تشعر بهم اليهود فى تلك الليلة.

۞ فعن أنس رضي الله عنه أنه قال: «إن رسول الله ﷺ أتى خيبر ليلاً - وكان إذا أتى قومًا بليل لم يقربهم حتى يصبح - فلما أصبح خرجت اليهود بمساحيهم ومكاتلهم، فلّما رأوه قالوا: محمد والله، محمد والخميس. فقال النبى ﷺ: **خربت خيبر، إنَّا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذَرين**»(٣).

۞ ومن حديث أبى طلحة رضي الله عنه قال: كنت رديف رسول الله ﷺ، فسكت عنهم حتى إذا كان عند السَّحَر، وذهب ذو الضرع إلى ضرعه، وذو

---

(١) أخرجه البخارى (٤٢٠٥) المغازى - ومسلم (٧٠٤) الذكر والدعاء والتوبة.

(٢) أخرجه البخارى (٢٠٩) الوضوء - وأحمد (٣/ ٤٦٢) وابن ماجه (٤٩٢).

(٣) أخرجه البخارى فى المغازى باب غزوة خيبر رقم (٤١٩٧، ٤١٩٨) - مسلم فى الجهاد باب غزوة خيبر رقم (١٣٦٥).

الزرع إلى زرعه أغار عليهم، وقال: «**إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المُنذَرين**»(١).

۞ ويظهر أن اليهود ظنوا ـ أول وهلة ـ أن زحف المسلمين صوب غطفان فلم يعيروا الأمر التفاتًا بل أصبحوا غادين إلى حقولهم بمساحيهم ومكاتلهم حتى فوجئوا بالمسلمين يسيرون نحوهم، فارتدوا إلى حصونهم فزعين، وهم يقولون: محمد والخميس!(٢).

الاستخبارات العسكرية تأتي بأخبار خيبر

وكان ﷺ قد بعث عباد بن بشر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في سرية استطلاعية يتلقط أخبار العدو، ويستطلع إن كان هناك كمائن، فلقى في الطريق عينًا لليهود من أشجع فقال: من أنت؟ قال: باغٍ ابتغى أبعرة ضلت لي، أنا على إثرها، قال عباد: ألك علم بخيبر؟ قال: عهدي بها حديث، فيم تسألني عنه؟ قال: عن اليهود؟ قال: نعم، كان كنانة بن أبي الحقيق وهوذة بن قيس ساروا في حلفائهم من غطفان، فاستنفروهم وجعلوا لهم ثمر خيبر سنة، فجاءوا مُعدّين مؤيدين بالكراع والسلاح يقودهم عتبة بن بدر، ودخلوا معهم في حصونهم، وفيهم عشرة آلاف مقاتل، وهم أهل الحصون التي لا تُرام، وسلاح وطعام كثير لو حُصروا لسنين لكفاهم، وماء يشربون في حصونهم، ما أرى لأحدٍ بهم طاقة، فرفع عبَّاد بن بشر السوط فضربه ضربات، وقال: ما أنت إلا عين لهم، اصدقني وإلا ضربت عنقك. فقال الأعرابي: القوم مرعوبون منكم خائفون،

(١) أخرجه أحمد في المسند: (٤/ ٢٨، ٢٩) والطبراني برقم: (٤٧٠٣، ٤٧٠٤، ٤٧٠٥) قال الهيثمي في المجمع: (٦/ ١٤٨) رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح» وقال أيضًا: (٦/ ١٤٩) رواه أحمد والطبراني بأسانيد ورجال أحمد رجال الصحيح.

(٢) فقه السيرة للغزالي (ص ٣٨٤).

وجلون لما صنعتم بمن كان بيثرب من اليهود،... وقال لي كنانة: اذهب معترضًا للطريق فإنهم لا يستنكرون مكانك واحزرهم لنا، وادنُ منهم كالسائل لهم ما تقوى به، ثم ألقِ إليهم كثرة عددنا ومادتنا، فإنهم لن يدعوا سؤلك، وعجِّل الرجعة إلينا بخبرهم[١].

وأمرهم شورى بينهم

وكان النبي ﷺ اختار لمعسكره منزلاً، فأتاه حُباب بن المنذر فقال: يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أنزلكه الله، أم هو الرأي في الحرب؟ قال: «**بل هو الرأي**»، فقال: يا رسول الله إن هذا المنزل قريب جدًا من حصن (نطاة)، وجميع مقاتلي خيبر فيها،وهم يدرون أحوالنا، ونحن لا ندري أحوالهم، وسهامهم تصل إلينا وسهامنا لا تصل إليهم،ولا نأمن من بياتهم، وأيضًا هذا بين النخلات، ومكان غائر، وأرضٌ وخيمة، لو أمرت بمكانٍ خالٍ عن هذه المفاسد نتخذه معسكرًا. قال ﷺ: «**الرأي ما أشرت**»، ثم تحول إلى مكانٍ آخر.

ولما دنا من خيبر وأشرف عليها قال: «**قفوا**»، فوقف الجيش فقال: «**اللهم ربَّ السماوات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، فإنا لنسألك خير هذه القرية، وخير أهلها، وخير ما فيها، ونعوذ بك من شر هذه القرية وشر أهلها، وشر ما فيها، أقدموا بسم الله**»[٢][٣].

---

(١) المغازي للواقدي (٢/ ٦٤٠-٦٤١).

(٢) أخرجه ابن هشام في السيرة (٣/ ٧٩٢) والطبراني في الكبير (٨/ ٧٢٩٩) وصححه ابن خزيمة (٤/ ٢٥٦٥) والحاكم (١/ ٤٤٦) ووافقه الذهبي وحسنه الحافظ ابن حجر كما في الفتوحات الربانية (٥/ ١٥٤) والألباني في تحقيقه لفقه السيرة (ص: ٣٥٣).

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٣٢٩).

۞ ولما أدرك رسول الله ﷺ الليل أمر الجيش بالنوم على مشارف خيبر، ثم استيقظوا مبكرين، وضربوا خيامهم ومعسكرهم بوادى الرجيع، وهو وادى يقع بين خيبر وغطفان، حتى يقطعوا المدد عن يهود خيبر من قبيلة غطفان(١).

ولما أصبح الصبح خرجت اليهود بمساحيهم(٢) ومكاتلهم(٣)، فلما رأوا جيش المسلمين قالوا: محمد والله، محمد والخميس، فقال النبى ﷺ: «**الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المُنذَرين**»(٤).

وقد تهارب اليهود إلى حصونهم وأغلقوها دونهم فحاصرهم المسلمون، وحاولت قبيلة غطفان نجدة حلفائها اليهود، ولكنهم لم يشتركوا فى القتال خوفًا من أن يهاجم المسلمون ديارهم(٥).

بدء الحصار

بدأ المسلمون حصارهم لحصون خيبر، وحمل أبو بكر الصديق رضي الله عنه الراية خلال اليومين الأولين من حصار حصن ناعم، ولقى المسلمون

(١) انظر: الصراع مع اليهود (٢/ ٤٥).

(٢) المساحي: جمع ومفردها مسحاة، والمسحاة: المجرفة من الحديد.

(٣) المكاتل: جمع مكتل، وهو المقطف الكبير.

(٤) البخاري، كتاب المغازي، رقم (٤٢١٠).

(٥) ذكر ابن إسحاق أنهم تجمعوا وساروا نحو خيبر وبعد أن قطعوا مرحلة، سمعوا خلفهم فى أموالهم وأهليهم حِسًّا فظنوا أن المسلمين قد خالفوا إليهم فرجعوا وخلوا بين الرسول ﷺ وبين خيبر (ابن هشام- السيرة ٣/ ٤٣٨)، ويقرر الواقدى وصول غطفان إلى حصون خيبر وينفرد بالقول أنهم رفضوا عرضا من النبى ﷺ بمنحهم تمر خيبر لذلك الموسم مقابل انسحابهم، ولا يصح الاعتماد على هذه المعلومات لضعف الواقدى وعدم ورود ذلك من طرق أخرى (الواقدي- مغازى ٣/ ٦٥٠).

مقاومة عنيفة وأصابتهم شدة وجهد، ولم يتمكنوا من فتح الحصن خلال تلك الفترة فقال النبى ﷺ «**إنّى دافعٌ اللّواء غدًا إلى رجل يحبّه اللّه ورسوله، ويحبّ اللّه ورسوله، ولا يرجع حتّى يفتح له**» (١).

صاحب الراية الذى يفتح الله على يديه حصون خيبر

عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «**لأُعطينَّ هذه الراية غدًا رجلاً يفتح الله على يديه، يحبُّ الله ورسوله ويحبُّه الله ورسوله**». قال: فبات الناس يدوكون ليلتهم، أيُّهم يُعطاها؟ فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلُّهم يرجو أن يُعطاها، فقال: «**أين على بن أبى طالب؟**» فقيل: هو يا رسول الله يشتكى عينيه. قال: فأرسلوا إليه فأُتى به. فبصق رسول الله ﷺ فى عينيه ودعا له، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجعٌ، فأعطاه الراية، فقال علىٌّ: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال: «**انفُذ على رِسْلِكَ حتى تنزل بساحتهم، ثم ادْعُهم إلى الإسلام، وأخبِرهم بما يجب عليهم من حقِّ الله فيه، فوالله؛ لأن يهدى الله بك رجلاً واحدًا خيرُ لك من أن يكون لك حُمْرُ النَّعَم**» (٢).

وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «**لأُعطينَّ هذه الراية رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه**». قال عمر بن الخطاب: ما أحببتُ الإمارة إلا يومئذٍ. قال: فتساورتُ لها رجاءَ أن أُدْعَى لها، قال: فدعا رسول الله ﷺ علىَّ بن أبى طالب فأعطاه إياها. وقال: «امشِ

---

(١) رواه أحمد- المسند (٥/ ٣٥٣).

(٢) أخرجه البخارى (٤٢١٠) ومسلم (٢٤٠٦) والنسائى فى فضائل الصحابة (٤٦).

ولا تلتفتْ، حتى يفتح الله عليك». فسار (عليٌّ) شيئًا، ثم وقف ولم يلتفت، فصرخ: يا رسول الله على ماذا أقاتلُ الناس؟ قال: «**قاتِلْهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءَهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابُهم على الله**»[1].

وإنما سابق رسول الله بهذا النُّصح الرشيد حتى يقطع النفوس عن المغانم المُعجَّلة، فإن ثروة يهود - إذا هُزموا - ضخمة. ولكن ثواب مقاتليهم - إذا اهتدوا - أضخم.

وعند البخارى عن سلمة، قال: «كان عليٌّ قد تخلَّف عن النبى ﷺ فى خيبر، وكان به رمدٌ، فقال: أنا أتخلَّف عن رسول الله ﷺ؟! فخرج عليٌّ فلحقَ بالنبى ﷺ، فلما كان مساء الليلة التى فتحها الله فى صباحها، قال رسول الله ﷺ: «**لأُعطينَّ الراية - أو ليأخذنَّ الراية - غدًا رجلاً يحبُّه الله ورسوله - أو قال: يحبُّ الله ورسوله - يفتح الله عليه**». فإذا نحن بعليّ، وما نرجوه، فقالوا: هذا عليّ: فأعطاه رسول الله ﷺ الراية، ففتح الله عليه»[2].

وعن أبى سعيد الخدرى، قال: إن رسول الله ﷺ أخذ الراية فهزّها، ثم قال: «**مَنْ يأخذها بحقِّها؟**» فجاء فلان فقال: أنا. قال: أمط. ثم جاء رجلٌ فقال: أَمِطْ. ثم قال النبى ﷺ: «**والذى كَرَّم وجهَ محمد، لأُعطينَّها رجلاً لا يفرّ، هاك يا عليّ**» فانطلقَ حتى فتح الله عليه خيبر وفَدَك، وجاء بعجوتهما وقديدهما[3].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٠٥)، وأحمد (٢/ ٣٨٤) والطيالسى (٢٤٤١).

(٢) أخرجه البخارى (٣٧٠٢)، ومسلم (٢٤٠٧).

(٣) رواه أحمد (٣/ ١٦) وفى فضائل الصحابة (٩٨٧) وإسناده حسن.

(علىّ)[(١)] يقتل (مرحب اليهودى)

وأول حصن هاجمه المسلمون من هذه الحصون الثمانية هو حصن ناعم، وكان خط الدفاع الأول لليهود لمكانه الاستراتيجى، وكان هذا الحصن هو حصن مرحب البطل اليهودى الذى كان يُعَدُّ بالألف.

خرج على بن أبى طالب رضي الله عنه بالمسلمين إلى هذا الحصن، ودعا اليهود إلى الإسلام، فرفضوا هذه الدعوة، وبرزوا إلى المسلمين ومعهم ملكهم مرحب، فلما خرج إلى ميدان القتال دعا إلى المبارزة.

۞ فعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه: «... قال: فلما قدمنا خيبر قال: خرج ملكهم مرحب يخطر بسيفه ويقول:

قد علمت خيبر أنى مرحَبُ ... شاكى السلاح بطلٌ مُجرَّبُ

إذا الحروبُ أقبلتْ تلهَّبُ

قال: وبرز له عمى عامر فقال:

قد علمت خيبر أنى عامر ... شاكى السلاح بطل مغامر

قال: فاختلفا ضربتين، فوقع سيف مرحب فى ترس عامر، وذهب عامر

---

(١) قال الإمام النووى فى تهذيب الأسماء واللغات ما نَصُّه: «اختلفوا فى قاتل مرحب، فقيل على ابن أبى طالب، وقال ابن عبد البر فى كتابه الدرر فى مختصر السير، قال محمد بن إسحاق: أن محمد بن مسلمة هو الذى قتل مرحبًا اليهودى بخيبر، قال وخالفه غيره، فقال: بل قتله على بن أبى طالب، قال ابن عبد البر: هذا هو الصحيح عندنا، ثم روى ذلك بإسناده عن بريدة وسلمة ابن الأكوع. [سورة الفتح الربانى (٢١/ ١٢١)]. قال الحاكم فى المستدرك: «الأخبار متواترة بأسانيد كثيرة أن قاتل مرحب أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضي الله عنه»، ووافقه الذهبى على ما قال (٣/ ٤٣٧).

يسفل له فرجع سيفه على نفسه، فقطع أكحله، فكانت فيها نفسه.

قال سلمة: فخرجت فإذا نفر من أصحاب النبى ﷺ يقولون: بطل عمل عامر، قتل نفسه. قال: فأتيت النبى ﷺ وأنا أبكى، فقلت: يا رسول الله! بطل عمل عامر؟ قال رسول الله ﷺ: «**من قال ذلك؟**» قلت: ناس من أصحابك قال: «**كذب من قال ذلك. بل له أجره مرتين**».

۞ **قال سلمة** رضي الله عنه: «ثم أرسلنى رسول الله ﷺ إلى (علىّ) وهو أرمد، فقال: «**لأُعطينَّ الراية رجلاً يحبُّ الله ورسوله، أو يحبه الله ورسوله**». قال: فأتيتُ عليًّا فجئت به أقوده وهو أرمد، حتى أتيت به رسول الله ﷺ، فبصق فى عينيه فبرأ، وأعطاه الراية... وخرج «مرحب» فقال:

قد علمت خيبر أنى مرحَبُ شاكى السلاح بطلٌ مُجرَّبُ
إذا الحروبُ أقبلتُ تلهَّبُ

فقال علىٌّ:

أنا الذى سمَّتْنى أُمّى حَيْدَرَهْ[1] كلَيْثِ غاباتٍ كريهِ المنْظَرهْ
أُوفِّيهمْ بالصاع كَيْلَ السَّنْدَرَهْ

قال: فضرب رأسَ «مرحب» فقتله، وكان الفتح على يديه[2].

۞ **مَرْحب هذا**: فارس فرسان اليهود، وكان مكتوبًا على سيفه بالعبرية:

هذا سيفُ مَرحَبْ من يَذُقهُ يعطبْ

فضربه علىٌّ فقدّ الحجر والمغفر ورأسه، ووقع السيف فى الأضراس.

---

(١) حيدرة: هو الأسد.

(٢) أخرجه مسلم (١٨٠٧) عن سلمة بن الأكوع.

وقبله قتل (علىّ) أخا مَرحَبَ، وهو الحارث. وبارز علىٌّ قائدًا يهوديًا ـ بعد مبارزة الزبير لياسر ـ وكان هذا القائد الفارس يُسمّى عامرًا، فقتله علىٌّ أمام الحصن. قال رسول الله ﷺ حين طلع عامرٌ: «**ترونه خمسةَ أذرع؟**» وكان طويلاً جسيمًا، فلما دعا للبراز، وخطر بسيفه، وعليه دِرعانِ، وهو مُقَنَّعٌ فى الحديد يصيح: من يبارز؟ فأحجم الناس عنه، فبرز إليه (علىّ) فضربه ضرباتٍ، كلّ ذلك لا يصنعُ شيئًا، حتى ضرب ساقيه فبرك، ثم ذفّف(١) عليه فأخذ سلاحه(٢).

وفتح الله على يديه حصن (ناعم) وهو من أقوى حصون خيبر.

فيا لها من صفحات مشرقة لا ننساها أبدًا ما دامت أرواحنا فى أبداننا.

فتح حصن الصعب بن معاذ

وكان حصن الصعب هو الحصن الثانى من حيث القوة والمناعة بعد حصن ناعم، ... قام المسلمون بالهجوم عليه تحت قيادة الحُباب بن المنذر الأنصارى، ففرضوا عليه الحصار ثلاثة أيام، وفى اليوم الثالث، دعا رسول الله ﷺ لفتح هذا الحصن دعوة خاصة.

ولما ندب النبى ﷺ المسلمين بعد دعائه لمهاجمة هذا الحصن كان بنو أسلم هم المقاديم فى المهاجمة، ودار البراز والقتال أمام الحصن. ثم فُتح الحصن فى ذلك اليوم قبل أن تغرب الشمس، ووجد فيه المسلمون بعض المنجنيقات والدبابات.

---

(١) أجهز عليه.

(٢) سلسلة معارك الإسلام الفاصلة ـ خيبر ـ لمحمد أحمد باشميل (ص ١٢٢).

ولأجل هذه المجاعة الشديدة كان رجال من الجيش قد ذبحوا الحمير، ونصبوا القدور على النيران، فلما علم رسول الله ﷺ بذلك نهى عن لحوم الحُمُر الإنسية(١) (٢).

فتح قلعة الزبير

وبعد فتح حصن ناعم والصعب تحول اليهود من كل حصون النطاة إلى قلعة الزبير، وهو حصن منيع في رأس قلة، لا تقدر عليه الخيل والرجال لصعوبته وامتناعه، ففرض عليه رسول الله ﷺ الحصار، وأقام محاصرًا ثلاثة أيام لهم فجاء رجل من اليهود، وقال: يا أبا القاسم إنك لو أقمت شهرًا ما بالوا، إن لهم شرابًا وعيونًا تحت الأرض، يخرجون بالليل ويشربون منها، ثم يرجعون إلى قلعتهم فيمتنعون منك، فإن قطعت مشربهم عليهم أسحروا لك،

(١) أخرجه البخاري (٤٢١٦) ومسلم (١٤٠٧) وابن ماجه (١٩٦١).

(٢) عن علي بن أبي طالب ﷺ: أن رسول الله ﷺ نهى عن متعة النساء يوم خيبر، وعن أكل لحوم الحُمر الإنسية». (أخرجه البخاري) وعن ابن عباس ﷺ: أن النبي ﷺ نهى عن المتعة، وعن لحوم الحمر الأهلية زمن خيبر». (أخرجه البخاري). قال الحافظ: قال الماوردي في الحاوي في تعيين موضع تحريم المتعة وجهان: أحدهما: أن التحريم تكرر ليكون أظهر وأنشر حتى يعلمه من لم يكن علمه، لأنه قد يحضر في بعض المواطن من لا يحضر في غيرها. والثاني أنها أبيحت مرارًا، ولهذا قال في المرة الأخيرة «إلى يوم القيامة» إشارة إلى أن التحريم الماضي كافٍ مؤذنًا بأن الإباحة تعقبه، بخلاف هذا، فإنه تحريم مؤبّد لا تعقبه إباحة أصلا. وهذا الثاني هو المعتمد، ويرد الأول التصريح بالإذن فيها في الموطن المتأخر عن الموطن الذي وقع التصريح فيه بتحريمها كما في غزوة خيبر ثم الفتح. وقال النووي: الصواب أن تحريمها وإباحتها وقعا مرتين فكانت مباحة قبل خيبر ثم حرّمت فيها، ثم أبيحت عام الفتح وهو عام أوطاس، ثم حرمت تحريمًا مؤبدًا، قال ولا مانع من تكرير الإباحة. [فتح الباري (٩/ ٧٥)]. أما تحريم الحمر الإنسية، وفي رواية الأهلية، فقيل الحكمة فيها أنها تأكل العذرة، وقيل: لأنها كانت حمولة الناس فكره أن تذهب حمولتهم.

فقطع ماءهم عليهم، فخرجوا فقاتلوا أشد القتال، قُتل فيه نفر من المسلمين وأصيب نحو العشرة من اليهود، وافتتحه رسول الله ﷺ.

فتح قلعة أُبىّ

وبعد فتح قلعة الزبير انتقل اليهود إلى قلعة أُبىّ وتحصنوا فيه، وفرض المسلمون عليهم الحصار وقام بَطَلان من اليهود واحدٌ بعد الآخر بطلب المبارزة، وقد قتلهما أبطال المسلمين، وكان الذى قتل المبارز الثانى هو البطل المشهور أبو دجانة سماك بن خرشةَ الأنصارى صاحب العصابة الحمراء، وقد أسرع أبو دجانة بعد قتله إلى اقتحام القلعة، واقتحم معه الجيش الإسلامى، وجرى قتال مرير ساعة داخل الحصن، ثم تسلل اليهود من القلعة، وتحولوا إلى حصن النزار آخر حصن فى الشطر الأول.

فتح حصن النزار

كان هذا الحصن أمنع حصون هذا الشطر، وكان اليهود على شبه اليقين بأن المسلمين لا يستطيعون اقتحام هذه القلعة، وإن بذلوا قصارى جهدهم فى هذا السبيل، ولذلك أقاموا فى هذه القلعة مع الذرارى والنساء، بينما كانوا قد أخذوا منها القلاع الأربعة السابقة.

وفرض المسلمون على هذا الحصن أشد الحصار وصاروا يضغطون عليهم بعنف، ولكون الحصن يقع على جبل مرتفع منيع لم يكونوا يجدون سبيلاً للاقتحام فيه، أما اليهود فلم يجترئوا للخروج من الحصن، للاشتباك مع قوات المسلمين، ولكنهم قاوموا المسلمين مقاومة عنيدة برشق النبال، وبإلقاء الحجارة.

وعندما استعصى حصن النزار على قوات المسلمين، أمر النبى ﷺ

بنصب آلات المنجنيق، ويبدو أن المسلمين قذفوا بها القذائف، فأوقعوا الخلل فى جدران الحصن، واقتحموه، ودار قتال مرير فى داخل الحصن، انهزم أمامه اليهود هزيمة منكرة، وذلك لأنهم لم يتمكنوا من التسلل من هذا الحصن كما تسللوا من الحصون الأخرى بل فروا من هذا الحصن تاركين للمسلمين نساءهم وذراريهم.

وبعد فتح هذا الحصن المنيع تم فتح الشطر الأول من خيبر، وهى ناحية النطاة والشق، وكانت فى هذه الناحية حصون صغيرة أخرى إلا أن اليهود بمجرد فتح هذا الحصن المنيع أخلوا هذه الحصون، وهربوا إلى الشطر الثانى من بلدة خيبر.

فتح الشطر الثانى من خيبر

ولما فتح ناحية النطاة والشق، تحوَّل رسول الله ﷺ إلى أهل الكتيبة والوطيح والسلالم حصن أبى الحقيق من بنى النضير، وجاءهم كل من كان انهزم من النطاة والشق، وتحصَّن هؤلاء أشد التحصن.

فلما أتى رسول الله ﷺ إلى هذه الناحية ـ الكتيبة ـ فرض على أهلها أشد الحصار، ودام الحصار أربعة عشر يومًا، واليهود لا يخرجون من حصونهم، حتى هَمَّ رسول الله ﷺ أن ينصب عليهم المنجنيق، فلما أيقنوا بالهلكة سألوا رسول الله ﷺ الصلح(١).

النبى ﷺ يعالج سلمة بن الأكوع

۞ عن يزيد بن أبى عبيد قال: «رأيت أثر ضربة فى ساق (ابن الأكوع)

(١) بتصرف من الرحيق المختوم.

فقلت: يا أبا مسلم ما هذه الضربة؟ فقال: هذه ضربة أصابتها يوم خيبر، فقال الناس: أُصيب سلمة، فأتيت النبي ﷺ، فنفث فيه ثلاث نفثات، فما اشتكيت حتى الساعة»(١).

إن تَصْدُق الله يَصْدُقك

۞ عن شداد بن الهاد رضي الله عنه: «أن رجلاً من الأعراب جاء إلى النبي ﷺ، فآمن به، واتبعه، ثم قال: أهاجر معك، فأوصى به النبي ﷺ بعض أصحابه، فلما كانت غزوة (خيبر أو حنين)(٢)، غنم النبي ﷺ سبيًا، فقسم، وقسم له، فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعى ظهرهم فلما جاء دفعوه إليه، فقال: ما هذا؟ قالوا: قَسْمٌ قسمه لك النبي ﷺ،... فأخذه، فجاء به إلى النبي ﷺ فقال: ما هذا؟ قال: «**قسمته لك**»، قال: ما على هذا اتبعتك، ولكني اتبعتك على أن أُرمى إلى ههنا (وأشار إلى حَلْقِه) بسهم، فأموت، فأدخل الجنة. فقال: «**إن تَصْدُق الله يَصْدُقك**»، فلبثوا قليلاً، ثم نهضوا في قتال العدو، فأُتي به النبي ﷺ يُحمل قد أصابه سهم حيث أشار، فقال النبي ﷺ: «**أهو هو؟**» قالوا: نعم. قال: «**صدق الله، فصدقه**»، ثم كفَّنه النبي ﷺ في جُبة النبي ﷺ، ثم قدَّمه فصلى عليه، فكان فيما ظهر من صلاته: «**اللهم هذا عبدك خرج مهاجرًا في سبيلك، فقُتل شهيدًا أنا شهيد على ذلك**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي باب غزوة خيبر حديث رقم (٤٢٠٦) أبو داود في الطب، باب كيف الرقى حديث رقم (٣٨٩٤).

(٢) ما بين الخاصرتين من رواية الحاكم (٣/ ٥٩٥).

(٣) أخرجه النسائي في كتاب الجنائز باب الصلاة على الشهداء: (٤/ ٦٠)، والطحاوي في شرح معاني الآثار: (١/ ٢٩١)، والبيهقي في السنن: (٤/ ١٥-١٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (١٨٤٥).

دخل الجنة ولم يسجد لله سجدة

وجاء عبدٌ أسود حبشى من أهل خيبر، كان فى غنم لسيده، فلما رأى أهل خيبر قد أخذوا السلاح، سألهم: ما تريدون؟ قالوا: نقاتل هذا الذى يزعم أنه نبي، فوقع فى نفسه ذكر النبي، فأقبل بغنمه إلى رسول الله ﷺ فقال: ماذا تقول؟ وما تدعو إليه؟ قال: «**أدعو إلى الإسلام، وأن تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله، وألا تعبد إلا الله**» قال العبد: فما لى إن شهدت وآمنت بالله ﷻ؟ قال: «**لك الجنة إن مت على ذلك**».

فأسلم ثم قال: يا نبى الله، إن هذه الغنم عندى أمانة، فقال رسول الله ﷺ: «**أخرجها من عندك وارمها بـ (الحصباء) فإن الله سيؤدى عنك أمانتك**» ففعل فرجعت الغنم إلى سيدها، فعلم اليهودى أن غلامه قد أسلم، فقام رسول الله ﷺ فى الناس، فوعظهم وحضَّهم على الجهاد، فلما التقى المسلمون واليهود قُتل فيمن قُتل العبد الأسود واحتمله المسلمون إلى معسكرهم فأُدخل فى الفسطاط فزعموا أن رسول الله ﷺ اطلع فى الفسطاط، ثم أقبل على أصحابه، وقال: «**لقد أكرم الله هذا العبد، وساقه إلى خيبر، ولقد رأيت عند رأسه اثنتين من الحور العين، ولم يُصلِّ لله سجدة قط**»(١).

أما إنه من أهل النار

عن سهل بن سعد الساعدى رضي الله عنه قال: «إن رسول الله ﷺ التقى هو والمشركون، فاقتتلوا. فلما مال رسول الله ﷺ إلى عسكره، مال الآخرون إلى عسكرهم، وفى أصحاب رسول الله ﷺ رجل لا يدع لهم شاذة إلا اتبعها

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٣٢٣، ٣٢٤)، السيرة الحلبية (٣/ ٣٩).

يضربها بسيفه، فقالوا: ما أجزأ منا اليوم أحدٌ كما أجزأ فلان، فقال: رسول الله ﷺ: «**أما إنه من أهل النار**»، فقال رجل من القوم: أنا صاحبه أبدًا.

قال: فخرج معه، كلما وقف وقف معه، وإذا أسرع أسرع معه، قال فجُرح الرجل جرحًا شديدًا، فاستعجل الموت فوضع نصل السيف بالأرض، وذبابه بين ثدييه، ثم تحامل على سيفه، فقتل نفسه، فخرج الرجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أشهد أنك رسول الله، قال: «**وما ذاك؟**» قال: الرجل الذى ذكرت آنفًا أنه من أهل النار، فأعظم الناس ذلك، فقلت: أنا لكم به، فخرجت فى طلبه حتى جُرح جرحًا شديدًا، فاستعجل الموت، فوضع نصل سيفه بالأرض، وذبابه بين ثدييه، ثم تحامل عليه فقتل نفسه.

فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: «**إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة**»(١).

وقد جاء من حديث أبى هريرة رضي الله عنه بنفس المعنى وجاء التصريح فيه بأن الغزوة كانت غزوة خيبر،... وكانت غزوة خيبر(٢) أول الغزوات التى حضرها، مع رسول الله ﷺ.

قصة عبد الله بن مغفل (وجراب الشحم)

۞ **فى الصحيحين عن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه قال**: «أصبت جرابًا من شحم يوم خيبر، قال: فالتزمته، فقلت: لا أعطى اليوم أحدًا من هذا شيئًا،

(١) أخرجه البخارى فى المغازى باب غزوة خيبر حديث رقم: (٤٢٠٢، ٤٢٠٧) مسلم فى صحيحه كتاب الإيمان باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه حديث (١١٢).

(٢) أخرجه البخارى فى المغازى باب غزوة خيبر (٤٢٠٣) مسلم فى الإيمان باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه حديث رقم (١١١).

قال: فالتفتُّ فإذا رسول الله ﷺ مبتسمًا» واللفظ لمسلم، وفى اللفظ المتفق عليه، «رُمى إلينا جراب فيه طعام وشحم يوم خيبر، فوثبت لآخذه، قال: فالتفتُّ فإذا رسول الله ﷺ فاستحييت منه»(١).

إن صاحبكم غَلَّ فى سبيل الله

۞ عن زيد بن خالد الجهنى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أن رجلاً من أصحاب النبى ﷺ تُوفى يوم خيبر، فذكروا لرسول الله ﷺ، فقال: «صَلُّوا على صاحبكم»، فتغيرت وجوه الناس لذلك، فقال: «إن صاحبكم غَلَّ فى سبيل الله» ففتشنا متاعه فوجدنا خرزًا من خرز يهود لا يساوى درهمين»(٢).

وبذلك تم فتح خيبر

وأرسل ابنُ أبى الحُقيق إلى رسولِ الله ﷺ: أَنْزِلُ فَأُكَلِّمك؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «نعم»، فنزل ابنُ أبى الحقيق، فصالَحَ رسول الله ﷺ على حقن دِماء مَنْ فى حُصونهم من المقاتلة وتركِ الذُّرِّيَّة لهم،... ويخرجُون من خيبر وأرضِها بذراريهم، ويُخلُّون بين رسول الله ﷺ وبينَ ما كان لهم من مالٍ وأرض، وعلى الصفراء والبيضاء، والكُراع والحلقة، فقال رسولُ الله ﷺ: «وَبَرِئَتْ مِنْكُم ذِمَّةُ الله وَذِمَّةُ رَسُولِهِ إنْ كَتَمْتُمونى شَيْئًا»، فصالحوه على ذلك(٣).

وبعد هذه المصالحة تم تسليم الحصون إلى المسلمين وبذلك تم فتح خيبر.

(١) أخرجه البخارى (٤٢١٤) المغازى ـ ومسلم (١٧٧٢) الجهاد والسير.

(٢) رواه أبو داود (٢٧١٠)، والنسائى (٤/ ٦٤)، والحاكم (٢/ ١٢٧)، وصححه، ووافقه الذهبى.

(٣) زاد المعاد (٣/ ٣٢٥).

۞ عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أن رسول الله ﷺ قاتل أهل خيبر حتى ألجأهم إلى مقرهم، فغلب على الأرض والنخل والزرع، فصالحوه على أن يجلوا منها، ولهم ما حملت ركابهم، ولرسول الله ﷺ الصفراء والبيضاء (والحلقة)، ويخرجون منها.

فاشترط عليهم أن لا يكتموا شيئًا، ولا يُغيِّبوا شيئًا، فإن فعلوا فلا ذمة لهم ولا عصمة، فغيَّبوا مِسكًا فيه مال وحُليًا لحُيى بن أخطب كان احتمله معه إلى خيبر حين أُجليت النضير، فقال رسول الله ﷺ لعم حيى (سعية): «**ما فعل مسك حُييّ الذى جاء به من النضير؟**» فقال: أذهبته النفقات والحروب، فقال رسول الله ﷺ: «**العهد قريب، والمال أكثر من ذلك**».

فدفعه رسول الله ﷺ إلى الزبير فمسَّه بعذاب، وكان حُييٌّ قبل ذلك قد دخل خربة، فقال: قد رأيت حُييًا يطوف فى خربة ها هنا، فذهبوا، فطافوا، فوجدوا المسك فى الخربة، فقتل رسول الله ﷺ ابنى أبى الحقيق، وأحدهما زوج صفية بنت حيى بن أخطب، وسبى رسول الله ﷺ نساءهم وذراريهم، وقسم أموالهم للنكث الذى نكثوا، وأراد أن يُجليهم منها، فقالوا: يا محمد دعنا نكون فى هذه الأرض نُصلحها، ونقوم عليها.. ولم يكن لرسول الله ﷺ ولا لأصحابه غلمان يقومون عليها، وكانوا لا يتفرغون أن يقوموا عليها.

فأعطاهم خيبر على أن لهم الشطر من كل نخل وزرع وشىء ما بدا لرسول الله ﷺ.

وكان عبد الله بن رواحة يأتيهم كل عام يخرصها عليهم، ويضمنهم الشطر، قالوا: فشكوا إلى رسول الله ﷺ شدة خرصه، وأرادوا أن يُرشوه، فقال: يا أعداء الله أتُطعمونى السُّحت؟ والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إلىَّ، ولأنتم أبغض الناس إلىَّ من عدتكم من القردة والخنازير ولا

يحملني بُغضى إياكم، وحُبى إياه على أن لا أعدل عليكم،.. فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض».

وكان رسول الله ﷺ يعطى كل امرأة من نسائه ثمانين وسقًا من تمر كل عام، وعشرين وسقًا من شعير، فلما كان زمان عمر بن الخطاب غشوا المسلمين، وألقوا ابن عمر من فوق بيت، ففدغوا يديه، فقال عمر بن الخطاب: مَن كان له سهم من خيبر، فليحضر حتى نقسمها بينهم، فقسمها بينهم وقال رئيسهم: لا تُخرجنا دعنا نكون فيها كما أقرنا رسول الله ﷺ وأبو بكر، فقال عمر: لرئيسهم: أتراه سقط عنى قول رسول الله ﷺ: «كيف بك إذا رقصت بك راحلتك تخوم الشام يومًا ثم يومًا ثم يومًا»، وقسمها عمر بين من كان شهد خيبر من أهل الحديبية[1].

۞ قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

ولم يقتل رسول الله ﷺ بعد الصلح إلا ابنى أبى الحُقيق للنكث الذى نكثوا، فإنهم شرطوا إن غيَّبوا، أو كتموا، فقد برئت منهم ذمة الله وذمة رسوله، فغيَّبوا، فقال لهم: «**أين المال الذى خرجتم به من المدينة حين أجليناكم؟**» قالوا: ذهب، فحلفوا على ذلك، فاعترف ابنُ عمِّ كِنانة عليهما بالمال حين دفعه رسولُ الله ﷺ إلى الزُّبير يُعذبه، فدفع رسول الله ﷺ كِنانة إلى محمد بن مسلمة فقتله ويقال: إن كنانة هو كان قتل أخاه محمود بن مسلمة[2].

(١) الحديث أخرج أبو داود منه الشطر الأول فى كتاب الخراج باب ما جاء فى حكم أرض خيبر حديث رقم: ٣٠٠٦، موارد الظمآن حديث رقم: ١٦٩٧، المغازى باب ما جاء فى خيبر وفى سنن البيهقى: ٦/ ١١٤، وفى دلائل البيهقى: ٤/ ٢٢٩-٢٣١، والحديث إسناده صحيح وقد أخرجه مختصرًا أحمد: ٢/ ١٧، ٢٢، ٣٧، البخارى: ٣٢٨، ومسلم برقم: ١٥٥١، وأبو داود برقم: ٣٤٠٨، الترمذى برقم: ١٣٨٣، وابن ماجه برقم: ٢٤٦٧.

(٢) زاد المعاد (٣/ ٣٢٦-٣٢٧) بتصرف.

النبى ﷺ يتزوج صفية بنت حُيى بن أخطب

وكانت صفية بنت حُيى بن أخطب (زعيم اليهود) بين من أُسرن من نساء خيبر، ووقعت فى يد أحد الصحابة. فاستردها منه الرسول. ثم أعتقها وبنى بها، وجعل مهرها عتقها.

۞ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «قدمنا خيبر، فلما فتح الله عليه الحصن ذُكر له جمال صفية بنت حُيى بن أخطب وقد قُتل زوجها، وكانت عروسًا، فاصطفاها رسول الله ﷺ لنفسه، فخرج بها، حتى بلغنا سد الصهباء، حلَّت، فبنى بها رسول الله ﷺ، ثم صنع حيسًا فى نطع صغير، ثم قال لى: «**آذِن مَن حولك**»، فكانت تلك وليمته على صفية، ثم خرجنا إلى المدينة، فرأيت النبى ﷺ يحوى لها وراءه بعباءة، ثم يجلس عند بعيره فيضع ركبته، وتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب»[1].

۞ وقد جاء هذا الحديث بلفظ آخر من حديث أنس أكثر تفصيلاً، «صارت صفية لدحية فى مقسمه، وجعلوا يمدحونها عند رسول الله ﷺ. قال: ويقولون: ما رأينا فى السبى مثلها، قال: فبعث إلى دحية، فأعطاه بها ما أراد، ثم دفعها إلى أمى فقال: «**أصلحيها**».

قال: ثم خرج رسول الله ﷺ من خيبر، حتى إذا جعلها فى ظهره نزل، ثم ضرب عليها القبة. فلما أصبح قال رسول الله ﷺ: «**من كان عنده فضل زادٍ فليأتنا به**» قال: فجعل الرجل يجىء بفضل التمر، وفضل السويق، حتى جعلوا من ذلك سوادًا حيسًا[2]، فجعلوا يأكلون من ذلك الحيس ويشربون

---

(١) أخرجه البخارى فى المغازى باب غزوة خيبر حديث رقم (٤٢١١) وتفرد به دون مسلم.

(٢) سوادًا حيسًا: كومًا مرتفعًا فخلطوه وجعلوه حيسًا.

من حياض إلى جنبهم من ماء السماء، قال: فقال أنس: فكانت تلك وليمة رسول الله ﷺ عليها.

قال: فانطلقنا، حتى إذا رأينا جُدر المدينة هششنا[1] إليها، فرفعنا مُطينا[2] ورفع رسول الله ﷺ مطيته، قال: وصفية خلفه قد أردفها رسول الله ﷺ قال: فعثرت مطية رسول الله ﷺ، فصُرع وصُرعت، قال: فليس أحد من الناس ينظر إليه ولا إليها، حتى قام رسول الله ﷺ فسترها، قال: فأتيناه فقال: لم تُضَر، قال: فدخلنا المدينة، فخرج جوارى نسائه يتراءينها، ويشمتن بصرعتها[3]»[4].[5]

۞ ومن حديث أنس أيضًا قال: «أقام النبى ﷺ بين خيبر والمدينة ثلاث

---

(١) هششنا: نشطنا وخففنا.

(٢) رفعنا مطينا: أسرعنا بها.

(٣) يشمتن بصرعتها: يظهرن السرور بوقعتها.

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب النكاح، باب فضيلة إعتاقه أمَة ثم يتزوجها، حديث (١٣٦٥) (٢/ ١٠٤٧-١٠٤٨)، وقد جاء بزيادات يسيرة انظرها فى هذا الرقم عند مسلم.

(٥) قال الإمام النووى: قال المازرى وغيره: يحتمل ما جرى مع دحية وجهين أحدهما: أن يكون رد الجارية برضاء وأذن له فى غيرها. والثانى: أنه إنما أذن له فى جارية له من حشو السبى لا أفضلهن، فلما رأى النبى ﷺ أنه أخذ أنفسهن وأجودهن نسبًا وشرفًا فى قومها وجمالاً استرجعها؛ لأنه لم يأذن فيها، ورأى فى إبقائها لدحية مفسدة لتميزه على باقى الجيش، ولما فيه من انتهاكها مع مرتبتها، وكونها بنت سيدهم، ولما يخاف من استعلائها على دحية بسبب مرتبتها، وربما ترتب على ذلك شقاق أو غيره، فكان أخذه ﷺ إياها لنفسه قاطعًا لكل هذه المفاسد المتخوفة، ومع هذا فعوض دحية عنها... وقوله فى الرواية الأخرى (أنها وقعت فى سهم دحية فاشتراها رسول الله ﷺ بسبعة أرؤس) يحتمل أن المراد بقوله: (وقعت فى سهمه) أى حصلت بالإذن فى أخذ جارية، ليوافق باقى الروايات وقوله: (اشتراها) أى أعطاه بدلها سبعة أنفس تطييبًا لقلبه، لا أنه جرى عقد بيع، وعلى هذا تتفق الروايات. وهذا الإعطاء لدحية محمول على التنفيل: [مسلم بشرح النووى (٩/ ٣١٣: ٣١٤)].

ليالٍ يُبنى عليه بصفية، فدعوت المسلمين إلى وليمته، وما كان فيها من خبز ولا لحم، وما كان فيها إلا أن أمر بلالاً بالأنطاع، فبُسطت، فأُلقى عليها التمر والأقط والسمن، فقال المسلمون: إحدى إمهات المؤمنين أو ما ملكت يمينه؟ قالوا: إن حجبها فهى إحدى أمهات المؤمنين، وإن لم يحجبها فهى مما ملكت يمينه، فلما ارتحل واطأ خلفه، ومَدَّ الحجاب»[(١)].

مهرها

۞ عن أنس رضي الله عنه قال: «سبى النبى ﷺ صفية، فأعتقها، وتزوجها، فقال ثابت لأنس: ما أصدقها؟ قال: أصدقها نفسها فأعتقها»[(٢)].

بالمؤمنين رءوفٌ رحيم

۞ وما أجمل أن نتدبر سويا كيف كان الحبيب ﷺ رحيمًا متواضعًا يخاطب كل من حوله برحمة وحنان ويدع له المجال ليُعبِّر عما يجيش فى نفسه ثم يخاطبه بكل رحمة ليزيل الشُّبه ويُجلِّى الحقائق.. وهذا هو الذى حدث مع أمنا صفية رضي الله عنها.

۞ فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان بعينى صفية خُضرة، فقال لها النبى ﷺ: «**ما هذه الخضرة بعينيك؟**».

قالت: قلت لزوجى: إنى رأيت فيما يرى النائم كأن قمرًا وقع فى حجرى، فلطمنى، وقال: أتريدين ملك يثرب؟ قالت: وما كان أبغض إلىَّ من رسول الله ﷺ قتل أبى وزوجى، فما زال يعتذر إلىَّ وقال: يا صفية إن

(١) أخرجه البخارى فى المغازى باب غزوة خيبر حديث رقم: (٤٢١٣)، وقد تفرد به دون مسلم.

(٢) أخرجه البخارى فى المغازى باب غزوة خيبر حديث: (٤٢٠١)، وقد انفرد به البخارى من هذا الوجه.

أباكِ ألَّب عليَّ العرب وفعل وفعل» حتى ذهب ذلك من نفسي[١].

ولا نجد تعليقًا على هذا الموقف العظيم إلا أن نتذكر قول الله ﷻ حيث يقول: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٢][٣].

في بيت النبوة

وعادت صفية رضي الله عنها مع الحبيب ﷺ بعد أن بنى بها في طريق العودة إلى المدينة المنورة.. وكانت في قمة السعادة فهي التي لم يخطر ببالها أن تكون واحدة من نساء المؤمنين فكيف وهي الآن من أمهات المؤمنين.

يا لها من لحظة سعيدة يعجز القلم عن وصفها!!![٤].

جاء البشير إلى أهل المدينة يُعلمهم بقدوم رسول الله ﷺ، فخرجت المدينة تستقبل رسول الله ﷺ عند عودته من هذه الغزاة... كانت وجوه الرجال تتهلل بالبِشر، والولدان يغمرهم الفرح، بينما كانت النساء على أسطح المنازل، وقد عمرت أفئدتهن بالسرور.

أما المنافقون، فقد كانوا في كمدٍ رهيبٍ، يُظهرون غير ما تُخفي الصدور، غصَّت حلاقيمهم بنصر رسول الله ﷺ، وفضحهم الله ﷻ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هي العليا[٥].

(١) قال الهيثمي في المجمع (١٥٣٧٣): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح - وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٧٩٣).

(٢) سورة التوبة: الآية: (١٢٨).

(٣) صحابيات حول الرسول ﷺ / للمصنف (ص: ٢٥٩، ٢٦٠).

(٤) صحابيات حول الرسول ﷺ / للمصنف (ص: ٢٦٠).

(٥) نساء أهل البيت (ص: ٣٥٢).

يهودية تضع للنبى ﷺ شاةً مسمومة

ولما اطمأن رسول الله ﷺ بخيبر بعد فتحها أهدت له زينب بنت الحارث - امرأة سلام ابن مشكم - شاة مسمومة.

۞ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «إن امرأة يهودية أتت رسول الله ﷺ بشاة مسمومة، فأكل منها، فجيء بها إلى رسول الله ﷺ، فسألها عن ذلك، قالت: أردت لأقتلك، فقال: «**ما كان ليسلطك على ذلك، أو عليَّ**»، قال: قالوا: ألا تقتلها، قال: لا، فما زالت أعرفها فى لهوات(١) رسول الله ﷺ»(٢).

۞ وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: «لما فُتحت خيبر، أُهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سُم، فقال رسول الله ﷺ: «**اجمعوا لى مَن ها هنا من اليهود**». فجمعوا له، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**إنى سائلكم عن شىء فهل أنتم صادقونى عنه؟**» فقالوا: نعم يا أبا القاسم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**مَن أبوكم؟**» قالوا: أبونا فلان، فقال رسول الله ﷺ: «**كذبتم بل أبوكم فلان**» فقالوا: صدقت وبررت. فقال: «**هل أنتم صادقونى عن شىء إن أنا سألتكم عنه؟**» فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبناك عرفت كما عرفته فى أبينا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**مَن أهل النار؟**» فقالوا: نكون فيها يسيرًا، ثم تخلفونا فيها، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**اخسؤوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبدًا**».

ثم قال لهم: «**هل أنتم صادقونى عن شىء إن سألتكم عنه؟**» فقالوا: نعم،

---

(١) لهوات: جمع لهاة، اللحمة الحمراء المعلقة فى أصل الحنك، كأنه بقى للسم علامة، سوادًا وغيره.

(٢) أخرجه البخارى فى الهبة باب قبول الهدية من المشركين حديث رقم: (٢٦١٧)، مسلم فى السلام حديث رقم: (٢١٩٠)، أبو داود فى الديات رقم: (٤٥٠٨).

فقال: «هل جعلتم فى هذه الشاة سُمًّا؟» فقالوا: نعم، فقال: «ما حملكم على ذلك؟» فقالوا: أردنا إن كنت كذابًا أن نستريح منك، وإن كنت نبيًّا لم يضرك»(١).

۞ وفى رواية ابن اسحاق: أن الذى أهدى الشاة زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم وقد سألت: أى عضو من الشاة أحبُّ إلى رسول الله ﷺ فقيل لها: الذراع، فأكثرت فيها من السم، ثم سمَّت سائر الشاة ثم جاءت بها، فأما النبى ﷺ فلاك منها شيئًا فلم يَسُغها وأما بِشر بن البراء بن معرور فأساغها، وقال النبى ﷺ: إن هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم، ثم دعا بها فاعترفت(٢).

هل قتل النبى ﷺ المرأة التى وضعت السم

قال القاضى عياض: واختلفت الآثار والعلماء هل قتلها النبى ﷺ أم لا، فوقع فى مسلم أنهم قالوا ألا نقتلها؟ قال: «لا»..ومثله عن أبى هريرة وجابر.
وعن جابر من رواية أبى سلمة أنه قتلها، وفى رواية ابن عباس أنه دفعها إلى أولياء بشر بن البراء بن معرور، وكان أكل منها، فمات بها، فقتلوها.

---

(١) أخرجه البخارى فى الطب باب ما يذكر فى سم النبى ﷺ رقم: ٥٧٧٧، وأبو داود فى سننه الديات باب فيمن سقى رجلاً سمًا حديث رقم: ٤٥٠٩، وأحمد فى المسند: ٢/ ٤٥١.

(٢) قال الحافظ: وفى الحديث إخباره ﷺ عن الغيب، وتكليم الجماد له، ومعاندة اليهود له لاعترافهم بصدقه فيما أخبر به عن اسم أبيهم، وبما وقع منهم من دسيسة السم، ومع ذلك فعاندوا واستمروا على تكذيبه، وفيه قتل من قتل بالسم قصاصًا، وعن الحنفية إنما تجب فيه الدّية، ومحل ذلك إذا استكرهه عليه اتفاقًا وأما إذا دسه عليه ففيه اختلاف للعلماء، فإن ثبت أنه ﷺ قتل اليهودية ببشر بن البراء، ففيه حجة لمن يقول بالقصاص فى ذلك والله أعلم، وفيه أن الأشياء ـ كالسموم وغيرها ـ لا تؤثر بذواتها بل بإذن الله، لأن السم أثر فى بِشر فقيل: إنه مات فى الحال، وقيل إنه بعد حول. [فتح البارى (٧/ ٢٥٧: ٢٥٨)].

وقال السهيلى قيل: إنه صفح عنها... قال القاضى: وجه الجمع بين هذه الروايات والأقاويل أنه لم يقتلها حين اطَّلع على سُمها، وقيل له: اقتلها فقال: لا، فلما مات بشر ابن البراء بن معرور من ذلك سلَّمها لأوليائه، فقتلوها قصاصًا، فصحَّ قولهم لم يقتلها أى فى الحال، ويصح قولهم قتلها أى بعد ذلك ... والله أعلم»(١).

شدة تأثُّر النبى ﷺ بالسم

وقد ورد أن هذه الأكلة كانت من أسباب مرض النبى ﷺ مرض الوفاة.

۞ عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يقول فى مرضه الذى مات فيه: «**يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام الذى أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهرى من ذلك السم**»(٢).

غنائم خيبر

۞ كانت غزوة خيبر من أكثر غزوات الرسول ﷺ غنيمة، من حيث الأراضى والنخيل والثياب والأطعمة وغير ذلك، ومن خلال وصف كتب السيرة نلاحظ أن الغنائم تتكون من:

(أ) الطعام: فقد غنم المسلمون كثيرًا من الأطعمة من حصون خيبر، فقد وجدوا فيها الشحم والزيت والعسل والسمن، وغير ذلك، فأباح رسول الله ﷺ الأكل من تلك الأطعمة، ولم يُخمِّسها(٣).

---

(١) شرح صحيح مسلم (١٤/ ١٧٩).

(٢) أخرجه البخارى فى المغازى باب مرض النبى ﷺ ووفاته برقم (٤٤٢٨) معلقًا، أحمد فى المسند (٦/ ١٨) والدارمى: (١/ ٣٢، ٣٣). وقد أخرجه الحاكم فى المستدرك: ٣/ ٢٠٩، عن أم بشر بن البراء بن معرور قريبًا من هذا الحديث، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبى، ومن حديث أبى هريرة عند ابن سعد.

(٣) الصراع مع اليهود لأبى فارس (٣/ ١٤٠).

(ب) الثياب والأثاث والإبل والبقر والغنم: لقد أخذ رسول الله ﷺ خُمسها ووضعه فيما وضعه الله فيه، ووزع أربعة أخماسها على المحاربين.

(ج) السبي: لقد سبى رسول الله ﷺ كثيرًا من نساء اليهود، ووزع السبى على المسلمين، فهو غنيمة ويأخذ حكم الغنيمة.

(د) أما الأراضى والنخيل فقد قسمها النبى إلى ستة وثلاثين سهمًا، وجمع كل سهم مائة سهم، فكانت ثلاثة آلاف وستمائة سهم، فكان لرسول الله ﷺ وللمسلمين النصف من ذلك، وهو ألف وثمانمائة سهم، ووزع النصف الآخر، وهو ألف وثمانمائة سهم لنوائبه، وما ينزل به من أمور المسلمين[١].

(هـ) وكان من بين ما غنم المسلمون من يهود خيبر عدة صحف من التوراة فطلب اليهود ردَّها، فأمر بتسليمها إليهم، ولم يصنع ﷺ ما صنع الرومان حينما فتحوا أورشليم وأحرقوا الكتب المقدسة، وداسوها بأرجلهم، ولا ما صنع النصارى فى حروب اضطهاد اليهود فى الأندلس حين أحرقوا كذلك صحف التوراة[٢].

وقد أبقى رسول الله ﷺ يهود خيبر فيها على أن يعملوا فى زراعتها وينفقوا عليها من أموالهم، ولهم نصف ثمارها، على أن للمسلمين حق إخراجهم منها متى أرادوا، وكان اليهود قد بادروا بعرض ذلك على النبى ﷺ وقالوا: نحن أعلم بالأرض منكم ... فوافق على ذلك بعد أن هَمَّ بإخراجهم منها[٣].

---

(١) المصدر نفسه (٣/ ١٤١، ١٤٢).

(٢) انظر: السيرة النبوية لأبى شهبة (٢/ ٤١٩).

(٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٣٢٨).

وقد اشترط عليهم أن يُجليهم عنها متى شاء، وهنا تظهر براعة سياسية جديدة فى عقد الشروط، فإن بقاء اليهود فى الأرض يفلحونها يوفر للمسلمين الجنود المجاهدين فى سبيل الله، ومن جهة أخرى فإن اليهود هم أصحاب الأرض وهم أدرى بفلاحتها من غيرهم، فبقاؤهم فيها يعطى ثمرة أكثر وأجود وبخاصة أنهم لن يأخذوا أجرًا، ولكنهم سيأخذون نصف ما يخرج من الأرض قَلَّ أو كَثُر.

وقد ضمن الرسول -بشرط إجلائهم متى شاء المسلمون- إخضاعهم وكسر شوكتهم؛ لأنهم يعلمون أنَّهُم إذا فعلوا شيئًا يضر بالمسلمين سيطردونهم منها، ولا يعودون إليها أبدًا.

وقد حدث ذلك فعلًا فى عهد سيدنا عمر بن الخطاب ﵁ حيث اعتدوا على عبد الله ابن عمر ففدعوا يديه من المرفقين، وكانوا قبل ذلك فى عهد الرسول ﷺ اعتدوا على عبد الله بن سهل فقتلوه، فلما تحقق عمر من غدرهم وخيانتهم أمر بإجلائهم[١]. وحاول يهود خيبر أن يُخفوا الفضة والذهب وغيَّبوا مسكًا[٢] لحُيى بن أخطب، وكان قد قُتل مع بنى قريظة، وكان احتمله معه يوم بنى النضير حين أُجليت النضير فسأل رسول الله ﷺ (سعية) عم حيى ابن أخطب: أين مسك حيى بن أخطب؟ قال: أذهبته الحروب والنفقات[٣].

فقال رسول الله ﷺ: «**العهد قريب والمال أكثر من ذلك**»، فدفعه رسول الله ﷺ إلى الزبير بن العوام، فمسَّه بعذاب، وقد كان حُيى قبل ذلك دخل خربة، فقال عمه: قد رأيت حُيًّا يطوف فى خربة هاهنا، فذهبوا فطافوا،

(١) انظر: تأملات فى سيرة الرسول، لمحمد سيد الوكيل، (ص٢٢٨، ٢٢٩).

(٢) المسك: الجلد عامة أو جلد السلخة خاصة (السلخة ولد الشاة).

(٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٣٢٦).

فوجدوا المسك فى الخربة(١). وبعد الاتفاق الذى تم بين رسول الله ﷺ ويهود خيبر على إصلاح الأرض جعل رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة يأتيهم كل عام فيخرصها عليهم ثم يضمنهم الشطر، فشكوا إلى رسول الله ﷺ شدة خرصه(٢)، وأرادوا أن يُرشوه فقال: يا أعداء الله تُطعمونى السُّحت؟ والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إليَّ، ولأنتم أبغض الناس إليَّ من عدتكم من القردة والخنازير، ولا يحملنى بغضى إياكم وحُبِّى إياه على أن لا أعدل عليكم. فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض(٣).

لقد أصبحت خيبر ملكًا للمسلمين وصارت موردًا مهمًّا لهم،.. قال ابن عمر رضي الله عنه: ما شبعنا حتى فُتحت خيبر(٤)، وقد تحسن الوضع الاقتصادى بعد خيبر، وردَّ المهاجرون المنائح التى أعطاهم إياها الأنصار(٥) من النخل.

قسمة الغنائم

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: وقسم رسول الله ﷺ خيبر على ستة وثلاثين سهما جمع كلُّ سهم مائة سهم فكانت ثلاثة آلاف وستمائة سهم وكان لرسول الله ﷺ وللمسلمين النصف من ذلك وهو ألف وثلاثمائة سهم لرسول الله ﷺ سهم كسهم أحد المسلمين وعزل النصف الآخر، وهو ألف وثمانمائة سهم لنوائبه وما ينزل به من أمور المسلمين(٦).

(١) انظر: تاريخ الإسلام للذهبى (المغازي)، (ص٤٢٤).

(٢) الخرص: الحرز والحدس والتخمين، وخرص العدد: قدَّره تقديرًا بظن لا إحاطة.

(٣) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي، (المغازي)، (ص٤٢٤).

(٤) البخاري، كتاب المغازي، غزوة خيبر رقم (٤٢٤٣).

(٥) انظر: معين السيرة، (ص٣٥٢).

(٦) رواه أبو داود (٢٩٩٤، ٢٩٩٥) الخراج: باب ما جاء فى حكم أرض خيبر. وقال الألبانى صحيح بما قبله رقم (٢٦٠٥) صحيح أبى داود.

وقال البيهقى: وهذا لأن خيبر فُتح شطرها عنوة وشطرها صلحًا.

قال الإمام ابن القيم: وهذا بناء منه على أصل الشافعى رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه يجب قسم الأرض المفتوحة عنوة كما تقسم سائر المغانم، فلما لم يجده قسم النصف من خيبر قال: إنه فُتح صُلحًا،... ومَن تأمل السير والمغازى حق التأمل تبين له أن خيبر إنما فُتحت عنوة، وأن رسول الله ﷺ استولى على أرضها كلها بالسيف عنوة ولو فُتح شىء منها صلحًا لم يُجلهم رسول الله ﷺ منها، فإنه لما عزم على إخراجهم منها قالوا: نحن أعلم بالأرض منكم دعونا نكون فيها ونعمرها لكم بشطر ما يخرج منها، وهذا صريح جدًا فى أنها إنما فُتحت عنوة... إلى أن قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ فالصواب الذى لا شك فيه: أنها فُتحت عنوة، والإمام مُخيَّر فى أرض العنوة بين قسمتها ووقفها أو قسم بعضها ووقف البعض، وقد فعل رسول الله ﷺ الأنواع الثلاثة: فقسم قريظة والنضير، ولم يقسم مكة، وقسم شطر خيبر وترك شطرها.

وقسم للفارس ثلاثة أسهم وللراجل سهمًا، وكانوا ألفا وأربعمائة، وفيهم مائتا فارس، هذا هو الصحيح الذى لا ريب فيه[1].

كيفية القسمة

۞ عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: «قسم رسول الله ﷺ يوم خيبر للفرس سهمين وللراجل سهمًا، قال: فسَّره نافع فقال: إذا كان مع الرجل فرس فله ثلاثة أسهم، فإن لم يكن له فرس فله سهم»[2].

۞ وعن بشير بن أبى حثمة قال: «قسم رسول الله ﷺ خيبر نصفين، نصفًا

---

(١) باختصار من زاد المعاد (٣/ ٣٢٨، ٣٢٩).

(٢) أخرجه البخارى (٤٢٢٨) المغازى - ومسلم (١٧٦٢) الجهاد والسير.

لنوائبه وحاجته، ونصفًا بين المسلمين، قسمها بينهم على ثمانية عشر سهمًا»(١).

سهم ذوى القربى

❁ عن جبير بن مطعم رضي الله عنه: «أنه جاء هو وعثمان بن عفان يكلمان رسول الله ﷺ فيما قسم الخمس بين بنى هاشم وبنى المطلب، فقلت: يا رسول الله قسمت لإخواننا بنى المطلب ولم تُعطنا شيئًا، وقرابتنا وقرابتهم منك واحدة، فقال النبى ﷺ: «**إنما بنو هاشم وبنو المطلب واحد**» قال جبير: ولم يقسم لبنى عبد شمس، ولا لبنى نوفل من ذلك الخُمس، كما قسم لبنى هاشم وبنى المطلب، قال: وكان أبو بكر يقسم الخمس نحو قَسْم رسول الله ﷺ غير أنه لم يكن يعطى قربى رسول الله ﷺ ما كان النبى ﷺ يعطيهم، قال: وكان عمر بن الخطاب يعطيهم منه، وعثمان بعده»(٢).

إعطاء العبيد من الغنائم وعدم الإسهام لهم

❁ عن عمير مولى أبى اللحم قال: «شهدت خيبر مع سادتى، فكلموا فىَّ رسول الله ﷺ، فأمرنى فقلدت سيفًا، فإذا أنا أجُرُّهُ، فأُخبر أنى مملوك، فأمر لى بشىء من خرثى المتاع(٣)»(٤).

(١) أخرجه أبو داود فى سننه كتاب الخراج والفىء.. باب ما جاء فى حكم خيبر حديث رقم (٣٠١٠) سنده حسن.

(٢) أخرجه البخارى (٤٢٢٩) المغازى ـ أبو داود (٢٩٧٨) الخراج والإمارة والفىء ـ واللفظ لأبى داود.

(٣) خرثى المتاع: أثاث البيت كالقدر ونحوه.

(٤) أخرجه أبو داود (٢٧٣٠)، والترمذى (١٥٥٧)، وابن ماجه (٢٨٥٥)، والحاكم: (٢/ ١٣١)، وقال صحيح الإسناد، ووافقه الذهبى.

إعطاء النبى عليه السلام للنساء من الغنائم والإسهام لهن من الثمار

۞ عن ثابت بن الحارث الأنصارى قال: «قسم رسول الله ﷺ يوم خيبر لسهلة بنت عاصم بن عدى، ولابنة لها وُلدت»(١).

۞ وعن زينب بنت أبى معاوية الثقفية «أن النبى ﷺ أعطاها بخيبر خمسين وسقًا تمرًا، وعشرين وسقًا شعيرًا بالمدينة»(٢).

قصة أبى هريرة مع أبان بن سعيد بن العاص فى قسمة الغنائم

۞ عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: «بعث رسول الله ﷺ أبان على سرية من المدينة قِبَل نجد، قال أبو هريرة: فقدم أبان وأصحابه على النبى ﷺ بخيبر بعدما افتتحها، وإنَّ حُزْمَ خيلهم لَلِيفٌ، قال أبو هريرة: قلت: يا رسول الله، لا تقسم لهم، قال أبان: وأنت بهذا يا وبر تحدر من رأس ضأن، فقال النبى ﷺ: «**يا أبان اجلس فلم يقسم له**»(٣).

۞ ويدل على كثرة مغانم خيبر ما رواه البخارى(٤) عن ابن عمر قال: ما

(١) أخرجه الطبرانى برقم: (١٣٦٩)، قال الهيثمى فى المجمع: (٦/ ٧): رواه الطبرانى، وفيه ابن لهيعة، وفيه ضعف، وحديثه حسن، وقد أخرجه الطبرانى فى الكبير: برقم: (١٣٦٩)، قال: حدثنا على بن عبد العزيز الحسن بن الربيع الكوفى عن ابن المبارك عن ابن لهيعة عن الحارث بن يزيد الحضرمى عن ثابت... ورواية العبادلة عن ابن لهيعة صحيحة فسند الحديث صحيح رجاله ثقات.

(٢) أخرجه الطبرانى فى الكبير: (٢٤/ ٢٨٧-٢٨٨)، رقم: (٧٣٢)، قال الهيثمى فى المجمع: (٦/ ٧): رواه الطبرانى، ورجاله رجال الصحيح.

(٣) أخرجه البخارى فى المغازى باب غزوة خيبر تعليقًا رقم: (٤٢٣٨)، ووصله أبو داود من طريق إسماعيل بن عياش فى الجهاد باب فيمن جاء بعد الغنيمة لا سهم له حديث رقم: (٢٧٢٣)، ووصلها أبو نعيم فى المستخرج من طريق إسماعيل بن عياش أيضًا، ومن طريق عبد الله بن سالم، كلاهما عن الحميدى كما أشار إلى ذلك الحافظ فى الفتح: (٧/ ٤٩١).

(٤) أخرجه البخارى (٤٢٤٢، ٤٢٤٣).

شبعنا حتى فتحنا خيبر... وما رواه عن عائشة، قالت: لما فُتحت خيبر قلنا: الآن نشبع من التمر[١]. ولما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة رَدَّ المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التى كانوا منحوهم إياها من النخيل، حين صار لهم بخيبر مال ونخيل[٢].

رد المهاجرين المنائح التى أعطاهم إياها الأنصار

۞ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «لما قدم المهاجرون من مكة إلى المدينة، قدموا وليس بأيديهم شيء، وكان الأنصار أهل الأرض والعقار، فقاسمهم الأنصار على أن أعطوهم أنصاف ثمار أموالهم، كل عام، ويكفونهم العمل والمؤونة، وكانت أم أنس بن مالك وهى تُدعى أم سليم، وكانت أم عبد الله بن أبى طلحة، كان أخًا لأنس لأمه، وكانت أعطت أم أنس رسول الله ﷺ عذاقًا[٣] لها. فأعطاها رسول الله ﷺ أم أيمن مولاته، (أم أسامة بن زيد).

قال ابن شهاب: فأخبرنى أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ لما فرغ من قتال أهل خيبر وانصرف إلى المدينة، رَدَّ المهاجرون إلى الأنصار منائحهم[٤] التى كانوا منحوهم من ثمارهم. قال: فردَّ رسول الله ﷺ إلى أمى عذاقها. وأعطى رسول الله ﷺ أم أيمن مكانهن من حائطه[٥].

---

(١) صحيح البخارى (٢/ ٦٠٩).

(٢) زاد المعاد (٢/ ١٤٨) ـ صحيح مسلم (٢/ ٩٦).

(٣) العذاق: جمع عذق وهى النخلة.

(٤) منائحهم: جمع منيحة والمنيحة هى المنحة.

(٥) أخرجه البخارى (٢٦٣٠) الهبة، ومسلم (١٧٧١) الجهاد والسير.

تأمير أحد الأنصار على خيبر

❁ عن أبي سعيد وأبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالا: «إن النبى ﷺ بعث أخا بنى عدى من الأنصار إلى خيبر، فأمَّره عليها»(١).

قدوم جعفر بن أبى طالب والأشعريين

وفى هذه الغزوة، قدم عليه ﷺ ابن عمه جعفرُ بنُ أبى طالب وأصحابه، ومعهم الأشعريون، عبدُ الله بنُ قيس (أبو موسى)، وأصحابُه، وكان فيمن قَدِمَ معهم أسماءُ بنت عميس. قال أبو موسى: بلغنا مَخْرَجُ النبى ﷺ ونحن باليمن، فخرجنا مُهاجرين أنا وأخوانٍ لى، أنا أصغرُهما، أحدُهما أبو رُهْم، والآخر أبو بُردة، فى بضعٍ وخمسين رجلاً من قومى، فركبنا سفينةً، فألقتنا سفينتُنَا إلى النجاشيِّ بالحبشة، فوافَقْنَا جَعْفَرَ بنَ أبى طالب وأصحابَه عنده، فقال جعفر: إنَّ رسولَ الله ﷺ بعثنا، وأَمَرَنَا بالإقامة، فأقيمُوا معنا، فأقمنا معه حتى قدمنا جميعًا، فوافَقْنَا رَسُولَ الله ﷺ حينَ افتَتَحَ خيبر، فأسهم لنا، وما قسم لأحدٍ غابَ عن فتح خيبر شيئًا إلا لمن شهد معه، إلا لأصحابِ سفينتنا مع جعفر وأصحابه، قسم لهم معهم، وكان ناس يقولون لنا: سبقناكم بالهجرة، قال: ودَخَلَتْ أسماءُ بنتُ عميس على حفصة، فدخل عليها عمر، فقال: مَنْ هذِهِ؟ قالت: أسماءُ. فقال عُمَرُ: سبقناكم بالهجرة، نحن أحقُّ برسول الله ﷺ مِنكم، فَغَضِبَتْ، وقالت: يا عُمَرُ! كلا والله، لقد كنتم مع رسول الله ﷺ، يُطعِمُ جائعكم، ويَعِظُ جاهِلَكُم، وكنا فى أرض البُعداء البُغضاء، وذلك فى الله، وفى رسوله، وايمُ الله، لا أطعَمُ طَعَامًا، ولا أشربُ شرابًا حتى أذكر ما قلتَ لِرسول الله ﷺ، ونحن كنا نُؤذَى ونُخاف،

---

(١) أخرجه البخارى (٤٢٤٦، ٤٢٤٧) المغازى.

وسأذكر ذلك لرسول الله ﷺ، والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد على ذلك فلما جاء النبى ﷺ قالت: يا رسول الله إن عمر قال كذا وكذا. فقال رسول الله ﷺ: ما قلتِ له؟ قالت: قلت له: كذا وكذا. فقال: «**لَيْسَ بِأحَقَّ بى مِنكُم، ولَهُ ولأصحابه هِجْرَةٌ وَاحِدَةٌ، وَلَكُمْ أَنْتُمْ أَهْلَ السَّفِينَةِ هِجْرَتَان**»، وكان أبو موسى وأصحابُ السفينة يأتون أسماء أرسالاً يسألونها عن هذا الحديث، ما مِن الدنيا شىء، هم به أفرحُ ولا أعظمُ فى أنفسهم مما قال لهم رسولُ الله ﷺ »(١).

ولما قَدِمَ جعفرٌ على النبىِّ ﷺ، تلقَّاه وقبَّل جبهته، وقال: «**والله ما أدرى بأَيِّهما أَفْرَحُ، بِفَتْحِ خَيْبَرَ أَمْ بِقُدُومِ جعفَرَ؟**»(٢).

قصة الحجاج بن علاط مع أهل مكة

❁ **عن أنس بن مالك** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال**: «لما افتتح رسول الله ﷺ خيبر قال الحجاج بن علاط: يا رسول الله! إن لى بمكة مالاً، وإن لى بها أهلاً، وإنى أريد أن آتيهم، فأنا فى حِلٍّ إن أنا نلت منك؟ وقلت شيئًا؟ فأذن له رسول الله ﷺ أن يقول ما شاء، فأتى امرأته حين قدم، فقال: اجمعى لى ما كان عندك، فإنى أريد أن أشترى من غنائم محمد وأصحابه، فإنهم قد استُبيحوا، أو أصيبت أموالهم، قال: ففشا ذلك فى مكة فانقمع المسلمون، وأظهر

---

(١) أخرجه البخارى (٧/ ٣٧١-٣٧٢) المغازى، ومسلم (٢٥٠٢) و(٢٥٠٣) فضائل الصحابة.

(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٤/ ٢١١) عن الشعبى مرسلاً وقال الحاكم صحيح ووافقه الذهبى ووصله الحاكم من طريق آخر (٣/ ٢٠٨) وسكت عليه وتعقبه الذهبى بقوله متقطعًا وفيه الواقدى. وأخرج البيهقى فى السنن (٧/ ١٠١) عن الشعبى مرسلاً فله شاهد من حديث أبى جحفة أخرجه الطبرانى فى المعجم الصغير (ص: ٨) وسنده ضعيف. وله طريق آخر فى المعجم الكبير كما ذكر الهيثمى فى المجمع (٩/ ٢٧٢) وقال: رواه الطبرانى مرسلاً ورجاله رجال الصحيح وقال الألبانى: وبالجملة فالحديث قوى بهذه الطرق وقد صححه الحاكم.

المشركون فرحًا وسرورًا، قال: وبلغ الخبر العباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فعُقر، وجعل لا يستطيع أن يقوم.

قال معمر: فأخبرني عثمان الجزري عن مقسم قال: فأخذ العباس ابنًا له يُشبه رسول الله ﷺ يُقال له قثم، فاستلقى فوضعه على صدره وهو يقول:

حبِّي قثم، حبِّى قثم شبيه ذى الأنف الأشم

نبى رب ذى النعم برغم أنف من رغم

قال ثابت عن أنس: ثم أرسل غلامًا له إلى الحجاج: ويلك ما جئت به؟ وماذا تقول؟ فما وعد الله خير مما جئت به، قال: فقال الحجاج بن علاط لغلامه: اقرأ على أبى الفضل السلام، وقل له: فليخلُ لى فى بعض بيوته لآتيه، فإن الخبر على ما يَسرُّه، فجاءه غلامه، فلما بلغ باب الدار قال: أبشر يا أبا الفضل، قال: فوثب العباس فرحًا، حتى قبَّل بين عينيه، فأخبره بما قال الحجاج، فأعتقه. قال: ثم جاء الحجاج فأخبره أن رسول الله ﷺ قد افتتح خيبر، وغنم أموالهم، وجرتْ سهام الله فى أموالهم، واصطفى رسول الله ﷺ صفية بنت حُيى، فأخذها لنفسه وخيَّرها أن يعتقها، وتكون زوجته، أو تلحق بأهلها، فاختارت أن يعتقها، وتكون زوجته، ولكنى جئت لما كان لى ههنا أردت أن أجمعه، فأذهب به، فاستأذنت رسول الله ﷺ، فأذن لى أن أقول ما شئت، فأخفِ عنى ثلاثًا ثم اذكر ما بدا لك، قال: فجمعت امرأته ما كان عندها من حُلى ومتاع فجمعه، فدفعته إليه ثم انشمر به.

فلما كان بعد ثلاث أتى العباس امرأة الحجاج، فقال: ما فعل زوجك؟ فأخبرته أنه ذهب يوم كذا وكذا، وقالت: لا يخزيك الله يا أبا الفضل، لقد شق علينا الذى بلغك، قال: أجل، لا يخزينى الله، ولم يكن بحمد الله إلا ما

أحبنا، فتح الله خيبر على رسول الله ﷺ، وجرت فيها سهام الله، واصطفى رسول الله ﷺ صفية بنت حيي لنفسه، فإن كانت لك حاجة فى زوجك فالحقى به، قالت: أظنك والله صادقًا، قال: فإنى صادق، الأمر على ما أخبرتك.

فقال: ثم ذهب حتى أتى مجالس قريش، وهم يقولون إذا مر بهم: لا يصيبك إلا خير يا أبا الفضل، قال لهم: لم يُصبنى إلا خير بحمد الله، قد أخبرنى الحجاج بن علاط أن خيبر قد فتحها الله على رسوله ﷺ، وجرت فيها سهام الله، واصطفى صفية لنفسه، وقد سألنى أن أُخفى عليه ثلاثًا، وإنما جاء ليأخذ ماله، وما كان له من شيء ها هنا، ثم يذهب. قال: فردَّ الله الكآبة التى كانت بالمسلمين على المشركين، وخرج المسلمون ومن كان دخل بيته مكتئبًا حتى أتوا العباس، فأخبرهم الخبر وسُرَّ المسلمون، وردَّ الله ـ تبارك وتعالى ـ ما كان من كآبة أو غيظ أو حزن على المشركين»[1].

وفى هذا الخبر فقهٌ غزيرٌ .. منه: جواز كذب الإنسان على نفسه وعلى غيره، إذا لم يتضمن ضرر ذلك الغير إذا كان يتوصل بالكذب إلى حقه، كما كذب الحجاج بن علاط على المسلمين، حتى أخذ ماله من مكة من غير مضرة لحقت المسلمين من ذلك الكذب، وأما ما نال من بمكة من المسلمين من الأذى والحزن، بمفسدة يسيرة فى جنب المصلحة التى حصلت بالكذب، ولاسيما تكميل الفرح والسرور، وزيادة الإيمان الذى حصل بالخبر الصادق بعد هذا الكذب، فكان الكذب سببًا فى حصول هذه المصلحة الراجحة.

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٣٨-١٣٩) بسندٍ صحيح. وقال الهيثمى فى المجمع: ٦/ ١٥٤-١٥٥، رواه أحمد، وأبو يعلى، والبزار، والطبرانى، ورجاله رجال الصحيح وقال ابن كثير فى البداية: ٤/ ٢٣، عن سند أحمد: وهذا الإسناد على شرط الشيخين.

مشاركة المرأة في غزوة خيبر

روت أمية بنت أبي الصلت عن امرأة من بني غِفار قالت: أتيت رسول الله ﷺ في نسوة من بني غفار فقلن: يا رسول الله قد أردنا أن نخرج معك إلى وجهك هذا -وهو السير إلى خيبر- فنداوي الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا، فقال: «**على بركة الله**»، قالت: فخرجنا معه، قالت: فوالله لنزل رسول الله ﷺ إلى الصبح ونزلت عن حقيبة رَحله، قالت: وإذا بها دم منِّي وكانت أول حيضة حضتها، قالت: فتقبَّضت إلى الناقة واستحييت، فلما رأى رسول الله ﷺ ما بي ورأى الدم قال: «**ما لك؟ لعلك نفست؟**» قالت: قلت: نعم؟ قال: «**فأصلحي من نفسك ثم خذي إناءً من ماء فاطرحي فيه ملحًا ثم اغسلي ما أصاب الحقيبة من الدم، ثم عودي لمركبك**» قالت: فلما فتح الله خيبر رضخ لنا من الفيء، وأخذ هذه القلادة التي ترين في عنقي فأعطانيها وعلقها بيده في عنقي، فوالله لا تفارقني أبدًا[1]،... وكانت في عنقها حتى ماتت، ثم أوصت أن تُدفن معها، قالت: وكانت لا تطهر من حيضها، إلا جعلت في طهرها ملحًا، وأوصت به أن يُجْعَل في غُسلها حين ماتت[2]. وهي صورة حية أمام كل فتاة مسلمة، تحرص على أن تشارك في أجر الجهاد مع المسلمين[3].

الأحكام الفقهية المستفادة من غزوة خيبر

وقد وردت في غزوة خيبر الكثير من الأحكام الفقهية:

۞ فمنها: محاربة الكفار ومقاتلتهم في الأشهر الحُرم ولا خلاف في

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٠٥).

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٧٢، ٣٧٣).

(٣) انظر: فقه السيرة لمنير الغضبان، (ص٥٣٤).

جواز القتال فى الشهر الحرام إذا بدأ العدو، وإنما الخلاف أن يقاتل فيه ابتداءً، فالجمهور جوَّزوه وقالوا: تحريم القتال فيه منسوخ، وهو مذهب الأئمة الأربعة رحمهم الله.

۞ ومنها: قسمة الغنائم للفارس ثلاثة أسهم وللراجل سهم.

۞ ومنها: أنه يجوز لآحاد الجيش إذا وجد طعامًا أن يأكله ولا يُخَمِّسه كما أخذ عبد الله بن المغفل جراب الشحم الذى دُلِّيَ يوم خيبر، واختص به بمحضر النبى ﷺ [1].

۞ ومنها: أنه إذا لحق بالجيش مدد بعد تقضِّى الحرب فلا سهم لهم إلا بإذن الجيش ورضاهم ... فإن النبى ﷺ كلم أصحابه فى أهل السفينة حين قدموا عليه بخيبر ـ جعفر وأصحابه ـ أن يُسهم لهم، فأسهم لهم.

۞ **تحريم أكل لحوم الحُمر الإنسية:** عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ نهى يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية[2].

۞ **حرمة وطء السبايا الحوامل:** قال رسول الله ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يسقِ ماءه زرع غيره**»[3].

۞ **حرمة وطء السبايا غير الحوامل قبل استبراء الرحم:** قال رسول الله ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يقع على امرأة من السبى حتى يستبرئها**»[4].

---

(١) رواه البخارى (٧/ ٥٤٩) المغازي.

(٢) انظر: زاد المعاد (٤/ ١٢٢، ١٢٣) البخاري، كتاب المغازى رقم (٤٢١٥).

(٣) انظر: الطبقات (٢/ ١١٣).

(٤) انظر: الروض الأنف (٤/ ٤١).

والاستبراء إنما يكون بأن تطهر من حيضة واحدة فقط، ولا تجب عليها العدة وإن كانت متزوجة من كافر سواء مات أو بقي حيًّا؛ لأن العدة وفاء للزوج الميت وحداد عليه، ولا يُحَدُّ على الكافر كما علمت[١].

۞ حُرمة ربا الفضل: عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ استعمل رجلًا على خيبر، فجاءه بتمر جنيب فقال رسول الله ﷺ: «**كل تمر خيبر هكذا؟**» فقال: لا والله يا رسول الله، إنَّا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين والثلاثة، فقال: «**لا تفعل بِعِ الجمع بالدراهم، ثم ابتع بالدراهم جنيبًا**»[٢]. فالتفاضل مع اتحاد الجنس هو ربا الفضل، إذ اشترى صاعًا بأكثر من صاع، فالزيادة هنا هي الربا، وهذا محرم، كما رأيت إذ نهى النبي ﷺ عن ذلك وأرشد إلى الحل السليم بأن يبيع ما لديه من تمر ثم يشترى بما لديه من نقود ما يشتهى من تمر؛ لأن الحاجة قد تدفع صاحبها إلى قبول الربا[٣].

۞ حرمة بيع الذهب بالذهب العين، وتبر الفضة بالورق العين:

روى عن عبادة بن الصامت أنه قال: نهانا رسول الله يوم خيبر أن نبيع أو نبتاع تبر الذهب بالذهب العين، وتبر الفضة بالورق العين، وقال «**ابتاعوا تبر الذهب بالورق والعين، وتبر الفضة بالذهب والعين**»[٤]. والمراد من الحديث: أن يباع الذهب بالذهب مثلاً بمثل والفضة بالفضة مثلاً بمثل، بلا زيادة ولا نقص، وعندما يُقابَل الذهب بالفضة لا تشترط المماثلة، كما هو

---

(١) انظر: الصراع مع اليهود (٣/ ١٣٤).

(٢) البخاري كتاب المغازي رقم ٤٢٤٤.

(٣) انظر: الصراع مع اليهود (٣/ ١٣٤).

(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام مع الروض الأنف (٤/ ٤١).

معلوم وثابت فى الصحاح[١].

۞ ومنها: جواز المساقاة والمزارعة بجزء مما يخرج من الأرض من ثمر أو زرع، كما عامل رسول الله ﷺ أهل خيبر على ذلك وهو من باب المشاركة وهو نظير المضاربة سواء.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما **قال**: أعطى النبى ﷺ خيبر لليهود أن يعملوها ويزرعوها، ولهم شطر ما يخرج منها[٢].

وقد تساءل بعض الباحثين: لِمَ جاءت أحكام هذه البيوع فى خيبر وما الحكمة من ذلك؟ وأجاب الشيخ محمد أبو زهرة على هذا فقال: إن فتح خيبر كان فتحًا جديدًا بالنسبة للعلاقات المالية التى يجرى فى ظلها التبادل المالي، فكانت فيها شرعية المزارعة والمساقاة ولم تكن تجرى كثيرًا فى يثرب[٣].

۞ ومنها: أنه دفع إليهم الأرض على أن يعملوها من أموالهم ولم يدفع إليهم البذر، ولا كان يحمل إليهم البذر من المدينة قطعًا، فدلَّ على أن هَدْيَه عدم اشتراط كون البذر من رب الأرض.

۞ ومنها: أن أهل الذمة إذا خالفوا شيئًا مما شرط عليهم لم يبقَ لهم ذمة وحلَّت دماؤهم وأموالهم، لأن رسول الله ﷺ عقد لهؤلاء الهدنة وشرط عليهم أن لا يُغيِّبوا ولا يكتموا فإذا فعلوا حلَّت دماؤهم وأموالهم، فلما لم يفوا بالشرط استباح دماءهم وأموالهم.

۞ **حِلّ أكل لحوم الخيل**: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: نهى

---

(١) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوى فى المدينة، (ص٣٢١).

(٢) البخاري، كتاب المغازي، رقم (٤٢٤٨).

(٣) انظر: خاتم النبيين (٢/ ١١٠٤)، الصراع مع اليهود (٣/ ١٣٦).

رسول الله ﷺ يوم خيبر عن أكل لحوم الحمر، ورخَّص فى الخيل [١].

۞ ومنها: أن ما لا يؤكل لحمه لا يطهر بالزكاة لا جلده ولا لحمه، وأن ذبيحته بمنزلة موته وأن الزكاة إنما تعمل فى مأكول اللحم.

۞ ومنها: أن مَن أخذ من الغنيمة شيئًا قبل قسمته لم يملكه وإن كان دون حقه، وأنه إنما يملكه بالقسمة، ولهذا قال فى صاحب الشملة التى غلّها: «**إنها تشتعل عليه نارًا**» وقال لصاحب الشراك الذى غَلَّه «**شراك من نار**» [٢].

۞ ومنها: أن الإمام مُخيَّر فى أرض العنوة بين قسمتها وتركها وقسم بعضها وترك بعضها.

۞ ومنها: جواز إجلاء أهل الذمة من دار الإسلام إذا استغنى عنهم، كما قال النبى ﷺ: «**نُقركم ما أقركم الله**» وأجلاهم عمر بعد موته ﷺ وهو قول قوى يسوغ العمل به إذا رأى الإمام فيه المصلحة.

۞ ومنها: جواز عتق الرجل أَمته وجعل عتقها صداقًا لها ويجعلها زوجته بغير إذنها، ولا شهود، ولا ولى غيره ولا لفظ إنكاح ولا تزويج كما فعل ﷺ بصفية ولم يقل قط هذا خاص بى ولا أشار إلى ذلك والقياس الصحيح يقتضى جواز ذلك فإنه يملك رقبتها ومنفعة وطئها وخدمتها فله أن يُسقط حقه من ملك الرقبة ويستبقى ملك المنفعة أو نوعًا منها.

۞ ومنها: قبول هدية الكافر [٣].

۞ **تحريم المتعة**: عن على رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ نهى عن متعة

---

(١) البخاري، كتاب المغازي، رقم (٤٢١٩).

(٢) أخرجه البخارى (٧/ ٥٥٨) المغازى ـ ومسلم (٢/ ٢٩) الإيمان.

(٣) زاد المعاد (٣/ ٣٣٩-٣٥٤) باختصار وتصرف.

النساء يوم خيبر، وعن أكل لحوم الحُمر الأنسية[(١)].

۞ وقال الجزائرى حفظه الله تحت عنوان نتائج وعبر:

(أ) جواز الحداء والأناشيد الحسنة الخالية من السوء والبذاء.

(ب) بيان آية النبوة المحمدية فى نعى عامر بن الأكوع قبل استشهاده ودخوله المعركة.

(ج) بيان فضل على بن أبى طالب وما فاز به من حب الله ورسوله ﷺ.

(د) بيان صدق وعد الله تعالى فى غنائم خيبر إذ وعد المؤمنين بها فأنجزها لهم وله الحمد والمنة[(٢)].

ثم إن فى هذه الغزوة حادثتين كل منهما ثابت بالحديث الصحيح تُعدَّان من الخوارق العظيمة التى أيد الله بها محمدًا ﷺ.

أولاهما: أنه ﷺ تفل فى عين عليٍّ رضي الله عنه وقد كان يشتكى منها فبرأت فى الوقت نفسه حتى كأن لم يكن به وجع.

الثانية: ما أوحى الله إليه من أمر الشاة المسمومة عندما أراد الأكل منها ولأمرٍ ما سبق قضاء الله تعالى فابتلع بشر بن البراء لقمته قبل أن ينطق رسول الله ﷺ بأنها مسمومة فكان قضاؤه فى ذلك، ولعل فى ذلك مزيدًا من بيان ما اختص الله تعالى به نبيه عليه الصلاة والسلام من الحفظ والعصمة من أيدى الناس وكيدهم تنفيذًا لوعده جل جلاله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾[(٣)(٤)] [(٥)].

---

(١) البخاري، كتاب المغازي، رقم (٤٢١٦).

(٢) هذا الحبيب يا محب (٣٦٤، ٣٦٥).

(٣) سورة المائدة: الآية: (٦٧).

(٤) فقه السيرة (٢٦٢ ـ ٢٦٣).

(٥) نقلاً من وقفات تربوية مع السيرة النبوية / د. أحمد فريد.

فتح فدك

ولما بلغ رسول الله ﷺ إلى خيبر، بعث محيصة بن مسعود إلى يهود فدك، ليدعوهم إلى الإسلام فأبطأوا عليه، فلما فتح الله خيبر قذف الرعب في قلوبهم، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يصالحونه على النصف من فدك، بمثل ما صالح عليه أهل خيبر، فقبل ذلك منهم فكانت فدك لرسول الله ﷺ خالصة، لأنه لم يوجف عليه المسلمون بخيلٍ ولا رِكابٍ(١).

مسير النبي ﷺ إلى وادي القرى

ثم انصرف رسولُ الله ﷺ مِن خَيبر إلى وادي القُرى، وكان بها جماعةٌ من اليهود، وقد انضاف إليهم جماعةٌ من العرب، فلما نزلوا استقبلهم يهودُ بالرمي. وهم على غير تعبئةٍ، فقُتِلَ مِدْعَمٌ (عبدٌ لرسول الله ﷺ)، فقال النَّاس: هنيئًا له الجنةُ، فقال النبيُّ ﷺ: «**كَلاَّ والَّذي نَفْسي بِيَدِهِ، إنَّ الشَّمْلَةَ الَّتي أَخَذَهَا يَوْمَ خَيْبَرَ مِنَ المَغَانِمِ، لَمْ تُصِبْهَا المَقَاسِمُ لَتَشْتَعِلُ عَلَيْهِ نَارًا**»، فلما سمع بذلك الناس، جاء رجل إلى النبي ﷺ بِشِرَاكٍ أو شِرَاكين، فقال النبيّ ﷺ: «**شِرَاكٌ مِنْ نَارٍ أَوْ شراكان مِنْ نارٍ**»(٢).

فعبَّأ رسولُ الله ﷺ أصحابه لِلقتال، وصفَّهم، ودفع لواءه إلى سعدِ بْنِ عُبادة، ورايةً إلى الحُباب بن المنذر، ورايةً إلى سهل بن حُنيف، وراية إلى عبَّاد بن بشر، ثم دعاهم إلى الإسلام، وأخبرهم أنهم إن أسلموا، أحرزوا

---

(١) ابن هشام (٢/ ٣٥٣).

(٢) أخرجه البخاري (١١/ ٥١٣-٥١٤) الأيمان والنذور، ومسلم (١١٥) الإيمان، ومالك (٢/ ٤٥٩) الجهاد.

أموالهم، وحقنوا دماءَهم وحسابهم على الله، فبرز رجل منهم، فبرز إليه الزبيرُ بن العَّوام، فقتله، ثم برز آخرُ، فقتله، ثم برز آخر، فبرز إليه على بن أبى طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقتله، حتى قُتل منهم أحد عشرَ رجلاً، كلما قُتِلَ منهم رجلٌ، دعا من بقى إلى الإسلامِ، وكانت الصلاة تحضُر ذلك اليومَ، فيُصلى بأصحابه، ثم يعودُ فيدعوهم إلى الإسلام وإلى الله ورسوله، فقاتلهم حتى أَمسوا، وغدا عليهم، فلم ترتفع الشمس قيد رمح حتى أعطَوْا ما بأيديهم، وفتحها عنوة، وغنَّمه الله أموالهم، وأصابُوا أثاثًا ومتاعًا كثيرًا، وأقام رسول الله ﷺ بوادى القُرى أربعةَ أيَّام، وقسم ما أصابَ على أصحابه بوادى القُرى، وترك الأرضَ والنخل بأيدى اليهود، وعاملَهم عليها[1].

استسلام يهود تيماء

ولما بلغ يهود تيماء خبر استسلام أهل خيبر، ثم فدك ووادى القرى، لم يُبدوا أى مقاومة ضد المسلمين، بل بعثوا من تلقاء أنفسهم يعرضون الصلح، فقَبِل ذلك منهم رسول الله ﷺ وأقاموا بأموالهم، وكتب لهم بذلك كتابًا، وهاك نَصُّه: هذا كتاب محمد رسول الله لبنى عاديًا: إن لهم الذمة، وعليهم الجزية ولا عداء ولا جلاء، الليل مد، والنهار شد...وكتب خالد بن سعيد[2].

وأقم الصلاة لذكرى

۞ عن أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أن رسول الله ﷺ حين قفل من غزوة خيبر، سار ليلة، حتى إذا أدركه الكرى عرَّس، وقال لبلال: «**اكلأ لنا الليل**» فصلى بلال ما قُدر له. ونام رسول الله ﷺ وأصحابه. فلما تقارب الفجر استند بلال إلى

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٣٥٤-٣٥٥).

(٢) زاد المعاد (٢/ ١٤٧).

راحلته مواجه الفجر، فغلبته عيناه، وهو مستند إلى راحلته، فلم يستيقظ رسول الله ﷺ، ولا بلال، ولا أحد من أصحابه حتى ضربتهم الشمس.

فكان رسول الله ﷺ أولهم استيقاظًا، ففزع رسول الله ﷺ، فقال: «**أى بلال؟**» فقال بلال: أخذ بنفسى الذى ـ بأبى أنت وأمى يا رسول الله ـ أخذ بنفسك. قال: «**اقتادوا**» فاقتادوا رواحلهم شيئًا، ثم توضأ رسول الله ﷺ، وأمر بلالاً فأقام الصلاة، فصلى بهم الصبح، فلما قضى الصلاة قال: «**من نسى الصلاة فليُصلِّها إذا ذكرها، فإن الله قال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾**[1]»[2].

۞ وقد رُوى أن هذه القصة كانت فى مرجعهم مِن الحُديبية، ورُوى أنها كانت فى مرجعهم مِن غزوة تبوك[3].

هذا وقد أحدث فتح خيبر وفدك ووادى القرى وتيماء دويًا هائلاً فى الجزيرة العربية بين مختلف القبائل، وقد أُصيبت قريش بالغيظ والكآبة إذ لم تكن تتوقع ذلك، وهى تعلم مدى حصانة قلاع يهود خيبر، وكثرة مقاتليهم ووفرة سلاحهم ومؤونتهم ومتاعهم[4]، أما القبائل العربية الأخرى المناصرة لقريش فقد أدهشها خبر هزيمة يهود خيبر وخَذَلها انتصار المسلمين الساحق؛ ولذلك فإنها جنحت إلى مسالمة المسلمين وموادعتهم بعد أن أدركت عدم جدوى استمرارها فى عدائهم، مما فتح الباب واسعًا لنشر الإسلام فى أرجاء الجزيرة العربية، بعد أن تعززت مكانة المسلمين فى أعين أعدائهم إلى جانب

---

(١) سورة طه: الآية: (١٤).

(٢) أخرجه مسلم (٦٨٠) ـ والترمذى (٣١٦٣).

(٣) زاد المعاد (٣/ ٢٥٦).

(٤) انظر: نضرة النعيم، (١/ ٣٥٣).

ما تحقق له من خير وتعزيز لوضعهم الاقتصادي[١].

واستمرت حركة السرايا بعد خيبر، وكانت كثيرة، وأمَّر عليها النبى ﷺ كبار الصحابة، وكان فى بعضها قتال، ولم يكن فى بعضها قتال[٢].

(١) المصدر نفسه، (١/ ٣٥٣).

(٢) انظر: السيرة النبوية للندوي، (ص٢٢١).

السرايا التى كانت بعد خيبر

وبعد عودة النبى ﷺ من خيبر أقام فى المدينة إلى شهر شوال وبعث من خلال ذلك السرايا وكان منها:

سرية أبى بكر الصديق إلى بنى فزارة

من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: (غزونا فزارة، وعلينا أبو بكر، أمَّره رسول الله ﷺ علينا. فلما كان بيننا وبين الماء ساعة، أمرنا أبو بكر فعرسنا[١] ثم شَنَّ الغارة، فورد الماء، فقَتَل مَن قُتل عليه، وسُبى، وأنظر إلى عنق من الناس[٢]، فيهم الذرارى[٣] فخشيت أن يسبقونى إلى الجبل، فرميت بسهم بينهم وبين الجبل. فلما رأوا السهم وقفوا، فجئت بهم أسوقهم، وفيهم امرأة من بنى فزارة عليها قشع من أدم[٤]. معها ابنة من أحسن العرب، فسقتهم حتى أتيت بهم أبا بكر. فنفلنى أبو بكر ابنتها، فقدمنا المدينة، وما كشفت لها ثوبًا. فلقينى رسول الله ﷺ فى السوق. فقال: «**يا سلمة! هَبْ لى المرأة**» فقلت: «يا رسول الله! والله لقد أعجبتنى، وما كشفت لها ثوبًا»[٥]، ثم لقينى رسول الله ﷺ من الغد فى السوق، فقال لى: «**يا سلمة! هب لى المرأة. لله أبوك!**» فقلت: هى لك يا رسول الله فوالله ما كشفت لها ثوبًا. فبعث بها رسول الله ﷺ إلى أهل مكة، ففدى بها ناسًا من المسلمين كانوا أُسروا بمكة»[٦].

---

(١) التعريس: نزول آخر الليل.

(٢) عنق من الناس: جماعة.

(٣) الذرارى: النساء والصبيان.

(٤) قشع من أدم: نطع.

(٥) وما كشفت لها ثوبًا: كناية عن الجماع.

(٦) أخرجه مسلم (١٧٥٥) الجهاد والسير.

سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى الحرقات

وذات يوم تَلقَّى أسامة من رسول الله ﷺ درس حياته.. درسًا بليغًا، عاشه أسامة، وعاشته حياته كلها منذ غادرهم الرسول إلى الرفيق الأعلى - إلى أن لقي أسامة ربه في أواخر خلافة معاوية.

قبل وفاة الرسول بعامين بعثه عليه السلام أميرًا على سرية خرجت للقاء بعض المشركين الذين يناوئون الإسلام والمسلمين.

وكانت تلك أول إمارة يتولاها «أسامة».

ولقد أحرز في مهمته النجاح والفوز، وسبقته أنباء فوزه إلى رسول الله ﷺ ففرح بها وسُرّ[1].

۞ عن أسامة بن زيد بن حارثة رضي الله عنهما قال: «بعثنا رسول الله ﷺ في سرية. فصبَّحنا الحرقات[2] من جهينة، فأدركت رجلاً، فقال: لا إله إلا الله، فطعنته فوقع في نفسي من ذلك، فذكرته للنبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «**أقال لا إله إلا الله وقتلته؟**») قال: قلت: يا رسول الله ! إنما قالها خوفًا من السلاح. قال «**أفلا كشفت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا**» فما زال يكررها حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ.

قال: فقال سعد - يعني سعد بن أبي وقاص -: «وأنا والله لا أقتل مسلمًا حتى يقتله ذو البطين (يعني: أسامة) قال: رجل: ألم يقل الله: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾[3]. فقال سعد: قد قاتلنا

(١) رجال حول الرسول ﷺ (ص٦٥٧).

(٢) فصبحنا الحرقات: أتيناهم صباحًا، الحرقات موضع ببلاد جهينة.

(٣) سورة الأنفال: الآية: (٣٩).

حتى لا تكون فتنة، وأنت وأصحابك تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة»(١).

۞ وفى رواية أخرى: وصف أسامة - رضي الله عنه - كيف قتل هذا الرجل وكان مع أسامة رجل من الأنصار.

قال أسامة رضي الله عنه: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة من جهينة قال: فصبَّحنا القوم فهزمناهم، قال: ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم. قال: فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله، قال: فكَفَّ عنه الأنصارى فطعنته برمحى حتى قتلته. قال: فلما قدمنا بلغ ذلك النبى ﷺ قال: فقال لى: «**يا أسامة، أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله؟**» قال: قلت: يا رسول الله، إنه إنما كان متعوذًا، قال: «**قتلته بعدما قال لا إله إلا الله؟**» قال: فما زال يكررها علىَّ حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم»(٢).

وفى رواية قال: فوالذى بعثه بالحق ما زال يرددها علىَّ حتى لوددت أن ما مضى من إسلامى لم يكن، وأنى كنت أسلمت يومئذ، وأنى لم أقتله؛ قال: قلت: أنظرنى يا رسول الله، أعاهد الله أن لا أقتل رجلاً يقول لا إله إلا الله أبدًا، قال: «**تقول بعدى يا أسامة**»، قال: قلت بعدك(٣).

وإذا بهذا الدرس العظيم ينتفع به أسامة رضي الله عنه.

فإنه لما حدثت الفتنة بين (علىٍّ) و(معاوية) رضي الله عنهما اعتزل أسامة تلك الفتنة وقال: «لا أقاتل أحدًا يقول: لا إله إلا الله»(٤).

---

(١) أخرجه البخارى فى المغازى باب بعث النبى ﷺ أسامة بن زيد إلى الحرقات: ٤٢٦٩، وانظر: (٦٨٧٢)، ومسلم فى الإيمان باب تحريم قتل الكافر إذا قال لا إله إلا الله رقم (٩٦).

(٢) أخرجه البخارى (١٢/ ٦٨٧٢)، ومسلم (١/ ٩٧/ ١٥٩) واللفظ للبخارى.

(٣) ذكره الطبرى فى تاريخه (٢/ ١٤٢) وأصله فى البخارى (١٢/ ٦٨٧٢).

(٤) أصحاب الرسول ﷺ / للمصنف (٢/ ٤٢ - ٤٣).

سرية غالب بن عبد الله الليثى لبنى الملوح بالكديد

عن جندب بن مكيث الجهنى قال: «بعث رسول الله ﷺ غالب بن عبد الله الكلبى (كلب ليث)، إلى بنى ملوح بالكديد[١]، وأمره أن يغير عليهم، فخرج فكنت فى سريته، فمضينا حتى إذا كنا بقديد[٢] لقينا بها الحارث بن مالك، وهو ابن البرصاء الليثى، فأخذناه فقال: إنما جئت لأُسْلِم، فقال غالب بن عبد الله: إن كنت إنما جئت مسلمًا، فلن يضرك رباط يوم وليلة، وإن كنت غير ذلك استوثقنا منك. قال فأوثقه رباطًا، ثم خلّف عليه رجلاً أسود كان معنا، فقال امكث معه حتى نَمُرّ عليك، فإن نازعك، فاحتز رأسه، قال: ثم مضينا حتى أتينا بطن الكديد، فنزلنا عشيشية بعد العصر، فبعثنى أصحابى فى ربيئة[٣]، فعمدت إلى تَلٍّ يُطلعنى على الحاضر، فانبطحت عليه وذلك المغرب، فخرج رجل منهم، فنظر فرآنى منبطحًا على التل، فقال لامرأته: والله إنى لأرى على التل سوادًا ما رأيته أول النهار، فانظرى لا تكون الكلاب اجترت بعض أوعيتك.

قال: فنظرت، فقالت: لا والله ما أفقد شيئًا، قال: فناولينى قوسى وسهمين من كنانتى، قال: فناولته فرمانى بسهم فوضعه فى جنبى، قال: فنزعته فوضعته، ولم أتحرك، ثم رمانى بآخر فوضعه فى رأس منكبى، فنزعته، ووضعته، ولم أتحرك، فقال لامرأته: والله لقد خالطه سهامى، ولو كان دابة لتحرك، فإذا أصبحت، فابتغى سهمىَّ فخذيهما لا تمضغهما علىَّ الكلاب.

---

(١) بنى ملوح بالكديد: ماء بين الحرمين الشريفين.

(٢) قديد: موضع بين مكة والمدينة.

(٣) ربيئة: العين والطليعة.

قال: وأمهلناهم حتى راحت رائحتهم حتى إذا احتلبوا[١]، وعطنوا، أو سكنوا[٢]، وذهبت عتمة من الليل[٣] شننَّا عليهم الغارة[٤]، فقتلنا مَن قتلنا منهم، واستقنا النعم فوجَّهنا قافلين[٥] وخرج صريخ القوم إلى قومهم مغوثًا[٦]، وخرجنا سراعًا حتى نمر بالحارث بن البرصاء وصاحبه فانطلقنا به معنا، وأتانا صريخ الناس، فجاءنا ما لا قِبل لنا به، حتى إذا لم يكن بيننا وبينهم إلا بطن الوادى أقبل سيلٌ حال بيننا وبينهم بعثه الله تعالى من حيث شاء، ما رأينا قبل ذلك مطرًا ولا حالاً، فجاء بما لا يقدر أحد أن يقوم عليه، فلقد رأيناهم وقوفًا ينظرون إلينا ما يقدر أحد منهم أن يتقدم، ونحن نحوزها[٧] سراعًا، حتى أسندناها فى المشلل[٨] ثم حدرناها عنا فأعجزنا القوم بما فى أيدينا[٩].

۞ قال الإمام ابن القيم: وقد قيل: إن هذه السرية هى السرية التى قبلها. والله أعلم[١٠].

---

(١) احتلبوا: حلبوا ماشيتهم.

(٢) سكنوا: قاموا.

(٣) عتمة من الليل: ذهبت مدة من ظلمة الليل.

(٤) شننَّا عليهم الغارة: فرقنا عليهم الجيوش فى كل الجهات.

(٥) قافلين: راجعين.

(٦) مغوثًا: طالبًا الإغاثة والإعانة.

(٧) نحوزها: نسوق ما غنمناه، وملكناه من النعم.

(٨) المشلل: جبل يهبط منه إلى قديد.

(٩) أخرجه أحمد (٣/ ٤٦٧ ـ ٤٦٨)، ورواه أبو داود برقم (٢٦٧٨)، مختصرًا إلى قوله فوثقناه رباطًا ورجاله ثقات خلا مسلم بن عبد الله الجهنى فإنه لم يوثقه غير ابن حبان. وقال الهيثمى فى المجمع (٦/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣)، رواه الطبرانى، وأحمد، ورجاله ثقات، فقد صرح ابن إسحاق بالسماع من رواية الطبرانى.

(١٠) زاد المعاد (٣/ ٣٦٣).

بعث سرية إلى (إضم).. وقصة محلّم بن جثامة

۞ عن عبد الله بن أبى حدرد رضي الله عنه قال: «بعثنا رسول الله ﷺ إلى إضم، فخرجت فى نفر من المسلمين فيهم أبو قتادة الحرث بن ربعى، ومحلِّم بن جثَّامة بن قيس، فخرجنا حتى إذا كنا ببطن إضم مَرَّ بنا عامر بن الأضبط الأشجعى على قَعودٍ له[1] مع مُتيع[2] له ووطب[3] من لبن، فسلم علينا بتحية الإسلام فأمسكنا عنه، وحمل عليه محلِّم بن جثَّامة، فقتله لشىء كان بينه وبينه، وأخذ بعيره ومتاعه، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أخبرناه الخبر، فنزل فينا القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[4] »[5].

سرية عبد الله بن حذافة السهمى رضي الله عنه

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال فى قوله تعالى: «﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[6] قال نزلت فى عبد الله بن حذافة بن قيس ابن عدى إذ

(١) قَعود: البعير المتخذ للركوب.

(٢) مُتيع: تصغير متاع.

(٣) وطب: وعاء اللبن.

(٤) سورة النساء: الآية: (٩٤).

(٥) أخرجه أحمد فى المسند (٦/ ١١)، ورجاله ثقات، وابن هشام فى السيرة (٢/ ٦٢٧)، وأورده السيوطى فى الدر المنثور (٢/ ١٩٩ ـ ٢٠٠)، وزاد نسبته إلى ابن سعد، وابن أبى شيبة، وابن جرير، والطبرانى، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، وأبو نعيم، والبيهقى فى الدلائل (٤/ ٣٠٥)، وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٨)، رواه أحمد، والطبرانى ورجاله ثقات.

(٦) سورة النساء: الآية: (٥٩).

بعثه النبى ﷺ فى سرية»[١].

وعن على رضي الله عنه، قال: استعمل رسول الله ﷺ رجلاً من الأنصار على سرية، بعثهم وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا. قال: فأغضبوه فى شىء، فقال: اجمعوا لى حطبًا، فجمعوا، فقال: أوقدوا نارًا، فأوقدوا، ثم قال: ألم يأمركم رسول الله ﷺ أن تسمعوا لى وتطيعوا؟ قالوا: بلى، قال: فادخلوها، قال: فنظر بعضهم إلى بعض. وقالوا: إنما فررنا إلى رسول الله ﷺ من النار، فسكن غضبه. وطُفئت النار، فما قدموا على رسول الله ﷺ ذكروا ذلك له، فقال: «**لو دخلوها ما خرجوا منها، إنما الطاعة فى المعروف**»[٢].[٣]

وهذا هو عبد الله بن حذافة كما صرح بذلك فى هذه الرواية:

❁ **عن أبى سعيد الخدرى** رضي الله عنه **قال**: «إن رسول الله ﷺ **بعث علقمة بن** مجزز على بعث، وأنا فيهم. فلما انتهى إلى رأس غزاته، أو كان ببعض

---

(١) أخرجه البخارى فى التفسير تفسير سورة النساء باب أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم حديث رقم (٤٥٨٤)، مسلم فى الإمارة باب وجوب طاعة الأمراء حديث رقم (١٨٣٤).

(٢) أخرجه البخارى (٨/ ١٩١) تفسير سورة النساء، ومسلم (١٨٣٤) الإمارة.

(٣) قال الإمام ابن القيم: فإن قيل: فلو دخلوها دخلوها طاعة لله ورسوله فى ظنهم، فكانوا متأولين مخطئين، فكيف يُخلَّدون فيها؟ قيل: لما كان إلقاء نفوسهم فى النار معصيةً يكونون بها قاتلى أنفسهم، فهموا بالمبادرة إليها من غير اجتهاد منهم: هل هو طاعةٌ وقربة، أو معصيةٌ؟ كانوا مقدمين على ما هو محرَّم عليهم، ولا تسوغ طاعة ولى الأمر فيه، لأنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، فكانت طاعة من أمرهم بدخول النار معصية لله ورسوله، فكانت هذه الطاعة هى سبب العقوبة، لأنها نفس المعصية، فلو دخلوها، لكانوا عصاةً لله ورسوله، وإن كانوا مطيعين لولى الأمر، فلم تدفع طاعتهم لولى الأمر معصيتهم لله ورسوله، لأنهم قد علموا أن من قتل نفسه، فهو مستحقٌ للوعيد، والله قد نهاهم عن قتل أنفسهم، فليس لهم أن يُقدموا على هذا النهى طاعة لمن لا تجب طاعته إلا فى المعروف. فإذا كان هذا حُكم مَن عذَّب نفسه طاعة لولى الأمر، فكيف من عذَّب مسلمًا لا يجوز تعذيبه طاعة لولى الأمر [زاد المعاد (٣/ ٣٦٩)].

الطريق استأذن منه طائفة من الجيش، فأذن لهم، وأمَّر عليهم عبد الله بن حذافة بن قيس السهمى، فكنت فيمن غزا معه، فلما كان بعض الطريق، أوقد نارًا ليصطلوا، أو ليصنعوا عليها صنيعًا، فقال عبد الله «وكانت فيه دعابة» أليس لى عليكم السمع والطاعة ؟ قالو؟ بلى. قال فما أنا بآمركم بشىء إلا صنعتموه ؟

قالوا: نعم. قال: فإنى أعزم عليكم إلا تواثبتم فى هذه النار. فقام ناس فتحجَّزوا. فلما ظن أنهم واثبون، قال: أمسكوا على أنفسكم، فإنما كنت أمزح معكم. فلما قدمنا ذكروا ذلك للنبى ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: «من أمركم منهم بمعصية الله، فلا تطيعوه»[1].

(١) أخرجه ابن ماجه فى الجهاد باب لا طاعة فى معصية الله حديث رقم (٢٨٦٣)، وابن حبان، برقم (١٥٥٢) موارد، وأحمد فى المسند (٣/ ٦٧)، والحاكم فى المستدرك (٣/ ٦٣٠ - ٦٣١) وأبو يعلى برقم (١٣٤٩)، وقال البوصيرى فى الزوائد: (٢/ ٤٢٣)، إسناده صحيح ونقل الحافظ فى الفتح: (٨/ ٥٨) تصحيحه عن ابن خزيمة وصححه الحاكم ووافقه الذهبى.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

غزوة ذات الرقاع

غزوة ذات الرقاع

۞ وها هى غزة ذات الرقاع التى ظهرت فيها صور مشرقة للبذل والتضحية والتجرد من أجل نُصرة هذا الدين العظيم.

متى كانت تلك الغزوة

قال الإمام البخارى: إن غزوة ذات الرقاع كانت بعد غزوة خيبر[١]، وأيَّده فى ذلك ابن كثير فى سيرته[٢]، وابن حجر فى الفتح[٣]، وابن القيم فى زاد المعاد[٤].

إلا أن محمد بن إسحاق وجماعة من أهل السير والمغازى قالوا: إنها كانت فى جمادى الأولى بعد غزوة بنى النضير بشهرين، وذلك فى السنة الرابعة للهجرة[٥].

قلت: وما فى الصحيح أصح، وأَولَى بالتقديم، وله من أحاديث الصحابة رضوان الله عليهم ما يسنده ويقويه، من قول أبى هريرة: «صليت مع النبى ﷺ فى غزوة نجد صلاة الخوف»، وإنما جاء أبو هريرة إلى النبى ﷺ أيام خيبر[٦].

---

(١) أخرجه البخارى فى المغازى باب غزوة ذات الرقاع، وهى غزوة محارب حفصة من بنى ثعلبة من غطفان، ونزل نخلاً وهى بعد خيبر، لأن أبا موسى جاء بعد خيبر... فتح (٧/ ٤١٦).

(٢) السيرة النبوية ابن كثير: (٣/ ١٦١).

(٣) ابن حجر فى الفتح: (٧/ ٤١٨).

(٤) زاد المعاد: (٣/ ٢٥٣).

(٥) ابن هشام فى السيرة: (٣/ ١٥٧).

(٦) أخرجه أحمد (٢/ ٣٢٠)، والنسائى (٣/ ١٧٣)، وإسناده صحيح.

ويؤيده أيضًا ما جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: «غزوت مع رسول الله ﷺ قِبَل نجد، فذكر صلاة الخوف»(١)، وإنما كانت إجازة النبى ﷺ لابن عمر بالقتال عام الخندق».

ويؤيده أيضًا ما جاء من حديث أبى موسى الأشعرى السابق فى سبب تسمية هذه الغزوة بهذا الاسم، وإخباره بأنه حضرها، وإنما جاء أبو موسى الأشعرى مع جعفر بعد غزوة خيبر.

وعن أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه قال: «خرجنا مع النبى ﷺ فى غزاة، ونحن فى تسعة نفر بيننا بعير نعتقبه، فنقبت أقدامنا، ونقبت قدماى، وسقطت أظفارى، فكنا نلف على أرجلنا الخِرق، فسُمِّيت غزوة ذات الرقاع لما كنا نعصب من الخِرَق على أرجلنا ... وحدَّث أبو موسى بهذا الحديث ثم كره ذاك قال: ما كنت أصنع بأن أذكره، كأنه كره أن يكون شىء من عمله أفشاه»(٢).

خواطر حول هذه لغزوة

ولما فرغ رسول الله ﷺ من كسر جناحين قويين من أجنحة الأحزاب الثلاثة؛ تفرغ تمامًا للالتفات إلى الجناح الثالث، أى: إلى الأعراب القُساة الضاربين فى فيافى نَجْد، والذين ما زالوا يقومون بأعمال النهب والسلب بين آونة وأخرى.

ولما كان هؤلاء البدو لا تجمعهم بلدة أو مدينة، ولم يكونوا يقطنون الحصون والقلاع، كانت الصعوبة فى فرض السيطرة عليهم وإخماد نار

(١) أخرجه البخارى (٤١٣٢) المغازى.

(٢) أخرجه البخارى (٤١٢٥) المغازى، ومسلم (١٨١٦) الهجرة والمغازى.

شرهم تمامًا تزداد بكثير عما كانت بالنسبة إلى أهل مكة وخيبر، ولذلك لم تكن تُجدى فيهم إلا حملات التأديب والإرهاب، وقام المسلمون بمثل هذه الحملات مرة بعد أخرى.

ولفرض الشوكة ـ أو لاجتماع البدو الذين كانوا يحتشدون للإغارة على أطراف المدينة ـ قام رسول الله ﷺ بحملة تأديبية عُرفت بغزوة ذات الرقاع وهى غزوة محارب خصفة من بنى ثعلبة من غطفان. وهى التى صلى النبى فيها صلاة الخوف وكانت تُسمى أيضًا (غزوة نجد).

ما سبب هذه الغزوة؟

وأما سبب الغزوة ما ظهر من الغدر لدى كثير من قبائل نجد بالمسلمين، ذلك الغدر الذى تجلَّى فى مقتل أولئك الدعاة السبعين الذين خرجوا يدعون إلى الله تعالى، فخرج ﷺ قاصدًا قبائل محارب وبنى ثعلبة[1]. وقد ذكر الدكتور محمد أبو فارس أن قادمًا قدم المدينة فأخبر المسلمين أن بنى محارب وبنى ثعلبة من غطفان قد جمعوا الجموع لحرب رسول الله ﷺ، فما كان منه ﷺ إلا أن سار إليهم فى عقر دارهم على رأس أربعمائة مقاتل وقيل سبعمائة مقاتل، ولما وصل رسول الله ﷺ إلى ديارهم خافوا وهربوا إلى رؤوس الجبال، تاركين نساءهم وأطفالهم وأموالهم، وحضرت الصلاة فخاف المسلمون أن يغيروا عليهم، فصلى رسول الله ﷺ صلاة الخوف، وعاد رسول الله إلى المدينة[2].

وقد حققت هذه الحملة العسكرية أغراضها، وتمكنت من تشتيت

(١) فقه السيرة النبوية، (ص١٩٤، ١٩٥).

(٢) انظر: غزوة الأحزاب لأبى فارس، (ص١٤).

الحشد الذى قامت به غطفان لغزو المدينة فأرهب تلك القبائل وألقى عليها درسًا بأن المسلمين ليسوا قادرين فقط على سحق مَن تُحدثه نفسه بالاقتراب من المدينة، بل قادرين على نقل المعركة إلى أرض العدو نفسه وضربه فى عقر داره[١].

ولماذا سُميت بذات الرقاع؟

ولعلك تسأل وتقول: ولماذا سُميت هذه الغزوة بغزوة ذات الرقاع؟

والجواب: أنها سُميت بذات الرقاع؛ لأنهم كانوا يربطون على أرجلهم من الخِرَق والرقاع اتقاء الحر، وقيل: لأنهم رقعوا راياتهم، وقيل لشجرة كانت اسمها ذات الرقاع[٢]، وقيل: لأن المسلمين نزلوا فى أرض كان فيها بقع بيض وسود مختلفة، فسُميت لذلك[٣]. والصحيح: أنهم كانوا يربطون على أرجلهم من الخرق،... فقد روى الشيخان عن أبى موسى الأشعرى قال: خرجنا مع النبى ﷺ فى غزاة ونحن ستة نفر بيننا بعير نتعقبه فنقبت أقدامنا، ونقبت قدماي، وسقطت أظفاري، وكنا نَلُفُّ على أرجلنا الخِرَق، فسُمِّيت غزوة ذات الرقاع لما كنا نعصب بالخرق على أرجلنا[٤].

كيف صلى النبى ﷺ وأصحابه صلاة الخوف؟

أنزل الله تعالى على نبيه ﷺ صلاة الخوف فى هذه الغزوة، وبيَّن القرآن الكريم صفة الصلاة ساعة مواجهة العدو ... قال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ

(١) انظر: غزوة الأحزاب، محمد أحمد باشميل، (ص٧٧، ٧٨).

(٢) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ٣٠٩)

(٣) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوى فى المدينة، (ص١٧٠).

(٤) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة ذات الرقاع (٥/ ١٤٥).

فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾[١]. فقد صلى المسلمون صلاة الخوف، وصفة هذه الصلاة أن طائفة صفَّت معه، وطائفة فى وجه العدو، فصلى بالتى معه ركعة ثم ثبت قائمًا، وأتموا لأنفسهم ثم انصرفوا فصَفُّوا وجاه العدو، وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التى بقيت فى صلاته، ثم ثبت جالسًا، وأتموا لأنفسهم ثم سلم بهم[٢].

وفى رواية: أنه صلى بطائفة ركعتين ثم تأخروا، وصلى بالطائفة الأخرى ركعتين، فكانت لرسول الله ﷺ أربع ركعات وللقوم ركعتان[٣].

ووجه التوفيق بين الحديثين أنه عليه الصلاة والسلام صلى بأصحابه صلاة الخوف أكثر من مرة فصلاها مرة على النحو الأول، وصلاها مرة أخرى على النحو التالي.

وكانت هذه الصلاة بمنطقة نخل التى تبعد عن المدينة بيومين[٤]، ودلَّ تشريع صلاة الخوف على أهمية الصلاة فحتى فى قلب المعركة لا يمكن التساهل فيها، ولا يمكن التنازل عنها، مهما كانت الظروف؛ وبذلك تندمج

(١) سورة النساء: الآية: (١٠٢).

(٢) انظر: السيرة فى ضوء المصادر الأصلية، (ص٤٢٥).

(٣) مسلم (٢/ ٥٧٦) رقم (٣١١).

(٤) انظر: فقه السيرة النبوية، (ص٢٠٧).

الصلاة والعبادة بالجهاد وفق المنهاج النبوى فى تربية الأمة الذى استُمد من كتاب الله تعالى، فلا يوجد أى انفصال أو انفصام بين العبادة والجهاد(١).

محاولة اغتيال النبى ﷺ

وكان هناك محاولة لاغتيال النبى ﷺ ولكن الله ﷻ دائمًا يحوطه بحفظه وعنايته.

عن جابر رضي الله عنه قال: «أقبلنا مع رسول الله ﷺ، حتى إذا كنا بذات الرقاع قال: كنا إذا أتينا على شجرة ظليلة، تركناها لرسول الله ﷺ، قال: فجاء رجل من المشركين، وسيف رسول الله ﷺ مُعلَّق بشجرة، فأخذ سيف نبى الله ﷺ فاخترطه، فقال لرسول الله ﷺ: أتخافنى ؟ قال: «**لا**» قال: فمن يمنعك منى؟ قال: «**الله يمنعنى منك**» قال: فتهدده أصحاب رسول الله ﷺ، فأغمد السيف، وعلَّقه، قال: فنودى بالصلاة، فصلى بطائفة ركعتين، ثم تأخروا، وصلى بالطائفة الأخرى ركعتين، قال: فكانت لرسول الله ﷺ أربع ركعات، وللقوم ركعتان.

وقد جاء التصريح باسم هذا الرجل فى رواية أحمد كما يلى: «قاتل رسول الله ﷺ محارب خصفة، فرأوا من المسلمين غرة، فجاء رجل منهم يقال له: غورث بن الحارث حتى قام على رأس رسول الله ﷺ بالسيف فقال: من يمنعك منى؟ قال: «**الله ﷻ**» فسقط السيف من يديه فأخذه رسول الله ﷺ فقال: من يمنعك منى ؟ قال: كُن كخير آخذٍ، قال: «**أتشهد أن لا إله إلا الله؟**» قال: لا، ولكنى أعاهدك أن لا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك، فخلى

(١) انظر: التربية القيادية (٣/ ٣٠٣، ٣٠٤).

سبيله، قال: فذهب إلى أصحابه، قال: قد جئتكم من عند خير الناس»[١].

وفى هذه القصة دليل على نبوة محمد ﷺ وفرط شجاعته وقوة يقينه وصبره على الأذى وحِلْمه على الجُهال، وفيها جواز تَفرُّق العسكر فى النزول ونومهم إذا لم يكن هناك ما يخافون منه[٢].

إن هذه القصة ثابتة وصحيحة وهى تكشف عن مدى رعاية البارى جل جلاله وحفظه لنبيه ﷺ، ثم هى تزيدك يقينًا بالخوارق التى أخضعها الله جل جلاله له عليه الصلاة والسلام، مما يزيدك تبصُّرًا ويقينًا بشخصيته النبوية، فقد كان من السهل الطبيعى بالنسبة لذلك المشرك، وقد أخذ السيف ورفعه فوق النبى ﷺ وهو أعزل غارق فى غفلة النوم، أن يهوى به عليه فيقتله، وإنك لتلمس من ذلك المشرك هذا الاعتداد بنفسه والزهو بالفرصة الذهبية التى أمكنته من رسول الله ﷺ فى قوله: من يمنعك مني؟ فما الذى طرأ بعد ذلك حتى عاقه عن القتل؟[٣].

ليس لهذا تفسير إلا العناية الإلهية، والإعجاز الإلهي، الذى يتخطى العادات والسنن، ويتجاوز قوى الناس، لنصرة نبيه، والذود عن دعوته[٤]. فقد كانت العناية الإلهية كافية لأن تملأ قلب المشرك بالرعب وأن تقذف فى ساعديه تيارًا من الرجفة، فيسقط من يده السيف ثم يجلس متأدبًا مطرقًا بين يدى رسول الله ﷺ...وما حدث مصداق لقوله تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ

(١) أخرجه البخارى (٤١٣٦) المغازى، ومسلم (٨٤٣) صلاة المسافرين.

(٢) انظر: فتح البارى (١٥/ ٣١٧) نقلا عن السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية، (ص٤٢٧).

(٣) انظر: فقه السيرة ، (ص٢٠٠).

(٤) انظر: دروس وعبر من الجهاد النبوى فى المدينة، (ص١٧٨).

﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(١)، فليست العصمة المقصودة فى الآية أن لا يتعرض الرسول ﷺ لأذى أو محنة من قومه، إذ تلك هى سنة الله فى عباده كما قد علمت، وإنما المراد من العصمة ألا تطول إليه أى يد تحاول اغتياله وقتله لتغتال فيه الدعوة الإسلامية التى بُعث لتبليغها(٢).

موقف يعجز القلم عن وصفه

۞ وها هو عبَّاد بن بشر رضي الله عنه يقف موقفًا يعجز القلم عن وصفه ولو اجتمع جميع الأدباء والشعراء ما استطاعوا أن يصفوا مدى عظمة هذا الموقف الذى يندر تكراره عبر العصور والأزمان.

فعن جابر بن عبد الله الأنصارى، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة ذات الرقاع من نخل، فأصاب (رجلٌ) امرأة رجلٍ من المشركين، فلما انصرف رسول الله ﷺ قافلاً - راجعًا - أتى زوجها وكان غائبًا، فلما أُخبر الخبر حلف لا ينتهى حتى يهريق فى أصحاب محمد ﷺ(٣)، فخرج يتبع أثر رسول الله ﷺ فنزل رسول الله ﷺ منزلاً، فقال: «مَن رجل يكلؤنا(٤) ليلتنا هذه؟» قال: فانتدب رجل من المهاجرين، ورجل [آخر] من الأنصار، فقالا: نحن يا رسول الله، قال: فكونا بفَمِ الشِّعب، قال: وكان رسول الله ﷺ وأصحابه قد نزلوا إلى شِعب من الوادى، (وهما عمار بن ياسر وعباد بن

(١) سورة المائدة: الآية: (٦٧).

(٢) انظر: فقه السيرة، (ص٢٠٠).

(٣) أى يصيب دمًا.

(٤) يكلؤنا: يحفظنا.

بشر)، فلما خرج الرجلان إلى فم الشِّعب، قال الأنصارى للمهاجرين: أى الليل تحب أن أكفيكه: أوله أم آخره ؟ قال: بل اكفنى أوله، قال: ونام (عمار بن ياسر) وقام (عبّاد) ينظر إلى الكون من حوله، فإذا به يرى الليل هادئًا وكأن الكون كله يسبح بصوتٍ خافتٍ فتاقت نفسه إلى أن يقرأ وهو يصلى ـ ليجمع بين الحُسنيين ـ قال ابن إسحاق: فاضطجع المهاجرى (عمار) فنام وقام الأنصارى (عبَّاد) يصلى. قال: وأتى الرجل فلما رأى شخص الرجل عرف أنه ربيئة [(١)] القوم، قال: فرمى بسهم، فوضعه فيه، قال: فنزعه ووضعه، فثبت قائمًا، قال: ثم رماه سهمًا آخر، فوضعه فيه، قال: فنزعه فوضعه، وثبت قائمًا، ثم عاد له بالثالث، فوضعه فيه، قال: فنزعه فوضعه ثم ركع وسجد، ثم أهَبَّ [(٢)] صاحبه فقال: اجلس فقد أُثبتُّ [(٣)]، قال: فوثب، فلما رآهما الرجل عرف أن قد نذرا به، فهرب، قال: ولما رأى المهاجرى ما بالأنصارى من الدماء، قال: سبحان الله! أفلا أهببتنى ـ أيقظتنى ـ أول ما رماك؟ قال: كنت فى سورة أقرؤها فلم أحب أن أقطعها حتى أنفدها، فلما تابع علىَّ الرمى ركعت فآذنتك، وايمُ الله لولا أن أُضيِّع ثغرًا أمرنى رسول الله ﷺ بحفظه لقطع نفسى قبل أن أقطعها أو أنفدها [(٤)].

۞ ومن هذه الحادثة يمكننا أن نستخلص دروسًا وعبرًا منها:

(أ) اهتمام النبى ﷺ بأمن الجنود، ويظهر ذلك فى اختياره رجلين من

---

(١) الربيئة: الطليعة الذى يحرس القوم.

(٢) أهبَّ: أيقظ.

(٣) أُثبتُّ: أى جُرحت جرحًا لا يمكن التحرك منه.

(٤) أخرجه أبو داود، وأحمد (٣/ ٣٤٣، ٣٥٩)، وابن خزيمة فى «صحيحه» (١/ ٣٦)، وابن حبان فى «صحيحه» (٢/ ح١٠٩٣)، والحاكم فى «مستدركه» (١/ ١٥٦)، قلت: وإسناده حسن.

خيار الصحابة لحراسة الجيش ليلاً.

(ب) تقسيم الحراسة، ونلاحظ أن الرجلين اللذين أُنيطت بهما حراسة الجيش قد اقتسما الليل نصفين، نصفًا للراحة ونصفًا للحراسة، إذ لا بد من راحة جسم الجندى بعض الوقت.

(ج) التعلق بالقرآن الكريم وحب تلاوته: فقد كان حبه للتلاوة قد أنساه آلام السهام التى كانت تنغرس فى جسمه وتثج الدم منه بغزارة(١).

(د) الشعور بمسئولية الحراسة: فلم يقطع عبَّاد صلاته لألمٍ يشعر به وإنما قطعها استشعارًا بمسئولية الحراسة التى كُلِّف بها، وهذا درس بليغ فى مفهوم العبادة والجهاد(٢).

(هـ) مكان الحراسة استراتيجي: اختار النبى ﷺ فم الشعب مكان إقامة الحرس، وكان هذا الاختيار فى غاية التوفيق؛ لأنه المكان الذى يتوقع العدو منه لمهاجمة المعسكر.

(و) قرب مهجع الحرس من الحارس: ولذلك استطاع الحارس أن يوقظ أخاه النائم، ولو كان المهجع بعيدًا عن الحارس لما تمكن من إيقاظ أخيه، وبالتالى يحدث ما لا تُحمَد عُقباه(٣).

قصة جمل جابر بن عبد الله رضي الله عنه

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «خرجت مع رسول الله ﷺ فى غزاة، فأبطأ بى جملى، فأتى علىَّ رسول الله ﷺ، فقال لى: «**يا جابر**» قلت: نعم.

(١) انظر: غزوة الأحزاب لأبى فارس، (ص٣٠، ٣١).

(٢) انظر: السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية، (ص٤٢٨).

(٣) انظر: غزوة الأحزاب لأبى فارس، (ص٣٢).

قال: «ما شأنك»، قلت: أبطأ بى جملى وأعيا[١] فتخلفت، فنزل فحجنه[٢] بمِحْجَنِه ثم قال: «اركب» فركبت فلقد رأيتنى أكُفّه عن رسول الله ﷺ فقال: «أتزوجت؟» فقلت: نعم، فقال: «أَبِكرًا أم ثيبًا؟» فقلت: بل ثيب. قال: «فهلّا جارية تلاعبها وتلاعبك؟» فقلت: إن لى أخوات، فأحببت أن أتزوج امرأة تجمعهن، وتمشطهن، وتقوم عليهن. قال: «أما إنك قادم، فإذا قدمت فالكَيَس الكَيَس!» ثم قال: «أتبيع جملك؟» قلت: نعم، فاشتراه منى بأوقية.

ثم قدم رسول الله ﷺ، وقدمت بالغداة، فجئت المسجد فوجدته على باب المسجد، فقال: «الآن حين قدمت ؟» قلت: نعم، قال: «فَدَعْ جملك، وادخل فصلِّ ركعتين» قال: فدخلت فصليت، ثم رجعت. فأمر بلالاً أن يزن لى أوقية. فوزن لى بلال، فأرجح فى الميزان. قال فانطلقت. فلما وليت قال: «ادعُ لى جابرًا» فدُعيت. فقلت: الآن يرد علىَّ الجمل ولم يكن شىء أبغض إلىَّ منه. فقال: «خذ جملك ولك ثمنه»[٣].[٤]

أثر هذه الغزوة

كان لهذه الغزوة أثر فى قذف الرعب فى قلوب الأعراب القُساة، وإذا نظرنا إلى تفاصيل السرايا بعد هذه الغزوة؛نرى أن هذه القبائل من غطفان

(١) أعيا: عجز عن السير.

(٢) حجنه بمحجنه: المحجن: العصا فيها تعقيف يلتقط بها الراكب ما سقط منه.

(٣) أخرجه البخارى (٢٠٩٧) البيوع، ومسلم (٧١٥) (٥٧) الرضاع.

(٤) ولم يأت فى لفظ الصحيحين التصريح باسم الغزوة التى حصلت فيها قصة جابر، ولكن جاء من نفس الطريق طريق وهب بن كيسان عن جابر التصريح بأن الغزوة هى غزوة ذات الرقاع، وذلك عند ابن هشام فى السيرة (٢/ ٢٠٦ ـ ٢٠٧)، عن ابن إسحاق حدثنى وهب بن كيسان عن جابر...، وهذا سند صحيح، لأن ابن إسحاق صرح بالتحديث، فزالت عنه شبهة التدليس.

لم تجترئ أن ترفع رأسها بعد هذه الغزوة، بل استكانت شيئًا فشيئًا حتى استسلمت، بل وأسلمت، حتى نرى عدة قبائل من هذه الأعراب تقوم مع المسلمين فى فتح مكة، وتغزو حُنينًا، وتأخذ من غنائمها، ويبعث إليها المتصدقون فتعطى صدقاتها بعد الرجوع من غزوة الفتح، وبهذا تم كسر الأجنحة الثلاثة التى كانت ممثلة فى الأحزاب وساد المنطقة الأمن والسلام، واستطاع المسلمون بعد ذلك أن يسدوا بسهولة كل خلل وثلمة حدثت فى بعض المناطق من بعض القبائل، بل بعد هذه الغزوة بدأت التمهيدات لفتوح البلدان والممالك الكبيرة؛ لأن داخل البلاد كانت الظروف قد تطورت لصالح الإسلام والمسلمين[١].

---

(١) الرحيق المختوم (ص٤١٢).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

سرية مؤتة

سرية ذات السلاسل

سرية مؤتة(١)

۞ وها هى سرية مؤتة التى هى من أهم السرايا التى أرسلها رسول الله ﷺ... ولكن قبل أن أذكر تفاصيل تلك السرية فتعالوا بنا لنعرف تاريخها وأسبابها.

أسباب سرية مؤتة

أشعل عرب الشام فتيل الصراع بين المسلمين والبيزنطيين، فقد دأبت قبيلة كلب من قضاعة التى كانت تنزل على دومة الجندل على مضايقة المسلمين، وحاولت أن تفرض عليهم نوعًا من الحصار الاقتصادى عن طريق إيذائها للتجار الذين كانوا يحملون السلع الضرورية من الشام إلى المدينة، ولذلك غزا رسول الله ﷺ قبيلة كلب بدومة الجندل سنة (٥هـ) لكنه وجدهم قد تفرقوا، كما أن رجالًا من جُذام ولخم قطعوا الطريق على دحية بن خليفة الكلبى عند مروره بحسمى بعد إنجازه لمهمة أناطها به رسول الله ﷺ واستلبوا كل ما معه، فكانت سرية زيد بن حارثة إلى حسمى فى سنة ٦هـ، ويُضاف إلى ذلك أيضًا ما قامت به قبيلتا مذحج وقضاعة من اعتداء على زيد بن حارثة وصحبه فى العام المذكور (٦هـ)، وذلك عندما ذهبوا إلى وادى القرى فى بعثة بغرض الدعوة إلى الله،.... وبعد صلح الحديبية أخذ هذا المسلك العدوانى يأخذ منحنى أكثر خطورة(٢)، بعد

(١) ذهب بعض العلماء إلى أنها سرية وليست غزوة لأن النبى ﷺ لم يخرج معهم فيها ولكن عامة علماء السيرة أطلقوا عليها اسم الغزوة لكثرة عدد المسلمين فيها ولما كان لها من أهمية بالغة.

(٢) انظر: المسلمون والروم فى عصر النبوة/ عبد الرحمن أحمد سالم، (ص٨٧).

مقتل الحارث بن عمير الأزدى رسول رسول الله إلى حاكم (بصرى) التابع لحاكم الروم، فقد قام شُرحبيل بن عمرو الغسانى بضرب عنق رسول رسول الله ﷺ، ولم تجرِ العادة بقتل الرسل والسفراء، كما أن الحارث بن أبى شمر الغسانى حاكم دمشق أساء استقبال مبعوث رسول الله وهدد بإعلان الحرب على المدينة، ثم حدث بعد ذلك بما يزيد قليلًا عن العام أن بعث رسول الله سرية بقيادة عمرو بن كعب الغفارى ليدعو إلى الإسلام فى مكان يقال له (ذات أطلاح) فلم يستجب أهل المنطقة إلى الإسلام وأحاطوا بالدعاة من كل مكان وقاتلوهم حتى قتلوهم جميعًا إلا أميرهم، كان جريحًا فتحامل على جرحه حتى وصل إلى المدينة فأخبر رسول الله ﷺ[١].

وقد قام نصارى الشام بزعامة الإمبراطورية الرومانية بالاعتداءات على من يعتنق الإسلام أو يفكر بذلك، فقد قتلوا والى مَعَان حين أسلم، وقتل والى الشام مَن أسلم من عرب الشام[٢].

كانت هذه الأحداث المؤلمة وبخاصة مقتل سفير رسول الله الحارث ابن عمير الأزدي، مُحركة لنفوس المسلمين، وباعثًا ليضعوا حدًّا لهذه التصرفات النصرانية العدوانية، ويثأروا لإخوانهم فى العقيدة الذين سُفكت دماؤهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ونبينا محمد رسول الله ﷺ[٣].

كما أن تأديب عرب الشام التابعين للدولة الرومانية والذين دأبوا على استفزاز المسلمين وتحدِّيهم وارتكاب الجرائم ضد دعاتهم أصبح هدفًا مهمًّا، لأن تحقيق هذا الهدف معناه فرض هيبة الدولة الإسلامية فى تلك

(١) انظر: تاريخ الطبرى (٣/ ١٠٣).

(٢) انظر: خاتم النبيين (٢/ ١١٣٩) نقلا عن الصراع مع الصليبيين لأبى فارس، (ص٢٠).

(٣) انظر: الصراع مع الصليبيين لأبى فارس، (ص٢٠).

المناطق بحيث لا تتكرر مثل هذه الجرائم فى المستقبل، وبحيث يأمن الدعاة المسلمون على أنفسهم ويأمن التجار المترددون بين الشام والمدينة من كل أذى يحول دون وصول السلع الضرورية إلى المدينة(١).

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: وهى بأدنى البلقاء من أرض الشام، وكانت فى جمادى الأولى سنة ثمان، وكان سببها أن رسول الله ﷺ بعث الحارث بن عمير الأزدى أحد بنى لهب بكتابه إلى الشام إلى ملك الروم أو بُصرى فعرض له شرحبيل بن عمرو الغسانى فأوثقه رباطًا ثم قدَّمه فضرب عنقه، ولم يُقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره(٢)، وكان قتل السفراء والرسل من أشنع الجرائم، يساوى بل يزيد على إعلان حالة الحرب، فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ حين نُقلت إليه الأخبار، فجهز إليهم جيشًا قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، وهو أكبر جيش إسلامى، لم يجتمع قبل ذلك إلا فى غزوة الأحزاب.

تعيين القادة على جيش مؤتة

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «أمَّر رسول الله ﷺ فى غزوة مؤتة زيد بن حارثة فقال رسول الله ﷺ: **«إن قُتل زيد فجعفر، وإن قُتل جعفر فعبد الله بن رواحة، قال عبد الله: كنت فيهم فى تلك الغزوة، فالتمسنا جعفر بن أبى طالب فوجدناه فى القتلى، ووجدنا ما فى جسده بضعًا وتسعين من طعنة ورمية»**(٣).

وقد أمر رسول الله ﷺ الجيش الإسلامى أن يأتوا المكان الذى قُتل فيه

---

(١) انظر: المسلمون والروم فى عصر النبوة، (ص٨٩).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٣٨١).

(٣) أخرجه البخارى (٤٢٦١) المغازى/ باب: غزوة مؤتة.

الحارث بن عمير الأزدى رضي الله عنه وأن يدعوا من كان هناك إلى الإسلام فإن أجابوا فبها ونعمت، وإن أبوا استعينوا بالله عليهم وقاتلوهم(١).

وقد زوّد الرسول ﷺ الجيش فى هذه السرية وغيرها من السرايا بوصايا تتضمن آداب القتال فى الإسلام(٢)، فقد أوصى رسول الله ﷺ أصحابه بقوله: «**أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيرًا، اغزوا باسم الله، فى سبيل الله مَن كفر بالله، لا تغدروا ولا تقتلوا وليدًا، ولا امرأة ولا كبيرًا فانيًا، ولا منعزلاً بصومعة، ولا تقربوا نخلًا، ولا تقطعوا شجرًا، ولا تهدموا بناءً، وإذا لقيتم عدوكم من المشركين فادعوهم إلى إحدى ثلاث: فإما الإسلام، وإما الجزية، وإما الحرب...**»(٣).

أهل المدينة يودعون الجيش

لما تجهز الجيش الإسلامى وأتم استعداده، توجه رسول الله ﷺ والمسلمون يودعون الجيش، ويرفعون أَكُفَّ الضراعة لله عز وجل أن ينصر إخوانهم المجاهدين،... لقد سلّموا عليهم وودعوهم بهذا الدعاء: دفع الله عنكم وردّكم صالحين غانمين(٤).

فلما وُدِّع عبد الله بن رواحة مع مَن وُدِّع من أمراء رسول الله ﷺ بكى، فقالوا: ما يبكيك يا ابن رواحة؟ فقال: أما والله ما بى حب الدنيا ولا صبابة بكم، ولكنى سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله عز وجل، يذكر فيها

(١) انظر: السيرة الحلبية (٢/ ٧٨٧).

(٢) انظر: الصراع مع الصليبيين، (ص٢١).

(٣) انظر: المغازى (٢/ ٧٥٧،٧٥٨).

(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٢١).

النار ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ [١] فلست أدرى كيف لى بالصدر بعد الورود. فقال المسلمون: صحبكم الله ودفع عنكم، وردَّكم إلينا صالحين، فقال عبد الله بن رواحة:

لكنى أسأل الرحمن مغفرة ... وضربة ذات فرغ [٢] تقذف الزَّبَدا [٣]
أو طعنة بيدى حران مجهزة [٤] ... بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا [٥]
حتى يقال إذا مروا على جَدَثى [٦] ... أرشده الله من غازٍ وقد رشدا [٧]

تخلف عبد الله بن رواحة لحضور صلاة الجمعة

۞ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «بعث رسول الله ﷺ ابن رواحة فى سرية فوافق ذلك يوم الجمعة، قال فقدم أصحابه وقال: أتخلف فأصلى مع النبى ﷺ الجمعة، ثم ألحقهم، قال: فلما رآه رسول الله ﷺ قال: **«ما منعك أن تغدو مع أصحابك؟»** قال: أردت أن أصلى معك الجمعة قال: فقال رسول الله ﷺ: **«لو أنفقت ما فى الأرض ما أدركت غدوتهم»** [٨].

---

(١) سورة مريم: الآية: (٧١).

(٢) ذات فرغ: يريد طعنة واسعة.

(٣) الزَّبَد: أصله ما يعلو الماء إذا غلا، وأراد هنا ما يعلو الدم الذى ينفجر من الطعنة.

(٤) مُجهزة: سريعة القتل.

(٥) تنفذ الأحشاء: تخرقها وتصل إليها.

(٦) الجَدَث: القبر.

(٧) ابن هشام فى السيرة: والبيهقى فى الدلائل (٤/ ٣٥٨ ـ ٣٦٠)، والطبرانى فى التاريخ: (٣/ ١٠٧، ٢/ ٣٧٣ ـ ٣٧٤)، عن عروة مرسلاً، ورجاله ثقات، وقال الهيثمى فى المجمع: (٦/ ١٥٧ ـ ١٥٨)، رواه الطبرانى، ورجاله ثقات إلى عروة وله شاهد من الحديث الذى بعده.

(٨) أخرجه أحمد (١/ ٢٥٦) وللحديث شاهد بإسنادٍ جيد.

ثم إن القوم تهيأوا للخروج فأتى عبد الله بن رواحة رسول الله ﷺ يودعه فقال:

يثبتُ اللهُ ما أتاكَ من حُسنٍ تثبيتَ موسى ونصرًا كالذى نُصروا

إنى تفرّستُ فيكَ الخيرَ نافلةً فراسةً خالفتهم فى الذى نظروا

أنتَ الرسولُ فمن يُحرم نوافله والوجه منهُ فقد أزرى به القدرُ

ثم خرج القوم وخرج رسول الله ﷺ يشيعهم حتى إذا ودعهم وانصرف عنهم قال عبد الله بن رواحة:

خلف السلام على امرئ ودَّعته فى النخل غير مشيع وخليلِ

ثم مضوا حتى نزلوا (معان) من أرض الشام فبلغهم أن هرقل فى باب من أرض البلقاء فى مائة ألف من الروم، وقد اجتمعت إليهم المستعربة من لخم وجذام وبلقين وبهرام وبلى فى مائة ألف، .. عليهم رجل يلى أَخْذ رايتهم يقال له ملك بنى زانة، فلما بلغ ذلك المسلمين قاموا بمعان ليلتين ينظرون فى أمرهم وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا فإما أن يمدنا وإما أن يأمرنا بأمره فنمضى له، فشجَّع عبد الله بن رواحة الناس وقال: يا قوم والله إن الذى تكرهون لَلذى خرجتم له تطلبون (الشهادة)، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة إنما نقاتلهم بهذا الدين الذى أكرمنا الله به فانطلقوا فإنما هى إحدى الحُسنيين: إما ظهور وإما شهادة[1].

۞ وكان لهذه الكلمة الملتهبة أثرها، فاختفت من صفوف المسلمين مشاعر التردد، وقرروا القتال، مهما كانت النتائج.

---

(١) ابن هشام (٤/ ٩: ١١) بتصرف.

وابن رواحة شاعر حادّ العاطفة، وقد أحس منذ خروجه أن الاستشهاد مُقبل عليه فهو يتهيأ له بقلبه ولسانه، وقد تكون الحكمة العسكرية فى تصرف غير ما أوحى به، غير أن المسلمين ما أن سمعوا حديث الفداء والموت فى سبيل الله حتى جاشت أنفسهم محبة الآخرة، ثم ذكروا أنهم نُصروا فى معارك سابقة باستعداد أقل من عدوهم، فأقدموا مطمئنين[(١)].

هكذا يصنع الإيمان

إن أهم ما يثير الدهشة، فى هذه الغزوة، تلك النسبة الكبيرة من الفرق بين عدد المسلمين فيها وعدد مقاتليهم من الروم والمشركين العرب!.. لقد رأيت أن عدد المشركين ومَن معهم من الروم قد بلغ ما يقرب من مائتى ألف مقاتل!.. على حين أن عدد المسلمين لم يتجاوز ثلاثة آلاف. ومعنى ذلك أن عدد المشركين والروم قد بلغوا ما لا يقل عن خمسين ضعفًا لعدد المسلمين!.. وهى نسبة إذا ما تصورتها، تجعل رقعة الجيش الإسلامى، أمام حشود الروم والمشركين، أشبه ما تكون بساقية ماء صغيرة بالنسبة إلى بحرٍ خِضم مائج، هذا إلى ما كان قد جُهِّز به جيش الأعداء من العدة والذخيرة والسلاح ومظاهر الأُبهة والبذخ، على حين أن المسلمين كانوا يعانون من القلة والفقر!..

ومكان الدهشة فى الأمر، أن تجد المسلمين بعد هذا كله ـ وهم سرية ليس فيها رسول الله ﷺ ـ مقبلين غير مدبرين، لا يقيمون لكل هذه الحشود الهائلة أمامهم وزنًا، مع أنها ـ فيما يبدو ويظهر ـ لو التفَّتْ من حولهم وطوقتهم من جهاتهم، لانقلبوا إلى ما يشبه نواة صغيرة فى جوف قطعة أرض سوداء!..

---

(١) فقه السيرة للغزالى (ص٤١٠).

ثم إن مكان الدهشة بعد ذلك، أن يصمد المسلمون لقتال هذا اليمّ المتلاطم. يُقتل أميرهم الأول، ثم الثانى، فالثالث، وهم يقتحمون أبواب الشهادة فى نشوة بالغة وإقبالٍ عجيب، حتى يدخل الرعب الإلهى فى أفئدة كثير من المشركين، دون أن يكون له سبب ظاهر، فينكشفون عن مواقعهم ويدبر منهم الكثير، وتُقتل منهم خلائق لا تكادُ تُحصَى!..

ولكن الدهشة كلها تزول، والعجب ينتهى، إذا تذكرنا ما يفعله الإيمان بالله، والاعتماد عليه، واليقين بوعده[١].

الجيش الإسلامى يتحرك نحو العدو

وحينئذ بعد أن قضى الجيش الإسلامى ليلتين فى معان، تحركوا إلى أرض العدو، حتى لقيتهم جموع هرقل بقرية من قرى البلقاء يقال لها: «مشارف»، ثم دنا العدو، وانحاز المسلمون إلى مؤتة، فعسكروا هناك وتعبأوا للقتال، فجعلوا على ميمنتهم قطبة ابن قتادة العذرى، وعلى الميسرة عبادة بن مالك الأنصارى.

بداية القتال... وتناوب القواد

وهناك فى مؤتة التقى الفريقان، وبدأ القتال المرير،... ثلاثة آلاف رجل يواجهون هجمات مائتى ألف مقاتل... معركة عجيبة تشاهدها الدنيا بالدهشة والحيرة، ولكن إذا هبَّت ريح الإيمان جاءت بالعجائب.

أخذ الراية زيد بن حارثة - حِبُّ رسول الله ﷺ - وجعل يقاتل بضراوة بالغة، وبسالة لا يوجد لها نظير إلا فى أمثاله من أبطال الإسلام، فلم يزل

(١) فقه السيرة النبوية/ (ص: ٢٦٠: ٢٦١).

يقاتل ويقاتل حتى شاط فى رماح القوم، وخرَّ صريعًا.

وحينئذ أخذ الراية جعفر بن أبى طالب، وطفق يقاتل قتالاً منقطع النظير، حتى إذا أرهقه القتال اقتحم عن فرسه الشقراء فعقرها، ثم قاتل حتى قُطعت يمينه، فأخذ الراية بشماله، ولم يزل بها حتى قُطعت شماله، فاحتضنها بعضديه، فلم يزل رافعًا إياها حتى قُتل. يقال: إن روميًا ضربه ضربة قطعته نصفين، وأثابه الله بجناحيه جناحين فى الجنة، يطير بهما حيث يشاء، ولذلك سُمِّى بجعفر الطيار، وبجعفر ذى الجناحين(١).

ولما قُتل جعفر بعد القتال بمثل هذه الضراوة والبسالة أخذ الراية عبد الله بن رواحة، وتقدم بها، وهو على فرسه، فجعل يستنزل نفسه، ويتردد بعض التردد حتى حاد حيدة، ثم قال:

أقسمتُ يا نفسى لتنزلنّهْ ... طائعة أو لتُكرهنّهْ

ما لى أراك تكرهين الجنّهْ ... إن أجلب الناس وشدوا الرّنهْ

لطالما قد كنتِ مُطمئنهْ ... هلْ أنتِ إلا نُطفةٌ فى شنّهْ

وقال عبد الله بن رواحة:

يا نفس إلا تُقتلى تموتى ... هذا حِمامُ الموتِ قد صليتِ

وما تمنيتِ فقد لقيتِ ... إن تفعلى فعلهما هُديتِ

ثم نزل فلما نزل أتاه ابن عمٍّ له بعظم من لحم فقال: اشدُد بهذا صُلبك فإنك قد لقيت فى أيامك هذه ما قد لقيت، فأخذه من يده فانتهش منه نهشة

(١) أخرجه البخارى (٣٧٠٩) عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان إذا سلَّم على ابن جعفر قال: «السلام عليك يا ابن ذى الجناحين»، وقد صح مرفوعًا إثبات الجناحين لجعفر انظر «فتح البارى» [٧/ ٧٦].

ثم سمع الحُطمة فى ناحية الناس فقال: وأنتِ فى الدنيا ـ يقولها لنفسه ـ ثم ألقاه من يده ثم أخذ سيفه فقاتل حتى قُتل، فأخذ الراية ثابت بن أرقم أخو بنى عجلان وقال يا أيها الناس اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، فلما أخذ الراية دافع القوم ثم انحاز حتى انصرف»(١).

وأصبحت الخطة الأساسية المنوطة بخالد فى تلك الساعة العصيبة من القتال، أن ينقذ المسلمين من الهلاك الجماعي، فبعد أن قدر الموقف واحتمالاته المختلفة قدرًا دقيقًا، ودرس ظروف المعركة درسًا وافيًا وتوقع نتائجها، اقتنع بأن الانسحاب بأقل خسارة ممكنة هو الحل الأفضل، فقوة العدو تبلغ (٦٦) ضعفًا لقوة المسلمين، فلم يبقَ أمام هؤلاء إلا الانسحاب المنظم وعلى هذا الأساس وضع خالد الخطة التالية:

(أ) الحيلولة بين جيش الروم وجيش المسلمين، ليضمن لهذا الأخير سلامة الانسحاب.

(ب) لبلوغ هذا الهدف، لا بد من تضليل العدو بإيهامه أن مددًا وَرَد إلى جيش المسلمين فيخفف من ضغطه وهجماته، ويتمكن المسلمون من الانسحاب،... وصمد خالد حتى المساء عملًا بهذه الخطة، وغيَّر فى ظلام الليل مراكز المقاتلين فى جيشه، فاستبدل الميمنة بالميسرة، ومقدمة القلب بالمؤخرة، وفى أثناء عملية الاستبدال اصطنع ضجة صاخبة وجلبة قوية، ثم حمل على العدو، عند الفجر، بهجمات سريعة متتالية وقوية ليُدخل فى روعه إن إمدادات كثيرة وصلت إلى المسلمين(٢).

---

(١) قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٦/ ١٥٩، ١٦٠): رواه الطبرانى ورجاله ثقات.

(٢) البداية والنهاية (٤/ ٢٤٧)، الواقدى (٢/ ٧٦٤).

ونجحت الخطة؛ إذ بدا للعدو صباحًا أن الوجوه والرايات التى تواجهه جديدة لم يرها من قبل، وأن المسلمين يقومون بهجمات عنيفة، فأيقن أنهم تلقوا إمدادات، وأن جيشًا جديدًا نزل إلى الميدان، وكان البلاء الحسن الذى أبلاه المسلمون قد فَتَّ فى عَضُد الروم وحلفائهم، فأدركوا أن إحراز نصرٍ حاسم ونهائى على المسلمين أمر مستحيل، فتخاذلوا وتقاعسوا عن متابعة الهجوم، وضعف نشاطهم واندفاعهم، فخفَّ الضغط عن جيش المسلمين، وانتهز خالد الفرصة فباشر الانسحاب، وكانت عملية التراجع التى قام بها خالد فى أثناء معركة (مؤتة) من أكثر العمليات فى التاريخ العسكرى مهارة ونجاحًا، بل إنها تتفق وتتلائم مع التكتيك الحديث للانسحاب، فقد عمد خالد إلى سحب الجناحين بحماية القلب، ولما أصبح الجناحان بمنأى عن العدو، وفى مأمن منه، عمد إلى سحب القلب بحماية الجناحين، إلى أن تمكن وضمن سلامة الانسحاب كُليًّا[1].

ويقول المؤرخون: إن خسارة المسلمين لم تتعدَّ الاثنى عشر قتيلًا فى هذه المعركة، وأن خالدًا قال: (لقد انقطع فى يدى يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقى إلا صفيحة يمانية)[2].

ويمكن القول إن خالدًا بخطته تلك، قد أنقذ الله المسلمين به من هزيمة ماحقة وقتل مُحقق، وأن انسحابه كان قمة النصر بالنسبة إلى ظروف المعركة، حيث يكون الانسحاب فى ظروف مماثلة أصعب حركات القتال، بل أجداها وأنفعها[3].

---

(١) انظر: معارك خالد بن الوليد، د. ياسين سويد، (ص١٧٣).

(٢) البخاري، كتاب المغازى (٥/ ١٠٣) رقم (٤٢٦٦).

(٣) انظر: معارك خالد بن الوليد، (ص١٧٥).

ذكاء وفطنة من خالد رضي الله عنه

لقد نجح خالد فى الصمود أمام جيش الرومان طول النهار، فى أول يوم من القتال، وكان يشعر بمسيس الحاجة إلى مكيدة حربية، تُلقى الرعب فى قلوب الرومان؛ حتى ينجح فى الانحياز بالمسلمين من غير أن يقوم الرومان بحركات المطاردة، فقد كان يعرف جيدًا أن الإفلات من براثنهم صعب جدًا لو انكشف المسلمون، وقام الرومان بالمطاردة.

فلما أصبح اليوم الثانى غيَّر أوضاع الجيش، وعبَّأه من جديد، فجعل مقدمته ساقة، وميمنته ميسرته، وعلى العكس، فلما رآهم الأعداء أنكروا حالهم، وقالوا جاءهم مدد فرُعبوا وصار خالد ـ بعد أن تراءى الجيشان، وتناوشا ساعة ـ يتأخر بالمسلمين قليلاً قليلاً، مع حفظ نظام جيشه، ولم يتبعهم الرومان ظنًّا منهم أن المسلمين يخدعونهم، ويحاولون القيام بمكيدة ترمى بهم فى الصحراء.

وهكذا انحاز العدو إلى بلاده، ولم يفكر فى القيام بمطاردة المسلمين، ونجح المسلمون فى الانحياز سالمين، حتى عادوا إلى المدينة[(١)].

النبى ﷺ ينعى القادة الثلاثة للناس

عن أنس رضي الله عنه: «أن النبى ﷺ نعى زيدًا وجعفرًا وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم فقال: «**أخذ الراية زيد فأصيب ثم أخذ جعفر فأصيب ثم أخذ ابن رواحة فأصيب ـ وعيناه تذرفان ـ حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم**»[(٢)].

(١) فتح البارى (٧/ ٥١٣ : ٥١٤) ـ زاد المعاد (٢/ ١٥٦).

(٢) أخرجه البخارى (٧/ ٥٨٥) المغازى.

معجزة للنبى ﷺ ووسام على صدر (خالد)

لقد رأيت أن النبى ﷺ نعى لأصحابه زيدًا وجعفر وابن رواحة وعيناه تذرفان وكان بين رسول الله ﷺ وبينهم مسافات شاسعة بعيدة!..

وهذا يدل على أن الله تعالى قد زوى لرسوله الأرض، فأصبح يرى من شأن المسلمين الذين يقاتلون على مشارف الشام، ما حدَّث أصحابه به، وهى من جملة الخوارق الكثيرة التى أكرم الله بها حبيبه ﷺ.

كما يدل هذا الحديث نفسه على مدى شفقته على أصحابه، فلم يكن شيئًا قليلاً أن يبكى رسول الله ﷺ وهو واقف فى أصحابه يحدثهم عن خبر هؤلاء الشهداء. وأنت تعلم أن بكاءه ﷺ عليهم، لا يتنافى مع الرضى بقضاء الله تعالى وقدره فإن العين لتدمع والقلب ليحزن - كما قال عليه الصلاة والسلام - وتلك رقة طبيعية ورحمة فطر الله الإنسان عليهما.

وحديث نعيه ﷺ لهؤلاء الشهداء الثلاثة، يسجل فضلاً خاصًا لخالد بن الوليد رضي الله عنه، فقد قال لهم فى آخر حديثه: «**حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح عليهم**». وتلك أول وقعة يحضرها خالد رضي الله عنه فى صف المسلمين، إذ لم يكن قد مضى على إسلامه إلا مدة يسيرة. ومن هنا تعلم أن الرسول ﷺ، هو الذى سجل لقب سيف الله، لخالد رضي الله عنه.

ولقد أبلى رضي الله عنه، فى هذه الغزوة بلاءً رائعًا... روى البخارى أن خالدًا رضي الله عنه قال: «لقد انقطعت فى يدى يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقى فى يدى إلا صفيحة يمانية». قال ابن حجر: وهذا الحديث يدل على أن المسلمين قد قتلوا من المشركين كثيرًا[١].

---

(١) فقه السيرة النبوية (ص: ٢٦٢).

ولما دنا الجيش من حول المدينة، تلقَّاهم رسول الله ﷺ والمسلمون، ولقيهم الصبيان ينشدون، ورسول الله ﷺ مُقبل مع القوم على دابة فقال: خذوا الصبيان واحملوهم، وأعطوني ابن جعفر، فأُتى بعبد الله، فأخذه فحمله على يديه، وجعل الناس يحثون على الجيش التراب ويقولون: يا فُرَّار، أفررتم فى سبيل الله، ويقول رسول الله ﷺ: «**ليسوا بالفُرار، ولكنهم الكُرَّار إن شاء الله تعالى**»(١).

وإن الإنسان ليعجب من هذه التربية النبوية التى صنعت من الأطفال الصغار، رجالاً وأبطالاً، يرون العودة من المعركة دون شهادة فى سبيل الله، فرارًا من سبيل الله، لا يُكافَأون عليه إلا بحثو التراب فى وجوههم، فأين شبابنا المتسكعون فى الشوارع، من هذه النماذج الرفيعة من الرجولة الفذة المبكرة؟... ولن تستطيع الأمة أن ترتفع إلى هذه الأهداف النبيلة والقمم الشوامخ إلا بالتربية الإسلامية الجادة القائمة على المنهاج النبوى الكريم(٢).

أثر المعركة

وهذه المعركة وإن لم يحصل المسلمون بها على الثأر، لكنها كانت كبيرة الأثر لسمعة المسلمين، إنها ألقت العرب كلها فى الدهشة والحيرة، فقد كانت الرومان أكبر وأعظم قوة على وجه الأرض، وكانت العرب تظن أن معنى جلادها هو القضاء على النفس، فكان لقاء هذا الجيش الصغير - ثلاثة آلاف مقاتل - مع ذلك الجيش الضخم العرمرم الكبير - مائتا ألف

(١) انظر: السيرة النبوية للندوي، (ص٣٢٨)، تاريخ الذهبي، (ص٤٩١).

(٢) انظر: دروس وعبر من الجهاد النبوي، (ص٣٥٨).

مقاتل ـ ثم الرجوع عن الغزو من غير أن تلحق به خسارة تُذكر، كان كل ذلك من عجائب الدهر، وكان يؤكد أن المسلمين من طرازٍ آخر غير ما أَلِفَته العرب وعرفته، وأنهم مُؤيَّدون ومنصورون من عند الله، وأن صاحبهم، رسول الله حقًا، ولذلك نرى القبائل اللدودة التى كانت لا تزال تثور على المسلمين جنحت بعد هذه المعركة إلى الإسلام، فأسلمت بنو سُليم وأشجع وغطفان وذبيان وفزارة وغيرها.

وكانت هذه المعركة بداية اللقاء الدامى مع الرومان، فكانت توطئة وتمهيدًا لفتوح البلدان الرومانية، واحتلال المسلمين الأراضى البعيدة النائية[1].

فضيلة الأمراء الثلاثة

عن أبى أُمامة الباهلى رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**بينما أنا نائم إذ أتانى رجلان، فأخذا بضبعيَّ، فأتيا بى جبلاً وعرًا، فقالا: اصعد، فقلت: لا أطيقه. فقالا: إنا سنُسهله لك. قال: فصعدت حتى إذا كنت فى سواء الجبل** ـ فذكر الحديث وفى آخره ـ **ثم أشرفا بى شرفًا، فإذا بنفر ثلاثة يشربون من خمرٍ لهم فقلت: مَن هؤلاء؟ قالا: هذا جعفر بن أبى طالب وزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة، ثم أشرفا شرفًا آخر فإذا أنا بنفرٍ ثلاثة، فقلت: من هؤلاء؟ قالا: هذا إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام وهم ينتظرونك**»[2].

---

(١) الرحيق المختوم (ص: ٤٢٣: ٤٢٤).

(٢) أخرجه الطبرانى برقم: (٧٦٦٦، ٧٦٦٧)، وابن خزيمة برقم: (١٩٨٦)، والحاكم مختصرًا: (١/ ٤٣٠)، والبيهقى: (٤/ ٢١٦)، والنسائى فى الكبرى كما فى التحفة: (٤/ ١٦٦)، وابن حبان رقم: (١٨٠٠) موارد، وصححه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبى، وقال الهيثمى فى المجمع: (١/ ٧٦ ـ ٧٧) رواه الطبرانى فى الكبير ورجاله رجال الصحيح.

منزلة زيد بن حارثة رضي الله عنه

عن بريدة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**دخلت الجنة، فاستقبلتني جارية شابة، فقلت: لمن أنتِ؟ قالت: أنا لزيد بن حارثة**»(١).

جعفر يطير بجناحيه في الجنة

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**دخلت الجنة البارحة فنظرت فيها، فإذا جعفر يطير مع الملائكة، وإذا حمزة متكئ على سريره**»(٢).

«وكان ابن عمر إذا حيَّا ابن جعفر قال: السلام عليك يا ابن ذي الجناحين»(٣).

قال ابن كثير: «لأن الله تعالى عوَّضه عن يديه بجناحين في الجنة»(٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**رأيت جعفر بن أبي طالب مَلَكًا يطير في الجنة مع الملائكة بجناحين**»(٥).

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**رأيت ابن أبي طالب ملكًا في الجنة، مضرجة قوادمه بالدماء، يطير في الجنة**»(٦).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**مرَّ بي جعفر الليلة في ملأٍ من**

---

(١) رواه الروياني والضياء وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٣٦٦).

(٢) رواه الطبراني في الكبير والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٣٦٣).

(٣) رواه البخاري (٣٧٠٩) المغازي.

(٤) البداية والنهاية لابن كثير (٣/ ٢٥٦).

(٥) رواه الترمذي والحاكم في المستدرك، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٤٦٥).

(٦) أخرجه الحاكم عن ابن عباس وصححه، وكذلك هو في الاستيعاب، وقال الحافظ في الفتح: أخرجه الحاكم والطبراني عن ابن عباس، وإسناده جيد.

الملائكة، وهو مُخضَّب الجناحين بالدم، أبيض الفؤاد»[١].

وقال عبد الله بن جعفر: قال لى رسول الله ﷺ: «هنيئًا لك!! أبوك يطير مع الملائكة فى السماء»[٢].

وعن ابن عباس مرفوعًا: «إن جعفرًا يطير مع جبريل وميكائيل، له جناحان عوَّضه الله من يديه»[٣].

حزن النبى ﷺ على جعفر (رضي الله عنه)

وهنا يذهب الحبيب ﷺ إلى أسماء (رضي الله عنها) ليبلغها خبر استشهاد زوجها.. وياله من مشهد يجعل القلوب تبكى الدماء بدل الدموع.

۞ عن أسماء ابنة عُميس، قالت: لما أصيب جعفر وأصحابه دخل علىَّ رسول الله ﷺ وقد دبغت أربعين مِنّا ـ ويقال منيئة ـ وعجنت عجينى، وغسلت بنىَّ ودهنتهم ونظفتهم، قالت: فقال لى رسول الله ﷺ: «**ائتنى ببنى جعفر**»، قالت: فأتيته بهم، فشمَّهم وذرفت عيناه، فقلت: يا رسول الله، بأبى أنت وأمى، ما يُبكيك؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شىء؟ قال: «**نعم، أُصيبوا هذا اليوم**». قالت: فقمت أصيح، واجتمعت إلىَّ النساء، وخرج رسول الله ﷺ إلى أهله، فقال: «**لا تغفلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعامًا فإنهم قد شُغلوا بأمر صاحبهم**»[٤].

۞ وعن عبد الله بن جعفر ـ ابن الشهيد ـ قال: جاءنا النبى ﷺ، بعد ثلاث

(١) قال الحافظ فى الفتح (٧/ ٩٦): أخرجه الحاكم بإسناد صحيح على شرط مسلم.

(٢) قال الحافظ فى الفتح (٧/ ٩٦): أخرجه الطبرانى بإسناد حسن.

(٣) قال الحافظ فى الفتح (٧/ ٩٦) وإسناد هذه جيد.

(٤) رواه أبو داود وابن ماجه والترمذى وذكره الألبانى فى صحيح ابن ماجه وقال: حديث حسن.

من موت جعفر فقال: «**لا تبكوا على أخى بعد اليوم، وادعوا لى بنى أخى**».

قال عبد الله: فجيء بنا كأننا أفراخ. فقال: ادعوا إلىَّ الحلاق. فجيء بالحلاق فحلق رؤوسنا، ثم قال الرسول عليه الصلاة والسلام ـ مداعبًا: «**أما محمد فشبيه عمنا أبى طالب. وأما عبد الله فشبيه خَلقى وخُلقى. ثم أخذ بيدى فأشالها وقال: اللهم اخلف جعفرًا فى أهله. وبارك لعبد الله فى صفقة يمينه**» ـ قالها ثلاث مرات.

قال عبد الله: وجاءت أمنا فذكرت له يُتمنا وجعلت تُحزنه فقال لها النبى ﷺ: «**العيلة تخافين عليهم وأنا وليهم فى الدنيا والآخرة؟**»[1].

الدروس والعبر والفوائد

بمثل هؤلاء الفرسان وبمثل هذه الشجاعة والبطولة يُمكَّن للإسلام وأهله. ومتى يصل المسلمون إلى درجة اليقين بالآخرة والرغبة فى الجنة والشهادة إلى هذه الدرجات العلا؟ ومتى يظهر فيهم زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة وخالد بن الوليد؟ والله إنهم فخر للبشرية، ومثال للنفس البشرية إذا آمنت بالله ورسوله، وتعلقت القلوب بالجنة وكانت الهمم أعلى من حطام الدنيا.

عن نافع أن ابن عمر أخبره أنه وقف على جعفر يومئذٍ وهو قتيل قال: فعددت به خمسين بين طعنة وضربة ليس منها شيء فى دُبره. يعنى ظهره[2].

وفى رواية أخرى فى الصحيح كذلك: قال عبد الله: «كُنْتُ فِيهِمْ فِى تِلْكَ

---

(١) حديث صحيح، أخرجه أحمد (رقم ١٧٥٠) بإسناد صحيح على شرط مسلم، وبعضه عند أبى داود والحاكم وصححه، ووافقه الذهبى.

(٢) رواه البخارى (٧/ ٥٨٣) المغازى.

الغَزْوَةِ، فَالْتَمَسْنَا جَعْفَرَ بْنَ أَبِى طَالِبٍ، فَوَجَدْنَاهُ فِى القَتْلَى، وَوَجَدْنَا مَا فِى جَسَدِهِ بِضْعًا وَتِسْعِينَ، مِنْ طَعْنَةٍ وَرَمْيَةٍ»[١].

قال الحافظ: وظاهرهما التخالف، ويُجمَع بأن العدد قد لا يكون له مفهوم، أو بأن الزيادة باعتبار ما وجد فيه من رمى السهام، فإن ذلك لم يُذكر فى الرواية الأولى، أو أن الخمسين مقيدة بكونها ليس فيها شىء فى دبره أى: فى ظهره فقد يكون الباقى فى بقية جسده، ولا يستلزم ذلك أنه ولَّى دُبره وهو محمول على أن الرمى إنما جاء من جهة قفاه أو جانبيه، ولكن يؤيد الأول أن فى رواية العمرى عن نافع: «فوجدنا ذلك فيما أقبل من جسده» بعد أن ذكر أن العدد بضع وتسعون[٢].

❁ **أهمية هذه المعركة:** تُعتبر هذه المعركة من أهم المعارك التى وقعت بين المسلمين وبين النصارى الصليبيين من عرب وعجم؛ لأنها أول صدام مُسلح ذى بال بين الفريقين، وأثرت تلك المعركة على مستقبل الدولة الرومانية، فقد كانت مقدمة لفتح بلاد الشام وتحريرها من الرومان. ونستطيع أن نقول إن تلك الغزوة هى خطوة عملية قام بها النبى ﷺ للقضاء على دولة الروم المتجبرة فى بلاد الشام، فقد هَزَّ هيبتها من قلوب العرب، وأعطت فكرة عن الروح المعنوية العالية عند المسلمين، كما أظهرت ضعف الروح المعنوية فى القتال عند الجندى الصليبى النصراني[٣]، وأعطت فرصة للمسلمين للتعرف على حقيقة قوات الروم، ومعرفة أساليبهم فى القتال.

(١) رواه البخارى (٧/ ٥٨٣) المغازى.

(٢) فتح البارى (٧/ ٥٨٥)، نقلًا عن وقفات تربوية مع السيرة النبوية.

(٣) انظر: الصراع مع الصليبيين، (ص٦٤).

۞ **حب الشهادة باعث للتضحية:** إن الصبر والثبات والتضحية التى تجلَّت فى كل واحد من الأمراء الثلاثة وسائر الجند كان مبعثها الحرص على ثواب المجاهدين، والرغبة فى نيل الشهادة لكى يكرمهم الله برفقة النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين، ويدخلوا جنات الله الواسعة التى فيها ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

۞ **تميُّز هذه المعركة عن سائر المعارك:** فهى الوحيدة التى جاء خبرها من السماء، إذ نعى النبى ﷺ استشهاد الأبطال الثلاثة قبل أن يصل الخبر من أرض المعركة، بل وأخبر النبى ﷺ عن أحداثها... وتمتاز أيضًا عن غيرها بأنها الوقعة الوحيدة التى اختار النبى ﷺ لها ثلاثة أمراء على الترتيب: زيد بن حارثة، جعفر بن أبى طالب، عبد الله بن رواحة(١).

۞ **إكرام النبى ﷺ لآل جعفر:** لما أُصيب جعفر دخل رسول الله ﷺ على أسماء بنت عميس فقال: «**ائتينى ببنى جعفر**» فأتت بهم فشمَّهم وقبَّلهم وذرفت عيناه، فقالت أسماء: أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء؟ قال: «**نعم أصيبوا هذا اليوم**»، فجعلت تصيح وتولول، فقال النبى ﷺ: «**لا تغفلوا عن آل جعفر أن تصنعوا لهم طعامًا، فإنهم قد شُغلوا بأمر صاحبهم**»(٢).

۞ وتلحظ فى هذا الخبر عدة أمور منها:

(أ) جواز بكاء المرأة على زوجها المتوفى: أُخذ هذا من فعل أسماء بنت عميس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حينما نعى النبى ﷺ زوجها ومن معه، فبكت وصاحت، فلم ينكر عليها النبى ﷺ ولم ينهها عن ذلك، ولو كان ممنوعًا لنهاها عن ذلك،

---

(١) انظر: الصراع مع الصليبيين، (ص٦٦).

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٢٨).

والبكاء الذى نهى عنه الإسلام هو ما كان سائدًا عند أهل الجاهلية من النواح واللطم وشق الجيوب، والتبَرُّم بقضاء الله وقدره، وما إلى ذلك مما يكون سببًا فى معصية الخالق سبحانه.

(ب) استحباب صنع الطعام لأهل الميت: وقد ندب الرسول ﷺ الناس أن يصنعوا طعامًا لآل جعفر، وهذا فيه مواساة لأهل المتوفَّى وتخفيف مصابهم، وفى الوقت نفسه تكافل بينهم وهذه السُّنة خالفتها بعض الشعوب الإسلامية، وأصبح أهل الميت يصنعون الطعام للقادمين، وهذا أمر قبيح ينبغى أن يبتعد عنه المسلمون[١].

هذا وقد نهى رسول الله ﷺ عن البكاء بعد ثلاث، فقد دخل على أسماء وقال لها: «**لا تبكوا على أخى بعد اليوم، ادعوا لى بنى أخي**» فجيء بهم كأنهم أفراخ، فدعا بالحلاق فحلق لهم رؤوسهم ثم قال: «**أما محمد فشبيه عمنا أبى طالب، وأما عبد الله فشبيه خَلقى وخُلقي**»، ثم أخذ بيمين عبد الله وقال: «**اللهم اخلف جعفرًا فى أهله وبارك لعبد الله فى صفقة يمينه**» قالها ثلاثا[٢]. ولما ذكرت له أمهم يُتمهم وضعفهم قال لها: «**العيلة تخافين عليهم، وأنا وليهم فى الدنيا والآخرة**»[٣]. وهذا منهج نبوى كريم خَطَّه رسول الله ﷺ لرعاية وتكريم أبناء الشهداء لكى تسير الأمة على نهجه الميمون[٤].

(ج) زواج أبى بكر الصديق من أسماء بنت عُمَيس: وبعد أن انقضت عدة أسماء بنت عميس خطبها أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه فتزوجها، وولدت له محمد

(١) انظر: الصراع مع الصليبيين، (ص٦٨).

(٢) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٥٢).

(٣) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٥٢).

(٤) انظر: السيرة النبوية لأبى شهبة (٢/ ٤٣٠).

ابن أبى بكر، وبعدما توفى الصدِّيق تزوجها بعده على بن أبى طالب، وولدت له أولادًا رضى الله عنه وعنها وعنهم أجمعين(١). وقد ذكر ابن كثير أن أسماء بنت عميس رثت زوجها جعفر بن أبى طالب بقصيدة تقول فيها:

فآليت لا تنفك نفسى حزينة عليك ولا ينفك جلدى أغبرا
فلله عينا من رأى مثله فتى أكر وأحمر فى الهياج وأصبرا(٢)

۞ من فقه القيادة: إنه درس عظيم يقدمه لنا الصحابى الجليل ثابت بن أقرم العجلاني، عندما أخذ اللواء بعد استشهاد عبد الله بن رواحة آخر الأمراء، وذلك أداء منه للواجب؛ لأن وقوع الراية معناه هزيمة الجيش، ثم نادى المسلمين أن يختاروا لهم قائدًا، وفى زحمة الأحداث قالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل.. فاصطلح الناس على خالد ... وفى رواية أن ثابتًا مشى باللواء إلى خالد، فقال خالد: لا آخذه منك، أنت أحق به فقال: والله ما أخذته إلا لك.

إن مضمون كلتا الروايتين واحدٌ، أن ثابتًا جمع المسلمين أولاً وأعطى القوس باريها، فأعطى الراية أبا سليمان خالد بن الوليد(٣)، ولم يقبل قول المسلمين: أنت أميرنا، ذلك أنه يرى فيهم مَن هو أكفأ منه لهذا العمل، وحينما يتولى العمل مَن ليس له بأهل، فإن الفساد متوقع، والعمل حينما يكون لله تعالى، لا يكون فيه أثر لحب الشهرة، أو حظ النفس.

إن ثابتًا لم يكن عاجزًا عن قيادة المسلمين، وهو ممن حضر بدرًا،

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٥٣).
(٢) المصدر نفسه (٤/ ٣٥٢).
(٣) انظر: التاريخ الإسلامى للحميدى (٧/ ١٢٤).

ولكنه رأى من الظلم أن يتولى عملاً وفى المسلمين مَن هو أجدر به منه، حتى ولو لم يمضِ على إسلامه أكثر من ثلاثة أشهر؛ لأن الغاية هى السعى لتنفيذ أوامر الله على الوجه الأحسن والطريقة الأمثل[1].

إن كثيرًا ممن يتزعمون قيادة الدعوة الإسلامية اليوم يضعون العراقيل أمام الطاقات الجديدة، والقدرات الفذة خوفًا على مكانتهم القيادية، وامتيازاتهم الشخصية، وأطماعهم الدنيوية، فعلى أولئك القادة أن يتعظوا من هذا الدرس البليغ لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

❁ **درس نبوى فى احترام القيادة:** قال عوف بن مالك الأشجعى رضي الله عنه: خرجت مع زيد بن حارثة فى غزوة مؤتة ورافقنى مدديّ من اليمن[2]... ومضينا فلقينا جموع الروم، فيهم رجل على فرس له أشقر عليه سرج مُذهَب وله سلاح مُذهَب، فجعل الرومى يضرب بالمسلمين، فقعد له المددى خلف صخرة فمر به الرومى فعرقب فرسه بسيفه، وفرَّ الرومي، فعلاه بسيفه فقتله وحاز فرسه وسلاحه، فلما فتح الله للمسلمين، بعث إليه خالد بن الوليد فأخذ منه بعض السلب، قال عوف: فأتيت خالدًا، وقلت له: أما علمت أن رسول الله ﷺ قضى بالسلب للقاتل؟ قال: بلى، ولكنى استكثرته قلت: لتردنَّها إليه أو لأعرفنكها عند رسول الله ﷺ، فأبى أن يرد عليه. قال عوف: فاجتمعنا عند رسول الله فقصصت عليه قصة المددي، وما فعل خالد، فقال رسول الله ﷺ: «**يا خالد ما حملك على ما صنعت؟**» قال: استكثرته فقال: «**رُدَّ عليه الذى أخذت منه**». قال عوف: فقلت: دونكها

---

(١) انظر: من معين السيرة للشامي، (ص٣٧٦).

(٢) مددى: أى جاء مددًا- وفى رواية: رجل من حِمْيَر.

يا خالد، ألم أُوفِّ لك؟ فقال رسول الله ﷺ: «**وما ذلك؟**» فأخبرته قال: فغضب رسول الله ﷺ وقال: «**يا خالد لا ترد عليه، هل أنتم تاركون لى أمرائي، لكم صفوة أمرهم وعليهم كدره**»[(١)].

هذا موقف عظيم من النبى ﷺ فى حماية القادة والأمراء من أن يتعرضوا للإهانة بسبب الأخطاء التى قد تقع منهم، فهم بَشَرٌ مُعرَّضون للخطأ، فينبغى السعى فى إصلاح خطئهم من غير تنقُّص ولا إهانة، فخالد حين يمنع ذلك المجاهد سَلَبه لم يقصد الإساءة إليه، وإنما اجتهد فغلَّب جانب المصلحة العامة، حيث استكثر ذلك السلب على فردٍ واحد، ورأى أنه إذا دخل فى الغنيمة العامة نفع عددًا أكبر من المجاهدين، وعوف بن مالك أدى مهمته فى الإنكار على خالد، ثم رفع الأمر إلى رسول الله ﷺ حينما لم يقبل خالد قوله، وكان المفترض أن تكون مهمته قد انتهت بذلك؛ لأنه والحال هذه قد دخل فى أمر من أوامر الإصلاح، وقد تم الإصلاح على يديه، ولكنه تجاوز هذه المهمة حيث حوَّل القضية من قضية إصلاحية إلى قضية شخصية، فأظهر شيئًا من التشفِّى من خالد، ولم يُقره النبى ﷺ على ذلك، بل أنكر عليه إنكارًا شديدًا وبيَّن حق الولاة على جنودهم.

وكون النبى ﷺ أَمَر خالدًا بعدم ردِّ السلب على صاحبه لا يعنى أن حق ذلك المجاهد قد ضاع؛ لأنه لا يمكن أن يأخذ رسول الله ﷺ إنسانًا بجريرة غيره، فلا بد أن ذلك المجاهد قد حصل منه الرضا، إما بتعويض عن ذلك السلب أو بتنازل منه أو غير ذلك فيما لا يُذكَر تفصيله فى الخبر[(٢)].

---

(١) مسلم، كتاب الجهاد، (ص١٣٧٣)، رقم (١٧٥٣).

(٢) انظر: التاريخ الإسلامى للحميدي، (٧/ ١٣٠).

إن الأمة التى لا تُقدر رجالها ولا تحترمهم لا يمكن أن يقوم فيها نظام، إن التربية النبوية استطاعت بناء هذه الأمة بناءً سليمًا،... وما أحرى المسلمين اليوم أن يكون كل إنسان فى مكانه، وأن يُحتَرم ويُقدَّر بمقدار ما يقدم لهذا الدين، ويبقى الجميع بعد ذلك فى الإطار العام الذى وصف الله به المؤمنين: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[١].

وفى قوله ﷺ: «**هل أنتم تاركون لى أمرائي**» وسام آخر يضاف إلى خالد رضي الله عنه حيث عُدَّ من أمراء الرسول ﷺ، وهذا من المنهاج النبوى الكريم فى تقدير الرجال[٢].

۞ مقاييس الإيمان وأثرها فى المعارك:

توقف الجيش الإسلامى فى معان يناقش كثرة جيش العدو، وكانت المقاييس المادية لا تشجعهم على خوض المعركة، ومع ذلك تابعوا طريقهم ودخلوا بمقاييس إيمانية، فهم خرجوا يطلبون الشهادة فلماذا إذن يفرون مما خرجوا لطلبه.

قال زيد بن أرقم: كنت يتيمًا لعبد الله بن رواحة فى حجره، فخرج بى فى سفره ذلك مُردفى على حقيبة رَحْلِه، فوالله إنه ليسير ليلة إذ سمعته ينشد أبياتًا منها:

وجاء المسلمون وغادرونى بأرض الشام مشتهى الثواء

---

(١) سورة المائدة: الآية: (٥٤).

(٢) انظر: معين السيرة، (ص٣٧٨).

فلما سمعتها منه بكيت، قال: فخفقني بالدرة، وقال: وما عليك يا لُكع أن يرزقني الله الشهادة وترجع بين شعبتي الرحل[١].

إن التأمل بعمق في غزوة مؤتة يساعدنا في معالجة الهزيمة النفسية والروحية التي تمر بها الأمة، وإقامة الحجة على القائلين بأن سبب هزيمتنا التفوق التكنولوجي لدى الأعداء... لقد سجل ابن كثير رأيه في هذه المعركة وقال: (... هذا عظيم جدًّا أن يقاتل جيشان متعاديان في الدين، أحدهما وهو الفئة التي تقاتل في سبيل الله عدتها ثلاثة آلاف، وأخرى كافرة وعدتها مائتا ألف مقاتل، من الروم مائة ألف، ومن نصارى العرب مائة ألف، يتبارزون ويتصاولون ثم مع هذا كله لا يُقتل من المسلمين إلا اثنا عشر رجلًا، وقد قُتل من المشركين خلقٌ كثير، هذا خالد وحده يقول: لقد اندقَّت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية، فماذا ترى قد قَتل بهذه الأسياف كلها؟ دع غيره من الأبطال والشجعان من حملة القرآن، وقد تحكموا في عَبَدة الصلبان عليهم لعائن الرحمن في ذلك الزمان وفي كل أوان...)[٢].

۞ من شعر كعب بن مالك في بكاء قتلى مؤتة: حيث قال:

في ليلة وردت عليَّ همومها ... طورًا أحن[٣] وتارة أتململُ[٤]
واعتادني حزن فبتُّ كأنني ... ببنات نعشٍ والسماك موكَّلُ[٥]

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٢٤، ٢٥).

(٢) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٥٩).

(٣) أحن: من الحنين، وفي رواية أخن: صوت يخرج من الأنف عند البكاء.

(٤) أتململ: أتقلب متبرمًا بمضجعي.

(٥) يريد أنه بات يرعى النجوم طول ليله من طول السهاد.

وكأنما بين الجوانح والحشى ... مما تأوبنى شهاب مدخلُ(١)
وجدا على النفر الذين تتابعوا ... يومًا بمؤتة أسندوا لم ينقلوا
صلى الإله عليهم من فتية ... وسقى عظامهم الغمام المسبلُ(٢)
صبروا بمؤتة للإله نفوسهم ... حذر الردى ومخافة أن ينكلوا(٣)
فمضوا أمام المسلمين كأنهم ... فُنُق(٤) عليهن الحديد المرفلُ(٥)
إذ يهتدون بجعفر ولوائه ... قدام أولهم فنعم الأولُ
حتى تفرجت الصفوف وجعفر ... حيث التقى وعث الصفوف مجدلُ
فتغير القمر المنير لفقده ... والشمس قد كسفت وكادت تأفلُ(٦)

هذه بعض الأبيات التى بكى بها كعب بن مالك شهداء مؤتة، ولم يتغيب حسان بن ثابت رضي الله عنه عن نظم القصائد فى بكاء قتلى مؤتة، وبكاء جعفر بن أبى طالب، وزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة، فقد كانت المؤسسة الإعلامية تقوم بدورها بتفوق وجدارة وتتعبد المولى عز وجل بما أخصها به من ملكات ومواهب شعرية فذة(٧).

(١) المدخل: النافذ إلى الداخل.
(٢) المسبل: الممطر.
(٣) صبروا نفوسهم: حبسوها على ما يريدون - ينكلوا: يرجعوا هائبين.
(٤) فنق: الفحول من الإبل.
(٥) المرفل: الذى تنجر أطرافه على الأرض، يريد أن دروعهم سابغة.
(٦) تأفل: تغيب، السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٣٣، ٣٤).
(٧) غزوات الرسول / د. على الصلابى.

سرية ذات السلاسل

۞ ولما علم رسول الله ﷺ بموقف القبائل العربية التى تقطن مشارف الشام فى معركة مؤتة، من اجتماعهم إلى الرومان ضد المسلمين، شعر بمسيس الحاجة إلى القيام بحكمة بالغة تُوقع الفُرقة بينها وبين الرومان، وتكون سببًا للائتلاف بينها وبين المسلمين، حتى لا تتحشد مثل هذه الجموع الكبيرة مرة أخرى.

واختار لتنفيذ هذه الخطة عمرو بن العاص؛ لأن أم أبيه كانت امرأة من (بلى)، فبعثه إليهم فى جمادى الآخرة سنة ٨ هـ على إثر معركة مؤتة ليستأنفهم، ويقال: بل نقلت الاستخبارات أن جمعًا من (قضاعة) قد تجمعوا، يريدون أن يدنوا من أطراف المدينة، فبعثه إليهم، ويمكن أن يكون السببان اجتمعا معًا[١].

۞ كانت هذه السرية فى جمادى الثانى سنة ثمانٍ للهجرة كما قال ابن سعد والجمهور، ونقل ابن عساكر الاتفاق على أنها كانت بعد غزوة مؤتة، إلا أن ابن إسحاق قال: إنها قبلها[٢].

وقال ابن إسحاق عن يزيد عن عروة: هى بلاد بلى وعذرة، وبنى القين. وهذه القبائل التى ذكرها هى بطون من قضاعة كما قال الحافظ فى الفتح.

۞ وقيل إنها سُميت ذات السلاسل لأن المشركين ارتبط بعضهم إلى بعض بالسلاسل مخافة أن يفروا، وقيل لأن بها ماءً يقال له السلسل، وقال ابن سعد: إنها وراء وادى ذى القرى وبينها وبين المدينة عشرة أيام.

---

(١) الرحيق المختوم (ص٤٢٤).

(٢) فتح البارى (٨/ ٧٤).

أحداثها

۞ عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: «بعث إلىَّ رسول الله ﷺ، فقال: «**خذ عليك ثيابك، وسلاحك، ثم ائتنى**». فأتيته، وهو يتوضأ، فصعَّد فىَّ النظر، ثم طأطأ، فقال: «**إنى أريد أن أبعثك على جيش**(١) **فيُسلمك الله ويُغنِّمك، وأرغب لك من المال رغبة صالحة**»، قال: قلت: يا رسول الله ما أسلمت من أجل المال، ولكنى أسلمت رغبة فى الإسلام، وأن أكون مع رسول الله ﷺ فقال: «**يا عمرو نعم المال الصالح للمرء الصالح**»(٢).

۞ وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: «إن رسول الله ﷺ بعثه فى ذات السلاسل، فسأله أصحابه أن يوقدوا نارًا فمنعهم، فكلموا أبا بكر، فكلمه فى ذلك، فقال: لا يوقد أحد منهم نارًا إلا قذفته فيها، قال: فلقوا العدو فهزمهم، فأرادوا أن يتبعوهم فمنعهم. فلما انصرفوا ذكروا ذلك للنبى ﷺ، فسأله فقال: كرهت أن آذن لهم أن يوقدوا نارًا فيرى عدوهم قِلتهم، وكرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مدد... فحمد أمره فقال: يا رسول الله مَن أحب الناس إليك؟ قال: «**عائشة**». قلت: من الرجال: قال: «**أبوها**»: قلت: ثم من؟ قال: «**عمر**» فعدَّ رجالاً. فسكتُّ مخافة أن يجعلنى فى آخرهم»(٣).

إن الله كان بكم رحيمًا

۞ وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: «احتلمت فى ليلة باردة فى غزوة ذات السلاسل، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فتيممت، ثم صليت

(١) جيش: جيش سرية ذات السلاسل.

(٢) أخرجه ابن حبان (٢٢٧٧)، وأحمد (٤/ ١٩٧)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبى.

(٣) أخرجه الترمذى (٣٨٨٦)، وأحمد (٤/ ٢٠٣)، والحاكم (٣/ ٤٢ـ٤٣)، وصححه ووافقه الذهبى.

بأصحابي الصبح، فذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: «**يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جُنُب؟**» فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال، وقلت: إني سمعت الله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾[١] فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئًا)[٢].

۞ وفي لفظ آخر: «عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص: «أن عَمرًا كان على سرية، فأصابهم بردٌ شديد لم يروا مثله، فخرج لصلاة الصبح، فقال: احتلمت البارحة، ولكني والله ما رأيت بردًا مثل هذا، فغسل مغابنه[٣]، وتوضأ للصلاة، ثم صلى بهم، فلما قدم على رسول الله ﷺ، سأل رسول الله ﷺ أصحابه: «**كيف وجدتم عَمرًا وصحابته؟**» فأثنوا عليه خيرًا، وقالوا: يا رسول الله، صلى بنا وهو جُنب، فأرسل إلى عمرو فسأله: فأخبره بذلك وبالذي لقي من البرد، وقال: إن الله قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾، ولو اغتسلت متُّ، فضحك رسول الله ﷺ.

(١) سورة النساء: الآية: (٢٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٣٤)، وعلقه البخاري (١/ ٣٨٥)، وقواه الحافظ وصححه الحاكم (١/ ١٧٧) ووافقه الذهبي.

(٣) المغابن: الأرفاع وهي بواطن الأفخاذ عند الحوالب.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

غزوة فتح مكة

غزوة فتح مكة

۞ قال الإمام ابن القيم: هو الفتح الأعظم الذى أعزَّ اللهُ به دينَه، ورسولَه، وجنده، وحزبه الأمين، واستنقذ به بلده وبيته الذى جعله هُدىً للعالمين من أيدى الكفار والمشركين، وهو الفتحُ الذى استبشر به أهلُ السماء، وضُربت أطنابُ عِزِّه على منَاكِبِ الجوزاء، ودخل الناسُ به فى دين الله أفواجًا، وأشرق به وجهُ الأرضِ ضياءً وابتهاجًا[(١)].

سبب الغزوة

شُغل المسلمون بعد عهد الحديبية بنشر الدعوة وعرض تعاليم الإسلام على كل ذى عقل. وكان وفاؤهم لقريش أمرًا مقررًا فيما أحبوا وفيما كرهوا ـ ورأى الناس من ذلك الآيات البينات.

لكن قريشًا ظلت على جمودها القديم فى إدارة سياستها، غير واعية للأحداث الخطيرة التى غيّرت مجرى الأحوال فى الجزيرة العربية، وتُوشك أن تغيره فى العالم كله.

وقد جَرَّها فُقدان هذا الوعى إلى حماقة كبيرة أصبح بعدها عهد الحديبية لغوًا. وذلك أنها ـ مع حلفائها من بنى بكر ـ هاجموا خزاعة ـ وهى مع المسلمين فى حلفٍ واحد ـ وقاتلوهم فأصابوا منهم رجالًا[(٢)].

۞ قال محمد بن إسحاق فى المغازى: حدثنى الزهرى عن عروة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم أنهما حدثاه جميعًا قالا: «كان فى صلح رسول الله يوم الحديبية بينه وبين قريش أنه من شاء أن يدخل

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٣٩٤).

(٢) فقه السيرة للغزالى (ص ٤١٧).

فى عقد محمد وعهده دخل، ومن شاء أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل» فتواثبت خزاعة، فقالوا: نحن ندخل فى عقد محمد ﷺ وعهده، وتواثبت بنو بكر، فقالوا: نحن ندخل فى عقد قريش وعهدهم، فمكثوا فى تلك الهدنة نحو السبعة والثمانية عشر شهرًا.

ثم إن بنى بكر الذين كانوا دخلوا فى عقد قرش وعهدهم، وثبوا على خزاعة الذين دخلوا فى عقد رسول الله وعهده ليلاً بماءٍ لهم يقال له: الوتير قريب من مكة، فقالت قريش: ما يعلم بنا محمد، وهذا الليل وما يرانا أحد، فأعانوهم بالكراع والسلاح، فقاتلوهم معه للطعن على رسول الله ﷺ، وأن عمرو بن سالم ركب إلى رسول الله ﷺ عندما كان من أمر خزاعة وبنى بكر بالوتير حتى قدم المدينة على رسول الله ﷺ يخبره الخبر وقد قال أبيات شعر، فلما قدم على رسول الله ﷺ أنشده إياها:

يا رب إنى ناشدٌ محمدًا ... حلف أبينا وأبيه الأتلدا[1]
قد كنتم ولدًا وكنا والدًا ... ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا[2]
فانصر رسول الله نصرًا أعتدا[3] ... وادع عباد الله يأتون مددا[4]
فيهم رسول الله قد تجردا ... أن سيم خسفا وجهه تربدا[5]
فى فيلق[6] كالبحر يجرى مزبدًا ... أن قريشًا أخلفوك الموعدا

---

(١) الأتلد: القديم.

(٢) لم ننزع يدًا: لم ننقض عهدنا فنرجع عن الإسلام.

(٣) نصرًا أعتدا: أى حاضرًا.

(٤) المدد: العون.

(٥) سيم خسف: طلب منه وكلفه - الخسف: الذل - تربد: تغير.

(٦) الفيلق: الجيش.

ونقضوا ميثاقك المؤكدا   وزعموا أن لست أدعو أحدا
فهم أذل وأقل عددًا   قد جعلوا لى بكداء مرصدا[١]
هم بيتونا بالوتير هُجَّدًا   وقتلونا رُكَّعًا وسُجَّدا[٢]

فقال رسول الله ﷺ: «**نُصرت يا عمرو بن سالم**»، فما برح رسول الله ﷺ حتى مرت عنانة فى السماء، فقال رسول الله ﷺ: «**إن هذه السحابة لتستهل بنصر بنى كعب**»[٣].

وجاء فى رواية: إن رسول الله ﷺ بعد أن سمع وتأكد من الخبر أرسل إلى قريش فقال لهم: «**أما بعد، فإنكم إن تبرؤوا من حلف بنى بكر، أتُدوا خزاعة**[٤]، **وإلا أوذنكم بحرب**» فقال قرطة بن عبد عمرو بن نوفل بن عبد مناف صهر معاوية: إن بنى بكر قوم مشائيم، فلا ندى ما قتلوا لنا سبد، ولا لبد[٥]، ولا نبرأ من حلفهم فلم يبقَ على ديننا أحدٌ غيرهم، ولكن نؤذنه بحرب[٦].

وفى هذا دليل على أن رسول الله ﷺ لم يفاجئ قريشًا بالحرب وإنما خيرَّهم بين هذه الخصال الثلاث فاختاروا الحرب[٧].

۞ ثم خرج بُديل بنُ ورقاء فى نفرٍ من خُزاعة، حتى قَدِمُوا على

(١) كداء: موضع بمكة – الرصد: الذى يترصد للأمر ويطلبه، أو الكمين.

(٢) الوتير: اسم ماء، هجد: جمع هاجد ويطلق على النائم أو المستيقظ.

(٣) البداية والنهاية (٤/ ٢٧٨).

(٤) أى تدفعوا دية قتلاهم.

(٥) السبد: الشعر – واللبد: الصوف، يعنى إن فعلنا ذلك لم يبق لنا شيء.

(٦) انظر: المطالب العالية (٤/ ٢٤٣) رقم (٤٣٦١)، قال ابن حجر: مرسل صحيح الإسناد.

(٧) انظر: التاريخ الإسلامى (٧/ ١٦٤).

رسول الله ﷺ، فأخبروه بما أصيب منهم، وبمُظَاهَرَةِ قريش بنى بكر عليهم، ثم رجعُوا إلى مكة، فقال رسول الله ﷺ للناس: «**كَأَنَّكُم بِأَبِى سُفْيَانَ، وَقَدْ جَاءَ لِيَشُدَّ العَقْدَ وَيَزِيدَ فِى المُدَّة**».

ومضى بُديل بنُ ورقاء فى أصحابه حتى لَقُوا أبا سفيان بنَ حرب بعُسفان وقد بعثته قريش إلى رسول الله ﷺ لِيَشُدَّ العقدَ، ويزيدَ فى المدة، وقد رَهِبُوا الذى صنعوا، فلما لقى أبو سفيان بُديلَ بن ورقاء، قال: من أين أقبلت يا بُديل؟ فظن أنه أتى النبى ﷺ فقال: سِرتُ فى خُزاعة فى هذا الساحل، وفى بطن هذا الوادى، قال: أَوَ ما جئتَ محمدًا؟ قال: لا، فلما راح بُديل إلى مكة، قال أبو سفيان: لئن كان جاء المدينة، لقد علفَ بها النوى، فأتى مَبْرَكَ راحِلته، فأخذ من بعرها، ففتَّه، فرأى فيها النوى، فقال: أحلِفُ باللهِ لقد جاء بُديلٌ محمدًا.

أبو سفيان يعرض إطالة المدة على رسول الله ﷺ

بعثت قريش أبا سفيان إلى المدينة لتمكين الصلح وإطالة أمده، وعندما وصل إلى المدينة ودخل على رسول الله ﷺ يعرض حاجته، أعرض عنه النبى ﷺ ولم يُجبه، فاستعان بكبار الصحابة أمثال أبى بكر وعمر وعثمان وعليٍّ حتى يتوسطوا بينه وبين رسول الله، فأبوا جميعًا، فعاد أبو سفيان إلى مكة من غير أن يحظى بأى اتفاق أو عهد(١).

درس فى الولاء والبراء من أم حبيبة بنت أبى سفيان

ثم خرج أبو سفيان حتى قَدِمَ المدينة، فدخل على ابنتِه أمِّ حبيبة، فلما

(١) انظر: التاريخ السياسى والعسكري/ د. على معطي، (ص٣٦٥).

ذهب لِيجلس على فِراش رسول الله ﷺ، طَوَتْهُ عنه، فقال: يا بُنية ما أدرى أرغبتِ بى عن هذا الفراش، أم رغبتِ به عنى؟ قالت: بل هو فِراشُ رسولِ الله ﷺ وأنت مُشرك نَجسٌ، فقال: والله لقد أصابك بعدى شر[١].

وهذا الموقف لا يُستغرب من أم حبيبة، فهى ممن هاجر الهجرتين وقد قطعت صِلاتها بالجاهلية منذ أمدٍ بعيد، إنها لم ترَ أباها منذ ست عشرة سنة، فلما رأته لم ترَ فيه الوالد الذى ينبغى أن يُقدَّر ويُحترَم، وإنما رأت فيه رأس الكفر الذى وقف فى وجه الإسلام وحارب رسوله تلك السنوات الطويلة[٢]،... وهذا ما كان يتصف به الصحابة رضي الله عنهم من تطبيق أحكام الإسلام فى الولاء والبراء وإعزاز الإسلام والمسلمين.

وفى مخاطبة أم حبيبة لأبيها بهذا الأسلوب -مع كونه أباها ومع مكانته العالية فى قومه وعند العرب- دليلٌ على قوة إيمانها ورسوخ يقينها، لقد كان فى سلوك أم حبيبة مظهر من اجتهاد الصحابة البالغ فى إظهار أمر له أهميته البالغة فى المحافظة على شخصية المسلم ودفع معنوياته إلى النماء والحيوية[٣].

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٣٩٦-٣٩٧).

(٢) انظر: معين السيرة، (ص٣٩٥).

(٣) انظر: التاريخ الإسلامى (٧/ ١٧٠، ١٧١).

ندمٌ وأسفٌ

وليس هناك من شك فى أن انتصار قريش لحلفائها ودعمها لهم على حلفاء المسلمين، هو نقض صريح لبنود صلح الحديبية أدركت قريش أخطاره، وندمت على فعلها له، ولذلك فإنها بادرت إلى إرسال أبى سفيان إلى المدينة بهدف تجديد المعاهدة،... وتشير بعض الروايات إلى أن النبى ﷺ أرسل إلى قريش[1] يخيرهم بين دفع دية قتلى خزاعة، أو البراءة من حلف بنى بكر، أو القتال، فاختارت الحرب، ثم ندمت فبادرت إلى إرسال أبى سفيان كما أسلفنا، لكنه عاد خائبًا، فقد فشل فى الحصول على أى وعد بتجديد المعاهدة التى تضمنت بنود صلح الحديبية[2] .

وقت الغزوة

كانت غزوة الفتح سنة ثمانٍ للهجرة والذى اتفق عليه أهل السير أنه خرج ﷺ فى عاشر رمضان ودخل مكة لتسع عشرة ليلة خلت منه[3] .

وكان عدد مَن خرج مع النبى ﷺ عشرة آلاف من جنود الإسلام من سائر القبائل، وكان النبى صائمًا حتى بلغ الكديد أفطر وأفطروا...

عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن النَّبىَّ ﷺ خرج فى رمضان من المدينة ومعه

---

(١) ابن حجر ـ المطالب العالية (٤/ ٢٣٤)، بإسناد صحيح، فتح البارى (٨/ ٦) (حديث ٤٢٨٠)، ابن كثير ـ البداية والنهاية (٤/ ٢٨١)، الواقدى ـ المغازى (٢/ ٧٨٦- ٧) وعنده أن اسم مبعوث النبى ﷺ إلى قريش هو حمزة.

(٢) ابن حجر ـ فتح البارى (٨/ ٦) عن مرسل عكرمة عن ابن أبى شيبة، وابن إسحاق مُعلَّقًا، ابن كثير ـ البداية والنهاية (٤/ ٣١٢).

(٣) فتح البارى (٤/ ١٨١).

عشرة آلاف، وذلك على رأس ثمان سنين ونصف من مَقْدِمه المدينة، فسار هو ومن معه من المسلمين إلى مكة يصوم ويصومون، حتى بلغ الكديد ـ وهو ماء بين عفان وقُدَيد ـ أفطر وأفطروا»(١).

الأسباب التى ساعدت النبى ﷺ على العزم على فتح مكة

❁ كانت هناك عدة أسباب ساعدت النبى ﷺ على العزم على فتح مكة.. وكان من بين تلك الأسباب:

(أ) قوة جبهة المسلمين الداخلية فى المدينة وتماسكها: فقد تخلصت الدولة الإسلامية من غدر اليهود، وتم القضاء على يهود بنى قينقاع، وبنى النضير، وبنى قريظة، ويهود خيبر.

(ب) ضعف جبهة الأعداء فى الداخل: وفى مقدمة هؤلاء المنافقين الذين فقدوا الركن الركين لهم -وهو يهود المدينة- فهم أساتذتهم الذين يوجهونهم ويشيرون عليهم.

(ج) اهتم رسول الله ﷺ بتطوير القوة العسكرية، وإرسال السرايا فى فترة الصلح؛ وبذلك أصبحت متفوقة على قوة مشركى قريش حيث العدد والعدة والروح المعنوية.

(د) كانت الغزوة بعد أن ضعفت قريش اقتصاديًا وبعد أن قويت الدولة الإسلامية اقتصاديًا، فقد فتح المسلمون خيبر وغنموا منها أموالاً كثيرة.

(هـ) انتشار الإسلام فى القبائل المجاورة للمدينة، وهذا يُطمئن القيادة حين تتخذ قرارها العسكرى بنقل قواتها ومهاجمة أعدائها.

---

(١) أخرجه البخارى (٤٢٧٦) المغازى.

(و) قيام السبب الجوهرى والقانونى لغزو مكة، وهو نقض قريش للعهد والعقد[١]. ونلحظ أن النبى ﷺ لم يضيع قانون الفرصة وتعامل معه بحكمة بالغة، فكان فتح خيبر، وذلك بعد صلح الحديبية، والآن تُتاح فرصة أخرى بعد أن نقضت قريش عهدها، وتغيرت موازين القوى فى المنطقة، فكان لابد من الاستفادة من المعطيات الجديدة، فأعدَّ ﷺ جيشًا لم تشهد له الحجاز مثيلاً من قبل، فقد وصلت عدته إلى عشرة آلاف رجل[٢].

الاستعداد لفتح مكة

بدأت الاستعدادات لحشد القوة الإسلامية القصوى المستطاعة، وكان لابد من أن يُعلم النبى ﷺ أصحابه بأنه سائر إلى مكة، ثم استنفر القبائل التى تقطن قرب المدينة: سُليمًا وأشجع ومزينة وأسلم وغفارًا، فمنهم من التحق بالجيش الإسلامى فى المدينة، ومنهم من التحق بالمسلمين فى الطريق إلى مكة، وقد ارتفعت معنويات المسلمين كثيرًا، وكان حسان بن ثابت يُلقى شعره الذى يُذكِّر فيه بمصاب خزاعة، ونقض المشركين للعهد، ويحرض المسلمين على القتال، وبلغ عدد جيش المسلمين عشرة آلاف مقاتل، وأوعب مع رسول الله ﷺ المهاجرون والأنصار فلم يتخلف عنه منهم أحد، وهذا يدل على مدى تعاظم قوات المسلمين خلال فترة السنة ونصف التى أعقبت صلح الحديبية[٣]، ورغم ذلك فقد التزم الجميع بالسرية التامة

(١) انظر: السيرة لأبى فارس، (ص٤٠١).

(٢) انظر: الكامل فى التاريخ (٢/ ٢٤٤)، التاريخ السياسى والعسكرى (ص٣٦٦).

(٣) انظر تعليق ابن هشام على تقويم الزهرى لأهمية صلح الحديبية – ابن هشام ـ السيرة (٣/ ٣٢٢)، والعمرى ـ السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٧٤).

وحُجبت الأخبار تمامًا عن قرش [١] مما يعكس مدى الضبط والربط والالتزام الدقيق بأوامر القيادة والتقويم السليم للمصلحة الإسلامية العليا [٢].

۞ قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن جعفر عن عروة عن عائشة: «أن أبا بكر دخل على عائشة وهي تغربل حنطة، فقال: ما هذا؟ أمركم رسول الله ﷺ بالجهاز؟ قالت: نعم فتجهز، قال: وإلى أين؟ قالت: ما سمَّى لنا شيئًا غير أنه قد أمرنا بالجهاز» [٣].

ما الأسباب التي استطاع النبي ﷺ من خلالها أن يباغت أهل مكة؟

۞ لقد كان من المناسب أن يباغت النبي ﷺ أهل مكة حتى لا يأخذوا استعدادهم لهذا الفتح... ولذا فإنَّ النبي ﷺ عندما قرر السير لفتح مكة كان حريصًا كل الحرص على كتمان هذا الأمر حتى لا يصل الخبر إلى قريش... ومن أجل ذلك أخذ النبي ﷺ بالأسباب الآتية لتحقيق مبدأ المباغتة:

(١) أنه كتم أمره حتى عن أقرب الناس إليه:

فقد أخذ النبي ﷺ بمبدأ السرِّية المطلقة والكتمان الشديد حتى عن أقرب الناس إليه وهو أبو بكر رضي الله عنه أقرب أصحابه إلى نفسه، وزوجته عائشة رضي الله عنها أحب نسائه إليه، فلم يعرف أحد شيئًا عن أهدافه الحقيقية، ولا باتجاه حركته، ولا بالعدو الذي ينوي قتاله؛ بدليل أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه

---

(١) ابن حجر ـ المطالب العالية (٤/ ٢٤٤).

(٢) نضرة النعيم (١/ ٣٦٤).

(٣) أخرجه ابن إسحاق في المغازي بسند صحيح رجاله ثقات، وقد صرح بالتحديث، فزالت شبهة تدليسه، ابن كثير في السيرة النبوية (٣/ ٥٣٥).

عندما سأل ابنته عائشة رضي الله عنها عن مقصد الرسول ﷺ قالت له: ما سَمَّى لنا شيئًا. وكانت أحيانًا تصمت، وكلا الأمرين يدل على أنها لم تعلم شيئًا عن مقصده ﷺ[١].

ويُستنبط من هذا المنهج النبوى الحكيم أنه ينبغى للقادة العسكريين أن يُخفوا خُططهم عن زوجاتهم؛ لأنهن ربما يَذعِن شيئًا من هذه الأسرار -عن حسن نية- فتتنقلها الألسُن حتى تصير سببًا فى حدوث كارثة عظيمة[٢].

(٢) أنه بعث سرية بقيادة أبى قتادة إلى بطن إضم :

بعث النبى ﷺ قبل مسيرة مكة سرية مكونة من ثمانية رجال؛ وذلك لإسدال الستار على نياته الحقيقية، ... وفى ذلك يقول ابن سعد: (لما هَمَّ رسول الله ﷺ بغزو أهل مكة بعث أبا قتادة بن ربعى فى ثمانية نفر سرية إلى بطن إضم[٣] ليظن ظان أن رسول الله ﷺ توجه إلى تلك الناحية؛ ولأن تذهب بذلك الأخبار، فمضوا ولم يلقوا جمعًا، فانصرفوا حتى انتهوا إلى ذى خُشُب[٤] فبلغهم أن رسول الله قد توجه إلى مكة، فأخذوا على (بيبين) حتى لقوا النبى ﷺ بالسُّقيا[٥])[٦].

وهذا منهج نبوى حكيم فى توجيه القادة من بعده إلى وجوب أخذ الحذر وسلوك ما يمكن من أساليب التضليل على الأعداء والإيهام التى

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٨٢)، الرسول القائد/ شيت خطاب، (ص٣٣٣، ٣٣٤).

(٢) انظر: القيادة العسكرية فى عهد الرسول، (ص٣٩٥، ٣٩٦).

(٣) بطن إضم: وادى المدينة الذى يجتمع فيه الوديان الثلاثة، بطحان، وقناة، والعقيق.

(٤) ذو خشب: هو موضع على مرحلة من المدينة إلى الشام يبعد عن المدينة ٣٥ميلا.

(٥) السقيا: موضع يقع فى وادى القرى، معجم البلدان (٣/ ٢٨٨).

(٦) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ١٣٢).

من شأنها صرف أنظار الناس عن معرفة مقاصد الجيوش الإسلامية التى تخرج من أجل الجهاد فى سبيل الله حتى تحقق أهدافها وتَسلم من كيد أعدائها [١].

(٣) أنه بعث العيون لمنع وصول المعلومات إلى الأعداء:

بث النبى ﷺ رجال استخبارات الدولة الإسلامية داخل المدينة وخارجها حتى لا تنتقل أخباره إلى قريش، وأخذ رسول الله ﷺ بالأنقاب [٢]، فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يطوف على الأنقاب قيمًا بهم فيقول: لا تدعوا أحدًا يمر بكم تنكرونه إلا رددتموه.. إلا من سلك إلى مكة فإنه يتحفظ به ويسأل عنه أو ناحية مكة [٣].

إن جمع المعلومات سلاح ذو حدين، وقد استفاد الرسول ﷺ من حدِّه النافع لصالح المسلمين، وأبطل مفعول الحد الآخر باتباعه السرِّية واتخاذها أساسًا لتحركاته واستعداداته؛ ليحرم عدوه من الحصول على المعلومات التى تفيده فى الاستعداد لمجابهة هذا الجيش بالقوة المناسبة [٤].

(٤) دعاؤه ﷺ بأخذ العيون والأخبار عن قريش:

وبعد أن أخذ رسول الله ﷺ بالأسباب البشرية التى فى استطاعته توجَّه إلى الله عز وجل بالدعاء والتضرع قائلًا: «**اللهمَّ خُذ على أسماعهم وأبصارهم فلا يرونا إلا بغتة ولا يسمعوا بنا إلا فجأة**» [٥].

(١) انظر: القيادة العسكرية، (ص٤٩٨).
(٢) الأنقاب: جمع نقب، وهو كالعريف على القوم.
(٣) التحفظ: هو الاحتراز والتيقظ - مغازى الواقدى (٢/ ٧٩٦).
(٤) انظر: القيادة العسكرية، (ص٣٦٥).
(٥) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٨٢).

وهذا شأن النبى ﷺ فى أموره؛ يأخذ بجميع الأسباب البشرية، ولا ينسى التضرع والدعاء لرب البرية ليستمد منه التوفيق والسداد.

(٥) إحباط محاولة تجسس حاطب لصالح قريش:

عندما أكمل النبى ﷺ استعداده للسير إلى فتح مكة، كتب حاطب بن أبى بلتعة كتابًا إلى أهل مكة يخبرهم فيه نبأ تحرك النبى ﷺ إليهم، وأرسله مع امرأة مسافرة إلى مكة، ولكن الله -سبحانه وتعالى- أطلع نبيه ﷺ عن طريق الوحى على هذه الرسالة، فقضى ﷺ على هذه المحاولة وهى فى مهدها.

۞ وسيأتى الحديث عن قصة حاطب رضي الله عنه.

رسالة حاطب بن أبى بلتعة إلى أهل مكة

وقع فى هذه الفترة الدقيقة حادث مُستَغرب. فإن رجلاً من أهل السابقة فى جهاد المشركين تطوع بإرسال كتاب إلى قريش يخبرهم فيه أن محمدًا ﷺ سائرٌ إليهم بجيشه.

وقد رأيت أن المسلمين حراص على إخفاء خطة الغزو[1].

۞ عن (على) رضي الله عنه قال: بعثنى رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة (امرأة) معها كتاب، فخذوه منها، قال: فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالمرأة فقلنا: أخرجى الكتاب، قالت: ما معى كتاب، فقلنا: لتُخرجن الكتاب، أو لنُلقين الثياب، قال: فأخرجته من عقاصها.

---

(١) فقه السيرة للغزالى (ص ٤١٩).

فأتينا به رسول الله ﷺ، فإذا فيه من حاطب بن أبى بلتعة - إلى ناس من المشركين من أهل مكة - يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ: فقال رسول الله ﷺ: «**يا حاطب ما هذا؟**» قال: يا رسول الله، لا تعجل علىَّ، إنى كنت امرءًا مُلصَقًا فى قريش - يقول: كنت حليفًا - ولم أكن من أنفسها، وكان مَن معك من المهاجرين مَن لهم بها قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يدًا يحمون بها قرابتى، ولم أفعله كفرًا ولا ارتدادًا عن دينى ولا رضًا بالكفر بعد الإسلام.

فقال رسول الله ﷺ: «**صدق**». فقال عمر: يا رسول الله دعنى أضرب عنق هذا المنافق. فقال: «**إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم**»، فأنزل الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[1][2].

۞ يقول الأستاذ سيد قطب: على الرغم من كل ما ذاقه المهاجرون من العنت والأذى من قريش فقط ظلت بعض النفوس تود لو وقعت بينهم وبين أهل مكة المحاسنة والمودة، وأن لو انتهت هذه الخصومة القاسية التى تُكلفهم قتال أهليهم وذوى قرابتهم، وتقطع ما بينهم وبينهم من صلات، وكأن الله يريد استقصاء هذه النفوس واستخلاصها من كل هذه

---

(١) سورة الممتحنة: الآية: (١).

(٢) أخرجه البخارى (٣٩٨٣) المغازى، ومسلم (٢٤٩٤) فضائل الصحابة - واللفظ لمسلم -.

الوشائج، وتجريدها لدينه وعقيدته ومنهجه... فكان يأخذهم يومًا بعد يوم بعلاجه الناجع البالغ، بالأحداث والتعقيب على الأحداث ليكون العلاج على مسرح الأحداث، وليكون الطَّرق والحديد ساخن[١].

الخروج إلى فتح مكة

بدأت قوات الفتح مسيرتها المظفرة من المدينة فى العاشر من رمضان سنة ثمان من الهجرة [٢]، بعد أن استخلف النبى ﷺ على المدينة أبا رهم كلثوم بن حصين الغفارى [٣]، وكانوا صيامًا فواصلوا الصوم حتى بلغوا كديدًا فأفطر النبى ﷺ وأفطر الجيش [٤].

۞ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ثم مضى رسول الله ﷺ لسفره، واستخلف على المدينة أبا رهم كلثوم بن الحصين بن عتبة بن خلف الغفارى، وخرج لعشرٍ مضين من رمضان فصام رسول الله وصام الناس معه حتى إذا كانوا بالكديد بين عفان وأمج أفطر ثم مضى حتى نزل مَرَّ الظهران فى عشرة آلاف من المسلمين»[٥].

---

(١) فى ظلال القرآن (٦/ ٣٥٨).

(٢) مسلم- شرح النووى (٣/ ١٧٦) (حديث ١١٣- ١١٤).

(٣) ابن هشام- السيرة (٢/ ٣٩٩)، ابن حجر- المطالب العالية (٤/ ٢٤٨)، الحاكم- المستدرك (٣/ ٤٤)، وانفرد ابن سعد- الطبقات (٢/ ١٣٥) بأنه عبد اللّه بن أم كلثوم، معلقًا.

(٤) البخاري- الصحيح (٥/ ١٨٥)، فتح البارى (٤/ ١٨٠- ١٨١) (حديث ٤٢٧٥)، مسلم- الصحيح (٢/ ٧٨٤) (حديث ١١١٣) وفى رواية ثانية عند مسلم: أن الإفطار كان بكراع الغميم (الصحيح حديث ١١١٤) والموضعان متقاربان.

(٥) قال الهيثمى فى المجمع: (٦/ ١٦٤) فى الصحيح طرف منه فى الصيام، رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق صرح بالسماع، سيرة ابن هشام: (٢/ ٣٩٩-٤٠٠) وصححه ابن حجر فى المطالب العالية (٤/ ٢٣٨)، وصححه الحاكم (٣/ ٤٤)، ووافقه الذهبى.

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «أن رسول الله ﷺ خرج عام الفتح إلى مكة في رمضان، فصام حتى بلغ كراع الغميم، فصام الناس، ثم دعا بقدح ماء فرفعه حتى نظر الناس، ثم شرب، فقيل له بعد ذلك أن بعض الناس قد صام: فقال: أولئك العُصاة، أولئك العُصاة»(١).

وفي خروج العباس بأهله وأولاده من مكة -وكان بها بمثابة المراسل العسكري أو مدير الاستخبارات هناك- إشارة إلى أن مهمته فيها قد انتهت، وخاصة إذا لاحظنا أن بقاءه في مكة كان بأمر الرسول ﷺ(٢).

قصة إسلام أبي سفيان بن الحارث وعبد الله بن أبي أُمية

ومضى النبي ﷺ وأصحابه حتى نزل مَرّ الظَّهْرانِ، ومعه عشرةُ آلاف، وعمَّى اللهُ الأخبارَ عن قريش، فهم على وَجَل وارتقاب، وكان أبو سفيان يخرج يتحسَّسُ الأخبار؟ فخرج هو وحكيمُ بنُ حِزام، وبُدَيْل بنُ ورقاء يتحسَّسُونَ الأخبار، وكان العبَّاسُ قد خرج قبل ذلك بأهله وعياله مسلمًا مهاجِرًا، فلقي رسولَ الله. ﷺ بالجُحْفَةِ.

۞ وكان أبو سفيان بن الحارث وعبد الله ابن أبي أمية بن المغيرة قد لقيا رسول الله ﷺ ثنية العقاب فيما بين مكة والمدينة، فالتمسا الدخول عليه، فكلمته أم سلمة فقالت: يا رسول الله ابن عمك، وابن عمتك، وصهرك، فقال: «**لا حاجة لي فيهما أما ابن عمي، فهتك عِرضِي، وأما ابن عمتي وصهري، فهو الذي قال لي بمكة ما قال**».

فلما خرج الخبر إليهما بذلك ومع أبي سفيان بن الحارث ابنٌ له فقال:

(١) أخرجه مسلم (١١١٤) الصيام.

(٢) انظر: تأملات في السيرة النبوية/ محمد السيد الوكيل، (ص٢٥٤).

والله ليأذن رسول الله ﷺ، أو لآخذن بيد ابنى هذا، ثم لنذهبن فى الأرض حتى نموت عطشًا أو جوعًا، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ رَقَّ لهما، فدخلا عليه، فأنشده أبو سفيان قوله فى إسلامه واعتذاره مما كان مضى فيه فقال:

لَعَمْـرُكَ إنِّى حيـنَ أَحْمِـلُ رايـةً ... لِتَغْلِبَ خَيْلُ اللاتِ خَيْلَ مُحَمَّدِ
لَكَالمُدْلِجِ الحَيْـرَانِ أَظْلَـمَ لَيْلُـه ... فَهذَا أوانى حِينَ أُهْدَى فَأَهْتَدِى
هَـدَانِىَ هَـادٍ غَيْرُ نَفْسِى وَدَلَّنِى ... عَلى اللـهِ مَنْ طَـرَّدْت كُـلَّ مُطَـرَّدِ

فضرب رسول الله ﷺ صدرَه وقال: «أَنْتَ طَرَّدْتَنِى كُلَّ مُطَرَّدٍ»[(١)] [(٢)].

كان أبو سفيان بن الحارث يهجو بشعره رسول الله ﷺ كثيرًا، وأما عبد الله بن أمية فقد قال لرسول الله ﷺ: «فوالله لا أومن بك حتى تتخذ إلى السماء سُلَّمًا ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها، ثم تأتى بصكٍّ معه أربعة من الملائكة يشهدون لك كما تقول، ثم وايم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أنى أصدقك»[(٣)].

ومع فداحة جُرمهما فإن النبى ﷺ عفا عنهما وقَبِل عذرهما.

وهذا مثال عالٍ فى الرحمة والعفو والتسامح، ولقد كفَّر أبو سفيان بن الحارث عن أشعاره السابقة بهذه القصيدة البليغة التى قالها فى مدح النبى ﷺ وبيان اهتدائه به، ولقد حسن إسلامه، وكان له موقف مشرف فى الجهاد مع رسول الله فى معركة حُنين[(٤)].

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٤٠٠).

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٤٣، ٤٤) من حديث ابن عباس، وسنده جيد، وصححه الحاكم ووافقه الذهبى.

(٣) انظر: ابن هشام (١/ ٢٩٥- ٣٠٠).

(٤) انظر: التاريخ الإسلامى (٧/ ١٨٢).

زعماء قريش يتحسسوا الأخبار

خرج ثلاثة من زعماء قريش من مكة ليتحسسوا الأخبار عن رسول الله ﷺ والمسلمين وهم أبو سفيان بن حرب، وحكيم بن حزام، وبُديل بن ورقاء، ولم تكن الأخبار قد وصلت مسامع قريش عن خروج المسلمين وتقدُّمهم ووصولهم إلى مرّ الظهران، ولكنهم كانوا يتوقعون أمرًا بسبب فشل سفارة أبى سفيان إلى المدينة ومسعاه عند الرسول ﷺ فى تجديد معاهدة الصلح، وكان الزعماء القرشيون الثلاثة قد أبصروا جيشًا كثيفًا يعسكر فى المنطقة ولا حظوا كثرة نيران معسكره، وكان أبو سفيان ورفيقاه يتناقشون فى أمر هذا الجيش، فقد ظن بديل بن ورقاء أنها جموع خزاعة، وعارضه أبو سفيان فى ذلك، فمرَّ بهم العباس بن عبد المطلب وأخبرهم بأنه جيش المسلمين، وحين سألوه عن رأيه طلب من أبى سفيان أن يمضى معه وبجواره إلى معسكر المسلمين، رغبة من العباس فيما يبدو فى أن يصون مكة ويمنع الدماء والقتال، فوافقه أبو سفيان، ولما دخل أبو سفيان معسكر المسلمين أراد عمر قتله واستأذن الرسول ﷺ فى ذلك فصرفه عنه، وأدخل العباس أبا سفيان على الرسول ﷺ، فدعاه إلى الإسلام، وأمضى معه فى ذلك شطرًا من الليل، فتلطف فى الكلام غير أنه تردد فى إعلان إسلامه، ولكنه بعد أن أمضى ما بقى من ليلته تلك مع العباس عاد فى صباح اليوم التالى فحضر مجلس النبى ﷺ وأسلم[1].

---

(١) ابن حجر - المطالب العالية (٤/ ٢٤٤)، قال ابن حجر وهو حديث صحيح، وقد أسلم بديل الخزاعى وحكيم بن حزام حال وصولهما النبى ﷺ - الواقدي - مغازى (٢/ ٨١٥)، ابن سعد- الطبقات (٢/ ١٣٥).

قصة إسلام أبي سفيان

۞ لقد تابع النبي ﷺ سيره حتى أتى مر الظهران[١] فنزل فيه عشاءً، فأمر الجيش فأوقدوا النيران، فأُوقدت عشرة آلاف نار، وجعل رسول الله على الحرس عمر بن الخطاب[٢] .

«فلما نزل رسول الله بمر الظهران قال العباس: واصباح قريش، والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عُنوة قبل أن يستأمنوه إنه لهلاك قريش آخر الدهر.

قال: فجلست على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء، فخرجت عليها حتى جئت الأراك، فقلت: لعلِّي ألقى بعض الحطابة أو صاحب لبن، أو ذا حاجة يأتي مكة فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ فيستأمنوه قبل أن يدخلها عنوة، قال: فوالله إني لأسير عليها، وألتمس ما خرجت له إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء، وهما يتراجعان، وأبو سفيان يقول: ما رأيت كاليوم قط نيرانًا ولا عسكرًا، قال: يقول بديل: هذه والله نيران خزاعة قد حمشها الحرب فقال أبو سفيان: خزاعة والله أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها فقلت: يا أبا حنظلة، تعرف صوتي؟ فقال: أبو الفضل؟ قلت: نعم، قال: ما لك فداك أبي وأمي؟ فقلت: هذا والله رسول الله في الناس، واصباح قريش! قال: فما الحيلة، فداك أبي وأمي؟ قال: قلت: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب عجز هذه البغلة، فركب، ورجع صاحباه، فخرجت به فكلما مررت بنار من نيران المسلمين، فقالوا: ما هذا؟ فإذا

---

(١) مر الظهران: وادٍ من أودية الحجاز شمال مكة بـ ٢٢كم.

(٢) انظر: معين السيرة، (ص٣٨٧)، الطبقات لابن سعد (٢/ ١٣٥).

رأوا بغلة رسول الله ﷺ عليها عمه قالوا: هذه بغلة رسول الله ﷺ عليها عمه، حتى مررنا بنار عمر بن الخطاب فقال: من هذا؟ وقام إلىَّ فلما رآه على عجز البغلة عرفه، فقال: هذا والله عدو الله، الحمد لله الذى أمكن منك، فخرج يشتد نحو رسول الله ﷺ ودخل، ورفعت البغلة فسبقته بقدر ما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطىء، فاقتحمت عن البغلة، فدخلت على رسول الله ﷺ ودخل عمر.

فقال: هذا عدو الله أبو سفيان قد أمكن الله منه، فى غير عهد ولا عقد، فدعنى أضرب عنقه، فقلت: قد أجرته يا رسول الله ﷺ ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه، فقلت: والله لا يناجيه الليلة رجل دونى، فلما أكثر عمر، قلت: مهلاً يا عمر، فوالله لو كان رجلاً من بنى عدى ما قلت هذا، ولكنه من بنى عبد مناف، فقال: مهلاً يا عباس، لا تقل هذا، فوالله لإسلامك حين أسلمتَ كان أحب إلىَّ من إسلام الخطاب (أبى) لو أسلم، وذلك أنى عرفت أن إسلامك أحب إلى رسول الله من إسلام الخطاب، فقال رسول الله ﷺ: «**يا عباس اذهب به إلى رَحلك، فإذا أصبحت فائتنا به**».

فذهبت به إلى الرحل،فلما أصبحت غدوت به، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «**ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟**» فقال: بأبى وأمى ما أحلمك، وأكرمك وأوصلك، وأعظم عفوك، لقد كاد أن يقع فى نفسى أن لو كان إله غيره لقد أغنى شيئًا بعد، فقال: «**ويحك يا أبا سفيان: ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله؟**» فقال: بأبى وأمى ما أحلمك، وأكرمك وأوصلك، وأعظم عفوك، أما هذا فكان فى النفس منها حتى الآن شىء.

قال العباس: فقلت: ويلك أسلم، واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا

رسول الله قبل أن يضرب عنقك، فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، قال العباس: فقلت: يا رسول الله! إن أبا سفيان يحب الفخر، فاجعل له شيئًا، فقال: «**نعم... مَن دخل دار أبى سفيان فهو آمِن، ومن أغلق بابه فهو آمن**».

فلما انصرف إلى مكة ليخبرهم، قال رسول الله ﷺ: «**احبسه بمضيق من الوادى عند حطم الخيل**(١)**، حتى تمر به جنود الله**».

النبى يُطلع أبا سفيان على قوة المسلمين

۞ أراد النبى ﷺ أن يُطلع أبا سفيان على قوة المُسلمين وعددهم وعُدتهم وتنظيمهم.. فأمر النبى ﷺ عمه العباس أن يقف مع أبى سفيان عند مضيق الجبل بمرِّ الظهران.

فحبسه العباس حيث أمره رسول الله ﷺ، فمرت القبائل على ركابها، فكلما مرت قبيلة، قال: من هذه؟ فأقول: بنو سليم، فيقول: ما لى ولبنى سليم، ثم تمر أخرى فيقول: ما هؤلاء؟ فأقول: مزينة، فيقول: ما لى ولمزينة، فلم يزل يقول ذلك حتى مرت كتيبة رسول الله ﷺ الخضراء(٢)، فيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحدق(٣)، قال: من هؤلاء؟ فقلت: هذا رسول الله فى المهاجرين والأنصار، فقال: ما لأحدٍ بهؤلاء قِبَل(٤)، والله لقد أصبح مُلك ابن أخيك اليوم لعظيم - يعنى النبى ﷺ - فقلت: ويحك يا أبا سفيان، إنها النبوة، قال: فنعم إذًا، فقلت: النَّجاء إلى قومك.

---

(١) حطم الخيل: أى ازدحامها وفى رواية خطم الجبل: أى أنفه.

(٢) الكتيبة الخضراء: ما غلب عليها لبس الحديد، شبَّه سواده بالخضرة، والعرب تطلق الخضرة على السواد.

(٣) الحدق: العيون.

(٤) قِبَل: طاقة ومقدرة.

فخرج حتى أتاهم مكة، فجعل يصيح بأعلى صوته: «يا معشر قريش، هذا محمد، قد أتاكم بما لا قِبَل لكم به، فقامت امرأته هند بنت عتبة، وأخذت بشاربه فقالت: اقتلوه الحميت[١] الدسم[٢] فبئس طليعة قوم، فقال أبو سفيان: لا يغرنكم هذه من أنفسكم.

من دخل دار أبى سفيان فهو آمِن. فقالوا: ويحك ما تغنى عنا دارك. قال: ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد»[٣].

عاد أبو سفيان إلى مكة بعد أن رأى مبلغ قوة المسلمين وكثرتهم واستعدادهم وعدتهم وبسالتهم، وحين دخل مكة صرخ فى قومه مُحذرًا أنه لا قِبَل لهم بما جاء به النبى ﷺ من قوات ونهاهم عن المقاومة، ووجههم إلى ما يحقق أمنهم مما قاله رسول اللّه ﷺ[٤].

۞ إن فى هذه القصة دروسًا وعِبرًا وحِكَمًا فى كيفية معاملة رسول الله ﷺ للنفوس البشرية ... ومن أهم هذه الدروس:

(١) عندما أصبح أبو سفيان رهينة بيد المسلمين، وأصبح رهن إشارة النبى ﷺ، وهمَّ به عمر، وأجاره العباس، ثم جاء فى صبيحة اليوم الثانى

---

(١) الحميت: الزق.

(٢) الدسم الحمش: الأسود الدنى.

(٣) رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح كما قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٦/ ١٦٤-١٦٧)، وانظر المطالب العالية حديث رقم (٤٣٦٢) حيث قال: أخرجه إسحاق بن راهويه، وقال ابن حجر: هذا حديث صحيح. وأخرج البخارى من مرسل عروة فى المغازى باب أين ركز النبى الراية يوم الفتح حديث رقم (٤٢٨٠).

(٤) حديث «**من دخل دار أبى سفيان فهو آمن..**» من رواية إسحاق بن راهويه، وهو صحيح وقد مَرَّ ذكره آنفًا.

ليَمْثُل بين يدى رسول الله ﷺ وكانت المفاجأة الصاعقة له بدل التوبيخ والتهديد والإذلال أن يُدعَى إلى الإسلام، فتأثر بهذا الموقف واهتز كيانه؛ فلم يملك إلا أن يقول: بأبى أنت وأمى يا محمد، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! إنه يفدى رسول الله ﷺ بأبيه وأمه، ويثنى عليه الخير كله: ما أحلمك وأكرمك وأوصلك![1] وعندما قال العباس للنبى ﷺ: إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئًا قال النبى ﷺ: **«نعم، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن»** ففى تخصيص بيت أبى سفيان شيئًا يشبع ما تتطلع إليه نفس أبى سفيان، وفى هذا تثبيت له على الإسلام وتقوية لإيمانه[2] وكان هذا الأسلوب النبوى الكريم عاملًا على امتصاص الحقد من قلب أبى سفيان، وبَرْهَن له بأن المكانة التى كانت له عند قريش، لن تُنتقص شيئًا فى الإسلام، إن هو أخلص له وبذل فى سبيله[3] وهذا منهج نبوى كريم على العلماء والدعاة إلى الله أن يستوعبوه ويعملوا به فى تعاملهم مع الناس.

(٢) وفى قول رسول الله ﷺ لعمه العباس عن أبى سفيان: **«احبسه بمضيق الوادي، حتى تمر به جنود الله فيراها»**[4] ففعل العباس، وكان ﷺ يريد أن يَشُنَّ حربًا نفسية للتأثير على معنويات قريش حتى يتسنى له القضاء على روح المقاومة عند زعيم مكة، وحتى يرى أبو سفيان بعينى رأسه مدى قوة ما وصل إليه الجيش الإسلامى من تسليح وتنظيم وحسن طاعة وانضباط؛ وبذلك تتحطم أى فكرة فى نفوس المكيين يمكن أن تحملهم

---

(١) انظر: فقه السيرة النبوية للغضبان، (ص٥٦٤).

(٢) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٤٠٣).

(٣) انظر: قراءة سياسية للسيرة النبوية/ محمد رواس، (ص٢٤٥).

(٤) انظر: سيرة ابن هشام (٤/ ٥٢).

على مقاومة هذا الجيش المبارك إذا دخل مكة لتحريرها من براثن الشرك والوثنية[١]، وبالفعل تم ما رسمه رسول الله ﷺ، وأدرك أبو سفيان قوة المسلمين، وأنه لا قِبَل لقريش بهم، حتى إذا مرت به كتيبة المهاجرين والأنصار قال أبو سفيان: سبحان الله! يا عباس، مَن هؤلاء؟ قال: قلت: هذا رسول الله ﷺ فى المهاجرين والأنصار، قال: ما لأحدٍ بهؤلاء قِبَل ولا طاقة والله يا أبا الفضل، لقد أصبح مُلك ابن أخيك الغداة عظيمًا، قال: قلت: يا أبا سفيان، إنها النبوة، قال: نعم إذاً....[٢].

«إنها النبوة»؛ تلك هى الكلمة التى أدارتها الحكمة الإلهية على لسان العباس، حتى تصبح الرد الباقى إلى يوم القيامة على كل من يتوهم أو يوهم أن دعوة النبى ﷺ إنما كانت ابتغاء ملك أو زعامة، أو إحياء قومية أو عصبية، وهى كلمة جاءت عنوانًا لحياة رسول الله ﷺ من أولها إلى آخرها، فقد كانت ساعات عمره ومراحلها كلها دليلاً ناطقًا على أنه بُعث لتبليغ رسالة الله إلى الناس، لا لإشادة ملك لنفسه فى الأرض[٣].

لقد تعمد النبى ﷺ شن الحرب النفسية على أعدائه أثناء سيره لفتح مكة، حيث أمر رسول الله ﷺ بإيقاد النيران فأوقدوا عشرة آلاف نار فى ليلة واحدة حتى ملأت الأفق، فكان لمعسكرهم منظر مهيب كادت تنخلع قلوب القريشيين من شدة هوله[٤]، وقد قصد النبى ﷺ من ذلك تحطيم نفسيات أعدائه والقضاء على معنوياتهم حتى لا يفكروا فى أية مقاومة، وإجبارهم

---

(١) انظر: القيادة العسكرية فى عهد الرسول، (ص٤٤٧).

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٥٢).

(٣) انظر: فقه السيرة النبوية، (ص٢٧٥).

(٤) انظر: الطبقات لابن سعد (٢/ ١٣٥).

على الاستسلام لكى يتم له تحقيق هدفه دون إراقة دماء، وبتطبيق هذا الأسلوب تم له ﷺ ما أراد، ولقد كان اهتمام النبى ﷺ بمعنويات المقاتل ونفسيته سبقًا عسكريًّا؛ بدليل أن المدارس العسكرية التى جاءت فيما بعد جعلت هذا الأمر موضع العناية والاهتمام من الناحية العسكرية[1].

هذا يومٌ يُعظم الله فيه الكعبة

۞ وفى تلك الأثناء التى كان النبى ﷺ يستعرض فيها جيش المسلمين أمام أبى سفيان.

أقبلت كتيبة لم يُرَ مثلها، قال: من هذه؟ قال: هؤلاء الأنصار عليهم سعد بن عبادة معه الراية، فقال سعد بن عبادة: يا أبا سفيان اليوم يوم الملحمة، واليوم تُستحلّ الكعبة.

فقال أبو سفيان: يا عباس حبذا يوم الذمار...

ثم جاءت كتيبة وهى أقل الكتائب، فيهم رسول الله ﷺ وأصحابه، وراية النبى ﷺ مع الزبير بن العوام، فلما مر رسول الله ﷺ بأبى سفيان قال: ألم تعلم ما قال سعد بن عبادة؟ قال: «**ما قال؟**» قال: قال كذا وكذا، فقال: «**كذب سعد، ولكن هذا يومٌ يُعظم الله فيه الكعبة، ويومٌ تُكسى فيه الكعبة**»[2].

خطة النبى ﷺ لدخول مكة وفتحها

لقد كان أول ما بدأ به النبى ﷺ فتح مكة هو توزيع المهام بين أصحابه ليعرف كل واحدٍ منهم ما هو الدور المطلوب منه.

(١) انظر: العبقرية العسكرية وغزوات الرسول/ اللواء محمد فرج، (ص٥٦٥)، نقلًا عن غزوات الرسول.

(٢) رواه البخارى (٤٢٨٠) كتاب المغازي.

ولذا فإنه عندما وصل النبى ﷺ إلى ذى طوى[١] وزع المهام، فجعل خالد بن الوليد على المجنبة اليمنى، وجعل الزبير على المجنبة اليسرى، وجعل أبا عبيدة على البياذقة[٢] وبطن الوادي، فقال: «**يا أبا هريرة ادعُ لى الأنصار**» فدعاهم فجاءوا يهرولون، فقال: «**يا معشر الأنصار، هل ترون أوباش قريش؟**» قالوا: نعم، قال: «**انظروا إذا لقيتموهم غدًا أن تحصدوهم حصدًا**» وأخفى بيده ووضع يمينه على شماله وقال: «**موعدكم الصفا**»[٣].

وبعث رسول الله ﷺ الزبير بن العوام على المهاجرين وخيلهم، وأمره أن يدخل من كداء من أعلى مكة وأمره أن يغرز رايته بالحجون، ولا يبرح حتى يأتيه، وبعث خالد بن الوليد فى قبائل قضاعة وسليم وغيرهم وأمره أن يدخل من أسفل مكة، وأن يغرز رايته عند أدنى البيوت، وبعث سعد بن عبادة فى كتيبة الأنصار فى مقدمة رسول الله ﷺ، وأمرهم أن يكفوا أيديهم ولا يقاتلوا إلا مَن قاتلهم[٤]. وبهذا كانت المسئوليات واضحة، وكُلٌّ قد عرف ما أُسند إليه من مهام والطريق الذى ينبغى أن يسير فيه[٥].

ودخلت قوات المسلمين مكة من جهاتها الأربع فى آنٍ واحدٍ، ولم تلقَ تلك القوات مقاومة، وكان فى دخول جيش المسلمين من الجهات الأربع ضربة قاضية لفلول المشركين، حيث عجزت عن التجمع، وضاعت منها فرصة المقاومة، وهذا من التدابير الحربية الحكيمة التى لجأ إليها رسول الله ﷺ عندما أصبح فى مركز القوة فى العدد والعتاد، ونجحت خطة

---

(١) انظر: معين السيرة، (ص٣٨٩).

(٢) البياذقة: الرجالة.

(٣) مسلم، باب فتح مكة.

(٤، ٥) انظر: معين السيرة، (ص٣٩٠).

الرسول ﷺ؛ فلم يستطع المشركون المقاومة، ولا الصمود أمام الجيش الزاحف إلى أم القرى، فاحتل كل فيلق منطقته التى وُجِّه إليها، فى سِلْمٍ واستسلام، إلا ما كان من المنطقة التى توجه إليها خالد[١]، فقد تجمع متطرفوا قريش ومنهم صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبى جهل، وسهيل بن عمرو وغيرهم مع بعض حلفائهم فى مكان اسمه (الخندمة) وتصدُّوا للقوات المتقدمة بالسهام، وصمموا على القتال، فأصدر خالد بن الوليد أوامره بالانقضاض عليهم، وما هى إلا لحظات حتى قضى على تلك القوة الضعيفة وشتَّت شمل أفرادها، وبذلك أكمل الجيش السيطرة على مكة المكرمة[٢]. وقد حدثتنا كتب السيرة والتاريخ عن قصة حماس بن خالد من قبيلة بنى بكر، فقد أعد سلاحًا لمقاتلة المسلمين، وكانت امرأته إذا رأته يصلحه ويتعهده تسأله: لماذا تُعدُّ ما أرى؟ فيقول: لمحمد وأصحابه، وقالت امرأته له يومًا: والله ما أرى أنه يقوم لمحمد وصحبه شيء، فقال: إنى والله لأرجو أن أخدمك بعضهم.. ثم قال:

إن يقبلوا اليوم فما لى علة ... هذا سلاح كامل وألَّة[٣]

وذو غرارين سريع السلة

فلما جاء يوم الفتح ناوش حماس هذا شيئًا من قتال مع رجال عكرمة، ثم أحسَّ بالمشركين يتطايرون من حوله أمام جيش خالد، فخرج منهزمًا حتى بلغ بيته فقال لامرأته: أغلقى عليَّ الباب...

---

(١) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوى فى المدينة، (ص٣٩٧).

(٢) انظر: قيادة الرسول ﷺ السياسية والعسكرية، (ص١٢٢، ١٢٣).

(٣) ألة: حربة.

فقالت المرأة لفارسها المعلم: فأين ما كنت تقول؟

فقال يعتذر لها:

إنك لو شهدت يوم الخندمة   إذ فرَّ صفوان وفرَّ عكرمة
وأبو يزيد قائم كالمؤتمة[١]   واستقبلتهم بالسيوف المسلمة
يقطعن كل ساعدٍ وجمجمة   ضربًا فلا تسمع إلا غمغمة
لهم نهيتٌ[٢] خلفنا وهمهمة   لم تنطقى باللوم أدنى كلمة[٣]

لقد أُعلن فى مكة قبيل دخول جيش المسلمين أسلوب منع التجول؛ لكى يتمكنوا من دخول مكة بأقل قدر من الاشتباكات والاستفزازات، وإراقة الدماء، وكان الشعار المرفوع: «من دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن»، وجعل ﷺ لدار أبى سفيان مكانة خاصة كى يكون أبو سفيان ساعده فى إقناع المكيين بالسلم والهدوء، ويستخدمه كمفتاح أمان يفتح أمامه الطريق إلى مكة دون إراقة دماء، ويُشبع فى نفسه عاطفة الفخر التى يحبها أبو سفيان حتى يتمكن الإيمان من قلبه[٤].

لقد دخل أبو سفيان إلى مكة مسرعًا ونادى بأعلى صوته:

يا معشر قريش، هذا محمد جاءكم فيما لا قِبَل لكم به، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن، فقامت إليه هند بنت عتبة فأخذت بشاربه فقالت:

---

(١) المؤتمة: الأسطوانة - وأبو يزيد: سهيل بن عمرو.

(٢) النهيت: صوت الصدر.

(٣) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٩٥).

(٤) انظر: دراسة فى السيرة/ د. عماد الدين خليل (ص٢٤٥).

اقتلوا الحميت الدسم الأحمس -تشبهه بالزق لسمنه-، قبح من طليعة قوم. قال: ويلكم! لا تغرنكم هذه من أنفسكم؛ فإنه قد جاءكم ما لا قِبَل لكم به، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن، قالوا: قاتلك الله! وما تغنى عنا دارك؟! قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن. وتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد[١].

وحرص النبى ﷺ أن يدخل الكداء التى بأعلى مكة[٢] تحقيقًا لقول صاحبه الشاعر المبدع حسان بن ثابت، حين هجا قريشًا وأخبرهم بأن خيل الله تعالى ستدخل من كداء، ... وتُعَدُّ هذه القصيدة من أروع ما قال حسان، حيث قال:

عدمنا خيلنا إن لم تروها ... تثير النقع[٣] موعدها كداء

ينازعن الأعنة مصغيات ... على أكتافها الأسل الظماء

تظل جيادنا متمطرات ... يلطمهن بالخُمُرِ النساء

فإما تعرضوا عنا اعتمرنا ... وكان الفتح وانكشف الغطاء

وإلا فاصبروا لجلاد يومٍ ... يعز[٤] الله فيه من يشاء

وجبريل رسول الله فينا ... وروح القدس ليس له كفاء

وقال الله قد أرسلت عبدًا ... يقول الحق إن نفع البلاء

شهدت به فقوموا صدقوه ... فقلتم لا نقوم ولا نشاء

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٩٠).

(٢) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٥٢٤.

(٣) النقع: موضع قرب مكة، أو الغبار.

(٤) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٠٩).

وقال الله قد سيرت جندًا ... هم الأنصار عرضتها اللقاء
لنا في كل يوم من معد ... سباب أو قتال أو هجاء
فنحكم بالقوافي مَن هجانا ... ونضرب حين تختلط الدماء
ألا أبلغ أبا سفيان عني ... مغلغلة[1] فقد برح الخفاء
بأن سيوفنا تركتك عبدًا ... وعبد الدار سادتها الإماء
هجوتَ محمدًا فأجبتُ عنه ... وعند الله في ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفءٍ؟! ... فشركما لخيركما الفداء
هجوت مباركًا برًّا حنيفًا ... أمين الله شيمته الوفاء
أمن يهجو رسول الله منكم ... ويحمده وينصره سواء
فإن أَبِي ووالده وعرضي ... لعرض محمدٍ منكم وقاء
لساني صارم لا عيب فيه ... وبحري لا تكدره الدلاء[2]

ومما يؤيد حرص النبي ﷺ على دخوله من كداء ما جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لما دخل رسول الله ﷺ عام الفتح رأى النساء يلطمن وجوه الخيل بالخُمر[3]؛ فتبسم إلى أبي بكر فقال: «يا أبا بكر، كيف قال حسان؟» فأنشده قوله:

تظل جيادنا متمطرات ... تلطمهن بالخُمُر النساء[4]

---

(١) مغلغلة: رسالة محمولة من بلد إلى بلد.

(٢) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٠٩).

(٣) الخُمر جمع خمار، مأخوذ من الخمر وهو الستر وهو ما تستر به النساء وجوههن.

(٤) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٨٣١).

ماذا كان يلبس النبى ﷺ أثناء دخوله مكة

۞ عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أن رسول الله ﷺ دخل يوم فتح مكة وعليه عمامة سوداء بغير إحرام»(١).

۞ وقد جاء أيضًا من حديث عمرو بن حريث «أن النبى ﷺ كان يوم فتح مكة يلبس عمامة حرقانية سوداء»(٢).

تواضع النبى ﷺ يوم الفتح

۞ لم يكن النبى ﷺ متواضعًا فى يوم فتح مكة فحسب.. بل كان النبى ﷺ متواضعًا فى كل لحظة من حياته.. فهو سيد المتواضعين الذى علَّم الكون كله نعمة التواضع.

دخل رسول الله ﷺ مكة وعليه عمامة سوداء بغير إحرام(٣)، وهو واضعٌ رأسه تواضعًا لله، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى إن ذقنه ليكاد يمس واسطة الرحل، ودخل وهو يقرأ سورة الفتح(٤) مستشعرًا بنعمة الفتح وغفران الذنوب، وإفاضة النصر العزيز(٥)، وعندما دخل مكة فاتحًا -وهى قلب جزيرة العرب ومركزها الروحى والسياسي- رفع كل شعار من شعائر العدل والمساواة، والتواضع والخضوع، فأردف أسامة بن زيد(٦) -وهو ابن

(١) أخرجه مسلم (١٣٥٨) الحج.

(٢) أخرجه مسلم (١٣٥٩) الحج.

(٣) أخرجه مسلم (١٣٥٨) الحج.

(٤) البخاري، كتاب المغازى (٥/١٠٨) رقم (٤٢٨١).

(٥) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوى فى المدينة، (ص٣٩٦).

(٦) البخاري، كتاب المغازى رقم (٤٢٨٩).

مولى رسول الله ﷺ ولم يُردف أحدًا من أبناء بني هاشم وأبناء أشراف قريش وهم كثير، وكان ذلك صبح يوم الجمعة لعشرين ليلة خلت من رمضان، سنة ثمانٍ من الهجرة(١).

۞ يقول الشيخ محمد الغزالى رَحِمَهُ ٱللَّهُ فى وصف دخول النبى ﷺ مكة:

على حين كان الجيش الزاحف يتقدم ورسول الله ﷺ على ناقته تتوج هامته عمامة دسماء، ورأسه خفيض من شدة التخشع لله، لقد انحنى على رَحْلِه وبدا عليه التواضع الجمّ.. إن الموكب الفخم المهيب الذى ينساب به حثيثًا إلى جوف الحرم، والفيلق الدارع الذى يحف به ينتظر إشارة منه فلا يبقى بمكة شيء آمن، إن هذا الفتح المبين ليُذكره بماضٍ طويل الفصول: كيف خرج مُطَارَدًا؟ وكيف يعود اليوم منصورًا مؤيدًا؟ وأى كرامة عُظمَى حَفَّه الله بها هذا الصباح الميمون؟ وكلما استشعر هذه النعماء ازداد لله على راحلته خشوعًا وانحناءً...(٢).

النبى ﷺ يقرأ سورة الفتح

۞ **عن عبد الله بن مغفل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال:** «رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته، وهو يقرأ سورة الفتح يُرجِّع، وقال: لو لا أن يجتمع الناس حولى لرجَّعت كما رجع»(٣).

۞ وهكذا لم يدخل النبى ﷺ مكة دخول الفاتحين، بل إنه دخل

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبى الحسن الندوي، (ص٣٣٧).

(٢) انظر: فقه السيرة للغزالي، (ص٣٧٩، ٣٨٠).

(٣) أخرجه البخارى (٤٢٨١) المغازى، ومسلم (٧٩٤) صلاة المسافرين.

خاشعًا لله تعالى وهو يقرأ سورة الفتح ويُرجّع فى قراءتها وهو على راحلته(١)، وقد دخل المسجد الحرام وطاف بالكعبة المشرفة فاستلم الركن بمحجنه كراهة أن يزاحم الطائفين ولكى يُعلّم أبناء الأمة آداب الطواف... وأعلن ﷺ حُرمة مكة وبأنها لا تُغزَى بعد الفتح(٢)، ورفع من مكانة قريش وأمر بألا يُقتل قرشى صبرًا بعد الفتح وإلى يوم القيامة(٣).

راية النبى ﷺ يوم الفتح

۞ ورُكزت راية النبى ﷺ يوم الفتح بالحجون كما جاء فى مرسل عروة ابن الزبير الذى رواه الإمام البخارى فى صحيحه(٤).

النبى ﷺ يطهر المسجد الحرام من الأصنام

وسكنت مكة واستسلم سادتها وأتباعها. وعلتْ كلمة الله فى جنباتها، ثم نهض رسول الله إلى البيت العتيق فطوَّف به وأخذ يكسر الأصنام المصفوفة حوله. ويضربها بقوسه ظهرًا لبطن، فتقع على الأرض مهشمة متناثرة.

كانت هذه الحجارة ـ قبل ساعة ـ آلهة مقدسة وهى ـ الآن ـ جص وتراب وأنقاض! يهدمها نبى التوحيد وهو يقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾(٥)(٦).

---

(١) أخرجه البخارى (٤٢٨١).

(٢) أخرجه الترمذى (٣/ ٨٣).. وهو حسن صحيح.

(٣) نضرة النعيم (١/ ٣٦٩).

(٤) أخرجه البخارى (٤٢٨٠).

(٥) سورة الإسراء: الآية: (٨١).

(٦) فقه السيرة للغزالى (ص ٤٢٦).

۞ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «دخل النبى ﷺ مكة يوم الفتح، وحول البيت ستون وثلاثمائة نُصُب، فجعل يطعنها بعودٍ فى يده، ويقول: «**جاء الحق، وزهق الباطل، جاء الحق، وما يُبدئ الباطل وما يعيد**»[(١)].

۞ وعن أبى هريرة (فى حديثه السابق) قال: «... وأغلق الناس أبوابهم. قال: وأقبل رسول الله ﷺ حتى أقبل إلى الحجر. فاستلمه. ثم طاف بالبيت. قال: فأتى على صنم إلى جنب البيت كانوا يعبدونه. قال: وفى يد رسول الله ﷺ قوس. وهو آخذ بِسِيَةِ[(٢)] القوس. فلما أتى على الصنم جعل يطعنه فى عينه ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل». فلما فرغ من طوافه أتى الصفا فعلا عليه. حتى نظر إلى البيت. ورفع يديه. فجعل يحمد الله ويدعو بما شاء أن يدعو[(٣)].

وإنه لمظهر رائع لنصر الله وعظيم تأييده لرسوله، إذ كان يطعن تلك الآلهة الزائفة المنثورة حول الكعبة بعصا معه، فما يكاد يطعن الواحد منها بعصاه حتى ينكفئ على وجهه أو ينقلب على ظهره جذاذًا[(٤)]، ورأى فى الكعبة الصور والتماثيل فأمر بالصور وبالتماثيل فكُسرت[(٥)] وأبى أن يدخل جوف الكعبة حتى أُخرجت الصور، وكان فيها صورة يزعمون أنها صورة إبراهيم وإسماعيل وفى يديهما من الأزلام فقال النبى ﷺ: «**قاتلهم الله؛ لقد**

---

(١) أخرجه البخارى (٤٢٨٧) المغازى، ومسلم (١٧٨١) الجهاد.

(٢) بسية القوس: طرفها المنحنى.

(٣) أخرجه مسلم (١٧٨٠) (٨٤) الجهاد والسير.

(٤) انظر: فقه السيرة (ص ٢٨٢).

(٥) انظر: السيرة النبوية للندوي، (ص٣٣٩).

علموا ما استقسما بها قط...»[١].

۞ وعن جابر رضي الله عنه قال: «دخلنا مع النبي ﷺ مكة في البيت، وحول البيت ثلاثمائة وستون صنمًا تُعبد من دون الله، قال: فأمر بها رسول الله ﷺ فكُبَّت كلها لوجوهها، ثم قال: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[٢] ثم دخل رسول الله ﷺ البيت فصلى ركعتين، فرأى فيه تمثال إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وقد جعلوا في يد إبراهيم الأزلام يستقسم بها، فقال رسول الله ﷺ: «**قاتلهم الله، ما كان إبراهيم يستقسم بالأزلام**»، ثم دعا رسول الله ﷺ بزعفران فلطَّخه بتلك التماثيل»[٣].

النبي ﷺ يصلي داخل الكعبة

۞ **عن ابن عمر** رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ أقبل يوم الفتح من أعلى مكة على راحلته مُردفًا أسامة بن زيد، ومعه بلال، ومعه عثمان بن طلحة من الحجبة حتى أناخ في المسجد، فأمره أن يأتي بمفتاح البيت، ففتح ودخل رسول الله ﷺ، ومعه أسامة وبلال وعثمان، فمكث فيه نهارًا طويلاً، ثم خرج فاستبق الناس، فكان عبد الله بن عمر أول من دخل، فوجد بلالاً وراء الباب قائمًا فسأله، أين صلى رسول الله ﷺ؟ فأشار له إلى المكان الذي صلى فيه، قال عبد الله: فنسيت أن أسأله: كم صلى من سجدة»[٤].

---

(١) البخاري، كتاب المغازي، (٥/ ١١٠) رقم (٤٢٨٨).

(٢) سورة الإسراء: الآية: (٨١).

(٣) أخرجه أبو بكر بن أبي شيبة في المصنف حديث رقم (١٨٧٥١)، وحسنه الحافظ ابن حجر في المطالب العالية حديث رقم (٤٣٦٤)، وحسنه البوصيري أيضًا، وقد جاء قريبًا من هذا اللفظ من حديث ابن عباس عند البخاري حديث رقم (٣٣٥٢)، وأبو داود (٢٠٢٧).

(٤) أخرجه البخاري (٢٩٨٨) الجهاد، ومسلم (١٣٢٩) الحج.

وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ دخل الكعبة هو وأسامة وبلال وعثمان ابن طلحة، فأغلقها عليه ثم مكث فيها، قال ابن عمر: فسألت بلالًا حين خرج: ما صنع رسول الله؟ قال: جعل عمودين عن يساره وعمودًا عن يمينه وثلاثة أعمدة وراءه -وكان البيت يومئذ على ستة أعمدة- ثم صلى[١].

وقد جاء من حديث ابن عباس المروى فى صحيح البخارى ومسلم وعند أحمد «أن النبى ﷺ لم يُصلِّ فى داخل الكعبة»، والصحيح والله أعلم أن المُثبِت مُقدَّم على النافى والذين دخلوا مع النبى ﷺ هم الذين رووا أنه صلى داخلها، وهم أعلم بذلك ممن لم يدخل معه وهو ابن عباس.

وقال الإمام النووى رحمه الله: «أجمع أهل الحديث على الأخذ برواية بلال، لأنه مثبت فمعه زيادة علم فواجب ترجيحه»[٢].

وأما القول أن ابن عباس روى عدم الصلاة فى الكعبة عن أخيه الفضل وهو ممن دخل مع النبى ﷺ فلعل الفضل قد اشتغل بالدعاء، ولذلك لم يرَ النبى ﷺ ... والله أعلم[٣].

إن أكرمكم عند الله أتقاكم

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم فتح مكة فقال: «**يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عُبيَّة الجاهلية وتعاظُمها بآبائها فالناس رجلان: رجلٌ بَرٌّ تقى كريم على الله، وفاجرٌ شقىٌّ هينٌ على الله والناس بنو آدم وخلق الله آدم من التراب.. قال الله:** ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٦١، ٦٢).

(٢) الفتح الربانى (٢١/ ١٥٦).

(٣) صحيح السيرة النبوية (ص٥٣١).

وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[1][2]

لا تثريب عليكم اليوم

۞ وعلى الرغم من شدة الإيذاء الذى نال النبى ﷺ من كفار مكة.. وعلى الرغم من قدرة الجيش فى تلك اللحظة على أن يثأر للنبى ﷺ إلا أن النبى ﷺ آثر أن يعلن العفو العام عن كفار قريش وهم مجتمعون حول الكعبة فقال لهم النبى ﷺ: «**يا معشر قريش، ما ترون أنى فاعلٌ بكم؟**» قالوا: خيرًا، أخ كريم، وابن أخ كريم، قال: «**فإنى أقول لكم كما قال يوسف لإخوته:** ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾[3] ، **اذهبوا فأنتم الطلقاء**».

وقد ترتَّب على هذا العفو العام حفظ الأنفس من القتل أو السبي، وإبقاء الأموال المنقولة والأراضى بيد أصحابها، وعدم فرض الخَراج عليها، فلم تُعامَل مكة كما عوملت المناطق الأخرى المفتوحة عُنوة؛ لقُدسيتها وحرمتها، فإنها دار النُّسك، ومُتعبد الخلق، وحرم الرب تعالى، لذلك ذهب جمهور الأئمة من السلف والخلف إلى أنه لا يجوز بيع أراضى مكة ولا إجارة بيوتها؛ فهى مناخ لمن سبق، يسكن أهلها فيما يحتاجون إلى سُكناه من دورها، وما فضل عن حاجتهم فهو لإقامة الحجاج والمعتمرين والعُباد القاصدين، وذهب آخرون إلى جواز بيع أراضى مكة وإجارة بيوتها، وأدلتهم قوية فى حين أن أدلة المانعين مُرسَلة وموقوفة[4].

---

(١) سورة الحجرات: الآية: (١٣).

(٢) رواه الترمذى (٣٢٧٠) وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٦٨٧).

(٣) سورة يوسف: الآية: (٦٢).

(٤) المجتمع المدنى للعمرى (ص ١٧٩).

اليوم يوم بِرّ ووفاء

ثم جلس النبى ﷺ فى المسجد، فقام إليه علىٌّ رضي الله عنه، ومفتاحُ الكعبة فى يده، فقال: يا رسول الله! اجمَعْ لنا الحِجَابَة مع السِّقَاية صلىَّ الله عليك، فقال رسُول الله ﷺ: «**أين عثمان بن طلحة؟**» فدُعى له.

فقال له: «**هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بِرٍّ ووفاء**»(١).

۞ وذكر ابن سعد فى «الطبقات» عن عثمان بن طلحة، قال: كنا نفتح الكعبة فى الجاهلية يوم الإثنين، والخميس، فأقبلَ رسولُ الله ﷺ يومًا يُريد أن يدخُلَ الكعبة مع الناس، فأغلظتُ له، ونِلتُ منه، فحَلُمَ عنى، ثم قال: «**يا عثمانُ لعلَّك سترى هذا المِفتاح يومًا بيدى أضعُه حيثُ شِئْتُ**، فقلتُ: لقد هلكت قريشٌ يومئذٍ وذلَّت، فقال: **بل عَمُرت وعَزَّت يومئذ**، ودخل الكعبة، فوقعت كلمته منى موقعًا ظننت يومئذ أن الأمر سيصير إلى ما قال، فلما كان يوم الفتح، قال: **يا عثمان ائتنى بالمفتاح**، فأتيته به، فأخذه منى، ثم دفعه إلىَّ وقال: **خذوها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم. يا عثمان إن الله استأمنكم على بيته، فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف**»، قال: فلما وليت، نادانى، فرجعت إليه فقال: «**ألم يكن الذى قلت لك؟**» قال: فذكرت قوله لى بمكة قبل الهجرة: لعلك سترى هذا المفتاح بيدى أضعه حيث شئت، فقلت: بلى أشهد أنك رسول الله(٢).

وهكذا لم يشأ النبى ﷺ أن يستبدَّ بمفتاح الكعبة، بل لم يشأ أن يضعه فى

---

(١) ابن هشام (٢/ ٤١٢).

(٢) طبقات ابن سعد (٢/ ١٣٦-١٣٧)، وانظر «شرح المواهب (٢/ ٣٤٠-٣٤١)، وانظر زاد المعاد (٣/ ٤٠٨-٤٠٩).

أحد من بنى هاشم، وقد تطاول لأخذه رجالٌ منهم، لما فى ذلك من الإثارة، ولما به من مظاهر السيطرة وبسط النفوذ، وليست هذه من مهام النبوة بإطلاق... هذا مفهوم الفتح الأعظم فى شرعة رسول الله ﷺ: البر والوفاء حتى للذين غدروا ومكروا، وتطاولوا[١].

بلالٌ يؤذن فوق الكعبة

وأمر رسولُ الله ﷺ بلالاً أن يصعد فيؤذن على الكعبة، وأبو سفيان ابنُ حرب، وعتَّاب بن أسيد، والحارث بن هشام، وأشراف قريش جُلوسٌ بفناء الكعبة، فقال عتَّاب: لقد أكرم الله أُسيدًا ألا يكون سمع هذا، فيسمع منه ما يغيظه، فقال الحارث: أما واللهِ لو أعلم أنه حقٌّ لاتبعته، فقال أبو سفيان: أما والله لا أقول شيئًا، لو تكلمتُ، لأخبرت عنى هذه الحصباءُ، فخرج عليهم النبىُّ ﷺ فقال لهم: «**قَدْ علمت الذى قلتم**» ثم ذكر ذلك لهم، فقال الحارث وعتَّاب: نشهد أنك رسول الله، والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا، فنقول: أخبرك[٢].

قد أجرنا مَن أجرتِ يا أم هانئ

❁ قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثم دخل رسول الله ﷺ دار أم هانئ بنت أبى طالب فاغتسل، وصلى ثمان ركعات فى بيتها، وكانت ضحى، فظنها مَن ظنها صلاة الضحى، وإنما هذه صلاة الفتح، وكان أمراء الإسلام إذا فتحوا حصنًا أو بلدًا، صلوا عقيب

(١) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوى فى المدينة، (ص٤٠١).

(٢) ابن هشام (٢/ ٤١٣)، زاد المعاد (٣/ ٤٠٩-٤١٠).

الفتح هذه الصلاة اقتداءً برسول الله ﷺ... وفي القصة ما يدل على أنها بسبب الفتح شكرًا لله عليه، فإنها قالت: ما رأيته صلاها قبلها ولا بعدها(١).

قالت أم هانئ بنت أبي طالب: لما نزل رسول الله ﷺ بأعلى مكة فَرَّ إليَّ رجلان من أحمائي، من بني مخزوم، وكانت عند هُبيرة بن أبي وهب المخزومي، قالت: فدخل علي بن أبي طالب أخي، فقال: والله لأقتلنهما، فأغلقت عليهما باب بيتي، ثم جئت رسول الله ﷺ وهو بأعلى مكة، فوجدته يغتسل من جفنة إن فيها لأثر العجين، وفاطمة ابنته تستره بثوبه، فلما اغتسل أخذ ثوبه فتوشح به، ثم صلى ثماني ركعات من الضحى، ثم انصرف إليَّ فقال: «**مرحبًا وأهلا يا أم هانئ، ما جاء بك؟**» فأخبرته خبر الرجلين وخبر عليٍّ، فقال: «**قد أجرنا مَن أجرتِ وأمَّنا من أمَّنتِ، فلا يقتلهما**»(٢).

۞ وعن أم هانئ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «ذهبت إلى رسولِ الله ﷺ عام الفتح فوجدته يغتسل، وفاطمة ابنته تستره، قالت: فسلمت عليه فقال: «**من هذه؟**» فقلت: أنا أم هانئ بنت أبي طالب فقال: «**مرحبًا بأم هانئ**». فلما فرغ من غسله قام فصلى ثماني ركعات ملتحفًا في ثوبٍ واحد، فلما انصرف قلت: يا رسول الله ﷺ زعم ابن أمي أنه قاتل رجلاً قد أجرته (فلان بن هبيرة). فقال رسول الله ﷺ: «**قد أجرنا مَن أجرتِ يا أم هانئ**» قالت: أم هانئ وذاك ضحى»(٣).

النبي ﷺ يُهدر دم بعض المشركين

إلى جانب ذلك الصفح الجميل كان هناك الحزم الأصيل، الذي لا بد

(١) زاد المعاد (٣/ ٤١٠).

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٥٩، ٦٠)، صحيح السيرة، (ص٥٢٧).

(٣) أخرجه البخاري (٣٥٧) الصلاة، ومسلم (٣٣٦) صلاة المسافرين.

أن تتصف به القيادة الحكيمة الرشيدة، ولذلك استثنى قرار العفو الشامل بضعة عشر رجلًا أمر بقتلهم، وإن وُجدوا متعلقين بأستار الكعبة؛ لأنهم عَظُمت جرائمهم فى حق الله ورسوله، وحق الإسلام، ولما كان يخشاه منهم من إثارة الفتنة بين الناس بعد الفتح(١).

۞ قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

ولما استقر الفتح، أمَّنَ رسولُ الله ﷺ النَّاسَ كلهم إلا تسعة نفر، فإنه أمر بقتلهم، وإن وُجدوا تحت أستار الكعبة، وهم: عبد الله بن سعد بن أبى سرح، وعكرمة بن أبى جهل، وعبد العزى بن خطل، والحارث بن نفيل بن وهب، ومقيس بن صبابة، وهبار بن الأسود، وقينتان لابن خطل، كانتا تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ، وسارة مولاة لبعض بنى عبد المطلب.

فأما ابنُ أبى سَرْح فأسلم، فجاء به عثمانُ بن عفان، فاستأمن له رسول الله ﷺ، فقبل منه بعد أن أمسك عنه رجاء أن يقوم إليه بعض الصحابة فيقتله، وكان قد أسلم قبل ذلك، وهاجر، ثم ارتد، ورجع إلى مكة.

وأما عكرمة بنُ أبى جهل، فاستأمنت له امرأته بعد أن فرَّ، فأمَّنه النبى ﷺ، فقدم وأسلم وحَسُن إسلامه.

وأما ابن خطل، والحارث، ومَقِيس، وإحدى القينتين، فقُتلوا، وكان مقيسٌ، قد أسلم، ثم ارتد وقُتل، ولحق بالمشركين، وأما هبار بن الأسود، فهو الذى عرض لزينب بنت رسول الله ﷺ حين هاجرت، فنخس بها حتى سقطت على صخرة، وأسقطت جنينها، ففرَّ، ثم أسلم وحسن إسلامه.

(١) انظر: السيرة النبوية لأبى شهبة (٢/ ٤٥١) تأملات فى السيرة، ص٢٦٢.

واستؤمن رسولُ الله ﷺ لِسارة ولإحدى القَينتين. فأمَّنهما فأسلمتا[(١)].

(وفى رواية) عن مصعب بن سعد عن سعد بن أبى وقاص قال: «لما كان يوم فتح مكة أمَّن رسول الله ﷺ الناس إلا أربعة نفر وامرأتين، وقال: (اقتلوهم، وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة، عكرمة بن أبى جهل، وعبد الله ابن خطل، ومقيس بن صبابة، وعبد الله بن سعد بن أبى السرح).

فأما عبد الله بن خطل فأُدرك وهو متعلق بأستار الكعبة، فاستبق إليه سعيد بن حريث، وعمار بن ياسر، فسبق سعيد عمارًا، وكان أشبَّ الرجلين، فقتله، وأما مقيس ابن صبابة، فأدركه الناس فى السوق فقتلوه. وأما عكرمة، فركب البحر، فأصابتهم عاصف، فقال أصحاب السفينة أخلصوا فإن آلهتكم لا تغنى عنكم شيئًا ههنا. فقال عكرمة: والله لئن لم ينجنى من البحر إلا الإخلاص لا ينجينى فى البر غيره، اللهم إن لك علىَّ عهدًا إن أنت عافيتنى مما أنا فيه أن آتى محمدًا ﷺ حتى أضع يدى فى يده، فلأجدنَّه عفوًّا كريمًا... فجاء فأسلم. وأما عبد الله بن سعد بن أبى السرح فإنه اختبأ عند عثمان بن عفان فلما دعا رسول الله ﷺ إلى البيعة جاء به حتى أوقفه على النبى ﷺ قال: يا رسول الله بايع عبد الله قال: فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثًا كل ذلك يأبى، فبايعه بعد ثلاث، ثم أقبل على أصحابه فقال: «**أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حيث رآنى كففت يدى عن بيعته، فيقتله**»، فقالوا: وما يدرينا يا رسول الله ما فى نفسك هلَّا أومأت إلينا بعينك، قال: «**إنه لا ينبغى لنبى أن يكون له خائنة أعين**»[(٢)].

وهكذا كانت أخلاق النبى ﷺ.

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٤١١).

(٢) رواه النسائى (٧/ ١٠٥)، والحاكم (٣/ ٤٥) وصححه ووافقه الذهبى.

خُطب النبى ﷺ يوم الفتح

ولقد خطب النبى ﷺ بعد فتح مكة عدة خُطب وردت بمرويات صحيحة ومتواترة.

۞ قال ﷺ فى يوم الفتح: **«إن مكة حَرَّمها الله، ولم يُحَرِّمها الناس، لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا، ولا يعضد بها شجرًا، فإنْ أحدٌ ترخَّص لقتال رسول الله ﷺ فيها فقولوا له: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن له فيه ساعة من نهار، وقد عادت حُرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، وليُبلغ الشاهدُ الغائبَ»**[١].

۞ وعن ابن عباس رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ يوم الفتح فتح مكة: **«لا هجرة بعد الفتح؛ ولكن جهاد ونية، وإذا استُنفرتم، فانفروا»**[٢].

وفى غداة الفتح بلغ النبى ﷺ أن خزاعة حلفاءه عَدَتْ على رجل من هُذيل فقتلوه - وهو مشرك- برجل قُتل فى الجاهلية، فغضب وقام بين الناس خطيبًا فقال: **«يا أيها الناس إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهى حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دمًا، ولا يعضد -يقطع- فيها شجرًا، لم تحل لأحدٍ كان قبلي، ولا تحل لأحد يكون بعدي، ولم تحل لى إلا هذه الساعة غضبًا على أهلها، ثم قد رجعت كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فمن قال لكم إن رسول الله ﷺ قد قاتل فيها فقولوا: إن الله قد أحلها**

---

(١) أخرجه البخارى (٤٢٩٥) المغازى، ومسلم فى كتاب الجهاد.

(٢) إذا استنفرتم فانفروا: إذا دعاكم السلطان إلى غزو فاذهبوا.

لرسوله ولم يحلها لكم. يا معشر خزاعة، ارفعوا أيديكم عن القتل، فلقد كثر أن يقع، لقد قتلتم قتيلا لأدينَّه، فمن قتل بعد مقامى هذا فأهله بخير النظرين، إن شاءوا فدم قاتله، وإن شاءوا فعقله»(١). -أي: ديته-.

۞ وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ خطب يوم الفتح بمكة، فكبر ثلاثًا، ثم قال: «لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا إن كل مأثرة كانت فى الجاهلية تُذكَر وتُدعَى من دمٍ أو مالٍ تحت قدمى إلا ما كان من سقاية الحاج، وسدانة البيت. ثم قال: ألا إن دية الخطأ شبه العمد ما كان بالسوط والعصا مائة من الإبل، منها أربعون فى بطنها أولادها»(٢).

۞ وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: «لما فتح الله عز وجل على رسول الله ﷺ مكة، قام فى الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «إن الله حبس عن مكة الفيل وسلط عليها رسوله والمؤمنين، وإنها لن تحل لأحدٍ كان قبلى، وإنها أُحلت لى ساعة من نهار، وإنها لن تحل لأحدٍ بعدى. فلا يُنفر صيدها، ولا يُختلى شوكها ولا تحل ساقطتها(٣)، إلا لمنشد(٤). ومن قُتل له قتيل فهو بخير النظرين، إما أن يفدى وإما أن يقتل».

فقال العباس: إلا الإذخر يا رسول الله! فإنا نجعله فى قبورنا وبيوتنا،

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبى شهبة (٢/ ٤٥١)، وعقله: ديته.

(٢) رواه أبو داود وابن ماجه وأحمد. وإسناد هذا الحديث صحيح رجاله كلهم ثقات وصححه ابن حبان.

(٣) ساقطتها: ما سقط فيها بغفلة مالكه.

(٤) المنشد: المعرف.

فقال رسول الله ﷺ: «**إلا الإذخر**» فقام أبو شاه - رجل من أهل اليمن - فقال: اكتبوا لى يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: «**اكتبوا لأبى شاه**».

قال: فقلت للأوزاعى: ما قوله: اكتبوا لى يا رسول الله؟ قال: هذه الخطبة التى سمعها من رسول الله»[1].

۞ وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو بمكة عام الفتح: «**إن الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة، والخنزير والأصنام**».

فقيل: يا رسول الله أرأيت شحوم الميتة، فإنه يُطلَى به السفن، ويُدهَن بها الجلود، ويستصبح بها الناس، فقال: «**لا، هو حرام**» ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك: «**قاتل الله اليهود، إن الله لما حرم عليها شحومها جملوه**[2] **ثم باعوه، فأكلوا ثمنه**»[3].

المحيا محياكم والممات مماتكم

عن أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: (.. ثم أتى النبى ﷺ الصفا، فعلاه حيث ينظر إلى البيت، فرفع يديه، فجعل يذكر الله بما شاء أن يذكره، ويدعوه، قال: والأنصار تحته، قال يقول بعضهم لبعض: أما الرجل فأدركته رغبة فى قريته، ورأفة بعشيرته.

قال أبو هريرة: وجاء الوحى. وكان إذا جاء الوحى لا يخفى علينا. فإذا

(١) أخرجه البخارى (٢٤٣٤) اللقطة، ومسلم (١٣٥٥) الحج - واللفظ لمُسلم.

(٢) جملوه: أذابوه.

(٣) أخرجه البخارى (٢٢٣٦) البيوع، ومسلم (١٥٨١) المساقاة.

جاء فليس أحد يرفع طرفه إلى رسول الله ﷺ حتى ينقضى الوحى. فلما انقضى الوحى قال رسول الله ﷺ: «**يا معشر الأنصار!**» قالوا: لبيك. يا رسول الله! قال: «**قلتم: أما الرجل فأدركته رغبة فى قريته**». قالوا: قد كان ذاك. قال: «**كلا. إنى عبد الله ورسوله. هاجرت إلى الله وإليكم. والمحيا محياكم. والممات مماتكم**». فأقبلوا إليه يبكون ويقولون: والله! ما قلنا الذى قلنا إلا الضن بالله وبرسوله. فقال رسول الله ﷺ: «**إن الله ورسوله يصدقانكم ويعذرانكم**»(١).

أخذ البيعة

كان من أثر عفو النبى ﷺ الشامل عن أهل مكة، والعفو عن بعض من أهدر دماءهم، أن دخل أهل مكة -رجالاً ونساء وأحرارًا وموالي- فى دين الله طواعية واختيارًا، ... وبدخول مكة تحت راية الإسلام دخل الناس فى دين الله أفواجًا، وتمت النعمة، ووجب الشكر وبايع رسول الله ﷺ الناس جميعًا الرجال والنساء، والكبار والصغار، وبدأ بمبايعة الرجال، فقد جلس لهم على الصفا، فأخذ عليهم البيعة على الإسلام والسمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا، ... وجاء مجاشع بن مسعود بأخيه مجالد بعد يوم الفتح فقال لرسول الله ﷺ: جئتك بأخى لتبايعه على الهجرة، فقال عليه الصلاة والسلام: «**ذهب أهل الهجرة بما فيها**» فقال: على أى شيء تبايعه؟ قال: «**أبايعه على الإسلام والإيمان والجهاد**»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٨٠) الجهاد والسير.

(٢) رواه البخاري(٤٣٠٥) المغازى.

۞ **وعن الأسود بن خلف** رضي الله عنه: «أنه رأى النبى ﷺ يبايع الناس يوم الفتح قال: فجلس عند قرب دار سمرة، قال الأسود: فرأيت النبى ﷺ جلس، فجاءه الناس الصغار والكبار والنساء، فبايعوه، على الإسلام والشهادة فقلت: فما الإسلام قال: الإيمان بالله، فقلت: وما الشهادة؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله»(١).

۞ **وعن عائشة بنت قدامة** رضي الله عنها **قالت**: «أنا مع أمى رائطة بنت سفيان الخزاعية، والنبى ﷺ يبايع النسوة، ويقول: «**أبايعكن على أن لا تُشركن بالله شيئًا، ولا تسرقن ولا تزنين، ولا تقتلن أولادكن، ولا تأتين ببهتانٍ تفترينه بين أيديكن وأرجلكن، ولا تعصين فى معروف**»، قالت: فأطرقن: فقال لهن النبى ﷺ: «**قلن نعم فيما استطعتن**»، فكن يقلن وأقول معهن، وأمى تلقننى: قُولى أى بنية فيما استطعت»(٢).

۞ **وعن عائشة** رضي الله عنها **قالت**: «إن هند بنت عتبة بن ربيعة قالت: يا رسول الله ما كان مما على ظهر الأرض أهل أخباء أو خباء أحب إلىَّ أن يذلوا من أهل خبائك، أو أخبائك، ثم ما أصبح اليوم أهل خباء، أو أخباء أحب إلىَّ من أن يُعَزُّوا من أهل خبائك، أو أخبائك، قال رسول الله ﷺ: «**وأيضًا والذى نفسى محمدٍ بيده**»، قالت: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل مسِّيكٌ ـ يعنى بخيل، فهل علىَّ من حرج أن أطعم من الذى له؟ قال: «**لا... إلا بالمعروف**»(٣).

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٣/ ٤١٥، ٤/ ١٦٨) وسنده حسن، والحافظ فى المستدرك (٣/ ٢٩٦) ولم يتكلم عنه بشىء، وسكت عنه الذهبى، ورجاله ثقات.

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٣٦٥) وسنده حسن، وانظر الإصابة فى تمييز الصحابة (٤/ ٣٥١) ترجمة رقم: (٨١١) وقال الحافظ بعد أن عزاه لأحمد: «ورويناه بعلو فى المعرفة لابن منده من وجه آخر».

(٣) أخرجه البخارى (٦٦٤١) الأيمان والنذور – ومسلم (١٧١٤) الأقضية.

إسلام والد أبى بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

۞ عن أسماء بنت أبى بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «لما وقف رسول الله ﷺ بذى طوى[١] قال أبو قحافة لابنة له من أصغر ولده: أى بُنية اظهرينى على أبى قبيس[٢] قالت: وقد كُفَّ بصره، قالت: فأشرفت به عليه، قال: يا بنية، ماذا ترين؟ قالت: أرى سوادًا مجتمعًا، قال: تلك الخيل، قالت: وأرى رجلاً يسعى بين ذلك السواد مقبلاً ومُدبرًا، قال: يا بنية ذلك الوازع يعنى الذى يأمر الخيل، ويتقدم إليها، ثم قالت: قد والله انتشر السواد، قال: إذًا والله دفعت الخيل، فأسرعى بى إلى بيتى، فانحطت به، وتلقاه الخيل قبل أن يصل إلى بيته، وفى عنق الجارية طوق لها من وِرق - يعنى فضة -، فتلقاها رجل، فاقتلعه منها.

قالت: فلما دخل رسول الله ﷺ مكة، ودخل المسجد أتاه أبو بكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بأبيه يقوده[٣]، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «**هلا تركت الشيخ فى بيته حتى أكون أنا آتيه فيه**»، قال أبو بكر: يا رسول الله هو أحق أن يمشى إليك من أن تمشى أنت إليه، قال: فأجلسه بين يديه، ثم مسح صدره، ثم قال له: «**أسلِم**»، فأسلَم، ودخل به أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على رسول الله ﷺ، ورأسه كأنه ثغامة[٤]، فقال رسول الله ﷺ: «**غيروا هذا من شعره**»، ثم قام أبو بكر فأخذ بيد أخته، فقال: أنشد بالله وبالإسلام طوق أختى فلم يُجبه أحد فقال: يا أُخيَّه احتسبى طوقك»[٥].

(١) ذى طوى: موضع معروف قرب مكة.

(٢) اظهرى بى على أبى قبيس: اصعدى بى على جبل أبى قبيس؛ لأنه كان كفيف البصر.

(٣) يقوده: يمسك بيده.

(٤) ثغامة: نبت أبيض الزهر والثمر يشبه الشيب.

(٥) أخرجه ابن حبان فى الموارد (١٧٠٠)، وابن إسحاق فى المغازى بسند صحيح رجاله ثقات =

ويروى أن رسول الله ﷺ هنأ أبا بكر بإسلام أبيه[١].

وفى هذا الخبر منهج نبوى كريم سَنَّه النبى ﷺ فى توقير كبار السن واحترامهم، ويؤكد ذلك قوله ﷺ: «**ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا**»[٢] وفى قوله ﷺ: «**إن من إجلال الله تعالى إكرام ذى الشيبة المسلم**»[٣] كما أنه ﷺ سَنَّ إكرام أقارب ذوى البلاء والبذل والعطاء والسبق فى الإسلام؛ تقديرًا لهم على ما بذلوه من الخدمة للإسلام والمسلمين ونصر دعوة الله تعالى[٤].

إسلام عكرمة بن أبى جهل رضي الله عنه

۞ وإن كنت قد ذكرتها باختصار قبل ذلك فلقد رأيت أن أذكرها على التفصيل لما فيها من المشاهد المؤثرة.

قال عبد الله بن الزبير رضي الله عنه: قالت أم حكيم امرأة عكرمة بن أبى جهل: يا رسول الله، قد هرب عكرمة منك إلى اليمن، وخاف أن تقتله فأمِّنه، فقال رسول الله ﷺ: «**هو آمِن**»، فخرجت أم حكيم فى طلبه ومعها غلام لها رومي، فراودها عن نفسها، فجعلت تُمنِّيه حتى قدمت على حيٍّ من عكٍّ[٥]

= سيرة ابن هشام: (٢/ ٤٠٥)، وقال الهيثمى فى المجمع (٦/ ١٧٣، ١٧٤) رواه أحمد، والطبرانى، ورجالهما ثقات، والبيهقى فى الدلائل (٥/ ٩٥-٩٦)، والحاكم فى المستدرك (٣/ ٤٦-٤٧)، وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، وسكت عنه الذهبى.

(١) انظر: السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية، (ص٥٧٧).

(٢) انظر: سنن الترمذي، كتاب البر، باب (١٥) رقم (١٩٨٦).

(٣) انظر: سنن أبى داود، كتاب الأدب، باب (٢٠)، رقم (٤٨٤٣).

(٤) انظر: التاريخ الإسلامى للحميدى (٧/ ١٩٥).

(٥) عَكٍّ: مخلاف من مخاليف مكة التهامية - معجم ما استعجم، (ص٢٢٣).

فاستغاثتهم عليه فأوثقوه رباطًا، وأدركت عكرمة، وقد انتهى إلى ساحل من سواحل تهامة فركب البحر، فجعل نُوتيَّ السفينة يقول له: أَخلِص، فقال: أي شيء أقول؟ قال: قل لا إله إلا الله، قال عكرمة: ما هربت إلا من هذا، فجاءت أم حكيم على هذا الكلام، فجعلت تُلح عليه وتقول: يا ابن عم، جئتك من عند أوصل الناس، وأبرّ الناس، وخير الناس، لا تهلك نفسك. فوقف لها حتى أدركته فقالت: إنى قد استأمنت لك محمدًا رسول الله ﷺ. قال: أنت فعلتِ؟ قالت: نعم، أنا كلمته فأمَّنك. فرجع معها وقال: ما لقيتِ من غلامك الرومي؟ فخبرته خبره فقتله عكرمة، وهو يومئذ لم يُسلم، فلما دنا من مكة قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**يأتيكم عكرمة بن أبى جهل مؤمنًا مهاجرًا، فلا تسبوا أباه، فإن سَبَّ الميت يؤذى الحى ولا يبلغ الميت**».

قال: وجعل عكرمة يطلب امرأته يجامعها، فتأبى عليه، وتقول: إنك كافر وأنا مسلمة، فيقول: إن أمرًا منعك منى لأمرٌ كبير، فلما رأى النبى ﷺ عكرمة وثب إليه -وما على النبى ﷺ رداء- فرحًا بعكرمة، ثم جلس رسول الله ﷺ فوقف بين يديه، وزوجته متنقبة، فقال: يا محمد إن هذه أخبرتنى أنك أمَّنتني، فقال رسول الله ﷺ: «**صدقت، فأنت آمِن**» فقال عكرمة: فإلامَ تدعو يا محمد؟ قال: «**أدعوك إلى أن تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله، وأن تقيم الصلاة وتؤتى الزكاة، وتفعل وتفعل**» حتى عَدَّ خصال الإسلام، فقال عكرمة: والله ما دعوت إلا إلى الحق وأمرٍ حسنٍ جميل، قد كنت والله فينا قبل أن تدعو إلى ما دعوت إليه وأنت أصدقنا حديثًا وأبرنا برًّا، ثم قال عكرمة: فإنى أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

فسُرَّ بذلك رسول الله ﷺ، ثم قال: يا رسول الله علمنى خير شيء أقوله،

قال: «**تقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله**» قال عكرمة: ثم ماذا؟ قال رسول الله ﷺ: «**تقول: أُشهد الله وأُشهد مَن حضر أنى مسلم مهاجر ومجاهد**» فقال عكرمة ذلك.

فقال رسول الله: «**لا تسألنى اليوم شيئًا أعطيه أحدًا إلا أعطيتكه**» فقال عكرمة: فإنى أسألك أن تستغفر لى كل عداوة عاديتكها، أو مسير وضعت فيه، أو مقام لقيتك فيه، أو كلام قلته فى وجهك أو وأنت غائب عنه، فقال رسول الله ﷺ: «**اللهم اغفر له كل عداوة عادانيها، وكل مسير سار فيه إلى موضع يريد بذلك المسير إطفاء نورك، فاغفر له ما نال منى من عِرضٍ، فى وجهى أو وأنا غائب عنه**» فقال عكرمة: رضيت يا رسول الله، لا أدع نفقة كنت أنفقها فِى صدٍّ عن سبيل الإسلام إلا أنفقت ضعفها فى سبيل الله، ولا قتالاً كنت أقاتل فى صدٍّ عن سبيل الله إلا أبليت ضعفه فى سبيل الله، ثم اجتهد فى القتال حتى قُتل شهيدًا -أى: فى يوم اليرموك- .

وبعد أن أسلم ردَّ رسول الله ﷺ امرأته له بذلك النكاح الأول[1].

كان سلوك النبى ﷺ فى تعامله مع عكرمة لطيفًا حانيًا يكفى وحده لاجتذابه إلى الإسلام، فقد أعجل نفسه عن لبس ردائه، وابتسم له ورحب به، وفى رواية قال له: «**مرحبًا بالراكب المهاجر**»[2] فتأثر عكرمة من ذلك الموقف فاهتزت مشاعره وتحركت أحاسيسه، فأسلم، كما كان لموقف أم حكيم بنت الحارث بن هشام أثر فى إسلام زوجها، فقد أخذت له الأمان

---

(١) انظر: مغازى الواقدى (٢/ ٨٥١- ٨٥٣).

(٢) انظر: مجمع الزوائد (٩/ ٣٨٥) مرسل ورجاله رجال الصحيح فى إحدى سنديه، وأما الإسناد الآخر من رواية الطبرانى فرجاله رجال الصحيح إلا مصعب بن سعد لم يسمع من عكرمة.

من رسول الله ﷺ، وغامرت بنفسها تبحث عنه لعل الله يهديه إلى الإسلام كما هداها إليه، وعندما أرادها زوجها امتنعت عنه وعللت ذلك بأنه كافر وهى مسلمة، فعظم الإسلام فى عينه وأدرك أنه أمام دينٍ عظيم.

وهكذا خطت أم حكيم فى فكر عكرمة بداية التفكير فى الإسلام ثم تُوِّج بإسلامه بين يدى رسول الله ﷺ، وكان صادقًا فى إسلامه، فلم يطلب من رسول الله ﷺ دنيا، وإنما سأله أن يغفر الله تعالى له كل ما وقع فيه من ذنوب ماضية، ثم أقسم أمام النبى ﷺ بأن يحمل نفسه على الإنفاق فى سبيل الله تعالى بضعف ما كان ينفق فى الجاهلية، وأن يُبلى فى الجهاد فى سبيل الله بضعف ما كان يبذله فى الجاهلية، ولقد بَرَّ بوعده فكان من أشجع المجاهدين والقادة فى سبيل الله تعالى فى حروب الردة ثم فى فتوح الشام حتى وقع شهيدًا فى معركة اليرموك بعد أن بذل نفسه وماله فى سبيل الله[(١)].

إسلام سُهيل بن عمرو رضي الله عنه

قال سهيل بن عمرو: لما دخل رسول الله ﷺ مكة وظهر، انقحمت[(٢)] بيتى وأغلقت عليَّ بابي، وأرسلت إلى ابنى عبد الله بن سهيل أن اطلب لى جوارًا من محمد، وإنى لا آمن من أن أُقتل، وجعلت أتذكر أثرى عند محمد وأصحابه فليس أحد أسوأ أثرًا مني، وإنى لقيت رسول الله ﷺ يوم الحديبية بما لم يلحقه أحد، وكنت الذى كاتبه، مع حضورى بدرًا وأُحدًا، وكلما تحركت قريش كنت فيها ... فذهب عبد الله بن سهيل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ﷺ، تُؤمِّنه؟ فقال: «نعم»، هو آمن بأمان الله، فليظهر،

(١) انظر: التاريخ الإسلامى (٧/ ٢٢٣- ٢٢٥).

(٢) أى رميت بنفسي.

ثم قال رسول الله ﷺ لمن حوله: «**من لقى سهيل بن عمرو فلا يشد النظر إليه، فليخرج، فلعمرى إن سُهَيلًا له عقل وشرف، وما مثل سهيل يجهل الإسلام، ولقد رأى ما كان يوضع فيه أنه لم يكن له بنافع**» فخرج عبد الله إلى أبيه، فقال سهيل: كان والله بَرًّا، صغيرًا وكبيرًا... فكان سهيل يُقبل ويُدبر، وخرج إلى حُنين مع النبى ﷺ وهو على شِرْكِه حتى أسلم بالجعرانة(١).

لقد كان لهذه الكلمات التربوية الأثر الكبير على سهيل بن عمرو، حيث أثنى على رسول الله ﷺ بالبر طوال عمره، ثم دخل فى الإسلام بعد ذلك، وقد حَسُن إسلامه وكان مُكثرًا من الأعمال الصالحة(٢)...يقول الزبير ابن بكار: كان سهيل بعدُ كثير الصلاة والصوم والصدقة، خرج بجماعته إلى الشام مجاهدًا، ويقال: إنه صام وتهجد حتى شحب لونه وتغير، وكان كثير البكاء إذا سمع القرآن، وكان أميرًا على كردوس(٣) يوم اليرموك(٤).

إسلام صفوان بن أمية

قال عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:... وأما صفوان بن أمية فهرب حتى أتى الشعيبة(٥) وجعل يقول لغلامه يسار وليس معه غيره: ويحك، انظر مَن ترى، قال: هذا عُمير بن وهب، قال صفوان: ما أصنع بعمير؟ والله ما جاء إلا يريد قتلي، قد ظاهر محمدًا عليَّ. فلحقه فقال: يا عمير، ما كفاك ما

(١) انظر: مغازى الواقدى (٢/ ٨٤٦، ٨٤٧)، المستدرك للحاكم (٣/ ٣٨١).

(٢) انظر: التاريخ الإسلامى للحميدى (٧/ ٢١٦، ٢١٧).

(٣) كردوس: فرقة كبيرة.

(٤) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ١٩٥).

(٥) الشعيبة: مرفأ السفن من ساحل بحر الحجاز، وهو كان مرفأ مكة ومرسى سفنها قبل جدة. معجم البلدان (٥/ ٢٧٦).

صنعت بي؟ حمَّلتنى دَينك وعيالك، ثم جئت تريد قتلي، قال: أبا وهب جُعلت فداك، جئتك من عند أبر الناس وأوصل الناس. وقد كان عمير قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، سيد قومى خرج هاربًا ليقذف نفسه فى البحر، وخاف ألا تُؤمِّنه فداك أبى وأمي، قال رسول الله ﷺ: «**قد أَمَّنتُه**»، فخرج فى أثره فقال: إن رسول الله ﷺ قد أمَّنك، فقال صفوان: لا والله، لا أرجع معك حتى تأتينى بعلامة أعرفها، فرجع إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، جئت صفوان هاربًا يريد أن يقتل نفسه فأخبرته بما أمَّنته فقال: لا أرجع حتى تأتى بعلامة أعرفها، فقال رسول الله ﷺ: «**خذ عمامتي**».

قال: فرجع عمير إليه بها، وهو البُرد الذى دخل فيه رسول الله ﷺ يومئذ معتجرًا[1] به، بُرد حَبَرة[2] فخرج عمير فى طلبه الثانية، حتى جاء بالبُرد فقال: أبا وهب جئتك من عند خير الناس، وأوصل الناس، وأبر الناس، وأحلم الناس، مَجْدُه مجدك، وعِزُّه عزك، ومُلكه مُلكك، ابن أمك وأبيك، اذكر الله فى نفسك، قال له: أخاف أن أُقتل، قال: قد دعاك إلى أن تدخل فى الإسلام، فإن رضيت وإلا سيَّرك شهرين، فهو أوفى الناس وأبرهم، وقد بعث إليك ببُرْدِه الذى دخل فيه معتجرًا، تعرفه؟ قال: نعم، فأخرجه، فقال: نعم، هو هو، فرجع صفوان حتى انتهى إلى رسول الله، ورسول الله ﷺ يصلى بالمسلمين العصر بالمسجد، فوقفا، فقال صفوان: كم تصلون فى اليوم والليلة؟ قال: خمس صلوات، قال: يصلى بهم محمد؟ قال: نعم، فلما سلم

---

(١) الاعتجار بالعمامة: هو أن يلفها على رأسه ويرد طرفها على وجهه ولا يعمل منها شيئًا تحت ذقنه. (النهاية ٣/ ٦٩).

(٢) الحَبرة: ضرب من ثياب اليمن.

صاح صفوان: يا محمد، إن عمير بن وهب جاءني ببُردك، وزعم أنك دعوتني إلى القدوم عليك، فإن رضيت أمرًا وإلا سيَّرتني شهرين، قال: «**انزل أبا وهب**» قال: لا والله حتى تبين لي، قال: «**بل تُسيَّر أربعة أشهر**» فنزل صفوان.

وخرج رسول الله ﷺ قِبَل هوازن وخرج معه صفوان وهو كافر، وأرسل إليه يستعيره سلاحه، فأعاره سلاحه مائة درع بأداتها، فقال: طوعًا أو كرهًا؟ قال رسول الله ﷺ: «**عارية مُؤدَّاة**» فأعاره، فأمره رسول الله ﷺ فحملها إلى حُنين، فشهد حُنينًا، والطائف ثم رجع رسول الله ﷺ إلى الجعرانة، فبينما رسول الله ﷺ يسير فى الغنائم ينظر إليها ومعه صفوان بن أمية جعل صفوان ينظر إلى شِعبٍ مليء نعمًا وشاء ورعاء فأدام إليه النظر ورسول الله ﷺ يرمقه، فقال: «**أبا وهب، يعجبك هذا الشِّعب؟**» قال: نعم، قال: «**هو لك وما فيه**»، فقال صفوان عند ذلك: ما طابت نفس أحدٍ بمثل هذا إلا نفس نبي، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله.... وأسلم مكانه(١).

ونلاحظ فى هذا الخبر أن النبى ﷺ حاول أن يتألف صفوان بن أمية إلى الإسلام حتى أسلم، وذلك بإعطائه الأمان ثم بتخييره فى الأمر أربعة أشهر، ثم بإعطائه من مال العطايا الكبيرة التى لا تصدر من إنسان عادي، فأعطاه أولًا مائة من الإبل مع عدد من زعماء مكة، ثم أعطاه ما فى أحد الشعاب من الإبل والغنم فقال: ما طابت نفس أحد بهذا إلا نفس نبي. ثم أسلم مكانه(٢)، وقد وصف لنا صفوان بن أمية عطاء النبى ﷺ فقال: (والله لقد أعطانى

---

(١) انظر: مغازى الواقدى (٢/ ٨٥٣- ٨٥٥).

(٢) انظر: التاريخ الإسلامى (٧/ ٢٢٠).

رسول الله ﷺ ما أعطاني، وإنه لأبغض الناس إليَّ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليَّ)[١].

إسلام فضالة بن عمير رضي الله عنه

أراد فضالة بن عمير بن الملوح الليثي قتل النبي ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح، فلما دنا منه، قال رسول الله ﷺ: «**أفضالة؟**» قال: نعم، فضالة يا رسول الله، قال: «**ماذا كنت تحدث به نفسك؟**» قال: لا شيء، كنت أذكر الله، قال: فضحك النبي ﷺ ثم قال: «**استغفر الله**»، ثم وضع يده على صدره، فسكن قلبه، فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله شيء أحب إليَّ منه... قال فضالة: فرجعت إلى أهلي، فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها، فقالت: هَلُمَّ إلى الحديث، فقلت: لا، وانبعث فضالة يقول:

قالت هَلُمَّ إلى الحديث فقلت لا　　يأبى عليك اللهُ والإسلامُ
لو ما رأيت محمدًا وقبيله　　بالفتح يوم تُكسر الأصنامُ
لرأيت دين الله أضحى بيِّنًا　　والشرك يغشى وجهَه الإظلامُ[٢]

إسلام عبد الله بن الزبعرى (شاعر قريش)

لما فُتحت مكة فَرَّ عبد الله بن الزبعرى السهمي إلى نجران فلحقته قوافي حسان، فقد كان خصمًا عنيدًا للإسلام، فراح يُعيره بالجُبن والفِرار فقال له:

لا تعدمنْ رجلاً أحلك بغضه　　نجران من عيش أحذَّ لئيم[٣]

(١) مسلم، كتاب الفضائل، رقم (٢٣١٣)، (ص١٨٠٦)، نقلًا عن غزوات الرسول ﷺ.
(٢) التاريخ الإسلامي للحميدي (٧/ ٢١٣).
(٣) البداية والنهاية (٤/ ٣٠٧).

أي فليُبقِ الله لنا محمدًا ﷺ هذا الرجل العظيم الذى أحللك بغضه ديار نجران، وليدم الله عليك ابن الزبعرى عيشًا ذليلًا مهينًا أشأم.

ثم راح حسان يستنزل غضب الله ومقته على ابن الزبعرى، وعلى نجله ويسأل الله تعالى أن يُخلده فى سوء العذاب وأليمه[١]:

غضب الإله على الزبعرى وابنه وعذاب سوء فى الحياة مقيم

فتطايرت تلك الأبيات ووصلت إلى ابن الزبعرى، فقام وقعد وقلب أموره، ثم أراد الله به الخير فعزم على الدخول فى الإسلام، ثم توجه إلى مكة وقصد رسول الله ﷺ، وأعلن إسلامه، وطلب من رسول الله ﷺ أن يستغفر له كل عداوة له وللإسلام، فقال له رسول الله: «**إن الإسلام يَجُبُّ ما قبله**»[٢] ثم أدناه رسول الله منه وآنسه، ثم خلع عليه حُلة[٣] وقد أجمع الرواة أن ابن الزبعرى رضي الله عنه قال بعد إسلامه شعرًا كثيرًا حسنًا يعتذر فيه إلى رسول الله ﷺ[٤]. قال ابن عبد البر رحمه الله: وله (ابن الزبعرى) فى مدح النبى ﷺ أشعار كثيرة، ينسخ بها ما قد مضى من شعره فى كفره[٥].

وكذا نَصَّ ابن حجر فى الإصابة: ثم أسلم ومدح النبى ﷺ فأمر له بحُلة[٦]، وقال القرطبي: (وكان شاعرًا مجيدًا، وله فى مدح النبى ﷺ، أشعارٌ كثيرة، ينسخ بها ما قد مضى فى كفره[٧]...) وقال ابن كثير: كان من أكبر

(١) الصحابى الشاعر عبد الله بن الزبعري/ محمد كابتي، (ص٩٢).

(٢) المغازى (٢/ ٨٤٨).

(٣) الزركلي: الأعلام (٤/ ٨٤)، الإصابة لابن حجر (٢/ ٣٠٨) نقلًا عن المرجع الذى بعده.

(٤) انظر: الصحابى الشاعر عبد الله بن الزبعري، (ص٩٧).

(٥) انظر: الاستيعاب لابن عبد البر، (٢/ ٣١٠).

(٦) انظر: الإصابة (٢/ ٣٠٨).

(٧) انظر: تفسير القرطبي، (٦/ ٤٠٧).

أعداء الإسلام ومن الشعراء الذين استعملوا قواهم فى هجاء المسلمين، ثم منَّ الله عليه بالتوبة والإنابة والرجوع إلى الإسلام والقيام بنصره والذَّبِّ عنه[١].

النبى ﷺ يرسل سراياه لهدم الأصنام

وبَثَّ رسول الله ﷺ سراياه إلى الأوثان التى كانت حول الكعبة. فكُسِّرتْ كُلها مِنها اللات والعزى. ومَناة الثالثة الأخرى. ونادى مناديه بمكة «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يَدَعْ فى بيته صنمًا إلا كسره».

سرية خالد بن الوليد إلى (العُزَّى)

توجهت سرية قوتها ثلاثون فارسًا بقيادة خالد بن الوليد إلى الطاغوت الأعظم منزلة ومكانة عند قريش وسائر العرب (العُزَّى) لإزالته من الوجود نهائيًّا، وعندما وصلت السرية إلى العُزَّى بمنطقة نخلة قام إليها خالد فقطع السمرات وهدم البيت الذى كان عليه[٢] وهو يردد: كُفرانك لا سبحانك إنى رأيت الله قد أهانك[٣]، ثم رجع خالد وأصحابه إلى رسول الله ﷺ وقدَّم تقريره بإنجاز المهمة، ولكن النبى ﷺ استدرك على قائد السرية وقال له: **«هل رأيت شيئًا؟»** قال: لا[٤] فقال: **«ارجع فإنك لم تصنع شيئًا»**[٥] فرجع خالد وهو مُغيَّظ حَنِق على عدم إنهاء مهمته على الوجه المطلوب.

---

(١) البداية والنهاية (٤/ ٣٠٨).

(٢) انظر: السرايا والبعوث النبوية، (ص٢٨٢).

(٣) المصدر نفسه، (ص٢٨٢).

(٤) انظر: المغازى (٢/ ٨٧٤).

(٥) انظر: السرايا والبعوث النبوية، (ص٢٨٢).

فلما وصل إليها ونظرت السدنة إليه عرفوا أنه جاء هذه المرة ليكمل ما فاته في المرة السابقة، فهربوا إلى الجبل وهم يصيحون: يا عُزَّى خَبِّليه، يا عُزَّى عُوِّريه، فأتاه خالد فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحثو التراث على رأسها، فتقدم إليها خالد رضي الله عنه بشجاعته المعروفة وضربها بالسيف حتى قتلها، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك فقال: «**تلك هي العُزَّى**»(١).

سرية عمرو بن العاص إلى (سُواع)

وسواع المذكور ضمن هذه الأصنام: هو اسم صنم كان لقوم نوح عليه السلام، ثم صار بعد ذلك لقبيلة هذيل المُضرية(٢) وظل هذا الوثن منصوبًا تعبده هُذيل وتُعظمه حتى إنهم كانوا يَحُجُّون إليه(٣) حتى فُتحت مكة ودخلت هُذيل فيمن دخل في دين الله أفواجًا، فبعث رسول الله ﷺ سرية بقيادة عمرو ابن العاص رضي الله عنه لتحطيم سواع ... ويحدثنا قائد السرية عن مهمته، فيقول: فانتهيت إليه وعنده السادن، فقال: ما تريد؟ قلت: أمرني رسول الله ﷺ أن أهدمه، قال: لا تقدر على ذلك، قلت: لِمَ؟ قال: تمنع، قلت: حتى الآن أنت في الباطل، ويحك! هل يسمع أو يبصر؟! قال: فدنوت منه فكسرته وأمرت أصحابي فهدموا بيت خزانته فلم يجدوا شيئًا، ثم قلت للسادن: كيف رأيت؟ قال: أسلمتُ لله(٤).

---

(١) المصدر نفسه، (ص٢٨٣).

(٢) انظر: السرايا والبعوث النبوية، (ص٢٩٢).

(٣) انظر: سبل الرشاد للشامي (٦/ ٣٠٣).

(٤) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٨٧٠).

سرية سعد بن زيد الأشهلى إلى (مَناة)

مناة اسم صنم وكانت على ساحل البحر الأحمر مما يلى قديدًا[١] فى منطقة تُعرف بالمشلل[٢]، وكانت للأوس والخزرج وغسان ومَن دان بدينهم يعبدونها ويعظمونها فى الجاهلية ويهلون منها للحج، وقد بلغ من تعظيمهم إياها أنهم كانوا لا يطوفون بين الصفا والمروة تَحرُّجًا وتعظيمًا لها حيث كان ذلك سنة فى آبائهم مَن أحرم لمناة لم يَطُف بين الصفا والمروة[٣]. ولم تزل هذه عادتهم حتى أسلموا، فلما قدموا مع النبى ﷺ للحج ذكروا ذلك له فأنزل الله تعالى هذه الآية[٤]..... قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾[٥].

وقد كان أول مَن نَصَبها لهم مؤسس الشرك فى الجزيرة العربية ومبتدع الأوثان محرف الحنفية دين إبراهيم عليه السلام، عمرو بن لُحى الخزاعي[٦]، فلما فتح الله على المسلمين مكة بعث رسول الله إلى مناة رجلًا من أهلها سابقًا الذين كانوا يعظمونها فى الجاهلية وهو سعد بن زيد الأشهلى رضي الله عنه على رأس سرية قوتها عشرون فارسًا، وكان واجب السرية هو إزالة مناة من الوجود نهائيًّا[٧].

---

(١) ما بين مكة والمدينة.

(٢) المشلل من قديد وبالمشلل كانت مناة.

(٣) انظر: السرايا والبعوث النبوية، (ص٢٨٦).

(٤) شرح النووى على مسلم، (٩/ ٢٢).

(٥) سورة البقرة: الآية: (١٥٨).

(٦) انظر: السرايا والبعوث النبوية، (ص٢٨٧).

(٧) المصدر نفسه، ص٢٨٧.

انطلق سعد بن زيد ومَن معه فى مسير اقترابى سريع لإنجاز المهمة المحددة حتى وصل إليها، فقابله سادنها متسائلًا: ما تريد؟ قال: هدم مناة، قال: أنت وذاك، فأقبل سعد يمشى إليها، وتخرج إليه امرأة عريانة سوداء ثائرة الرأس تدعو بالويل وتضرب صدرها[١]. فصاح بها السادن صيحة الواثق: مناة دونك بعض عصاتك[٢] ولكن صيحته ذهبت أدراج الرياح، فلم يأبه سعد رضي الله عنه بكل ذلك وضربها ضربة قاتلة قضت عليها، ثم أقبل مع أصحابه على الصنم فهدموه، ولم يجدوا فى خزانتها شيئًا، وانصرف راجعًا إلى رسول الله ﷺ[٣].

ونستفيد من حركة السرايا التى أرسلها رسول الله ﷺ للقضاء على الأصنام والأوثان أنه لا يجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطالها يومًا واحدًا، فإنها شعائر الكفر والشرك، وهى أعظم المنكرات، فلا يجوز الإقرار عليها مع القدرة ألبتة.

وهذا حُكم المشاهد التى بُنيت على القبور التى اتُّخذت أوثانًا وطواغيت تُعبد من دون الله، والأحجار التي تُقصَد للتعظيم والتبرك والنذر والتقبيل، لا يجوز إبقاء شيء منها على وجه الأرض مع القدرة على إزالتها، وكثير منها بمنزلة اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى أو أعظم

(١) انظر: الطبقات (٢/ ١٤٦).

(٢) المصدر نفسه (٢/ ١٤٦).

(٣) انظر: السرايا والبعوث النبوية، (ص٢٨٨)، قال مؤلف الكتاب الدكتور بريك العمري: الخبر ضعيف من الناحية الحديثية، ويمكن الاستئناس به تاريخيًّا، حيث ذكر أهل المغازى أن رسول الله أرسل بعض السرايا لتحطيم الأصنام فى الجزيرة العربية، ولا يمكن استثناء مناة من ذلك لكونها أحد أكبر الطواغيت فى الجزيرة، ولقد اعتمدت فى دراسة السرايا والبعوث على هذه الرسالة العلمية التى أشرف عليها الدكتور أكرم العمري.

شركًا عندها وبها[١].

سرية خالد بن الوليد إلى بنى جذيمة

قال ابنُ سعد: ولما رجع خالد بن الوليد من هدم العُزَّى، ورسول الله ﷺ مقيم بمكة، بعثه إلى بنى جذيمة داعيًا إلى الإسلام، ولم يبعثه مقاتلاً.

وكان ذلك فى شهر شوال من السنة الثامنة للهجرة[٢] قبل حُنين، ومعه جنود من بنى سليم ومدلج والأنصار والمهاجرين، كان تعدادهم حوالى ثلاثمائة وخمسين رجلاً، فلما رأى بنو جذيمة الجيش بقيادة خالد أخذوا السلاح، فقال لهم خالد: ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا، فقام رجل منهم يُسمى جحدرًا فقال: ويلكم يا بنى جذيمة! إنه خالد، والله ما بعد وضع السلاح إلا الإسار، وما بعد الإسار إلا ضرب الأعناق، والله لا أضع سلاحى أبدًا. فلم يزالوا به حتى وضع سلاحه، فلما وُضع السلاح أمر بهم خالد فكُتِّفوا، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فجعلوا يقولون صبأنا صبأنا، وخالد يأخذ فيهم أَسرًا وقَتلًا، فأنكر عليه بعض أصحابه ذلك، ثم دفع الأسرى إلى من كان معه، حتى إذا أصبح يومًا أمر خالد أن يَقتل كل واحدٍ أسيره، فامتثل البعض، وامتنع عبد الله بن عمر وامتنع معه آخرون من قتل أَسْراهم، فلما قدموا على رسول الله ﷺ أخبروه، فغضب ورفع يديه إلى السماء قائلا: «**اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد**»[٣].

---

(١) انظر: السرايا والبعوث النبوية (ص ٣٠٢).

(٢) انظر. السرايا والبعوث النبوية (ص ٢٤٨).

(٣) انظر: السيرة النبوية لأبى شهبة (٢/ ٤٦٤).

ودار كلام بين خالد وعبد الرحمن بن عوف حول هذا الموضوع حتى كان بينهما شر، فقد خشي ابن عوف أن يكون ما صدر عن خالد ثأرًا لعمه الفاكه بن المغيرة الذى قتلته جذيمة فى الجاهلية، ولعل هذا الذى وقع بينهما هو ما أشار إليه الحديث المروى عند مسلم[١] وغيره: كان بين ابن الوليد وعبد الرحمن بن عوف شيء فسبَّه خالد، فقال رسول الله ﷺ: «**لا تَسبُّوا أحدًا من أصحابي، فإن أحدكم لو أنفق مثل أُحدٍ ذهبًا ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه**»[٢]، وبعث رسول الله ﷺ عليًّا فودى لهم قتلاهم (أعطاهم الدية) وزادهم فيها تطييبًا لنفوسهم وبراءة من دمائهم[٣]، وبهذا التصرف النبوى الحكيم واسى النبى ﷺ بنى جذيمة، وأزال ما فى نفوسهم من أسى وحزن[٤] وكان قتل خالد لبنى جذيمة تأولًا منه واجتهادًا خاطئًا، وذلك بدليل أن الرسول ﷺ لم يعاقبه على فعله[٥].

قصة المرأة المخزومية

۞ عن عائشة رضي الله عنها: «أن قريشًا أهمهم شأن المرأة المخزومية التى سرقت، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة حِب رسول الله ﷺ، فكلمه أسامة، فقال رسول الله ﷺ: «**أتشفع فى حدٍّ من حدود الله؟**» ثم قام فاختطب، فقال: «**أيها الناس إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف**

(١) مسلم (٤/ ١٩٦٧- ١٩٦٨) رقم (٢٥٤١).

(٢) انظر: السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية، (ص٥٧٩).

(٣) فى إسناده ضعف. المصدر السابق، (ص٥٧٩).

(٤) انظر: السيرة النبوية لأبى شهبة (٢/ ٤٦٥).

(٥) انظر: السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية، (ص٥٧٩).

أقاموا عليه الحد، وأيم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»(١).
ثم أمر رسول الله ﷺ بتلك المرأة فقُطعت يدها.

فحسنت توبتها بعد ذلك وتزوجت، قالت عائشة: فكانت تأتيني بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ(٢).

وهكذا يستمر البناء التربوى للأمة، ونرى العدل فى إقامة شرع الله على القريب والبعيد على حَدٍّ سواء، ووجدت قريش نفسها أمام تشريع ربانى لا يفرق بين الناس، فهم كلهم أمام رب العالمين سواء، وأصبحت معايير الشرف هى الالتزام بأوامر الله تعالى... وفى هذا الموقف الذى أثار غضب رسول الله الشديد واهتمامه الكبير، عبرة للمسلمين حتى لا يتهاونوا فى تنفيذ أحكام الله تعالى، أو يشفعوا لدى الحاكم، من أجل تعطيل الحدود الإسلامية(٣).

المدة التى أقامها النبى ﷺ فى مكة عام الفتح

۞ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أقام النبى ﷺ بمكة تسعة عشر يومًا يصلى ركعتين»(٤).

وقد جاء من روايات عدة أنه مكث ثمانية عشر يومًا، وهى عند أبى داود من حديث عمران بن حصين، وأخرى سبعة عشر يومًا وبعضها خمسة عشر يومًا .. وقد جمع البيهقى بين هذا الاختلاف بأن من قال تسع عشرة يومًا عدَّ يومى الدخول والخروج، ومن قال سبع عشرة يومًا حذفهما، ومن قال ثمانى

(١)أخرجه البخارى (٣٧٣٣) فضائل الصحابة، ومسلم (١٦٨٨) الحدود.
(٢)البخاري، كتاب المغازي، رقم (٤٣٠٤).
(٣)انظر: معين السيرة، (ص٤٠٢)، التاريخ الإسلامي، (٧/ ٢٣٣).
(٤)أخرجه البخارى (٤٢٩٨) المغازى ـ وأحمد (١/ ٢٢٣).

عشرة عدَّ أحدهما وأما رواية «خمسة عشر» فضعَّفها النووى فى الخلاصة، وليس بجيد لأن رواتها ثقات ولم ينفرد بها ابن إسحاق فقد أخرجها النسائى.

وإذا ثبت أنها صحيحة فليُحمل على أن الراوى ظن أن الأصل رواية سبعة عشر، فحذف منها يومى الدخول والخروج، فذكر أنها خمسة عشر، واقتضى ذلك أن رواية تسعة عشر أرجح الروايات، وبهذا أخذ إسحاق بن راهويه، ويرجحها أيضًا أنها أكثر ما وردت به الروايات الصحيحة»[١].

هل فُتحت مكة عُنوة أم صُلحًا

۞ اختلف العلماء هل فُتحت مكة عنوة أم صُلحًا: فذهب الشافعى وأحمد - رحمهما الله - إلى أنه ﷺ دخلها صُلحًا، وكان الممثل لقريش فى هذا الصلح هو أبو سفيان، وكان الاتفاق والشرط فيه أنه مَن أغلق بابه فهو آمِن ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن، إلا من أهدر دمه ﷺ.

وذهب مالك وأبو حنيفة إلى أنه دخلها عُنوة واستدلوا على ذلك بما وقع من القتال من خالد بن الوليد رضي الله عنه، وما حدث من أوباش قريش.

واتفق الجميع على أنه لم يغنم منها مالاً، ولم يَسْبِ فيها ذرية فمن ذهب إلى أنها فُتحت صلحًا فسبب ذلك واضح، ومن ذهب إلى أنها فُتحت عنوة فقد قالوا: إن الذى منع الرسول ﷺ من قسمتها أنها دار نُسك ومتعبد وحرم الرب تعالى، فكأنه وَقْفٌ من الله تعالى على العالمين، ولهذا ذهب بعض العلماء إلى منع بيع أراضيها ودورها،... والأدلة على خلافه والله أعلم[٢].

---

(١) فتح البارى (٢/ ٥٦٢) فى التعليق على حديث رقم (١٠٨٠) كتاب تقصير الصلاة باب ما جاء فى التقصير وكم يقيم حتى يقصر.

(٢) الأحكام السلطانية للماوردى (ص١٦٤)، زاد المعاد (٣/ ٤٢٩، ٤٤٠).

من أبرز نتائج فتح مكة

ولقد كان من أبرز نتائج فتح مكة مبادرة قبائل العرب إلى قبول الإسلام بعد أن تيقنوا من نتيجة الصراع بين المسلمين وقريش.

وقد أورد الإمام البخارى رواية من حديث عمرو ابن سلمة جاء فيها: أن العرب كانت «تَلوَّمُ بإسلامها الفتح، يقولون: انظروا فإن ظهر عليهم فهو صادق وهو نبى، فلما جاءتنا وقعة الفتح بادر كل قوم بإسلامهم»، ويرى ابن إسحاق أن العرب كانت «تربَّص بالإسلام أمر هذا الحى من قريش وأمر رسول الله ﷺ، وذلك أن قريشًا كانوا إمام الناس وهاديهم، وأهل البيت الحرام،... وقادة العرب لا ينكرون ذلك، وكانت قريش هى التى نصبت لحرب رسول الله ﷺ وخلافه، فلما افتُتحت مكة ودانت له قريش، ودوَّخها الإسلام، وعرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عداوته، فدخلوا فى دين الله أفواجًا، كما قال الله ﷻ».

ومن نتائج فتح مكة المكرمة تحوُّل مركز ثقل معسكر الشرك إلى الطائف حيث سارعت كل من قبيلتى هوازن وثقيف إلى التصدى للإسلام وقيادة معسكر الشرك المعادى له.

وإضافة إلى ما تحقق فى فتح مكة من اتساع رقعة ديار الإسلام، وتَسارُع وتيرة دخول العرب فى الإسلام، وإنهاء مقاومة قريش وحلفائها، وتحولهم إلى قوة إيجابية دافعة لنشر العقيدة الإسلامية والتصدى لخصومها ودفع الخطر عنها، فقد اتضحت بعض الأحكام الشرعية المهمة من جراء فتح مكة وخلال أحداث غزوتها[١].

(١) نضرة النعيم (١/ ٣٧٢).

إشارة إلى ما في الغزوة من الفقه واللطائف

۞ قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ ما ملخصه: فصل في الإشارة إلى ما في الغزوة من الفقه واللطائف:

۞ فيها: أن أهل العهد إذا حاربوا مَن هم في ذمة الإمام وجواره وعهده صاروا حربًا له بذلك، ولم يبقَ بينهم وبينه عهد، فله أن يبيتهم في ديارهم ولا يحتاج أن يُعْلِمهم على سواء، وإنما يكون الإعلام إذا خاف منهم الخيانة فإذا تحققها صاروا نابذين لعهده.

۞ وفيها: انتقاض عهد جميعهم بذلك، ردئهم ومباشرهم إذا رضوا بذلك.

۞ وفيها: جواز صلح أهل الحرب إذا كان بالمسلمين ضعف وعدوهم أقوى منهم.

۞ وفيها: أن رسول الكفار لا يُقتل.

۞ وفيها: جواز قتل الجاسوس وإن كان مسلمًا وهو راجع لرأى الإمام لمصلحة المسلمين.

۞ وفيها: أن الرجل إذا نسب مسلمًا إلى النفاق والكفر متأولاً وغضبًا لله ورسوله ودينه فإنه لا يَكْفُر بذلك بل لا يأثم ويُثاب على نيته وقصده، بخلاف أهل الأهواء والبدع.

۞ وفيها: أن الكبيرة العظيمة مما دون الشرك قد تُكفَّر بالحسنة الكبيرة كما وقع الجَسّ من حاطب مُكفَّرًا بشهوده بدرًا.

۞ وفيها: جواز دخول مكة للقتال المباح بغير إحرام كما دخل رسول الله ﷺ والمسلمون وهذا لا خلاف فيه.

۞ وفيها: البيان الصريح بأن مكة فُتحت عنوة كما ذهب إليه جمهور أهل العلم ولا يعرف فى ذلك خلاف إلا عن الشافعى وأحمد فى أحد قوليه، وسياق القصة أوضح شاهد لقول الجمهور.

۞ وفيها: تعيين قتل السابّ لرسول الله ﷺ وأن قَتْلَه حدًّا لا بد من استيفائه فإن النبى ﷺ لم يُؤمِّن مقيس بن صبابه وابن خطل والجاريتين اللتين كانتا تغنيان بهجائه مع أن نساء أهل الحرب لا يُقتلن كما لا تُقتل الذرية[1].

۞ وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

- وفى القصة: أن النبى ﷺ دخل البيت وصلى فيه ولم يدخله حتى مُحيت الصور منه، ففيه دليل على كراهة الصلاة فى المكان المصوّر.

- وفى القصة: أنه دخل مكة وعليه عمامة سوداء ففيه دليل على جواز لبس السواد أحيانًا.

- ومما وقع فى هذه الغزوة إباحة متعة النساء ثم حرمها قبل خروجه من مكة.

- وفى قصة الفتح من الفقه: جواز إجارة المرأة وأمانها للرجل والرجلين، كما أجاز النبى ﷺ أمان أم هانئ لحمويها.

۞ وفيها: من الفقه جواز قتل المرتد الذى تغلَّظت ردته من غير استتابة فإن عبد الله بن سعد بن أبى سرح كان قد أسلم وهاجر وكان يكتب الوحى لرسول الله ﷺ ثم ارتد ولحق بمكة، فلما كان يوم الفتح أتى به عثمان بن عفان رسول الله ﷺ ليبايعه فأمسك عنه طويلاً ثم بايعه. وقال: إنما أمسكت

(١) زاد المعاد باختصار (٣/ ٤٢٠-٤٤١).

عنه طويلاً ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه فقال له رجل: هلَّا أومأت إلىَّ يا رسول الله فقال: **ما ينبغى لنبى أن تكون له خائنة الأعين**»[(١)] .

(١) زاد المعاد باختصار (٣/ ٤٥٨- ٤٦٤). والحديث رواه أبو داود (٢٦٦٦) الجهاد، و(٤٣٣٧) الحدود، والنسائى (٧/ ١٠٥، ١٠٦) تحريم الدم، والحاكم (٣/ ٤٠) المغازى. وصححه الحاكم والذهبى والألبانى - وقال الخطابى فى تفسير خائنة الأعين: هو أن يضمر فى قلبه غير ما يظهره للناس، فإذا كف لسانه وأومأ بعينه إلى ذلك فقد خان. وقد كان ظهور تلك الخيانة من قبيل عينه فسُميت خائنة الأعين - نقلاً من وقفات تربوية.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

غزوة حُنين

غزوة حُنين

۞ لقد دخل أكثر أهل مكة فى الإسلام بعد فتح مكة وإن كان بعضهم بقى على ريبته وجاهليته يتعلق بالأصنام ويستقسم بالأزلام ... وأولئك تُركوا للأيام تشفى جهلهم وتحيى ما مات من قلوبهم وألبابهم.

وما دامت الدولة التى تحمى الوثنية وتقاتل دونها قد ذهبت، فسوف تتلاشى هذه الخرافة من تلقاء نفسها.

إن فتح مكة جاء عقب ضربة خاطفة، ولقد أفلحت خطة المسلمين فى تعمية الأخبار على قريش حتى بوغتوا فى عقر دارهم فلم يجدوا مناصًا من الاستسلام فما استطاعوا الجلاد ولا استجلاب الأمداد، وفتح العرب جميعًا أعينهم فإذا هم أمام الأمر الواقع، حتى خُيِّل إليهم أن النصر معقود بألوية الإسلام فما ينفك عنها!

بَيد أن هذا الغلب كله كان له رد فعل معاكس لدى القبائل الكبيرة القريبة من مكة، وفى مقدمتها «هوازن» و «ثقيف» ... وتُعتبر «الطائف» قصبتها وهى أكبر المدن فى الجزيرة بعد مكة ويثرب.

اجتمع رؤساء هذه القبائل على «مالك بن عوف» سيد «هوازن»، وأجمعوا أمرهم على المسير لقتال المسلمين. قبل أن تتوطد دعائم الفتح، وقبل أن يتحركوا لاستئصال ما بقى من معالم الوثنية المدبرة[1].

وقت هذه الغزوة

قال أهل المغازى: خرج رسول الله ﷺ إلى حُنين لخمسٍ خلت من شوال، وبه قال ابن إسحاق فى المغازى، وهكذا روى عن ابن مسعود، وبه

(١) فقه السيرة للغزالى (ص ٤٣١-٤٣٢) بتصرف.

قال عروة بن الزبير، واختاره أحمد، وابن جرير فى تاريخه.

وقيل لليلتين بقيتا من رمضان، وجمع بعضهم بأنه بدأ الخروج فى أواخر رمضان، وسار سادس شوال، وكان وصوله إليها فى عاشره، وبه قال الواقدى[(١)].

سبب الغزوة

لما فتح الله مكة على رسوله والمؤمنين، وخضعت له قريش، خافت هوازن وثقيف وقالوا: قد فرغ محمد لقتالنا، فلنَغزُه قبل أن يغزونا، وأجمعوا أمرهم على هذا، وولوا عليهم مالك بن عوف النصري، فاجتمع إليه هوازن، وثقيف وبنو هلال، ولم يحضرها من هوازن كعب وكلاب، وكان معهم دُريد بن الصمة، وكان معروفًا بشدة البأس فى الحرب وأصالة الرأي، إلا أنه كان كبيرًا فلم يكن له إلا الرأى والمشورة.

وكان رأى مالك بن عوف أن يُخرجوا وراءهم النساء والذرارى والأموال حتى لا يفروا، فلما علم بذلك دُريد سأله: لِمَ ذلك؟ فقال: أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم، فقال دريد: راعى ضأن والله، وهل يرد المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فُضحت فى أهلك ومالك. ولكنه لم يستمع لمشورته[(٢)].

قال ابن إسحاق: ولما سمعت هوازن برسول الله ﷺ، وما فتح الله عليه من مكة، جمعها مالك بن عوف النَّصْرى[(٣)]، واجتمع إليه مع هوازن ثقيف

(١) فتح البارى: (٨/ ٢٧)، سيرة ابن كثير (٣/ ٦١٠).

(٢) انظر: السيرة النبوية لأبى شهبة (٢/ ٤٦٧)، السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٨٨).

(٣) بالصاد المهملة نسبة إلى جده الأعلى نصر بن معاوية، أسلم بعد غزوة الطائف، وصحب وشهد القادسية وفتح دمشق.

كلها، واجتمعت إليه مُضَرُ وجُشَمُ كلها، وسعد بن بكر، وناس من بنى هلال، وهم قليل، ولم يشهدها من قيس عيلان إلا هؤلاء، ولم يحضرها من هوازن كعب، ولا كلاب... وفى جُشَمُ دريد بن الصمة شيخ كبير ليس فيه إلا رأيه ومعرفته بالحرب، وكان شجاعًا مُجرَّبًا... وجماع أمر الناس إلى مالك بن عوف النصرى. فلما أجمع السير إلى رسول الله ﷺ، ساق مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم، فلما نزل بأوطاس، اجتمع إليه الناس وفيهم دُرَيْدُ بن الصِّمه، فلما نزل قال: بأى وادٍ أنتم؟ قالوا: بأوطاس. قال: نعم مجال الخيل، لا حَزْنٌ ضِرْس، ولا سَهْلٌ دَهْسٌ(١) . مالى أسمع رُغاء البعير، ونُهاق الحمير، وبُكاء الصبى، ويُعار الشاء؟ قالوا: ساق مالك بن عوف مع الناس نساءهم وأموالهم وأبناءهم. قال: أين مالك؟ قيل: هذا مالك، ودُعى له. قال: يا مالك إنك قد أصبحت رئيس قومك، وإن هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام، مالى أسمع رُغاء البعير، ونُهاق الحمير، وبُكاء الصغير، ويُعار الشاء؟!. قال: سُقت مع الناس أبناءهم، ونساءهم، وأموالهم، قال: ولِمَ؟ قال: أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم. فقال: راعى ضأنٍ(٢) والله، وهل يرد المنهزم شىء، إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك، فُضحت فى أهلك ومالك، ثم قال: ما فعلت كعب وكلاب؟ قالوا: لم يشهدها أحد منهم. قال: غاب الحَدُّ(٣) والجد، لو كان يوم علاء ورفعة، لم تغب عنه

---

(١) الحزن: ما ارتفع من الأرض – والضرس: الذى فيه حجارة محددة - والدهس: ما سهل ولان من الأرض، ولم يبلغ أن يكون رملاً.

(٢) يُجهله بذلك كما قال الشاعر:

أصبحت هزءًا لراعى الضأن أعجبه ... ماذا يريبك منى راعىَ الضأنِ

(٣) الحد: النشاط والسرعة والمضاء فى الأمور.

كعب ولا كلاب، ولوددت أنكم فعلتم ما فعلت كعب وكلاب، فمن شهدها منكم؟ قالوا: عمرو بن عامر، وعوف بن عامر؟ قال: ذانك الجَذَعَانِ(١) من عامر، لا ينفعان ولا يضران. يا مالك ! إنك لم تصنع بتقديم البيضة بيضة هوازن إلى نحور الخيل شيئًا، ارفعهم إلى متمنع بلادهم وعُليا قومهم، ثم الق الصُّباة(٢) على متون الخيل، فإن كانت لك، لحق بك مَن وراءك، وإن كانت عليك، ألفاك ذلك، وقد أحرزت أهلك ومالك. قال: والله لا أفعل، إنك قد كبرت وكبر عقلك، والله لتطيعنني يا معشر هوازن، أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهرى، وكره أن يكون لدُريد فيها ذكر ورأى، فقالوا: أطعناك، فقال دُريد: هذا يوم لم أشهده ولم يفتنى.

يا ليتنى فيها جذع   أخبُّ فيها وأضع
أقود وطفاء الزمع   كأنها شاة صدع(٣)

ثم قال مالك للناس: إذا رأيتموهم فاكسروا جفون سيوفكم، ثم شدوا شدة رجلٍ واحد(٤).

وأنزل جنودًا لم تروها

وبعث مالك عيونًا له يأتونه بالخبر فرجعوا إليه، وقد تفرقت أوصالهم

(١) يريد: أنهما ضعيفان فى الحرب بمنزلة الجذع فى سنه.

(٢) جمع صابى غير مهموز كقاض وقضاة، وهم المسلمون عندهم، كانوا يسمونهم بهذا الاسم، لأنهم صبؤوا من دينهم، أى: خرجوا من دين الجاهلية إلى الإسلام.

(٣) الجذع: الشاب، وأخب وأضع: ضربان من السير، والوطفاء: طويلة الشعر، والزمع: الشعر فوق مربط قيد الدابة يريد فرسًا صفتها هكذا، وهو محمود فى وصف الخيل، والشاة هنا: الوعل، وصدع أى: وعل بين وعلين ليس بالعظيم ولا بالحقير.

(٤) قال الهيثمى فى المجمع (٦/ ١٧٩)، رواه أحمد، وأبو يعلى ورواه البزار باختصار، وفيه ابن إسحاق وقد صرح بالسماع فى رواية أبى يعلى ورجال أحمد رجال الصحيح.

وذهبت عقولهم فقال: ما شأنكم؟ قالوا رأينا رجالاً بيضًا على خيل بُلقٍ فوالله ما تماسكنا أن حَلَّ بنا ما ترى، ولم ينهه ذلك عن وجهه، ولم يُثنه عن عزمه على قتال رسول الله ﷺ والمسلمين... والرجال الذين رأتهم العيون هم الملائكة، إذ قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾[1] أى لم يرها أصحاب رسول الله ﷺ وهم يحضرون المعركة[2].

النبى ﷺ يُرسل إليهم (عبد الله بن أبى حدرد)

ولما سمع بهم نبى الله ﷺ، بعث إليهم عبد الله بن أبى حدردٍ الأسلمى، وأمره أن يدخل فى الناس، فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم، ثم يأتيه بخبرهم، فانطلق ابن أبى حدرد، فدخل فيهم حتى سمع وعلم ما قد جمعوا له من حرب رسول الله ﷺ. وسمع من مالك وأمر هوازن ما هم عليه، ثم أقبل حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر.

ولقد ذهب عبد الله إلى حيث أمره الرسول ﷺ وعاد على وجه السرعة بخبر هؤلاء الأعداء، إلا أنه قصَّر رضي الله عنه فى أداء هذا الواجب حيث لم يختلط بهوازن اختلاطًا كاملاً بحيث يسمع ويرى ما يُدبَّر ضد المسلمين هناك، وكان من أهم ما يجب أن يُعنَى به معرفة مواقع المشركين التى احتلوها، وقد فوجئ المسلمون باختفاء تلك الكمائن التى نصبها الأعداء فى منحنيات الوادى حتى استطاعوا أن يُمطروا المسلمين بوابل من سهامهم فانهزموا فى الجولة الأولى، فكان الجهل بهذه الكمائن أحدَ الأسباب الرئيسية وراء هزيمة المسلمين فى أول المعركة، وما حدث نتيجة لهذا

(١) سورة التوبة: الآية: (٢٦).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٤٦٧-٤٦٨) بتصرف.

الخطأ لا يقدح فى العصمة الثابتة لرسول الله ﷺ ؛ لأن هذا الأمر ليس وحيًا من الله سبحانه وتعالى، وإنما هو من باب الاجتهاد فى الأمور العسكرية، وقد بذل النبى ﷺ جهده فى سبيل الحصول على أدق المعلومات وأوفاها لكى يضع على ضوئها الخطة العسكرية المناسبة لمجابهة العدو[١].

النبى ﷺ يستعير الدروع من صفوان بن أمية

فلما أجمع رسولُ اللهِ ﷺ السير إلى هوازن، ذُكِرَ له أن عند صفوان ابنِ أُمية أدراعًا وسلاحًا، فأرسل إليه، وهو يومئذ مشرك، فقال: يا أبا أمية! أعِرْنا سِلاحك هذا نلقى فيه عدونا غدًا، فقال صفوان: أغصبًا يا محمد؟ قال: «**بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك**»[٢]، فقال: ليس بهذا بأس. فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح، فزعموا أن رسول الله ﷺ سأله أن يكفيهم حملها، ففعل[٣].

۞ بل إن النبى ﷺ استدان أربعين ألف درهم من حويطب بن عبد العُزَّى»، وقَبِل عون نوفل بن الحارث بن عبد المطلب له بثلاثة آلاف رمح[٤].

ماذا فعل مالك بن عوف زعيم هوازن وثقيف؟

اتخذ مالك بن عوف زعيم قبائل هوازن وثقيف تعبئة مرت بمراحل:

(١) رفع الروح المعنوية لدى جنوده: وقف مالك خطيبًا فى جيشه وحثَّهم على الثبات والاستبسال، ... ومما قال فى هذا الجمع الحاشد: إن

---

(١) انظر: القيادة العسكرية على عهد رسول الله، (ص٣٦٩).

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٤٨)، والبيهقى (٦/ ٨٩) بإسناد صحيح.

(٣) زاد المعاد (٣/ ٤٦٨).

(٤) الاستيعاب / لابن عبد البر (٣/ ٥٣٧).

محمدًا لم يقاتل قط قبل هذه المرة، وإنما كان يلقى قومًا أغمارًا[١] لا علم لهم بالحرب فيُنصَر عليهم"[٢].

(٢) حشر ذرارى المقاتلين وأموالهم خلف الجيش: أمر قائد هوازن بحشد نساء المقاتلين وأطفالهم وأموالهم خلفهم، وقد قصد من وراء هذا التصرف، دفع المقاتلين إلى الاستبسال والثبات أمام أعدائهم؛ لأن المقاتل -من وجهة نظره- إذا شعر أن أعز ما يملك وراءه فى المعركة صَعُب عليه أن يلوذ بالفرار مُخلفًا ما وراءه فى ميدان المعركة.

عن أنس بن مالك ﵁ قال: افتتحنا مكة، ثم غزونا حُنينًا، فجاء المشركون بحنين بأحسن صفوف رأيت، قال: فصُفَّت الخيل ثم صُفَّت المقاتلة، ثم صفت النساء من وراء ذلك ثم صفت الغنم ثم صفت النعم[٣].

(٣) تجريد السيوف وكسر أجفانها: جرت عادة العرب فى حروبهم أن يكسروا أجفان سيوفهم قبل بدء القتال، وهذا التصرف يؤذن بإصرار المقاتل على الثبات أمام الخصم حتى النصر أو الموت، وقد أمر مالك جنده بذلك تحقيقًا لهذا،... بدليل قوله: إذا أنتم رأيتم القوم فاكسروا جفون سيوفكم وشدوا شدة رجل واحد عليهم[٤].

(٤) وضع الكمائن لمباغتة جيش المسلمين والانقضاض عليهم:

كانت عند مالك بن عوف النصرى معلومات وافية عن الأرض التى ستدور عليها المعركة، ولهذا رأى أن يستغل هذه الظروف الطبيعية لصالح

(١) أغمار: جمع غُمر، بضم الغين وإسكان الميم، وهو الذى لا يجرب الأمور.

(٢) انظر: مغازى الواقدى (٣/ ٨٩٣).

(٣) مسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم (٢/ ٧٣٦) رقم (١٠٥٩).

(٤) انظر: مجمع الزائد (٦/ ١٧٩، ١٨٠)، المستدرك للحاكم (٣/ ٤٨، ٤٩) صحيح الإسناد

جيشه، فعمل (بمشورة الفارس المحنك دريد بن الصمة) فى نصب الكمائن لجيوش المسلمين، وقد كادت هذه الخطة تقضى على قوات المسلمين لولا لطف الله سبحانه وتعالى وعنايته.

(٥) **الأخذ بزمام المبادرة فى الهجوم على المسلمين:** كان ضمن الخطة التى رسمها القائد الهوازني، الأخذ بزمام المبادرة ومهاجمة المسلمين؛ لأن النصر فى الغالب يكون للمهاجم، أما المدافع فغالبًا ما يكون فى مركز الضعف، ولهذا آتت هذه الخطة ثمارها بعض الوقت، ثم انقلبت موازين القوى بفضل الله تعالى ثم بثبات رسول الله ﷺ، حيث كسب المسلمون الجولة وانتصروا على أعدائهم[١].

(٦) **شن الحرب النفسية ضد المسلمين:** كان من ضمن بنود الخطة الحربية التى رسمها القائد مالك بن عوف الهوازني، استعمال سلاح معنوى له تأثير كبير فى النفوس، فقد شَنَّ الحرب النفسية ضد المسلمين من أجل إلقاء الخوف فى نفوسهم، وذلك بأن عمد إلى عشرات الآلاف من الجمال التى صحبها معه فى الميدان فجعلها وراء جيشه ثم أركب عليها النساء، فكان لذلك المشهد منظر مهيب يحسب من يراه أن هذا الجيش مائة ألف مقاتل، وهو ليس كذلك[٢].

الجيش الإسلامى يتحرك

كان جيش الفتح فى مكة مستعدًّا إذ لم يلق مقاومة تُذكَر فى فتح مكة، كما أن إقامته فى مكة بعد الفتح مدة خمسة عشر يومًا قد منحته الكثير من الراحة واستعادة النشاط، إضافة إلى ما تحقق له من ارتفاع فى الروح

---

(١) انظر: القيادة العسكرية على عهد رسول الله، (ص٢٥٢).

(٢) انظر: غزوة حنين / للشيخ محمد أحمد باشميل، (ص١٢٨ - ١٣١).

المعنوية بما منحه الله من نصر، ولذلك فإنه كان مُهيأً لمواجهة عدوان المشركين، وقد تحرك جيش المسلمين بناء على أمر قائده النبى ﷺ فى اليوم الخامس من شوال سنة ٨ هـ مُيممًا نحو تجمعات المشركين فى حُنين[١]، وقد ثبت فى الصحيحين مشاركة أبناء مكة فى غزوة حنين فى صفوف المسلمين[٢]، فقد شارك ألفا مقاتل من أهل مكة، فبلغ عدد قوات الجيش الإسلامى اثنى عشر ألف مقاتل، وهو أكبر جيش للمسلمين يخرج للقتال فى حياة النبى ﷺ حتى هذه الغزوة[٣]، وكان النبى ﷺ حريصًا على تأمين قواته لذلك فقد اهتم بحراسة الجيش ومراقبة تحركات العدو[٤].

جاهلية مرفوضة

قال ابن إسحاق: وحدثنى ابن شهاب الزهرى عن سنان أبى سنان الدؤلى عن أبى واقد الليثى، أن الحارث بن مالك قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حُنين ونحن حديثو عهد بالجاهلية، قال: فسرنا معه إلى حنين، قال: وكانت كفار قريش ومَن سواهم من العرب لهم شجرة عظيمة خضراء يقال لها: ذات أنواط، يأتونها كل سنة فيعلقون أسلحتهم عليها ويذبحون عندها ويعكفون عليها يومًا. قال: فرأينا ونحن نسير مع رسول الله ﷺ سدرة خضراء عظيمة، قال: فتنادينا من جنبات الطريق: يا رسول الله اجعل

---

(١)ابن هشام ـ السيرة (٢/ ٤٣٧)، البيهقى ـ السنن (٣/ ١٥١)، النسائى ـ السنن (٣/ ١٠٠)، ابن حجر ـ فتح البارى (٢/ ٥٦٢).

(٢)خليفة بن خياط ـ تاريخ (ص٨٨)، ابن سعد ـ الطبقات (٢/ ١٥٤-١٥٥)، الحاكم ـ المستدرك (٢/ ١٢١).

(٣)الواقدى ـ المغازى (٣/ ٨٩٠)، الهيثمى ـ كشف الأستار (٢/ ٣٤٦-٣٤٧)، ابن إسحاق: ابن هشام ـ السيرة (٤/ ١٢٤)، البيهقى ـ دلائل (٥/ ١٢٣).

(٤)أبو داود ـ السنن (١/ ٢١٠، ٢/ ٩)، وانظر ابن حجر ـ الإصابة (١/ ٨٦).

لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. قال رسول الله ﷺ: «**الله أكبر، قلتم والذى نفسى بيده ـ كما قال قوم موسى لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[1] إنها السنن... لتركبن سنن من كان قبلكم**»[2].

وهذا يعبر عن عدم وضوح تصورهم للتوحيد الخالص رغم إسلامهم، ولكن النبى ﷺ أوضح لهم ما فى طلبهم من معانى الشرك، وحذرهم من ذلك، ولم يُعاقبهم أو يُعنفهم؛ لعلمه بحداثة عهدهم بالإسلام[3]، وقد سمح لهم الرسول ﷺ بالمشاركة فى الجهاد؛ لأنه لا يشترط فيمن يخرج للجهاد أن يكون قد صحح اعتقاده تمامًا من غبش الجاهلية، وإنما الجهاد عملٌ صالحٌ يثاب عليه فاعله، وإن قصَّر فى بعض أمور الدين الأخرى، بل الجهاد مدرسة تربوية تعليمية يتعلم فيه المجاهدون كثيرًا من العقائد والأحكام والأخلاق؛ وذلك لما يتضمنه من السفر وكثرة اللقاءات التى يحصل فيها تجاذب الأحاديث وتلاقح الأفكار[4].

قصة سلمة بن الأكوع مع الجاسوس

❁ عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: «غزونا مع رسول الله ﷺ هوازن. فبينما نحن نتضحى مع رسول الله ﷺ إذ جاء رجل على جمل أحمر،

---

(١) سورة الأعراف: الآية: (١٣٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٢٩٣٩). والحديث رواه الترمذى (٩/ ٢٧، ٢٨) الفتن، وأحمد (٥/ ٢١٨)، وابن أبى عاصم فى كتاب السنة (٧٦)، وقال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح وقال الألبانى: إسناده حسن رجاله ثقات رجال الشيخين غير يعقوب بن حميد وهو ثقة فيه ضعف يسير وقد توبع.

(٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٩٧).

(٤) انظر: التاريخ الإسلامى للحميدى (٨/ ٦٢).

فأناخه. ثم انتزع طلقًا من حقبه، فقيد به الجمل. ثم تقدم يتغذى مع القوم. وجعل ينظر، وفينا ضعفة ورقّة فى الظهر، وبعضنا مُشاة، إذ خرج يشتد، فأتى جمله فأطلق قيده، ثم أناخه وقعد عليه، فأثاره، فاشتد به الجمل، فاتبعه رجل على ناقة ورقاء.

قال سلمة: وخرجت أشتد. فكنت عند ورك الناقة. ثم تقدمت. حتى كنت عند ورك الجمل. ثم تقدمت حتى أخذت بخطام الجمل، فأنخته. فلما وضع ركبته فى الأرض اخترطت سيفى، فضربت رأس الرجل فندر ثم جئت بالجمل أقوده. عليه رَحْلُه وسلاحه. فاستقبلنى رسول الله ﷺ، والناس معه. فقال: «**من قتل الرجل؟**» قالوا: ابن الأكوع. قال: «**له سَلَبُه أجمع**»[1].

النبى ﷺ يُبشرهم بغنائم حُنين

۞ عن سهيل بن الحنظلية رضي الله عنه: «أنهم ساروا مع رسول الله ﷺ يوم حُنين فأطنبوا السير، حتى كانت عشية، فحضرت الصلاة عند رسول الله ﷺ، فجاء رجل فارس، فقال: يا رسول الله ﷺ إنى انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا، فإذا أنا بهوازن على بكرة آبائهم بظعنهم ونعمهم وشائهم، اجتمعوا إلى حنين، فتبسم رسول الله ﷺ، وقال: «**تلك غنيمة المسلمين غدًا إن شاء الله**».

ثم قال: «**من يحرسنا الليلة؟**» فقال أنس بن أبى مرثد الغنوى: أنا يا رسول؟ قال: «**فاركب**» فركب فرسًا له فجاء إلى رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «**استقبل هذا الشِّعب حتى تكون فى أعلاه، ولا نُغرن من قِبَلك الليلة**».

(١) أخرجه مسلم (١٧٥٤) الجهاد والسير، وأحمد (٤/ ٤٩-٥١).

فلما أصبحنا خرج رسول الله ﷺ إلى مصلاه، فركع ركعتين ثم قال: «**هل أحسستم فارسكم؟**» قالوا: يا رسول الله، ما أحسسناه..فثوَّب بالصلاة، فجعل رسول الله ﷺ يصلى، وهو يلتفت إلى الشِّعب حتى إذا قضى صلاته، وسلم، قال: «**أبشروا فقد جاءكم فارسكم**».

فجعلنا ننظر إلى الشجرة فى الشِّعب فإذا هو قد جاء حتى وقف على رسول الله ﷺ فسلَّم فقال: إنى انطلقت حتى كنت فى أعلى هذا الشِّعب حيث أمرنى رسول الله ﷺ، فلما أصبحت طلعت الشِّعبين كليهما، فنظرت فلم أرَ أحدًا، فقال له رسول الله ﷺ: «**هل نزلت الليلة؟**» قال: لا إلا مُصليًّا أو قاضى حاجة. فقال له رسول الله ﷺ: «**فقد أوجبت فلا عليك ألا تعمل بعدها**»[(١)].

إنها الكلمة التى يستعملها ﷺ فى إخبارهم بما يسرهم من الأمور العظيمة، تلك هى أهمية الفرد فى المجتمع الإسلامي، إنه ليس كمًّا مُهمَلاً، ولا رقمًا فى سجل ولا بزالاً فى آلة، يُستغنى عنه عند الضرورة ليُؤتَى بغيره، إنها بعض التفسير للمنهج الإلهي[(٢)] فى قوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[(٣)].

كما أن فى هذه القصة مَعلمًا من معالم المنهج النبوى الكريم فى وجوب اليقظة وتعرُّف أحوال العدو، ومراقبة حركاته، ومعرفة ما عنده من القوة عددًا وعدة، وما رسمه من خطط حربية، وهى سياسة مهمة بالنسبة للقادة الذين يسعون لإعلاء كلمة الله فى الأرض[(٤)].

(١) رواه أبو داود (٢٥٠١)، والنسائى فى الكبرى وإسناده صحيح، وحسنه الحافظ فى الفتح (٨/ ٢٧).

(٢) انظر: معين السيرة، (ص٤٢٩).

(٣) سورة الإسراء: الآية: (٧٠).

(٤) انظر: محمد رسول الله/ صادق عرجون (٤/ ٣٦٦).

وأما قول الرسول ﷺ: «**قد أوجبت فلا عليك أن تعمل بعدها**» فهذا محمول على النوافل التى يُكفر الله بها السيئات، ويرفع بها الدرجات، والمقصود أنه عمل عملًا صالحًا كبيرًا يكفى لتكفير ما قد يقع منه من سيئات فى المستقبل، ويرفع الله به درجاته فى الجنة، وليس المقصود أن هذا العمل يكفيه عن أداء الواجبات[1].

مفاجأة لم تخطر على البال

إن السهولة التى تم بها فتح مكة، وإحساس جمهور المؤمنين أن الجاهلية تلفظ أنفاسها الأخيرة فلن تبدى مقاومة تُذكَر.. وظن حُدثاء العهد بالإسلام أن شيئًا ما لن يقف فى طريقه، كل ذلك جعل الجيش يزحف للقاء المشركين وهو غير مكترث لما سوف يواجه، ولم يكترث؟.

إنهم - وهم قلة - كانوا يكسبون المعارك الطاحنة، فكيف وهم اليوم يخرجون فى عدد لم يجمعوا مثله قبلاً.

وسار الجيش الواثق حتى وصل إلى وادى «حنين».

وكان «مالك بن عوف» ورجاله قد سبقوا إلى احتلال مضايقه، وانبثُّوا فى الشِّعاب والأجناب المنيعة، ثم تهيئوا لاستقبال المسلمين.

وأقبلت الطلائع الغفيرة تتدافع نحو الوادى - وهى غافلة عما يكمن فيه - وكان واديًا أجوف منحدرًا، ينحط فيه الراكبون كلما أوغلوا كأنهم يسيرون إلى هاوية.

لما تكاثرت فى دروبه الفرق الزاحفة، لم يَرُعهم إلا وابل من السهام

(١) انظر: التاريخ الإسلامى (٨/ ١٤).

يتساقط فوقهم من المكامن العالية، وكان غبش الفجر لا يزال يترك بقاياه فى الجو الغائم فارتاعت المقدمة لهذه المفاجأة، فهى فى عماية من الليل، وعماية من أمرها. لا تعرف إلا أن تستدير ثم تولى الأدبار.

وانتشرت موجة الفزع، فكسرت الصفوف المرصوصة وبعثرتها.

واستغل رجال «مالك بن عوف»، هذا الارتباك، فهاجمت كتائبهم، وحملت الخيل على ما أمامها، فانكفأ المسلمون مهزومين لا يلوى أحدٌ على أحد(١).

لقد باغت المشركون المسلمين وأمطرهم الأعداء من جميع الجهات، فاضطربت صفوفهم، وماج بعضهم فى بعض، ونتيجة لهول هذا الموقف انهزم معظم الجيش ولاذوا بالفرار، كُلٌّ يطلب النجاة لنفسه، وبقى الرسول ﷺ ونفر قليل فى الميدان يتصدون لهجمات المشركين.

۞ **عن أنس** رضي الله عنه قال: «لما اجتمع يوم حنين أهل مكة وأهل المدينة أعجبتهم كثرتهم، فقال القوم: اليوم والله ما نقاتل حين اجتمعنا، فكره ﷺ ما قالوا، ما أعجبهم من كثرتهم»(٢).

۞ **وعن جابر بن عبد الله** رضي الله عنه قال: «لما استقبلنا وادى حنين قال: انحدرنا فى وادى من أودية تهامة أجوف حَطوط(٣) إنما ننحدر فيه انحدارًا قال: وفى عماية الصبح(٤)، وقد كان القوم كمنوا لنا فى شِعابه، وفى أجنابه

---

(١) فقه السيرة للغزالى (ص ٤٣٣، ٤٣٤) بتصرف.

(٢) أخرجه الحاكم وصححه، وابن المنذر وابن مردويه وأبو الشيخ وغيرهم: **الفتح الربانى** (٢١/ ١٦٩).

(٣) حَطوط: واسع منحدر من أعلى إلى أسفل.

(٤) عماية الصبح: أى بقية ظلمة الليل.

ومضايقه، قد جمعوا وتهيأوا وأعدوا فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب قد شدَّت علينا شدة رجل واحد، وانهزم الناس راجعين. فاستمروا لا يلوى أحدٌ منهم على أحد، وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين قال: «**إلىَّ أيها الناس، هَلُم إلىَّ، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله**»، قال: فلا شيء[١].

احتملت الإبل بعضها بعضًا فانطلق الناس إلا أن مع رسول الله ﷺ رهطًا من المهاجرين والأنصار وأهل بيته غير كثير، وفيمن ثبت معه ﷺ أبو بكر وعمر ومن أهل بيته على بن أبى طالب، والعباس بن عبد المطلب، وابنه الفضل بن عباس، وأبو سفيان ابن الحارث وربيعة بن الحارث وأيمن بن عُبيد، وهو ابن أم أيمن، وأسامة بن زيد... قال: ورجل من هوازن على جمل له أحمر فى يده راية له سوداء فى رأس رمح طويل أمام الناس، وهوازن خلفه، فإذا أدرك طعن برمحه، وإذا فاته الناس رفعه لمن وراءه، فاتبعوه[٢].

قال ابن إسحاق: «وحدثنى عاصم بن عمرو بن قتادة عن عبد الرحمن ابن جابر عن أبيه جابر بن عبد الله قال: (بينما ذلك الرجل من هوازن صاحب الراية على جَمَلِه ذلك يصنع ما يصنع، إذ هوى له على بن أبى طالب، ورجل من الأنصار يريدانه، قال: فيأتيه (علىٌّ) من خلفه فضرب عُرقوبى الجمل فوقع على عجزه، ووثب الأنصارى على الرجل، فضربه ضربة أطنَّ قدمه[٣] بنصف ساقه، فانعجف[٤] عن رَحْلِه، واجتلد الناس

(١) فلا شيء: يعنى فلا مجيب.

(٢) رواه أحمد (٣/ ٣٧٦)، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن رجاله ثقات رجال الشيخين غير ابن إسحاق فهو صدوق حسن الحديث.

(٣) أَطَن قدمه: قصعه.

(٤) فانعجف: مال وسقط.

فوالله ما رجعت راجعة الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأسرى مُكتَفين عند رسول الله ﷺ».

الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ

۞ عن أنس رضي الله عنه قال: «افتتحنا مكة، ثم إننا غزونا حُنينًا، فجلى المشركون بأحسن صفوف رأيت، قال: فصُفَّت الخيل، ثم صُفَّت المقاتلة، ثم صُفت النساء من وراء ذلك، ثم صفت الغنم، ثم صفت النعم.

قال: ونحن بشر كثير قد بلغنا ستة آلاف[١]. وعلى مجنبة[٢] خيلنا خالد ابن الوليد. فجعلت خيلنا تلوى[٣] خلف ظهورنا فلم نلبث أن انكشف خيلنا، وفرَّت الأعراب. ومَن نعلم من الناس.

قال: فنادى رسول الله ﷺ: «**يا للمهاجرين!**» ثم قال: «**يا للأنصار**» قال: قال أنس. هذا حديث عمية[٤]، قال: قلنا لبيك يا رسول الله، قال: فتقدم رسول الله ﷺ قال: فأيم الله! ما أتيناهم حتى هزمهم الله. قال: فقبضنا ذلك المال. ثم انطلقنا إلى الطائف، فحاصرناهم أربعين ليلة، ثم رجعنا إلى مكة، فنزلنا، قال: فجعل رسول الله ﷺ يعطى الرجل المائة من الإبل»[٥].

---

(١) قد بلغنا ستة آلاف: قال القاضي هذا وهم من الراوى عن أنس، والصحيح ما جاء فى الرواية الأولى عشرة آلاف، ومعه الطلقاء، لأن المشهور فى كتب المغازى أن المسلمين كانوا يومئذ اثنى عشر ألفًا، عشرة آلاف شهدوا الفتح. وألفان من أهل مكة ومن انضاف إليهم (انظر الرواية الأولى، والتى فيها ذكر العشرة الآف فى صحيح مسلم حديث (١٠٩٥/ ١٣٥).

(٢) مجنبة: هى الكتيبة من الخيل التى تأخذ جانب الطريق.

(٣) تلوى: تلوذ، فجعلت فرساننا يثنون أفراسهم ويعفونها خلف ظهورنا.

(٤) هذا حديث عمية: هذا حديث فضل أعمامى، أو هذا الحديث الذى حدثنى به أعمامى.

(٥) أخرجه مسلم (١٠٩٥/ ١٣٦) الزكاة.

۞ عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «وقد جاءه رجل فقال: يا أبا عمارة، أتوليت يوم حنين، فقال: أما أنا فأشهد على النبى ﷺ أنه لم يُولِّ، ولكن عجّل سرعان القوم، فرشقتهم هوازن ـ وأبو سفيان بن الحارث آخذ برأس بغلته البيضاء يقول: «**أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب**»(١).

وفى لفظ آخر: «وقد سأله رجل من قيس: أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حُنين؟ فقال: لكن رسول الله ﷺ لم يفر، كانت هوازن رماة، وإنا لما حملنا عليهم انكشفوا، فأكببنا على الغنائم، فاستُقبلنا بالسهام، ولقد رأيت رسول الله ﷺ على بغلته البيضاء، وإن أبا سفيان بن الحارث آخذ بزمامها وهو يقول: «**أنا النبى لا كذب**»(٢).

۞ وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: «لقد رأيتنا يوم حُنين وإن الفئتين لموليتين، وما مع رسول الله ﷺ مائة رجل»(٣).

۞ وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «كنت مع النبى ﷺ يوم حنين قال: فولَّى الناس، وثبت معه ثمانون رجلاً من المهاجرين والأنصار فنكصنا على

---

(١) أخرجه البخارى (٤٣١٥) المغازى، ومسلم (١٧٧٦) الجهاد والسير.

(٢) قال الحافظ ابن حجر: وفى الحديث (يعنى حديث البراء بن عازب فى ثبات النبى) من الفوائد: حُسن الأدب فى الخطاب، والإرشاد إلى حسن السؤال بحسن الجواب، وذم الإعجاب، وفيه جواز الانتساب إلى الآباء ولو ماتوا فى الجاهلية، والنهى عن ذلك محمول على ما هو خارج الحرب، ومثله الرخصة فى الخيلاء فى الحرب دون غيرها، وجواز التعرض إلى الهلاك فى سبيل الله، ولا يقال كان النبى ﷺ متيقنًا للنصر لوعد الله تعالى له بذلك، وهو حق، لأن أبا سفيان بن الحارث قد ثبت معه آخذًا بلجام بغلته، وليس هو على اليقين مثل النبى ﷺ. وفيه ركوب البغلة إشارة إلى مزيد الثبات، لأن ركوب الفحولة مظنة الاستعداد للفرار والتولى، وإذا كان رأس الجيش قد وطَّن نفسه على عدم الفرار، وأخذ بأسباب ذلك كان ذلك أدعى لاتباعه على الثبات، وفيه شهرة الرئيس نفسه فى الحرب مبالغة فى الشجاعة وعدم المبالاة بالعدو». فتح البارى (٨/ ٣٢).

(٣) رواه الترمذى (١٦٨٩)، وحسنه الحافظ فى الفتح (٨/ ٢٩/ ٣٠).

أقدامنا نحوًا من ثمانين قدمًا، ولم نولهم الدُّبر وهم الذين أنزل الله ﷻ عليهم السكينة، قال: ورسول الله ﷺ على بغلته يمضى قُدمًا، فحارت به بغلته فمال عن السرج فقلت: ارتفع رفعك الله فقال: ناولنى كفًّا من تراب فضرب به وجوههم فامتلأت أعينهم ترابًا قال: «**أين المهاجرون والأنصار**». قلت: هم أولاء قال: «**اهتف بهم**». فهتفت بهم، فجاءوا وسيوفهم بأيمانهم كأنها الشُّهب، وولى المشركون أدبارهم»[(١)] [(٢)].

أين أصحاب السمرة

ووقف النبى ﷺ ساكن الجأش، يدبر الرأى فى خطة ينقذ بها سمعة الإسلام ومستقبله، وقد أحاط به لفيف من المهاجرين الأولين، ومن أهل بيته.

---

(١) قال الهيثمى فى المجمع (٦/ ١٨٠) رواه أحمد، والبزار، والطبرانى، ورجال أحمد رجال الصحيح غير الحارث بن حصيرة، وهو ثقة، انظر كشف الأستار عن زوائد البزار حديث رقم (١٨٢٩)، وأخرجه الحاكم (٢/ ١١٧) أخرجه أحمد فى المسند (١/ ٤٥٤) دلائل البيهقى (٥/ ١٤٢) وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبى.

(٢) قال الحافظ فى الفتح: «وهذا لا يخالف حديث ابن عمر، فإنه نفى أن يكونوا مائة، وابن مسعود أثبت أنهم كانوا ثمانين، وأما ما ذكره النووى فى شرح مسلم: أنه ثبت معه اثنا عشر رجلاً، فكأنه أخذه مما ذكره ابن إسحاق فى حديثه أنه ثبت معه العباس وابنه الفضل وعلى، وأبو سفيان بن الحارث، وأخوه ربيعة، وأسامة بن زيد، وأخوه من أمه أيمن بن أم أيمن، ومن المهاجرين أبو بكر وعمر، فهؤلاء تسعة، وتقدم ذكر ابن مسعود فى مرسل الحاكم، فهؤلاء عشرة، ووقع فى شعر العباس بن عبد المطلب أن الذين ثبتوا كانوا عشرة فقط وذلك قوله:

نصرنا رسول الله فى الحرب تسعة ... وقد فر من قد فر عنه فأقشعوا

وعاشرنا وافى الحمام بنفسه ... لما مسه فى الله لا يتوجعُ

ولعل هذا هو الثبت. ومن زاد على ذلك يكون عجّل فى الرجوع فعد فيمن لم ينهزم» [فتح البارى (٨/ ٣٠)].

فأمر العباس بن عبد المطلب ـ وكان جهير الصوت ـ أن ينادى: يا معشر الأنصار، يا أصحاب البيعة يوم الحديبية[١].

لقد هداه الحق أن يهتف بأصحاب العقائد، ورجال الفداء عقد الصدام فهم ـ وحدهم ـ الذين تنجح بهم الرسالات وتُفرَّج الكروب.

أما هذا الغثاء من العوام الحراص على الدنيا، السُّعاة إلى المغانم، فما يقوم بهم أمر، أو تثبت بهم قدم[٢].

۞ عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: «شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين. فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسول الله ﷺ، فلم نفارقه. ورسول الله ﷺ على بغلة له، بيضاء. أهداها له فروة بن نفاثه الجذامى. فلما التقى المسلمون والكفار، ولى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قِبل الكفار.

قال العباس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ أكفُّها إرادة أن لا تسرع. وأبو سفيان آخذٌ بركاب رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: **«أى عباس! نادِ أصحاب السمرة»**[٣] فقال العباس: «وكان رجلاً صيِّتًا»[٤] فقلت: بأعلى صوتى: أين أصحاب السمرة؟

قال: فوالله! لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتى، عطفة البقر على

---

(١) رواه ابن إسحاق بسند صحيح عن العباس وقد ساقه ابن جرير، وابن هشام عنه، وهو فى مسلم (٥/ ١٦٦-١٦٧) نحوه.

(٢) فقه السيرة للغزالى (٤٣٤-٤٣٥) بتصرف.

(٣) أصحاب السمرة: هى الشجرة التى بايعوا تحتها بيعة الرضوان - ومعناه: نادِ أهل بيعة الرضوان يوم الحديبية.

(٤) صيِّتًا: قوى الصوت.

أولادها. فقالوا: يا لبيك؟ يا لبيك! قال: فاقتتلوا والكفار... والدعوة فى الأنصار، يقولون: يا معشر الأنصار! يا معشر الأنصار! ثم قصرت الدعوة على بنى الحارث بن الخزرج، فقالوا: يا بنى الحارث بن الخزرج!. يا بنى الحارث بن الخزرج فنظر رسول الله ﷺ، وهو على بغلته، كالمتطاول عليها، إلى قتالهم، فقال رسول الله ﷺ: «**هذا حين حمى الوطيس**»(١).

قال: ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات، فرمى بهن وجوه الكفار. ثم قال: «**انهزموا، ورب محمد!**» قال: فذهبت انظر، فإذا القتال على هيئته فيما أرى. قال: فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته. فما زلت أرى حدَّهم كليلاً(٢) وأمرهم مُدبرًا»(٣) (٤).

۞ **وعن أنس** رضي الله عنه **قال**: «التقى يوم حنين أهل مكة وأهل المدينة، واشتد القتال فولَّوا مدبرين، فندب رسول الله ﷺ الأنصار فقال: «**يا معشر المسلمين أنا رسول الله**» فقالوا: إليك والله جئنا، فنكسوا رؤوسهم، ثم قاتلوا حتى فتح الله عليهم»(٥).

---

(١) هذا حين حمى الوطيس: الضرب فى الحرب.

(٢) حدَّهم كليلاً: ما زلت أرى قوتهم ضعيفة.

(٣) أخرجه مسلم (١٧٧٥) الجهاد، وأحمد (١/ ٢٠٧).

(٤) قال النووى رحمه الله: «قال العلماء: فى هذا الحديث دليل على أن فرارهم لم يكن بعيدًا، وأنه لم يحصل الفرار من جميعهم، وإنما فتحه عليهم من فى قلبه مرض من مسلمة أهل مكة المؤلفة ومشركيها الذين لم يكونوا أسلموا، وإنما كانت هزيمتهم فجأة لانصبابهم عليهم دفعة واحدة، ورشقهم بالسهام، ولاختلاط أهل مكة معهم ممن لم يستقر الإيمان فى قلبه، وممن يتربص بالمسلمين الدوائر، وفيهم نساء وصبيان خرجوا للغنيمة، فتقدم أخفاؤهم، فلما رشقوهم بالنبل ولَّوا، فانقلبت أولاهم على أخراهم إلى أن أنزل الله سكينته على المؤمنين، كما ذكر الله تعالى فى القرآن». [مسلم بشرح النووى (١٢/ ١١٥)].

(٥) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٣/ ٤٨) وقال: حديث صحيح الإسناد، ولم يُخرجاه، ووافقه الذهبى.

اللهم أنزل نصرك

وكعادة النبى ﷺ فى كل غزواته فلقد أخذ يدعو ويدعو ويلجأ إلى الله ﷻ لينصره ومَن معه من المؤمنين لأنه يعلم أن النصر لا يأتى إلا من عند الله ﷻ.

۞ عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال رجل للبراء: أكنتم ولَّيتم يوم حُنين يا أبا عمارة؟ فقال: أشهد على نبى الله ﷺ ما ولى. ولكنه انطلق أخفاء من الناس، وحسر إلى هذا الحى من هوازن، وهم قوم رماة. فرموهم برشقٍ من نبل، كأنها رِجلٌ من جراد[1] فانكشفوا: فأقبل القوم إلى رسول الله ﷺ، وأبو سفيان بن الحارث يقود به بغلته، فنزل، ودعا، واستنصر، وهو يقول:

«أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب»

«اللهم نزِّل نصرك».

قال البراء: كنا والله إذا احمرَّ البأس نتقى به، وإن الشجاع منا للذى يحاذى به... يعنى النبى ﷺ »[2].

شاهت الوجوه

عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: «غزونا مع رسول الله ﷺ حُنينًا... وذكر الحديث ثم قال:

فلما غَشُوا رسول الله ﷺ نزل عن البغلة، ثم قبض قبضة من تراب من الأرض، ثم استقبل به وجوههم، فقال: «**شاهت الوجوه**»[3] فما خلق الله

(١) رجل من جراد: كأنها قطعة من جراد، والرجل: الجراد الكثير.

(٢) أخرجه مسلم فى الجهاد والسير باب فى غزوة حنين: (١٧٧٦/ ٧٩).

(٣) شاهت الوجوه: أى قَبُحت.

منهم إنسانًا إلا ملأ عينيه ترابًا بتلك القبضة، فولوا مدبرين فهزمهم الله ﷻ، وقسم رسول الله ﷺ غنائمهم بين المسلمين»[١].

۞ وقد جاء أيضًا من حديث يزيد بن عامر السسوائى أنه قال: «عند انكشافة انكشفها المسلمون يوم حنين، فتبعتهم الكفار، فأخذ رسول الله ﷺ قبضة من الأرض، فرمى بها وجوههم، وقال: «**ارجعوا شاهت الوجوه**»، فما من أحد يلقى أخاه إلا وهو يشكو القذى، ويمسح عينيه»[٢][٣].

وهكذا لم تصمد قوات المشركين طويلاً فى الجولة الثانية حين صدق المسلمون ما عاهدوا الله عليه، وأجرى الله تعالى على يد نبيه المعجزة الواضحة، وإلى ذلك يشير القرآن الكريم من قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٤].

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٧٧) المغازى.

(٢) أخرجه الطبرانى فى الكبير: (٢٢/ ٢٣٧)، رقم (٦٢٢)، والبخارى فى التاريخ الكبير (٤/ ٢/ ٣١٦) المطالب العالية (٤٣٧٢)، وعزاه إلى عبد بن حميد، وسكت عنه البوصيرى، وقال الهيثمى فى المجمع (٦/ ١٨٢ ١٨٣) رواه الطبرانى، ورجاله ثقات.

(٣) قال الحافظ ابن حجر: قلت: جاء فى الأحاديث السابقة أنه ﷺ قد تناول كفًا من تراب أو حصى، ورمى بها المشركين، وقد جاء من حديث ابن مسعود، فيما مضى أيضًا أنه طلب منه أن يناوله كفًا من التراب فرمى به المشركين، ومن حديث ابن عباس أنه طلب من على أن يناوله التراب، فرمى به المشركين، ويجمع بين هذه الأحاديث أنه ﷺ أولاً قال لصاحبه ناولنى، فناوله، فرماهم، ثم نزل عن البغلة، فأخذ بيده، فرماهم أيضًا، فيحتمل أن الحصى فى إحدى المرتين، وفى الأخرى التراب، والله أعلم» كذا قال الحافظ [فتح البارى (٨/ ٣٢)].

(٤) سورة التوبة: الآيتان: (٢٦-٢٧).

انهارت قوى الشرك، وفرَّت من ميدان المعركة بشكل غير منظم مُخلفة وراءها أعدادًا كثيرة من القتلى وكمية كبيرة من الغنائم، كما خلَّفت شراذم من قواتها تمكَّن المسلمون من القضاء عليهم بسهولة، وأمر النبى ﷺ بتعقُّب المشركين المهزومين وقتلهم حتى يمنع إمكانية تجمُّعهم ثانية واحتمال عودتهم إلى القتال فكانت خسائر المشركين فى القتلى خلال هزيمتهم أعظم من خسارتهم خلال المعركة ... وقد نهى النبى ﷺ عن قتل النساء والأُجراء وكل من لا يحمل السلاح، كما نهى عن قتل الأولاد والذرارى حين بلغه أن بعضهم قد قُتل خلال المعركة[١].

الله يُلقى الرعب فى قلوب المشركين

۞ عن يزيد بن عامر السسوائى: «وكان شهد حنينًا مع المشركين، ثم أسلم.

قال أبو السائب: سألناه عن الرعب الذى ألقاه الله فى قلوبهم يوم حُنين، كيف كان، فأخذ حصاة، فرمى بها طستًا فطنَّ قال: كنا نجد فى أجوافنا مثل هذا»[٢].

۞ ولا عجب فى أن يلقى الله الرعب فى قلوبهم فقد قال تعالى: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[٣].

وكان النبى ﷺ يوصى أصحابه بأن يشتدوا على المشركين لتكون هذه الجولة فى صالح جنود الرحمن.

---

(١) نضرة النعيم (١/ ٣٧٨-٣٧٩) بتصرف.

(٢) قال لهيثمى فى المجمع (٦/ ١٨٣): رواه الطبرانى ورجاله ثقات.

(٣) سورة آل عمران: الآية: (١٥١).

۞ عن أنس رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ قال يوم حنين: «جُزّوهم جَزًّا»، وأومأ بيده إلى الحلق»(١).

من قتل كافرًا فله سلبه

وكان النبى ﷺ يشجع أصحابه على أن يقتلوا أكبر عدد من المشركين فجعل لكل من يقتل كافرًا الحق فى أن يأخذ كل ما معه من متعلقات.

۞ **عن أنس** رضي الله عنه **قال:** «قال رسول الله ﷺ يومئذ يعنى يوم حُنين: «**من قتل كافرًا، فله سلبه**»، فقتل أبو طلحة يومئذ عشرين رجلاً، وأخذ أسلابهم»(٢).

۞ **وعن أبى قتادة** رضي الله عنه **قال:** «خرجنا مع رسول الله ﷺ عام حُنين. فلما التقينا كانت للمسلمين جولة(٣). قال: فرأيت رجلاً من المشركين قد علا رجلاً من المسلمين(٤)، فاستدرت إليه حتى أتيته من ورائه، فضربته على حبل عاتقه(٥)، وأقبل علىَّ فضمنى ضمة وجدت منها ريح الموت(٦). ثم أدركه الموت. فأرسلنى ـ أى تركنى ـ فلحقت عمر بن الخطاب. فقال: ما للناس؟ فقلت: أمر الله.

ثم إن الناس رجعوا، وجلس رسول الله ﷺ فقال: «**من قتل قتيلاً، له**

---

(١) أخرجه البزار حديث رقم (١٨٣٠) كما فى كشف الأستار، وقال الهيثمى (٦/ ١٨١) رواه البزار، ورجاله ثقات.

(٢) رواه أبو داود والدارمى والحاكم (٣/ ٣٥٣) وصححه ووافقه الذهبى.

(٣) جولة: أى انهزام وخيفة ذهبوا فيها. وهذا إنما كان فى بعض الجيش، وأما رسول الله ﷺ وطائفة معه فلم يولوا. والأحاديث الصحيحة بذلك مشهورة قد سبق بعضها فيما مضى من الأحاديث.

(٤) قد علا رجلاً من المسلمين: يعنى ظهر عليه وأشرف على قتله، أو صرعه وجلس عليه ليقتله.

(٥) على حبل عاتقه: هامه بين العنق والكتف.

(٦) وجدت منها ريح الموت: يحتمل أنه أراد شدة كشدة الموت: ويحتمل قاربت الموت.

عليه بيِّنة، فله سَلَبُه»[١] قال: فقمت فقلت: من يشهد لى؟[٢]، ثم جلست ثم قال مثل ذلك. فقال فقمت فقلت: من يشهد لى؟ ثم جلست. ثم قال ذلك الثالثة فقمت.

فقال رسول الله ﷺ: **«ما لك؟ يا أبا قتادة!»** فقصصت عليه القصة فقال رجل من القوم: صدق. يا رسول الله! سلب ذلك القتيل عندى. فأرضه من حقه، وقال أبو بكر الصديق: لاها الله[٣] إذًا لا يعمد[٤] إلى أسد من أُسد الله يقاتل عن الله وعن رسوله، فيعطيك سلبه. فقال رسول الله ﷺ: **«صدق. فأعطه إياه»** فأعطانى قال: فبعث الدرع، فابتعت به مخرفًا[٥] فى بنى سلمة. فإنه لأول مال تأثلته[٦] فى الإسلام.

وفى حديث الليثى: فقال أبو بكر: كلا لا يعطيه أُضيبع فى قريش ويَدَع أسدًا من أُسد الله»[٧].

شجاعة أم سُليم رضي الله عنها

❁ عن أنس رضي الله عنه قال: «إن أم سليم اتخذت يوم حنين خنجرًا[٨]، فكان معها فرآها أبو طلحة. فقال: يا رسول الله هذه أم سليم معها خنجر، فقال

---

(١) له عليه بينة: أى شاهد، فله سلبه: هو ما على القتيل وما معه من ثياب وسلاح ومركب.

(٢) من يشهد لى: بأنى قتلت رجلاً من المشركين، فيكون سلبه لى.

(٣) لاها الله: هكذا هو فى روايات جميع المحدثين وهو قسم ويمين بمعنى (لا والله).

(٤) لا يعمد: الضمير عائد إلى النبى ﷺ. أى لا يقصد عليه السلام إلى إبطال حق أسد من أسود الله يقاتل فى سبيله وهو أبو قتادة بإعطاء سلبه إياك.

(٥) مخرفًا: البستان وقيل السكة من النخيل وقيل هى الجنبة الصغيرة.

(٦) تأثلته: اقتنيته وتأصلته.

(٧) أخرجه البخارى (٤٣٢١) المغازى، ومسلم (١٧٥١) الجهاد والسير.

(٨) خنجرًا: سكين كبير ذات حدين.

لها رسول الله ﷺ: «**ما هذا الخنجر؟**» قالت: اتخذته إن دنا منى أحد من المشركين بقرت به بطنه. فجعل رسول الله ﷺ يضحك. قالت: يا رسول الله! اقتل من بعدنا[١] من الطلقاء[٢] انهزموا بك[٣]. فقال رسول الله ﷺ: «**يا أم سليم إن الله قد كفى وأحسن**»[٤].

ما فعله رسول الله ﷺ بأخته الشيماء

كان المسلمون قد ساقوا فيمن ساقوه إلى رسول الله الشيماء بنت الحارث، وبنت حليمة السعدية، أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة، وعنَّفوا عليها فى السوق، وهم لا يدرون، فقالت للمسلمين: تعلمون والله أنى لأخت صاحبكم من الرضاعة، فلم يصدقوها حتى أتوا بها رسول الله، ولما انتهت الشيماء إلى رسول الله ﷺ قالت: يا رسول الله إنى أختك من الرضاعة، قال: «**ما علامة ذلك؟**» قالت: عضة عضضتها فى ظهري، وأنا متوركتك[٥]، وعرف رسول الله ﷺ العلامة، وبسط لها رداءه وأجلسها عليه، وخيَّرها، وقال: «**إن أحببتِ فعندى مُحببَّة مُكرمة، وإن أحببت أن أمتعك وترجعى إلى قومك فعلت**» فقالت: بل تمتعنى وتردنى إلى قومي[٦]. ومتعها رسول الله ﷺ فأسلمت، وأعطاها رسول الله ﷺ ثلاثة أَعْبُد وجارية ونعماء وشاء[٧].

---

(١) من بعدنا: من سوانا.

(٢) الطلقاء هم الذين أسلموا يوم فتح مكة سُموا بذلك لأن النبى ﷺ منَّ عليهم وأطلقهم وكان فى إسلامهم ضعف فاعتقدت أم سليم أنهم منافقون يستحقون القتل لانهزامهم.

(٣) انهزموا بك: أى انهزموا عنك. على حد قوله تعالى: ﴿فَسْئَلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]، أى عنه وبما نكون للسببية. أى انهزموا بسببك لنفاقهم.

(٤) أخرجه مسلم (١٨٠٩) الجهاد والسير.

(٥) متوركتك: يعنى حاملتك على وركي.

(٦) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٦٣) السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٥٠٦).

(٧) انظر: السيرة النبوية للندوي، (ص٣٥٨).

حركة المطاردة

تفرق مَن نجا من مقاتلة المشركين فى الجبال والوديان بعد هزيمتهم فى معركة حنين، ولجأت مجموعة كبيرة منهم إلى أوطاس[١]، وعسكرت مجموعة أخرى منهم فى نخلة[٢]، أما غالبية من انهزم من ثقيف فقد تبعوا قائدهم مالك بن عوف النصرى إلى حصونهم بالطائف، وقد لاحق مقاتلة المسلمين الفارين حسب توجيهات النبى ﷺ، حيث بعث أبا عامر عبيد بن سليم بن حضار الأسلمى على رأس قوة من المسلمين إلى أوطاس فقاتلهم.

۞ عن أبى موسى الأشعرى قال: «لما فرغ النبى ﷺ من حنين بعث أبا عامر على جيش إلى أوطاس، فلقى دُريد بن الصمة، فقتل دريد، وهزم الله أصحابه قال أبو موسى: وبعثنى مع أبى عامر، فرُمى أبو عامر فى ركبته، رماه جشمى بسهم فأثبته فى ركبته، فانتهيت إليه فقلت: يا عم! مَن رماك؟ فأشار أبو عامر إلى أبى موسى، فقال: إن ذلك قاتلى، تراه ذلك الذى رمانى.

قال أبو موسى فقصدت له، فاعتمدته، فلحقته، فلما رآنى ولّى عنى ذاهبًا، فاتبعته وجعلت أقول له: ألا تستحى؟ ألست عربيًا؟ ألا تثبت؟ فكُفَّ فالتقيت أنا وهو فاختلفنا ضربتين أنا وهو فقتلته. ثم رجعت إلى أبى عامر، فقلت: قد قتل الله صاحبك، قال: فانتزع هذا السهم، فنزعته، فنزا منه الماء[٣] فقال: يا ابن أخى، انطلق إلى رسول الله ﷺ، فاقرئه عنى السلام، ثم قل له إنه يقول لك: استغفر لى.

---

(١) واد بين حنين والطائف، معجم البلدان (١/ ٢٨١).

(٢) موضع بين حنين وسبواحة (تعليق حمد الجاسر على كتاب المناسك للحربى).

(٣) فنزا منه الماء: ظهر وجرى.

قال: واستخلفنى أبو عامر على الناس يسيرًا، ثم مات. فلما رجعت إلى النبى ﷺ، دخلت عليه، وهو فى بيت على سرير مرمل وعليه فراش، وقد أثَّر رمال السرير بظهر رسول الله ﷺ وجنبيه، فأخبرته بخبرنا، وخبر أبى عامر، وقلت له: قال: قل له يستغفر لى.

فدعا رسول الله ﷺ بماء فتوضأ، ثم رفع يديه، فقال: «**اللهم اغفر لأبى عامرٍ عبدك**»، حتى رأيت بياض إبطيه، ثم قال: «**اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك، أو من الناس**»، فقلت: يا رسول الله! ولى فاستغفر. فقال: «**اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه، وأدخله يوم القيامة مُدخلاً كريمًا**».

قال أبو بردة: إحداهما لأبى عامر، والأخرى لأبى موسى»(١).

۞ ولقد قُتل فى أوطاس من المشركين من بنى مالك ثلاثمائة قتيل بينهم دريد بن الصمة، كما قُتل خلق كثير من بنى نصر بن معاوية من قبيلة رئاب. وهكذا فإنه ليس بالإمكان إعطاء رقم دقيق لعدد قتلى المشركين الإجمالى فى معركة حنين فقد كان عدد قتلى بنى مالك من ثقيف فى الجولة الثانية من حنين قد بلغ اثنين وسبعين قتيلاً وقُتل من الأحلاف قتيلان، وقُتل بأوطاس كما أسلفنا ثلاثمائة من بنى مالك، وتشير المصادر إلى أنه قُتل خلق كثير من فروع هوازن الأخرى وخاصة من بنى نصر بن معاوية وغيرهم ممن قُتلوا أثناء فرارهم إلى نخلة من حنين(٢).

خسائر المسلمين

لم تكن خسائر المسلمين كبيرة خلافًا للتوقعات من خلال المعلومات العامة عن إصابات المسلمين فى الجولة الأولى وفرار الكثير منهم، بل إنها

(١) أخرجه البخارى (٤٣٢٣) المغازى، ومسلم (٢٤٩٨) فضائل الصحابة.

(٢) نضرة النعيم (١/ ٣٨٠).

كانت طفيفة جدًا إذا ما أدخلنا قوة المشركين واستعداداتهم وخططهم فى الاعتبار ... وذلك من فضل الله وحفظه ورحمته بالمسلمين، فقد استشهد منهم أربعة شهداء[١]، وجرح عدد منهم، أشارت المصادر من بينهم إلى أبى بكر وعمر وعثمان وعليّ وعبد الله بن أبى أوفى وخالد بن الوليد[٢]، ومما يؤكد صحة هذه الأرقام بالإضافة إلى ورودها فى مرويات صحيحة، قيام المسلمين بعد الجولة الثانية بمطاردة المشركين إلى مسافات بعيدة، كما أنهم توجهوا إلى حصار الطائف بعد انتهاء معركة حنين مباشرة[٣].

الغنائم

وكان سبى حنين كثيرًا، فقد بلغ ستة آلاف من النساء والأبناء[٤]، أما الغنائم فقد بلغت أربعة آلاف أوقية فضة[٥]، أما الإبل فكانت أربعة وعشرين ألفًا[٦]، أما الأغنام فكانت أكثر من أربعين ألف شاة[٧]، وقد حبس الرسول ﷺ هذا السبى والغنائم بالجعرانة ليتصرف فيها بعد الفراغ من أمر الطائف[٨].

(١) هم: أبو عامر الأسلمى، وأيمن بن عبيد، ويزيد بن زمعة بن الأسود، وسراقة بن الحارث، انظر: البخارى ـ الصحيح (٥/ ١٢٦)، الحميدى ـ المسند (٢/ ٣٩٨)، الهيثمى ـ كشف الأستار (٢/ ٣٤٦)، وحسن إسناده الحافظ ابن حجر، فتح البارى (٨/ ٤٢).

(٢) البخارى ـ الصحيح (٥/ ١٢٦) (حديث ٤٣١٤).

(٣) نضرة النعيم (١/ ٣٧٩).

(٤) الصنعانى ـ المصنف (٥/ ٣٨١)، ابن سعد ـ الطبقات (٢/ ١٥٥) من رواية الزهرى عن ابن المسيب مرسلاً، الطبرى ـ تاريخ (٣/ ٨٢)، الذهبى ـ المغازى (ص٦٠٦).

(٥) ابن سعد ـ الطبقات (٢/ ١٥٢).

(٦) المرجع السابق (٢/ ١٥٢) وكان معهم خيل وأبقار وحمير وبغال غير أن المصادر لم تذكر عددها.

(٧) المرجع السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٨) أخرجه البزار كما فى كشف الأستار للهيثمى (٢/ ٣٥٣)، قال الحافظ ابن حجر: «إسناده حسن»، انظر، الإصابة (١٤٥).

أسباب الهزيمة وعوامل النصر فى حنين

❁ وها هى بعض أسباب الهزيمة، وعوامل النصر فى غزوة حنين:

(أولاً) أسباب الهزيمة:

وقعت الهزيمة فى الجولة الأولى لعدة أسباب منها:

(١) أن شيئًا من العجب تسرب إلى قلوب المسلمين، لما رأوا عددهم، فقد قال رجل منهم: لن نُغلَب اليوم من قِلة، فشقَّ ذلك على النبى ﷺ فكانت الهزيمة.

(٢) خروج شُبان ليس لديهم سلاح أو سلاح كافٍ، وإنما عندهم حماس وتسرُّع.

(٣) أن عدد المشركين كان كثيرًا بلغ أكثر من ضعفى عدد المسلمين.

(٤) أن مالك بن عوف سبق بجيشه إلى حنين فتهيأ هنالك ووضع الكمائن والرماة فى مضايق الوادى وعلى جوانبه، وفاجأوا المسلمين، برميهم بالنبال وبالهجوم المباغت.

(٥) كان العدو مُهيأً ومُنظمًا ومُستعدًّا للقتال حال مواجهته لجيش المسلمين، فقد جاء المشركون بأحسن صفوف رُئيت: صف الخيل ثم المقاتلة ثم النساء من وراء ذلك ثم الغنم ثم النعم.

(٦) وجود ضعاف الإيمان الذين أسلموا حديثًا فى مكة، ففروا فانقلبت أُولاهم على أُخراهم، فكان ذلك سببًا لوقوع الخلل وهزيمة غيرهم[1].

---

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٤٠٩) بتصرف.

(ثانيًا): عوامل النصر:

كانت عوامل النصر فى حنين عدة أسباب منها:

(١) ثبات الرسول ﷺ فى القتال وعدم تراجعه، مما جعل الجنود يثبتون ويستجيبون لنداء القائد الثابت.

(٢) شجاعة القائد...، فالرسول القائد لم يثبت فى مكانه فحسب، بل تقدم نحو عدوه راكبًا بغلته، فطفق يركض ببغلته قِبَل الكفار والعباس آخذ بلجام البغلة يكفُّها ألا تُسرع.

(٣) ثبات قلة من المسلمين معه وحوله حتى جاء الذين تولوا وأكملوا المسيرة؛ مسيرة الثبات والبر والقتال حتى النصر.

(٤) سرعة استجابة الفارِّين والتحاقهم بالقتال.

(٥) وقوع الجيش المعادى فى خطأ عسكرى قاتل، وهو عدم الاستمرار فى مطاردة الجيش الإسلامى بعد فراره، مما أعطى فرصة ثمينة للجيش الإسلامى ليلتقط أنفاسه ويعود إلى ساحة القتال ويستأنف القتال من جديد بقيادة القائد الثابت الشجاع رسول الله ﷺ.

(٦) رمية الحصى،... فقد أخذ النبى ﷺ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار، ثم قال: «**انهزموا ورب محمد**»[1].

(٧) الاستعانة والاستغاثة بالله ﷻ، فقد كان الرسول يُلح على الله فى الدعاء بالنصر على الأعداء.

(٨) إنزال الملائكة فى الغزوة ومشاركتهم فيها،... وقد سجَّل الله هذه المشاركة فى كتابه الكريم فى سورة التوبة[2]: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا

(١) مسلم بشرح النووى (١٢/ ١١٦، ١١٧).

(٢) انظر: السيرة النبوية لأبى فارس، (ص٤٢٣).

وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

بعض ما تضمنته الغزوة من الفوائد الجليلة

۞ قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

كان الله ﷻ قد وعد رسوله، وهو صادق الوعد، أنه إذا فتح مكة، دخل الناس فى دينه أفواجًا، ودانت له العرب بأسرها. فلما تم له الفتح المبين، اقتضت حكمته تعالى أن أمسك قلوب هوازن ومَن تبعها عن الإسلام، وأن يجمعوا ويتألبوا لحرب رسول الله ﷺ والمسلمين، ليظهر أمر الله، وتمام إعزازه لرسوله، ونصره لدينه، ولتكون غنائمهم شُكرانًا لأهل الفتح.

واقتضت حكمته سبحانه أن أذاق المسلمين أولاً مرارة الهزيمة والكسرة مع كثرة عَددهم، وعُددهم، وقوةِ شوكتهم ليبين سبحانه لمن قال: «لن نُغلب اليوم عن قِلة» أن النصر إنما هو من عنده، وأنه من ينصره، فلا غالب له، ومن يخذله، فلا ناصر له غيره، وأنه سبحانه هو الذى تولى نصر رسوله ودينه، لا كثرتُكم التى أعجبتكم، فإنها لم تُغنِ عنكم شيئًا.

ومنها: أن الله سبحانه لما منع الجيش غنائم مكة، فلم يغنموا منها ذهبًا، ولا فضةً، ولا متاعًا، ولا سبيًا، ولا أرضًا فحرك سبحانه قلوب المشركين لغزوهم، وقذف فى قلوبهم إخراج أموالهم، ونعمهم، وشائهم، وسبيهم معهم نُزُلاً، وضيافةً، وكرامةً لحزبه وجنده، فلما أنزل الله نصره على رسوله وأوليائه، وبردت الغنائم لأهلها، وجرتْ فيها سهام الله ورسوله، قيل: لا حاجة لنا فى دمائكم، ولا فى نسائكم وذراريكم، فأوحى الله سبحانه إلى قلوبهم التوبة والإنابة، فجاؤوا مسلمين. فقيل إن من شكر إسلامكم وإتيانكم، أن نرد عليكم نساءكم وأبناءكم وسبيكم و ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ

﴿خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

ومنها: أن الله سبحانه جَبَر بها أهل مكة، وفرَّحهم بما نالوه من النصر والمغنم، فكانت كالدواء لما نالهم من كسرهم.

وفيها: من الفقه أن الإمام ينبغى له أن يبعث العيون ومن يدخل بين عدوه ليأتيه بخبرهم، وأن الإمام إذا سمع بقصد عدوِّه له، وفى جيشه قوة ومنعة لا يقعد ينتظرهم، بل يسير إليهم، كما سار رسول الله ﷺ إلى هوازن حتى لقيهم بحنين.

ومنها: أن الإمام له أن يستعير سلاح المشركين وعُدتهم لقتال عدوه، كما استعار رسول الله ﷺ أدراع صفوان، وهو يومئذ مشركٌ.

وفيها: أن النبى ﷺ شرط لصفوان فى العارية الضمان، فقال: «بل عارية مضمونة» ومعناه: أنى ضامن لك تأديتها.

وفيها: جواز عقر فرس العدو ومركوبه إذا كان ذلك عونًا على قتله، كما عقر علىٌّ رضي الله عنه جمل حامل راية الكفار، وليس هذا من تعذيب الحيوان المنهى عنه.

وفيها: عفو رسول الله ﷺ عمَّن هَمَّ بقتله، ولم يُعاجله، بل دعا له ومسح صدره حتى عاد، كأنه ولى حميم.

ومنها: ما ظهر فى هذه الغزاة من معجزات النبوة وآيات الرسالة، من إخباره لشيبة بما أضمر فى نفسه، ومن ثباته، وقد تولى عنه الناس.

ومنها: إيصال الله قبضته التى رمى بها إلى عيون أعدائه على البعد منه، وبركته فى تلك القبضة، حتى ملأت أعين القوم، إلى غير ذلك من معجزاته فيها، كنزول

(١) سورة الأنفال: الآية: (٧٠).

الملائكة للقتال معه، حتى رآهم العدو جهرة، ورآهم بعض المسلمين.

ومنها: جواز انتظار الإمام بقسم الغنائم إسلام الكفار ودخولهم فى الطاعة، فيرد عليهم غنائمهم وسبيهم، وفى هذا دليل لمن يقول: إن الغنيمة إنما تُملك بالقسمة، لا بمجرد الاستيلاء عليها، إذ لو ملكها المسلمون بمجرد الاستيلاء، لم يستأن بهم النبى ﷺ ليردها عليهم.

وفيه دلالة على أنه يستحق سلب جميع من قتله، وإن كثروا.

وقد ذكر أبو داود أن أبا طلحة قتل يوم حنين عشرين رجلاً، فأخذ أسلابهم[1].[2]

(١) رواه أبو داود والدارمى بإسنادٍ صحيح.

(٢) زاد المعاد (٣/ ٤٧٧: ٤٩٥) بتصرف.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

غزوة الطائف

غزوة الطائف

تجمعت قوات المسلمين فى أعقاب النصر المظفر الذى كتبه الله لهم فى معركة حنين، وتوجهوا بقيادة النبى ﷺ إلى الطائف بهدف القضاء على قوات ثقيف التى فرت من حنين، وكانت فلول ثقيف بقيادة مالك بن عوف قد لجأت إلى حصونها المنيعة فى الطائف وجمعت ما يكفيها من المؤن الغذائية لعامٍ كامل، وأغلقت أبوابها واتخذت كافة الإجراءات والاستعدادات التى تمكنها من مواجهة حصار طويل وواصلت ترميم الحصون وتدعيمها إلى حين وصول طلائع المسلمين المتجهة نحوهم[(١)].

۞ عن عبد الله بن عمرو قال: «حاصر رسول الله ﷺ أهل الطائف فلم ينل منهم شيئًا فقال: إنا قافلون إن شاء الله. قال أصحابه: نرجع ولم نفتتحه... فقال لهم رسول الله ﷺ: **اغدوا على القتال**، فغدوا عليه فأصابهم جراح، فقال لهم رسول الله ﷺ: **إنا قافلون غدًا**. قال: فأعجبهم ذلك فضحك رسول الله ﷺ»[(٢)].

قال النووى: معنى الحديث أنه ﷺ قصد الشفقة على أصحابه والرفق بهم بالرحيل عن الطائف لصعوبة أمره وشدة الكفار الذين فيه وتقويتهم بحصنهم، مع أنه ﷺ علم أو رجى أنه سيفتحه بعد هذا بلا مشقة كما جرى، فلما رأى حرص أصحابه على المقام والجهاد أقام وجدَّ فى القتال، فلما أصابتهم الجراح رجع إلى ما كان قصده أولاً من الرفق بهم، ففرحوا بذلك لما رأوا من المشقة الظاهرة، ولعلهم نظروا فعلموا أن رأى النبى ﷺ أبرك

(١) ابن سعد فى الطبقات (٢/ ١٥٨)، وابن هشام فى السيرة (٤/ ١٧٠-١٧١).
(٢) رواه البخارى (٧/ ٦٤٠) المغازى، ومسلم (١٢/ ١٢٢، ١٢٣) الجهاد والسير.

وأنفع وأحمد عاقبة وأصوب من رأيهم، فوافقوا على الرحيل وفرحوا، فضحك النبى ﷺ تعجُّبًا من سرعة تغير رأيهم والله أعلم(١).

الأحداث التى كانت فى الطائف

وصل الجيش الإسلامى إلى الطائف فى حدود نهاية الأسبوع الثالث من شهر شوال، فباشروا إحكام الحصار حول حصون العدو مدة أسبوعين، وكان نزولهم أول الأمر قريبًا من حصون العدو وعلى مرمى سهامهم مما أدى إلى سقوط عدد من الشهداء وجُرح عدد آخر منهم، ثم تحول المسلمون وعسكروا فى الموضع الذى بُنى فيه المسجد(٢)، وكان القتال تراشقًا بالسهام فى أول الأمر، ثم استخدم المسلمون «الدبابة» بهدف الوصول إلى الأسوار وثقبها آمنين من السهام، ولكن ثقيفًا فطنت للأمر فألقت عليهم قطع حديد محمّاة أحرقت الدبابة وحين خرج المقاتلون المسلمون منها، ضربوهم بالسهام فقتلوا بعضهم... واستخدم المسلمون المنجنيق لرمى التحصينات بالحجارة بهدف هدمها وإيقاع إصابات فى قوات العدو فى الوقت نفسه، غير أن قلة هذه الآلات وعدم وجود خبراء فى استعمالها وإجادة التهديف بها جعل أثرها محدودًا(٣). لذلك فقد وجد النبى ﷺ أن أفضل وسيلة للضغط على ثقيف هى فى تهديد مواردها الاقتصادية الحيوية المتمثلة فى بساتينها، فأمر ﷺ بتحريق بساتين الأعناب

(١) شرح النووى على صحيح مسلم هامش (١٢/ ١٢٤).

(٢) مسلم ـ الصحيح (٢/ ٧٣٦)، أحمد ـ المسند (٣/ ١٥٧)، وانظر رأى الحافظ ابن كثير ـ البداية والنهاية (٤/ ٣٥٦)، وابن هشام ـ السيرة (٢/ ٤٧٨).

(٣) ابن هشام ـ السيرة (٢/ ٤٧٨-٤٨٣) برواية ابن إسحاق.

والنخيل فى ضواحى الطائف، مما كان له أثره الكبير فى كسر معنوياتهم، فناشدوا النبى ﷺ أن يدعها لله وللرحم، فاستجاب لهم النبى ﷺ بعد أن تحقق الهدف المنشود[١] [٢].

بعض الأساليب التى استخدمها النبى ﷺ فى القتال

حاصر رسول الله ﷺ أهل الطائف، واستخدم أساليب متنوعة فى القتال والحصار، ومارس الشورى، واختار المكان المناسب عند الحصار، واستخدم الحرب النفسية والدعاية فى صفوف الأعداء.. ومن هذه الأساليب:

(١) **استخدامه ﷺ أسلوبًا جديدًا فى القتال:** استعمل النبى ﷺ فى حصاره للطائف أسلحة جديدة لم يسبق له أن استعملها من قبل، وهذه الأسلحة هي:

۞ **المنجنيق:** فقد ثبت أن الرسول ﷺ استعمل هذا السلاح عند حصاره لحصن ثقيف بالطائف،... فعن مكحول رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبى ﷺ نصب المنجنيق على أهل الطائف[٣].

والمنجنيق من أسلحة الحصار الثقيلة ذات التأثير الفعَّال على من وُجِّهت إليه، فبحجارته تُهدم الحصون والأبراج، وبقنابله تُحرق الدور والمعسكرات، وهذا النوع يحتاج إلى عدد من الجنود فى إدارته واستخدامه عند القتال[٤].

۞ **الدبابة:** ومن أسلحة الحصار الثقيلة التى استعملها الرسول ﷺ

(١) البيهقى - السنن الكبرى (٩/ ٨٤)، والشافعى - كتاب الأم (٧/ ٣٢٣).

(٢) نضرة النعيم (١/ ٣٨١).

(٣) أبو داود، كتاب الجهاد، باب فضل الجهاد، ح(٣٥) مراسيل أبى داود، (ص١٨٣).

(٤) انظر: المدرسة العسكرية الإسلامية/ اللواء محمد فرج، (ص٤٠٧).

لأول مرة فى حصار الطائف: الدبابة ... والدبابة على شكل بيت صغير تُعمل من الخشب وتُتخذ للوقاية من سهام الأعداء، عندما يراد نقض جدار الحصن، بحيث إذا دخلها الجنود كان سقفها حرزًا لهم من الرمي(١).

۞ **الحسك الشائك:** من الأسلحة الجديدة التى استعملها الرسول ﷺ فى حصاره لأهل الطائف: الحسك الشائك؛ وهو من وسائل الدفاع الثابتة، ويُعمل من خشبتين تُسمران على هيئة الصليب، حتى تتألف منهما أربع شُعب مدببة، وإذا رُمى فى الأرض بقيت شعبة منه بارزة تتعثر بها أقدام الخيل والمشاة، فتتعطل حركة السير السريعة المطلوبة فى ميدان القتال(٢).

وقد ذكر أصحاب المغازى والسير أن الرسول ﷺ استعمل هذا السلاح فى حصاره لأهل الطائف، حيث أمر جنده بنشر الحسك الشائك حول حصن ثقيف(٣)، وفى هذا إشارة إلى قادة الأمة خصوصًا، والمسلمين عمومًا، ألا يعطلوا عقولهم وتفكيرهم من أجل الاستفادة من النافع والجديد الذى يحقق للأمة مصلحة الدارين، ويدفع عنها شرور أعدائها.

(٢) **اختيار رسول الله ﷺ مكانًا مناسبًا عند القتال:** نزل الجيش فى مكان مكشوف قريب من الحصن، وما كاد الجند يضعون رحالهم حتى أمطرهم الأعداء بوابل من السهام؛ فأصيب من جراء ذلك ناس كثيرون، وحينئذ عرض الحباب بن المنذر على الرسول ﷺ فكرة التحول من هذا الموقع إلى مكان آمن من سهام أهل الطائف، فقبل ﷺ هذه المشورة وكلف

---

(١) انظر: القيادة فى عهد الرسول، (ص٤٠٥).

(٢) انظر: الفن الحربى فى صدر الإسلام/ اللواء عبد الرءوف عون، (ص ١٩٥).

(٣) انظر: الطبقات الكبرى (٢/ ٢١٤).

الحباب -لكونه من ذوى الخبرات الحربية الواسعة فى هذا المجال- بالبحث عن موقع ملائم لنزول الجند، فذهب ﷺ ثم حدد المكان المناسب، وعاد فأخبر النبى ﷺ بذلك، فأمر النبى ﷺ جيشه بالتحول إلى المكان الجديد،... وهذا شاهد عيان يحدثنا عما رأى؛ قال عمرو بن أمية الضمرى ﷺ: لقد أطلع علينا من نبلهم ساعة نزلنا شيء الله به عليم كأنه رجل جراد، وترّسنا لهم حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة، ودعا رسول الله ﷺ الحُباب فقال: «**انظر مكانًا مرتفعًا مستأخرًا عن القوم**» فخرج الحباب حتى انتهى إلى موضع مسجد الطائف(١) خارج من القرية، فجاء إلى النبى ﷺ فأخبره، فأمر النبى ﷺ أن يتحولوا(٢).

(٣) **استخدام الحرب النفسية والدعاية:** لما اشتدت مقاومة أهل الطائف وقتلوا مجموعة من المسلمين أمر النبى ﷺ بتحريق بساتين العنب والنخل فى ضواحى الطائف للضغط على ثقيف، ثم أوقف هذا العمل بعد أثره فى معنوياتهم وإضعافه روح المقاومة، وبعد أن ناشدته ثقيف بالله والرحم أن يترك هذا العمل، ووجّه النبى ﷺ نداءً لعبيد الطائف أن مَن ينزل من الحصن ويخرج إلى المسلمين فهو حر، فخرج ثلاثة وعشرون من العبيد منهم أبو بكرة الثقفى فأسلموا، فأعتقهم ولم يُعدهم إلى ثقيف بعد إسلامهم(٣).

(٤) **الحكمة من رفع الحصار:** كانت حكمة رسول الله ﷺ فى رفع الحصار واضحة؛ فالمنطقة المحيطة بها لم تعد تابعة لها، بل صارت ضمن سيادة

(١) مسجد الطائف: هو المسجد المعروف الآن بمسجد ابن عباس.

(٢) انظر: مغازى الواقدى (١/ ٤١٦).

(٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٥١٠).

الدولة الإسلامية، ولم تعد تستمد قوتها إلا من امتناع حصونها، فحصارها ورفعه سواء أمام القائد المحنك، وقد استشار رسول الله ﷺ من حوله في عملية الحصار[١] فقال نوفل بن معاوية الديلي: ثعلب في جحر إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرك، فأمر رسول الله ﷺ ابن الخطاب فأذَّن في الناس بالرحيل، فضجَّ الناس من ذلك وقالوا: نرحل، ولم يفتح علينا الطائف؟ فقال رسول الله ﷺ: «**فاغدوا على القتال**» فغدوا، فأصابت المسلمين جراحات، فقال رسول الله ﷺ: «**إنا قافلون غدًا إن شاء الله**»، فسُرُّوا بذلك وأذعنوا، وجعلوا يرحلون ورسول الله ﷺ يضحك[٢]، فلما ارتحلوا واستقلوا، قال: «**قولوا: آيبون، تائبون، عابدون، لربنا حامدون**»[٣]، وقيل: يا رسول الله، ادعُ الله على ثقيف، فقال: «**اللهم اهدِ ثقيفًا وائتِ بهم**»[٤].

من بلغ بسهمٍ فله درجة في الجنة

۞ عن أبي نجيح عمرو بن عبسة السلمي رضي الله عنه قال: حاصرنا مع رسول الله ﷺ قصر الطائف، فسمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من بلغ بسهم فله درجة في الجنة**».

فبلغت يومئذ بستة عشر سهمًا، وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من رمى بسهم في سبيل الله فهو عدل محرر، ومن شاب شيبة في سبيل الله كانت له نورًا يوم القيامة**».

---

(١) انظر: دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، للشجاع، (ص٢٠٦).

(٢) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة حنين (٣/ ١٤٠٣) رقم (١٧٧٨).

(٣) انظر: زاد المعاد (٣/ ٤٩٧).

(٤) المصدر نفسه، صحيح السيرة النبوية، (ص٥٦٦)، نقلًا عن غزوات الرسول.

«وأيما رجل أعتق رجلاً مسلمًا فإن الله ﷻ جاعلٌ كل عظم من عظامه، وفاء كل عظم بعظم، وأيما امرأة مسلمة أعتقت امرأة مسلمة، فإن الله ﷻ جاعلٌ كل عظم من عظامها وفاء كل عظم من عظام محررها من النار»[١].

النبى ﷺ يُعتق كل من نزل من الحصن

ونادى منادى النبى ﷺ عبيد الطائف قائلًا: أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر، فنزل إليهم ثلاثة وعشرون عبدًا، منهم أبو بكرة نفيع بن الحارث الثقفى، فأسلموا، فأعتقهم النبى ﷺ، ولم يعدهم إلى ثقيف بعد إسلامهم[٢]. غير أن كل ذلك لم يؤثر كثيرًا فى عناد ثقيف التى صمدت بوجه الحصار، ورغم ما واجهته من وابل السهام التى أمطرها بها المسلمون لينالوا بها درجة من الجنة وعدهم بها رسول الله ﷺ، وقد تمكنت ثقيف من إيقاع إصابات شديدة بالمسلمين فقد كثرت الجراحات بينهم واستشهد منهم اثنا عشر شهيدًا، وكل ذلك مقابل ثلاثة قتلى فى صفوف ثقيف التى كانت ممتنعة بالحصون والأسوار العالية[٣]،[٤].

---

(١) رواه أبو داود والترمذى والنسائى وأحمد (٤/ ١١٣)، والحاكم (٣/ ٤٩، ٥٠) وقال صحيح عالٍ، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبى، والحديث صحيح كما قالوا أخرجه بعضهم بطوله وبعضهم باختصار.

(٢) البخارى ـ الصحيح (٥/ ١٢٩)، أحمد ـ المسند (١/ ٢٣٦)، ابن حجر ـ فتح البارى (٨/ ٤٦)، الصنعانى ـ المصنف (٥/ ٣٠١)، ابن سعد ـ الطبقات (٢/ ١٥٨، ١٥٩)، وانظر ابن هشام ـ السيرة (٢/ ٤٨٥).

(٣) البخارى ـ الصحيح (٨/ ٢٠)، ابن هشام ـ السيرة (٢/ ٤٨٦، ٤٨٧).

(٤) نضرة النعيم (١/ ٣٨١).

النبى ﷺ يدعو لهم بالهداية

وقال الحافظ: فى مرسل ابن الزبير عند ابن أبى شيبة قال: لما حاصر النبى ﷺ الطائف قال أصحابه: يا رسول الله أحرقتنا نبال ثقيف فادع الله عليهم، قال: «**اللهم اهد ثقيفًا**»[١] وذكر أهل المغازى أن النبى ﷺ لما استعصى عليه الحصن وكانوا قد أعدوا فيه ما يكفيهم لحصار سنة ورموا على المسلمين سكك الحديد المحماة ورموهم بالنبل فأصابوا قومًا، فاستشار نوفل بن معاوية الديلى فقال: هم ثعلب فى جحر إن أقمت عليه أخذته وإن تركته لم يضرك فرحل عنهم[٢].

تقسيم الغنائم

ولما عاد رسول الله ﷺ بعد رفع الحصار عن الطائف؛ مكث بالجعرانة بضع عشرة ليلة لا يقسم الغنائم، ويتأنى بها يبتغى أن يقدم عليه وفد هوازن تائبين، فيحرزوا ما فقدوا، ولكنه لم يجئه أحد، فبدأ بقسمة المال، ليُسكت المتطلعين من رؤساء القبائل وأشراف مكة، فكان المؤلفة قلوبهم أول من أُعطى وحظى بالأنصبة الجزلة[٣].

۞ عن رافع بن خديج رضي الله عنه قال: «أعطى رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، وعُيينة بن حصن، والأقرع بن حابس كل إنسان منهم، مائة من الإبل، وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك. فقال عباس بن مرداس:

---

(١) رواه الترمذى (٣٩٤٢)، وأحمد (٣/ ٣٤٣)، ورجاله ثقات.

(٢) فتح البارى (٧/ ٦٤١).

(٣) الرحيق المختوم (ص٤٥٥-٤٥٦).

أتجعـل نهبـى ونهـب العبيـد بيـن عيينـة والأقـرع
فمـا كـان بـدر ولا حـابس يفوقـان مـرداس فى المجمـع
ومـا كنـت دون امـرئ منهمـا ومـن تخفـض اليـوم لا يُرفَـع

قال: فأتم له رسول الله ﷺ مائة»[١].

۞ وعن ابن شهاب قال: «غزا رسول الله ﷺ غزوة الفتح، فتح مكة، ثم خرج رسول الله ﷺ بمن معه من المسلمين، فاقتتلوا بحنين، فنصر الله دينه والمسلمين، وأعطى رسول الله ﷺ يومئذ صفوان بن أمية مائة من النعم، ثم مائة. ثم مائة.

قال ابن شهاب: حدثنى سعيد بن المسيب أن صفوان قال: والله! لقد أعطانى رسول الله ﷺ ما أعطانى، وإنه لأبغض الناس إلىَّ فما برح يعطينى حتى إنه لأحب الناس إلىَّ»[٢].

۞ وعن عمرو بن ثعلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أعطى رسول الله ﷺ قومًا، ومنع آخرين، فكأنهم عتبوا عليه فقال: «**إنى أعطى أقوامًا أخاف هلعهم وجزعهم، وأَكِلُ قومًا إلى ما جعل الله فى قلوبهم من الخير والغنى منهم عمرو بن ثعلب**».

قال عمرو: فما أحب أن لى بكلمة رسول الله ﷺ حُمر النَّعم».

وفى لفظ آخر: «أن رسول الله ﷺ أُتى بمال، أو سبى ـ فقسمه، فأعطى رجالاً، وترك رجالاً. فبلغه أن الذين ترك عتبوا، فحمد الله، ثم أثنى عليه، ثم قال: «**أما بعد، فوالله إنى لأعطى الرجل والذى أدع أحب إلىَّ من الذى**

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٦٠) الزكاة.

(٢) أخرجه مسلم (٢٣١٣) الفضائل.

أعطى، ولكن أعطى أقوامًا لما أرى فى قلوبهم من الجزع والهلع، وأَكِلُ أقوامًا إلى ما جعل الله فى قلوبهم من الغنى والخير، فيهم عمرو بن ثعلب»... قال عمرو: فوالله ما أحب أن لى بكلمة رسول الله ﷺ حُمر النَّعم»[١].

۞ وبعد إعطاء المؤلفة قلوبهم أمر رسول الله ﷺ زيد بن ثابت بإحضار الغنائم والناس، ثم فرقها على الناس، فكانت سهامهم لكل رجل أربعًا من الإبل وأربعين شاة، فإن كان فارسًا أخذ اثنى عشر بعيرًا وعشرين ومائة شاة.

الغنائم وسيلة لتأليف القلوب

رأى ﷺ أن يتألف الطُّلَقاء والأعراب بالغنائم تأليفًا لقلوبهم لحداثة عهدهم بالإسلام، فأعطى لزعماء قريش وغطفان وتميم عطاءً عظيمًا، إذ كانت عطية الواحد منهم مائة من الإبل، ومن هؤلاء: أبو سفيان بن حرب، وسهيل بن عمرو، وحكيم بن حزام، وصفوان بن أمية، وعيينة بن حصن الفزاري، والأقرع بن حابس، ومعاوية ويزيد ابنا أبى سفيان، وقيس بن عدي[٢]. وكان الهدف من هذا العطاء المجزى هو تحويل قلوبهم من حب الدنيا إلى حب الإسلام، أو كما قال أنس بن مالك: إن كان الرجل ليُسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها[٣]. وعبَّر عن هذا صفوان بن أمية بقوله: لقد أعطانى رسول الله ﷺ ما أعطانى وإنه لأبغض الناس إليَّ فما برح يعطينى حتى إنه لأحب الناس إليَّ[٤].

---

(١) أخرجه البخارى فى المغازى، ومسلم (١٧٧٨) الجهاد والسير.

(٢) انظر: معين السيرة (ص ٤٢١).

(٣) مسلم، كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله شيئًا قط (٤/ ١٨٠٦) رقم (٢٣١٢).

(٤) المصدر نفسه (٤/ ١٨٠٦) رقم (٢٣١٣).

وقد تأثر حُدثاء الأنصار من هذا العطاء بحكم طبيعتهم البشرية، وترددت بينهم مقالة، فراعى ﷺ هذا الاعتراض وعمل على إزالة التوتر، وبيَّن لهم الحكمة فى تقسيم الغنائم، وخاطب الأنصار خطابًا إيمانيًّا عقليًّا عاطفيًّا وجدانيًّا، ما يملك القارئ المسلم على مر الدهور وكر العصور وتوالى الزمان إلا البكاء عندما يمر بهذا الحدث العظيم.

ويرى الإمام ابن القيم -استدلالاً بهذه الحادثة-: أنه قد يتعين على الإمام أن يتألف أعداءه لاستجلابهم إليه، ودفع شرهم عن المسلمين فيقول: الإمام نائب عن المسلمين يتصرف لمصالحهم وقيام الدين، فإن تعيَّن ذلك -أى التأليف- للدفع عن الإسلام والذَّبِّ عن حوزته واستجلاب رءوس أعدائه إليه ليأمن المسلمون شرهم، ساغ له ذلك، بل تَعيَّن عليه، فإنه وإن كان فى الحرمان مفسدة، فالمفسدة المتوقعة من فوات تأليف هذا العدو أعظم، ومبنى الشريعة على دفع أعلى المفسدتين باحتمال أدناهما، وتحصيل أكمل المصلحتين بتفويت أدناهما، بل بناء مصالح الدنيا والدين على هذين الأصلين[1].

والتأليف لهذه الطائفة إنما هو من قبيل الإغراء والتشجيع فى أول الأمر حتى يخالط الإيمان بشاشة القلب، ويتذوق حلاوته.

ويوضح الشيخ محمد الغزالى حقيقة هذا الأمر فى مثال محسوس فيقول:... إن فى الدنيا أقوامًا كثيرين يُقادون إلى الحق من بطونهم لا من عقولهم، فكما تهدى الدواب إلى طريقها بحزمة برسيم تظل تمد إليه فمها، حتى تدخل حظيرتها آمنة، فكذلك هذه الأصناف من البشر تحتاج إلى فنون

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٤٨٦).

الإغراء حتى تستأنس بالإيمان وتهش له(١).

إن النبى ﷺ ضرب للأنصار صورة مؤثرة: قوم يُبشَّرون بالإيمان يقابلهم قوم يُبشَّرون بالجِمال، وقوم يصحبهم رسول الله يقابلهم قوم يصحبهم الشاة والبعير، لقد أيقظتهم تلك الصور، وأدركوا أنهم وقعوا فى خطأ ما كان لأمثالهم أن يقع فيه، فانطلقت حناجرهم بالبكاء ومآقيهم بالدموع، وألسنتهم بالرضا، وبذلك طابت نفوسهم واطمأنت قلوبهم بفضل سياسة النبى ﷺ الحكيمة فى مخاطبة الأنصار(٢).

۞ ولما قسم النبى ﷺ الغنائم بين الناس وجد الأنصار فى قلوبهم وحزنوا وظنوا أن النبى ﷺ نسيهم... فجمعهم النبى ﷺ ودار بينه وبينهم هذا الحوار الرقيق الذى يجعل القلب يبكى الدماء بدل الدموع.

عن أبى سعيد **الخدرى** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا، فى قريش وفى قبائل العرب، ولم يكن فى الأنصار منها شىء وجد هذا الحى من الأنصار فى أنفسهم، حتى كثرت منهم القالة(٣) حتى قال قائلهم: لقد لقى والله رسول الله ﷺ قومه... فدخل عليه سعد بن عبادة، فقال: يا رسول الله، إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك فى أنفسهم، لما صنعت فى هذا الفىء الذى أصبت ... قسَّمت فى قومك، وأعطيت عطايا عظامًا فى قبائل العرب، ولم يكُ فى هذا الحى من الأنصار منها شىء. قال: «**فأين أنت من ذلك يا سعد؟**» قال: يا رسول الله، ما أنا إلا

---

(١) انظر: فقه السيرة، (ص٤٢٧).

(٢) انظر: المجتمع المدنى فى عهد النبوة، (ص٢١٩).

(٣) القالة: الكلام الردىء.

من قومى، قال: «**فاجمع لى قومك فى هذه الحظيرة**»[١].

قال: فخرج سعد، فجمع الأنصار فى تلك الحظيرة. قال: فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا، وجاء آخرون فردَّهم. فلما اجتمعوا له أتاه سعد، فقال: قد اجتمع لك هذا الحى من الأنصار، فأتاهم رسول الله ﷺ، فحمد الله، وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «**يا معشر الأنصار: ما قالة بلغتنى عنكم وجِدَة**[٢] **وجدتموها علىَّ فى أنفسكم؟ ألم آتكم ضُلالاً فهداكم الله، وعالة**[٣] **فأغناكم الله، وأعداء فألَّف الله بين قلوبكم!**» قالوا: بلى، الله ورسوله أمنُّ وأفضل. ثم قال: «**ألا تجيبونى يا معشر الأنصار؟**» قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المن والفضل. قال ﷺ: «**أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم، ولصُدقتم: أتيتنا مُكذَّبًا فصدقناك، ومخذولاً**[٤] **فنصرناك، وطريدًا فآويناك. وعائلاً فآسيناك**[٥]**؟.. فقال: وجدتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم فى لعاعة**[٦] **من الدنيا تألفت بها قومًا ليُسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذى نفس محمدٍ بيده، لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس شِعبًا، وسلكت الأنصار شِعبًا: لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار**»[٧].

---

(١) الحظيرة: شبيه الزريبة التى تُصنع للإبل والماشية لتمنعها، وتكف عنها العوادى.

(٢) الموجدة: العتاب.

(٣) عالة: جمع عائل: الفقير.

(٤) مخذولاً: متروكًا.

(٥) آسيناك: أعطيناك حتى جعلناك كأحدنا.

(٦) لعاعة: بقلة خضراء ناعمة شبَّه بها زهرة الدنيا ونعيمها.

(٧) أخرجه أحمد (٣/ ٧٦، ٧٧، ٨١)، وابن جرير (٢/ ٣٦٠، ٣٦١)، وعبد الرزاق فى المصنف =

۞ وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «إن أناسًا من الأنصار قالوا يوم حنين، حين أفاء[1] الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء، فطفق رسول الله ﷺ يعطى رجالاً من قريش. المائة من الإبل، فقالوا: يغفر الله لرسول الله، يعطى قريشًا، ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم!»[2].

قال أنس بن مالك: فحُدِّث رسول الله ﷺ بمقالتهم، فأرسل إلى الأنصار فجمعهم فى قبة من أدم[3]. فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله ﷺ فقال: «**ما حديثٌ بلغنى عنكم**» فقال له فقهاء الأنصار: أما رءوسنا، يا رسول الله! فلم يقولوا شيئًا. وأما ناسٌ منا حديثة أسنانهم فقالوا: يغفر الله لرسوله، يعطى قريشًا ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم!

فقال رسول الله ﷺ: «**فإنى أعطى رجالًا حديثى عهدٍ بكفر أتألفهم**[4]**. أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال، وترجعون إلى رحالكم**[5] **برسول الله ﷺ؟ فوالله! لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به**» فقالوا: يا رسول الله ! قد رضينا. قال: «**فإنكم ستجدون أثرة شديدة**[6]**، فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله. فإنى على الحوض**». قالوا: سنصبر.

= (١١/ ٦٤)، وأبو يعلى كما فى مجمع الزوائد (١٠/ ٣٠) وأسانيدهم صحيحة، ابن كثير فى سيرته (٣/ ٦٧٨)، ابن هشام فى السيرة (٢/ ٤٩٨، ٤٩٩) وسنده صحيح.

(١) ما أفاء: ما غنم من هوازن بعد هزيمتهم.

(٢) أخرجه البخارى (٤٣٣١) المغازى، ومسلم (١٠٥٩/ ١٣٢) الزكاة.

(٣) قبة من أدم: القبة من الخيام: بيت صغير مستدير والأدم الجلد.

(٤) أتألفهم: أستميل قلوبهم بالإحسان ليثبتوا على الإسلام رغبة فى المال.

(٥) رحالكم: منازلكم.

(٦) أثرة شديدة: الأثرة: الاستئثار: أى يستأثر عليكم ويفضل عليكم غيركم بغير حق.

قال أنس: فلم يصبروا... وفى لفظ آخر له: «قال: جمع رسول الله ﷺ الأنصار، فقال: «أفيكم أحد من غيركم؟ فقالوا: لا. إلا ابن أختٍ لنا، فقال رسول الله ﷺ: **إن ابن أخت القوم منهم**».

فقال: «**إن قريشًا حديث عهد بجاهلية**(١) **ومصيبة. وإنى أردت أن أجبرهم**(٢) **وأتألفهم. أما ترضون أن يرجع الناس بالدنيا، وترجعون برسول الله إلى بيوتكم. لو سلكت الناس واديًا، وسلك الأنصار شعبًا**(٣)**، لسلكت شعب الأنصار**»(٤).

فمن يعدل إن لم يعدل الله ورسوله ﷺ؟

۞ عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «فلما كان يوم حنين آثر رسول الله ﷺ ناسًا فى القسمة، فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عيينة مثل ذلك، وأعطى أناسًا من أشراف العرب، وآثرهم يومئذ فى القسمة. فقال رجل: والله إن هذه لقسمة ما عُدل فيها، وما أُريد فيها وجه الله.

قال: فقلت: والله! لأخبرن رسول الله ﷺ. قال: فأتيته. فأخبرته بما قال، قال: فتغير وجهه حتى كان كالصرف، ثم قال: «**فمن يعدل إن لم يعدل الله ورسوله**» قال: ثم قال: «**يرحم الله موسى، قد أوذى بأكثر من هذا فصبر**» قال: قلت لا جرم لا أرفع إليه بعدها حديثًا»(٥).

---

(١) حديث عهد بجاهلية: كانوا قريب عهد بجاهلية. أى أن زمانهم قريب من زمان الكفر.

(٢) أجبرهم: أى أفعل معهم ما ينجبر به خاطرهم وينسيهم مصيبتهم.

(٣) وسلك الأنصار شِعبًا، قال الخليل: الشِّعب هو ما انفرج عن بين جبلين.

(٤) أخرجه البخارى (٤٣٣٤) المغازى، ومسلم (١٠٥٩/ ١٣٣) الزكاة

(٥) أخرجه البخارى (٤٣٣٦) المغازى، ومسلم (١٠٦٢) الزكاة، واللفظ لمسلم.

الأعرابى الذى رفض بشرى رسول الله ﷺ

۞ **عن أبى موسى الأشعرى** رضي الله عنه قال: «كنت عند النبى ﷺ وهو نازل بالجعرانة بين مكة والمدينة ومعه بلال، فأتى النبى ﷺ أعرابى، فقال: ألا تنجز لى ما وعدتنى؟ فقال له: «أبشر». فقال: قد أكثرت علىَّ من أبشر. فأقبل على أبى موسى وبلال كهيئة الغضبان، فقال: «**رَدَّ البشرى، فاقبلا أنتما**». قالا: قبلنا. ثم دعا بقدح فيه ماء فغسل يديه ووجهه فيه، ومجَّ فيه ثم قال: «**اشربا منه، وأفرغا على وجوهكما ونحوركما وأبشرا**»، فأخذا القدح ففعلا. فنادت أم سلمة من وراء الستر أن أفضِلا لأمكما، فأفضلا لها منه طائفة»(١).

لقد ظهر من رسول الله ﷺ الكثير من الصبر على جفاء الأعراب، وطمعهم فى الأموال، وحرصهم على المكاسب، فكان مثالًا للمربى الذى يدرك أحوالهم، وما جبلتهم عليه بيئتهم وطبيعة حياتهم من القساوة والفظاظة والروح الفردية، فكان يبين لهم ويطمئنهم على مصالحهم ويعاملهم على قدر عقولهم، فكان بهم رحيمًا ولهم مربيًا ومصلحًا، فلم يسلك معهم مسلك ملوك عصره مع رعاياهم الذين كانوا ينحنون أمامهم أو يسجدون، وكانوا دونهم محجوبين، وإذا خاطبوهم التزموا بعبارات التعظيم والإجلال، كما يفعل العبد مع ربه، أما الرسول عليه الصلاة والسلام فكان كأحدهم؛ يخاطبونه ويعاتبونه، ولا يحتجب عنهم قط، وكان الصحابة رضوان الله عليهم يراعون التأدُّب بحضرته ويخاطبونه بصوتٍ

---

(١) أخرجه البخارى (٤٣٢٨) المغازى، ومسلم (٢٤٩٧) فضائل الصحابة.

خفيض، ويُكنون له فى أنفسهم المحبة العظيمة، وأما جُفاة الأعراب فقد عنَّفهم القرآن على سوء أدبهم وجفائهم، وارتفاع أصواتهم وجرأتهم فى طبيعة مخاطبتهم للرسول ﷺ(١)، وهذه مواقف تدل على حسن معاملة رسول الله ﷺ للأعراب.

قدوم وفد هوازن

وبعد قسمة الغنائم قَدِم وفد من هوازن يعلن إسلامهم ويلتمس من رسول الله ﷺ رَدّ أموالهم وذراريهم عليهم، فخيَّرهم بين الأموال والسبى فاختاروا السبى، فجمع النبى ﷺ المسلمين وخطب فيهم، وقال إنه يريد أن يرد السبى لهوازن.

۞ من حديث مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة: «أن رسول الله ﷺ قام حين جاءه وفد هوازن مسلمين، فسألوه أن يرد إليهم أموالهم وسبيهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**معى مَن ترون، وأحبُّ الحديث إلىَّ أصدقُه، فاختاروا إحدى الطائفتين: إما السبى وإما المال. وقد كنت استأنيت بكم**» وكان أنظرهم رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف فلما تبين لهم أن رسول الله ﷺ غير راد إليهم إلا إحدى الطائفتين. قالوا: فإنا نختار سَبْيَنا.

فقام رسول الله ﷺ فى المسلمين، فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: «**أما بعد فإن إخوانكم قد جاءونا تائبين، وإنى قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم، فمن أحب منكم أن يطيب ذلك فليفعل، ومن أحب منكم أن يكون على حظه**

(١) انظر: المجتمع المدنى فى عهد النبوة (ص٢١٩).

حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل». فقال الناس: قد طبنا بذلك يا رسول الله.

فقال رسول الله ﷺ: «إنَّا لا ندرى مَن أذن منكم فى ذلك ممن لم يأذن. فارجعوا حتى يرفع إلينا عُرفاؤكم أمركم»، فرجع الناس، فكلمهم عرفاؤهم، ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ، فأخبروه أنهم قد طيبوا وأذنوا... هذا الذى بلغنى عن سبى هوازن»[١].

وفى رواية: عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: «شهدت رسول الله ﷺ يوم حنين، وجاءته وفود هوازن فقالوا: يا محمد إنَّا أصلٌ[٢] وعشيرة، فمُنَّ علينا مَنَّ الله عليك، فإنه قد نزل بنا من البلاء ما لا يخفى عليك، فقال: «اختاروا بين نسائكم وأموالكم وأبنائكم» فقالوا: خيرتنا بين أحسابنا وأموالنا نختار أبناءنا، فقال: «ما كان لى ولبنى عبد المطلب، فهو لكم، فإذا صليت الظهر قولوا: إنا نستشفع برسول الله على المؤمنين، وبالمؤمنين على رسول الله ﷺ فى نسائنا وأبنائنا».

قال: ففعلوا، فقال رسول الله ﷺ: «أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم»، وقال المهاجرون: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، وقالت الأنصار مثل ذلك، وقال عيينة بن بدر: أما ما كان لى ولبنى فزارة فلا، وقال الأقرع ابن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا، وقال عباس بن مرداس: أما أنا وبنو سليم فلا.

---

(١) أخرجه البخارى (٤٣١٨، ٤٣١٩) المغازى.

(٢) إنَّا أصل: يريدون أن رسول الله استرضع فى بنى سعد، وأن أمه من الرضاع حليمة السعدية.

فقال الحيان: كذبت بل هو لرسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: «**يا أيها الناس رُدُّوا عليهم نساءهم وأبناءهم، فمن تمسك بشيء من الفيء، فله علينا ستة فرائض من أول شيء يفيئه الله علينا**».

وفي رواية: «فردُّوا على الناس أبناءهم ونساءهم ثم ركب راحلته، وتعلق به الناس يقولون: اقسم علينا فيئنا بيننا، حتى ألجئوه إلى سمرة[١] فخطفت رداءه، فقال: «**يا أيها الناس رُدُّوا عليَّ ردائي، فوالله لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعم لقسمته بينكم ثم لا تلقوني بخيلاً ولا جبانًا ولا كذوبًا**».

ثم دنا من بعيره. فأخذ وبرة من سنامه، فجعلها بين أصابعه السبَّابة والوسطى، ثم رفعها، فقال: «**يا أيها الناس ليس لي من هذا الفيء ولا هذه إلا بالخُمس، والخُمس مردودٌ عليكم، فردُّوا الخياط والمخيط، فإن الغلول يكون على أهله يوم القيامة عارًا ونارًا وشنارًا**».

فقام رجل معه كبة من شعر فقال: إني أخذت هذه أصلح بها بردعة بعيرٍ لي دبر، قال: «**أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لك**»، فقال الرجل: يا رسول الله أما إذ بلغت ما أرى فلا أرب لي بها ونبذها»[٢].

كان إسلام (هوازن) نصراً

ولقد كان إسلام هوازن نصرًا آخر كتبه الله للمسلمين سُرَّ به النبي ﷺ فسألهم عن زعيمهم مالك بن عوف ووعدهم بردِّ أهله وأمواله عليه

(١) سمرة: ضرب من شجر الطلح له شوك.

(٢) قال الهيثمي في المجمع: (٦/ ١٨٧، ١٨٨) رواه أبو داود باختصار كثير، ورواه أحمد، ورجال أحمد أسانيده ثقات، وحسنه الحافظ ابن حجر في الفتح (٣٤٨)، وهو كما قال الحافظ.

وبإكرامه بمائة من الإبل إن قدم عليه مسلمًا، فأسلم وحسن إسلامه وقاتل المشركين فى الطائف وضيَّق عليهم، وقد أسلم بعد ذلك بعض زعماء ثقيف أمثال عروة بن مسعود الثقفى الذى لحق بالنبى ﷺ فى طريق المدينة فأسلم على يديه وعاد إلى الطائف يدعو إلى الإسلام، ويؤذِّن من على سطح منزله فرماه بعض المشركين فأصابه، ودُفن بناءً على وصيته مع شهداء المسلمين أثناء حصار الطائف(١).

أما غالبية قبيلة ثقيف فقد تأخر إسلامهم إلى ما بعد عودة النبى ﷺ من غزوة تبوك وسنعرض لذلك فى حينه إن شاء الله(٢).

۞ لقد كانت سياسته ﷺ مع خصومه مرنة إلى أبعد الحدود؛ وبهذه السياسة الحكيمة استطاع ﷺ أن يكسب هوازن وحلفاءها إلى صف الإسلام، واتخذ من هذه القبيلة القوية رأس حربة يضرب بها قوى الوثنية فى المنطقة ويقودها زعيمهم مالك بن عوف الذى قاتل ثقيفًا فى الطائف حتى ضيق عليهم، وقد فكر زعماء ثقيف فى الخلاص من المأزق بعد أن أحاط الإسلام بالطائف من كل مكان فلا تستطيع تحرُّكًا ولا تجارة، فمال بعض زعماء ثقيف إلى الإسلام مثل عروة بن مسعود الثقفى الذى سارع إلى اللحاق برسول الله ﷺ وهو فى طريقه إلى المدينة بعد أن قسم غنائم حنين واعتمر من الجعرانة، فالتقى به قبل أن يصل إلى المدينة، وأعلن إسلامه وعاد إلى الطائف، وكان من زعماء ثقيف محبوبًا عندهم، فدعاهم إلى الإسلام وأذَّن فى أعلى منزله فرماه بعضهم بسهام فأصابوه، فطلب من قومه

(١) البداية والنهاية (٥/ ٢٩).

(٢) نضرة النعيم (١/ ٣٨٤).

أن يدفنوه مع شهداء المسلمين فى حصار الطائف[(١)].

إن الإنسان ليعجب من فقه النبى ﷺ فى معاملة النفوس، ومن سعيه الحثيث لتمكين دين الله تعالى، لقد استطاع ﷺ أن يزيل معالم الوثنية، وبيوتات العبادة الكفرية من مكة وما حولها، ورتب ﷺ الأمور التنظيمية للأراضى التى أُضيفت للدولة الإسلامية، فعيَّن عتَّاب بن أُسيد أميرًا على مكة، وجعل معاذ بن جبل مرشدًا وموجهًا ومعلمًا ومربيًا[(٢)]، وعيَّن على هوازن مالك بن عوف قائدًا ومجاهدًا، ثم اعتمر ورجع إلى المدينة ﷺ.

عمرة النبى ﷺ من الجعرانة

۞ عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: «اعتمر رسول الله ﷺ أربع عُمَر، عمرة الحديبية والثانية حين تواطئوا على عمرة من قابل، والثالثة من الجعرانة، والرابعة التى قرن مع حجته»[(٣)].

۞ وعن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «اعتمر رسول الله ﷺ أربع عُمَر كلهن فى ذى القعدة إلا التى كانت مع حجته، عمرة من الحديبية فى ذى القعدة، وعمرة من العام المقبل فى ذى القعدة، وعمرة من الجعرانة حيث قسم غنائم حنين فى ذى القعدة، وعمرة مع حجته»[(٤)].

۞ وعن يعلى بن منبه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «جاء رجل إلى النبى ﷺ، وهو

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٩٢).

(٢) المصدر نفسه (٤/ ١٥٣).

(٣) رواه أحمد (٢٢١١)، والترمذى (٨١٦)، وأبو داود (١٩٩٣)، وسنده صحيح.

(٤) رواه البخارى (٤١٤٨) المغازى، ومسلم (١٢٥٣) الحج.

بالجعرانة وعليه جبة، وعليها خَلوق، أو قال: أثر صُفرة، فقال: كيف تأمرنى أصنع فى عمرتى؟ قال: وأُنزل على النبى ﷺ الوحى، فستر بثوب، وكان (يعلى) يقول: وددت أنى أرى النبى ﷺ، وقد أُنزل الوحى عليه، فقال: فرفع عمر طرف الثوب عنه، فنظرت إليه، فإذا له غطيط «قال» وأحسبه كغطيط البكر، فلم سُرِّى عنه قال: **«أين السائل عن العمرة؟ اغسل عنك الصُّفرة، أو قال أثر الخَلوق، واخلع عنك جُبتك، واصنع فى عمرتك ما أنت صانعٌ فى حجتك»**.

قال: وأتى النبى ﷺ رجل قد عَضَّ رجلاً، فانتزع يده، فسقطت ثنيتا الذى عضَّه، قال: فأبطلها النبى ﷺ، وقال: **«أردت أن تقضمه كما يقضم الفحل»**[(١)] [(٢)].

درسٌ لا يُنسى

ولما عاد النبى ﷺ إلى المدينة أرسل بعض أصحابه لجمع الصدقات من الأعراب ـ وذلك فى السنة التاسعة للهجرة ـ وكان من بين هؤلاء الذين ذهبوا لجمع الصدقات: «ابن اللتبية الأزدى» فوقع فى أمر سنعرفه من سياق الحديث فقام النبى ﷺ يعلمه ويعلم الأمة كلها درسًا لا يُنسى.

---

(١) أخرجه البخارى (٤٩٨٥) فضائل القرآن، ومسلم (١١٨٠) الحج.

(٢) وأخرج مسلم عن نافع قال: ذُكر عند ابن عمر رضي الله عنهما عمرة رسول الله من الجعرانة، فقال: لم يعتمر منها، وهذا الذى أثبته غيرهما والمثبت مقدم على النافى. قال النووى: هذا محمول على نفى علمه، أى أنه لم يعلم بذلك، وقد ثبت أن النبى ﷺ اعتمر من الجعرانة، والإثبات مُقدَّم على النفى لما فيه من زيادة العلم، وقد ذكر مسلم فى كتاب الحج اعتمار النبى ﷺ من الجعرانة عام حنين من رواية أنس رضي الله عنه». ووجه الخفاء فى القضية ما جاء فى حديث محرش الكعبى: «أن رسول الله خرج ليلاً معتمرًا، فدخل مكة ليلاً، فقضى عمرته ثم خرج من ليلته، فأصبح بالجعرانة كبائت» إلى آخر الحديث، وفيه: «ومن أجل ذلك خفيت عمرته على الناس».

۞ عن أبى حميد الساعدى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «استعمل رسول الله ﷺ رجلاً من الأزد يقال له ابن اللتبية على الصدقة، فلما قدم، قال: هذا لكم، وهذا أُهدى لى».، فقام رسول الله ﷺ على المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، وقال: «**ما بال عامل أبعثه فيقول: هذا لكم، وهذا أهدى لى، أفلا قعد فى بيت أبيه أو بيت أمه حتى ينظر أيُهدى إليه أم لا، والذى نفس محمد بيده، لا ينال أحد منكم منها شيئًا إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه إن كان بعيرًا له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر**»، ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتى إبطيه، ثم قال: «**اللهم هل بلَّغت**... مرتين»(١).

إسلام (عدى بن حاتم الطائى)

عن أبى عبيدة بن خذيفة عن رجل قال: قلت لعدى بن حاتم: حديث بلغنى عنك أحب أن أسمعه منك، قال نعم، لما بلغنى خروج رسول الله ﷺ كرهت خروجه كراهية شديدة فخرجت حتى وقعت ناحية الروم - وفى رواية حتى قدمت على قيصر - فكرهت مكانى ذلك أشد من كراهيتى لخروجه، فقلت والله لو أتيت هذا الرجل، فإن كان كاذبًا، لم يضرنى، وإن كان صادقًا علمت، قال: فقدمت، فأتيته، فلما قدمت، قال الناس: عدى ابن حاتم، قال: فدخلت على رسول الله ﷺ، فقال لى: «**يا عدى بن حاتم أسلِم تَسلم**» ثلاثًا، قال إنى على دين، قال: «**أنا أعلم بدينك منك**»، فقلت: أنت أعلم بدينى منى؟ قال: «**نعم ألست من الركوسية وأنت تأكل مرباع قومك؟**» قلت: بلى، قال: «**فإن هذا لا يحل لك فى دينك**»، قال: فلم يعد أن قالها فتواضعت لها، فقال: «**أما إنى أعلم الذى يمنعك من الإسلام، تقول إنما**

(١) أخرجه البخارى (٩٢٥) الجمعة، ومسلم (٢٩٤٦) الإمارة.

اتبعه ضعفة الناس، ومن لا قوة له، وقد رمتهم العرب. أتعرف الحيرة؟» قلت: لم أرها، وقد سمعت بها، قال: «فوالذى نفسى بيده ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة (المرأة) من الحيرة، حتى تطوف بالبيت فى غير جوار أحد، وليفتحن كنوز كسرى بن هرمز» قال: قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «نعم كسرى بن هرمز، وليُبذَلنَّ المال حتى لا يقبله أحد». قال عدى: فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت فى غير جوار، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز، والذى نفسى بيده لتكونن الثالثة لأن رسول الله ﷺ قد قالها.

۞ وفى رواية: قال عدى: وجلست بين يديه، فحمد الله وأثنى عليه. ثم قال: «ما يُفِرُّكَ أيُفِرَّكَ أن تقول: لا إله إلا الله، فهل تعلم من إله سوى الله؟» قال: قلت: لا. قال: «ثم تكلم ساعة»، ثم قال: «إنما تَفِرُّ أن يقال: الله أكبر، وهل تعلم شيئًا أكبر من الله؟» قال: قلت: لا[(١)].

إسلام كعب بن زهير (الشاعر) والهيمنة الإعلامية على الجزيرة:

لما قدم رسول الله ﷺ من الطائف، جاءه كعب بن زهير -الشاعر ابن الشاعر- وكان قد هجا رسول الله ﷺ ثم ضاقت به الأرض، وضاقت عليه نفسه، وحثَّه أخوه (بجير) على أن يأتى رسول الله ﷺ تائبًا مسلمًا، وحذره من سوء العاقبة إن لم يفعل ذلك، فقال قصيدته التى يمدح فيها رسول الله ﷺ والتى اشتهرت بـ (قصيدة بانت سعاد)، فقدم المدينة، وغدا إلى رسول الله ﷺ حين صلى الصبح، ثم جلس إليه، ووضع يده فى يده، وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه، فقال لرسول الله ﷺ: إن كعب بن زهير جاء يستأمنك تائبًا مسلمًا، فهل

(١) رواه أحمد (٤/ ٣٧٧، ٣٧٨)، والحاكم (٤/ ٥١٨، ٥١٩) وإسناده حسن.

أنت قابل منه؟ فوثب عليه رجل من الأنصار، فقال: يا رسول الله، دعني وعدو الله، أضرب عنقه، فقال رسول الله ﷺ: **«دعه عنك فقد جاء تائبًا نازعًا»**، وأنشد كعب قصيدته اللامية التي قال فيها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول[١] متيم إثرها لم يفد مكبول

وما سعاد غداة الطرف إذ رحلوا إلا أغنُّ قرير العين مكحول[٢]

ومنها:

إن الرسول لنور يُستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

في عصبة من قريش قال قائلهم ببطن مكة لما أسلموا: زولوا

شُمُّ العرانين أبطال لبوسُهم من نسج داود في الهيجا سرابيل[٣]

ويقال إنه لما أنشد رسول الله قصيدته أعطاه بُردته، وهي التي صارت إلى الخلفاء[٤]... قال ابن كثير: هذا من الأمور المشهورة جدًّا، ولكن لم أرَ ذلك في شيء من هذه الكتب المشهورة بإسناد أرتضيه، فالله أعلم[٥].

ويقال: إن الرسول ﷺ قال له بعد ذلك: **«لولا ذكرت الأنصار بخير فإن الأنصار لذلك أهل!»**[٦]، فقال:

من سره كرم الحياة فلا يزل في مقنب من صالحي الأنصار[٧]

---

(١) متبول: مغرم- مكبول: مقيد.

(٢) أغنُّ: صفة للغزال الذي في صوته غنة.

(٣) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٦٩- ٣٧١).

(٤) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٤٨٧).

(٥) انظر: البداية والنهاية (٣٧٤).

(٦) المصدر نفسه (٤/ ٣٧٣).

(٧) المقنب: الجماعة من الخيل، يريد به القوم على ظهور جيادهم.

ورثوا المكارم كابرًا عن كابرٍ إن الخيار هم بنو الأخيار
المكرهين السمهريَّ بأذرع كسوالف الهندى غير قصار[١]
والناظرين بأعين محمرَّة كالجمر غير كليلة الأبصار
والبائعين نفوسَهم لنبيهم للموت يوم تعانق وكرار
والقائدين[٢] الناس عن أديانهم بالمشرفى وبالقنا الخطار[٣]
يتطهرون يرونه نسكًا لهم بدماء من علقوا من الكفار

إلى أن قال:

لو يعلم الأقوام علمى كله فيهم لصدقنى الذين أماري[٤]
قوم إذا خوت النجوم فإنهم للطارقين[٥] النازلين مقاري[٦]

وبإسلام كعب بن زهير نستطيع القول إن الشعراء المعارضين للدعوة الإسلامية قد انتهى دورهم، فقد أسلم ضرار بن الخطاب وعبد الله بن الزبعرى، وأبو سفيان بن الحارث بن هشام، والعباس بن مرداس، وتحولوا إلى الصف الإسلامي، واستظلوا بلوائه عن قناعة وإيمان، ولم يكتفِ بعضهم بأن تكون كلمته فى الدفاع عن الإسلام، بل كان سيفه إلى جانب كلمته، وهذا من بركات فتح مكة[٧].

(١) السمهري: الرمح، سوالف الهندي: حواشى السيف.
(٢) القائدين: المانعين الناس.
(٣) المشرفي: السيف- والقنا: الرماح جمع قناة- والخطار: المهتز.
(٤) أماري: أجادل.
(٥) خوت النجوم: أى سقطت - الطارقين: الذين يأتون بالليل.
(٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٦٧، ١٦٨).
(٧) انظر: معين السيرة، (ص٤٣١- ٤٣٣) نقلًا عن غزوات الرسول للصلابى.

الفوائد والآثار الإيمانية

❁ قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ عن الفوائد والآثار الإيمانية المستفادة من غزوة الطائف:

منها: جوازُ غزو الرجل وأهلهُ معه، فإن النبى ﷺ كان معه فى هذه الغزوة أم سلمة وزينب.

ومنها: جوازُ نصب المنجنيق على الكفار. ورميهم به وإن أفضى إلى قتل من لم يُقاتل من النساء والذرية.

ومنها: جوازُ قطع شجر الكفار إذا كان ذلك يُضعفهم ويَغيظهم. وهو أنكى فيهم.

ومنها: أن العبد إذا أَبَق من المشركين ولحق بالمسلمين صار حرًّا.

عن الشعبى، عن رجل من ثقيف قال: سألنا رسول الله ﷺ أن يرد علينا أبا بكرة، وكان عبدًا لنا أتى رسول الله ﷺ وهو محاصر ثقيفًا، فأسلم، فأبى أن يَرُدَّهُ علينا. فقال: «هُوَ طَلِيقُ الله، ثمَّ طَلِيقُ رَسُوله»(١)، فلم يرده علينا.

قال ابن المنذر: وهذا قول كل من يُحفَظ عنه من أهل العلم.

ومنها: أن الإمام إذا حاصر حصنًا، ولم يُفتح عليه، ورأى مصلحة المسلمين فى الرحيل عنه، لم يلزمه مصابرته، وجاز له ترك مصابرته، وإنما تلزم المصابرة إذا كان فيها مصلحة راجحة على مفسدتها.

ومنها: أنه أحرم من الجِعْرانَة بعمرة، وكان داخلاً إلى مكة، وهذه هى السُّنة لمن دخلها من طريق الطائف وما يليه، وأما ما يفعلُه كثير ممن لا علم عندهم من الخروج من مكة إلى الجعرانة ليحرم منه بعمرة، ثم يرجع إليها،

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٦٨، ٣١٠) ورجاله ثقات.

فهذا لم يفعله رسول الله ﷺ، ولا أحد من أصحابه ألبتة، ولا استحبه أحدٌ من أهل العلم، وإنما يفعله عوام الناس.

ومنها: استجابةُ الله لرسوله ﷺ دعاءه لثقيف أن يهديهم، ويأتى بهم، وقد حاربوه وقاتلوه، وقتلوا جماعةً من أصحابه. وقتلوا رسول رسوله الذى أرسله إليهم يدعوهم إلى الله، ومع هذا كله فدعا لهم، ولم يدعُ عليهم، وهذا من كمال رأفته، ورحمته، ونصيحته صلوات الله وسلامه عليه.

ومنها: أنه لا يجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطالها يومًا واحدًا، فإنها شعائر الكفر والشرك، وهى أعظم المنكرات، فلا يجوز الإقرار عليها مع القدرة البتة، وهذا حكم المَشاهد التى بُنيت على القبور التى اتُّخذت أوثانًا وطواغيت تُعبد من دون الله، والأحجار التى تُقصد للتعظيم والتبرك، والنذر والتقبيل، لا يجوز إبقاء شىء منها على وجه الأرض مع القدرة على إزالته، وكثير منها بمنزلة اللات والعُزى، ومَناة الثالثة الأخرى، أو أعظم شركًا عندها، وبها.... والله المستعان[1].

من نتائج غزوة حنين والطائف

(١) انتصار المسلمين على قبيلتى هوازن وثقيف فى هذه الغزوة.

(٢) كانت غزوة حنين والطائف آخر غزوات النبى ﷺ لمشركى العرب.

(٣) رجوع كثير من أهل مكة والأعراب بغنائم إلى مواطنهم تأليفًا لهم لدخول الإسلام، وحصول الأنصار على وسام عظيم وهو شهادة رسول الله لهم بالإيمان، والدعاء لهم ولأبنائهم وأحفادهم، ورجوعهم برسول الله ﷺ إلى المدينة.

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٥٠٣، ٥٠٦) بتصرف.

(٤) انضمام كوكبة مباركة من قيادة أهل مكة وهوازن إلى الإسلام وأصبحوا حربًا ضَروسًا على الأوثان والأصنام والمعابد الجاهلية فى الجزيرة العربية،... كما كان لقبيلة هوازن، دور كبير فى مجاهدات أهل الطائف والتضييق عليهم حتى أسلموا.

(٥) توسعت الدولة الإسلامية وامتد نفوذها وأصبح لرسول الله ﷺ أمراء بمكة وعلى قبيلة هوازن، وصارت تلك الأماكن جزءًا من الدولة الإسلامية التى عاصمتها المدينة النبوية، وأصبح بالإمكان أن يرسل رسول الله بعوثًا دعوية بدون خوف أو وجل من أحد، وصارت المدينة بعد الفتح تستقبل وفود المستجيبين، وأخذت حركة السرايا تستهدف الأوثان والأصنام لتهديمها، فقد أصبح استئصال وجودها من الجزيرة سهلًا، ونظَّم رسول الله فريضة الزكاة فكلف من يقوم على جمعها من القبائل التابعة للدولة[١].

---

(١) انظر: الأساس فى السنة وفقهها فى السيرة النبوية (٢/ ٩٦١).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

غزوة تبوك

غزوة تبوك (غزوة العسرة)

وكانت فى شهر رجب سنة تسع، قال ابن إسحاق: وكانت فى زمن عُسْرَةٍ من الناس، وجدب من البلاد، وحين طابت الثمار، والناس يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم، ويكرهون شخوصهم على تلك الحال، وكان رسول الله ﷺ قَلَّما يخرج فى غزوة إلا كَنَّى عنها، ووَرَّى بغيرها، إلا ما كان من غزوة تبوك، لبعد الشُّقة، وشدة الزمان[1].

الأسماء التى اشتُهرت بها تلك الغزوة

واشتُهرت هذه الغزوة باسم غزوة تبوك، نسبة إلى مكان هو عين تبوك، التى انتهى إليها الجيش الإسلامي، وأصل هذه التسمية جاء فى صحيح مسلم، فقد روى بسنده إلى معاذ أن رسول الله ﷺ قال: «**ستأتون غدًا إن شاء الله عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار، فمن جاءها منكم فلا يمسَّ من مائها شيئًا حتى آتي**»[2].

وللغزوة اسم آخر، وهو: غزوة العسرة، وقد ورد هذا الاسم فى القرآن الكريم حينما تحدث عن هذه الغزوة فى سورة التوبة.

قال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[3].

(١) زاد المعاد (٣/ ٥٢٦).

(٢) صحيح مسلم (٤/ ١٧٨٤) رقم (٧٠٦).

(٣) سورة التوبة: الآية: (١١٧).

وقد روى البخارى عن أبى موسى الأشعري، قال: أرسلنى أصحابى إلى رسول الله ﷺ أسأله الحملان لهم إذ هم معه فى جيش العسرة، وهى غزوة تبوك...، وعَنْوَن البخارى لهذه الغزوة بقوله: (باب غزوة تبوك وهى غزوة العسرة)(١).

لقد سُميت بهذا الاسم لشدة ما لاقى المسلمون فيها من الضنك، فقد كان الجو شديد الحرارة، والمسافة بعيدة، والسفر شاقًّا لقلة المؤونة وقلة الدواب التى تحمل المجاهدين إلى أرض المعركة، وقلة الماء فى هذا السفر الطويل والحر الشديد، وكذلك قلة المال الذى يُجهَّز به الجيش ويُنفَق عليه(٢)... ففى تفسير عبد الرزاق عن معمر بن عقيل قال: خرجوا فى قِلة من الظهر، وفى حرٍّ شديد حتى كانوا ينحرون البعير فيشربون ما فى كرشه من الماء، فكان ذلك عسرة من الماء(٣)، وهذا الفاروق عمر بن الخطاب يحدثنا عن مدى ما بلغ العطش من المسلمين فيقول: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك فى قيظٍ شديد فنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش شديد حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن كان أحدنا يذهب يلتمس الخلاء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته تنقطع، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرشه فيشربه ويضعه على بطنه(٤).

وللغزوة اسم ثالث هو: الفاضحة، ذكره الزرقانى رَحِمَهُ اللَّهُ فى كتابه «شرح المواهب اللدنية»(٥) وسُميت بهذا الاسم لأن هذه الغزوة كشفت عن حقيقة

(١) البخارى (٥/ ١٥٠) رقم (٤٤١٥).

(٢) انظر: الصراع مع الصليبيين لأبى فارس، (ص٨٣).

(٣) فتح البارى (٩/ ١٧٤).

(٤) انظر: مجمع الزوائد (٦/ ١٩٤).

(٥) انظر: شرح المواهب اللدنية (٣/ ٦٢).

المنافقين، وهتكت أستارهم، وفضحت أساليبهم العدائية الماكرة، وأحقادهم الدفينة، ونفوسهم الخبيثة، وجرائمهم البشعة بحق رسول الله والمسلمين(١).

وأما موقع تبوك فيقع شمال الحجاز، يبعد عن المدينة ٧٧٨ ميلاً حسب الطريق المُعبَّدة فى الوقت الحاضر، وكانت من ديار قضاعة الخاضعة لسلطان الروم آنذاك(٢).

كانت غزوة تبوك استجابة إيمانية لفريضة الجهاد

أمر الله سبحانه وتعالى المسلمين بجهاد أهل الكتاب، كما أمرهم بجهاد المشركين، وخلافًا لما حصل مع المشركين الذين لا يُقبل منهم إلا الدخول فى الإسلام أو أن يأذنوا بقتال، فإن أهل الكتاب لهم حق الاحتفاظ بدينهم إذا ما اعترفوا بالسيادة لدولة الإسلام وأدُّوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون ... قال تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾(٣).

وهكذا فقد كانت غزوة تبوك استجابة إيمانية لفريضة الجهاد حيث كان الروم أقرب الناس إلى ديار الإسلام ولذلك فإنهم أولى الناس بالدعوة(٤).

---

(١) انظر: الصراع مع الصليبيين، (ص٨٤).

(٢) انظر: المجتمع الإسلامى للعمري، (ص٢٢٩).

(٣) سورة التوبة: الآية: (٢٩).

(٤) يقول الحافظ ابن حجر «فعزم رسول الله ﷺ على قتال الروم، لأنهم أقرب الناس إليه وأولى الناس بالدعوة لقربهم إلى الإسلام وأهله» (البداية والنهاية ٢/ ٥).

وقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[(١)(٢)] وهكذا، فبعد القضاء على الوثنية فى جزيرة العرب، وإجلاء يهود من المدينة وغيرها، كان على المسلمين أن يقاتلوا أهل الكتاب من النصارى الذين كانوا يقطنون على المشارف الشمالية الغربية من جزيرة العرب، حيث كانت المنطقة التى توجَّه إليها الرسول فى هذه الغزوة من ديار قضاعة وهى خاضعة لسلطان الإمبراطورية البيزنطية (الروم)[(٣)].

الأخبار العامة عن استعداد الرومان

وكانت الأنباء تترامى إلى المدينة بإعداد الرومان للقيام بغزوة حاسمة ضد المسلمين، حتى كان الخوف يتسورهم كل حين، لا يسمعون صوتًا غير معتاد إلا ويظنونه زحف الرومان، ويظهر ذلك جليًا مما وقع لعمر بن الخطاب، فقد كان النبى ﷺ آلى من نسائه شهرًا فى هذه السنة (٩هـ) وكان هجرهن واعتزل عنهن فى مَشربة له ولم يفطن الصحابة إلى حقيقة الأمر فى بدايته، فظنوا أن النبى ﷺ طلقهن، فسرى فيهم الهم والحزن والقلق.

يقول عمر بن الخطاب ـ وهو يروى هذه القصة ـ: وكان لى صاحب من الأنصار إذا غبت أتانى بالخبر، وإذا غاب كنت آتيه أنا بالخبر ـ وكانا يسكنان فى عوالى المدينة، يتناوبان إلى النبى ﷺ ونحن نتخوف مَلِكًا من ملوك غسان، ذُكر لنا أنه يريد أن يسير إلينا فقد امتلأت صدورنا منه، فإذا

(١) سورة التوبة: الآية: (١٢٣).

(٢) تفسير الطبرى (١١/ ٧١).

(٣) نضرة النعيم (١/ ٣٨٧).

صاحبى الأنصارى يدق الباب، فقال: افتح، افتح، فقلت: جاء الغسانى؟ فقال: بل أشد من ذلك، اعتزل رسول الله ﷺ أزواجه... الحديث[١].

وفى لفظ آخر (أنه قال): وكنا تحدثنا أن آل غسان تنعل النعال لغزونا فنزل صاحبى يوم نوبته، فرجع عِشاءً، فضرب بابى ضربًا شديدًا، وقال: أنائم هو؟ ففزعت، فخرجت إليه، وقال: حدث أمرٌ عظيم. فقلت: ما هو؟ أجاءت غسان قال: لا، بل أعظم منه وأطول، طلق رسول الله ﷺ نساءه... الحديث[٢].

وهذا يدل على خطورة الموقف الذى كان يواجهه المسلمون بالنسبة إلى الرومان. ويزيد ذلك تأكُّدًا ما فعله المنافقون حينما نُقلت إلى المدينة أخبار إعداد الرومان، فبرغم ما رآه هؤلاء المنافقون من نجاح رسول الله ﷺ فى كل الميادين وأنه لا يوجل من سلطانه على ظهر الأرض، بل يذيب كل ما يعترض فى طريقه من عوائق، برغم هذا كله طفق هؤلاء المنافقون يأملون فى تحقق ما كانوا يُخفونه فى صدورهم، وما كانوا يتربصونه من الشر بالإسلام وأهله، ونظرًا إلى قرب تحقق آمالهم أنشأوا وكرة للدسِّ والتآمر، فى صورة مسجد (وهو مسجد الضرار) أسسوه كُفرًا وتفريقًا بين المؤمنين وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله، وعرضوا على رسول الله ﷺ أن يصلى فيه، وإنما مرامهم بذلك أن يخدعوا المؤمنين، فلا يفطنوا ما يؤتَى به فى هذا المسجد من الدسِّ والمؤامرة ضدهم ولا يلتفتوا إلى من يَرِده ويصدر عنه، فيصير وكرة مأمونة لهؤلاء المنافقين ولرفقائهم فى الخارج، ولكن رسول الله ﷺ أخَّر الصلاة فيه ـ إلى قفوله من الغزوة ـ لشغله بالجهاز ففشلوا فى

---

(١) أخرجه البخارى (٤٩١٣)، ومسلم (١٤٧٩)، وأحمد (١/ ٤٨) من حديث عمر بن الخطاب.

(٢) أخرجه البخارى (٨٩)، ومسلم (٣٤) (١٤٧٩)، والترمذى (٣٣١٥)، والنسائى (٤/ ١٣٧)، وأحمد (١/ ٣٣) مطولاً ومختصرًا.

مرامهم وفضحهم الله، حتى قام الرسول ﷺ بهدم المسجد بعد القفول من الغزو بدل أن يصلى فيه[(١)].

ويرى ابن كثير أن سبب الغزوة هو استجابة طبيعية لفريضة الجهاد؛ ولذلك عزم رسول الله ﷺ على قتال الروم؛ لأنهم أقرب الناس إليه، وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم إلى الإسلام وأهله.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[(٢)].

والذى قاله ابن كثير هو الأقرب للصواب، إضافة إلى أن الأمر الذى استقر عليه حكم الجهاد هو قتال المشركين كافة بمن فيهم أهل الكتاب، الذين وقفوا فى طريق الدعوة وظهر تحرُّشهم بالمسلمين كما روى أهل السير[(٣)].

ولا يمنع ما ذكره المؤرخون بأن سبب الخروج هو عزم الروم على غزو المسلمين فى عقر دارهم أن يكون هذا حافزًا للخروج إليهم، لأن أصل الخروج كان واردًا.

النبى ﷺ يأمرهم بالتهيؤ لغزو الروم

۞ **قال ابن إسحاق:** «إن رسول الله ﷺ أمر أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم، وذلك فى زمان من عسرة الناس، وشدة من الحر، وجدب من البلاد، وحين طابت الثمار، والناس يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم، ويكرهون

---

(١) الرحيق المختوم (ص٤٦٦-٤٦٧).

(٢) سورة التوبة: الآية: (١٢٣).

(٣) انظر: البداية والنهاية (٥/ ٣).

الشخوص على الحال من الزمان الذى هم عليه، وكان رسول الله ﷺ قَلَّما يخرج فى غزو إلا كنَّى عنها، وأخبر أنه يريد غير الوجه الذى يصمد[١] له إلا ما كان من غزوة تبوك، فإنه بيَّنها للناس، لبُعد الشُّقة، وشدة الزمان، وكثرة العدو الذى يصمد له، ليتأهب الناس لذلك أهبته، فأمر الناس بالجهاز، وأخبرهم أنه يريد الروم»[٢].

۞ **عن كعب بن مالك** رضي الله عنه **قال:** «كان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة يغزوها إلا ورَّى[٣] بغيرها، حتى كانت غزوة تبوك، فغزاها رسول الله ﷺ فى حر شديد، استقبل سفرًا بعيدًا ومفازًا[٤] استقبل غزو عدد كثير، فجلا[٥] للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة[٦] عدوهم، وأخبرهم بوجهه الذى يريد»[٧].

تجهيز جيش العُسرة

ولقد دعا النبى ﷺ الصحابة إلى الإنفاق على هذه الغزوة نظرًا لكثرة المشاركين فيها، وبُعد المسافة التى كان على الجيش أن يقطعها، ووعد المنافقين بعظم الأجر من الله سبحانه وتعالى، فسارع أغلب الصحابة إلى المشاركة فى توفير الأموال المطلوبة كلٌّ حسب مقدرته، وكان عثمان بن عفان أكثر المنفقين على جيش العسرة استجابة لقول النبى ﷺ «من جهز

(١) يصمد: يقصد.

(٢) السيرة لابن هشام (٤/ ١٠٤١).

(٣) ورَّى: أوهم بغيرها.

(٤) المفاز: الفلاة التى لا ماء فيها.

(٥) جلا: أوضح لهم أمرهم.

(٦) الأهبة: أخذ ما يحتاجون إليه فى سفرهم.

(٧) أخرجه البخارى (٢٩٤٨) الجهاد، ومسلم (٢٧٦٩) التوبة.

جيش **العُسرة فله الجنة**» وتواترت الأخبار الصحيحة بأن عثمان بن عفان قد تحمل نفقات جيش العسرة، فلقد سارع بتقديم ألف دينار فى بداية الاستعدادات صبَّها فى حجر النبى ﷺ(١) كما قدم أموالاً أخرى تتمثل فى الجِمال والعُدد التى يحتاج إليها فى نقل الجيش والحرب(٢).

۞ **عن عبد الرحمن بن سمرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال**: «جاء عثمان بن عفان إلى النبى ﷺ بألف دينار فى ثوبه حين جهز النبى ﷺ جيش العُسرة قال: فصبَّها فى حجر النبى ﷺ فجعل النبى ﷺ يُقلبها بيده ويقول: «**ما ضَرَّ ابن عفان ما عمل بعد اليوم** ... يرددها مرارًا»(٣).

۞ وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائتى أوقية فضة، وجاء أبو بكر بماله كله. ولم يترك لأهله إلا الله ورسوله، وكانت أربعة آلاف درهم، وهو أول من جاء بصدقته، وجاء عمر بنصف ماله، وجاء العباس بمالٍ كثير، وجاء طلحة وسعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة، كلهم جاءوا بمال، وجاء عاصم ابن عدى بتسعين وسقًا من التمر، وتتابع الناس بصدقاتهم قليلها وكثيرها، حتى كان منهم من أنفق مُدًّا أو مُدَّين لم يكن يستطيع غيرها؛ وبعثت النساء ما قدرن عليه من مسك، ومعاضد، وخلاخل، وقرط، وخواتم.

ولم يمسك أحد يده، ولم يبخل بماله إلا المنافقون.

وهكذا يفهم المسلمون أن المال وسيلة،... واستطاع أغنياء الصحابة أن يبرهنوا أن مالهم فى خدمة هذا الدين، يدفعونه عن طواعية ورغبة، وإن تاريخ

---

(١) البخارى ـ الصحيح (٤/ ١١) (كتاب الوصايا)، فتح البارى (٥/ ٦٠٣)، أحمد ـ المسند (٥/ ٣٥).

(٢) الترمذى ـ السنن (٣١/ ٣٥١ ـ ٤٥١)، الحاكم ـ المستدرك (٣/ ١٠٢).

(٣) رواه الترمذى (١٠٧٣)، وأحمد (٥/ ٣٦)، والحاكم (٣/ ١٠٢) وصححه ووافقه الذهبى.

الأغنياء المسلمين تاريخ مُشرِّف؛ لأنه تاريخ المال في يد الرجال لا تاريخ الرجال تحت سيطرة المال، وكما كان الجهاد بالنفس، فكذلك هو بالمال، وإن الذين ربوا على أن يقدموا أنفسهم، تهون عليهم أموالهم في سبيل الله تعالى[١].

إن في مسارعة الموسرين من الصحابة إلى البذل والإنفاق دليلًا على ما يفعله الإيمان في نفوس المؤمنين من مسارعة إلى فعل الخير، ومقاومة لأهواء النفس وغرائزها، مما تحتاج إليه كل أمة لضمان النصر على أعدائها، وخير ما يفعله المصلحون وزعماء النهضات هو غرس الدين في نفوس الناس غرسًا كريمًا[٢].

الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين

۞ عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: «لما أُمرنا بالصدقة كنا نتحامل، فجاء أبو عقيل بنصف صاع، وجاء إنسان بأكثر منه، فقال المنافقون: إن الله لغني عن صدقة هذا، وما فعل هذا الآخر إلا رئاءً فنزلت: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ﴾[٣][٤].

لقد كُتبت في الزكاة المتقبلة

۞ وأما عُلبة بن زيد فخرج من الليل فصلى من ليلته ما شاء الله، ثم

(١) انظر: معين السيرة (ص ٤٤٩).

(٢) انظر: السيرة النبوية دروس وعبر، للسباعي، (ص١٦١).

(٣) سورة التوبة: الآية: (٧٩).

(٤) أخرجه البخاري (٤٦٦٨) التفسير، ومسلم (١٠١٨) الزكاة.

بكى، وقال: اللهم إنك قد أمرت بالجهاد، ورغَّبت فيه، ثم لم تجعل عندى ما أتقوى به مع رسول الله ﷺ ولم تجعل فى يد رسولك ما يحملنى عليه، وإنى أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابنى فيها مال أو جسد أو عِرض. ثم أصبح مع الناس، فقال رسول الله ﷺ: «**أين المتصدق هذه الليلة؟**» فلم يقم أحد، ثم قال: «**أين المتصدق فليقم**» فقام إليه فأخبره فقال رسول الله ﷺ: «**أبشر فوالذى نفسى بيده لقد كُتبت فى الزكاة المتقبلة**»(١).

۞ وفى هذه القصة وما جرى فيها آيات من الإخلاص وحب الجهاد لنصرة دين الله وبث دعوته فى الآفاق، وفيها من لطف الله بضعفاء المؤمنين الذين يعيشون فى حياتهم عيشة عملية(٢).

وهذا واثلة بن الأسقع نتركه يحدثنا عن قصته ويقول:... عندما نادى رسول الله فى غزوة تبوك، خرجت إلى أهلى فأقبلت وقد خرج أول صحابة رسول الله فطفقت فى المدينة أنادي: ألا من يحمل رجلاً له سهمه؟ فإذا شيخ من الأنصار، فقال: لنا سهمه على أن نحمله عقبة(٣)، وطعامه معنا؟ فقلت: نعم، قال: فَسِرْ على بركة الله، فخرجت مع خير صاحب حتى أفاء الله علينا(٤)، فأصابنى قلائص(٥)، فسُقتهن حتى أتيته فخرج، فقعد على

---

(١) حديث صحيح ورد مسندًا وموصولاً كما قال الحافظ ابن حجر فى الإصابة: (٢/ ٤٩٣)، من حديث مجمع بن جارية أو من حديث عمرو بن عوف وأبى عبس بن جبر، ومن حديث علبة ابن زيد نفسه.

(٢) انظر: محمد رسول الله/ صادق عرجون، (٤/ ٤٤٣).

(٣) عقبة: أى بالتعاقب.

(٤) كان واثلة بن الأسقع أحد أفراد سرية خالد بن الوليد فى دومة الجندل.

(٥) قلائص: إبل.

حقيبة من حقائب إبله، ثم قال: سقهن مدبرات، ثم قال: سقهن مقبلات، فقال: ما أرى قلائصك إلا كرامًا، إنما هي غنيمتك التي شرطت لك، قال: خذ قلائصك يا ابن أخي فغير سهمك أردنا (١).

وهكذا تنازل واثلة في بداية الأمر عن غنيمته ليكسب الغنيمة الأُخروية، أجرًا وثوابًا يجده عند الله يوم لقائه، وتنازل الأنصاري عن قسم كبير من راحته ليتعاقب وواثلة على راحلته ويقدم له الطعام مقابل سهم آخر هو الأجر والثواب.

إنها مفاهيم تنبع من المجتمع الذي تربَّى على كتاب الله وسنة رسوله، لها نفس الخاصية في الإضاءة وتحمل نفس البريق، متمم بعضها لبعضها الآخر (٢).

البكَّاءون

قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴾(٣).

قال القاسمي: روى العوفي عن ابن عباس في هذه الآية أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن يتبعوا غازين معه فجاءته عصابة من أصحابه فيهم عبد الله بن مغفل بن مقرن المزني فقالوا: يا رسول الله: احملنا. فقال لهم: والله لا أجد

(١) انظر: جامع الأصول رقم (٦١٨٨)، معين السيرة، (ص٤٥٣).

(٢) انظر: معين السيرة، (ص٤٥٣).

(٣) سورة التوبة: الآيتان: (٩١-٩٢).

ما أحملكم عليه فتولوا وهم يبكون، وعَزَّ عليهم أن يجلسوا عن الجهاد ولا يجدون نفقة ولا محملاً، فلما رأى الله حرصهم على محبته ومحبة رسوله أنزل عذرهم فى كتابه فقال: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ ﴾[١]... وهم ولا شك الذين عناهم رسول الله ﷺ بقوله وهو عائد من تبوك. «لقد خلَّفتم بالمدينة رجالاً ما قطعتم واديًا ولا سلكتم طريقًا إلا أشركوكم فى الأجر حبسهم المرض»[٢].

قصة أصحاب أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه

وجاء الأشعريون يتقدمهم أبو موسى الأشعرى يطلبون من النبى ﷺ أن يحملهم على إبل ليتمكنوا من الخروج للجهاد، فلم يجد ما يحملهم عليه حتى مضى بعض الوقت فحصل لهم على ثلاثة من الإبل[٣].

۞ **عن أبى موسى الأشعرى** رضي الله عنه **قال**: «أرسلنى أصحابى إلى رسول الله ﷺ أسأله الحملان لهم إذا هم معه فى جيش العُسرة وهى غزوة تبوك، فقلت: يا نبى الله، إن أصحابى أرسلونى إليك لتحملهم، فقال: «**والله لا أحملكم على شىء**»، ووافقته وهو غضبان ولا أشعر، ورجعت حزينًا من منع النبى ﷺ ومن مخافة أن يكون النبى ﷺ وجد فى نفسه علىَّ، فرجعت

(١) محاسن التأويل (٨/ ٢٩٤).

(٢) رواه أحمد (٣/ ٣٠)، ومسلم (١٣/ ٥٧) الإمارة، وقال النووى: وفى هذا الحديث فضيلة النية فى الخير، وأن من نوى الغزو وغيره من الطاعات فعرض له عذر منعه حصل له ثواب نيته وأنه كلما أكثر من التأسف على فوات ذلك وتمنى كونه مع الغزاة ونحوهم كثر ثوابه والله أعلم - النووى على صحيح مسلم (١٣/ ٥٧).

(٣) انظر: المجتمع المدني، (ص٢٣٦).

إلى أصحابى فأخبرتهم الذى قال النبى ﷺ فلم ألبث إلا سويعة إذ سمعت بلالاً ينادى: أى عبد الله بن قيس[١]، فأجبته فقال: أجب رسول الله ﷺ يدعوك. فلما أتيته قال: «**خذ هذين القرنين لستة أبعرة ابتاعهن حينئذ من سعد** - فانطلق بهن إلى أصحابك فقل: **إن الله** - أو قال - **إن رسول الله ﷺ - يحملكم على هؤلاء، فاركبوهن**». فانطلقت إليهم بهن فقلت: إن النبى ﷺ يحملكم على هؤلاء، ولكنى والله لا أدعكم حتى ينطلق معى بعضكم إلى من سمع مقالة رسول الله ﷺ لا تظنوا أنى حدثتكم شيئًا لم يقله رسول الله ﷺ. فقالوا لى: إنك عندنا لمُصدَّق، ولنفعلن ما أحببت، فانطلق أبو موسى بنفرٍ منهم حتى أتوا الذين سمعوا قول رسول الله ﷺ، منعه إياهم ثم إعطاءهم بعد، فحدثوهم بمثل ما حدثهم به أبو موسى»[٢].

إنها صورة مؤثرة للرغبة الصحيحة فى الجهاد على عهد رسول الله ﷺ، وما كان يحسه صادقوا الإيمان من ألم إذا ما حالت ظروفهم المادية بينهم وبين القيام بواجباتهم، وكان هؤلاء المعوزون وغيرهم ممن عذر الله لمرض أو كبر سن أو غيرهما يسيرون بقلوبهم مع المجاهدين[٣] وهم الذين عناهم رسول الله ﷺ عندما قال: «**إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم**» قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: «**وهم بالمدينة حبسهم العذر**»[٤].

---

(١) عبد الله بن قيس: هو أبو موسى الأشعرى.

(٢) أخرجه البخارى (٤٤١٥) المغازى - ومسلم (١٦٤٩) الإيمان.

(٣) انظر: السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية، (ص٦١٨).

(٤) البخاري، كتاب المغازي، رقم (٤٤٢٣).

أعذار المنافقين وموقفهم من غزوة تبوك

لقد كانت غزوة تبوك منذ بداية الإعداد لها مناسبة للتمييز بين المؤمنين والمنافقين، وضحت فيها الحواجز بين الطرفين، ولم يعد هناك أى مجال للتستُّر على المنافقين أو مجاملتهم، بل أصبحت مجابهتهم أمرًا مُلحًّا بعد أن عملوا كل ما فى وسعهم لمجابهة الرسول والدعوة، وتثبيط المسلمين عن الاستجابة للنفير الذى أعلنه الله تعالى ورسوله ﷺ والذى نزل به القرآن الكريم، ... بل وأصبح الكشف عن نفاق المنافقين، وإيقافهم عند حدِّهم واجبًا شرعيًّا(١).

ولقد نَجَم النفاق فى المدينة واستعلن بشأن هذه الغزوة، «وقال قوم من المنافقين بعضهم لبعض: لا تنفروا فى الحر، زَهادة فى الجهاد، وشكًّا فى الحق، وإرجافًا برسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾(٢)».

وقال رسول الله ﷺ وهو فى جهازه لتبوك، للجد بن قيس: «يا جد، هل لك العام فى جِلاد بنى الأصفر؟» فقال: يا رسول الله أوتأذن لى ولا تفتنِّي؟ فوالله لقد عرف قومى أنه ما من رجل أشد عجبًا بالنساء منى وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر ألا أصبر، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: **«قد أذنت لك»** ففيه نزلت الآية: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى

---

(١) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣٨٩).

(٢) سورة التوبة: الآيتان: (٨١-٨٢).

﴿ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾(١).

لقد تحدث القرآن الكريم عن موقف المنافقين قبل الغزوة وأثناءها وبعدها، ومما جاء من حديث القرآن الكريم عن موقف المنافقين قبل غزوة تبوك ما يتضمن استئذانهم، وتخلُّفهم عن الخروج، وكان ممن تخلف عبد الله بن أُبيّ ابن سلول، وقد تحدث القرآن عنهم فقال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾(٢).

فقد بيَّن (سبحانه وتعالى) موقف المنافقين وأنهم تخلفوا بسبب بُعد المسافة وشدتها، وأنه لو كان الذى دعوتهم إليه يا محمد عَرَضًا من أعراض الدنيا ونعيمها وكان السفر سهلًا لاتبعوك فى الخروج، ولكنهم تخلفوا ولم يخرجوا، فالآية تشرح وتوضح ملابسات موقفهم قبل الخروج إلى الغزوة، وأسباب هذا الموقف، ثم حكى (سبحانه) ما سيقوله هؤلاء المنافقون بعد عودة المؤمنين من هذه الغزوة: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾. كان نزول هذه الآية قبل رجوعه ﷺ من تبوك... والمعنى: وسيحلف هؤلاء المنافقون بالله -كذبًا وزورًا- قائلين: لو استطعنا -أيها المؤمنون- أن نخرج معكم للجهاد فى تبوك لخرجنا، فإننا لم نتخلف عن الخروج معكم إلا مضطرين فقد كانت لنا أعذارنا القاهرة التى حملتنا على التخلف(٣).

---

(١) سورة التوبة: الآية: (٤٩).

(٢) سورة التوبة: الآية: (٤٢).

(٣) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٦٤٧).

وقوله -سبحانه-: ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

قال ابن عاشور: أي يحلفون مهلكين أنفسهم -أي موقعينها في الهلك، والهلك: الفناء والموت- ويُطلَق على الأضرار الجسمية وهو المناسب هنا أي يتسببون في ضر أنفسهم بالأيمان الكاذبة وهو ضر الدنيا وعذاب الآخرة، وفي هذه الآية دلالة على أن تعمُّد اليمين الفاجرة يُفضي إلى الهلاك[1].

وذهب بعضهم إلى النبي ﷺ مُبدين أعذارًا كاذبة ليأذن لهم بالتخلف، فأذن لهم، فعاتبه الله بقوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾[2].

قال مجاهد[3]: نزلت هذه الآية في أناس قالوا: استأذنوا رسول الله ﷺ، فإن أذن لكم فاقعدوا، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا، وهؤلاء هم فريق من المنافقين، منهم عبد الله بن أُبيّ ابن سلول، والجد بن قيس، ورفاعة بن التابوت، وكانوا تسعا وثلاثين واعتذروا بأعذار كاذبة[4].

والآية الكريمة عتاب لطيف من اللطيف الخبير -سبحانه- لحبيبه ﷺ على ترك الأولى، وهو التوقف عن الإذن إلى انجلاء الأمر وانكشاف الحال[5] ثم قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا

(١) انظر: تفسير التحرير و التنوير (١٠/ ٢٠٩).

(٢) سورة التوبة: الآية: (٤٣).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٦٠).

(٤) انظر: التحرير والتنوير (١٠/ ٢١٠).

(٥) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٦٤٧).

يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾[١].

هذه الآيات أول ما نزل فى التفرقة بين المنافقين والمؤمنين فى القتال[٢]، فبيَّن (سبحانه) أنه ليس من شأن المؤمنين بالله واليوم الآخر الاستئذان وترك الجهاد فى سبيل الله، وإنما هذا من صفات المنافقين الذين يستأذنون من غير عذر، وصفهم (سبحانه) بقوله: ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: شكّت فى صحة ما جئتهم به، وقوله: ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ أي: يتحيرون يُقدمون رِجلًا ويؤخرون أخرى وليست لهم قدم ثابتة فى شيء[٣].

وبلغ رسول الله ﷺ أن ناسًا منهم يجتمعون فى بيت سويلم اليهودى يثبطون الناس عن رسول الله ﷺ، فأرسل إليهم مَن أحرق عليهم بيت سويلم[٤].

وهذا يدل على مراقبة المسلمين الدقيقة ومعرفتهم بأحوال المنافقين واليهود، فقد كانت عيون المسلمين يقظة تراقب تحركات اليهود والمنافقين، واجتماعاتهم وأوكارهم، بل كانوا يطلعون فيها على أدقِّ أسرارهم واجتماعاتهم وما يدور فيها من حبك المؤامرات، وابتكار أساليب التثبيط، واختلاق الأسباب الكاذبة لإقناع الناس بعدم الخروج للقتال، وقد كان علاج رسول الله لدعاة الفتنة وأوكارها حازمًا حاسمًا، إذ أمر بحرق البيت على مَن فيه من المنافقين، وأرسل من أصحابه مَن ينفذه، ونفَّذ بحزم، وهذا منهج نبوى كريم يتعلم منه كل مسئول فى كل زمان

---

(١) سورة التوبة: الآيتان: (٤٤-٤٥).

(٢) انظر: تفسير المراغى (٤/ ١٢٧).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٦١).

(٤) انظر: السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية، (ص٦١٨).

ومكان كيف يقف من دعاة الفتنة ومراكز الشائعات المضللة التى تلحق الضرر بالأفراد والمجتمعات والدول؛ لأن التردد فى مثل هذه الأمور يُعرِّض الأمن والأمان إلى الخطر وينذر بزوالها(١).

۞ لم يقتصر النفاق على من نافق من أهل المدينة بل إنه امتد إلى البادية حولها... قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾(٢).

وحيث إن المنافقين من الأعراب، وهم أقسى قلوبًا وأكثر جفوة وأقل علمًا بالأحكام والسنن، فإنهم أشد كفرًا ونفاقًا من منافقى أهل المدينة، كما وصفهم القرآن الكريم: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ﴾(٣)(٤).

تعبئة الجيش الإسلامى والخروج إلى تبوك

۞ ولقد أعلن النبى ﷺ النفير العام للخروج لغزوة تبوك.

واستطاع الحبيب ﷺ أن يحشد ثلاثين ألف مقاتل من المهاجرين والأنصار وأهل مكة، والقبائل العربية الأخرى.

وقد عاتب القرآن الكريم الذين تباطأوا بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم

---

(١) انظر: الصراع مع الصليبيين، (ص١٢١).

(٢) سورة التوبة: الآية: (١٠١).

(٣) سورة التوبة: الآية: (٩٧).

(٤) تفسير الطبرى (١١/ ٣).

بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[١].

وقد طالبهم القرآن الكريم بأن ينفروا شبابًا وشيوخًا وأغنياء وفقراء بقوله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[٢].

۞ ولقد أعلن رسول الله ﷺ -على غير عادته في غزواته- هدفه ووجهته في القتال، إذ أعلن صراحة أنه يريد قتال بني الأصفر (الروم)، علمًا بأن هَدْيَه في معظم غزواته أن يُورِّي فيها[٣]، ولا يصرح بهدفه ووجهته وقصده، حفاظًا على سرية الحركة ومباغتة العدو[٤].

وقد استدل بعض العلماء بهذا الفعل على جواز التصريح لجهة الغزو إذا لم تقتضِ المصلحة ستره، وقد صرح ﷺ في هذه الغزوة -على غير العادة- بالجهة التي يريد غزوها وجَلَّى هذا الأمر للمسلمين لأسباب، منها:

(١) بُعد المسافة،... فقد كان رسول الله ﷺ يدرك أن السير إلى بلاد الروم يُعَدُّ أمرًا صعبًا؛ لأن التحرك سيتم في منطقة صحراوية ممتدة قليلة الماء والنبات، ولا بد - حينئذ- من إكمال المؤنة ووسائل النقل للمجاهدين قبل بدء الحركة؛ حتى لا يؤدي نقص هذه الأمور إلى الإخفاق في تحقيق الهدف المنشود.

---

(١) سورة التوبة: الآية: (٣٨).

(٢) سورة التوبة: الآية: (٤١).

(٣، ٤) انظر: الصراع مع الصليبيين (ص ٩٧).

(٢) كثرة عدد الروم، بالإضافة إلى أن مواجهتهم تتطلب إعدادًا خاصًّا، فهم عدو يختلف فى طبيعته عن الأعداء الذين واجههم النبى ﷺ من قبل، فأسلحتهم كثيرة، ودرايتهم بالحرب كبيرة، وقدرتهم القتالية فائقة[١].

(٣) شدة الزمان ... وذلك لكى يقف كل امرئ على ظروفه، ويعد النفقة اللازمة له فى هذا السفر الطويل لمن يعول وراءه[٢].

(٤) أنه لم يعد مجال للكتمان فى هذا الوقت، حيث لم يبقَ فى جزيرة العرب قوة معادية لها خطرها تستدعى هذا الحشد الضخم سوى الرومان ونصارى العرب الموالين لهم فى منطقة تبوك ودومة الجندل والعقبة[٣].

لقد شرع رسول الله ﷺ لنا الأخذ بمبدأ المرونة عند رسم الخطط الحربية، ومراعاة المصلحة العامة فى حالتى الكتمان والتصريح، ويُعرف ذلك من مقتضيات الأحوال[٤].

الجيش الإسلامى يتحرك إلى تبوك

ولما تجهز الجيش الإسلامى استعمل النبى ﷺ على المدينة محمد بن مسلمة الأنصارى.

فلما سار رسول الله ﷺ، تخلف (عبد الله بن أُبى) ومن كان معه، وتخلف نفر من المسلمين من غير شك ولا ارتياب، منهم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، وأبو خيثمة السالمى، وأبو ذر، ثم لحقه

(١) انظر: الرسول القائد، (ص٣٩٨).

(٢) انظر: البداية والنهاية (٥/ ٤).

(٣) انظر: غزوة تبوك/ محمد أحمد باشميل (ص٥٧).

(٤) انظر: القيادة فى عهد الرسول ﷺ، (ص٥١٠).

أبـو خيثمـة، وأبـو ذر، وشـهدها رسـول الله ﷺ فى ثلاثيـن ألفًـا مـن النـاس، والخيل عشرة آلاف فرس[١].

متى خرج النبى ﷺ من المدينة

۞ عن كعب بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أن النبى ﷺ خرج يوم الخميس فى غـزوة تبوك، وكان يحب أن يخرج يوم الخميس»[٢].

ألا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى؟

وخلَّف النبى ﷺ على بن أبى طالب على أهلـه، فـأرجف بـه المنـافقون وقالوا: ما خلَّفه إلا استثقالًا وتخفُّفًا منه، فأخذ علىٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سلاحه، ثم خرج حتـى أتـى رسـول الله ﷺ وهـو نـازل بـالجرف[٣] فقـال: يـا نبـى الله، زعـم المنافقون أنك إنما خلَّفتنى لأنك استثقلتنى وتخففت مني، فقـال: «كـذبوا، **ولكنى خلفتك لمـا تركـت ورائي، فـارجع فـاخلفنى فى أهلـى وأهلـك، أفـلا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى؟ إلا أنه لا نبى بعـدي**»[٤] فرجـع علىٌّ إلى المدينة[٥].

وكـان استخلاف علـى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فى أهلـه باعتبـار قرابتـه ومصاهرته، فكـان استخلافه فى أمرٍ خاص، وهو القيام بشأن أهله، وكان استخلاف محمـد بـن مسلمة الأنصارى فى الغزوة نفسها استخلافًا عامًّا، فتعلق بعـض النـاس بـأن

(١) زاد المعاد (٣/ ٥٢٩).

(٢) أخرجه البخارى (٢٩٥٠) الجهاد، والنسائى (١١١٤٣).

(٣) انظر: زاد المعاد (٣/ ٥٢٩).

(٤) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص٥٨٩)، البخاري، كتاب المغازي، رقم (٤٤١٦).

(٥) انظر: زاد المعاد، (٣/ ٥٣٠).

استخلاف عليٍّ يشير إلى خلافته من بعده، ولا صحة لهذا القول؛ لأن خلافته كانت فى أهله خاصة[(١)].

اختيار الأمراء والقادة

وعندما تجمع المسلمون عند ثنية الوداع بقيادة رسول الله، اختار الأمراءَ والقادة وعقد الألوية والرايات لهم، فأعطى اللواء الأعظم إلى أبى بكر الصديق، ورايته العظمى إلى الزبير بن العوام رضي الله عنه ودفع راية الأوس إلى أُسيد بن حُضير، وراية الخزرج إلى أبى دجانة، وأمر كل بطن من الأنصار أن يتخذ لواءً[(٢)]، واستعمل رسول الله ﷺ على حراسة تبوك من يوم قدم إلى أن رحل منها عبَّاد بن بشر، فكان رضي الله عنه يطوف فى أصحابه على العسكر[(٣)]، وكان دليل رسول الله فى هذه الغزوة علقمة بن الفغواء الخزاعي، فقد كان من أصحاب الخبرة والكفاءة فى معرفة طريق تبوك[(٤)].

فى الطريق إلى تبوك

وبعد تعبئة الجيش وتوزيع المهام والألوية والرايات، توجه الجيش الإسلامى بقيادة رسول الله ﷺ إلى تبوك، ولم ينتظر أحدًا قد تأخر، وقد تأخر نفر من المسلمين يظن فيهم خير، وكلما ذُكر لرسول الله اسم رجل تأخر قال ﷺ: «**دعوه، إن يكُ فيه خير فسيُلحقه الله تعالى بكم، وإن يكُ غير ذلك فقد أراحكم الله منه**»[(٥)].

---

(١)انظر: صور وعبر من الجهاد النبوى فى المدينة، (ص٤٦٦، ٤٦٧).

(٢)انظر: المغازى (٣/ ٩٩٦)، الطبقات الكبرى لابن سعد، (٢/ ١٦٦).

(٣)انظر: سبل الهدى والرشاد (٥/ ٦٥٢)، الصراع مع الصليبيين، (ص٩٩).

(٤)انظر: إمتاع الأسماع (١/ ٤٥١)، شرح المواهب اللدنية (٣/ ٧٢).

(٥)انظر: الاكتفاء بما تضمنه من مغازى رسول الله والثلاثة الخلفاء، للكلاعى (٢/ ٢٧٦).

كُن أبا خيثمة

❁ قال ابن إسحاق:

ثم إن أبا خيثمة رجع بعد أن سار رسول الله ﷺ أيامًا إلى أهله فى يومٍ حار، فوجد امرأتين له فى عريشين لهما فى حائطه، قد رشَّت كل واحدةٍ منهما عريشها، وبرَّدت له ماءً، وهيأت له فيه طعامًا، فلما دخل، قام على باب العريش، فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له، فقال: رسول الله ﷺ فى الضحِّ[1] والرِّيح، والحر، وأبو خيثمة فى ظل بارد، وطعام مهيأ، وامرأة حسناء، فى ماله مقيم؟ ما هذا بالنَّصَفِ، ثم قال: واللّه لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ، فهيئا لى زادًا، ففعلتا، ثم قدَّم ناضحه، فارتحله، ثم خرج فى طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل تبوك، وقد كان أدرك أبا خيثمة عمير ابن وهب الجُمحى فى الطريق يطلب رسول الله ﷺ، فترافقا حتى إذا دنوا من تبوك، قال أبو خيثمة لعمير بن وهب: إن لى ذنبًا، فلا عليك أن تتخلف عنى حتى آتى رسول الله ﷺ، ففعل حتى إذا دنا من رسول الله ﷺ وهو نازل بتبوك، قال الناس: هذا راكب على الطريق مقبل، فقال رسول الله ﷺ: «**كُنْ أَبَا خَيْثَمَةَ**» قالوا: يا رسول الله! هو والله أبو خيثمة. فلما أناخ أقبل، فسلَّم على رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «**أولى لك يا أبا خيثمة**»، فأخبر رسول الله ﷺ خبره، فقال له رسول الله ﷺ خيرًا ودعا له بخير[2][3].

---

(١) الضح: الشمس.

(٢) زاد المعاد (٣/ ٥٣٠-٥٣١).

(٣) ابن هشام (٢/ ٥٢٠-٥٢١) عن ابن إسحاق بلا سند، وفى حديث كعب بن مالك الطويل المُخرَّج فى البخارى (٨/ ٨٦-٩٣)، ومسلم (٢٧٦٩): فبينا هو على ذلك رأى رجلاً مبيضًا يزول به السراب، فقال رسول الله ﷺ: «**كن أبا خيثمة**» فإذا هو أبو خيثمة الأنصارى، وهو الذى تصدق بصاع التمر حين لمزه المنافقون.

قال ابن هشام: وقال أبو خيثمة فى ذلك شعرًا، واسمه مالك بن قيس:

لما رأيت الناس فى الدين نافقوا ... أتيت التى كانت أعفَّ وأكرما

وبايعت باليمنى يدى لمحمد ... فلم أكتسب إثمًا ولم أغشَ مُحرَّما

تركت خضيبا[1] فى العريش وصرمة[2] ... صفايا[3] كرامًا بسرها قد تحمما[4]

وكنت إذا شك المنافق أسمحت[5] ... إلى الدين نفسى شطره حيث يمما[6]

۞ وفى هذه القصة دروس وعبر منها:

(١) المسلم صاحب ضمير حي:

فقد رأى أبو خيثمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما أعدت له زوجتاه من الماء البارد والطعام مع الظل المبرد والإقامة، فتذكر رسول الله ﷺ وما هو فيه من التعرض للشمس والريح والحر، فأبصر وتذكر وتيقظ ضميره وحاسب نفسه، ثم عزم على الخروج، وخرج وحده يقطع الفيافى والقفار حتى التقى بعمير بن وهب الجمحي، ولعله كان قادمًا من مكة، فهذه الصورة تُبين لنا مثلًا من سلوك المتقين الذين تمر عليهم لحظات ضعف يعودون بعدها أقوى إيمانًا مما كانوا عليه إذا تذكروا وراجعوا أنفسهم، وفى بيان ذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾[7].

---

(١) خضيبا: مخضوبة وهى المرأة.

(٢) صرمة: جماعة النخل.

(٣) صفايا: كثيرة الثمر.

(٤) تحمما: أخذ فى الإرطاب فاسودّ.

(٥) أسمحت: انقادت.

(٦) انظر: البداية والنهاية (٥/ ٨).

(٧) سورة الأعراف: الآية: (٢٠١).

وقد تذكَّر سريعًا وخرج لعله يدرك ما فاته، وظل يشعر بالذنب حتى وصل إلى النبى ﷺ فى تبوك وحصل على رضاه وسروره[١].

(٢) معرفة الرسول بأصحابه وبمعادنهم:

إن قول الرسول ﷺ حينما قال له أصحابه: هذا راكب على الطريق مقبل: «كُن أبا خيثمة»، فلما اقترب وعرفوه قالوا: يا رسول الله، هو -والله- أبو خيثمة، يدل على معرفة رسول الله ﷺ بأصحابه وأنه أعرفهم بمعادن رجاله، يعرف المستجيب من غيره، ويعرف التائب المنيب إلى ربه إذ زلَّت قدمه بسرعة رجوعه،... ومعرفة خصال الرجال ومعادنهم تدل على معرفة واسعة، وخبرة مستوعبة فاحصة نتيجة التعامل والاحتكاك فى ميادين الحياة المختلفة، فقد كان يخالط الجميع، يسمع منهم ويُسمعهم ويسيرون معه، ويجاهدون تحت رايته[٢].

(٣) حزم أبى خيثمة وصبره ونفاذ عزيمته:

تأمل هذا القرار الذى اتخذه أبو خيثمة رضي الله عنه أن يلحق برسول الله ﷺ وحده، فى هذه الرحلة المضنية، فى هذه الصحراء القليلة الماء ذات الحر اللافح، لقد اتخذ هذا القرار الحازم ونفذه بدقة، فدلَّ على قوة عزيمته وعنفوان إرادته وعلى جَلَدِه وصبره[٣].

(٤) عتاب القائد للجندى له أثره:

وصل أبو خيثمة معترفًا بذنبه، يطرح السلاح على رسول الله ﷺ فعاتبه، ﷺ معاتبة تحمل فى طياتها اللوم والتأنيب والتهديد، إذ قال له رسول الله ﷺ:

(١) انظر: التاريخ الإسلامي، (٨/ ١١١، ١١٢).

(٢) انظر: الصراع مع الصليبيين، (ص١٣٣).

(٣) المصدر نفسه، (ص١٣٣، ١٣٤).

«**أولى لك يا أبا خيثمة**» فهى كلمة فيها معنى التهديد، ومعناها: دنوت من الهلكة.

إنه مما لا شك فيه أن هذا الكلام كان له وقعه فى نفس الجندي، إذ أوقفه على حقيقة ما ارتكب من الذنب.

وهذا منهج نبوى كريم فى تعليم القادة عدم السكوت على أخطاء الجنود؛ لأن ذلك يضرهم ويُلحق الضرر بغيرهم، بل عليهم أن يسعوا إلى تصويب الخطأ ومحاسبة مرتكبه وتقويمه، وبذلك يكونون معلمين ومرشدين ومربين(١).

رحم الله أبا ذر

ثم مضى رسول الله ﷺ سائرًا، فجعل يتخلف عنه الرجل، فيقولون: يا رسول الله، تخلف فلان، فيقول: «**دعوه فإن يكُ فيه خير فسيُلحقه الله تعالى بكم. وإن يكُ غير ذلك فقد أراحكم الله منه**»، حتى قيل: يا رسول الله، قد تخلف أبو ذر، وأبطأ به بعيره؛ فقال: «**دعوه فإن يكُ فيه خير فسيُلحقه الله بكم، وإن يكُ غير ذلك فقد أراحكم الله منه**»؛ وتلوَّم أبو ذر على بعيره، فلما أبطأ عليه، أخذ متاعه فحمله على ظهره، ثم خرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ماشيًا. ونزل رسول الله ﷺ فى بعض منازله، فنظر ناظر من المسلمين فقال: يا رسول الله، إن هذا لرجل يمشى على الطريق وحده؛ فقال رسول الله ﷺ: «**كن أبا ذر**». فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله، هو والله أبو ذر، فقال رسول الله ﷺ: «**رحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويُبعث وحده**»(٢).

---

(١) المصدر نفسه، (ص١٣٤)، نقلًا عن غزوات الرسول.

(٢) السيرة النبوية / لابن هشام (٤/ ١٤٩).

۞ ومضى الزمان، وجاء عصر عثمان، ثم حدثت بعض الأمور وسُيِّر أبو ذر إلى الربذة، فلما حضره الموت أوصى امرأته وغلامه: إذا متُّ فاغسلاني وكفِّناني ثم احملاني فضعاني على قارعة الطريق، فأول ركب يمرون بكم فقولوا: هذا أبو ذر... فلما مات فعلوا به كذلك فطلع ركب فما علموا به حتى كادت ركائبهم تطأ سريره، فإذا ابن مسعود في رهط من أهل الكوفة، فقال: ما هذا؟ فقيل: جنازة أبي ذر، فاستهلَّ ابن مسعود يبكي، فقال: صدق رسول الله ﷺ: «**يرحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويُبعث وحده**»، فنزل فوليه بنفسه حتى دفنه[1].

۞ **وفي هذه القصة دروس وعبر منها:**

(١) ما تعرض له أبو ذر الغفاري رضي الله عنه من الصعوبات والمخاطر التي نجاه الله منها وقوَّاه بالصبر عليها،... لقد بذل أبو ذر جهدًا كبيرًا في المشي على قدميه وهو يحمل متاعه على ظهره حتى لحق بالنبي ﷺ والمسلمين؛ لكي ينال شرف الجهاد في سبيل الله[2].

(٢) وفي قوله ﷺ: «رحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويُبعث وحده»، دلالة واضحة -وضوح الشمس في رابعة النهار- على صدق نبوة الرسول ﷺ؛ إذ الإخبار بأمور لا تقع ثم تقع بعد الإخبار يدل على معجزة وتكريم من الله لهذا الرسول ﷺ، وهذه الوسيلة من إثبات النبوة كثيرة في السيرة النبوية الشريفة[3].

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٧٨).

(٢) انظر: الصراع مع الصليبيين، (ص١٢٩)، التاريخ الإسلامي للحميدي (٨/ ١١٤).

(٣) انظر: الصراع مع الصليبيين، (ص١٢٩).

(٣) كما أن فى القصة دلالة على علم ابن مسعود رضي الله عنه وقوة ذاكرته وسرعة استحضاره لما حفظ، حيث تذكر بعد سنوات عديدة حديث رسول الله ﷺ عما سيئول إليه أمر أبى ذر فى آخر حياته رضي الله عنه (١).

الوصول إلى تبوك

نزل الجيش الإسلامى بتبوك فعسكر هناك وهو مستعد للقاء العدو. وأما الرومان وحلفاؤهم فلما سمعوا بزحف رسول الله ﷺ أخذهم الرعب فلم يجترئوا على التقدم واللقاء، بل تفرقوا فى البلاد فى داخل حدودهم فكان لذلك أحسن أثر بالنسبة إلى سُمعة المسلمين العسكرية، فى داخل الجزيرة وأرجائها النائية. وحصل بذلك المسلمون على مكاسب سياسية كبيرة بما لم يكونوا يحصلون عليها لو وقع هناك اصطدام بين الجيشين.

نعم عندما وصل النبى ﷺ لم يجد أثرًا للحشود الرومانية ولا القبائل العربية، وبالرغم من أن الجيش مكث عشرين ليلة فى تبوك لم تفكر القيادة الرومانية مُطلقًا فى الدخول مع المسلمين فى قتال، حتى القبائل العربية المنتصرة آثرت السكون، أما حكام المدن فى أطراف الشام فقد آثروا الصلح ودفع الجزية، فقد أرسل ملك أيلة للنبى ﷺ هدية -وهى بغلة بيضاء وبُرد- فصالحه على الجزية.

۞ وجاء إلى النبى ﷺ صاحب أيلة، فصالحه وأعطاه الجزية، وأتاه أهل جربا، وأَذْرُح، فأعطوه الجزية، وكتب لهم رسول الله ﷺ كتابًا، فهو عندهم، وكتب لصاحب أيلة: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا أمنة من الله، ومحمد النبى رسول الله ليُحنَّة بن رؤبة، وأهل أيلة، سفنهم، وسيارتهم فى

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامى (٨/ ١١٤).

البر والبحر، لهم ذمة الله، ومحمد النبى، ومن كان معهم من أهل الشام، وأهل اليمن، وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثًا، فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وإنه لمن أخذه من الناس، وإنه لا يحل أن يُمنعوا ماءً يردونه، ولا طريقًا يردونه من بحر أو بر[1] [2].

النبى ﷺ يرسل خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة

وأرسل النبى ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه على رأس سرية من الفرسان بلغ عددها أربعمائة وعشرين فارسًا إلى دومة الجندل، واستطاع خالد بن الوليد أن يأسر أُكيدر بن عبد الملك الكندى (ملكها) وهو فى الصيد خارجها، فصالحه النبى ﷺ على الجزية، وقد تعجب المسلمون من قباء كان أكيدر يلبسه، فقال الرسول ﷺ: «**أتعجبون من هذا؟ فوالذى نفسى بيده لمناديل سعد ابن معاذ فى الجنة أحسن من هذا**» وقد ورد أن غنائم خالد من أكيدر كانت ثمانمائة من السبى وألف بعير وأربعمائة درع وأربعمائة رمح[3].

قال ابن إسحاق: ثم إن رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة، وهو أكيدر بن عبد الملك، رجل من كِندة، وكان نصرانيًا، وكان ملكًا عليها، فقال رسول الله ﷺ لخالد: «**إنك ستجده يصيد البقر**»، فخرج خالد حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين، وفى ليلة مقمرة صافية، وهو على سطح له، ومعه امرأته، فباتت البقر تحك بقرونها باب القصر، فقالت له امرأته: هل رأيت مثل هذا قط؟ قال: لا والله. قالت: فمن يترك هذه؟ قال:

(١) ابن هشام (٢/ ٥٢٥، ٥٢٦).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٥٣٧).

(٣) انظر: البداية والنهاية (٥/ ١٧) وفى إسناده ابن لهيعة عن أبى الأسود، وابن لهيعة ضعيف فضلا عن إرسال عروة.

لا أحد، فنزل، فأمر بفرسه، فأُسرج له، وركب معه نفر من أهل بيته فيهم أخ له يقال له: حسان، فركب وخرجوا معه بمطاردهم، فلما خرجوا، تلقتهم خيل رسول الله ﷺ، فأخذته، وقتلوا أخاه، وقد كان عليه قباء من ديباج مخوض بالذهب، فاستلبه خالد، فبعث به إلى رسول الله ﷺ قبل قدومه عليه، ثم إن خالدًا قدم بأُكيدر على رسول الله ﷺ، فحقن له دمه، وصالحه على الجزية؛ ثم خلى سبيله، فرجع إلى قريته(١).

۞ وبهذه المعاهدات قَصَّ النبى ﷺ أجنحة الروم، فقد كانت هذه القبائل تابعة للروم ودخلوا فى النصرانية، فإقدام مَن أقدم منها على مصالحة رسول الله والتزامها بالجزية يُعَدُّ قصًّا لهذه الأجنحة، وبترًا لحبال تبعيتهم للروم، وتحريرًا لهم من هذه التبعية التى كانت تُذلهم وتُخضعهم لسلطان الروم، لينالوا من تساقط فتاتهم شيئًا يعيشون به، وخوفًا من ظلمهم لقوتهم الباطشة، وقد وفّوا بعهد الصلح والتزموا أداء الجزية، فأعطوها عن يدٍ وهم صاغرون(٢)، وهذه سياسة نبوية حكيمة اختطها رسول الله فى بناء الدولة ودعوة الناس لدين الله، فقد استطاع أن يفصل بين المسلمين والروم بإمارات تدين للرسول بالطاعة وتخضع لحكم المسلمين، وأصبحت فى زمن الخلفاء الراشدين نقاط ارتكاز سهلت مهمة الفتح الإسلامى فى عهدهم، فمنها انطلقت قوات المسلمين إلى الشمال، وعليها ارتكزت لتحقيق هدفها العظيم(٣).

---

(١) ابن هشام (٢/ ٥٢٦)، وابن كثير (٤/ ٣٠-٣١)، وزاد المعاد (٣/ ٥٣٨).

(٢) محمد صادق عرجون (٤/ ٤٧٩).

(٣) انظر: الصراع مع الصليبيين، (ص٢٢١).

يا ليتنى كنت صاحب الحفرة

❁ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه كان يُحدِّث قال: (قمت من جوف الليل، وأنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك، فرأيت شعلة من نار فى ناحية العسكر، فاتبعتها أنظر إليها.

قال: فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر، وإذا عبد الله ذو البجادين قد مات، وإذا هم قد حفروا له، ورسول الله ﷺ فى حفرته، وأبو بكر وعمر يدليانه، وإذا هو يقول: «**أدنيا إلىَّ أخاكما**» فدلَّياه إليه، فلما هيأه لشِقِّه، قال: «**اللهم إنى كنت قد أمسيت راضيًا عنه فارضَ عنه**». قال: يقول ابن مسعود: يا ليتنى كنت صاحب الحفرة»[1].

قال ابن هشام: وإنما سُمى ذو البجادين لأنه كان يريد الإسلام، فمنعه قومه، وضيقوا عليه، حتى خرج من بينهم، وليس عليه إلا بجاد، وهو الكساء الغليظ، فشقَّه باثنين فأتزر بواحدة وارتدى بالأخرى، ثم أتى رسول الله ﷺ فسُمى ذو البجادين[2].

❁ **وفى هذه القصة دروس وحكم وفوائد منها:**

(١) **تكريم النبى ﷺ لجنوده أحياءً وأمواتًا:**

فهذا الفعل مع ذى البجادين يدل على حرص النبى ﷺ على تكريم

---

(١) أخرجه ابن منده من طريق سعيد بن الصلت عن الأعمش عن أبى وائل عن ابن مسعود كما قال الحافظ فى الإصابة (٢/ ٣٣٠) ترجمة رقم (٤٨٠) ونسبه الحافظ أيضًا إلى البغوى وأعله بالانقطاع. قلت: وسند ابن منده جيد، وقد أخرجه أيضًا ابن إسحاق عن محمد بن إبراهيم التيمى عن ابن مسعود إلا أن محمد بن إبراهيم لم يسمع من ابن مسعود (٢/ ٥٢٧-٥٢٨) سيرة ابن هشام.

(٢) ابن كثير فى السيرة (٤/ ٣٣)، سيرة ابن هشام (٢/ ٥٢٨).

أصحابه حتى فى حالة الوفاة؛ لأنهم قدموا أنفسهم للجهاد فى سبيل الله تاركين وراءهم أعز ما يملكون، فكانت تلك الرعاية مظهرًا من مظاهر تكريمهم فى الدنيا، حيث لم يترك جثثهم تتناوشها الذئاب وغيرها من دواب الأرض؛ لكى يكون هذا التكريم من الأسباب التى تدفع غيرهم إلى الاستبسال والإقدام فى ميادين الجهاد،... ومن الجدير بالذكر أن هذا المبدأ لم يجد من يدعو إلى تطبيقه إلا فى العصر الحديث، وبهذا يمكن أن يقال: إن رعاية القائد المسلم لشئون جنده تُعَدُّ سَبقًا عَسكريًّا لم تعرفه النظم والدساتير الوضعية إلا بعد قرون طويلة، من بزوغ الإسلام(١).

فهذه صورة من البر والتكريم فريدة يتيمة، لن تجد فى تاريخ الملوك والحكام من يبر ويتواضع إلى هذا المستوى، إلى حيث يوسد الحاكم فردًا من رعيته بيده فى قبره، ثم يلتمس له المرضاة من رب العالمين، أما هو فقد أعلن أنه أمسى راضيًا عنه(٢).

(٢) جواز الدفن فى الليل، والغبطة مشروعة فى الخير:

فقد دفن رسول الله ﷺ ذا البجادين ليلًا، والسُّنَّة أن يُعجَّل فى دفن الميت، كما أن الغبطة وهى أن تتمنى حصول الخير لك كما حصل لغيرك من إخوانك، وهذا عكس الحسد، إذ الحسد تمنِّى زوال النعمة عن غيرك، والحسد كله شر كما ترى، أما الغبطة فلا تكون إلا فى الخير(٣).

تأمل قول عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حينما سمع رسول الله ﷺ يقول فى

---

(١) انظر: المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية (ص٢٩٩).

(٢) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوى فى المدينة، (ص٤٧٢) بتصرف.

(٣) انظر: الصراع مع الصليبيين، (ص١٦٣، ١٦٤).

حق ذى البجادين: «اللهم إنى أمسيت عنه راضيًا فارضَ عنه» فقال ابن مسعود: يا ليتنى كنت صاحب اللحد[١]... إنها كلمة كل مؤمن آمن بالله واليوم الآخر، ووقف موقفه ذاك، فقد عرفوا أين تكون ميادين التنافس[٢].

لقد أُعطيت الليلة خمسًا ما أُعطيهن أحدٌ قبلى

۞ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: (أن رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك قام من الليل يصلى، فاجتمع وراءه رجال من أصحابه يحرسونه حتى إذا صلى، وانصرف إليهم، فقال لهم: «**لقد أُعطيت الليلة خمسًا ما أُعطيهن أحدٌ قبلى، أما أنا، فأُرسلت إلى الناس كلهم عامة وكان مَن قبلى إنما يُرسَل إلى قومه، ونُصرت على العدو بالرعب، ولو كان بينى وبينهم مسيرة شهر لمُلىء منه رعبًا، وأُحلت لى الغنائم آكلها، وكان مَن قبلى يعظمون أكلها كانوا يحرقونها، وجُعلت لى الأرض مسجدًا وطهورًا أينما أدركتنى الصلاة تمسحت وصليت، وكان مَن قبلى يعظمون ذلك، إنما كانوا يصلون فى كنائسهم وبِيَعهم، والخامسة هى ما هى؟ قيل لى: سَلْ، فإن كان نبى قد سأل، فأخرت مسألتى إلى يوم القيامة فهى لكم، ولمن شهد أن لا إله إلا الله**»[٣].

بعض المعجزات التى حدثت فى غزوة تبوك

۞ ولقد ظهرت فى تلك الغزوة بعض المعجزات لسيد الأولين والآخرين ﷺ.

---

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص٥٩٨).

(٢) انظر: معين السيرة، (ص٤٥٢).

(٣) أخرجه أحمد فى المسند: (٢/ ٢٢٢) وقال الهيثمى فى المجمع: رواه أحمد، ورجاله ثقات كما جاء فى الفتح الربانى: (٢١/ ٢٠٠).

النبي ﷺ يدعو.. والسماء تمطر بإذن الله

واشتدت حاجة الناس - في الطريق - إلى الماء فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فدعا الله ﷻ فأرسل الله سحابة فأمطرت.

❁ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قيل لعمر بن الخطاب: حدِّثنا من شأن ساعة العُسرة، فقال عمر: خرجنا إلى تبوك في قيظٍ شديد، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن كان الرجل ليذهب يلتمس الرجل، فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع، حتى أنه كان الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده. فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: يا رسول الله! إن الله ﷻ قد عوَّدك في الدعاء خيرًا فادعُ الله لنا، قال: «أتحب ذلك؟» قال: نعم، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى قالت السماء، فأظلت ثم سكبت، فملأوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر، فلم نجدها جاوزت العسكر»(١).

منافق ينكر معجزة الرسول ﷺ

❁ قال ابن إسحاق: حدثني عاصم بن عمرو بن قتادة، عن محمود بن لبيد، عن رجال من بني عبد الأشهل: «قال: قلت لمحمود: هل كان الناس يعرفون النفاق فيهم؟ قال: نعم والله، إن كان الرجل ليعرفه من أخيه ومن أبيه، ومن عمه وفي عشيرته، ثم يلبس بعضهم بعضًا على ذلك. ثم قال محمود: لقد

(١) قال الهيثمي في المجمع: (٦/ ١٩٤-١٩٥) رواه البزار والطبراني في الأوسط، ورجال البزار ثقات، والحاكم (١/ ١٥٩) وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي وهو صحيح على شرط مسلم فقط، وقال ابن كثير في السيرة: (٤/ ١٦) إسناده جيد، ولم يخرجوه من هذا الوجه، قلت: الحديث صحيح والله أعلم.

أخبرنى رجال من قومى عن رجل من المنافقين معروف نفاقه، كان يسير مع رسول الله حين سار، فلما كان من أمر الناس بالحجر ما كان، ودعا رسول الله ﷺ حين دعا، فأرسل الله السحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس، قالوا: أقبلنا عليه نقول: ويحك هل بعد هذا شىء! قال: سحابة مارة»[(١)].

تكثير الطعام

۞ **عن أبى سعيد الخدرى قال:** «لما كان يوم غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة، فقالوا: يا رسول الله! لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا[(٢)] فأكلنا وادَّهنَّا، فقال رسول الله ﷺ: «**افعلوا**»، فجاء عمر رضي الله عنه فقال: يا رسول الله! إن فعلت قَلَّ الظهر، ولكن ادعهُم بفضل أزوادهم، وادعُ الله لهم فيها بالبركة لعل الله عز وجل أن يجعل فى ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «**نعم**».

فدعا بنطع فبسطه، ثم دعا بفضل أزوادهم، فجعل الرجل يأتى بكف ذرة ويجىء الآخر بكف تمر، ويجىء الآخر بكسرة، حتى اجتمعوا على النطع من ذلك شىء يسير، فدعا رسول الله ﷺ بالبركة، ثم قال لهم: «**خذوا فى أوعيتكم**»، فأخذوا فى أوعيتهم حتى ما تركوا فى العسكر وعاءً إلا ملأوه، فأكلوا حتى شبعوا وفضلت فضالة، فقال رسول الله ﷺ: «**أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاكٍّ فحُجب عن الجنة**»[(٣)].

---

(١) أخرجه ابن إسحاق كما فى سيرة ابن هشام (٢/ ٥٢٢)، وإسناده رجال ثقات، ولا يضر جهالة الصحابة وهم من بنى عبد الأشهل، ومحمود بن لبيد من صغار الصحابة، دلائل النبوة للبيهقى (٥/ ٢٣٢).

(٢) نواضحنا: الإبل التى تُركَب ويُجلَب عليها الماء.

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧)، كتاب الإيمان - باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا.

النبى ﷺ يُخبرهم بهبوب ريح شديدة

أخبر رسول الله ﷺ أصحابه فى تبوك بأن ريحًا شديدة ستهب، وأمرهم بأن يحتاطوا لأنفسهم ودوابهم فلا يخرجوا حتى لا تؤذيهم، وليربطوا دوابهم حتى لا تُؤذَى،... وتحقق ما أخبر به رسول الله ﷺ، فهبَّت الريح الشديدة وحملت من قام فيها إلى مكان بعيد[١] فقد روى مسلم فى صحيحه بإسناده إلى أبى حميد قال: وانطلقنا حتى قدمنا تبوك فقال رسول الله ﷺ: «**ستهب عليكم الليلة ريح شديدة**»، فقام رجل فحملته الريح حتى ألقته بجبل طيئ[٢].

قال النووى فى شرحه على صحيح مسلم مُعقبًا على هذا الحديث: هذا الحديث فيه هذه المعجزة الظاهرة من إخباره ﷺ بالمغيب وخوف الضرر من القيام وقت الريح[٣].

النبى ﷺ يُخبرهم عن مكان ناقته التى ضاعت

قال ابن إسحاق: «ثم إن رسول الله ﷺ سار حتى إذا كان ببعض الطريق ضلَّت ناقته، فخرج أصحابه فى طلبها، وعند رسول الله ﷺ رجل من أصحابه، يقال له عمارة بن حزم وكان عقبيًا بدريًا، وهو عم بنى عمرو بن حزم، وكان فى رَحْلِه زيد بن اللصيت القينقاعى، وكان منافقًا.

فقال زيد بن اللصيت، وهو فى رَحل عمارة، وعمارة عند رسول الله ﷺ: أليس محمد يزعم أنه نبى، ويخبركم عن خبر السماء، وهو لا يدرى أين

---

(١)انظر: الصراع مع الصليبيين (ص ١٤١).

(٢)صحيح مسلم بشرح النووى (١٥/ ٤٢)، مختصر مسلم رقم (١٥٤٣).

(٣)شرح النووى على صحيح مسلم (١٥/ ٤٢).

ناقته؟ فقال رسول الله ﷺ وعمارة عنده: «إن رجلاً قال: هذا محمد يخبركم أنه نبى، ويزعم أنه يخبركم بأمر السماء، وهو لا يدرى أين ناقته، وإنى والله ما أعلم إلا ما علمنى الله، وقد دلنى الله عليها، وهى فى هذا الوادى، فى شِعب كذا وكذا، قد حبستها شجرة بزمامها، فانطلِقوا حتى تأتونى بها»، فذهبوا فجاءوا بها.

فرجع عمارة بن حزم إلى رَحله، فقال: والله لعجب من شيء حدثناه رسول الله ﷺ آنفًا، عن مقالة قائل أخبره الله عنه بكذا وكذا - للذى قال زيد ابن اللصيت- فقال رجل ممن كان فى رحل عمارة ولم يحضر رسول الله ﷺ: زيد والله قال هذه المقالة قبل أن تأتى، فأقبل عمارة على زيد يجأ فى عنقه[1] ويقول: إلىَّ عباد الله، إن فى رَحلى لداهية، وما أشعر، اخرج أى عدو الله من رَحلى فلا تصحبنى»[2].

الماء ينهمر من عين تبوك

فى صحيح مسلم من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك فكان يجمع الصلاة فصلى الظهر والعصر جميعًا والمغرب والعشاء جميعًا حتى إذا كان يومًا أخَّر الصلاة ثم خرج فصلى الظهر والعصر جميعًا ثم دخل ثم خرج بعد ذلك فصلى المغرب والعشاء جميعًا ثم قال: «إنكم ستأتون غدًا ـ إن شاء الله ـ عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار فمن جاءها منكم فلا يمسَّ من مائها شيئًا حتى آتى» فجئناها وقد سبقنا

(١) يجأ فى عنقه: يطعنه فى عنقه.

(٢) أخرجه ابن إسحاق فى سيرة ابن هشام (٢/ ٥٢٣)، والطبرى فى تاريخه (٣/ ١٤٥)، والبيهقى فى الدلائل: (٥/ ٢٣٢) من طريق ابن إسحاق به، وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث، وإسناده رجاله ثقات، ولا يضر جهالة الصحابة وهم من بنى عبد الأشهل، ومحمود بن لبيد من صغار الصحابة فيكون الحديث صحيحًا.

إليها رجلان والعين مثل الشراك تَبِضُّ[١] بشيء من ماء قال فسألهما رسول الله ﷺ: «**هل مسستما من مائها شيئًا؟**» قالا: نعم فسبَّهما[٢] النبي ﷺ وقال لهما ما شاء الله أن يقول، قال: ثم غرفوا بأيديهم من العين قليلاً قليلاً حتى اجتمع فى شيء، قال: وغسل رسول الله ﷺ فيه يديه ووجهه ثم أعاده فيها فجرتْ العين بماءٍ منهمر أو قال: غزير حتى استقى الناس ثم قال: «**يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما ههنا قد مُلئ جنانًا**».

لقد كانت منطقة تبوك والوادى الذى كانت فيه العين منطقة جرداء لقلة الماء، ولكن الله ﷻ أجرى على يد رسوله ﷺ بركة تكثير هذا الماء حتى أصبح يسيل بغزارة، ولم يكن هذا آتيًا لسد حاجة الجيش، بل أخبر رسول الله ﷺ بأنه سيستمر وستكون هناك جنان وبساتين مملوءة بالأشجار المثمرة،... ولقد تحقق ما أخبر به الرسول ﷺ بعد فترة قليلة من الزمن، وما زالت تبوك حتى اليوم تمتاز بجنانها وبساتينها ونخيلها وتمورها، تنطق بصدق نبوة الرسول وتشهد بأن الرسول لا يتكلم إلا صدقًا، ولا يخبر إلا حقًّا، ولا يُنبئ بشيء إلا ويتحقق[٣].

النبى ﷺ يرسل إلى قيصر الروم

❁ **عن أنس بن مالك** ﵁ **قال**: قال رسول الله ﷺ: «**من ينطلق بصحيفتى هذه إلى قيصر وله الجنة**»، فقال رجل من القوم: وإن لم يُقتل؟

(١) تبض: أى تسيل - والشراك: سير النعل ومعناها أن الماء قليل جدًا.

(٢) أى زجرهما ... ولقد ثبت فى صحيح البخارى ومسلم أن النبى ﷺ قال: «**اللهم إنى أتخذ عندك عهدًا لن تُخلفنيه فإنما أنا بشر فأى مسلم آذيته أو شتمته أو جلدته أو لعنته فاجعلها له صلاة وزكاة وقُربة بها إليك يوم القيامة**».

(٣) الصراع مع الصليبيين (ص ١٤٢).

قال: وإن لم يُقتل، فانطلق الرجل به فوافق قيصر، وهو يأتى بيت المقدس قد جُعل له بساط لا يمشى عليه غيره، فرمى بالكتاب على البساط وتنحَّى.

فلما انتهى قيصر إلى الكتاب أخذه ثم دعا رأس الجاثليق[1] وأقرأه فقال: ما علمى فى هذا الكتاب إلا كعلمك ـ فنادى قيصر: مَن صاحب الكتاب؟ فهو آمِن، فجاء الرجل فقال: إذا قَدِمت فأتنى فلما قدم أتاه فأمر قيصر بأبواب قصره، فغُلِّقت ثم أمر مناديًا فنادى: ألا إن قيصر تبع محمدًا وترك النصرانية.

فأقبل جنده وقد تسلحوا حتى أطافوا بقصره فقال لرسول رسول الله ﷺ: قد ترى أنى خائف على مملكتى، ثم أمر مناديًا فنادى: ألا إن قيصر قد رضى عنكم، وإنما اختبركم لينظر كيف صبركم على دينكم فارجعوا، فانصرفوا.

وكتب قيصر إلى رسول الله ﷺ : إنى مسلم وبعث إليه بدنانير فقال رسول الله ﷺ حين قرأ الكتاب: «**كذب عدو الله، ليس بمسلم وهو على النصرانية**»، وقسم الدنانير»[2].

وأورد الإمام أحمد[3] مرويات تشير إلى حصول مراسلة بين النبى ﷺ ـ وهو فى تبوك ـ وبين هرقل ملك الروم، وأن الأخير أرسل رسولاً من قبيلة تنوخ العربية ليتعرف له على بعض علامات النبوة عند النبى ﷺ[4].

---

(١) الجاثليق: مقدم الأساقفة عند النصارى.

(٢) أخرجه ابن حبان كما فى موارد الظمآن حديث رقم (١٦٢٨) وسنده صحيح.

(٣) أحمد ـ المسند (١/ ٢٠٣، ٣/ ٤٤٢، ٤/ ٧٤، ٥/ ٢٩٢)، بإسناد فيه سعيد بن أبى راشد وهو مقبول وقد تفرد به. وقال ابن كثير عن ذلك: هذا حديث غريب، وإسناده لا بأس به، تفرد به الإمام أحمد. (البداية والنهاية ٥/ ١٩).

(٤) كان دحية الكلبى قد حمل رسالة النبى ﷺ إلى هرقل فى أول السنة السابعة من الهجرة، فإذا صح هذا الخبر، فإن إرسال دحية الكلبى يكون للمرة الثانية، وقد أورد الإمام أحمد تفصيلات عن

مدة إقامة النبى ﷺ بتبوك

۞ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: (أقام رسول الله ﷺ بتبوك عشرين يومًا يقصر الصلاة)(١).

عاقبة الاستهزاء بدين الله ﷻ وبرسوله ﷺ

۞ عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (قال رجل فى غزو تبوك فى مجلس يومًا ما رأينا مثل قُرائنا هؤلاء، لا أرغب بطونًا، ولا أكذب ألسنة، ولا أجبن عند اللقاء. فقال رجل فى المجلس: كذبت، ولكنك منافق... لأُخبرن رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، ونزل القرآن. قال عبد الله: فأنا رأيته متعلقًا بحقب ناقة رسول الله ﷺ. والحجارة تنكيه وهو يقول: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، والنبى ﷺ يقول: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾(٢)(٣).

= وصول الرجل التنوخى إلى تبوك وأن النبى ﷺ عرض عليه الإسلام فامتنع بحجة أنه مكلف برسالة هرقل، ونقل التنوخى عن النبى ذكره لكتبه التى أرسلها إلى الملوك وكيف رد النبى ﷺ على سؤال هرقل عن رسالته قال: «تدعونى إلى جنة عرضها السماوات والأرض أُعدت للمتقين، فأين النار؟، فقال النبى ﷺ: «**سُبْحَانَ الله أين الليل إذا جاء النهار؟**»، كما ذكر الرجل التنوخى اعتذار النبى ﷺ له بأنهم فى سفر وإلا لمنحه جائزة، وأن عثمان بن عفان قدم الجائزة نيابة عن النبى ﷺ وهى «حلة صفورية». ويذكر التنوخى بعد ذلك بأن النبى ﷺ قد أنزله ضيفًا على أحد أصحابه من الأنصار، فلما قام من المجلس ناداه الرسول ﷺ، فلما وصل التنوخى إليه حَلَّ النبى ﷺ حبوته عن ظهره وقال: «**ههنا إمض كما أُمرت له**»، قال التنوخى: فجُلت فى ظهره فإذا أنا بخاتم النبوة فى موضع غضون الكتف مثل الحجمة الضخمة» أحمد (المسند ٣/ ٤٤٢).

(١) رواه أحمد وابن حبان ورجاله ثقات وصححه النووى على شرطهما وابن حزم وابن حبان.

(٢) سورة التوبة: الآية: (٦٥).

(٣) أخرجه ابن أبى حاتم فى التفسير (٤/ ٦٣) ورجاله رجال الصحيح إلا هشام بن سعد فلم يخرج له مسلم إلا فى الشواهد، والطبرى فى التفسير (١٠/ ١٧٢)، وله شاهد حسن من حديث كعب.

۞ عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: قال مخشن بن حمير لوددت أني أُقاضى على أن يُضرَب كل رجل منكم مائة على أن ينجو من أن ينزل فينا قرآن، فقال رسول الله ﷺ لعمار بن ياسر: «**أدرك القوم، فإنهم قد احترقوا، فسلهم عما قالوا: فإن هم أنكروا وكتموا فقل بلى: قد قلتم كذا وكذا**».

فأدركهم فقال لهم، فجاءوا يعتذرون، فأنزل الله ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ ﴾(١) فكان الذى عفا الله عنه مخشن ابن حمير، فتسمَّى عبدالرحمن وسأل الله أن يُقتل شهيدًا، وألا يُعلم بمقتله، فقُتل باليمامة لا يُعلم مقتله، ولا مَن قتله، ولا يُرى له أثر ولا عين»(٢).

وفى رواية قتادة قال: بينما رسول الله ﷺ فى غزوته إلى تبوك وبين يديه أُناس من المنافقين فقالوا: يرجو هذا الرجل أن تُفتح له قصور الشام وحصونها؟ هيهات هيهات.. فأطلع الله نبيه على ذلك فقال نبى الله ﷺ: «**احبسوا هؤلاء الركب**»، فأتاهم فقال: قلتم كذا وقلتم كذا، قالوا: فأنزل الله فيهم ما تسمعون(٣)، فأنزل الله تعالى:

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾(٤).

---

(١) سورة التوبة: الآية: (٦٦).

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم (٤/ ٦٤) وسنده حسن، وعزاه السيوطى فى الدر المنثور (٣/ ٢٥٤) إلى ابن إسحاق وابن المنذر وابن أبى حاتم.

(٣) انظر: الدر المنثور للسيوطي، (٤/ ٢٣٠).

(٤) سورة التوبة: الآيتان: (٦٤-٦٥).

والاستفهام في قوله: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ استفهام إنكاري.

والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء مُوبِّخًا ومُنكرًا: ألم تجدوا ما تستهزئون به في مزاحكم ولعبكم -كما تزعمون- سوى فرائض الله وأحكامه وآياته ورسوله الذي جاء لهدايتكم وإخراجكم من الظلمات إلى النور؟!

ثم بيَّن (سبحانه) أن استهزاءهم هذا أدى بهم إلى الكفر فقال: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾[1].

ومعنى الآية: أي لا تذكروا هذا العذر لدفع هذا الجرم، لأن الإقدام على الكفر لأجل اللعب لا ينبغي أن يكون، فاعتذاركم إقرار بذنبكم، فهو كما يقال: عذرٌ أقبح من ذنب[2].

وقوله: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ أي: إن نعف عن بعضكم لتوبتهم وإنابتهم إلى ربهم -كمخشن بن حمير- نُعذب بعضًا آخر لإجرامهم وإصرارهم عليه[3].

محاولة اغتيال النبي ﷺ

وحاول جماعة من المنافقين المشاركين في الجيش وهم مُلثمون حتى لا يُعرفوا أن ينفروا بدابة النبي ﷺ لتطرحه من رأس عقبة في الطريق مع عتمة الليل، فعلم بمؤامرتهم وفطن لهم وأمر بإبعادهم بعد أن عصمه الله

(١) سورة التوبة: الآية: (٦٦).

(٢) انظر: تفسير المراغي (٤/ ١٥٣).

(٣) المصدر نفسه (٤/ ١٥٣).

تعالى من أذاهم[١].

۞ عن أبي الطفيل رضي الله عنه قال: «لما أقبل رسول الله ﷺ من غزو تبوك أمر مناديًا فنادى: «**إن رسول الله آخذ بالعقبة فلا يأخذها أحد**»، فبينما رسول الله ﷺ يقوده حذيفة ويسوقه عمار، إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل، فغشوا عمارًا، وهو يسوق برسول الله ﷺ، وأقبل عمار يضرب وجوه الرواحل، فقال رسول الله ﷺ لحذيفة «**قد قد**».

حتى هبط رسول الله ﷺ من الوادي، فلما هبط ورجع عمار قال: «**يا عمار هل عرفت القوم؟**» قال: قد عرفت عامة الرواحل، والقوم متلثمون، فقال: (**هل تدري ما أرادوا؟**». قال: الله ورسوله أعلم. قال: «**أرادوا أن ينفروا برسول الله فيطرحوه**».

قال: فسأل عمار رجلاً من أصحاب النبي ﷺ فقال: نشدتك بالله كم تعلم كان أصحاب العقبة؟ قال: أربعة عشر رجلاً. فقال: إن كنت فيهم فقد كانوا خمسة عشر. قال: فعذر رسول الله ﷺ منهم ثلاثة قالوا: ما سمعنا منادي رسول الله ﷺ، وما علمنا ما أراد القوم، فقال عمار: أشهد أن الاثني عشر الباقين حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد»[٢].

النبي ﷺ يُخبر حذيفة بأسماء المنافقين

۞ عن علقمة قال: «قدمت الشام فصليت ركعتين، ثم قلت: اللهم يسِّر لي جليسًا صالحًا، فأتيت قومًا فجلست إليهم، فإذا شيخ قد جاء حتى

(١) أحمد في المسند (٥/ ٣٩٠)، البيهقي في السنن (٩/ ٣٢).

(٢) أخرجه في المسند (٥/ ٤٥٣) ورجاله ثقات، قال الهيثمي في المجمع (٦/ ١٩٥) رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح.

جلس إلى جنبى، قلت: مَن هذا؟ قالوا: أبو الدرداء فقلت: إنى دعوت الله أن يُيسر لى جليسًا صالحًا، فيسَّرك لى. قال: ممن أنت؟ قلت: من أهل الكوفة. قال: أَوَليس عندكم ابن أم عبد صاحب النعلين والوساد والمطهرة؟ - يعنى ابن مسعود - أَوَليس فيكم الذى أجاره الله من الشيطان، يعنى على لسان نبيه ﷺ؟ - يعنى عمار بن ياسر - أَوَليس فيكم صاحب سر النبى ﷺ الذى لا يعلم أحد غيره؟ - يعنى حذيفة - ثم قال: كيف يقرأ عبد الله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ فقرأت عليه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾[١] قال: والله لقد أقرأنيها رسول الله ﷺ من فيه إلى فىّ»[٢].

مرورهم على ديار ثمود

۞ مَرَّ المسلمون فى طريق عودتهم من تبوك على ديار ثمود.

۞ **عن ابن عمر** رضي الله عنهما **قال**: «إن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ أرض ثمود، الحجر، واستقوا من بئرها، واعتجنوا به، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهريقوا ما استقوا من بئارها، وأن يعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التى كان تردها الناقة»[٣].

۞ **وعن ابن عمر** رضي الله عنهما **أيضًا قال**: «مررنا مع رسول الله ﷺ على الحجر، فقال لنا رسول الله ﷺ: «**لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، إلا أن تكونوا باكين حذرًا أن يصيبكم مثل ما أصابهم**»، ثم زجر[٤] فأسرع حتى خلَّفها»[٥].

---

(١) سورة الليل: الآيات: (١-٣).

(٢) أخرجه البخارى (٣٧٤٢، ٣٧٤٣) فضائل الصحابة.

(٣) أخرجه البخارى (٣٣٧٩) الأنبياء - ومسلم (٢٩٨٠) الزهد والرقائق.

(٤) زجر: أى زجر ناقته ومعناه ساقها سوقًا شديدًا حتى خلفها أى جاوز المساكن.

(٥) أخرجه البخارى (٣٣٨١) الأنبياء - ومسلم (٢٩٨٠) الزهد والرقائق.

قال أبو كبشة الأنصارى ﵁: لما كان فى غزوة تبوك تَسَارَع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنادى فى الناس: «**الصلاة جامعة**» قال: فأتيت رسول الله ﷺ وهو ممسكٌ بعيره، وهو يقول: «**ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم؟**» فناداه رجل منهم: نعجب منهم يا رسول الله، قال: «**أفلا أنذركم بأعجب من ذلك؟ رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم وما هو كائن بعدكم، فاستقيموا وسددوا، فإن الله ﷻ لا يعبأ بعذابكم شيئًا، وسيأتى قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئًا**»[1].

وهذا منهج نبوى كريم فى توجيه رسول الله ﷺ صحابته إلى الاعتبار بديار ثمود، وأن يتذكروا بها غضب الله على الذين كذَّبوا رسوله، وألا يغفلوا عن مواطن العظة برسومها الدارسة، وأطلالها القديمة، ونهاهم عن الانتفاع بشيء مما فى ربوعها، حتى الماء لكيلا تفوت بذلك العبرة، وتخف الموعظة، بل أمرهم بالبكاء، وبالتباكي، تحقيقًا للتأثر بعذاب الله، ولو أنهم مروا بها كما نمر نحن بآثار السابقين، لتعرضوا لسخط الله، فإن الغابرين شهدوا المعجزات ودلائل النبوة، وعاينوا العجائب، لكن قست قلوبهم فاستهانوا بها، وحق عليهم العذاب، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون من نقمة الله وغضبه.

إن الله ﷻ ما قَصَّ علينا من أنباء الأمم الخالية، إلا لكى نأخذ منها العظة والاعتبار، فإذا شهدنا بأعيننا ديارهم التى نزل فيها سخط المولى ﷻ وعذابه الأليم، وجب أن تكون الموعظة أشد، والاعتبار أعمق، والخوف من سخط المولى (سبحانه) أبلغ، ولهذا تسجَّى النبى صلوات الله وسلامه

(١) انظر: الفتح الربانى (٢١/ ١٩٥).

عليه بثوبه لما مَرَّ بالديار الملعونة المسخوطة واستحثَّ خُطا راحلته[١] وقال لأصحابه: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين، حذرًا أن يصيبكم ما أصابهم»[٢].

لا تسألوا الآيات

۞ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «لما مَرَّ النبى ﷺ بالحجر قال: «لا تسألوا الآيات، فقد سألها قوم صالح، فكانت ترد من هذا الفج، وتصدر من هذا الفج[٣]، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها، وكانت تشرب ماءهم يومًا، ويشربون لبنها يومًا، فعقروها، فأخذتهم صيحة أهمد الله مَن تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحدًا كان فى حرم الله». قيل: من هو يا رسول الله؟ قال: «هو أبو رغال، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه»[٤].

هدم مسجد الضرار

فى أثناء عودة النبى ﷺ إلى المدينة راجعًا من تبوك نزلت عليه الآيات الآتية:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ

(١) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوى فى المدينة، (ص٤٨٠).

(٢) البخاري، كتاب الأنبياء رقم (٣٣٨١).

(٣) من هذا الفج: من هذا الوجه.

(٤) أخرجه أحمد فى المسند: (٤/ ٢٩٦)، وقال الحافظ ابن كثير: إسناده صحيح، ولم يخرجوه، وصححه الحاكم (٢/ ٣٤٠-٣٤١) ووافقه الذهبى.

أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾[1].

وسبب نزول هذه الآيات الكريمات: أنه كان بالمدينة -قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها- رجل من الخزرج يقال له: أبو عامر الراهب، وكان قد تنصَّر فى الجاهلية وقرأ علم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة فى الجاهلية، وله شرف فى الخزرج كبير، فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجرًا إلى المدينة واجتمع المسلمون عليه، وصارت للإسلام كلمة عالية، وأظهرهم الله يوم بدر، شرق اللعين أبو عامر بريقه، وبارز بالعداوة وظاهَرَ بها، وخرج فارًّا إلى كفار مكة من مشركى قريش يمالئهم على حرب رسول الله ﷺ، فاجتمعوا بمن وافقهم فى أحياء العرب فكان من أمر المسلمين ما كان، وامتحنهم الله ﷻ، وكانت العاقبة للمتقين، وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين فوقع فى إحداهن رسول الله ﷺ وأصيب ذلك اليوم فجُرح وكُسرت رباعيته اليمنى والسفلى، وشُجَّ رأسه صلوات الله وسلامه عليه، وتقدم أبو عامر فى أول المبارزة إلى قومه من الأنصار فخاطبهم، واستمالهم إلى نصره وموافقته، فلما عرفوا كلامه قالوا: لا أنعم الله بك عينًا يا فاسق يا عدو الله، ونالوا منه وسَبُّوه، فرجع وهو يقول: والله لقد أصاب قومى بعدى شر، وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره وقرأ عليه القرآن، فأبى أن يُسلم وتمرد، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيدًا طريدًا فنالته هذه الدعوة، وذلك أنه لما فرغ الناس من أُحد ورأى أمر الرسول ﷺ فى ارتفاع وظهور ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبى ﷺ، فوعده ومنَّاه، وأقام عنده وكتب إلى جماعة من قومه الأنصار من

---

(١) سورة التوبة: الآيتان: (١٠٧-١٠٨).

أهل النفق والريب يعدهم ويمنيهم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له معقلًا يقدم عليهم فيه مَن يَقْدُم من عنده لأداء كتبه، ويكون مرصدًا له إذا قدم عليهم بعد ذلك، فشرعوا فى بناء مسجد مجاور لمسجد قباء، فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك، وجاءوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتى إليهم فيصلى فى مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته، وذكروا أنهم بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة فى الليلة الشاتية، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال: «**إنَّا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله**» فلما قفل عليه السلام راجعًا إلى المدينة من تبوك ولم يبقَ بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين فى مسجدهم، مسجد قباء الذى أُسس من أول يوم على التقوى، فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة[(١)].

هذا ما ذكره ابن كثير فى سبب النزول.

العودة إلى المدينة المنورة

۞ عاد النبى ﷺ إلى المدينة المنورة بعد أن مكث عشرين ليلة فى تبوك.

ولما أشرف النبى ﷺ على المدينة قال: «**هذه طابة وهذا أُحد جبل يحبنا ونحبه**»[(٢)].

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٣٨) نقلًا عن غزوات الرسول.

(٢) أخرجه البخارى (٧/ ٧٣١) المغازى، ومسلم (٩/ ١٣٩) الحج.

ولما اقترب الجيش الإسلامى من المدينة خرج الصبيان إلى ثنية الوداع لاستقباله، ومعهم النساء والولائد وهم يرددون[١]:

طلــــع البـــــدر علينـــــا مــــن ثنيـــات الـــوداع
وجـــب الـــشكر علينـــا مــــا دعـــا للـــــه داع

كـان أول مـا فعلـه النبى ﷺ عنـد دخـول المدينـة أن صـلى فى مـسجده الشريف ركعتين، ثم جلس للناس فجاءه المنافقون المتخلفون عن الغزوة فاعتذروا بشتَّى الأعذار فقبل منهم علانيتهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله تعالى[٢].

أصناف المنافقين

۞ لقد كان المنافقون أربعة أصناف:

فمنهم من له أعذار شرعية وعذرهم الله (سبحانه وتعالى)، ومنهم من ليس له أعذار شرعية وتاب الله عليهم، ومنهم من منافقى الأعراب الذين يسكنون حول المدينة، ومنهم من منافقى المدينة.

أولاً: المُخلَّفون الذين لهم أعذار شرعية وعذرهم الله سبحانه وتعالى:

قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴾[٣].

(١) أورد ذلك الحافظ ابن حجر فى فتح البارى عند شرح الحديثين (٤٤٢٦-٤٤٢٧).
(٢) البخارى ـ الصحيح (فتح البارى ـ الحديث ٤٤١٨)، ومسلم (٤/ ٢١٢٣) حديث (٢٧٦٩).
(٣) سورة التوبة: الآيتان: (٩١-٩٢).

بيَّنت هذه الآيات الكريمة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك وكان لهم عذر شرعى بأنه ليس عليهم حرج وليس عليهم إثم فى هذا التخلف؛ ذلك لأن لهم عذرًا شرعيًّا منعهم من الخروج،... وفى المراد بالضعفاء: أنهم الزَّمنَى والمشايخ الكبار، وقيل: الصغار، وقيل: المجانين، سُمُّوا ضعافًا لضعف عقولهم،... ذكر القولين الماوردي. والصحيح أنهم الذين يضعفون لزمانة أو عمى، أو سن، أو ضعف فى الجسم،... والمرضى: الذين بهم أعلال مانعة من الخروج للقتال[١].

وقوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾.

أي: ليس على الذين لا يجدون نفقة تبلغهم إلى الغزو حرج أو إثم ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أى إذا عرفوا الحق، وأحبوا أولياءه وأبغضوا أعداءه[٢].

وقوله: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾.

قال الطبري: يقول تعالى: ليس على من أحسن فنصح لله ورسوله فى تخلُّفه عن رسول الله عن الجهاد معه، لعذرٍ يُعذَر به، طريق يتطرق عليه فيُعاقَب من قِبَله ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

يقول تعالى: والله ساتر على ذنوب المحسنين، يتغمدها بعفوه لهم عنها،... رحيم بهم أن يعاقبهم عليها[٣].

وقال القرطبي: الآية أصل فى سقوط التكاليف عن العاجز، من جهة

---

(١) انظر: زاد المسير (٤/ ٤٨٥).

(٢) انظر: تفسير القرطبى (٨/ ٢٢٦).

(٣) انظر: تفسير الطبرى (١٠/ ٢١١).

القوة أو العجز من جهة المال[١].

وقوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ معطوف على ما قبله من عطف الخاص على العام، اعتناء بشأنهم وجعلهم كأنهم -لتميزهم- جنس آخر، مع أنهم مندرجون مع الذين وصفهم الله قبل ذلك ﴿أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾.

أي: لا حرج ولا إثم على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون، إذا ما تخلفوا عن الجهاد، وكذلك لا حرج ولا إثم أيضًا على فقراء المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ﴾ على الرواحل التى يركبونها لكى يخرجوا معك إلى هذا السفر الطويل، ﴿قُلۡتَ﴾ لهم يا محمد[٢]: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾، وقوله: ﴿تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا﴾ أى انصرفوا وأعينهم تسيل بالدموع من شدة الحزن لأنهم لا يجدون المال الذى ينفقونه فى مطالب الجهاد، ولا الرواحل التى يركبونها فى حال سفرهم إلى تبوك[٣].

ثانيًا: المخلفون الذين ليس لهم أعذار شرعية وتاب الله عليهم:

جاءت ثلاث آيات تتحدث عن هؤلاء المخلفين وهي:

(١) قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢)﴾[٤].

---

(١) انظر: تفسير القرطبى (٨/ ٢٢٦).

(٢) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٦٧٢).

(٣) المصدر نفسه (٢/ ٦٧٣).

(٤) سورة التوبة: الآية: (١٠٢).

ومعنى الآية الكريمة: أن هؤلاء الجماعة تخلفوا عن الغزو لغير عذر مسوغ للتخلف ثم ندموا على ذلك، ولم يعتذروا بالأعذار الكاذبة كما اعتذر المنافقون، بل تابوا واعترفوا بالذنب ورجوا أن يتوب الله عليهم، والمراد بالعمل الصالح: ما تقدم من إسلامهم وقيامهم بشرائع الإسلام وخروجهم إلى الجهاد فى سائر المواطن.

والمراد بالعمل السيئ: هو تخلفهم عن هذه الغزوة، وقد أتبعوا هذا العمل السيئ عملًا صالحًا وهو الاعتراف به والتوبة عنه.

وأصل الاعتراف الإقرار بالشيء. ومجرد الإقرار لا يكون توبة إلا إذا اقترن به الندم على الماضى والعزم على تركه فى الحال والاستقبال، وقد وقع منهم ما يفيد هذا، ومعنى الخلط أنهم خلطوا كل واحدٍ منهما بالآخر، كقولك: خلطت الماء باللبن واللبن بالماء.

وفى قوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ دليل على أنه قد وقع منهم -مع الاعتراف- ما يفيد التوبة، أو مقدمة التوبة -وهى الاعتراف- قامت مقام التوبة، وحرف الترجِّى وهو (عسى) هو فى كلام الله (سبحانه) يفيد تحقيق الوقوع لأن الإطماع من الله سبحانه إيجاب؛ لكونه أكرم الأكرمين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ أي: يغفر الذنوب ويتفضل على عباده[(١)].

(٢) قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿١٠٦﴾﴾[(٢)].

والمراد بهؤلاء المرجون -كما فى الصحيحين- هلال بن أمية، وكعب

---

(١) انظر: تفسير الشوكانى (٢/ ٣٩٩).

(٢) سورة التوبة: الآية: (١٠٦).

ابن مالك، ومرارة ابن الربيع، وكانوا قد تخلفوا عن رسول الله ﷺ لأمرٍ ما -مع الهمّ باللحاق به عليه الصلاة والسلام- فلم يتيسر لهم، ولم يكن تخلفهم عن نفاق – وحاشاهم- فقد كانوا من المخلصين، فلما قدم النبى ﷺ وكان ما كان من المتخلفين قالوا: لا عذر لنا إلا الخطيئة، ولم يعتذروا له ﷺ ولم يفعلوا كما فعل أهل السواري[1]، وأمر رسول الله باجتنابهم، وشدد الأمر عليهم كما سنعلمه إن شاء الله تعالى، وقد وقف أمرهم خمسين ليلة لا يدرون ما الله -تعالى- فاعل بهم[2].

(٣) قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾[3].

والمراد بهؤلاء الثلاثة هم هلال بن أمية، وكعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وفيهم نزلت هذه الآية[4]، وسوف نتحدث عن هذه القصة -بإذن الله- بنوع من التفصيل لما فيها من الدروس والعبر والحكم.

ثالثًا: المخلفون من منافقى الأعراب الذين يسكنون حول المدينة:

هؤلاء المخلفون من منافقى الأعراب نزل فيهم قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾[5].

---

(١)أى الذين ربطوا أنفسهم فى سوارى المسجد كأبى لبابة وأصحابه.

(٢)انظر: تفسير الألوسى (١١/ ١٧).

(٣)سورة التوبة: الآية: (١١٨).

(٤)انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٦٧٧).

(٥)سورة التوبة: الآية: (٩٠).

رابعًا: المخلفون من منافقى المدينة:

قال تعالى: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴾(١).

هذا وقد لاحظت اختلاف سياسة الرسول ﷺ فى معاملته للمنافقين عندما اعتذروا له، عن المسلمين الصادقين، حيث إنه ﷺ عامل المنافقين باللين والصفح، واختار للمسلمين الصادقين الشدة والعقوبة! ولا شك أن الشدة والقسوة فى هذا المقام مع المسلمين مظهر للإكرام والتشريف، وهو ما لا يستحقه المنافقون، وكيف يستحق المنافقون أن تنزل آيات فى توبتهم- على أى حال؟!... إنهم كفرة، ولن ينشلهم شيء مما يتظاهرون به فى الدنيا، من الدرك الأسفل فى النار يوم القيامة، وقد أمر الشارع جل جلاله أن ندعهم لما تظاهروا به ونُجرى الأحكام الدنيوية حسب ظواهرهم، ففيم التحقيق عن بواطن أعذارهم وحقيقة أقوالهم، وفيم معاقبتهم فى الدنيا على ما قد يصدر عنهم من كذب ونحن إنما نعطيهم الظاهر فقط من المعاملة والأحكام؛ كما يبدون لنا هم أيضًا الظاهر فقط من أحوالهم وعقائدهم.

قال الإمام ابن القيم: وهكذا يفعل الرب (سبحانه) بعباده فى عقوبات جرائمهم، فيؤدب عبده المؤمن الذى يحبه وهو كريم عنده، بأدنى زلة وهفوة، فلا يزال مستيقظًا حذرًا، وأما من سقط من عين الله وهان عليه فإنه يُخلى بينه وبين معاصيه، وكلما أحدث ذنبًا أحدث له نعمة(٢).

---

(١) سورة التوبة: الآيات: (٨١-٨٣).

(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٥٧٨).

قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا

ﷺ عَنْ كعْبَ بن مَالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَال: «لَمْ أَتخلَّفْ عَنْ رسولِ الله ﷺ، فى غَزْوَةٍ غَزَاها قَطُّ إلاَّ فى غزْوَةِ تبُوكَ، غَير أَنِّى قدْ تخلَّفْتُ فى غَزْوةِ بَدْرٍ، ولَمْ يُعَاتَبْ أَحد تَخلَّف عنْهُ، إنَّما خَرَجَ رسولُ الله ﷺ والمُسْلِمُونَ يُرِيُدونَ عِيرَ قُريْش، حتَّى جَمعَ الله تعالَى بيْنهُم وبيْن عَدُوِّهِمْ عَلَى غيْرِ ميعادٍ. وَلَقَدْ شهدْتُ مَعَ رسولِ اللهِ ﷺ ليْلَةَ العَقبَةِ[١] حِينَ تَوَاثَقْنَا عَلَى الإِسْلامِ[٢].

ومَا أُحِبُّ أَنَّ لِى بِهَا مَشهَدَ بَدْرٍ، وإِن كَانتْ بدْرٌ أَذْكَرَ فى النَّاسِ مِنهَا[٣].

وكان من خبرى حِينَ تخلَّفْتُ عَنْ رسول الله ﷺ، فى غَزْوَةِ تبُوك أَنِّى لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى ولا أَيْسَرَ مِنِّى حِينَ تَخلَّفْتُ عَنْهُ فى تِلْكَ الْغَزْوَة، واللهِ ما جَمعْتُ قبْلها رَاحِلتيْنِ قطُّ حتَّى جَمَعْتُهُما فى تلك الْغزْوَةِ، فغَزَاها رسول الله ﷺ فى حَرٍّ شَديدٍ، وَاسْتَقْبَلَ سَفرًا بَعِيدًا وَمَفَازًا[٤]. وَاسْتَقْبَلَ عَدوًا كَثيرًا، فجَلَّى للْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ[٥] ليَتَأَهَّبوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ[٦] فَأَخْبَرَهُمْ بوَجْهِهِمُ الَّذى يُريدُ، وَالْمُسْلِمُون مَع رسول الله ﷺ كثِيرٌ وَلاَ يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ (يُريدُ بذلكَ الدِّيوان).

قال كَعْبٌ: فقلَّ رَجُلٌ يُريدُ أَنْ يَتغَيَّبَ إلاَّ ظَنَّ أَنَّ ذلكَ سَيَخْفى بِهِ مَا لَمْ

---

(١) ليلة العقبة: الليلة التى بايع رسول الله الأنصار فيها على الإسلام. وأن يؤوه وينصروه، والعقبة هى التى فى طرف منى التى يضاف إليها جمرة العقبة. وكانت مرتين فى سنتين.

(٢) تواثقنا على الإسلام: تبايعنا عليه وتعاهدنا.

(٣) وإن كانت بدر أذكر: أى أشهر عند الناس.

(٤) مفازًا: برية طويلة قليلة الماء يخاف فيها من الهلاك.

(٥) فجلَّى للمسلمين أمرهم: كشف وبينه وأوضحه.

(٦) ليتأهبوا أهبة غزوهم: يسعوا له بما يحتاجون من زاد.

يَنْزِلْ فيهِ وَحْيٌ مِن اللهِ ﷻ، وغَزَا رسول الله ﷺ تلكَ الغزوةَ حين طَابت الثِّمارُ والظِّلالُ، فَأَنا إِلَيْهَا أَصْعرُ(١)، فتجهَّز رسول الله ﷺ والْمُسْلِمُون معهُ، وطَفِقْتُ أَغدو لِكَيْ أَتَجَهَّزَ معهم فأَرْجِعُ ولَمْ أَقْضِ شيئًا، وأَقُولُ فى نَفْسى: أَنا قَادِرٌ عَلَى ذلك إِذا أَرَدْتُ.

فلَمْ يَزلْ ذلك يتمادى بى حتَّى اسْتمَرَّ بالنَّاسِ الْجِدُّ، فأَصْبَحَ رسول الله ﷺ غَاديًا والْمُسْلِمُونَ معَهُ، وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جهازى شيْئًا، ثُمَّ غَدَوْتُ فَرَجَعْتُ وَلَم أَقْضِ شَيْئًا، فَلَمْ يزلْ ذلك يَتمادَى بِى حَتَّى أَسْرعُوا وتَفَارَط الْغَزْوُ(٢)، فَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِل فَأُدْرِكَهُمْ، فَيَا ليْتَنى فَعلْتُ، ثُمَّ لَمْ يُقَدَّرْ ذلك لى.

فَطفقتُ، إِذَا خَرَجْتُ فى النَّاسِ بَعْد خُرُوج رسُول الله ﷺ يُحْزُنُنِى أَنِّى لا أَرَى لِى أُسْوَةً، إِلاَّ رَجُلاً مَغْمُوصًا عَلَيْه فى النِّفاقِ، أَوْ رَجُلاً مِمَّنْ عَذَرَ اللهُ تعالَى مِن الضُّعفَاءِ، ولَمْ يَذْكُرنى رسول الله ﷺ حتَّى بَلَغ تَبُوكَ، فقالَ وَهُوَ جَالِسٌ فى القَوْمِ بتَبُوك: «ما فَعَلَ كعْبُ بْنُ مَالكٍ؟» فقالَ رَجُلٌ مِن بَنِى سلمة: يا رسول الله حَبَسَهُ بُرْدَاهُ، وَالنَّظرُ فى عِطْفيْه(٣).

فَقال لَهُ مُعاذُ بْنُ جبَلٍ رضي الله عنه: بِئس ما قُلْتَ، وَاللهِ يا رسول الله مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلاَّ خَيْرًا، فَسكَتَ رسول الله ﷺ، فبَيْنَمَا هُوَ عَلَى ذلك رَأَى رَجُلاً مُبيضًا(٤) يَزُولُ به السَّرَابُ(٥)، فقالَ رسولُ الله ﷺ: «كُنْ أَبَا خَيْثَمَةَ» فَإِذا هوَ أَبُو خَيْثَمَة

---

(١) أصعر: أميل.

(٢) تفارط الغزو: تقدم الغزاة وسبقوا وفاتوا.

(٣) والنظر فى عطفيه: أى جانبيه وهو إشارة إلى إعجابه بنفسه ولباسه.

(٤) مبيضًا: لابس البياض.

(٥) يزول به السراب: يتحرك وينهض، والسراب هو ما يظهر للإنسان فى الهواجر فى البرارى كأنه ماء.

الأَنْصارىُّ وَهُوَ الَّذى تَصدَّقَ بصاع التَّمْر حين لمَزَهُ[١] المنافقون.

قَالَ كَعْبُ: فَلَّما بَلَغنى أَنَّ رسول الله ﷺ قَدْ توَجَّهَ قافلاً[٢] منْ تَبُوكَ حَضَرَنى بَثِّى[٣]، فطفقتُ أَتذكَّرُ الكذِبَ وَأَقُولُ: بِمَ أَخْرُجُ من سَخطه غدًا؟. وَأَسْتَعينُ عَلَى ذلكَ بِكُلِّ ذِى رَأْى مِنْ أَهْلى، فَلَمَّا قِيلَ لى: إِنَّ رسول الله ﷺ قدْ أَظَلَّ قادمًا[٤] زاحَ[٥] عَنِّى الْبَاطِلُ حَتَّى عَرَفتُ أَنِّى لن أَنجو مِنْهُ بِشَىءٍ أَبدًا فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ[٦].

وأَصْبَحَ رسول الله ﷺ قَادمًا، وكان إذا قدمَ مِنْ سَفرٍ بَدَأَ بالْمَسْجد فركعَ فيه رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ جلس للنَّاس، فلمَّا فعل ذَلك جَاءَهُ الْمُخلَّفُونَ فطفقوا يعْتذرُون إِلَيْه وَيَحْلفُون لَهُ، وكانوا بضعًا وثمانين رَجُلاً فقبل منْهُمْ عَلانيَتهُمْ وَبَايَعَهُمْ وَاسْتغفر لهُمْ وَوَكلَ سَرَائرَهُمْ إِلى الله تعالى... حتَّى جئْتُ.

فلمَّا سَلَّمْتُ، تبسَّم تبسُّم الْمُغْضب ثم قَالَ: «**تعَالَ**»، فجئتُ أَمْشى حَتى جَلسْتُ بين يَدَيْهِ، فقالَ لِى: «**مَا خَلَّفَكَ؟ أَلَمْ تكُنْ قد ابْتَعْتَ ظَهْرَك**»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله إِنِّى والله لَوْ جلسْتُ عند غيْركَ منْ أَهْلِ الدُّنْيا لَرَأَيْتُ أَنى سَأَخْرُج منْ سَخَطه بعُذْرٍ، لقدْ أُعْطيتُ جدَلاً[٧]، وَلَكنِّى وَالله لقدْ عَلمْتُ لَئن حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حديث كَذبٍ ترْضى به عنِّى لَيُوشكَنَّ[٨] اللهُ أن يُسْخطك علىَّ،

(١) لمزه المنافقون: عابوه واحتقروه.

(٢) توجه قافلاً: راجعًا.

(٣) حضرنى بَثِّى: حزنى.

(٤) أظل قادمًا: أقبل ودنا قدومه كأنه ألقى علىّ ظله.

(٥) زاح: زال.

(٦) أجمعت صدقه: عزمت على صدقه.

(٧) أُعطيت جدلاً: فصاحة وقوة فى الكلام وبراعة، بحيث أخرج عن عهده ما يُنسب إلىَّ إذا أردت.

(٨) ليوشكن: ليسرعن.

ولئن حَدَّثْتُكَ حَديث صدْقٍ تجدُ علَيَّ فيه(١) إنِّى لأَرْجُو فِيه عُقْبَى الله(٢) ﷻ . . . والله ما كان لِى من عُذْرٍ، واللهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلا أَيْسر مِنِّى حِينَ تَخلفْتُ عَنك قَالَ: فقالَ رسول اللهﷺ: «أَمَّا هذَا فقَدْ صَدَق، فَقُمْ حَتَّى يَقْضىَ اللهُ فيكَ» فَقُمْت، وثَارَ رِجَالٌ مِنْ بَنِى سَلمة فاتَّبعُونى، فقالُوا لِى: واللهِ مَا عَلِمْنَاكَ أَذنبت ذَنْبًا قبْل هـذَا، لقَدْ عَجَزتَ فى أن لا تَكُون اعتذَرْت إلَى رسول اللهﷺ بمَا اعْتَذَرَ إلَيهِ الْمُخَلَّفُون فقَدْ كَانَ كافِيَكَ ذنْبكَ اسْتِغفارُ رسول اللهﷺ لَك.

قَالَ: فوالله ما زَالُوا يُؤنِّبُونِنِى(٣) حتَّى أَرَدْت أَنْ أَرْجِعَ إلى رسول اللهﷺ فأُكَذِّبَ نفْسِى.

قَالَ: ثُمَّ قُلتُ لهُم: هَلْ لَقِىَ هَذا معِى مِنْ أَحدٍ؟ قَالُوا: نَعَمْ لقِيَهُ معك رَجُلان قَالا مِثْلَ مَا قُلْتَ، وقيل لَهمَا مِثْلُ مَاقِيلَ لكَ، قَال قُلْتُ: مَن هُمَا؟ قالُوا: مُرارةُ بْنُ الرَّبيع الْعَامرِىُّ، وهِلال بْن أُميَّةَ الْوَاقِفِىُّ؟ قَالَ: فَذكَروا لِى رَجُلَيْنِ صَالِحَيْن قدْ شَهِدا بدْرًا فِيهِمَا أُسْوَةٌ. قَالَ: فَمَضيْت حِينَ ذَكَروهُمَا لِى.

قال: وَنَهَى رسول اللهﷺ المسلمين عن كَلامِنَا أَيُّها الثلاثَةُ مِن بَين من تَخَلَّف عَنهُ، قَالَ: فاجْتَنبَنا النَّاس أَوْ قَالَ: تَغَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنكَّرت لِى فى نفسى الأَرْضُ، فَمَا هىَ بالأَرْضِ التى أَعْرِفُ، فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلكَ خمْسِينَ لَيْلَةً. فأَمَّا صَاحباىَ فَاستكَانَا(٤) وَقعَدَا فى بُيُوتهمَا يَبْكيَانِ وأَمَّا أَنَا فكُنتُ أَشَبَّ الْقَوْم وَأَجْلَدَهُمْ(٥)، فَكُنتُ أَخْرُج فَأَشْهَدُ الصَّلاة مَعَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَطُوفُ فى

---

(١) تجد عليَّ فيه: تغضب.

(٢) إني لأرجو عقبى الله: يعقبنى خيرًا ويثيبنى عليه.

(٣) يؤنبوننى: يلوموننى أشد اللوم.

(٤) استكانا: خضعا.

(٥) أشب القوم وأجلدهم: أى أصغرهم سنًا وأقواهم.

الأَسْـوَاقِ وَلا يُكَلِّمُنِـى أَحـدٌ، وآتِـى رسـول الله ﷺ فأُسَـلِّمُ عَلَيْـهِ، وَهُـو فى مجْلِسِهِ بعدَ الصَّلاةِ، فَأَقُولُ فى نفسِى: هَل حَرَّكَ شفتَيهِ بردِّ السَّلامِ أَم لاَ؟ ثُـمَّ أُصلِّى قريبًا مِنهُ وأُسَارِقُهُ النَّظَرَ، فَإِذَا أَقبلتُ على صلاتِى نَظر إِلَىَّ، وإِذَا الْتَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّى.

حَتى إِذا طَال ذلكَ عَلَىَّ مِن جَفْوَةِ الْمُسْلمينَ مشَيْت حَتَّى تَسوَّرْت[١] جدارَ حَائط أبى قَتَادَةَ وَهُوَ ابْن عَمِّى وأَحبُّ النَّاسِ إِلَىَّ، فسلَّمْتُ عَلَيْهِ فَوالله مَا رَدَّ عَلَىَّ السَّلامَ، فَقُلْت لَه: يا أَبَا قتادَة أَنْشُدكَ بالله[٢] هَلْ تَعْلَمُنى أُحبُّ الله وَرَسُولَه ﷺ ؟ قال: فَسكَتَ، فَعُدت فَنَاشَدتُه فسكَتَ، فَعُدْت فَنَاشَدْته فَقَالَ: الله ورَسُولُهُ أَعْلَمُ. فَفَاضَتْ عيْنَاىَ، وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرتُ الْجدَارَ.

فَبَيْنَا أَنَا أَمْشى فى سُوقِ المدينةِ إِذَا نَبَطىٌّ منْ نبطِ أَهْلِ الشَّام[٣] مِمَّنْ قَدِمَ بالطَّعَامِ يبيعُهُ بالمدينةِ يَقُولُ: مَنْ يَدُلُّ عَلَى كعْبِ بْنِ مَالكٍ؟ قال: فَطَفقَ النَّاسُ يشيرون له إِلَىَّ حَتَّى جَاءَنى فَدَفعَ إِلَىَّ كتَابًا منْ مَلِكِ غَسَّانَ، وكُنْتُ كَاتِبًا. فَقَرَأْتُهُ فَإِذَا فيهِ: أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ قَدْ بلَغَنا أَن صاحِبَكَ قدْ جَفاكَ، ولَمْ يجْعلْك الله بدَارِ هَوَانٍ وَلا مَضْيعَةٍ[٤]، فَالْحق بنا نُوَاسِك، قال: فَقلْت حِين قرأْتُها: وَهَذِهِ أَيْضًا من الْبَلاءِ فَتيامَمْتُ[٥] بِهَا التَّنُّور فَسَجرْتُها[٦] بِهَا.

---

(١) حتى تسورت: علوت وصعدت السور وهو أعلاه.

(٢) أنشدك بالله: أسألك بالله.

(٣) نبطى من أهل الشام: فلاحو العجم.

(٤) مضيعة: يعنى أنك لست بأرض يضيع فيها حقك.

(٥) فتيامت: تيممت: قصدت.

(٦) فسجرتها: أحرقتها.

حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُون مِن الْخَمْسِينَ وَاسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ(١) إِذَا رسولِ رسول الله ﷺ يَأْتِينِي، فَقَالَ: إِنَّ رسول الله ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرأتك، فقُلْتُ: أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذا أفعَلُ؟ قَالَ: لا بَلْ اعتَزِلْهَا فلا تقربَنَّهَا.

قَالَ: وَأَرْسَلَ إِلى صَاحِبيَّ بِمِثْلِ ذلِكَ. قال: فَقُلْتُ لامْرَأتِي: الْحقِي بِأَهْلِكِ فَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِي هذَا الأَمر.

قَالَ: فَجَاءَت امْرَأَةُ هِلالِ بْنِ أُمَيَّةَ رسول الله ﷺ فقالتْ لَهُ: يا رسول الله إِنَّ هِلالَ بْنَ أُميَّةَ شَيْخٌ ضَائعٌ لَيْسَ لَهُ خادِمٌ، فهلْ تَكْرهُ أَنْ أَخْدُمهُ؟ قال: «**لا، وَلَكِنْ لا يَقْربَنَّك**». فَقَالَتْ: إِنَّهُ وَاللهِ مَا بِهِ مِنْ حَرَكةٍ إِلَى شَيءٍ، وَوَاللهِ ما زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا.

قَالَ: فَقَالَ لِي بعْضُ أَهْلِي: لَو اسْتأذنْت رسول الله ﷺ فِي امْرَأتك فقدْ أَذن لامْرَأَةِ هِلالِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ؟ فقُلْتُ: لا أَسْتأْذِنُ فِيهَا رسول الله ﷺ، ومَا يُدْرِيني مَاذا يَقُولُ رسولُ الله ﷺ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ فلَبِثْتُ بِذلك عشْر ليالٍ، فَكَمُلَ لَنا خمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حين نُهِيَ عَنْ كَلامنا.

قَالَ: ثُمَّ صَلَّيْتُ صَلاَةَ الْفَجْرِ صباحَ خمْسينَ لَيْلَةً عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا، فَبينَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحال التي ذكَر اللهُ تعالَى مِنَّا - قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي وَضَاقَتْ عَلَيَّ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ - سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أوفى عَلَى سَلْعٍ(٢) يَقُولُ بأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا كَعْبُ بْنَ مَالِكٍ أَبْشِرْ، قال: فخَرَرْتُ سَاجِدًا، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ.

---

(١) واستلبث الوحى: أبطأ.

(٢) أوفى على سلع: صعده وارتفع عليه - وسلع: جبل بالمدينة معروف.

قَالَ: فَآذَنَ[١] رسول الله ﷺ النَّاس بتوْبَةِ الله ﷻ عَلَيْنَا حِين صَلَّى صَلاة الْفجْرِ فذهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُوننا، فذهَبَ قِبَلَ صَاحِبَىَّ مُبَشِّرُونَ، وركض رَجُلٌ إلَىَّ فرَسًا وَسَعَى ساع مِنْ أَسْلَمَ قِبَلِى وَأَوْفَى عَلَى الْجَبلِ، وكَان الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الْفَرَسِ، فلمَّا جَاءَنِى الَّذى سمِعْتُ صوْتَهُ يُبَشِّرُنِى نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَىَّ فكَسَوْتُهُمَا إِيَّاهُ ببشارَته والله ما أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يومَئِذٍ، وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبسْتُهُمَا وانْطَلَقْتُ أَتَأَمَّمُ[٢] رسول الله ﷺ يَتَلَقَّانِى النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا[٣] يُهَنِّئُوننى بِالتَّوْبَةِ وَيَقُولُون لِى: لِتَهْنِكَ تَوْبَةُ الله عَلَيْكَ.

حتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا رسول الله ﷺ جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ، فَقَامَ طلْحَةُ بْنُ عُبَيْد الله رضي الله عنه يُهَرْوِل حَتَّى صَافَحَنِى وهَنَّأَنِى، والله مَا قَامَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهاجِرِينَ غَيْرُهُ.

قَالَ: فَكَان كَعْبٌ لا يَنْساهَا لِطَلحَة.

قَالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رسول الله ﷺ، قال وَهوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُور: «**أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُذْ ولَدَتْكَ أُمُّكَ**» فقُلْتُ: أمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُول اللهِ أَم مِنْ عِنْد الله؟ قَالَ: «**لا بَلْ مِنْ عِنْد الله ﷻ**» وكَانَ رسول الله ﷺ إِذَا سُرَّ اسْتَنارَ وَجْهُهُ حتَّى كَأَنَّ وجْهَهُ قِطْعَةُ قَمر، قال: وكُنَّا نعْرِفُ ذلِكَ.

قَالَ: فلمَّا جلَسْتُ بيْنَ يدَيْهِ قُلتُ: يَا رسول اللهِ إنَّ مِنْ تَوْبَتِى أَنْ أَنْخَلِعَ[٤] مِن مَالى صدَقَةً إِلَى اللهِ وإِلَى رَسُولِهِ. فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «**أَمْسِكْ عَلَيْكَ**

---

(١) فآذن الناس: أى أعلمهم.

(٢) أتأمم: أى أقصد.

(٣) فوجًا فوجًا: الفوج: الجماعة.

(٤) أنخلع من مالى: أتصدق.

بَعضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْر لَكَ» قال: فَقُلْتُ: إِنِّى أُمْسِكُ سَهْمِى الَّذى بِخَيْبَر. وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله إن الله تَعَالَى إِنَّما أَنْجَانِى بالصدق، وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتى أَن لا أُحدِّثَ إِلاَّ صِدْقًا ما بَقِيتُ، فوالله ما علِمْتُ أحدًا مِنَ المسلِمين أَبْلاهُ[1] اللهُ تَعَالَى فى صدْق الْحَديث مُنذُ ذَكَرْتُ ذَلك لرسُولِ الله ﷺ أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلاَنِى اللهُ به، وَاللهِ مَا تَعمّدْت كِذْبَةً مُنْذُ قُلْت ذَلِكَ لرَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى يَوْمِى هَذَا، وَإِنِّى لأَرْجُو أَنْ يَحْفظنى اللهُ تَعَالى فِيمَا بَقِى.

قَالَ: فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ حتى بلغ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾[2].

قَالَ كعْبٌ: واللهِ مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ إِذْ هَدانِى اللهُ لِلإِسْلام أَعْظَمَ فى نَفسِى مِنْ صِدْقى رَسُولَ اللهِ ﷺ أَن لاَّ أَكُونَ كَذَبْتُهُ، فأهلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا... إِن الله تَعَالَى قَالَ للَّذِينَ كَذَبُوا حِينَ أَنزلَ الْوَحْىَ شَرَّ مَا قَالَ لأحدٍ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْۖ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْۖ إِنَّهُمْ رِجْسٞۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْۖ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾[3].

---

(١) أبلاه الله: أنعم عليه.

(٢) سورة التوبة: الآيات: (١١٧-١١٩).

(٣) سورة التوبة: الآيتان: (٩٥-٩٦).

قال كَعْبٌ: كنَّا خُلِّفْنَا أَيُّهَا الثَّلاثَةُ عَنْ أَمْر أُولئِكَ الَّذِينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ حَلَفوا لَهُ، فبايعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وأَرْجَأَ رَسولُ الله ﷺ أَمْرَنا حَتَّى قَضَى اللهُ تَعَالَى فِيهِ بِذَلكَ، قَالَ اللَّه تعالَى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾[1]. وليْسَ الَّذى ذَكَرَ الله مِمَّا خُلِّفْنا تَخَلُّفُنا عَن الغزو، وَإِنَّمَا هُوَ تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا وإرجاؤُهُ أَمْرَنَا[2] عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ واعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ»[3].

فوائد جليلة

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ: واعلم أن فى حديث كعب هذا - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - فوائد كثيرة.

إحداها: إباحة الغنيمة لهذه الأمة لقوله: خرجوا يريدون عير قريش.

الثانية: فضيلة أهل بدر وأهل العقبة.

الثالثة: جواز الحلف من غير استحلاف فى غير الدعوى عند القاضى.

الرابعة: أنه ينبغى لأمير الجيش إذا أراد غزوة أن يُورِّى بغيرها، لئلا يسبقه الجواسيس ونحوهم، إلا إذا كانت سفرة بعيدة فيُستحب أن يعرفهم البُعد ليتأهبوا.

الخامسة: التأسُّف على ما فات من الخير، وتمنى المتأسف أنه كان فعله لقوله: «فيا ليتنى فعلت».

السادسة: رد غيبة المسلم لقول معاذ: بئس ما قلت.

السابعة: فضيلة الصدق وملازمته وإن كان فيه مشقة، فإن عاقبته خير،

---

(١) سورة التوبة: الآية: (١١٨).

(٢) إرجاؤنا أمرنا: تأخيره أمرنا.

(٣) أخرجه البخارى (٤٤١٨) المغازى، ومسلم (٢٧٦٩) التوبة.

وإن الصدق يهدى إلى البر، والبر يهدى إلى الجنة كما ثبت فى الصحيح.

الثامنة: استحباب صلاة القادم من سفر ركعتين فى مسجد محلته أول قدومه قبل كل شىء.

التاسعة: أنه يُستحب للقادم من سفر إذا كان مشهورًا يقصده الناس للسلام عليه أن يقعد لهم فى مجلس بارز هيِّن الوصول إليه.

العاشرة: الحكم بالظاهر والله يتولى السرائر، وقبول معاذير المنافقين ونحوهم ما لم يترتب على ذلك مفسدة.

الحادية عشر: استحباب هجران أهل البدع والمعاصى الظاهرة، وترك السلام عليهم، ومقاطعتهم، تحقيرًا لهم وزجرًا.

الثانية عشر: استحباب بكائه على نفسه إذا وقعت منه معصية.

الثالثة عشر: أن مسارقة النظر فى الصلاة والالتفات لا يبطلها.

الرابعة عشر: أن السلام يسمى كلامًا، وأن من حلف لا يكلم إنسانًا فسلَّم عليه أو ردَّ عليه السلام يحنث.

الخامسة عشر: وجوب إيثار طاعة الله ورسوله ﷺ على مودة الصديق والقريب وغيرهما، كما فعل أبو قتادة حين سلم عليه كعب فلم يرد عليه، حين نُهى عن كلامه.

السادسة عشر: أنه إذا حلف لا يكلم إنسانًا فتكلم ولم يقصد كلامه بل قصد غيره فسمع المحلوف عليه لم يحنث الحالف ... لقوله: الله أعلم. فإنه محمول على أنه لم يقصد كلامه كما سبق.

السابعة عشر: جواز إحراق ورقة فيها ذكر الله تعالى لمصلحة، كما فعل عثمان والصحابة رضي الله عنهم بالمصاحف التى هى غير مصحفه الذى أجمعت

الصحابة عليه، وكان ذلك صيانة فهى حاجة وموضع الدلالة من حديث كعب أنه أحرق الورقة وفيها لم يجعلك الله بدار هوان.

الثامنة عشر: إخفاء ما يخاف من إظهاره مفسدة وإتلاف.

التاسعة عشر: أن قوله لامرأته إلحقى بأهلك ليس بصريح طلاق، ولا يقع به شىء إذا لم ينوِ.

العشرون: جواز خدمة المرأة زوجها برضاها، وذلك جائز له بالإجماع، فأما إلزامها بذلك فلا[1].

الحادية والعشرون: استحباب الكنايات فى ألفاظ الاستمتاع بالنساء ونحوها.

الثانية والعشرون: الورع والاحتياط بمجانبة ما يخاف منه الوقوع فى منهيٍّ عنه؛ لأنه لم يستأذن فى خدمة امرأته له وعلل بأنه شاب أى لا يأمن مواقعتها وقد نُهى عنها.

الثالثة والعشرون: استحباب سجود الشكر عند تجدُّد نعمة ظاهرة أو اندفاع بَليَّة ظاهرة، هو مذهب الشافعى وطائفة، وقال أبو حنيفة لا يشرع.

الرابعة والعشرون: استحباب التبشير بالخير.

الخامسة والعشرون: استحباب تهنئة مَن رزقه الله خيرًا ظاهرًا أو صرف عنه شرًّا ظاهرًا.

السادسة والعشرون: استحباب إكرام المبشر بخلعة أو نحوها.

السابعة والعشرون: أنه يجوز تخصيص اليمين بالنية.

---

(١) أقول (محسود): بل خدمة الزوجة لزوجها واجبة - والسُّنَّة مستفيضة بذكر الأدلة على ذلك- وقد أوردت الأدلة على ذلك في كتاب (موسوعة الزواج الإسلامي السعيد).

ودليله من هذا الحديث قوله فى الثوبين والله ما أملك غيرهما، ثم قال بعده فى ساعة إن من توبتى أن انخلع من مالى صدقة ثم قال: فإنى أمسك سهمى الذى بخيبر.

الثامنة والعشرون: جواز العارية.

التاسعة والعشرون: جواز استعارة الثياب للبس.

الثلاثون: استحباب اجتماع الناس عند إمامهم وكبيرهم فى الأمور المهمة من بشارة ومشورة وغيرهما.

الحادية والثلاثون: استحباب القيام للوارد إكرامًا له إذا كان من أهل الفضل بأى نوع كان وقد جاءت به أحاديث جمعتها فى جزء مستقل بالترخيص فيه والجواب عما يظن به مخالفًا لذلك.

الثانية والثلاثون: استحباب المصافحة عند التلاقى وهى سنة بلا خلاف.

الثالثة والثلاثون: استحباب سرور الإمام وكبير القوم بما يَسُرّ أصحابه وأتباعه.

الرابعة والثلاثون: أنه يُستحب لمن حصلت له نعمة ظاهرة أو اندفعت عنه كربة ظاهرة أن يتصدق بشىء صالح من ماله شكرًا لله تعالى على إحسانه ... وقد ذكر أصحابنا أنه يُستحب له سجود الشكر والصدقة جميعًا وقد اجتمعتا فى هذا الحديث.

الخامسة والثلاثون: أنه يُستحب لمن خاف أنه لا يصبر على الإضاقة أن لا يتصدق بجميع ماله، بل ذلك مكروه له.

السادسة والثلاثون: أنه يُستحب لمن رأى من يريد أن يتصدق بكل ماله ويخاف عليه أن لا يصبر على الإضاقة أن ينهاه عن ذلك، ويشير عليه ببعضه.

السابعة والثلاثون: أنه يُستحب لمن تاب بسبب من الخير أن يحافظ على ذلك السبب، فهو أبلغ في تعظيم حرمات الله، كما فعل كعب في الصدق ... والله أعلم[1].

۞ وقال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيما اشتملت عليه قصة الثلاثة من الحكم والفوائد ما ملخصه:

- منها: جواز مدح الإنسان نفسه بما فيه من الخير، إذا لم يكن على سبيل الفخر والترفع.

- ومنها: أن الرجل إذا حضرت له فرصة القربة والطاعة فالحزم كل الحزم في انتهازها والمبادرة إليها، والعجز في تأخيرها والتسويف بها.

- ومنها: معاتبة الإمام والمطاع أصحابه ومن يعز عليه ويكرم عليه، فإنه عاتب الثلاثة دون سائر من تخلف عنه وقد أكثر الناس من مدح عتاب الأحبة واستلذاذه والسرور به.

- ومنها: توفيق الله لكعب وصاحبيه فيما جاءوا به من الصدق.

- وقد نهى النبي ﷺ عن كلام هؤلاء الثلاثة من بين سائر من تخلف عنه دليل على صدقهم وكذب الباقين، فأراد هجر الصادقين وتأديبهم على هذا الذنب، وأما المنافقون فجُرمهم أعظم من أن يُقَابَل بالهجر.

- وفي أمر رسول الله ﷺ لهؤلاء الثلاثة أن يعتزلوا نساءهم لما مضى لهم أربعون ليلة كالبشارة بمقدمات الفرج والفتح من وجهين:

أحدهما: كلامه لهم وإرساله إليهم بعد أن كان لا يكلمهم بنفسه ولا برسوله.

---

(١) مسلم بشرح النووي (١٧/ ١٠٠-١٠٢) بتصرف.

الثانى: من خصوصية أمرهم باعتزال النساء، وفيه تنبيه وإرشاد لهم إلى الجد والاجتهاد فى العبادة، وشد المئزر، واعتزال محل اللهو واللذة والتعوض عنه بالإقبال على العبادة وفى هذا إيذان بقرب الفرج وأنه قد بقى من العتب أمر يسير.

وفقه هذه القصة أن زمن العبادات ينبغى فيه تجنُّب النساء، كزمن الإحرام، وزمن الاعتكاف، وزمن الصيام؛ ولم يأمرهم بذلك فى بداية المدة رحمة بهم.

- وفيه دليل على أن خير أيام العبد على الإطلاق وأفضلها يوم توبته إلى الله، وقبول الله توبته، لقول النبى ﷺ: «**أبشر بخير يوم مَرَّ عليك منذ ولدتك أمك**»[(١)].

۞ وقال الحافظ رحمه الله: وفيها عِظَم أمر المعصية، وقد نبَّه الحسن البصرى على ذلك فيما أخرجه ابن أبى حاتم عنه قال: يا سبحان الله ما أكل هؤلاء الثلاثة مالاً حرامًا، ولا سفكوا دمًا حرامًا، ولا أفسدوا فى الأرض، أصابهم ما سمعتم وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فكيف بمن يواقع الفواحش والكبائر.

- وفيها أن القوى فى الدين يُؤاخَذ بأشد مما يؤاخذ الضعيف.

- وفيها ترك السلام على من أذنب وجواز هجره أكثر من ثلاث وأما النهى عن الهجر فوق الثلاث فمحمول على من لم يكن هجرانه شرعيًّا[(٢)].

---

(١) باختصار من زاد المعاد (٣/ ٥٧٣-٥٩٢).

(٢) باختصار من فتح البارى (٧/ ٧٢٩-٧٣٠) ـ نقلاً من وقفات تربوية.

موت رأس المنافقين

وبعد عودة النبي ﷺ من غزوة تبوك توفي رأس المنافقين - عبد الله بن أُبي ابن سلول -.

النبي ﷺ يعوده في مرضه

۞ عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: «دخلت مع رسول الله ﷺ على عبد الله ابن أُبي في مرضه نعوده، فقال له النبي ﷺ: «**قد كنت أنهاك من حب يهود**»، فقال عبد الله: «فقد بغضهم أسعد بن زرارة فمه»[1].

وجاء في لفظ أبي داود زيادة: «فلما مات أتاه ابنه فقال: يا رسول الله إن عبد الله بن أُبي قد مات، فأعطني قميصك أكفنه فيه، فنزع رسول الله ﷺ قميصه فأعطاه إياه»[2].

لماذا كساه النبي ﷺ بقميصه؟

۞ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «لما كان العباس بن عبد المطلب بالمدينة، طلبت الأنصار ثوبًا يكسونه، فلم يجدوا قميصًا يصلح عليه إلا قميص عبد الله ابن أُبي فكسوه إياه»[3].

وفي لفظ آخر: «لما كان يوم بدر أُتي بالعباس ولم يكن عليه ثوب، فنظر

(١) فمه: يعني أنه يريد القول أن أسعد بن زرارة قد أبغض يهود فما دفع عنه بغضهم (الموت)، وكان يريد أنه لا يضر حبهم، ولا ينفع بغضهم، ولو نفع بغضهم لما مات أسعد بن زرارة، وهذا من قلة فهمه وقصور نظره على أن الضرر والنفع هو الموت أو الخلاص منه.

(٢) رواه أبو داود (٣٠٩٤)، والحاكم (١/ ٣٤١)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه البخاري (٣٠٠٨) الجهاد.

النبى ﷺ له قميصًا، فوجدوا قميص عبد الله بن أُبى يقدر عليه، فكساه النبى ﷺ إياه، فلذلك نزع النبى ﷺ قميصه الذى ألبسه».

قال ابن عيينة: كانت له عند النبى ﷺ يد، فأحب أن يكافئه.

وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين

وعلى الرغم من العداء الذى وجده النبى ﷺ من رأس المنافقين إلا أنه لما علم بموته ذهب إلى قبره فأخرجه ونفث فيه من ريقه وألبسه قميصه.. وليس هذا الأمر بغريب ولا عجيب، فإن النبى ﷺ هو الحبيب الذى أرسله الله رحمة للعالمين.

۞ **عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال:** «أتى النبى ﷺ عبد الله بن أُبى بعدما دُفن، فأخرجه فنفث فيه من ريقه، وألبسه قميصه»[(١)].

ولا تُصلِّ على أحدٍ منهم مات أبدًا

۞ **عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال:** «لما توفى عبد الله بن أُبى ابن سلول، جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه، فأعطاه، ثم سأله أن يصلى عليه، فقام رسول الله ﷺ ليصلى عليه.

فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ. فقال: يا رسول الله! تصلى عليه وقد نهاك الله أن تصلى عليه؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إنما خيرنى الله فقال:** ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾[(٢)]، **وسأزيده على سبعين**» قال (عمر): إنه منافق،... فصلى عليه رسول الله ﷺ،

---

(١) أخرجه البخارى (١٢٧٠) الجنائز ـ ومسلم (٢٧٧٣) صفات المنافقين.

(٢) سورة التوبة: الآية: (٨٠).

فأنزل الله ﷻ: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾(١)(٢).

أثر هذه الغزوة

لقد كان لهذه الغزوة أثر عظيم فى سكان شبه الجزيرة لا يقل روعة وجلالاً عن أثر فتح مكة ولئن كان فتح مكة قد نبَّه العرب إلى حقيقة كانت غائبة عن عقولهم وهى إدراك الحق الذى بُعث به محمد ﷺ فقد كانت غزوة تبوك داعية لهم لأن يسرعوا بالدخول فى هذا الحق الذى دعاهم إليه.

إن خروج المسلمين بجيشٍ ضخم بلغ تعداد جنوده ثلاثين ألفًا فيهم عشرة آلاف فارس أمرٌ لم تعرفه العرب من قبل فى بلادها، أما وقد استطاع المسلمون تجميع هذا الجيش فهم ولاشك قادرون على أن يفعلوا ما عجز عنه غيرهم ... وتحريك هذا الجيش من المدينة إلى تبوك وهى مسافة هائلة تبلغ قرابة ستمائة ميل وفى وقت عسرة وجدب وفى ذلك النظام وتلك الدقة دليل على عظمة القيادة وجزمها وخبرتها العسكرية الواسعة بشؤون الحرب، وعلى حسن تدريب الجنود وعظيم طاعتهم.

ولقد كان فرار الروم وهم البادئون ـ وهم فى بلادهم، ولجوؤهم إلى التحصن داخل البلاد حتى لا يدركهم المسلمون أعظم دليل على قوة المسلمين التى لا يستطيع أحد الوقوف أمامها، فهؤلاء الروم هم الذين هزموا الفرس وأخرجوهم من جنوب الجزيرة واستردوا منهم الصليب المقدس وأعادوه إلى القدس فى احتفالٍ رائع... هؤلاء هم الذين فروا وانسحبوا من الميدان عندما واجهوا المسلمين، أفلا يكون ذلك دليلاً على قوة المسلمين وقدرتهم على مواجهة أى عدو يهددهم.

---

(١) سورة التوبة: الآية: (٨٤).

(٢) أخرجه البخارى (١٢٦٩) الجنائز ـ ومسلم (٢٧٧٤) صفات المنافقين.

هذه الأمور مجتمعة حركت نفوس سكان شبه الجزيرة نحو الإسلام(١).

ترسيخ حكم الإسلام

حققت غزوة تبوك، رغم خلوها من المعارك، أهدافها فى ترصين وترسيخ حكم الإسلام الذى امتد من خلالها ومن جراء ما ارتبط بها من اتفاقات ونتائج ليشمل الأطراف الشمالية من شبه جزيرة العرب وليضع المسلمين على أعتاب الفتوحات، ومهدت بذلك للفتوحات فى كلٍّ من العراق وبلاد الشام على حدٍّ سواء، ومع أن جيش أسامة بن زيد لم يُقدَّر له أن يتحرك نحو الحدود الشمالية إلا فى أيام خلافة أبى بكر رضي الله عنه فإن قيام الرسول ﷺ بالأمر بتجهيزه وتحديد وجهته قُبيل وفاته كان مؤشرًا واضحًا لوجهة نشر الدعوة وحركة الفتوحات الإسلامية.

توحيد الجزيرة العربية تحت حكم رسول الله ﷺ

تأثر موقف القبائل العربية من الرسول والدعوة الإسلامية بمؤثرات متداخلة، كان من أبرزها موقف قريش وأحلافها، ولعل بعضها كان يحسب لبنى الأصفر ـ الروم ـ حسابًا، وخاصة تلك القبائل التى سكنت فى أطراف الجزيرة الشمالية قريبًا من تخوم الروم، فلما كان فتح مكة وما تبع ذلك من إسلام قريش وكسر شوكة هوازن فى موقعة حنين، وإذلال ثقيف ومحاصرتها سقط الحاجز الأساسى الأول فبادر كل قوم بإسلامهم، ثم كانت غزوة تبوك وامتداد سلطان المسلمين إلى خطوط التماس مع الروم وعقد المحالفات مع أيلة وأذرح وغيرهما، وتسوية الأمور مع دومة

(١) تأملات فى السيرة النبوية لمحمد السيد الوكيل (٢٨٩).

الجندل بالصلح، ثم مصالحة نصارى نجران فى الأطراف الجنوبية على أن يدفعوا الجزية، فلم يعد أمام القبائل العربية إلاَّ المبادرة الشاملة إلى اعتناق الإسلام والالتحاق بركب النبوة بالسمع والطاعة، ونظرًا لكثرة وفود القبائل العربية التى قَدِمت إلى المدينة من أنحاء الجزيرة العربية بعد عودة النبى ﷺ من غزوة تبوك لتعلن إسلامها هى ومن وراءها، فقد سُمِّىَ العام التاسع للهجرة فى المصادر الإسلامية بعام الوفود[1].

الفوائد والآثار الإيمانية لغزوة تبوك

(١) قال ابن القيم رحمه الله ما ملخصه: فصل: فى الإشارة إلى بعض ما تضمنته هذه الغزوة من الفقه والفوائد.

۞ منها: تصريح الإمام للرعية، وإعلامهم بالأمر الذى يضرهم ستره وإخفاؤه، ليتأهبوا له، ويعدّوا له عدته، وجواز ستر غيره عنهم والكناية عنه للمصلحة.

۞ ومنها: أنّ الإمام إذا استنفر الجيش، لزمهم النفير، ولم يجز لأحد التخلف إلا بإذنه.

۞ ومنها: وجوب الجهاد بالمال، كما يجب بالنفس، وهذه إحدى الروايتين عن أحمد، وهى الصواب الذى لا ريب فيه.

۞ ومنها: أن العاجز بماله لا يُعذر حتى يبذل جهده، ويتحقّق عجزه، فإن الله سبحانه إنما نفى الحرج عن هؤلاء العاجزين بعد أن أتوا رسول الله ﷺ ليحملهم، فقال: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾، فرجعوا يبكون لما فاتهم من الجهاد، فهذا العاجز الذى لا حرج عليه.

---

(١) نضرة النعيم (١/ ٣٩٥-٣٩٦).

۞ ومنها: استخلاف الإمام إذا سافر رجلًا من الرعية على الضعفاء.

۞ ومنها: جواز الخرص للرّطب على رؤوس النخيل، والعمل بقول الخارص.

۞ ومنها: أنّ من مرّ بديار المغضوب عليهم والمُعذَّبين، لم ينبغِ له أن يدخلها، ولا يقيم بها، بل يسرع السير، ويتقنّع بثوبه حتى يجاوزها، ولا يدخل عليهم إلا باكيًا معتبرًا.

۞ **ومنها**: أنّه ﷺ أقام بتبوك عشرين يومًا يَقْصُر الصلاة، ولم يقل للأمّة: لا يقصر الرجل الصلاة إذا أقام أكثر من ذلك.

۞ ومنها: تركه قتل المنافقين، وقد بلغه عنهم الكفر الصريح، فاحتج به من قال: لا يقتل الزنديق إذا أظهر التوبة، لأنهم حلفوا لرسول الله ﷺ أنهم ما قالوا، وهذا إذا لم يكن إنكارًا، فهو توبة وإقلاع.

۞ ومنها: أن الإمام إذا بعث سريّةً، فغنمت غنيمة، أو أسرت أسيرًا، أو فتحت حصنًا، كان ما حصل من ذلك لها بعد تخميسه، فإن النبى ﷺ قسم ما صالح عليه أُكيدر من فتح دومة الجندل بين السريّة الذين بعثهم مع خالد، وكانوا أربعمائة وعشرين فرسًا، وكانت غنائمهم ألف بعير وثمانمائة رأس، فأصاب كلّ رجل منهم خمس فرائض، وهذا بخلاف ما إذا أخرجت السرية من الجيش فى حال الغزو، فأصابت ذلك بقوة الجيش، فإن ما أصابوا يكون غنيمة للجميع بعد الخمس والنّفل، وهذا كان هديه ﷺ.

۞ ومنها: قوله ﷺ: «**إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا، مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلاَ قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ**»[1]، فهذه المعية هى بقلوبهم وهممهم، وهذا من الجهاد

---

(١) البخاري، كتاب المغازي، رقم (٤٤٢٣).

بالقلب، وهو أحد مراتبه الأربع، وهى القلب، واللّسان، والمال، والبدن.

وفى الحديث: «جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَقُلُوبِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ»(١).

۞ ومنها: تحريق أمكنة المعصية التى يُعصَى الله ورسوله فيها وهدمها، كما حرق رسول الله ﷺ مسجد الضّرار، لما كان بناؤه ضرارًا وتفريقًا بين المؤمنين، ومأوى للمنافقين فمشاهد الشّرك التى تدعو سدنتها إلى اتخاذ من فيها أندادًا من دون الله أحقّ بالهدم وأوجب، وكذلك محالّ المعاصى والفسوق، كالحانات، وبيوت الخمّارين، وأرباب المنكرات.

۞ ومنها: أن الوقف لا يصح على غير برٍّ ولا قربة، كما لم يصحّ وقف هذا المسجد، وعلى هذا: فيُهدَم المسجد إذا بُنى على قبر، كما يُنبش الميت إذا دُفن فى المسجد(٢).

(٢) قال الدكتور مصطفى السباعى ما ملخصه:

إن فى مسارعة الموسرين من الصحابة إلى البذل والإنفاق دليلًا على ما يفعله الإيمان فى نفوس المؤمنين من مسارعة إلى فعل الخير ومقاومة لأهواء النفس وغرائزها مما تحتاج إليه كل أمة لضمان النصر على أعدائها، وخير ما يفعله المصلحون وزعماء النهضات هو غرس الدين فى نفوس الناس غرسًا كريمًا(٣).

---

(١) رواه أبو داود (٢٤٨٧) الجهاد، بلفظ: «**جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم**» والدارمى (٢/ ٢١٣)، وأحمد (٣/ ١٢٤، ١٥٣)، والنسائى (٦/ ٧)، وابن حبان (١٦١٨) موارد، والحاكم (٢/ ٨١) الجهاد، وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبى، ولم أقف على لفظ: «**قلوبكم**» فى أى رواية فى المواطن التى أشرت إليها فلعله رحمه الله ذكر الحديث بالمعنى.

(٢) باختصار من زاد المعاد (٣/ ٥٥٨-٥٧٣).

(٣) السيرة النبوية دروس وعبر (١٦١) نقلًا عن وقفات تربوية مع السيرة النبوية.

دعوة مستجابة

❁ **أخى الحبيب.. أختى الفاضلة:**

أضع بين أيديكم هذا الكتاب المتواضع سائلًا ربى ﷻ أن ينفع به المسلمين فى كل زمان ومكان، وأن يجعله فى ميزان حسنات أبى وأمى.

فما كان فى هذا الكتاب من صواب فمن الله وحده، وما كان فيه من سهوٍ أو خطأ أو نسيان فمنى ومن الشيطان.. والله ورسوله ﷺ منه براء... وأعوذ بالله أن أُذكّركم به وأنساه.

فمن استفاد فائدة من هذا الكتيب فلا يبخل على بدعوة لعل الله أن يتجاوز عنى وعنكم، وأن يجمعنا جميعًا فى جنته إخوانًا على سُررٍ متقابلين.

❁ روى مسلم أن النبى ﷺ قال: «**من دعا لأخيه بظهر الغيب قال الملك الموكَّل به: آمين ولك بمثله**»(١).

❁ جزى الله خيرًا كل من قرأ هذا الكتاب وتعلم منه شيئًا وعلَّمه لمن حوله.

❁ كما أنصح إخوانى وأخواتى بقراءة هذا الكتاب على المسلمين فى المساجد والبيوت ومجالس العلم لتعم الفائدة وتموت البدع وتحيا السنن وتعود الأمة مرة أخرى خير أمة أُخرجت للناس.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٣٢) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.

۞ سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك....

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

وكتبه الفقير إلى عفو الرحيم الغفار

محمود المصري أبو عمار

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المصادر والمراجع

(١) الإصابة في تمييز الصحابة: ابن حجر العسقلاني، ط. دار الكتب العلمية.

(٢) أسباب النزول: محمود المصري (أبو عمار) - ط. مكتبة الصفا.

(٣) أصحاب الرسول: محمود المصري (أبو عمار) - ط. مكتبة الصفا.

(٤) آثار الحرب في الفقه الإسلامي: د. وهبة الزحيلي، دراسة مقارنة، دار الفكر.

(٥) آثار تطبيق الشريعة: د. محمد عبد الله الزاحم، دار المنار.

(٦) آفات على الطريق: د. سيد محمد نوح، دار الوفاء، المنصورة، مصر.

(٧) أسد الغابة في معرفة الصحابة: علي بن أبي الكرم ابن الأثير.

(٨) الأم: محمد إدريس الشافعي، طبعة الفكر، بيروت، لبنان.

(٩) الإتقان في علوم القرآن: عبد الرحمن السيوطي، المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان.

(١٠) أعلام النبوة للماوردي: الكليات الأزهرية.

(١١) الأساس في السنة: لسعيد حوى - دار السلام، مصر.

(١٢) الإعلام بما في دين النصارى من فساد وأوهام: للقرطبي - دار التراث.

(١٣) الإدارة الإسلامية في عصر عمر بن الخطاب: د. فاروق مجدلاوي، دار مجدلاوي.

(١٤) الإصابة في تمييز الصحابة: ابن حجر العسقلاني، تحقيق علي

محمد البجاوي، دار النهضة مصر.

(١٥) الاعتصام: للإمام الشاطبي، دار الفكر، الناشر مكتبة الرياض الحديثة بالرياض.

(١٦) أضواء على الهجرة: توفيق محمد سبع، مطبعة الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية مصر.

(١٧) أعلام النبوة للماوردي: الكليات الأزهرية.

(١٨) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان: لابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية بيروت.

(١٩) الإعلام في صدر الإسلام: د. عبد اللطيف حمزة، دار الفكر.

(٢٠) إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع: للشيخ أحمد المقريزي، صححه وشرحه محمود محمد شاكر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة بالقاهرة ١٩٤١م.

(٢١) الأحاديث الواردة في فضائل المدينة: صالح الرفاعي، دار الخضيري، المدينة.

(٢٢) أساليب التشويق والتعزيز في القرآن الكريم: د. الحسين جرنو محمود جلو، مؤسسة الرسالة، دار العلوم الإنسانية.

(٢٣) أسباب النزول: أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.

(٢٤) أسباب هلاك الأمم السالفة: سعيد محمد بابا سيلا، سلسلة الحكمة البريطانية.

(٢٥) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: شعيب الأرناؤوط- مؤسسة الرسالة.

(٢٦) الأحكام السلطانية: للماوردى.

(٢٧) إمتاع الأسماع: للمقريزى.

(٢٨) إرواء الغليل: للألبانى -ط. المكتب الإسلامى.

(٢٩) إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل: محمد ناصر الدين الألباني -إشراف زهير الشاويش.

(٣٠) الأساس في السنة وفقهها - السيرة النبوية: سعيد حوى، دار السلام بمصر.

(٣١) الأساس في السنة: لسعيد حوى- دار السلام، مصر.

(٣٢) أهمية الجهاد في نشر الدعوة: د. علي العلياني، دار طيبة

(٣٣) الإيمان والحياة: يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، بيروت.

(٣٤) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي الرسول والثلاثة الخلفاء: تأليف أبي الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي، عالم الكتب.

(٣٥) الأموال: أبو عبيد القاسم بن سلام، مؤسسة ناصر الثقافية، بيروت.

(٣٦) الانحرافات العقدية والعلمية: علي بن نجيب الزهراني، دار طيبة

(٣٧) أنساب الأشراف للبلاذري: تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف - مصر.

(٣٨) البداية والنهاية: ابن كثير -ط. دار الكتب العلمية.

(٣٩) بناء المجتمع الإسلامي في عصر النبوة: محمد توفيق رمضان، دار ابن كثير، دمشق.

(٤٠) تاريخ دمشق: لابن عساكر.

(٤١) تاريخ الطبري: لابن جرير الطبري - دار المعارف.

(٤٢) تاريخ اليهود في بلاد العرب: ولفنسون، القاهرة.

(٤٣) تاريخ خليفة بن خياط: تحقيق أكرم ضياء العمري، مطبعة الآداب، النجف، العراق.

(٤٤) تأملات في سيرة الرسول ﷺ: د. محمد السيد الوكيل، دار المجتمع.

(٤٥) تاريخ الإسلام للذهبي (المغازي) : تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي.

(٤٦) التاريخ الإسلامي مواقف وعبر: د. عبد العزيز الحميدي، دار الدعوة، الإسكندرية. مصر.

(٤٧) تاريخ إسلام: للنجيب آبادى.

(٤٨) تهذيب السنن: لابن القيم.

(٤٩) تأملات في السيرة النبوية: محمد السيد الوكيل.

(٥٠) تاريخ دولة الإسلام الأولى: فايد حماد عاشور، سليمان أبو عزب، دار قطري بن الفجاءة، الدوحة، قطر.

(٥١) تاريخ صدر الإسلام: عبد الرحمن عبد الولي شجاع، دار الفكر المعاصر، صنعاء.

(٥٢) التحالف السياسي في الإسلام: منير محمد الغضبان، دار السلام.

(٥٣) التاريخ السياسي والحضاري: د. السيد عبد العزيز سالم.

(٥٤) التاريخ السياسي والعسكري لدولة المدينة في عهد الرسول ﷺ، استراتيجية الرسول السياسية والعسكرية: د. علي معطي، مؤسسة المعارف بيروت، لبنان.

(٥٥) تفسير ابن كثير: ابن كثير القرشي، دار الفكر ودار القلم، بيروت، لبنان.

(٥٦) تفسير الآلوسي، المسمى روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: للآلوسي (محمود الآلوسي البغدادي) إدارة الطباعة المصطفانية بالهند.

(٥٧) تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل: الإمام الفراء البغوي الشافعي، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

(٥٨) التحرير والتنوير (تفسير): للشيخ محمد الطاهر بن عاشور، دار الكتب الشرقية تونس.

(٥٩) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي: لمحمد بن عبد الرحمن المباركفوري، مطبعة الاعتماد، نشر محمد عبد المحسن الكتبي، تصحيح عبد الرحمن محمد عثمان. مطبعة الاعتماد.

(٦٠) تحفة الأشراف: أبو الحجاج يوسف المزي، الدار القيمة.

(٦١) تفسير السعدي المسمى تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبد الرحمن ناصر السعدي: المؤسسة السعدية بالرياض.

(٦٢) تفسير القرطبي: لأبي عبد الله القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

(٦٣) تفسير المراغي: لأحمد مصطفى المراغي، طبع دار الفكر، بيروت.

(٦٤) تنوير الحوالك شرح موطأ مالك: جلال الدين السيوطي، دار إحياء الكتب.

(٦٥) تهذيب مدارج السالكين لابن القيم: هذبه عبد المنعم صالح

العلي العزي مؤسسة الرسالة.

(٦٦) تهذيب سيرة ابن هشام: عبد السلام هارون - مكتبة السنة.

(٦٧) تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد: الألباني.

(٦٨) تهذيب الأسماء واللغات: النووى - دار الكتب العلمية.

(٦٩) التربية القيادية: منير الغضبان، دار الوفاء المنصورة.

(٧٠) تفسير ابن أبي حاتم (تفسير القرآن العظيم) : ابن أبي حاتم - تحقيق أسعد الطيب- مكتبة نزار مصطفى الباز- السعودية.

(٧١) تفسير أبي السعود، المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: لقاضي القضاة أبي السعود محمد العمادي الحنفي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، الناشر: مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.

(٧٢) تفسير المنار: محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

(٧٣) التفسير المنير: د. وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق.

(٧٤) تفسير النسفي المسمى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل: تأليف الإمام عبد الله أحمد بن محمد النسفي، الناشر دار الكتاب العربي، بيروت.

(٧٥) التبصرة: لابن الجوزى - ط. دار ابن خلدون.

(٧٦) تفسير الطبرى: - ط. دار المعرفة.

(٧٧) تفسير البيضاوي المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل: تأليف الإمام ناصر الدين أبو الخير عبد الله الشيرازي البيضاوي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

(٧٨) تفسير الرازي: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٧٩) تفسير الزمخشري المسمى بالكشاف: دار المعرفة .

(٨٠) التمكين للأمة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم: محمد السيد حمد يوسف، دار السلام، مصر.

(٨١) تنظيمات الرسول الإدارية في المدينة: صالح أحمد العلي، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد السابع عشر، بغداد.

(٨٢) جوامع السيرة: لابن حزم، المتوفى ٤٥٦هـ، تحقيق الدكتور إحسان عباس والدكتور ناصر الدين الأسد، طبع دار إحياء السنة باكستان .

(٨٣) جيل النصر المنشود: د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر.

(٨٤) الجامع لأحكام القرآن: للقرطبى - ط. دار الحديث.

(٨٥) جامع الأصول: ابن الأثير - ط. دار الفكر.

(٨٦) الجهاد والقتال في السياسة الشرعية: محمد خير هيكل، دار البيارق، عمان، بيروت.

(٨٧) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: لابن تيمية، مطابع المجد.

(٨٨) الجرح والتعديل: لابن أبى حاتم.

(٨٩) الجامع لشعب الإيمان: للبيهقى.

(٩٠) جامع العلوم والحكم: للإمام ابن رجب الحنبلي، دار الفكر.

(٩١) الجامع لأخلاق الراوي، وآداب السامع: للخطيب البغدادي، مكتبة المعارف بالرياض.

(٩٢) جامع البيان: لابن جرير الطبرى.

(٩٣) الجزاء من جنس العمل: د. سيد حسين العفانى.

(٩٤) حلية الأولياء: أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، مطبعة السعادة، مصر.

(٩٥) حوار الرسول مع اليهود: د. محسن الناظر، دار الوفاء، مصر.

(٩٦) حدائق ذات بهجة: عائض القرنى - دار ابن حزم.

(٩٧) حديث القرآن عن غزوات الرسول ﷺ، د. محمد بكر آل عابد، دار الغرب الإسلامي.

(٩٨) الحرب النفسية ضد الإسلام في عهد الرسول ﷺ في مكة: د. عبد الوهاب كحيل، عالم الكتب بيروت.

(٩٩) الحكومة الإسلامية: أبو الأعلى المودودي، ترجمة أحمد إدريس، المختار الإسلامي للطباعة والنشر، القاهرة.

(١٠٠) الخصائص الكبرى: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان.

(١٠١) خاتم النبيين ﷺ: للشيخ محمد أبي زهرة، دار الفكر بيروت.

(١٠٢) الخصائص العامة للإسلام: د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر.

(١٠٣) دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة: للحافظ أبي بكر أحمد البيهقي، تحقيق عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية.

(١٠٤) دور المرأة في خدمة الحديث: آمال قرداش، كتاب الأمة. الدوحة قطر.

(١٠٥) دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ﷺ: د. محمد قلعجي، دار النفائس.

(١٠٦) الدرر في اختصار المغازي والسير: يوسف بن عبد البر، لجنة إحياء التراث، وزارة الأوقاف - القاهرة - مصر.

(١٠٧) دراسات في عهد النبوة: د. عبد الرحمن الشجاع، دار الفكر المعاصر، صنعاء، اليمن.

(١٠٨) دراسات قرآنية: محمد قطب، دار الشروق.

(١٠٩) الدر المنثور في التفسير بالمأثور: الإمام السيوطي، الناشر محمد أمين دمج، بيروت، لبنان.

(١١٠) دراسات في السيرة النبوية: د. عماد الدين خليل، دار النفائس، بيروت.

(١١١) دولة الرسول ﷺ من التكوين إلى التمكين: د/ كامل سلامة الدقس، دار عمار، عمان. الأردن.

(١١٢) الدولة العربية الإسلامية: منصور الحرابي، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية بليبيا.

(١١٣) الدعوة الإسلامية: عبد الغفار عزيز.

(١١٤) دعوة الله بين التكوين والتمكين: د. علي جريشة، مكتبة وهبة، مصر.

(١١٥) دروس في الكتمان: محمود شيت خطاب، مكتبة النهضة، بغداد.

(١١٦) دستور للأمة من القرآن والسنة: د. عبد الناصر العطار، مؤسسة علوم القرآن، الشارقة، الإمارات، دار ابن كثير، دمشق، بيروت.

(١١٧) ديوان أبي بكر الصديق: حققه وشرحه راجي الأسمر، دار صادر بيروت.

(١١٨) ديوان حسان بن ثابت: دار الشرق العربى - بيروت- لبنان.

(١١٩) ديوان حسان بن ثابت: دار صادر- لبنان.

(١٢٠) ديوان شوقى: الأعمال الشعرية الكاملة: دار العودة، بيروت.

(١٢١) ديوان عنترة: فاروق الطباع، دار القلم، بيروت - لبنان.

(١٢٢) رياض الصالحين: للنووى - تحقيق: محمود المصرى (أبو عمار).

(١٢٣) الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام: لأبي القاسم السهيلي، تحقيق عبد الرحمن الوكيل، دار الكتب الحديثة.

(١٢٤) الرياض النضرة في مناقب العشرة: المحب الطبرى.

(١٢٥) الرحيق المختوم: المباركفورى - ط: مكتبة قرطبة.

(١٢٦) رجال الإدارة في الدولة الإسلامية: د. حسين محمد سليمان، دار الإصلاح، الدمام بالسعودية.

(١٢٧) الرحيق المختوم، لصفي الرحمن المباركفوري، مؤسسة الرسالة، لبنان.

(١٢٨) رجال حول الرسول: خالد محمد خالد. ط. دار المقطم.

(١٢٩) الرسول المُبلغ: د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق.

(١٣٠) الرسول المعلم وأساليبه في التعليم:للشيخ عبد الفتاح أبي غدة، دار مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب.

(١٣١) رحمة للعالمين: محمد سليمان المنصورفورى.
(١٣٢) روضة المحبين: ابن القيم - ط. دار الحديث.
(١٣٣) رسالة الأنبياء: عمر أحمد عمر، دار الحكمة دمشق.
(١٣٤) الرسول القائد: محمود شيت خطاب، دار مكتبة الحياة ومكتبة النهضة بغداد.
(١٣٥) الرؤى والأحلام في النصوص الشرعية: أسامة عبد القادر.
(١٣٦) الرؤيا ضوابطها وتفسيرها: هشام الحمصي، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت.
(١٣٧) زاد المسير في علم التفسير: أبو الفرج الجوزي، المكتب الإسلامي.
(١٣٨) زاد المعاد في هدي خير العباد: أبو عبد الله ابن القيم حققه: شعيب الأرناؤوط وعبد القادر.
(١٣٩) الزهد: أحمد بن حنبل، دار الريان للتراث، القاهرة، مصر.
(١٤٠) زيد بن ثابت، كاتب الوحي، وجامع القرآن: صفوان داوودي، دار القلم، دمشق.
(١٤١) سيرة الرسول ﷺ: محمود المصرى (أبو عمار)-مكتبة الصفا.
(١٤٢) السيرة النبوية، لابن كثير: للإمام أبي الفداء إسماعيل، تحقيق مصطفى عبد الواحد.
(١٤٣) السيرة النبوية: لمحمد الصوياني، مؤسسة الريان.
(١٤٤) سير أعلام النبلاء: شمس الدين الذهبي، مؤسسة الرسالة.
(١٤٥) السير والمغازي لابن إسحاق، تحقق سهيل زكار، دار الفكر.

(١٤٦) السيرة النبوية، للذهبي: تحقيق حسام الدين القدسي، مكتبة هلال بيروت.
(١٤٧) السيرة النبوية الصحيحة: د. أكرم العمري، مكتبة العلوم والحكم بالمدينة المنورة.
(١٤٨) سلسلة معارك الإسلام الفاصلة: محمد أحمد باشميل.
(١٤٩) السيرة النبوية لأبي حاتم البستي: مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت .
(١٥٠) السيرة النبوية: لأبي محمد بن عبد الملك بن هشام، دار الفكر.
(١٥١) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة: د/ محمد أبو شهبة، دار القلم، دمشق.
(١٥٢) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية: د. مهدي رزق الله أحمد مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية الرياض.
(١٥٣) السيرة النبوية: أبو الحسن الندوي، دار الشروق ، جدة.
(١٥٤) السيرة النبوية، دراسة تحليلية: محمد أبو فارس، دار الفرقان، عمان.
(١٥٥) السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون: علي بن برهان الدين الحلبي، دار المعرفة.
(١٥٦) سيرة الرسول ﷺ صور مقتبسة من القرآن الكريم: تأليف الأستاذ محمد عزة دروزة، عني بها الأستاذ عبد الله إبراهيم الأنصاري، المؤتمر العالمي للسيرة النبوية الدوحة ، قطر.
(١٥٧) السفارات النبوية: د. محمد العقيلي، دار إحياء العلوم، بيروت.

(١٥٨) سفراء النبى ﷺ: محمود شيت خطاب، مؤسسة الريان، دار الأندلس الخضراء.
(١٥٩) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد: محمد بن يوسف الصالحي، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، لجنة إحياء التراث الإسلامي. مصر.
(١٦٠) السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة: د. بريك أبو مايلة، دار ابن الجوزي.
(١٦١) السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة: صالح أحمد الشامي، المكتب الإسلامي.
(١٦٢) السيرة النبوية دروس وعبر: د. مصطفى السباعي، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان.
(١٦٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة: الألبانى - المكتب الإسلامى.
(١٦٤) سنن الدارمى- دار الكتب العلمية.
(١٦٥) سنن النسائى - شرح السيوطى وحاشية السندى - المكتبة العلمية.
(١٦٦) سنن ابن ماجه - بترقيم محمد فؤاد عبد الباقى - المكتبة العلمية.
(١٦٧) سنن الترمذي: الإمام أبو عيسى الترمذي، دار الفكر.
(١٦٨) سنن النسائي: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، مطبعة مصطفى الحلبي القاهرة.
(١٦٩) الشفاء في التعريف بحقوق المصطفى: الإمام القاضي عياض، استانبول، عثمانية.

(١٧٠) شرح المواهب اللدنية للقسطلاني: لمحمد بن عبد الباقي الزرقاني، دار المعرفة، بيروت.

(١٧١) شرح النووي على صحيح مسلم: للإمام النووي المتوفى ٦٧٦هـ - طبع المطبعة المصرية ومكتبتها — القاهرة.

(١٧٢) شرح السنة: لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد، دار الكتب العلمية، القاهرة.

(١٧٣) شرح الشفا: نور الدين مُلا علي قاري- تحقيق حسنين مخلوف، مطبعة المدني — القاهرة.

(١٧٤) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(١٧٥) شرح ديوان حسان بن ثابت، ضبطه وصححه عبد الرحمن البرقوقي —دار الأندلس بيروت.

(١٧٦) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي: تحقيق وتعليق وتخريج أحاديث وتقديم د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي وشعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة بيروت.

(١٧٧) شرح المعلقات للحسين الزوزني: تحقيق يوسف علي بدوي، دار ابن كثير، دمشق،.

(١٧٨) صور من حياة الرسول: أمين دويدار، دار المعارف، القاهرة.

(١٧٩) صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة: تأليف: د. محمد فوزي فيض الله، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت.

(١٨٠) الصراع مع الصليبيين: محمد عبد القادر أبو فارس، دار البشير، طنطا.

(١٨١) الصراع مع اليهود: محمد أبو فارس، دار الفرقان.
(١٨٢) صفة الصفوة لابن الجوزي: تحقيق: محمود فاخوري، ومحمد قلعجي، دار المعرفة، بيروت.
(١٨٣) صحيح السيرة النبوية للطرهوني: مكتبة ابن تيمية، القاهرة.
(١٨٤) صحيح السيرة النبوية: إبراهيم العلي، دار النفائس.
(١٨٥) صحيح سنن ابن ماجة: ناصر الدين الألباني، مكتب التربية العربية لدول الخليج، الرياض.
(١٨٦) صلاح الدين الأيوبي: عبد الله علوان.
(١٨٧) صلح الحديبية: محمد أحمد باشميل، دار الفكر.
(١٨٨) صبح الأعشي في صناعة الإنشا: أحمد بن علي القلقشندي، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت.
(١٨٩) الصحابي الشاعر عبد الله بن الزبعرى: تأليف محمد علي كابتي، دار القلم، دمشق.
(١٩٠) صفة الغرباء: سلمان العودة، دار ابن الجوزي.
(١٩١) صفوة التفاسير للصابوني: دار القرآن الكريم، بيروت.
(١٩٢) صحابيات حول الرسول ﷺ: محمود المصري (أبو عمار) - مكتبة الصفا.
(١٩٣) صور من حياة الأنبياء والصحابة والتابعين. محمود المصرى (أبو عمار) - دار التقوى.
(١٩٤) صحيح البخاري: محمد إسماعيل البخاري، دار الفكر.
(١٩٥) صحيح مسلم: تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

(١٩٦) صحيح الجامع الصغير وزيادته: محمد ناصر الدين الألباني المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان.

(١٩٧) صحيح سنن ابن ماجه: الألبانى - ط. مكتبة التربية.

(١٩٨) صحيح سنن الترمذى: الألبانى - ط. مكتبة التربية.

(١٩٩) صحيح سنن أبى داود: الألبانى - ط. مكتبة التربية.

(٢٠٠) صحيح سنن النسائى: الألبانى - ط. مكتبة التربية.

(٢٠١) صحيح الجامع الصغير وزيادته - الألبانى - المكتب الإسلامى.

(٢٠٢) صلاح الأمة فى علو الهمة: د. سيد حسين العفانى - مؤسسة الرسالة.

(٢٠٣) الطبقات الكبرى: ابن سعد - دار الكتب العلمية.

(٢٠٤) طريق النبوة والرسالة: د. حسين مؤنس، دار الرشاد.

(٢٠٥) الطريق إلى المدائن: أحمد عادل كمال، دار النفائس، بيروت، لبنان.

(٢٠٦) الطريق إلى المدينة: محمد العبده، دار الجوهرة، عمان.

(٢٠٧) الطريق إلى جماعة المسلمين: حسين بن محسن بن علي جابر، دار الوفاء بالمنصورة في مصر.

(٢٠٨) الطاعة والمعصية وأثرهما في المجتمع: محمد بن العثيمين، غزوة أحد.

(٢٠٩) طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين: أبو عبد الله محمد بن سلام بن عبد الله الجمحي بدون معلومات نشر.

(٢١٠) العبقرية العسكرية في غزوات الرسول: محمد فرج، دار الفكر العربي، القاهرة.
(٢١١) عقيدة أهل السنة في الصحابة: د. ناصر حسن الشيخ، مكتبة الرشد.
(٢١٢) عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير: ابن سيد الناس، دار المعرفة، بيروت.
(٢١٣) العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية: د. سعيد عبد الله حارب المهيري، مؤسسة الرسالة.
(٢١٤) العهد والميثاق في القرآن الكريم: د. ناصر العمر، دار العاصمة.
(٢١٥) العبادة في الإسلام: يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، بيروت.
(٢١٦) عبد الله بن مسعود: عبد الستار الشيخ، دار القلم، دمشق.
(٢١٧) العقد الفريد: لابن عبد ربه.
(٢١٨) عارضة الأحوذى شرح جامع الترمذى: لابن العربى.
(٢١٩) عون المعبود شرح سنن أبى داود - دار الفكر.
(٢٢٠) غزوات الرسول ﷺ: د. على الصلابى - دار زاد.
(٢٢١) غزوة بدر الكبرى الحاسمة: محمود خطاب.
(٢٢٢) غزوة بدر الكبرى: د/ محمد أبو فارس، دار الفرقان.
(٢٢٣) غزوة بدر الكبرى: محمد أحمد باشميل، طبعة دار الفكر.
(٢٢٤) غزوة الأحزاب: محمد عبد القادر أبو فارس، دار الفرقان، عمان، الأردن.

(٢٢٥) غزوة أحد دراسة دعوية: محمد عيظة بن سعيد بن مذجح، دار إشبيليا.

(٢٢٦) غزوة الأحزاب: د. محمد عبد القادر أبو فارس، دار الفرقان، عمان – الأردن.

(٢٢٧) غزوة الأحزاب: محمد أحمد باشميل، دار الفكر.

(٢٢٨) غزوة تبوك: محمد أحمد باشميل، دار الفكر، بيروت.

(٢٢٩) الغرباء الأولون: سلمان العودة، دار ابن الجوزي، الدمام السعودية.

(٢٣٠) فتح الباري: ابن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

(٢٣١) فقه السيرة النبوية: منير الغضبان، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث مكة المكرمة.

(٢٣٢) فقه السيرة للغزالي: دار القلم، دمشق، سوريا.

(٢٣٣) فلسفة التربية الإسلامية: ماجد عرسان الكيلاني، مكتبة هادي، مكة المكرمة.

(٢٣٤) في ظلال السيرة النبوية: الهجرة النبوية، الدكتور محمد عبد القادر أبو فارس، دار الفرقان، عمان، الأردن.

(٢٣٥) في ظلال القرآن: سيد قطب، دار الشروق.

(٢٣٦) فقه الدعوة إلى الله: د/ على عبد الحليم محمود، دار الوفاء.

(٢٣٧) فقه الدعوة الفردية: د. سيد محمد نوح، دار اقرأ، صنعاء.

(٢٣٨) الفوائد لابن القيم: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، دار الريان للتراث، القاهرة مصر.

(٢٣٩) في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية: الدكتور إبراهيم علي محمد أحمد، وزارة الأوقاف بدولة قطر.

(٢٤٠) الفصل في الملل والنحل: لابن حزم، مكتبة السلام العالمية.

(٢٤١) فصول في السيرة النبوية: عبد المنعم السيد.

(٢٤٢) فقه الإسلام: شرح بلوغ المرام، لفضيلة الشيخ عبد القادر شيبة الحمد، مطابع الرشيد، المدينة المنورة.

(٢٤٣) فقه الابتلاء محمد أبو صعيليك: دار البيارق، عمان - بيروت.

(٢٤٤) فقه التمكين في القرآن الكريم: د/ علي محمد الصلابي، دار البيارق، عمان.

(٢٤٥) قيادة الرسول السياسية والعسكرية: أحمد راتب عرموش، دار النفائس.

(٢٤٦) القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ: دار القلم.

(٢٤٧) قواعد الأحكام في مصالح الأنام: عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي (٦٦٠هـ) المكتبة الحسينية المصرية، بجوار الأزهر.

(٢٤٨) القول المبين في سيرة سيد المرسلين: د. محمد الطيب النجار، دار اللواء، الرياض.

(٢٤٩) الكشاف للزمخشري - ط. المكتبة التوفيقية.

(٢٥٠) الكامل في التاريخ: لابن الأثير، دار صادر، بيروت.

(٢٥١) مرويات غزوة بدر: أحمد باوزير، مكتبة طيبة.

(٢٥٢) مرويات غزوة أحد: حسين أحمد الباكري، رسالة ماجستير نوقشت في الجامعة الإسلامية، إشراف، د. أكرم العمري.

(٢٥٣) مرويات غزوة بني المصطلق: إبراهيم القريبي، طبع المجلس العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة.
(٢٥٤) مرويات غزوة الحديبية: د. حافظ الحكمي، دار ابن القيم.
(٢٥٥) الموافقات في أصول الشريعة: لأبي إسحاق إبراهيم موسى اللخمي الشهير بالشاطبي، دار الفكر.
(٢٥٦) الموسوعة في سماحة الإسلام: محمد الصادق عرجون، الدار السعودية للنشر والتوزيع جدة .
(٢٥٧) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: لأبي الفرج بن الجوزي، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان.
(٢٥٨) منهاج السنة النبوية: لابن تيمية مؤسسة قرطبة للطباعة والنشر والتوزيع.
(٢٥٩) مقومات الداعية الناجح: د. علي بادحدح، دار الأندلس الخضراء، جدة.
(٢٦٠) مقومات السفراء في الإسلام: حسن فتح الباب، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة.
(٢٦١) معارك خالد بن الوليد: د. ياسين سويد، المؤسسة العربية للدارسة والنشر.
(٢٦٢) معالم قرآنية في الصراع مع اليهود: د. مصطفى مسلم محمد، دار المسلم، الرياض.
(٢٦٣) المعاهدات في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي: د. محمد الديك، ، دار الفرقان للنشر والتوزيع.
(٢٦٤) المدرسة النبوية العسكرية لأبي فارس: دار الفرقان، عمان.

(٢٦٥) المدينة النبوية فجر الإسلام والعصر الراشدي: محمد حسين شراب، دار القلم، دمشق.

(٢٦٦) محاسن التأويل (تفسير) : محمد جمال الدين القاسمي، دار الفكر، بيروت.

(٢٦٧) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: لابن عطية، أبي محمد ابن عبد الحق بن غالب الأندلسي، تحقيق المجلس العلمي بفاس، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب.

(٢٦٨) منهج الرسول في غرس الروح الجهادية في نفوس الصحابة: السيد محمد نوح، نشرته جامعة الإمارات العربية المتحدة.

(٢٦٩) الموازنة بين ذوق السماع وذوق الصلاة والقرآن: للإمام ابن القيم الجوزية، تحقيق: مجدي فتحي السيد.

(٢٧٠) المقاصد العامة للشريعة الإسلامية: يوسف حامد العالم، الدار العلمية للكتاب الإسلامي، الرياض.

(٢٧١) مقدمة ابن الصلاح وشرحها: للحافظ العراقي، طبع دار الكتب العلمية بيروت، لبنان.

(٢٧٢) مقدمة ابن خلدون: للعلامة عبد الرحمن بن خلدون، ط، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة.

(٢٧٣) المفصل في أحكام النساء: د/ عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة.

(٢٧٤) مقاصد الشريعة الإسلامية: د. محمد سعد اليوبي، دار الهجرة، الرياض.

(٢٧٥) المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة: عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة.

(٢٧٦) المسلمون والروم في عصر النبوة: عبد الرحمن أحمد سالم، دار الفكر العربي.

(٢٧٧) المدخل إلى العقيدة والإستراتيجية العسكرية: محمد جمال الدين علي محفوظ، مطابع الهيئة المصرية للكتاب بالقاهرة.

(٢٧٨) المنهج التربوي للسيرة النبوية- التربية الجهادية: منير الغضبان، مكتبة المنار.

(٢٧٩) منهج التربية الإسلامية: محمد قطب، دار الشروق.

(٢٨٠) المنهج الحركي للسيرة النبوية: منير الغضبان، مكتبة المنار، الأردن.

(٢٨١) من هدي سورة الأنفال: محمد أمين المصري، طبع مكتبة دار الأرقم، الكويت.

(٢٨٢) المنافقون: محمد جميل غازي، مكتبة المدني ومطبعتها، جدة، السعودية.

(٢٨٣) منامات الرسول ﷺ: عبد القادر الشيخ إبراهيم، دار القلم العربي، بحلب.

(٢٨٤) محمد رسول الله ﷺ - محمود المصري (أبو عمار) - دار ابن الجوزى.

(٢٨٥) المغازي النبوية: تحقيق سهيل زكار، للزهري، دار الفكر، دمشق.

(٢٨٦) مغازي رسول الله ﷺ ، عروة بن الزبير: تحقيق: د. محمد الأعظمي، نشر: مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض.

(٢٨٧) المغازي للواقدي: محمد عمر بن واقد المتوفي ٢٠٧هـ، تحقيق د. مارسدن جونس، عالم الكتب، بيروت.

(٢٨٨) مختصر سيرة الرسول ﷺ : لمحمد بن عبد الوهاب، جامعة الإمام محمد بن سعود.

(٢٨٩) المستشفيات الإسلامية: د. عبد الله عبد الرزاق، مسعود العيد، دار الضياء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن.

(٢٩٠) المستطرف في كل فن مستظرف: شهاب الدين الأبشيهي، مكتبة الحياة، بيروت.

(٢٩١) منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية: سليم حجازي، دار المنارة.

(٢٩٢) منهج الإسلام في تزكية النفس: د. أنس أحمد كرزون، دار نور المكتبات، دار ابن حزم.

(٢٩٣) المعوقون للدعوة الإسلامية في عهد النبوة وموقف الإسلام منها: د. سميرة محمد جمجوم، دار المجتمع جدة.

(٢٩٤) المرأة في العهد النبوي: د. عصمة الدين كركر، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

(٢٩٥) ملامح الشورى في الدعوة الإسلامية: عدنان النحوي.

(٢٩٦) من معين السيرة: صالح أحمد الشامي، المكتب الإسلامي.

(٢٩٧) مختصر تسلية أهل المصائب: محمد المنبجى - اختصار وتحقيق: محمود المصرى (أبو عمار) - دار التقوى.

(٢٩٨) مواقف من حياة الأنبياء والصحابة والتابعين: محمود المصرى (أبو عمار) - دار التقوى.

(٢٩٩) نور اليقين: محمد الخضري، دار القلم، دمشق، سوريا.
(٣٠٠) نيل الأوطار: شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار، محمد بن علي الشوكاني، دار الحديث، القاهرة.
(٣٠١) نظرات في السيرة للإمام حسن البنا: سجلها وأعدها للنشر أحمد عيسى عاشور، مكتبة الاعتصام، القاهرة.
(٣٠٢) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم: إعداد مجموعة من المختصين بإشراف صالح بن حميد، دار الوسيلة.
(٣٠٣) النظام السياسي في الإسلام: د/ محمد عبد القادر أبو فارس، دار الفرقان.
(٣٠٤) نظرات في رسالة التعاليم: محمد عبد الله الخطيب، محمد عبد الحليم حامد، دار التوزيع والنشر الإسلامية، مصر.
(٣٠٥) هذا الحبيب محمد ﷺ يا محب: لأبي بكر الجزائري، مكتبة لينة.
(٣٠٦) هذا الدين: سيد قطب، دار الشروق، القاهرة.
(٣٠٧) الهجرة الأولى في الإسلام: د. سليمان العودة، دار طيبة للنشر، الرياض.
(٣٠٨) هجرة الرسول وصحابته في القرآن والسنة: أحمد عبد الغني النجولي الجمل، دار الوفاء.
(٣٠٩) الهجرة النبوية المباركة: د. عبد الرحمن البر، دار الكلمة، المنصورة، مصر.
(٣١٠) الهجرة النبوية: د. محمد أبو فارس.

(٣١١)الهجرة في القرآن الكريم: أحزمي سامعون جزولي، مكتبة الرشد الرياض.
(٣١٢)واقعنا المعاصر: لمحمد قطب، مؤسسة المدينة للصحافة والطباعة والنشر، جدة.
(٣١٣)ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون: محمود المصرى (أبو عمار). ط. دار الفردوس.
(٣١٤)وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى: أبو الحسن بن عبد الله السمهوري، دار المصطفى، القاهرة.
(٣١٥)الوفود في العهد المكي وأثره الإعلامي: لعلي رضوان أحمد الأسطل، دار المنار، الأردن.
(٣١٦)وقفات تربوية مع السيرة النبوية: أحمد فريد، دار طيبة، الرياض.
(٣١٧)وقفات تربوية من السيرة النبوية: عبد الحميد البلالي، المنار، الكويت.
(٣١٨)الولاء والبراء في الإسلام: محمد سعيد القحطان، دار طيبة الرياض.
(٣١٩)ولاية الشرطة في الإسلام: نمر محمد الحميداني، دار عالم الكتب.
(٣٢٠)يقظة أولي الاعتبار مما ورد في ذكر الجنة والنار: لصديق حسن.

(٣٢١) اليهود في السنة المطهرة: د. عبد الله الشقاري، دار طيبة، الرياض.
(٣٢٢) اليوم الآخر في الجنة والنار: د. عمر الأشقر، مكتبة الفلاح، الكويت.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

فهرس الموضوعات

غزوة بنى قريظة

۞ مشاركة جبريل عليه السلام فى محاربتهم ٦
۞ لا يُصلين أحدٌ العصر إلا فى بنى قريظة ٦
۞ يا إخوان القردة.. هل أخزاكم الله؟ ٨
۞ فى الطريق إليهم ٩
۞ النبى ﷺ يُحاصرهم... وكعب بن أسد يُشاورهم ٩
۞ دعوه حتى يتوب الله عليه ١٠
۞ لقد حكمت فيهم بحكم الله ١٢
۞ أدب صدّيق الأنصار (سعد بن معاذ) مع النبى ﷺ ١٥
۞ عرش الرحمن يهتز لموت سعد بن معاذ ١٦
۞ الملائكة تحمل جنازة سعد ١٧
۞ سعد بن معاذ وضمة القبر ١٨
۞ مناديل سعد بن معاذ فى الجنة ١٩
۞ تنفيذ حكم الإعدام فى يهود بنى قريظة ٢٠
۞ عدد بنى قريظة الذين قتلهم النبى ﷺ ٢١
۞ إسلام بعض يهود بنى قريظة ٢١
۞ كيف نزل اليهود من حصونهم ٢٢
۞ تنفيذ الحكم ٢٢
۞ وفى مقتل حيى بن أخطب دروس وعبر ٢٣
۞ قصة المرأة العجيبة التى قُتلت من بنى قريظة ٢٥

۞ مقتل كعب بن أسد القرظي ٢٥
۞ شفاعة ثابت بن قيس فى الزبير بن باطا ٢٦
۞ شفاعة سلمى بنت قيس فى رفاعة بن سموءال القرظي ٢٧
۞ قسم فىء بنى قريظة ٢٨
۞ ريحانة الحبيب ﷺ ٢٩
۞ وهكذا انتهى الوجود اليهودى فى المدينة ٣٠
۞ **غزوة بنى لحيان** ٣١
۞ **سرية نجد وقصة إسلام ثمامة بن أثال** ٣٣
۞ ثبات على المبدأ ٣٥
۞ **قصة العُرنيين** ٣٦

صلح الحديبية (الفتح المبين)

۞ تاريخها وأسبابها ٤١
۞ عدد المسلمين الذين كانوا مع النبى ﷺ ٤٤
۞ تخلُّف المنافقين عن الخروج ٤٥
۞ النبى ﷺ يُحرم من ذى الحُليفة ٤٦
۞ النبى ﷺ يرسل عيناً من خزاعة ليأتيه بخبر قريش ٤٦
۞ النبى ﷺ يأخذ بمشورة عمر ٤٧
۞ النبى ﷺ يصل إلى عسفان ٤٨
۞ محاولة قريش صد المسلمين عن البيت ٤٩
۞ النبى ﷺ يغير الطريق وينزل بالحديبية ٤٩
۞ الفرصة تفوت على خالد بن الوليد ٥٠
۞ حبسها حابس الفيل ٥١

۞ معجزات النبى ﷺ فى قصة الحديبية ٥٤
۞ السفارة بين الرسول وقريش ٥٥
۞ بُديل بن ورقاء يتوسط بين النبى ﷺ وقريش ٥٥
۞ سفارة مكرز بن حفص ٥٧
۞ إرسال سيد الأحابيش للتفاوض مع النبى ﷺ ٥٧
۞ عروة بن مسعود يفاوض النبى ﷺ ٦٠
۞ صورة مشرقة للولاء والبراء ٦١
۞ شيء يفوق خيال المشركين ٦٣
۞ سفير النبى ﷺ ٦٤
۞ النبى ﷺ يرسل عثمان بن عفان سفيرًا إلى قريش ٦٥
۞ وهو الذى كفَّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ٦٦
۞ قريش تحتبس عثمان عندها ٦٩
۞ إشاعة مقتل عثمان... وبيعة الرضوان ٦٩
۞ بيعة الرضوان ٦٩
۞ أول من بايع رسول الله ﷺ ٧٠
۞ من تخلف عن البيعة ٧٠
۞ سلمة بن الأكوع يبايع رسول الله ﷺ ثلاث مرات ٧٠
۞ النبى ﷺ يبايع عن عثمان رضي الله عنه ٧١
۞ على أى شىء بايع الصحابة رسول الله ﷺ يوم الحديبية ٧٣
۞ نزول المطر على المسلمين يوم الحديبية ٧٤
۞ مفاوضة سُهيل بن عمرو لرسول الله ﷺ ٧٤
۞ أبو جندل.. وثباته على الحق ٧٩
۞ اعتراض عمر بن الخطاب على بنود الصلح ٨١

۞ أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا صاحبة الرأى السديد ٨٣
۞ كان صلح الحديبية فتحًا عظيمًا ٨٥
۞ وجاءت المؤمنات مهاجرات ٨٨
۞ النبى ﷺ يبايع النساء ٨٨
۞ قصة أبى بصير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ٨٩
۞ إسلام أبى العاص بن الربيع ٩٢
۞ ماذا يتمخض عن بنود المعاهدة ٩٤
۞ منزلة أهل الحديبية ٩٦
۞ بعض الفوائد الفقهية المستفادة من قصة الحديبية ٩٧
۞ بعض الحِكم التى تضمنتها هذه الهدنة ١٠٠

غزوة ذى قَرد (غزوة الغابة)

۞ وقتها: ١٠٥
۞ أحداث الغزوة ١٠٥
۞ سباق بين سلمة بن الأكوع ورجل من الأنصار ١١١
۞ قصة المرأة التى أُسرت مع ناقة رسول الله ﷺ ١١١

غزوة خيبر

۞ سبب الغزوة ١١٥
۞ متى كانت تلك الغزوة ١١٧
۞ وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها ١١٨
۞ النبى ﷺ يستعمل على المدينة (سباع بن عُرفطة) ١١٩
۞ رأس المنافقين يُخبر اليهود بمقدم النبى ﷺ ١١٩

۞ خطة مباركة ١٢٠
۞ حداء (عامر بن الأكوع) بجيش المسلمين ١٢١
۞ إنكم تدعون سميعًا قريبًا ١٢٢
۞ طعام المسلمين فى طريقهم إلى خيبر ١٢٣
۞ الجيش الإسلامى يتحرك إلى أسوار خيبر ١٢٣
۞ الاستخبارات العسكرية تأتى بأخبار خيبر ١٢٤
۞ وأمرهم شورى بينهم ١٢٥
۞ بدء الحصار ١٢٦
۞ صاحب الراية الذى يفتح الله على يديه حصون خيبر ١٢٧
۞ (علىّ) يقتل (مرحب اليهودى) ١٢٩
۞ فتح حصن الصعب بن معاذ ١٣١
۞ فتح قلعة الزبير ١٣٢
۞ فتح قلعة أُبىّ ١٣٣
۞ فتح حصن النزار ١٣٣
۞ فتح الشطر الثانى من خيبر ١٣٤
۞ النبى ﷺ يعالج سلمة بن الأكوع ١٣٤
۞ إن تَصْدُق الله يَصْدُقك ١٣٥
۞ دخل الجنة ولم يسجد لله سجدة ١٣٦
۞ أما إنه من أهل النار ١٣٦
۞ قصة عبد الله بن مغفل (وجراب الشحم) ١٣٧
۞ إن صاحبكم غَلَّ فى سبيل الله ١٣٨
۞ وبذلك تم فتح خيبر ١٣٨
۞ النبى ﷺ يتزوج صفية بنت حُيى بن أخطب ١٤١

۞ مهرها ١٤٣
۞ بالمؤمنين رءوفٌ رحيم ١٤٣
۞ فى بيت النبوة ١٤٤
۞ يهودية تضع للنبى ﷺ شاةً مسمومة ١٤٥
۞ هل قتل النبى ﷺ المرأة التى وضعت السم ١٤٦
۞ شدة تأثُّر النبى ﷺ بالسم ١٤٧
۞ غنائم خيبر ١٤٧
۞ قسمة الغنائم ١٥٠
۞ كيفية القسمة ١٥١
۞ سهم ذوى القربى ١٥٢
۞ إعطاء العبيد من الغنائم وعدم الإسهام لهم ١٥٢
۞ إعطاء النبى عليه السلام للنساء من الغنائم والإسهام لهن من الثمار ١٥٣
۞ قصة أبى هريرة مع أبان بن سعيد بن العاص فى قسمة الغنائم...... ١٥٣
۞ رد المهاجرين المنائح التى أعطاهم إياها الأنصار ١٥٤
۞ تأمير أحد الأنصار على خيبر ١٥٥
۞ قدوم جعفر بن أبى طالب والأشعريين ١٥٥
۞ قصة الحجاج بن علاط مع أهل مكة ١٥٦
۞ مشاركة المرأة فى غزوة خيبر ١٥٩
۞ الأحكام الفقهية المستفادة من غزوة خيبر ١٥٩
۞ فتح فدك ١٦٥
۞ مسير النبى ﷺ إلى وادى القرى ١٦٥
۞ استسلام يهود تيماء ١٦٦
۞ وأقم الصلاة لذكرى ١٦٦

۞ **السرايا التى كانت بعد خيبر** ١٦٩
۞سرية أبى بكر الصديق إلى بنى فزارة ١٦٩
۞سرية غالب بن عبد الله الليثى إلى الحرقات ١٧٠
۞سرية غالب بن عبد الله الليثى لبنى الملوح بالكديد ١٧٢
۞بعث سرية إلى (إضم).. وقصة محلّم بن جثامة ١٧٤
۞سرية عبد الله بن حذافة السهمى رضي الله عنه ١٧٤

غزوة ذات الرقاع

۞متى كانت تلك الغزوة ١٧٩
۞خواطر حول هذه لغزوة ١٨٠
۞ما سبب هذه الغزوة؟ ١٨١
۞ولماذا سُميت بذات الرقاع؟ ١٨٢
۞كيف صلى النبى ﷺ وأصحابه صلاة الخوف؟ ١٨٢
۞محاولة اغتيال النبى ﷺ ١٨٤
۞موقف يعجز القلم عن وصفه ١٨٦
۞قصة جمل جابر بن عبد الله رضي الله عنه ١٨٨
۞أثر هذه الغزوة ١٨٩

سرية مؤتة

۞أسباب سرية مؤتة ١٩٣
۞تعيين القادة على جيش مؤتة ١٩٥
۞أهل المدينة يودعون الجيش ١٩٦
۞تخلُّف عبد الله بن رواحة لحضور صلاة الجمعة ١٩٧

۞ هكذا يصنع الإيمان ١٩٩
۞ الجيش الإسلامى يتحرك نحو العدو ٢٠٠
۞ بداية القتال... وتناوب القواد ٢٠٠
۞ ذكاء وفطنة من خالد رضي الله عنه ٢٠٤
۞ النبى ﷺ ينعى القادة الثلاثة للناس ٢٠٤
۞ معجزة للنبى ﷺ ووسام على صدر (خالد) ٢٠٥
۞ أثر المعركة ٢٠٦
۞ فضيلة الأمراء الثلاثة ٢٠٧
۞ منزلة زيد بن حارثة رضي الله عنه ٢٠٨
۞ جعفر يطير بجناحيه فى الجنة ٢٠٨
۞ حزن النبى ﷺ على جعفر (رضي الله عنه) ٢٠٩
۞ الدروس والعبر والفوائد ٢١٠
۞ **سرية ذات السلاسل** ٢٢٠
۞ أحداثها ٢٢١
۞ إن الله كان بكم رحيمًا ٢٢١

غزوة فتح مكة

۞ سبب الغزوة ٢٢٥
۞ أبو سفيان يعرض إطالة المدة على رسول الله ﷺ ٢٢٨
۞ درس فى الولاء والبراء من أم حبيبة بنت أبى سفيان ٢٢٨
۞ ندمٌ وأسفٌ ٢٣٠
۞ وقت الغزوة ٢٣٠
۞ الأسباب التى ساعدت النبى ﷺ على العزم على فتح مكة ٢٣١

۞ الاستعداد لفتح مكة ٢٣٢
۞ **ما الأسباب التي استطاع النبي ﷺ من خلالها أن يباغت أهل مكة؟** ٢٣٣
(١) أنه كتم أمره حتى عن أقرب الناس إليه: ٢٣٣
(٢) أنه بعث سرية بقيادة أبي قتادة إلى بطن إضم: ٢٣٤
(٣) أنه بعث العيون لمنع وصول المعلومات إلى الأعداء: ٢٣٥
(٤) دعاؤه ﷺ بأخذ العيون والأخبار عن قريش: ٢٣٥
(٥) إحباط محاولة تجسس حاطب لصالح قريش: ٢٣٦
۞ رسالة حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة ٢٣٦
۞ الخروج إلى فتح مكة ٢٣٨
۞ قصة إسلام أبي سفيان بن الحارث وعبد الله بن أبي أُمية ٢٣٩
۞ زعماء قريش يتحسسوا الأخبار ٢٤١
۞ قصة إسلام أبي سفيان ٢٤٢
۞ النبي يُطلع أبا سفيان على قوة المسلمين ٢٤٤
۞ هذا يومٌ يُعظم الله فيه الكعبة ٢٤٨
۞ خطة النبي ﷺ لدخول مكة وفتحها ٢٤٨
۞ ماذا كان يلبس النبي ﷺ أثناء دخوله مكة ٢٥٤
۞ تواضع النبي ﷺ يوم الفتح ٢٥٤
۞ النبي ﷺ يقرأ سورة الفتح ٢٥٥
۞ راية النبي ﷺ يوم الفتح ٢٥٦
۞ النبي ﷺ يطهر المسجد الحرام من الأصنام ٢٥٦
۞ النبي ﷺ يصلى داخل الكعبة ٢٥٨
۞ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ٢٥٩
۞ لا تثريب عليكم اليوم ٢٦٠

- اليوم يوم بِرّ ووفاء ٢٦١
- بلالٌ يؤذن فوق الكعبة ٢٦٢
- قد أجرنا مَن أجرتِ يا أم هانئ ٢٦٢
- النبى ﷺ يُهدر دم بعض المشركين ٢٦٣
- خُطب النبى ﷺ يوم الفتح ٢٦٦
- المحيا محياكم والممات مماتكم ٢٦٨
- أخذ البيعة ٢٦٩
- إسلام والد أبى بكر الصديق رضي الله عنه ٢٧١
- إسلام عكرمة بن أبى جهل رضي الله عنه ٢٧٢
- إسلام سُهيل بن عمرو رضي الله عنه ٢٧٥
- إسلام صفوان بن أمية رضي الله عنه ٢٧٦
- إسلام فضالة بن عمير رضي الله عنه ٢٧٩
- إسلام عبد الله بن الزبعرى (شاعر قريش) رضي الله عنه ٢٧٩
- **النبى ﷺ يرسل سراياه لهدم الأصنام** ٢٨١
- سرية خالد بن الوليد إلى (العُزَّى) ٢٨١
- سرية عمرو بن العاص إلى (سُواع) ٢٨٢
- سريعة سعد بن زيد الأشهلى إلى (مَناة) ٢٨٣
- سرية خالد بن الوليد إلى بنى جذيمة ٢٨٥
- قصة المرأة المخزومية ٢٨٦
- المدة التى أقامها النبى ﷺ فى مكة عام الفتح ٢٨٧
- هل فُتحت مكة عُنوة أم صُلحًا ٢٨٨
- من أبرز نتائج فتح مكة ٢٨٩
- إشارة إلى ما فى الغزوة من الفقه واللطائف ٢٩٠

غزوة حُنين

۞ وقت هذه الغزوة ٢٩٥
۞ سبب الغزوة........................ ٢٩٦
۞ وأنزل جنودًا لم تروها ٢٩٨
۞ النبى ﷺ يُرسل إليهم (عبد الله بن أبى حدرد) ٢٩٩
۞ النبى ﷺ يستعير الدروع من صفوان بن أمية........................ ٣٠٠
۞ ماذا فعل مالك بن عوف زعيم هوازن وثقيف؟........................ ٣٠٠
۞ الجيش الإسلامى يتحرك........................ ٣٠٢
۞ جاهلية مرفوضة ٣٠٣
۞ قصة سلمة بن الأكوع مع الجاسوس........................ ٣٠٤
۞ النبى ﷺ يُبشرهم بغنائم حُنين ٣٠٥
۞ مفاجأة لم تخطر على البال ٣٠٧
۞ الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ........................ ٣١٠
۞ أين أصحاب السمرة........................ ٣١٢
۞ اللهم أنزل نصرك........................ ٣١٥
۞ شاهت الوجوه ٣١٥
۞ الله يُلقى الرعب فى قلوب المشركين ٣١٧
۞ مَن قتل كافرًا فله سلبه ٣١٨
۞ شجاعة أم سُليم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ٣١٩
۞ ما فعله رسول الله ﷺ بأخته الشيماء ٣٢٠
۞ حركة المطاردة........................ ٣٢١
۞ خسائر المسلمين ٣٢٢

۞الغنائم ٣٢٣
۞ **أسباب الهزيمة وعوامل النصر فى حنين** ٣٢٤
(أولاً) أسباب الهزيمة: ٣٢٤
(ثانيًا): عوامل النصر: ٣٢٥
۞بعض ما تضمنته الغزوة من الفوائد الجليلة ٣٢٦

غزوة الطائف

۞الأحداث التى كانت فى الطائف ٣٣٢
۞بعض الأساليب التى استخدمها النبى ﷺ فى القتال ٣٣٣
۞من بلغ بسهمٍ فله درجة فى الجنة ٣٣٦
۞النبى ﷺ يُعتق كل من نزل من الحصن ٣٣٧
۞النبى ﷺ يدعو لهم بالهداية ٣٣٨
۞تقسيم الغنائم ٣٣٨
۞الغنائم وسيلة لتأليف القلوب ٣٤٠
۞فمن يعدل إن لم يعدل الله ورسوله ﷺ؟ ٣٤٥
۞الأعرابى الذى رفض بشرى رسول الله ﷺ ٣٤٦
۞قدوم وفد هوازن ٣٤٧
۞كان إسلام (هوازن) نصرًا ٣٤٩
۞عمرة النبى ﷺ من الجعرانة ٣٥١
۞درسٌ لا يُنسى ٣٥٢
۞إسلام (عدى بن حاتم الطائى) ٣٥٣
۞إسلام كعب بن زهير (الشاعر) والهيمنة الإعلامية على الجزيرة: . ٣٥٤
۞الفوائد والآثار الإيمانية ٣٥٧

۞ من نتائج غزوة حنين والطائف ٣٥٨

غزوة تبوك (غزوة العسرة)

۞ الأسماء التى اشتُهرت بها تلك الغزوة ٣٦٣
۞ كانت غزوة تبوك استجابة إيمانية لفريضة الجهاد ٣٦٥
۞ الأخبار العامة عن استعداد الرومان ٣٦٦
۞ النبى ﷺ يأمرهم بالتهيؤ لغزو الروم ٣٦٨
۞ تجهيز جيش العُسرة ٣٦٩
۞ الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين ٣٧١
۞ لقد كُتبت فى الزكاة المتقبلة ٣٧١
۞ البكّاءون ٣٧٣
۞ قصة أصحاب أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه ٣٧٤
۞ أعذار المنافقين وموقفهم من غزوة تبوك ٣٧٦
۞ تعبئة الجيش الإسلامى والخروج إلى تبوك ٣٨٠
۞ الجيش الإسلامى يتحرك إلى تبوك ٣٨٢
۞ متى خرج النبى ﷺ من المدينة ٣٨٣
۞ ألا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى؟ ٣٨٣
۞ اختيار الأمراء والقادة ٣٨٤
۞ فى الطريق إلى تبوك ٣٨٤
۞ كُن أبا خيثمة ٣٨٥
۞ وفى هذه القصة دروس وعبر منها: ٣٨٦
(١) المسلم صاحب ضمير حي: ٣٨٦
(٢) معرفة الرسول بأصحابه وبمعادنهم: ٣٨٧

(٣) حزم أبى خيثمة وصبره ونفاذ عزيمته: ٣٨٧
(٤) عتاب القائد للجندى له أثره: ٣٨٧
۞ رحم الله أبا ذر ٣٨٨
۞ الوصول إلى تبوك ٣٩٠
۞ النبى ﷺ يرسل خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة ٣٩١
۞ يا ليتنى كنت صاحب الحفرة ٣٩٣
۞ لقد أُعطيت الليلة خمسًا ما أُعطيهن أحدٌ قبلى ٣٩٥
۞ **بعض المعجزات التى حدثت فى غزوة تبوك** ٣٩٥
۞ النبى ﷺ يدعو.. والسماء تمطر بإذن الله ٣٩٦
۞ منافق ينكر معجزة الرسول ﷺ ٣٩٦
۞ تكثير الطعام ٣٩٧
۞ النبى ﷺ يُخبرهم بهبوب ريح شديدة ٣٩٨
۞ النبى ﷺ يُخبرهم عن مكان ناقته التى ضاعت ٣٩٨
۞ الماء ينهمر من عين تبوك ٣٩٩
۞ النبى ﷺ يرسل إلى قيصر الروم ٤٠٠
۞ مدة إقامة النبى ﷺ بتبوك ٤٠٢
۞ عاقبة الاستهزاء بدين الله ﷻ وبرسوله ﷺ ٤٠٢
۞ محاولة اغتيال النبى ﷺ ٤٠٤
۞ النبى ﷺ يُخبر حذيفة بأسماء المنافقين ٤٠٥
۞ مرورهم على ديار ثمود ٤٠٦
۞ لا تسألوا الآيات ٤٠٨
۞ هدم مسجد الضرار ٤٠٨
۞ العودة إلى المدينة المنورة ٤١٠

۞ **أصناف المنافقين** ٤١١
أولاً: الـمُخلَّفون الذين لهم أعذار شرعية وعذرهم الله سبحانه وتعالى: . ٤١١
ثانيًا: المخلفون الذين ليس لهم أعذار شرعية وتاب الله عليهم: ٤١٣
ثالثًا: المخلفون من منافقى الأعراب الذين يسكنون حول المدينة:... ٤١٥
رابعًا: المخلفون من منافقى المدينة: ٤١٦
۞ **قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا** ٤١٧
۞ فوائد جليلة........................ ٤٢٥
۞ موت رأس المنافقين ٤٣١
۞ النبى ﷺ يعوده فى مرضه ٤٣١
۞ لماذا كساه النبى ﷺ بقميصه؟ ٤٣١
۞ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ٤٣٢
۞ ولا تُصلِّ على أحدٍ منهم مات أبدًا ٤٣٢
۞ أثر هذه الغزوة........................ ٤٣٣
۞ ترسيخ حكم الإسلام........................ ٤٣٤
۞ توحيد الجزيرة العربية تحت حكم رسول الله ﷺ ٤٣٤
۞ الفوائد والآثار الإيمانية لغزوة تبوك........................ ٤٣٥
۞ دعوة مستجابة........................ ٤٣٨
۞ المصادر والمراجع ٤٤٠
۞ فهرس الموضوعات........................ ٤٦٦

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

من إصداراتنا